كنز المعارف

في أســـــرار اللطائف

دار الرسالة

داغستان - محاج قلعة

ترجمة المؤلف

بسم الله خير الأسمآء ولله الحمد والثنآء والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله المجتبى

أما بعد ؛ ليس من اليسير أن يكتب المرء عن سير العظماء لكثرة مناقبهم واستفاضة فضائلهم ، لا سيما من كان في مستوى سيدنا الحسيني سيف الله قدي النقشبندي الشاذلي القادري الشافعي المجددي المحمودي الأويسي قدس الله روحه ونوّر ضريحه . فإن العبارات تتقاصر عن وصف مناقبه وشمائله المباركة الشريفة .

لقد كان الشيخ سيف الله عليه سحائب الرحمات من العلماء العاملين والفقهاء الوَرِعين ومن العارفين الذاكرين المعنيين بتربية الرجال وتزكية النفوس حتى غدا فى رأس قائمة رجال التصوف الإسلامي وأئمته فى ديار داغستان وما حولها . كما كان رضي الله عنه من كبار علماء المسلمين والصوفية الكُمَّل في القرن الثالث عشر الهجري وله شهرة عالية بلغت الآفاق ؛ فقد كان قاضيا ومفتيا ومحدثا ومفسرا وبفضله انتشرت الطريقة الشاذلية وسائر الإجازات العلمية العالية فى بلاد داغستان وغيرها .

ولقد أدرك قدس سرهُ أواخر خلافة الإمام شمويل رحمه الله وعاش فترة يسيرة من عمره المبارك بعد استيلاء الشيوعيين على مقاليد الحكم الذين خربوا المساجد والمدارس . وحرقوا الكتب والمصاحف . وقتلوا خيار الناس من المشائخ الكرام والعلماء العظام . ونهبوا من الناس أموالهم وتركوهم بلا شيء . . كما أسسوا لفكرة « اللاّدينيَّة » حتى يفرغوا القلوب من العقيدة الصحيحة ودسّوا فى قلوب الجهال من الكبار والصغار « نظرية دروين في التطور » بعد أن كانت ديار داغستان موطن العلم والعلماء وراية العدل والأمان .

مولده

ولـد الشيخ قدس سره فى سنة « ١٨٥٣م » « ١٢٦٧هـ » فى قرية « نِزَوْكْرَا » التابعة لمنطقة « لاٰكْ » فى بيئة علمية . فقد كان أبوه حسين وإخوته الخمسة من العلماء الكبار المهرة . ومع ذلك كان حسين صائغًا و اخو ابيه عبد الله صار طبيبًا حاذقا وذهب إلى إمام شمويل رحمه الله مع عائلته وكان إلى آخر عمره معه . وباقي إخوته عِسَلَوْ وعَلِيحَجِ وعُبَيْدْ كانوا كلهم صوّاغًا وصناع سلاح . وأمه بَخْتِنْ كانت امرأة صالحة تعرف مع لغتها القومية اللغة الأوارية وتفهم الغة العربية وكانت قابلة من قوابل قرية « نِزَوْكْرَا » .

نشأته

نشأ قُدِّسَ سره منذ صغره نشأة دينية محبًا للعلم والعلماء ، حتى أطلق عليه اسم « قاضي » وهكذا بقِيَ مرتبطًا باسمه « قدي » « بإبدال الضَّاد دالاً » .

وفى سنة ألف وثمانمائة وَواحد وستون « ١٨٦١مـ » ذهب مع أبيه إلى « أَشْتَرْخَانْ » ودخل إلى المدرسة الإسلامية للتَّتَارْ ، وتخرَّج منها بعد ثلاث سنوات ؛ ثم درس في المدرسة الروسية خمس سنوات وتخرج منها .

وفي سنة ألف وثمانمائة تسع وستون « ١٨٦٩مـ » رجع إلى وطنه . ثم تتلمذَ على يد العالم المشهور في داغستان حسن الكدالي ، وتعلَّم عنده علوم اللغة والفلسفة وعلم الحساب وعلم الأدب . وفي هذا الوقت كان يعرف عشر لغات : العربية ، والأوارية ، واللَّاكيَّة ، والفارسية ، والتركية ، والروسية ، والغموقية ، والتتارية ، والكزاخية ، والبشكيرية .

ولاحت له بعد ذلك فرصة لتعلم العلوم العملية . فكان منذ صغره يميل إلى علم الطب . وكانت أمه معينة له في ذلك ؛ إذ كانت تعرف صنعة الدواء من الأعشاب . كما تعلم الطبَّ أيضا حينما كان مدرّسًا في مدرسة « كُدَالِي »

فدرس كتاب « القانون في علم الطب » لابن سينا ، ودرس علم الجغرافيا . فكان قدس سره حريصًا على تعلم العلوم العقلية والنَّقلية .

وفى سنة ألف وثمانمائة وسبع وسبعين « ١٨٧٧م » قامت ثورة أهالي داغستان ضد الرُّوس . وكان قدس سره غير راضٍ عنها . ولكن اتُّهم باطلًا بالمشاركة فيها ، فتمَّ نَفْيُه إلى « كُبِرْنِيَا سَرَاتُوفْ » وفيها تَعَرَّفَ على الأطباء الألمان الذين كانوا يعملون في المشفى هناك فتعلم لغتهم . كما استفاد منهم في علم الطب زيادة على ما كان عليه ؛ حتى نال منهم وثيقة تشهد بأنه طبيبٌ حاذقٌ .

وبعد الرُّجوع من المنفى ذهب للعمل في « وْلَدِكَوْكَازْ » وذلك بطلب منهم ؛ فاشتغل هناك أربع سنوات . وفى سنة ألف وثمانمائة وأربع وتسعين « ١٨٩٤م » سافر إلى « أَشْتَرْخَانْ » مرة ثانية للعمل فيها طبيبًا . وفي سنة ألف وتسعمائة وثلاث « ١٩٠٣م » أعطت له اللجنة الحكومية شهادة في الطب يمكن العمل بها في أيّ بقعة من بقاع روسيا .

وفى سنة ألف وتسعمائة وأربع « ١٩٠٤م » أَسَّسَ في داغستان مجتمع الوحدة للمسلمين . وكان مندوبًا في مجلس الدُّوما النكالاوية . وفي السَّنة نفسها سافر إلى جامعة الأزهر في القاهرة . وفى سنة ألف وتسعمائة وثلاث عشر « ١٩١٣م » عُيِّنَ رئيسًا للجنة ضد سياسة الروس في تبديل الكتابة منَ العربية إلى الروسية ؛ ولذلك نفوه مرة أخرى إلى « كُبِرْنِيَا قَازَانْ » . فكمث فيها عامًا واحدًا ثم سُمِحَ له بالرُّجوع إلى داغستان .

وفي سنة ألف وتسعمائة وسبعة عشر « ١٩١٧م » عُيِّنَ رئيسا للجنة الشَّرعية في وزارة الحربيَّة الدَّاغستانية .

وحَرِيٌّ بِنَا أن نشيرَ إلى أنَّ مَا ذكرناهُ من النَّاحية العِلمية والسِّياسيَّة يُعَدُّ شيئًا يسيرًا ممَّا وصلَ إلينا من سيرته قُدِّسَ سرُّه .

سيرته وسلوكه

وأما سيرته في علم التَّصوف فسننقل ما كتبه قُدِّس سرُّه بنفسه في « مكتوباته » وما كتبهُ مأذونه حسن أفندي القحي قُدِّس سرُّه في « سراج السَّعادات فى سير السَّادات » .

قال قُدِّس سرُّه : ثم إنك سألت أيُّ مشرب ربّاك الشيخ وإلى أي مشرب . . . الخ هلا تركت هذا السؤال ولو كنت تركته بالكلية لسُرِرْتُ ولكن لا بدّ الآن من الجواب . إن الشيخ المشهور العالم العلامة الحاج خَسْبُلاَتْ أفندي الكُسْتَاكِي لما لقيته وقعت بيننا محبة عظيمة جدًّا وأقامني عنده وقرأت عليه الكتاب « سلك العين » .

ثم إني أظهرت له قدس سره إرادتي فى حق أخذ العهد منه . وكان هو من خلفاء شيخنا محمود الفعال قدس سره فقال : أخبرني روحانية شيخي أن رضاعك يكون من الشيخ العارف محمد ذاكر قدس سره وأمره فى مقام عال وتكون عنده فى الربيع . فتحيرت من ذلك وقال لي ثانيًا : كنت تمنّيت أن تكون ابني بيد أن الأمر لله . فاشتقت لرؤية محمد ذاكر قدس سره فمرضت وبقيت مدة أربعة أشهر وخرجت بالوداع عنه فى الربيع قاصدًا إلى العارف محمد ذاكر الچستاوي وأخبرني الشيخ العارف السيد أبو عبيدة الحسيني بأن الشيخ أخبره بوصولي في وقت معين فوافق حضوري لديه كما قال ووصلته بفضل الله تعالى وعنايته فوجدته بحرًا لا ساحل له واليمن والبركة يفوح من جوانبه والنور يلوح من جبينه .

وكان قدس سره عارفًا بالله لا يأخذه في الله لومة لائم وما رأيته يتكلم بكلام الدنيا قط . وكان يفني أوقاته بالمراقبة . ففرح بحضوري فرحًا وكان هناك مريدون أزيد من ألف وخمس مائة وأنزلني في موضع حسن وما جلس في مجلس قط ما دمت في جواره إلاّ ودعاني لديه . وكان من هيبته ما يتحير به العقول . فبقيت مدة وأقامني على سلطان الذكر أربعين يومًا ثَمَّ بعد أن لقنني

النفي والاثبات . ثم إن قريبنا سيد أبو عبيدة الحسني قدس سره خليفته قصد الرجوع بأمره إلى الوطن وأمرني بالقيام لديه . فكتب إليه السيد عبيدة كتابا بأن والدة سيف الله في قلق فاستطلعني منه ولم يكن لي من ذلك خبر . فكتب إلي : لك الرخصة . ثم ذهبت لديه وقلت إني أرجع ثانيا لديك . فتبسم قدس سره وقال إذًا لا ترانى . فبعد المفارقة منه ندمت ندامة الكسعي«١» حين لاينفع . ثم ذهب سيد عبيدة راجعا ومات الشيخ فإن رسالته تتوالى لدي كل وقت وقد وصى بأن أكون على مالقنه برهة حتى يقيّض لي من يقبلني والوصية على ما قال سيد عبيدة .

فبقيت كالحبة الملقاة بموت الشيخ لا أدري ما أفعل . وسعيت لدى من سمعته شيخا فلم يطب قلبي من أحد بعد أن رأيت ذلك العارف وبقيت كذلك . ثم وصلت الإشارة من روحانيته بذهابي لدي الشيخ زين الله المعموري الشريفي الكائن في ولاية سِبِيرْ جهة الشرق . فتحيرت فوصل في أثناء ذلك رسالة من سيد عبيدة بكونه لدى القطب العلامة زين الله الشريفي التريسكي ، والتمس مني ملاقاته وفصل فيه مناقبه وعلو درجته . فبقيت بعد ذلك أكتب إليه وهو يأمرني وينهاني . ووصل إلي رسالة بإجازة مقيدة لا أعلم ما أفعل .

ثم في ليلة أتاني روحانية العابد الكبير والولي الوفير عبد الله القوبي وقال لي : لازم عليك الذهاب إلى زين الله وهو منتظر لقدومك . ورأيت روحانية الشيخ محمد ذاكر قدس سره ونظر إلى جميع اللطائف وامتحن أمورا فأجازني بالإجازة المطلقة وسماني أويسيا . فحين ذلك تهيج أوصالي للذهاب إلى زين الله فخرجت متوكلا بالله في السنة الماضية .

فلما وصلت إلى أطراف سِبِيرْ لقي لي واحد وتكلم بالعربية والموضع ليس هنالك أحد من المسلمين وقال : إن هنا رجلا وأيّ رجل فإن لقيته تفرح . فذهبت لديه وهو على المشنة«٢» ووجدته رجلا لا يريد المكالمة . فذهبت

«١» هو رجل يضرب به المثل في الندامة لقصة حدثت معه وندم فيها بالغ الندم .
«٢» المشنة : وعاء من أعواد الشجر يضع فيه الريفون الخبز و غيره .

إليه مرتين وساء قليلا ظني قائلا : ما أثقله . وفي المرة الثالثة قال لي : كأنك تريد مجلس الشيخ زين الله . فقلت : اللهم نعم بالله ، فانشرح من قوله صدري ورافقته فوجدته عالما متورعا ومرشدا كاملا أمينا بارعا من خلفاء زين الله ، وهو أيضا يذهب للزيارة لديه . فوقع البسط بيننا ورافقنا إلى أن وصلنا إلى بلدة التريسكى ونزلنا في مسافر خانه . وذهب المذكور صديقي لدى الشيخ ورجع مباسطا : البشارة يا ولدي . ولم أعلم مراده وما سألته .

ثم في الصبيحة لاقيت الشيخ زين الله بن حبيب الله خليفة أحمد ضيآء الدين الكمشخناوي ، فوجدته قالب زمانه وعلامة عصره ، خارجا عن حد الوصف والمزاحمة عليه من كثرة الناس مما لم يسمع قط . فأدناني وقرّبني وجعل لي من بين الخلفاء مجلسا خاصا . ثم أقامني بعد انتهاء المراقبات في الأربعينيات . ثم بعد أيام جمع من الأطراف خلفائه وكان المزاحمة بكيف لا يمكن التوسل لدى الشيخ . فجعل قرى عظيما وصرف نقدا كثيرا في مجلس الضيافة وتصدق بصدقة عظيمة للناس وأمر الناس بالدعاء لي وللمسلمين كافة . وألبسني خرقة بيضآء تبركا التي توارثها من ساداته . وأجازني في بعض الأمور . وسلم ليدي أسانيد العلوم بعد الامتحان ، وسنده أعلى سند الآن في الدنيا في الحديث . ثم أقامني مدة ويتخلى معي بالتوجه والتلقين . ورأيت خلفآء من العلماء الكمل فوالله ما رأيت فيهم أحدا ولو أدناهم برأيى مما يليق أن أجلس معهم لعلو مقاماتهم . وكنت أحسب نفسي كالكلب عندهم . ومع ذلك كانوا لا يتجاسرون للجلوس إليّ حين كنت مع الشيخ ولم يكن بيني وبين الشيخ أحد ولم يكن الكلام والمصلحة إلا معي . وأظن أن ذلك لبعد مكاني وكوني غريبا .

تذييل : وقبل أن أصل إلى الشيخ كان يتردد في قلبي الشيخ محمد مراد المنزلوي ثم المكي مصنف « المكتوبات » وتعريبها ومعرب « الرشحات » وأمثالها فائق الزمان . فأخبرني الشيخ في مجلس أن محمد مراد يصل عن قريب . فلم أفهم من قوله مرادا ، ولم أتفطن ولم أقدر أن أرجع بالسؤال من

محمد مراد . ثم في يوم بشرني الشيخ بوصول محمد مراد وقال : إن محمد مراد كما كان اسمه مرادا وجسمه أيضا مرادا . ووقعت المصاحبة معه والمحبة . وكان حضر لزيارة الشيخ زين الله وحضر أيضا لزيارة حفيد سيد علي المحدث المدني . وإن المذكور مراد أفندي كان جبلا في العلم . فتشرفت بالطريقة القادرية قدس الله أسرار أهاليها . وكان المذكور ممن أخذ الطريقة الصديقية من عدة مواضع كسيد حسين جمل الليل وعبد الحميد الشرواني ومحمد مظهر وشيخ صالح الزواوي رضي الله عنه وكذا في باقي الطرق . وكان عند شيخنا في موضع القبول تماما .

ثم إن شيخنا زين الله متع الله بطول بقائه المسلمين جمع جميع خلفائه والعلمآء الأئمة والمشائخ ، وفعل لهم ضيافة عظيمة يحتمل أن يكون المجتمعون أزيد من خمسمائة . فسلمني صكّ الخلافة في الطريقة المجددية مختوما بخاتمه ووعظهم بكيف يهيج الأوصال ووقعت بينهم بكاء ووجد وقال : هذا مير سيف الله خليفتي وحامل أمانتي وهو ولدي ويده يدي وقبوله قبولي ، والله وليٌّ عليه في الدنيا والآخرة وأرجو منكم أن تحفظوا حرمتي فيه ورعاية أدبي به . ثم دعا لي والناس كلهم مؤمّنون . ثم أمر بالدعآء لي الشيخ محمد مراد وكذا أمر بعدة من الصلحاء . فقاموا كلهم وصاروا يقبّلون يدي ، فكان نفسي كأنها تذوب من شدة الحياء منه ومنهم لكوني بمنزلة الكلب في أبوابهم . ثم ألبسني الخرقة المذكورة وأجلسني عنده وأمرني بالقيام على الإرشاد . فاستعفيته غير مرة فقال : هذا أمري بالله لله فافعل ما أنت له . فبعد قيل وقال رجعت من عند الشيخ والقلب في حرقة من المفارقة . فبعد وصولي هنا كتبت رسالة بالاستعفاء عن توغلي في التربية نظرا لحال المريدين والمرادين . ومع ذلك وصل الأمر في هذه الأيام . وكان يريد أن أذهب إلى جهة بخارا وما وراء النهر لتربية المريدين لكثرة مريديه في تلك الناحية . وإني أيها الأخ في شغل عظيم وفي حيرة . وأرى صون نفسي في مقر بيتي والعلم عند الله ، والقصور عليّ لازم كل

وقت وعلي ضعف ووهن في القوة هذا حالي . وبينت لك قصتي وما نطقت بحرف من هذا مع أحد . ولولا الثقة لما أخبرتك وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وإن شيخنا المذكور أورع خلفاء أحمد ضياء الدين الكمشخناوي ، وهو أخذ الطريقة من القطب الفرد صاحب المقامات والأحوال الخارقة السيد أحمد بن سليمان الطرابلسي الحسني ، وهو من القطب الشيخ خالد الشهرزوريرضي الله عنه . وإن الشيخ زين المذكور أخذ أيضا الإجازة عن عدة من مشائخ الكرام ، ولعلك تفوز بمناقبه وفي مناقبه تأليفات والله أعلم خير الأمور ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وقد أجاز رضي الله عنه المرشدَ الكامل حسن حلمي أفندي قدس سره بجميع ما أجازه أشياخه قبل فراقه من الدنيا . وألبسه بيده خرقته التي ألبسها عليه شيخه زين الله ﷺ وأوصى بتسليم خرقته التي ألبسها عليه شيخه في الشاذلية . وانتقل من الدنيا والحال أنه يذكر الحقير إلى آخر نفسه كما أخبرني من كان في حضرته وقت الاحتضار . فجزاه الله عني وعن أهلي خيرا ونوّر قبره ووسع لحده ورزقنا فيضه وبركته ولا حرمنا من رشحات ميامن روحانيته . آمين .

قد قرأ العلم عن علماء أجلة ، فصار متبحرا في العلوم العقلية والنقلية . وكان طبيبا حاذقا قد شفي بسبب يده الميمونة كثير من المرضى ، وسلك أولا في الطريقة على يد الشيخ محمد ذاكر الچسطاوي خليفة محمود أفندي قدس سره . وبعد موته دار في إستنبول وحلب ودمشق يطلب شيخا يربيه فلم يصادف شيخا ينشرح به صدره . ثم ذهب لدى قطب الوقت زين الله الشريفي التْرُوسْكِي . وسلك على يده في النقشبندية وأجازه بعد كماله فيها .

ثم سلك في الشاذلية على يد الشيخ محمد صالح وأجاز له فيها . وكان مجازا في القادرية وأجاز له زين الله أيضا في علوم الأحاديث وسائر العلوم النقلية والعقلية والأحزاب والمسلسلات التي جمعها محمد علي ظاهر الوتري وغيرها .

وكان قدس سره حليما وقورا ذا فهم وإدراك . يبين من العلوم غوامضها ، ويحل من الغوامض مشكلاتها . ويجيب لكل مسألة بما يتحير العقول والفهوم عن إدراكها . فكم وكم أجاب لمسائل الحقير بأجوبة مرضية يعلم ناظرها بأن المجيب صاحب نفس راضية وأحوال ذوقية ومقامات عالية . فجزاه الله عنا خيرا آمين . هذا ما ذكره حسن حلمي في « سراج السعادات » .

وقال سيف الله قدس سره عن بعض المشائخ ما معناه : إنَّ ديار داغستان وإن كانت معدن العلم لكنَّ البركةَ معدومة ؛ لعدم الإجازة عن المجيز المجاز ؛ ولهذا أجازه زين الله الشَّريفي في جميع العلوم العقلية والنَّقلية في الفروع والأصول متصلة إلى النبي ^ وعلم الحديث بأعلى سندٍ يوجد في الدُّنيا الآن . وقد روى قُدِّس سرُّه جميع أسانيده من طرقٍ نازلة وعالية . وأجاز قدس سره الشيخَ المرشدَ الكاملَ حسن حلمي القحي قدس سره ، وهو أيضا أجاز بتلك الإجازة علماء آخرين عاملين متورعين . فحصلت به الفائدة العامة والبركة الشَّاملة للكل في انتشار العلم في داغستان والحمد لله رب العالمين .

ومن أراد الاطلاع على المزيد مما ذكرناه في الأسانيد ؛ فعليه بالرُّجوع إلى كتاب « البروج المشيَّدة بالنُّصوص المؤيدة » في آخره عند ذكر الأسانيد ففيه بيانٌ تام وشفاءٌ للعليل .

ذكر بعض كراماته قدس سره

ومن الكرامات الدَّالة على علوِّ مقام الشيخ سيف الله قدس سره ، التقاؤه بأرواح الأنبياء عليهم السَّلام في عالم الأرواح . و رؤيته في المنام رب العزة والجلال سبحانه ليس كمثله شيء في الأرض ولا في السماء وهو السَّميع العليم .

ومن ذلك ما كتبه قدس سره بنفسه : ومما منّ الله تعالى على هذا المذنب الفقير إلى إعانة مولاه القدير سيف الله بن حسين بن الحاج موسى ابن المجاهد

صاحب المزار شيخ باشلار النژبكري رؤية السادات هؤلآء أهل السعادات . مع ما عليّ من أثقال الذنوب والمعاصي التي ليست ما يساويها من كل شيء سوى رحمة الله تعالى وغفرانه . وفَّقنا الله تعالى لرؤيتهم ببصر العين كما وفقني بالبصيرة والمنام . . . الخ . رأى قدس سره رب العرش سبحانه وتعالى غير مرة .

وقال أيضا : ورأيت الملائكة المقربين . ورأيت أبانا آدم وأمنا حوآء ونجيه نوح وإبراهيم الخليل ويوسف عليهم السلام غير مرة . وموسى الكليم وعيسى الروح الأمين غير مرة عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام . ورأيت مرات كثيرة سيدنا ومولانا وشفيعنا سيد الكائنات علم الأنبيآء والمرسلين في يوم العرصات محمد صلى الله عليه وسلم بكيفيات متفرقات . ورأيت فاطمة الزهرآء مرات ، وبشرتني بولد فولدت لي زبيدة أم الفضل . ورأيت عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في عالم الأرواح . ورأيت بيت الله الحرام والمدينة المنورة والروضة الشريفة أزيد من عشرين مرة . ورأيت هنالك عبد الله بن زبير والمعاوية والحجاج . ورأيت أبا بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان ذي النورين وعلي المرتضى مرات كثيرة . والحسن والحسين وعبد الرحمن بن عوف وحمزة وعباس إبني عبد المطلب أعمام النبي عليه وعليهم الصلوات والتسليمات ملء الأرضين والسموات . ورأيت في كربلآء جثة الشهدآء من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم الذين شهدوا مع السبط رضي الله عنهم . وفي ليلة واحدة رأيت الإمام جعفر الصادق ثم موضع دفنه .

ورأيت أيضا من الأوليآء في المنام قضيب البان وشيبان الراعي . وفي ليلة حضر لدي قطب الشيوخ الأكابر الشيخ عبد القادر الجيلاني ومعه الشيخ المشهور دمدان المحي رضي الله عنهما ونفعنا من بركات أنفاسهم . ورأيت في ليلة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الأموي رضي الله عنه . ورأيت سيدنا سهل ابن عبد الله التستري رضي الله عنه . وفي الليلة الخامسة من ربيع الأخير رأيت عبد الله ابن الحاج ممّ القوبي ، وقال : رأيت روحانية شيخكم الشيخ الشهير زين الله المعموري . ورأيت رجلا وأي رجل بيد أنه قال لي : أتمنى رؤية سيف الله .

وقال لي عبد الله : يا سيف الله شيخك يطلب حضورك ويقول : ليس لي مريد لم أره إلا سيف الله . ثم انتبهت والحمد لله على كل حال . ثم سافرت لدى الشيخ وخدمته ونالني ما نلت وفزت بصحبته والحمد لله على كل حال .

ورأيت أيضا أني مع الإمام شمويل قدس سره الجليل . ورأيت في الواقعة بعد التهجد في الثلث الأخير مولانا شيخ نقشبند بهاء الحق والدين الأويسي البخاري قدس سره . وأيضا رآه الجنة والنار وأهلهما في الوقائع المنامية . فمن أراد الاطلاع على سآئر الوقائع وتفاصيلها فعليه بالرجوع إلى كتاب « سراج السعادات في سِير السَّادات » لحسن أفندي القحي قدس سره .

وأذكــر هنا رؤيتين رآهما سَيْكَتَوْ الخلقُرِيّ أَوَّلَهما بقُرب موت الشَّيخ سيف الله قدس سره : قال الرائي : رَأيت فَيَ الليلة التاسعة من محرم خلقا كثيرا وكانت هنالك صدقات تقسم . وكنت أنا وسيف الله قدي قدس سره هنالك . فجاء رجل وقال : يا سيف الله إن النبي صلى الله عليه وسلم يدعوك لديه . فذهب لديه صلى الله عليه وسلم وكنت معه وتعانق سيف الله بالنبي صلى الله عليه وسلم وكنت أنا بعيدا منهما . ثم قال صلى الله عليه وسلم لسيف الله : أتى أمر الله برجوعك إلى الدار الباقي ، منتقلا من الدار الفاني إلى الديار المتهيئة لك ، وقد تمت بناؤها . فقال سيف الله جهرا : الحمد لله الذي خلق الخلق لأجلك ، وخلقك رحمة للخلق ، وأنا راض على ذلك ، وأنا عاشق إلى المجيئ إلى تلك الديار . ثم قرأ النبى صلى الله عليه وسلم من القرآن ونسيتها .

واقعة أخرى . قال ذلك المريد هداه الله إلى ما فيه صلاحه آمين : رأيت في ليلة الإثنين ١ من صفر ١٣٣٨ ميدانا فيه أزهار . ووجدت فيه جنازة سيف الله قدس سره . وتعلقت بالجنازة وناديت : وَيْ درْ اُسْتَرَصُلْ مُغْ چَلبْ قُرُ . دُيْك شَرَبِشْخَ قُعَبْ خَلِلْ لِرْ . فقال سيف الله : اضطَجع هاهنا عندي ، فَفي هذه الساعَة يجيئ لدي النبي صلى الله عليه وسلم مع جنود من أصحابه ليصلوا علي صلاة الجنازة . فجاء النبي صلى الله عليه وسلم مع جنود كثيرة بحيث يملأ بهم الميدان . فقبل النبي صلى الله عليه وسلم على وسط جبهته ، فصلى هو وجنوده

عليه . ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم آية : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾ الجمعة ٨ : وأطال في القراءة ، فرجع النبي صلى الله عليه وسلم . ثم قال سيف الله : الآن يجيئ لدي جبرائيل مع جنود من الملائكة ليصلوا علي صلاة الجنازة . فجاء جبرائيل عليه السلام وقبل على جبهته ، وصلى هو ومن معه عليه صلاة الجنازة . فحين يرجع جبرائيل عليه السلام قرأ آية ، لكن لم أفهمها ونسيتها . ثم قال سيف الله : الآن يجيئ لدي محمود أفندي مع أهل الطريقة النقشبندية ليصلوا علي صلاة . فجاء وقتئذ مع جنود من المشائخ . فقبل على جبهة سيف الله قدس سره . ثم قال سيف الله : إن القطب عبد القادر الكيلاني قدس سره يجيئ لدي مع أهل الطريقتين ليصلوا عليّ . فجآء الكيلاني وقبل على جبهته وصلى هو ومن معه عليه ورجعوا . ثم قال سيف الله : إن القطب أبا الحسن الشاذلي قدس سره يصل لدي مع محمد صالح مع جميع الشاذليين . فجاء حينئذ وقبل وسط جبهته وصلى هو ومن معه . فحين يرجعون قال محمد صالح لسيف الله : إنى كنت خائفا من عدم وجدانك من تعطيه الخرقة . ثم قال الحمد لله الذي أوجدك من تعطيه الخرقة وأوصل لدينا . ثم قال سيف الله : إن أصحاب النوبة يصلون لدي مع البدلآء ليصلوا علي . فجآء وقتئذ سبعة من أصحاب النوبة . وكان قبلهم رجل له لحية طويلة عريضة بيضآء . فقبل جبهته وصلى هو ومن معه عليه . ولكن وقف البدلآء خلف أصحاب النوبة وصلوا عليه مأمومين ثم رجعوا . ثم قال سيف الله : نحن الآن نفارق ، وتحملني الحور العين ، فقل لحسن أفندي : كل ما كنت قلت لي فقد أتممته ، وسيصل إليك . فجآءت الحور العين ساعتئذ ، فحملت الجنازة ، وذهب هو معهن ، وانتبهت .

أقـول والله أعلم إن هذا الرائي كان بعد ما رأى هذه الواقعة يبكى كثيرا ، ويقول : إني أخاف من انتقال سيف الله من الدنيا . فبعد أيام وصل الخبر بموته قدس سره . فصادف ليلة موته رؤية الواقعة . فقد مات قدس سره وقت فجر تلك الليلة التي رآى فيها الواقعة . وهي الليلة الأولى من صفر . فما أصدق هذه الرؤيا .

ويقال : ما كان في زمنه من يعرف قيمته وقطبانيّته إلا ثلاثة رجال . حسن أفندي القحي قدس سره ، وقمر الدين الغزانشي الأعلى ، وخَزَمِ الحركلي .

مصنفاته

تركَ الشَّيخ سيف الله قدس سره أنفسَ المؤلفات التي تَشهد بغزارة علمه وسعةِ اطلاعه ؛ ومنها :

١ - « مكتوبات خالد سيف الله إلى فقراء أهل الله » .

٢ - و « كنز المعارف في أسرار اللطائف » . وهذان الكتابان باللغة العربية .

٣ - و « موافق السادات في مراتب الولايات » باللغة الأوارية .

٤ - و « المنظومة في التصوف » باللغة اللَّاكيَّة « غازي غموقي » .

وترك الخلفاء الكاملين في الطَّريقة أيضًا ، الذين لهم الفضل في نشرها وبقائها حتى الآن دون انقطاع ؛ فرحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه خير الجزآء عن الإسلام والمسلمين ، وأكرم مثوبته وأنزل عليه شآبيب رحمته ، ونفعنا بعلمه ، وجعلنا وإياه في مستقر رحمته تحت لوآء سيدنا محمد ﷺ . .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ورثاه حسن حلمي القحي قدس سره بهذه المرثية :

يا إمام الأوليآء يا سليل المصطفى ۞ فقد كدر بموتك العيش المصفى

وزالت أيضا منّا المنافع جمة ۞ لم يبق في الأرض من يأويه أهل الوفى

فيا خالد سيف الله خليفة زين الله ۞ هنيئا لك المأوى وجوار المصطفى

كان فيك كل خلق عظيم راسخا ۞ وعلــم الباطن والأخلاق قد انطــوى

كـفــاك شرفا يا مــولاي وكــرما ۞ نـــزولك منزل الأوتاد والبـــدلآء

كنت طبيب المرضى ومداوي القلوب ۞ وأنى لي مثلك كنت منبع الفيوض

طاشتعقولالأحبابواندهشتالقلوب۞ قبضت منا الأحوال حال بيننا الحجوب

أنت سرور روحي وروح مفاصلي ۞ كان عيبي خفيا أنت كشفت العيوب

لو كان الإختيار لإفدآء روحـك ۞ لـــمتّ بدلك مــع الأهــل والأحباب

بيد أنّ القضآء قد فرغ منه الله ۞ لم ينج الورى من دفنهم في بطن التراب

وأنت بضع رسول الله شافي الأنام ۞ فكم وحش ذهب عن القلب إذا غان

ولم يعرف الورى علـوّ مقامــك ۞ فكيف يعرف من في القرش قطب الأوآن

وقد كنت مستورا عن الخلق محجوبا ۞ ومن شأن القطب الستر وهو في الله فان

معرفة الأوليآء أصعب لغيرهم ۞ وهــم تحــت حجب القباب ينزلهم

ولذا لم يعرف الأ كثرون قدره ۞ لذا أنكروا و اعترضـوا بـجـهلـــهم

وأشكر الله حيث منّ بفضله ۞ عــليّ بالإعتقاد التام فـــي شيخه

إنتهى القصيدة المنسوبة إلى حسن أفندي القحي قدس سره .

أيا جانيا من ثمر جهدى وكتبتى ۞ ويا تاليــا بعــد الممـــات كتابيا

إلى دعوة لي منك في القبر حاجة ۞ جزى الله كل من بخير دعا ليا

كنز المعارف

فى أسرار اللطائف

تأليف

العلامة الشيخ الكامل القطب الحقيقي سيف الله قدي قدس سره

المتوفى سنة : ١٣٣٧ هـ



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله وصحبه أجمعين وبعد :

كان شيخنا المستور تحت الستور قطب الوقت خالد سيف الله النژبكري الغازي الغموقي الحسيني النقشبندي الأويسي الشاذلي القادري ﵁ قد جمع هذا الكتاب المستطاب ، بيد أنه قُدِّسَ سِرُّهُ عجز عن تحريره وتنقيحه لوهن وضعف في نفسه ولم يقدر أن يجدده ويكتبه ثانيا وإن كان على قصد إخراجه إلى الخارج .

فحين تراكمت عليه الأمراض وتزايدت في أعضائه العلل والأسقام كتب قُدِّسَ سِرُّهُ إلى هذا الحقير حسن حلمي القحي رحم الله إفلاسه بما حاصله : إن متّ قبل إخراج هذا الكتاب إلى الخارج فأحرقه يا ولدي اهـ . بل قال قُدِّسَ سِرُّهُ بفمه قبيل موته : يا ولدي أوصيك بإحراق كتابي « كنز المعارف » اهـ . فمات قُدِّسَ سِرُّهُ ورزقنا بركته آمين بعد زمان من ذلك وبقي الكتاب على المسوّدة من غير تحرير وتصحيح ، لكن الحقير سامحه الله تعالى من فرطاته آمين لما نظر إلى الكتاب وجد فيه أشيآء في فصل ينبغي أن تكتب في فصل آخر ،

وقد أشار ﷺ إلى ذلك في بعض المواضع ، ووجد فيه أيضا مواضع خالية عن كتبة ما كان ﷺ على قصد كتابته وقد أشار إلى ذلك أيضا وسيقف الناظر على ذلك ، وقد كان الحقير على قصد تحرير الكتاب وجمعه على ما هو قصد المؤلف المذكور نوّر الله ضريحه آمين مؤوّلًا قوله بإحراقهٍ إلى كون قصده من ذلك القول تنقيحه من غشّه الذي وقع منه سهواً أو خطأً وتجديده بإيقاع ما أشار إليه في هامشه إلى موضع يليق أن يكتب فيه .

وقد صعب على الحقير إحراقه وإن أوصى به ورأى أنّ سلوك الأدب أولى من امتثال الأمر كما قاله صاحب « الإعانة » وإن قال مؤلف كتاب « الخالدية » بأنّ امتثال الأمر أولى من سلوك الأدب ، فأبقيت الكتاب على ما كان عليه من المسوّدة ، والحقير كان معذورا من ذلك لأنّ كثيرا من الكتب المشار إليها لم تكن لديه ، وقد وقع فقدان تلك الكتب سببا لإبقاء هذا المؤلَّف النفيس على ما كتبه الوالد ﷺ من غير زيادة ، ونسأل الله العفو والمغفرة ، وأنه لا يتفرغ لشيء مّا إلّا نادرا وقد تستغرق أوقاته ليلا ونهارا في الشغل بشغله المعلوم .

وسمّيته بـ « كنز المعارف » بناء على ما سمعته من لسانه ﷺ ، جعل الله تعالى هذا الكتاب نافعا لأهل السلوك وعملا باقيا لمؤلفه بعد موته إلى يوم القيامة آمين يا مجيب السائلين ويا أرحم الراحمين ، فكم وكم مسألة غريبة سرد« ١ » فيه وكم وكم منفعة لا يهتدي إليها العارفون جمع فيه فجزاه الله عنّا خير الجزآء وحشرنا معه إلى أن ندخل إلى دار السلام آمين . اهـ من خطّه« ٢ » .

فلما انتقل المؤلف المرشد الفاني في الله الباقي بالله سيدنا وسندنا شيخ شيخنا **خالد سيف الله النژبكري** أعلى الله درجته ورزقنا فيضه وفضله إلى رحمة الله من الفانية إلى الباقية في سنة ١٣٣٧هـ كان خليفته وحليفه المحترم مرشد الخلائق قطب الزمان وشيخنا الأستاذ **حسن حلمي** ﷺ على قصد تحريره

« ١ » سرد : اي تابع
« ٢ » أي : حسن أفندي ﷺ .

وتخريجه إلى الخارج كما ذكره ، بيد لما كان القضآء والقدر في يد مقدّر الأقدار والأزمان جلّ جلاله غاب الشمس الساطعة وصدى وذهب القمر في سحآئب الظلمة والردى ولم يتم ما قصده وأمله .

فالآن آخراً في هذا التاريخ والعام ١٣٨٠هـ لما نظر هذا الخادم الحقير أقل من القليل والقطمير النذير[١] إلى هذا المؤلّف البديع والأسلوب الغريب الذي لم ينسج على منواله مثله ، واعتبر بعين البصر والبصيرة بالتأملّ التامّ والتفكّر العامّ في ألفاظه ومعانيه ، فإذا هو كتاب طابق اسمه مسماه ، مشتملٌ على حقائق ورقائق ونكت لطيفة ودقائق حقيقة تليق أن تكتب بماء الذهب بل بسواد العين وأن تشترى بنفائس الأرواح لما فيه من الدرر والحكم وآداب الطرق والسلوك مذهبة الأوهام والشكوك ، وهو كنز محتو بالمعارف والعوارف اللدنية وبحر يضيق نطاق النطق عن وصفه بلسان الفم والفكر ، أراد الخوض بأمر من أعزّ الإخوان[٢] في تحريره وتخليصه طبق مقصود الشيخين المعظمين أعلى الله درجتهما في العليين وأنفق نفائس الأوقات في تبييضه وأوقع ما أشار إليه المؤلف الكريم في هامشه إلى مواقعه وفصوله بلا بقاء شيء ما مما أشار إليه مُجانباً عن تبديل لفظه بحيث يخلّ بالمراد ، ومتبرّئا من حذف ما نظمه ومن ضم ما أدبره وتركه ، وأخرجه من السواد إلى البياض بعون الله تعالى وتوفيقه فصار كتابا تقرّ به عيون أولي الرغبات ، ويكتفي به المبتدئ والمنتهي عما سواه من التصنيفات وإن كان مسّ يد هذا المفلس الخبيث غير لائق لمباشرة هذا الأمر العظيم ، كلاّ ثم كلاّ ليس له مناسبة مّا للتقرّب حول حمى كلام الأولياء ، فالمرجوّ من هذا المَهين إلى الله تعالى أن يجعل هذا خدمة خالصة لوجهه تعالى ، ووسيلة موصلة من قطرة فيوضات المشائخ المذكورين في الكتاب قدس الله تعالى أسرارهم ، وسببا باعثا لدعاء الإخوان في الدين وعملا باقيا إلى الحشر والقيام آمين .

« ١ » وهو : العالم الفاضل السالك شمس الدين بن محمد القحي المعروف بشمس الدين دبيرٍ ١٨٩٧ ١٩٧٩ م .
« ٢ » وهو الشيخ محمد عارف بن حسن حلمي القحى قدس الله أسراهم .

قال قدس سرّه عن الالتفات إلى ما سواه :

فصل في المقدمة

قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٍ﴾ ، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾

والخير الحقيقي معرفة نفسه ليعرف به خالقها وبارئها ومبدعها ، كما قيل : من عرف نفسه عرف ربه ، ولمعرفة ذلك أسباب وأعظمها وأجلها وأولاها الدخول[١] في طريق القوم المشيّدة بالكتاب والسنة لكونها مبنيّة على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء الأتقياء لكونها موافقة لصريح القرآن والسنة والإجماع .

ثم اعلم يا أخي وفّقك الله تعالى لما يحبّ ويرضاه أنّ علم التصوف عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة[٢] وأنه مقتبس من مشكاة النبوّة فمعرفته صارت لازمة على كل أحد لينال به مكارم الدارين ويفوز برعاية آدابه بكلتا الحسنتين لما أنّ التصوف خلاصة الشريعة المصطفويّة ﷺ ، وزبدة عمل العبد بأحكام الشريعة ، ولأجل ذلك إن العبد الصادق إذا سلك طريق القوم وتبحر فيه أعطاه الله تعالى هناك قوّة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة فيستنبط في الطريق لوازمها من الواجبات والمندوبات والمحرمات والمكروهات مع رعاية آدابها .

وإيضاح ذلك : أن أربابها عدول في الشرع اختارهم الله تعالى لدينه فمن دقق النظر علم أنه لا يخرج شيء من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة ، وكيف تخرج علومهم عن الشريعة والشريعة هي وُصْلَتهم[٣] إلى الله تعالى في كل لحظة ، ومن تبحّر في علم الشريعة علم أن علم التصوف خلاصتها ولبّها وزبدتها .

« ١ » وفي هامش نسخة « أ » : يعرفنا من كان من جنسنا . .
« ٢ » وفي النسخة الأصلية : نور من الله تعالى استنارت من قلوب الأولياء بالعمل بالكتاب والسنة .
« ٣ » أي اتصال وذريعة وكل شيء اتصل بشيء فما بينهما وُصلة « مختار الصحاح » .

قال الإمام الشاذلي ﷺ : خمس من لم يكن منها فيه شيء فلا إيمان له : التعظيم لأمر الله ، والرضاء بقضاء الله ، والتفويض في أمر الله ، والتوكّل على الله ، والصبر عند الصدمة الأولى ، ولا يظفر بهذه غالبا إلّا من أصلحه التصوف وذاقه ، لما أنّ التصوف يخرج العبد من الأوصاف الذميمة ويتخلّق بمكارم الأخلاق ويتبدل عجبه وكبره وأنانيته بالذلّ والانكسار والخضوع .

قال سيدي أحمد الرفاعي ﷺ : الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق وأقربها إلى الله وأصفاها الذل والانكسار ، ولا بدّ لمن أراد معرفة الله تعالى من تعلّم العلم النافع الذي يؤدّى به العبادات ويعرف به صفات النفس الباطنة ويقدم قبل الجميع معرفة عقيدة أهل السنة والجماعة ليعرف ما يجب لله وملائكته ورسله وما يستحيل وما يجوز ليسلم من الخطرات الفاسدة ، ولذلك كانت طريق السادة الصوفية مبناها على طلب العلم .

وكان القشيري ﷺ يقول : لم يكن عصر في مدة الإسلام وفيه شيخ من هذه الطائفة إلّا وأئمة ذلك الوقت من العلماء قد استسلموا لذلك الشيخ وتواضعوا له وتبرّكوا به ولولا مزيةٌ وخصوصيةٌ للقوم لكان الأمر بالعكس .

وبالجملة فما أنكر أحوال الصوفية إلاّ من جهل حالهم ، ويكفينا فخرا للقوم ومدحا لهم إذعان الإمام الشافعي ﷺ لشيبان الراعي ، وإذعان الإمام أحمد بن حنبل لأبي حمزة البغدادي ، وأمثالهم كثيرة ، وأحوال هؤلاء الأئمة مع الصوفية خارجة عن الحصر .

وقال ابن عباد الرندي ﷺ : قال إبراهيم الخواص ﷺ : العلم كله في كلمتين : **لا تتكلف ما كفيت ولا تضيع ما استكفيت** ، فمن قام بهذا الأمر على ما ينبغي له من الوجه الذي ذكرناه من الاجتهاد في الأمر المطلوب منه وتفريغ القلب عن الأمر المضمون له فقد انفتحت بصيرته وأشرق نور الحق في قلبه وحصل على غاية المقصود ، ومن عكس هذا الأمر فهو مطموس البصيرة أعمى القلب وفعله دليل على ذلك .

واعلم أيها الأمين أقامك الله في دائرة اليقين : أنّ طريق الوصول إلى الله تعالى طريق السنة والجماعة ومن ذلك الطريق يتجذّب طريق السادات الصوفية ﷺ ولا حرمنا من بركاتهم .

ثم اعلم أيها الولد أنّي ما وضعت في كتابي هذا شيئا إلّا وهو مؤيّد بالكتاب والسنة فإن لاح لأحد شيء من كلامي بخلاف الكتاب والسنة فليعلم أنّ ذلك من حيث مفهومه لا من حيث مرادي الذي وضعت الكتاب لأجله ، اللهم إنّ الإنسان إنما هو منبع الخطأ والنسيان وما أبرّئ نفسي عن ذلك بيد أنّي أسأل بالله سبحانه من كل ناظر منصف في الكلام أن يزن الكلام بميزان الشرع هل هو موافق له أم لا فإن وقع في نفسه التردد فليتوقف عن العمل به مع التسليم إلى أن يفتح الله عليه بمعرفته ، ويحصل له شاهد ذلك من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، فليس الكلام من نفسنا بل هو كلام الأوليآء الصالحين والأئمة المجتهدين والأصفيآء العارفين .

وإيّاك الإنكار على هؤلاء لئلا تحرم عن الوصول إلى معرفة ذلك فإنّ من أنكر شيئا من كلام السادات حرم الوصول إليه ما دام منكرا ولا سبيل إلى غير ذلك بل ويخشى عليه حرمان الوصول إلى ذلك مطلقا .

ومن المعلوم أنّ كل علم لا يؤيده الكتاب والسنة فهو ضلالة ، لا لأجل ما لا تجد أنت له ما يؤيده ، فقد يكون العلم في نفسه مؤيدا بالكتاب والسنة ولكن قلّة استعدادك منعتك عن فهمه فلا تستطيع أن تناوله بهمتك من محله فتظن أنه غير مؤيد بالكتاب والسنة فالطريق في هذا التسليم وعدم العمل به من غير إنكار إلى أن يأخذ الله بيدك إليه كما قال في « الإنسان الكامل » في ٥ .

وقال قطب العارفين الشيخ محمد التجاني ﷺ في « جواهره » : **خمس أمور من فعلها يهديه الله إليه وإلى طريقه ولا شك أنها أيضا تزيد في الإيمان :**

أوّلها الإيمان بالله الإيمان الكامل . قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وقَالَ ﴿مَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾

ثانيها الإنابة إلى الله تعالى بالإقبال عليه والإعراض عما سواه ، **قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:**﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

ثالثها مجاهدة النفس على طاعة الله تعالى باجتناب نواهيه وترييضها عن أوصافها حتى تجيب إلى الأوصاف الحميدة وإقامتها لله ﷻ على ما يريد . **قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:**﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾

رابعها اتباعه ﷺ في كل قول وعمل وحركة وسكون قال الله تعالى : ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

خامسها الاعتصام بالله تعالى : **قَالَ تَعَالَىٰ:**﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

ثم ذكر أمورا تمنع أن يكون للشيطان سبيل على العبد فلا شك أنها أيضا تزيد في الإيمان لأنّ من حيل بينه وبين الشيطان يزداد إيمانه وهي : تصحيح العبودية لله ﷻ والإخلاص والاستعاذة بالله ﷻ عند الإحساس بشرّه وتصحيح الإيمان والتوكّل على الله ﷻ . **قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ:**﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ، وقال **تَعَالَىٰ:**﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾وقال **تَعَالَىٰ:**﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ ، وقال ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

وهذه الأمور لا ينالها غالبا إلاّ بمعرفة التصوف الذي هو زبدة الكتاب والسنة فتفطن إلا الفرد النادر الذي ناله بالمَوْهِبَة الربانية والعناية الصمدانية .

باب

في آثار الشريعة والطريقة والحقيقة والمعرفة وما وردت فيها من الأحاديث والآيات وأقاويل السادات الصوفية وما وردت في التصوف

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على رسوله المصطفى ﷺ قال قطب العارفين وإمام المتقين السيد أحمد بن إدريس الشريف الحسيني المغربي أعاد الله تعالى علينا من بركاته وأمدنا بنفحاته : فالأمر الجامع والقول النافع والسيف القاطع في طريق الله تعالى أن على العاقل الذي يريد نجاة نفسه من جميع المهالك ويحب أن يدخله الله في سلك المقربين في جميع المسالك إذا أراد أن يدخل في أمر من أموره قولا أو فعلا فليعلم أن الله تعالى لا بدّ أن يوقفه بين يديه تعالى ويسأله عن ذلك الأمر ، فليعدّ الجواب لسؤال الحق تعالى قبل أن يدخل في ذلك الأمر ، فإن رأى الجواب صوابا وسدادا يرتضيه الحق تعالى ويقبله منه فليدخل في ذلك الأمر ، فعاقبته محمودة دنيا وأخرى . وإن رأى أن ذلك الجواب لا يقبله تعالى منه ولا يرتضيه فليَشرُد من ذلك الأمر أيّ أمر كان فإنّه وبال عليه إن دخل فيه .

وهذه القاعدة هي أساس الأعمال والأقوال كلها فمن تحقق بها ورسخ فيها كانت أحواله كلها مبنية على السداد ظاهرا وباطنا لا يدخلها خلل بوجه من الوجوه وهذا معنى قول النبي ﷺ « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا » .

القاعدة الثانية أن لا يفعل فعلا ولا يقول قولا حتى يقصد به وجه الله تعالى ، فإن صحَّح القصد فيه لوجه الله تعالى وغسل قلبه من كل شائبة لغير الله تعالى ورسخ في هذه القاعدة قلبه« ١ » صار لا يتكلم ولا يفعل فعلا إلاّ عن تثبت وتأنّ وصارت أعماله كلها دقيقا خالصاً لا نخالة فيها بوجه من

« ١ » ساقط في الأصل

الوجوه ، وهذا معنى قول خالقنا جل وعلا لرسوله الأعظم وحبيبه الأكرم ﷺ : ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ أي لا غيره في جميع أمورهم ، وقال ﷻ : ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾

القاعدة الثالثة أن يوطن قلبه على الرحمة لجميع المسلمين كبيرهم وصغيرهم ويعطيهم حق الإسلام من التعظيم والتوقير فإن رسخ في هذه القاعدة قلبه واستقام فيها أفاض الله تعالى على سائر جسده أنوار الرحمة الإلهية وأذاقه حلاوتها فنال من الإرث النبوي حظّا وافرا عظيما من قول الله ﷻ : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ ، وهذا معنى قول النبي ﷺ : « إن لله ﷻ ثلاث حرمات فمن حفظهن حفظ الله عليه أمر دينه و دنياه ومن لم يحفظهن لم يحفظ الله عليه شيئا : حرمة الإسلام وحرمتي وحرمة رحمي » ، وهذا معنى قول النبي ﷺ لأبي بكر الصديق ؓ « لا تحقرنّ أحدا من المسلمين فإنّ صغير المسلمين عند الله كبير » .

القاعدة الرابعة : مكارم الأخلاق التي بعث رسول الله ﷺ لإتمامها لقوله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، وهذه القاعدة هي زبدة الدين وحقيقتها أن يكون العبد هيّنا ليّنا مع أهل بيته وعبيده وجميع المسلمين قال رسول الله ﷺ : « أهل الجنة كل هين لين سهل قريب ، وأهل النار كل شديد قَبَعْثَرِيّ » قالوا : يا رسول الله وما قَبَعْثَرِيّ ؟ قال : « الشديد على الأهل الشديد على الصاحب الشديد على العشيرة » وقال مولانا العظيم : ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ أي لا قبحا وقال ﷻ : ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ ، والأحسن هو الذي جمع الحسن وزيادة .

وبالجملة فالذي تحب أن يواجهك الناس به من الكلام الطيب والقول الحسن والفعل الجميل فافعله مع خلق الله تعالى ، وما تكره أن يعاملك العباد به من الكلام الخبيث والقول القبيح والفعل الكريه فاترك الناس والخلق منه فإن الله تعالى يعامل العبد بوصفه وخلقه الذي يعامل به الناس فإن المجازاة

على الوصف بالوصف جزآء وفاقا ، فمن كان للخلق جنة ورحمة وظلا ظليلا يستريحون فيه كان الله له كذلك ، فمن أكرم عبدا لمراعاة سيده فإنما أكرم السيد نفسه .

ولذلك جاء في الحديث عن الله تعالى أنه يقول للعبد يوم القيامة : « جعت فلم تطعمني واستسقيتك فلم تسقني ومرضت فلم تعدني ، فيقول العبد : كيف تجوع وأنت رب العالمين ، وكيف تمرض وأنت رب العالمين ، وكيف تستسقي وأنت رب العالمين ؟ فيقول له سبحانه مفسرا : أما إنه مرض عبدي فلان فلو عدته لوجدتني عنده ، وجاع عبدي فلان أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ، واستسقاك عبدي فلان أما إنك لو أسقيته لوجدت ذلك عندي » ، ففسر سبحانه نفسُه قولَه : « جعت ومرضت واستسقيتك » بقوله : « جاع عبدي فلان ومرض عبدي فلان واستسقاك عبدي فلان » ، فمعاملة العبد لملاحظة سيّده هي معاملة السيّد بلا شك ، فمن رسخ قدمه في هذا المقام ، وصارت معاملته مع الحق سبحانه وتعالى في كل شيء فلا يراقب غير الله تعالى .

ويجمع مكارم الأخلاق مع الله تعالى ومع عباده قول النبيّ ﷺ : « أكرموا الله تعالى أن يرى منكم ما نهاكم عنه » ، وهو أن لا يراك سبحانه حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك ، والأمر الذي يبعث العبد على الحياء من الله تعالى هو أن يعلم علم حضور أن الله على كل شيء قدير رقيب وهو على كل شيء شهيد ، وهو قوله تعالى : ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُ﴾ .

فإذا شغل العبد قلبه بهذه المراقبة واستعملها حتى اعتادها وألفها ألزمه الحياء من الله تعالى أن لا يقول قولا ولا يفعل فعلا لا يرضاه الله تعالى ولا يليق بجلاله وهو حاضر القلب ، ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ ، بأن الله تعالى معه وناظر إليه ، فإن العبد إذا أراد أن يزني مثلا أو يسرق والناس ناظرون إليه لا يقدر أن يقدم على ذلك مع علمه بنظر الناس إليه ويستقبح ذلك من نفسه ويستخبثه ، فإذا كان الحال هكذا مع المخلوق الذي لا يملك ضرّا ولا نفعا والحامل له على ذلك كله مخافة أن يسقط من أعين الناس وينحطّ

قدره عندهم ، فلا شك أنه إذا كان حاضر القلب عند الشروع في الفعل الذي لا يرضاه الله تعالى ترك ذلك الفعل قطعا ، وهذا معنى قول النبي ﷺ في الإحسان : « أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » فمن كان بهذه الحالة لزمه أن يحسن تلك العبادة ويتقنها على قدر قوة علمه أن الله تعالى ناظر إليه فيها . انتهى .

اعلم أيّها الأخ الأرشد ، أنّ حقيقة العبودية اتباع السنة ، وهو يخرج العبد عن عبودية الهوى ، فمن لا يتبع السنة فهو مقيد بالهوى . قال ﷺ : « تعس عبد الهوى » . فمن يتبع السنة يخرج عن اتباع الهوى ويكون محبوبا عند الله تعالى ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فلا يصل أحد إلى الله تعالى بطريق من الطرق إلاّ بطريق الاتباع ، لأنّ جميع الطرق مسدود غير طريق الاتباع لأنّه مفتوح موصل إلى الله تعالى فلا بد لكل أحد من الاتباع بأداب الرسول ﷺ في جميع العبادات والعادات حتى يمكن الوصول إلى الله تعالى ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ ، فمن ادّعى الوصلة وأظهر الكرامة وترك أدبا من آداب السنة فهو مستدرج مخذول ، فليست له نسبة بجانب الحق فضلا عن الوصول .

قال في « الرشحات » ١٩٣ : سمعت مولانا نظام الدين عليه الرحمة يقول : يمكن أن نبين الشريعة والطريقة والحقيقة في جميع الأشياء فإنّ الكذب مثلا منهي عنه فمن حفظ لسانه منه بالمجاهدة والسعي على طريق الاستقامة بحيث لا يصدر عن لسانه باختياره وغير اختياره فهذه شريعة ولكن يمكن مع ذلك أن يكون في باطنه داعية الكذب فالسعي والمجاهدة في دفع هذه الداعية عن باطنه طريقة فإن كان بحيث لا يصدر عنه الكذب باختياره وبغير اختياره لا من قلبه ولا من لسانه فهذه حقيقة . وكان حضرة شيخنا[١] ينقل عنه هذا الكلام ويستحسنه اهـ .

« ١ » يعني به علاء الدين العطار قدس سره

وقال العلامة أبو العباس زروق رحمه الله تعالى : الاشتراك في الأصل يقضي بالاشتراك في الحكم ، والفقه والتصوف شقيقان في الدلالة على أحكام الله تعالى وحقوقه فلهما حكم الأصل الواحد في الكمال والنقص إذ ليس أحدهما بأولى من الآخر في مدلوله ، وقد صح أن العمل شرط كمال العلم فيهما وفي غيرهما لا شرط صحة فيه إذ لا ينتفي بانتفائه بل قد يكون دونه كما أن العلم إمام العمل فهو سابق وجوده حكما وحكمة بل لو شرط الاتصال لبطل أخذه ، كما أنّه لو شرط في الأمر والنهي العمل للزم ارتفاعهما بفساد الزمان ، وذلك غير سائغ شرعا ولا محمود في الجملة ، بل قد أثبت الله العلم لمن يخشاه وما نفاه عمن لم يخشه واستعاذ عليه الصلاة السلام من علم لا ينفع وقال ﷺ : « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » فسماه عالما مع عدم انتفاعه فلزم استفادة العلم من كل محق فيه محقق له ، ليس ضرر علمه في وجه إلقائه كعدم اتصافه فافهم .

وسئل العارف بالله السيد أحمد بن إدريس الحسني رضي الله عنه عن قوله تعالى : ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ، فأجاب بأنّ الحكمة هي استعمال العلم في محله وأن يجتنب ما نهاه ربّه عنه على أحسن الحال وأن يستعمل مكارم الأخلاق مع جميع خلق الله تعالى « العقد النفيس » ٥٣ .

وقال في « تنوير الصدر » : فالشريعة أن تعبده والطريقة أن تقصده والحقيقة أن تشهده ، فكمال الدين للعاصي بالتقوى في البداية قبل وقوع الذنب والاستدراك بالتوبة بعد الوقوع ، وللفقيه بالاستقامة على الكتاب والسنة وللمريد بالصدق والإخلاص بعد تحصيل الأولين ، وللعارف بالورع ، فعاص لا تقوى عنده فاجر ، وفقيه لا استقامة عنده مقصر ، ومريد لا صدق له متلاعب ، وعارف لا ورع له ناقص . اهـ ١٢٩

ثم اعلم أيها الأخ الفائز ، أنّ أصول وقواعد هذه [الطريقة]«١» أخذناها من آثار خواجه نقشبند الشيخ محمد بهاء الدين البخاري الأويسي ، والشيخ الأكبر محي الدين العربي ، والشيخ عبيد الله الأحرار السمرقندي ، والشيخ نجم الدين وصدر الدين القنوي ، والإمام الرباني وأمثالهم قدس الله أسرارهم من فحول العلماء وأصحاب الوقت والإرشاد ذوات الأنفاس المباركة ، انتخابا منهم واقتباسا من كلامهم المفهوم والمنطوق ، لكون كلامهم مقتبسا من مشكاة نور النبوة على أسلوب اعتقاد أهل السنة والجماعة ، ولا ينتفع السالك والمريد إلاّ بهذا الأساس ، ولا يصح السير إلى الله والسلوك إلاّ برعاية أسلوبهم قدس الله أسرارهم ، وقد سئل الشيخ سعد الدين الحموي قدس سره عن أنفع وصية يوصي بها الإنسان بما ينفعه استحضاره والعلم به في هذه الحياة الدنيا وعند الموت وبعدها ويكون سببا لكمال تزكية النفس فقال قدس سره : أن يوصي بالحرية والعفة في الحرية ، فسأله ما الحرية وما العفة في الحرية ؟ فقال : الحرية عدم التقيد بالباطن بشيء سوى الحق مطلقا من حيث هو سوى ، والعفة في الحرية أن لا يصدر من الإنسان في حقه ولا في حق غيره فعل لأجل نفسه أو لأجل غيره بل لله تعالى بمعرفة تامة وحضور .

ولذا قيل : **وجودك ذنب لا يقاس إلى ذنب** ، باعتقاد استقلال نفسه من كل شيء ، وكون وجود نفسه على ما هي عليها ذنبا عظيما لا يقاس إلى ذنب ، فينبغي على الإنسان أن يكون له عند الله منزلة وقدر وذلك إنما يكون برعاية نفسه على الدناءة والانكسار والعجز على أن الإنسان مرهون بهمته ، ومن المثل : **من كان همته ما دخل في بطنه فقيمته ما خرج منها** .

وقال الشيخ علاء الدين السمناني أحمد بن محمد قدس الله سره : شاهدت في الغيب بطريق الواقعة ثُلَّة مجتمعة مالت نفسي إليهم فسلمت عليهم فأجابوني بأحسن جواب ورحبوني بأحسن ترحيب ، فتعجبت من حسن مقالتهم وصحة حالهم ففتّشت عن نسبتهم ، فقالوا : نسبتنا الصوفية وطبقتنا سبع طبقات :

«١» ساقطة في الأصل

طبقة الطالبين ، وطبقة المريدين ، وطبقة السالكين ، وطبقة السائرين ، وطبقة الطائرين ، وطبقة الواصلين ، والسابعة القطب ، وهو الواحد في كل زمن من الأزمان وقلبه على قلب محمد ﷺ .

قال العلامة أبو العباس أحمد زروق ﵁ : التحقيق ليس إلاّ سابقة التوفيق ، فكل شريعة حقيقة ولا ينعكس ، الشريعة مبينة ، والحقيقة من غير الحكم ، وكلاهما وصف الحق وإبطال أحدهما موجب لاعتقاد النقص وفي تعطيل حكمه قصر له عن موجبه فلزم ملاحظة الجميع باتباع السنة وشهود المنة والنظر لأحكام القدر [مع][1] إثبات الشريعة والأسباب ، ومن ثم لزم إسقاط التدبير عند غلبة المقادير والقيام بحكم الوقت استسلاما للأمر والقهر إذ هما من رب واحد أمر وقهر لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فعليكم الرضا بقضائه إذ سخطه كفر ، ولا تهملوا الرضا بمقضيه فإنه نقص والفرق بينهما أنّ الأوّل حكمه والثاني ما حكم به فافهم فإنه دقيق .

قال العارف سيد بكري ابن السيد شطا ﵁ : إنّ ما يحتاج إليه سالك طريق الآخرة مبتدأ بالأصل الجامع لخيري الدنيا والآخرة وهو التقوى وهي عبارة عن امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه ظاهرا وباطنا مع استشعار التعظيم لله والهيبة والخشية والرهبة من الله تعالى وقال بعضهم : التقوى أن يتقي العبد ما سواه تعالى .

وقال بعضهم : من أراد أن تصح له التقوى فليترك الذنوب كلها ، وقال النصرأباذي : من لزم التقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا لأن الله سبحانه يقول : ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

وقال أبو عبد الله ﵁ : التقوى مجانبة ما يبعّدك عن الله تعالى ، وقال بعضهم : التقوى عمل بطاعة الله على نور من الله مخافة عقاب الله ، وفي التقوى كلام كثير للعارفين على حسب مقتضاهم .

« ١ » ساقط في الأصل

فالحاصل : لا ينال خير عاجلا ولا آجلا إلاّ بالتقوى ولا يدفع شرٌّ إلاّ به ، وهى وصية الأوّلين والآخرين ومدار الصالحين المتقين ، وكم آيات في حقها في التنزيل والأحاديث غير محصورة جعلنا الله من عباده المتقين ، فلذلك قالوا : مدار كل سعادة وأساس الخيرات التقوى ، ولا يتفطن قدرها وحلاوتها إلاّ من وفقه الله تعالى وذاقها ولذلك قال« ١ » :

تَقْوى الإلهِ مَدارُ كُلِّ سَعادَةٍ وَتِباعُ أهْوا رَأسُ شَرِّ حَبائِلا

والتقوى هي الشريعة والطريقة والحقيقة ، ولا ينال إليها أصلا إلاّ بالتقوى وهي تترتب على التقوى وذلك أنه لا بد لسالك الطريق للآخرة من الجمع بين هذه الثلاثة وعدم التعطيل لشيء منها وذلك لأنّ الحقيقة بلا شريعة باطلة والشريعة بلا حقيقة عاطلة

مثال الأول : أن تقول لشخص : صلّ فيقول لك : لا حاجة إلى الصلاة لأن السعيد سعيد الأزل فإن كنت سعيدا دخلت الجنة وإن لم أصلّ وإلاّ دخلت النار وإن صليت

ومثال الثانية : من يعمل لأجل الجنة ويقول : لولا عملي لما دخلتها ، فهذه شريعة عاطلة ، ومعنى كونها عاطلة أنّ وجودها كعدمها ، لأنّ دخول الجنة بفضل الله تعالى للحديث الشريف .

فالشريعة هي المأمورات التي أمر بها والمنهيات التي نهى الله عنها ، والطريقة الجري على ذلك والعمل ، والحقيقة نظره لبواطن الأمور وشهود الفعل من الله تعالى ، وللعارفين في هذه كلام طويل ليس هذا موضعها ، لكن إنّ الطريقة والحقيقة كلاهما متوقف على الشريعة ، فلا يستقيمان ولا يحصلان إلاّ بها ، فالمؤمن وإن علت درجته وارتفعت منزلته وصار من جملة الأوليآء لا تسقط عنه العبادات المفروضة في القرآن والسنة .

« ١ » أي الشيخ العلامة زين الدين المليباري في قصيدته المسماة بـ « هداية الأزكياء » . رب اغفر لكاتبه محمد .

ومن زعم أنّ من صار وليّا ووصل إلى الحقيقة سقطت عنه الشريعة فهو ضال مضل ملحد ، ولم تسقط العبادات عن الأنبيآء فضلا عن الأوليآء ، فلقد صح أنّ رسول الله ﷺ كان يصلي حتى تتورم قدماه فقيل له مرة : ألم يغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « أفلا أكون عبدا شكورا » وذلك لأنّ العبادة وجوبها لحق العبوديّة ولحق شكر النعمة ، والولي بالولاية لا يخرج عن حد العبودية ولا عن كونه مُنْعَما عليه ، ولذا قال الشيخ زين الدين المليباري :

فَكَذا الطَّرِيْقَةُ وَالحَقيقَةُ يَا أخي مِنْ غَيْرِ فِعْلِ شَرِيْعَةٍ لَنْ تَحْصُلا

فإذا كانت الطريقة والحقيقة متوقفين على الشريعة فيجب على السالك أن يزين ظاهره بالشريعة أوّلا ليتنوّر قلبه بنور الشريعة وتزول عنه ظلمات المعاصي ، فإنّ للمعصية ظلمة ترتفع إلى القلب كما أنّ للطاعة نورا يرتفع إليه ، وإنما وجب عليه التزيين المذكور لما ذكر لأجل أن يمكن للطريقة نزول في قلبه لأنه إذا تنور القلب وزالت ظلمته بسبب استعمال الشريعة تأهّل القلب لحلول الطريقة فيه .

قال سلطان العارفين علي بن هيتي رضي الله عنه : الشريعة ما ورد به التكليف والحقيقة ما حصل به التعريف ، فالشريعة مؤيدة بالحقيقة والحقيقة مقيدة بالشريعة ، والشريعة وجود الأفعال لله تعالى والقيام بشروط العلم بواسطة الرسل ، والحقيقة شهود الأفعال بالله تعالى والاستسلام لغلبات الحكم بتقدير لا بواسطة ، ومن كلامه أيضا رضي الله عنه : ما دام التمييز باقيا كان التكليف متوجها فيعلم من هذه المذكورات أنّ المرشد وإن وصل إلى مقامه فلا يترك عمله ويدوم على ما هو عليه وعلامة صحة الحال أن يكون صاحبه محفوظا في أحوال غلبته كما كان مغلوبا في أوقات صحوه ، وكان يقول : الحق ورآء كل ما أدركه الخلق بأفهامهم وأحاطوا به بعلومهم وأشرفوا عليه بمعارفهم ، وأنفع العلوم العلم بأحكام العبودية وأرفع العلوم علم التوحيد .

وقال الشيخ أبو عمر عثمان بن مرزوق القرشي ﷺ : من عرف نفسه لم يغير عليه ثنآء الناس عليه ومن لم يصبر على صحبة مولاه ابتلاه الله بصحبة العبيد ، ومن انقطعت آماله إلاّ من مولاه فهو العبد حقيقة ، ومن تحقق بالرضا استلذ بالبلا ، وحلية العارف الخشية والهيبة .

وقال الشيخ رسلان الكردي ﷺ : الكريم من احتمل الأذى ولم يشك عند البلوى ، وأحسن المكارم عفو المقتدر و جود المفتقر ، وقال أيضا : مكارم الأخلاق العفو عند القدرة والتواضع في الذلة والعطآء بغير منّة وإذا قدرت على عدوك فاجعل العفو شكرا لقدرتك عليه .

وقال الشيخ ابن زروق ﷺ : الفقه مقصود لإثبات الحكم في العموم فمداره على إثبات ما يسقط به الحرج ، والتصوف مرصده طلب الكمال ومرجعه لتحقيق الأكمل حكما وحكمة ، والأصول شرط في النفي والإثبات فمدارها على التحقيق وقد علم كلّ أناس مشربهم فافهم .

وفي « الرسالة القشيرية » : النَفَسُ ترويح القلوب بلطائف الغيوب ، وصاحب الأنفاس أرقّ وأصفى من صاحب الأحوال ، فكان صاحب الوقت مبتدئا وصاحب الأنفاس منتهيا وصاحب الأحوال بينهما ، فالأحوال وسائط ، والأنفاس نهاية الترقي ، والأوقات لأصحاب القلوب والأحوال لأرباب الأرواح والأنفاس لأهل السرائر . وقالوا : أفضل العبادات عدّ الأنفاس مع الله ﷻ .

وقالوا : خلق الله القلوب وجعلها معادن للمعرفة ، وخلق الأسرار وراءها وجعلها محلاّ للتوحيد . انتهى ٥١ .

وفي « العوارف » : النفس للمنتهي والوقت للمبتدئ والحال للمتوسط ، فكأنه إشارة منهم إلى أنّ المبتدئ يطرقه من الله سبحانه طارق لا يستقرّ معه والمتوسط صاحب حال غالب عليه والمنتهي صاحب نفس متمكن لا يتناوب عليه الحال بالغيبة والحضور ، بل تكون المواجيد مقرونة بأنفاسه مقيمة لا يتناوب عليه .

قال في « التعريب » : والعبادات عشرة أقسام : الصلاة والزكاة والصوم والحج وقراءة القرآن وذكر الله تعالى في كل حال وطلب الحلال والقيام بحقوق المسلمين وحقوق الصحبة والتاسع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعاشر اتباع السنة وهو مفتاح السعادة وأمارة المحبة كما قال تعالى : ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾

فينبغي للعبد أن يعبد ربّه ويتذلل لخالقه بأيّ وجه كان ، وجميع أنواع العبادة موجبة لمعرفة الله تعالى كلما زادت زادت معرفته بالله تعالى ، ومعرفة العبد بربه نور يقذفه في قلب عبده فيرى بذلك النور ملكه ويشاهد غيب ملكوته ويلاحظ صفات جبروته ثم تشترك قوّة إدراكه على مقدار ما أفيض عليه من ذلك النور وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ ﴾ ، أي في قلب المؤمن .

وإنما سمّى الحقّ نفسه نورا لأنّ النور هو الضياء المظهر للأشياء ، فإذا سمى ما يظهر غيره بالإضافة إلى الإدراك نورا أفلا يسمي من يظهر الأشيآء من كتم العدم إلى فضاء الوجود بالإيجاد نورا بالأولى ، بل هو نور النور لأنه مظهر النور ، ضرب الحق مثل نوره في قلب المؤمن وشبه صدره بالمشكاة أي الكوّة وقلبه في صدره بالقنديل في المشكاة وشبه معرفته بالمصباح أي الضوء في القنديل وشبه القنديل الذي هو قلبه بالكوكب الدري وشبه إمداده بمعرفته بالزيت الذي يُمِدّ السراج في الاشتعال .

وَنَهْجُ سَبيلي واضِحٌ لِمَن اهْتَدَى ... وَلكِـنَّما الأهْـوآءَ عَمَّتْ فَأعْمَتِ

وأصل النور الذي حصل به معرفة الله تعالى إنما حصل بمحض فضل الله تعالى لا بكسب ولا سبب ، وتحصل قوّته بعد ذلك باكتساب العبادات وإظهار الذل والمسكنة في جميع الحالات ولذلك جآء في الخبر : « إن الله خلق الخلق في ظلمة ثمّ رشّ عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضلّ » .

وقيل لعلي بن أبي طالب ﷺ : هل عرفت الله بمحمد ﷺ أو عرفت محمدا بالله تعالى ؟ فقال : لو عرفت الله بمحمد ﷺ ما عبدته ولكان محمد أوثق في نفسي من الله تعالى ، ولو عرفت محمدا بالله لما احتجت إلى رسول الله ﷺ ، ولكن الله عرّفني نفسي بلا كيف كما شآء وبعث محمدا ﷺ بتبليغ أحكام القرآن وبيان معضلات الإسلام والإيمان وإثبات الحجة وتقويم الناس على منهج الإخلاص فصدّقته بما جآء به .

فعلم أنّه يستحيل الوصول إلى معرفة الله بغير الله ولا سبيل إلى الله إلاّ بالله ، فإنّ الأفهام والأوهام والخواطر عاجزة قاصرة عن إدراك تصورها بصورها وعللها فكيف تطيق إدراك مصوّرها ومعللها وإنما الحق سبحانه خلق خلقه كما شاء على ما شاء ووفّق من شاء لما شاء وعرّف من شاء بما شآء . وقول علي ﷺ : ولكن الله عرّفني نفسي أي بالعجز والافتقار فعرفت أنّ لها ربا أوجدها ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : « من عرف نفسه عرف ربّه » أي من عرف نفسه بالعجز والافتقار عرف ربّه بالقدرة والغنى كما ذكرنا هذا ، وأوحى إلى داود ﷺ : اعرفني واعرف نفسك فقال إلهي عرفتك بالفردانية والقدرة والبقاء وعرفت نفسي بالضعف والعجز والفناء ، فقال : يا داود الآن عرفتني . إلخ .

وقـــال بعض السادات من أكابر الطريقة في بيان الشريعة والطريقة و الحقيقة : إن الشريعة إجراء الأحكام على ظاهرها ، والطريقة تعمّل وتكلّف في جمعيّة الباطن ، والحقيقة رسوخ تلك الجمعيّة . انتهى .

وقال الإمام الرباني ﷺ في « المكتوبات » ٩٦ : إنّ كلّا من الشريعة والحقيقة عين الآخر لا تمايز بينهما في الحقيقة غير الإجمال والتفصيل والاستدلال والكشف والغيبة والشهادة والتعمّل وزواله ، فإنّ الأحكام والعلوم التي صارت معلومة بموجب بيان الشريعة الغرّاء تنكشف تلك العلوم والأحكام بعينها تفصيلا بعد التحقق بحقيقة حق اليقين وتخرج من الغيبة إلى الشهادة ويرتفع تجسم الكسب وتمحل العمل من البين وعلامة الوصول إلى مرتبة حق اليقين مطابقة علوم ذلك المقام ومعارفه بعلوم الشريعة ومعارفها ، فلو بقيت المخالفة مقدار

شعرة فهو دليل على عدم الوصول إلى حقيقة الحقائق ، وكلما وقع من مشائخ الطريقة ممّا يخالف الشريعة من علم أو عمل فهو مبني على سكر الوقت ، وسكر الوقت لا يقع إلاّ في أثنآء الطريق ، وحال المنتهين إلى نهاية النهاية كلّه صحو ، والوقت مغلوب فعالهم ، والحال والمقام تابعان لكمالهم .

صوفِيْ ابنُ الوَقْتِ امد« ١ » في المِثالْ كُـلُّ صـافٍ فارِغٍ عَـنْ كُلِّ حالْ .

فتحقق من ذلك أنّ مخالفة الشريعة علامة عدم الوصول إلى حقيقة الأمر .

ووقع في عبارة بعض المشائخ أنّ الشريعة قشر الحقيقة ، والحقيقة لبّ الشريعة ، وهذا الكلام وإن كان منبئا عن عدم إستقامة قائله ولكن يمكن أن يكون مراده به أنّ المجمل حكمه بالنسبة إلى المفصل كحكم القشر بالنسبة إلى اللب والاستدلال في جنب الكشف كالقشر في جنب اللب ، وأما الأكابر المستقيمو الأحوال فلا يجوزون التكلّم بأمثال هذه العبارة الموهمة للمخالفة ولا يثبتون الفرق بينهما غير الإجمال والتفصيل والإستدلال والكشف انتهى .

وقال بعض السادات ﭬ في « المقامات » ١٨ : طريق أكابر النقشبندية كبريت أحمر مبني على متابعة السنة فالواجب أن يتحلى الباطن من نسبهم ويتزيّن الظاهر بكليته بمتابعة السنة ، وقال ﭬ : يتشرف واحد من الألوف بمرتبة الإخلاص ومقام الرضا ، وأما الأحوال والمواجيد والمعارف والمشاهدات والتجليات فمقدمات ومعدّات للمقصود الذي هو الإخلاص .

وقال ﭬ : الباطن متمم للظاهر ومكمل له ليس بينهما مخالفة أصلا فالأمور التي يشاهدها السالك في الطريق مخالفة للشريعة مبناها سكر الوقت وغلبة الحال لو ترقّى السالك من هذا المقام ودخل في الصحو لارتفعت المخالفة رأسا ، ومعنى هذا الكلام أنّ الطريقة والحقيقة متممتان ومكملتان للشريعة ، فالكذب باللسان حرام في الشريعة وبالقلب أيضا في الطريقة والحقيقة فما دام في نفيه

« ١ » علّه كلمة فارسية بمعنى : جاء

عن القلب فهو في الطريقة وإذا انتفى عنه فهو في الحقيقة فصارتا خادمتين للشريعة وتكميلها ، وقد أشرنا أيضا إلى هذا فيما ذكرنا في هذا .

ولقد أطنب الكلام شيخ شيخنا قدس الله أسرارهما في « جامعه »[1] في بيان الشريعة والطريقة والحقيقة وقال : أما الشريعة فهي الائتمار بالتزام العبودية ، والشرع في اللغة عبارة عن البيان والإظهار يقال : شَرَع الله كذا أي جعله طريقا ومذهبا ، ومنه المشرعة والشريعة والشرع والدين والملة والناموس كلّها بمعنى واحد ، والطريقة هي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى مع قطع المنازل والترقي في المقامات ، والحقيقةُ مِن : حَقَّ الشيءُ إذا ثبت والتآء للنقل من الوصفية إلى الإسمية ، وفي اصطلاح أهل اللغة حقيقة الشيء ما به الشيء هو هو وفي العرف ما به الشيء هو هو باعتبار تحققه حقيقةً ، وباعتبار تشخصه هوية مع قطع النظر عن ذلك ماهية ، والحق في اللغة هو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره ، وفي اصطلاح أهل المعاني : هو الحكم المطابق للواقع ويطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك ويقابله الباطل ، فمعنى حقيقة الشيء مطابقة الواقع إياه .

وقال النبي ﷺ : « علم الباطن سر من أسرار الله تعالى وحكم من حكم الله يقذفه في قلوب من يشآء من عباده » أخرجه الديلمى عن علي ﷺ .

وقال ﷺ : « العلم علمان فعلم في القلب فذلك النافع وعلم في اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم » أخرجه الحكيم عن الحسن مرسلا ، وقالوا : الشريعة أمر بالتزام العبودية دائما والحقيقة مشاهدة الربوبية فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبولة وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير مقبولة أيضا ، فالشريعة أن تعبد الله والحقيقة أن تشهده حقيقة فالشريعة قيام بما أمر والحقيقة شهود لما قضى وقدر وأخفى وظهر . انتهى .

« ١ » انظر : « جامع الأصول في الأولياء » للشيخ أحمد الكمشخانوي ﷺ ، ص ٢٢٦

وقال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في « بداية الهداية » : فاعلم أيها الحريص المقبل على اقتباس العلم المظهر من نفسه صدق الرغبة وفرط التعشق إليه أنك إن كنت تقصد بطلب العلم المنافسة والمباهات والتقدم على الأقران واستمالة وجوه الناس إليك وجمع حطام الدنيا فأنت ساع في هدم دينك وإهلاك نفسك وبيع آخرتك بدنياك ، فصفقتك خاسرة وتجارتك بائرة ومعلمك معين لك على عصيانك وشريك لك في خسرانك وهو كبائع سيف من قاطع الطريق كما قال ﷺ : « من أعان على معصية ولو بشطر كلمة كان شريكا له فيها » ، وإن كانت نيتك وقصدك بينك وبين الله تعالى من طلب العلم الهداية دون مجرد الرواية فأبشر فإن الملائكة تبسط لك أجنحتها إذا مشيت وحيتان البحر تستغفر لك إذا سعيت ، ولكن ينبغى لك أن تعلم قبل كل شيء أنّ الهداية التي هي ثمرة العلم لها بداية ونهاية وظاهر وباطن ولا وصول إلى نهايتها إلا بعد إحكام بدايتها ولا عثور على باطنها إلا بعد الوقوف على ظاهرها وها أنا أشير عليك « ببداية الهداية » لتجرّب بها نفسك وتمتحن بها قلبك ، فإن صادفْتَ قلبك إليها مائلا ونفسك بها مطاوعة ولها قابلة فدونك التطلع على النهايات والتغلغل في بحار العلوم ، وإن صادفت قلبك عند مواجهتك إياها بها مسوفا بأن يقول القلب مرة بعد أخرى سوف أفعل ذلك وبالعمل بمقتضاها مماطلا فاعلم أيها الطالب أنّ نفسك المائلة إلى طلب العلم هي النفس الأمّارة بالسوء وقد انتهضت مطيعة للشيطان اللعين ليدليك بحبل غروره فيستدرجك بمكيدته إلى غمرة الهلاك وقصده أن يروّج عليك الشرّ في معرض الخير حتى يلحقك بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وعند ذلك يتلو عليك الشيطان فضل العلم ودرجة العلمآء وما ورد من الأخبار والآثار في ذمّ علم لا ينفع وكم حديث في حقه وهي مذكورة في المطولات ليس هذا موضعها . انتهى .

ومثّل بعضهم للشريعة بالسفينة والطريقة بالبحر والحقيقة باللؤلؤ فلا يتحصّل اللؤلؤ من البحر ولا يتوسل إلى لجّة البحر إلاّ بالسفينة ، ومثل

بعضهم هذه الثلاثة بالنرجيل[١] فالشريعة كالقشر الظاهر والطريقة كاللب والحقيقة كالدهن الذى في باطن اللب فلا يتحصّل الدهن إلاّ بعد دق اللب ولا يتوصل إلى اللب إلاّ بخرق القشر ويقال للشريعة عبادة وللطريقة عبودية وللحقيقة عبودة .

وقال أبو علي الدقاق ﷻ : العبادة للعوام من المؤمنين والعبودية للخواص والعبودة لخاص الخواص ، وقال شيخ الإسلام ﷻ : فالصابر على مراد الله وهو حامل النفس على مشاق التكليف لطلب الجزآء عليه في مقام العبادة والراضي أي المطمئن بمراده تعالى في مقام العبودية والعارف في مقام العبودة . انتهى .

وقال الشيخ أبو العباس أحمد بن زروق ﷻ: فائدة الشيء ما قصد له وجوده وفائدته حقيقته في ابتدائه أو انتهائه أو فيهما ، كالتصوف علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها لله عما سواه ، وكالفقه لإصلاح العمل وحفظ النظام وظهور الحكمة بالأحكام ، وكالأصول لتحقيق المقدمات بالبرهان وتحلية الإيمان بالإيقان وكالطب لحفظ الأبدان ، وكالنحو لإصلاح اللسان إلى غير ذلك فافهم .

وقال أيضا : العلم بفائدة الشيء ونتيجته باعث على التهمّم به والأخذ في طلبه لتعلق النفس بما يفيد إن وافقها وإلاّ فعلى العكس ، وقد صح أنّ شرف الشيء بشرف متعلقه ولا أشرف من متعلق علم التصوف لأنّ مبدأه خشية الله التي هي نتيجة معرفته ومقدمة اتباع أمره وغايته إفراد القلب له تعالى فلذلك قال الجنيد ﷺ : لو علمت أنّ تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه . وهو واضح انتهى .

وقال في « رشحات عين الحياة »١٩٢ : إن التصوف ما قاله الشيخ الهروي ﷻ من أنّ التصوف تربية مليّنة قد رُشَّتْ عليها مويهة[٢] يسيرة فلا يقعد فيها

« ١ » أي : جوز الهند .
« ٢ » مصغر مياه .

غبار على ظهر القدم ولا يحصل منها في أخمص الرجل ألم ، وخلاصة التصوف تحمل الأثقال من الناس وكف ثقله عنهم صورة ومعنى اهـ .

وأما حقيقة المعرفة فقد قال شيخ شيخنا ﷺ في « جامعه » ٢٠٨ : هي في اللغة بمعنى العلم وفي اصطلاح أهل الحقيقة هي العلم بأسماء الله تعالى وصفاته مع الصدق لله تعالى في معاملته وجميع أحواله ودوام مناجاته في السر والرجوع إليه في كل شيء والتطهر من الأخلاق والأوصاف الردية وبالجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه ، وقيل : المعرفة معرفتان معرفة حق ومعرفة حقيقة فمعرفة الحق معرفة وحدانية الله تعالى بما أبرز للخلق من أسمائه وصفاته ومعرفة الحقيقة لاسبيل إليها لامتناع الإحاطة به علما لقوله تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾

واعلم أن الكمّل من أهل الحقيقة لم يتكلموا في المعرفة بأكثر من الاعتراف بالعجز عنها ، فأما من دونهم فقد تكلم فيها ، ولهذا قال بعضهم : الحق لا يعرفه سواه ومن عرفه فبه ، ويؤيد هذا قول أبي بكر الصديق ﷺ : الحمد لله الذي لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفته إلاّ بالعجز عن معرفته . وقال أبو حفص الحداد : منذ عرفت الله ما دخل قلبي حق ولا باطل . اهـ .

وذكر القطب الشعراني ﷺ في « البحر المورود »[1] وقال : إن الشريعة لبّ العقل والحقيقة لبّ الشريعة فهي كالدهن في اللبّ الذي يحفظه القشر ، فاللبّ يحفظ الدهن والقشر يحفظ اللبّ ، كذلك العقل يحفظ الشريعة والشريعة تحفظ الحقيقة ، ومن ادعى شرعا بغير عقل لم تصحّ دعواه كما أنّ من ادعى حقيقة بغير شرع لا يقبل ، قال : جمال صورتك في الآخرة يكون على قدر خواطرك المحمودة في الشريعة هنا وقبح صورتك في الآخرة يكون على قدر قبح خواطرك المذمومة ، فاجهد في نفسك قبل أن لا ينفعك الندم .

« ١ » انظر : « البحر المورود في المواثيق والعهود » للإمام عبد الوهاب الشعراني ﷺ

وقال : مرتبتك عند الله في التعظيم على قدر تعظيمه في قلبك وحيائك منه ، فإن اعتنيت به اعتنى بك وإن استحييت منه استحى منك وإن لم تبال به لم يبال بك ، فميزانك بيدك فإن شئت أرجِح وإن شئت أخسِر لا تَلُم إلاّ نفسك ، وقال : العلم يقتضي العمل ، فمن قال إن العلم يوجد بغير العمل فدعواه باطلة ومنزع ذلك دقيق جدّا من أجل مخالفة المتعدين حدود الله من المؤمنين ، فربما يقال لو كانوا عالمين ما خالفوهم وهم عالمون بلا شكّ بأنّ الله تعالى حدّ لهم حدودا معينة حرم الله عليهم تعدّيها فعلمهم بذلك عمل بالعلم ضرورة وما هم عالمون بمؤاخذة الله تعالى من عصاه على التعيين ، فما عصى إلاّ من ليس بعالم بالمؤاخذة فعلم أنه ما خالف عالم علمه قط بل هو تحت تسخير علمه فتأمّله فإنه دقيق اهـ .

وقال في « اليواقيت »في ١٠٢ : اعلم رحمك الله أنّ حقيقة الصوفي فقيه عمل بعلمه لا غير فأورثه الله تعالى بعلمه الإطلاع على دقائق الشريعة وأسرارها حتى صار أحدهم مجتهدا في الطريق والأسرار ، كما هو شأن الأئمة المجتهدين في الفروع الشرعية ولذلك شرعوا في الطريق واجبات ومحرمات ومندوبات ومكروهات وخلاف الأولى زائدا على ما صرحت به الشريعة كما استنبط المجتهدون نظير ذلك وأبطلوا أي مجتهدوا القوم العبادات والعقود بالإخلال بما أوجبوه وشرطوه أو بارتكاب ما حرموه هذا شأنهم ﵃ فما من أحد منهم حق له قدم الولاية إلا وهو مجتهد في الطريق ليس عنده تقليد إلا لما صرحت به الشريعة أو أجمع عليه الأمّة فقط فمن ادعى مقام الكمال وهو مقلد لعالم فهو غير صادق . وقد سمعت سيدي عليا الخواص ﵀ يقول مرارا : لا يكمل الرجل عندنا في الطريق حتى يأخذ العلم من حيث أخذه المجتهدون انتهى .

ثم مما اختص به الصوفية من غيرهم علمهم بالطريق الموصلة لهم إلى العمل بالكتاب والسنة فإذا قلت لهم إنّ مقصودي أن أزهد في الدينا بحيث لا يبقى عندي ميل عادي لها يقولون لك : أكثر من ذكر الله تعالى ليلا ونهارا حتى يرق حجابك فتدرك الآخرة بعين بصيرتك وتنظر ما لمن يزهد في الدنيا من

الدرجات والنعيم كما وقع لإبراهيم بن أدهم ﷺ ، فإذا رأيت ذلك زهدت لا محالة في الدينا ، ولو قال لك جمهور الناس : ارغب في الدنيا لا تصغ لهم ، ولو أنك يا أخي قلت ذلك لعالم لقال لك : إنّ الله تعالى أمرك أن تَزهد لا غير ، ولا يهتدي للطريق إلى ذلك ، فحكمه حكم طبيب يحفظ كتابا في الطب ولا يعرف علاج المرض ، فعلم أنّ سبب إنكار بعض الناس على الصوفية لدقة مداركهم ، ولو أن المنكر لزم الأدب لسلّم للقوم كل ما خالف فهمه مما لم يعارض كتابا ولا سنة ولا إجماعا .

وقد رأيت في كتاب « الرعاية » للشيخ عزّ الدين بن عبد السلام سلطان العلماء بمصر في عصره ما نصه : كلّ الناس قعدوا على رسوم الشريعة وقعد الصوفية على قواعدها التى لا تتزلزل ، قال : ويؤيد ذلك ما يقع على أيديهم من الكرامات والخوارق ولا يقع ذلك قط على يد عالم ولو بلغ في العلم ما بلغ إلاّ إن سلك طريقهم . انتهى « يواقيت »١٠٣

واعلم أنّ لكل شيء وجها ، فطالب العلم في بدايته شرطه الاستماع والقبول ثم التصور والتفهم ثم التعليل والاستدلال ثم العمل والنشر ، ومتى قدم رتبة عن محلها حرم الوصول لحقيقة العلم من وجهها ، فعالم بغير تحصيل ضُحَكَة ومحصل دون تصوير لا عبرة به وصورة لا يحصّنها الفهم لا يفيدها غيره ، وعلم عري عن الحجة لا ينشرح به الصدر ، وما لم ينتج فهو عقيم والمذاكرة حياته لكن بشرط الانصاف والتواضع وهو قبول الحق لحسن الخلق ومتى كثر العدد انتفيا ، فاقتصر ولا تنتصر واطلب ولا تقصر وبالله التوفيق . « قواعد » ١١ .

وقال الشيخ النابلسي في « خمرة الخان في شرح كتاب الشيخ أرسلان » قدس الله أسرارهم : الأعمال متعلقة بالشرع الشريف أي وهي فعل الأوامر القطعية والظنية والكف عن المناهي القطعية والظنية على وجه الإخلاص والخشوع متعلقة بالشرع الشريف أي منوطة به وتابعة له ومعلومة منه وموقوفة عليه وراجعة في معرفتها إليه بحيث لا حركة لمكلف ولا سكون في ظاهره وباطنه مما يسمى عملا واعتقادا إلاّ وله في الشرع الشريف حكم مخصوص لا يعلم

إلاّ منه أي من الشرع الشريف ، ولهذا كانت معرفة الشرع الشريف في السير إلى الله تعالى ما لم يندرج العبد في المقام الثاني إن كان من أهل الجدّ الصحيح اعتناء من الله تعالى به والواقف في هذا المقام الأول منقطع عن الله تعالى لعدم ترقيه إلى ما بعده . انتهى .

وقال شيخ شيخنا ﷺ في « الجامع » في ٢٢٦ : واعلم أنّ أهل الظاهر هم أهل الشريعة وأهل الباطن هم أهل الحقيقة وهما متلازمان حقيقة ، لأن الطريق إلى الحق تعالى لها ظاهر وباطن ، فظاهرها الشريعة وباطنها الحقيقة فبطون الحقيقة في الشريعة كبطون الزبد في لبنه فبدون مخض اللبن لا يظفر بزبده ، فالمراد من الحقيقة والشريعة إقامة العبودية على الوجه المرضي ، فكل شريعة لا حقيقة لها فهي عاطلة ، وكل حقيقة لا شريعة لها باطلة كما ذكرناه آنفا ، فالشريعة حق والحقيقة حقيقتها والشريعة القيام بأمر الشارع والحقيقة مشاهدة أمره ، ويجمعهما قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ شريعة ، و ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ حقيقة . فـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ لا يتوصل إليها إلا بقطع عقبتين : **الأولى** العلم النافع **والثانية** العمل المخلص ، و ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ لا يتوصل إليها إلا بقطع سبع عقبات : **الأولى** قطع عقبتي ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ . **والثانية** : عقبة فطم الجوارح عن المخالفات الشرعية . **والثالثة :** فطم النفس عن المألوفات العادية . **والرابعة :** فطم القلب عن الرعونات البشرية . **والخامسة :** فطم السرّ عن الكدورات الطبيعية ، **والسادسة :** فطم العقل عن الخيالات الوهمية ، **والسابعة :** فطم الروح عن غير ربّ البرية . فإذا باشرت بقطع تلك العقبات الصورية فتشرف من العقبة الأولى على إخلاص النية بالأعمال العلمية ، ويظهر لك في العقبة الثانية ينابيع الحكمة القلبية ، وتطلع من العقبة الثالثة على أسرار العلوم اللدنية ، ويلوح لك في العقبة الرابعة أعلام المناجات الملكوتية ، ويلمع لك في العقبة الخامسة أنوار المنازلات القربية ، ويضيء لك في العقبة السادسة أقمار المشاهدات الحبية ، وتهبط من العقبة السابعة إلى رياض الحضرة القدسية ، فهنالك تغيب بما تشاهده من اللطائف الأنسيّة فتتحير في

وقت الحضور وتندهش في حالة الظهور وتغيب عن حسّك بمشاهدة ذلك النور ، فحينئذ تكون لك الثروة والسرور ، فإذا فنيت ذاتك وذهبت صفاتك قام ببقآئه عن فنائك وبصفاته عن صفاتك وخلع عليك خلعة فبي يسمع وبي يبصر فيكون هو متوليك ومولاك ، فإذا نطقت فبأذكاره وإذا نظرت فبأنواره وإذا تحركت فبأقداره وإذا بطشت فباقتداره فحينئذ تكون من أعلى طبقات الناس ، وطبقاتهم ذكرتها في فصل بيان أهل الله تعالى والله يعصمك .

فإن قيل : ما الفرق بين الشريعة والحقيقة ؟ قلت : الشريعة ما ورد به التكليف والحقيقة ما ورد به التعريف فالشريعة مؤيدة بالحقيقة والحقيقة مقيدة بالشريعة ، فمن كل وجه كل شريعة حقيقة وكل حقيقة شريعة ، وفي عرف القوم فرق بينهما فالشريعة بواسطة الرسل والحقيقة تقريب بغير واسطة ، وربما يشار بالشريعة إلى الواجبات بالأمر والزجر وبالحقيقة إلى المكاشفات بالسرّ ، والشريعة وجود الأفعال والحقيقة شهود الأحوال والشريعة القيام بشروط الفرق والحقيقة الكون بحقوق الجمع ، إلى آخر الكلام« جامع الأصول »٧٢ .

وقال أبو سليمان الداراني ﷺ : ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا : طلب معاش أو تزوج امرأة أو كتب الحديث ، واعلم أنه ينبغي لطالب الحق أن يحصل من العلوم الشرعية ما يفرق به بين الحق والباطل ويشتغل بالعلوم الرسمية والقوانين المتداولة قدر ما يقدر على استخراج الحديث والتفسير من غير تعمق في الفلسفيات وغوامض العلوم ، فإنه زائد على قدر الكفاية منهي عنه على أصول أهل الشريعة والطريقة . فهذا أول الأمر في هذا الباب .

وقال الشيخ محمد بن عبد الله الخاني ﷺ في « بهجته » : إنّ تعلم علم الباطن من المهلكات والمنجيات وآداب السلوك والمعاملات فرض عين على كل من لم يرزق قلبا سليما بالجذب الإلهي والعلم اللدني والنفس القدسية الفطرية وقليل ما هم ، وأحكام الدين إنما تبنى على الأكثر الأغلب ، وتعلم

علم الظاهر لا يغني عن استفادته كما ثبت ذلك عن كثير من العلماء الأكابر المتقدمين والمتأخرين . اهـ ملخصا ص٤ .

وأما أمر النهاية وهو ما بعد التحصيل والتكميل فإن السالك بقدر اشتغاله بالعلوم الظاهرة زاد بعدا عن درك الحق ، لأن السلوك يتبنى على التخلي والانقطاع وترك الكلام والاستماع وتفريغ الباطن من العلائق ولو كانت علوما وطرح المشاغل الخارجية والداخلية من البين خصوصا وعموما . فقول بعضهم بنفي الاشتغال لأهل السلوك يبنى على هذا المعنى لا على الترك من الأصل كما يزعمه جهلة الصوفية نعوذ بالله من هذا ، فإنّ العلم مطلقا هو النور وبه يهتدي السالك إلى مسالكه .

وأما أرباب النهاية من أهل السلوك فلا يمكن حصر أحوالهم ، فإنهم لا يحتجبون لا بالكثرة عن الوحدة ولا بعكسها ، إذ هم تجاوزوا عن مقام الأغيار بل شاهدوا أينما قلبوا الأحداق الأنوار ، بل حققوا بالحقيقة فلا أغيار عندهم لا حقيقة ولا اعتبارا ، ولذا حبب إلى النبي ﷺ النساء وذلك لأن محبته ﷺ ليست كما يعرفها الناس بل سرها مستور لا يطلع عليه إلا من فاز بالوراثة الكبرى .

يقول الفقير جامع هذه المجالس النفيسة : إنما بسطت الكلام في هذا المقام لئلا يظن أحد أن قوله فيما سبق أو كتب من خرافات الصوفية ، بل له محمل على ما أشرت إليه ، ومن لم يسلك هذا الطريق لم يعرف قدر خطوات أهل التحقيق والتدقيق « روح البيان » في ورقة ٢٥١ .

وسئل العارف بالله السيد أحمد بن إدريس الحسني رضي الله عنه عن﴿الأمانة﴾في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ فأجاب : إنّ الأمانة هي الشريعة لأنه هو الذي أهل لها ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان خلقة لم يخلق عليها شيئا غيره ، فبهذه الخلقة تأهل لحمل الشريعة .

ثم ضرب لنا مثلا فقال : إن المدر إذا عمل ماعونا«١» لوضع شيء آخر خمر الطين ثم يصنع ويعاد على النار ، فإذا كان كذلك صار أمينا لا يخون ، كذلك الإنسان خلقه في أحسن تقويم فتأهل لحمل الشريعة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ أي ناقصا بدليل ولم تظلم منه شيئا ﴿جَهُولًا ﴾ أي جاهلا عن الشرع ناقصا عن الكمال قبل حمل الأمانة ، فلما حملها صار تاما عالما وأيّ علم أعظم من العلم الذي جهلته الملائكة فعلمه هو وعلمه الملائكة .

فمن خان في هذه الأمانة وهي الشريعة بعد حملها فقد رُدَّ إلى أسفل سافلين ، ومن آمن بها وعمل الصالحات فله أجر غير ممنون ، ثم إذا حفظ الأمانة حق حفظها صار الحق سمعه وبصره إلى آخر الحديث ، فهذا الجوهر الإنساني أمره عظيم لكنه لم يعرف قدره ، فإن الله سبحانه وتعالى لما جعله خليفة في أرضه أودعه وسط الممالك التي خلقت من أجله لينظر إلى جميع أطرافها فهو ما بين السموات والأرضين السبع وجميع ما فيهن مسخرات له كما يَضِنُّ«٢» الملك بأنفس الجواهر فيضعها في جوف سبعة صناديق .

ثم من الأمانات أيضا النفس والمال لأن الله سبحانه وتعالى قد اشترى من المؤمنين أيضا النفس والمال لأن الله سبحانه وتعالى قد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ثم أودعها إياهم أمانة وأمرهم أن يحكموا فيها بالعدل ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ فأداء الأمانة إلى أهلها هو أن يبذل الإنسان نفسه في سبيل الله إما في الجهاد الأكبر أو الأصغر وينفق ماله ، فمن فعل ذلك فقد أدّى الأمانة إلى أهلها والله سبحانه وتعالى هو أهلها ، ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾

فكلّ إنسان يحكم في أعضائه ونفسه بالعدل ، والعدل هو الله وكل إنسان في نفسه هو الناس والحكم بالعدل في النفس والمال اللذين هما أمانة أن تطعم هذه النفس من هذا المال ما تتقوى به على طاعة الله بالمعروف من غير إسراف ولا تبذير ، ثم ما فضل منه أمرهم أن ينفقوه في سبيل الله و هو على سبيل

« ١ » الماعون هو الإناء من الخزف تقدم عليه أواني الطعام .
« ٢ » أي يبخل

القرض يدخر لهم إلى الآخرة مضاعفة ، فإذا صار الإنسان حافظا للأمانة هذا الحفظ متصرفا فيها كما أمره صاحب الأمانة فهو داخل فيمن قتلوا في سبيل الله إذا ماتوا فإنهم أحياء ، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ، بل شهادته أعظم من شهادة من قتل في سبيل الله بالسيف ، لأنه قتل بسيف الحب والشوق في الجهاد الأكبر والشهادة في الجهاد الأكبر أعظم منها في الجهاد الأصغر ، وكذلك إنفاق المال . قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ، ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ، يعني أن المال كلّه لله ثم ادعيتم فيه الملكية فأقرّكم على ذلك ثم اشتراه منكم وأودعكم إياه أمانة ثم بعد أن قبضكم اليه قسم مالكم لمن يريد فأنزل آيات الميراث وذلك إن الأنبيآء لا يورثون شيئا لأنهم لم يدّعوا الملكية أبدا بل ما أمنهم الله تعالىعليه من المال صرفوه فيما أمرهم فلم يملكوا شيئا . عقد النفيس » ١٢٠ .

واعلم أن الحقيقة نتيجة الطريقة والطريقة نتيجة الشريعة كأنك إذا صفيت الشريعة يعني إذا عملت بما هو أقرب إلى الورع والتقوى غير ملاحظ إلى الرخصة تظهر منه الطريقة ، وإذا نقّحت الطريقة يظهر منها أسرار الحقيقة وليس المراد بالرخصة هنا ما هو كقصر الصلاة والجمع والفطر وغيرها بل المراد مثل مداراة الناس والإقبال على الأسباب من الوجه الحلال وادخار الأموال بعد إخراج زكاتها وإعداد النوائب فهذا كله مباح في الشرع إلا أنه نزول عند القوم عن درجة الزهد والتوكل ، وقيل عن الشريعة والطريقة والحقيقة : فإذا أكل الصائم عمدا بطل صومه في الشريعة ، وإذا اغتاب أفطر في الطريقة وإذا خطر بباله ما سوى الله أفطر في الحقيقة . فلا يمكن الوقوف على أسرار الحقيقة إلا بإثبات الأعمال المبينة ببيان صاحب الشرع ، لأن كل طريقة تخالف الشريعة فهي كفر وكل حقيقة لا يشهد لها الكتاب والسنة فهي إلحاد وزندقة ، والكلام للسادات القادات كثير ليس هذا موضع بسطها وفي المذكور غنية ، والله ولي التوفيق .

ثم اعلم أن الاختلاف في الحكم الواحد نفيا وإثباتا إن ظهر ابتناء أحدهما على أصل لا يتم الاحتجاج به فهو فاسد ، وإن أدى إلى محال فهو باطل بخلاف ما ظهر ابتناؤه على أصل يتم الاحتجاج به ولا تنزع الحجة من يد مخالفه حيث يكون الكل صحيحا ، ومن ثم تفرّق بين خلاف وإختلاف فنكفر من آل قوله لمحال في معقول العقائد ونبدع من آل به لذلك في منقولها إن التزم القول باللازم وإلا نظر في شبهته فنجري له حكمها عن خلاف بين العلماء في لازم القول ولا نكفر ولا نبدع من لازم قوله غير محال إذ لا نجزم بفساد أصله مع احتماله . وبهذا الوجه يظهر قبول خلاف أهل السنة بينهم مع ردّهم للغير عموما وهو جار في باب الأحكام الشرعية في باب الرد والقبول فتأمّل ذلك تجده وبالله التوفيق . « قواعد » ١٠ .

وقال صاحب « تنوير الصدر » في ١٩٢ : المعرفة الواسعة هي الانقطاع إلى الله تعالى بسبب معرفة أسمائه وصفاته والتخلق بهما فينقطع رجآؤه من غيره تعالى إذ حقيقة المعرفة هي إدراك الشيء في ذاته وصفاته من الوجه الذي هو به هو هو ومعرفته تعالى عزيزة لا تدرك بالعقل بل نعرفه بأسمائه وصفاته كما علمت اهـ « تنوير » ص١٩٢ .

فصل

في التوبة وشروطها

اعلم أيها الأخ الصالح أيدك الله تعالى بالتقوى أن التوبة باب عظيم في هذه الطريقة خاصة وفي غيرها عامة وهي مفتاح السعادة وكنز الاستقامة ووسيلة العاصين ودرجة الصالحين ورأس مال السالكين ، فكم يجبر بها الكسير ويفوز بها المحروم الفقير وينال بها المقامات ويرتقي الدرجات .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي التي كتب على نفسه قبولها بفضله ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ أي جاهلين إذا عصوا ربهم ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن﴾ زمن ﴿قَرِيبٖ﴾ قبل أن يغرغر وقبل أن يحيط السوء بحسناته فيحبطها أو في صحته قبل مرض موته ، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ ﴾ فلا تنفعه ولا تقبل منه ﴿وَلَا الَّذينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ ، وقال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ .

وأخرج الشيخان والترمذي عن الحرث بن يزيد قال قال ابن يزيد قال : قال ابن مسعود : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض ذئيبة مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شآء الله قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه . فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده » .

ومسلم : « يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إليه مائة مرة » وابن ماجه : « لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السمآء ثم تبتم لتاب الله عليكم » والطبراني والبيهقي : « صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال فإذا عمل العبد حسنة كتبها بعشر أمثالها وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين أمسك فيمسك ستّ ساعات فإن استغفر الله منها لم يكتب عليه شيئا وإن لم يستغفر الله كتب عليه سيئة واحدة » ، وابن ابي حاتم وابن مردويه : « التوبة النصوح الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله ثم لا تعود إليه أبدا » .

والطبراني وأبو نعيم : « الندامة توبة والتائب من الذنب كمن لا ذنب له والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه » ، والترمذي : « إن الله ﷻ يقبل توبة العبد مالم يغرغر » ، ومسلم : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » .

والشيخان عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل العلم«١» فدلّ على راهب فـأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمل مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدلّ على رجل عالم فقال له إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا أنصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة : جآءنا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى وقالت ملائكة العذاب : ولم يعمل خيرا قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي فحكّموا بينهم«٢» فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة » .

« ١ »الحديث كما في كتب السنن : « فسأل عن أعلم أهل الأرض »
« ٢ » في رواية فجعلوه بينهم

وفي الحديث الصحيح أنه ﷺ قال : « إن المؤمن إذا أذنب نكت نكتة سودآء في قلبه فإن تاب واستغفر صقل قلبه وإن لم يتب زادت حتى تعلو قلبه » أي تغشاه وتغطّيه تلك النقطة السودآء فذلك الران الذي ذكره الله تعالى في كتابه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ، اللهم إنّا نستغفرك ونتوب إليك ونستعينك على أن لا نعود إلى معاصيك .

تنبـــــيه : قال بعض الأكابر من السلف : التوبة اليوم رخيصة مبذولة وغداً غالية غير مقبولة .

والتوبة وهي في اللغة : الرجوع عن الذنب ، وكذلك التوب ، قال الله تعالى : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾

والتوبة في الشرع الرجوع عن الأقوال والأفعال المذمومة إلى المحمودة ، وهي واجبة على الفور عند عامّة العلماء لما في تأخيرها من الإصرار المحرّم والتوبة فرض عين فمن قال أنها ليست بفرض فقد كفر فليس شيء من الأشياء أوجب على الخلق من التوبة ، ولا عقوبة أشدّ عليهم من نسيان التوبة ، فلا بدّ من التوبة والإنابة .

قالوا : إذا فاتتك التقوى و الاستقامة فلا تفوتنك التوبة والإنابة ، وقيل إن التوبة النصوح هي البالغة

وقيل : أن يتوب ولا يعود إلى ما تاب عنه أبدا ، كما قال الله تعالى : ﴿ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ .

التوبة واجبة فورا من كلّ ذنب ولو صغيرا ، فمن أخّرها زمنا يسعها كان عاصيا بتأخيرها ، قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : وكذلك يتكرر عصيانه بتكرر الأزمنة المتسعة فيحتاج إلى توبة عن تأخيرها كما يحتاج إليها عن الذنب المتقدم .

ويجب تجديد التوبة عن المعصية كلما ذكرها بعد التوبة على ما زعمه القاضي أبو بكر الباقلاني ، فإن لم يجددها فقد عصى معصية جديدة تجب التوبة منها .

ثم إن علم ذنوبه على التفصيل لزمه التوبة عن آحادها على التفصيل ولا يكفيه توبة واحدة ، فالتوبة من جملة الذنوب من غير ذكر تفاصيلها غير صحيحة ، قال الزركشي : وهذا ظاهر ، وقال ابن عبد السلام : يتذكر من الذنوب السالفة ما أمكن تذكرّه ، وما تعذّر فلا يلزمه ما لا يقدر عليه ، وقال القاضي أبو بكر : إن لم يتذكر تفصيل الذنب فليقل : إن كان لي ذنب لم أعلمه فإني تائب إلى الله .

واعـــــــلم أن التوبة في نفسها طاعة وعد الثواب عليها ، وأما زوال العقاب الأليم فهو مفوض إلى الرب الحليم التواب الرحيم .

وشروط التوبة المسقطة للإثم ظنا لا قطعا :

١ . أن يندم على فعل الذنب من حيث المعصية

٢ . وأن يعزم على أن لا يعود إليه أو إلى مثله خالصا لله تعالى

٣ . وأن يقلع عنه حالا إن كان متلبسا به أو مصرا على المعاودة إليه

٤ . وأن يخرج عن المظالم والزكاة إن كانت بردّها أو بدلها إن تلفت لمستحقها ما لم يبرئه منها ، ومنه قضآء صلاة وصوم وإن كثرا . فإن اختلّ شرط من الشروط المذكورة لم تصح توبته .

٥ . وأن يستغفر الله تعالى من ذنبه بلسانه ظاهرا وبقلبه باطنا على ما زعمه القاضي حسين والقاضي أبو الطيب والمأوردي وغيرهم .

ويجب في التوبة عن قود أو قذف أن يُعْلِمَ المستحق ويمكّنه من الاستيفآء ، ومن نحو غيبة أن يستحل المغتاب منها إن علم وإلا استغفر لنفسه ودعا له كالحاسد ، ربنا تقبّل توبتنا واغسل حوبتنا وتحمّل تبعاتنا بمنّك وكرمك آمين ،

اللهم إنا نستغفرك من كل ذنب أذنبناه استعمدناه أو جهلناه ونستغفرك من كل ذنب تبنا إليك منه ثم عدنا فيه ونستغفرك من الذنوب التي لا يعلمها غيرك ولا يسعها إلا حلمك ونستغفرك من كل ما دعت إليه نفوسنا من قبل الرخص فاشتبه ذلك علينا وهو عندك حرام ونستغفرك من كل عمل عملناه لوجهك فخالطه ما ليس لك فيه رضآء لا إله إلا أنت يا أرحم الراحمين .

انعطاف : قال العارف بالله السيد أبو العباس أحمد بن إدريس الحسيني المغربي ﷺ : قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ إلى قوله : ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، فابتدأهم الله سبحانه وتعالى بالتوبة وحباهم بها ، وكل واحد منهم ذنبه على قدره ، وأما رسول الله ﷺ فليس له ذنب كيف وهو معصوم ، ولكن لما عرف قدر الله سبحانه وتعالى حق قدره نزل نفسه منزلة المقصّر في حقه وكان ذلك ذنبا عنده فتاب عليه الحق سبحانه وتعالى باعتبار ما عنده من تسمية ذلك ذنبا ، إذ كل واحد له ذنب باعتبار ما عنده وإن كان ليس ذنبا حقيقة ، فتاب عليهم جميعا ولم يكلهم فيها إلى أنفسهم شيئا بخلاف ﴿ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ إلى قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فقال : ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ فوكلهم إلى أنفسهم في التوبة ، لكن لولا أنها سبقت توبة الله عليهم ما قدروا على التوبة ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ، فافهم . انتهى .

وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ الاية ، وفي هذه الآية إشارة وبشارة ، أما الإشارة فهي التوبة والرجوع وأما البشارة فقبول التوبة ، فإنه تعالى لو لم يقبل التوبة لما أمر بها والأمر دليل القبول لكن مع رؤية القصور .

وقال الإمام الرباني ﷺ في « مكتوباته » في ١٠٩ : أيها المخدوم المكرم والمشفق الأكرم إن تيسرت لك التوبة عن جميع الذنوب وحصل الورع والتقوى من جميع المحرمات والمشتبهات فتلك نعمة عظيمة ودولة قصوى جسيمة ، وإلا فالتوبة من بعض الذنوب والورع من بعض المحرمات أيضا مغتنمة ،

ولعل بركات ذلك البعض وأنواره تسري في الأبعاض الأُخر وتُيَسّر التوفيق للتوبة والورع من سائر المعاصي أيضا ، **وما لا يدرك كله لا يترك كله** اللهم وفّقنا لمرضاتك وثبتنا على دينك وعلى طاعتك بحرمة سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحابته أجمعين إلى يوم الدين .

ويروي محمد بن علي الباقر عن أبيه عن أبيه عن أبيه أمير المؤمنين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين قال : في الأرض أمانان من عذاب الله تعالى فرفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسّكوا به ، أما الأمان الذي رفع فهو رسول الله ﷺ وأما الأمان الباقي فهو الاستغفار ، قال الله جل وعلا : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

قال صاحب « نهج البلاغة » : وهذا من محاسن الاستخراج ولطائف الاستنباط « كشكول » .

وسئل السيدُ الشريف العارف بالله السيد أحمد بن إدريس الحسيني المغربي قُدِّسَ سِرُّهُ ونفعنا ببركاته : هل للقاتل توبة ؟ قال : نعم ، قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ ، فيبدل قتله ذلك كأنما قتل كافرا في سبيل الله تعالى ، وعبادته لغير الله كأنما عبد الله في تلك المدة ، وزناه كأنه نكح أهله .

كذلك ما رواه البخاري وغيره فيمن قتل تسعة وتسعين نفسا وحبرا ، وقتل الحبر أعظم البلآء ، وقد ذكرنا قصته في هذا الفصل وهذ الرجل كان من بني إسرائيل مع أن الله تعالى كتب عليهم أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ، فهو كمن قتل الناس جميعا مائة مرة ، فما ظنك بمن كان من هذه الأمة وقد رفع عنهم إصرهم وبقي لهم الخير ممن سبق من الأمم قبلهم ، فمن قتل منهم نفسا فما قتل إلا إياها ، لا يكون كمن قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما

أحيا الناس جميعا فهو بالتوبة أحق وأجدر ، وأما ما قال ابن عباس ﵄ : لا توبة لك ، فذلك رجل كان يقتل ثم يتوب فقال : هل لي من توبة ؟ فقال له : لا توبة لك ، لأن نيته أن يقتل ثم يتوب ، لأن ذلك إصرار .

وأما من فعل الذنب ثم بعد أن فعله تاب وندم إنما غلبه هواه والشيطان وحكم عليه القدر ، فتلك توبة مقبولة لا محالة ، ومن ثم ما كان من الزجر الوارد في الكتاب أو في السنة يبقى على حاله كقوله ﷺ : « سبعة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : الناكح يده والزاني بحليلة جاره والضارب والديه حتى يستغيثا والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه ومدمن الخمر والفاعل والمفعول به » وأمثال ذلك لأن معاملة الله سبحانه وتعالى لعبده يوم القيامة على مقتضى حكمته ، كذلك هذا الرجل الذي من بني إسرائيل قتل المائة من ذا يعلم أن مثله يتاب عليه إذا قتل ، وقد ورد في حديث : « أنه يخرج رجل من النار بعد كذا أعواما واسمه هناد » وهو مقطوع بخروجه من النار إلى الجنة فأي مزية أعظم ، وفي حديث آخر : « إنه توزن أعمال رجل فتستوي الحسنات والسيئات فيقال له : لو زادت حسنة لرجحت ودخلت الجنة فامض إلى الناس فالتمس منهم حسنة فلا يرضون ، فيمرّ على أناس لهم حسنات كالجبال فيستعطيهم حسنة فلا يرضون ، فيمرّ برجل له حسنة واحدة وسيئات كثيرة فيقول له خذ هذه الحسنة التي معي فإنك أحق بها مني لكونك بها تدخل الجنة ، فيقال له : خذ بيده وادخلا الجنة » وهذا الإيثار عند الله أمر عظيم .

قال عليه الصلاة السلام : « علامة التوبة الندم والنادم ينتظر من الله الرحمة والمعجب ينتظر المقت » . وقال عليه الصلاة والسلام : « الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض مهلكة . . » إلى آخر ما قال .

والتوبة أهم قواعد الدين وأول منازل السالكين وأصل مقامات الطالبين ، ولها شروط ذكرناها فمنها : الندم وعلامة صحة الندم رقة القلب وغزارة الدمع ، وتوبة الكذابين على أطراف ألسنتهم يعني قوله أستغفرالله وقلبه مصر ، إلا إن كان الاستغفار من أصل القلب حتى يستغفر من استغفاره .

والمعنى : اطلب أيها المكلف متابا حال كونك متلبسا بالندامة أي التحسر والتحزن على ما فاتك من العمر في المخالفات ، وحال كونك مقلعا عن الذنب في الحال إن كنت متلبسا به أو عازما على العود إليه ، بأن تتركه وتقوم في الحال على أحسن الحالات ، وحال كونك متلبسا بعزم ترك الذنب فيما يستقبل من الزمان الى آخر عمرك عزما جازماً ، وحال كونك متلبسا ببرآءة الذمة من كل حق الآدمي كمال أو قود ، أي إذا تعلق بالتائب حق الآدمي اشترط تبرئته ذلك .

وفي حق المظلمة كلام كثير وأحاديث ثابتة ، وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى : ظواهر السنة تقتضي ثبوت المطالبة بالظلامة وإن كان معسرا عاجزا عاصيا باستدانته ، فأما إذا استدان في موضع يباح له الاستدانة وعجز عن الوفآء إلى أن مات فالظاهر أنه لا يطالب في الآخرة ، والمرجوّ أن الله تعالى يعوض صاحب الحق .

ويجب على التائب دوام الانكسار وملازمة الاستغفار كما قالوا : التوبة استشعار الوجل إلى الأجل ، وعلى التائب أن يحفظ الأعضاء السبعة إلا من حقوقها ، فيجب عليك حفظ العين عن النظر إلى محرم قال عليه الصلاة والسلام : « النظر سهم مسموم من سهام إبليس المرجوم » لأنه يدعو إلى الفكر والفكر يدعو إلى الزنا ، وقال عليه الصلاة السلام : « العين تزني والقلب يصدق ذلك أو يكذبه »«١» ، وقال عليه الصلاة و السلام : « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النسآء » .

وقـــــال بعضهم: إياك والنظر فإنه ينقش في القلب صورة المنظور وإنما الدنيا عيوبها بادية ، كم فتحت باب بلية ولا حيلة كحيلةِ عَيْنٍ كَحِيلَةٍ .

ونقل عن « الإحياء » : إن الله تعالى يسأل عبده يوم القيامة عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ، واحفظ المتاب بحفظ اللسان عن الكذب والخلف في الوعد والغيبة والمجادلة ومدح النفس واللعن والدعاء على الخلق

« ١ » الحديث كما في كتب السنن : « العين تزني والقلب يزني فزنا العين النظر وزنا القلب التمنّي والفرج يصدّق ما هنالك أو يكذّبه »

بالهلاك والمزاح الكثير ، واحفظ المتاب أيضا بحفظ باقي الأعضاء كالأذن عن الإصغاء إلى ما لا يليق وكالأنف عن شمّ ريح الأجنبية وكالبطن عن المحرمات والشبهات والشهوات التي لا تليق وكالفرج عن كل حرام وكاليد عن أن تضرب معصوما أو تتناول بها مالا حراما أو تؤذي بها أحدا من الخلق أو تخون بها في وديعة أو تكتب بها ما لا يجوز النطق به وكالرجل فتحفظها عن المشي إلى حرام أو الذهاب إلى باب سلطان ظالم مع الرضا بظلمه وكالقلب من الحسد والرياء والعجب ، والكذب مفتاح جميع المنكرات ووسيلتها ولذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « من أراد أن يلعن نفسه فليكذب »وكفى لك هذا نصحا . وإن التوبة أيضا مفتاح للطاعات وللفتوحات الدينية والدنيوية وأساس لكل الخيرات فعليها تنبني المقامات .

قيل لبعض العارفين وهو يوسف بن حسين الرازي رضي الله عنه : إنك لا تدرك مرادك من أملك حتى تتوب من زللك ، فقال : لو أن التوبة تُطرق بابي ما أذنت لها في الدخول على أني أنجو بها من عذاب ربي ، ولو أن الصدق والإخلاص عبدان لي لبعتهما زهدا فيهما ، لأني إن كنت في الأزل سعيدا مقبولا لم أتخلف لكثرة الذنوب أو شقيا مخذولا لم تسعدني توبتي وإخلاصي وصدقي ، وإن الله خلقني بلا عمل ثم هداني لدينه فاعتمادي على كرمه أولى من اعتمادي على أفعالي المدخولة وصفاتي المعلولة إن كنت حرا عاقلا ، لأن مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا من قلة المعرفة لنا بالكريم المتفضّل انتهى .

فانظر إلى دقة كلام العارف وإن لم يقبل بعضها الظاهر الخ ، وهذا كلام من فني عن حظوظه وفني عن الفناء وليس لأمثالنا التعلق به ولا التعريج عليه ، والحاصل أن العبد يعمل الطاعات ويترك المخالفات عبودية لله تعالى وامتثالا لأمره ولا يعتمد عليها بل على محض فضل الله تعالى مع القيام بشكره حيث أوجد فيه الطاعات وأبعده عن المخالفات ويعلم أن ذلك علامة على إرادة الله تعالى الخير به ولا يغفل عن رؤية المنة لله تعالى حيث أوجده فيه ولم يوجد

ضده من غير اعتقاد تأثير للأعمال ولا اعتماد عليها في حال من الأحوال ، وهذا لا يكون إلا لأهل الشهود الذين غرقوا في مقام الإحسان فيشهدون الكل من الله وبالله ويلازمون على قول (باسم الله) مع الحضور مع المذكور والغيبة عما سواه ، ومن شهد الأفعال من الله تعالى حقيقة ينتفي عنه العجب بعمله لأنه لا يرى لنفسه عملا . انتهى

وقال شيخ شيخنا ﷺ في « جامع الأصول » في ١٦٣ : واعلم أنه لا بدّ له قبل ذلك كله من التوبة النصوح ، وهي التوبة البالغة .

وقيل هي أن يتوب ولا يعود إلى ما تاب عنه أبدا .

وقال يحيى بن معاذ ﷺ : زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين زلة قبل التوبة .

وقال ذو النون ﷺ : الاستغفار من الذنب من غير إقلاع عنه توبة الكاذبين .

ثم اعلم أن **أول** مقدمات التوبة انتباه القلب من رقدة الغفلة ونظر العبد فيما هو عليه من سوء الحال والإصغاء إلى زواجر الشرع بسمع القلب ، ولهذا قال عليه الصلاة و السلام : « واعظ الله تعالى في قلب كل مؤمن » . **وثاني** المقدمات هجران رفقاء السوء لأنهم يمنعون عن التوبة قولا وفعلا ، ومن تاب ثم لم ينقض توبته فهو من السعداء وإن نقضها مرة أو مرات ثم جددها فإنه يرجى له أيضا الثبات عليها فإن لكل أجل كتابا .

وحكي عن أبى حفص الحداد ﷺ قال : تركت الصنع كذا وكذا مرة ثم عدت إليها ثم تركتها ولم أعد إليها .

وقال أبو علي الدقاق ﷺ : تاب بعض المريدين ثم ترك التوبة ، ففكر يوما أنه لو عاد للتوبة هل يقبل منه ذلك أم لا فهتف به هاتف : يا فلان أطعتنا فشكرناك ثم تركتنا فأمهلناك ولو عدت إلينا قبلناك فعاد المريد إلى التوبة وبلغ المقصود .

وأول ما يبدأ به التائب بعد التوبة إسقاط مظالم العباد وحقوقهم عن ذمته بالأداء أو الإبراء ، فإن عجز عن ذلك يكون أبدا عازما على إيصال ذلك الحق إلى مستحقه متى قدر عليه ، ولا يزال يدعو لصاحب الحق إلى أن يوفيه حقه أو يبرئه منه ، ثم يلزم الاعتزال عن الناس والانقطاع إلى الله لقضاء حقوق الله الفائتة والندم والبكاء ، وتمام الاستغفار في وقت السحر على ما فرط في جنب الله وعلى ما ضيّع فيه شبابه وصحته .

واعلم أنه لا ينبغي للعصاة والمذنبين أن ييأسوا من رحمة الله تعالى في قبول توبتهم ومحو حوبتهم وإن كثرت ذنوبهم وعظمت وتكرر منهم نقض التوبة والإصرار على الكبائر ، فإن ذلك غلط عظيم وسبب لفوات التوبة والبقاء في الذنوب أبدا ، بل ينبغي إذا عرض لهم مثل هذا الحال أن يعلموا أن ذلك من كيد الشيطان ومكره في منع الإنسان عن التوبة وإبقائه مصرا على الذنب مدة حياته نعوذ بالله من ذلك انتهى .

وقال العارف بالله أبو العباس أحمد بن محمد الشهير بزروق ﷺ : تعتبر دعوى المدعي نتيجة دعواه فإن ظهرت صحت وإلا فهو كذاب ، فتوبة لا تتبعها تقوى باطلة ، وتقوى لا تظهر بها استقامة مدخولة ، واستقامة لا ورع فيها غير تامة ، وورع لا ينتج زهدا قاصر ، وزهد لا يثير توكلا يابس ، وتوكل لا تظهر ثمرته بالانقطاع إلى الله تعالى عن الكل واللجأ إليه صورة لا حقيقة لها ، فتظهر صحة التوبة عند اعتراض المحرّم ، وكمال التقوى حيث لا مُطَّلع إلا الله تعالى ، ووجود الاستقامة بالتحفظ على إقامة الورد في غير ابتداع ، ووجود الورع في مواطن الشهوة عند الاشتباه فإن ترك فذلك وإلا فليس هنالك ، والزهد في الرفض عند التخيير والاستسلام عند المعارضة فلا يبالي بإقبال الدنيا ولا بإدبارها ، والتوكل عند تعذّر الأسباب ، ونفي الجهات بتقدير عدم أمطار السماء وإنبات الأرض وموت كل الخلق فإن سكن القلب فذاك وإلا فليس هناك ، وكل عمل قدر سقوط وجوبه أو ندبه فطلبته النفس مع ذلك فالحامل عليه الهوى وإن كان حقا في ذاته فإن سقط بتقدير السقوط فقصده ما ورد فيه فافهم . انتهى

قال الإمام الرباني والغوث الصمداني مجدد الألف الثاني ﷺ النوراني : الذي يجب علينا وعليكم أولاً تصحيح العقائد بمقتضى الكتاب والسنة وأخذوا منهما« ١ » ، فإن فهمنا وفهمكم ساقط عن حيز الاعتبار إن لم يوافق أفهام هذه الأكابر الأخيار ، إذ كل مبتدع وضال يفهم أحكامه الباطلة من الكتاب والسنة ويأخذ منهما والحال إنه لا يغني من الحق شيئا ، و**ثانيا** العلم بالأحكام الشرعية من الحلال والحرام والفرض والواجب ، و**ثالثا** العمل بمقتضى هذا العلم ، و**رابعا** السلوك في طريقة التصفية والتزكية المختصة بالصوفية الكرام ﷺ ، فما دام لم يصحِّح العقائد فلا يفيد العلم بالأحكام الشرعية ، وما دام لم يتحقق هذان فلا ينفع العمل ، وما دام لم يتيسر هذه الثلاثة فحصول التصفية والتزكية محال ، وبعد هذه الأركان الأربعة مع متمماتها ومكملاتها فما عداها من الفضول كائنا ما كان وداخل في دائرة ما لا يعني ، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه واشتغاله بما يعنيه . انتهى .

ومنها التوبة : وهي أهمها ، لأن طريق القوم طاهر منزه لا يقبل من كان ملوثا بالقاذورات ، فيجب على المريد أن يتوب إلى الله تعالى من كل زلة فيدع جميع الزلات سرها وجهرها صغيرها وكبيرها ويجتهد في إرضاء الخصوم أوّلا ومن لم يُرض خصومه لم يفتح له من هذه الطريقة شيء يعتد به لعدم تخلصه من حقوقهم ، فيجب ردّها لهم إن كانوا أو إلى ورثتهم وعلى هذا النحو جروا .

قال شيخ الإسلام أبو إسماعيل عبدالله بن محمد الهروي الأنصاري قدس الله سره : قال الله تعالى : ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ فأسقط اسم الظلم عن التائب ، والتوبة لا تصح إلا بعد معرفة ، وهي أن تنظر في الذنب إلى ثلاثة أشياء :

١ . إلى انخلاعك من العصمة حين إتيانه ؛

٢ . وفرحك عند الظفر به ؛

٣ . وقعودك على الإصرار عن تداركه مع يقينك بنظر الحق إليك .

« ١ » عبارة المكتوبات : واعلم أن الذي لابدّ منه هو تصحيح الاعتقاد أولاً على وفق آراء أهل السنة والجماعة الذين هم الفرقة الناجية . .

وشرائط التوبة ثلاثة أشياء : الندم والاعتذار والإقلاع

وحقائق التوبة ثلاثة أشياء : تعظيم الجناية واتهام التوبة وطلب أعذار الخليقة

وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء : تمييز التقية من العزّة« ١ » ، ونسيان الجناية ، والتوبة من التوبة أبدا لأن التائب دخل في الجميع في قوله تعالى : ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ فأمر التائب بالتوبة .

ولطائف أسرار التوبة ثلاثة أشياء : **أوّلها** أن تنظر إلى الجناية والقضية فتعرف مراد الله تعالى فيها إن خلاك وإتيانها فإن الله ﷻ انما يخلي العبد والذنب لأحد معنيين **أحدهما** : أن يعرف عزته في قضائه وبرّه في ستره وحلمه في إمهال راكبه وكرمه في قبول العذر منه وفضله في مغفرته ، **الثاني** : ليقيم على عبده حجة عدله فيعاقبه على ذنبه بحجته ، هكذا ذكره الخاني قُدِّسَ سِرُّهُ في « بهجته » .

وعلاج داء الذنوب إذا حصل أن يتدبر العصاة قوله تعالى : ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ، وقوله تعالى ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ ونظائر ذلك كثيرة فى القرآن والأحاديث .

وروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال : آيتان فى كتاب الله تعالى ما أصاب عبد ذنبا فقرأهما ثم استغفر الله تعالى الاّ غفر الله له : **إحداهما** قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾« ٢ » **والثانية** : ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾« ٣ »

« ١ » أي أن يكون المقصود من التوبة تقوى الله ، فيعمل بطاعة الله يرجو ثواب الله ، ويترك معصية الله يخاف عقاب الله ، لا يريد بذلك عز الطاعة ، فإن للطاعة وللتوبة عزاً ظاهراً وباطناً ، فلا يكون مقصوده العزة .

« ٢ » ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾

« ٣ » ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

واعلم أن التوبة أصل هذه الطرق وأساسها فمتى صحّت التوبة وخلصت لله صحّ ما بني عليها وتمّ ، ومتى فسدت باختلال بعض شروطها أو بأن ينوي بها شيئا من الأغراض الدنيوية كطلب السمعة والشهرة واجتلاب قلوب الناس وما أشبه ذلك كان البناء عليها كالبناء على شَفا جُرُفٍ هار[1] .

وقال بعض العارفين عند قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ هو طول الأمل ، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ : هو الغفلة عما سبق من الذنوب وقلة الندم عليها والاستغفار منها . اهـ .

والعارف من سلك في توبته مسلك أبيه آدم في الندم والاعتراف ، وأما العزم على أنه لا يعود فليس في يده حقيقة إنما هو إظهار أدب أي لو كان الأمر في يدي ما عصيتك قط جزما ، فافهم ذلك وحرره ، قاله الشيخ الأكبر في « الفتوحات » .

وقال الشيخ التستري ﷺ : النية نور وهي نسيم الروح « مقامات البهائية » ٥٣

وقال صاحب « تنوير الصدر » في ١٩٦ : إن للتوبة شروطا ستة وقد ذكرناها : الندامة وأداء الفرائض ورد المظالم إلى أهلها وأن تذيب نفسك في الطاعة كما أذبتها في المعصية وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية وأن تعزم أن لا تعود الخ .

وفي الحديث : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه ، ومن آذى مسلما كان عليه من الذنوب مثل منابت النخل » .

قال القطب الشعراني ﷺ في « اليواقيت » في المبحث السادس والخمسين : قال الجلال المحلي ﷺ : تصح التوبة من ذنب ولو كان صغيرا مع الإصرار على ذنب آخر ولو كان كبيرا ، وإذا تاب ثم عاود الذنب لم تبطل توبته السابقة بل

« ١ » شفا الشيء طرفه ، والجرف بالضم والإسكان الأرض التي جرفت السيوف أصلها أي حفرته وأكلته ، والهاري المتصدع المشرف على السقوط تفسير « روح البيان »

ذلك ذنب يوجب توبة أخرى ، هذا ما عليه جمهور العلماء ، ونقل عن أبي بكر الباقلاني قدس سره أنها لا تصح بعد نقضها ، وقيل غير ذلك اهـ .

وقال العلامة السبكي قدس سره : اعلم أن التوبة من أعظم ما منّ الله تعالى به على عباده فإن لم تقع لنا توبة فالواجب علينا التوبة من ترك التوبة ، فإن لم يصح لنا التوبة من ترك التوبة وجب التوبة من الإصرار على ترك التوبة ، وهكذا أبدا ما عشنا ، وما ثمّ لنا دآء بلا دوآء فإن لم يصح لنا شيء من ذلك كله فلله تعالى رحمة خاصة يمنّ بها على من مات معسرا من أهل الإسلام . اهـ « تنوير » اختصارا ١٩٧ .

قال ابن عطاء الله قدس سره في « حكمه » : من استغرب أن ينقذه الله من شهوته وأن يخرجه من وجود غفلته فقد استعجز القدرة الإلهية وكان الله على كل شيء مقتدرا ، من استرقته الشهوة واستولت عليه الغفلة فلا ينبغي له أن يستغرب أن ينقذه الله من أسر شهوته وأن يخرجه من وجود غفلته لما يشاهد من استحكام ذلك فيه ، فإن ذلك نسبة العجز إلى القدرة الإلهية والله تعالى متصف بالاقتدار على كل شيء وهذا من الأشياء ، وليعلم العبد أن قلوب العباد ونواصيهم بيده ، فلا يقنط ولا ييأس وليقصد باب مولاه بالذلة والانكسار والافتقار ، فعساه يسهل عليه ما استصعبه ويظهر فيه ما استغربه وما ذلك على الله بعزيز .

وليعتبر هذا المعنى بالحكايات التي تروى عن الصالحين الذين تقدمت لهم في بداياتهم الزلات ووقعت منهم قبل توبتهم الهفوات فتداركهم الله تعالى بلطفه واستنقذهم بجوده وعطفه ، فأصلح أعمالهم وصفّى أحوالهم وأبدل سيئاتهم حسنات ورفعهم من أسفل سافلين إلى أعلى الدرجات ، كل ذلك في أقرب زمان وأقصر مدة وأوان ، والحكايات في هذا المعنى كثيرة عن الشيوخ ، مثل سيدي فضيل بن عياض ، وعبد الله بن المبارك ، وأبي عقال بن علوان ، وغيرهم رضي الله عنهم . « شرح الحكم » ٢٠١ ج ٢ .

وقـــال الشيخ الثقة أمين الدين أبو علي الطبري قدس سره عند قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ﴾ : اختلف في معنى قوله تعالى ﴿ بِجَهَٰلَةٖ ﴾ على وجوه :

أحدها أن كل معصية يفعلها العبد بجهالة وإن كانت على سبيل العمد لأنه يدعو إليها الجهل ويزينها للعبد ، عن ابن عباس ﵄ وعطاء ومجاهد وقتادة وهو المروي عن عبد الله ﵁ قال : كل ذنب عمله العبد وإن كان عالما فهو جاهل حين خاطر بنفسه في معصيته ، فقد حكى سبحانه قول يوسف الصديق على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام لإخوته : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴾ فنسبهم إلى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله تعالى .

و ثانيها : إن معنى ﴿بِجَهَـٰلَةٍ﴾ أنهم لا يعلمون كنه ما فيه من العقوبة كما يعلم الشيء ضرورة[1] (عن الفراء)

وثالثها : إن معناه أنهم يجهلون أنها ذنوب ومعاص فيفعلونها إما بتأويل يخطؤون فيه وإما بأن يفرطوا في الاستدلال على قبحها (على الجبّائي)

وضعّف الرماني هذا القول بأنه خلاف ما أجمع عليه المفسرون لأنه يوجب أن لا يكون لمن علم أنها ذنوب توبة ، لأن قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ ﴾ يفيد أنها لهؤلاء دون غيرهم . انتهى « كشكول » في ٣٥ .

وقال القطب الشعراني ﵁ في « البحر المورود » ١٠٨ : قال الشيخ الأكبر ﵇ في الباب الرابع والثلاثين ومائتين : من النكت الجليلة التي ينبغي التنبيه عليها أن تعلم يا أخي أن المؤمن لا يأتي قط معصية توعد الله عليها بالعقوبة إلا ويجد في نفسه عند الفراغ منها الندم ، وقد قال رسول الله ﷺ : « الندم توبة » ، وقد قام به الندم فهو تائب ، فإذا قبله الحق سقطت عنه العقوبة ، فإنه لا بد للمؤمن أن يكره المخالفة ولا يرضى بها في حال عملها ، فهو من كونه كارها لها ومؤمنا بأنها معصية ونادما عليها ذو عمل صالح ، وهو من كونه فاعلا لها ذو عمل سيّئ ، فهو من الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ، و(عسى) من الله واجبة الوقوع فلا بد له من التوبة .

« ١ » الشيء المعلوم بالضرورة هو ما لا يسع أحداً جهله

وحاصل الأمر أنه ذو عمل صالح من ثلاثة وجوه وذو عمل سيئ من وجه واحد كما مر ، وقال في قوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ لم يتعرض سبحانه في هذه الآية للمؤاخذة ولكن لا بد من رؤيته لكل ما عمله ، فإن كان ممن غفر له فإنه يرى عظيم ما جنى وعظيم نعمة الله عليه بالمغفرة ، والكريم إذا توعد تجاوز وعفا والله أولى بهذه الصفة من الكرام من عبيده وأطال في ذلك والله أعلم ، « هامش يواقيت » ١٠٨ .

وقال العارف بالله أحمد بن إدريس الشريف الحسيني ﷺ في « عقده » : قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جملة فيها التخويف العظيم لأمة محمد ﷺ والرجاء الذي هو أعظم من الخوف ، فأما وجه التخويف فهو أن الله سبحانه وتعالى أخرج آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة من أجل ذوقه من الشجرة ، وهي من حق الله تعالى ليست من حق أحد سواه مع أنه خلقه بيده واصطفاه وعلمه الأسماء كلها وأسجد له الملائكة ، فما حال رجل ليس بنبي ولا مصطفى ولا له من تلك العنايات شيء ثم ينتهك المحارم العظيمة إما بأكل أموال الناس أو زنا أو قتل أو شرب خمر ، فكيف السلامة و كيف النجاة ، وهذا تخويف وأي تخويف ، ووجه الرجاء أن الله سبحانه و تعالى غفر له هذا الذنب بسبب توبته والحال أنه عالم بالله وبجلاله وبطشه لأنه من المقربين ، والمقرب هو أعلم من البعيد بصفات الملك ، وإذا كان كذلك فالذنب منه عظيم .

قال تعالى : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ، وهو هنا عليه الصلاة والسلام ليس بجاهل ثم غفر له ، فالجاهل أولى بالغفران ، وقس على هذا قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كداود وموسى وإخوة يوسف وغيرهم أنزل الله كتابه العزيز على رسوله الأمين ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين تذكيرا لأمته ، وقصصُ الأنبياء فيه لتكون عبرة لهم وتأسيا وذكر ما جرى من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في القرآن على رؤوس الأشهاد والجزاء لأن الله سبحانه

وتعالى عدل لا يترك شيئا فجزاهم عليها في الدنيا بذكر ما حصل منهم كيلا يجازوا عليها في الآخرة ، والتائب من أمة محمد ﷺ عقابه وجزاؤه على ما فعل ذكرُه ذنبه فيما بينه وبين الله تعالى وتألمُه منه وتوجعه وبكاؤه وأنينه وزفاراته ، فكان ذلك جزاؤه معجلا في الدنيا لا يجازى على ذنبه في الآخرة ، فلا يلقى الله سبحانه وتعالى إلا وهو طاهر من جميع ما فعل من السيئات وقد بدلت حسنات ، فأيّ مزية أعظم من هذه المزية التي اختصت بها هذه الأمة ، وأيضا فإنه تعالى أخرهم عن جميع الأمم ليقص عليهم قصص من سلف فيتعظوا ويعتبروا تحريضا لهم على التوبة وهديا لسلوك طريق السالكين وتحذيرا من الوقوع في ظلمة ضلال المجرمين ، فلم يبق طريق من طرق النجاة إلا أوضحها في ضمن قصص الأنبياء ، ولم تبق مهلكة إلا أوضحها أيضا في قصصهم مع قومهم ، فكان من قبلنا موعظة لنا لنعرف طريق النجاة فنسلكها وطريق الهلاك فنجتنبها والحمد لله رب العالمين . « عقد النفيس » ١٤٣ .

قـــال الشيخ الأكبر ﷺ في باب الوصايا من « الفتوحات » : إياكم ومعاداة أهل(لا إله إلا الله) فإن لهم من الله الولاية العامة ، فهم أولياء الله ولو أخطؤوا وجاؤوا بقراب الأرض خطايا لا يشركون بالله شيئا فإن الله يتلقى جميعهم بمثلها مغفرة ، ومن ثبتت ولايته حرمت محاربته ، وإنما جاز لنا هجران أحد من الذاكرين لله لظاهر الشرع من غير أن نؤذيه أو نزدريه ، وأطال في ذلك ثم قال : وإذا عمل أحدكم عملا توعد الله عليه بالنار فليمحه بالتوحيد فإن التوحيد يأخذ بيد صاحبه يوم القيامة لا بد من ذلك والله أعلم ، فتأمل في هذا المبحث وأمعن النظر فيه فإنك لا تجده في كتاب والله سبحانه وتعالى أعلم والحمد لله رب العالمين ذكره في . « يواقيت » في ٤٦ .

وقال علي كرم الله وجهه : قصر ثيابك فإنه أبقى وأنقى وأتقى ، برئ قلبك من الذنوب ووَجّه وجهك إلى علام الغيوب بعزم صادق ورجاء واثق وعُدَّ إنك عبد آبق من مولى كريم رحيم حليم يحب عودك إلى بابه واستجارتك به من عذابه ، وقد طلب منك العود مرارا عديدة وأنت معرض عن الرجوع إليه مدة

مديدة مع أنه وعدك إن عدت إليه وأقلعت عما أنت عليه بالعفو عن جميع ما صدر عنك والصفح عن كل ما وقع منك ، فقمْ واغتسل احتياطا وطهرْ ثوبك وصلِّ الفرائض وأتبعها بشيء من النوافل ولتكن تلك الصلاة على الأرض بخشوع وخضوع واستحياء وانكسار وبكآء وفاقة وافتقار في مكان لا يراك فيه ولا يسمع صوتك إلا الله ﷻ ، فإذا سلمت فعقِّبْ صلاتك وأنت حزين مستحي وجل راج ، ثم اقرأ الدعاء المأثور عن زين العابدين ﷺ أوله : اللهم يا من برحمته يستغيثُ المذنبون ويا من إلى ذكر إحسانه يفزع المضطرون ، ثم ضع وجهك على الأرض واجعل التراب على رأسك ومرِّغ وجهك الذي هو أجل أعضائك في التراب بدمع جار وقلب حزين وصوت عال وأنت تقول : عظُم الذنب من عبدك فليَحسُن العفو من عندك ، تكرر ذلك وتعدّ ما تذكر من ذنوبك لائما نفسك موبخا لها نائحا عليها نادما على ما صدر منها وابق على ذلك ساعة طويلة ، ثم قم وارفع يديك إلى التواب الرحيم وقل : إلهي عبدك الآبق قد رجع إلى بابك ، عبدك العاصي رجع إلى الصلح ، عبدك المذنب أتاك بالعذر وأنت أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين .

ثم تدعو ودموعك تنهل بالدعاء المأثور عن زين العابدين في طلب التوبة وهو الذي أوله : اللهم يا من لا يصفه نعت الناعتين إلى آخره[1] ،

« ١ » دعاء الإمام علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنه في ذكر التوبة وطلبها

اَللَّهُمَّ يَا مَنْ لا يَصِفُهُ نَعْتُ الْوَاصِفِينَ ، وَيَا مَنْ لاَ يُجَاوِزُهُ رَجَاءُ الرَّاجِينَ ، وَيَا مَنْ لاَ يَضِيعُ لَدَيْهِ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ ، وَيَا مَنْ هُوَ مُنْتَهَى خَوْفِ الْعَابِدِينَ ، وَيَا مَنْ هُوَ غَايَةُ خَشْيَةِ الْمُتَّقِينَ . هَذا مَقَامُ مَنْ تَدَاوَلَتْهُ أَيْدِي الذُّنُوبِ ، وَقَادَتْهُ أَزِمَّةُ الْخَطَايَا ، وَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ ، فَقَصَّرَ عَمَّا أَمَرْتَ بِهِ تَفْرِيطَاً ، وَتَعَاطى مَا نَهَيْتَ عَنْهُ تَعْزِيراً ، كَالْجاهِلِ بِقُدْرَتِكَ عَلَيْهِ ، أَوْ كَالْمُنْكِرِ فَضْلَ إِحْسَانِكَ إِلَيْهِ ، حَتَّى إِذَا انْفَتَحَ لَهُ بَصَرُ الْهُدَى ، وَتَقَشَّعَتْ عَنْهُ سَحَائِبُ الْعَمَى أَحْصَى مَا ظَلَمَ بِهِ نَفْسَهُ ، وَفَكَّرَ فِيمَا خَالَفَ بِهِ رَبَّهُ ، فَرَأى كَبِيْرَ عِصْيَانِهِ كَبِيْراً ، وَجَلِيل مُخالفَتِهِ جَلِيْلاً ، فَأَقْبَلَ نَحْوَكَ مُؤَمِّلاً لَكَ ، مُسْتَحْيِياً مِنْكَ ، وَوَجَّهَ رَغْبَتَهُ إِلَيْكَ ثِقَةً بِكَ ، فَأَمَّكَ بِطَمَعِهِ يَقِيناً ، وَقَصَدَكَ بِخَوْفِهِ إِخْلاَصَاً ، قَدْ خَلاَ طَمَعُهُ مِنْ كُلِّ مَطْمُوع فِيهِ غَيْرِكَ ، وَأَفْرَغَ رَوْعَهُ مِنْ كُلِّ مَحْذُور مِنْهُ سِوَاكَ ، فَمَثَّلَ بَيْنَ يَدَيْكَ مُتَضَرِّعاً ، وَغَمَّضَ بَصَرَهُ إِلَى الارْضِ مُتَخَشِّعَاً ، وَطَأطَأَ رَأسَهُ لِعِزَّتِكَ مُتَذَلِّلاً ، وَأَبَثَّكَ مِنْ سِرِّهِ مَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْهُ خضُوعاً ، وَعَدَّدَ مِنْ ذُنُوبِهِ مَا أَنْتَ أَحْصَى لَهَا خُشُوعاً وَاسْتَغَاثَ بِكَ مِنْ عَظِيمِ مَاوَقَعَ بِهِ فِي عِلْمِكَ

وَقَبيح مَا فَضَحَهُ فِي حُكْمِكَ مِنْ ذُنُوب أدْبَرَتْ لَذَّاتُهَا فَذَهَبَتْ ، وَأَقَامَتْ تَبِعَاتُهَا فَلَزِمَتْ ، لا يُنْكِرُ يَا إلهِي عَدْلَكَ إنْ عَاقَبْتَهُ ، وَلا يَسْتَعْظِمُ عَفْوَكَ إنْ عَفَوْتَ عَنْهُ وَرَحِمْتَهُ لانَّكَ الرَّبُّ الْكَرِيمُ الَّذِي لا يَتَعَاظَمُهُ غُفْرَانُ الذَّنْبِ الْعَظِيم . اَللَّهُمَّ فَهَا أَنَا ذَا قَدْ جِئْتُكَ مُطِيعاً لامْرِكَ فِيمَا أَمَرْتَ بِهِ مِنَ الدُّعَاءِ ، مَتَنَجِّزاً وَعْدَكَ فِيمَا وَعَدْتَ بِهِ مِنَ الاجَابَةِ إذْ تَقُولُ « اُدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ »

اَللَّهُمَّ فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ وَالْقَنِي بِمَغْفِـرَتِكَ كَمَا لَقِيتُكَ بِـإقْرَارِي وَارْفَعْنِي عَنْ مَصَارِعِ الذُّنُوبِ كَمَا وَضَعْتُ لَكَ نَفْسِي وَاسْتُرْنِي بِسِتْرِكَ كَمَا تَأَنَّيْتَنِي عَنِ الانْتِقَامِ مِنِّي . اَللَّهُمَّ وَثَبِّتْ فِي طَاعَتِكَ نِيَّتِيْ ، وَأَحْكِمْ فِي عِبَادَتِكَ بَصِيـرَتِي ، وَوَفِّقْنِي مِنَ الاعْمَالِ لِمَا تَغْسِلُ بِهِ دَنَسَ الخَطَايَا عَنِّي ، وَتَوَفَّنِي عَلَى مِلَّتِكَ وَمِلَّةِ نَبِيِّكَ مُحَمَّد عَلَيْهِ السَّـلامُ إذَا تَوَفَّيْتَنِي . اَللَّهُمَّ إنِّي أَتُـوبُ إلَيْـكَ فِي مَقَامِي هَذَا مِنْ كَبَائِرِ ذُنُوبِي وَصَغَائِرِهَا وَبَوَاطِنِ سَيِّآتِي وَظَوَاهِرِهَا ، وَسَوالِفِ زَلاَّتِي وَحَوَادِثِهَا ، تَوْبَةَ مَنْ لا يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِمَعْصِيَة ، وَلاَ يُضْمِرُ أَنْ يَعُودَ فِي خَطِيئَة ، وَقَدْ قُلْتَ يَا إلهِي فِي مُحْكَمِ كِتابِكَ إنَّكَ تَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِكَ ، وَتَعْفُو عَنِ السَّيِّآتِ ، وَتُحِبُّ التَّوَّابِينَ ، فَاقْبَلْ تَوْبَتِي كَمَا وَعَدْتَ وَأعْفُ عَنْ سَيِّآتِي كَمَا ضَمِنْتَ ، وَأَوْجِبْ لِي مَحَبَّتَكَ كَمَا شَـرَطْتَ ، وَلَـكَ يَـا رَبِّ شَـرْطِي أَلاّ أَعُودَ فِي مَكْرُوهِكَ ، وَضَمَانِي أَلاّ أَرْجِعَ فِي مَذْمُومِكَ ، وَعَهْدِي أَنْ أَهْجُرَ جَمِيعَ مَعَاصِيكَ . اَللَّهُمَّ إنَّكَ أَعْلَمُ بِمَا عَمِلْتُ فَاغْفِرْ لِي مَا عَلِمْتَ ، وَاصْرِفْنِي بِقُدْرَتِكَ إلَى مَا أَحْبَبْتَ . اَللَّهُمَّ وَعَلَيَّ تَبِعَاتٌ قَدْ حَفِظْتُهُنَّ ، وَتَبِعَاتٌ قَدْ نَسِيتُهُنَّ ، وَكُلُّهُنَّ بِعَيْنِكَ الَّتِي لاَ تَنَـامُ ، وَعِلْمِكَ الَّذِي لا يَنْسَى فَعَوِّضْ مِنْهَا أَهْلَهَا وَاحْطُطْ عَنّي وِزْرَهَا ، وَخَفِّفْ عَنِّي ثِقْلَهَا ، وَاعْصِمْنِي مِنْ أَنْ اُقَارِفَ مِثْلَهَا . اَللَّهُمَّ وَإنَّهُ لاَ وَفَاءَ لِي بِالتَّوْبَةِ إلاَّ بِعِصْمَتِكَ ، وَلا اسْتِمْسَاكَ بِي عَنِ الْخَطَايَا إلاَّ عَنْ قُوَّتِكَ ، فَقَوِّنِي بِقُوَّة كَافِيَة ، وَتَوَلَّنِي بِعِصْمَة مَانِعَة . اَللَّهُمَّ أَيُّما عَبْد تَابَ إلَيْكَ وَهُوَ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ فَاسِخٌ لِتَوْبَتِهِ وَعَائِدٌ فِي ذَنْبِهِ وَخَطِيئَتِهِ فَإنِّي أَعُوذُ بِكَ أنْ أَكُوْنَ كَذلِكَ ، فَاجْعَلْ تَوْبَتِي هَذِهِ تَوْبَةً لا أَحْتَاجُ بَعْدَهَا إلَى تَوْبَة ، تَوْبَةً مُوجِبَةً لِمَحْوِ مَا سَلَفَ وَالسَّلاَمَةِ فِيمَـا بَقِيَ . اَللَّهُمَّ إنِّي أَعْتَـذِرُ إلَيْـكَ مِنْ جَهْلِي ، وَأَسْتَـوْهِبُـكَ سُوْءَ فِعْلِي ، فَـاضْمُمْنِي إلَى كَنَفِ رَحْمَتِكَ تَطَوُّلاً ، وَاسْتُرْنِي بِسِتْرِ عَافِيَتِكَ تَفَضُّلاً . اَللَّهُمَّ وَإنِّي أَتُوبُ إلَيْكَ مِنْ كُلِّ مَا خَالَفَ إرَادَتَكَ أَوْ زَالَ عَنْ مَحَبَّتِـكَ مِنْ خَـطَرَاتِ قَلْبِي وَلَحَـظَاتِ عَيْنِي وَحِكَايَاتِ لِسَانِي ، تَوْبَةً تَسْلَمُ بِهَا كُلُّ جَارِحَة عَلَى حِيَالِهَا مِنْ تَبِعَاتِكَ ، وَتَأْمَنُ مِمَّا يَخَافُ الْمُعْتَدُونَ مِنْ أَلِيْمِ سَطَوَاتِكَ . أَللَّهُمَّ فَارْحَمْ وَحْدَتِي بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَوَجِيبَ قَلْبِي مِنْ خَشْيَتِكَ ، وَاضْطِرَابَ أَرْكَانِي مِنْ هَيْبَتِكَ ، فَقَدْ أَقَامَتْنِي يَا رَبِّ ذُنُوبِي مَقَامَ الْخِزْيِ بِفِنَائِكَ ، فَإنْ سَكَتُّ لَمْ يَنْطِقْ عَنِّي أَحَدٌ ، وَإنْ شَفَعْتُ فَلَسْتُ بِأَهْلِ الشَّفَاعَةِ . أَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ وَشَفِّعْ فِي خَطَايَـايَ كَرَمَكَ ، وَعُدْ عَلَى سَيِّئاتِي بِعَفْوِكَ ، وَلاَ تَجْزِنِي جَزَآئِي مِنْ عُقُوبَتِكَ وَابْسُطْ عَلَيَّ طَوْلَكَ وَجَلِّلْنِي بِسِتْرِكَ ، وَافْعَلْ بِي فِعْلَ عَزِيز تَضَرَّعَ إلَيْهِ عَبْدٌ ذَلِيلٌ فَرَحِمَهُ ، أَوْ غَنِيٍّ تَعَرَّضَ لَهُ عَبْدٌ فَقِيرٌ فَنَعَشَهُ . اَللَّهُمَّ لاَ خَفِيرَ لِي مِنْكَ فَلْيَخْفُرْنِيْ عِزُّكَ ، وَلا شَفِيعَ لِيْ إلَيْكَ فَلْيَشْفَعْ لِي فَضْلُكَ ، وَقَدْ أَوْجَلَتْنِي خَطَايَايَ فَلْيُؤْمِنِّي عَفْوُكَ ، فَمَا كُلُّ مَا نَطَقْتُ بِهِ عَنْ جَهْل مِنِّي بِسُوْءِ أَثَرِي ، وَلاَ نِسيَان لِمَا سَبَقَ مِنْ ذَمِيمِ فِعْلِي ، وَلكِنْ لِتَسْمَعَ سَمَاؤُكَ وَمَنْ فِيْهَـا ، وَأَرْضُكَ وَمَنْ عَلَيْهَا مَا أَظْهَرْتُ لَكَ مِنَ النَّدَمِ ،

واجهد في توجه قلبك إليه وإقبالك بكليتك عليه مشعرا نفسك سعة الجود والرحمة ، ثم اسجد سجدة تكثر فيها البكاء والعويل والانتحاب بصوت عال لا يسمعه إلا الله تعالى ، ثم ارفع رأسك واثقا بالقبول فرحا ببلوغ المأمول . « كشكول » ص ٣٠٠ .

وفي الحديث : « إذا بلغ الإنسان أربعين سنة ولم يتب مسح إبليس على وجهه وقال : بأبي وجه لا يفلح » .

وقال في بعض التفاسير في قوله تعالى : ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ أنها أعمال كانوا يرونها حسنات فبدت لهم يوم القيامة سيئات . « كشكول » ٢٤٧ .

وفي « تفسير النيسابوري » ﷺعند قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ ما صورته : قيل علامة قبول التوبة هجران إخوان السوء وقرناء الشر ومجانبة البقعة التي باشر فيها الذنوب والخطايا وأن يبدل بالإخوان إخوانا وبالأخدان أخدانا وبالبقعة بقعة ، ثم يكثر الندامة والبكاء على ما سلف منه والأسف على ما ضيع من أيامه ، ولا تفارقه حسرة ما فرط وأهمل في البطالات ويرى نفسه مستحقة لكل عذاب وسخط انتهى « كشكول » .

وَلَجَأْتُ إِلَيْكَ فِيهِ مِنَ التَّوْبَةِ ، فَلَعَلَّ بَعْضَهُمْ بِرَحْمَتِكَ يَرْحَمُنِي لِسُوءِ مَوْقِفِي ، أَوْ تُدْرِكُهُ الرِّقَّةُ عَلَيَّ لِسُوءِ حَالِي فَيَنَالَنِي مِنْهُ بِدَعْوَة أَسْمَعُ لَدَيْكَ مِنْ دُعَائِي ، أَوْ شَفَاعَة أَوْكَدُ عِنْدَكَ مِنْ شَفَاعَتِي تَكُونُ بِهَا نَجَاتِي مِنْ غَضَبِكَ وَفَوْزَتِي بِرِضَاكَ . اَللَّهُمَّ إِنْ يَكُنِ النَّدَمُ تَوْبَةً إِلَيْكَ فَأَنَا أَنْدَمُ النَّادِمِينَ ، وَإِنْ يَكُنِ التَّرْكُ لِمَعْصِيَتِكَ إِنَابَةً فَأَنَا أَوَّلُ الْمُنِيبِينَ ، وَإِنْ يَكُنِ الاسْتِغْفَارُ حِطَّةً لِلذُّنُوبِ فَإِنِي لَكَ مِنَ الْمُسْتَغْفِرِينَ . اللَّهُمَّ فَكَمَا أَمَرْتَ بِالتَّوْبَةِ وَضَمِنْتَ الْقَبُولَ وَحَثَثْتَ عَلَى الدُّعَاءِ وَوَعَدْتَ الاجَابَةَ ، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَاقْبَلْ تَوْبَتِي وَلاَ تَرْجِعْنِي مَرجَعَ الغَيبَةِ منْ رَحْمَتِك إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ عَلَى الْمُذْنِبِينَ ، وَالرَّحِيمُ لِلْخَاطِئِينَ الْمُنِيبِينَ . اَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ كَمَا هَدَيْتَنَا بِهِ وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ كَمَا اسْتَنْقَذْتَنَا بِهِ ، وَصَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ صَلاَةً تَشْفَعُ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَوْمَ الْفَاقَةِ إِلَيْكَ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْء قَدِيرٌ وَهُوَ عَلَيْكَ يَسِيرٌ .

وقال قطب العارفين السيد الشريف أحمد بن إدريس الحسيني رضي الله عنه : ينبغي للإنسان أن يتحول عن الموضع الذي غفل عن الله تعالى فيه وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالتحول عن المحل الذي طلعت فيه عليهم الشمس ولم يصلوا الفجر ، وأما المحل الذي عصى الله تعالى فيه فذلك أشد وأعظم « عقد » ١٣٩ .

دخل سفيان الثوري رحمه الله على أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما فقال : علمني يا ابن رسول الله مما علمك الله تعالى ، فقال : إذا تظاهرت الذنوب فعليك بالاستغفار ، وإذا تظاهرت النعم فعليك بالشكر ، وإذا تظاهرت الغموم فقل : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فخرج سفيان وهو يقول : ثلاث وأي ثلاث ! . « عاملي »٢٩٦ .

فصل

في التصوف وعلم السلوك وأفضلية الطريقة النقشبندية

اعلم أيدك الله تعالى بالتقوى أن علم التصوف والسلوك علم شريف القدر عظيم الخطر ، كأنه جوهر لا قيمة له وبه ينال المقصود الأصلي ويفوز بالمطلب الكلي ، ويكفيك في جلالة قدر هذا العلم أنه لم يبعث نبي إلا لأجله ، وأن علم السلوك فرض عين بلا خلاف على الذكور والإناث والعبيد والأشراف ، إذ الجميع مخلوقون للعبادة بوصف الإخلاص واليقين كما نطق به الكتاب المبين : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ ، والعبادة بدون العلم هباء منثور والعابد على الجهل كالباني على أمواج البحور . انظر إلى تقريب في صحيفة ٣ قال ابن عباس : إلا ليعرفوني ، فكما تعلقت الرؤية به تعالى فكان مرئيا كذلك تعلقت به المعرفة فكان معروفا لكن ربما يكون معرفة بعض الناس بالله تعالى جهلاً بالنسبة لمن هو أعلى منه درجة فلا يصح العلم بالله تعالى من كل وجه ولا الجهل به من كل وجه ، ولا يخرج الإنسان عن الجهل بالحق إلا إن عرف الحق تعالى كما يعلم الحق نفسه من غير نقص وذلك محال« يواقيت »٥٢ .

واعلم أن ماهية الشيء حقيقته ، وحقيقته ما دلت عليه جملته . وتعريف ذلك بحد وهو أجمع ، أو رسم وهو أوضح ، أو تفسير وهو أتم لبيانه وسرعة فهمه . وقد حُدَّ التصوف ورُسِمَ وفُسِّرَ بوجوه تبلغ نحو الألفين ، مرجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى ، وإنما هي وجوه فيه[1] .

وقال[2] : الاصطلاح للشيء مما يدل على معناه ويشعر بحقيقته ويناسب موضوعه ويعين مدلوله من غير لبس ولا إخلال بقاعدة شرعية ولا عرفية ولا رفع موضوع أصلي ولا عرفي ولا معارضة فرع حكمي ولا مناقضة وجه

« ١ » أي من جملة معانيه
« ٢ » أي الإمام زروق ﵁

حكمي مع إعراب لفظه وتحقيق ضبطه لا وجه لإنكاره ، واسم التصوف من ذلك لأنه عربي مفهوم تام التركيب غير موهم ولا ملتبس ولا مبهم ، بل اشتقاقه مشعر بمعناه كالفقه لأحكام الإسلام والأعمال الظاهرة ، والأصول لأحكام الإيمان وتحقيق المعنى ، فاللازم فيهما لازم فيه ، لاستوائهما في الأصل والنقل . « قواعد » .

وقال سيدي علي حرازم المغربي الفاسي ﷻ في « الجواهر »« ١ » : وحكى الشيخ قطب الدين بن أيمن ﷺ أن الإمام أحمد ﷺ كان يحثّ ولده على الاجتماع بصوفية زمانه ويقول : إنهم بلغوا في الإخلاص مقاما لم نبلغه .

وقد أشبع القول في مدح القوم وطريقهم الإمام القشيري ﷻ في « رسالته » والإمام أحمد بن أسعد اليافعي ﷻ في « روض الرياحين » وغيرهما من أهل الطريق ، وكتبهم كلها طافحة بذلك .

وقال مولانا شيخ الإسلام لما سأله الجنيد عن التصوف : إذا صافى عبداً وارتضاه بخالصته وعدّه من خاصته ألقى إليه كرمة كريمة من لسان كريم في وقت كريم على مكارم كريم بين قومٍ كرام « نفحات » ١٣٣

وقد كان الإمام أبو تراب النخشبي أحد رجال الطريق ﷺ يقول : **إذا ألف القلب الإعراض عن الله صحبته الوقيعة في أوليآء الله** ، وكان شيخنا الشيخ محمد الشاذلي المغربي ﷺ تعالى يقول : اطلب طريق ساداتك من القوم وإن قلّوا وإيّاك وطريق الجاهلين بطريقهم وإن جلّوا ، وكفى شرفا لعلم القوم قول موسى للخضر عليهما السلام : ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ ، وهذا أعظم دليل على وجوب طلب علم الحقيقة كما يجب طلب علم الشريعة وكل عن مقامه يتكلم اهـ .

« ١ » انظر : « جواهر المعاني » للإمام علي بن حرازم المغربي الفاسي ، ص ١٠ ١١

وقد ذكر الشيخ محي الدين ﵁ في « الفتوحات » وغيرها أن طريق الوصول إلى علوم القوم الإيمان والتقوى ، قال الله تَعَالَىٰ:﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي أطلعناهم على العلوم المتعلقات بالعلويات والسفليات وأسرار الجبروت وأنوار الملك والملكوت ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾الخ« الجواهر ١١ » ، ولكن إن الناس في كل زمان يؤذون لأرباب هذا العلم بالتعصب معهم كل التعصب والتعنت إذ الجاهل عدوّ لما جهل .

وقال أبو الحسن الشاذلي ﵁ : وقد ابتلى الله تعالى هذه الطائفة الشريفة بالخلق خصوصا بأهل الجدال فقلّ أن تجد منهم أحدا شرح الله صدره للتصديق بولي معين بل يقول لك : نعم نعلم أن لله أولياء وأصفياء موجودين ولكن أين هم ؟ فلا تذكر له أحدا إلاّ ويأخذ يدفعه ويردّ خصوصية الله تعالى عنه ويطلق اللسان بالاحتجاج على كونه غير ولي لله تعالى وغاب عنه أنّ الولي لا يعرف صفاته إلاّ الأولياء فمن أين لغير الولي أن ينفي الولاية عن إنسان ؟ ما ذاك إلاّ محض تعصب كما نرى في زماننا أمثال ذلك خاصة .

وقال أيضا : وقد جرت سنة الله تعالى في أنبيائه وأصفيائه أن يسلط عليهم الخلق في مبدأ أمرهم وفي حال نهايتهم كلما مالت قلوبهم لغير الله تعالى ثم تكون الدولة والنصرة لهم آخر الأمر إذا أقبلوا على الله تعالى كل الإقبال ونذكر إن شاء الله تعالى نبذة من هذه في فصل الإنكار على أولياء الله تعالى وإنما رمزنا هنا نظرا إلى المقام والله تعالى ولي التوفيق وهو الحكيم العليم .

واعلم أيها الأعز أن كل علم لا يؤيده الكتاب والسنة فهو ضلالة ، لا لأجل ما لا تجد أنت له ما يؤيده ، فقد يكون العلم في نفسه مؤيدا بالكتاب والسنة ولكن قلة استعدادك منعتك من فهمه فلن تستطيع أن تتناوله بهمتك من محله فتظن أنه غير مؤيد بالكتاب والسنة ، فالطريق في هذا التسليم وعدم العمل به من غير إنكار إلى أن يأخذ الله بيدك إليه ، لأن كل علم يرد عليك لا يخلو من ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : المكالمة ، وهو ما يرد على قلبك من طريق الخاطر الرباني والملكي ، فهذا لا سبيل إلى رده ولا إلى إنكاره ، فإن مكالمات الحق تعالى لعباده وإخباراته مقبولة بالخاصية لا يمكن لمخلوق دفعها أبدا ، وعلامة مكالمة الحق تعالى لعباده أن يعلم السامع بالضرورة أنه كلام الله تعالى وأن يكون سماعه له بكليته وأن لا يقيد بجهة دون غيرها ولو سمعه من جهة فإنه لا يمكنه أن يخصه بجهة دون أخرى ، ألا ترى إلى موسى عليه السلام سمع الخطاب من الشجرة ولم يقيد بجهة والشجرة جهة ، ويقرب الخاطر الملكي من الخاطر الرباني في القبول ولكن ليست له تلك القوة إلا أنه إذا اعتبر قبِل بالضرورة ، وليس هذا الأمر فيما يرد من جناب الحق على طريق المكالمة فقط بل تجلياته أيضا كذلك ، فمتى تجلى شيء من أنوار الحق للعبد علم العبد بالضرورة من أول وهلة أنه نور الحق سواء كان التجلي صفاتيا أو ذاتيا علميا أو عينيا ، فمتى تجلى عليك شيء وعلمت في أول وهلة أنه نور الحق أو صفته أو ذاته فإن ذلك هو التجلي فافهم فإن هذا البحر لا ساحل له ، وأما الإلهام الإلهي فإن طريق المبتدئ في العمل به أن يعرضه على الكتاب والسنة ، فإن وجد شواهده منهما فهو إلهام إلهي وإن لم يجد له شاهدا فليتوقف عن العمل به مع عدم الإنكار ، وفائدة التوقف أن الشيطان قد يلقي في قلب المبتدئ شيئا يفهمه أنه إلهام إلهي فيخشى أن يكون ذلك من هذا القبيل ، وليلزم صحة التوجه إلى الله تعالى والتعلق به مع التمسك بالأصول إلى أن يفتح الله عليه بمعرفة ذلك الخاطر .

الوجه الثاني : هو أن يكون العلم واردا على لسان من ينسب إلى السنة والجماعة ، فهذا إن وجدت له شاهدا أو محملا فهو المراد ، وإلا فكفّ وكن ممن لا يمكنه الإيمان به مطلقا لغلبة نور عقلك على نور إيمانك ، فطريقك فيه طريقك في مسألة الإلهام بين التوقف والاستسلام .

الوجه الثالث : أن يكون العلم واردا على لسان من اعتزل عن المذهب والتحق بأهل البدعة ، فهذا العلم هو المرفوض ، ولكن الكيس لا ينكره مطلقا بل

يقبل منه ما يقبله الكتاب والسنة من كل وجه ، ويرد منه ما يرده الكتاب والسنة من كل وجه ، وسمعت شيخ شيخنا القطب أحمد ضياء الدين الكمشخانوي قدس الله سره أنه كان يقول : المقصود من السلوك أربعة : الحضور والمشاهدة والفناء والعدم ، والعدم أفضل لعدم حظ النفس فيه .

وسمعت أيضا أنه كان يقول : عليك بالسنة ومحبة الطريقة ولا تترك الطريقة وأخذ العهد على هذه الثلاثة ، هكذا أخبرني شيخنا ومولانا أبو عبد الرحمن زين الله الشريفي المعموري قدس سره وروحي فداه .

سئل الجنيد قدس سره عن التصوف فقال : خلق كريم يظهره الكريم في زمان كريم من رجل كريم بين قوم كرام « نفحات » ١٣٣ .

وقال أبو عمرو الدمشقي رضي الله عنه : ليس التصوف رؤية الكون بعين النقص ، بل غض البصر عن كل ناقص لمشاهدة من هو منزه عن كل نقص « نفحات »٢٠٧ .

وقال أبو العباس بن عطاء البغدادي رضي الله عنه : التصوف خلق وليس أنا به وما رأيت من أهله إلا خيرا « نفحات » ١٩٨ .

قال بعض العارفين : من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة ، وأقل النصيب من علم المعرفة أن لا يشهد ولا يجحد وإن لم يعرف فليعترف ، ولكن مَعْقله التسليم لأهله ، فهو معقل المسلمين وقته ليسلموا من عدوهم ويأمنوا البدع في دينهم .

وقال بعضهم : العلم المكنون والسر المصون علم هذه الطائفة ، وهو نتيجة الخدمة وثمرة الحكمة لا يظهر به إلا الغوّاصون في بحار المجاهدات ولا يسعد به إلا المصطفون بأنوار المشاهدات ، وأهل الغِرَّة بالله سبحانه لها منكرون وعنها مدبرون .

وقال الشيخ شهاب الحق والدين أبو حفص عمر السهروردي قدس سره : علومهم كلها إنباء عن وجدان واجتراء إلى عرفان استصعبت نكتها على

الإشارة وطفحت على العبارة تهاد بها الأرواح بدلالة العام والائتلاف وكرعت حقائقها من بحر الألطاف ، وقد اندرس كثير من دقيق علومهم كما انطمس كثير من حقائق رسومهم .

وقد قال الجنيد رحمه الله تعالى : علمنا هذا طوي بساطه منذ كذا سنة ونحن نتكلم في حواشيه .

ومما أنشد فيهم :

هُمُ القَوْمُ هاموا فَاسْتَقاموا عَلى السّرى	لَهُمْ هِمَمٌ تَسْمو إلى العَلَم الفَرْدِ
بحارُ الحَيا والحِلْم والعِلْم والتُّقى	دِيارُ السَّخا والعِزِّ والشُّكْرِ والحَمْدِ
كُنوزُ الصّفا والعِشْقِ والصِّدْقِ والوَفا	لَهُمْ مِنْ بحارِ الغَيْبِ وِرْدٌ عَلى وِرْدِ
عَلَيْهِمْ سَلامُ اللهِ ما هَبَّتِ الصَّبا	قُبَيْلَ ابْتِسامِ الصُّبْحِ في طالَعِ سَعْدِ

وممن نطق بعلوم هؤلاء السادات العارفين وعبر عن مواجيدهم ونشر مقاماتهم ووصف أحوالهم قولا وفعلا بعد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين علي بن الحسين زين العابدين ﵁ لما أنه ثمرة الشجرة المباركة ومعدن الرسالة النبوية جعلنا الله تعالى من محبيهم وحشرنا في زمرتهم آمين .

وقال في « عوارف المعارف » : ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأُقسمن لكم أنّ أحب عباد الله إلى الله تعالى الذين يحبّبون الله تعالى إلى عباده ويحبّبون عباد الله إلى الله تعالى ويمشون في الأرض بالنصيحة » ، وهذا الذي ذكره رسول الله ﷺ هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله تعالى لأن الشيخ يحبب الله تعالى إلى عباده ويحبب عباد الله إلى الله تعالى ، ورتبة المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية ونيابة النبوة في الدعاء إلى الله تعالى . انتهى .

ومنه ما في « جوامع الكلم » : توسلوا إلى الله تعالى بالمشائخ فإنهم من خواص الحضرة ونوابها لا تأتوا البيوت من ظهورها وأتوا البيوت من أبوابها ، المرشد وسيلة إلى الله تعالى وإلى كل فضيلة فاتقوا الله تعالى وابتغوا

إليه الوسيلة ، لا تعرف دسائس النفس إلا بالمربي ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ، ظل المرشد تقيكم حر النار فلا تفارقوهم ملالا والخوف للطالبين ليس بملائم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، توسلوا بالمشائخ فكل متوسل يحشر مع وسيلته ، وفي التنزيل : ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾ .

ومنه ما في « روح البيان » : واعلم أن الآية الكريمة صرحت بالأمر بابتغاء الوسيلة ولا بد منها فإن الوصول إلى الله تعالى لا يحصل إلا بالوسيلة وهي علماء الحقيقة ومشائخ الطريقة ، والعمل بالنفس يزيد في وجودها وأما العمل وفق إشارة الشيخ المرشد ودلالة الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات والأولياء رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فيخلصها من الوجود ويرفع الحجاب ويوصل الطالب إلى رب الأرباب . ومثله في « المكتوبات » الشريف .

ومنه ما في « روح البيان » أيضا : فعلى العاقل تحصيل الحال قبل حلول الأجل ، وهو إنما يكون بصحبة واصل إلى الله تعالى ، وفيه أيضا : الغيرة لحال الباطن لا لحال الظاهر . انتهى .

وفيه أيضا : وينبغي أن يجتهد في تحصيل سر الأولياء ، وأقل الأمر أن لا يقصّر في حبهم فإن المرء مع من أحب كما ذكرنا غير مرة ، أي يحشر معه فلا بد من الجهة الجامعة من وجه خاص انتهى .

وفيه أيضا : فعلى المؤمن أن يصلح ظاهره بالشريعة وباطنه بالطريقة حتى ينال شفاعته ويتخلص من عذاب النار ويدخل الجنة مع الأبرار

وفيه أيضا : الإشارة في الآيتين أن ﴿ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ من أهل العلوم الظاهرة بالعلم ويباهون به العلماء ويمارون به السفهاء ، لا تتزكّى أنفسهم بمجرد تعلم العلم بل تزيد سفاهتهم المذمومة مثل المباهاة والمجادلة والمفاخرة والكبر والعجب والحسد والرياء وحب الجاه والرياسة وطلب الاستيلاء والغلبة على الأقران والأمثال ، ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ التزكية ويتهيأ لها بتسليم النفس

إلى أرباب التزكية ، وهم العلماء الراسخون والمشائخ المحققون كما يسلم الجلد إلى الدباغ ليجعله أديما ، فمن سلم نفسه للتزكية إلى المزكي ويصبر على تصرفاته كالميت في يد الغسال ويصغي إلى إشارته ولا يعترض على معاملته ويقاسي شدائد أعمال التزكية فقد أفلح بما تزكى ، والمزكي هو النبي ﷺ في أيام حياته وبعده هم العلماء الذين أخذوا التزكية ممن أخذوا منه قرنا بعد قرن من الصحابة والذين اتبعوهم بإحسان إلى يومنا هذا ، ولعمري إنهم في هذا الزمان أعز من الكبريت الأحمر . انتهى .

ولما رأى سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد فساد أحوال الزمان أنشأ هذه الأبيات :

أهل التصوف قد مضت صار التصوف مخرقة

صار التصوف ركوة وسجادة ومدلقة

صار التصوف صيحة وتواجدا ومطبقة

كذبتك نفسك ليس ذي سنن الطريق الملحقة

« نفحات » ١٣٤ .

وقال الشيخ أبو العباس أحمد زروق قدس سره في « القواعد » : طلب الشيء من وجهه وقصده من مظانه أقرب لتحصيله ، وقد ثبت أن دقائق علوم الصوفية منح إلهية ومواهب اختصاصية لا تنال بمعتاد الطلب ، فلزم مراعاة وجه ذلك وهو ثلاثة : **أولها** العمل بما علم قدر الاستطاعة ، **الثاني** الالتجاء إلى الله تعالى في الفتح على قدر الهمة ، **والثالث** إطلاق النظر في المعاني[1] حال الرجوع لأصل السنة ليجري الفهم وينتفي الخطأ ويتيسر الفتح .

« ١ » في الأصل المعالي

وقد أشار الجنيد رحمه الله تعالى لذلك بقوله : ما أخذنا التصوف من القيل والقال والمراء والجدال ، وإنما أخذناه عن الجوع والسهر وملازمة الأعمال أو كما قال .

وعنه عليه الصلاة والسلام : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .

وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه : إذا اعتقدت النفوس ترك الآثام جالت في الملكوت ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالِمٌ علماً . انتهى .

اعلم أن أفضل الأعمال وأشرف الأحوال اتباع السنة في كل حال كما ذكرنا لكن لا يمكن هذا الاتباع إلا بالسلوك في طريقة من طرق العبودية التي وصلت عن النبي ﷺ بواسطة الصحابة إلى المشائخ الصوفية ، وأفضلها وأولاها من تلك الطرق الطريقة النقشبندية لأنها باقية على أصلها من غير نقص ولا زيادة فيها ، بخلاف سائر الطرق لتغيير عن أصلها بما أحدثته المشائخ الصوفية فيها والمتشيخون من الأمور البدعية ، ولأن نسبة هذه الطريقة العلية نسبة جلية وصلت عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي هو أفضل الخلق بعد الأنبياء ، وأما نسبة سائر الطرق فليست كذلك لأنها إنما وصلت إلى مشائخها عن طرق أخر غير طريق الصديق رضي الله عنه ، ولأن جذبة المحبة إنما تحصل في نهاياتها فلذلك كان الواصلون في بداية هذه الطريقة العلية أكثر من الواصلين في نهاية غيرها ، ولأن السير في هذه الطريقة العلية إنما يكون في أحدية الذات وفي غيرها في واحدية الصفات ، فشتان ما بين السير في الذات وبين السير في الصفات فقلما يخرج السالك عن التلوين في سير الصفات ، ولأن الولاية الكبرى إنما تعطى في هذه الطريقة العلية وفي غيرها إنما تعطى الولاية الصغرى فقط لما فيها من المخالفات في آداب السنة ، وفي هذه الطريقة زيادة جذبة المحبة الذاتية دون غيرها ، وهذه الجذبة لا يمكن بالكسب تحصيلها ولا بالنطق تعريفها لأنها من أنوار الذات المطلقة ولا يتصف بها إلا من كان مظهرا لذلك النور الذاتي في عالم الأزل ، ومعنى الجذبة تقريب الحق عبده إلى جنابه سبحانه

وتعالى بمقتضى عنايته الأزلية المهيئة لذلك العبد جميع ما يحتاج إليه في طي الأحوال والمنازل بلا كلفة ولا سعي من ذلك العبد ، ومعنى المحبة الذاتية هي ميل الروح بغلبة الحكم الذاتي إلى جمال ذات الحق سبحانه وتعالى في مرتبة الأحدية الذاتية من غير اعتبار الصفات والأسماء ، وبسبب تلك الجذبة المحبة الذاتية التي كانت زيادتها في هذه النسبة السنية صارت نهايتها مندرجة في بدايتها أي نهاية السلوك وهي مشاهدة أنوار الذات المقدسة في بداية السلوك وهي أول توجه السالك إلى جناب الحق سبحانه وتعالى .

فحاصل المعنى من اندراج النهاية في البداية أن المبتدئ في سلوك طريق المعرفة بزيادة جذبة المحبة الذاتية كما ذكر إذا جمع همته للتوجه إلى الذات الإلهية حصلت له في أول وضع قدمه في التوجه إلى جناب الحق مشاهدة أنوار الذات المقدسة التي هي نهاية السلوك في غير طريق الجذبة ، لأن بداية طريق الجذبة مجلى نهايته فيصل المبتدئ مع تلك الجذبة في بداية سلوكه إلى تجلي الذات المقدسة التي هي نهاية السلوك فيستغرق المبتدئ مع تلك الجذبة كل البدايات والنهايات انتهى كلام « التحفة »[١] .

وقال الشيخ الهروي ﷺ في مكتوبات الرباني ﷺ في المكتوب الثلاثين ما عبارته : سئل الخواجه بهاء الدين ﷺ أنه ما المقصود من السلوك ؟ فقال : لتصير المعرفة الإجمالية تفصيلية والاستدلالية كشفية ضرورية ولم يقل ليحصل معرفة زائدة على معارف شرعية وإن حصل في الطريق أمور زائدة لكن إذا بلغ الأمر نهايته تكون تلك الأمور هباء منثورا وتصير المعارف الشرعية معلومة على وجه التفصيل وتخرج من مضيق الاستدلال إلى فضاء إطلاق الكشف يعني كما أن النبي ﷺ كان يأخذ هذه العلوم من الوحي كذلك هؤلاء الأكابر يأخذونها بطريق الإلهام من الأصل والعلماء بينوا هذه العلوم أخذا لها من الدلائل الشرعية بطريق الإجمال فكما أن هذه العلوم كانت حاصلة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام تفصيلا كذلك تكون تلك العلوم حاصلة لهم كشفا على هذا النهج والأصالة والتبعية قائمتان في

« ١ » وقد بسطنا الكلام في فصل السير والسلوك فراجعه

البين وإنما ينتخب لمثل هذا القسم من الكمال بعضٌ من كُمّل الأولياء بعد قرون متطاولة وأزمنة متباعدة . « مكتوبات »

وفي التنزيل : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وفي الآية إشارة إلى أن سنة الله تعالى أن لا يهدي إلى حضرته قوما جحدوا نبوة الأنبياء وما قبلوا رسالة الرسل ليبلغوا إليهم من ربهم أو أنكروا على الأولياء وما استمسكوا بعروة ولايتهم ليوصلوهم إلى الله تعالى ، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ . ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ، وفي الآية إشارة إلى أن حقيقة الدين إنما هي أحكام ظاهرة وباطنة والتزين بالأعمال ظاهرا وبالأحوال باطنا وهذا لا يتحقق إلا بمقدمتين ونتائج أربع :

فأما المقدمتان **فأولاهما** الجذبة الإلهية **وثانيتهما** التربية عند الشيخ .

وأما النتائج **فأولها** الإعراض عن الدنيا وما يتعلق بها كلها ، **وثانيهما** التوجه إلى الحق سبحانه وتعالى بصدق الطلب ، وهما من نتائج الجذبة ، ثم تزكية النفس عن الأخلاق الذميمة وتحلية القلب بالأخلاق الإلهية ، وهما من نتائج التربية الشيخية بإسمه أو القوة النبوية ، والقوم الكافرون هم أهل الإنكار يتعلقون بظاهر الدين ولا يعرفون وراءه غاية وليس كذلك . انتهى « روح البيان » .

وفيه أيضا أن الهجرة على قسمين : صورية ومعنوية ، والمعنوية هي السير إلى الله تعالى عن موطن النفس لفتح كعبة القلب وتخليصها من أصناف الشرك والهوى فيجري حكمها إلى يوم القيامة . انتهى .

وفيه أيضا : اعلم أن القلوب متفاوتة فمنها ما يشق عليه الإيمان وهي قلوب الكفرة ، ومنها ما يشق عليه الذوق والوجدان وهي قلوب أهل النقصان من أهل الإيمان ، فإن بعض الناس يتباعد عن الكلمات العرفانية بل ينكر أحوال أصحاب الفضائل ، وهذا لأن مَن انهمك في الصفات الحيوانية وحكم عليه الصفات السبعية و الشيطانية لا يسوغ له الشرب من المشارب الروحانية ، ولذا يوصى بكتم ما يتعلق بالأسرار عن الأغيار انتهى .

وفيه أيضا : ومن شرط الذكر أن يأخذه الذاكر بالتلقين من أهل الذكر كما أخذه الصحابة بالتلقين من رسول الله ﷺ ولقن الصحابة التابعين والتابعون المشائخ شيخا بعد شيخ إلى عصرنا هذا إلى أن تقوم الساعة ، كذا في « ترويح القلوب بلطائف الغيوب » للشيخ عبد الرحمن البسطامي قدس سره انتهى .

ومنه ما في « جوامع الكلم » : اعلم رحمك الله تعالى أنه مشهور في العوام أن تفاضل السالكين بحسب كشوفاتهم وكراماتهم ، وعلم من كلام المشائخ أن الكرامات و الكشوفات ما هي من لوازم الطريقة فإنها ليست سببا للتفاضل ، بل سبب التفاضل إنما هو التقوى كما قال تعالى : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾

والتقوى على قسمين : ظاهري وباطني ، والباطني منه ما هو مختص بالأولياء ومنه ما هو غير مختص بهم ، والمختص هي التقوى عما سوى الله تعالى المعبر عنه بالفناء ، وأشير إليه فيما ورد : « موتوا قبل أن تموتوا » وبه البشارة لمن اتصف به كما وقع في حديث آخر : « من أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى ابن أبي قحافة » كما في « المكتوبات » وهو الصديق الأكبر رضي الله عنه .

وفيها أيضا : ولما كان بيان المعارف الإلهية والأوضاع الباطنية أشرف الأحوال وأولاها جعلنا التحريض بالسلوك خصوصا في الطريقة النقشبندية العلية من بين الطرق وقلنا اعلمو يا إخواني أن الموت الذي قبل الموت المعبر عنه بالفناء والبقاء عند الصوفيين المحققين إن لم يتحقق هو لا يتيسر الوصول إلى الحق تبارك وتعالى ، بل لا يتحقق النجاة في عبادة الآلهة الآفاقية والنفسية وأين الاطمئنان وأين الإسلام الحقيقي وأين الدخول في زمرة العباد والوصول إلى درجات الأوتاد مع أن هذا أول قدم يوضع في أطوار الولاية وكمال أسبق يحصل في البداية ، ثم قال فيها : والمراد من السلوك والسير تصفية القلب وإزالة الغفلة فلا تكن غافلا عنه ، وشق جبريل عليه السلام قلب النبي ﷺ أمر عظيم وعزة لنا .

ولما كانت التزكية والتصفية موقوفة على أجزاء الإنسان بيَّنا أن الإنسان مركب من عشرة أجزاء : خمسة من عالم الأمر وخمسة من عالم الخلق ، وقد ذكرناها في موضعها .

أما الخمسة التي هي من عالم الأمر هي : القلب والروح والسر والخفي والأخفى ، **وأما الخمسة** التي هي من عالم الخلق : العناصر الأربعة والنفس ، جعل الله تعالى تحصيل الكمالات الباطنية لأحبائه بسبب توجهات أوليائه الكرام في اللطائف المذكورة سواء كان أولا للخمسة الآمريّة أو الخلقية ، لكن وقع الإلهام لمولانا الشيخ النقشبندي ﷺ بالابتداء من اللطائف الخمسة الأمرية مبتدئة من لطيفة القلب النائب مناب القلب الحقيقي إلى الأخفى الذي هو أقصى الدرجات للولاية الخاصة ، وهو مقام النبي ﷺ ، وتندرج تربية النفس الأمارة وتصفية العناصر الأربعة في تربية اللطائف الخمسة الأمرية اندراجا تاما .

فلذا قال الشيخ رحمه الله تعالى : نهاية الآخرين مندرجة في بدايتي ، والمشائخ الأخر يبتدئون بتزكية النفس الأمارة وتصفية العناصر الأربعة بالرياضات الشاقة والمجاهدات العسيرة ولأجل ذلك كان في طريقهم أكثر المخوفات والمهلكات حتى لا تحصل النجاة منها بسبب غلبة الأذكار الأمرية ، لأنها أي الأذكار لم تجر عندهم في الابتداء فجريانها بعد التزكية للنفس والتصفية للعناصر الأربعة بخلاف هذه الطريقة العلية النقشبندية فإنه يبتدئ فيها عن هذه الأذكار وتكون الأنهار الخمسة جارية بحيث لا ينقطع أصلا . انتهى كلام « الرسالة » .

وفيها أيضا : إذا تأملت مجرد ذكر القلب لا يعدل عليه شيء ، فهذه النعمة يحصل بالمحبة بين المريد وشيخه من الجانبين لأن الفناء في الشيخ مقدمة الفناء في الرسول ، والفناء في الرسول مقدمة الفناء في الله تعالى ، ولا يحصل النسبة والحضور إلا بتوجه الشيخ المقتدى به وبمحبته وبمداومة صحبته . انتهى .

وقد ذكرنا هذه أيضا في موضعها وهنا أيضا لمقتضى المقام ، وقال سادات الطريقة أن طريق تحصيل المحبة السلوك ثم الذكر الدائم ثم تمحق الحروف ويبقى المعنى ثم يرتفع العدد ويصير حالة مستديمة ، وحينئذ تحدث المحبة فلا ينسى المذكور ثم تغيب الأشياء ظاهرا وباطنا حتى عن النفس وصفاتها في المذكور وهو القرب ثم يغيب عن الذكر أيضا في شهود المذكور وهو الفناء ثم يحدث الاتصال ويشاهد ما يشاهد لظهور النور والغفلة عن الشواغل ويصير من ملوك الدين انتهى .

وفيه أيضا أن عارفا بالله في مشرق الأرض ورجل محب له في مغربها لكان له نصيب من ذلك على حسب قسمته وتهذيب محبته انتهى .

فريدة

لا بد للسالك من معرفة مسائل

منها اثنى عشرة مسئلة يلزم حفظها ليكون في الجواب على نشاط وهي هذه :

١ . **إذا سئلت** ما مبنى وأساس هذه الطريقة العلية فالجواب : كمال اتباع سنة رسول الله ﷺ ورعاية آدابها بالتوجه الصادق إلى الحق سبحانه وتعالى .

٢ . **وإذا سئلت** عن سلسلة مشائخ هذه الطريقة وما معتقدهم فالجواب : اعتقاد الفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة .

٣ . **وإذا سئلت** عن عقيدتهم اللازمة وخلاصة عزيمتهم فالجواب : دوام العبودية لله سبحانه وتعالى بلا مزاحمة للغير بحيث يصير السوى عنده سمًّا وتزكيته تعالى عن كل مماثل وشبيه وتنزيهه عن كل شريك ونظير .

٤ . **وإذا سئلت** بأي طريق ينال الطالب إلى هذه السعادة العظمى فالجواب : بالمحبة الذوقية بتصرف الجذبة الإلهية .

٥ . **وإذا سئلت** فما الوسيلة لتلك الجذبة والمحبة فالجواب : الوسيلة العظمى لذلك صحبة الشيخ الكامل الذي يعلم علاج أمراض القلوب وليس سبب أقوى لتلك الجذبة من تلك الصحبة كما سنذكر بيانه إن شاء الله تعالى .

٦ . **وإذا سئلت** عن توحيد الذات فالجواب : تصفية القلب عن وجود ما سوى الله تعالى بتجريده عن الغير سبحانه وتعالى .

٧ . **وإذا سئلت** عن الوحدة فالجواب أيضا : تخليص القلب لله تعالى عن الغير بحيث لا يبقى في قلبه شعور بما سوى الله تعالى .

٨ . **وإذا سئلت** عن الاتحاد فالجواب : أن يستغرق في الله تعالى ويستهلك .

٩ . **وإذا سئلت** عن السعادة ، فالجواب : خلاصه عن رعونة نفسه بمشاهدة الحق سبحانه وتعالى .

١٠ . **وإذا سئلت** عن الشقاوة فالجواب : أن يكون مقيدا بنفسه مبتلى بإرادتها غافلا عن الله تعالى .

١١ . **وإذا سئلت** عن الوصل فالجواب : شهود نور وجوده سبحانه وتعالى ونسيان وجود نفسه .

١٢ . **وإذا سئلت** عن الفصل فالجواب : تعليق سره لله تعالى وتفريقه عن الغير .

وقال أبو العباس أحمد ﷺ : كثر المدعون في هذا الطريق لغربته ، وبعدت الأفهام عنه لدقته ، وكثر الإنكار على أهله لنظافته ، وحذر الناصحون من سلوكه لكثرة الغلط فيه ، وصنف الأئمة في الرد على أهله لما أحدث أهل الضلال فيه وما انتسبوا منه إليه حتى قال ابن العربي الحاتمي رحمه الله : احذر هذا الطريق فإن أكثر الخوارج منه ، وما هو إلا طريق الهُلْك والمُلْك ، من حقق علمه وعمله وحاله نال عز الأبد ومن فارق التحقيق فيه هلك وما نفد نسأل الله العافية بمنه وكرمه .

فانظر يا أخي بالإنصاف إلى أحوال المتشيخين من أبناء دهرنا هذا وهل الفتنة في الدين إلا بهم ، أولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا ، ظواهرهم مع الناس للدين وبواطنهم لجمع الحطام ، لا كثّر الله منهم ، ولما كان الزمان مشحونا بهؤلاء المفسدين المدعين على المشيخة الذين يعملون السوء بجهالتهم كثر إنكار الناس عليهم لصعوبة معرفة أحوال الصادق من الكاذب إلا لأهله ، وقد فصلنا الكلام في حقهم وفي تعريفهم في أرجوزتنا هذا وفي كتابنا « بغية الصعلوك في آداب السلوك » .

قال أبو العباس أحمد ﷺ : إنكار المنكر إما أن يستند لاجتهاد أو لحسم ذريعة أو لعدم التحقيق أو لضعف الفهم أو لقصور العلم أو لجهل المناط« ١ » أو لانبهام البساط أو لوجود العناد ، فعلامة الكل الرجوع للحق عند تعينه إلا الأخير فإنه لا يقبل ما ظهر ولا تنضبط دعواه ولا يصحبه اعتدال في أمره ، وذو الذريعة إن رجع للحق لا يصح له الوقوف مع إنكاره ما دام وجه الفساد قائما بما أنكر ، ومنه تحذير أبي حيان في « نهره » و « بحره » ، وابن الجوزي في « تلبيسه » ، كما ادعيا وحلفا عليه وفي كلامهما ما يدل على أن ذلك مع اجتهاد منهما ، واختص ابن الجوزي بتطريز كتبه بكلام القوم مع الإنكار عليهم ، فدل على أنه قصد حسم الذريعة ، والله أعلم .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ : من أراد عز الدارين فليدخل في مذهبنا يوما أو يومين ، فقال له قائل : كيف لي بذلك ؟ قال : فرق الأصنام من قلبك ، أي أفرغه من التعلق بغير الله تعالى وأرح من الدنيا بدنك ثم كن كيف شئت يعني بعد امتثال أمر الله تعالى واجتناب نواهيه فإن الله تعالى لا يعذب العبد على مد رجليه للاستراحة من التعب مع استصحاب التواضع ، وإنما يعذبه على تعب يصحبه التكبر ، وليس الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة ، وإنما هو بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ ، ومن لم يزدد بعلمه وعمله افتقارا لربه وتواضعا لخلقه فهو هالك .

« ١ » المناط أي العلة ومحل تعليق الحكم

وقال ﷺ : الزم جماعة المؤمنين وإن كانوا عصاة فاسقين وأقم عليهم الحدود واهجرهم رحمة بهم لا تعززا عليهم ، وكان ﷺ يقول : من أقبل على الخلق الإقبال الكلي قبل بلوغه درجة الكمال سقط عن عين الله تعالى ، فاحذروا هذا الداء العظيم فقد تعلق به خلق كثير وقنعوا بالشهرة وتقبيل الأيدي فاعتصموا بالله يهدكم الله إلى الصراط المستقيم .

وكان يقول : من الشهوة الخفية للولي إرادته النصرة على من ظلمه وقد قال تعالى للمعصوم الأكبر : ﴿**فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ**﴾ ، أي فإن الله تعالى قد لا يشاء إهلاكهم .

فانظر أيها المنصف إلى دقة كلامه وقد عم هذا المرض حتى صار عضالا ويتعدى من جالسه فلا يبرأ من توغل مع هؤلاء المرضى إلا وسلب حال من صاحبهم فضلا عما كان له من قبل من الصلاحية ، فيهلك مع الهالكين ويتكبر عن التوبة لله عما يفعله لأجل الناس ويذهب مع الخاسرين نعوذ بالله من سوء الخاتمة .

قـــال الإمام الرباني مجدد الألف الثاني أحمد الفاروقي السرهندي ﷺ : إن أصل الإخلاص فرض عين وحقيقته واجب وهي موقوفة على الفناء الموقوفة على الطريقة العلية ، فعلماء الظاهر كالعوام مأخوذون في تركهم حقيقة الإخلاص الواجبة عليهم عاصون لله انتهى .

فبان بذلك كون الطريقة واجبة لأن **ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب** ، لأن الإخلاص الموقوفَ على الفناء الموقوفِ على الطريقة كأنه موقوف عليها .

وقال عروة الوثقى محمد معصوم الفاروقي ﷺ في « مكتوباته » ما حاصله : الشريعة ثلاثة أجزاء : علم وعمل وإخلاص ، وحقيقة الجزء الثالث أعني الإخلاص مربوطة على المعرفة ، والمعرفة موقوفة على خدمة الصوفية الذين هم علماء الباطن ، انتهى كلامه .

وفيه أيضا ما حاصله أن كمال الإيمان وتمام الإخلاص مربوطةٌ على المعرفة موقوفةٌ على الفناء والموت قبل الموت ، فكان إيمان من له قدم راسخ في الفناء أكمل ، فظهر أن إيمان أبي بكر رضي الله عنه كان أرجح كما ورد : « لو وزن إيمان أبي بكر مع إيمان أمتي لرجح إيمان أبي بكر » ، لأنه كان كاملا في الفناء ، وقد ذكرنا ذلك في موضعه مع الحديث الوارد في ذلك ، وقد قال العارفون : إن الأعمال مأخوذة من الكتب الشرعية ، إلا أن العمل الحقيقي والإخلاص والإسلام الحقيقي واطمئنان النفس منوطة ومربوطة بصحبة الصوفية الكرام كثر الله سوادهم انتهى .

وقال محمد معصوم قدس سره : إن السلوك لطريق الصوفية قدس الله تعالى أرواحهم بعد تصحيح الاعتقاد على مذهب أهل السنة والجماعة وبعد تصحيح الأعمال الصورية لازم ، انتهى كلامه ، وأمثال هذه من الأسرار في « المكتوبات » كثيرة اكتفينا عن ذكرها .

قال الإمام محمد الغزالي قدس سره في « الإحياء » : فمن كان عنده شيء أحب إليه من الله عز وجل فقلبه مريض يلزم عليه التداوي ، كما أن كل معدة صار الطين أحب إليه من الخبز والماء البارد وزال شهوته منهما فهي أيضا مريضة ، وبهذا يعرف أن قلوب العباد كلها مريضة إلا ما شاء الله تعالى لإصلاحها بصحبة أهل الخير ، إلا أن من الأمراض ما لا يعرفه صاحبها ومرض القلب من هذا القبيل لا يعرف صاحب القلب كونه مريضا ، فلذلك يغفل عنه وإن عرفه يعسر الصبر على مرارة دوائه فإن دواءه بمخالفة الشهوات ، فليس للإنسان شيء ثقيل من مخالفة الشهوة ، فإن وجد في نفسه قوة الصبر على مخالفة الشهوة لا يجد طبيبا حاذقا يعلم طب القلوب يعالجه ، فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاج مرض المرضى ، فلهذا صار الداء عضالا والمرض مزمنا واندرس هذا العلم وأنكروا طب القلوب وكذلك أنكروا مرض القلوب ، وأقبل الخلق على حب الدنيا وعلى أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات ومراآت ، فهذه علامة أصول الأمراض . انتهى كلامه .

وقال إمام أهل الحقيقة أبو العباس أحمد المشهور بزروق ﷺ : إن التصوف مقام حُدّ ورُسِم له بوجوه تبلغ نحو الألفين ، مرجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى وإنما هي وجوه فيها ، ثم إن الاختلاف في الحقيقة الواحدة إن كثر دل على بعد إدراك جملتها ، ثم هو إن رجع لأصل واحد يتضمن جملة ما فيها كانت العبارة عنه بحسب ما فهم منه ، وجملة الأقوال واقعة على تفاصيله ، واعتبار كل واحد على حسب مناله منه علما أو عملا أو حالا أو ذوقا أو غير ذلك والاختلاف في التصوف من شأن ذلك .

فمن ثم قال ألْحقَ الحافظُ أبو نعيم ﷺ بغالب أهل حليته عند تحليته كل شخص قولا من أقواله يناسب حاله قائلا : وقيل إن التصوف كذا فأشعر أن من له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوف وأن تصوف كل أحد صدق توجهه فافهم .

وإسناد الشيء لأصله والقيام فيه بدليله الخاص به يدفع قول المنكر لحقيقته وأصل التصوف مقام الإحسان الذي فسره رسول الله ﷺ بـ « أن تعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » لأن معاني صدق التوجه إلى هذا الأصل راجعة وعليه دائرة ، إذ لفظه دل على طلب المراقبة الملزومة به فكان الحض عليها حضا على عينه كما دار الفقه على مقام الإسلام والأصول على مقام الإيمان ، فالتصوف أحد أجزاء الدين الذي علَّمه عليه الصلاة و السلام جبريل ليتعلمه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم .

وقال سيدي أبو المواهب الشاذلي ﷺ قال : سمعت شيخنا أبا عثمان ﷺ يقول بالدرس على رؤوس الأشهاد : لعن الله من أنكر على هذا الطريق ومن كان يؤمن بالله واليوم الأخر فليقل لعنة الله تعالى عليه . وكان يقول : من اعترض على هذا الطريق لا يفلح أبداً .

وسمعت شيخنا أبا عثمان ﷺ يقول : إنما جاءت ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ عقب ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ إشارة إلى أن من حدث بالنعمة فقد شرح الله صدره ، كأن الله تعالى يقول : إذا حدَّثت بنعمتي ونشرتها فقد شرحت صدرك ، ثم قال ﷺ : اعقلوا هذا الكلام فإنه لا يسمع إلا من الربانيين انتهى .

وكان حضرة الخواجه ﷺ يقول : إن في طريقتنا هذه ينبغي للسالك أن لا يعرف أنه في أي مقام حتى لا يصير ذلك حجابا لطريقه ، لكن ينبغي للمرشد أن يكون له خبرٌ عن أحوال الطالب الثلاث : الماضي والحال والمستقبل حتى يمكنه أن يربيه .

وسئل أبو الحسن الخرقاني ﷺ عن الصوفي فقال : الصوفي لا يكون صوفيا بالمرقع ولا بالسجادة ولا بإجراء الرسوم والعادة ، بل الصوفي من كان فانيا عن وجوده في عالم الشهادة .

وقال : إن الصوفي لا يحتاج إلى الشمس في النهار ولا يحتاج إلى النجوم والقمر في الليل ، بل هو عدم محض لا يحتاج إلى الوجود لاستغراقه في بحر الشهود . « رشحة » ١٥

قال الإمام حجة الإسلام ﷺ : والسلوك إلى الله تعالى بالتبتل والانقطاع إليه يكون بالإقبال عليه والإعراض عن غيره ، وترجمته قول لا إله إلا الله ، والإقبال عليه إنما يكون بملازمة الذكر ، والإعراض عن غيره يكون بمخالفة الهوى والتنقي عن كدورات الدنيا وتزكية القلب عنها ، والفلاح بالضرورة ينتجها . قال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾

فعمدة الطريق أمران : الملازمة لذكر الله تعالى والمخالفة لما يشغل عن ذكر الله تعالى وهذا هو السفر ، وليس في هذا السفر حركة لا من جانب المسافر ولا من جانب المسافَر إليه ، فإنهما معا ، أوَما سمعت قوله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ ، فالله تعالى مُتَجَلٍّ بذاته لا يختفي إذ يستحيل اختفاء النور ، وبالنور يظهر كل خفاء والله نور السموات والأرض ، وإنما خفاء النور على الحدقة بأحد الأمرين : إما الكدورة في الحدقة أو الضعف فيها فلا يطيق احتمال النور العظيم الباهر كما لا يطيق نور الشمس أبصار الخفافيش ، فما عليك إلا أن تنقي عن عين القلب كدورته وتقوي حدقته .

فإذا هو فيه كالصورة في المرآة حتى إذا غامضك تجليه ولم تثبت فيه بادَرْتَ وقلتَ إنه فيه إلا إن ثبَّتك الله ﷻ بالقول الثابت ، فتعرف أن الصورة ليست في المرآة بل حلت لها وما حلت فيها ، ولو حَلّت لما يتصور أن تتجلى صورة واحدة في مرايا كثيرة ، بل كان إذا حلت في مرآة ارتحلت عن غيرها ، وهيهات ذلك فإنه سبحانه يتجلى لجملة من العارفين دفعة ، نعم يتجلى في بعض المرائي أصح وأوضح وأظهر وأقوم وفي بعضها أخفى وأميل إلى الاعوجاج عن الاستقامة ، وذلك بحسب صفاء المرائي وصقالتها وصحة استدارتها واستقامة بسيط وجهها ، فلذلك قال فخر الكائنات ﷺ : « **يتجلى للناس عامة ولأبي بكر** رضي الله عنه **خاصة** » .

ومعرفة السلوك والوصول أيضا بحر عميق من بحار القرآن ، والعلم الأعلى والأشرف علم معرفة الله تعالى ، فإن سائر العلوم يراد له من أجله وهو لا يراد لغيره ، وطريق التدريج فيه الترقي من الأفعال إلى الصفات ثم من الصفات إلى الذات ، فهي ثلاث طبقات : أعلاها علم الذات ولا يحتملها أكثر الأفهام ، فعلم معرفة الله تعالى أشرف العلوم ، ويتلوه في الشرف علم الآخرة وهو علم المعاد وهو متصل بعلم المعرفة ، وحقيقته نسبة العبد إلى الله تعالى عند تحققه بالمعرفة أو مصيره محجوبا بالجهل ، ويتلو في الشرف علم معرفة الله تعالى وهو علم المقصد إلى العلم بالصراط المستقيم وطريق السلوك ، وهو معرفة كيفية تزكية النفس وقطع عقبات المهلكات وتحليتها بالصفات المنجيات .

والعجب منك أيها المسكين المشغول بجاهك الحقير المنقص ومالِك اليسير المشوش قانعا به عن النظر إلى جمال الحضرة الربوبية وجلالها ، فإنه أظهر من أن يطلب وأوضح من أن يفقد ، ولن تمنع القلوب من الاستهتار بذلك الجمال مع تزكيتها من كدورات شهوات الدنيا إلا شدّة الإشراق مع ضعف الأحداق ، فسبحان من اختفى من بصائر الخلق بنوره واحتجب عنهم بشدة ظهوره .

واعلم أيها السالك في أوعر المسالك أنك إذا ظننت أن هذا يلقى إليك دفعة من غير أن تقدّم الاستعداد لقبوله بالرياضة والمجاهدة وإطراح الدنيا بالكلية والانحياز عن غمار الخلق والاحتراق في محبة الخالق سبحانه وتعالى وطلب الحق فقد استكبرت وعلوت علوا كبيراً وعلى مثلك يُبْخَل بمثله[1] ، فيقال :

جِئْتُماني لِتَعْلَما سِرَّ سُعْدى   تَجِداني بِسِرِّ سُعْدى شَحيحا

بل لا يصح إظهار العلم إلا على من أتقن علم الظاهر وسلك في قمع الصفات المذمومة من النفس طريق المجاهدة حتى ارتاضت نفسه واستقامت على سواء السبيل ، فلم يبق له حظ في الدنيا ولم يبق له طلب إلا الحق ورُزق مع ذلك فطنة وقّادة وقريحة منقادة وذكاء بليغا وفهما صافيا .

قال الشيخ زروق ﷺ : مبنى طريق الشاذلي ﷺ اللجآء إلى الله تعالى في المبادئ والشكر له في التناهي والرضا عنه في الواردات والصبر له في المكاره والتسليم له في الأقدار وإيثار حقه على كل شيء وفي كل شيء ، وباب هذا الجمع استدامة الذكر مع الاستحضار بأن يستحضر الشخص في غالب أوقاته أنه بين يدي الله تعالى وأنه مطلع عليه ورقيب عليه وأنه خالق لحركاته وسكناته وأقواله وإراداته وما وقع عليه أو منه من خير أو شر أو نفع أو ضر كل ذلك خلق الله وتقديره مع ملاحظة أن ما وقع منه من المخالفات مؤاخذ به باعتبار كسبه المكلف به ، ولا ينظر في ذلك إلى خلق الله وتقديره ، لأن ذلك محجوب عنه ولا علم له به عند إقدامه على المخالفة ، ولذلك قال الله تعالى في الرد على المشركين المحتجين بالقضاء والقدر بقولهم ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾

فإذا حصل هذا الاستحضار أوجب له الشكر لله تعالى على ما خلق فيه من الطاعات ، فيرى الشكر كله لله تعالى ويتبرأ من حول نفسه وقوته وأوجب

« ١ » أي إن ظننت سهولة ما تطلب فلن تنال منه شيئاً

له أيضا اللجأ إلى الله تعالى في غفران ما اكتسب من الزلات ، وهذه الهمة العلية أيضا من ضروريات الطريقة العلية النقشبندية بعينها قدس الله أسرار أهالي جميعهم آمين .

و قال سيدي عبد القادر الجيلاني ﷻ وﷺ : ما وصلت إلى الله بقيام ليل ولا بصيام نهار و لكن وصلت إلى الله تعالى بالكرم والتواضع وسلامة الصدر والنداء بلسان الذل والافتقار ورؤية الفضل والمنة من الله تعالى والتبري من الحول والقوة .

ولا بد لمن أراد معرفة الله تعالى من تعلم العلم النافع الذي يؤدي به العبادات ويعرف به صفات النفس الباطنة ، ويقدم قبل الجميع معرفة عقيدة أهل السنة والجماعة ليعرف ما يجب لله تعالى وملائكته ورسله وما يستحيل وما يجوز ليسلم من التصورات الفاسدة ، ولذلك كانت طريق السادة الصوفية مبناها على طلب العلم وكثرة الذكر مع الحضور ، وكانت بهذا الاعتبار أسهل الطرق وأقربها في الوصول إلى معرفة الله تعالى لأن ما في النفس من النور الأصلي يتعاضد و يقوى بنور العلم لمن يشتغل به وبنور الذكر حتى يندفع ما فيها من الرذائل ويزداد إقبالها على حضرة القدس وإدبارها عن الدناآت حتى تنمحق عنها بالكلية ويحرق الذكر من القلب ما سوى المذكور .

ولا بد أن يصحح مقصده في ابتداء أمره ، وهو أن يكون قصده التقرب إلى الله تعالى والتعبُّد محبة له من غير التفات إلى غير ذلك ، وليكن مبتهلا إلى الله تعالى في تحصيل مقصده متوسلا إلى الله تعالى بالأدعية التي تنوِّه« ١ » بذكر ذلك .

فعلم من ذلك أنه لا بد للمريد من ذكر وورد يواظب عليه ، لأن الذكر يكون كالمصباح في يده يستضيء به وتحصل الواردات في قلبه بقدر ذكره ووِرده ، قاله السيد أحمد زيني دحلان ﷻ ، ونذكر هذا في ذكر الأوراد تفصيلا إن شاء الله تعالى .

« ١ » تدعو بذلك بصوت مرتفع

وقال ابن عطاء الله ﷺ في « لطائف المنن » : من أراد الله أن يكون داعيا إليه من أوليائه فلا بد من إظهاره إلى العباد إذ لا يكون الدعاء إلى الله تعالى إلا كذلك ، ثم لا بد أن يكسوه الحق كسوتين الجلالة والبهاء الجلالة لتعظمه العباد فيقفوا على حدود الأدب معه ويضع له في قلوب العباد هيبة وينصره بها ليكون إذا أمر ونهى مسموعا أمره ونهيه ، وجعْل هذه الهيبة في قلوب العباد من تمكين الحق له لتُعينَه على القيام له بالنصرة ، قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ ، وهي من إظهار إعزاز الحق في قلوب العباد لأوليائه سرت إليهم لانبساط جاه المتبوع عليهم ، ألم تسمع قوله ﷺ : « ونصرت بالرعب مسيرة شهر » ألبسهم الله تعالى ملابس هيبته وأظهر عليهم جلالة عظمته ، كلما نزلوا أرض العبودية رفعهم إلى سماء الخصوصية ، فهم الملوك وإن لم تخفق عليهم البنود« ١ » والأعزَّاء وإن لم تسر أمامهم الجنود ، ولله در القائل في الإمام مالك ﷺ :

يأتي الجَوابَ فَما يُراجَعُ هَيْبَةً	والسّائِلونَ نَواكِسُ الأذْقانِ
أدَبُ الوَقارِ وَعِزُّ سُلْطانِ التُّقى	فَهُوَ المُطاعُ وَلَيْسَ ذا سُلْطانِ

ومن ملكه الله نفسه وهواه فقد آتاه الله الملك ، قال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ﴾ الخ . انتهى .

وكان الشيخ محمد بن أبي جمرة ﷺ وكان من أكابر العارفين يقول : إياكم والدعوات الكاذبة فإنها تسود الوجه وتعمي البصيرة ولا يصح شيء إلا لمن ترك الحظ وقابل الأذى والشر بالاحتمال والخير ووسع خلقه ، والفقير لا يكون له يد ولا لسان ولا كلام ولا شطح ولا فعل ردي ولا يصرفه عن محبوبه صارف ولا ترده السيوف والمتالف ، وإن الله يحب من عباده أخوفهم منه وأطهرهم قلبا وفرجا ولسانا ويدا وأعفّهم وأغناهم وأكرمهم وأكثرهم ذكرا وأوسعهم صدرا . انتهى .

« ١ » أي : وإن لم تضطرب فوقهم الرايات كحال الملوك .

وقال بعض أكابرالطريقة النقشبندية : ينبغي للسالك أن يلتزم طريق المذلة والمسكنة لتحصيل الفناء والاضمحلال حتى يرى جمال الشاهد اللاهوتي في مرآة انعدامه .

وقال أيضا : كل طالب لا يطيب قلبه من شماتة الناس وشتمهم لا تصل إلى مشام روحه رائحة من معاني الرجال ، فإنه قد تقرر عند أهل التحقيق أن لا فاعل في الوجود إلا الله تعالى ، فكل ما وصل من المحبوب من شماتة ومذلة ينبغي للمحب أن يعده من رأس مال سروره ومستوجبا لحضوره .

وقال أيضا : كل من تكلم في حق شخص بكلام في تنقيصه لا يلائم ذلك في قلب المقول عليه البتة ، فإن الإنسان مجبول على التأثر والتنافر عن نسبة النقصان إليه ، والحق إبعاد ذلك التأثر والتنافر وذلك لا يتيسر بدون الرجوع إلى الحق سبحانه لا بالذكر ولا بالمراقبة والسلوك عند أرباب الطريقة فاعتبر بهذا . انتهى .

وقال بعض السادات : إن الصوفي من جعل الدنيا والآخرة وراءه وأقبل بكليته على مولاه كما ذكرناه .

وقال سهل بن عبد الله رضي الله عنه : إن الله يلقي على الخصوص الفاقة ويحوجهم إلى الخلق بالاحتياج والطمع فيهم ، ويلقي في قلوب الخلق المنع لهم وحرمانهم ما في أيديهم ليردهم إليه . فإذا رجعوا إليه آيسين منقادين رزقهم من حيث لا يحتسبون . ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِى مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِى مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلۡطَـٰنٗا نَّصِيرٗا ﴾ واستحضر أن ذلك كله بالله لا بنفسك وقل اللهم لا تكلني إلى نفسي ، ولهذا كان رسول الله ﷺ دائم الافتقار إلى مولاه وكان يقول دائما : « لا تكلني إلى نفسي طرفة عين واكلأني كلاءة الوليد » أي المولود فإن أمه وأهله يبالغون في حراسته وحفظه من كل ما يؤذيه .

وقال أيضا في « تقريب الأصول » نقلا من « الحِكَم » : من عبر من بساط إحسانه أصمتته الإساءة ، ومن عبر من بساط إحسان الله تعالى إليه لم

يصمت إذا أساء ، يعني من شاهد إحسان نفسه وعمله بطاعة ربه انبسط لسانه بالنصيحة والموعظة لعباد الله تعالى ، فإن وقعت منه إساءة ومخالفة انقبض عن ذلك وصمت لما يعتريه من الخجل والحياء ، وهذه طريقة أهل التكليف الذين ينظرون ما منهم إلى الله تعالى من عمل صالح أو طالح ، ومن شاهد إحسان الله تعالى إليه وغاب عن رؤية إحسانه هو انبسط لسانه في الحالين من غير فرق لأن مشاهدته لوحدانية ربه وقيوميته أوجبت جراءته على ذلك ، وقد قيل : جرأة الجنان تنطق اللسان وتطلق العنان وهذه طريقة أهل التعريف الذين ينظرون ما يأتي من الله تعالى إليهم .

وذلك مخالف لما عليه أهل التكليف الذين ينظرون ما منهم إلى الله تعالى ، وهذه مسألة عظيمة مهمة ينبني عليها آداب وأحكام جمة ، وهي مسألة اختلاف الناس في معاملتهم لربهم . وقد نبه عليها صاحب « الحكم » وبسط الكلام عليها في كتابه المسمى بـ « لطائف المنن » في مناقب شيخه أبي العباس وشيخه الشيخ أبي الحسن ﵁ فقال قال شيخه أبو العباس المرسي ﵁ : الناس على ثلاثة أقسام عبد هو بشهود ما منه إلى الله تعالى وعبد هو بشهود ما من الله إليه وعبد هو بشهود ما من الله إلى الله تعالى .

قال : ومعنى كلام الشيخ ﵁ أن من الناس من يكون الغالب عليه شهود تقصيره وإساءته فيقوم مقام المعتذر بين يدي الله تعالى وتلازمه الأحزان وتحالفه الأشجان[1] ويتولى عليه الكمد كلما بدت منه سيئة أو كشف له عن أوصاف سوء ، وعبد الغالب عليه شهود ما من الله إليه من الفضل والإحسان والجود والامتنان ، فهذا تلازمه المسرة والفرح بنعمة الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

والأول هو حال الزهاد والثاني حال أهل العناية والمودة ، والأول شأن أهل التكليف والثاني شأن أهل التعريف ، الأول حال أهل اليقظة والثاني حال أهل المعرفة .

« ١ » أي الأحزان

فلذلك قال الشيخ أبو الحسن ﵁ : العارف من عرف شدائد الزمان في الألطاف الجارية من الله تعالى عليه وعرف إساءته في إحسان الله تعالى إليه . ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فقليل من العمل مع شهود المنة لله تعالى خير من كثير من العمل مع رؤية التقصير من النفس ، لأن شهود التقصير لا يخلو من الشرك في التقدير . فانظر إلى لطافة كلامهم والله ولي التوفيق .

وقال ذو النون المصري ﷿ : ما أعز الله عبدا بعز أعز له من أن يدله على ذل نفسه وما أذل الله عبدا بذلٍّ هو أذلّ له من أن يحجبه عن ذلّ نفسه ، على أن أخفى الحجاب وأشده رؤية النفس وتدبيرها . « نفحات » ٨٨ .

وقــال حاتم الأصم ﵁ : لا تغتر بمكان صالح فلا مكان أصلح من الجنة فلقي آدم ﵇ فيها ما لقي ، ولا تغتر بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبده لقي ما لقي ، ولا تغتر بكثرة العلم فإن بلعم بن باعورآء كان من علماء بني إسرائيل وكان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ما ذا لقي حيث كفر و صار مثله كمثل الكلب ، ولا تغتر برؤية الصالحين فلا شخص أكبر قدرا من النبي ﷺ ومع ذلك لم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه ، ولا تغتر بشرف النسب فقد قال تعالى : ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾

فالاعتماد على الأعمال والرضا عن النفس من أقبح الخصال ، وهي منافية للخوف من ذي الجلال .

قال بعضهم : ما رأيت رجلا أعظم رجاء في هذه الأمة ولا أشد خوفا على نفسه من ابن سيرين حيث نظر إلى عمله بعين النقص وحسن ظنه بالمسلمين فرجا لهم العفو عما يقع منهم .

وأحسن ما ينفع العبد المراقبة وهي دوام النظر بالقلب إلى الله تعالى ومراقبة ما يبدو من أفعاله وأحكامه ويعبر عن ذلك باستشعارك نظر الله إليك في حركاتك وسكناتك ، وسببها معرفة الله تعالى بصفاته ومعرفة وعده ووعيده

وأحكامه ، وثمرتها حسن الآداب والسلامة من شديد الحساب والتحلي بحلية الأوليآء ذوي الألباب ، فلا تقصر في شيء من المأمورات ولا تتناول شيئا من المحظورات لأنك تراقب أن الله لا يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك ، قال ﷺ : « الإحسان أن تعبد ربك » الخ«١» ، ثم ينتهي الحال بأهل المراقبة حتى لا يشهدوا بقلوبهم غير الله تعالى ، وعلامة صدقهم في ذلك أن لا يقصروا في شيء من مأمورات الشرع ولا يرتكبوا شيئا من منهياته ، فكل من للشرع عليه اعتراض فهو مخادع مخذول ممكور به ، فالمراقبة أصل كل خير ولا يصل العبد إلى هذه المرتبة إلا بعد فراغه من المحاسبة لنفسه ، وهي التثبت قبل الفعل ليزنه بميزان الشرع ، فإذا حاسب نفسه على ما سلف وأصلح حاله في الوقت ولازم طريق الحق وأحسن ما بينه و بين الله تعالى وبين عباد الله وحفظ مع الله تعالى الأنفاس دام له الشهود وقلت غفلاته وارتفعت حالاته فيكون قلبه وأقواله وأفعاله فيما فيه رضا مولاه انتهى .

وقــال الشيخ الإمام السيد أحمد زيني دحلان قُدِّسَ سِرُّهُ : كان الشيخ محمد بن أبي جمرة قُدِّسَ سِرُّهُ يقول : عليك بالعمل وإياك وشقشقة اللسان بالكلام في الطريق دون التخلق بأخلاق أهلها ، والعلم كله مجموع في حرفين : أن تعرف العبودية وتعبده ، فمن فعل ذلك فقد أدرك الشريعة والحقيقة ، ولا يكون الرجل غواصا في الطريق حتى يفرّ من قلبه وسره وعمله ووهمه وفكره وكل ما يخطر بباله غير ربه ، وكل من تحجبه أعماله وأقواله فهو محجوب عن مقام التوحيد ومقام التفريد ولا يزف الولي إلى ربه حتى يترك الوقوف مع سواه من مقام أو درجة .

وكان يقول : إن أردت أن تجتمع على ربك فطهر باطنك وضميرك من الخبث والنية الردية والإضمار بالسوء لأحد من خلق الله عَزَّ وَجَلَّ .

« ١ » الحديث : « قال فأخبرني عن الإحسان ؟ » قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »

وكان ﷺ يقول : من شرط الفقير أن لا يكون عنده التفات إلى مراعاة المخلوقين له في الحرمة والجاه والقيام والقعود والقبول والإعراض وغير ذلك من الأحوال الظاهرة لأنه لا يراعي إلا الله تعالى ، ومن لم يكن عنده شفقة على خلق الله تعالى لا يرقى مراقي أهل الله تعالى .

وقد ورد أن موسى عليه السلام لما رعى الغنم لم يضرب واحدة منهن بعصا ولا جوَّعها ولا آذاها ، فلما علم الله قوة شفقته على غنمه بعثه الله نبيا وجعله كليما داعيا لبني إسرائيل وناجاه ، فمن أعز الخلق وشفق عليهم ترقى إلى مراتب الرجال والسلام . « قواعد » ١٢ .

وكان يقول : الفقير كالسلطان مهابة وكالعبد الذليل تواضعا ومهانة ، ولا يكون الفقير فقيرا حتى يكون حمالا للأذى من جميع الخلائق إكراما لمن هم عبيده ، وكلما زاد علم العبد زاد افتقاره لربه وعلت همته .

وقال ﷺ : لا يكن همك من العبادة إلا القرب من المعبود دون الأجر والثواب فإنه إذا منّ عليك بالدخول إلى حضرته فهنالك الأجور وأعلى منها ، ثم ينعم عليك حتى تكون أنت منعما على غيرك انتهى .

وقال الشيخ عبيد الله الأحرار قدس سره : إن كلمات أولياء الله تعالى مقتبسة من مشكاة الحقيقة المحمدية ﷺ ، فكمال تعظيم القرآن والحديث النبوي واجب على عامة الأمة كذلك تعظيم كلام أولياء الله تعالى لازم أيضا ، فينبغي أن يعامل كلامهم بالأدب والحرمة حتى يجد في نفسه التعظيم والاحترام .

و سئل أيضا قدس سره لمن يجوز التكلم في الطريقة ؟ فقال : يجوز التكلم فيها لمن لو عرض ظاهره على جميع أهل الأرض لا يجدون فيه عيبا شرعيا ، وإن عرض باطنه على جميع أهل السماء لا يرون فيه نقصانا انتهى .

وقال الشيخ أبو العباس المشهور بابن زروق قدس سره : لا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله تعالى فيه ، قال الشافعي ﷺ : إجماعا ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « العلم إمام العمل والعمل تابعه » فلزم كل أحد تعلم

علم حاله حسب وسعه بوجه إجمالي يبرأ به من الجهل بأصل حكمه إذ لا يلزمه تتبع مسائله بل عند النازلة والحالة ما يتعلق بها ، وما وراء ذلك من فروض الكفاية الذي يحمله من قام به ولا تخلو الأرض من قائم لله بحجة فلا عذر فافهم انتهى .

وقال ﷺ : وأصل كل أصل من علوم الدنيا والآخرة مأخوذ من الكتاب والسنة ، مدحا للممدوح وذما للمذموم ووصفا للمأمور به ، ثم للناس في أخذها ثلاث مسالك :

أولها قوم تعلقوا بالظاهر مع قطع النظر عن المعنى جملة ، وهؤلاء أهل الجحود من الظاهرية لا عبرة بهم .

الثاني قوم نظروا لنفس المعنى جمعا بين الحقائق فتأولوا ما يُؤَوَّل وعدلوا ما يعدل ، وهؤلاء أهل التحقيق من أصحاب المعاني والفقهاء .

الثالث قوم أثبتوا المعاني وحققوا المباني وأخذوا الإشارة من ظاهر اللفظ وباطن المعنى ، وهم الصوفية المحققون والأئمة المدققون ، لا الباطنية الذين حملوا الكل على الإشارة ، فهم لم يثبتوا المعنى ولا العبارة فخرجوا عن الملة ورفضوا الدين كله نسأل الله العافية . انتهى . « قواعد » ٢٩ .

وقال الخواجه بهاء الدين النقشبندي ﷺ : سلوك هذه الطريقة موقوف على حصول اليقين بأهل الله ، كل أعمال السالك ينبغي أن تمر على هذا الوصف حتى تظهر النتيجة وتحصل المعرفة التفصيلية التي هي منتهى قصد الطالبين ، لأن من حسن اعتقاد الطالب بأهل الحقيقة لا يحصل شيء ، فإن اعتقاده بأدنى شيء يتغير . انتهى « قواعد » ٢٨ .

وكان ﷺ يقول : إن طريقتنا من النوادر ، وهي العروة الوثقى ، ويقول : هي وضع المخاليب في ذيل متابعة سنة الرسول ﷺ والاقتداء بآثار الصحابة الكرام في هذا الطريق لما أن رعاية متابعة السنة عمل في غاية العظمة . وقال ﷺ : كل من أعرض عن طريقتنا يخاف عليه خطر الدين ، وههنا مظنة

مزلة الأقدام يتوهم تفضيل الإمام الرباني وأتباعه الذين بلغوا نهاية المقامات المجددية على مشائخهم العظام مثل الخواجه بهاء الدين النقشبند ﷺ ، لأنا قلنا إن نهاية الطريقة النقشبندية هي المراقبة الأقربية وما فوقها مجددية ، ولا شك أن صاحب المقام الفوقاني أفضل من صاحب التحتاني . . إلخ . بسطه في « التقريب » ٢٣٠ فراجعه .

سئل الخواجه عبيد الله ﷺ مرة عن سبب تقليله الكلام في التصوف فقال : اعلم أن أحدا إذا تكلم في التصوف فقد لعب مع صاحبه زمانا يعني أن التصوف من مقولة الحال غير حاصل بقيل وقال ولا يسعه نطاق المقال وما قدره أحد حق قدره وما زاد بيانهم غير ستره ، فإن الإعراب عنه لغير ذائقه ستر وتلبيس والإظهار لغير واجده إخفاء وتدليس ، فالتكلم فيه إذا يكون كاللعب في كونه مما لا يعني ، اللهم إلا أن يكون مع أهله لإعلام معالم الطريق وعقباته ليحترز عن الوقوع في آفاته انتهى .

وقال شيخ شيخنا أبو الفيوضات مولانا أحمد ضياء الدين الكمشخانوي وروحي من روحه فداء : فاعلم أن أصول الطريقة النقشبندية التمسك بعقائد أهل السنة وترك الرخص والأخذ بالعزائم ودوام المراقبة والإقبال على المولى والإعراض عن زخارف الدنيا بل وعن كل ما سوى الله تعالى وتحصيل ملكة الحضور والخلوة في الجلوة مع التحلي بالاستفادة والإفادة في علوم الدين والتزيّي بزي عوام المؤمنين وإخفاء الذكر وحفظ الأنفاس بحيث لا يخرج ولا يدخل نفس مع الغفلة عن الله الكريم والتخلق بأخلاق النبي صاحب الخلق العظيم ، فشرائط النقشبندية الاعتقاد الصحيح والتوبة الصادقة والاستحلال من أرباب الحقوق ورد المظالم واسترضاء الخصوم والتحقق بآداب السنة السنية في الأمور كلها والدقة والتحقيق على العمل بأصح الشريعة والاهتمام على المجانبة من كل المنكرات والمبتدعات والغيرة على التباعد من الهوى والمذمومات . اهـ « جامع الأصول » ١٢ .

وقال مولانا وشيخ شيخنا : لقد رأيت فقراء هذا العصر ابتلوا بخمسة أشياء : إيثار الجهل على العلم ، والاغترار بكل ناعق ، والتهاون في الأمور ، والتعزز بالطريق ، واستعجال الفتح دون شرطه ، فابتلوا بخمسة : إيثار البدعة على السنة ، واتباع أهل الباطن دون أهل الحق ، والعمل بالهوى في كل الأمور ، وطلب الترهات دون الحقائق ، وظهور الدعوى ، فظهر فيهم بذلك خمسة أشياء : الوسوسة في العبادة ، والاسترسال مع العادات ، والسماع والاجتماع في عموم الأوقات ، واستمالة الوجوه بحسب الإمكان ، وصحبة أبناء الدنيا حتى النساء والصبيان ، واغتروا بوقائع القوم في ذلك وذكر أحوالهم ، ولو تحققوا لعلموا أن الأسباب رخصة الضعفاء فلا يسترسل إلا بعيد من الله وأن السماع رخصة المغلوب أو الكامل وهي انحطاط في بساط الحق إذا كان بشرطه من أهله في محله وأدبه ، وأن الوسوسة بدعة أصلها جهل بالسنة أو خبل في العقل وأن التوجه لإقبال الخلق إدبار عن الحق ، لا سيما قارئ مداهن أو جبار غافل أو صوفي جاهل وأن صحبة الأحداث ظلمة وعار في الدين والدنيا .

وقال أبو مدين ﵁ : كل من ادعى مع الله حالا ثم ظهرت منه إحدى خمس فهو كاذب أو مسلوب : إرسال الجوارح في معصية الله والتصنع بطاعة الله والطمع في خلق الله والوقيعة في أهل الله وعدم احترام المسلمين على الوجه الذي أمر الله . انتهى .

وقال أيضاً في قصيدته :

واعْـلَـمْ بِأَنَّ طَريقَ القَوْمِ دارِسَـةٌ	وَحالُ مَنْ يَدَّعيها اليَومَ كَيْفَ ترى
مَتى أراهُـمْ وأَنَّى لي بِـرُؤْيَتِهِـمْ	أَوْ تَسْمَعُ الأُذْنُ مِنِّي عَنْهُمْ خَبَرا
مَنْ لي وأَنَّى لِمِثْلي أنْ يُزاحِمَهُمْ	عَلـى مَوارِدَ لَمْ آلَـفْ بِها كَـدَرا
أَحِبُّهُـمْ وأداريهِمْ وأوثِـرُهُـــمْ	بِمُهْجَتي وَخُصوصاً مِنْهُمْ نَفَـرا

شرع الشيخ ﷺ يُشَوِّق السالكين إلى الطريق وأهله ويخبرهم أن طريقهم دارسة ، وحال من يدعيها اليوم كما ترى من الفترة حتى كادت الهمم تكون من المطلب آيسة ، وهكذا شأن طريق القوم لعزتها كأنها في كل عصر مفقودة ولا يظفر إلا الفرد بعد الفرد ، وهذا سنة معهودة وذلك أن الجوهر النفيس لا يزال عزيز الوجود يكاد لعزته يحكم بأنه ليس بموجود ، فالطريقة وأهلها مخفية في العالم كخفاء ليلة القدر في شهر رمضان وكخفاء ساعة يوم الجمعة في يومها حتى يجتهد الطالب في طلبه بقدر الإمكان ، لكن من جدَّ وَجَدَ ومن قرع بابا ولجّ وَلَجَ .

فاجتهد أيها الأخ واصدق في الطلب تجد المطلوب واستعن على ذلك الطلب بالمدد من علام الغيوب فإن هذا الظفر لا يحصل إلا بمجرد فضله وإذا أوصلك إلى الشيخ فقد أوصلك إليه ، كما قال في « الحكم » : سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، فلم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه ، ثم إن الشيخ ﷺ لما ذكر عُدَّة الطريق وفقدان أهلها شرع يتأسف على الاجتماع بهم ويتمناه ويستبعد من نفسه حصول ذلك والتشرف بلقياه تواضعا منه وانكسارا وهضما لنفسه واحتقارا ، ولذلك قال بعد ذلك :

مَنْ لي وَأَنَّى لِمِثْلي أَنْ يُزاحِمَهُمْ عَلى مَوارِدَ لَمْ آلَفْ بِها كَدَرا

وهكذا شأن العارف بنفسه الممتلئ من معرفة ربه المتجلي بوارد قدسه ، لأنه لا يرى لنفسه حالا ولا مقاما ، بل يرى نفسه أقل من كل شيء ، وهذا هو النظر التام ، جعلنا الله تعالى في زمرة هؤلاء السادات الكرام بحرمة خير الأنام .

وقال في « الحكم العطائية » : قال بعضهم : لا يكون الصوفي صوفيا حتى لا تقله أرض ولا تظله سماء ولا يكون له قبول عند الخلق ويكون مرجعه في جميع أموره إلى الحق .

وقيل : الفقير من لا دنيا له ولا آخرة ، فإن عرض على مالك قال : ليس من رجالي ، وإن سلم إلى رضوان قال : لا أهتدي إليه وليس من رجالي ، وإن قلت : من هو وما الذي يدعي به ؟ قال : ليس ممن يدعي بشيء .

وقال محمد بن الحسن رضي الله تعالى عنهما : بينا أنا أدور في جبل لبنان إذ خرج شاب قد أحرقه السموم والرياح فلما نظر إلي ولى هاربا ، فتبعته وقلت له : عظني بكلمة ، فقال : احذره فإنه غيور لا يحب أن يرى في قلب عبده سواه .

وكتب الجنيد ﷺ إلى بعض إخوانه : من أشار إلى الله وسكن إلى غيره ابتلاه الله وحجب ذكره عن قلبه وأجراه على لسانه ، فإن انتبه وانقطع ممن سكن إليه ورجع إلى ما أشار إليه كشف الله ما به من المحن والبلوى وإن دام على سكونه نزع الله من قلوب الخلق الرحمة عليه وألبس لباس الطمع فتزداد رغبته فيهم مع فقدان الرحمة من قلوبهم ، فتصير حياته عجزا وموته كمدا ومعاده أسفا ونحن نعوذ بالله من السكون لغيره . « حكم » ٥٦

وقال الإمام الرباني ﷺ في « المكتوبات » ما نصه : ليكن معلوما لجنابه العالي أن علو هذه الطريقة ورفعة الطبقة النقشبندية إنما هو بواسطة التزام السنة السنية والاجتناب عن البدعة الشنيعة ، ولهذا اجتنب أكابر هذه الطريقة العلية عن ذكر الجهر وأمروا بالذكر القلبي ومنعوا عن السماع والرقص والوجد والتواجد وغير ذلك مما لم يكن في عصره عليه الصلاة والسلام وعصر الخلفاء الراشدين عليهم الرضوان ، واختاروا الخلوة في الجلوة بدل خلوة الأربعين لعدم كونها في الصدر الأول ، فلا جرم ترتبت على ذلك الالتزام نتائج عظمى وتفرعت على ذاك الاجتناب ثمرات كثيرة ، ومن ههنا كانت نهاية غيرهم مندرجة في بدايتهم وكانت نسبتهم فوق جميع النسب .

كلامهم دواء الأمراض القلبية ونظرهم شفاء العلل المعنوية وتوجههم الوجيه ينجي الطالبين من تعلق الكونين وهمتهم الرفيعة الشان ترفع المريدين إلى ذروة الوجود من حضيض الإمكان شعر :

ما أَحْسَنَ النَّقْشَبَنْدِيّينَ سِيرَتُهُمْ يَمْشونَ بِالرَّكْبِ مَخْفِيِّينَ لِلْحَرَمِ
تزولُ وَسْوَسَةُ الخَلَواتِ صُحْبَتُهُمْ عَنْ قَلْبِ أَصْحابِهِمْ يا حُسْنَ ذا الكَرَمِ

ولكن قد صارت هذه النسبة الشريفة في هذه الأوان كعنقآء المغرب وتوجهت نحو الاستتار تحت الحجب ، حتى سلك جماعة من هذه الطبقة من عدم وجدان هذه الدولة العظمى وفقدان تلك النعمة القصوى كل مسلك ، وفرحوا بنيل قطعات خزف بدلا من الجواهر النفيسة ، واطمأنت قلوبهم بالجوز والموز مثل الأطفال حتى أنهم من غاية الاضطرار والتحير تركوا طريقة أكابرهم وصاروا يطلبون التسلي أحيانا بذكر الجهر وآونةً يرومون الاطمئنان بالرقص والسماع والدور ، ولما لم تتيسر لهم الخلوة في الجلوة اختاروا الأربعينيات ، وأعجب من ذلك زعمهم هذه البدعات الشنيعة متممة ومكملة لهذه النسبة الشريفة وعدهم هذا التخريب عين التعمير ، أعطاهم الله سبحانه وتعالى الإنصاف ، وأوصل شمة من كمالات أكابر هذه الطريقة إلى مشام أرواحهم حتى يتركوا الاعتساف ، بالنون والصاد «١» و بحرمة النبي وآله الأمجاد ، عليه وعليهم الصلوات والتسليمات ، ولما شاعت هذه المحدثات في تلك الديار وبلغ شيوعها إلى حد اختفى أصل طريق الأكابر واختار الوضيع والشريف هذا الوضع المحدث الجديد هناك وأعرضوا عن طريق الأصل والقديم ، خطر في الخاطر أن أظهر نبذة من هذه البلية لخدمة العتبة العلية . . إلخ . « مكتوبات » الرباني ١٤٧ ج ١ .

بَثَثْتُ لديكُمْ مِنْ هُمومي وَخِفْتُ أَنْ تَمَلّوا وَإِلّا فَالكَلامُ كَثيرُ

« ١ » لعل المراد التوسل بأوائل سور : ن القلم وصاد

وإنما فضل الصديق بهذه الطريقة لكون نسبته إلى النبي ﷺ بالطريقة الصديقية والحبية وهذه أكمل جميع النسب وأعلاها « تحفة »

وقال الشيخ أحمد سعيد الفاروقي أيضا قدس سره : سلوك هذا الطريق موقوف على حصول اليقين بأهل الله تعالى حتى تظهر النتيجة وتحصل المعرفة .

وقال أيضا : أعطيت طريقة ليس فيها حرمان لأحد ولا مجاهدة ، يكفي فيها اتباع السنن والعمل بالعزيمة نحن المرادون نحن المفضلون .

وقال أيضا : أقرب الطرق عندنا نفي الوجود ، لكن لا يتيسر ذلك إلا بترك الاختيار ورؤية قصور الأعمال .

وقال رضي الله عنه : طريقتنا صحبة وفي الخلوة شهرة وفي الشهرة آفة والخيرية في الجمعية والجمعية في الصحبة بشرط أن يفنى كل أحد في الآخر .

وقال رضي الله عنه أيضا : طريقتنا العروة الوثقى وهو التثبت بمتابعة حضرة الرسالة والاقتداء بآثار أصحابه ﷺ ، وفي هذه الطريقة بالعمل القليل تفتح فتوحات عظيمة أما رعاية متابعة السنة فهو أمر عظيم ، فالذي أعرض عن طريقتنا فهو في خطر الدين . انتهى كلامه .

وقد نظم مولانا خالد رحمه الله بعض كلماته المباركة في هذه الأبيات :

مُنِحْتُ كَراماتٍ فَبِي يُرْفَعُ البَلا	وَلُذْ بِي تَرى الحاجاتِ مِنْكَ تَقَضَّتِ
وَلا أَدْخُلُ الفِرْدَوسَ حَتَّى يَحِلَّها	صِحابي وَأَتْباعِي بِفَضْلٍ وَرَحْمَةِ
وَيَشْفَعُ أَدْناهُمْ لِمَنْ كانَ حَوْلَهُ	إلى أَرْبَعينَ مِنْ ذِراعٍ وَخُطْوَةِ
وَرَبِّيَ أَعْطاني طَرِيقاً مُوَصِّلاً	وَلَمْ يَكُ مَحْرومٌ بِهِ مِن عَطِيَّةِ
مُرادونَ فَضْلِيُّونَ نَحْنُ تَكَرُّماً	وَقَدْ خَصَّنا المَوْلى بِتِلْكَ الفَضيلَةِ
وَأَمَّا طَريقي فَاتِّباعُ لِسَيِّدِ الْـ	أنام وَذِكْرُ اللهِ دَوْماً بِخِفْيَةِ
وَأَخْذُ بِعَزْمٍ وَاجْتِنابٌ لِرُخْصَةٍ	وَكُلٌّ بِفَضْلِ اللهِ فَالْزَمْ طَرِيْقَتِيْ

فَذا نَظْمُ ما قالَ البَهاءُ لِـديـنِـنَا — هُوَ النَّقْشَبَنْدِي ذُو مَناقِبَ جَمَّةِ

فَيا أَيُّها الغَوْثُ المُغيثُ لِمَنْ لَجا — إِلَيْكَ الْتَجَأنا في ارْتِفاعِ الرَّزِيَّةِ

حِماكَ مَنيعٌ يَعْجَزُ القَصْدُ دونَهُ — وَبَدْؤُكَ غاياتُ السُّـرَاةِ الأجِلَّـةِ

فَـجُدْ لِضِعافٍ أَخَّرَتْهُمْ عَوائِـقٌ — بِأَقْدَسِ فَيْضٍ جَانِبٍ لِلْـخَطيرَةِ

بِسِرِّ الفَنا ما باحَ بَوْحَكَ عَارِفٌ — كَنَظْمِكَ لَمْ يَنْظُـمْ لِنورِ البَـقا فتيّ

وَكَيْـفَ وَقَـدْ أوتيتَ مِـنْ تَبَعِيَّةٍ — لِــطه مَقاماً فاقَ أَكْمَـلَ رُتْبَــةِ

مَقامُكَ لَمْ يوصَفْ لِأَلْسُنِ عارِفٍ — وَنِسْبَتُكَ العَلْيا سَمَتْ كُلَّ نِسْبَةِ

يَخُـصُّـكَ رِضْوانٌ مِنَ اللهِ دائِمٌ — مَدَى الدَّهْرِ ما سُحْبُ المَكارِمِ سَمّتِ

صَـلاةُ إِلَهِ العَـرْشِ ثُمَّ سَلامُـهُ — عَلى المُصْطَفى المُخْتارِ خَيْرِ البَرِيَّةِ

وَآلٍ كِرامٍ ثُمَّ صَحْبٍ سَمَوا وَتَا — بِعِـيـهِمْ بِإِحْسانٍ لِيَوْمِ القِيامَـةِ

فطريقته«١» رضي الله عنه دوام التوجه إلى القلب وتوجه القلب إلى الحق كما أشرنا إلى ذلك في غير هذا الموضع وكثرة الذكر بهذا النمط والاقتصار على الفرائض والسنن المأثورة والتوسط في كل الأمور من الأكل والشرب واللباس والمسكن والمرغوبات وحفظ القلب من الخواطر والتزام صحبة الشيخ المقتدى به ورعاية آدابه في الحضور والغيبة ، والمقصود الحاصل من طريقته دوام الحضور بالحق تعالى المعبر عنه في قرن الصحابة بالإحسان ويحصل فيها الاستهلاك والاستغراق والفناء عن نفسه وأوصافه الذميمة والبقاء بالله وصفاته الحميدة واندراج النهاية في البداية المخصوص لطريقته الشريفة ظل من ظلال أنظار صاحب الرسالة التي كانت تحصل لأصحابه ﷺ بأول وهلة فيصيرون بها عيون الحكمة وأفضل الأمة ، ولأصحابه تصرفات عظيمة من إجراء الذكر في القلوب وإلقاء السكينة فيها وترقية السالكين من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام وحل مشكلاتهم وغير ذلك .

« ١ » لعله الشاه نقشبند الإمام بهاء الدين البخاري قدس سره

قال خليفته الأجل خواجه علاء الدين العطار ﵁ : ببركة عناية حضرة الشيخ أقدر على أن أجعل كل العالم أولياء لكن ليس فيه رضاء الحق تعالى فبقي أنوار إرشاده وفيوض هدايته بواسطة خلفائه العظام أزمنة كثيرة ، حتى مضت القرون واندرس أكثر آثار الطريقة وانهدم جل أركان النسبة الشريفة ونشأ فيها البدعات وحدث فيها المحدثات وخبت أنوارها وجُهل مكانها فأظهره الله تعالى إماما للشريعة ومجددا للطريقة والحقيقة وهو الإمام الهمام قدوة الأولياء الكرام غوث الواصلين المحققين قطب العارفين المدققين برهان الولاية المحمدية حجة الشريعة المصطفوية المحبوب الرباني والمجدد المنور للألف الثاني إمامنا وقبلتنا حضرة الشيخ أحمد السرهندي الفاروقي ﵁ وأرضاه ابن الشيخ حبيب الله ابن الإمام رفيع الدين ابن الشيخ نصير الدين ابن الشيخ سليمان ابن الشيخ يوسف ابن الشيخ عبد الله ابن الشيخ إسحق ابن الشيخ عبد الله ابن الشيخ شعيب ابن الشيخ أحمد ابن الشيخ يوسف ابن الشيخ شهاب الدين المعروف بنوح شاه كابلي ابن الشيخ نصير الدين ابن الشيخ محمود ابن الشيخ سليمان ابن الشيخ مسعود ابن الشيخ عبد الله الواعظ الأصغر ابن الشيخ عبد الله الواعظ الأكبر ابن الشيخ أبوالفتح ابن الشيخ إسحق ابن الشيخ ابراهيم ابن الشيخ ناصر ابن سيدنا عبد الله ابن أمير المؤمنين سيدنا عمر الفاروق ﵄ أجمعين .

وقال الشيخ عبد الله الخاني ﵏ في « البهجة » ١٦ نقلا لكلام الإمام الغزالي ﵏ في « المنقذ من الضلال » ما عبارته : ثم إنني لما علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أحسن الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق فلو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم و باطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به .

ومن ثم قال الشيخ أبو المواهب محمد الشاذلي ﵀ : من لم يؤدبه الصوفية فليس بأديب ، وبالجملة ماذا يقول القائلون في طريق أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم في الصلاة استغراق القلب بذكر الله تعالى ، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى هذا آخرها بالإضافة إلى ما لا يكاد يدخل تحت الاختيار اهـ « البهجة » ١٦

اعلم أيها الأمين المأمون أن هذه الطريقة النقشبندية سالمة من البدع باقية على أصلها ، ولا تعتبر ما يفعله الجهلة الدجالون المتشيخون من البدعات التي ليست في هذه الطريقة بالكلية وأن هذه الطريقة العلية أقرب الطرق وأسهلها وأفضلها لكونها منتسبة لأفضل الخلق بعد الأنبياء وهو الصديق الأكبر ﵁ وهو واسطة هذا العقد ومؤسس هذا المجد ، كيف لا وقد قال ﷺ : « ما صب الله في صدري شيئا إلا وصببته في صدر أبي بكر ﵁ » ، فانظر إلى هذا الحديث ، وسوى ذلك أن مبنى هذه الطريقة على اتباع السنة السنية واجتناب البدعة الخبيثة والأخذ بالعزائم والتحلي بمحاسن الأخلاق والفضائل والتخلي عن الرذائل .

وقد قال الإمام الرباني ﷺ : اعلم أن الطريق الذي هو أقرب وأسبق وأوفق وأوثق وأسلم وأحكم وأصدق وأدل وأعلى وأجل وأرفع وأكمل هي الطريقة النقشبندية العلية قدس الله أسرارها ويكفيك جلالة قدرها وعلو شأن أهاليها الأكابر ﷺ بواسطة التزامهم متابعة السنة السنية كما ذكرنا هنا واجتناب البدعة الغير المرضية وهم الذين اندرجت نهاية الأمر في بدايتهم فصارت أسهل الطرق على المريد للوصول إلى درجات التوحيد ، ولذا قالوا : بداية الطريقة النقشبندية نهاية سائر الطرق إلا من كان له قدم المحبوبية والمرادية كبعض الأولياء الذين تقدم فتحهم على السلوك .

فتحقق من ذلك كله أن الجذب في هذه الطريقة مقدم على السلوك بخلاف باقي الطرق فمبنيّةٌ على تقديم السلوك على الجذب في الأغلب ، وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى في فصل السير والسلوك ، وشتان ما بين المجذوب السالك والسالك المجذوب ، وبهذا الاعتبار قال أكابر هذه الطريقة : إن نسبتنا فوق

جميع النسب على أن مبناها على التصرف وإلقاء الجذبة المقدمة على السلوك من المرشد الداخل تحت وراثته ﷺ ، وقد أطنب العارف الخاني في « بهجته » في تفضيل المجذوب السالك على السالك المجذوب فراجعه ونبسط الكلام في حق هذه وفي خصائص هذه الطريقة في ص ١٥١ .

ثم اعلم أن حاصل ما ذكرنا أن الطريقة النقشبندية عبارة عن دوام العبودية بأشرف الطاعات على الإطلاق أعني به ذكر الله تعالى بالاتفاق ، وآدابها كمال التمسك بالكتاب والسنة وتصحيح الاعتقاد بمقتضى أراء السنة والتوبة الصادقة – وقد ذكرناها في فصلها – ورد المظالم والحقوق إلى أربابها إن أمكن فإن لم يقدر ولو بأي وجه فالاستحلال من أرباب الحقوق والاقتداء بالسنة السنية وبمواظبتها والدقة على العمل بالشريعة والاهتمام على المجانبة من كل المنكرات والمبتدعات والغيرة على التباعد من كل النواهي والمذمات ، **وأن يجعل عزيمة كل العمل كالواجب فلا يتركها بلا ضرورة ملجئة ورخصته كالحرام** ، فلا يرتكبه بلا داعية ضرورية ، ويأخذ بالأحوط في كل الأمور والاجتناب عن المهلكات الذميمة والتخلق بالأخلاق الحميدة المرضية وترك فضول الكلام وكثرة الطعام والمنام ، وأن لا يأكل من الطعام الغير الحلال ودوام الافتقار إلى الله تعالى مع الانكسار والالتجاء إليه في جميع الأمور ، وقطع الطمع عن دار الغرور والرضاء بالمقدور . فمن تأدب بهذه الآداب يصل إلى رب الأرباب « الآداب المرضية » .

فصل

في بيان مراتب التوحيد

التوحيد هو تفريد المعبود ، والمقصود هنا من التوحيد معرفة ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته وأفعاله وآثاره بكيف لا يشتبه له شيء .

وقال علي الخواص ﷺ : إذا كمل توحيد العبد لا يصح له أن يرأس على أحد من المخلوق لأنه يرى الوجود لله تعالى « تقريب »

وقال أيضا في « شرح الفصوص » ﷺ : من عرف شيئا من العالم عريا عن الحق فما عرفه على ما هو عليه وكذلك بالعكس من عرف الحق أو عرفه في نفسه بريئا من العالم عريا عنه فما عرفه ولا عرفهم « نفحات »

وللتوحيد أربعة مراتب :

الأول : توحيد آثار ، والآثار هي جملة الكائنات وهي محل ابتلاء وامتحان ، والسالك الصادق في سلوكه إذا وصل إلى مرتبة من تلك المراتب الأربع يتبين له بالمشاهدة أن جميع المصنوعات والمخلوقات والأفعال من الله تعالى وإيمان عوام المؤمنين عندها في مقام المشاهدة ، ومتى فني الموحد في توحيد الآثار يكون الترقي في الأفعال

والمراتب الأربع في الترقي منوطة بعضها ببعض ، وذلك إذا كان السالك في كمال في الأدنى يكون له الترقي في الأعلى أي يكون له اللياقة والاستعداد وكسب الترقي في أعلاه .

والثاني : من تلك المراتب توحيد الأفعال ، وذلك أن السالك إذا وصل في سلوكه إلى مقام يتحقق له جميع الأفعال من الحق سبحانه وتعالى بالمشاهدة ، وذلك بفنائه من أفعاله وأفعال غيره في أفعال الحق سبحانه وتعالى ويعبر له حينئذ فناء في الأفعال .

والثالث : توحيد الصفات ، وذلك أن السالك في سيره يرى الصفات الكمالية من الجلال والجمال كلها من ذي الجلال والإكرام بالمشاهدة وينجلي عن ظهور المصنوعات والمظاهر بفناء السالك في تلك المرتبة في صفات الحق سبحانه وتعالى ويعبر عنها بالفناء في الصفات .

والرابع : توحيد الذات ، وذلك أن السالك في هذه المرتبة والمقام يرى ويتحقق أن جميع الموجودات كلها للحق سبحانه وليس للغير مدخل في شيء مما في الكائنة ولا يرى بالمشاهدة في الوجود ما سوى الحق ويفنى السالك بواجب الوجود عن وجوده ولا يرى له أثرا من وجوده ، ويعبر عنها بالفناء بالذات ومطمح أهل الله وقصدهم ومرامهم إلى هذه المرتبة ، والواصل هنا يعد من الواصلين ، ومن لم يصل إلى هذا المقام فهو لا يزال في خوف ولا يأمن من الفتنة ، اللهم لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين .

واعلم أن علم التوحيد أنفع العلوم و أرفعها بل صفاوتها ونقاوتها وهو المقصد الأقصى والمطلب الأعلى ولا مطمع في النجاة إلا باقتنائه ولا فوز بالدرجات إلا باجتنائه ، ولعلو مرتبته ورفعة منزلته انقلبت البصائر عنه كليلة والعقول عليلة والنواظر حواسر خلق تراه الهمم العالية لقصد إدراكه في جو الطلب فحيل بينهما وبين الإرب ، وجالت جياد العقول السليمة لطلب غايته في ميدان النظر فخسرَت في بدايته غير مقضيّ الوطر«١» ، فهو كما قال أبو علي الحسن بن محمد الدقاق ﷺ : التوحيد غريم لا يقضَى دينه وغريب لا يؤدَّى حقه .

وحقيقة التوحيد بحر وقف بساحله العقول وامتنع على الأرواح والقلوب إلى كنهه الوصول يقصر أن يحيط بها فهم أو يحوم حول حماها وهم ، وأهل الأذواق الصحيحة والمشاهدات الصريحة والمواصلات الروحية والمنازلات

« ١ » العبارة كما في « شرح تائية ابن الفارض » : خلق بذات الهمم العالية لقصد إدراكه في جوّ الطلب ، فحيل بينها و بين الإرب ، و جالت جياد العقول السليمة لطلب غايته في ميدان النظر ، فخرّت في بدايته غير مقضية الوطر ، فهو كما قال أبو عليّ . .

العلية والمعاملات النفيسة الذين كشف عن أبصارهم حجب الكونين بعثوا عن فضل مواجيدهم بعثة المصدور ، وناجوا بسر توحيدهم لوح السكون المسرور وتكلموا في علم التوحيد بلسان الذوق والإشارة لضيق ظروف العبارة ، وغير هذه الطائفة من المستدلين بالأثر على المؤثر وبالصورة على المصور ما كشف لهم هذا المطلوب عن وجهه ، فَضَلَّهُ القناع لكمال التعزُّز والامتناع ، وهذا هو العلم الذي يرثه العلماء من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام علما ومقاما وحالا فهو في الحقيقة من علوم الوراثة وغيره من علوم الدراية .

وقال الإمام القشيري ﵀ في تعريفه : التوحيد سقوط الرسم عند ظهور الاسم وفناء الأغيار عند طلوع الأنوار ، وتلاشي الخلائق عند ظهور الحقائق ، وفقدُ رؤية الأغيار عند وَجد قربة الجبار جل ذكره . انتهى .

ثم اعلموا رحمكم الله تعالى أن شيوخ هذه الطائفة ﭫ بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد ، صانوا عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة رضي الله تعالى عنهم أجمعين من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل ، عرفوا ما هو حق القدم وتحققوا بما هو نعت الموجود من العدم وأحكموا أصول العقائد بوضائح الدليل ولوائح الشواهد ولم يقتصروا في التحقيق عمن شاؤوا ولم يعرجوا في الطلب على تقصير .

وقال سيد هذه الطائفة أبو القاسم الجنيد رحمه الله تعالى : التوحيد إفراد القدم من الحدث .

وسئل رويم رحمه الله تعالى عن أول فرض افترضه الله تعالى على خلقه ما هو ؟ فقال : المعرفة ، لقوله ﷻ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ قال ابن عباس ﵄ : ليعرفون

وفي كلام بعضهم للعقل دلالة وللحكمة إشارة وللمعرفة شهادة ، فالعقل يدل والحكمة تشير والمعرفة تشهد أن صفاء العبادات لا ينال إلا لصفاء التوحيد ، قال علي ﭼ لما سئل عن المعرفة : أن تعلم ما تصور في قلبك فالله بخلافه .

وذكر شيخ الإسلام في « منازل السائرين » أبياتا :

مـا وَحَّـد الواحـدَ مِـنْ واحدِ　　إذْ كـلُّ مَـنْ وَحَّـدهُ جاحـد
توحيـدُ مَـنْ يَنطـقُ عـن نَعْتِهِ　　عاريـةٌ أبطلهـا الواحـد
توحيـده إيـاه توحيـده　　ونعـت مـن ينعتـه لاحـدُ

« نفحات » ٥٤

ولأجل ذا قال سيد البشر ﷺ : « ما عرفناك حق معرفتك » وقال ﷺ : « إن الله تعالى احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم » ولأجل ذلك قال الصديق الأكبر رضي الله عنه : العجز عن درك الإدراك إدراك ، وما أحسن ما قاله العارف ابن الفارض رضي الله عنه :

ما اخترتُ حتى اخترتُ حبك مذهبا　　فواحيرتي إن لم تكن فيك حيرتي

« نفحات »٥٥

ومن قوله ﷺ قال الشيخ أبو علي قدس سره :

اعتصـام الـورى بِمَغْفِرَتِـكْ　　عَجِـزَ الواصِفونَ عَـنْ صِفَتِكْ
تُـبْ عَلَينـا فَإنَّنـا بَـشَـرٌ　　مـا عَرَفْنـاكَ حَـقَّ مَعْرِفَتِـكْ

« نفحات »

وعن يوسف بن الحسين رحمه الله قال : قام رجل بين يدي ذي النون المصري رحمه الله فقال : أخبرني عن التوحيد ما هو فقال رضي الله عنه : هو أن تعلم أن قدرة الله في الأشياء بلا مزاج وصنعه للأشياء بلا علاج وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه وليس في السموات العلا ولا في الأرضين السفلى مدبر غير الله سبحانه وتعالى وكل ما تصوره في وهمك فالله عز وجل بخلاف ذلك .

وقال بعض العرفاء رحمهم الله تعالى : ومما زلّ فيه فحول العلماء الحذاق من أهل النظر حكمهم بأن حصول العلم بذات الله تعالى وصفاته من طريق

التعلم غاية السعادات ومنتهى الدرجات ، وهذا جهل عظيم قد استولى على الأكبرين من المتجردين والواصلين فيه فضلا عمن هو بعد في السلوك .

ومن ظن أن العلم بذات المعشوق وصفاته عين الوصول إليه فقد سحب الضلال ذيله عليه ، ومن صار إلى أن الوقوع في مخلب السبع الضاري والعلم بالوقوع واحد فهو في مهواة بعيدة من الجهل وهذا مثل هولاء القوم في اغترارهم بظنونهم القايلة«١» وآرائهم المتناقصة إلى أن الوصول إلى ما يدّعونه من العلم المشار إليه عزيز جدا إذ لا يتفق ذلك إلا على الندور ولبعض الأشخاص في آحاد الأعصار .

فالطريق إلى الله ﷻ وَعْرٌ وسلوكه صعب وفيه ما لا يحصى من البحار المغرقة والنيران المحرقة والجبال الشواهق والفلوات المملوة بالصواعق والعقبات التي تُستعصى على الأعين ويمتنع وصفها على الألسن ، وكل واحد من السالكين يظن نفسه أنه من الواصلين وقد عم الضلال جميع الخلق إلا من عصمه الله تعالى بفضله وكرمه حتى اهتدى إلى الصراط المستقيم والمنح القديم ، فالله يعيذنا من الاغترار ويرزقنا مصاحبة الأبرار .

وقال صاحب ترجمة « العوارف » رحمه الله تعالى : كل المقامات والأحوال بالنسبة إلى التوحيد كالطرق والأسباب الموصلة إليها ، ويكلم كل طائفة فيه بعضهم بلسان العلم و العبارة وبعضهم بلسان الذوق والإشارة .

عِباراتُنا شَتَّى وَحُسْنُكَ واحِدٌ وَكُلٌّ إلى ذاكَ الجَمالِ يُشيرُ

وحـاصل الإشارات أن التوحيد إفراد القدم عن الحدوث وتنزيه الله تعالى عن الحدث الحديث وإسقاط الإضافات .

وقال تاج العارفين الجنيد ﷺ : التوحيد معنى يضمحل فيه الرسوم وتندرج فيه العلوم ويكون الله كما لم يزل .

« ١ » أي الضعيفة

وللتوحيد مراتب : علم وعين وحق كما لليقين ، علمه ما ظهر بالبرهان ، وعينه ما ثبت بالوجدان ، وحقه ما اختص بالرحمن ، والمحقق شاهَدَ بعقله المقبلِ على الله سبحانه وتعالى أنوارَ الهداية ويعلم يقينا بالدليل القاطع أن الموجود الحقيقي هو الله سبحانه وما سواه معدوم الأصل ، وجوده ظل وجود الحق ، فيعتقد أنه ليس في الوجود فعل وصفة وذات إلا الله تعالى حقيقة لكنه لا يجد بمجرد هذا العلم عين التوحيد ليعوقه عنه بالتشبثات الجسمانية والتعلقات النفسانية .

وقال أيضا ﵀ : **وأما التوحيد العيني الوجداني فهو أن يجد صاحبه بطريق الذوق والمشاهدة عين التوحيد وهو على ثلاث مراتب :**

الأولى توحيد الأفعال وذلك إذا تجلى الله تعالى له بأفعاله .

والثانية توحيد الصفات وذلك إذا تجلى الله له بصفاته .

والثالثة توحيد الذات وذلك إذا تجلى الله بذاته .

فيرى صاحب هذا التوحيد كل الذوات والصفات والأفعال متلاشية في أشعة ذاته وصفاته وأفعاله تعالى ويجد نفسه مع جميع المخلوقات كأنها مدبرة لها وهي أعضاؤها ، لا يلم بواحد منها شيء إلا ويراه ملما به ، ويرى ذاته تعالى الذات الواحدة وصفته تعالى صفتها وفعله تعالى فعلها لاستهلاكه بالكلية في عين التوحيد ، وليس للإنسان وراء هذه المرتبة مقام في التوحيد ، ولما انجذب بصيرة الروح إلى مشاهدات جمال الذات استتر نور العقل الفارق بين الأشياء في غلبة نور الذات القديمة وارتفع التمييز بين القدم والحادث لزهوق الباطل عند مجيئ الحق ويسمى هذا الحال جمعا والجمع وادٍ تنصب إلى بحر التوحيد .

قال الشيخ العارف المحقق قدوة الأولياء أبو اسمعيل عبد الله بن محمد الأنصاري ﵃ : والجمع غايات مقامات السالكين ، وهي طرق بحر التوحيد وغاية المقامات في السير إلى الله تعالى ولا مقام أعلى منه ، ثم بعد ذلك يكون السير بالله عن الله سبحانه ، ومعنى كونه طرق بحر التوحيد نهايته التي ليس

بعده شيء ، فإن سار في هذا المقام لا يكون سيره إلا الرجوع عن الحق إلى الحق والله يؤتي ملكه على من يشاء بغير حساب .

وأما التوحيد الرحماني هو أن يشهد الحق سبحانه توحيد نفسه بإظهار الوجود أنه واحد لا شريك له شهادة أزلية أبدية غير مستندة إلى سبب يقلّها« ١ » أومنزه يحلّها ، وليس للإنسان في هذا المقام إلا أن يلمع برق من جانب القدم أضاء به أنحآء« ٢ » سره وينطفي سريعا ، وكثرة كلام هذه الطائفة فيما حكوه عن نعت القدم كان في هذا الوقت وكل موجود يختص بخاصية لا يشاركه فيها غيره وإلا لما تعين وهذه الوحدة في كل موجود دليل على وحدانية موحده كما قيل :

وَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ   تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ واحِـــدُ

وإظهار كل موجود على صفة الوحدة صورة شهادة الحق سبحانه على وحدانية ذاته ويرشد فهم المعنى إلى تنزيه عقيدة أهل التوحيد عن الحلول والتشبيه والتعطيل كما طعن فيهم طائفة من الجاحدين العاطلين من المعرفة والذوق لأنهم إذا لم يثبتوا في نظر شهودهم معه غيره فكيف يعتقدون حلوله فيه وتشبيهه به تعالى عن ذلك علوا كبيرا ، فالتوحيد الحقيقي لايسع غير الواحد الحقيقي والمعرفة غير الله تعالى بخلاف التوحيد الاستدلالي فهو يسع المعرفة و لا يخلو« ٣ » الموحد عن المعرفة لله تعالى بخلاف الحقيقي فإن الموحد فيه يغفل عن معرفته تعالى لأنها مما سوى الله تعالى فافهم فإنه دقيق وللطلب حقيق .

وقال مؤيد الدين الجنيدي ﭬ في « شرح فصوص الحكم » : مشرب التحقيق الأتم يقتضي أن لا يخلو الأرواح عن مادة وكما أن الصور الجسمية لا تستغني في الوجود عن المادة كذلك صور الروحية لابدّ لها من مادة صالحة لتتصور تلك الصور وهي حقيقة الحقائق وجوهر الجواهر وهوية الكل وأصلها وهيولة« ٤ » الحاملة لصور وجوبها وإمكانها « نفحات » ٥٦

« ١ » في الأصل نقلها

« ٢ » أرجاء أي نواحي

« ٣ » أي لا يغفل

« ٤ » الهيولة هي مادة الشيء وجسمه .

ثم اعلم أن الإسلام لا يتم إلا بشهادتين ، لأن مجرد التوحيد هو الاحتجاب بالجمع عن التفصيل وهو محض الجبر ، ومجرد إسناد الفعل والقول إلى الرسول ﷺ احتجاب بالتفصيل عن الجمع بين كلمتي الشهادة واعتقاد مظهرية الرسول ﷺ لأفعال الله تعالى ومبدأ الفعل هو الله الحق سبحانه وتعالى ولا يظهر إلا بالخلق ، قاله خواجه محمد فارسا قدس سره في « الكشفية » .

ثم اعلم أن المعرفة عند أئمة الأصول هي العلم بالله تعالى وصفاته الذاتية والمعنوية ، فهذا هو المطلوب من معرفة الصانع جل وعلا إذ الذات مجهولة من حيث الإحاطة بها .

فإن قيل : فما الحق المطلق والصدق المحض فالجواب أن الحق المطلق هو الله تعالى والصدق المحض هو معرفته تعالى والإقرار بوحدانيته . « يواقيت » ص٥٢ .

وقال علي الخواص قدس سره : من صحّ توحيده لله عز وجل انتفى عنه الرياء والإعجاب وسائر الدعاوى المضلة عن طريق الهدى ليشهد جميع الأفعال والصفات ليست له وإنما هي لله وحده ولا يعجب أحد قط بعمل غيره ولا يتزين به .

وقال رضي الله عنه : من طلب دليلا على الوحدانية كان الحمار أعرف منه بالله تعالى . « تقريب » ٩٥

وقال الشيخ أبو علي الدقاق رضي الله عنه : التوحيد غريم لا يقضى دينه ولا يؤدّى حقه « نفحات الأنس » ٥٢

وقد سمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : من ادعى مقام المعرفة وهو يجرح عقائد أحد من أهل الفرق الإسلامية من كل وجه فهو كاذب فإن من شرط العارف بالله تعالى دخول الحضرة الإلهية وإذا دخلها رأى عقائد جميع المسلمين شارعة إليها ومتصلة بها كاتصال الأصابع بالكف فأقر عقائد جميع المسلمين بحق وكشف ومشاهدة ولو من بعض الوجوه ، وإنما

منع الأشياخ المريد من الاجتماع بغيرهم من الأشياخ ليختصروا له الطريق فإن حكم طريق كل شيخ كالإصبع المتصلة بالكف فإذا سلك الإنسان مقدار عقدة ثم انتقل إلى شيخ آخر فسلك على يديه مقدار عقدة ثم انتقل إلى آخر فسلك على يديه مقدار عقدة فقد أوقف نفسه عن السير ، ولو أنه جعل سلوك تلك العقد كلها على يد شيخ واحد لكان دخل حضرة الكف فإن كل إصبع ثلاث عقد فنفد عمر هذا وهو في أول عقدة من سائر الطرق . فهذا سبب منع الأشياخ مريدهم أن يشرك معهم في السلوك غيرهم انتهى . « يواقيت »٥٢ .

وللتوحيد طرق كثيرة مختلفة في الظاهر متحدة في الباطن ، يتكلم كل أحد في التوحيد على قدر عقله ﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾

ورد في الآثار أن أمير المؤمنين عليا كرم الله وجهه قال : سلوني عما دون العرش ، فإن ما بين الجوانح علما جما ، هذا لعاب رسول الله ﷺ في فمي هذا ما زقّني[1] رسول الله ﷺ زقًّا زقًّا ، فوالذي نفسي بيده لو أذن للتوراة والإنجيل أن يتكلما لوضعتُ وسادةً خبرتُ بما فيهما فصدقاني على ذلك ، وكان في المجلس رجل يقال له دعلب اليماني فقال : ادعى هذا الرجل دعوى عريضا ، لأفضحنّه ! فقام فقال : أسأل ؟ فقال : ويلك اِسأل تفقها ولا تسأل تعنتا ! فقال : أنت حملتني على ذلك ، هل رأيت ربك يا علي ؟ قال : ما كنت لأعبد ربا لم أره . قال : كيف رأيته ؟ قال : لم تره العيون بمشاهدة العيان ولكن رأته القلوب بحقائق الإيقان ، ربي واحد لا شريك له ، أحد لا ثاني له ، فرد لا مثل له ، لا يحويه مكان ، ولا يداوله زمان ، لا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، فصاح دعلب وسقط مغشيا عليه ، فلما أفاق قال : عاهدت الله تعالى أن لا أسأل بعد هذا أحدا تعنتا ، فقال علي كرم الله وجهه : هذا إن كان الأمر إليك .

وقال الهروي قدس سره في « الرشحات » : ومن كلام بعض الأكابر إن الله تعالى يميز نفسه في مرتبة الواحدية ، إن أرادوا معنى هذا الكلام : أنه تعالى يعطي الإنسان علما واستعدادا خاصا من عنده في مرتبة حقائق المجردات الإنسانية

« ١ » زق الطائر فرخه زقا أطعمه بفمه « القاموس المحيط » .

التي هي عبارة عن مرتبة الواحدية عند البعض فيعرفه الإنسان بذلك العلم والاستعداد الخاص ولما لم يمكن معرفته تعالى بغير علمه تعالى فلا يكون العارف به تعالى غيره تعالى » رشحة ١٩٨

وقال في التوحيد : اعلم أن التوحيد قسمان توحيد شهودي وتوحيد وجودي والذي لا بد منه هو التوحيد الشهودي الذي يتعلق به الفناء لما أن التوحيد الشهودي لا ينافي العقل ولا يخالفه ولا الشرع بخلاف التوحيد الوجودي فإنه يخالفهما ، ويتضح لك بمثال .

وذلك أنه إذا قال شخص عند طلوع الشمس واختفاء الأنجم : ليس في السماء إلا الشمس - فهذا القول صحيح لا يخالف العقل ولا الشرع ، إذ لا يرى حينئذ إلا الشمس لضعف بصره ، فلو أعطي حدة البصر لرأى الأنجم مع الشمس بخلاف ما لو قال ذلك قبل طلوع الشمس فإنه يكذبه العقل والشرع .

وأما أقوال المشائخ التي وردت في التوحيد فلا بد أن تحمل على التوحيد الشهودي حتى لا يخالف العقل والشرع ، فالتوحيد الوجودي في مرتبة علم اليقين والتوحيد الشهودي في مرتبة عين اليقين التي هي مقام الحيرة كقول الحلاج : أنا الحق وقول أبي يزيد : سبحاني وأمثالهما فإنها كلها في مقام عين اليقين الذي هو مقام الحيرة قبل الوصول إلى حق اليقين ، فإذا عبروا من ذلك ووصلوا إلى مقام حق اليقين يتحاشون من أمثال هذه الأحوال كما وقع للشيخ خالد سليماني قدس سره .

وكان الحضرة الخواجه قدس سره يقول : **لا إله** – نفي الإلهية الطبيعية ، **إلا الله** – إثبات المعبود بالحق ، والمقصود من الذكر هو أن يصل الذاكر إلى حقيقة كلمة التوحيد ، فالكثرة في الذكر ليست بشرط وحقيقة الكلمة هي أن يحصل من ذكر الكلمة نفي السوى بالكلية . انتهى .

وقال الشيخ عبيد الله أحرار قدس سره : إن فرقت بين من يضع الحلواء في فمك و بين من يضرب بيده على فمك فهو علامة النقصان في التوحيد . انتهى .

وذكر في « تعريب » محمد مراد المنزلوي أن الشيخ أحمد سعيد قدس سرهما قال : قد اشتهر بين الناس أن الإمام الرباني ﷺ منكر للتوحيد الوجودي وهذا غلط و خطأ منهم ، حاشاه عن ذلك بل هو يقول : إن التوحيد الوجودي من معارف مرتبة القلب وأربابه من أهل الولاية لكن الكمال وراء ذلك وهو ظهور أن العبد عبد والرب رب ، كما هو نسبة الصحابة والتابعين وأتباع التابعين ﷺ أجمعين .

وقال : إن تطبيق معارف التوحيد الوجودي على الشريعة الغراء ممكن بالتأويل كما فعله بعض الكبراء ، وأما اعتقاد انه عين الشريعة وتنزيل مشارب الأنبياء عليهم السلام والصحابة الكرام إليه من غير تأويل فهو من الجهالة ، فإن قال ذلك مغلوب الحال فهو معذور ، قال المجنون : الخلافة حق ليلى لا حق أبى بكر ولا حق علي ، ولكن صاحب الشعور ملام ومطعون فيه بتفوّهه به انتهى .

وقال الشيخ خاوند طهور ﷺ : إن التوحيد تفريد البدن وحفظه عن الشهوات للعبادة وتفريد القلب وصَونه عن الخطرات للعبودية ، وإلا فالحق سبحانه وتعالى واحد في نفسه وتوحيد الواحد محال ، كما قيل شعر :

ما وَحَّدَ الواحِدَ مِنْ واحِدِ إذْ كُلُّ مَنْ وَحَّدَهُ جاحِـدُ

وقال : إن التوحيد في الشريعة أن يعلم الإنسان ويقول ويقرّ بأنّ الله تعالى واحد ، وأما في الطريقة فتزكية القلب وتطهيره عن غير الحق سبحانه . « رشحة » ١٦١ .

فصل

في بيان تفسير الألفاظ والأقوال الرائجة في الطريقة في اصطلاح الصوفية وأرباب الطرق وعوارضها

اعلم أيدك الله تعالى بالتوفيق أن للصوفية المحققين ألفاظا لا بد لأهل طريقتنا من معرفتها ، وإني وإن لم أستوعب جميعها أذكر هنا ما هو الأهم فالأهم ليفهم السالك المراد بأول نظرة والله ولي التوفيق .

السالك هو الذي مشى على المقامات بحاله لا بعلمه ، فكان العلم عينا . **والمريد** هو المتجرد عن إرادته[1] وقال أبوحامد : هو الذي فتح له باب الأسماء ودخل في جملة المتوصلين إلى الله تعالى بالاسم .

والمراد عبارة عن المجذوب عن إرادته مع تهيئ الأمور له فجاوز الرسوم كلها والمقامات من غير مكابدة .

والمسافر هو الذي سافر بفكره في المفعولات والاعتبارات فعبر من عدوة الدنيا إلى عدوة القصوى .

الأفراد عبارة عن الرجال الخارجين عن نظر القطب

القطب وهو الغوث عبارة عن الواحد الذي هو موضع نظر الله تعالى من العالم في كل زمان وهو على قلب إسرافيل عليه السلام ، والقطبية الكبرى هي مرتبة قطب الأقطاب وهو باطن محمد عليه الصلاة و السلام فلا يكون إلا لورثته لاختصاصه عليه الصلاة والسلام بالأكملية فلا يكون خاتم الولاية وقطب الأقطاب إلا على باطن خاتم النبوة « جامع » .

« ١ » الكيمياء هي القناعة بالموجود وترك التشوق إلى المفقود قال أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه : القناعة كنز لا ينفد وكيمياء السعادة هي تهذيب النفس باجتناب الرذائل وتزكيتها عنها واكتساب الفضائل وتحليتها بها .

الأوتاد عبارة عن أربعة رجال منازلهم على منازل أربعة أركان من العالم شرق وغرب وشمال وجنوب مع كل واحد منهم مقام تلك الجهة وبهم يحفظ الله تلك الجهات لكونهم محل نظره تعالى .

البدلاء هم سبعة ومن سافر من القوم عن موضعه وترك جسدا على صورته حتى لا يعرف أحد أنه فقد ، فذلك هو البدل لا غير وهم على قلب ابراهيم عليه السلام .

النقباء هم الذين استخرجوا خبايا النفوس وهم ثلثمائة .

النجباء هم أربعون وهم المشغولون بحمل أثقال الخلق فلا يتصرفون إلا في حق الغير .

الإمامان هما شخصان أحدهما عن يمين الغوث ونظره في الملكوت والآخر عن يساره ونظره في الملك وهو أعلى من صاحبه وهو الذي يخلف الغوث .

الأمناء هم الملاميّة ، و الملاميّة هم الذين لم يظهر على ظواهرهم مما في بواطنهم أثر البتة وهم أعلى الطائفة وتلامذتهم يتقلبون في أطوار الرجولية ونذكرهم إن شاء الله بعد بتفصيل .

الهاجس يعبرون به عن الخاطر الأول وهو الخاطر الرباني وهو لا يخطئ أبدا وقد يسميه سهل قدس سره السبب الأول ونقر[1] الخاطر الرباني فإذا تحقق في النفس سموه إرادة فإذا تردد الثالثة سموه همة وفي الرابعة سموه عزما وعند التوجه إلى القلب إن كان خاطر فعل سموه قصدا أومع الشروع في الفعل سموه نية ، والهواجس هي الخطرة النفسانية . **السفر** عبارة عن القلب إذا أخذ في التوجه إلى الحق تعالى بالذكر .

الطريق عبارة عن مراسم الحق تعالى المشروعة التي لا رخصة فيها .

« ١ » النقر هو النقش

الوقت عبارة عن حالك في زمان الحال لا تعلق له بالماضي ولا بالمستقبل .

الأدب يريدون به آداب الشريعة ووقتا أدب الخدمة ووقتا أدب الحق ، فآداب الشريعة الوقوف عند رسومها وأدب الخدمة الفناء عن رؤيتها مع المبالغة فيها وأدب الحق أن تعرف ما لك وما له والأديب من أهل البساط .

المقام عبارة عن استيفاء حقوق المراسم على التمام وسمي مقاما لإقامة السالك فيه .

الحال هو ما يرد على القلب بمحض الموهبة من غير تعمد ولا تعمل ولا اجتلاب كحزن أوخوف أو بسط أو قبض أو ذوق ويزول بظهور صفات النفس فإن زال فهو يسمى حالا وإن دام وصار ملكة يسمى مقاما فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب والأحوال من عين المقامات من بذل المجهود . (شيخ أرسلان) .

ومن شروطه« ١ » أن يزول ويعقبه المثل وأن يبقى ولا يعقبه المثل« ٢ » ، فمن أعقبه المثل قال بدوامه ومن لم يعقبه المثل قال بعدم دوامه ، وقد قيل : الحال تغير الأوصاف على العبد .

عين التحكم هو أن يتحدى الولي بما يريده إظهارا لمرتبته لمن يراه .
عين الشيء هو الحق .

عين الله وعين العالم هو الإنسان الكامل المتحقق بحقيقة البرزخية الكبرى لأن الله تعالى ينظر بنظره إلى العالم فيرحمه بالوجود كما قال تعالى : لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك ، والإنسان المتحقق بالاسم (البصير) لأن كل ما يبصر في العالم من الأشياء فإنما يبصر بهذا الاسم .

« ١ » أي الحال .
« ٢ » شرحها ابن العربي ﷺ بقوله : ومن شرطه أن يزول ويعقبه المثل إلى أن يصفو وينتهي إلى غايته ، وقد لا يعقبه المثل ومن هنا نشأ الخلاف بين القوم . .

عين الحياة هو باطن الاسم (الحي) الذي من تحقق به شرب من ماء عين الحياة الذي من شربه لا يموت أبدا لكونه حيا بحياة الحق وكل من في العالم يحيا بحياة هذا الإنسان لكون حياته حياة الحق . « جامع » .

الانزعاج هو أثر المواعظ في قلب المؤمن وقد يطلق ويراد به التحرك للوجد والأنس .

الشطح عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى وهو نادرة أن توجد من المحققين .

العدل والحق المخلوق به عبارة عن أول موجود خلقه الله تعالى وهو قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ .

المكان عبارة عن منازل في البساط لا تكون إلا لأهل الكمال الذين تحققوا بالمقامات والأحوال وحازوهما إلا المقام الذي فوق الجلال والجمال فلا صفة لهم ولانعت .

القبض حال الخوف في الوقت وقيل وارد يرد على القلب يوجب الإشارة الى عتاب وتأديب وقيل أخذ وارد الوقت .

البسط هو عندنا حال من يسع الأشياء ولا يسعه شيء ، وقيل هو حال الرجاء ، وقيل هو وارد يوجب الإشارة إلى رحمة وأنس ، و القبض والبسط حالتان تحصلان للسالك المتوسط

الهيبة هي أثر مشاهدة جلال الله تعالى في القلب وقد يكون عن الجمال الذي هو جمال الجلال ومقتضاها الغيبة .

الأنس أثرمشاهدة جمال الحضرة الالهيةفى القلب وهوجمال الجلال ومقتضاها الصحو

التواجد استدعاء الوجد وقيل إظهار حالة الوجد من غير واجد .

الوجود وجدان الحق في الوجد .

الجلال نعوت القهر من الحضرة الإلهية .

الجمع إشارة إلى حق بلا خلق .

جمع الجمع الاستهلاك في الله بالكلية .

الفرق إشارة إلى خلق بلا حق وقيل مشاهدة العبودية .

البقاء رؤية العبد قيام الله على كل شيء .

الفناء عدم رؤية العبد لفعله بقيام الله على ذلك .

الغيبة غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لشغل الحس بما ورد عليه .

الحضور حضور القلب بالحق عند الغيبة عن الخلق .

الصحو رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة بوارد قوي .

السكر غيبة قوية .

الذوق أول مبادي التجليات الإلهية .

الشرب وسط التجليات التي غاياتها في كل مقام .

المحو رفع أوصاف العادة وقيل إزالة العلة .

الإثبات إقامة أحكام العبادة وقيل إثبات المواصلات .

القرب القيام بالطاعة وقد يطلق القرب على حقيقة قاب قوسين .

البعد الإقامة على المخالفة وقد يكون البعد منك ويختلف باختلاف الأحوال فيدل على ما يراد به قرائن الأحوال وكذلك القرب .

الحقيقة سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه بأنه الفاعل لك فيك منك لا أنت . ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ .

النفس روح يسلطه الله تعالى على نار القلب ليطفئ شررها .

الخاطر ما يرد على القلب والضمير من الخطاب ربانيا كان او ملكيا أو نفسيا أو شيطانيا من غير إقامة وقد يكون كل وارد لا تعمّل لك فيه .

علم اليقين ما أعطاه الدليل . **عين اليقين** ما أعطته المشاهدة .

حق اليقين ما حصل من العلم بما أريد به ذلك الشهود . وقيل : هو شهود الحق حقيقة في مقام عين الجمع الأحدية . وقال بعض الأكابر : علم اليقين هو العلم الحاصل من الدليل العقلي ، عين اليقين هو العلم الحاصل بالمشاهدة حق هو فناء صفة العبد في صفات الحق وبقاؤه علما وشهودا وحالا لا علما فقط كالفحمة إذا وقع عليها ضوء النار لا مقابلا بل من الحائط المقابل للنار فأضاءت الفحمة من عكس الحائط ، فهذا مثال علم اليقين ، وإذا وقع ضوء النار على الفحمة بالمقابلة من غير حجاب فهو مثال عين اليقين ، وإذا كانت الفحمة بجانب النار بحيث تشتعل وتفنى أوصافها في أوصاف النار فهذا حق اليقين .

الوارد ما يرد على القلب من الخواطر المحمودة من غير تعمّل ويطلق بازاء كل ما يرد على كل اسم على القلب .

الشاهد ما تعطيه المشاهدة من الأثر في القلب فذلك هو الشاهد وهو على حقيقة ما يظهر للقلب من صورة المشهود .

النفس ما كان معلولا من أوصاف العبد .

الروح يطلق بإزاء الملقى إلى القلب من علم الغيب على وجه مخصوص .

و**القلب** هو جوهر نوراني مجرد يتوسط بين الروح والنفس ، وهو الذي تتحقق به الإنسانية ويسميه الحكيم النفس الناطقة والروح باطنه والنفس

الحيوانية مركبه وظاهره المتوسط بينه وبين الجسد كما مثله في القرآن بالزجاجة والكوكب الدري والروح المصباح في قوله تعالى : ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ والشجرة هي النفس والمشكاة البدن وهو الوسط في الوجود ومراتب التنزلات بمثابة اللوح المحفوظ في العالم .

وللقلب أسماء وهي : بيت الحكمة : وهو القلب الغالب عليه الإخلاص ، وبيت القدس : وهو القلب الطاهر من التعلق بالغير ، وبيت المحرم : وهو قلب الإنسان الكامل الذي حرم على غير الحق ، وبيت العزة : وهو القلب الواصل إلى مقام الجمع حال الفناء في الحق انتهى .

السر يطلق فيقال سر العلم بإزاء حقيقة العالم به ، وسر الحال ما بإزاء معرفة مراد الله تعالى فيه ، وسر الحقيقة ما تقع به الإشارة .

الوله إفراط الوجد .

الوقفة حبس بين المقامين .

الفترة خمود نار البداية المحرقة .

التجريد إماطة السوى والسكون عن القلب والسر .

التفريد وقوفك بالحق معك .

اللطيفة كل إشارة دقيقة المعنى تلوح في الفهم لا تسعها العبارة ، وقد تطلق بإزاء النفس الناطقة .

العلة تنبيه الحق لعبده بسبب أو بغير سبب .

الرياضة رياضة أدب وهو الخروج من طبع النفس ورياضة طلب وهو صحة المراد له وبالجملة هي عبارة عن تهذيب الأخلاق النفسية .

المجاهدة حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال .

الفصل فوت ما ترجوه من محبوبك وهو عندنا تميّزك عنه بعد حال الاتحاد .

الذهاب غيبة القلب عن كل محسوس بمشاهدة محبوبه كائنا المحبوب ما كان .

الزمان السلطان الزاجر واعظ الحق في قلب المؤمن وهو الداعي إلى الله تعالى .

السحق ذهاب تركيبك تحت القهر .

المحق فناؤك في عينه .

الستر كل ما يسترك عما يغنيك وقيل غطاء الكون ، وقد يكون الوقوف مع العادة وقد يكون الوقوف مع نتائج الأعمال .

التجلي ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب .

التخلي اختيار الخلوة والإعراض عن كل ما يشغل عن الحق .

المحاضرة حضور القلب بتوارد البرهان ومجاورات الأسماء الإلهية بما هي عليها من الحقائق .

المكاشفة تطلق بإزاء الأمانة بالفهم ، وقد تطلق بازاء تحقيق زيادة الحال ، و تطلق بإزاء تحقيق الإشارة .

المشاهدة تطلق على رؤية الأشياء بدلائل التوحيد وتطلق بإزاء رؤية الحق في الأشياء وتطلق بإزاء حقيقة اليقين من غير شك .

المحادثة خطاب الحق للعارفين من عالم الملك والشهادة كالنداء من الشجرة لموسى عليه السلام .

المسامرة خطاب الحق للعارفين من عالم الأسرار .

الغيوب ما نزل به الروح الأمين على قلبهم .

اللوائح هي ما يلوح من الأسرار الظاهرة من السموّ من حال إلى حال . وعندنا ما يلوح للبصر إذا لم يتقيد بالجارحة من الأنوار الذاتية لا من جهة القلب .

الطوالع أنوار التوحيد تطلع على قلوب أهل المعرفة فتطمس سائر الأنوار .

اللوامع ما نبت من أنوار التجلي وقتين وقريبا من ذلك .

البواده ما يفجأ القلب من الغيب على سبيل الوهلة إما موجب فرح أو موجب ترح .

الهجوم ما يرد على القلب بقوة الوقت من غير تعمّل وتصنع منك .

التلوين تنقل العبد في أحواله وهو عند الأكثرين مقام ناقص وهو عندنا أكمل المقامات وحال العبد فيه حال قوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٍ﴾

التمكين عندنا هو التمكين في التلوين وقيل حال أهل الأحوال كما سنذكره .

الرغبة رغبة النفس في الثواب ورغبة القلب في الحقيقة ورغبة السر في الحق .

الرهبة رهبة الظاهر في تحقيق الوعيد ورهبة الباطن لتقليب العلم ورهبةٌ من تحقيق أمر السبق .

المكر أداء النعم مع المخالفة وإبقاء الحال مع سوء الأدب وإظهار الآيات والكرمات من غير أمد ولا حد .

الاصطلام نوع وَلَهٍ يرد على القلب فيسكن تحت سلطانه .

الانعكاس في اصطلاح مشائخ هذه الطريقة انطباع صور التجليات الإلهية في مرايا القلوب .

الغربة تطلق بإزاء مفارقة الوطن في طلب المقصود ، ويقال الغربة في الاغتراب عن الحال من النفوذ فيه ، والغربة عن الحق غربة عن المعرفة من الدهش .

الهمة تطلق بإزاء تجريد القلب للمنى ، وتطلق بإزاء أول صدق المريد وتطلق بإزاء جمع الهم لصفاء الإلهام .

الغيرة غيرة في الحق لتعدي الحدود وغيرة تطلق بإزاء كتمان الأسرار والسرائر وغيرة الحق ضنة بأوليائه وهم الضنائن .

المطالعة توفيقات الحق للعارفين ابتداء عن سؤال منهم فيما يرجع إلى حوادث الكون .

الفتوح فتوح العبادة في الظاهر وفتوح الحلاوة في الباطن وفتوح المكاشفة .

الوصل إدراك الغائب .

الاسم الحاكم على حال العبد في الوقت من الأسماء الإلهية .

الرسم نعت يجري في الأبد بما جرى في الأزل .

الزوائد زيادة الإيمان بالغيب واليقين .

الخضر يعبر به عن البسط . **إلياس** يعبر به عن القبض .

الغوث هو واحد في كل زمان بعينه إلا أنه إذا كان الوقت يعطي الالتجاء إلى عناية .

الواقعة ما يرد على القلب من ذلك العالم بأي طريق كان من خطاب أو مثال .

العنقاء هو الهباء الذي فتح الله فيه أجساد العالم .

الورقاء النفس الكلية وهو اللوح المحفوظ .

العقاب القلم وهو العقل الأول . **الغراب** الجسم الكلي .

الشجرة الإنسان الكامل .

السمسمة معرفة تدق عن العبارة .

الدرة البيضاء العقل الأول . **الرمززة** النفس الكلية .

السبخة الهباء المسمى بالهيولي .

الحرف اللغة وهو ما يخاطبك الحق من العبارات .

السكينة ما تجده من الطمأنينة عند تنزل الغيب .

التداني معراج المقربين .

التدلي نزول المقربين ويطلق بإزاء نزول الحق إليهم عند التداني .

الترقي التنقل في الأحوال والمقامات والمعارف .

التلقي أخذك ما يرد من الحق عليك .

التولي رجوعك إليك منه .

الخوف ما تحذر من المكروه في المستأنف .

الرجاء الطمع في الآجل ، والخوف والرجاء يكونان للمبتدئ يتعلقان بأمر مستقبل مكروه أو محبوب .

الصعق الفناء عند التجلي الرباني .

الخلوة محادثة السر مع الحق حيث لا ملك ولا أحد سواه .

الجلوة خروج العبد من الخلوة بالنعوت الإلهية .

المخدع موضع ستر القلب عن الأفراد الواصلين .

الحجاب كل ما ستر مطلوبك عن عينك .

النوالة الخلع التي تخص الأفراد وقد تكون الخلع المطلقة .

الجرس إجمال الخطاب بضرب من القهر .

الاتحاد تصيير ذاتين واحدة ولا يكون إلا في العدد وهو محال .

القلم علم التفصيل .

الأنانة قولك أنا .

النون علم الإجمال .

الهوية الحقيقة في عالم الغيب ، لا يخفى أن غيب الهوية عبارة في اصطلاح أهل التحقيق عن ذات الحق ﷻ باعتبار اللاتعين يعني بشرط الإطلاق الحقيقي الذي يكون خاليا من جميع القيود حتى الإطلاق ، فإنه مناف للإطلاق الحقيقي ولا يمكن أن يتعلق به ﷻ في تلك المرتبة علم وإدراك ، وهو تعالى من هذه الحيثية مجهول مطلق .

يُشيـــرُ إلــى غَيْبِ الهَوِيَّةِ هاءُ هُـــو ... وَأَنْفاسُ مَخْلوقٍ لِذَا الحَرْفِ حامِلُ

فَـكُنْ ساعياً فـي كلِّ حالٍ لِحِفْظِها ... لَقَدْ قُلْتَ حَرْفَ الصِّدْقِ إنْ أَنْتَ عامِلُ

كذا ذكره في « الرشحات » .

اللوح محل التدوين والتسطير المؤجل إلى حد معلوم .

الأنانية الحقيقة بطريق الإضافة .

الرعونة الوقوف مع الطبع .

اللاإلهية كل اسم إلهي مضاف إلى البشر .

المنصة تجلي الأعراس وهي تجليات روحانية .

التختم علامة الحق على القلب من العارفين .

الطبع ما سبق به العلم في حق كل شخص .

الآلية كل اسم مضاف إلى ملك أو روحاني .

السوى هو غير الجسد كل روح ظهر في جسم ناري أو نوري .

النور كل وارد إلهيّ يطرد الكون عن القلب .

الظلمة قد يطلق على العلم بالذات فإنها لا يكشف معها غيرها .

الظل مروريَّة الأغيار بغير وجود الواجد خلف الحجاب .

القشر كل علم يصون فساد عين المحقق بالتجلي له . **اللب** ما صين من العلوم عن القلوب المتعلقة بالكون . وقيل : اللب مادة النور الإلهي .

العموم ما يقع من الاشتراك .

الخصوص أحد كل شيء .

الإشارة تكون مع القرب ومع حضور الغيب وتكون مع البعد .

الغيب كل ما ستره الحق منك لا منه .

عالم الأمر ما وجد عن الحق بغير سبب ويطلق بإزاء الملكوت .

عالم الخلق ما وجد عن السبب ويطلق بإزاء عالم الشهادة .

العارف والمعرفة من أشهده الرب عليه فظهرت الأحوال على نفسه والمعرفة حاله .

العالم والعلم من أشهده الله ألوهية ذاته ولم يظهر على حال والعلم حاله .

الحق ما وجب على العبد من جانب الله وما أوجبه الحق على نفسه .

الباطل هو المعدوم .

الكون كل أمر وجودي .

الرداء الظهور بصفات الحق .

الارين محل الاعتدال في الأشياء .

الكمال التنزيه عن الصفات وآثارها .

البرزخ العالم المشهود بين عالم المعاني والأجسام .

الجبروت عند أبي طالب[1] هو عالم العظمة وعند الأكثرين العالم الأوسط .

الملك عالم الشهادة .

الملكوت عالم الغيب .

مالك الملك هو الحق في حال المجازاة للعبد على ما كان منه بعين الحق مما أمر به .

المطلع النظر إلى عالم الكون .

الناظر حجاب العزة وهو العماء والحيرة .

المثل هو الإنسان وهي الصورة التي يظهر عليها .

العرش مستوى الأسماء المقيدة .

الكرسي موضع الأمر والنهي .

القدم ما ثبت للعبد على علم الحق .

العيد ما يعود على القلب من التجليات بإعادة الأعمال .

« ١ » أي أبو طالب المكي

الحد الفصل بينك وبينه .

الصفة ما طلب المعنى كالعالم .

النعت ما طلب النسبة كالأول .

الرؤية المشاهدة بالبصر لا بالبصيرة .

كلمة الحضرة كن .

اللسن ما يقع به الإفضاء الإلهي لآذان العارفين .

الهو الغيب الذي لا يصح شهوده .

الفَهوانية خطاب الحق للسالك بطريق المكافحة في عالم المثال .

السواء بطون الحق في الخلق والخلق في الحق .

العبودية من شاهد نفسه في مقام العبودية لربه .

الانتباه زجر الحق للعبد على طريق العناية .

اليقظة الفهم عن الله في زجره .

سر السر ما انفرد به الحق عن العبد .

التصوف الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا وباطنا وهي الأخلاق الإلهية ، وقد يقال بإزاء إتيان المكارم للأخلاق وتجنب سفسافها لتجلي الصفات الإلهية وعندنا : الاتصاف بأخلاق العبودية ، وهو الصحيح فإنه أتم .

الهمة عبارة عن جمعية الخاطر على حصول أمر واحد على وجه لا يخطر في البال خلافه ، وقلما يتخلف المراد من مثل تلك الهمة .

وينبغي لأصحاب التجريد أن يمتحنوا هممهم في بعض الأحيان وأن يعلموا أن مناسبتهم بحضرة الأسماء إلى أي مرتبة وصلت وكم تأثير هممهم .

ومنها **الذوق** كما ذكر **والشرب والري** ، فالذوق إيمان والشرب علم والري حال ، فالذوق لأرباب البوادي ، والشرب لأرباب الطوالع واللوائح واللوامع ، والري لأرباب الأحوال . وذلك أن الأحوال هي التي تستقر فما لم يستقر فليس بحال وإنما هي لوامع وطوالع .

وقيل : الحال لا تستقر لأنها تحول فإذا استقر تكون مقاما ، ومنها المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة ، وقد ذكرناها آنفا . فالمحاضرة لأرباب التلوين ، والمشاهدة لأرباب التمكين ، والمكاشفة بينهما إلى أن تستقر . فالمشاهدة والمحاضرة لأهل العلم ، والمكاشفة لأهل العين ، والمشاهدة لأهل الحق أي حق اليقين . قاله ترجمان الحقيقة شهاب الدين السهروردي ﷺ .

وذكر شيخ شيخنا في « جامع » ٢٠ : والذوق أول مقامات العارف وهو وجدان لذة الحقيقة والشرب هو السكر المحض بعد الكرع في كأس المشاهدة والري دوام المواصلة بعد صفاء المعاملة ، فصاحب الذوق متساكر وصاحب الشرب سكران وصاحب الري صاح .

وقال القشيري ﷺ : مرادهم بالذوق والشرب ما يجدون من ثمرات التجلي ونتائج الكشوفات وبواده الواردات ومن قوي حبه دام شربه ولا يؤثر فيه الشرب سكرا لقوة حاله فيكون صاحيا بالحق فانيا عن كل حظ لا يتأثر بما يرد عليه من الواردات ولا يتغير ، ومن صفا سره لم يتكدر عليه الشرب ، ومن صار له الشراب غذاء يصبر عنه ولم يبق عند فقده .

واعلم أن الشرب والذوق والري كل ذلك من نتائج التجلي ، فالخواص لهم دوام التجلي فهم في كمال الري ومن دونهم في رتبة التجلي لهم كمال الشرب ومن دونهم ، لهم كمال الذوق ومن دونهم وهم العوام في غطاء الستر . وأنشدوا في الشرب :

إِنَّما الكَّأسُ رِضاعٌ بَيْنَنَا　　　فَإِذا ما لَمْ نَذُقْها لَمْ نَعِشْ

فالصحو رجوع العارف إلى الإحساس بعد غيبته وزوال إحساسه ، والسكر غيبة بوارد قوي فهو أقوى من الغيبة وأتم منها أيضا ، لأن الغيبة قد يكون سببها الرغبة أوالرهبة أوالخوف أو الرجاء ، والسكر لا يكون سببه إلا المكاشفة بنعت الجمال لأنه طرب الروح وهيام القلب ولا يكون ذلك إلا لأصحاب الوجد والمشاهدة ، والوجود إلا لأهل الرغبة والرهبة والخوف والرجاء .

ومنهم من قال إن من السكر ما هو أضعف من الغيبة وليس بسديد لأن ذلك لا يسمى سكرا ، فالحاصل أن السكر هو الغيبة العظيمة والغيبة الضعيفة ليست بسكر بل هي انتشاء وتساكر . وأنشدوا في معنى السكر :

فَأَسْكَرَ القَـوْمَ دَوْرُكَأسٍ وَكانَ سُكْري مِنَ المُديرِ

وفي « عرصات القلوب » : استوت أحوال الصاحي والسكران في الفناء والبقاء فإنهما فانيان بالله تعالى باقيان به في الصالحين .

إذا طَلَعَ الصَّباحُ لِنَجْمِ راحِ تَساوَى فِيهِ سَكْرانٌ وَصاحي

انتهى

ومن إشارات الإمام الرباني مجدد الألف الثاني ﷺ ما ذكره في هامش « المكتوبات » في ١٥ هذه : ومنها أن السير إلى الله تعالى هو عبارة عن سير إلى اسم من أسماء الله تعالى جلّ شأنه هو مبدأ تعين السالك ، والسير في الله عبارة عن السير في ذلك الاسم إلى أن ينتهي إلى حضرة الذات الأحدية المجردة عن اعتبار الأسماء والصفات والشؤون والاعتبارات .

وهذا التفسير إنما يصح إذا كان المراد بالاسم المبارك « **الله** » مرتبة الوجوب[١] يعني الذات المستجمعة لجميع الأسماء والصفات ، وأما إذا كان المراد به هو الذات البحت فقط فيكون السير في الله بالمعنى المذكور داخلا

« ١ » في نسخة ش الوجود

في السير إلى الله تعالى ، ولا يتحقق السير في الله على هذا التقدير أصلا ، فإن السير في نقطة نهاية النهايات ولم يتكلم بها من أولياء الله تعالى أحد غير هذا الدرويش ، الله يجتبي إليه من يشاء والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيّدنا محمد وآله أجمعين . اهـ هامش « المكتوبات » ١٨

ومـن جملة مصطلحات هذه الطريقة العلية الصديقية قدس الله أرواح أهاليها إحدى عشرة كلمة أسسها الشيخ العارف بالله الإمام عبد الخالق ابن الإمام عبد الجليل الغجدواني قدس الله تعالى سره من أولاد الإمام مالك رضي الله عنه إمام دار الهجرة أمه من بنات ملوك الروم وذلك أن والده تشرف بصحبة الخضر عليه السلام وبشره الخضر بوجود حضرة خواجه وسماه بعبد الخالق فاشتغل بالعلوم في مبادى حاله في بخارى وفاق ، ولما بلغ في أثناء التحصيل إلى قوله تعالى : ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ وقت اشتغاله لقراءة التفسير عند استاذه الإمام صدر الدين الذي هو من كبار علماء بخارى في زمانه ، سأله عن حقيقة هذه الخفية وطريقتها وكيفية تحصيلها وقال : إن الذاكر إذا ذكر بلسانه جهرا أو تحرك شيء من أعضائه وقت الذكر يطلع عليه الأغيار وإن ذكر بقلبه فبمقتضى هذا الحديث « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » يطلع عليه الشيطان فلا تتحقق الخفية في حال من الأحوال ؟ فقال أستاذه : إن علم هذا لدنيٌّ فإذا أراد الله لك ذلك يوصلك إلى واحد من أهل الله فيعلمك كيفيتها وحقيقتها ، فكان حضرة الخواجه قدس سره بعد ذلك منتظرا لقاء أحد من أهل الله سبحانه وتعالى حتى لقي الخضر عليه السلام فعلمه الوقوف العددي .

وذكر في « فصل الخطاب » أن كيفية اشتغال خواجه عبد الخالق الغجدواني حجة في الطريقة ومقبولة عند جميع الفرق ، كان قدس سره مداوما على طريق الصدق والصفا ومتابعاً لشريعة نبينا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم ومجانبا للنفس ومخالفا لهواها وكان يستر سيرته السنية عن نظر الأغيار ، تلقن الذكر القلبي أيام شبابه عن الخضر عليه السلام فكان يواظب على الذكر المذكور ، وقبله حضرة الخضر عليه السلام للولديّة وأمره بأن يخوض في الحوض وأن يقول بقلبه تحت الماء

لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ففعله الخواجه ﵁ وأخذ منه ذلك واشتغل به هنالك ففتح له أنواع الفتوح والترقيات فوق إدراك المدارك ، وكان كيفية اشتغاله من أول حاله إلى آخر أمره ومآله ونهاية كماله مقبولة ومحبوبة عند جميع الخلق .

ولما قدم الخواجه يوسف الهمداني ﵁ إلى بخارى حضر الخواجه عبد الخالق ﵁ صحبته وعلم أن له أيضا اشتغالا بالذكر القلبي ، فاغتنم صحبته ولازمه مدة إقامته ببخارى ، ولذا قيل أن الخضر ﵇ شيخه في التعليم والتلقين ، والخواجه يوسف ﵁ شيخه في الصحبة .

وطريقة خواجه يوسف ومشائخه ﵃ وإن كانت علانية ، لكن لما أخذ الخواجه عبد الخالق ﵁ الذكر الخفي عن الخضر ﵇ وأمر بذلك لم يغيره شيخه الخواجه يوسف ﵁ بل أمره أن يشتغل على الوجه الذي كان مأمورا به من الخضر ﵇ . كذا ذكره الشيخ الهروي عن شيخه خواجه عبيد الله أحرار ﵃ .

ومع هذه يزعم بعض المتشيخين على الذكر الخفي في هذه الطريقة مع أنهم يقولون إن طريقتهم أخذوا من هؤلاء السادات ، فضلوا وأضلوا . اللهم اجعلهم من المهتدين إلى مناهج التحقيق .

واعلم أنه لا بد للسالك من معرفة هذه المصطلحات المأثورة من عبد الخالق الغجدواني ﵁ وضبطها والعمل بمضمونها ، ولما كانت هذه الطريقة الشريفة قد ظهرت في بلاد ما وراء النهر واشتهرت فيها وكان أعزة أهل تلك البلاد يتكلمون بالفارسية جرى أكثر تلك المصطلحات على لسانهم بتلك اللغة ، ونحن نوردها إن شاء الله تعالى بترجمتها على نهج السابقين بنا لتكون على ذكر منها بِرِمَّتها[1] لما أن هذه الطريقة العلية مبنية على تلك الكلمات القدسية الَّتي بنيَ عليها أساس طريق أكابر النقشبندية قدس الله تعالى أسرارهم السنية :

« ١ » أي بجميعها

١ . **هُوشْ دَرْ دَمْ**

٢ . **ونَظَرْ بَرْقَدَمْ**

٣ . **وسَفَرْ دَر وَطَنْ**

٤ . **وخَلْوَةْ دَر انجمن**

٥ . **ويا دكَرْد**

٦ . **وبازكَشْت**

٧ . **ونكاه دشت**

٨ . **ويا دداشت**

وما وراء ذلك ظنون وأوهام .

ولا يخفى أن من جملة مصطلحات هذه الطائفة العلية ثلاث كلمات أخرى وهي :

١ . الوقوف الزماني

٢ . والوقوف العددي

٣ . والوقوف القلبي

فكان الكل إحدى عشرة كلمة . ولما كان خواجه عبد الخالق ﷷ رئيس السلسلة النقشبندية ﷻ أحببت أن أبين في هذا المقام معاني ألفاظه المصطلحة فإن معرفة طريق هؤلاء الأعزة موقوفة على معرفتها ولنوردها بعبارات هذه الطائفة على نهج ما ذكره الشيخ الهروي ﷷ .

وذكر الإمام الرباني في « المكتوب » ٢٩٥ : ينبغي أن يعلم أن واحدا من الأصول المقررة النظر على القدم وليس المراد بالنظر على القدم أنه لا ينبغي أن يتجاوز النظر القدم وأن يميل إلى الفوق قبل القدم فإنه خلاف الواقع ، فإن

النظر يتفوق القدم ويتقدم عليه دائما ويجعل القدم رديفه فإن العروج على مدارج العلى يكون أولا بالنظر ثم يصعد بعد ذلك بالقدم ، فإذا وصلت القدم إلى مرتبة النظر يتفوق النظر منها إلى درجة فوقانية وتصعد القدم أيضا بتبعيته ، ثم يترقى النظر إلى مقام لا يكون للقدم فيه مجال فهو أيضا غير واقع فإنه لو لم ينفرد النظر بعد تمام السير القدمي يفوت كثير من مراتب الكمال .

بيانه أن نهاية القدم إلى نهاية استعداد السالك« ١ » بل إلى نهاية استعداد نبي السالك على قدمه لكن القدم الأول بالأصالة والقدم الثاني بالتبعية ولا قدم له فوق مراتب ذلك الاستعداد ولكن له فيه نظر .

فإن حصلت الحدة لذلك النظر فمنتهاه نهاية مراتب ذلك الاستعداد ولكن له فيه نظر فإن حصلت الحدة لذلك النظر فمنتهاه نهاية مراتب نظر ذلك النبي الذي السالك على قدمه فإن لكمل أتباع نبي نصيبا من جميع كمالاته ، ولكن القدم والنظر يتوافقان إلى نهاية مراتب استعداد السالك بالأصالة وبالتبعية . وبعد ذلك يعجز القدم ويصعد النظر وحده ويترقى إلى نهاية مراتب نظر ذلك النبي .

فعلم أن نظر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أيضا يصعد فوق أقدامهم وأن لكمّل أتباعهم أيضا نصيبا من مقامات أنظارهم كما أن لهم نصيبا من مقامات أقدامهم . وفوق قدم خاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام مقام الرؤية التي هي موعودة لغيره في الآخرة فما هو نسبة لغيره نقد له ، ولكمل أتباعه من هذا المقام نصيب وإن لم يكن رؤية . شعر :

خَليلَـيَّ ما هـذا بِـهَزْلٍ وإنَّما   عَجيبُ الأَحاديثِ بَديعُ الغَرائِبِ

ولنرجع إلى أصل الكلام ونقول : فإن كان المراد به أنه ينبغي أن يتخلف القدم عن النظر على وجه لا تصل إلى مقام النظر في وقت من الأوقات فحسن

« ١ » قوله إلى نهاية استعداد السالك : ضبطه الصحيح نظرا لما سيأتي استعداد نبي السالك على قدمه ،

فإن الأولياء على أقدام الأنبياء كما نقله بالتفصيل الأستاذ بحر المعارف حسن أفندي قُدِّسَ سِرُّهُ في مكتوباته عن مؤلفات هذه الطائفة العلية قدس الله تعالى أسرارهم ونفعنا بهم وبآثارهم ولا حرمنا من بركاتهم آمين بالفتى الأمّي . رب اغفر لي ولناظري .

فإن هذا المعنى ليس بمانع للترقي ، وكذلك إذا كان المراد بالنظر والقدم النظر والقدم الظاهريان فله مجال ، فإن النظر تحصل له التفرقة وقت المشي ويتشتت بالوقوع على محسوسات متلونة ، فإن نصيب النظر إلى القدم يكون أقرب إلى الجمعية ، وهذا المراد مناسب لمعنى كلمة هي قرينه وهي هذه **هوش دردم** . انتهى كلام الرباني .

وذكر في « سلسلة خواجكان » ما عبارته : **نَظَرْ بَرْ قدم** بَرْ بمعنى على ، فالمعنى المراد بها عندهم نظر السالك : ينبغي أن يكون على قدميه عند المشي لئلا ينظر إلى الآفاق لأن النظر إليها يورث الحجاب في القلب ، لأن أكثر الحجب في القلب هي الصور المرتسمة فيه من طريق النظر ، أو لئلا يشتغل عن الذكر بالنظر إلى المبصرات ، فإن الذاكر المبتدئ إذا تعلق نظره بالمبصرات لعدم قوته على حفظ القلب عن التفرقة الحاصلة بتعلق النظر إلى المبصرات أو لئلا ينظر إلى وجوه الأغيار لأن النظر إلى وجوه الأغيار عند الصوفية من المحظورات لأن القلوب الصافية مثل المرايا المصقلة ينطبع فيها ما كان في القلوب القاسية من الأخلاق الذميمة والأفكار الفاسدة بمجرد النظر إلى الوجوه الحسان فيفتتن بذلك لأن النظر سهم من سهام الشيطان فمن أصابه ذلك افتتن في طريق الله تعالى ، فحينئذ ينبغي للسالك أن يغض بصره بالنظر إلى قدميه لئلا يصيبه ذلك السهم .

ويجوز أن يكون كناية عن علو الهمة لأن صاحب الهمة لا ينظر إلى ما سوى الحق تعالى كصاحب السرعة في المشي لأنه لا ينظر إلا على قدميه لئلا يخبط في مشيه ، ويجوز أن يكون كناية عن التواضع لأن أصحاب الكبر والعجب لا ينظرون إلى أقدامهم ، ويجوز أن يكون إشارة إلى اتباع السنة في المشي لأن النبي ﷺ إذا مشى لم يلتفت يمينا وشمالا وكان ينظر إلى قدميه متوجها إلى أمامه مسرعا في مشيه كأنما ينحطّ من صبب ، والحمد لله رب العالمين .

ومنها سفردر وطن وهو أن يسافر السالك في طبيعته البشرية يعني ينتقل من صفاته البشرية إلى الصفات الملكية من الأخلاق الذميمة إلى الأخلاق الحميدة .

وقال شيخ محمد ﷺ في « سلسلة الخواجكان » : المعنى المراد عندهم سفر السالك ينبغي أن يكون من عالم الخلق إلى جناب الحق سبحانه وتعالى كما أشار إليه خليل الله عليه السلام ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أو من حال إلى حال أحسن منه ، أو من مقام إلى مقام أعلى منه ، كما قال أبو عثمان المغربي : يجب على السالك أن يسافر من مراده إلى مراد الحق .

وقال مولانا الشيخ سعد الدين الكاشغري قدس سره : إن الإنسان الخبيث لا يزول خبثه بالانتقال من محل إلى محل آخر حتى ينتقل من صفاته الخبيثة ، ولا يخفي أن أحوال مشائخ الطريقة قدس الله تعالى أسرارهم مختلفة في اختيار السفر والإفادة ، فبعضهم اختار السفر في البداية والإقامة في النهاية وبعضهم عكس ذلك ، واختار بعضهم الإقامة في البداية والنهاية وبعضهم عكس هذا ، ولكل طائفة من هذه الطوائف الأربعة نية صادقة وغرض صحيح فيما اختاروا كما هو مشروح في « العوارف » .

وأما اختيار أكابر النقشبندية العلية في السفر والإقامة فهو أن يسافر في البداية إلى أن يوصل نفسه إلى صحبة مرشد كامل ، فبعد ذلك يكون مقيما في خدمته ملازما لصحبته ، فإن وجد في دياره مرشداً كاملاً من هذه الطائفة يترك السفر بالكلية ويبادر إلى خدمته ويسعى سعيا بليغا في تحصيل ملكة الحضور ويجتهد اجتهادا كاملا في الاتصاف بصفة الشعور ، فإذا تخلص من قيد البشرية وتحقق بصفة الملكية فالإقامة والسفر في حقه سوائية .

وقال عبيد الله أحرار قدس سره : ليس حاصل المبتدئ من السفر غير التفرقة فإذا وصل الطالب إلى صحبة مرشد يلزم عليه أن يقيم عنده ليحصل صفة التمكين

وملكة النسبة النقشبندية قدس الله أسرارهم ، فبعد ذلك يذهب أين شاء ليس له مانع ، ذكره الشيخ الهروي قدس سره في « الرشحات » ٢٨ .

وقال الشيخ محمد قدس سره في « سلسلة خواجكان » : وإنما اعتبر أرباب السلوك السفر الظاهري للوصول إلى المرشد المربي فلما وصل إليه يجب أن يسلم أمره إليه ويقيم عنده ويترك السفر الظاهري حتى يقدر على السفر الباطني ويُتمّ الإرادة .

وكان الشيخ الترمذي قدس سره يمنع السالك عن السفر الظاهري ويقول مفتاح كل خير ومفتاح كل بركة الصبر في موضع إرادتك إلى أن تصح لك الإرادة ، فإذا صحت لك الإرادة فقد ظهرت لك أوائل البركة فأنت في السفر إلى الله تعالى سواء سافرت من حيث الظاهر أو لم تسافر .

ثم اعلم أن المشائخ إنما منعوا السالكين عن السفر الظاهري لأن فيه المشاق والمحن لا يتحملها أهل البدايات لعدم تمكنهم في مقام العبودية والشهودية ، فتؤديهم تلك المشاق إلى ارتكاب المخالفة في طريق السلوك وترك الفرائض والسنن وتورث في قلوبهم التفرقة وتضيع أعمارهم بغير فائدة

قال الشيخ أبوبكر الدقاق قدس سره : آفة المريد ثلاثة : التزوج وقراءة الفقه الذي لا حاجة إليه والسفر قبل الكمال .

وأما في النهاية فلا بأس عليهم في السفر الظاهري لأنهم راسخون في مقام العبودية قادرون على تحمل المشاق والمحن فلا يرتكبون فيه المخالفة ولا تحصل فيهم التفرقة ، بل تحصل لهم الترقيات إلى الدرجات العاليات بسبب تحمل المشاق والمحن في السفر كما كان السلف الصالحون إذا استوطنت نفوسهم في محل وحصل لهم الايتلاف مع الناس سافروا لرفع العادات وترك الراحات وقطع الألفة واختيار الذلة ليحصل لهم التجرد التام حتى يصلوا إلى أعلى المقام « سلسلة خواجكان » ١٥ .

وهوش دردم مراده أن كل نفس من أنفاس السالك ينبغي أن يكون خروجه على وجه الحضور والشعور دون الغفلة والفتور .

قال مولانا الشيخ سعد الدين الكاشغري ﷺ : إن معنى « هوش دردم » هو أن الانتقال من نفس إلى نفس ينبغي أن لا يكون على الغفلة بل على الحضور ، وأن لا يكون غافلا عن الحق سبحانه وتعالى في كل نفس وعند كل تنفس .

وقال حضرة شيخنا ﷺ : جعلوا في هذه الطريقة رعاية النفس وحفظه من أهم الأمور ، يعني ينبغي أن لا يكون جميع الأنفاس مصروفة وخارجة عن نعت الحضور ووصف الشعور ، فإن لم يكن متحققا لنفسه يقولون إن فلانا ضيع نفسه يعني ضيع طريقه وسيرته .

قال حضرة الخواجه بهاء الدين ﷺ : ينبغي أن يجعل بناء الأمر في هذا الطريق على النفس بأن يشغلك أهم الأحوال في الزمان الحال عن تذكر الماضي وتفكر المستقبل وأن لا يترك النفس حتى يضيع وأن يسعى في المحافظة على ما بين النفسين وقت خروجه ودخوله لئلا يكون دخوله وخروجه على الغفلة . « رشحات » ٢٧ .

وقال : فينبغي للطالب العاقل أن يكون في نسبة الحضور مع الله سبحانه وتعالى على وجه تكون هوية الحق سبحانه ملحوظة وقت التلفظ بهذا الحرف الشريف وأن يكون حاضرا وقت خروج النفس ودخوله حتى لا يقع الفتور في نسبة الحضور مع الله وأن يجتهد في حفظ هذه النسبة ليكون واقفا لقلبه دائما من غير تكلف وتعمل بل ربما لا يستطيع أن يزيل هذه النسبة عن قلبه . شعر :

يُشيـــرُ إلـى غَيبِ الهَوِيَّةِ هاء هُـــو وَأَنْفاسُ مَخْلوقٍ لِذا الحَرْفِ حاملُ
فـَكُنْ صاحِباً فــي كُلِّ حالٍ لِحِفْظِها لَقَدْ قُلْتَ حَرْفَ الصِّدْقِ إنْ أَنْتَ عاملُ

لا يخفى أن غيب الهوية على ما بينه مولانا الجامي ﷺ في شرح هذا الرباعي عبارة في اصطلاح أهل التحقيق عن ذات الحق سبحانه وتعالى

باعتبار اللاتعيّن يعني بشرط الإطلاق الحقيقي الذي يكون خاليا من جميع القيود حتى الإطلاق أنه مناف للإطلاق الحقيقي ولا يمكن أن يتعلق به سبحانه وتعالى في تلك المرتبة علم وإدراك وهو تعالى من هذه الحيثية مجهول مطلق . « رشحة » ٢٨ .

وقال الشيخ علاء الدين الآبزي ﷺ : **إن هوش دردم** أصل عظيم في طريقة خواجكان قدس الله أرواحهم فإن مر النفس على غفلة يعدون ذلك من الكبائر حتى عده بعضهم من الكفر وشعر الشيخ فريد الدين العطار ﷺ مؤيد لهذا القول لكن لم أكتب لكونه فارسية ، لكن **إن** شعر ابن الفارض ﷺ أوضح من ذلك وأبلغ ، حيث قال :

وَلَـوْ خَـطَرَتْ لـي في سِواكَ إرادَةٌ عَلى خاطِرِي سَهْواً حَكَمْتُ بِرِدَّتي

وقال : قال مولانا أبو يزيد البوراني عليه الرحمة والغفران : كما أن الاجتناب عن المعاصي واجب على العامة كذلك الاحتراز عن الغفلة لازم على الخواص ، كما أن العامة يؤاخذون على المعصية كذلك الخواص يعاتبون على الغفلة . منه ١٤٥ .

وقال الشيخ العارف الهروي عن الإمام الرباني ﷺ في « مكتوباته » : إن « هوش دردم » يعني العقل في النفس غاية ما في الباب أن الكلمة الأولى لدفع تفرقة منبعثة عن الآفاق والكلمة الثانية لدفع التفرقة الأنفسية والكلمة الثالثة التي هى قرين هاتين الكلمتين كلمة السفر في الوطن وهي عبارة عن السير في الأنفس الذي هو منشأ حصول اندراج النهاية في البداية الذي هو مخصوص بهذه الطريقة العلية « مكتوبات » ٣٥٧ .

وقال الشيخ محمد ﷺ في « سلسلة خواجكان » : ويجوز أن يكون كناية عن انتباه الذاكر عن سِنة الغفلة في حال الذكر لأن المقصود من الذكر استمرار ملاحظة معناه ، واستمرار ملاحظة معنى الذكر يؤدي إلى تجلّي ذلك المعنى ، وذلك لا يمكن إلا بحفظ الأنفاس عن الغفلات .

والحاصل أن هذا الأمر لا يتم إلا بحفظ الأنفاس لأن حفظها يؤدي إلى الحضور بسبب تجليات الحق سبحانه وتعالى لأن لله تعالى تجليات بعدد أنفاس الخلائق فمن حفظ أنفاسه عن الغفلات كان حاضرا مع الله تعالى فيصيب بتلك التجليات .

ثم اعلم أن حفظ الأنفاس عن الغفلات بالدوام عسير على السالكين ، فإذا دخلت الغفلة فيها فلا بد لهم أن يستغفروا الله تعالى عنها لأن الاستغفار يزكي الأنفاس من الغفلات ويتداركها بالحسنات . انتهى بحروفه .

ومنها خلوة در أنجمن . ذكر الشيخ محمد ابن الشيخ محمد مراد ﷺ في « سلسلة الخواجكان » : أن **الخلوة** في اصطلاح الصوفية بيت معروف يختلي فيه أهل السلوك للتعبد ، و **انجمن** جمعية الناس . فالمعنى المراد بها عندهم أنه ينبغي أن يكون قلب السالك حاضرا مع الحق غائبا عن الخلق مع كونه بين الناس ، فحينئذ يكون هذه الكلمة بمعنى المراقبة ، ويجوز أن يكون كناية عن محادثة القلب بحيث لا يطلع عليها الناس مع كونه فيما بينهم ، وقيل إنها كناية عن استيلاء النسبة العلية بحيث لا ينافيها معية الخلق ولا يضرها المعاملة معهم .

ثم اعلم أن الخلوة نوعان :

الأول الخلوة من حيث الظاهر وهي اختلاء السالك في بيت خال عن الناس وقعوده فيه ليحصل له الاطلاع في عالم الملكوت والشهود في عالم الجبروت ، لأن الحواس الظاهرة إذا احتبست عن أحكامها انطلقت الحواس الباطنة الطالعة إلى آيات الملكوت ومكاشفات أسرار الجبروت .

والثاني الخلوة من حيث الباطن في مشاهدة أسرار الحق والظاهر في معاملة الخلق بحيث لا تشغله معاملة الظاهر عن مشاهدة الباطن فيكون الكائن البائن ، وهذه هي الخلوة الحقيقية كما أشار إليهما في قوله تعالى : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وهذه الخلوة خاصة بالطريقة النقشبندية لأن أربابها لا يحتفلون[1] بالخلوة الظاهرة وإنما خلوتهم من حيث الباطن عند

« ١ » أي : لا يبالون

جمعية الناس ، كما قال الخواجه بهاء الدين النقشبندي ﷺ العزيز : طريقتنا الصحبة والخير في الجمعية انتهى .

وذكر في « الرشحات » بما عبارته : سئل الخواجه بهاء الدين النقشبندي ﷺ بأن بناء طريقكم على أي شيء ؟ فقال في جوابه هذه العبارة يعني **خلوة در انجمن** . ومعناه : الخلوة في الجلوة في الظاهر مع الخلق وفي الباطن مع الحق سبحانه وتعالى . شعر :

بِقَلْبِكَ صاحِبْنا وَجانِبْ بِظاهِـرِ وَذا السَّيْرُ في الدُّنْيا قَليلُ النَّظائِرِ

وقيل أيضا في معنى ذلك :

كُـنْ باطِنـاً نَحْـوَ المُنـى وَبِظاهِـرٍ كالأَجْنَبِـيّ

انتهى

وقال ﷺ : إن نسبة الباطن في هذا الطريق على نهج تحصل جمعية القلب في ملأ وصورة تفرقة أكثر مما تحصل في الخلوة .

وقال أيضا : طريقتنا هذا مبنية على الصحبة فإن في الخلوة شهرة وفي الشهرة آفة والخير كله في الجمعية والجمعية في الصحبة بشرط فناء كل في الآخر .

قال الخواجه أوليا كبير ﷺ : الخلوة في الجلوة هو أن يبلغ الاشتغال بالذكر والاستغراق فيه مرتبة لو مشى الذاكر في السوق لا يسمع شيئا من الكلام والأصوات بسبب استيلاء الذكر على حقيقة القلب .

قال حضرة شيخنا ﷺ : يصل السالك بسبب الاشتغال بالذكر بالجد والاهتمام في مدة خمسة أو ستة أيام إلى مرتبة يخيل له جميع أقوال الناس وأصوات المخلوقات ذكرا ، بل يخيل له كلام نفسه أيضا ذكرا ، لكن لا يحصل ذلك بدون سعي واهتمام . « رشحات » ٢٩ .

وقال الشيخ محمد ﵁ في « سلسلة الخواجكان » : إنما اختار هذه الخلوة اتباعا بالسنة لأن النبي ﷺ اختار الجمعية على الخلوة وقال : « المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لم يخالط الناس » ، وقال الشيخ أبو سعيد الخراز ﵁ : ليس الكامل من صدرت منه الكرامات وإنما الكامل الذي يقعد بين الخلق يبيع ويشتري معهم ويتزوج ويختلط الناس ولا يغفل عن الله تعالى لحظة واحدة انتهى .

وقال الإمام الرباني ﵁ في « مكتوباته » في ٣٥٧ : متى تيسر السفر في الوطن يسافر في خلوة الوطن أيضا في نفس الخلوة ولا تتطرق تفرقة الآفاق إلى حجرة الأنفس وهذا أيضا على تقدير غلق أبواب الحجرة وسد جميع روزنتها وكوّتها ، فينبغي أن لا يكون في جلوة التفرقة متكلما ولا مخاطبا ولا ملتفتا إلى أحد وكل هذه التمحُّلات والتكلفات في البداية والوسط ، وأما في النهاية فلا شيء يلزم منها أصلا ، فان المنتهي متصف بالجمعية في نفس التفرقة وبالحضور في عين الغفلة ولا يظن من هذا أن التفرقة وعدم التفرقة متساويان في حق جمعية المنتهي مطلقا فإنه ليس كذلك بل المراد أنهما متساويان في جمعية الباطن ، ومع ذلك لو جمع ظاهره مع باطنه ودَفَع التفرقة عن ظاهره أيضا يكون أولى وأنسب ، فإن الله سبحانه وتعالى قال لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ .

ينبغي أن يعلم أنه لا بد في بعض الأوقات من تفرقة الظاهر لأداء حقوق الخلق فتكون تفرقة الظاهر في بعض الأوقات مستحسنة أيضا ، وأما تفرقة الباطن فليست بمستحسنة في وقت من الأوقات فإنه خالص حق الله سبحانه فيكون ثلاث حصص من العبد المسلم لأجل الحق سبحانه تمام الباطن ونصف الظاهر وبقي النصف الآخر من الظاهر لأداء حقوق الخلق ، ولما كان في أداء تلك الحقوق امتثال أوامر الحق سبحانه وتعالى صار ذلك النصف أيضا راجعا إلى الحق سبحانه وتعالى إليه يرجع الأمر كله فاعبده« ١ » . انتهى « مكتوبات » ٣٥٧ .

« ١ » فإن أردت أيها الناظر بيان باقي الكلمات المصطلحات راجع إلى « الطبقات » للشيخ المرشد الحافظ شعيب أفندي الباكني وهو كتاب ضخم وفيه بيان تام لسائر الكلمات في صحيفة ٤٢ .

فصل

في بيان صفة المريد السالك
وآدابه مع الشيخ ومع أصحابه ومع العامة

اعلم أيها المسترشد جعلك الله وإيانا في زمرة الراشدين أنه لا بد لمن دخل في صحبة المشائخ الصوفية أن يراعي آداب صحبتهم ويحفظ حرمتهم لأنهم جلساء الله وعرائس الله وأحباب الله ، وصحبتهم صحبة الله تعالى ، فمراعاة آداب صحبة الله واجب على كل أحد .

قال في « نزهة المجالس » : قال رسول الله ﷺ : « من أراد الجلوس مع الله فليجلس مع أهل الله » ، فيجب مراعاة الأدب معهم ، ومن لم يراع الأدب معهم فقد ضل عن سواء السبيل .

وقال مولانا شيخ الإسلام قدس سره لما سأله الجنيد قدس سره عن التصوف : إذا صافى عبداً وارتضاه بخالصته وعدّه من خاصته ألقى إليه كرمة كريمة من لسان كريم في وقت كريم على مكارم كريم بين قومٍ كرام « نفحات » ١٣٣

قال الشيخ جنيد قدس سره : من جالس مع هذه الطائفة ثم لم يتأدب معهم سلب منه نور الإيمان وابتلاه الله بالمقت .

وقال في « عوارف المعارف » في فصل شرح رتبة المشيخة : إن الصالحين والسالكين ينقسمون أربعة أقسام : سالك ومجذوب ، وسالك متدارك بالجذبة ، ومجذوب متدارك بالسلوك ، فالسالك المجرد لا يؤهل للمشيخة ولا يبلغها لبقاء صفات نفسه عليه فيقف عند حظه من رحمة الله تعالى عليه في مقام المعاملة والرياضة .

والمجذوب المجرد عن السلوك أيضا لا يؤهل للمشيخة ويقف عند حظه من الله تعالى .

والسالك الذي هو متدارك بالجذبة يؤهل للمشيخة لأنه دخل في طريق المحبين ورسخ فيه حال من أحوال المقربين بعد ما دخل في طريق أعمال الأبرار والصالحين ويمكن اتباعه وينتقل منه إليهم علوم ويظهر بطريقه بركة ، ولكن قد يكون محبوسا في حال لا يطلق من وثاق الحال ولا يبلغ كمال النوال فيقف عند حظ نفسه . قال الله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾

ولكن المقام الأبلغ في المشيخة القسم الرابع ، وهو المجذوب المتدارك بالسلوك ، يباديه الحق بالكشوف وأنوار اليقين ، ويزيل عن قلبه الحجب ، ويستنير بأنوار المشاهدة ، وينشرح صدره ويفسح قلبه ويتجافى عن دار الغرور وينسب إلى دار الخلود ، ويرتوي من بحر الحال ويتخلص من الأغلال والأعلال ، ثم يفيض من باطنه على ظاهره ، ويجري عليه صورة المجاهدة والمعاملة من غير مكابدة وعناء ، بل بلذّة وهناء ، ويكسو قالبه بصفة قلبه وقلبه بصفة قالبه ، يحكي باطنه عن ظاهره وظاهره عن باطنه ، يحب ربه ويلين جلده كما لان قلبه ، ويكون مسيطرا على الحال لا الحال مسيطرا عليه ، وعلامة لين جلده إجابة قالبه للعمل كما أجاب قلبه يريده الله تعالى إرادة خاصة ويرزقه محبّة خاصة من محبة المحبوبين المرادين ، قال تعالى : ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أخبر أنّ الجلود تلين كما أنّ القلوب تلين ولا يكون هذا إلاّ حال المحبوب المراد . « عوارف المعارف » بأدنى اختصار ، لكن كلام الحكمة مملوّ فيها .

إلاّ أنّ شيخنا وسيّدنا من صافحه الرسول ﷺ يقظة ووافق اسمه مسماه مولانا محمود الفعال الألمالي الداغستاني قدس سره وهو عالم في هذا الباب بل أعلم السابقين في هذا العلم جوّز جلوس السالك الغير المجذوب في مقام المشيخة وتربية المريدين لكن بإذن شيخه المعتبر إذنا صحيحا في اليقظة بالتصريح بأنّ يده يد شيخه وكلامه في هذا طويل وليس له في هذا الباب عديل ونحن لم نذكر ذلك كلّه لأجل كفاية هذا القدر القليل إن كان هو من العلماء وإلا فلا يفيد التطويل .

وقال بعض العارفين : الطريقة كلها آداب وشرط طالب هذا الطريق الأدب ، والآداب ثلاثة : أدب بالنسبة إلى الحق سبحانه وتعالى وأدب بالنسبة إلى حضرته ﷺ وأدب بالنسبة إلى مشائخ الطريقة .

أما الأدب بالنسبة إلى الحق سبحانه فهو أن تكون في الظاهر والباطن مستكمل العبودية بامتثال الأوامر واجتناب النواهي ومعرضا عن السوى بالكلية ، **وأما الأدب بالنسبة إلى حضرته** ﷺ فهو أن تدخل نفسك في مقام ﴿فاتبعوني﴾ وتراعي ذلك في جميع الأحوال على سبيل الوجوب ، وتعلم أنه واسطة الحق في جميع الموجودات وكل شيء وكل أحد منطرح على أعتاب عزته .

وأما الأدب بالنسبة إلى مشائخ الطريقة فواجب ولازم على الطالبين لأنهم بواسطة متابعته ﷺ وصلوا إلى مقام الدعوة إلى الحق ، فينبغي للمريد أن يكون في الغيبة والحضور مراعيا لأحوالهم ، مقتديا بهم ومتمسكا بأذيالهم .

وقال أيضا قُدِّسَ سِرُّهُ : رعاية الحقوق من أدب سلوك هذا الطريق فكل من وصل إلى محل ومقام وصل من هنا .

قال كبراء الدين : من اتصل اتصل بالأدب ، ومن لم يتصل لم يتصل بترك الأدب ، شعر :

لازِمْ البابَ إنْ أَرَدْتَ وُصولا ... واسْمَعِ القَوْلَ إنْ أَرَدْتَ دُخولا
واغْتَنِمْ كُلَّ لَحْظَةٍ في رِضاهُمْ ... لا تُـخـالِفْ إذا أَرَدْتَ قَبـولا

فابذل أيها الطالب الصادق قواك وحواسك في جميع ما يهوى واجعل هواك تابعا لهوى شيخك وبالغ فيما يرضيه واخضع وانكسر بين أياديهِ

واحْذَرْ بِجُهْدِكَ أَنْ تَأتِيْ وَلَوْ خَطَأً ... ما لا يُحِبُّ وَباعِدْ عَنْ مَناهيهِ

واحذر واجتهد وبالغ في طاعة الشيخ ، ولا تأت بما لا يحب ولو خطأ وابعد عما ينهاك عنه واكرهه ، فإن وقع ذلك منك باطناً[1] استغفرت باطنا وإن

« ١ » في الأصل ظاهراً

وقع منك ظاهرا استغفرت أيضا باطنا واعتذرت ظاهرا ، فإنهم أهل السماحة يقيلون العثرات ويقبلون الأعذار ، يتخلقون بأخلاق مولاهم فإن الله يحب التوابين وهم كذلك يحبونه ، وكلما طرأ منك ذنب فاغسله بصابون التوبة والاعتذار وسَبِّعْه مُتْرِبا بالذلة والانكسار فليس الشأن أن لا يقع منك ذنب إنما الشأن أن لا تصر على الذنب ، ليس الشأن أن لا يتدنس ثوبك إنما الشأن أن لا تصر على تدنيس ثوبك ، فكلما دنس ثوبك فاغسله بصابون الظاهر ، وكلما تدنس قلبك فاغسله بصابون الذلة والانكسار ، ما طلب لك شيء مثل الاضطرار ولا أسرع لك بالمواهب مثل الذلة والانكسار ، وشاهد ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ . الشيخ أحمد بن علان ٢١ .

قال بعض الحكماء : الأدب أحد المنصبين ، وقال : الفضل بالعقل والأدب لا بالأصل والنسب ، لأن من أساء أدبه ضاع نسبه ومن قل عقله ضل أصله .

وقال : حسن الأدب يستر قبح النسب ، وهو وسيلة إلى كل فضيلة وذريعة إلى كل شريفة .

قال أعرابي لابنه : يا بنيّ الأدب دَعامةٌ أَيَّدَ الله بها الألبابَ وحِلْيَةٌ زَيَّنَ الله بها عَواطِلَ الأحسابِ والعاقل لا يستغني وإن صحت غريزته عن الأدب المُخرِجِ زَهْرَتَهُ كما لا تستغني الأرض وإن عَذُبَتْ تربتُها عن الماء المُخرِجِ ثمرَتَها . « كشكول » ٢٤٦ .

قال العارف عبد الوهاب الشعراني ﷺ في « المدارج » : اعلم أيها الطالب ، المريد الذي لا يعلم آباءه وأجداده في الطريق فهو أعمى وربما انتسب إلى غير أبيه وقد أوزع السلف على تعليم المريدين آداب آبائهم ومعرفة أنسابهم وأجمعوا كلهم على أن من لم يصح له نسب القوم فهو لقيط في الطريق لا أب له ولا يجوز له التصدر والجلوس للإرشاد إلاّ بعد أخذه آداب الطريق من شيخ كامل مجمع على جلالته وخبرته بالطريق ثم يأذن له صريحا بأن يرشد ويلقن .

الأدب الوقوف مع المستحسنات وذلك بأن تعامل الله بالأدب سرا وعلانية ، فإذا كنت كذلك كنت أديبا وإن كنت أعجميا ، شعر :

إذا نَطَقَتْ جاءتْ بِكُلِّ مَليحَةٍ وَإنْ سَكَتَتْ جاءَتْ بِكُلِّ مَليحِ

« نفحات الأنس »١٩١

ثم اعلم أن آداب صحبة المشائخ كثيرة وذكر جميعها في المختصر عسيرة ، لكن نذكر هنا بعضا منها فمن يراعيها يستغني عن باقيها ، ولقد بوب الشيخ محمد بن عبد الله الخاني ﭬ في ذكرها في كتابه « البهجة » قال : قال العلامة ابن حجر الهيتمي المكي رحمه الله تعالى في « خاتمة الفتاوى من المسائل المنثورة » : والأخذ عن مشائخ متعددين يختلف الحال فيه بين من يريد التبرك ومن يريد التربية والسلوك ، فالأول يأخذ ممن شاء ، إذ لا حجر عليه ، وأما الثاني فيتعين عليه على مصطلح القوم السالمين من المحذور واللوم حشرنا الله تعالى في زمرتهم ، أن لا يبتدئ إلا بمن جذبه إليه حاله قهرا عليه بحيث اضمحلّت نفسه بقاهر حال ذلك الشيخ الحق وتخلت له من شهواتها وإرادتها ، فحينئذ يتعين عليه الاستمساك بهديه والدخول تحت جميع أوامره ورسومه حتى يصير كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف شاء ، فإن لم يجذبه حال شيخ كذلك فليتخذ أورع المشائخ وأعرفهم بقوانين الشريعة والحقيقة ويدخل تحت إشارته ورسومه كذلك ، ومن ظفر بشيخ بالوصف الأول والثاني فحرام عليه عندهم أن يتركه ، انتهى .

فإذا وجد الأعلى فالأدنى منهما يصحبه بالخدمة البدنية والمالية والقلبية مع الشرائط والآداب في حضوره وغيبته ، إذ خاصية سوء الأدب زوال البركة وتبدل النور بالظلمة والحجاب والبعد المعنوي والضرر ، تغير طبع الشيخ أو لم يتغير ، كما نقل أن الإمام زفر رحمه الله تعالى كان يتوضأ فمر عليه أبو حنيفة رضي الله عنه فلم يقم له ولم يعظمه فلأجل ذلك صارت روايته في المذهب ضعيفة وإلا فقد كان من أجلة أصحاب الإمام علما وأكثرهم ملازمة .

قال في « الرسالة المدنية » : ويلزم له أي المريد رعاية الآداب في جميع المراد وفي جميع المواضع انتهى

حتى قالوا : الطريقة كلها آداب لكن كتب القوم مشحونة ببيانها على التفصيل والتعداد ، ولذلك لم نذكرها في هذه الرسالة خوفا من التطويل ، وهي من أهم المهمات في هذا الباب حتى إنهم قالوا : الوجدان والحصول والوصول موقوفة على أمور ثلاثة :

أحدها : الإخلاص في الطلب حتى لا يقصد من السلوك الولاية والوصول إلى مرتبة الإرشاد و المشيخة ونحوها« ١ »

والثاني الآداب قالوا : يصل من يصل بالأداب ورعاية حق الأستاذ ويحرم من يحرم بضدهما حتى قال ويكون أكثر حرمان السالك بسبب عدم رعاية حق الاستاذ .

والثالث المحبة للشيخ المقتدى وهو السبب الكامل لأخذ الفيض من الشيخ ، بل هو سبب لسرعة الحصول والوصول كما لايخفى على من ذاق .

قال الإمام الرباني مجدد الألف الثاني ﰃ : إن بين الشيخ والمريد نهراً معنوياً يجري من الشيخ إلى المريد بقدر المحبة حتى إنه يأخذ المريد الغائب كثيرُ المحبة للشيخ أكثرَ من المريد الحاضر ناقصِ المحبة ، ولذا استحبوا تجمل الشيخ للمريد والمريد للشيخ ودخول المريدَ قلب الشيخ والشيخ قلب المريد لأن المحبة من الطرفين شرط كمال وإكمال المريد .

قال في « تحفة الأحباب » : ولها - أي للطريقة النقشبندية - أصلان أصيلان ، من أعطيهما فقد أعطي كل شيء : كمال اتباع النبي ﷺ كما مر ،

« ١ » كل له نحو العلا حركاتُ لكن قليلٌ في الرجال ثباتُ
أي : والمريد الذي صحّت إرادته بتصحيح مقصده وإقباله على مولاه وإعراضه عن كل ما سواه هو الذي أريد منه أن توافيه الجذبة وتستغرق ظاهره وباطنه المحبة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ابن علان ٣١
ولما سئل شيخ فارس بن عيسى البغدادي عن المريد قال : هو الرامي بأول قصده إلى الله تعالى فلا يعرج حتى يصل .

ومحبة الشيخ الكامل ، وهذه المحبة أصل لجميع الكمالات ، فيكون المريد بكمال المحبة قابلا للكمالات الغير المتناهية على طريق الانعكاس من الحضرة الإلهية بواسطة شيخه ، كما قيل : **محبة الشيخ كافية في الوصول إليه** ﷻ .

وضياء الدين البغدادي قدس سره المشهور بمولانا خالد السليماني مجدد المائة السابعة«١» قسم الأداب في رسالته المسماة « بالخالدية » إلى ثمانية أنواع ، ثم قسم كل نوع منها إلى أقسام فمن أراد الوقوف إليها فليرجع إلى هذا الكتاب تجد ما تقنع .

والحاصل أن كل أدب يجري بين الأمة المرحومة وبين سيد البشر ﷺ يجري بين الشيخ والمريد ، لأن الشيخ في قومه كالنبي في أمته على ما يستفاد من « عوارف المعارف » و« روح البيان » وغيرهما من كتب القوم .

وقال في « جوامع الكلم » : من أراد القرب فليعرف قدر شيخه ، فإذا عرف قدر شيخه فقد دله على معرفة قدر محمد ﷺ ، فإذا عرف قدر محمد ﷺ فقد وقع في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ انتهى كلام « الجوامع » .

وفي ترك آداب المريد للشيخ ضرر عظيم لا يرجى جبره غالبا .

قال في « الفتوحات المكية » : واعلم أن حرمة الحق تبارك وتعالى في حرمة الشيخ وعقوقه في عقوقه ، فهم حجاب الحق جل جلاله الحافظون أحوال القلوب على المريدين ، فمن صحب شيخا يقتدى به ولم يحترمه فعقوبته فقدان الحق سبحانه وتعالى في قلبه والغفلة منه تعالى وسوء الأدب في الدخول في كلام الشيخ ويزاحمه في رتبته فإن وجود الحق إنما يكون للأدباء الذين هم أولو الألباب ، وباب الحق تبارك وتعالى دون غير الأدباء مغلوق لا يفتح ، **ولا آفة للمريد أعظم من ترك أدب الشيخ** . انتهى كلامه .

« ١ » لعله المائة السابقة

وقال في « الرسالة المدنية » : قال الإمام الرباني قدس سره : إن شقاوة المريد في رد الشيخ بترك التربية والنظر إليه عياذا بالله تعالى انتهى كلامه .

وقال في « روح البيان » : قال بعض الكبار : من قال لأستاذه لِمَ لا يفلح أبدا

وقال أبو يزيد البسطامي قدس سره في حق تلميذه لما خالفه : دعوا من سقط عن عين الله تعالى ، فروي بعد ذلك أنه صار من المخنثين وسرق فقطع يداه ، هذا لكل من نكث العهد . انتهى كلامه .

قال في « جوامع الكلم » : قيل : من رضي عنه شيخه لا يكافأ في حال حياته لئلا يزول عن قلبه تعظيم ذلك الشيخ ، فإذا مات أظهر عليه جزاء رضاه ، ومن تغير عليه قلب شيخه لا يكافأ عليه في حال حياة ذلك الشيخ لئلا يرق له ، فإنهم مجبولون على الكرم ، فاذا مات ذلك الشيخ يجد المكافأة . اهـ .

وقال في « الرسالة البهائية » : ما حاصله : **إن السقوط من السماء السابعة إلى الأرض السفلى خير من السقوط من قلب أرباب الباطن أعاذنا الله وإياكم** من ذلك لأن السقوط من قلوب أصحاب الباطن رأس المهالك والسقوط من نظر أرباب القلوب هو عين السقوط من نظر الحق عز وجل .

وقال فيه أيضا : إنه يلزم على المريد الخشية والخوف من السقوط من عين الشيخ وكذا الطمع والرجاء في عنايته وتَيَقُّنُ أن سعادته في قبول الشيخ وشقاوته في رد الشيخ ، بل اللازم تقديم شيخه على شيخ شيخه لأنه إذا طرد شيخه طرد شيخ شيخه هكذا إلى رسول الله ﷺ والعياذ بالله تعالى .

فثبت أن رضا المرشد رضاء الله تعالى وسخط المرشد سخط الله تعالى والعياذ بالله تعالى ، ومثله في كتب القوم كثير .

وقال في « روح البيان » : والحاصل أنه يجب ويلزم على الأمّة أن يعظموه ﷺ ويوقروه في حال حياته وبعد مماته أيضا من غير فرق ، فإنه بقدر ازدياد تعظيمه واحترامه عليه الصلاة والسلام يزداد نور الإيمان ، وللمريد مع

الشيخ في رعاية هذا الأدب أسوة حسنة ، لأن الشيخ في قومه كالنبي في الأمّة كما ذكرنا وكما ورد بذلك الخبر ، فعلم من ذلك أن ترك الأدب من المريد للشيخ كترك الأدب من الأمة لرسول الله ﷺ نعوذ بالله ، كما في « العوارف » .

وقال في « الرسالة البهائية » ما حاصله : والحاصل أنه يجب على المريد أن يعتقد أن شيخه المتصرف فيه نائب رسول الله ﷺ وخليفته .

وقال في « الحكم العطائية » : مثل الشيخ المتصرف في باطن المريد كمثل السلطان المتصرف في الظاهر ، فليكن معاملته مع شيخه كمعاملته مع رسول الله ﷺ ومع السلطان إلى آخر ما قال . انتهى .

وفيها تفصيل مهم جدا في باب الأدب ، فيكون ترك الأدب مع النائب راجعا إلى ترك الأدب مع المنوب عنه فكأنَّ فيه خطرا عظيما يُلزِم الاحتراز .

ومن بواعث العمل وجود الخشية وهي تعظيم يصحبه مهابة ، والخوف وهو انزعاج القلب من انتقام الربّ والرجاء السكون لفضله تعالى بشواهد العمل في الجميع وإلاّ كان اغترارا ونفصلها في موضعها ، والحب علامة كمالة العمل على رضا المحبوب فإن خرج عن كل وجه يرضيه فلا ، وبعض التقصير لا يقدح لقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله » وقد أتي به في شرب الخمر مراراً ، وكذا حديث الأعرابي الذي قال : متى الساعة ؟ فقال : « ما أعددت لها » فقال : لا شيء إلاّ أني أحبّ الله ورسوله . نعم المحب لا يرضى بمخالفة حبيبه فهو لا يمكن منه الإصرار ، وإن غُلِبَ بشهوة ونحوها بادر لمحل الرضا من التوبة والإنابة . كذا قاله أبو العباس أحمد زروق العارف قُدِّسَ سِرُّهُ .

وقال بعض العارفين : إذا حضر المريد الصادق مجلس العارف سمع كلامه من جهاته الستّ ومراد العارف أن يخرج المريد من الضيق إلى السعة في عالم الغيب وإن لم يشعر المريد بذلك .

وقال أيضا وهو العارف بالله الشيخ الكبير داود بن ماخلا ﷺ : المريدون على قسمين مريد يعرض ما يرد عليه من مربّيه على عقله قبل أن يصل إلى قلبه ومريد لا يعرض ذلك على عقله ، بل يصل إلى قلبه ببادئ الرأي وهذا أقرب إلى النفع وفي كلّ خيرٌ . وقال ذو النون ﷺ : المريد يطلب والمراد يهرب . « نفحات » ٨٨ .

وذكر العارف بالله تعالى الشيخ أحمد بن علان الصديقي ﷺ في شرحه على « حِكم الشيخ أبي مدين » أن السالك إذا لم يظفر بأحد من الأولياء يتمسك بكلامهم ، فإن من طالع كلامهم ولم يكن رجلا يصير رجلا ، فإن كان رجلا يصير فتى ، فعليك بتتبع كلامهم والاقتداء بآثارهم ، وقد تقدم عن كثير من العارفين أن بعض الناس يكون وصوله إلى الله تعالى بواسطة النبي ﷺ وبعضهم بواسطة إلهام من الله تعالى و بعضهم بواسطة كثرة الصلاة على النبي ﷺ ، فإنه إذا فقد الأشياخ المُرَبُّون تقوم الصلاة على رسول الله ﷺ مقام الشيخ في التربية .

وأما آداب المريد فنوردها إن شاء الله تعالى ما هي الأهم منها .

قال بعض العارفين : أيها المريدون إن أردتم رضا ربكم وبسط نعمه عليكم فاجتهدوا أن يرضى عنكم العارفون واحذروا العكس فإن العكس في العكس واسألوا توفيقكم .

وقال ﷺ : المريد الصادق أول ما يشهد في شيخه الكمال يجده حضرة الحق التي بها أرواح أئمة الهدى أجمعين بالنسبة إليه« ١ » ، ومن شأن الإمام العادل أن لا يغفل عن تطهير قلوب المريدين الطائفين على مظاهر الحق ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ .

وقال ﷺ : إذا علمت من أستاذك الاطلاع على جميع أحوالك فقد عرضت عليه صحيفتك فقرأ فإما يشكرك وإما يستغفرلك ربّك ، فاسمع لهذا

« ١ » فكيف مع هذا يفارق تلك الحضرة لمواضع آثار الأنبياء عليهم السلام التي هي دون الحضرة التي شهد أستاذه فيها وكيف يشتغل عن بيت وضعه الحق لنفسه ببيت وضعه للناس « لواقح الأنوار القدسية » للشعراني

وأطع وإن أعطاك الله بصيرة عملت بذلك فقد أوتيت كتابك بيمينك ، وإن خالفت ما فيه فقد أوتيت كتابك بشمالك ، وإن أغفلت النظر فيه فقد أوتيته من ورآء ظهرك ، وحيث جاءك هذا البيان فاقرأ كتابك وحرّر حسابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا .

وأئمة الهدى في أمان الله تعالى وإنما يبكون ويتضرّعون لأجل أتباعهم إما ليعلموهم كيف يعملون وإما أنها شفاعة غيبية ، ولا شك أن التعليم أيضا شفاعة فمن تعلم وعمل فقد قبلت فيه الشفاعة فانتفع ، ومن لا فلا ، فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ . انتهى .

وقال سيدي أبو المواهب الشاذلي ﷺ في قوله تعالى ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون بحقيقة الاستدراج ، وذلك أن يُغَطِّيَ عليهم حقائق الحق ويلقي في أوهامهم أنهم على صواب وحق ، وأنهم غير مؤاخذين على أفعالهم ، نسأل الله تعالى اللّطف ، فمن أراد الوقاية من الاستدراج فليخف عند ورود النعم عليه أن يستعملها في غير ما وضعت له . انتهى .

وقال الشيخ أبو عبد الله الطافي قدس سره : أدب المريد في التزام حرمات المشائخ وخدمة الإخوان والخروج عن الأسباب وحفظ آداب الشرع على نفسه . « نفحات » ١٤٢ .

وقال رويم البغدادي ﷺ : من حكم الحكيم أن يوسع على إخوانه في الأحكام ويضيق على نفسه فيها ، فإن التوسعة عليهم اتباع العلم والتضييق على نفسك من حكم الورع . « نفحات » ١٤٩ .

وقال ابن بنت ميلق :

كَمْ مِنْ مُريدٍ قَضى ما نالَ بُغْيَتَهُ   حُـقَّ القَضاءُ عليـهِ في تَـقاضيهِ

أي كم من مريد قضى في سلوكه وجاهد في سيره ولم ينل بغيته ووقع القضاء عليه بالبعد .

ما كُلُّ مَنْ سَلَكَ الحِمى سَمِعَ النِّدا ... مِـنْ سِـرِّهِ أهـلاً بِـذلكَ الـزَّائِـــر
خَليليَّ قُطَّاعُ الفَـيافـي إلى الحِمى ... كَـثـيـرٌ وَأمَّـا الـواصِـلـونَ قَـلـيـلُ

هذه إشارة من الناظم إلى تتمة أقسام أهل الطريق .

والحاصل أنهم أربعة أقسام :

فالأول المجذوب السالك

والثاني السالك المجذوب وقد تقدما ، وهذان يصلحان للتكمل والإرشاد

والثالث السالك غير المجذوب المشار هنا في قول الناظم (كم من مريد)

والرابع المجذوب غير السالك وهذان لا يتأتى منهما التكميل و الإرشاد
وكل على بينة من ربه راضيا بما قسم له من حبه قد علم كل أناس مشربهم

وَكَمْ مُريدٍ دَنا مِنْ بَعْدِ عَزْمَـتِـهِ ... يَهْوي بِهِ الحَظُّ في أهوى مَهاويهِ
وَما المُريدُ الذي صَحَّتْ إرادَتُهُ ... إلا مُـرادٌ لَـهُ جَـذْبٌ يُـوافـيـهِ

وكم من مريد ضعيف من بعد جده نزَّله حظه في أسفل سافلين لفتوره عن مجاهدته وإعراضه عن باب مولاه . « ابن علان » ٣٠ ، كل له نحو العلا حركاتُ . . . الخ

قال العارف علي بن حسين الهروي ﷺ عن شيخه عبيد الله الأحرار ﷺ : قال المشائخ ﷺ : التوفيق مع السعي وكذلك يكون مدد روحانية المرشد للطالب على قدر سعيه بأمر المرشد فإنه لا بقآء لهذا المعنى بدون السعي وليس لتوجه المرشد للطالب بقاء فوق أيام قلائل فإن من المعلوم أن المرشد إلى متى يتوجه إلى الغير .

وكان من اللطف الإلهي أن مولانا دادرك ﷺ أمرني أولا بالسعي وكان التوفيق رفيقا حتى صارت أوقاتنا كلها مصروفة في السعي في صحبة حضرة الخواجه ﷺ وأنا لا أعرف من كان يوما واحدا بتمامه في السعي من أصحاب

حضرة الخواجه إلا قليلا ، وقد تظهر في أثناء السعي والتوجه أحيانا حالة للطالب ويراها الطالب ولكن لا يعلم أنه ماذا يرى ، فينظر إلى نفسه فيرى نفسه معدوما فيقع في الحيرة ثم تحتجب عنه تلك الحالة بعد زمان ويكون طلوعها سببا لحديث النفس ، فينبغي للطالب في هذا الحال أن يرى قصور نفسه ومطالعة نقصانه وأن يكون راضيا باحتجاب تلك الحالة من حيث أنه رضا المحبوب ومقتضى عزته وأن لا يتقيد بربطها فإنّ فَخّ«١» البشر غير لائق بهذا الصيد إلى أن تطلع ثانيا وتكون قوية وباقية فيجتهد بالجد التام وكمال الاهتمام ويلزم المشقة والسعي ثلاثة أيام لا أكثر ، فيكون السعي بعد ذلك ملكة له حتى يصل الطالب باختياره إلى الفناء وفناء الفناء . انتهى .

وقال أيضا وذكره في « الرشحات » قال : إن أهل الإرادة في غاية القلة والندرة .

وقال في تأييد ذلك الكلام : كتب واحد من المشائخ إلى آخر من أكابر عصره : إن المريدين قليلون هنا جدّا فإن أَحَسْتَ علامة من المريد الصادق أرسله إليّ ، فكتب في جوابه : إن المريدين قليلون هنا أيضا فإن أردت شيوخا أرسلُكَهم مقدار ما تريد . انتهى

وقال أيضا : ينبغي للطالب أن يطالع عجزه وعدم اقتداره عند المرشد دائما وأن يعلم يقينا أن الوصول إلى المقصود الحقيقي لا يتيسر إلا من جهة المرشد بواسطة تحصيل رضاه وأن يعتقد أن جميع الطرق والأبواب الأخر مسدودة عليه وأن يجعل ظاهره وباطنه بكليته فداء للمرشد . اهـ .

وقال : لا رجاء غير مشاهدة قصور الأفعال دائما ، في كل لحظة ينبغي أن يدخل من باب القصور وأن يلاحظ كرمه تعالى وألطافه مع عدم استعداده وبعده وهجرانه ، وأن يلتجئ إلى محض لطفه وعنايته .

« ١ » الفخّ آلة يصاد بها .

وقال : أمرني حضرة خواجه بهاء الدين ﷺ بهذه الصفة وأمسكني عليها دائما ، فلله الحمد . راجع « مقامات خواجه بهاء الدين » في ٢١ .

وقال الشيخ عبيد الله أحرار ﷺ : سألني الشيخ بهاء الدين عمر ﷺ أنه هل الأفضل في حق المبتدئ السفر أم الإقامة ؟ قلت : لا يحصل للمبتدئ شيء من السفر غير تفرقة القلب .

ثم قال حضرة شيخنا ﷺ : إن السفر يجوز لمن حصلت له صفة التمكين ولا يناسب للمبتدئ في اعتقادنا بل اللائق بحاله واللازم له أن يكتسب صفة التمكين قاعدا في زاوية ، بل اللازم لمن يشتغل بهذه الطريقة كونه في بلده فإن خوف تشنيع أقربائه وأحبّائه والحياء عن الناس يمنعه عن العمل بخلاف الشريعة وارتكاب الأفعال الغير المرضية .

وذهب بعض المشائخ إلى خلاف ذلك وقال : ينبغي للمبتدئ أن يسافر ليتخلص عن بعض العادات والرسوم والمألوفات الطبيعية بسبب مهاجرة الأوطان ومفارقة الإخوان وليحصل له بعض التزكية والتصفية بواسطة الرياضات والمجاهدات التى هي من لوازم السفر .

وأما معتقد أكابر النقشبندية قدس سرهم في باب الإقامة والسفر لزوم السفر للمبتدئ إلى أن يوصل نفسه إلى صحبة واحد من هذه الطائفة ثم يلزمه بعد ذلك الإقامة عنده والتزام صحبته والمداومة على خدمته والاشتغال بكمال الاجتهاد في أن تحصل له ملكة نسبة هذه الأكابر وتكون تلك النسبة ملكة ، فان وُجد في بلده شخص من هذه الطائفة فلا يفارق صحبته ولا يسافر إلى طرف مّا البتة ، فإن فعل شيئا خلاف ذلك فهو مضيع لوقته . انتهى . من « الرشحات عين الحياة »

وقال في « عوارف المعارف » : ومن جملة مهمات الآداب حفظ أسرار المريدين فيما يكاشفون به ويمنحون من أنواع المنح ، فسر المريد لا يتعدى ربه تعالى وشيخه ، ثم يحقّر الشيخ في نفس المريد ما يجده في خلوته من

كشف أو سماع خطاب أو شيء من خوارق العادات ويعرفه أن الوقوف مع شيء من هذا يشغل عن الله تعالى ويسد باب المزيد ، بل يعرفه أن هذا نعمة تشكر ومن ورائها نعم لا تحصى ويعرّفه أن شأن المريد طلب المنعم لا النعمة حتى يبقى سره محفوظا عند نفسه وعند شيخه ولا يذيع سره ، فإذاعة الأسرار من ضيق الصدر ، وضيق الصدر الموجب لإذاعة السر يوصف به النسوان وضعفاء العقول من الرجال .

وسبب إذاعة السر أن للإنسان قوتين : آخذة ومعطية وكلتاهما تتشوقان إلى الفعل المختص بهما ولولا أن الله تعالى وكل المعطية بإظهار ما عندها ما ظهرت الأسرار ، فكامل العقل كلما طلبت القوة قيَّدها ووزنها بالعقل حتى يضعها في مواضعها ، فيجلّ حال الشيوخ عن إذاعة الأسرار لرزانة عقولهم ، وينبغي للمريد أن يحفظ سره من بثّه ففي ذلك سلامته وصحته وتأييد الله سبحانه وتعالى له بتدارك المريدين الصادقين في موردهم و مصدرهم . انتهى .

وقال سيدي أبو المواهب ﷺ : الفتح على المريد بالأمر قد يكون امتحانا وقد يكون تأنيسا وقد يكون تثبيتا ، **وينبغي للمريد أن يجتهد أن لا يخرج له نفس إلا بمحمود ولا يدخل عليه نفس إلا بمحمود** ، فإن تم له ذلك فهو المريد ، وهذا شيء لا يجيء بالتفعّل إنما هي خلعة يخلعها الله تعالى على من يشاء ، فعليك بالتذلّل لمولاك والالتجاء والخضوع بين يديه فإنه بيده كل شيء قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ . « تقريب » ٧٨

وقال العارف بالله سيدي أحمد بن إدريس الحسيني المغربي ﷺ : **يستفيد التلميذ من شيخه بقدر تصديقه له ومحبته له وبرّه به**

قال الشاعر :

أقـدِّم أسْـتاذي عَـلى بـرِّ والــدي	وَإنْ كانَ لي مِنْ والدي البرُّ والعَطْفُ
فَهذا مُرَبِّـي الرُّوحِ والرُّوحُ جَوْهَـرٌ	وَهذا مُرَبّي الجِسْمِ وَهْوَ لَها صَدْفُ

لأن التصديق كالإناء ، فإن كان الإناء متسعا أخذ بقدره ، وإن كان ضيقا أخذ بقدره ، كذلك التصديق والمحبة يأخذ التلميذ بقدر كبرهما وصغرهما ، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال : بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضر بها فقالت : إنا لم نخلق لهذا إنما خلقنا للحرث ، فقال الناس : سبحان الله بقرة تتكلم ؟ ! فقال رسول الله ﷺ : « فإني أؤمن بهذا أنا وأبو بكر وعمر » ، وهما غائبان وإنما أخبر ﷺ عنهما لعلمه بمبلغ تصديقهما إلى النهاية ، وهذه ثمرة قوة التصديق .

فإذا عرفت فاعلم أن لا محال على الله تعالى بشيء ، وللقوم حالات مختلفة وطريقة كل واحد منهم غير طريقة الآخر وطرقهم إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلق فإياك أن تشكّ فيما صدر منهم بل اغتنم تغنم أو سلّم تسلم ، أتراهم يتورعون ويزهدون عن الدنيا التي فنيت أهلها ، فمنهم من يتنحى عن الملك ويغترب عن أهله ووطنه ومنهم من يُطْلِق دمعه ويُطَلِّق لذة وَسَنِه« ١ » ومنهم من يسيح في الأرض شرقا وغربا ويقنع من العيش بما به تقوم روحه عن التلاف توقا ، ثم يكذبون على الله ؟ ! كلا والله ! لا يقول ذلك من يؤمن بالله ، بل والله لقد تشمروا للسباق في حَلَبَة المعالي فأحرزوا قَصَباته ، فكم جليٍّ« ٢ » منهم وصل وقطع أعناق العلائق بِصَوارِم عَزَماتِهِ ، وكم ماجد رضع طفلُ فؤاده من ثدي الحقيقة ألبانَ الأسرار وكشَفَت له عن وجوه المعارف بَراقعُ الأسْتار ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم ليس سوى الله تعالى في جميع الحالات أنيسهم ، فلهم في أمثال ذلك أحوال عجائب ، فأحوال القوم لا تحصى ولا تعدّ ، اللهم اجعلنا من أوليائك الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون واجعلنا من حزبك فإنّ حزبك هم الغالبون ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

وقال سيدي علي وفا رضي الله عنه : علماء السوء أضرّ على الناس من إبليس لأن إبليس إذا وسوس للمؤمن عَرَف المؤمن أنه عدوّ مُضِلّ مبين ، فإذا أطاع وسوسته عرف أنه قد عصى فأخذ في التوبة من ذنبه والاستغفار لربه ، وعلماء

« ١ » الوسن اي النعاس

« ٢ » أي عظيم

السوء يلبسون الحقّ بالباطل ويزيدون الأحكام على وفق الأغراض والأهواء بزيغهم وجدالهم ، فمن أطاعه ضلّ سعيه وهو يحسب أنه يحسن صنعاً ، فاستعذ بالله منهم وكن مع العلماء الصادقين .

وقال ﷺ : أستاذك علم مكنون فلا يغتذي به إلاّ روحك ولا بقاء لحيّ إلاّ بغذائه فافهم ، أنت أيها المريد غصن ونور أستاذك شمس يحييك وقمر يربيك ، وما دام معلّمك يولد عندك المعلومات بالتعليم فهو أبوك ، فإذا تحققت روحك بنوره صار علمه يتجلى لك ويكون فيك أُبَّهَة«١» معلوماته وذلك هو الوحي وإنما يوحي إليك ربّك فاشكره واعرف فضله ومنّته عليك .

وكان ﷺ يقول : أستاذك أعلم بك منك لأنه هو حقيقتك وإنما أنت ظلّه ، ومعرفتك بحقيقتك على قدر معرفتك بأستاذك ، وما لم يرتفع منك حكم المغايرة لأستاذك فأنت بالحقيقة لا شك ضائع ، فارجع إلى ربّك فاسأله . انتهى . ذكره في « تقريب الأصول » لسيدي ابن زيني دحلان ﷺ .

وقال سيدى أبو المواهب ﷺ : ربما منع المريد من المزيد من أجل قوله لشيخه لِمَ فإنه ذنب عند أهل الطريق لا يشعر به كلّ أحد ، والطريق كله أدب وتأديب ، فهم يناقشون من جهة الحق مناقشة الجليس جليسه والصاحب صاحبه لأنهم جلساء الحق وصاحب الأدب لم يزل مستور العورة في الدنيا والآخرة والعكس بالعكس . انتهى .

وقال ﷺ في معنى قول القوم (فلان عنده استعداد) : أي صقل مرآة قلبه بأنواع المجاهدات التي تكون بسببها الجلاء الموجب لتجلي صور الحقائق في القلب الصّافي كما هو معلوم حسّا هذا في المحبّين ، وأما في المحبوبين فقلوبهم منوّرة مصقولة اختصاصًا إلهِيًّا .

وكان يقول أيضا ﷺ : ما ورد عليك هو ما ظهر منك لك وما جلا عليك هو منك عليك ، مثال ذلك النواة إذا زرعت فكل شيء ورد عليها من ورقها

« ١ » أي عظَمَةُ

وثمرها كان فيها مودعا بالقوة ، كذلك أنت أيها الإنسان لا يرد عليك قط خارج منك من غيرك بل الوارد عليك كان فيك غيبا ثم ظهر لك شهادة لتعرف مقدار ما أنعم الله تعالى عليك ووراء ما أشرت إليه رموز وأمور ضمنها كنوز سعد من لها يحوز وبحرها يجوز . انتهى .

واعلم أيها السعيد الموفق أن من أعظم الأسباب لتجوهر قلب المريد أن يكون طاهرا من الحرام والشبهات في المأكل والمشرب والملبس وفي باقي الحواس ، فإن الظلمات تتوارد على المريد من الحرام والشبهات في الأفعال والأقوال ويكون سببا قوياً لسدّ مجاري الفيوضات كما ذكرنا ذلك في كتابنا هذا وفي « مواقف السادات » ، وينبغي أن لا يجزم بقول من يقول : (ليس في الدنيا من الحلال شيء في زماننا ولا يوجد) ففي ذلك مزلة الأقدام ، والحلال بين والحرام بين ، ولا بدّ من وجودهما في كل عصر ، وتكليف ما ليس في الوسع جائز عقلا غير وارد شرعا إذ لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ، وقد أمر كل مؤمن بطلب الحلال فوجوده ممكن في كل عصر وقطر لوجود أصوله عموما ، ولأن الأرض لا تخلو من وليّ وصالح وهو قوتهم ، ولا يكلّفنا الله تعالى بما في علمه إنما يكلفنا بما نعلم من حيث نعلم ، فمن لا يعلم بيده حراما ولا يغلب على ظنه دخوله في ماله بعلامة صحيحة فلا وجه لاعتقاد الحرام ولا الشبهة فيه بل قيل : المال كالمآء خلق الله هذا حلالا كما خلق الله هذا طهورا ، هذا لا ينجسه إلا ما غيّر وهذا لا يحرّمه إلا ما غير ، وتفصيل ذلك في كتب الحلال والحرام من« الإحياء » وغيره ، ولذلك أجمعوا على وجوده كما ذكره السهروردي ﷺ ، والله تعالى أعلم .

واعلم أن المريد الصادق عند كماله وتمكنه يظهر له آثار العناية الإلهية ويصاحبه التوفيق الرحمانيّ ويدنو له البعيد وتصير الموجودات مطاوعة له . قال العارف ابن بنت ميلق رضي الله عنه :

لَهُ الوُجوداتُ أَضْحَتْ طَوْعَ قُدْرَتِهِ وَما يَشــاءُ مِـنَ الأَطْوارِ يَأْتيــهِ

أي أضحت الموجودات مطاوعة لقدرته موافقة لاختياره وإرادته لأن من أطاع الله أطاعه كل شيء .

وورد أن النبي ﷺ كان مع عمّه أبي طالب في بعض الأسفار ، فعطش أبو طالب فشكا ذلك للنبي ﷺ ، فضرب بيده على الأرض فأخرج منها ماءً فسقاه فقال له : ما أطوع ربك لك يا محمد ؟ فقال ﷺ : « **وأنت يا عم لو أطعته أطاعك** » .

ولا يتحقق بهذا المعنى إلاّ من تحقق بكمال عبوديته وخرج من أوصاف بشريَّته وذهبت عنه الاختيارات والإرادات وصارت إرادته عين إرادته تعالى ، يستحلي الشدائد ويتلذذ بها كما يستحلي الشهوات ويتنعم بها ، يشهد محنه في منحه ويطفئ ناره بنوره ، إن وقع في نيران المصائب وتعرّضت له الأكوان قائلة له : أَلَكَ حاجة ؟ يقول لها : أمّا إليك فلا ، وأمّا إليه فبلى ، فإذا عادت وقالت له : سله يقول لها : حسبي من سؤالي علمه بحالي ، فمثل هذا تعود عليه نار المحن بردا وسلاما ، فإن هذا هو المقام الإبراهيميّ الذي أمرنا باتباعه كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ فهو المخاطب والمراد هو وورثته ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ ، ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾

فمن حصل له مقام المتابعة حصل له مقام المحبة ، فأي شيء يستغرب منه وكل ما يشاهد منه إنما هو من الله وإنما ذلك العبد مَظْهَرٌ من مَظاهره تعالى **لخروج ذلك العبد عن أفعاله وأوصافه ووُجُوده ، فلا يرى فعلا إلا فعل مولاه ولا وصفا إلا وصف مولاه ولا وجودا إلا وجود مولاه .**

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي قدس سره : لن يصل العبد إلى الله تعالى حتى تفني أفعاله في أفعاله وأوصافه في أوصافه وذاته في ذاته . قاله الشيخ ابن علان قدس سره في « شرحه ميلق ١٢ » .

وقال في « الرشحات » : قال الشيخ عبيد الله أحرار ﷺ : إذا جعل الطالب نفسه خاليا بأمر المرشد ومدده عن كل ما يكون مانعا من محبة الشيخ الذي تمكّن في قلبه يصير حينئذ قابلا للفيض الإلهيّ ومحلا للوارد الغير المتناهي ولا قصور في الحقيقة في الفيض الإلهي وإنما القصور في طرف الطالب ، فإذا رفع الطالب موانع الفيض عن نفسه يطلع له حال البتة بواسطة روحانية المرشد ويكون ذلك الحال سبباً لحيرته ولا يمكن إدراك وجوده وحقيقته بوجه من الوجوه كما قيل : ربّ زدني تحيُّرًا فيك

وحكمة وجود الاختيار في الإنسان كثيرة ولما كانت الموانع الطبيعية أصلا في الإنسان ينبغي أن يرفع تلك الموانع بقوة الاختيار والجهد الكثير ، والملائكة وإن كانوا مجبولين على الطاعة ومعصومين عن المخالفة قصدا وفعلا لكنهم في الخشية والخوف ، والاعتبار التام في السعادة والشقاوة والتراقي والتنزل إنما هو للاختيار . « رشحة » .

قال ﷺ : وقال شيخ المشائخ شمس الدين حبيب الله جانجانان ﷺ : إن العمل بالعزيمة وتحرّي طريق التقوى في غاية التعذر في هذا الوقت لفساد المعاملات ، وكأنّ العمل بموافقة الشرع الشريف صار موقوفا فإن تيسر العمل بموافقة الرواية الفقهية وطبق ظاهر الفتوى مع اجتناب محدثات الأمور والبدع فهو غنيمة في هذا الزمان .

وقال ﷺ : ينبغي للسالك أن يعمّر أوقاته ويستغرقها بالذكر والعبادة وحفظ مدركته عن الالتفات إلى السوى وصون سره وهمته عن التوجه إلى غير مفهوم لفظ الجلالة حتى تكون ملكة حضوره راسخة .

وقال ﷺ : إن حاصل هذه التكلفات هو تهذيب الأخلاق على وفق مكارم صفات النبي ﷺ فإنه لعلى خلق عظيم وقد ورد في الحديث : « بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق »، وتنقص الصفات البشرية من تكرير النفي والإثبات . ذكره شيخنا محمد مراد ﷺ ونفسي فداه في « تعريبه » .

وقال أيضا في فصل مناقب الشيخ محمد مظهر ابن الشيخ أحمد سعيد ﷻ : ومن أنفاسه النفيسة قال : إن حصول هذه الحالات العالية والوصول إلى الكمالات السامية منوط بمحبّة الشيخ المقتدى المفرطة والعقيدة الراسخة في المرشد المهتدى التي هي من جملة مواهب الحق سبحانه وتعالى حتى يحصل للسالك **نقد** الفناء في الشيخ الذي هو مقدمة الفناء المطلق ، فمن شاهد في نفسه شَمَّة منها ينبغي أن يغتنمها ويجتهد في إتمامها بالمحافظة على الآداب ، ولذلك صارت وصية المشائخ الكبار بحفظ حرمة المرشد مقدمة على الكل فإنه أصل جميع أركان الطريقة وأساسها انتهى .

وقال أيضا ﷻ : إنما يصير الطالب مريدا لله تعالى إذا كان جميع مراداته مسلوبا عنه سوى رضى الله تعالى وكان تحت قضائه تعالى كالميت بين يدي الغسّال ، أقول هذا ناظرا إلى ما قيل :

تَكونُ مُريداً ثُمَّ فيكَ إرادَةٌ إذا لَمْ تُرِدْ شَيئاً فَأَنْتَ مُريدُ

وقد نقل عن سيد الطائفة الجنيد ﷻ أنه قال : المريد الصادق من لا يكتب كاتب شماله شيئا مدة عشرين سنة ، وليس معنى هذا الكلام أن المريد الصادق يكون معصوما لا يصدر عنه جريمة أصلا في تلك المدة ، **بل المقصود أنه وإن صدرت عنه جريمة لكنه يتداركها قبل أن يكتب كاتب شماله ويدفعها عن نفسه بوجه من الوجوه** .

ومن كلام جعفر الصادق ﷺ : من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق . قيل له : وما ذاك ؟ قال : الراحة في الدنيا . فينبغي للمريد الصادق أن لا يلتفت لذلك ويجدّ السيرَ حتى تطلع عليه شمس المعرفة فينمحي عنه وجود الأغيار وتزول عنه الأكدار بمشاهدة العزيز الغفار « شرح الحكم »للنفزي

فلْيَتَّقِ المريد ما يرد عليه من الصبر والرضا والاستسلام عند جريان القضاء فعن قريب إن شاء الله يتجلى الأمر ويستوجب من الله جزيل الأجر والثواب ، والله تعالى ولي التوفيق .

وقال أيضا ابن عباد النفزي ﵁ في « شرح الحِكم » ٢٤ : للمريد بداية ونهاية ، فبدايته حال سلوكه ونهايته حال وصوله ، فمن صحّح بدايته بالرجوع إلى الله تعالى والتوكل عليه والاستعانة به كما ذكرنا أفلح وأنجح في نهايته وكان وصوله إلى الله تعالى فأمن عليه من الرجوع والانقطاع .

قال بعض المشائخ : ما رجع من رجع إلاّ من الطريق ولو وصلوا ما رجعوا ومن لم يصحّح ذلك بما ذكرناه من تعلّقه بالحق وفراره إليه من نفسه والخلق انقطع ورجع من حيث جاء .

وقال بعض العلماء : من ظن أنه يصل إلى الله تعالى بغير الله تعالى قطع به ومن استعان على عبادة الله تعالى بنفسه وكل على نفسه ، فعلى العبد السالك أن يجعل معتمد أمره الاستعانة بالله تعالى على ما هو بسبيله ولا يرى حول نفسه وقوته في كثير من عمله ولا قليله ، فهذا هو أساس السلوك الذي يُبنى عليه قواعده . اهـ .

و قال سيدي علي وفا ﵁ : من ليس له أستاذ ليس له مولى ، ومن ليس له مولى فالشيطان أولى به ، والمريد من تحقق بمراده في عين أستاذه ومن وافق أستاذه في أفعاله طابقه فيما أخبر به من معارفه ، ومن خالفه في أفعاله فقدَ المطابقة بتوهم معاني أقواله ، ومن كان مع أستاذه بلا إياه كان أستاذه معه بالله ، والمبعود من توهم أستاذه مخبرا عن غيره ومتكلما بسواه ، والمريد الصادق عرش لاستواء رحمانية أستاذه .

وقال ﵁ : كتب الله على نفسه أنه لا يدخل قلبا فيه سواه ولا يظهر لعين رأت غيره فى مرآة .

وقال ﵁ : لفلاح المريد مع أستاذه ثلاث علامات : أن يحبه بالإيثار ويتلقى منه كل ما سمعه بالقبول ويكون معه في شؤونه كلها بالموافقة ، ومن تقرب من أستاذه بالخدم تقرب الله إلى قلبه بواسطة الكرم ، ومن آثر أستاذه على نفسه كشف الله له عن حضرة قدسه ، ومن نزّه أستاذه عن النقائص منحه

الله بالخصائص ، ومن احتجب عن أستاذه طرفة عين أوبقه الله في موابق البين ، وما بين المريد وبين مشاهدة أستاذه إلا أن يجعل مراده بدلا عن مراده ، ومن لم ينهه أستاذه عن نقائصه لم يفرح بحضرة خصائصه ، ومن لم يَسْتَحْلِ مُخاصَمة[1] الأستاذ لم يجد أبداً عروس الوداد ، وتبّا لمريد جمح طبعه عن الدليل لقد ضلّ سواء السبيل ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

وقال سيدي ابن زيني دحلان ﷺ نقلا عن سيدي علي وفا ﷺ أيضا في « تقريبه » : روح المتعلّم من روح المعلم وعقل المستفيد من عقل المفيد فرع من أصل ، وأيُّما مريد أراد الكمال بغير أستاذه فقد أخطأ طريق المقصود لأن الثمرة لا تكمل إلاّ بوجود النواة التي هي أصلها ، فكذلك كلّ مريد لا يكمل إلا بوجود أستاذه متعينا عنده بحقيقة نفسه وروحه وقلبه وفؤاده .

وقال ﷺ : من تجمّل بصحبة المعرضين عن ربه فقد نادى على نفسه بأنه مّمن أهانه الله ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ . وأقبِلْ بكليتك علينا تغنم ، وكل ما أغفل قلبك عن ربك فهو عدو لربك ، فمن أعرض عنه وتبرأ إلى الله تعالى منه وتوجه بقلبه وجسده لربه فهو الأوّاه الحليم ، فانظر حالك فإن صديق العدو عدو ، فلا تصحب غير من يحبه ربك ، وهو من يذكّرك بربك .

وقال ﷺ : ما دام المريد تحت حكم أستاذه فترقيته دائمة ، فإن خرج عن حكمه اتكالا على ما حصل له منه قولا وفعلا فهو كالحجر المرفوع إلى السماء ما دامت تلك القوة الرافعة مصاحبة له فهو متعال ، ومتى فتر انحط إلى الأرض ، فكن تحت أستاذك تغنم .

وحكي أن أبا تراب النخشبي ﷺ كان معجبا ببعض المريدين فكان يدنيه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجدته ، فقال له أبو تراب يوما : لو رأيت أبا يزيد ، فقال : إني مشغول عنه ، فلما أكثر عليه أبو تراب من

« ١ » المخاصمة من الخُصم وهو العدل

قوله « لو رأيت أبا يزيد » هاج وجد المريد فقال : ويحك ما أصنع بأبي يزيد فقد رأيت الله تعالى فأغناني عن أبي يزيد ، فقال أبو تراب : فهاج طبعي ولم أملك بنفسي فقلت : ويلك تغتر بالله ، لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله تعالى سبعين مرة ، قال : فبهت الفتى من قوله وأنكره فقال : وكيف ذلك ؟ قال له : ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره ؟ فعرف ما قلت فقال : احملني إليه ، فذكر قصة قال في آخرها : فوقفنا على تل ننتظر ليخرج إلينا من الغيضة وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع ، قال : فمر بنا وقد قلب فروته على ظهره فقلت للفتى : هذا أبو يزيد فانظر إليه ، فنظر الفتى فصعق فحركناه فإذا هو ميت ، فتعاونا على دفنه ، فقلت لأبي يزيد : يا سيدي نظره إليك قتله ، قال : لا ولكن كان صاحبكم صادقا واسْتَكَنَّ في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه ، فلما رآنا انكشف له سر قلبه فضاق من حمله لأنه في مقام الضعفاء المريدين ، فقتله ذلك . انتهى .

واعلم أيها الفقير الصادق أن المريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبته وتأدّب بآدابه يسري من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج وكلام الشيخ يلقح باطن المريد . اهـ .

ويعتقد المريد أن الشيخ باب فتحه الله تعالى إلى جناب كرمه منه يدخل وإليه يرجع ، وللشيخ باب من المكالمة والمحادثة في النوم واليقظة فلا يتصرف الشيخ في المريد بهواه ، فهو أمانة الله تعالى عنده ويستغيث إلى الله تعالى لحوائج المريد كما يستغيث لحوائج نفسه ومهمات دينه ودنياه ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾[1] فإرسال الرسول يختص بالأنبياء . . إلخ ، والكلام من وراء الحجاب بالإلهام والهواتف والمنام وغير ذلك للشيوخ .

« ١ » الآية بكمالها : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ٥١﴾

واعلم أن للمريدين مع الشيوخ أوان ارتضاع وأوان فطام ، وقد سبق شرح الولادة المعنوية فأوان الارتضاع أوان لزوم الصحبة ، والشيخ يعلم ذلك ، فلا ينبغي للمريد أن يفارق الشيخ إلا بإذنه ، قال تعالى تأديبا للأمة : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ ، فلا يأذن الشيخ للمريد في المفارقة إلا بعد علمه بأن آن له أوان الفطام وأنه يقدر أن يستقل بنفسه ، والاستقلال بنفسه أن يفتح له باب الفهم من الله تعالى ، فإذا بلغ المريد رتبة إنزال الحوائج والإلهام بالله والفهم من الله تعالى بتعريفات وتنبيهات منه سبحانه وتعالى لعبده السائل المحتاج فقد بلغ أوان فطامه ، ومتى فارق قبل أوان الفطام يناله من الأعلال في الطريق بالرجوع إلى الدنيا ومتابعة الهوى ما ينال المفطوم لغير أوانه في الولادة الطبيعية وهذه التلازم بصحبة المشائخ للمريد الحقيقي . « عوارف » من الباب ١٢ .

وقال في « الرشحات » ٧٠ : واللازم على الطالب أن يكون بلا اختيار في جميع أموره الدينية والدنيوية و الكلية والجزئية بالنسبة إلى المرشد . اهـ

وقال شيخ شيخنا ﷺ في « جامعه » ١٩٦ : ومن صفة المريد أن لا يفتر آناء الليل وأطراف النهار فيكون ظاهره مجاهدا وباطنه مكابدا ، ومن صفته التحبب إلى الله تعالى بالنوافل والإخلاص في نصحه الأمّةَ والأنس بالخلوة والصبر على مقاساة الأحكام والإيثار لأمر الله تعالى والحياء من نظره وبذل المجهود فيما يحبه الله ويرضاه وطلب كل سبب يوصل إليه والقناعة بالخمول وعدم القرار إلى أن يصل إليه تعالى .

وقيل : أول مقامات المريد إرادة الحق تعالى بإسقاط إرادته فإن لطفه يقوم بتربيته وتجذبه من عنان تصرفه ليتصرف الحق فيه ، فيكون به يبصر وبه يسمع وبه يمشي وبه ينطق وبه يبطش كما جاء في الحديث القدسي .

وقيل : من علامة المريد أن يكون أكله فاقة وكلامه ضرورة ونومه غلبة .

وقيل : المريد إذا سمع شيئا من صفات القوم وأحوالهم فعمل به صار ذلك حكمة في قلبه إلى آخر عمره ينتفع به هو ومن يسمع منه ، وإذا لم يعمل به كان حكاية يحفظها أياما ثم ينساها .

وقال الجنيد ﷺ : الحكايات وأحوال العارفين جند من جنود الله تعالى يقوى بها قلوب المريدين دليله قوله تعالى للنبى عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾

وقال أيضا : المريد الصادق غني عن علم العلماء .

وقيل : آفات المريد التزوج وكتابة الحديث والسفر .

وقيل : أشد شيء على المريد معاشرة الأضداد .

وقيل : متى رأيت المريد يشتغل بالرخص أو بالكسب فاعلم أنه لا يجيئ منه شيء ، وأما عند النقشبندية بعد الحضور لا يضر .

وقال صدر الدين القنوي رحمه الله في « رسالة التوجه الأعلى » : اعلم أن لنا مستندا في وجودنا وهو خالقنا وخالق كل شيء ولا شك أنه أرحم منا وأشرف وأكمل سيما من حيث افتقارنا إليه في استفادة وجودنا منه أولاً ، وفي إمداده إيانا بما به بقاؤنا ونحتاج إليه في تخليص نفوسنا من الشقاء وموجباته وأسبابه وتحصيلنا أسباب الفوز بالسعادة ومقام القرب منه ومعرفة كيفية قرع باب الحضرة التي بالدخول فيها تحصل السعادة القصوى ، فإنه الغني عنا وعن مثلنا وافتقرنا إليه ذاتاً وصفاتٍ ، فإن النقص والفقر صفاتنا كما أن الفضل والغنى والكمال الذاتي له ومن صفاته ، وقد أخبرنا على ألسنة سفرائه أنه خلقنا لعبادته وأراد منا التحقق بعبوديته ومعرفته وأمرنا بتوحيده ورغّبنا في الخلوة وطلب السعادة بالإقبال عليه والتوجه الأخلص الخفي والجلي إليه ، وحذرنا من النسيان والغفلة والاغترار بتساويل النفس الأمارة بالسوء ووساوس الشيطان ، وندبنا للتعرض لنفحات جوده ، ووعدنا بالإجابة إذا دعوناه وبذل لنا المنحة الخالصة المخزونة في غيب خزائن جوده ، فوجب على كل عاقل

طالب خلاص نفسه راغب في تحصيل مقام القرب في المراتب العلية من حضرات قدسه أن يهتم ويعزم على التوجه إليه تعالى بقلبه الذي هو أشرف ما فيه لأنه المتبوع لما اشتمل عليه نسخة وجوده من صور العالم ومعانيه ولأنه كما أخبرنا محل نظر الحق ومِنَصَّة تجليه ومهبط أمره ومنزل تدليه . انتهى « جامع الاصول » .

قال الشيخ العارف ابن بنت ميلق ﷺ في ٩ :

لَهُ الشَّهادَةُ غَيبٌ وَالغُيوبُ لَهُ شَهادَةٌ وَالفَناءُ المَحْضُ يُبْقيهِ

أي للسالك المذكور الشاربِ من شراب القوم أصفاهُ ، المستغرقِ في محبته لمولاه الشهادة غيب والغيوب شهادة ، وتفصيل ذلك وإيضاحه أن السالك طريقه الإعراض عن السوى والإقبال على المولى الذي هو معنى لا إله إلا الله ، فإذا قطع علائقه الظاهرة والباطنة وأقبل بكليته على الذكر الذي أخذ من شيخه بآدابه فيفنى عن الشهادة وهو عالم الملك ويغيب عنها لدخوله في غيب عالم الملكوت ، فتصير الشهادة أي عالمها غائباً عنه ، وعالم الغيوب الذي هو عالم الملكوت شهادة له ، أي معاينا له يراه بعين بصيرته ، فعالم الملك ما يرى بعين البصر وعالم الملكوت ما يرى بعين البصيرة ، وهذا هو الفناء الأول ، ولا يزال في ذكره ووِرده لا يفتر عنه فإنه كما أن الوقوف مع عالم الملك حجاب كذلك الوقوف مع عالم الملكوت حجاب ، إلا أن الأول حجاب ظلماني وهذا حجاب نوراني ، فلا يزال السالك في سيره حتى يقطع هذا العالم أيضا .

وأكثر ما يحتاج إلى المشائخ في قطع هذا الحجاب ، فإنه عند ظهوره ربما ظن السالك أنه وصل إلى المقصود فيسكن إليه فيحجب به وينقطع عنده ، فإذا جاوز عالم الملكوت الذي هو عالم القلب باستقامته دخل في عالم الجبروت الذي هو عالم الروح ، وهذا العالم غيب بالنسبة إلى عالم الملكوت فيصير الملكوت له غيبا وعالم الجبروت شاهدا ، كما تقدم في عالم الملك

والملكوت ، وهذا هو مبدأ الفناء الثاني ، ولايزال مستمرا في سلوكه ملازما على إقباله حتى يدخل في حضرة اللاهوت وهو عالم السر ، وهذا هو كمال الفناء الثاني ويسمى فناء الفناء ، فيفنى حينئذ عن الخلق ويفنى عن فنائه ، وهذا منتهى سير السالك وهو الفناء المحض الذي أشار إليه الشيخ ابن بنت ميلق ﷺ ، ومن هنا يرجع إلى عالم البقاء والفرق ويصلح بعد ذلك للإرشاد ، فمن لم يستكمل مقام الفناء لم يحصل له مقام البقاء وكذا ، وكل ذلك من نتائج الذكر المأخوذ من المشائخ مع رعاية الآدب المعروفة عندهم .

وما أحسن ما قيل في هذا المعنى :

ذِكْرَ الإلـهِ الْـزَمْ هُديـتَ لِذِكْرِهِ	فَبِـهِ القُلـوبُ تَطيْـبُ والأفْـواهُ
وَاجْعَـلْ حُـلاكَ تُقاهُ إنَّ أخـا الحِجا	يا صَـاحِ مَـنْ كانَتْ حُـلاهُ تُقاهُ
وَاسْـتَعْمِلْ التَّفْكيـرَ فـي مَلَكوتِهِ	مُسْتَغْرِقـاً في الكَشْـفِ عَـنْ مَعْناهُ
وَلْتَخْلَـعِ النَّعْليْـنِ خَلْـعَ مُحَقِّقٍ	خَـلاّ عَـنِ الكَوْنَيْـنِ فـي مَسْراهُ
وَلْتَفْـنَ حَتـَّى عَـنْ فَنائِــكَ إنَّهُ	عَيْــنُ البقـاءِ فَعِنْـدَ ذاكَ تَـراهُ

انتهى

وقال سيدي علي وفا ﷺ : المريد عين من عيون أستاذه بالنسبة إلى أستاذه ، والأستاذ حقيقة وجود المريد بالنسبة إلى المريد والوجود في الكل واحد محيط ، ولذلك يتحقق المريد بأستاذه في معاني الكمال وجودا ، ويتحقق الأستاذ بمريده في مدارك المتعرفين شهودا ، ومن ثم قال السيد الكامل لمريده الكامل : أنت مني وأنا منك . « تقريب » ٧١ .

وقال جعفر الصادق ﷺ : من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق ، فقيل له : وما ذاك ؟ فقال : الراحة في الدنيا !

فينبغي للمريد الصادق أن لا يلتفت لذلك ويجدَّ في السير حتى تطلع عليه شمس المعرفة فينمحي عنه وجود الأغيار وتزول عنه الأكدار بمشاهدة العزيز الغفار .

وقد جعل الله سبحانه وتعالى لكل نبي عدوا من المجرمين ليكون ذلك رفعا لدرجاتهم ، وكذلك الكاملون من المؤمنين لزيادة الصفاء لقلوبهم بإقبالهم على الله تعالى عند حصول المزعجات من أعدائهم فيزدادون قربا إلى الله تعالى ، فالدنيا وما فيها بمنزلة اللعب الذي يتعاطاه الصبيان بمعنى أن جميع ذلك ليس فيه ما يعتمد ، فصاحبها راكن إلى ما لا محصول له ، وهي دار همّ وغمّ وبلاء وفتنة ، فليتق المريد ما يرد عليه من ذلك بالصبر والرضاء والاستسلام عند جريان القضاء . « منه » ١٧٣ .

وقال في « روح البيان » في سورة الانفطار : وأحسن الحسنات (لا إله إلا الله) ثم بر الوالدين وبر التلامذة للأساتيذ وبر أهل الإرادة للشيوخ ، كما قال في « فتح الرحمن » .

وقال أيضا في أول سورة الصف في قوله تعالى ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ : وفي « عرائس البقلي » : حذر الله المريدين أن يظهروا بدعوى المقامات التي لم يبلغوا إليها لئلا يقعوا في مقت الله تعالى وينقطعوا عن طريق الحق بدعوى الباطل ، وأيضا حذر الأكابر عن ترك بعض الحقوق وعدم الوفاء بالعهود فإن من لم يأت بالحقوق لم يصل إلى الحق الحقيق وحق الحقيقة . ثم قال : أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : يا ابن مريم عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني .

وقال أيضا في أول سورة الحجرات : ومن شرط المؤمن أن لا يرى رأيه وعقله واختياره فوق رأي النبي ﷺ والشيخ ، ويكون مستسلما لما يرى شيخه ورسوله ﷺ مصلحة له فيه ، ويحفظ الأدب في خدمته وصحبته ، ومن أدب المريد أن لا يتكلم بين يدي شيخه فإنه سبب سقوطه من أعين الأكابر .

قال سهل رحمه الله : لا تقولوا قبل أن يقول ، وإذا قال فاقبلوا منه منصتين له مستمعين إليه ، واتقوا الله في إهمال حقه وتضييع حرمته ، إن الله سميع بما تقولون عليم بما تعملون . انتهى . « روح البيان »

وقال الشيخ علي الخواص ﷺ : يجب على الفقير أن يذكر لشيخه أمراضه الباطنة وإن كانت قبيحة ليدله على طريق شفائه منها ، وإن لم يفعل وترك ذلك حياء طبع فربما مات بدائه لأن حياء الطبع مذمومة لكون الإفصاح عن المرض فيه زوال رياستها وذمها . « تقريب » ٩٤ .

وذكر في « العقد النفيس » في ٦٤ : قيل : إن رجلا من المغرب نزل على بعض السودان ضيفا فخرج به في بعض الأيام إلى البرية ، وإذا ملك السودان يتمشى بعساكره وخيله فلما بلغ من مرآهم ما يتميز بدن الأسود من الأبيض ترجل ثم بقي يمشي راجلا حتى جاوزهم بمسافة ثم ركب ، فقال الأسود للمغربي : أتعرف لمن ترجل الملك ؟ قال : لا أدري ، قال : لما رآك أبيض نزل تأدبا مع النبي ﷺ لكونه أبيض !

فانظر إلى هذا التأدب يترجل من فوق فرسه لأجل اللون الذي وافق لون النبي ﷺ . « منه »كذا في « ابن بطوطة » .

وقال سيدي أحمد بن زيني دحلان ﷺ في « تقريبه » : مرشدك الذي يهديك الله به لما هو الأولى بك عند ربك هو حضرة ربك به تقول وبه تفعل ، ومهما دعتك نفسك إليه فلا تعجل به قبل معرفة رضائه به ، ومهما دعاك إليه فبادر إليه ولا تتوانى فيه حتى ترضى به نفسك فإن فوزك في امتثال أمره لا في شهوتك ، ونواطق الأستاذين مطالع شموس حقائقهم . انتهى .

وقال : فَضْل مرشدك إلى الله على كل ما ترجوه من إمداده كفضل الله على عباده ، فإن مرشدك إلى الحق هو عين الحق التي ينظر بها إليك ووجهه الذي يقبل به عليك ، فاعرف والزم وانظر ماذا ترى . اهـ .

وقال ﷺ : لا يظفر بأستاذ إلا مخصوص عند الله لأنه يوصلك إلى الله ، فسلم له إن وجدته تسلم وتغنم ، فأستاذك بالنسبة إليك هو فضل الله عليك ورحمته بك ، فتحققك به خير من جميع ما استفدته قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون . انتهى

وقال أيضا : أقل حال المريد مع أستاذه في حياته أن يكون لأستاذه كالأم لولدها ، يؤثره بالراحات ويحمل عنه المشقات ويحبه على جميع أحواله ، وهكذا يكون الأستاذ لمريده في معنوياته ، فافهم فإن إمام هدايتك يهتم بأمرك عند ربك أكثر من اهتمامه بنفسه ، فهل يرحمك هكذا أب أو مألوف سواه ، وتأمل قول موسى عليه السلام عن عصاه ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ لم يقل أحتط بها حاجتي من الثمر وإنما ذكر أمر رعيته ذكْرَ شكر في حضرة المنعم ، وما قال أتوكأ عليها إلا إظهارا للضعف والعجز ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ ، إنما أجمل ما له فيها من المآرب كي لا تحصرها مرتبة عددية فيكون إمدادها محصورا ، فهكذا إذا لم يَعُدّ أستاذك خِدَمَكَ فاعلم أنه أراد أن يجبرك من كسر نقص الحصر إلى كمال الإطلاق ، إنَّما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ، فتأمل ذلك والله يعصمك .

وقال في « رشحات عين الحياة » : العارف بالله علي بن حسين الهروي قدس سره عن شيخه عبيد الله أحرار قدس سره : إن التعلق بالمرشد وإن كان تعلقا بالغير واجب النفي في الأخير لكنه في الأول سبب الوصول ، ونفي التعلق عما سوى المرشد من اللوازم ، وينبغي للطالب أن يطلب وجوده ورضاه وينفي ما سواه تعالى في محله يعني في الانتهاء فإن النفي في غير محله ليس بمفيد .

ومن كلام الإمام الرباني الشيخ أحمد الفاروقي قدس سره : الطالب إنما يصير مريدا لله تعالى إذا سلب جميع المقاصد والمرادات من الصدر سوى رضاه سبحانه وتعالى ، ويكون كالميت بين يدي الغسال كما ذكرنا هذا القول غير مرة ، ويتضرع إلى الله تعالى سائلا رضاه وعدم إبعاده لحظة ، ويكون **اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك** أكثرَ أوراده .

ويقول قدس سره : إن الله تعالى قادر على أن يجعل هذا العبد فائزا بأقصى ما يتمناه قلبه وأنا دائما أدعو بهذا الدعاء : **كن لي ربي كما كنتَ لمحمد** صلى الله عليه وسلم **واجعلني لك كما جعلت محمدا** صلى الله عليه وسلم ولساني رطب من هذه القطعة :

هَوائـي حَياتـي فِي هَـواكَ مُؤَيدا ... وَكَوْني تُراباً تَحْتَ أَقْدامِكَ العُلى
وَقَصْدي مِنَ الكَوْنَيْنِ أنْتَ وَمُنْيَتـي ... حياتي ومَوْتي فِيكَ يَا مَنْ تَفَضَّلا

إلهي ومولاي ليس لي عمل قابل لقبولك ، وكاتب اليمين معطل وفارغ وكاتب الشمال في العمل مبالغ ، وأنا من الرأس إلى القدم غريق في بحر العصيان ومحبوس في سجن الطغيان . « المقامات السعدية » ١٣٤ .

وقال الشيخ عبيد الله أحرار ﷺ : إن المكر الإلهي على نوعين : نوع بالنسبة إلى العوام ونوع بالنسة إلى الخواص ، فأما الذي هو بالنسبة إلى العوام فهو إرداف النعمة مع التقصير في الخدمة ، وأما الذي هو بالنسبة إلى الخواص فهو إبقاء الحال مع ترك الأدب في الأفعال .

وقال ﷺ : من وقعت في قلبه دغدغة« ١ » هذه الطريقة وشوش خاطره في ذلك الأثناء دغدغة التأهل ينبغي له أن يستكثر من الاستغفار ، فإن لم تندفع بذلك فليختر مكانا بعيدا عن طائفة النسوان ، فإن لم ترتفع بذلك فليداوم على الصيام وتقليل الطعام وليعالج نفسه لتسكين قوته الشهوية ، فإن لم تندفع بذلك فليطف فيما بين الأحياء وليستعن من بواطن أرباب القلوب وليخدمهم فلعلهم يدفعون ثقلها ويرفعونها منه ولا يضيعونها تحت أثقالها .

وقال أيضا : إن التزوج مناسب للأنبياء والأولياء فإنهم لا يحتجبون عن الحق سبحانه وتعالى مع وجود ذلك ، وأيضا هو مناسب للعوام كالأنعام فإنهم يكملون به المرتبة الحيوانية ، وأما المتوسطون بين مرتبة الأولياء والعوام وفيهم تمني الطريقة فلا يناسب لهم التزوج أصلا ، فإن خروج نفس واحد مع الحضور بالله أفضل من ألف نفس من الأولاد ، فإن فيه ألوفا من الفائدة والنفع وفي الأولاد ألوف من الفتنة والضرر .

وقال ﷺ : إن أعطِيتُ خمسمائة سنة من العمر فرضا وأَصرِف جميع ذلك في الاستغفار لا أَقدِر بذلك على تدارك ذنب صدر مني ، وذلك الذنب هو التزوج . انتهى .

« ١ » أي الطعن في الطريقة

وقال الشيخ العارف بالله علي الكاشفي الهروي ﷺ في تأليفه « الرشحات » : فإن خطر على قلب شخص أن التزوج سنة محمودة وردت في مدحه آيات قرآنية وأحاديث نبوية صحيحة فكيف يصح نفيه ذلك ؟ فالجواب : إن النفي هنا ليس على الإطلاق ، بل هو بالنسبة إلى بعض الأشخاص اللائق بحالهم التجرد الظاهري والباطني ، ولا يخفى أن ما هو مناسب لحال الطالبين وشأن المريدين بالنسبة إلى كل زمان يجري على لسان الأولياء أهل الإرشاد لكونهم من ورثة العلوم الخاصة المحمدية على مصدرها الصلاة والسلام ، ولما كان المناسب لمبتدئ الطريق في هذا الزمان طريقة التجرد وشيمة التفرد فلا جرم أشار حضرة شيخنا الذي هو الحكيم الإلهي وجامع الحكم الغير المتناهي إلى التجرد وأمر بالاجتناب عن التأهل فتأَمَّلْ ولا تَتَأَهَّلْ . انتهى ٢٠١ .

وقال الإمام الرباني مجدد الألف الثاني ﷺ في « مكتوباته » : اعلم أنه ينبغي للطالب أن يعرض بقلبه عن جميع الجهات وأن يتوجه به إلى شيخه وأن لا يشتغل بالنوافل والأذكار مع وجود الشيخ بلا إذنه ، ولا يلتفت في حضوره إلى غيره بل يجلس لديه متوجها بكليته إليه حتى لا يشتغل عنده بالذكر أيضا إلا أن يأمره به ، ولا يصلي في حضوره غير الفرائض والسنن .

ونقل عن سلطان هذا الوقت أن وزيره كان قائما عنده فالتفت الوزير في ذلك الوقت اتفاقا إلى ثوبه وأصلح إزراره فوقع نظر السلطان عليه في هذا الحال فرآه متوجها إلى غيره فقال له بلسان العتاب : أنا لا أقدر أن أهضم هذا الفعل ! تكون وزيري وتلتفت في حضوري إلى غيري وتشتغل بإصلاح أزرار ثوبك !

فينبغي التأمل إذا كانت رعاية الآداب الدقيقة لازمة في وسائل الدنيا الدنيئة ، تكون رعاية الآداب لازمة على الوجه الأتم في وسائل الوصول إلى الله ، ومهما أمكن لا يقوم في محل يقع ظله على ثوب شيخه أو على ظله ولا يضع رجله في مصلاه ولا يتوضأ في متوضاه ولا يستعمل ظروفه الخاصة به ولا يشرب ماء ولا يأكل طعاما ولا يكلّم أحدا في حضوره ، بل لا يكون متوجها

إلى أحد ، ولا يمد رجله عند غيبة شيخه إلى جانب هو فيه ولا يرمي بزاقه إلى ذلك الجانب ، وكل شئ يصدر عن شيخه يعتقده صوابا وإن لم ير صوابا في الظاهر فإنه يفعل ما يفعله بطريق الإلهام والإذن ، فلا يكون للاعتراض مجال على هذا التقدير وإن تطرق الخطأ إلى إلهامه في بعض الصور ، فإن الخطأ الإلهامي كالخطأ الإجتهادي لا يجوز فيه الملامة والاعتراض .

وأيضا أن المريد لا بد من أن يحصل له محبة الشيخ وكل ما يصدر عن المحبوب يكون محبوبا في نظر المحب فلا يكون للاعتراض مجال .

وليقتد بشيخه في الكلي والجزئي سواء كان في الأكل والشرب أو اللبس أو النوم أو الطاعة ، وينبغي أن يصلي الصلاة على طرز صلاته وأن يأخذ الفقه من عمله . شعر :

مَنْ كانَ فيْ قَصْرِهِ الحَسْناءُ قَدْ فَرَغا   مِـنَ التَّـنَـزُّهِ فـي البُسْتانِ والمُـرُجِ

ولا يترك في نفسه مجالا للاعتراض على حركاته وسكناته أصلا وإن كان الاعتراض مقدار حبة خردلة فإنه لا نتيجة للاعتراض غير الحرمان ، وأشقى جميع الخلائق وأبعدهم عن السعادة الذين يرون عيوب هذه الطائفة نجانا الله سبحانه وتعالى من هذا البلاء العظيم .

ولا يطلب من شيخه الكرامات وخوارق العادات وإن كان هذا الطلب بطريق الخواطر والوساوس ، فهل سمعت قط أن مؤمنا طلب من نبيه معجزة ؟ ! وإنما طلبها الكفار وأهل الإنكار . شعر :

المُعْجِزاتُ مُفيدَةٌ قَهْرَ العِدا   وَنتيجَةُ التَّقْليدِ ذاكَ الاقْتِداء

فالمعجزات مفيدةٌ الإيمان بل قد يجذب التقليد نحو الاهتداء ، فإن عرضت لخاطره شبهة يعرضها على شيخه من غير توقف فإن لم ينحل فلير التقصير من نفسه ولا يجوز عود منقصة أصلا إلى جانب شيخه ، فإن وقعت عليه واقعة لا يكتمها عن شيخه ولا يطلب تعبير الوقائع منه ، ويعرض عليه أيضا ما انكشف له من التعبير ويطلب منه تمييز صوابه عن خطأه ولا يعتمد

على كشوفه أصلا فإن الحق ممتزج بالباطل في هذه الدار والصواب مختلط بالخطأ ، ولا يفارقه بلا ضرورة ولا إذن منه فإن اختيار الغير وتفضيله عليه مناف للإرادة ، ولا يرفع صوته فوق صوته ولا يتكلم معه برفع صوته فإنه سوء أدب ، وكل فيض وفتوح يرد عليه فليعتقد أنه بواسطة شيخه فإن رأى في الواقعة أن الفيض يرد عليه من مشائخ أخر فليره أيضا من شيخه وليعلم أن الشيخ لما كان جامعا للكمالات والفيوضات وصل إليه منه فيض خاص مناسب لاستعداده الخاص الملائم لكمال شيخ من الشيوخ ، أعني الذي ظهرت منه صورة الإفاضة وأن لطيفة من لطائف شيخه لها مناسبة بذلك الفيض ظهرت في صورة ذلك الشيخ فتخيل المريد تلك اللطيفة بواسطة الابتلاء شيخا وظن أن الفيض منه وهذه مغلطة عظيمة ، حفظنا الله تعالى من زلة الأقدام ورزقنا الاستقامة على اعتقاد الشيخ ومحبته بحرمة سيد البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام .

وبالجملة الطريق كلها آداب مثل مشهور ، لا يصل العاري عن الآداب إلى الله تعالى ، فإن رأى المريد نفسه مقصرا في رعاية بعض الآداب ولم يبلغ حد أدائها كما ينبغي ولم يقدر أن يخرج عن عهدتها بالسعي فهو معفو عنه ، ولكن لا بد من الاعتراف بالتقصير ، فإن لم يراع الآداب عياذا بالله سبحانه وتعالى ولم ير نفسه مقصّرا فهو محروم من بركات هؤلاء الأكابر . شعر :

مَنْ لَمْ يَكُنْ نَحْوَ السَّعادَةِ مُقْبِلا فَشُهـودُهُ وَجْهَ النَّبِيْ لا يَنْفَعُـهْ

انتهى جـ ١ ، صـ ٣٤٨ .

وقال مولانا وشيخ شيخنا ﷺ : إن آداب المريد كثيرة وكلام السادات غزيرة ونذكرها بالأهم فالأهم لما أن **ما لا يدرك كله لا يترك كله .**

فالآداب المطلقة أولا للمريد مع الشيخ والإخوان خمسة :

١ . اتباع الأمر وإن ظهر له خلافه

٢ . واجتناب النهي وإن كان فيه حتفه

٣ . وحفظ حرمته حاضرا وغائبا حيا وميتا

٤ . والقيام بحقوقه حسب الإمكان بلا تقصير

٥ . وعزل عقله وعلمه ورياسته إلا ما يوافق ذلك من شيخه ويستغني عن ذلك بالإنصاف والنصيحة وهي معاملة الإخوان ، وإن لم يكن شيخ مرشد أو وجد ناقصا عن شروطه الخمسة اعتمد فيما كمل فيه وعومل بالأخوة في الباقي .

وأما مهمات المريد فأمور :

الأول التزام التقوى بترك المحرمات وحفظ الواجبات من غير إخلال ولا إفراط ويحرص على تحقيق ما يحتاج إليه .

الثاني العمل بالأسباب التي تكمل بها النفس والتقوى كترك الشبه التي لا تدعو إليها ضرورة .

الثالث التيقظ لموارد الأشياء ومصادرها بحيث يكون قلبه عند جوارحه ، وكل جارحة تحركت منه يقابلها بحكم حركتها وقصدها ، وقال الشاذلي ﵁ : ما سلم عبد من النفاق ما لم يعمل على الوفاق .

الرابع صحبة أهل المعرفة والعلم الذي يبصرونك بعيوب نفسك ويدلونك على ربك ، وذلك بأن يحصل باللجأ إليه في المبادى والشكر له في المناهي والرضا عنه في الواردات والصبر له في المكاره والتسليم في الأقدار وإيثار حقه على كل شيء في كل شيء .

وقال الشاذلي ﵁ : لا تصحب من يؤثر نفسه عليك فإنه لئيم .

الخامس مجانبة أهل الغِرَّة[1] والاغترار .

قال سهل رضي الله عنه احذر صحبة ثلاثة أصناف : الفقراء المداهنين والمتصوّفة الجاهلين والجبابرة الغافلين .

السادس التزام الآداب .

قال الشاذلي قدس سره : أربعة آداب إذا خلا الفقير المتجرد عنها فاجعله مع التراب سواء : الرحمة للصغائر والحرمة للأكابر والإنصاف من النفس وترك الانتصاف لها ، وأربعة آداب إذا خلا المنتسب عنها فلا تَعتمد نسبه : مجانبة الظلمة وإيثار أهل الآخرة ومواساة ذوي الفاقة وملازمة الخمس مع الجماعة .

وقال أبو حفص قدس سره : التصوف كلّه آداب ، لكل وقت آداب ولكل حال آداب ، فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرّجال ، ومن ترك الأدب فهو مطرود من حيث يظن القرب ومردود من حيث يظن الوصول .

السابع إعطاء الأوقات حقها ، فقد جآء في صحف إبراهيم عليه السلام : وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربّه قلت : وهي من السحر إلي طلوع الشّمس وساعة يحاسب فيها نفسه وهي من العصر إلي الغروب ، وساعة يمضي فيه إلي إخوانه الّذين يبصرونه بعيوبه ويدلّونه على ربّه ويعينها متى تيسّر له من ليله و نهاره ، وساعة يخلي فيها بين نفسه وشهواته المباحة وهي كالتي قبلها والأوقات كلّها ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾

الثامن أن لا ترى في العالم إلا أنت وربك فتراقبه فيه حق المراقبة بأن تتّخذ عنده كنزا وتنفق منه في ظاهر أمرك وباطنه ، ولا تتشوّف لأحد سواه ، واحذر أن يراك حيث نهاك أو يفقدك حيث أمرك أو يرى منك التفاتا لغيره .

« ١ » أي : أهل الغفلة .

قال بعض العارفين : من أشار إلى الحق وتعلق بالخلق أحوجه الله تعالى إليهم ونزع الرّحمة من قلوبهم ، فاستغن عن كل ذي قرب ورحم فإنّ الغني من استغنى عن الناس .

التاسع اجتناب نوع التكلّف في الحركات وقد قال عليه الصلاة و السلام : « أنا وأتقياء أمتي برآء من التكلّف » وقال تعالى : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ وأصل التكلّف حب المرضاة ومنه يقع حبط الإيمان والفجور والرياء والسمعة والمصانعة ، فعليكم بالتوسط في كل شيء ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾

العاشر عمارة القلب بما يحييه بدلا من نقيضه ، وهو أربعة أسباب تقابلها أربعة : أوّلها ذكر غربتك في الدّنيا ويترتب على ذلك عدم الانتصاف لنفسك والإنصاف منها والاستسلام لما يجري من المسيء وغيره ، ويقابله شغل القلب بلذاتها ونيل الأغراض وثانيها ذكر مصرعه عند الموت وهو الذي ينسيه كل شيء من دنياه ويزهد في الخلق إذ لا ينفعونه في ذلك المحل بشيء ، ويقابله نسيان الأجل وبعد الأمل وهو مفتاح خوف هم الرزق وهما أصل كل بلاء في الدنيا وكل محنة في الآخرة .

دخل أبو حازم ﵁ على عمر بن عبد العزيز ﵁ فقال له عمر : عظني ، فقال : اضطجع ثم اجعل الموت عند رأسك ، ثم انظر ما تحب أن يكون فيك في تلك الساعة ، فخذ به الآن ، وما تكره أن يكون فيك في تلك الساعة فدعه الآن ، فلعل الساعة قريبة . اهـ .

ودخل صالح بن بشر ﵀ على المهدي ﵀ فقال له : عظني ، فقال : أليس قد جلس هذا المجلس أبوك وعمك قبلك ؟ قال : نعم ، قال : فكانت لهم أعمال ترجو لهم النجاة بها ؟ قال : نعم ، قال : فكانت لهم أعمال تخاف عليهم الهلكة منها ؟ قال : نعم ، قال : فانظر ما رجوت لهم فيه النجاة فأته ، وما خفت عليهم فيه الهلكة فاجتنبه . اهـ « كشكول » ١٠٥ .

وثالثها ذكر وحشة القلب وهو الذي ينسيه أنس كل أنيس إلا من حيث معاملته فلا يصحب إلا أولياء الله ولا يجتمع إلاّ بمن يرجو ثواب الله ، ويقابله شمول الغفلة والاغترار بأيام المهلة وهو مفتاح ترك العمل والتراخي عنه والفترة فيه وطلب الرياسة وظهور البدع .

ورابعها ذكر وقوفه بين يدي الله تعالي وهو يوجب أن لا يتحرك حركة ولا يسكن سكونا إلا بالله ولله ، فليتبع الشرع في جميع حركاته ويحاسب نفسه في جميع حالاته ويستحي من مولاه في أموره ، ويقابله الجرأة على الله والاغترار به مع ظنه أنه راج فيه ولو أحسن الظن بربه لأحسن العمل له ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

فإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة والضلالة مع صاحبها في النار وإياكم وترهات الباطلين الذين يُؤَيِّسونكم من الله ويعوجون عليكم طريقكم فما هي إلا الفرائض المشهورة تؤدى والمحرمات المعلومة تترك والسنن المأثورة تتبع ومحاسن الأولياء تؤخذ . انتهى بحروفه .

وقال أحمد بن علوان رضي الله عنه : إن كنت تقصد أيّها الطالب أن تحظى بصحبة هذا العبد المتحقق بعبوديته وهو الشيخ الكامل المرشد الذي تم فناؤه ورجع إلى بقائه بِخِلَع[1] ربّانيّةٍ من مولاه ، فاسلك على سنن أي طريق طابق مساعي تلك الطريقة ، بأن تتأدب بين يديه بالأدب النافع وتنكسر لحضرته انكسار الذليل الخاضع لا ترى لك حالا ولا مقاما ولا تطلب منه تعظيما ولا احتراما بل تكون همتك الخدمة ومعاملتك معه التزام الحرمة ، لا تخالفه في ظاهرك ولا تعترض عليه في باطنك ، قالوا : من قال لشيخه لِمَ لا يفلح أبدا ، وقد ذكرناه آنفا .

وَاخْلِصْ وِدادَكَ صِدْقاً في مَحَبَّتِهِ　　　وَالْزَمْ ثَرى بابِـهِ واعْكِفْ بِناديـهِ

أخلص ودادك أيها الطالب الراغب بالصدق في محبة شيخك ، والزم ثَرَى بابه : تمسك بتراب أعتابه ، واعكف بِناديهِ : ولازم الطاعة بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، حتى يكون مرادك عين مراده وتشاركه في سفره وزاده .

« ١ » الخِلَع جمع خِلعة وهي رداءٌ يلبسه الملك من رضي عنه من رعاياه

قال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » و قد ذكرنا هذا القول أيضا .

وكذلك لا يكون الطالب طالبا حتى يكون هواه تابعا لما أمره به شيخه ، إذ الوارث مَسْلَكُهُ مَسْلَكُ مُوَرِّثِه وجميع ما تأخذ من الشيخ كأنك تأخذ منه ﷺ لأن الشيخ هو الذي تحقق بكمال المتابعة له ﷺ قولا وفعلا وحالا ، فإذا خالفته في شيء من ظاهرك وباطنك فكأنك خالفته ﷺ .

وإن لم تعتقد في شيخك هذا المعنى لم تنتفع به ، وإن اعتقدت فيه ذلك وجب عليك احترامه ولزمتك أوامره وأحكامه ، وإذا أشكل عليك أمر من أحواله في الظاهر فاذكر قصة موسى والخضر عليهما السلام وتمسك بها في ذلك الخاطر وأوِّل ما أشكل عليك ، وإن عجزت عن التأويل فارجع إلى التسليم فإن الأمر دائر بين أن تنسب النقص إليك أو إلى شيخك فنسبته إليك أولى ، وسلم تسلم واغتنم مرتبة الإيمان حتى تصل مرتبة الإحسان .

فاجعل يا أخي الشيخ قبلتك حتى تصل إلى القبلة الحقيقية واقتف بآثاره حتى تفوز على الاقتفاء بآثار خير البرية وحسن الاعتقاد حتى تسود مع من ساد . انتهى « ابن بنت ميلق » في ١٩ .

وقال الشيخ السهروردي قُدِّسَ سِرُّهُ في « العوارف » : أول ما يؤمر به المريد المبتدئ التبرّي من الحركات المذمومة ، ثم النقل بالحركات المحمودة ، ثم التفرد لأمر الله تعالى ، ثم التوقف في الرشاد ، ثم البيان ثم القرب ثم المناجاة ثم المصافاة[١] ثم الموالاة ، ويكون الرضا والتسليم مراده والتفويض والتوكل حاله ثم يمنّ الله تعالى بعد هذه بالمعرفة فيكون مقامه عند الله تعالى مقام المتبرئين من الحول والقوة ، وهذا مقام حملة العرش وليس بعده مقام . هذا من كلام سهل رَحِمَهُ اللهُ جمع فيه ما في « البداية والنهاية » .

« ١ » أي النقاء من الكدر

ومتى تمسك المريد بالصدق والإخلاص بلغ مبلغ الرجال ، ولا يتحقق صدقه وإخلاصه بشيء مثل متابعة أمر الشرع وقطع النظر عن الخلق ، فكل الآفات دخلت على أهل البدايات لموضع نظرهم إلى الخلق ، وبلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يكمل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر ثم يرجع إلى نفسه فيراه أصغر صاغر » إشارة إلى قطع النظر عن الخلق والخروج منهم وترك التقيد بعاداتهم .

قال ابن خضرويه قدس سره : من أراد أن يكون الله تعالى معه في كل حال فليلزم الصدق فإن الله تعالى مع الصادقين ، وقد ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ : « الصدق يهدي إلى البر » .

ولا بد للمريد من الخروج من المال والجاه والخروج من الخلق بقطع النظر إليهم إلى أن يحكم أساسه فيعلم دقائق وخفايا شهوات النفس ، وأنفع شيء للمريد معرفة النفس ولا يقوم بواجب حق معرفة النفس من له في الدنيا حاجة من طلب الفضول والزيادات أو عليه من الهوى بقية . « العوارف » من الباب الثالث والستون .

و قال ابن عطاء الله السكندري قدس سره في « حكمه » : شروط المريد أن لا يتنفس نفسا إلا بإذن شيخه ومن خالف شيخه في نفسه سرا أو جهرا فسوف يرى غِبَّهُ«١» من غير ما يحبه سريعا ، ومخالفة الشيوخ فيما يسرونه منهم أشد مما يكابدونه بالجهد وأكثر لأن هذا يلتحق بالخيانة ، ومن خالف شيخه لم يشم رائحة الصدق ، فإن برز منه شيء من ذلك فعليه بسرعة الاعتذار والإفصاح عما حصل منه من المخالفة والخيانة ليهديه شيخه إلى ما فيه كفارة جرمه ويلتزم في الغرامة ما يحكم به عليه ، فإذا رجع المريد إلى شيخه بالصدق وجب على شيخه جبران تقصيره بهمته فإنّ المريدين عيال على شيوخهم فرض عليهم أن ينفقوا من قوت أحوالهم ما يكون جبرانا لتقصيرهم . انتهى « حكم » ٦٥ .

« ١ » أي عاقبته

وقال الشيخ عبدالله الخاني قدس سره في « البهجة السنية » : اعلم أنّ رعاية أدب من الآداب والاجتناب عن كراهة ولو تنزيهية أفضل من الذكر والفكر والمراقبة والتوجه بمراتب كما ذكرنا ، نعم إذا جمع هذه الأمور مع تلك الرعاية فقد فاز فوزا عظيما ، ولا يحصل ذلك بدون دوام العبودية ، إذ المقصود من خلق الإنسان إنما هو أداء وظائف العبودية ، وأما العشق والمحبة في الابتداء فتعلقه بهما لأجل قطعه عما سوى جناب الحق تعالى وليس من المقاصد بل لأجل تحصيل مقام العبودية ، إذ لا يكون عبدا لله إلا إذا انقطع عما سواه ، والعشق والمحبة وسيلة الانقطاع ، فلهذا كانت العبودية نهاية مراتب الولاية ، وليس في درجات الولاية مقام فوق العبودية ، ودوامها لا يتصور بدون أداء العبادة ، إذ هي عبارة عن دوام الحضور مع الحق سبحانه وتعالى بلا شعور الغير بل مع الذهول عن صفة الحضور بوجود الحق سبحانه وتعالى ، ولا تحصل هذه السعادة العظيمة بغير تصرف الجذبة الإلهية ولا سبب لك في تحصيل الجذبة أقوى من صحبة الشيخ الذي كان سلوكه بطريق الجذبة . انتهى « بهجة »٣ .

وقال العلامة جمال الدين بن أبي بكر الخوارزمي قدس سره في « مفيد العلوم » : يجب على المريد وكل من يؤمن بالله واليوم الآخر أن يراقب أوقاته ويكون على عمره أشح منه على درهمه ، فقد قيل : شيئان صامتان ناطقان : الوقت والقبر .

وصدق من قال : الوقت سيف ، فحقيق لكل عاقل أن يقسم أوقاته ويراقب أنفاسه ، فالأنفاس معدودة والآجال محدودة والأماني ممدودة ومنادي الشرع ينادي : يا باغي الخير هلمّ ويا باغي الشر أقصر ، فاللّيل هادئ والقبر بادي والرب ينادي إليّ إليّ عبادي ، فاشتغلوا معاشر الوزراء وواظبوا أعيان الكبراء واتعظوا بمواعظ الله يا أعلام الرؤساء بما أنزل الله تعالى في صحف إبراهيم عليه السلام : على العاقل ما لم يكن مغلوبا أن يكون له ثلاث ساعات ساعة منها يحاسب فيها نفسه وساعة يناجي فيها ربه وساعة يخلو فيها بحاجته من الحلال ، وإن لهذه الساعة

عونا على هذه الساعات واستجماعا للقلوب ، وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه حافظا للسانه ، وعلى العاقل أن يكون طالبا لثلاث : مرمّة لمعاش وتزوّد لمعاد وتلذّذ في غير محرّم . انتهى « مفيد العلوم » ١٠٠ .

وقال الإمام الغزالي ﷺ في « أيها الولد » : اعلم أنه لا بد للسالك من شيخ يربيه ليخرج منه الأخلاق المذمومة ويجعل مكانها أخلاقا حسنة ، والتربية يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك ويخرج النبات الخبيثة من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه ، ولا بد للسالك من شيخ يربيه ويرشده إلى الله تعالى . انتهى

وقال بعض العارفين : ثلاثة أشياء لازمة على الطالب ولا بدّ له منهن : دوام الوضوء وحفظ النسبة« ١ » والاحتياط في اللقمة .

وقال العارف علي بن حسين الهروي عن شيخه ﷺ : ينبغي في هذا الطريق أن لا يكون شيء ملحوظا للطالب لا الدنيا ولا الآخرة ، فإن لم تكن نفس السالك بهذه المثابة فهو علامة على أنه خلق لمعرفة نفسه ، وإلا فهو مخلوق للجنة أو النار .

وقال أيضا : من لم يتخلص في هذا العالم عن قيد نفسه فروحه باقية بعد خراب البدن تحت فلك القمر ، وهذا كلام الشيخ ابن عربي ﷺ حيث قال : كل من بقي تحت فلك القمر« ٢ » فهو باق فيه ، فعرضت هذا الكلام على مولانا الجامي ﷺ وطلبت منه تحقيقه فإن هذه القضية كانت مشكلة عندي لأن أكثر المؤمنين يموتون قبل التخلص عن أنفسهم فقال : كل من آمن بالله فقد حصل نقبة في الفلك فيعرج من تلك النقبة أخيرا . انتهى

« ١ » لفظة النسبة قد تقع في اعتبارات المشايخ كثيرا ، فمرة يقولون النسبة ومرادهم بها دوام العبودية على طريق الاستهلاك ، ومرة يقولون النسبة ومرادهم بها الصفة الغالبة على الشخص ، ومرة يقولون النسبة ومرادهم بها الانتساب ، وهي على قسمين : عامة وخاصة ، والمراد بعموم النسبة الإشتغالات التي يشتغل بها السالك عند سلوكه في هذه الطريقة العلية كالاشتغال بالذكر والرابطة والوقوف القلبي وغير ذلك ، والمراد بخصوص النسبة دوام العبودية التي هي نتيجة هذه الطريقة العلية . « تحفة الأحباب » .

« ٢ » قال الشيخ محيي الدين بن العربي ﷺ : القمر منزل شريف عالٍ يسمى منزل النور في الطريق « الفتوحات المكية » ١١١/٣ » .

فصل

في بيان صفة الشيخ الذي يليق لمقام الإرشاد وآدابه مع الله ومع النبي ﷺ ومع المريدين والمرادين ومتعلقاتها

واعلم أن الشيخ هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة البالغ إلى حدّ التكميل فيها لعلمه بآفات النفوس وأمراضها وأدوائها ومعرفته بدوائها وقدرته على شفائها والقيام بهداها إن استعدّت ووفقت لاهتدائها .

اعلم أيها الأخ الأسعد وفقك الله تعالى لما يحبه و يرضاه ، لما كنا في زمان اختفى فيه الأولياء وقلّ الأتقياء وكثر المتشيخون في مقام المشائخ والصالحين وصارت الفتن بهم منتشرة بين العوام ، وصار أكثرهم يدّعون المشيخة ويجلسون في مقام الإرشاد ، مع أنه لم ير الشيخ فضلا عن أخذ الإرشاد ، وصار بعضهم يدّعون بزعمهم الباطل بأن علم الظاهر فقط يكفي للإرشاد لأن إرشاد الأمّة إلى الصراط المستقيم بالكتاب والسنة ، وعلماء الظاهر في هذا شركاء لمن ادعى أنه من علماء الباطن ، وإن سموا أنفسهم بأنهم هم المشائخ الكرام المرشدون للخلق واختصوا أنفسهم بالإرشاد والعلم الباطن دون علماء الظاهر ذوي الاحترام إنكارا منه للعلم الباطن وأهاليه والسلوك ، خطر لهذا المسكين الغريب المغبون أن أكتب رسالة على نهج شيخي وسندي أبو عبد الرحمن ذو الجناحين محمد ذاكر الچسطاوي النقشبندي المجددي الأويسي المحمدي قدس سره وشيخي ومجيزي قطب العلماء وشمس الأولياء مولانا زين الله بن حبيب الله الشريفي المعموري قدس سره ، مع أني لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم متوكلا على جوده تعالى ومفوضا أمرنا إليه ، متوسلا إليه بالسادات الكرام والمشائخ ذوي الاحترام ، ليتيقظ الجاهل اللاشي عن غفلته ويرجع السالك عن اقتدائه للمتلاشي ، وليتأمل حقّ تأمل في حق مقتداه بالعقل والتدبير وحسبنا الله ونعم النصير .

اعلم أن صفات الشيخ الذي يصلح للمشيخة والإرشاد ومن لا يصلح أن من يطلق عليه اسم الشيخ ثلاثة على ما قال جامع القطبتين محمد ذاكر ﷺ المذكور المقدس : **منهم** من ليس في يده تصرّف في المريد وتأثير فيه ، فهو كالعوام بل هو أضلّ من الأنعام ليست فيهم المشيخة سوى الرسم والاسم فقط كما هو أكثر مشائخ الزمان .

وقال مولانا خالد سليمان ﷺ مجدد المائة السابعة« ١ » : ويجب الاعتراض على حاله والإنكار على فعله لأنهم ضاعوا وأضاعوا وضلّوا وأضلّوا ، وذلك لحبس الناس عن الذهاب إلى الأهل من أهل الكمال ومنعهم عنه لقطعهم السبيل بالأقوال المُمَوَّهة والحيل المزخرفات ولكونهم سببا لحرمانهم عن الكمال ، وفيهم الوعيد الشديد خصوصا إذا كان جاهلا لأمر الدين كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ومنهم من كان في يده تصرف في عالم الملكوت وتأثير في المريد في صحبتهم لكن ليس فيهم الاستقامة بقدر ما يخرج من اسم الفسق ولا يكون فيه أدب الشريعة فضلا عن أدب الطريقة ، فهم أيضا لا يَصْلُح لأن يقتدى بهم وإن كانوا صادقين في أحوالهم لأن من اقتدى غير الأديب يكون هو أيضا غير أديب مع أن الطريقة كلها آداب على ما قالوا ، لكن يحترم ويوقر ولا يتعرض« ٢ » خوفا من قهره .

فعلم منه أن غير الأديب صادق الأحوال وإن لم يصلح للاقتداء به فالغير الأديب الذي ليس له حال صادق لا يصلح الاقتداء به بالطريق الأولى ، والاقتداء بهؤلاء شعار جهلاء العصر خصوصا إذا كان جاهلا لفروض العين .

ومنهم من في يده تصرف وتأثير وعلم بأحكام الشريعة التي يجب علمها عينا واستقامة ، فهم يصلح للاقتداء بهم والاستفادة منهم والاعتبار بأفعالهم وأقوالهم ، حتى قالوا إنهم الكبريت الأحمر والترياق الأكبر خصوصا

« ١ » لعله المائة السابقة
« ٢ » في نسخة ولا يعترض

في هذا الزمان الذي قل أهلها ، وذكروا لهم فضائل في كتب السادات ، ومثله في « الخطاب » لإسماعيل حقي ﷺ ، وفي « الرسالة البهائية ترجمة الرسالة الخالدية » ، وكذا في « الفتوحات المكية » لابن العربي ﷺ ، وسيجيء عبارته إن شاء الله تعالى عن قريب .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في « أيها الولد » : ولا بد للسالك من شيخ يربّيه و يرشده إلى سبيل الله تعالى بشروطه الذي يصلح للتربية ويليق لأن يكون تابعاً لرسول الله ﷺ وأن يكون عالما يصلح له لأن كل عالم لا يصلح ، و نبيّن إن شاء الله تعالى بعض علاماته التي يستحق الإرشاد والمشيخة ، لئلا يدعي كل أحد بالمشيخة والإرشاد كما كان أكثرهم على ذلك وإن كان إرجاعهم من اعتقاداتهم الفاسدة إلى اعتقاد أهل السنة والجماعة فضلا عن اعتقاد أهل الحقيقة أشق من خرط القتاد .

فنقول : هو من يعرض عن الدنيا وحب الجاه وأن يكون تابعا لشيخ بصير ومرشد كامل قد تعلق سلسلته إلى رسول الله ﷺ وصحت نسبته إليه ﷺ ، وأن يكون محسنا رياضة نفسه من قلة الأكل والشرب والقول والنوم وكثرة الصلاة والصدقة والصوم ، وأن يكون مأذونا من شيخ كامل بالإذن الكامل بشروطه متحليا بمحاسن الأخلاق كالعلم والحلم والعفو والكرم والجود وغيرها فهو نور من أنوار معرفة النبي ﷺ فيصح الاقتداء بمثل هذا العالم لكن وجوده نادر أعزّ من الكبريت الأحمر . انتهى .

والطبيب الروحاني هو الشيخ العارف بذلك الطب القادر على الإرشاد والتكميل لما أن الطب الروحاني هو العلم بكمالات القلوب وآفاتها وأمراضها وأدوائها ويكفيه حفظ صحتها واعتدالها وردّ أمراضها ويقال للشيخ الكامل أيضا : ظل الإله لتحققه بالحضرة الواحدية .

وقالفي « جامع الأصول » : فيجب أن يقتدي بمن علم بالديانة والرحمة والعفة والتقوى والأمانة والصيانة من البدع والأهواء والخيانة بعد أن تحقق أنّ

طريقته موافقة بالكتاب والسنة وأفعال الصحابة والمشائخ الراسخين والأئمة العارفين وسائر كبار الأمة أفاض الله علينا من بركاتهم . انتهى .

فالصوفية أخذوا حظا من علم الوراثة فأفادهم العمل بالعلم ، فهم مع سائر العلماء في علومهم وتميزوا عنهم بعلوم زائدة التي هي علم الوراثة . كذا قاله في « العوارف » .

وللشيخ آيات له وعلامات فدنياه في طيٍّ وأخراه في نشرِ

قال في « روح البيان » في سورة النساء في قوله تعالى : ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ : التزكية يتهيأ لها بتسليم النفس إلى أرباب التزكية والمزكي هو النبي ﷺ في أيام حياته كما قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ، وبعده ﷺ العلماء الذين أخذوا التزكية ممن أخذوا منه ﷺ وممن أخذ من أخذوا وهكذا في كل عصر قرنا بعد قرن إلى يومنا هذا ، وقد ثبت سلسلتهم منسوبة إلى رسول الله ﷺ ولعمري إنهم في هذا الزمان أعزّ من الكبريت الأحمر . انتهى

وقال في سورة الإسراء أيضا : فعلى السالك الصادق أن يطلب الوصول إلى العالم فإنه هو المطلب الأعلى ولا يصل إليه إلا بقدمَي العلم والعمل والرجوع إلى حال التراب . انتهى .

قال في « الخطاب » : قالوا : لا تكن مريدا إلا لعالم ولا كل عالم إلا إذا كان حيا ، يعني لا يجوز أن تكون مريدا لكل عالم بل كن مريدا لعالم كان قلبه حيا بحياة حقيقية ومحلا لفيض إلهي حتى يحصل لك من صحبته فائدة وحياة باقية . انتهى .

وقال في « روح البيان » : فكما أن العالم الغير العامل والجاهل الغير العامل سواء في كونهما مطرودين عن باب الله تعالى ساقطين عن عينه سبحانه وتعالى فكذلك العارف الغير العامل والغافل الغير العامل سواء في كونهما مردودين من باب الله تعالى . انتهى .

وقال رجب أفندي ﷺ في شرحه لـ « الطريقة المحمدية » : قال أبو يزيد ﷺ : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات أي من خوارق العادات حتى تربع في الهواء فلا تغتروا به ، بل ارقبوه كيف تجدونه عند الأمر هل يرتكبه ولا يُخِلّ له ولا يتهاون به ما استطاع أو لا ، وهل ينتهي عما نهى الله عنه أيضا أم لا ، وهل يحفظ حدود الله تعالى كما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أو لا يحفظ ، فإذا كان يحفظ الحدود في الأوامر والنواهي يعتبر بكراماته الدالة على علوّ مقامه عند ربّه وإلا فهو استدراج ومكر .

وأقول : قد أجمعوا على أن لا مقام للعبد يسقط عنه التكاليف الشرعية ، وأيضا إنّهم قالوا أنّه لا تصلح النهاية إلا بتصحيح البداية وهي العلم والعمل .

واعلم أن أهل التصوف تفرقت إلي اثني عشر فرقة فواحدة منهم سنيون وهم الذين أثنى عليهم العلماء والباقون بدعيون . انتهى كذا في « الخادمي في شرح الطريقة » .

قال في « روح البيان » : هم الموافقون للكتاب والسنة اعتقادا وعملا . وقال في « جامع الأصول » : واعلم أنّ من لم يتصل نسبه المعنوي بواحد من أهل النفس الرحماني وادعى لنفسه الكمال والتكميل فهو زان في الحقيقة ومن هو تحت تربيته هالك لأنه ولد الزنا .

اعلم أن من لا يعرف آباءه وأجداده في الطريق فهو مطرود وكلامه مردود غير مقبول وربما انتسب إلى غير أبيه وقد أجمع السلف كلهم على أن من لم يصح له نسب القوم ولا أذن في أن يجلس للناس لا يجوز له التصدر إلى إرشاد الناس ولا أن يأخذ عليهم عهدا ولا يلقنهم ذكرا ولا شيئا من الطريق ، إذ السر في الطريق إنما هو ارتباط القلوب بعضها ببعض إلى رسول الله ﷺ إلى حضرة الحق جل جلاله وعم نواله ، فمن لم يدخل سلسلة القوم فهو غير معدود منهم . انتهى

وقال فيه أيضا : فلما كانت الصحبة من لوازم الطريقة وشروطها وكان الانتساب إلى شيخ إنما يحصل بالتلقين والتعليم من شيخ مأذون إجازته صحيحة مستندة إلى شيخ صاحب الطريقة وانتهى نسبته إلى رسول الله ﷺ . . وجبَ ذكر الأسانيد في كل الطرق إلى الرسول عليه الصلاة والسلام . انتهى

وقال الشيخ ابن زروق ﷺ : أهلية الشيء تقضي بلزوم بذله لمن تأهل له إذ يقدره حق قدره ويضعه في محله ومن ليس بأهل فقد يضيعه وهو الغالب أو يكون حاملا له على طلب نوعه وهو النادر ، فمن ثم اختلف الصوفية في بذل علمهم لغير أهله فمن قائل : لا يبذل إلاّ لأهله وهو مذهب الثوري وغيره ، ومن قائل : يبذل لأهله ولغير أهله والعلم أحمى جانبا من أن يصل إلى غير أهله وهو مذهب الجنيد رحمه الله تعالى ، إذ قيل له : كم تنادي على الله بين يدي العامة فقال : لكني أنادي على العامة بين يدي الله تعالى ، يعني أنه يذكر لهم ما يردهم إليه فتتضح الحجة لقوم وتقوم على آخرين والحق اختلاف الحكم باختلاف النسب والأنواع والله تعالى أعلم« قواعد » ٧ .

وقال في « روح البيان » في سورة النور : واعلم أن من لم يتصل نسبه المعنوي بواحد من أهل النفس الرحماني وادعى لنفسه الكمال والتكميل فهو زان في الحقيقة ومن هو تحت تربيته هالك لأنه ولد الزنا ، وربما يكره بعض أهل الطلب على باب أهل الدعوى ويصرفه عن أهل الحق عنادا أو غرضا فاسدا أو اتباعا لهواه ، فهو إنما يكرهه في الحقيقة على الزنا لأنه بملازمة أهل الباطل يصير المرء هالكا كولد الزنا إذ يفسد استعداده فساد البيضة ، نسأل الله تعالى أن يحفظنا من مكر الماكرين .

وقال فيه أيضا في سورة الفرقان : وفي الآية« ١ » إشارة إلى الأصنام المعنوية وهم المشائخ المدعون والدجاجلة المتصنعون فإنهم ليسوا بقادرين على إحياء القلوب وإماتة النفوس ، فالتابعون لهم في حكم عابد الأصنام ،

« ١ » ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ .

فليحذر العاقل من اتخاذ أهل الأهوآء متبوعا فإن الموت الأكبر الذي هو الجهل إنما يزول بالحياة الأشرف الذي هو العلم ، فإن كان للعبد مدخل في إفاضة الخلق العلم النافع ودعائهم إلى الله تعالى على بصيرة فهو الذي يرقي غيره ويخرجه من الجهل إلى المعرفة وينشأ النشأة الأخرى ويحيى حياة طيبة بإذن الله تعالى ، وهي رتبة الأنبياء ومن يرث منهم من العلماء العاملين .

قال مولانا الشيخ ابن سليمان الخالدي قدس سره في « كفاية المريد » : المرشد هو الذي يعلم ما يحتاج إليه المريد من الفقه والعقائد والتوحيد ومن الحديث المحقق الثابت ومن الطريقة عارفا سككها ومن النفوس عالما شكوكها وأن يكون ناصحا عفيفا ذا همة عالية وأن يكون يغضب لله ويحب لله ومنتهيا عن المعاصي والمناهي ، فإن وجدت هذه الشروط فاتبع له وكن في خدمته . انتهى

وقال في « روح البيان » في سورة آل عمران : قال الشيخ الصفي قدس سره : إن الذين يزعمون المعرفة والتمكين في مقام الإرشاد ويراؤون به جلبا لحطام الدنيا عذابهم أشد من عذاب الزانين والزانيات الذين ولدوا أولاد الزنا مع وجود أزواجهم وزوجاتهم وأولادهم بسبعين مرة ، فلو نظرت إلى شيوخ الزمان وجدت أكثرهم كذلك مدعين بما لم يتحققوا في نفوسهم يضلون الناس بأكاذيب ويروون لهم أساليب ليس فيها أثر من المعاني والحقيقة ، فعلى العاقل أن لا يغتر بظواهرهم ولا يخرج عن المنهاج مقتفيا بآثارهم ومنخدعا بأقوالهم بل يجتهد إلى أن يميز بين الحق والباطل والعارف والجاهل عصمنا الله تعالى وإيّاكم من الزيغ وسيئات الأعمال . اهـ .

وقال الإمام محمد معصوم الفاروقي قدس سره في « مكتوباته » ما حاصله : حُرّر أن من أذن شيخه له في واقعته بتلقين الذكر وتربية المريدين وأرواح السادات الماضية ظاهرون حاضرون هل يجوز لهذا الشخص اعتمادا على هذا تلقين الذكر وتربية المريدين ؟ فالجواب : إن الإجازة لتعليم الطريقة أمر عظيم لا يثبت بالواقعة ولا يجوز الاعتماد عليها إلا أن يكون الإذن في اليقظة من شيخ معتبر مأذون إذنا صحيحا . انتهى

وقال في « الرسالة المدنية » : لا يبلغ المريد درجة الكمال إلاّ أن يرى في جميع عبادته عيبا وأنه لا يليق إهداؤها إلى جناب الحق تبارك وتعالى ، فحينئذ يتحقق في هذا السالك معنى قوله عليه الصلاة والسلام : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » وهذا بعد اطمئنان النفس وتشرفها بالإسلام الحقيقي ، ولا يصل السالك إلى هذه المرتبة إلاّ بعد الصحبة الصادقة مع الشيخ الكامل ، وبعد هذه المرتبة يستعد لتربية الطالبين وللتوجه إليهم ويكون هو أهلا للإرشاد ، وأمّا قبل هذا فمن قبيل خرط القتاد وبذل النفس وقطع الأكباد كما في أكثر مشائخ الزمان ، وليس هذا إلاّ بلآء النفس ، نعم إذا كان بإذن الشيخ فإنه حينئذ تربية الشيخ لا تربيته إذا كان فانيا في شيخه حيث يدوم له نسبة حضوره .

ثم قال فيها أيضا : واعلم أنه يعطي الكامل للناقص الإجازة بتعليم الطريقة وهذا ليس بمناف للإفادة والاستفادة لأنّ يد الناقص يد الكامل لأنّه واسطة في الجملة ، وارتباط السالك إليه بمجرد المحبة للشيخ المقتدى يحصّل له تربيَة النفس فلذا يلزم عليه رعاية الأمرين : **أحدهما** محبة الشيخ المقتدى **والآخر** الاستقامة في الشريعة العلية والتمسك بالسنة السنية ، فإذا لم يكن تقصيره في هذين الأمرين لا يحصل له الضرر ، وإن كان في واحد منهما قصور فضلا من كليهما لا يحصل له شيء من المعرفة ، بل يبقى تحت تصرف الشيطان نعوذ بالله ولا علاج له سوى الخسران الأبدي . انتهى

إلاّ أنّ الإمام الرباني في « مكتوباته » شرط في الإذن للناقص تأثير المريد في صحبته ، وقسم الإذن على أقسام ، وبيّن نفع الإذن للناقص أيضا وفيها كلام كثيرٌ ، كثير الفائدة لأهل الإنصاف لا تسعه هذه الرسالة ، بل في جميع الكتب المذكورة أسماؤها في هذه الرسالة الفوائد والغرائب والدرر واليواقيت والكنز المدفون والسر المصون والعلم المكنون وإيقاظ الغافلين وتنبيه النائمين ، فمن أراد البيان فليراجع إليها .

وقال الشيخ الإمام صاحب « الهداية » لبعضهم :

فساد كبير عالم متهتك . . . .« ١ »

والعالم المتهتك هو الذي يعمل خلاف الشرع من الأفعال الردية التي لا يأذن الشرع بها ، وفساد مثل هذا العالم كبير لأنّه يراه الجهال فيعتقدون أنّ مثل هذا العالم لا يعمل إلا بإذن الشرع فيعتقدون به فيضلّ هو أوّلا ويضلّهم ثانيا **وأكبر منه جاهل متنسك** أي متعبد ، والجاهل المتنسك هو المقلد في معتقده الجاهل في أفعاله وأقواله لا يعرف صحتها وفسادها كالصوفية في زماننا هذا ، وإنما كان أكبر من العالم المتهتك في الفساد لأن فساده قد يكون في اعتقاده وعمله جميعا فكان أكبر فسادا من العالم المتهتك في الفساد لأن اعتقاده صحيح وإن كان عمله فاسدا . و :

هُما فِتْنَةٌ فــي العالمينَ عَظيمةٌ لِمَــنْ بِهِما فــي دينــه يَتَمَسَّكُ

قاله في « شرح تعليم المتعلم » وكذا في « الخادمي شرح الطريقة » ، ورجب أفندي ﷺ « شرح الطريقة » .

وطائفة أخرى من الشيوخ أصحاب أحوال عندهم تبديل ليس لهم في الظاهر ذلك التحفظ يسلم أحوالهم ولا يصحبون ولو ظهر عليهم من خرق العوائد ما عسى أن يظهر لا يعوّل عليه مع وجود سوء أدب مع الشرع فإنه لا طريق إلى الله تعالى إلاّ بما شرعه لنا .

فمن قال بأن ثمّ طريق إلى الله تعالى خلاف ما شرع فقوله مردود لا يقبل ، فلا يقتدى بشيخ لا أدب له وإن كان صادقا في حاله ، قاله الشيخ الأكبر ﷺ في « الفتوحات المكية » .

« ١ » قال الإمام الشافعي رضي الله عنه :

فساد كبير عالم متهتكٌ وأكبر منه جاهل متنسكُ
هما فتنة في العالمين عظيمةٌ لمن بهما في دينه يتمسكُ

وقال في « روح البيان » في سورة النحل : قال الشيخ الشهير بافتاده ﷺ : هنا رجل يقال له ديوان چلبي يأكل ويشرب ويشتغل بالشهوات ويزعم أنّ له نظرا في الحقيقة من المظاهر حفظنا الله تعالى من الإلحاد ، ففي حالة الاحتضار استغفر وقال : يا حسرتا لم أعرف الطريق ، ويرجى أن يعفى لسبق ندامته ، وكان له كشوف سفلية وقطع بخطوة واحدة سبعين خطوة وأكثر ، ولكن الكشوف السفلية لدى أهل الكمال غير مقبولة وعوام الناس يعدّون أصحابها أقطابا لكونهم على الجهل لا يميّزون بين الخير والشر .

وقال أيضا في سورة آل عمران : وقيل لأبي يزيد البسطامي ﷺ : إنّ فلانا يمشي على الماء ، قال : الحوت أعجب منه إذ هو شأنه ، وقيل له : إنّ فلانا يطير في الهواء ، فقال : الطير أعجب منه إذ هو حاله ، وقيل : إنّ فلانا يذهب إلى مكّة ويرجع من يومه ذلك ، فقال : إنّ إبليس أعجب منه فإنّه يطوي الأرض كلها في لحظة مع أنّه في لعنة الله تعالى . انتهى « روح البيان »[١] .

وقد أجمع السلف الصالحون أن الفوز والنجاة لا يحصلان إلاّ بالعلم والعمل جميعا ، واتفقوا أيضا على أنّ العلم أشرف من العمل إلاّ أنّ العمل متمم له وأنّ العمل ثمرة العلم وعلم بلا عمل كشجرة بلا ثمرة . والمحققون قالوا : إن رأيت رجلا يمشي على الماء وهو يتعاطى أمورا يخالف الشريعة فاعلم أنه شيطان . وهو كلام حق لا شبهة فيه .

ثم اعلم يا أخي أنّ سالك سبيل الله قليل والمدعي بذلك كثير ونحن نعرّفك علامتين للسالك إلى سبيل الله تعالى تجعلهما نصب عينيك وتعرف بهما نفسك وغيرك : **فالأولى** أن تكون أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع الشريف ، **والثانية** أن يكون حاضر القلب مع الله في كل حال والله ولي التوفيق .

« ١ » في روح البيان : قيل للشيخ أبي سعيد : إن فلاناً يمشي على الماء قال : إن السمك والضفدع كذلك ، وقيل : إن فلاناً يطير في الهواء فقال : إن الطيور كذلك ، وقيل : إن فلاناً يصل إلى الشرق والغرب في آن واحد قال : إن إبليس كذلك ، فقيل فما الكمال عندك ؟ قال : أن تكون في الظاهر مع الخلق وفي الباطن مع الحق .

وقال العبد الوهاب الشعراني ﷺ في « الميزان الكبرى » : فإن قلت : فما حكم من أكل الحلال وترك المعاصي وسلك نفسه من غير شيخ فهل يصل إلى هذا المقام من الوقوف على العين الأولى للشريعة ؟

فالجواب : لا يصح الوصول إلى المقامات العاليات إلاّ بأحد الأمرين إمّا بالجذب الإلهي وإمّا بالسلوك على يد الأشياخ الصادقين في الأعمال السالمين من العلل . انتهى

ثمّ قال فيه : فعلم من جميع ما قرّرناه وجوب اتخاذ الشيخ لكل عالم طلب الوصول إلى شهود عين الشريعة الكبرى ولو أجمع جميع أقرانه على علمه وعمله وزهده وورعه وتعبده ولقبوه بالقطبية الكبرى ، فإنّ لطريق القوم شروطا لا يعرفها إلاّ المحققون منهم الذائقون بها دون الدخيل فيهم بالدعاوى والأوهام ، وربّما كان من يعتقدونه بالقطبية الكبرى لا يصلح أن يكون مريدا للقطب انتهى .

ثم قال هو فيه أيضا : فإن قلت : فهل يجب مثل هذا السلوك على يد شيخ حتى يصل إلى شهود عين الشريعة الأولى في مقام الإيمان والإحسان والإيقان من حيث أنّ لكل مقام من هذه المقامات عينا تخصه كما أنّ لكل عبادة شروطا في كل مقام منها كما يعرف ذلك أهل الكشف وبه يصير أحدهم يعتقد أنّ كل مجتهد مصيب ؟

فالجواب : كما تقدمت الإشارة إليه نعم يجب السلوك حتى يصل إلى ذلك ، لأنّ كل ما يتوسل إلى الواجب فهو واجب ، ومعلوم أنّه يجب على كل مسلم اعتقاده أن سائر أئمّة المسلمين على هدى من ربهم ولا يصح الاعتقاد إلاّ إن كان جازما ولا يصح الجزم الحقيقي إلاّ بشهود العين انتهى كلام « الميزان » .

وقال الشاذلي ﷺ : رأيت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله ما حقيقة المتابعة ؟ فقال : رؤية المتبوع عند كل شيء ومع كل شيء وفي كل شيء .

وقال : ليس الرجل الكامل من حيي في نفسه إنما الرجل الكامل من حيي به غيره

وقال : كل شيخ لم تصل إليك الفوائد منه من وراء حجاب فليس بشيخ .

وقال : من دعا إلى الله بغير ما دعا به رسول الله ﷺ فهو بدعة .

وقال : ثلاثة لا تتدعى وواحدة لا تزدري اقتداء فيهن بالنبي ﷺ : قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا . « جامع »

الأسرار والحقائق لا تدرك بعلم الرسم ، والعقل قاصرٌ ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور . قاله في « جوامع الكلم » .

وقال في « روح البيان » : قال أبو يزيد البسطامي قُدِّسَ سِرُّهُ : من لم يكن له أستاذ فإِمامه الشيطان .

وحكى الأستاذ أبو القاسم القشيري عن شيخه أبي علي الدقاق قدس الله أسرارهما أنّه قال : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غرس فإنها تتورق ولا تثمر أو هو كما قال يجوز أن تثمر كالأشجار التي في الأودية والجبال ولكن لا يكون لفاكهتها طعم ولذّة فاكهة البساتين ، والمغروس إذا نقل من موضع إلى موضع آخر يكون ألذّ وأحسن لدخوله في التصرف ، وقد اعتبر الشرع وجود التعليم في الكلب لحلّ مقتوله بخلاف غير المعلم فإنّه حرام أكله .

وسمعت كثيرا من المشائخ يقولون : من لم ير مفلحا لا يفلح ، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فإنّ أصحاب رسول الله ﷺ تلقّوا العلم والأدب منه عليه الصلاة والسلام فأفلحوا في الدارين وفازوا بالنعيم ، فلا بد لطالب الحق من أديب كامل وأستاذ حاذق يبصره بآفات النفس وفساد الأعمال ومداخل الشياطين وسائر الأعداء ، فإذا وجد مثل هذا فليلازم على خدمته وصحبته

وليتأدب بآدابه لِيَسْرِيَ[1] من باطنه إلى باطن المريد الأنوار والفيوضات كسراج يقتبس من سراج آخر ، فليسلم له بالكلية فإن التسليم له تسليم لله ولرسوله لأن سلسلة التسليم ينتهي إلى رسول الله ﷺ وإلى الله ﷻ انتهى .

قال في « متممات جامع الأصول » : وقال الشعراني قدس سره في « الأنوار القدسية » : وقد أجمع أهل الطريق على وجوب اتخاذ الإنسان له شيخا يرشده **إلى زوال تلك الصفات التى تمنعه من حضرة الله تعالى من قلبه لتصح صلاته من باب ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب** ، ولا شكّ أن علاج أمراض الباطن كلّه واجب كما تشهد له الآيات والأحاديث الواردة في تحريمها والوعيد عليها ، فعلم أنّ كل من لم يتخذ له شيخا يرشده إلى الخروج من هذه الصفات فهو عاص لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام لأنّه لا يهتدي لطريق العلاج ولو تكلّف لا ينفع بغير شيخ ولو حفظ ألف كتاب ، فهو كمن يحفظ كتابا في الطّب ولا يعرف تنَزُّل الدواء على الداء فكل من سمعه وهو يدرس في الكتاب يقول إنّه طبيب عظيم ، ومن رآه حين يسأل عن اسم المرض وكيفية إزالته يقول إنّه جاهل .

فاتخذ لك شيخا ولا تعصِ وتفكَّرْ أبديّة الآخرة ، واقبل نصحي ، وإيّاك أن تقول طريق الصوفية لم يأتِ بها كتاب ولا سنّة فإنّه كفر فإنها كلها أخلاق محمدية وسيرة أحمدية وسنن إلهية .

وقال الشعراني قدس سره أيضا في « الجواهر » : وسئلت عن الدواء الذي إذا استعمله العبد زال عنه الرياء والإعجاب بأعماله فقلت : ذكر الله تعالى حتى يتجلى في قلبه التوحيد الحقيقي ويرى أعماله خلقا لله تعالى وحده ليس للعبد فيها غير النسبة ، فهناك لا يصير عنده رياء ولا إعجاب ولا تكبر على أحد من العصاة لأنّ الرجل لا يرائي قطّ بعمل غيره ولا يعجب فيه بنفسه ولا يحصل عنده دعوى ، وقيل لي أيضا : فهل له دواء غير التوحيد من الأعمال ؟ فقلت : لا أعلم له دواء أسرع من التوحيد وهو الذي وضعه جميع أهل الطريق للمريدين فطووا

« ١ » أي ليتعدَّى .

به الطريق ، وقد أخطأ ذلك طائفة من العباد الذين أشغلوا نفوسهم بتلاوة القرآن والصلاة والصوم وماتوا على ريائهم ورؤية أعمالهم ولم يخلصوا في شيء منها .

وقال الشعراني ﵁ أيضا في « الأجوبة المرضية » : وقد كان عزّ الدين بن عبد السلام ﵀ يقول قبل أن يجتمع بالشيخ أبي الحسن الشاذلي ﵁ : هل ثمّ طريق يقرّب إلى الله تعالى غير ما في أيدينا من الفقه ؟! فلما اجتمع بالشيخ أقرّ طريق القوم بقوله : من أدلّ دليل على صحة طريق القوم أن أهلها قعدوا على القواعد وقعد غيرهم على الرسوم ، وما يقع على أيدي القوم من الكرامات والخوارق ولم يقع على يد فقيه كرامة ولو بلغ في العلم ما بلغ بلا اتباع طريقهم«١» . انتهى .

وقال فيه أيضا : وكان الإمام أحمد بن حنبل ﵁ يقول لولده عبد الله : يا ولدي عليك بالحديث وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية فإنهم ربّما كان أحدهم جاهلا بأحكام دينه ، فلمّا صحب أبا حمزة البغدادي ﵁ وعرف أحوال القوم كان يقول لولده : يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلوّ الهمة .

وقال فيه أيضا : وبلغنا أنّ الإمام الشافعي ﵁ كان يجالس الصوفيّة ويقول : يحتاج الفقيه إلى معرفة اصطلاح القوم ليفيدوه عن العلم ما لم يكن عنده ، فقد بان لك مما ذكرناه أنه يجب على كل من غلب عليه مرض الباطن أن يطلب شيخا يخرجه من تلك الورطة ، وإن لم يجد في بلده وإقليمه وجب عليه السفر إلى ناحية هو فيها ، وأنّ من رزقه الله تعالى سلامة الباطن من تلك الأمراض كالمجتهدين وكمّل أتباعهم لا يحتاج إلى شيخ وإن احتاج لزيادة الكمال إلى أهل السلوك .

« ١ » العبارة كما في « الأجوبة المرضية » : إن هؤلاء القوم قعدوا على قواعد الشريعة وقعد غيرهم على الرسوم ، قال : ومن أصدق دليل على قولي هذا أنه لا يقع على يد فقيه قط كرامة ولو بلغ في العلم ما بلغ إلا إن سلك طريقهم في العمل ، إذ الكرامات فرع المعجزات وهي دليلٌ على صدق الاتباع للشريعة .

وقال في « الأجوبة » : وكان الإمام الأجلّ الشافعي وكذا الإمام الأورع أحمد رحمهما الله يتردّدان إلى مجلس الصوفية فقيل لهما : ما لكما تتردّدان إلى مثل هؤلاء الجهال ؟ فقالا : إنّ هؤلاء عندهم رأس الأمر كلّه وهو تقوى الله عزّ وجلّ ومحبّته ومعرفته .

وقال في « مشارق الأنوار » : أخذ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ أن لا نغترّ بحفظ العلم الذي يطلب منّا العمل به[1] من غير عمل كما كان عليه غالب الناس في هذا الزمان ولم يكن السّلف الصالحون كذلك .

ثمّ قال : ويحتاج من يريد العمل بهذا العهد إلى السلوك على يد شيخ ليرقيه إلى درجات المراقبة لله تعالى والخوف منه كما كان عليه علمآء السلف .

وسمعت شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله يقول : كلّ فقيه لا يجتمع بالصوفية فهو كالخبز الجاف بلا أدم .

وسمعت سيدي عليا الخواص قدس سره يقول : لا يكمل طالب العلم إلا بالاجتماع على أحد من أشياخ الطريقة ليخرجه عن رعونات النفس ومن الخطرات وإن لم يجتمع معه فمن لازمه التلبيس غالباً ودعوى بلا علم ، وكلّ من نسَبَه إلى قلة العلم أو العمل أقام عليه الأدلة التي لا تتمشّى عند الله تعالى ورسوله ﷺ ومن شكّ في هذا فليجرّب يجد كما قلنا بل فوق ما قلنا .

فاسلك أيها الفقيه على يد شيخ كامل والزم خدمته واصبر على جفائه على كل حال فإن الذي أطلعك عليه أمر نفيس لا يقابله الدنيا وما فيها ، فإنّ العلم رياسة عظيمة وللنفس فيه دسائس فربما خفيت على مشائخ العلم فضلا عن الطلبة .

ومن ههنا فرق السالكون من العابدين ، فربما مكث العابد يعبد ربه على علة خمسمائة سنة والسالك يخرج عن هذه العلة في أوّل قدم يضعه في الطريق لأن بداية الطريق التوحيد لله تعالى في الملك والملكوت ثم الفعل

« ١ » في الأصل : التعلّم به

ثم الوجود ، والعابد لا يذوق لهذه الثلاثة طعما ، فوالله لقد فاز من كان له شيخ وخسر من لم يتخذ شيخا أو اتخذ ولم يسمع نصيحته أو اتخذ جاهلا متشيخا لا تثبت نسبته .

وقال بعض أكابر شراح « الحكم العطائية » : قال حضرة الخواجه بهاء الدين النقشبندي قدس سره العزيز : أقرب الطرق إلى الله تعالى عندنا نفي الوجود وإن كانت الصلاة والصيام طريقان إلى الوصول إلى الحضرة الأحدية لكن لا يتمّ الوصول بهما إلاّ بنفي الوجود ، فلذلك كان السالك يجد من المدد في الباطن والظاهر ما لا يجده في الصوم والصلاة ، لأنّها تنفي وجود السالك وتضمحلّ معها أوصافه فلا تلتفت إلى سائر أورادك ما عدا الواجبات والرواتب ، وقد قيل : وجودك ذنب لا يقاس إلى ذنب .

وقال الشيخ حافظ العصر ابن حجر الهيتمي قدس الله سره العزيز : فاتخذ لك ثقّة وحجّة من المشائخ الكرام ولا تلتفت إلى من يتعصب ، ولتتحرّ« ١ » أورع المشائخ وأعرفهم بقوانين الشريعة والحقيقة وليترك رسومه وادخل تحت إشارته ، ومن ظفر بشيخ بهذا الوصف فحرام عليه أن يتركه ويفارقه إلا إن وجد أكمل منه وأورع وأعرف فحينئذ يمكن الرجوع إلى الأكمل مع حسن ظنّه بالشيخ الأول واحترامه واستئذان منه ظاهرا إن أمكن وإلاّ فبالباطن لئلا يؤول إلى سوء الأدب عياذا بالله تعالى ، وتدلّ عليه الأدلة الأربعة بل تشهد له الكتب السّماوية .

وقال في « المتممات » أيضا : واعلم أن الله سبحانه وتعالى لما خلق الخلق لطاعته وعبادته ومعرفته كما قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ، وأفضل العبادات وما يوصل به إلى الله تعالى هو السلوك ولا بدّ له من مرشد كامل وأستاذ فاضل لما أنه طريق غيب غير محسوس مبنيّ على مخالفة النفس ، ألا ترى أنّ كثيرا من الأطباء يعجزون عند تمرّضهم من علاج نفوسهم لخفائها على صاحبها وهي أعدى أعدائه في ثياب أصدق أصدقائه ، ولهذا ورد « المؤمن مرآة المؤمن » فإذا أراد أن يعرف عيب نفسه ينظر إلى

« ١ » أي ولتتخيَّر

أخيه المؤمن فإذا رأى فيه عيبا مما يخالف الشريعة يترك هذا العيب الذي وجده في أخيه إن كان في نفسه ذلك العيب وبهذا يحصل الخلاص من العيب وهذه حيلة عند عدم الشيخ ، كما قال الإمام الغزالي ﵀ في « الإحياء » .

ولهذا قال الكمّل : من لم يكن له شيخ فشيخه الشيطان ، فإنّ طريق الله تعالى لمّا كان في غاية الشرف والعزّة لكونه موصلا إلى أعزّ المطالب حُفَّت بالقواطع والمهلكات من كل جانب ، فإذا عرفت هذه الورطات المهلكات لا جرم أنّ السالك يحتاج إلى المرشد الكامل والشيخ الفاضل يحفظ المريد من تلك المهلكات ويهديه إلى سبيل النجاة .

وقال نجم الدين الكبرى ﵀ : لا تتصفى مرآة قلب المريد دون الربط مع الشيخ الكامل وترك الاعتراض عليه ، فإن الشيخ لا شكّ أعرف بمصالح المريد من نفسه والانقياد إلى الشيخ والتسليم له شرط أهمّ من كلّ وجه .

واعلم أنّ الجذبة وحدها من غير سلوك في الطريق المستقيم بامتثال أوامر الحقّ واجتناب نواهيه لا ينتج شيئا سوى الدخول في حزب البله والمجانين ، فغايته السلامة من مواطن الهلاك بسقوط التكليف ، كما في « المطالب الوفية » .

وكذلك السلوك بامتثال الأوامر واجتناب النواهي من غير جذب إلهي لا ينتج شيئا غير الدخول في حيز العلماء والعباد من أهالي الظاهر القانعين بما ظهر لهم من العلم والعبادة ، فيراهم الناس ويحمدونهم على ذلك فيرفعون أقدارهم ويكونون في باطن الأمر على رياء وعجب وكبر وحسد وغرور وغفلة وغير ذلك من أمراض القلوب ، ويظهرون بهذه الواقعات مشبّهين بالحيوانات العجم لا ينجون عن الهلاك الأبدي نعوذ بالله تعالى .

أمّا السلوك أوّلا ثمّ الجذب ثانيا أو العكس بأن يكون مجذوبا ثم يسلك إلى شيخ فهذان هما أهل الله تعالى وخاصته . انتهى .

ونذكر الفرق بين السالك المجذوب والمجذوب السالك ، ثم قال : الاستمداد الحاصل للمريد إنمّا هو من شيخه واستمداد شيخه من النبي ﷺ فهو

نائبه عنه ﷺ والنبي ﷺ نائب من ربّه ، فلو أنّ رجلا جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلاّ بالرياضة عند شيخ كامل مكمل وإمام ناصح مؤدب بالشرع عالم بالفنون ، فما حرم من حرم الوصول إلاّ بترك الأصول وترك الاقتداء بالدليل والسلوك في هوى نفسه عن سواء السبيل . انتهى

وقال فيها أيضا : وكان النبي ﷺ يلقّن هذه الكلمة الطيبة لأصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين لتصفية قلوبهم وتزكية نفوسهم وإيصالهم إلى حضرة الحق والسعادة القدسية ، لكن لا تحصل هذه التصفية والتزكية من هذه الكلمة الطيبة ومن سائر الأسماء الإلهية إلاّ إذا تلقنها الذاكر من شيخ عالم عامل فاهم معنى القرآن والحديث والسنن وفاطنٍ في العقائد وعلم الكلام متلقنا إيّاها منً شيخ آخر وهو أيضا من آخر هكذا تسلسل ذلك التلقين من المشائخ كابرا عن كابر إلى رسول الله ﷺ انتهى كلام « المتممات »ومثله في « جامع الاصول » وقال فيه : وكان الذكر لا يفيد فائدة تامّة إلاّ بالتلقين والإذن بل جعل الأكثرون التلقين شرطا . انتهى

وقال الإمام الرباني قُدِّسَ سِرُّهُ ما حاصله : لو أخذ الذكر بالتلقين من شيخ كامل يثمر مرتبة المقربين ، وإلاّ فيكون من قبيل عمل الأبرار ولا يثمر مرتبة المقربين عادة وفي الأكثر . انتهى كلامه

وكل مريد مال إلى أرباب الدنيا لقلّة الديانة أو قدم الباطن على الظاهر أو اكتفى بالظاهر عن الباطن أو بالباطن عن الظاهر أو بأحدهما مما لا يوافق على الآخر أو اكتفى بالعلم عن العمل أو العمل عن الحال والعلم أو بالحال عنهما أو لم يكن له أصلٌ يرجع إليه في علمه وعمله ودينه وحاله أو اكتفى من الأصول المسلمة في كتب الأئمة في الظاهر والباطن فهو هالك ومن أخذ بهما فهو ناج مسلم إن شاء الله تعالى . قاله في « جوامع الكلم » .

وفي التنزيل : ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وفيه أيضا : ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ وفيه أيضا : ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ .

قالوا : الكينونة معهم اثنان : صوري ومعنوي ، والثاني هو الرابطة .

قال في « الميزان الكبرى » : واعمل على تحصيل مقام الحضور مع ربّك في صلاتك على يد شيخ صادق ، وإياك أن تخرج من الدنيا ولم تصل صلاة واحدة كما ذكر وتكتفي بهذا سماعك بأحوال العارفين . انتهى .

وقال الفاسي ﷿ في « شرح الدلائل » : وقد قال الشيخ الشاذلي قدس سره العزيز : من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مصرا على الكبائر وهو لا يشعر ، ونسألك يا ربّ سر الأسرار المانع من الإصرار حتى لا يكون لنا من الذنب والعيب ما يفضحنا عندك يا أرحم الراحمين انتهى .

وقال شيخ شيخنا ﷿ : واعلم أنه إذا بلغ مقاما لا علم له به وانقطع عن السلوك فلا بدّ له من شيخ إذا كان سلوكه في صفات النفس والقلب وإذا بلغ المقام الروحاني فلا يمكن عبوره إلا بتصريف صاحب الولاية . انتهى

ثم اعلم أيّها السعيد الموفق أنّ الوصول إلى هذه الدرجة العظمى مربوط بالاتباع بسنّة سيّد المرسلين عليه وعليهم أفضل صلاة المصلين وأزكى سلام المسلمين ، فإن لم يمتثل بأوامره ولم ينته عن نواهيه لا يشم له رائحة هذه الدرجة العظمى ولئن سلم ظهور الأحوال والمواجيد من مثل هذا الرّجل فذلك يكون استدراجا ومكرا من الله تعالى ويكون سببا للهلاك والفضيحة يوم القيامة .

حاصل الكلام : الخلاص من غير اتّباع محبوب ربّ العالمين عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام مما لا يمكن أصلا .

واعلم أن للمشائخ النقشبندية ﷻ تصرفات عجيبة وحالات غريبة كجمع الهمة على مراد فيحصل ذلك المراد على وفق همتهم بعين التأثير في الطالب ودفع المرض عن المريض وإفاضة التوبة على العاصي والتصرف في قلوب الناس حتى يحبونه و يعظمونه وفي مداركهم حتى يتمثل فيها واقعات عظيمة والاطلاع على نسبة أولياء الله من الأحياء والأموات والإشراف على خواطر

الناس والكشف عن الوقائع الآتية ودفع البلية النازلة وغيرها وكل ذلك من خصائص هذه السلسلة العلية .

تَسامَتْ شُــؤونُ النَّقْشَــبَنْدِيَّةِ المَلا ... فَلَيْــسَ لَهُمْ بَيْــنَ الأعاظِــم أكْفاءُ
يَسيــرونَ بِالرُّكْبانِ فــي مَهْيَعِ الخَفا ... إلى حَرَمِ القُدْسِ النَّزيهِ كَما شَــاؤوا
بِصُحْبَتِهِــمْ تُمْحى وَســاوِسُ خَلْوَةٍ ... وَلِلْجَــذْبِ فيهــا لِلْبَواطِــنِ إهْــداءُ
وَإنْ قاصِـــرٌ يَـوْماً تَكَلَّــم فِـيهِــمُ ... فَما لــي بِما قَد فاهَ سَــمْعٌ وَإصْغاءُ
أَلِلثَّعْلَــبِ المُحْتالِ قَطْــعٌ بِـحيلَــةٍ ... لِسِلْسِلَــةٍ فيها مِنَ الأُسْــدِ أمْــلاءُ

رحمة الله تعالى عليهم أجمعين .

أما طريق التوجه إلى طالبي الحق جل وعلا فأن يتوجه الشيخ إلى نفسه في النسبة التي قصد إلقاءها على الطالب ثم يستعمل همة تامة قوية لإلقائها من جانبه إلى الطالب ، فتنتقل تلك النسبة إلى الطالب على وفق استعداده ، وإذا كان الطالب غائبا يتصور صورته ثم يتوجه إليه ويبلغ أمره إلى النهاية ، وكذلك كل أمر صعب يعرض فإنهم يجمعون الهمة ويسألون الله تعالى حله فيظهر على حسب منتهاهم .

وأما طريق الكشف من نسبة أهل الله تعالى فأن يجلس مقابله إن كان حيا أوقريبا من قبره إن كان ميتا ثم يخلي نفسه من نسبته ويجعل روحه متصلا بروحه زمانا ثم يرجع إلى نفسه ، فكلما وجد في نفسه من الكيفية فهي نسبة ذلك الإنسان ، وأما طريق الإشراف على خاطر إنسان فأن يخلي نفسه من كل خاطر ثم يجعل نفسه متصلا بنفس ذلك الإنسان فإن اختلج في نفسه حديث فهو خاطره ظهر بطريق الإنعكاس .

وأما طريق الكشف عن الواقعات المستقبلة فكذلك يخلي نفسه من كل شيء سوى الانتظار بمعرفة الواقعة المطلوبة فإذا انقطع عن حديث النفس وتمادى انتظاره كطلب الماء للعطشان يلحق نفسه بالملائكة الكرام فتكشف له الواقعة إن شاء الله تعالى إما بأن يسمعها من الهاتف أو بأن يراها في اليقظة والمنام .

وأما طريق دفع البلية النازلة فأن يلاحظ تلك البلية بصورتها المثالية ويتوجه لدفعها بالهمة القوية فتندفع بإذن الله تعالى . « المقامات السعيدية » ١٥٩ .

وقال أيضا : يا أخي الأرشد إنّ سادات وأكابر طريقة النقشبندية العلية قدس الله تعالى أسرارهم ألزموا الاتباع بسنة رسول الله ﷺ وأمروا باختيار العمل بالعزيمة ، ثم إن تشرفوا بهذا الاتباع والاختيار بالعمل على العزائم بالأحوال والمواجيد فتلك نعمة عظمى ، وأما إن وجدوا هذه الأحوال والمواجيد مع الفتور في ذلك الالتزام والعمل بالاختيار على العزائم فلا يفيد ذلك سوى الهلاك ، أمروا **أوّلا** بتصحيح الاعتقاد بعقائد أهل السنّة والجماعة كثّر الله تعالى سوادهم ، **وثانيا** التعليم من علم الفقه ما له تعلق على الفرائض والواجبات والسنن والمندوبات والحلال والحرام والمكروه والشبهة والعمل بمقتضى هذا العلم ، و**ثالثا** تصل النوبة إلى تعليم علم التصوف ، فإن لم يصلح له تينك الجناحين من تصحيح الاعتقاد على عقائد أهل السنة والجماعة واختيار العمل بعزائم مقتضى علم الفقه فمحال عليه الطيران إلى عالم القدس .

أما إن تيسر له هذه الأحوال والمواجيد في حال خلوه عن تلكما الجناحين فليعلم أنّه في الهلاك ويلزم عليه الاستعاذة من هذه الأحوال ، ونحن كم مرة ذكرنا أنّ مبنى هذه الطريقة على أصلين أصيلين اتباع سنّة النبي ﷺ ومحبة الشيخ المقتدى والاخلاص فيه ، فكل ما وجد من الأحوال والأذواق مع وجود هذين الأمرين فهو من ثمراتهما ، وإن لم يجد الأحوال والأذواق مع وجود هذين الأمرين مع الإخلاص فيهما فلا يضر ذلك الفقدان له ، ولعله يوجد في الآخرة بإذن الله تعالى . وقد قالوا : الفقدان بعد الوجدان أمارة الترقي وثمرة البقاء . وإن وقع الخلل فيهما أو في أحدهما - نعوذ بالله تعالى من ذلك - والأحوال والأذواق على حالهما في الأول من غير تفاوة فليعلم أنه استدراج

ومكر من الله ، نعوذ بالله فإنّه في المهالك والزيغ ، نعوذ بالله فليلاحظ أمره ، وهذا هو طريق الاستقامة والله سبحانه وتعالى أعلم والسلام .

وقد قرّروا في كتب القوم أنّ الخائب والخاسر في هذا الطريق هو الّذي يدخل في الطريق من غير رعاية آدابه ويخترع فيه أمورا محدثة ، وباعتماد الواقعات والمنامات يرتكب الأعمال والأفعال المخالفة لهذا الطريق عند القوم وقالوا أيضا : حقيقة تردها الشريعة فهي زندقة وإلحاد .

وقالوا أيضا : التصرّف في خلق الله تعالى بلا إذن منه سبحانه وتعالى بواسطة شيخ مرشد كامل وصرف وقته لأجل الناس غير جائز بل هو من أعظم الفتن في الدّين كما هو الغالب المشهور في زماننا هذا .

فصل

في بيان صعوبة معرفة المشائخ والأولياء من المتشيخين الجهلاء

قال في « جوامع الكلم » : الولي قد يكون مشهورا ولا يكون مفتونا .

قال سعيد بن سلام رحمه الله : سبحان من حجب المعرفة عن جميع خلقه ، حَجَبهم عن أبناء الدنيا بأستار الآخرة وعن أبناء الآخرة بأستار الدنيا .

قيل : معرفة الولي أصعب من معرفة الله عزّ وجل ، فإنّ الله تعالى معروف بكماله وجماله وجلاله ، ومتى تعرف مخلوقا مثلك يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب ، إنّ لله تعالى عبادا سترهم عن العامة وأظهرهم للخاصة ولا يعرفهم إلاّ مُشاكِلُهُم أو محبّ لهم وإن لله سبحانه وتعالى عبادا سترهم عن العامة والخاصة ، وإن لله تعالى عبادا يظهرهم في البداية ويظهرهم في النهاية ، وإن لله سبحانه وتعالى عبادا لا يظهر حقيقة ما بينه وبينهم لأحد حتى الحفظة وغيرهم . « شرح الحكم » لابن عبّاد رضي الله عنه .

وقال أيضا : وليّ الخلطة أعلى من ولي العزلة ، لأنّ الأول عند الله بمنزلة الوزير والثاني شِرْبُه« ١ » أحلى لأنه عند الله بمنزلة النديم« ٢ » انتهىكلامه .

ولأن وليّ الخلطة يقال له ولي مرجوع فالنهاية هي الرجوع إلى البداية لكونه في مرتبة الإرشاد وفي مرتبة النبوة وارثا منه عليه الصلاة و السلام ، والثانى يقال له ولي غير مرجوع وبقي هذا في مرتبة الولاية فقط .

وقال في « جوامع الكلم » أيضا : العارف فوق ما يقول والعالم دون ما يقول وثواب العالم من ربّه وكمال العارف احتراقه فيه .

« ١ » الشِّرب أي النّصيب .
« ٢ » النديم هو المصاحب والمُسامر .

وقال فيه أيضا : وجود العارف في الدنيا لغيره ووجود سائر الخلق لأنفسهم ، العارف في الدنيا كشمعة تضيء مع خفائها .

وقال فيه أيضا : قال بعض العارفين : إنّ الرجل العارف ليكون في السفينة لا يقدر على المشي على الماء وخدامه يمشون على الماء وينتفعون منه ويتلقون منه مواعظ وأسراراً ، ولو سار معهم على الماء لغرق في الماء .

قلت : قال بعضهم : من الناس شخص يرى العرفاء مقامه ورتبته عند الله تعالى وهو لا يدري أنّه صاحب حال أو مقام . انتهى

وقال في « روح البيان » : قال أبو يزيد ﷾ : أولياء الله عرائس الله ولا يرى العرائس إلاّ من كان مَحرما لهم ، أما غيرهم فلا ، وهم مخدَّرون[1] عنده تعالى في حجاب الأنس لا يراهم أحدٌ في الدنيا والآخرة .

وقال سهل ﵀ : أولياء الله تعالى لا يعرّفهم إلاّ لأشكالهم أو من أراد أن ينفعه بهم ، ولو أظهرهم حتى يعرفهم الناس لكانوا حجة عليهم فمن خالفهم بعد علمه بهم كفر ومن بعد عنهم حزن .

قال الشيخ أبو العباس ﷾ : معرفة الولي أصعب من معرفة الله تعالى كما ذكرنا آنفا ، لما أنهم ظاهرهم مزين بأحكام الشرع وباطنهم مشتغل بأنوار الحق سبحانه وتعالى ، ولذا قال الإمام الرباني ﷾ : ليس الكمال في ظاهرنا بل في باطننا ، ولذا قال في « جوامع الكلم » : لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشريّة . انتهى .

وقال فيه أيضا فى « جوامع الكلم » : قباب البشرية ستر للأولياء في الآفاق ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ . لا تنظروا لظاهر البشرية في قوم اختصهم الله تعالى للقرب منه ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ، فكيف تعرف الخواص المستترين بزي العوام ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ ستر الله أوليائه وملأ العالم بهم بحْرَه وبرَّه .

« ١ » المُخَدّرَة هي الجارية المَصونَة المُخَبّأة في بيتها .

تربية الشيخ تنفر عنها الطباع بخلاف تربية الطفل« ١ » ، قيل : قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ : العامة إذا رأوا إنسانا ينسب إلى الطريقة جاء من البراري والقفار أقبلوا عليه بالتعظيم ، وكم من بدل وولي بين ظهرانيهم فلا يلقون لهم بالا وهو الذي يحمل أثقالهم ويدفع الأعباء والأوزار منهم . انتهى

وقال الشيخ ابن بنت ميلق ﷺ :

لَوْ كُنْتَ تَدْري وُجودَ العَبْدِ كُنْتَ تَرى   فيه الكَمالَ كما النُّقْصانَ تَنْفيهِ

أي لو كنت ترى أيها الطالب الراغب وجود العبد اي حاله وكماله ويظهر لك ذلك بنور بصيرة يمنحك الله إياها لرأيت فيه الكمال ونفيت عنه النقصان وتمسكت بأذياله وحمت حول ممر فضله ونواله ، وهذا تحريض للسالك على تحصيل الرفيق في الطريق فإن طريق الله لا يمكن قطع فيافيها ولا طي مسافة بواديها إلا بالرفيق وهو الشيخ المرشد الكامل .

ومثل هذا لا يمكن الوصول إليه ومعرفته إلا بعناية من الله وفضل منه ، فحاصل الكلام : لازم أن يكون الشيخ من تحقق له الحرية وذلك أن من تحقق فيه العبودية ظهرت فيه الحرية وتمت له الخلافة الإلهية لأن حقيقة العبودية الخروج عن أوصاف البشرية ومن خرج عن أوصاف البشرية خلعت عليه أوصاف الربوبية فصار مظهرا من مظاهر الحق وخليفة من خلفائه . راجع « هداية الخلق » ميلق ١٦ .

وينبغي أن ينصح الجميع بما أمكنهم فيدلهم على التقوى والاستقامة وينهاهم عن المنكر والشهوات ويدعو لهم بالثبات والسعادة والمغفرة والتوفيق ويعلمهم ما أمكنهم من أمر دينهم ويشفق عليهم في دنياهم ويجتهد في ذلك بما يجتهد لنفسه لأن من قصد قوما وجد حقه عليهم ولينظر لكافة خلق الله بعين الرحمة واللطف والشفقة ويرحم صغيرهم ويوقر كبيرهم . انتهى

« ١ » يعني أن الطفل ولو قسا عليه والده فإنه يبقى يحبه ، بخلاف تربية الشيخ فلو قسا على مريده فإن الطبع ينفر عنه

قال في « جوامع الكلم » : المرشد يوصل المريد بجذبته وهمته لما أن الشيخ كالنبي في أمته الشيخوخة تقارب النبوة فعظّمها واقبل نصيحتي ، إن من إجلال الله تعالى توقير شيخ من أتى ، ستر الله أولياءه وملأ العالم به . . الخ .

رُبَّ أشعث أغبر مدفوع على الأبواب لو أقسم على الله لأبره

قال في « العوارف » : فالصوفي صاحب مشاهدة والمتصوف صاحب مراقبة والمتشبه في مقاومة النفس صاحب مجاهدة والمتشبه سالك لم يصل بعد إلى الأحوال والكل يجمعهم دائرة الاصطفاء قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾عن النبي ﷺ أنه قال : « كلهم في الجنة »

قال ابن عطاء الله ﷺ : الظالم الذي يحب الله تعالى من أجل الدنيا والمقتصد الذي يحب الله تعالى من أجل العقبى والسابق هو الذي أسقط مراده بمراد الحق فيه .

وقال أيضا : فلا يشقى جليس الصوفي والمتشبه بهم والمحب لهم والله تعالى أعلم . انتهى كلام « العوارف »

قال في « روح البيان » قبيل سورة المنافقين : قال البقلي رحمه الله تعالى : وفيه تأديب المريدين الذين اشتغلوا عن صحبة المشائخ بخلواتهم وعباداتهم لأجل طلب الكرامات ولم يعلموا أن ما يجدونه في خلواتهم بالإضافة إلى ما يجدونه في صحبة مشائخهم لهو .

وقال بعضهم : ما عند الله للعباد والزهاد غداً خير مما نالوه من الدنيا نقدا وما عند الله للعارفين نقدا من واردات القلوب وموارد الحقيقة خير مما في الدنيا والعقبى « روح البيان » .

وقال : قيل أيضا : أبناء السبيل تبسط لهم أسباب الدنيا[١] ؛ حتى يُظَنّ أنهم مُنِعوا منها لئلا يشغلهم فضولها .

قيل : مِن رجال الله من يضحك ولا يبكي ومنهم من يضحك ويبكي معا ومنهم من يبكي ولا يضحك ومنهم من لا يضحك ولا يبكي ، عباد الله ﷺ أبناء السبيل ، أخلاق ليس فيهم خَلاق[٢] . انتهى « جوامع الكلم » .

وقال السادات : ومنهم أي من المتشيخين طائفة واحدة تخيّلوا الكمال وأوهموا الوصول وعدوا أنفسهم في درجة المشيخة ويدعون الخلائق للاقتداء بهم ويفسدون استعدادات أكثر المستعدين بنقصانهم ويزيلون حرارة الطالبين بصحبة برودتهم ، ضلّوا وأضلّوا ضاعوا وأضاعوا ، ومثل هذا التخيل والتوهم في المجذوب السالك كثير ، والكامل الذي يقود الناس إلى رضاء الرحمن وكذلك مرتبة المشيخة من عطاء الله تعالى ليس للإنسان فيه دخل ، هكذا قرره السادات الكبار ، إلاّ أنّ هذا الكلام يحتاج إلى البسط والبيان ، فإن كان المراد من هذه المشيخة التي هي من عطاء الله تعالى تربية السالكين والجلوس في مقام الإرشاد للإرشاد فهذا من غير إجازة من المرشد الكامل ممنوع ، فإنّ اشتغاله بغير إجازة داخل في خيانة المريد .

وقال الإمام محمّد معصوم الفاروقي قدس سره في « مكتوباته » : لو أعطي الإجازة لتلقين الذكر والقيام للإرشاد إما في الواقعات أو في المنام بظهور أرواح الكبار من المشائخ العظام فهل يكفي هذا الإذن أو لا يكفي ؟

أجيب بأن الإجازة لإرشاد النّاس والقيام مقام المشيخة أمر عظيم ، ولا يجوز ارتباط مثل هذه الأمور بالرؤيا والواقعات ، بل لا بد من إعطاء الإجازة في حالة اليقظان .

« ١ » بمعنى أنهم يتعاطون أسباب الدنيا ولا يصلون إلى مقصودهم حتى يظن الناس أنهم ممنوعون منها لئلا يشغلهم فضولها .
« ٢ » لعله : أخلاق من ليس فيهم خلاق .

وقالو أيضا : إذا أعطي الإجازة يلزم على المعطي أن يشرط على السالك الاتباع بالشريعة العلية والتمسك بالسنة السنية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وقالوا : كل حال لا ينتجه العلم وإن كان خطيرا فضرره أكثر من نفعه .

وقالوا أيضا : التصوف الّذي هو تحت أمر الشريعة ونهيها فهو فرح وسرور ، وأساس الأمر هو الاتباع بالشريعة العلية والسنة المصطفوية والنجاة على الاقتفاء لأثر رسول الله ﷺ . وكذا الفرق بين المحق والمبطل هو الاتباع لرسول الله ﷺ وأن الزهد والتوكل والتبتل إذا لم يكونوا تابعين لسنة رسول الله ﷺ لم يكونوا مقبولين ، وكذلك الأذكار والأفكار والأشواق والأذواق إن لم يكونوا بالتوسل بالاقتفاء بسنة رسول الله ﷺ لا يرجى فيها النفع ولا يرى منها الخير . وفي هذا المقام كلام وتفصيل طويل فليطلبها من محلها .

فصل

فيما به يعرف كُمَّل المشائخ وصدق الأولياء

قال في « الرسالة المدنية » : فإذا صح اعتقاده بهذه الكيفية يطلب مرشدا كاملا مكمّلا حتى يتوجه له بالجذبات الإلهية وبانكسار بيوت الشياطين وبتصفية قلب السالك وبإخراج الخطرات الشيطانية من حيث يسقط اللعين من لوح القلب ومن تحته ، فحينئذ يكون قلبه منظرا للرحمن ومهبطا للفيضان وموردا للشاربين من الماء الحقيقي .

فتحقق كمال الشيخ يعرف بالجلوس عنده على طريق الإخلاص والطلب لا على الإنكار والعناد ، فحينئذ يظهر في قلبه أثر المحبّة والمودّة والميل والعشق إلى طلب علم الحقيقة وينشرح قلبه ، وهذا من كمال صفاء الشيخ وأثر توجهه وصحبته ، فبهذا يُصَفّي القلب عن الأوساخ الباطنية ، وهذا لا يحصل إذا كان الشيخ ناقصا ولا يعرف هذا بظهور الكشف والخوارق فإنّ أكثره يظهر من أهل البدع بل من بعض الكفار أيضا وهذا استدراج في حقهم ، عياذا بالله تعالى عنه .

فالأمر المعتبر هنا الاستخارة المسنونة الصحيحة الخالية من المخالطات النفسانية كما يظهر للقلب السليم بسبب صحة الاعتقاد ، وهذه التجربة معتبرة بعد وجدان الشيخ عاملا بعلمه حيث لا يترك السنن والمستحبات والآداب مزيّنا ظاهره بظاهر الشرع ، فإذا وجد الشيخ بالأوصاف المذكورة يستخير السالك إلى آخر ما قال . انتهى

وقوله **يعرف بالجلوس** الىآخره بالنسبة إلى قلب سليم يعلم ظاهره ما في باطنه ولعله أشار إليه بقوله : **كما يظهر للقلب السليم بسبب صحة الاعتقاد** ، وأهله نادر بل أندر ، ولذا قال : **فالمعتبر هنا الاستخارة** ، فلعلّه هو العمدة في هذا الباب لكن مع انكسار القلوب ، وإليه الإشارة بقوله : **كما يظهر للقلب السليم** ، وبقوله : **بسبب صحة الاعتقاد** .

قيل : قال شخص للإمام الأعظم ﵇ : إني أراك في الرؤيا في النار ، فقال الإمام الأعظم : إنك في سوء ظن في حقي فرأيتَ ظنك ، فافهم .

وبيّن في « الرسالة » طريق الاستخارة ، وفي شرح « الشرعة » أيضا في مواضع عديدة أنواع الاستخارة وكذا في غيرها من كتب الأخلاق ولكونها مشهورة هذا الفقير عن كتابتها معذور .

ثم قال فيها : وأمر الإمام الرباني مجدد الألف الثاني ﵇ بالاستخارة من واحد إلى سبع إذا لم ير في أوّله لأن الشروع والسلوك من غير استخارة منهي عنه بل تضييع للعمر فلا نتيجة له أصلا . انتهى .

وهذه الاستخارة أيضا إذا لم يكن في الشيخ ما يقوم مقام الاستخارة ، كما في « المكتوبات » .

ثم قال فيها : ثم يتوجه الشيخ لقلب السالك توجها جذبيا حتى تنكسر بيوت الشياطين حتى يخرج منه الدم السوداء التي استقرت في القلب كما أخرجها جبرائيل ﵇ من قلب النبي ﷺ كما في حديث عن أنس ﵁ رواه مسلم .

وعلم الباطن لا يحصل إلا بتصفية القلب واطمئنان النفس فإنه سرّ من الأسرار الربانية كما ورد في الحديث . انتهى

وقال في « جامع الأصول » : فإذا توجه المريد وصدق في قصده فالله سبحانه وتعالى يوصله إلى شيخ كامل ناصح ينهضه حالُه ولحظُه وينفعه قالُه ولفظُه . انتهى

ومثله : إذا توجه إلى سيد البشر ﷺ بالتوسل وطلب الشفاعة منه عليه الصلاة والسلام لعله يجد ما يجد من المشائخ الكرام من أهالي الكمال والتكميل فافهم واعمل تجد ما أقول ، فالاستخارة هي الاستينان والاتباع .

ورد أنّ النبي ﷺ كان يعلّم الصحابة الاستخارة كما يعلمهم السورة من القرآن كما في « الفتوحات المكية » وغيرها .

وقال فيه أيضا : ثم بعد الاستخارة يشرع في حاجته فإن كان له فيه خيرة سهل الله أسبابها إلى أن تحصل فتكون عاقبتها محمودة ، وإن تعذرت الأسباب ولم يتفق تحصيلها فيعلم أن الله تعالى قد اختار تركها فلا يتألم لذلك وسيحمد عاقبتها تركا وفعلا ، وينبغي لأهل الله تعالى أن يصلوا صلاة الاستخارة في وقت معين من ليل أو نهار في كلّ يوم . انتهى كلام « الفتوحات » .

ولكل من الاستخارتين دعاء مخصوص ذكره في « الفتوحات » فحاصل ما فيه : أنّ المؤمن إذا استخار استخارة مسنونة مروية ودعا بعد الصلاة دعاء مأثورا فإن كان الفعل خيرا له سهل الأسباب ببركتها فيحصل له الحاجة ويبارك فيها ، وإن كان الخير في الترك لم يسهل الأسباب ولم تحصل الحاجة وأمن من شرّها فيعلم بعد وقوع إحداهما ما هو خير له ، وأمّا استعلام الخير من الفعل والترك قبل وقوعهما لأمارة دلت عليه إما في اليقظة فهو لأهالي الكمال وصفاء القلوب في الانتهاء من أهل الكشف والفراسة ، وإما في الواقعة فهو أيضا لهم في التوسط وإما في النوم فهو لأهل الصدق في الإرادة .

قال الإمام الرباني قدس سره في « المكتوبات » ما حاصله : **الاستخارة مسنونة ومباركة في جميع الأمور لكن يلزم على المستخير بعد الاستخارة** أن ينظر ما ظهر في اليقظة أو الواقعة أو النوم مما يدل على كون أحدهما من الفعل أو الترك خيرا ، بل له بعد الاستخارة أن يرجع إلى قلبه فإن كان إقباله بعد الاستخارة زائدا من إقباله قبلها فهو يدل على خيرية الإقدام وإن لم يتغير الإقبال بالزيادة والنقصان فهو يدل على أن ليس فيه منع ، ولكن الأصل في هذه الصورة تكرار الاستخارة إلى سبعة ليعلم زيادة الإقبال وإن نقص الإقبال بعدها من الإقبال قبلها فهو يدلّ على المنع ، ولكن الأنسب عدم الاكتفاء بهذه الاستخارة والأحسن تكرير الاستخارة للإحتياط في الإقدام وعدمه . انتهى ج ١

وعلامة المرشد الكامل أن الطالب لو كان عالما وعارفا وساعيا في السلوك بتمام قدرته وكمال علمه ثم إذا توجه لروحانية المرشد في حضوره أوغيبته تكون تلك الكمالات والاجتهادات متلاشية ومضمحلة بالكلية ويتيقن أن ما كان حاصلا له قبل التوجه إلى المرشد ليس بشيء بل ليس له حاصلٌ قبل هذا ويعلم ذلك بالوجدان ويشاهده على التحقيق ويرى أن ما قطع من المنازل والمراحل في غاية القلّة في جنب مطالعة كمال المرشد وقوّة سيره وروحانيته التي كانت مبدلة بالطير عدد الجذبات الإلهية بحيث أن سير سنواته لا يساوي سير ساعة المرشد كما قاله الشيخ عبيد الله أحرار .

والفقير يقول : إنّ كمال الشيخ واستقامته يظهر في مريديه ، وأسهل طرق لمعرفة كمال الشيخ استقامة المريدين واتباعهم السنة السنية والقيام على آداب مشائخ طريقتهم خاصة مقتفين بآثار مولانا الشيخ خواجه بهاء الدين نقشبند ﷺ منكسرين خارجين من حظوظ نفوسهم ورعونتها ، فإن رأيت المريدين مع الأهوآء والحقد والمجادلة ففرّ منهم فرارك من الأسد . . الخ « الرسالة المدنية » .

وقال الشعراني ﷺ في « العهود الصغرى » المذكور : وبالجملة فالشيخ الذي يدل على الله يجب أن يكون قد سلك على طريقة شيخ عارف من مشائخ الطريق وتعب فيها وجاهد نفسه حتى زالت عنها الدعاوات وسلم من العقائد الزائغة وإلا فيجب اجتنابه ، فينبغي لمن تشوقت نفسه إلى سلوك طريق التجريد حتى يستغرق في بحار التوحيد أن يلازم التقوى والالتجاء إلى الله تعالى والتوسل إليه برسوله الصادق الأمين ﷺ أن يجمعه على شيخ عارف يدلّه على الله تعالى ويصافيه ويسقيه من خمر المحبة الإلهية ، فإذا اجتمعت به فشدّ يدك عليه وكن كالميت بين يديه وقل : الحمد لله الذي هدانا لهذا ، ثم خذ في الجد والاجتهاد وجد بنفسك لا بالمال كما قال ابن الفارض ﷺ :

وَمَن لم يجُدْ في حُبِّ نُعْمٍ بنفسِه ولو جادَ بالدّنيا إليهِ انتهَى البُخلُ

انتهى . « تنوير الصدر » .

وقال شيخ شيخنا ﷺ : وأماّ الاقتداء فقالوا : عشرة أشياء عظيمة فاحتفظ بها :

إذا رأيت رجلا يدعي حالا مع الله يخرجه عن أمر الشرع فلا تقربنّ منه ولا ترج فلاحه

وإذا رأيت رجلا يسكن إلى الرياسة والتعظيم فلا تقربن منه واقطع بعدم فلاحه أبدا

وإذا رأيت فقيرا عاد إلى الدنيا فلو مت جوعا فلا تقربن منه ولا تركننّ إلى مرافقته فإن رافقته قسا قلبك أربعين صباحا

وإذا رأيت رجلا يستغني بعلمه فلا تأمنن جهله

وإذا رأيت رجلا يرضى عن نفسه ويسكن إلى وقته فاتهمه في دينه واحذره أشدّ الحذر

وإذا رأيت مريدا يسمع القضيب والملاهي ويميل إلى الراحة فلا ترج فلاحه

وإذا رأيت فقيرا لا يحضر عند السماع بل يغفل ويشتهي فاعلم أنه قد حرم بركات ذلك بتشويش باطنه وتبديل فهمه . . « جامع الأصول » .

وقال مولانا أبو الفيوضات شيخ شيخنا ﷺ : وشروط الشيخ الذي يلقي المريد إليه نفسه : ذوق صريح وعلم صحيح وهمة عالية وحالة مرضية وبصيرة نافذة ، فمن فيه خمسة لا تصح مشيخته : الجهل بالدين وإسقاط حرمة المسلمين والدخول فيما لا يعني واتباع الهوى في كل شيء وسوء الخلق من غير مبالاة .

فصل

فيما ينافي الإرشاد والمشيخة وما لا ينافيه

اعلم أيها الأخ المسترشد أيّدك الله بالتقوى أنّ كل أحد سلك في الطريق ، وإن أكثروا الدعاوى الباطلة بزعمهم على الإرشاد بيد أن للسلوك أهلا وللإرشاد أهلها ولا يخفى ذوو الفضل لذويه .

قال في « جوامع الكلم » فيما يتعلق بالسلوك : فالحاصل أنّ صدور المباحات من الشيخ كالأكل والشرب والنوم وعدم الاشتغال بالنوافل لا يكون سببا لضعف الاعتقاد بل صدور المعصية من الشيخ أيضا لا يكون سببا لضعف الاعتقاد ، وكما قيل : الولي ولي وإن أتى حدا ما لم يخرج إلى حد الفسق إما بالإصرار على صغيرة أو الإتيان على كبيرة ينافي الحكم عليه بالولاية ظاهرا .

ولما سئل جنيد رضي الله عنه هل يزني الولي العارف تأمّل مليّا ثم قال : وكان أمر الله قدرا مقدورا .

وقال بعض المشائخ رضي الله عنهم : يا إخواني إن أمرتكم بطاعة ولم أفعلها فلا تأخذوا عليّ لأنه لا يقدح في الإفادة والإرشاد ، ولكن إن نهيتكم عن معصية وفعلتها مصرا عليها فذلك قادح في الاستفادة .

وقال أيضا : ولا تلعنوه فإنه يحب الله ورسوله . انتهى

وقال في « روح البيان » : قال حضرة الشيخ الأكبر رضي الله عنه : إذا شاء الحق إنفاذ حكمه كان أمر الله قدرا مقدورا يجري عليه القدر بما أراده تعالى ثم يرده إلى مقامه إن كان من أهل العناية والوصول ، قيل لأبي يزيد قدس سره أيضا : هل يعصي العارف ؟ فقال : وكان أمر الله قدرا مقدورا . انتهى

وقال أيضا : سئل أبو يزيد البسطامي قدس سره أيعصي العارف الّذي هو أهل الكشف ؟ قال : نعم ، وكان أمر الله قدرا مقدورا . يعني إن كان قدر عليه في سابق علمه فلا بد من وقوعه . انتهى

وقال في « المرقاة » في الجلد الأوّل في تفسير الحديث الشريف « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » الخ قال بعض المشائخ : من رآني في البداية كان صديقا ومن رآني في النهاية كان زنديقا . قاله علي القاري رحمه الله في « شرح عين العلم » .

وكان الرجل في ابتداء الإسلام إذا أمسى في رمضان حل له الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلي العشاء الأخيرة أو يرقد فإذا صلاها أو رقد حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى القابلة ، ثم إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه واقع أهله بعد صلاة العشاء الأخيرة فلما اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله إني أعتذر إلى الله تعالى وإليك من نفسي هذه الخطيئة إني رجعت إلى أهلي بعد العشاء فوجدت رائحة طيبة فسولت لي نفسي فجامعت على أهلي ، فقال عليه الصلاة و السلام : « ما كنت جديرا بذلك يا عمر » ، فقام رجال فاعترفوا بمثله فنزلت الآية وصارت زلّته سببا للرحمة لجميع الأمّة ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ قاله في « روح البيان » ومثله في « المدارك » و« الفتوحات الإلهية » المشهور بـ« جمل أفندي » و« التفسير الكبير » .

قال القاضي أبو عبد الله علي العامري رحمه الله في رسالته « الناسخ والمنسوخ » : أوجب الله صوم شهر رمضان على أمّة محمد صلى الله عليه وسلم وكان المؤمنون إذا أفطروا بعد المغرب يأكلون ويشربون ويتمتّعون بنسائهم إلى وقت النوم فإذا ناموا حرم عليهم الطعام والشراب والجماع ، وكانوا على ذلك إلى أن يقع أربعون رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلاف هذا الأمر فأكلوا وشربوا وجامعوا بعد أن ناموا ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى آخر ما قال ، فنزل جبرائيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اقرأ يا محمد ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ﴾ الآية . انتهى

قال في « الرسالة البهائية ترجمة الرسالة الخالدية » ما حاصله : إنّ العصمة ليست شرطا للولاية والدليل على ذلك إجراء الحدود وقطع الأيدي على الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين مع أنّ أدناهم أفضل وأقوى في الولاية من سائر الأمة ، ولذا جوّز البسطامي صدور الزنا من العارف وقال : وكان أمر الله قدرا مقدورا ، لكن الأولياء من الأحرار كانوا محفوظين من إصرار الذنوب بل يبادرون للتوبة والتضرع والاستغفار حتى يجدوا بسبب كثرة تضرّعهم وابتهالهم وندامتهم وبكائهم زيادة درجة ، ولذا قال ابن عطاء الله ﷗ : **رُبّ معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عزاّ واستكبارا .**

وقيل أيضا : ولي تائب أفضل من ولي محفوظ وإن تساويا في الأعمال والأوصاف .

وكان في زمان هذا رجل تصرفاته وتأثيراته للمريدين الصادقين ظاهرة كالشمس في وسط السماء ينكرون عليه لأكله اللذيذات من الأطعمة ولبسه الثياب الفاخرة مع أنّ الكل مباح ، ووردزنا ماعز ﷛ فرجم ، كما في « التوضيح » وغيره .

وذهب الإمام الرباني ﷗ في « مكتوباته » إلى ولاية جميع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين بل أتم وأكمل في الولاية من أفراد سائر الأمة ، حتى قال : إنّ الوحشي الذي قتل حمزة عمّ النبي ﷺ وعليهم أجمعين وهو الذي رأى رسول الله ﷺ مرّة واحدة بعد إسلامه أكمل وأفضل في الولاية من أويس القرني الذي تربى من روحانية سيد البشر عليه الصلاة والسلام مع أنه أفضل التابعين .

انتهى حاصل ما في « المكتوبات » ، ولعلّه هو الحق الحقيق لأنهم أفضل الأمة على الوفاق وذلك يقتضي ولاية الكل .

وقال الإمام محمد معصوم ﷗ في « مكتوباته » ما حاصله : إذا صدر من الولي بحكم البشرية كبيرة من الكبائر هل يسقط عن الولاية ؟ قال : الجواب المقرّر فيما بين المشائخ أن الفاني لا يرد لكن أكثر الخواص محفوظون من العجب والرياء لأن الفناء التام يرفع وينفي العجب والرياء من أصله ، ولكن

إذا صدر منهم بحكم البشرية يبادرون إلى التوبة ويسارعون إلى الحسنات المكفرات ويتداركون بها . انتهى

وقال الإمام الغزالي رحمه الله في « منهاج العابدين » : فالرياء المحض لا يكون من العارف ، وهذا عند بعض العلماء ، وعند الآخرين يكون الرياء المحض من العارف ، والصحيح عند شيخنا رحمه الله تعالى أن الرياء المحض لا يكون من العارف مع تذكر الآخرة ويكون مع السهو والنسيان ، فالرياء المحض أن يريد بعمله نفع الدنيا فقط أو المخلوط إرادة نفع الدنيا والآخرة جميعا . انتهى كلام « المنهاج » .

والرياء حرام بالإجماع لأنه من الكبائر للنصوص القطعية بذلك ، وقد سمى رسول الله ﷺ لذلك بالشرك الأصغر قاله ابن عابدين .

قال في « ترجمة النفحات » ما حاصله : إنّ في محفوظية الأولياء فيما بين العلماء كلام طويل الذيل والمختار فيما بين أرباب الطريقة أنّهم محفوظون من الإصرار على المعاصي لا من أصل المعاصي ، ولذا جوز الجنيد قدس سره صدور الزنا من العارف كما ذكرنا .

وقال الشيخ ركن الدين علاء الدولة : إنّ أولياء الله تعالى محفوظون من تحقير المعاصي واستصغارها[1] .

وروي عن صدر الرسالة ﷺ : « إن تغفر اللهمّ فاغفرْ جمّا وأيّ عبد لك لا ألمّا[2] » وفي التنزيل : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ .

وقال في بعض التفاسير عند قوله تعالى : ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ : أحوج من يحتاج إلى التوبة من يظن أنه لا يحتاج إلى التوبة .

« ١ » قال الشيخ ركن الدين علاء الدولة حين تكلم عن الأولياء : ولا مجال لنسبة الكذب إليهم فإنهم أولياء الله اصحاب كرامات محفوظون من الله تعالى والله أعلم « فواتح الرحموت شرح مسلّم الثبوت »٣٤٤/٣
« ٢ » أي : وأي عبد لك لم يلمّ بالذنب .

وقال الإمام السيوطي رحمه الله تعالى في « الجامع الصغير » في باب الهمزة : إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره سلب من ذوي العقول عقولهم حتى ينفذ فيهم قضاءه وقدره ، فإذا أمضى أمره رد الله إليهم عقولهم ووقعت الندامة . عن أنس وعلي رضي الله عنهما . انتهى

وقال رسول الله ﷺ فيما نقل عن العزيز الذي سأل رسول الله ﷺ عن التصوف في الرؤيا قال : التصوف ترك الدعاوى وكتمان المعاني« ١ » .

وقال بعض العارفين أيضا : إنّه يلزم على السالك أن يجتنب عن ثلاثة أصناف من الناس : **العلماء الغافلون والقراء المداهنون والمتصوفة الجاهلون**

وقال أيضا : كلّ سالك كان في نسبة الشيخ الذي لم يوافق عمله بسنة رسول الله ﷺ ولم يتحل بحلية الشريعة الغراء فليُتباعد من هذا الشيخ وفرّ منه فرارك من الأسد ولتُهاجر من بلدته وذلك لئلا يحصل لك الضرر بسراية الأحوال فإن الأحوال سارية والطبيعة سارقة كما ذكر ، ومثل هذا الشيخ لا يصلح للاقتداء به ولا يكون أهلا للمشيخة وإن ظهر منه ما ظهر من الكشوفات والكرامات وخوارق العادات

وقال الإمام جنيد البغدادي سيد الطائفة رضي الله عنه : الطرق كلها مسدودة إلا لمن اقتفى أثر رسول الله ﷺ .

وقال هو أيضا قدس سره : من لم يكن له حفظ القرآن وتقريره وكتب الحديث وتحريره فهذا الرجل لا يصلح الاقتداء به ولا أن يؤخذ منه العهد وذلك لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

« ١ » عن جعفر بن مُحَمَّد بن نصير الخلدي ، قال : ثلاث مسائل سألت عدة من المشايخ فلم يجبني أحد ، رأيت رَسُول اللَّه ﷺ في المنام ، فقلت : يا رَسُول اللَّه ، ما التصوف ؟ قال : ترك الدعاوى وكتمان المعاني ، فقلت له : ما التَوحيد ؟ قال : ما حده فكرك أو أَحاط بك همك أو أصبته بحواسك ، فالله بخلافه إنما نسلم التوحيد لمن جرده من أربعه : من الشرك ، والشك ، والتشبيه ، والتعطيل ، فقلت له : ما العقل ؟ فقال : أدناه ترك الدنيا ، وأعلاه ترك الفكر في ذات الله تعالى « ذيل تاريخ بغداد لابن النجار » ٥٧٦ .

فصل

في إنكار المشائخ الكاملين والأولياء الصالحين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين

اعلم أيها العزيز أنّ سادات الأولياء سرج الدنيا والآخرة وبهم تعم البركة وبهم تنزل الرحمة وترفع البلية وقد خلقهم الله تعالى رحمة للعالم ، والتوقع فيهم من أعظم المصيبات والفتنة ، وسنذكر رمزا في حق ذلك مع ما يدل على قبحه من الدلائل اختصارا ، كما ذكرنا في هذه الأرجوزة في مواضع عديدة ما يدل عليها .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في « أصول الأربعين »[1] ما يؤيد ما قلنا[2] : قال الله ﷻ : ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ ، وإيّاك وأن تكون من المنكرين لها فتلقى العذاب الشديد إذا كوشفت بالحق عند حضور وقت سكرات الموت الذي كنت منه تحيد وقيل لك ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾

واعلم أن الإيمان والعلم والذوق ثلاث درجات متباعدة بعضها فوق بعض ، ثم قال : فكذلك القول في الفناء والتوحيد ، فالذوق مشاهدة والعلم قياس والإيمان قبول بحسن الظن مع الانفكاك عن التهمة ، فاجتهد أن تكون من أهل المشاهدة فـ « ليس الخبر كالمعاينة » . انتهى

وفيه بيان التوحيد قبيل هذا وفيه تفصيل مهم للمتفطن المتشوق .

ومنها ما في « جوامع الكلم » : ومن سوء الأدب الاعتراض على المشائخ والأولياء وأن يترك تعظيمهم واحترامهم وأن لا يقبل إشارتهم فيما يشيرون

« ١ » كتاب « الأربعين في أصول الدين »

« ٢ » فهذه أمورٌ نبّهتُ عليها لتكون متشوّقا إلى أن تصير من أهل الذوق لها فإن لم تكن فمن أهل العلم بها فإن لم تكن فمن أهل الإيمان بها « الأربعين في أصول الدين »

عليه فقد قالوا : عقوبة الإساءة للأدب لا توبة لها ، ثم ذكر الحديث إن الله سبحانه وتعالى قال : « من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب » .

وقال أيضا : فإيذاء الناس خصلة مذمومة ولكن من يؤذي الأبوين والشيخ والأستاذ فهذا شره زائد فوق الحد . انتهى

ومنها ما في « المرقاة » وعن أبي هريرة ﷺ : « من عادى » أي آذى « لي وليا » أي واحدا من أوليائي فعيل بمعنى مفعول وهو من يتولى الله أمره فلا يكله إلى نفسه لحظة أو مبالغة فاعل وهو المتولي عبادة الله تعالى وطاعته على التوالي والأول يسمى مرادا ومجذوبا سالكا والثاني مريدا وسالكا مجذوبا واختلف العلماء أيهما أفضل « فقد آذنته » أي أعلمته « بالحرب » أي بمحاربتي إيّاه لأجل ولي .

قال الأئمة : ليس في المعاصي من توعد الله أربابها بالمحاربة سوى هذا وكذلك في أهل آكل الربا بقوله تعالى : ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ، وهذا يدل على أنّ في هذين الخصلتين من عظيم الخطر ، إذ محاربة الله للعبد تدل على سوء خاتمته نعوذ بالله من ذلك ألف مرة ، لأنّ من حاربه الله تعالى لا يفلح أبدا . انتهى

ومنها ما في « روح البيان » في قوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ : وفي « التأويلات النجمية » : أي الذين تكبروا على أولياء الله وامتنعوا عن قبول النصح والموعظة منهم .

ومنها أيضا ما في « روح البيان » : فمن كان من الأبرار فإن الأبرار لفي نعيم ومن كان من الفجار فإن الفجار لفي جحيم ، والفجور نوعان : فجور صوري وهو ظاهر وفجور معنوي وهو إنكار أهل الله تعالى والتعرض لهم بسوء . انتهى

ومنها أيضا : واعلم أنّه غلب على أهل زماننا هذا مخالفة أهل الحق والاستهزاء بهم وبكلماتهم الخارجة عنهم في وقت السكر وغلبة الحال إلاّ من شاء الله به الخير من أهل النظر وأرباب الإرادة وقليل ما هم ، فكما أن الله تعالى هدّد كفار الشريعة في طريق العبارة كذلك هدد كفار الحقيقة في طريق الإشارة ، فإنّه لم ينفلت أحد منهم من يد القدرة إلى يومنا هذا وكلهم عوقبوا على ما هم عليه . انتهى

وقال أيضا : من أنكر من العلماء من أصحاب هذا الشان لا يكون هذا في عداد العلماء .

ومنها ما في « اللمعة » : وقد ابتليت هذه الطائفة بإيذاء الخلق لهم خصوصا أهل العلم الظاهر ، فقلّ أن تجد منهم من شرح الله صدره بالتصديق لولي معيّن ، بل يقولون : نعم الأولياء موجودون لكن أين أولئك الأولياء في هذا الزمان بل انقرضوا وفنوا لم يبق منهم رجل .

ولقد قال لشيخنا ﷺ«١» جامع القطبتين رجلٌ عنده من علوم الظاهر أن مثل أخبار الصالحين كمثل أخبار الجن تسمع أخبارهم ولا تراهم ، فقال شيخنا ﷺ : أنت يا أخي من الصالحين ؟ قال : لا ، قال شيخنا أيضا : فأنت مشتاق إليهم ؟ قال : لا ، قال شيخنا : فأنت لست بصالح ولا مشتاق فكيف تراهم ؟ ! ثم قال له : قال شيخنا رحمه الله تعالى : أولياء الله عرائس الله ولا يرى العرائس إلاّ المحرمون ، قال«٢» : صليت الجمعة بجامع الأزهر بالقاهرة فقال رجل لفقيه : إنّ رجلا لماّ دخل على شيخه انفتح له الحائط فدخل منه وسلّم على الشيخ فلما خرج عاد الحائط إلى ما كان عليه ، فقال الفقيه : الله ينفعنا بالشيخ ، فقلت : كيف ينفعك الله به وأنت تحقر ربّه ؟ أنا أقول لك مسألة في الفقه : إنك تؤمن أنّ الله يشق الحائط للشيطان ويجري من بني آدم مجرى الدم ؟ قال : نعم ، قلت : إنك تستقلّ هذا في عدو من أعداء الله تعالى وتستكثر في حبيب من أحبابه ! وتقول بأن كرامات الأولياء حق باللسان فإذا سمعها أذنك أنكرت ! . انتهى

ومنها ما في ترجمة « المكتوبات » للإمام الرباني ﷺ : اعتراض أهل الله تعالى سمّ قاتل .

ومنها ما في « روح البيان » : نعوذ بالله من الإطالة على الأنبياء وورثتهم الأولياء انتهى .

« ١ » محمد ذاكر الجسطاوي ﷺ .
« ٢ » لعلّ القائل الشيخ الجسطاوي ﷺ .

ومنها ما في « متممات جامع الأصول » : وقال شيخ الإسلام المحرزي ﷺ : لا يجوز لأحد من العلماء الإنكار على الصوفية إلاّ إن سلك طريقهم ورأى أفعالهم وأقوالهم مخالفة للكتاب والسنة والإجماع والسلف الصالحين ، وأمّا الإشاعة والظن والتخمين والكذب والافتراء والبهت عليهم فلا يجوز الإنكار عليهم ولا طعنهم ولا سبهم . . وأطال في ذلك ثم قال : وبالجملة فأقل ما يلتزم على المنكر حتى يسوغ له الإنكار على أقوالهم وأفعالهم أن يعرف سبعين أمرا ثمّ يسوغ له الإنكار ، وبيّن فيها هذه السبعين ، فمن أراد الوقوف فلينظر إلى الكتاب والفقير اكتفى بهذا القدر .

وقال فيها أيضا نقلا عن سيدنا الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال : من أراد أن يفتح الله على قلبه نور الحكمة فعليه بالخلوة وقلّة الأكل وترك مخالطة السفهاء وبعض العلماء الذين ليس معهم إنصاف ولا أدب . انتهى كلام « المتممات » .

وأمّا ما في « الفتاوى الخيرية » في « شرح الجامع الصغير » للمناوي في قوله ﷺ « **من أحب قوما حشره الله تعالى في زمرتهم** » قال : من أحبّ أولياء الله فهو معهم في الجنان ومن أحب أولياء الشيطان فهو معهم في النيران .

وفيه إشارة عظيمة لمن أحب الصوفية أو تشبه بهم مع تفريطه بالقيام بما عليه يكون في الجنة والتشبه بهم إنما فعل ذلك لمحبته إيّاهم والمحبة لهم لا تكون إلاّ لتنبه روحه كما تنبهت له أرواحهم ، لأنّ محبّة الله تعالى إنما تكون بمحبة أمره ومحبة من يقرب إلى محبته والمحبة لهم لا تكون إلاّ بجاذب الروح إلاّ أنّ المتشبه تعوق بظلمة النفس عن أعمالهم الخير والصوفي خلص من ذلك . انتهى

وحقيقة ما عليه الصوفية لا ينكرها إلاّ كل نفس جاهلية غبيّة[١] يخبر الذائق عن ذوقه فينكره من هو عديم الذوق ، ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ قاله فى « جوامع الكلم » .

« ١ » في الأصل : انتهى كلام الفتاوي الخيرية .

وقال في « الرسالة البهائية » : أيقن أرباب الكشف وبيّنوا أنّ من فتح باب الاعتراض على أهل الله تعالى يموتون على سوء الخاتمة نعوذ بالله تعالى .

وأيّده البعض في الكتاب بدلالة الحديث القدسي . انتهى

وفيه تفصيل كامل لكن هذا في أهالي التصرف كما هلك شمس الدين ﷾ مريد خواجه بهاء الحق و الدين ﷾ بسبب ترك أدب واحد لشيخه خواجه بهاء الحق والدين ، كذا في ترجمة « الرشحات » في مناقب خواجه بهاء الدين ، وأمثاله كثيرة مذكورة في عدّة مواضع في عدّة أشخاص .

وقال بعض العارفين : طرائق السادات السابقين كلها في الحقيقة مقيّدة بالكتاب والسنة ، فهؤلاء هم أهل التصوف وهم العلماء الذين عملوا بالشريعة والطريقة وهم الوارثون لرسول الله ﷺ وهم الذين اتبعوه عليه الصلاة والسلام في الأقوال والأفعال والأخلاق وأَلْتَمِسُ منكم حقّ الالتماس أن لا تعدوا من العرفاء من تهاون لأدب من آداب النبي ﷺ وترك سنة من سنن المصطفى ﷺ ، ولا تغترّوا بأفعاله الخوارق للعادات وأقواله المزخرفة . انتهى كلام محمد معصوم ﷾ .

و قال إسماعيل حقي ﷾ في « خطابه » : العلم لا يحتاج إلى الحال وأمّا الحال فيحتاج إلى العلم .

وقال أيضا فيه : من لم يجمع بين علمي الظاهر والباطن فلا يكون علمه مطلقا ، فيندر منه التربية والتسليك لأنّ طريق القوم مقيّد بالكتاب والسنة إلاّ إن وقع التعليم الإلهيّ ، وورد في بعض الأخبار : « ما اتخذ الله من ولي جاهل ولو اتخذ لعلّمه » يعني لا يكون الجاهل ولياّ في العرف ، أماّ إذا أراد الله اتخاذ الجاهل ولياّ فإنّ الله تعالى يقدّم عليه التعليم ثمّ يتّخذه وليا بعد التعليم .

ويلزم على المريد تعلم علم الحال وتعلم العلوم الدينيّة ويفرّق بين الفرائض والسنن وبين الحلال والحرام وأن يترك ما لا يكون من مهمات الدين ، وقال أيضا : الشيخ ولي في العرف[1] .

وقيل : من لم يكن له أدب الشريعة وأدب الطريقة فلا يجوز الاقتداء به وإن كان صادقا في الأحوال لأنّ من اقتدى بمن ليس له أدب يكون هو أيضا غير أديب ، فإنّ الأدب إنما هو صفة الرجل الذي وصل إلى الحقيقة يعني أنّ الأدب الكامل إنما هو أثر الوصول إلى مقام السرّ .

فعلم منه إذا لم يصح الاقتداء لصاحب الحال الذي هو تارك الأدب فكيف يصح الاقتداء بتارك الأدب الخالي عن الحال ، فالاقتداء بأمثال هؤلاء الناس إنما هو علامة جهلاء الأمصار .

وقال : إنّ الأمور الوحدانية التي هي من أثر الأوامر لو لم يخرجها إلى الوجود بالارتكاب عليها لا يصل هو أيضا إلى مراده .

قال في « تنوير الصدر » : والحاصل : إن محاسن العباد مساوي وحقائقهم دعاوى لأنّ الدعوى الصادقة تحدث في القلب ظلمة فكيف بالكاذبة كما قيل :

فَدَعْوَةُ المَرْءِ تُطْفي نورَ بَهْجَتِهِ وَلَوْ بِحَقٍّ فَكَيفَ المُدَّعي زَللا

وسئل إسماعيل السلمي رحمه الله تعالى عن هذه الدعاوى من أين تتولد فقال : من الاغترار وتشويش الأسرار .

وكان يقول أيضا : إنما تتولد من فساد الابتداء ، فمن صحّت بدايته صحت نهايته . انتهى

وكان العارف ذو النون المصري رحمه الله تعالى يقول : كل مدع محجوب بدعواه . اهـ

« ١ » أي بما أنه تقرر أن الولي لا يكون جاهلاً والشيخ كما هو معروف ولي لله تعالى فيتقرر وجوب كونه عالماً بناء على ما تقدّم .

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمه الله تعالى يقول : عليك بالعمل وإياك وشقشقة اللسان بالكلام في طريق القوم دون التخلق بأخلاق أهله . اهـ

العلم والمعرفة فوق جميع أقرانهما وقد كثرت الدعوى في هذا الزمان وكَثُرَتْ المرشدون مع احتياجهم للمربي ويتكلمون الناس بما يوهم الناس أنهم من أهلها ويحسبون أنهم على شيء ، يملؤن بطونهم من الطعام سواء كان حلالا أو حراما . اهـ

وسمعت من شيخنا الأستاذ السباعي ﷺ نقلا عن والده العارف السيد الصالح السباعي ﷺ أنه كان يقول منشداً :

أمَّا الخِيامُ فَإنَّها كَخِيامِهِمْ   وَأرى نِساءَ الحَيِّ غيرَ نِسائِهِمْ

وقد أشار إلى ذلك ابن الفارض ﷺ :

تَعَـرّضَ قـومٌ للغـرامِ ، وأعْرَضـوا   بجانِبِهِـمْ عَـنْ صِحَّتـي فيـهِ واعتلُّوا
رَضُـوا بالأمانـي وَابتُلَـوا بحُظوظِهِم   وخاضُـوا بحارَ الحُبّ دعوَى فما ابتلّوا
فَهُمْ في السّرى لم يَبْرَحوا من مكانهم   وما ظَعَنوا فـي السَّيرِعنه ، وقد كَلّوا

يعني أن هؤلاء القوم المذكورين تصدّوا لدعوى الحب الرباني مع كونهم معرضين عن طريق السداد متصدّين لمجرد الدعوى الكاذبة بتدليس أنفسهم عليهم أنهم عرفوا الله المعرفة الذوقية فأحبوه تعالى مع أنه لا يعرف الله تعالى المعرفة المذكورة إلا من فني واستهلك عن بشريته في وجود الحضرة الإلهية .

وبيان ذلك : أن سبب الفناء المذكور أن المحبوب الحقيقي إذا توجه بجماله إلى عبده السالك في طريقه تعالى نوّر قلبه فتضمحل رسوم ذلك العبد فيموت الموت الاختياري أي تموت نفوسهم كما قال سبط ابن الفارض ﷺ :

إحْياءُ أهْلِ الحُبِّ مَوْتُ نُفوسِهِمْ   وَمَوْتُ قُلوبِ العاشِقينَ مَصارِعُ

كما مرّ مع كونهم لا يفنون عن دعوى وجودهم في وجود ربهم الحق فلم يعرفوه المعرفة الذوقية فلم يموتوا الموت الاختياري ومع ذلك ادعوا معرفة الله كذبا ، كمن ينظر إلى غيره وهو يأكل شيئا حامضا فيغمض هو من الحموضة كأنه ذائق لذلك وليس في فمه شيء وكذلك هؤلاء المدعون ليس عندهم شيء . « تنوير الصدر » ٢٧٠

وقال في « القواعد » في صحيفة ٩ : واعلم أنّه ما ظهرت حقيقة قطّ في الوجود إلاّ قوبلت بدعوى مثلها وادخال ما ليس منها عليها ووجود تكذيبها ، كل ذلك ليظهر فضل الاستتار وتتبين حقيقتها بانتفاء معارضها فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثمّ يحكم الله آياته ، وللوارث نسبة من الموروث ، وأشدّ الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل ، إنمّا يبتلى الرجل على قدر دينه ، فمن ثم كان أهل هذا الطريق مبتلين بتسليط الخلق أوّلا وبإكرامهم وسطا وبهما آخرا .

قيل : لئلا يفوتهم الشكر على المدح ولا الصبر على الذمّ ، فمن أراده فليوطن نفسه على الشدّة ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ فافهم . « قواعد » ٩

واعلم أيها الأمين إني بسطت الكلام في حق الشيخ والمشيخة حتى ينفر منه طبع الناظر بناء على أهمية الأمر في تفصيله ، وكونه أحق للتفصيل لكون الإسلام مع غربته في هذا الزمان أنّ بعض الناس لأجل الدنيا يريدون محقه بالكلية .

فمن علامة ذلك ابتداع أمور في هذه النسبة السنية الصديقية التي هي زبدة الشريعة ووسيلة الحقيقة ، كيف لا وقد سمعت من بعض المتشيخين لماّ سئلوا من أين أخذوا هذا الذكر والزعقات والمجالس المضحكة وهل كان الذكر الجهري لدى نقشبند بهاء الحق والملة الشيخ محمد البخاري الأويسيّ قُدِّسَ سِرُّهُ فأجاب : وهل كان الناس في زمانه كما في زماننا والناس كانوا وقتئذ بكيف وفي زماننا بكيف آخر ، فلأجل ذلك لازم أن يكون الذكر بالجهر لا بالسر .

فانظر في هذا الجواب وجهالته وعدم معرفته على أنّ النظر للأزمنة والأشخاص لا من حيث أصل شرعيٍّ أمرٌ جاهليٌّ حيث قال« ١ » الكفار : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ فرد الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾، فردّ الله تعالى عليهم : ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ .

فلزم النظر لعموم فضل الله تعالى من غير مبالاة بوقت ولا شخص إلاّ من حيث ما خصّه الله تعالى به ، والأولياء في ذلك تبع الأنبياء لأنّ الكرامة شاهدة للمعجزات والعلماء ورثة الأنبياء في الرحمة والحرمة وإن تباينا في أصل الفضل فافهم . « قواعد » ٥٢

« ١ » أي : قال الله تعالى على لسان الكافرين .

فصل

في عدم وجدان المشائخ الكمل والحرمان من أنوارهم[1]

وهو يقتضي الإنكار وقد عرفت ما فيه من الجهالة والغباوة ، كما في « فتاوى الخيرية » ، وخوف سوء الخاتمة كما « في اللمعة » ، ومن العذاب الشديد كما في « أصول الأربعين » للإمام الغزالي رحمه الله ، وإيراث الفسق كما قاله الإمام مالك رضي الله عنه كما سبق نقلا عن علي القاري عليه رحمة الله الباري ، وكونهم من المحرومين كما في « اللمعة » لأنهم موجودون في كل عصر كما عرفت مما سبق ، وعدم كونهم في سلسلة السادات ونسبتهم كما في « جامع الاصول » وعدم دخولهم في الذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، والحرمان من الذكر الخفي الذي لا تسمعه الحفظة مع فضله على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين ضعفا على ما ورد في الحديث الشريف كما في أصول الأربعين وغيره ، والحرمان من تطهير القلب الذي هو أهم المهمات كما في « عين العلم » وفي التنزيل : ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ، والحرمان من تزكية النفس الواجبة علينا وعلى كل مسلم فيحرم من الوعد بالخير في الجنان بقوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، ويستحق الوعيد بالعذاب في النيران بقوله تعالى : ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ .

والمفسرون فسروا لهما بالتزكية والإكمال ، والحرمان من كمال الإخلاص وحقيقة الواجب على العباد كما في « المكتوبات » للإمام الرباني قدس سره وهو السمّ القاتل كما قاله فيها أيضا ، والفجور المعنوي الموجب للعقاب كما في « روح البيان » إلى غير ذلك مما لم نذكر .

« ١ » لعلّ المراد : بناءً على ما تقدّم من كون الشيخ الحقيقي نادر الوجود في هذا الزمان ، فكان حكم النادر كالمعدوم ، أراد المؤلف رحمه الله تعالى تبيين هذه النقطة وإيضاح المشكلة فيها بأن الباحث إن كان صادقا لا بدّ أن يجدهم إن صحّت نيّته ولا يجوز إنكار وجودهم والحكم بانعدامهم لأنهم لا يخلو عنهم زمان .

قال ابن عطاء الله رضي الله عنه بعد أن ذكر أنه لا بد من الشيخ في الطريق على سبيل الوجوب كيف تأمر بذلك وقد قيل : إن وجود الشيخ كالكبريت الأحمر وكالعنقاء فمن ذا الذي بوجوده يظفر فكيف تأمرني بتحصيل من هذا شأنه ؟ فقال : لو صدقت في الطلب وكنت في طلبه كالطفل في طلب مرضعته أو كالظمآن في طلب الماء لظفرت بالشيخ ، فإن الطفل والظمآن لا يقرّ بهم قرار ولا تسكن روعتهم حتى يظفروا بمقصودهم .

فأشار رضي الله عنه أن الشيخ موجود ، وكيف لا يكون موجودا وعمارة العالم إنما هي بأمثاله ، فإن العالم شبح والأولياء روحه فما دام العالم موجودا لا بد من وجودهم ، ولكن لشدَّة خفائهم وعدم ظهورهم حكم بفقدانهم .

قال في « جوامع الكلم » : من دخل الدنيا ولم ير رجلا صالحا كاملا يربيه خرج من الدنيا وهو متلوث ولو كان له من أعمال الأبرار مثل ما بين السماء والأرض . انتهى

وقال في « روح البيان » : سمعت كثيرا من المشائخ يقولون : من لم يَرَ مُفْلِحاً لا يفلح أبداً . إلى آخر ما نقلناه في الفصل الرابع .

وقال في « الإحياء » : إنّ من يحب أستاذه وشيخه لأجل كونهما وسيلة إلى تحصيل العلم والعمل والفوز في الآخرة وإلى رضاء الرحمن فهذا من الحب في الله ، وكذلك من يحب تليمذه لأجل كونه يَتَلَقَّفُ« ١ » منه العلم وينال بواسطته رتبة التعليم ويرقى إلى درجة التعظيم في ملكوت السموات ، إذ قال عيسى عليه السلام : من تعلم وعمل وعلّم فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء ، ولا يمكن التعليم إلاّ بالتعلم فهو إذا آلة في تحصيل هذا الكمال فإنّ محبته إنما هو لأجل كونه آلة إذ جعل صدره مزرعة لحرثه الذي هو محل لبذره الذي هو سبب ترقيه إلى رتبة التعظيم في الملكوت فهو من الحب في الله .

« ١ » أي يتناول ما ترمي إليه .

وقال الإمام الغزالي ﵀ في « الإحياء » : ثم اعلم أن كلّ انسان جاهلٌ بعيوب نفسه ، ثم قال فيه : من توضأ ورفع الحدث وصار صالحا للصلاة يحتاج إلى إمام يقتدى به ، فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدى به لا محالة ليهتدي به إلى سواء السبيل فإنّ سبيل الدين غامض وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة ، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة ، فمن سلك سبل الوادي المهلكة بغير خفير«١» فقد خاطر بنفسه ، ويقال في المثل : المستقل بنفسه كالشجرة التي نبتت بنفسها فإنها تجف على القرب وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر ، فمعتصَم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه فيتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر القائد بحيث يفوض إليه أمره بالكلية ولا يخالفه في وِرْدِهِ ولا صَدْرِهِ«٢» ولا يبقى في متابعته شيء ، وليعلم أن نفعه في خطأ شيخه لو أخطأ أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب ، فإذا وجد مثل هذا المعتصَم وجب على معتصمه أن يحميه ويعصمه بحصن حصين ينفي عنه قواطع الطريق . انتهى

وقال أيضا فيه : اعلم أنّ الله تعالى إذا أراد بعبد خيرا بصّره بعيوب نفسه ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم ، يرى أحدهم القذى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه ، فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق .

ثم قال بعد تعداد الطرق الأربعة : وهذا كله حيل من فقد شيخا عارفا بصيرا بعيوب النفس مشفقا ناصحا في الدين فارغا عن تهذيب نفسه مشتغلا بتهذيب عباد الله تعالى ناصحا لهم ، فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الذي يخلّصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذي هو بصدده . انتهى

وقال فيه أيضا : علم المكاشفة هو علم الباطن وذلك غاية العلوم فقد قال بعض العلماء العارفين : من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله ، وقال آخر : من

« ١ » أي دليل .
« ٢ » الوِرْدُ هو الموافاة والقدوم والصّدر هو الانصراف والذهاب .

كان فيه خصلتان لم يفتح له شيء من هذا العلم بدعة وكبر ، وقيل : من كان محبا للدنيا أو مصرّا على هوى لم يتحقق به وقد يتحقق بسائر العلوم ، وأقلّ عقوبة من ينكره أنه لا يذوق منه شيئا وهو علم الصديقين والمقربين .

وقال فيه أيضا : من حصّل الحديث والعلم ثم تصوّف فقد أفلح ، قال الإمام مالك ﷺ : من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق . انتهى

واعلم أيها الأعزّ الصادق أنّ السالك لا بدّ له من مرشد مُرَبٍّ ليدلّه على الطريق ويرفع عنه الأخلاق المذمومة ويضع مكانها الأخلاق المحمودة .

ومعنى التربية أن يكون المربي كالزارع الذي يربي الزرع ، فكلما رأى حجرا أو نباتا مضرا بالزرع قلعه وطرحه خارجا ويسقي الزرع مرارا إلى أن ينمو ويتربى ليكون أحسن من غيره .

وإذا علمت أنّ الزرع محتاج للمربي علمت أنّه لا بد للسالك من مرشد مربّ البتة ، لأنّ الله تعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام للخلق ليكونوا دليلا لهم ويرشدوهم إلى الصراط المستقيم ، وقبل انتقال المصطفى إلى الدار الآخرة قد جعل الخلفاء الراشدين نوّابا عنه ليدلوا الخلق إلى طريق الله تعالى وهكذا إلى يوم القيامة ، فالسالك لا يستغني عن المرشد البتة .

وشرط المرشد وإن كررنا ذكره : أن يكون عالما ، لكن ليس كل عالم يصلح للإرشاد بل لابد أن يكون عالما له أهلية صناعة الإرشاد .

ولهذا المرشد علامات ونحن نذكر لك ما لا بدّ له منها بطريق الإجمال حتى لا يدعي الإرشاد كل متحير .

فالمرشد هو الذي يكون قد خرج من باطنه حب المال والجاه وتأسّس بنيان تربيته على يد مرشد كذلك وهلم حتى تنتهي السلسلة إلى النبي ﷺ ، وذاق بعض الرياضات كقلة الأكل والكلام والنوم وكثرة الصلاة والصدقة

والصوم ، واقتبس نورا من أنوار سيدنا محمد ﷺ واشتهر بالسيرة الحسنة والأخلاق المحمودة من صبر وشكر وتوكل ويقين وطمأنينة وسخاء وقناعة وأمانة وحلم وتواضع ومعرفة وصدق ووقار وحياء وسكون وتأن وأمثالها ، وتطهّر من الأخلاق الذميمة كالكبر والبخل والحسد والحقد والحرص والأمل الطويل والطيش ونحوها ، وسلم من تعصب المتعصبين واستغنى عن علم المتكلّفين بالعلم المتلقى عن رسول الله ﷺ .

فالاقتداء بهذا المرشد هو عين الصواب ، والظفر بمثله نادر ، لا سيّما في هذا الزمان ، فإنّه كثر فيه من يدعي الإرشاد وهو في الحقيقة يدعو الناس إلى اللهو واللغو ، بل ادعى كثير من الملحدين الإرشاد بمخالفة الشريعة ، وبسبب غلبة هؤلاء المدعين اختفى المرشدون الحقيقيون في أركان الزوايا .

وبما ذكرناه عُلم بعض علامات المرشد الحقيقي حتى أنه من وجد متخلقا بها علم أنه من المرشدين ومن لم يكن متخلقا بها علم أنّه من المدّعين .

فإن تحصل أحد على مثل هذا المرشد وقبله المرشد وجب عليه احترامه ظاهرا وباطنا :

فالاحترام الظاهري أن لا يجادله ولا ينكر عليه ولا يقيم الحجة عليه في أي مسألة ذكرها وإن تحقق خطأه ، وأن لا يظهر نفسه أمام المرشد بفرش السجادة إلاّ أن يكون إماما فإذا فرغ من الصلاة ترك السجادة تأدّبا معه ، وأن لا يتنفّل كثيرا في حضرته وأن يفعل كلّ ما أمره به قدر استطاعته ، وأن لا يسجد له ولا لغيره لأنّه كفر وأن يبالغ في امتثال أمره ولو كان ظاهره في صورة المعصية .

والاحترام الباطني أنّ كلّ ما سلمه له في الظاهر لا ينكره في الباطن وإلاّ كان منافقا ، فإن لم يقدر على ذلك ترك صحبته حتى يكون ما في باطنه موافقا لما في ظاهره لأنّه لا فائدة في الصحبة مع الإنكار بل ربما تكون سببا في هلاكه . « خلاصة التصانيف » للغزالي رحمه الله .

وسئل القطب العارف السيد أحمد بن إدريس المغربي قدس سره : هل لمن أراد أن يأخذ شيخا أن يطلب منه كرامة ليطمئن بها قلبه لأنه ربما يكون ذلك الشيخ متطفلا وليس بأهل للمشيخة ؟ ثم إذا طلبها هل للشيخ أن يظهر له كرامة أم لا ؟ فأجاب بأنّه : لا ينبغي لمن أراد الأخذ أن يطلب من الشيخ ذلك ولا ينبغي للشيخ أن يظهر له ذلك لأنّه إن كانت له عناية وجذب من الله تعالى فهو يرى جميع حركات الشيخ وسكناته كرامات إذا كان صادقا وإن لم يكن له عناية فربما يتأول التلميذ الكرامة الظاهرة كما حكى الله سبحانه وتعالى عن الكفار بقوله : ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ .

ثم إذا ظهرت له الكرامة ولم يتلقها بالقبول الصادق فذلك الخطر العظيم لأنّ بني إسرائيل لما سألوا عيسى عليه السلام أن يسأل ربّه أن ينزل عليهم مائدة من السماء قال الله تعالى : ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ .

فلو لم يسألوا ذلك لكان عذابهم كعذاب غيرهم إذا كفروا ، فتأمّل ما أخطر الإنكار بعد ظهور الحجة .

ثم ضرب رضي الله عنه مثلا : إذا أراد الإنسان أن يضع شيئا من زيت أو سمن في إناء ليحفظه له هل يحفظه التراب إذا صبّه عليه ؟ ! لا ، بل إذا أراد الإنسان أن يصنع من التراب إناء فلا بد أوّلا أن يعجنه بالماء ثم يخدمه حتى يمتزج بالماء ثم يهيّء صورة الإناء ثمّ ييبس في الشّمس وقتا من الزمان ثم توقد النّار فيدخل فيها حتى ينضج نضجا كاملا ثم يخرج منها فيختبر ، فإن لم يحفظ الماء أوّلا أعيد في النار ثم يخرج فيطلى بطلاء ثم يعاد في النّار ، فبعد ذلك لا يخون فتضع فيه ما شئت من زيت أو سمن أو غير ذلك فإنّه يحفظه ، كذلك الأسرار لا توضع في صدور الرّجال إلاّ بعد تعب ورياضة وخدمة من الشيخ بالتعليم والاختبار والامتحان للرجل

الذي يريد وضع الأسرار فيه ، فإن علم أنّه قد صار حافظا لا يخون وضعها فيه وإلاّ أمسك ، وهذا التدبير هو الّذي أجرى عليه الله الكون فإنّه تعالى كان قادرا أن يعطينا الخبز على صورة لا يحتاج معها إلى شيء من الخدم لكنه أولا ألهمنا وأمرنا أن ندفن الحب في التراب ثم نسقيه بالماء حتى تمتد عروقه في الأرض فينبت ثم يسنبل ثم يحصد ثم يداس ثم يطحن ثم يعجن بماء ثم ينضج في النار ثم يؤكل وهذه قاعدة كلية في كل شيء أنّه لا يحصل للإنسان شيء إلا بعد إيداب«١» فيه بجهد وجدّ حتى يحصله بعد زمان وإمعان ، فقال له السائل : فبم نعرف صدق الشيخ من عدم صدقه ؟ فقال : بالصدق فإذا عاملت الله سبحانه وتعالى بالصدق واستخرته فحق عليه إذا عرف صدقك أن لا يدلك إلا على الصدق ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ . انتهى

وقال أيضا رحمه الله : المشائخ يمتحنون تلاميذهم بأمرهم بفعل شيء مما يخالف عاداتهم ليعرف الصادق من غيره ، ولهم في ذلك حكايات عجيبة ليست هذه الكراريس موضع ذكرها ومعهم على ذلك دليل من كتاب الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾ ، والمؤمنات يشمل الذكور والإناث ، فالمؤمنات صفة للنفوس أي النفوس المؤمنات ، وقد أطلق سبحانه وتعالى لفظ النفس على الأشخاص فقال تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخر الآيات ، ثم قال : ﴿ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ، فعلى قراءة الكسر يعود الضمير إلى النفس وعلى قراءة الفتح إلى الأشخاص المؤمنات ، بدليل أنّ النبي ﷺ لما نزلت عليه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ ، كان يبايع الذكور والإناث بهذه الصيغة على هذه الشروط ، فيقول للذكور : « بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا

«١» أي تعب .

تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوني في معروف » فدلّ على أنّ المراد بالمؤمنات النفوس . انتهى

ومن الكلمات القدسية المنسوبة إلى خواجه عبد الخالق الغجدواني ﭬ النوراني : أغلق باب المشيخة وافتح باب الأحباب ، وأغلق باب الخلوة وافتح باب الصحبة .

وكتب الشيخ رضي الدين عبد الغفور ﭬ في « تكملة النفحات » : إن حضرة مولانا الجامي ﭬ لم يلقن الذكر أحدا مع أنّه كان مجازا من مولانا سعد الدين ومأذونا من جانب الغيب ولكن إذا ظهر طالب صادق كان يدله خفية على هذا الطريق ويرشده إليه وكان منشأ ذلك كمال لطافته وكان يقول : لا أتحمل ثقل المشيخة ، ولكن كان في آخر حياته طالبا لأرباب الطلب وكان يقول : يا أسفى على عدم الطالب ، نعم الطالب كثير لكنّه طالب لحظ نفسه ، ذكر في « الرشحات » في ٣٤٨ .

فصل

في بيان كيفية التوجه وبيان التوجه الصافي الخالص عن القيود وآداب المريد في التوجه والأمور المتعلقة بها

اعـــــلم أيدك الله تعالى بالتقوى أن التوجه من خصائص هذه الطريقة العلية وفي معرفته زيادة منفعة لا بد من رعاية آدابه ، وأن كيفية التوجه أنه إن أراد المريد الصادق التوجه لازمٌ أولا أن يبتدئ[1] بالصلاة على فخر الكائنات ﷺ بما ورد إليه من شيخه الكامل ، ثم يقرأ الفاتحة مرة والإخلاص ثلاث مرات ثم يهدي ثوابها إلى روح فخر الكائنات ﷺ وباقي الأنبياء والمرسلين وأصحابه وأصحابهم وأرواح سادات هذه الطريقة العلية الصديقية وباقي أهالي الطرق ، ثم يقول : يارب من بحر فيض جودك وكرمك وعنايتك ومن حضرة رسولك الأكرم ﷺ الواصلة إلى قلبي بواسطة المشائخ الكرام من الفيض وأنوار الذكر فألقها في قلب هذا الطالب بفضلك وعنايتك يا الله ، وبملاحظة هذه الكيفية يتوجه إلى قلب المريد بالاسم الجامع لجميع الأسماء والصفات مقدار عشر دقائق ويأمر المريد بالهمة القوية في جذب أثر هذا التوجه ، ثم بعد مدة يسيرة يظهر من هذا التوجه في قلب الطالب الصادق أثر عظيم ومحبة إلهية بعناية الله تعالى .

وكذلك أن الشيخ يجعل لطيفة روحه مقابلا للطيفة روح المريد كما مر ويأمر بالتوجه والهمة هنا وفي باقي اللطائف على المنوال المذكور .

فإذا تمكن في قلب المريد ولطائفه من الذكر الملقن وتنورت اللطائف بصيرورة الذكر في لطائفه ملكة ، يلقن الشيخ له بالنفي والإثبات لجمعية النسبة والحضور ، وأن التوجه عبارة عن رجوع قلب السالك بالكلية إلى الله تعالى بنسبة الحضور ، وأن التوجه الصافي الخالص عن القيود أن يتوجه إلى قلب المريد الصادق بعد تصفية قلبه من جميع القيود والاعتبارات ومُتجَرّداً

« ١ » أي الشيخ .

من جميع الإطلاقات بحيث لا يبقي في قلبه أثرا مما سوى الله سبحانه وتعالى بتنزيهه عن كل قيد وعن الأوصاف الهيولانية«١» معتقدا بعبوديته ملاحظا في قلبه بأنه عبد عاجز ضعيف مقصر وكأنه قائم تحت السيف لضرب عنقه بثبوت الذنب الموجب للقتل وأعظم من ذلك ، ويجعل هذه الكيفية على قلب المريد ، والمريد يستعد في حوز الأثر من قلب شيخه معتقدا بأن ليس له في الدنيا سواه يوصله إلى الله تعالى وجميع سعادة الدنيا والآخرة تحت يده وكأن مفتاح خزائن رحمته سبحانه وتعالى في يد شيخه يفعل ما يشاء بإرادته وجميع الكمالات جامعة فيه .

وهذا التوجه أصل الأصول ومعدن السعادات ومنبع كل معرفة وعبادة وتوكل وأساس كل فضل كما قال جل وعلا في تنزيله : ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ و ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ .

فعليك أيها الفائز أن تجتهد في تصفية نفسك وقلبك وقالبك في التوجه وأن يكون المتوجه إليه على كمال الاستعداد التام ليحصل له أثر التوجه الصافي ، ثم ليكون ذلك سببا لمحبة الشيخ المتوجه كما هو الأصل الأصيل في هذه الطريقة العلية الصديقية .

ومن الإشارات التي أشاره الإمام المجددي الرباني ﷺ في هامش « المكتوبات ١٣ » هذه : إن قطب الإرشاد الذي يكون جامعا للكمالات الفردية أيضا عزيز الوجود جدا يظهر مثل هذا الجوهر النفيس بعد قرون متطاولة وأزمنة متكاثرة فيصير العالم الظلماني بنور ظهوره نورانيا ، ونور إرشاده وهدايته شامل لجميع العالم وكل رشد وهداية وإيمان ومعرفة تحصل في العالم من محيط العرش إلى مركز الفرش إنما تحصل من طريقه وتستفاد بواسطته ولا يصل أحد إلى هذه الدولة بدون توسطه ونور هدايته محيط بجميع العالم كالبحر المحيط ، وهذا البحر كأنه متجمّد لا يتحرك أبدا فإذا كان شخص متوجها إلى هذا العزيز وكان مخلصا له أو كان هو متوجها إلى طالب فكأن روزنة تفتح في قلب الطالب

« ١ » أي المادّية .

وقت ذلك التوجه فيصير الطالب ريانا من ذلك البحر من ذلك الطريق على قدر توجهه وإخلاصه ، وكذلك إذا كان شخص مشغولا بالذكر الإلهي يحصل له مثل هذه الإفادة وإن لم يكن متوجها إلى هذا العزيز لا من جهة الأذكار بل لعدم معرفته إياه ولكن الإفادة في الصورة الأولى أكثر منها في الصورة الثانية ، وأما إذا كان شخص منكرا لهذا العزيز أو كان هو متأذيا منه فهو محروم من حقيقة الرشد والهداية وإن كان مشغولا بذكر الله عز وجل فإن أذكاره تكون سداً في طريق الفيض من غير أن يكون هذا العزيز متوجها لعدم إفادته وقاصدا لضرره ، وإنما فيه صورة الرشد والهداية دون الحقيقة ، والصورة العارية عن المعنى قليلة النفع والذين فيهم إخلاص ومحبة لهذا العزيز يصل إليهم أيضا نور الرشد والهداية بمجرد تلك المحبة وإن خلو من التوجه المذكور والذكر الإلهي جل شأنه والسلام على من اتبع الهدى . هامش المكتوب ١٣

ثم اعلم أن للمريد في التوجه آدابا لا بد من معرفتها وذلك إذا كان للمريد مراد في التوجه لازم أولا أن يكون نيته صحيحة وهمته قوية واعتقاده طاهراً عن كل غش ، ثم يغتسل بالغسل الكامل إن أمكن وإلا فيتوضأ بالوضوء الكامل ثم يجلس أمام شيخه مقابلا بوجهه له متأدبا متصلا ركبتيه بركبتي الشيخ ثم يتوب بما استتابه الشيخ بالاستغفار المعهود بينهم ، ثم يلقن الشيخ له الذكر باسم الجلال وهو الاسم الجامع لجميع الأسماء والصفات وأقرب لحصول المقصود في السلوك ، ثم بعد توفية ما ذكر وهو جالس قدام شيخه بالكيفية المذكورة يغمض عينيه ويطبق فاه ويلصق لسانه إلى السقف الأعلى من الحنك ويلصق الأسنان بعضها بعضا ويطلق نفسه على حاله بلا حبس ويلاحظ معنى الاسم الجلال بأن الله تعالى في عظمته وكبريائه وقيوميته لا يدرك أحد كنهه ولا يعرف غوره وليس له شريك وشبيه ونظير وضد وند ووزير ، كل المخلوقات محتاجون له ولا يحتاج لشيء تعالى الله الواحد القهار ، وأن يكون اعتقاده بهذه خالصا صافيا وأن يفنى في معناه ويستغرق بكيف ينسى نفسه ووجوده ، فإن حصل له في هذا المقام الفناء المطلق بسعيه واجتهاده فذلك هو الفوز العظيم والسعادة العظمى .

فبهذه الكيفية المذكورة بملاحظة الشيخ معنى اسم الجلال بالحضور التام إن توجَّه إلى قلب المريد بتلقين الذكر بالجلال واستمر في التوجه ربع ساعة إن أمكن وإلا فثمن ساعة فلا ريب يظهر في قلب المريد أثر الذكر الملقن ويحصل في القلب أمرٌ لم يعهده قبل ، ولازمٌ على المريد أن يخلي قلبه عن جميع التعلقات الخارجة عن الله ويخرج عن جميع التصرفات ويجعل قلبه مقابل قلب شيخه بالحضور مستغرقا في ملاحظة معناه سبحانه وتعالى .

ثم بعد ذلك لازمٌ أن يداوم على الذكر القلبي بكيف لا يعرض عليه الفتور والخلوّ عن الذكر أصلا بحيث لا يخطر في قلبه خطرة مما سوى الله تعالى بتطهير الخاطر عن جميع التعلقات الدنيوية والأخروية ، وأن يحفظ نسبة الذكر دائما فى القلب ببذل مجهوده في معرفة مولاه تعالى بما يستحق له بالتضرع والانكسار .

فإن عرضت خطرة في أثناء الذكر يتضرع إلى الله تعالى بسره ويتوب توبة نصوحا ويستغفر الله تعالى من تلك الخطرات .

فإن استمر المريد الصادق الموفق على الكيفية المذكورة بالذكر الملقن يحصل له الحضور والغيبة ، ويصير الذكر ملكة ثم لا يزال حواسه عن الذكر ولهذا الحضور يسمى في اصطلاحات السادات (**يادداشت**) وبالوقوف القلبي ونذكر معناها إن شآء الله تعالى بالتفصيل .

وإن الذكر القلبي المقصود ونوره يسري في جميع اللطائف وجميع أنوار اللطائف من نوره بالسراية والإفاضة حتى أن بعض السادات قالوا : إن لطيفة القلب أصل لجميع اللطائف ونوره منبع جميع أنوار اللطائف ، ولأجل ذلك كانوا يجتهدون خاصة في تصفية لطيفة القلب ليصيبوا بذلك إلى مقاصدهم التي جمعت فيها خيرات الدنيا والآخرة ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ثم اعلم أن صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى وبما يرضاه ، ولا يصح مشروط بدون شرطه ولا يرضى لعباده الكفر ، فلزم تحقيق الإيمان ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ ، فلزم العمل بالإسلام ، فلا تصوف إلا بفقه إذ لا نعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه ، ولا فقه إلا بالتصوف إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه ، ولا هما إلا بإيمان إذ لا يصح واحد منهما دونه ، فلزم الجميع لتلازمها في الحكم كتلازم الأرواح للأجساد ولا وجود لها إلا فيها كما لا حياة لها إلا بها فافهم ، ومنه قول الإمام مالك رحمه الله تعالى : من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق .

قلت : تزندق الأول لأنه قال بالجبر الموجب لنفي الحكمة والأحكام ، وتفسَّق الثاني لخلو عمله من التوجه الحاجب منهما عن معصية الله تعالى ومن الإخلاص المشترط في العمل لله ، وتحقق الثالث لقيامه بالحقيقة في عين التمسك بالحق فاعرف ذلك .

قال أبو الحسن الشاذلي ﷺ : أربع لا ينفع معهن علم : حب الدنيا ونسيان الآخرة وخوف الفقر وخوف الناس ، وأصدق الأقوال عند الله تعالى قول : (لا إله إلا الله) على النظافة ، وأدل الأعمال على محبته تعالى لك بغض الدنيا واليأس من أهلها على الموافقة«١» .

وكان ﷺ يقول : مراكز النفس أربعة : مركز للشهوة في المخالفات ، ومركز للشهوة في الطاعات ، ومركز في الميل إلى الراحات ، ومركز في العجز عن أداء المفروضات : ﴿فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلَاةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

«١» أي أن يتفق ذلك للسالك ويتكرر ولا يكون صدفة عابرة .

وكان ﷺ يقول : من اعترض على أحوال الرجال فلا بد أن يموت قبل أجله ثلاث موتات أخر : موت بالذل ، وموت بالفقر ، وموت بالحاجة إلى الناس ثم لا يجد من يرحمه منهم .

وكان ﷺ يقول : خصلة واحدة تحبط الأعمال ولا يتنبه لها كثير من الناس : سخط العبد على قضاء الله تعالى قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ ، ولا يترك منازعة الناس فى الدنيا إلا المؤمن بالقسمة[1] .

وقال ﷺ : حسنتان لا يضر معهما كثرة السيئات : الرضا بقضاء الله تعالى والصفح عن عباد الله تعالى . انتهى .

قال الشيخ الهروي عن شيخه ﷺ : اعلم أن من أراد الاشتغال بالطريق العلائية[2] ينبغي له أولا أن يحضر في خياله صورة شيخ أخذ عنه هذه النسبة إلى أن يظهر فيه أثر الحرارة والكيفية المعهودة فيما بينهم ، ولا ينفي ذلك الخيال بعد ذلك بل يحفظ ويتوجه به وبأذنه وسمعه وجميع قواه إلى القلب الذي هو عبارة عن الحقيقة الجامعة الإنسانية التي مفصلها جميع الكائنات من العلويات والسفليات ، وهي وإن كانت منزهة عن الحلول في الأجسام لكن لما كانت بينها وبين القلب الصنوبري نسبة وارتباط ينبغي أن يتوجه إلى هذا القلب الصنوبري ، وينبغي أن يصرف الفكر والخيال وجميع القوى إلى هذا قاعدا على باب القلب حاضرا به ، ولا نشك في ظهور كيفية الغيبة والذهول في هذه الحالة .

فإذا ظهرت ينبغي أن يفرضها طريقا وأن يذهب في أثرها وينفي كل فكر وارد على القلب بالتوجه إلى حقيقة القلب ، وأن لا يشتغل بالفكر الجزئي وأن يلتجئ بكليته إلى حقيقته المجملة حتى ينتفي هذا الفكر ، فإن لم ينتف بهذا ينبغي أن يلتجئ إلى صورة شخص أخذ عنه هذه النسبة وأن يحفظها لحظة

« ١ » أي المؤمن بالقضاء والقدر .

« ٢ » نسبة للأمير أبي العلاء بن أبي الوفاء الحسيني النقشبندي الأكبرآبادي ، وهي مزج للطريقة النقشبندية ببعض أشغال الطريقة الجشتية ، وهي منتشرة في الهند .

حتى تظهر تلك النسبة ثانيا ، فإن لم ينتف بهذا تنتفي هذه الصورة نفسها ومع ذلك ينبغي أن لا ينفيها السالك المتوجه ، فإن لم تنتف الوساوس بتلك الصورة يشتغل من قلبه بتكرار (**يا فعّال**) بحسب المعنى ويكرره مرات تندفع بإذن الله تعالى البتة .

فإن لم تندفع يتأمل بقلبه كلمة (**لا إله إلا الله**) مرات بأن يتصور لا موجود إلا الله ، فإن تلك الوسوسة المشوشة أيّ نوع كانت موجودة من الموجودات الذهنية ويراها في الحقيقة قائمة بالله تعالى ، بل يراها عين الحق فإن الباطل أيضا من بعض ظهورات الحق ، ولا شك أنه يحصل بهذا التأمل ذوق عظيم وتتقوى نسبة خواجكان قدس الله أرواحهم ، وينتفي في ذلك الوقت هذا الفكر أيضا .

وليتوجه السالك إلى حقيقة ذهوله ويذهب من أثرها ، فإن لم يجد الحضور بتكرار (لا إله إلا الله) بالقلب يكررها جهرا مرات ويمد لفظة الجلالة (**الـلّـه**) وينزلها في القلب ، ويشتغل مدة لا يحصل له الملالة ، ومتى أحس بالملالة يترك الاشتغال وما دامت الغيبة والذهول ونسبة الأكابر في الترقي يكون الفكر في حقائق الأشياء والتوجه إلى الجزئيات عين الكفر . ذكره فى « الرشحات »

بل لا ينبغي في هذا الحال الفكر في أسماء الله تعالى أو صفاته فإن عرض الفكر فيها بنفسه ينبغي أن ينفيه بالطرق المذكورة . انتهى

وقال ﷺ أيضا : ليس الأمر التوجه والمراقبة فقط بل الأمر جعل جميع الأمور تابعا لمقصود واحد وتحصيل إدراك خاص في جميع الأشياء .

وقال أيضا : وينبغي أن يرى العمل محبوبا دون الحضور والجمعية فإنهما من المواهب وعزيزي الوجود وليسا تحت الاختيار والمواظبة عليه موجبة للجمعية والحضور فإن الفتور متطرق إلى الجمعية والحضور وذلك واقع بالخاصية . اهـ .

وقال الشيخ الهروي ﷺ في « الرشحات » قال : كان فقير من الفقراء يكثر النظر إلى وجه حضرة شيخنا فى المجالس وأثناء الصحبة فقال يوما خطابا : كان شخص يكثر النظر إلى وجه خواجه بهاء الدين ﷺ فقال له : لا تكثر النظر إلى وجهي فتهلك قلبك ، ثم أنشد حضرة شيخنا هذا المصراع :

. . . .   ومن يرنو إلى وجهي يهيمُ

ثم قال : ينبغي أن يكون توجه المريد إلى ما بين حاجبي الشيخ وأن يعتقده حاضرا معه ومطلعا على أحواله في جميع أوقاته وأطواره حتى تتصرف فيه أبهة الشيخ وعظمته ويزول عن باطنه كل ما لا يلائم الحضور ويبلغ من رعاية ذلك المعنى مرتبة يرتفع الحجاب من بين الشيخ والمريد ويكون جميع مرادات الشيخ ومقاصده بل جميع أحواله ومواجيده معاينا ومشاهدا للمريد .

وتلك سعادات تكون نصيبَ مَنْ ؟ ! !

« رشحة » ٢١٠

فصل

فى بيان الإفاضة والاستفاضة

اعلم أيها الأخ السعيد أن من الأسباب المعروفة بين أرباب هذه الطريقة الإفاضة والاستفاضة وأن معناهما ليس كما يتبادر إليها أذهان العامة .

والمراد من الفيض أن الطالب الصادق والمريد المتحقق إذا استعد قلبه لكمال النسبة وعرض حاله للمرشد بالهمة الكاملة فما حصل هنالك من توجه الإفاضة فهو الفيض أي يعبر عن ذلك الأثر الحاصل بالفيض ، وما نسبت إلى المريد أي توجهه باستعداده ليأخذ من الشيخ أثرا يعبر عنه بالاستفاضة ، وما نسبت إلى الشيخ بأن يتوجه الشيخ إلى الطالب بقوة همته بالنظر إلى قلبه وقالبه وتصرفه في قلب طالبه يعبر عنه بالإفاضة .

وذلك على مثابة الناظورة البلورية إذا أنظرها إلى شعاع الشمس ثم أطلق ذلك الشعاع بواسطة تلك الناظورة إلى شيء لين له قابلية لتوقد النار فيحصل من ذلك الشيء أي يظهر منه النار بمجرد وصول شعاع الشمس ، فإن كان الشيء الذي وقع عليه شعاع الشمس قويا صلبا كالحجر والشجر فلا يظهر منه النار غالبا ولا يفيد شيئا لكن بقوة شعاع الشمس قد يعرض له الحرارة الشديدة ، كذلك أن الشيخ كالناظورة إذا نظر إلى قلب المريد الذي له الاستعداد الكامل والقابلية يظهر في قلبه من نظر الشيخ نار المحبة الإلهية التي هي سبب للوصول ويسمى له بالفيض ، وإن كان قلب الطالب صلبا أو أقسى وليس له استعداد ولا قابلية فلا يحصل له من النظر نتيجة ما ولا نار الفيض إلا إذا اجتهد بالكلية وجاهد فيمكن منه أن ينتفع بالشيخ كالحرارة الحاصلة من الحجر والشجر بطول وقوع شعاع الشمس بواسطة الناظورة المشهورة بالپرتورز«١» .

« ١ » لعل المراد العدسة البلورية

فإذا كان الحال كذلك لازم على كل طالب سالك أن يجتهد في إيجاد مرشد كامل لإحياء رسوم قلبه الميتة ، ليقوم أمامه بجميع قوة استعداده كيف لا وإن نظر المرشد إلى المريد نظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه ونظر رسول الله ﷺ نظر الله بعينه ، فإذا نظر الله إلى قلب عبده بالرحمة فلا بد من حصول نتيجة مطلوبه في قلب العبد .

فتفكر أيها الأخ السعيد أن النعامة إذا أرادت إنبات أفراخها في البيضة تنظر بهمتها إلى بيضتها بقيامها من بعيد على ساقيها فتتولد فيها الأفراخ بقدرة الله تعالى بمجرد ذلك النظر ، كذلك أن الله تعالى لما نظر إلى قلب عبده بواسطة الشيخ يتولد في قلب العبد نتيجة المطلوب التى هي نار المحبة والاستقامة وذلك من الله فضل عظيم .

فصل

في بيان فائدة الصحبة مع أهل الصدق والصفا والتشبه بهم وما ورد في حقها

اعلم أيها الممنون بالتقوى أن للوصول إلى المطلوب المهم أسبابا لا بد منها فأعلاها وأزكاها وأولاها الصحبة الصحيحة مع أهل الصدق والصفا وفائدتها أعظم الفوائد وضررها أيضا أشد الأضرار وأقبحها .

وفي حق الصحبة مع أهل الصدق كم مرة أمر الله تعالى لعباده في تنزيله سبحانه وتعالى قال عز من قائل : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بالترغيب والتحريض ، وقد ورد في ذلك أحاديث أعرضنا عن ذكرها اعتمادا على الشهرة .

وإن كمال الصحبة مع أهل الله تعالىهي السعادة السرمدية ورأس مال المريد ، ولا يحصل أثر الصحبة المشهورة بين أرباب القلوب إلا بالاعتقاد الصحيح التام بالمحبة الكاملة والإرادة الكافية لما أن تلك المحبة والإرادة شرط مهم للصحبة ، وذلك لأن الصحبة بلا محبة لا تفيد شيئا بل يضر على أن الصحبة مع أهل الفساد الذين لهم سوء في الاعتقاد سم قاتل .

وهلاك الأمم الماضية بسوء اعتقاداتهم مع أهل الله تعالى وفساد صحبتهم على أن الأمم السالفة لما أنكروا بسوء اعتقاداتهم على الأنبياء والمرسلين والعلماء المتقين والأولياء الصالحين ونسبوهم إلى الكذب مع رؤيتهم البراهين القوية والحجج البينة هلكوا وخسروا ذلك هو الخسران المبين ، وأما من صحبوا مع الأنبياء والأولياء بالمحبة الكاملة وحسن الاعتقاد فنالوا بذلك مراتب الدارين وفازوا بخيري الدنيا والآخرة ذلك هو الفوز العظيم .

فثبت أن الصحبة مع الصالحين علامة السعادة ، ولذلك قال كبار العارفين من أرباب هذه الطريقة : طريقتنا هذه طريق الصحبة ، وهذه الصحبة مشروطةٌ

كونها بنفي حصولها منه بل باعتقاد كون الفيض الحاصل له بمجرد صحبته مع أهله ، وما كانت الصحابة أصحاباً إلا بالصحبة مع خير الخليقة ﷺ ، وما كانت الولاية الكسبية ولاية إلا بالصحبة ، وصحبة أهل الخير والكمال من المشائخ العظام كافية بشروطه للحصول والوصول إلى الله تعالى لكن بعد أخذ النسبة منهم خصوصا إذا كان السلوك في طريق النبوة وتعليم الذكر لتسلي السالكين ، على ما كان في « مكتوبات » الإمام الرباني قدس سره .

لكن الصحبة قسمان : صوري وهو ظاهر ومعنوي وهو الربط إلى الشيخ الكامل بعد أخذ النسبة منه ، وكلاهما كافيان فى حصول المقصود والوصول إلى المطلوب على ما قالوا ، بل الرابطة فى الطريقة النقشبندية أقرب الطرق من بين الطرق الخمسة كما في « معرفة نامه »[1] وغيرها ، إلا أن رعايتها مشكلٌ يزول بأدنى ترك أدب ، و يحتاج إلى التجديد من الشيخ ولقلة الأهلية للرابطة أيضا فى المشائخ ، فان كل شيخ لا يكون أهلا لها كما ذكر ذلك فى « معرفة نامه » ، ولذا أشار هو إلى طرق أخرى غير الرابطة من الطرق الأربعة الباقية .

وقال في « تحفة الأحباب » : قال الله تعالى : ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ فالصحبة هنا صحبة الشيخ الذي كان سلوكه بطريق الجذبة بشروطها ـ أي بشروط تلك الصحبة كافيةٌ للانعكاس أي لانعكاس صور الأنوار الإلهية من حضرة الذات المقدسة إلى استعدادات قلوب الطالبين والانصباغ أي كافية تلك الصحبة لانصباغ قلوب الطالبين بتلك الأنوار لأن تحت صحبة الواصلين أسراراً لا يتمكن الوصول إليها إلا بالصحبة .

فلذلك قال بعض العارفين : اصحبوا مع الله تعالى ، فإن لم تستطيعوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله تعالى فإن بركة صحبتهم توصلكم إلى صحبة الله تعالى .

« ١ » نامه كلمة فارسية تعني رسائل ، ولعل اسم الكتاب رسائل المعرفة .

ثم بعد مرتبة الصحبة بشروطها مرتبة الرابطة : وهي تخيّل صورة شيخه في خياله ، و هذه الرابطة مثل الصحبة كافية في الانعكاس والانصباغ ، لأن الرابطة تجعل المريد في حماية ولاية شيخه ، بأن يكون المريد محفوظا من الخلاف في جميع أحواله حتى يكون فانيا في الشيخ بترك اختيار نفسه باقيا مع شيخه ، فتنعكس إلى قلبه بواسطة الشيخ الأنوار الإلهية ، ثم لا يزال المريد مع شيخه كذلك إلى أن يترقى من انعكاس تلك الأنوار بواسطة الشيخ إلى انعكاسها بغير شيخ ، فلذلك قال بعض العارفين : أدخل الشيخ في قلبك وأسكنه فيه ولا تخرجه عنه حتى تصير عارفا بسببه ، لأن المشائخ منابع الفيوضات الإلهية فمن أدخل المنبع في بيته فقد نال فيضه ولو بالمغايبة أي ولو كانت تلك الرابطة بالمغايبة عن الشيخ ، لأن الرابطة على طريق المحبة قد تفيد بالغيبة كما تفيد في الحضور .

فالرابطة سواء كانت في الغيبة أو الحضور تكون في حق السالك أنفع من الذكر ومن الوقوف القلبي ، ثم بعد الرابطة من حيث المرتبة الالتزام أي التزام المريد ما أمره الشيخ الكامل من الأذكار والأوراد المعهودة عند المشائخ النقشبندية معنعنا متواصلا من حيث التلقي إلى رسول الله ﷺ كاسم الذات والنفي والإثبات وكلاهما بالقلب الحقيقي ، وهذا القلب كله لسان يتكلم به وكله بصر يبصر به وكله سمع يسمع به وكله عقل يدرك به . انتهى كلام « التحفة »

قال في « جوامع الكلم » : سئل النهرجوري رحمه الله تعالى عن الطريق إلى الله تعالى فقال : اجتنب الجهل واصحب العلماء واستعمل العلم وداوم الذكر .

وقال أيضا : لا ينكر تأثير الصحبة أحد من الخافقين ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

. وقال أيضا : تأثير الصحبة لا ينكره أحد بل جميع الأديان لا يخالفون في هذه المسألة حتى قيل : إن جميع ما في هذا العالم من أثر الصحبة والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال أيضا : صحبة أهل الخير ربما لا تنفع الخائن الذي لا يراعي شروط الصحبة ، وأيضا قد لا تضر صحبة أهل السوء إذا كان من الله عون ونصرة كما قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ وصحبة أهل الطالح قد تؤثر في الصالح معصية ومنكرا كما قال ﷻ : ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾ ، وصحبة النفس السيئة تشين النفس الزكية وإن طاب أصلها ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، من عاشر قرناء يقول عند رؤيته عذابا أليما : ﴿يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ .

والصحبة تؤثر في الخير والشر ، الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق والزاد قبل الرحيل ، للصحبة تأثير بليغ ، يعرف الصاحب بالصاحب ، خير الصاحب من ينفعك لحظه ولقاؤه ، المؤمن مرآة المؤمن ، حب الصلحاء ينفعك في جلب الخير ودفع الضير ، المرء مع من أحب ، تَزَيَّ بزِيِّ الصلحاء مخلصا وخذ عنهم ، من تشبه بقوم فهو منهم .

وقال أيضا : قال أبو يعقوب الرازي رضي الله عنه : ما صحبني متكبر قط إلا اعتراني رداؤه ، لأنه يتكبر فإذا تكبر غضبت فإذا غضبت أداني الغضب إلى التكبر .

قيل : فِرَّ من قرين لا يطلب مطلوبك كما تفر من عدوك إن كنت طالب فضيلة .

قيل : اجتنبوا من يعادي أهل الاختصاص لئلا يعدوكم خسرانه ، نعم العون على الطريق صحبة الرفيق . انتهىكلام « الجوامع » من مواضع عديدة .

وقال أيضا : صحبة أهل البدع تورث الإعراض عن الحق تعالى . انتهى

وقال الإمام الغزالي رحمه الله في « أصول الأربعين » : وأقل درجات حسن الصحبة كف الأذى منهم قال ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه » ، وفوق ذلك أن ينفعهم ويحسن إليهم وقال ﷺ : « الخلق كلهم عيال الله تعالى وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » ، وفوق ذلك أن يتحمل الأذى منهم ويحسن إليهم مع ذلك وهذا درجة الصديقين قال ﷺ : « إن أردت أن تسبق

الصديقين فصل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك » ، هذه جملة الأمر وتفصيل هذه الحقوق كثيرة . انتهى .

وقال في « روح البيان » في تفسير قوله تعالى ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أي رجع بالتوحيد والإخلاص بالطاعة وهم المؤمنون الكاملون ، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ : إن هذه الآية تضمنت النهي عن صحبة الفساق وصرحت الترغيب في صحبة الصالحين الكاملين ، فإن المقارنة مؤثرة والطبيعة سارقة والأحوال سارية . انتهى .

وقال علي القاري رحمه الله في شرحه لـ « عين العلم » : للصحبة تأثير بليغ في المنفعة والمضرة قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ كما ذكرنا غير مرة .

والنظر إلى أهل الدنيا مضر لأنه سبب الغفلة من المولى ، ومن هنا قال سعيد بن المسيب رحمه الله : لا تنظروا إلى الظلمة فتحبط أعمالكم الصالحة خلاف ما ورد : « النظر إلى الكعبة عبادة » على ما رواه أبو الشيخ عن أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها و« النظر إلى عالم عبادة » كما رواه الطبراني والحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه عن عمران بن حصين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وذلك لأنهما وسيلتان إلى ذكر الله تعالى و ورد : « أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله » . انتهى علي القاري رحمة الله وبركاته علينا وعليه آمين .

وقال بعض الأكابر قدس الله أسرارهم : إذا أخذتم حظا وافرا من الكيفية في صحبة شخص فطريق حفظ آدابه أن تعاملوا معه على وجه لا تحصل لكم كراهة منه ، ولذا قيل : ينبغي للشيخ أن يُرِي نفسَه محبوبا في نظر المريدين فإنه هو الذي كان منشأ المحبة التي هي سبب لظهور تلك النسبة ، فإذا حصلت منه الكراهة التي هي ضد المحبة تزول المحبة فتزول النسبة لزوال سببها . انتهى

قال الإمام الغزالي رحمه الله في كتابه « الإحياء » : ويقال إذا غفر الله للعبد شفع في إخوانه ولذا حث جماعة من السلف على الصحبة والألفة والمخالطة وكرهوا العزلة والانفراد .

وقال أيضا : واعلم أنه لايصلح كل إنسان للصحبة قال ﷺ : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » فينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال : أن يكون عاقلا حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا ، فلا خير في صحبة الأحمق ، وقال الثوري رحمه الله : النظر إلى وجه الأحمق خطيئة ، ولا خير أيضا في صحبة سيء الخلق ولا فائدة في صحبة الفاسق المصر على الفسق لأن من لا يخاف الله تعالى لا تؤمن غائلته ولا وثوق بصداقته ، وقال الله تعالى فى كلامه القديم : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾ وقال تعالى أيضا : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا ﴾ وقال تعالى أيضا : ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ .

وأما المبتدع ففي صحبته خطر لسراية بدعته وتعدي شؤمها إليه ، فالمبتدع مستحق الهجر والمقاطعة فكيف تؤثر صحبته ، واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين من القوم ، ولا أمين إلا من خشي الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك واستشر في أمرك مع الذين يخشون الله تعالى .

وقال بعض العلماء : لا تصحب إلا أحد رجلين : رجل تتعلم منه شيئا في أمر دينك فينفعك ورجل تعلمه شيئا في أمر دينه فيقبل منك والثالث فاهرب منه .

وقال جعفر الصادق رضي الله عنه : لا تصحب خمسة من الرجال : الكذاب والأحمق والبخيل والجبان والفاسق

وقال ابن أبي الحواري رحمه الله : قال لي أستاذي أبو سليمان رحمه الله : يا أحمد لا تصحب إلا أحد الرجلين : رجل تنتفع به في أمر دنياك أو رجل تزهد معه وتنتفع به في أمر آخرتك والاشتغال بغير هذين حماقة كبيرة .

وقال سهل رحمه الله : اجتنب صحبة ثلاثة من أصناف الناس : الجبابرة الغافلين والقراء المداهنين والمتصوفة الجاهلين .

وقال أبو ذر رضي الله عنه : الوحدة خير من الجليس السوء ، والجليس الصالح خير من الوحدة ، ويروى هذا الحديث مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما الديانة وعدم الفسق فقد قال تعالى : ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ ، ولأن مشاهدة الفسق في الفساق تُهَوِّنُ ارتكاب المعصية على القلب وتبطل نفرة القلب عنها ، لا تنظر إلى الظلمة فتحبط أعمالكم الصالحة ، بل هؤلاء لا سلامة في مخالطتهم وإنما السلامة في الانقطاع عنهم .

وقال أيضا : الإنفاق على الإخوان أفضل من التصدق على الفقراء .

وقال علي كرم الله وجهه : **لعشرون درهما أعطيها أخا في الله أحب إلي من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين**

وقال أيضا : **لأن أصنع صاعا من طعام وأجمع عليه إخواني في الله أحب إلي من أن أعتق رقبة .**

والإيثار أيضا محبوب ومستحب وذلك اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه دخل غيضة مع بعض أصحابه فاجتنى منها مسواكين أحدهما معوج والآخر مستقيم فدفع المستقيم إلى صاحبه فقال له : يا رسول الله كنت والله أحق بالمستقيم مني ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من صاحب يصحب صاحبا ولو ساعة من ليل أونهار إلا سئل من صحبته هل أقام فيها حق الله تعالى أم أضاعه » فأشار بهذا إلى أن الإيثار هو القيام بحق الله تعالى في الصحبة . انتهى

وقال أيضا : أما بعد ، فإن التحابب في الله والأخوة في دينه من أفضل القربات وألطف ما يستفاد من الطاعات في مجاري العادات ، ولها شروط بها يلتحق المتحابون بالمتحابين في الله ، وفيها حقوق بمراعاتها تصفو الأخوة من شوائب الكدورات ونزغات الشيطان ، فبالقيام بحقوقها يتقرب إلى الله تعالى زلفى ، وبالمحافظة عليها تنال الدرجات العلى ونحن نبين مقاصد هذا الكتاب إن شاء الله تعالى . انتهى

ثم قال أيضاً : اعلم أن من لا يصلح للصحبة والأخوة ثلاثة رجال : مبتدع يدعو الناس إلى بدعته ومبتدع لا يدعو إلى بدعته وعاص بفعله وعمله .

أما الأول فحقه إظهار بغضه ومعاداته والانقطاع عنه وتحقيره والتشنيع عليه لبدعته تنفيرا للناس عنه وترك السلام وجوابه ، قال ﷺ : « من انتهر صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا ومن أهان صاحب بدعة آمنه الله تعالى يوم الفزع الأكبر ، ومن ألان له ولقيه بالبشاشة فقد استخف بما أنزل الله على محمد ﷺ » .

وأما الثاني فإن كان الزجر باللطف فهو المتعين وإن كان في الإعراض عنه والإغلاظ فهو المتعين .

وأما الثالث أي العاصي بفعله وعمله فإن كان يتأذى به غيره كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والنميمة فالأولى في حقهم الإعراض عنهم وترك مخالطتهم والانقباض عن معاملتهم ، وإلا فإن كان يدعو غيره إلى الفساد كصاحب الماخور الذي يجمع بين الرجال والنساء ويهيئ أسباب الشرب والفساد لأهل الفساد فهو قريب إلى الأول ولكنه أخف منه ، وإن كان لا يدعوا غيره إلى فعله كالذي يشرب ويزني فالأمر فيه أخف ولكنه في وقت مباشرته لو صادفه يجب منعه بما يمتنع به منه ولو بالضرب والاستخفاف ، وإن كان قد فرغ منه وعلم أن ذلك عادته وهو مصر عليه فإن تحقق أن نصحه ينفعه ويمنعه من العود إليه مرة أخرى فلا شك في وجوب النصح له ، وإن لم يتحقق ولكنه يرجو عنه فقط بالنفع فالأفضل أيضا في حقه النصح والزجر باللطف أو التغليظ

بالنظر إلى حاله أيهما يوافق بحاله في الكف والمنع مما يرتكبه من الفاحشة ، وأما الإعراض عن جواب سلامه والكف عن مخالطته حيث يعلم أنه يصر على ما كان عليه ولا ينفعه النصح فهذا الرجل للعلماء فيه اختلاف والصحيح أن ذلك يختلف باختلاف الرجل كما في مذهب الإمام الأعظم .

وقال في « التقريب » : عليك بصحبة من جعل قلبه معدنا للطائف وإياك وصحبة أهل الدنيا فإن قلوبهم محل الغفلة والكثائف ، جعل الله قلوب أهل الدنيا محلا للغفلة والوسواس وقلوب العارفين مكانا للذكر والاستئناس ، فإن جالست أهل الدنيا سرت فيك غفلتهم وأحاطت بقلبك وسوستهم وإن جالست العارفين أشرقت عليك أنوارهم وأحاطت بقلبك لطائفهم وأسرارهم .

عَلَيكَ بأرْبابِ الصُّدورِ فَمَنْ غَدا ... مُضافاً لأرْبابِ الصُّدورِ تَصَـدَّرا
وَإيَّاكَ أَنْ تَرْضى بِصُحْبَةِ ناقِصٍ ... فَتَنْحَطَّ قَدراً مِنْ عُلاكَ وتُحْقَـرا

فلا تصحب إلا من تستيقظ بأقواله ويجرك إلى باب مولاك حسن أفعاله وقوة حاله قال ﷺ : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ .

فلا تخالل ولا تكن إلا مع الصادقين ولا ترافق إلا الصالحين ، واجتهد أن يكون الخوف محركك إلى هذا الطريق ليزيل عن قلبك كل تعويق فإن الخوف سوط يسوق ويعوق ، يسوق إلى الطاعة ويعوق عن المعصية ، فعلى السالك أن يتلو على نفسه ما ورد من الوعيد لأهل الجنايات ويكرر ذلك عليها في سائر الأوقات ويقول بلسان حاله :

أَلا يا نَفْسُ وَيْحَكِ خَبِّرينـي ... إلى كَمْ ذا التَّغافُلُ والتَّعامـي
وَكَـمْ يَـوْمٍ يَـمُـرُّ عَقيبَ يَوْمٍ ... وَأَنْتِ مَعَ الخَسارَةِ في اقْتِحامِ

ويستعين عليها في ذاك بمحرك الساكنات ومنزل الفيوض على القلوب بمحض العنايات ، ويقول بلسان ذلته وانكساره :

يَظُنُّ النَّاسُ بـي خَيراً وَإنّـي ... أَشَرُّ النَّاسِ إنْ لَمْ تَعْفُ عَنِّي
وَكَمْ مِنْ زَلَّةٍ لي في الخَطايا ... وَأَنْتَ عَلَـيّ ذو عَـفْـوٍ وَمَنِّ

انتهى كلام السيد أحمد زيني دحلان ﷺ .

وقال الشيخ عبيد الله الأحرار ﷺ : دوام الصحبة مع أهل الله تعالى سبب لزيادة عقل المعاد .

وقال أيضا : الصحبة سنة مؤكدة ينبغي أن يكون في صحبة هذه الطائفة في كل يوم أو في يومين مرة وأن يحافظ على آدابهم ، فإن وقع للطالب بُعدٌ صوري ينبغي أن يعلم أحواله الباطنة والظاهرة في كل شهر أو شهرين بالكتابة إما صراحة وإما إشارة ، وأن يكون مشغولا بهم في منزله لئلا تقع غيبة كلية . انتهى

وقال الشيخ عبيد الله الأحرار ﷺ : إن معنى قول السادات هذا : صاحبوا الله فإن لم تطيقوا فصاحبوا من يصاحب الله تعالى ، أن المراد هنا الحضور والشعور اللذان هما لازمان للصحبة ، فإن كون أحد المصاحبين حاضرا بالآخر وشعوره به من لوازم الصحبة ، وقد ورد في التوجه الإيجادي للإنسان ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ، أي بالأوصاف المتقابلة يعني فيه من جميع الأوصاف ومن جملتها الحضور الذاتي فإن الله تعالى حاضر لذاته بذاته أبدا وأزلا ، فظهر من هذا أن الحضور والشعور في أفراد الإنسان ليسا منهم بل هما من أشعة شمس الحضور الذاتي التي انعكست في جدران المظاهر ونورتها ، ولا كمال للإنسان غير تحقيق حاله وعلمه بأن ما حصل فيه من الحضور أو غيره ليس منه بل من الحق سبحانه ولا حق له في ذلك ، وما قاله الشيخ الهروي ﷺ إن التحقيق تلخيص مصحوبك إشارة إلى هذا المعنى ، ذكره في « الرشحات » .

وقال حضرة الخواجه ﷶ : طريقتنا الصحبة والخير في الجمعية بشرط نفي الأصحاب بعضهم بعضا ، وفي الخلوة شهرة والشهرة آفة .

وقال أيضا : الخيرية في الجمعية والصحبة ، ونفي كلٍّ في صاحبه ، وينظر إليه بعين الكمال فيستفيد كل من المتصاحبين من صاحبه الفيض حيث رأى نفسه بعين الاحتقار ونفاها ونظر صاحبه بعين الكمال ، وهذه الطريقة من أنفس الطرق في المصاحبة ومثل هذه المصاحبة خير من الوحدة .

وكان ﷶ يقول : إن الجماعة الذين يصلون إلى صحبتنا بعضهم يكون بذر المحبة في قلوبهم لكنهم بواسطة وسخ التعلقات لا يمكن أن يظهر نشو ونماء ، فينبغي لنا أن ننظف تلك القلوب من أوساخ التعلقات ونزيل عنها قشاش التعويقات . انتهى

وقال بعض الأكابر : أفضل الأعمال كون الطالب في صحبة شخص يعرض فيها عن ما سوى الله تعالى ويميل وينجذب إلى الله .

وقال أهل الحق : إن أفضل الأعمال ما يكون الطالب بسبب الاشتغال به معرضا عن غير الحق سبحانه وتعالى . « رشحة »١٩٠ .

وقال القطب الشريفي أحمد بن إدريس الحسيني المغربي ﷺ : قال رسول الله ﷺ لعائشة ﷴ : « إن أردت اللحوق بي فلا تجددي ثوبا حتى ترقعيه ، وإياك ومجالسة الموتى » قالت : يا رسول الله من الموتى ؟ قال : **الأغنياء** ، فسماهم النبي ﷺ موتى لأن كل عبد شغلته النعم عن المنعم فهو ميت مدفون في قبر ما هو شاغل له منها ، فحياة النفس ذكر الله تعالى والشغل به عما سواه ، وموتها شغلها بغير الله تعالى .

قال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ ، أي زكاها بذكر الله تعالى ومحبته وكلما ازداد ذلك ازدادت حياتها ، ودساها أي دفنها في قبر شهواتها . « عقد النفيس »١٥١ .

قال تعالى : ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال : أي يخربون قلوبهم ويبطلون أعمالهم باتباعهم البدع وهجرانهم طريقة الاقتداء بالنبيين ﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بمجانبة المؤمنين ومشاهدتهم ومجالستهم فيحرمون بركاتهم . « سهل التستري » ١٠١

وقد قال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه :

ما لَذَّةُ العَيْشِ إلا صُحْبَةُ الفُقَرا   هُمُ السَّلاطِينُ والسَّاداتُ والأمرا
فَاصْحَبْهُمُ وَتَأَدَّبْ في مَجالِسِهِمْ   وَخَلِّ حَظَّكَ مَهْما قَدَّمــوكَ وَرا

أي اصحب الفقراء وتأدب معهم في مجالستهم فإن الصحبة شَبَحٌ والأدب روحها ، فإذا جمعت بين الشبح والروح حُزتَ فائدة الصحبة ، وإلا كانت صحبتك ميتة فأي فائدة ترجوها من الميت .

ومن أهم آداب الصحبة هو أن تخلف حظوظك وراءك ولا تكن همتك منصرفة إلا لامتثال أوامرهم فعند ذلك يشكر مسعاك ، فإذا تخلقت بذلك فبادر واستغنم الحضور واخلص في ذلك ترتفع درجتك وتعلو همتك من الحور والقصور كما قال رضي الله عنه :

واسْتَغْنِمِ الوَقْتَ واحْضُرْ دائماً مَعَهُمْ   واعْلَمْ بِأَنَّ الرِّضا يَخْتَصُّ مَنْ حَضَرا

« ميلق » ٣١

ومنه ما في « اللمعة » : قال المؤلف عفا الله العافي عنه : إن في زيارة الصالحين وصحبتهم والاشتغال بخدمتهم خيرا كثيرا ونفعا عظيما ، فقد سمعت من بعض أنه قال : أوحى الله تعالى إلى موسى صلوات الله عليه : يا موسى إذا رأيت لي طالبا فكن له خادما .

وسمعت بعض الأولياء وقد كان قد بلغ من العمر أكثر من مائة وأربعين سنة قال : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : **من خدمني فله الجنة ومن خدم أوليائي فله أنا ومن خَدَم خُدِم ومن تهاون ندم .**

هذا وقد علمت أن الاشتغال بخدمة العلماء والأولياء فيه خير كثير وأجر جسيم . انتهى

وفي « روح البيان » : إنّ المرء بمجرد العمل لا يكون إلا عابدا وأما المعارف الإلهية والوصول إلى الدرجات العاليات يحتاج فيها إلى مرشد كامل رشيد أو جذبة ربانية نادرة يخص بها من يشاء ، ولذا هاجر الكبار من دار إلى دار آخر لأجل تحصيل صحبة المقربين والأبرار فيفلحوا فلاحا أبديا . انتهى

وفيها أيضاً : والمستحب أن يصحب الإنسان أهل الخير ليكون معهم يوم القيامة وينجو من الهموم والندامة قال النبي ﷺ : « إذا أراد الله بعبد خيرا رزقه جليسا صالحا إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه »«١» انتهى .

ومنه ما في « الرسالة المدنية » : فإذا صحح اعتقاده بهذه الكيفية يطلب مرشدا كاملا مكملا حيث يتوجه له بالجذبات الإلهية وبانهدام بيوت الشياطين والمردة وبتصفية قلوب ولطائف السالكين وبإخراج الخطرات الشيطانية بحيث يُسقط اللعين عن لوح القلب . . الخ . انتهى .

وقال بعض السادات رضي الله عنه : مما اخترته من آداب المصاحبة والمجالسة أنك إذا جالست أهل الدنيا فحاضرهم برفع الهمة عما بأيديهم مع تعظيم الآخرة ، وإذا جالست أهل الآخرة فحاضرهم بوعظ الكتاب وآداب السنة وتعظيم دار البقآء ، وإذا جالست الملوك فحاضرهم بسيرة أهل العدل وسياسة العقلاء مع حفظ الآداب معهم والعفاف عما بأيديهم ، وإذا جالست العلماء فحاضرهم بالروايات الصحيحة والأقوال المشهورة في المذاهب المعلومة بالحق دون الهوى مع الإنصاف لهم في القول والفهم المبتكر إذا وافق الصواب مع عدم المرآء والجدال المظهر لحب العلو عليهم ، وإذا جالست الصوفية فحاضرهم بما يشهد لأحوالهم الحقانية ويقيم لهم الحجة على المنكر عليهم مع آداب الباطن قبل الظاهر ، وإذا جالست العارفين فحاضرهم بما شئت فإن

« ١ » الحديث كما فِي كتب السنن : « مَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ عَمَلاً فَأَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْراً جَعَلَ لَهُ وَزِيراً صَالِحاً إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ » .

لكل شيء عندهم وجها من وجوه المعرفة ، لكن بشرط صدق الكلام وحفظ الأدب والحرمة فإن حضرتهم صباغة فالمعنى الذي تدخل به عليهم يخرج منهم ما يكسوك مشهدك فيهم ويلبسك ما وجهت به إليهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر . انتهى كلام السيد بن زين دحلان ﷺ .

وقال الإمام الرباني مجدد الألف الثاني ﷺ في « مكتوباته » ٣٤٧ : اعلم أن رعاية آداب الصحبة ومراعات شرائطها من ضروريات هذا الطريق حتى يكون طريق الإفادة والاستفادة مفتوحا ، وبدونها لا نتيجة للصحبة ولا ثمرة للمجالسة ، ولنورد بعض الآداب والشرائط الضرورية في معرض البيان ينبغي استماعها بسمع العقل : اعلم أنه ينبغي للطالب أن يعرض بقلبه عن جميع الجهات وأن يتوجه به إلى شيخه بحيث لا يخلو قلبه عن الشيخ بالمحبة ، فإن ضعف في قلبه محبة الشيخ أو رجع قلبه إلى جهة فينسد عليه باب الفيض ويدخل في قلبه آثار الدسيسات النفسية فيتخرب باطنه ولا تظهر ثمرته .

وقال الإمام الرباني ﷺ في « مكتوباته » : إن معظم أسباب المحافظة لحصول الدولة هو القيام بشكر حصول تلك الدولة ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ودوام الالتجاء والتضرع إلى جناب قدس الحق جل سلطانه حتى لا يصرف وجه طلبه عن كعبة جماله اللايزالي ، فإن لم تتيسرحقيقة الالتجاء والتضرع ينبغي أن لا يقصر في صورة الالتجاء والتضرع « فإن لم تبكوا فتباكوا » بيان لهذا المعنى ، وهذه المحافظة إنما هي إلى زمان الوصول إلى الشيخ الكامل المكمل ثم بعد الوصول إليه لا شيء عليه سوى تفويض جميع مراداته إليه وكونه كالميت بين يدي الغسال لديه ، والفناء الأول هو الفناء في الشيخ ويكون هذا الفناء وسيلة الفناء في الله .

لا بُـدَّ مِـنْ شَـيْـخٍ يَـقـودُكَ أَوَّلا   مِنْ أَجْلِ كَوْنِكَ في البِدايَةِ أَحْوَلا

فإن طريق الإفادة والاستفادة مبني على وجود المناسبة بين الطرفين ، والطالب لا بد له أولا من برزخ ذي جهتين لكونه في الابتداء في غاية الدناءة

ونهاية الخساسة وعدم مناسبته أصلا لجناب قدسه جل سلطانه من هذه الحيثية ، وذلك البرزخ هو الشيخ الكامل المكمل ، **وأقوى أسباب وقوع الفتور على طلب الطالب هو الإنابة إلى الشيخ الناقص** وهو الذي جلس على مسند المشيخة بدون إتمام أمره بالسلوك والجذبة ، فصحبته سم قاتل للطالب والإنابة إليه مرض مهلك .

ومثل هذه الصحبة تورث الانحطاط والتنزل للاستعداد العالي بل ترميه من الذروة إلى الحضيض ، ألا ترى أن المريض إذا أكل مثلا دواء من طبيب ناقص في الطب فلا جرم يكون ذلك سعياً واجتهاداً منه في زيادة مرضه وتضييع قابلية إزالة مرضه ، وهذا الدواء وإن أورث تسكين الوجع وتخفيفا ما في أول وهلة ولكن في الحقيقة هو عين المضرَّة ، فإن وصل هذا المريض فرضا إلى طبيب حاذق يجتهد هذا الطبيب أولا في إزالة ذلك بالدواء ويعالج بالمسهلات لإخراجه ثم يشرع في معالجة إزالة المرض بعد زوال ذلك التأثير ، ومدار هؤلاء الأكابر على الصحبة لا يحصل فيه شيء من القيل والقال والسماع العاري عن الأحوال بل يورث ذلك فتورا في طلب الترقي إلى مدارج القرب والكمال . انتهى .

وكان حضرة الخواجه ﷺ يقول : كل من كان له ميل إلينا وخاطِرُ محبةٍ سوآء كان قريبا أو بعيدا في كل يوم وليلة لا بد لنا أن نعبر على نسبته ولنا عليه من رأس عين الشفقة والتربية فيض واصل إن كان حافظا لأحواله ومنظفا لطريق الفيض من قشاش التعلقات وأوساخها .

وقال الشيخ عبيد الله الأحرار ﷺ في « الرشحات » : إن كان السكوت في الصحبة لأجل حفظ الحضور بالله وملاحظة الامتناع عن اللغو فتلك الصحبة جنة ، وفي قوله تعالى : ﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا ﴾ إشارة إلى مثل هذه الصحبة فمن كان قلبه في أسر محبة المحبوب الحقيقي فهو في مقام المكالمة والمناجاة مع محبوبه في كل حال .

وقال : إن الحق سبحانه لا يكون مدركا ومفهوما بوجه من الوجوه عند المحققين ويكون طريق إدراكه مسدودا ، والعقل الكامل لا يستريح من طلب إدراكه أصلا فالسكوت والاطمئنان ليسا من مقتضيات العقل على هذا التقدير

قَصْدُ الحَبِيبَةِ أَنْ تُضْحيْ بِها وَلِهاً فَالسَّعْيُ في عَبَثٍ أَوْلى مِنَ الوَسَنِ .

وقال الشيخ عبيد الله أحرار ﷺ في « الرشحات » في ٢١١ : يلتزم رجال الغيب في كل زمان صحبة شخص من الصلحاء يعمل بعزيمة ويجتنب عن رخصة ، ويفرون من أرباب الرخصة فإن العمل بالرخصة شغل الضعفاء وطريقة أكابر النقشبندية عزيمة .

وقال حين أمر بالعزيمة والاحتياط : إن الاحتياط في اللقمة من اللوازم حتى ينبغي كون من يطبخ الطعام على طهارة كاملة وأن يوقد النار بالحضور والشعور ، وكان حضرة الخواجه بهاء الدين ﷺ لا يأكل من طعام صدر عند طبخه غضب أو كلام فاحش وكان يقول : إن لهذا الطعام ظلمة لا يجوز لنا أكله . اهـ

وإن صحبة الأغنياء والثروة وأرباب الترفه سم قاتل ، ولقمتهم السمية أيضا وأطعمتهم اللذيذة زائدة في ظلمة الباطن يعني يورثها وتورث قساوة القلب فالحذر الحذر من صحبتهم والمؤانسة معهم واستلذاذ أطعمتهم والميل بمحبتهم ، وقد ورد في الحديث الصحيح على مصدره الصلاة والسلام : « من تواضع لغني لغناه ذهب ثلثا دينه » ، فويل لمن تواضعهم لغناه مع سخطه تعالى في إرضائهم سامحنا الله تعالى من فرطات نفوسنا آمين .

وقال مولانا وشيخ شيخنا ﷺ : فاعلم أن للصحبة ثلاث فوائد :

الأول أن صحبة أهل الخير تمنع المريد عن الانقلاب والعود إلى البطالة وتبعد النفس عن التشوف إلى المعاصي ، فإن البعد عن المعاصي يثقل فعلها على النفس والقرب من الطاعات يهون أمرها على النفس ، فبركة الصحبة وقوة الروحانية القدسية يسهل أمرهما عليه .

الثانية أن علم القلوب لا يصطاد إلا بالصحبة فإن من تحقق حاله لم يخل حاضروه منها والطبع يسرق من الطبع من حيث لا يعلم ، والمرء على دين خليله ، والمؤمن مرآة المؤمن ، وما كان من المرئيات انطبع في المرآة المقابلة لها ، ولذا كان معول الشاذلية والنقشبندية على الصحبة .

واعلم أن الداعي للصحبة بين اثنين وجود الجنسية والنسبة بينهما ، فلا يصحب إلا من وجدهما فإنك تجد جنس البشر مثلا يميل بعضهم إلى بعض وكذلك غيرهم من الحيوانات يميل كل نوع إلى بعضه أكثر من ميله إلى النوع الآخر ، وكميل أهل الملة إلى بعضهم وكميل أهل الطاعة إلى بعضهم ، وكذلك أهل المعصية وكميل أهل الشرع والطريقة والحقيقة والمعرفة ، وكذلك أهل كل علم وحال وقال ومقام وصنائع وحرفة . ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » .

فإذا علمت أن الموجب للصحبة وجود الجنسية والنسبة فتفقَّد نفسك عند الميل إلى صحبة شخص والحالة التي فيه من أجلها أحببته ، وزِنْ ذلك بميزان الشرع ، فإذا رأيت أحواله مسدّدة فبشر نفسك بحسن الحال ، وإن رأيت أحواله غير مسدّدة فارجع إلى نفسك باللوم فإن تلك الحالة القبيحة مركوزة في نفسك وفرّ منه كفرارك من الأسد فإنه زادك ظلمةً وبعداً ومقتا وغفلة ونقمة ، فيجب أن تقتدي بمن علم بالديانة والصيانة والرحمة والعفو والتقوى والأمانة من البدع والأهواء والخيانة بعد أن تحقق أن طريقته موافقة للكتاب والسنة وأفعال الصحابة والمشائخ الراسخين والعارفين وكبار الأمّة .

الثالثة أن السالك مبتلى بنفسه ، فإذا عمل وحده ربما ظفر منه الشيطان بخيالات وأوهام وعقائد فاسدة وأفكار كاسدة وكسل ومكر وحِيَل وزندقة واستدراج وغيرها ، ويوهمه أن ذلك من الأحوال والأصول وهو لا يدري ، لاسيما المبتدئ فإنه يشوش عليه هذه الحالة ، فلا بد من شيخ بشروطه السابقة لينجو من هذه الورطة وعقبات الطريق وتوقّفه انتهى بحروفه .

وقال ابن بنت ميلق ﵁ :

وَلَيسَ يَنْفَعُ قُطْبُ الوَقْتِ ذا خَلَلٍ   في الاعْتقادِ ولا مَنْ لا يُواليـهِ
إلا إذا سَبَقَتْ لِلْـعَبْد سابِقَـةٌ   يَعودُ مِنْ بَعْدِ هذا مِنْ مَـواليـهِ

أي وليس ينفعك أيها الطالب ملاقاة القطب والاجتماع به إذا لم تنكسر له وتخضع بين يديه وتتذلّل ، فلذلك قيل : من أشد الحرمان أن تجتمع بالولي ولم تُرزَق القبول عنده وما ذلك إلا لسوء أدبك في الظاهر والباطن ، فإنهم يَدخلون في باطن الإنسان ويعلمون ما تحويه سرائره من غير أن يشعر بذلك ، فلهذا يجب على الحاضرين بين يدي أولياء الله أن يحفظ سرّه عما لا يعني فكيف بالمعاصي ، فإذا وقعت خطرة من خطرات السوء بين يدي الولي فينبغي للطالب أن يتلافى ذلك ويغسل تلك الخطرة بالاستغفار والرجوع إلى مولاه بالذلة والانكسار وهذا هو الذي أشار إليه الناظم بقوله :

إلا إذا سبقت للعبد سابقة   . . . . . . إلخ

إذا سبقت العناية الإلهيّة للطالب تلافى ذلك الخاطر وعالج سوءَ الأدب الواقع منه بالاستغفار والعودة إلى موالاة ذلك الولي وحسن الأدب معه فإن سيماهم السماحة وهم متخلقون بأخلاق مولاهم يحبّون التائب ويغفرون الزلة ويقيلون العثرة .

والحاصل أن النفع المترتب على الاجتماع بالأولياء إنما يحصل بلزوم الأدب معهم وحسن الاعتقاد فيهم .

زار بعض الملوك قبر أبي يزيد ﵁ فقال : أهاهنا أحد ممن اجتمع به وسمع كلامه ؟ فأشاروا إلى شخص من هناك فقالوا : هذا ممن اجتمع به وسمع كلامه ، فقال له الملك : ماذا سمعت من كلامه ؟ فقال : سمعته يقول : من رآني فلا تحرقه النار ، فاستعظم الملك هذا المعنى وقال : محمد رسول الله ﷺ رآه أبولهب والنار تحرقه فكيف يقول أبو يزيد من رآني لا تحرقه النار ؟ ! فقال ذلك الشيخ :

إن أبالهب ما رأى محمداً رسولَ الله وإنما رأى يتيم أبي طالب ، وقد قال القشيري ﷺ : قعودك مع كل طائفة أسلم من الصوفية .

وقال الديريني ﷺ في « روضه » : يعني إن خالَطَهم وادّعى أنه سلك مسلكهم ومراده التزين للناس بأحوالهم مع عزمه على مخالفتهم فإنه هالك فلذلك تحرقه النار ، ففهم الملك المراد وأذعن ، يعني أن أبا لهب لم ير النبي بوصف النبوة ولا عظّمه في قلبه بالحالة اللائقة بوصفه ﷺ وإنما رآه بعين الحقارة وكونه يتيما ربّاه أبو طالب ، فلذلك أحرقته النار ولو رآه بوصف النبوة وعظّمه في قلبه بالحالة اللائقة بوصفه ﷺ وأذعن له بها وأسلم لكانت تلك الرؤية رافعة له لمقام الصحبة ، وحصل له المقام الذي لا يصل أحدٌ من الأولياء إليه ولم تحرقه النار .

وكذلك الولي لا ينال أحدٌ بركة صحبته حتى يراه بعين الولاية ويعظمه بمقتضى مقامها فتشرق حينئذ أنوارها ، فعضّ يا أخي بالنواجذ على حفظ الأدب بين يدي المشائخ واحفظ قلبك معهم وقالبك يكن لك في أذواقهم القدم الراسخ . انتهى ما قاله ابن علان قدس سره ٢٥ .

وقال ابن عطاء الله الإسكندري قدس سره في « الحِكَم » : ما نفع القلب شئٌ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة .

مداواة أمراض القلب واجبة على المريد ، وأمراضه إنما تكون من غلبة أحكام الطبع عليه من صحبته للأضداد ووقوفه مع المعتاد وانقياده إلى هوى النفس وأنسه بعالم الحس ، ومداواة هذا المرض تتأتى من وجوه كثيرة وأبلغها في ذلك وأنفعها العزلة عن الناس المصحوبة بالفكرة ، فبالعزلة يتقيد الظاهر عن مخالطة من لا تصلح مخالطته ، ومن لا يأمن دخول الآفات عليه بصحبته فيتخلص بذلك المعتزل عن المعاصي التي تعرض له بالمخالطة مثل الغيبة والمداهنة والرياء والتصنّع ويتحصل له بذلك السلامة من مسارقة الطباع الردية والأخلاق الدنية ، ويستفيد بذلك أيضا صيانة دينه ونفسه عن التعرض للخصومات وأنواع الشرور والفتن ، فإن للنفس تولُّعا وتسارعا إلى الخوض في مثل هذا .

فواجب على المعتزل أن يكف لسانه عن السؤال عن أخبار الناس وما هم مشغولون به ومنهمكون فيه ومنكبون عليه ، ويصون سمعه عن الإصغاء إلى أراجيف البلدان وما اشتملت عليه من الأحوال التي ذكرناها ، وليحرص على أن لا يغشاه في خلوته وعزلته من شأنه التطلّع لذلك والبحث عنه ، وليجتنب صحبة من لا يتورع في منطقه ولا يضبط لسانه عن الاسترسال في دقائق الغيبة والوقيعة والتعريض بالطعن على الناس والقدح فيهم ، فإن ذلك مما يكدّر صفآء القلب ويؤديه إلى ارتكاب مساخط الربّ ، فليهجره المعتزل وليفرّ منه فراره من الأسد ولا يجتمع معه في مكان البتة وليتنكر إلى كلّ من يتعرف له ممن هذا شأنه من المنسوبين إلى الدين فضلا عن غيرهم كما قال بعضهم : أنكر من تعرف ولا تتعرّف إلى من لا تعرف .

وفي الخبر : « مثل الجليس السوء كمثل الكير إن لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه » ، وفي الأخبار السالفة : إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام : يا ابن عمران كن يقظانا وارتد لنفسك أخدانا وكل أخ أو صاحب لا يوازرك على مبرّتي فهو لك عدوّ .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود ما لي أراك منتبذا وحدانياً ، فقال : إلهي قليت الخلق من أجلك ، فقال : يا داود كن يقظانا وارتد لنفسك أخدانا وكل خدن لا يوافقك على مبرّتي فلا تصحبه فإنه لك عدوّ ويقسي قلبك ويباعدك مني .

وما أحسن قول أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الألبيري رحمه الله في هذا المعنى :

فَخَفْ أبْناءَ جِنْسِكَ وَاخْشَ مِنْهُم ... كَما تَخْشى الضَّراغِمَ والسبنتى« ١ »

وخَالِطْـهُـمْ وزايِلْـهُـمْ حِذارا ... وُكُـنْ كالسـامِـرِيِّ إذا لُمِسْـتا

اهـ

« ١ » السبنتى أي النمر .

وقال فيه أيضا : وروي عن عيسى ﷺ : لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم ، قيل : ومن الموتى ؟ قال : المحبّون للدنيا الراغبون فيها . انتهى

وقال ابن بنت ميلق ﷺ :

واسْتَغْرِق العُمْرَ في آدابِ صُحْبَتِهِ وَحَصِّل الدُّرَّ والياقوتَ مِـنْ فـيْهِ

واستغرق العمر يا أخي في صحبة شيخك حتى تعرف آداب الصحبة وتنتقل من صحبة المخلوق إلى صحبة الخالق ، فإن جميع ما يطلب مع الشيخ من الآداب يطلب منك بعد ذلك أن تعامل به الربّ ، فلا يصلح للعبد عبودية حتى يكون مراده تابعا لمراد مولاه ، من أحبّه لم يُؤْثِرْ عليه شيئا من مراداته ، وإذا عرفت الآداب مع الشيخ وتأدّبت بآدابه في صحبته كنت أهلا لأن تصير بعد ذلك من أهل الله تعالى وخاصته ، وهكذا شأن الملوك إذا أرادوا أن يقرّبوا عبداً ويجعلوه من خاصتهم جعلوه عند من يعلّمه آداب الخدمة فإذا كان الملك المجازيُّ لا يرضى لخدمته وحضرته إلا عبدا مؤدباً فكيف بملك الملوك ، واجتهد يا أخي في معرفة الآداب لتكون من أهل المنادمة« ١ » وخاصتهم والمجاورة في منازل الأحباب وما أحسن ما قال بعضهم :

أَعْطِ المَعيَّــةَ حَقَّــها والْزَمْ لَهُ حُسْنَ الأَدَبْ
واعْلَمْ بِأَنَّكَ عَبْــدُهُ في كُلِّ حالٍ وَهوَ رَبّ

وقال بعضهم : إن هذين البيتين قد تضمّنا خلاصة ما في « الإحياء » ، إذ المقصود من « الإحياء » كله معرفة الآداب ، فالطريق كله آداب .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ في تعريف التصوّف : وهو تربية النفس في العبودية وردّها إلى أحكام الربوبية .

قوله : وحصّل الدرّ والياقوت من فيه: أي إنك أيها الطالب إذا استغرقت عمرك في صحبته حصل لك الدرّ والياقوت من فيه أي حصل لك سماع

« ١ » أي المسامرة وهي الحديث الخاص بين الأصحاب .

المعارف والحقائق والمعاملات الدقيقة والإشارات النفيسة التي هي جواهر ويواقيت لأهل الأذواق ، وذلك لا يحصل إلا في مدّة مديدة إذ هم رضي الله تعالى عنهم لا يتكلّمون إلا بقدر الحاجة وبحسب المصلحة ، فبطول الصحبة تحصل الأحوال المختلفة يذكرون فيها ما يناسب كل حال بحسب كل شخص ، فتتنوع الفوائد وتتزايد الفرائد ، ولهذا كانوا أي الصحابة ينتفعون كثيرا بالأعراب لما يأتون ويسألونه ﷺ فيجيبهم بحسب سؤالهم فيستفيد الصحابة من ذلك علوما كثيرة ، ولو لم تأته الأعراب وسألوا لم يمكنهم السؤال لأنهم لا يتكلمون عنده ﷺ إلاّ بقدر الضرورة لمزيد آدابهم ورعاية أحوالهم وحفظ قلوبهم عما لا يعني ، ولا يعنيك يا أخي إلا أدبك اللازم واشتغال سرّك به ، فمتى غفلت لحظة بسواه كان ذلك من أعظم الذنوب عند من كانت همته الاشتغال بالله انتهى كلامه قدس سره .

وقـــال أبو المواهب الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : إن أردت أن تهجر إخوان السوء فاهجر أخلاقك السوء قبل أن تهجرهم ، فإن نفسك أقرب إليك والأقربون أولى بالمعروف . « تقريب » ٩٥ .

وذكر في « المقامات السعدية » أن الطريق الثالث : الاستفادة من صحبة الشيخ الكامل المكمل الذي بيُمن توجهه وجاذبية صحبته يتطهر القلب من دنس الغفلة ويلمع فيه من سماء الشهود أنوار البدور والأهلة ، ويستفيد المريد في حضرته برعاية الأدب والتماس رضاه ، وفي غيبته بتشخيص صورته معتقدا أنه الباب الذي فتح له إلى الله تعالى ، وهذا الطريق كما قالوا أقرب الطرق وأسهلها في الإيصال ، وسمّوا هذا الطريق بالرابطة . اهـ ١٩٨

وإن الاستفادة المذكورة قال الشيخ محمد معصوم قدس سره : الوصول في طريقتنا مربوط برابطة المحبة للشيخ المقتدى به .

وقد ذكرنا ذلك غير مرة فإن الطالب الصادق من طريق محبته لشيخه يأخذ من باطنه الفيوضات والبركات وينصبغ ساعة بعد ساعة بلون شيخه بتلك المناسبة المعنوية ، كما قالوا : **الفناء في الشيخ مقدمة الفنآء الحقيقي** ،

والذكر المجرد عن الرابطة المسطورة وعن الفنآء في الشيخ ليس موصلا ، وإن كان الذكر من أسباب الوصول ولكنه في الغالب مشروط برابطة المحبة للشيخ والفناء فيه ، نعم هذه الرابطة وحدها مع رعاية أدب الصحبة وتوجه الشيخ من غير التزام طريق الذكر موصلة ، وأما وظائف الأذكار والطاعات مع ذلك من الممدات والمعاونات . انتهى كذا في « كنز الهداية » .

وأما ما قالوا من أن الشيخ بابٌ فُتحَ للمريد الصادق إنه استدلّوا عليه بقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

قال الشيخ عبد الرحيم ﷺ أبو الشيخ ولي الله ﷺ : وجه الاستدلال أنه لا يمكن أن يراد بالوسيلة الإيمان لأنه خطاب للمؤمنين ، ولا أن يراد به العمل الصالح فإنه داخل في التقوى لأنه عبارة عن امتثال الأوامر واجتناب النواهي والعطف يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه ، وكذلك لا يراد به الجهاد بالدليل المذكور ، فتعين أن المراد به البيعة والإرادة من الشيخ المرشد ثم المجاهدة والرياضة في الذكر والفكر حتى يحصل الفلاح الذي هو عبارة عن الوصول إلى الذات المقدس ، والله أعلم . انتهى هامش « المقامات السعدية » ١٩٨ .

وقال أبو القاسم الجنيد ﷺ : إياك وصحبة الأشرار ولا تقطع عن الله بصحبة الأخيار . « نفحات » ١٠٦ .

وقـال في « الرشحات » : إن صحبة أهل هذه النسبة بغير هؤلاء الطائفة الذين غلبت عليهم هذه النسبة في بداية حالهم سبب لفتور عظيم في النسبة ولو كان من أهل الزهد والتقوى ، وهذا الكلام ليس بإنكار للزهد والتقوى فإنهما في غاية الصفاء والنورانية ، ولكن لما كان الغالب على أهلهما نسبتهما تحصل تلك النسبة في صحبتهم لأهل نسبة هؤلاء الطائفة أيضا ، فيبقى خاليا عن نسبة هؤلاء الطائفة التي فوق جميع النسب فإن الحكم للغالب ، فإن كان حال

صحبة أهل الزهد والتقوى كذلك فما ظنك في تأثير صحبة الأشقياء والأجانب وفيما يحصل منهم من النسب الظلمانية .

وقال : جالسوا جماعة لا يغلبون عليكم ولا يأكلونكم يعني لا يكونون أقوى منكم بحسب النفس والهوى ولا يضيعون أوقاتكم ولا يفوتونها ، فإن من ضاع وقته وفات فقد ضاع هو بنفسه ومات . « رشحة » ٢٠٠ .

ولذلك قال بعض السادات : الصحبة بشروطها كافية للانعكاس والانصباغ أي كافية لانعكاس صور الأنوار الإلهية من حضرة الذات المقدسة إلى استعدادات قلوب الطالبين والانصباغ ، أي كافية تلك الصحبة لانصباغ قلوب الطالبين بتلك الأنوار لأن تحت صحبة الواصلين أسرارا لا يمكن الوصول إليها إلاّ بالصحبة .

فلذلك قال بعض العارفين : اصحبوا مع الله تعالى فإن لم تستطيعوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله تعالى فإن بركة صحبته توصلكم إلى صحبة الله تعالى . « تحفة الأحباب » .

ثم اعلم أنه لا بد لمن دخل في صحبة المشائخ الصوفية أن يراعي آداب صحبتهم ويحفظ حرمتهم لأنهم جلساء الله وعرائس الله وأحبّاء الله وحزب الله وصحبتهم صحبة الله تعالى ، فمراعات آداب الله تعالى واجبة على كل حال .

قال في « نزهة المجالس » : قال رسول الله ﷺ : « من أراد الجلوس مع الله تعالى فليجلس مع أهل الله تعالى » ، فيجب مراعاة الأدب معهم ومن لم يراع الأدب معهم فقد ضلّ عن سواء السبيل .

وقال الجنيد ﷿ : من جلس مع هذه الطائفة ثم لم يتأدّب معهم سلب منه نور الإيمان وابتلاه الله تعالى بالمقت ، **ومن استخفّ بالأستاذ ابتلاه الله تعالى بثلاث : كَلَّ لسانه عن الشهادة ، وافتقر في آخر عمره ، ونسي ما تعلّم منه .**

ثم إن آداب صحبة المشائخ كثيرة وذكر جميعها في هذا المختصر عسيرة ، لكن أذكر نبذة منها لما أن ما لا يدرك كله لا يترك كله ، وفي المذكورات كفاية لمن وفقه الله تعالى بإخلاص استعداده .

منها : أنه لا بدّ للمريد قبل الدخول في صحبة شيخه أن يغتسل ويتوضّأ لأن الطهارة تزيد الإفاضة وتكثرها

وأن يتوب من جميع ذنوبه ، وأن يجرد قلبه عن العلوم والقيود

وأن يدخل عليه بعد الإذن ولا يدخل عليه في حال قبضه أو وقت شغله ، وليكن الدخول بالتواضع و التذلّل وإطراق الرأس

وأن يسلم عليه بقلبه لا بلسانه ، وأن يقبل يده اليمنى ويقهقر إلى ورائه ويقف قائما عند الباب ، فإن أمره الشيخ بالجلوس فيجلس حيث أمره فيه .

وأن لا يطأ سجادة الشيخ عند تقبيل يده بل يطويها ويمشي على ركبتيه

وأن لا يدخل في قلبه الخواطر عنده لأن الخواطر متى تدخل في قلبه تنعكس إلى قلب الشيخ فيتأذى بها ، وأن لا يحدّث نفسه بالخروج من عنده .

وأن لا يبتدئ الكلام إلاّ بإذنه ، وأن لا يرفع بالكلام وليخفض إلى حد ما يسمعه الشيخ

وأن لا يطيل النظر إلى وجهه لأن ذلك ينافي الأدب ويسقط هيبة الشيخ عن قلبه فينقطع عن الاستفاضة .

وأن يكون بين يدي الشيخ كاللص بين يدي سلطان محتشم

وأن لا يغير قلبه من الشيخ إذا نقصه أو شتمه عند أصحابه .

وأن لا يعترض على شيخه لو صدر عنه ما يخالف ظاهر الشريعة وإن لم يقدر على توفيق كلامه فليقل هو أعلم وليتذكر قصة الخضر مع موسى عليهما وعلى سائر المرسلين الصلاة والسلام .

ولا يخالفه في أمر أصلا ولو أمره بإلقاء نفسه في النار لأن عدم الفلاح من عدم امتثال أمر الشيخ

وأن لا يرد كلام الشيخ بكلامه ولو كان الحق في يده لأن فيه نقض العهود .

وأن لا يقول له لِمَ لأن فيه اعتراضا عليه وأن يعتقد أنه من أولياء الله تعالى وأنه محفوظ عن الخلاف

وأن لا يعتقد فيه العصمة لإمكان صدور المعصية من الأولياء وقد ذكرنا الإشارة في ذلك في موضعها .

وأن يعتقد فيه أنه أفضل المشائخ في طريقته وطريقته أفضل الطرق لأنه إذا لم يعتقد كذلك تميل نفسه إلى شيخ آخر ويتشوّق طريقة أخرى فينقطع عن الاستفاضة عنه .

وأن لا يكثر التردّد عند الشيخ وأن لا يدخل في صحبته إلا باقتضاء أحكام السلوك قبل دخوله فيه

وأن لا يطيل الجلوس عنده لأنه ينافي المحبة ويزيل الهيبة وينقطع عن الاستفاضة .

وأن لا يكتم عنه ما يظهر له من الأحوال والأذواق لأن كتم المريد شيئا من أحوال سلوكه عن الشيخ يقطعه عن السلوك ويمنعه عن الوصول وإن كشف له سرّ من أسراره فلا يفتشه ولو نشر بالمنشار .

وإذا أراد الخروج من عنده فليستأذنه فإن أذن فليقبّل يده وركبتيه وليخرج بالقهقرة ولا يولي إليه ظهره حتى يتوارى عنه بجدار أو غيره .

فمن تأدّب بهذه الآداب فقد ينتفع من الصحبة فيكون صحبته موصلة إلى الله تعالى ، وإلا تكون الصحبة عليه مقتا وضلالا . « الآداب المرضية »

ثم اعلم أيها الصادق أن التشبّه بالأخيار والصالحين بحسن الظنّ بهم يورث المحبة وأن من أحبّ يكون مع المحبّين ، ألا ترى أن الله لما أرسل موسى على نبينا وعليه السلام إلى فرعون كان السامري يتشبّه بموسى بين يدي فرعون ليضحكه استهزاء منه واستهانة ، فبسبب هذا التشبّه على هذا الوجه نجاّه الله تعالى من الغرق فلم يغرق مع فرعون وأصحابه هذا بمجرد التشبّه ، والحال أنه على وجه الاستهانة والاستهزاء ، فكيف إذا كان على غير هذا الوجه ، وكيف إذا كان بحسن نية ولو لم يقم بالعمل .

قال الشاعر :

فَتَشَبَّهوا إنْ لَمْ تكونوا مِثْلَهُمْ ⁂ إنَّ التَّشَبُّـهَ بِالْكِــرامِ فَـلاحُ

وقد ورد : « المرء مع من أحبّ » كم موضع ذكرنا هذا لما أنهم قوم لا يشقى جليسهم ذكره السيد أحمد بن إدريس رحمه الله في « العقد النفيس » ١٠٨ .

وقال الشيخ أبو مدين قدس سره :

ما لَذَّةُ العَيْشِ إلّا صُحْبَةُ الفُقَـرا ⁂ هُمُ السَّلاطينُ والسَّاداتُ والأَمَرا

فَاصْحَبْهُمُ وَتَأَدَّبْ في مَجالِسِهِمْ ⁂ وَخَلِّ حَظَّكَ مَهْما قَدَّمــوكَ وَرا

وَاسْتَغْنِمِ الوَقْتَ واحْضُرْ دائماً مَعَهُمْ ⁂ وَاعْلَمْ بِأَنَّ الرِّضا يَخْتَصُّ مَنْ حَضرا

وَلازِمِ الصَّمْتَ إلّا إنْ سُئِلْتَ فَقُلْ ⁂ لا عِلْمَ عِنْدي وَكُنْ بِالجَهْلِ مُسْتَتِرا

وَلا تَرى العَيْبَ إلا فيكَ مُعْتَقِداً ⁂ عَـيْـباً بَـدا بَـيِّـناً لكـنَّـهُ اسْتَـتَرا

وَحُطَّ رَأسَكَ وَاسْتَغْفِرْ بِلا سَبَبٍ ⁂ وَقُمْ عَلى قَدَمِ الإنْصافِ مُعْتَـذِرا

وَإنْ بدا مِنْكَ عَيْبٌ فَاعْتَرِفْ وَأَقِمْ ⁂ وَجْهَ اعْتِذارِكَ عَمَّا فيكَ مِنْكَ جَرى

وَقُـل : عُبَيْدُكُمُ أوْلى بِـصَفْحِكُـمُ ⁂ فَسامِحوا وَخُذوا بالرِّفْقِ يا فُقَـرا

هُمْ بِالتَّفَضُّلِ أولى وَهوَ سِيمَتُهُمْ ⁂ فَلا تَخَفْ دَرَكاً مِنْهُمْ وَلا ضَررا

وبالتغنِّي عَلى الإخْوانِ جُدْ أبَداً ⁂ حِسّاً وَمَعنىً وَغُضَّ الطَّرْفَ إنْ عَثَرا

وَراقِبِ الشَّيْخَ في أحْوالِهِ فَعَسى يَرى عَليكَ مِـنْ اسْتِحْسانِهِ أثَـرا

وَقَدِّمِ الجِدَّ وانْهَضْ عِنْدَ خِدْمَتِهِ عَساهُ يَرضى وحاذِرْ أنْ تَكُنْ ضَجِرا

فَفِي رِضاهُ رِضا الباري وَطاعتُهُ يَرضى عَلَيْكَ وَكُنْ مِنْ تَرْكِها حَذِرا

وَاعْـلَمْ بِأنَّ طَـريقَ القَوْمِ دارِسَةٌ وَحالُ مَنْ يَدَّعيها اليَوْمَ كَيفَ تَرى

مَـتى أراهُمْ وَأنَّى لي بِـرُؤيَتِهِـمْ أوْ تَسْمَعُ الأذْنُ مِنِّي عَنْهُمُ خَبَرا

مَنْ لي وانَّى لِمِثْلي أنْ يُزاحِمَهُمْ عَلـى مَـوارِدَ لَمْ آلَفْ بِها كَـدَرا

أحِـبُّـهُمْ وَأداريـهِـمْ وَأوثِـرُهُمْ بِمُهجتي وَخُصوصاً مِنْهُمُ نَـفَـرا

قَوْمٌ كِرامُ السَّجايا حَيثُما جَلَسوا يَبْقى المَكانُ عَلى آثارِهِمْ عَطِرا

يُهْدي التَّصَوُّفُ مِنْ أخْلاقِهِمْ ظَرْفاً حُسْنُ التَّألُّفِ مِنْهُمْ راقَني نَـظَرا

هُمْ أهْلُ وِدّي وَأحْبابي الذينَ هُمُ مِمَّنْ يَجُرُّ ذُيولَ العِزِّ مُـفْـتَـخِرا

لا زالَ شَمْلي بِهِمْ في الله مُجْتَمِعاً وَذَنْبُنا فِيـــهِ مَغْفوراً وَمُغْـتَـفَـرا

ثُمَّ الصَّلاةُ على المُخْتارِ سَـيِّدِنا مُحَمّدٌ خَيْرُ مَنْ أوْفى وَمَنْ نَذرا

وصلى الله على سيدنا محمد المختار ، خير من أوفى ومن نذر ومن أكرم الجار ، وعلى آله واصحابه الأبرار والتابعين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم القرار « ميلق » ٣٢

فصل

في الإرادة وغايتها

اعـــلم أيها المجد الصادق ، أن لكل أمر أسباباً للوصول إليه ، والإرادة لكل شيء أصل وبذر ، وهي في اصطلاح أهل الحق ظهور نار المحبة الإلهية في قلب المريد وإجابته لدواعي الحق سبحانه وتعالى ، وهي مبنى كل سعادة ، وفي الحقيقة أن الإرادة وإن كانت من صفات البشر لكن هي لمعة أنوار اسمه (المريد) سبحانه وتعالى ظهرت في قلبه على سبيل المجاز وهذا بداهي لأرباب القلوب .

وقال ابن أبي داود الحنبلي ﷺ صاحب « تحفة العباد » في كتابه « آداب المريد » : علامة صحة إرادة المريد تعلق قلبه بشيخه واستغراقه في مشاهدته في الغيبة والحضور ، حتى لا يشهد معه من الخلق أحدا غيره ، فإذا صح له هذا المشهد انتقل منه إلى مشهد الجمال السرمدي ، وهذا الذي لا يشهده إلا أهل المعرفة بالله تعالى ، لا الغبي الجاهل المفتون بشهوة نفسه الأمارة بالسوء أو الجامد الذي ليس عنده شيء من الروحانية ، قال بعضهم :

إذا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ ولَمْ تَدْرِ ما الهَوى فَكُنْ حَجَرا مِنْ يابسِ الصَّخرِ جَلْمَدا« ١ »

اهـ للمنزلوي ﷺ من هامش « المكتوبات » ٢٦٦ ج ١ .

قال مولانا الشيخ أبوالحسن الخرقاني ﷺ النوراني : « اورا خواست مارخواست » كلمة فارسية ، يعني : أن (المريد) اسم شريف للحق سبحانه وتعالى ، ونوره يصعد إلى قلب العبد بقدر استعداده لذلك النور ، فيتوجّه قلبه إلى الله تعالى مع النور المصعد ، فتصير الإرادة حينئذ بذر سعادة روضة قلب العبد الصالح ، ولازم عليه حفظ البذر من الآفات البشرية ليجني من نمو ثمارها ، ولتربية هذا النور يحتاج إلى مدد شيخ كامل وتسليم أمره إليه

« ١ » أي صخرة .

في الحال ، لما أن الشيخ الكامل الذي يعلم ما في قالب المريد وقلبه يعلم منه الأخلاق الذميمة التي هي بمثابة الحطب فيعرضها إلى نار المحبة ساعة فساعة حتى يمحى ويذهب بحيث يتقوى نور المحبة بالتدريج على مجموع الإرادة البشرية ، فيصير نور الإرادة وقودا للأخلاق الذميمة فتنطمس ، فيفنى العبد في الله سبحانه وينفتح له الباب المسدود إلى الله تعالى .

وإن قصد لتربية ذلك النور برأيه وعقله على مقتضى إرادته البشرية بلا رجوع إلى المرشد الكامل الذي صحت نسبته فمحال أن يصل إلى غايته ومقصوده ، بل يحتمل أن يبتلى بسوء الأدب بوقوعه في الورطات بسبب تسامحه عن جهة المرشد .

وإن سألت : إن القرأن الكريم والحديث الشريف والشريعة المحمدية يبين كل أمر ديني ولا يترك صغيرا وكبيرا إلا مبينا فيها ، وكلام الله أعظم من كل شيء وألطف ، فما الضرورة إلى الشيخ في أمثال ذلك ، والشيخ لا يقدر أن يفعل إلا بما فيها ؟

فالجواب : لا شك فيما قلت ولا ريبة لما أن كل شيء مأخوذ من القرآن والحديث النبوي ، أخذه المرشد منها أيضا في الحقيقة ، لكن ليس أخذ المرشد منها كأخذك وعلمه إياها ليس كعلمك ، بل مثله مع مثلك كمثل الطبيب الخبير يعلم الأمراض وعلاجاتها بالتجربة أخذا من الأطباء الخبرة فيداوي لكل مريض نظرا إلى مرضه وطبائعه ومزاجه وعناصره ، وإلا فإن داوى الجاهل نظرا إلى المكتوب في الكتب بأن هذه الأخلاط دواء لمرض فلاني واستعمل تلك الأخلاط مع جهل مزاج المريض وكيفية عناصره فلا ريب أنه يقع في عطب وتهلكة فيؤول أمره إلى المهالك ، كذلك إن طريق السلوك من المهالك المعنوية وأصعب من الصورية وأحوج إلى الطبيب المعنوي فتفطن والله يعصمك .

قال حضرة الخواجه ﷿ : الإرادة والتسليم وعدم الاختيار أمر عظيم ، والمختار عندي أن الإرادة ترك الإرادة في الإرادة ، والمريد ينبغي له أن

يترك إرادته في إرادة مقتداه بالكلية ، وذكر بيتا بالفارسي : إنا تركنا إرادتنا وأخرجناها عن أنفسنا لأن اختيـــار الحبيب كلـه اخـتـيارنا ، إن أردنا أشغلنا الطالب بطريق جذبة ، وإن أردنا أشغلنا الطالب بطريق السلوك .

فالمرشد طبيب حاذق يعالج كل مسترشد بما يوافق حاله ، وقد ورد في الحديث عنه ﷺ **أن الله تعالى يعامل كل عبد بحكمته البالغة بما يليق به فجعل واحدا في الفقر والشدة ويجعل آخر في الغنى والله بصير بالعباد .**

وقال الشيخ سلطان الطريقة وبرهان الحقيقة مبدع الحقائق ومنشئ الدقائق مهبط الأسرار ومنبع الانوار محي السنة وقامع البدعة ناقد أحاديث رسول الله ﷺ مجد الملة والدين أبو سعد شرف بن مؤيد بن أبي الفتح البغدادي الشهيد روّح الله روحه فى كتابه « تحفة البررة في أجوبة المسائل العشرة » قال : ما حد الإرادة وحقيقتها في قوله ﷺ : « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » : إنما المعتبر في الحضرة الإلهية جل ذكره هو جوهر الروح ، وإذا كان جوهر الروح في أصل الخلقة والجبلة كاملا مقبولا محبوبا لا يضره التلوث بالمخالفات في ابتداء الأمر ، وإذا كان جوهر الروح ناقصا خسيسا لا ينفعه التزين بالمعاملات والعبادات ، ألا ترى إلى عمر وسائر الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين كيف كانوا منغمسين في بحار الضلالة متحيرين في تيه الجحود لكنهم لما كانوا في أصل الخلقة من معادن الذهب وأقمار سماء العبودية وصعاليك الطريق استخلصتهم العناية الإلهية وبلغتهم إلى ذروة الكمال وسرادقات الجلال ، وإلى بلعم وبرصيصا وأمثالهما بما كانوا في أصل الجبلة من المردودين المبغضين فما أغنت عنهم العبادات الكثيرة والرياضة المستحسنة حتى ردهم التقدير إلى مراتب البهائم والكلاب ، وإذا كانت الأحوال هكذا فلا يغتر أحد بعمله ولا يعجبه عبادته ومجاهدته ، وليكن دائما على يقين من عيوب نفسه وعلى شك من عيوب الناس بل يكون حسن الظن بجميع الخلق إلا بنفسه .

ولذلك قال أبو يزيد ﷺ : من رجح نفسه على فرعون فهو من المتكبرين .

وقــال في ترجمة « الرشحات » : من بات في باب الإرادة ليلة يفتح له لطف الحبيب خوخة ، ثم قال : إذا ظهرت نسبة الإرادة في باطن أحد ينبغي أن يعدها نعمة عظيمة من الله تعالى وأن يتبادر إلى القيام بحقها ، والقيام بحقها ليس إلا التوجه إلى الله تعالى بكليته وأن يصرف وجوده في الله تعالى .

وقد ثبت عند المحققين أن الوجدان مقدم على الطلب وفسروا قوله ﷺ : « من طلب شيئا وجدَّ وجد » أي من وجد شيئا طلبه فإنه مالم يتجل الحق سبحانه وتعالى لقلب شخص بصفة الإرادة لا يحصل فيه استعداد الإرادة وطلب الحق سبحانه وتعالى ، ونتيجة ذلك التجلي الميل والانجذاب إلى الله تعالى ، فيكون قلب العبد أولا واجدا للتجلي الإرادي ثم يكون ثانيا طالبا ومريدا له ، ولهذا تمثيل في الظاهر وهو لو أن شخصا مر بجنب منظر فظهر له منه صاحب حسن وجمال ، وجَذَبَ بِتَجَلّيه قلبَه إليه فظهر في قلبه ميل وانجذاب نحوه فيكون الوجدان في تلك الصورة مقدما على الطلب والإرادة .

وسئل البعض أنه إذا كان الوجدان مقدما على طلب فما فائدة الطلب بل هو محال لكونه تحصيل الحاصل ؟ فأجيب : أن الطلب لاستيفاء الحظ وأن الوجدان الذي هو مقدم على الطلب وجدان إجمالي وفائدة الطلب حصوله على سبيل التفصيل فلا يلزم تحصيل الحاصل .

وقال الإمام العارف الرباني الشيخ السيد عبد الكريم الجيلاني ﷺ : إن الإرادة صفة تجلي علم الحق على حسب مقتضى الذاتي فذلك المقتضى هو الإرادة ، وهو تخصيص الحق تعالى لمعلوماته بالوجود على حسب ما اقتضى العلم ، فهذا الوصف فيه يسمى الإرادة ، والإرادة المخلوقة فينا هي عين إرادة الحق سبحانه وتعالى ، لكن لما نسبت إلينا كان الحدوث اللازم لنا لازما لوصفنا فقلنا بأن الإرادة مخلوقة يعني إرادتنا وإلا فهي بنسبتها إلى الله تعالى عين الإرادة القديمة التي هي له وما منعناها من إبراز الأشياء على حسب مطلوبها إلا لنسبتها إلينا وهذه النسبة هي المخلوقة ، فإذا ارتفعت النسبة

التي لها إلينا ونسبت إلى الحق على ما هي عليه له انفعلت بها الأشياء كما أن وجودنا بنسبته إلينا مخلوق وبنسبته إلى الله قديم ، وهذه النسبة هي الضرورية التي يعطيها الكشف والذوق أو العلم القائم مقام العين فما ثم إلا هذا فافهم ، وسنذكر مظاهرها إن شاء الله تعالى .

وقال عبيد الله الاحرار ﷺ : إن الشغل بالله تعالى أسهل و أيسر من كل شيء يفرضونه ، فإن الأشياء المطلوبة كلها إنما يطلبها من يطلبها أولا ثم يجدها بعد الطلب بخلاف الحق سبحانه وتعالى فإنه تعالى يجدونه أولا ثم يطلبونه ، فإنك إن لم تجده أولا فكيف تميل إليه ؟ !

إنْ أنْتَ لَمْ تَرَ مِنْ مُناكَ جَمالَهُ   لا يَنْتَهِي فيكَ الغَرامُ كَمالَهُ

ومعنى هذا الكلام أن الله سبحانه وتعالى يتجلى أولا لباطن العبد بصفة الإرادة ويقال لهذا التجلي : التجلي الإرادي فيكون العبد بعد وجدانه لهذا التجلي مريدا للحق تعالى وطالبا له فكان الوجدان مقدما على الطلب في هذه الصورة . انتهى

وقال مولانا وشيخ شيخنا ذو الفيوضات أحمد ضياء الدين الكمشخانوي ونفسي من روحه فداء : إن أصول الإرادة على مذهب محققي الصوفية على أربع : الصدق في العبودية ، وترك الاختيار مع الربوبية ، والأخذ بالعلم في كل شيء ، وإيثار الله تعالى بالمحبة على كل شيء .

والصدق يبنى على أربعة أصول : على التعظيم والمحبة والحياء والهيبة

وترك الاختيار يبنى على أربعة أصول : على الشهود في القبضة وعلى التحقيق بالوصلة وعلى التصديق بالجملة وعلى الثقة بضمان الله تعالى ووعده .

والأخذ بالعلم يبنى على أربعة أصول : إما من طريق الأصالة وإما من طريق المواجهة وإما من طريق الفهم وإما من طريق السمع .

وإيثار الله بالمحبة يبنى على أربعة أصول : إيثار الوجود على كل موجود ، وإيثار الصفات بالتحسين لكل موجود ، وإيثار أفعاله بالرضا عند كل مفقود ، وإيثار محابه على محاب نفسك ، هذا إن نفذ فأما من لم ينفذ فليكن مع الأستاذ النافذ بهذه المثابة .

وقال الشاذلي ﷺ : من لم تصح إرادته لم يزده مرور الأيام إلا إدبارا ، فمن أراد أن تصح إرادته فما يوصل أمره على العلم إلا برفض الجهل وعلى رفض الدنيا إلا بالإقبال على الآخرة ، وليلازم الخلوة ودوام الذكر ، فهنا تظهر عليه آثار الخصائص بالنور والبهاء في التوجه وتقبل الناس عليه من الرجال والنساء من الحواضر والبوادي ويسارعون إلى إكرامه والسلام عليه والتعظيم له ، فإن قبل ذلك منهم قبل التمكن والتحقيق يسقط من عين الله ويرد إلى ما خرج منه ، فتارة يمدح هذا ويذم هذا ويحتال على هذا ، فقد ظهرت عورة نفسه بإدباره عن ربه ورفضه لمحاب الله بمحاب نفسه ، فاحذر هذا الداء العظيم فقد هلك به خلق كثير فاعتصموا بالله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم . انتهى

وقال أيضا فيه ١٩٥ : والإرادة والمشية في اللغة بمعنى واحد وفي اصطلاح أهل الحقيقة الإرادة نهوض القلب في طلب الحق تعالى ، ولهذا قال بعضهم : لوعة تهوّن كل روعة ، وأكثر المشائخ على أن الإرادة ترك ما عليه العادة ، وعادة الناس في الغالب الإقامة في أوطان الغفلة والسكون إلى اتباع الشهوات ، فمن خرج عن ذلك سمي مريدا .

فالمريد في اللغة : من له الإرادة ، وفي اصطلاح أهل الحقيقة : من لا إرادة له وكل مريد مراد في الحقيقة لأن مراد الله تعالى أن يكون مريداً لا محالة ، وكل مراد مريد أيضا فهذا هو الصحيح عند بعضهم .

وقال القشيري ﷺ وغيره : المريد المبتدئ والمراد المنتهي ولا بد لأكثر السالكين من حالة ابتدائه بالمجاهدات والرياضات حتى يصلوا إلى درجة

الانتهاء ، ومنهم من يكاشف في ابتدائه بجليل المعاني ويصل إلى مالم يصل إليه أرباب الرياضات رفقا من الله تعالى به وترفيها له ، إلا أن أكثر هؤلاء يردّون إلى المجاهدات بعد هذا الرفق ليستوفوا ما فاتهم من أحكام أهل الرياضة .

وقيل : كان موسى عليه السلام مريدا فقال : ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ ، وكان محمد ﷺ مرادا فقيل له : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ الآية إلى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ، وكذلك قال موسى عليه السلام : ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ فقال : ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ ، وقال لمحمد عليه الصلاة والسلام : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ، وهذا الكلام عند أهل الحقيقة وقوله تعالى : ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ ستر للقصة وتحصين للحالة ذكره القشيري رحمه الله وغيره .

فالمريد سائر والمراد طائر ، وقيل : المريد سالك والمراد مالك ، وقيل : أرسل ذو النون المصري إلى أبي يزيد البسطامي رحمه الله يقول له : يا أخي إلى متى هذا النوم والراحة والقافلة قد مضت ؟ فقال أبو يزيد لرسوله : قل لأخي ذي النون : الرجل من ينام الليل كله ثم يصبح في المنزل قبل القافلة ، فقال ذو النون رحمه الله : هنيئا له هذا كلام لا تبلغه أحوالنا .

والإرادة مطلوبة شرعا قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ . انتهى

وقال العارف سيدي عبد الكريم الجيلاني قدس سره : واعلم أن الإرادة لها تسعة مظاهر في المخلوقات : المظهر الأول هو الميل وهو انجذاب القلب إلى مطلوبه ، فإذا قوي ودام سمي ولعا وهو المظهر الثاني للإرادة ، ثم إذا اشتد وزاد سمي صبابة ، وهو إذا أخذ القلب في الاسترسال فيمن يحب فكأنه انصب كالماء إذا أفرغ لا يجد بدا من الإنصباب وهذا هو المظهر الثالث للإرادة ، ثم إذا تفرغ له بالكلية وتمكن ذلك منه سمي شغفا وهو المظهر الرابع للإرادة ، ثم إذا استحكم في الفؤاد وأخذه عن الأشياء سمي هوى وهو المظهر الخامس ، ثم إذا استوفى حكمه على الجسد سمي غراما وهو المظهر السادس للإرادة ، ثم إذا نما وزالت العلل الموجبة للميل سمي

حبا وهو المظهر السابع ، ثم إذا هاج حتى يفنى المحب عن نفسه سمي ودا وهو المظهر الثامن للإرادة ، ثم إذا طفح حتى إذا أفنى المحب والمحبوب سمي عشقا ، وفي هذا المقام يرى العاشق معشوقه فلا يعرفه ولا يصيح إليه ، كما روي عن مجنون ليلى أنها مرت به ذات يوم فدعته إليها لتحدثه فقال لها : دعيني فإني مشغول بليلى عنك .

وهذا آخر مقامات الوصول والقرب ، فيه ينكر العارف معروفه فلا يبقى عارف ولا معروف ولا عاشق ولا معشوق ولا يبقى إلا العشق وحده .

والعشق هو الذات المحض الصرف لا يدخل تحت رسم ولا اسم ولا نعت ولا وصف ، فهو أعني العشق في ابتداء ظهوره يفنى العاشق حتى لا يبقى له اسم ولا رسم ولا نعت ولا وصف ، فإذا استحق العاشق وانطمس أخذ العشق في فنآء المعشوق والعاشق فلا يزال يفنى منه الاسم ثم الوصف ثم الذات فلا يبقى عاشق ولا معشوق ، فحينئذ يظهر العشق بالصورتين ويتصف بالصفتين فيسمى بالعاشق ويسمى بالمعشوق هذا إنسان كامل .

فصل

في المحبة المقصودة من العلم الباطن ، وهي المحبة الإلهية التي لا نصيب فيها لغيره سبحانه وتعالى

اعلم أيها الفائز بالتجافي من هذه الغرور أن المحبة الإلهية من مقامات الأنبياء والصديقين ، وللأولياء الصالحين نصيب منها بالوراثة ، والله ولي المتقين . ومن أقصى الدرجات وأعلى من التقوى وبها نالوا إلى الدرجات والمقامات ولا يحصل الفوز والسعادة الأبدية إلا بسببها ونيلها ، اللهمّ اجعلنا من المحبين محبيها واحشرنا في زمرة الصالحين .

قال سفيان الثوري ﷺ : المحبة اتباع الرسول ﷺ ، وقال غيره : دوام الذكر ، وقال غيره : إيثار المحبوب ، وقال بعضهم : كراهية البقاء في الدنيا ، وقال بعضهم : المحبة معنى من المحبوب قاهر القلوب عن إدراكه وتمتنع الألسن عن عبارته ، وقال الجنيد : حرم الله المحبة على صاحب العلاقة

وقال : كل محبة تكون بعوض فإذا زال العوض زالت المحبة

وقال ذو النون ﷺ : قل لمن أظهر حب الله تعالى احذر أن تذل لغير الله تعالى

وقيل للشبلي ﷺ : صف لنا العارف والمحب : فقال : العارف إن تكلم هلك والمحب إن سكت هلك . « إحياء »

وقال صاحب « الكشوف » : المحبة إدراك الكمال من حيث إنه مؤثر ، وكلما كان الإدراك أتم وأكمل والمدرك أشد كمالية مؤثرة كانت المحبة أتم ، ثم إنه ساق الكلام في المحبة إلى أن قال : ولو تأمّلت حق التأمّل وجدتَ المحبة سارية في سائر الموجودات كلها عليها مدار البدء والإيجاد ولولا أن الكلام فيها هاهنا على سبيل الاستطراد أزرى بمقامها لأوردت فيها مع ضعفي ما يحير الألباب ويميز القشر عن اللباب « كشكول » ٢٣١ .

وكم آيات في الكتب المنزلة وكذا في التنزيل في حقها ، اكتفينا عن ذكرها .

وورد أن المتحابين في الله على منابر من نور موجب لأنواع السرور « حول العرش » أي مكان المقربين « لباسهم نور ووجوههم نور ، يغبطهم النبيون والشهداء » وهذا للمبالغة في علو الدرجات .

وفي رواية عن أبي أيوب ﵁ : « المتحابّون في الله على كراسي من ياقوت حول العرش » .

قال أبو أيوب الخولاني لمعاذ ﵁ : إني أحبك في الله ، فقال له : أبشر ثم أبشر ثم أبشر ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة وجوههم كالقمر ليلة البدر ، يفزع الناس وهم لا يفزعون ، ويخاف الناس وهم لا يخافون ، وهم أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، فقيل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ فقال : « هم المتحابون في الله » كذا في « الإحياء » .

وفيه : « تحابوا في الله » ، « والمتحابون في الله والمتزاورون لله يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجعل وجوههم نورا وثيابهم نورا ، يفزع الناس يوم القيامة وهم لا يفزعون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وروى النسائي ورجاله ثقات من حديث أبي هريرة ﵁ : « إن حول العرش منابر من نور ، عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء » ، فقالوا : صفهم لنا يا رسول الله ، فقال : « هم المتحابون في الله والمتجالسون في الله والمتزاورون في الله » .

فالحب في الله تعالى كحب العالم الذي يستفيد من قوله وحاله وعلمه ، وعمله وكحب الصالح يتبرك به .

فقد قال بعض السلف : استكثروا من الإخوان ، فإن لكل مؤمن شفاعة ، فلعلك تدخل في شفاعة أخيك ، ولذا حثّ جماعة من السلف على الصحبة والألفة والمخالطة ، وكرهوا الانفراد والعزلة .

فعن عيسى عليه السلام : من علم وعمل فذلك يدعى في الملكوت عظيما .

والمرأة تفرغ الرجل للعبادة بتدبيرها أمر البيت وتعطي له من مالها ليصون الوقت من الضياع في طلب المال ، فقد كان جماعة من السلف تكفل لهم جماعة من أولي الثروة« ١ » ، فالمحب للشيء محب لمحبه ومحبوبه ، وقد ورد في الدعاء : « اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك » .

وكذا المبغض للشيء مبغض لمبغضه ومبغوضه ، ويزدادان بقوة الطاعة والمعصية وينتقصان بضعفهما ، فليصاحب العاقل والحسن الخلق والقانع ، فصحبة الحريص سم قاتل ، وصحبة الفاسق يستحق بها المقت . اهـ كلام علي القاري قدس سره راجع « الرماح » ٩ جـ ١ و« جواهر » ٢٩٢ و« سهلي » ٢٣ .

ثم اعلم أيها الأعز أن المراد من « أكثروا من الإخوان » في الحديث الإخوان في الله ، لا إخوان السوء كما ذهب إليه بعض العلماء .

و قال في « شرح الشرعة » الملقب بـ « مفاتيح الجنان » : أفضل خصال المؤمن الحب في الله تعالى والبغض في الله تعالى .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبى ذر رضي الله عنه : « يا أبا ذر ! أيّ عرى الإيمان أوثق ؟ » قال : الله ورسوله أعلم . قال : « الموالاة في الله والحبّ في الله » ، والموالاة والمحبة يلزم أن يكون من الطرفين .

« ١ » التقدير : أن المرأة التي تفرغ الرجل للعبادة وأولوا الثروة الذين تكفلوا للعبّاد تنالهم شفاعتهم لمحبتهم إياهم .

ويروى : قال موسى عليه السلام : إلهي دلني على عمل هو لك ، قال : يا موسى هل واليت لي وليا قط وهل عاديت لي عدوا قط ؟ فعلم موسى عليه السلام أن أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله .

وقال النبي ﷺ : « المتحابون في الله يوم القيامة على عمود من ياقوت حمراء ، في رأس العمود سبعون ألف غرفة يتشرفون على أهل الجنة فيقول أهل الجنة بعضهم لبعض : انطلقوا بنا ننظر إلى المتحابين في الله ، فتضيء حسنهم لأهل الجنة كما تضيء الشمس لأهل الدنيا ، وعليهم ثياب من سندس خضر مكتوب على جباههم هؤلاء المتحابون في الله » . كذا ذكر في « شرح المصابيح » ، وأنّه يوجب كمال الإيمان ومحبة الله تعالى ، وبه ينال المؤمن طعم الإيمان ، وهو من أخلص الأعمال لله تعالى .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو أن رجلا قام الليل وصام النهار وتصدق وجاهد ولم يحب في الله ولم يبغض في الله ، ما نفعه ذلك . ذكر ذلك في « العوارف » وغيره .

وفي الحديث : « أكثروا من الإخوان ، فإن ربكم حييّ - بتشديد اليآء الثانية فعيل من حيي - يستحي أن يعذب عبده بين إخوانه يوم القيامة » .

وقال ﷺ : « أكثروا من المعارف ، فإن لكل واحد منهم شفاعة يوم القيامة » .

ومن السنة أن لا يؤاخي إلا من يثق بدينه وأمانته وصلاحه وتقواه ، فإنّ المرء مع من أحب وإن لم يعمل بعمله .

وقال الحسن رحمه الله تعالى : لا يغرنكم قول من يقول « المرء مع من أحب » ، فإنك لا تلحق الأبرار إلا بأعمالهم .

وهذه إشارة إلى أن مجرد المحبة من غير موافقة المحبوب ولو في بعض الأعمال أو كلها لا تنتفع ، بل إن الله تعالى ربما يرى في قلب وليه إنسانا

فيرحمه أي يرحم الله تعالى ذلك الإنسان الذي كان في قلب وليه بحرمة وليّه ويلحق ذلك الإنسان بولي الله تعالى في درجته ولا ينقص من عمل الولي شيئا ، كما يلحق الذرية بالوالدين كما في قوله تعالى : ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾اهـ . كلام « شرح الشرعة » .

وبهذا يفرق بين الصوفي والمتصوف والمشبّه والمتشبه للمتشبه ، كذا في « عوارف المعارف » ، وسبق ذكره أيضا في هذه الرسالة .

وقال في « الإحياء » : قال عليه الصلاة والسلام في الترغيب للأخوة في الله جلّ جلاله : « من آخى أخاً في الله رفعه الله تعالى في درجة الجنة التي لا تنالها بشيء من عمله » .

ويقال إن الإخوة في الله إذا كان أحدهما أعلى مقاما من الآخر رفعه الله معه إلى مقامه وإنه يلتحق به .

وقال ﷺ : « إن الله تعالى قال : حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي ، وحقت محبتي للذين يتحابون من أجلي ، وحقت محبتي للذين يتباذلون من أجلي ، وحقت محبتي للذين يتناصرون من أجلي » .

وقال ﷺ : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون لجلالي ؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » .

وقال ﷺ : « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » .

فلهذا يجب أن يكون لكل إنسان أعداء يبغضهم في الله ، كما يجب أن يكون له أصدقاء وإخوان يحبهم في الله تعالى .

ويروى أن الله تعالى أوحى[1] إلى عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام : « لو أنك عبدتني بعبادة أهل السموات والأرض ولم تحب في الله وتبغض في الله ، ما أغنى عنك شيئا » .

« ١ » في الأصل : يقول

وقال عيسى ﷺ : تحببوا إلى الله تعالى ببغض أهل المعاصي ، وتقربوا إلى الله تعالى بالتباعد منهم ، والتمسوا رضاء الله تعالى بسخطهم ، قالوا : يا روح الله ، فإلى من نجالس ؟ قال : تجالسوا إلى من يذكركم الله رؤيته ، ومن يزيد في عملكم كلامه ، ومن يرغبكم في الآخرة عمله .

اعلم أن كل من يحب في الله لا بد أن يبغض في الله ، فإنك إن أحببت إنسانا لأجل كونه مطيعا لله تعالى ومحبوبا عند الله ، فإن عصاه فلا بد من أن تبغضه ، لأنه عاص لله تعالى وممقوت عنده تعالى ، فإن أحب لأجل سبب فبالضرورة يبغض لضده ، وهذان متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، وهو مطّرد في الحب والبغض في الله تعالى .

فمن لم يظهر إلا الفجور فحقه البغض لله تعالى فقط ، ومن لم يظهر إلا الطاعة واجتناب المعاصي فحقه الحب لله فقط ، ومن اختلط كلاهما فحقه البغض من جهة المعاصي والحب من حيث الطاعة .

وقد يغلب البغض إن غلب فيه المعاصي ، والحب إن غلبت الطاعات ، والمعاملة معه مشكل إلا إن أمسك الله تعالى قلوبنا وجوارحنا .

ثم إن حب الإنسان لمنفعة ديناه فقط ، أو لمنفعة أخروية فقط ، أو لمنفعة دنيوية وأخروية .

فالأول ليس من الحب في الله في شيء ، والثاني الحب في الله ، والثالث الحب في الله من وجه دون وجه ، وكذا البغض في الأقسام المذكورة .

هذا حاصل ما في « الإحياء » ، فتجتمع في شخص واحد المعنيان جميعا حتى يصلح لأن يتوسل إلى الله تعالى وإلى الدنيا .

فإذا أحبه لإصلاحه الأمرين فهو من المحبين في الله ، كمن يحب أستاذه الذي يعلمه الدين ويكفيه مهمات الدنيا بالمواساة بالمال ، فأحبه من حيث أن في طلبه طلب الراحة في الدنيا والسعادة في الآخرة ، وهو وسيلة إليهما ، فهو محبة في الله تعالى .

وليس من شرط الحب في الله تعالى أن لا يحب حظا في العاجل البتة ، إذ الدعاء الذي أمر الله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جمع فيه بين الدنيا والآخرة ، ومن ذلك قولهم : ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ .

وقال عيسى عليه السلام في دعائه : اللهم لا تشمت بي عدوي ولا تسؤ بي صديقي ولا تجعل مصيبتي في ديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ، فدفع شماتة الأعداء من حظوظ الدنيا وفيه تفصيل .

وإذا اجتمع في قلبه محبة الدنيا والآخرة فالفقهاء فسروا الدنيا بما يمنع من الآخرة ، فلعله هو المراد فيما ورد : « الدنيا جيفة وطالبها كلب » ، وفيما ورد : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله أو عالم أو متعلم » ، « حب الدنيا رأس كل خطيئة » .

والسادات الصوفية – فسروها – بما يمنع من طلب المولى سبحانه وتعالى ، لأنه يمنع الوصول إلى الله تعالى ، وهو مقصود السادات الصوفية الصافية ، ولذا قال : **الدنيا حرام لأهل الآخرة ، والآخرة حرام لأهل الدنيا وكلاهما حرامان لأهل الله تعالى** .

ولقد حكي أن علي بن الحسين رضي الله عنهما دخل مغارة مع أصحاب له فرأى امرأة في المغارة وحدها فقال لها : من أنت ؟ قالت : أمة من إماء الله إليك عني لا يذهب الحب ! فقال لها علي رضي الله عنه : وما الحب ؟ قالت : أخفى من أن يرى وأبين من أن يخفى ، كمونه في الحشا ككمون النار في الحجرا إن قدحته أورى وإن تركته توارى ثم أنشأت تقول :

إن المحبين في شغل لسيّدهم كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا .

وليس المراد من الدنيا ههنا الدرهم والدينار ، فإن محبتهما لذاتهما مذموم جدا ، بل هو سم قاتل ، وأما محبتهما لغيرهما فهو تابع للغير ، **لأن للوسائل حكم المقاصد** ، فمحبتهما لأجل التوصل إلى المعاصي يكون معصية ، وإلى الطاعة يكون طاعة ، وإلى المباح يكون مباحا ، فلعل الأخير هو المراد ههنا .

وفي قوله : « فحبه من حيث أن في طبعه طلب الراحة في الدنيا والسعادة في العقبى ، وهو وسيلة إليهما » إشارة إلى ما قلنا .

وقال الإمام الغزالي ﷺ : أما بعد ، فإن المحبة لله تعالى هي الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات ، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهي ثمرة من أثمارها وتابع من توابعها ، كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدمتها ، كالتوبة والصبر والزهد وغيرها .

اعلم أن الأمة أجمعوا على أن الحب لله تعالى والحب لرسول الله تعالى ﷺ فرض عين ، وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله تعالى من شرط الإيمان في أخبار كثيرة ، إذ قال أبو رزين العقيلي ﷺ : يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال : « أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .

وفي حديث آخر : « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين - وفي رواية - ومن نفسه » .

وكيف وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ الآية وأمثاله كثيرة في « الإحياء » .

وقد قال بعض العارفين : إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب الله تعالى حبا متوسطا ، وإذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصي .

وبالجملة في دعوى المحبة خطر ، ولذلك قال الفضيل ﷺ : إذا قيل أتحب الله تعالى فاسكت ، فإنك إذا قلت (لا) كفرت ، وإن قلت (نعم) ، فليس وصفك وصف المحبين ، فاحذر المقت .

وقد قال بعض العلماء : ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ، ولا في جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق بشيء من ذلك .

قال علي القاري ﵀ في شرحه لـ « عين العلم » : الخاتمة في المحبة والسلوك ، أي سلوك طريق المحبة وسبيل المودّة ، من لم يغترف من بحر المعرفة لم يغترف حقيقة المحبة بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ فإني رئيس المحبين في سلوك المودة [يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ] لا يؤمن أحدكم إيمانا كاملا أو إيمانا أصلا حتى يكون الله تعالى ورسوله أحب إليه مما سواهما .

والمحبة أعظم المقامات وأهم المهمات ، ولا لذة أعظم من محبة الله تعالى ومعرفته ، فلا ينكر حب الله تعالى إلا من قعد في درجة البهائم غافلا .

والدرجة الأعلى من المحبة أن يحب الله تعالى لذاته ، وهو من المواهب اللدنية والمراتب العندية دون المكاسب العبدية ، ثم للكمال ، ثم للإحسان ، وهو محبة النفس في الحقيقة وإن كان هو يطلق عليه (محبة الله تعالى) في ظاهر الشريعة والطريقة ، وطريقه الوضوء والخلوة ، ثم القوم مختلفون فيها ، فمنهم من جعل مدار الخلوة على خلو القلب من غير ذكر الرب ومشاهدة الحق ، ولو كان في مجمع الخلق كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ تعالى .

وهو طريق السادات النقشبندية والقادات الشاذلية ، ويقال في حقهم إنهم غريبون قريبون وكائنون بائنون عرشيون فرشيون .

ومنهم من اختار الخلوة المتعارفة بينهم تهوينا للمبتدئ وتسهيلا للمنتهى كما ذكرنا أمرها ، والجوع والسهر ونفي الخواطر أي يلزم نفيها ودفعها إذا كانت مذمومة ، وهذا إذا استقرت الخواطر ولم تكن من العواطر[1] ، وإلا فلا ثمرة لها والتسليم لله تعالى في كل حال وترك غير الفريضة والرواتب .

« ١ » لعلّ المراد عدم استقرارها بل كونها كنفح العطر في سرعة الزوال

وهذا اللزوم بالنسبة إلى المبتدئ حيث كان الأفضل في حقه مجرد الذكر ، وأما بالنسبة إلى المتوسط فالأكمل في حقه التلاوة ، وبالنسبة إلى المنتهي الصلاة ، كما في « العوارف » .

والذكر الدائم مع الحضور باللسان أي بلسان البيان أو بلسان القلب والجنان وبالجمع بينهما وهو الأكمل ، وإن كان الذكر الخفي أكمل وأفضل ، فلذلك اختاره السادات النقشبندية لتسليك المريدين أن يقولوا بلسان قلوبهم . انتهى كلام علي القاري قُدِّسَ سِرُّهُ .

قال في « تقريب الأصول » قال : سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول : قال ملك من الملوك لبعض العارفين : تمنّ علي ، فقال له ذلك العارف : أَلِي تقول هذا ولي عبدان ملكتهما وملكاك وقهرتهما وقهراك وهما الشهوة والحرص ؟ فأنت عبد عبدي فكيف أتمنى على عبد عبدي ؟ !

الكسوة الثانية التي يلبسها الحق لأوليائه إذا أظهرهم كسوة البهاء ، وذلك ليحلِّيهم في قلوب عباده فينظرون إليهم بعين المحبة والمنة ، فيكون ذلك باعثا لهم على الانقياد إليهم .

أفلا ترى كيف قال الله تعالى في شأن موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾

فحلاهم حلية التبهية ليحبهم العباد فيجرّهم حبهم إلى حب الله تعالى ، والحب في الله يوجب المحبة من الله تعالى لقوله عليه الصلاة والسلام حاكيا عن الله تعالى : « وجبت محبتي للمتحابين فيّ » .

وهـي أربـع مـراتب : الحب لله تعالى والحب في الله تعالى والحب بالله تعالى والحب من الله تعالى .

فالحب لله تعالى ابتداء ، والحب من الله تعالى انتهاء ، والحب في الله وبالله تعالى واسطة بينهما ، فالحب لله تعالى هو أن تؤثره ولا تؤثر عليه سواه ، والحب في الله تعالى أن تحب فيه من والاه ، والحب بالله تعالى أن يحب العبد من أحبه وما أحبه منقطعا عن نفسه وهواه ، والحب من الله تعالى هو أن يأخذك من كل شيء فلا تحب إلا إياه .

وعلامة الحب لله تعالى دوام ذكره مع الحضور ، وعلامة الحب بالله تعالى أن يكون باعث الحظ مقهورا بنور الله تعالى ، وعلامة الحب في الله تعالى أن تحب من لم يحسن لك بدنياه من أهل الخير والطاعة لله تعالى ، وعلامة الحب من الله تعالى أن يجذبك إليه فيجعل ما سواه عنك مستورا .

قال الشيخ أبو الحسن ﷺ : من أحب الله تعالى وأحب لله تعالى فقد تمت له ولايته ، والمحب على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه ، ولا مشية له غير مشيته ، فإذا من ثبتت ولايته من الله تعالى لا يكره الموت ، ويعلم ذلك من قوله تعالى : ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ .

فإذا الولي حقيقة لا يكره الموت إن عرض عليه ، وقد أحب الله تعالى من لا محبوب له سواه ، وأحب له من لا يحب شيئا لهواه ، وأحب لقاء من ذاق أنس مولاه .

والمحبة من أجلّ مقامات اليقين حتى اختلف أهل الله تعالى أيّهما أتم مقام المحبة أو مقام الرضا .

قال ابن عطاء الله ﷺ : وإن كان الذي نقول به إن مقام الرضا أتم ، لأن المحبة ربما حكم سلطانها على المحب وقوي عليه وجود الشغف ، فأداه ذلك إلى طلب ما لا يليق بمقامه ، ألا ترى أن المحب يريد دوام شهود الحبيب ، والراضي عن الله تعالى راض عنه سواء أشهده أم حجبه ، المحب يحب دوام الوصلة ، والراضي عن الله تعالى راض عنه وصله أو قطعه ، إذ ليس هو مع

ما يريد لنفسه ، بل إنما هو مع ما يريد الله له ، والمحب طالب لدوام مراسلة الحبيب ، والراضي لا طلب له .

قال ابن عطاء الله ﷾ أيضا : ولنا في هذا المعنى :

وَكُنْتُ قَديماً أَطْلُبُ الوَصْلَ مِنْهُمُ ... فَلَمَّا أتاني العِلْمُ وارْتَفَعَ الجَهْلُ
تَيَقَّنْتُ أَنَّ العَبْدَ لا طَلَبَ لَهُ ... فَإِنْ قَرَّبوا فَضْلٌ وَإِنْ بَعَّدوا عَدْلُ
وَإِنْ أَظْهروا لَمْ يُظْهِروا غَيْرَ وَصْفِهِمْ ... وَإِنْ سَتَروا فَالسَّتْرُ مِنْ أَجْلِهِمْ يَحْلو

قال الشيخ أبو الحسن ﷺ : المحبة آخذة من الله تعالى لقلب عبده من كل شيء سواه ، فترى النفس مائلة لطاعته ، والعقل متحصنا بمعرفته ، والروح مأخوذة عنه في حضرته ، والسر مغمورا في مشاهدته ، والعبد يستزيد فيزاد ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته ، فيكسى حلل التقريب على بساط القرب ، ويمس أبكار الحقائق وثيبات العلوم .

فمن أجل ذلك قالوا : أولياء الله تعالى عرائس الله تعالى ، ولا يرى العرائس المحرمون ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أكثروا من ذكر الله حتى يقولوا مجنون » .

وقد ذكرنا هذا الحديث آنفا ، أي أن الذاكر عاشق ، والعشق إفراط المحبة ، ومن أحب شيئا أكثر من ذكره ، ولذلك صار والها حتى قيل فيه إنه مجنون ، وذلك كله رجاء أن يكون محبوبا ، وهو السر في الحقيقة ، بل هو أساس الطريقة .

ولذلك يقال : ليس السر كونك محبا ، بل الشأن كونك محبوبا ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، فلم يستلزم حبهم لله حبه لهم ، وإنما صيرهم محبوبين عنده اتباعهم لنبيه ﷺ ، وهو قدر زائد عن حبهم لله تعالى .

وقال القطب الشاذلي ﷺ والمغفرة الشاملة والمحبة الجامعة أي السالبة لمقام الفرق فيصير المحب فانيا تحت سلطان ظهور المحبوب ، فتسلية المحب عن الغير وهي المرادة عند القطب المصري ﷺ بالمحبة الجامعة أي السالبة للسوى كما علمت ويراه في كل شيء إذا غاب عنه كما قال ابن الفارض رضي الله عنه :

تراه إن غاب عني كلُّ جارحة في كل معنى لطيفٍ رائقٍ بَهِجِ

فالضمير في تراه راجع للمحبوب والمعنى : إن غاب عني الحبيب صارت جوارحي عيونا تراه أي تراه في كل معنى لطيف رائق بهج « تنوير »

وما أحسن قول مجنون ليلى :

أرى لَيلَى فَأعْرِضُ عَنْ سِواها	مُحِبٌّ لا يَرى حُسْناً سِواهـــا
لَقَدْ ظَفِرَتْ يداه وَنالَ مُلْـــكاً	إذا كانَتْ تَـــراهُ كَما يَراهـــا

فعلم مما تقرر أن الذاكر محبوب لأن الله تعالى جعل اللسان عنوان الجنان ، والجوارح الظاهرة كلها عنوان الباطنة ،

فما هتف اللسان إلا بحب الجنان ، ولا صدق الجنان إلا بحب الرحمن ، عملا بقول الصادق الأمين عليه الصلاة والسلام : « القلب بيت الرب » ، « لم يسعني أرضي ولا سمائي ، بل وسعني قلب عبدي المؤمن » ،

والسر في السكان لا في المساكن ، وهل يأوى الساكن إلى مسكن غير محبوب ، ومن جوز ذلك فهو محجوب ، ومن نتائج القلوب مسلوب .

وسكناه سبحانه للقلب على ما يليق به من الكمال ، من غير تكييف ولا حلول ولا تشبيه ولا تمثيل ، بل بمعنى التجلي بالجلال والجمال ، إذ هو منزّه عن الاستقرار في المكان والحلول بالمكانة والشرف والكلاءة والحفظ والنظر والإحاطة والقيومية من غير وجوب عليه ولا إجبار ، وربك يخلق ما يشاء ويختار .

قال تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ وجدير بهذه البيوت التي يسكنها الرب أن ترفع ، ولذا قال : ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ .

والقلبُ محل الذكر دائما ، ذكر اللسان أو لم يذكر ، فالولي تولى اللهَ فتولاه ، وتولّي الإلهِ سابق لتوليه ، قال تعالى : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ ، فبحبه أحبوه وبحفظه حفظوه وبذكره ذكروه وبفضله شكروه ، ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ ، والمعنى أنه لما خلق لهم حبه فهو قد أحبهم قبل أن خلق لهم الحب ، ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ ، فإحسانه سابق لإحسانهم ، لأن إحسانهم من إحسانه ، فهو المحسن حقا بدأً وعودًا . انتهى كلام السيد زيني دحلان ﷺ ، ما ألطفه !

وفي الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه : إنما أتّخذ لخلّتي من لا يفتر عن ذكري ، ولا يكون له همّ غيري ، ولا يؤثر عليّ شيئا من خلقي ، وإن حرق بالنار ولم يجد لحرق النار وجعا ، وإن قطع بالمناشير لم يجد لمسّ الحديد ألما . اهـ .

فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد ، فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات ، وكل ذلك وراء الحب ، والحب وراء كمال الإيمان ، ومقامات الإيمان وتفاوته في الزيادة والنقصان لا حصر له .

ولذلك قال عليه الصلاة والسلام للصديق ﷺ : « إن الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بي من أمتي ، وأعطاني مثل إيمان كل من آمن بالله تعالى من ولد آدم عليه السلام » ذكره في « الإحياء » .

وقال الباز الأشهب الشيخ رسلان الدمشقي قدس سره : طريقتنا يا معشرَ أهل الحقيقة واليقين ، الموحدون لله تعالى توحيدا ذوقيا شهوديا - والمراد من الطريقة السيرة والحالة التي هم فيها في الباطن والظاهر - محبة لله أي طريقتنا محبة للهِ سبحانه فقط ، وهي ميل القلب إلى شهود الرب تعالى ، يعني أننا دائما مائلون إلى الله تعالى ، راغبون في شهوده عن شهود كل شيء ، مشتغلون

في معرفته عن معرفة كل شيء ، متلذذون بمشاهدته تعالى في كل شيء لا يعرف دينا ولا طاعة ولا اعتقادا ولا شيئا من أنواع العبادات فهي عندنا منن ونعم من الله تعالى علينا ، لا حول لنا في ذلك ولا قوة إلا بالله تعالى ، فنحن موصوفون به وهو الفاعل لها وحده ، كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ قال الشيخ العارف بالله خاتمة المحققين عبد الغني النابلسي قدس سره : يعني إذا جاءك اليقين فلست حينئذ[1] ، لأن العابد يحتاج إلى نفس يعبد ربه عز وجل بها ، فإذا هي انطمست بأنوار اليقين بقي العبد ساكنا تحت أمواج القدرة ، تحركه كيف شاءت . انتهى

وقال أيضا : العابد لله سبحانه وتعالى دائما رآء لعبادته ، أي ناظر إليها قاصد بها ، منهمك فيها ، والمحب رآءٍ لمحبته ، أي ناظر إليها معتبر لها مشتغل بها ، ذلك أن سبب المحبة هي محبة واحدة من الرب إلى العبد ، ثم تنقلب عند وجود القلب من العبد إلى الرب كما قال تعالى : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ ، فافهم والله تعالى يتولاك .

واعلم أن الله تعالى قال : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ ، والمعنى أن الحق تعالى يعطي المحبوب من أوليائه في الدنيا ما يعطي أهل الجنة في الآخرة ، وهو قوله تعالى : ﴿كُن فَيَكُونُ ﴾ وتلك الكلمة صورة الإرادة الكلية . انتهى

وقال العارف حسين الكاشفي الهروي قدس سره في « الرشحات » ١٢٠ عن شيخه أنه قدس سره قال : إن المحبة الذاتية أن يحب إنسان إنسانا ولا يظهر سبب محبته له ، وهذا كثير بين الناس ، فإذ ظهرت لشخص محبة الله تعالى من هذا القسم يقال لها محبة ذاتية ، وهذا القسم أفضل أنواع المحبة ، وليس من المحبة أن يحبه وقت رؤية لطفه ، فإذا أحس منه عنفا لا يبقى له ميل إليه . انتهى

وقال أيضا قدس سره : من أحب شخصا يريد أن يحبه الناس كلهم وإن كان مقتضى غيرة المحبة إخفاء المحبوب ، لكنه يجتهد من غاية محبته إليه في أن

« ١ » وفي نسخة « أ » هناك إشارة على سقوط شيء .

لا يكون له أحد منكرا ، ولا يعرف أنه كيف يحتال وكيف يدبر وكيف يفكر لأن يكون الكل معتقدا له وطالبا إياه ، فيصفه بكل وصف ممكن وبكل صفة متيسرة رجاء طلبهم إياه .

وقال الشيخ إبراهيم بن داود الرقي ﷺ :

ظفرتـمْ بكِتْمـانِ اللسانِ فمـنْ لكمْ   بكِتمـانِ عيـنٍ دمعُها الدّهـرَ يذرفُ
حملتـمْ جبـالَ الحب فوقـي وإنني   لأعجـزُ عن حمل القميصِ وأضعفُ

وقال ايضاً :

يبـدو فأجهـد أن أكاتـم حبّـه   فتبيـن فـيّ علامـة الكتمـانِ
خَفَقـان قلبـي وارْتِعـادُ مَفاصِلي   وغُبـارُ لونـي وانْعِقـادُ لِسانـي
فمتـى يكذّبنـي شـهودٌ أربـعٌ   وشـهود كـل قضيّـة اثنـانِ . .

وقال ايضا :

حمّلتموني علـى ضعفي بفرقتكم   مـا ليـس يحمله سـهل ولا جبلُ

« نفحات » ٢١٥

وقال الشيخ السهروردي ﷺ في « عوارف المعارف » : ومن أخلاق الصوفية التودد والتألف والموافقة مع الإخوان وترك المخالفة ، قال تعالى في وصف أصحاب رسول الله ﷺ : ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾

التودد والتألف من ائتلاف الأرواح على ما ورد في الخبر : « فما تعارف منها ائتلف » ، قال الله تعالى : ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ ، وقال النبي ﷺ : « **المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف** » ، وقال ﷺ : « مثل المؤمنين

إذا التقيا مثل اليدين يغسل إحداهما الأخرى ، وما التقى المؤمنان إلا استفاد أحدهما من الآخر خيرا » .

وقال أبو إدريس الخولاني ﵁ لمعاذ ﵁ : أحبك في الله فقال : أبشر ثم أبشر ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، يفزع الناس ولا يفزعون ، ويخاف الناس ولا يخافون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . فقيل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ قال : « المتحابون في الله » .

وقيل : لو تحاب الناس وتعاطوا المحبة لاستغنوا بها عن العدالة .

وقيل : العدالة خليفة المحبة يستعمل حيث لا توجد المحبة .

وقيل : **طاعة المحبة أفضل من طاعة الرهبة** ، لأن طاعة المحبة من داخل وطاعة الرهبة من خارج .

ولهذا المعنى كانت صحبة الصوفية مؤثرة من البعض للبعض ، لأنهم لما تحابوا في الله تواصوا بمحاسن الأخلاق ووقع القبول لوجود المحبة ، فانتفع لذلك المريد بالشيخ والأخ بالأخ .

ولهذا المعنى أمر الله تعالى باجتماع الناس في كل يوم خمسَ مرات في المساجد ، كل درب وكل محلة ، وفي الجامع في الأسبوع مَرة أهل كل بلدة ، وانضمام أهل السواد إلى البلدان في الأعياد في جميع السنة مرتين ، وأهل الأقطار من البلدان المتفرقة في العمر مرة في الحج ، كل ذلك لحكمة بالغة ، منها تأكيد الألفة والمودة بين المؤمنين .

وقال ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضهم بعضا » .

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه يقول : « ألا مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائره بالحمى والسهر » .

والتآلف والتودد يؤكد أسباب الصحبة ، والصحبة مع الأخيار مؤثرة . انتهى

والجامع مع أهل العلم والشرف والصفاء والوفاء رابطة الحق ، ومع غيرهم رابطة الطبع ، ولذلك قالوا : الصوفي مع غير الجنس كائن بائن ، ومع الجنس كائن معاين ، والمؤمن مرآة المؤمن ، إذا نظر إلى أخيه ينتشق من وراء أقواله وأحواله وأعماله تجليات إلهية وتعريفات وتلويحات من الله تعالى خفية ، غابت عن الأغيار وأدركها أهل الأنوار ، انتهى .

فاعتبروا يا أهل العدل والإنصاف - طهركم الله تعالى عن الاعتساف - أن المحبة والمودة لما كان شأن المؤمنين عموما ، وكونها من وظيفة أهل الطريقة خصوصا بالطريق الأولى ألزم وآكد ، ومع ذلك انظروا إلى طبائع مشائخ زماننا - لا كثّر الله في الناس مثلهم - يستفيدون من اسم المشيخة وآثار الطريقة عداوة وبغضاء ، وهم أشد الناس تحاسدا من التيوس ، وليس أحد من المشائخ المتشيخين من يحب في الله أحدا من إخوانه أصحاب الطريقة ، بل يدعون بعضهم على بعض ولا يتفق طبيعة أحدهم الآخر في المجلس ، بل لا يفترق بعضهم من بعض إلا بالبغض والبهتان وإسعار نيران العداوة ، وذلك ظاهر لكل من رآهم .

وأي منفعة تصل منهم ، وكيف يستمد العاقل منهم الإمداد ؟ ! ومع كون ذلك منهم بداهيا يقتفي الجهلاء آثارهم ويسيرون بسيرهم .

اللهم قيِّض لهم من يرشدهم إلى الحق ، ولا تجعلهم وإيانا فتنة للخلق آمين .

نقل الخواجه علاء الدين نوّر الله مرقده عن حضرة الخواجه ﷺ : إني في أوائل حال الطلب مررت يوما على محل المقامرين ، فرأيت جمعا مشغولين بالقمار ، وفي ذلك الجمع شخصان لهم تمام الاستغراق في ذلك الشغل ، وأحدهما صار مغلوبا وضيع جميع ما معه من النقد وغيره ، ومع وجود ذلك يزيد سعيه وجده واهتمامه في ذلك الفعل في كل لحظة ويقول لصاحبه الغالب : أيها الصاحب المليح الوجه إن ذهب رأسي لا أدبر وجهي عن هذا الشغل ، فلما رأيت حالته هذه في ذلك الشغل حصل لي من ذوقه وشوقه شوق

وغيرة ، فمن ذلك اليوم صار سعيي وطلبي في الترقي ، وذكر بيتا بالفارسي مضمونه : ما لم تحرق كل ما معك في النار لا تصير حقيقة وقتك طيبة أبدا ، وما صلحت ما دام فيك بقية لسواه ، فإذا حولت السوى أفنيناك عنك وصلحت لنا ودّا وسرنا .

فتأمل يا أخي فيمن أنفق جميع ما معه فيما يهواه من الأمر التافه ولم يرض يُدْبِر وجهه عن مطلوبه ، وإن ذهب رأسه في طريق محبوبه ، بل لم يزده ذلك إلا جدا في الطلب وزيادة اهتمام ، فكيف بك أيها الطالب الصادق لأفضل المطالب والحقائق أن تتكاسل من طلب محبوبك الذي هو غاية المطالب الرقائق ، وما أحسن ما قيل في هذا المعنى :

أيُّها الخاطِبُ مَعْنى حُسْنِنا[1] مَهْرُنا غالٍ لِمَنْ يَخْطِبُنا

جَسَدٌ يَفْنى وَروحٌ لِلْعَنا	وَجفون لا تذوقُ الوَسَنا
وفُؤادٌ لَيْسَ فيهِ غَيْرُنا	فَإذا ما شِئْتَ أدِّ الثَّمَنا
وافْنَ إنْ شِئْتَ فَناءً سَرْمَدا	فَالفَنا يُدْني إلى ذاك الفِنا
واخْلَع النَّعْلينِ إنْ جِئْتَ إلى	ذلكَ الوادي فَفيهِ قُدْسُنا
وَعَنِ الكَوْنَينِ كُنْ مُنْخَلِعا	وَأزِلْ ما بَيْنَنا مِنْ بَينِنا
وَإذا ما قيلَ مَنْ تَهْوى فَقُلْ	أنا مَنْ أهْوى وَمَنْ أهْوى أنا

فلا تُفْنِ أوقاتك يا أخي إلا في ذكره سبحانه وتعالى ، ولا تتحدث مع أحبابك إلا فيما يوصلك إلى حضرته ويسوقك إلى امتثال أمره ونهيه ، **فأنفاسك جواهر ، فاحذر أن تضيع جواهرك** وتأتي محتاجا إليها يوم فقرك ، **يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** .

نقل عن حضرة الخواجه ﷺ أنه قال : إني في غلبات الطلب توجهت إلى نسف لملاقاة حضرة السيد كلال ﷺ ، فلما وصلت إلى رباط الجفراني لاقاني فارس في يده خشبة عظيمة وعلى رأسه طاقية من لباد ، فجاء قريبا مني

« ١ » في الأصل : حسناً .

وضربني بتلك الخشبة وقال لي بلسان الترك : هل رأيت الحبل ؟ فلم أجاوبه أصلا ، ثم أخذ أيضا أمام طريقي وشوش علي كذلك فقلت له : أنا أعرف من أنت ، فتبعني إلى رباط تداول وقال لي : تعال حتى نتصاحب نحن وأنت ، فلم أقل له شيئا ولم ألتفت إليه ، فلما وصلت إلى خدمة السيد كلال ﷻ قال : ما التفتّ في الطريق إلى حضرة الخضر ﷺ ، فقلت : نعم ، لما كنت متوجها إليكم لم أشتغل بسواكم .

فتدبر أيها الصادق الأمين في هذه الحكاية ، وخذ منها طريق الطلب ، واجعل الشيخ الذي تقصده لإرشادك قبلة نجاتك ، ولا تلتفت عنه إلى سائر جهاتك .

ونظير هذه ما وقع لأبي السعود الشبلي مريد الشيخ عبد القادر الكيلاني ﷻ أنه كان يوما في بيت الشيخ عبد القادر ﷺ فدخل عليه الخضر ﷺ فسلم عليه فرد السلام ولم يلتفت إليه ، فقال له الخضر : أما تعرفني ؟ فقال : بلى ، إنك الخضر ، ولكن حبّ هذا – وأشار إلى الشيخ عبد القادر – لم يبق فيّ محلا لغيره .

وهكذا ينبغي أن يكون المريد مع الشيخ حتى تنصب عليه سحائب فوائده وينغمس في بحار فواضله ويتجلى بدرر فرائده وينشد لسان حاله :

أنا لا أعرفُ إلا أنْـتُـمُ   فَاجْبُروني بِعَطاءٍ مِنْكمُ

فاعتبروا أيها السادات ، هذه كلها من نتيجة المحبة الإلهية ، فإن راعيتم هذه المحبة الإلهية مع شيخكم تفوزون بلا ريب بمرادكم .

وَلَسْتُ مِنْ جُمْلَـةِ المُـحِـبِّـينَ إنْ   لَـمْ اجْعَل القَلْـبَ بَيْتَـهُ والمَقاما
وَطَـوافِــي إجـالَــةُ السِّـرِّ فـيـهِ   وَهــوَ رُكْني إذا أرَدْتُ اسْـتِــلاما

ثم اعلم أن المحبة رأس الشريعة وعنوان الطريقة ، أي علامة طائفة السائرين إلى الله تعالى وسيماهم ، بها يعرفون وإليها ينسبون .

والمحبة الذاتية هي قطب هذا الشأن ، أي السلوك إلى الله تعالى ، وعليها مدار هذه الطريقة ، لأن العمدة في السلوك هي ترك الأغراض والأعواض ابتغاء لوجه الله تعالى ، ولا يطلب محض الحقيقة إلا صاحب هذه المحبة .

فمن بعثه على الطلب إشراقات أنوار هذه المحبة فهو الفائز بنهاية البغثة ، والمحبة الذاتية هي من طور وراء العقل ، وهي في الحقيقة من تعريفات الحق تعالى بذاته إلى قلوب أهل عرفانه ، وهي من وراء النعوت ، يبهر نورها العقل ويعزله عن الحكم ، ولا برهان عليها إلا وجودها ، فبينة شهودها لا ينتهي معرفتها إلا بوجدانها ، ووجدانها يغني عن تعريفها ، فلا فائدة في نعتها . . الخ

وقال سهل بن عبد الله التستري ﵁ : أشد ما يرد على المشائخ إشارات المريدين من الحق سبحانه عليهم .

وقال يوسف بن الحسين ﵀ : إشارات الخلق على قدر مواجيدهم ، ومواجيدهم على قدر معارفهم ، ومعارفهم على قدر محبتهم ، وليس حال أحب إلى الله تعالى من محبة العبد له . انتهى

والسكر حال شريف يعتور« ١ » عليه صحوان ، فالصحو الأول حضيض النقصان لإفادته إثبات الحدث ، وهو معراج السالكين لإفادته محو الحدث ، والصحو الثاني أوج الكمال لإفادته إثبات القدم ، وهو مذكور في الباب السابع من قسم الحقائق ، وهو القسم التاسع من الأقسام العشرة المذكورة في منازل السائرين ، وسقوط التمالك عدم الصبر ، فالسكر يشار به إلى زوال الصبر لاستيلاء الطرب وقوّته ، والسكر مخصوص بمقام المحبين ، لأن مقام المحبة ملتقى مقدمة العامة وساقة الخاصة ، والعامة هم المقيدون بأحكام العلم ، والخاصة هم المأخوذون بنور التجلي عن يد العلم ، والمحبة تتولد من الهمة ، والأنس لا يكون إلا بشهود المحبوب ، والهمة لا تقوى إلا بالعلم والمحبة أول أدوية الفناء ، والعلم يحكم بالوجود ، فيقع المحب في الحياة .

« ١ » أي يصيبه ويعتريه .

ومن علامة السكر أن يكون المحب غريقا في بحر السرور لا يفارقه ، كذلك المحب لا يفارق السرور .

ومن ذاق شيئا من المحبة علم صحة هذا القول ، فنعيم المحبة دائم ، وصبر المحب عن المحبوب هائم ، والمحبة وإن امتزجت لذتها بألم الشوق ، إلا أنه ألم يطيب[1] لصاحبه بحيث لا يختار مفارقته ويلتذ المحب بألم الشوق لذةً تغلب ذلك الألم ، يعني يلتذ بذلك الألم أيضا ، فيضاعف اللذة بامتزاج الألم .

وأحكام المحبة والسكر أمور غير مضبوطة ، لا يعرفها إلا من وقع فيها وذاق نعيمها فحينئذ يصدق ما قلنا عن علم ودر كلمات قدسية ، والله أعلم .

قال العارف ابن بنت ميلق قُدِّسَ سِرُّهُ :

واعْلَـمْ يَقينـاً بِـأنَّ اللهَ ناصِـرُهُ إنْ لَـمْ تَكُنْ ناصـراً فَـاللهُ يَكْفيهِ

أي وكن أيها الطالب الصادق محبَّ مُحِبِّي شيخك وناصرهم ، وعاد معاديه وباينهم ، فإن هذه هي حقيقة المحبة ، أن تحبه وتحب من يحبه وتبغض من يبغضه ، وهي ترجع إلى المحبة في الله والبغض في الله ، لأن الشيخ هو المتحقق بكمال المتابعة له ﷺ أفعالا وأقوالا وأحوالا ، ومن أحب في الله تعالى وأبغض في الله تعالى فقد استكمل الإيمان وبلغ أعلى درجة الإحسان .

وما أحسن ما قال بعضهم :

أَمُـرُّ علـى الدِّيـارِ دِيـارِ لَيلـى أُقَبِّـلُ ذا الجِـدارَ وذا الجِـدارا
وَمـا حُـبُّ الدِّيـارِ شَـغَفْنَ قَلْبي وَلكِـنْ حُـبُّ مَـنْ سَـكَنَ الدِّيارا

وقال بعضهم : وقع جدب في بعض البلدان فاستسقوا ولم يسقوا ، فخرج إنسان وقال : يا رب بحق ما في هذا الرأس اسقنا ، فسقوا وارتووا ، فقال له بعضهم : وما في هذا الرأس ؟ قال : عينان رأتا أبا يزيد ، فقال له ذلك القائل : أنا جار أبي يزيد ، فقال : أنت أحق مني بالإجابة .

« ١ » في الأصل : لم يطب

فانظر يا أخي إلى عين رأت الشيخ الكامل كان لها هذا المقام عند الله تعالى ، فكيف بقلب احتشى بحبه وجوارح وحواس لم تزل ممتلئة بقربه ، فكيف لا تكون أيها الطالب محبا لهياكل تزينت بهذه القلوب ومبغضة لأبدان حرمت النظر إلى هذه المحاسن وبعّدتها الذنوب .

قوله : (واعلم يقينا بأن الله ناصره) البيت ، يعني أن نصر الشيخ ليس موقوفا على نصرك أيها الطالب ، إن نصرته فالمنفعة راجعة إليك ، وإن لم تنصره فالله ناصره . ذكره الشيخ أحمد بن علان ﷺ ٢١ .

فعليك بالمحبة الإلهية ، محبة الله تعالى ورسوله ﷺ ومحبة شيخه بل ومحبة إخوانه لله بالله . قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ الآية

وقال أيضا ﷺ :

وَنَـظْـرَةٌ مِنْـهُ إنْ صَحَّـتْ إليـهِ   عَلـى سَـبيلِ وُدٍّ بِـإِذْنِ اللهِ تُغْنيـهِ

أي ونظرة من الولي إن صحت للطالب على سبيل المحبة أغنته بإذن الله تعالى ورفعته عن عالم الطبيعة إلى عالم القلب وأخرجته من ظلمة عالم الملك إلى نورانية عالم الملكوت .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ : إن السلحفاة تبيض وتجلس في البعيد عن بيضتها وتربيه بالنظر إليه ، إذا كانت السلحفاة تربي أولادها بالنظر إليهم ، فكيف لا يربي الشيخ أولاده بالنظر ، وشتان بين النظرين .

قال الشيخ السهروردي ﷺ في « المعارف » : كنت أنا وعمي في مسجد خيف ، وكان كثير المشي والتردد فيه ، فقلت له : ما ذا تريد بكثرة هذا التردد ؟ فقال : أريد جماعة النظر منهم على الشخص كالإكسير ، إذا حل على النحاس صيره ذهبا .

ويروى أن الشيخ نجم الدين الكبري ﷽ كان في مجلس السماع ، فجاء بقّال يتفرج فنظر إليه الشيخ في ذلك الوقت نظرة وقال له : من أين ؟ فوصف له حاله ، فقال له : اذهب وارشد الناس ، فقد أجزتك .

فأوصله إلى الله تعالى بتلك النظرة وأعطاه مقام الإرشاد و ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ في وصف أبي العباس المرسي ﷽ : أبو العباس الرجل الكامل يأتي إليه الأعرابي وهو يبول على ساقيه ، فما يأتي آخر النهار إلا وقد أوصله إلى الله تعالى .

وأمثال هذه الحكاية كثيرة واردة عن أولياء الله تعالى ، والإيمان يسع ذلك كله ، وفضل الله واسع من ذلك ، إذ ليس كل ما نقل عنهم إلا من فضله تعالى .

فشد المئزر يا أخي في طلبهم تظفر بالكنز الذي لا ينفد والفضل الذي ليس لغايته حد . انتهى

وكذلك يا أخي أنت إذا أحببت الأولياء كنت معهم وإن لم تكن في مقامهم ، ولا تكون معهم حتى تذعن لهم بظاهرك وباطنك وتتكسر لهم في سرك وعلانيتك ، فمن ظفر بذلك فقد ظفر بالغنيمة الباردة وتجد له في كل حين من إشراق بواطنهم فائدة وأي فائدة ، قاله ابن علان ﷺ

اعلم أن المحبة أعظم أركان هذه الطريقة العلية كما ذكرنا ، لأن نسبتها الخاصة – وهي دوام العبودية على طريق الاستهلاك والذهول – متلقاة بالمحبة ، لأن أبا بكر الصديق ﷺ إنما تلقى هذه النسبة عن النبي ﷺ بجذبة المحبة .

ثم تسلسل تلقيها عن المشائخ كذلك ، فلذلك سميت هذه الطريقة طريقة الجذبة لكون الجذبة سببا لحصول نسبتها الخاصة ، فلو لم تكن المحبة لم تحصل الجذبة ، ولو لم تحصل الجذبة لم تحصل النسبة ؛ لأن المحبة تسلب بلطائف خاصيتها أنانية المريد وتنفيه في شيخه بحيث لا يريد ولا يختار إلا

بإرادة الشيخ واختياره ، فحينئذ تجذب المحبة ماكان في الشيخ من المعارف الإلهية والتجليات الربانية إلى المريد بالتدريج ، فيقوم المريد عن شيخه على البدلية ، **لأن المحبة كالمغناطيس تجذب صفة المحبوب** إلى المحب وتجعل أحدهما مثل الآخر .

ولكن تلك المحبة وهبية إلهية لا تدخل تحت الاكتساب ، لأنها من التأليفات الإلهية والتعطيفات الربانية ، يمنّ بها على من يشاء من عباده ، والتكليف في اكتسابها يؤدي إلى التنافر والتباغض ، وذلك إلحاد وزندقة .

قال الشيخ السري السقطي ﷺ : لا تصح المحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر : ما أنا إلا أنت ، فلا بد للمريد من محبة الشيخ الذي يكون واسطة لمشاهدة الحق سبحانه وتعالى ، لأن الشيخ مرآة تجلي الحق .

فإذا أحبه المريد بالمحبة الكاملة حتى فني فيها ، يحصل فيه تلك الحالة ويشاهده من غير واسطة الشيخ ، فيكون مظهر التجليات مثل شيخه .

فالحاصل **أن المريد لا يقرب إلى الشيخ إلا بمقدار محبته** ، فتكون محبة الشيخ كافية في الوصول إلى الله تعالى ، فلذلك كانت محبة هذه الطائفة عين الحقيقة . « الآداب المرضية » .

وقال الحارث المحاسبي ﷺ : صفة العبودية أن لا ترى لنفسك ملكا وتعلم أنك لا تملك لنفسك نفعا ولا ضرّا . « نفحات » ١٠٤

وقالت جارية ﷺ وهي متعلقة بأستار الكعبة حرسها الله تعالى :

أَنْتَ تَدْري يا حَبيـبـي	مَنْ حَبيبـي أَنْتَ تَدْري
وَنُـحولُ الجِسْمِ والدَّمْـ	ـعِ يَبـوحـانِ بِسِـرّي
قَدْ كَتَمْتُ الحُبَّ حَتَّى	ضاقَ بِالكِتْمانِ صَدْري

ثم قالت : إلهي وسيدي ومولاي بحبك لي إلا ما غفرتني . « منه » ٧٠٥

وقـال مولانا الشيخ أحمد الفاروقي ﷹ : المحب الصادق من يفدي روحه وماله وأهله وعياله لأجل المحبوب ، كما نقل أن جبرائيل ﵇ سأل رب العزة جل وعلا : إلهي بم اتخذت إبراهيم ﵇ خليلا ؟ قال تعالى : بسبب محبته إياي ، إن ذهبت إليه يظهر لك الأمر ، فوصل إلى بيت الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام على صورة غريب ، فشرع في أوصافه تعالى وثنائه بصوت حسن عجيب ، فاستقبله الخليل بمجرد الاستماع بلا اختيار وغلب عليه البكاء وعدم القرار ، فسكت جبرائيل من مشاهدة حاله فقال : زدني بالله عليك ، فشرع فزاد اضطرابه ، فسكت ثانيا متحيرا ، فتضرع إبراهيم ﵇ واضعا رأسه على قدمه وقال : وهبتك جميع مملوكاتي من النقد والجنس« ١ » والمواشي والبساتين ، فزد في ذكره تعالى ، فشرع في الثناء مدة ثم سكت ثالثا فقال الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام : جعلت أهلي وعيالي ملكا لك ، فزدني الترنم ، فشرع زمانا طويلا ثم وقف فقال : ما بقي إلا نفسي فجعلتها أيضا مملوكة لك ، فزدني شيئا ، فشرع ، فبعد إتمامه أخذ إبراهيم ﵇ يده فأدخله بيته فقال : كل هذه الأشياء مباركة لك وأنا عبدك ، فأطلعه جبرائيل ﵇ على حقيقة الحال وقال : علمت أنك قابل لخلته سبحانه لا الملك ، صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم أجمعين . « المقامات السعدية » ١٣٤ .

وقال الشيخ الأستاذ العلامة كمال الدين الدميري ﷹ في « حياة الحيوان » ما عبارته هذه : وقد أحببت أن أذكر هنا ما أخبرني به بعض العلماء العارفين ، وهو أن عيسى ﵇ اجتاز في بعض الأيام بجبل فرأى فيه صومعة ، فدنا منها فرأى فيه متعبدا قد انحنى ظهره ونحل جسمه وبالغ به الاجتهاد أقصى غاية ، فسلم ﵇ وقال له : منذ كم أنت في هذه الصومعة ؟ فقال : منذ سبعين سنة ، أسأله حاجة واحدة وما قضاها لي بعد ، فعساك يا روح الله أن تكون شفيعا لي فيها ، فعساها تقضى ، فقال له عيسى ﵇ : وما حاجتك ؟ قال : أن يذيقني مثقال ذرة من خالص محبته ، فقال عيسى ﵇ : ها أنا أدعو لك في

« ١ » لعل المراد العبيد والجواري

ذلك ، فدعا له عيسى عليه السلام في تلك الليلة فأوحى الله تعالى إليه : إني قد قبلت شفاعتك وأجبت دعوتك ، فعاد عيسى عليه السلام بعد أيام إلى ذلك الموضع فرأى الصومعة قد وقعت ، والأرض التي تحتها قد شقت ، فنزل عيسى عليه السلام في ذلك الشق إلى منتهاه فرأى العابد في مفازة تحت ذلك الجبل واقفا شاخصا ببصره فاتحا فاه ، فسلم عليه عيسى عليه السلام فلم يرد عليه جوابا ، فعجب عيسى عليه السلام من حاله فهتف به هاتف : يا عيسى إنه سألنا مثقال ذرة من خالص محبتنا ، فعلمنا أنه لا يطيق ذلك ، فوهبنا له جزأ من سبعين ألف جزء من ذرة ، فهو فيها حائر كما ترى ، فكيف لو وهبناه أكثر من ذلك ؟ !

قلت : فمحبة الخواص من هذه المعادن رشحت وبهذه الأوصاف عرفت .

واعلم أن المحبة هي أول أودية الفناء ، والعقبة التي تنحدر منها إلى منازل المحو ، وقد اختلفت إشارات أهل التحقيق في العبارة عنها ، فكل نطق بحسب ذوقه وأفصح بمقدار شوقه ، ليس هذا موضع حكاية أقوالهم واختلاف عباراتهم فيها .

وقد بسطنا الكلام في ذلك في كتابنا « الجوهر الفريد » . فاعلم أن المحبة على الإجمال موافقة المحبوب فيما شاء ، سواء فيما حزن أو سرّ ، نفع أو ضرّ . وقد أشار بعضهم إلى ذلك بقوله :

وَقَـفَ الهَـوى بـي حَيْـثُ أَنْــتَ ... فَلَيْسَ لي مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ وَلا مُتَـقَـدَّمُ

أَجِـدُ المَلامَـةَ في هَواكَ لَذيــذَة ... حُـبًّا لِذِكْرِكَ فَلْـيَلُــمْني اللُّــوَّم

أَشْـبَهْتَ أَعْدآئـي فَصِرْتُ أُحِبُّهُمْ ... إِذْ كانَ حَـظِّـيْ مِنْكَ حَظِّي مِنْهُمُ

فَأَهَـنْتَـني فَأَهَنْتُ نَفْسي صـــاغِراً ... مَا مَـنْ يَهـونُ عَليكَ مِمَّنْ يُكْـرَمُ

واعلم أن الغيرة من أوصاف المحبة ، والغيرة تأبى الستر والإخفاء فكل من بسط لسانه في العبارة عنها والكشف عن سرها فليس له منها ذوق ، وإنما حركه وجدان الرائحة ، ولو ذاق منها شيئا لغاب عن الشرح والوصف .

فالمحبة الصادقة لا تظهر على المحب بلفظه ، وإنما تظهر بشمائله ولحظه ، ولا يفهم حقيقتها من المحب سوى المحبوب لموضع امتزاج الأسرار من القلوب .

وقد قيل في ذلك :

تُشيرُ فَأدْري ما تَـقـولُ بِطَـرْفِـها ... وَأطْرِقُ طَرْفي عِنْـدَ ذاكَ فَتَـفْـهَمُ
تَكَلَّـمُ مِـنَّـا في الوُجوهِ عُيـونُنـا ... فَـنَـحْنُ سُكوتٌ وَالهَوى يَتَـكَلَّـمُ

اهـ ما في « حياة الحيوان » ١٩٤ ج ١

وقال الشيخ ابن عطاء الله ﷺ في « الحكم » : تطلعك إلى بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له ، واستيحاشك لفقدان ما سواه دليل على عدم وصلتك به .

يعني أن تطلعك إلى بقاء غيره من الواردات المذكورة وغيرها كالأنوار والمقامات والنعم الباطنة والظاهرة دليل على عدم وجدانك له ، إذ لو وجدته في قلبك وانجمع عليه سرك لم تطلب بقاء غيره ، واستيحاشك لفقدان ما سواه كالواردات المذكورة دليل على عدم وصلتك به ، إذ لو وصلت إليه لنسيت كل محبوب ولم تستوحش عند فقد شيء سواه .

فالسالك إذا وردت على قلبه واردات إلهية وبسطت فيه أنوارها وأودعت فيه أسرارها وحدثته نفسه بأنه من الواصلين ، فإن كان يتطلع ويتشوق إلى شيء من الأغيار المحبوبة أو يستوحش لفقدانه ، فذلك دليل على عدم تحققه بهذا المقام الشريف .

قال الجنيد رضي الله عنه : إنك لن تكون له على الحقيقة عبدا ، وشيء مما سواه لك مُسْتَرَقّ وإنك لن تصل إلى صريح الحرية ، وعليك من حقوق عبوديته بقية .

والحاصل أن وجدان العبد لربه ووصوله إليه هو غاية مطلبه ومنتهى آماله ومآربه ، وبه يفوز بالنعيم ويحظى بالملك العظيم ، وعند ذلك ينسى كل محبوب ويلهى عن كل مفروح به ومرغوب .

وهذه هي صفة أهل التفريد الذين استتروا في ذكر الله المجيد ، كما روي عن أبي عبد الله البسري ﷺ قال : سألت رجلا بالكام ما الذي أجلسك في هذا الموضع ؟ فقال لي : وما سؤالك عن شيء إن طلبته لم تدركه ، وإن لحقته لم تقع عليه ! قلت : تخبرني ما هو ؟ قال : علمي بأن مجالسة الله تعالى تستغرق نعيم الجنان ، ثم قال : أوّاه قد كنت أظن أن نفسي ظفرت ومن الخلق هربت ، فإذا أنا كذاب في مقالتي ، لو كنت محبا لله تعالى صادقا ما اطلع عليّ أحد ، فقلت : أما علمت أن المحبين خلفاء الله تعالى في أرضه مستأنسين بخلقه يبعثونهم على طاعته ؟ فصاح صيحة وقال لي : يا مخدوع ! لو شممت رائحة الحب وعاين قلبك ما وراء ذلك من القرب ما احتجت أن ترى فوق ما رأيت ، ثم قال : يا سماء ويا أرض اشهدا أني ما خطر على قلبي ذكر الجنة والنار قط ، إن كنت صادقا فأمتني ، فوالله ما سمعت له كلاما بعدها ومات ، وخفت أن يسيء إلي الظن من الناس من قتله ، فتركته ومضيت ، فبينما أنا على ذلك ، وإذا أنا بجماعة فقالوا : ما فعل الفتى ؟ فكنيت عن ذلك ، فقالوا : ارجع فإن الله تعالى قد قبضه ، فصليت عليه معهم وقلت لهم : من هذا الرجل ومن أنتم ؟ قالوا : ويحك هذا رجل به كان يمطر المطر ، قلبه على قلب إبراهيم الخليل عليه السلام ، أما رأيته يخبر عن نفسه أن ذكر الجنة والنار ما خطر على قلبه ، فهل كان أحد كذا إلا إبراهيم الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، فقلت : من أنتم ؟ قالوا : نحن السبعة المخصوصون من الأبدال ، قلت : علموني شيئا ؟ قالو : لا تُحِبَّ أن تُعْرَف ولا تُحِبَّ أن يُعْرَف أنك ممن يُحِبُّ أن لا يُعْرَف . « تقريب الأصول » ١٢٨

وقال مولانا شيخ جامي قدس سره في « نفحاته » ٨٥ : المودة إحدى القرابتين ، لما أنه لا قرابة أقرب من المودة ولا بعد أبعد من العداوة .

ولله در القائل :

القَومُ إخْوانُ صِدْقٍ بَيْنَهُمْ نَسَبُ   مِنَ المَوَدَّةِ لَمْ يُعْدَلْ بِهِ سَبَبُ

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدري أيّ عرى الإسلام أوثق ؟ » قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال ﷺ : « الولاية في الله والحب فيه والبغض فيه » .

وعن الفضيل بن عياض رضي الله عنه : يقول الله تعالى لعباده يوم القيامة : يا ابن آدم ! أما زهدك في الدنيا فإنما طلبت لراحة نفسك ، وأما انقطاعك إليّ فإنما طلبت العزّ لنفسك ، ولكن هل عاديت لي عدوا أو واليت لي وليا . « نفحات »٨٥

وقال في « التحفة المرضية » للشيخ العارف عبد المجيد علي قدس سره : قال بعض العارفين : علامة محبة الله تعالى بغض المرء نفسه ، لأنها مانعة له من المحبوب ، فإذا رسخت نفسه في المحبة أحبها لا لأنها نفسه ، بل لأنها تحب محبوبه ، اللهم تولنا في جميع أمورنا بجاه سيدنا محمد حبيبك سيد العالمين .

وفي « البدر المنير » عنه عليه الصلاة والسلام : « آخر ما تكلم به إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار : حسبي الله ونعم الوكيل » « تحفة » ٤٥ .

وأنشد بعض العارفين :

وَكانَ فُؤادي خالياً قَبْلَ حُبِّكُمْ   وَكانَ بِذِكْرِ الخَلْقِ يَلْهو وَيَمْزَحُ
فَلَمَّا دَعا قَلْبي هَواكَ أجابَهُ   فَلَسْتُ أراهُ عَنْ فِنائِكَ يَبْرَحُ
رُميتُ بِبَيْنٍ[1] منكَ إنْ كُنْتُ كاذِباً   وَإنْ كُنْتُ في الدُّنْيا بِغَيْرِكَ أفْرَحُ
وإنْ كانَ شَيءٌ في البِلادِ بِأسْرِها   إذا غِبْتَ عَنْ عَيْني بِعَيْنَيَ يَمْلُحُ
فَإنْ شِئْتَ واصِلْني وَإنْ شِئْتَ لا تَصِلْ   فَلَسْتُ أرى قَلْبي لِغَيْرِكَ يَصْلُحُ

« نفحات » ١٥٤ .

« ١ » أي ببُعْدٍ

فصل

في بيان كيفية محافظة النسبة وكمال أهلها

اعلم أيها الكامل أن محافظة النسبة من ضروريات هذه الطريقة الصديقية وأهمها ، قال قدوة الأكابر خواجه عبيد الله الأحرار السمرقندي ﷺ : الطريقة النقشبندية أفضل الطرق وأعلاها ومحافظة نسبتها واجبة وإن أهلها وأربابها في غاية الشرف والكمال وفي حق شرف وكمال أهلها .

قال ﷺ : إن معنى محافظة النسبة أن يكون الطالب في محافظة الشغل باهتمام عظيم بأن يكون سعيه وقيامه وقعوده ودخوله وخروجه بالحضور التام مع الله سبحانه وتعالى ، بكيف لا يقع في النسبة فتور وقصور و أن يكون في اجتهاد عظيم في محافظة نسبتها لأنها توجب المحبة الإلهية حتى يصل بمحافظة النسبة إلى مرتبة يمكن حفظها في القلب بلا تكلف ، فإذا وصل إلى هذه المرتبة وصار الذكر أي محافظة النسبة ملكة وقام عليها برعاية الأدب مدة فيصل حينئذ إلى مرتبة لا يقدر إزالة تلك المحافظة من القلب بالتكلف ، ففي أثناء ذلك يحصل له حال بغيبته عن وجوده بحيث لا يبقى له شعور ، وفي بعض الحالات يرجع إلى الشعور الكامل ، ويظهر لنفسه وقلبه حال لم يكن يعهده قبل .

وبعد عروض هذه الأحوال لازم أن يجتهد أيضا ويسعى بالسعي التام في رعاية محافظة النسبة لئلا يسد عليه طرق القلب بعروض الغفلة والعوارض النفسانية ، بل يكون بالحضور مع الله تعالى بدوام الافتقار والانكسار بالرجاء التام لعناية الله تعالى بسبب الدوام على النسبة ، وأن يكون جميع حركاته وسكناته بالله تعالى ، وأن يكون اعتقاده صحيحا بأن يعتقد بأنه لو أفنى جميع أوقاته وصرف عمره على تلك المحافظة وسعى في محافظتها لما يقدر أدآء حقها ولو بعشر عشرها إلا أن تداركه رحمة ربه ، وأن يكون مثله كالغريم الذي لا يقضى دينه .

وفي هذا المقام يحصل للقلب التمكين والاطمئنان بأن يكون بالضرورة بأن الله سبحانه وتعالى حاضر عنده ناظر إليه ، كأنه سبحانه وتعالى ظاهر بين يديه ينظره ، وأن يكون السالك راسخا بهذا الوصف مستقيما على حقيقة الإيمان الذي يعبر عنه بالإحسان ، و بعض السادات«١» عن لزوم القلب على الحضور والوصف الدائمي به بـ : المشاهدة والوصول .

وفي هذا المقام إن السالك الذي هو صاحب تمكين إن ثبت عليها بالوجه المذكور لا يكون أشغاله الظاهرة مانعة ومزاحمة لأشغاله الباطنة معناه يكون سره موافقا لعلانيته ويوافق في الظاهر ما تخيل في الباطن ، وهذا مقام عظيم ويعد صاحب هذا المقام بالغا وكاملا ويستحق لعقد مجلس الذكر والصحبة ودعوة الناس إلى الطريقة العلية وأن يكون مجازا للإرشاد فافهم .

وبعد هذه المرتبة الشريفة إن وقع نظر الطالب إلى ما وراء ذلك ولم يصل إلى بعض المراتب يكون حاله بعد ذلك دائما في شوق وقلق ، ويكون في اشتياق عظيم إلى المراتب السنية وهذا الإشتياق يكون في الأنبياء والأولياء الكمل ، ولا يزول هذا الحال من الكمل كل وقت يزيد يوما فيوما ، ومع ذلك لا يتسلى بهذه الأحوال والمقامات بل لا يزال قائلا : رب زدني علما يستزيد بترنم الوجد والاشتياق والغرام من ذي الجلال والإكرام من العلوم الإلهية والمعارف الربانية ، ويصير الطالب بوقوع هذه المحبة الصادقة مع الله تعالى كل وقت في الاشتياق والبسط والنشاط ثابتا في دائرة العبودية الكاملة المحضة ، جعلنا الله تعالى وإياكم في زمرة هؤلاء الصالحين الصديقين .

وإن معنى النسبة عند سادات هذه الطريقة العلية : هي الملكة الحاصلة لأرباب الطريقة وهي عبارة عنها وبعضهم يعبر للنسبة بالمحبة وبعضهم بالعشق الكامل وبعضهم بغيرها ، ومقصود جميعهم أن يكون قلب السالك دائما على معرفة الله تعالى بعظمته وكبريائه سبحانه وتعالى بكيف لا يشوبه شيء .

« ١ » أي يعبّر بعض السادات عن آه بالمشاهدة والحضور « حسن أفندي القحي » قُدِّسَ سِرُّهُ .

وهذه النسبة أساس جميع السعادات وأصلها ومبنى كل خير وقد يعبر عنها بالوصول ، على مقتضى حديث « أنا جليس من ذكرني » لما أن الذاكر الصادق لا يزال قلبه من الذكر ويكون تحركه وسكونه معه سبحانه وتعالى ، ولذلك يعبرون بالنسبة ونذكر جميع ذلك تفصيلا في مواضعها .

وقال بعض أكابر السادات : إن مقتضى الكرم أن تحفظ النسبة للمنتسب على وجه طلبه ويشهد لذلك « أنا عند ظن عبدي بي » ، ومن ثم قيل : إن عافية من ابتلي من الأكابر في بلائه ، إذ لا حاجة له في سوى رضا ربه ورضاه عنه بأي وجه كان ، بل يطلب لقآءه على وجه يرضاه وإن كان فيه حتفه .

ألا ترى لعمر ﷺ حيث كان يطلب الشهادة فأعطيها ، وعثمان رضي الله تعالى عنه اختار القتل ظلما لحقن دماء المسلمين وتعجيله للقاء أصحابه ونبيه ﷺ إلى غير ذلك ، حتى أن بلالا في الموت قالت زوجته : وا كرباه ! فقال : وا طرباه ! غدا ألقى الأحبة محمدا وحزبه ، ومعاذ لما ذكر الوباء قال : إنه رحمة لهذه الأمة اللهم لا تنس معاذا وأهله من هذه الرحمة ، فأخذته وباية في كفه وكان يغمى عليه ثم يفيق فيقول : اخنق خنقك فوعزتك لتعلم أني أحبك ، إلى غير ذلك .

ولما قتل الحجاج سعيد بن جبير ﷺ قال سعيد : أنا آخر الناس عينا بك ، قال : قد قتلت من هو أفضل منك ، فقال سعيد : أولائك كانت قلوبهم متعلقة بالدار الآخرة فلم يبالوا بل كانوا أحرص الناس على قربهم منها ، وأنا قلبي متعلق بنفسي ، فقتله وكان آخر قتيل له بدعوته عليه فظهر الفرق وأن عاقبة كل أحد على حسب حاله ومعاملة الحق على حسب انتسابه ، والله أعلم .

وقال بعض العارفين قدس الله تعالى أسرارهم : إن الصياح في مجالس المريدين من علامة الغفلة لأنه يحصل عند عدم الحضور بالمعنى ، فإن كان السالك حاضرا دائما لا تظهر صيحة منه أصلا ، فإن الحضور والشهود موجبان للفناء والذهول ولا صياح في مقام الفناء ، وإن رأيت شيخا يصيح في المحفل بين مريديه أو غيرهم ويضرب يديه على الركبة أو يصفق أو يخرج من نفسه

رعونة النفسية كالتحرك والوثبة وإظهار البكاء لتحريك المبتدئين وإظهار أمور ليست فيه بل للتصنع فتجنّب منه ولا تحضر مجلسه فإنه مبتدع مخادع سقط عن عين الله فالعياذ بالله . انتهى

وفيه قيل :

الوَجْدُ يُطْرِبُ مَنْ في الوَجْدِ راحَتُه والوَجْدُ عِندَ وجـودِ الحَقِّ مفقودُ
قَـدْ كانَ يُطْرِبُنـي وَجْدي فَأَذْهَلَنـي عَن رُؤيةِ الوَجْدِ مَنْ بالوجْدِ مفقودُ

« رشحات » ١٤٢

وقال الشيخ عبيد الله الأحرار قُدِّسَ سِرُّهُ يوما سياسة لبعض الحاضرين : إذا حصلت لكم نسبة في صحبتي تحضرونها ثانيا وإن ظهرت لكم فيها كلفة تهربون منها للعنان ثانيا ، ولقد هان عليكم حضوركم عند فقير لأجل ذوق وحال فقط وهذا من علامة المحبة العارضية لا الذاتية .

إذا ما مَلأتَ القَلْبَ مِنْ خَمْرِ شَوْقِنا فَلا يَنْبَغي مِنْكَ القِلى عَـنْ خِمـارِهِ

« رشحة » ٢٠٣ .

وقال الشيخ الشاذلي رَحِمَهُ الله : سألت أستاذي عن ورد المحققين فقال : عليك بإسقاط الهوى ومحبة المولى و أبت المحبة أن تستعمل محبا لغير محبوبه .

وقال حاكيا عن أستاذه إنه سمعه يقول لرجل استأذنه في المجاهدة لنفسه فأجاب بقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِـرِ ﴾ . « جامع الأصول » ٣٧ .

وقال الشيخ محمد مراد رَحِمَهُ الله في « تحفته » : إن لفظ النسبة قد يقع في عبارات المشائخ كثيرا فمرة يقولون النسبة ومرادهم بها دوام العبودية على طريق الاستهلاك والذهول ، ومرة يقولون النسبة ومرادهم بها الصفة الغالبة على الشخص ، ومرة يقولون النسبة ومرادهم بها الانتساب بعمومها أي عموم

هذه النسبة ، والمراد بعموم النسبة الاشتغالات التي يشتغل بها السالك عند سلوكه في هذه الطريقة العلية كالاشتغال بالذكر والاشتغال بالرابطة والاشتغال بالوقوف القلبي وغير ذلك ، وخصوصها أي وخصوص هذه النسبة ، والمراد بخصوص هذه النسبة دوام العبودية التي هي نتيجة هذه الطريقة العلية ولا ينال إلى هذه النتيجة إلا من سبقت له العناية الإلهية . « تحفة الأحباب » .

وذكر علي بن حسين الهروي رحمه الله في « الرشحات » نقلا عن المولى نظام الملة والدين الخاموشي قدس سره قال : إن لفظ النسبة والحمل قد كثر وقوعهما في عبارات خواجكان قدس الله أسرارهم وإشاراتهم فأحيانا يطلقون لفظ النسبة ويريدون بها الطريقة المخصوصة والكيفية المعهودة فيما بينهم ، وأحيانا يريدون بها ملكة نفس الشخص وصفتها الغالبة وأحيانا يطلقون لفظ الحمل والثقل ويريدون به الثقل الذي لا نسبة له حيث يقولون : إن فلانا جاء بالحمل والثقل أو إنه أثقلني إذا لقوا شخصا ليس له مناسبة لطريقتهم وكانوا متأثرين من نسبته ، ولو كان هو من أهل السلوك والعلم والتقوى ، فإن نسبة هذه الطائفة العلية فوق جميع النسب وكل ما يغاير نسبتهم يكون ثقيلا على خاطرهم ، وأحيانا يريدون بالحمل والثقل المرض كما إذا قالوا : إن فلانا رفع حمل فلان وإن فلانا رمى عليه حملا فمرادهم من هذا أنه رفع مرضه أو أنه أوقع عليه المرض ورماه له وأحاله إليه . « رشحات » ٩٤ .

قال أبو العباس أحمد الشهير بزروق رحمه الله : النسبة عند تحققها تقتضي ظهور أثر الانتساب ، فلذلك بقي ذكر الصالح أكثر من الفقيه لأن الفقيه منسوب إلى صفة من صفات نفسه هي فهمه وفقهه المنقضي بانقضاء حسه ، والصالح منسوب إلى ربه ، وكيف يموت من صحت نسبته للحي الذي لا يموت بلا علة من نفسه . ولما عمل المجاهد حتى مات شهيدا في تحقيق كلمة الله تعالى وإعلائها حسا ومعنى كانت حياته معنوية بدوام كرامته وذكر بركته على مر الدهور وقد مات قوم وهم في الناس أحياء .

وقال بعض العارفين قدس الله أرواحهم : ينبغي لمن يجتهد في تحصيل النسبة النقشبندية أن يكون شغله على وجه إذا نازع وجادل شركاءه لسقي الزرع مثلا وبلغ جدالهم حد المضاربة وشجّ رأسه وسال دمه على وجهه مثلا لا تكون في قلبه كدورة وكراهة أصلا ، بل يظهر منه النزاع حين يظهر بحسب الظاهر فقط ، ويكون من باطنه مسرورا ومنشرح الصدر من أذى الناس وجفائهم ويعذرهم في ذلك ولا يذهل عن نسبته بما صدر عنهم ولا ينقطع قلبه عن الله تعالى .

وقال أيضا : إن السر في ظهور النسبة النقشبندية في ملأ ومواطن تفرقة أكثر من ظهورها في خلوة ومواضع جمعية هو أن هذه النسبة محبوبة ، ومن عادة المحبوب الاحتجاب حين دُعي إلى الخلوة .

وقال أيضا : إن لطافة هذه النسبة على وجه يكون نفس التوجه إليها مانعا من ظهورها ، كما أن هذا المعنى ظاهرٌ في المظاهر الجميلة فإنهم إذا توجه المحبّون إليهم بإمعان النظر يحتجبون في حينه .

وقال أيضا : إن لطافة هذه النسبة على وجه إذا قال صاحبها لكلب : هُىْ من غير ضرورة تغيب في الحال .

وقال الشيخ ابن زروق ﵁ : الانتساب مشعر بعظمة المنتسب إليه والمنتسب فيه في نظر المنتسب ، فلذلك لزم احترام المنتسب لجناب الله بأي وجه كان وعلى أي وجه كان مالم يأت بما ينقصه على التعظيم ، فالنقص كمخالفة الشريعة صريحا فيتعين مراعاة نسبته وإقامة الحق عليه لأن الذي تعلق به هو الذي أمره .

نعم يلزم تحقيق أمره فيه وإلا عاد الضرر على معارضه لقصده هتك منتسب لجناب عظيم بمجرد هواه ، فمن ثم تضرّر كثير ممّن تعرض للاعتراض على المنتسبين لجناب الله وإن كانوا محقين إذ الحق يغار لهتك جنابه ، فلزم تحقيق المقام في النكير وتصحيح النية بالغاية وإلا فالحذر الحذر ، والله تعالى أعلم .

وقال الشيخ عبيد الله الأحرار ﭬ : إن هذا المهم - يعني نسبة الأكابر - لا تحصل باشتغال بها ولا بغير اشتغال بها .

معناه : لا تحصل باشتغال إن كانت له قابلية ولا تحصل بغير اشتغال إن لم تكن له قابلية .

وقال أيضا : إذا عمل كل طالب متبدئ عملا صالحا واستحسنه شخص فاستأنست به نفسه وطابت فليس ذلك الاستئناس على الطالب أقلّ من زنا مع ذي رحم محرم . وقال أيضا : إن هذا الأمر الذي وقع على الناس ما وقع على شيء من الموجودات لا يفتح الأمر من الطاعات الرسمية والعبادات العادية بل ينبغي أن يتحزم في العبودية بالمبادرة وأن يحتاط في التكلم والنظر والأكل احتياطا بليغا . « رشحة » ٢٠٩ .

وقال بعض السادات : ما دامت نسبة المريد ضعيفة غير قوية ولم تتمكن فيه يعمل معه بالمداراة والمواساة ويترك من غير مؤاخذة على ما يصدر عنه من الأفعال الغير المرضية وتحمل أخلاقه الردية ، وأما إذا قويت نسبته وحصل يقين بهذا الطريق فالأمر يقع بعد ذلك على المريد ويلزمه حينئذ المحافظة على أحواله لئلا يصدر عنه شيء موجب لكراهة الخاطر ونفرته ، فإن صدر عنه شيء مناف للأدب يؤاخذونه بذلك ويؤدّبونه على ما هنالك .

وقال الإمام الرباني ﭬ في « مكتوباته » ٣٤٦ : اعلم أن سالكي هذا الطريق لا يخلون عن أحد الحالين : إما أن يكونوا مريدين وإما أن يكونوا مرادين ، فإن كانوا مرادين فطوبى لهم ، يوصل بهم إلى المطلب الأعلى من طريق الانجذاب والمحبة من غير اختيار ويعلمون كل أدب لازم بواسطة أو بلا واسطة ، فإن صدرت عنهم زلة ينبهون عليها سريعا ولا يؤاخذون بها ، فإن احتاجوا إلى شيخ ظاهر يهتدون إليه من غير سعي عنهم ، وبالجملة إن العناية الأزلية متكفلة لحال هؤلاء الأكابر ، ولا بد من حصول أمرهم بسبب أو بلا سبب والله يجتبي إليه من يشاء .

وإن كانوا مريدين فأمرهم من غير شيخ كامل مكمل عسير ، والشيخ ينبغي أن يكون مشرّفا بدولة الجذبة والسلوك ، ومستعدا بسعادة الفناء والبقاء وأن يكون قد أتمّ السير إلى الله تعالى والسير في الله والسير عن الله والسير في الأشياء بالله ، فإن كانت جذبته مقدّمة على سلوكه وتربّى بتربية المرادين فهو كبريت أحمر ، كلامه دواء ونظره شفاء ، إحياء القلوب الميتة منوط بتوجهه الشريف وتزكية النفوس العاتية مربوطة بالتفاته اللطيف ، فإن لم يوجد صاحب دولة مثل ذلك فالسالك المجذوب أيضا مغتنم يحصل منه تربية الناقصين ويصلون بواسطته إلى دولة الفناء .

متى قِسْنا السماءَ بالعرشِ يَنْحَطّ   وَما أعْلاهُ إنْ قِسْنا بِالأرْض

فإن اهتدى الطالب بعناية الحق جل سلطانه إلى مثل هذا الشيخ الكامل المكمل ووصل إليه ينبغي أن يغتنم بوجوده وأن يفوض نفسه إليه بالتمام ، وأن يعتقد سعادته في مرضاته وشقاوتهُ في خلاف مرضياته ، وبالجملة ينبغي أن يجعل هواه تابعا لرضاه ، وفي الخبر النبوي عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » . انتهى

وقال الشاذلي ﷺ حاكيا عن رجل سأل أستاذه عن وظائف وأوراد فغضب منه الأستاذ وقال : أرسول أنا فأوجب الواجبات ؟ ! الفرائض معلومة والمعاصي مشهورة ، فكن للفرائض حافظا وللمعاصي رافضا ، واحتفظ من إرادة الدنيا وحب النساء وحب الجاه وإيثار الشهوات واقنع من ذلك كله بما قسم الله تعالى لك ، إذا خرج لك مخرج الرضا فكن لله شاكرا ، وإذا خرج مخرج السخط فكن عنه صابرا ، وحب الله قطب تدور عليه الخيرات وأصل جامعٌ لأنواع الكرامات ، وحصون ذلك كله أربعة : صدق الورع وحسن النية وإخلاص العمل وصحبة العلم ، ولا تتم لك هذه إلا بصحبة أخ صالح أو شيخ ناصح . « جامع الأصول » ٣٧

وقال مولانا وشيخ شيخنا ﷼ في « جامع الأصول » ١٠ : وأما الانتساب فاعلم أن الانتساب والأخذ إلى الطرق وغيرها على أربعة أقسام .

أحدها : أخذ المصافحة والتلقين للذكر ولبس الخرقة والعذبة للتبرك أو للنسبة فقط .

وثانيها أخذ رواية وهو قراءة كتبهم من غير حلّ لمعانيها وهو قد يكون أيضا للتبرك أو للنسبة فقط .

وثالثها أخذ رواية وهو حلّ كتبهم لإدراك معانيها كذلك

ورابعها أخذ تدريب وتهذيب وترقّ في الخدمة بالمجاهدة للمشاهدة والفناء في التوحيد والبقاء ، وهو المراد العزيز وجوده وعلى هذا معوّل أكثر الطرق خصوصا النقشبندية والشاذلية .

ويصح الانتساب أيضا بالاتباع والمشاركة ولو في شيء يسير مع المحبة لهم كتلاوة حزب من أحزابهم .

ولذا قال الشاذلي ﵁ : من قرأ حزبنا هذا فله ما لنا وعليه ما علينا ، يعني فله ما لنا من الحرمة وعليه ما علينا من الرحمة أو أعمّ منهما ، وهذا جار في الكل .

واعلم أن عدم الاجتماع بالشيخ لا يقدح في محبته بعد أن بلغه مناقبه وطريقته بالتواتر ، فليس لقائل أن يقول كيف يقتدى به وهو ميت ؟ فإنا نقول إنما نقتدي بما بلغنا عنه من طريقته وأخلاقه الحميدة لا بصورته الجسمية كما نحبّ رسول الله ﷺ وأصحابه ولم نرهم .

فينبغي لمن انتسب إلى ولي من أولياء الله تعالى أن يتشبه به في أصول طريقته وفروعها المهمة ، ثم ما لاح عليه من دقائقها ويعلم أن هذا باب من أبواب الله يقف به ليأتيه من ذلك الباب رحمة ونفحة على حسب مراده ، وليكن قصده الله تعالى دون ما سواه ويعظمه تعظيما يرى فيه رضاء الله عنه لأنه تعالى ينوب عن وليه إذا فقد ويُغْني به إذا شهد .

واعلم أن التشبه يكون في الزي والخلق والعمل ، فالتشبه بهم في الزي جائز لدفع المضرة وغيرها لقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ ولبس الخرقة للتمييز من ذلك وللدخول في القوم بالتشبه لكن شرط هذا اجتناب الكبائر وصغائر الخسة ، ثم المتشبه والمستند جزاؤه أن يحَب ويحتَرم فيوضع له القبول في الخلق والحرمة في القلوب فلا يراه أحد إلا احترمه وعظّمه . انتهى

وقال الشيخ محمد مراد المنزلوي ﷺ عن شيخه في هامش « الرشحة » : قال قيوم الطريقة الأحمدية شمس الدين حبيب الله مرزا جانجانان ﷺ : إن لطافة النسبة المجددية ولا لَوْنيّتها«١» سبب لإنكار الناس عليها ولذلك إذا وصل سير السالك إلى الكمالات يحصل لي شك وتردد أنه هل ترك الطريقة وانقطع عن السير والسلوك ، فإن وَفَّى العمر أوصل السالكين إن شاء الله تعالى من المقامات السافلة إلى المقامات العالية . اهـ ٦٩ .

« ١ » أي كونها بلا لون

فصل

فى بيان المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة والمعرفة بالله والحقيقة

اعلم أيها الأمين جعلك الله تعالى في زمرة الصالحين أن المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة مقامات عاليات لا يصل إليها إلا من وفقه الله تعالى ببذل جهده في رعاية حقوق الاستقامة ، لما أنها مواهب من الله تعالى ينزلها في قلوب من اختاره من خواص عباده ، ولا ينالها إلا من أتى الله بالقلب السليم والفهم المستقيم ، وقلّ أهلها في زماننا هذا إلا النادر لخفاء الأولياء عن أمثالنا ضعفة اليقين ، وأنها وإن كانت مرادها واحدة لكنها متفرقة .

فالمحاضرة كما قال شيخنا ﷺ في « جامع الأصول » ٣٢٢ : حضور القلب ، وقد يكون بتواتر البرهان ، والمكاشفة حضور بنعت البيان لا بالنظر إلى الدليل .

وأما المشاهدة وهي حضور الحق من غير بقاء تهمة ، فإذا صحت سماء الحقيقة عن غيوم الستر أشرقت شمس المشاهدة في بروج المقابلة

وقال الجنيد ﷺ : حقيقة المشاهدة وجود الحق مع فقدانك ، والمشاهدة هي رؤية الحق في كل ذرة من ذرات الوجود مع التنزيه عما لا يليق بعظمته « كتاب شيخ أرسلان »

فصاحب المحاضرة يهديه قلبه وصاحب المكاشفة يدنيه علمه وصاحب المشاهدة يفنيه سره .

وقيل : إن المشاهدة إدراك الغيوب بأنوار الأسرار عند صفاء القلوب من الأدناس والأقذار وخلوصها من الأضداد والأغيار في مراقبة الجبار ، فيصير كأنه ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق من صفاء المعرفة وقوة اليقين .

ولهذا قالوا : إن المشاهدة تتولد من المراقبة ولم يزد أحد في بيان حقيقة المشاهدة على ما قاله عمرو بن عثمان المكي رحمه الله ومعنى ما قاله أنه تتوالى أنوار التجلي على قلب العارف من غير أن يتخللها ستر وانقطاع كما لو قدرنا اتصال البروق فكما أن الليلة الظلماء يتوالي البروق فيها واتصالها إذا قدرت تصير في ضوء النهار فكذلك القلب إذا دام به دوام التجلي متّع نهاره فلا ليل .

وأنشدواْ :

لَيْلي بِوَجْهِـــكَ مُشْـــرِقٌ	وَظلامُه في النَّاسِ ساري
فالناس في سُدَف[1] الظلام	ونحن في ضوء النهارِ

وتوهم قوم أن في المشاهدة تفرقة من حيث أنها مفاعلة وهو وَهم ، لأن كل أبواب المفاعلة لا تقتضي ذلك ، فهو كمسافر وشارق وصادق ورابط وداوم وطارق ولاذب ونظائره كثيرة هكذا ذكره في « جامع الأصول » وراجع « سهلي » في ٩٥ .

وقال الشاذلي رضي الله عنه : حقيقة المشاهدة اطلاع القلوب على ما أخبر الله من الغيوب .

وقال بعض الأكابر : **سبحان من لم يجعل للخلق إليه سبيلا إلا بالعجز عن معرفته** . ومعناه أن المراد من العجز عن المعرفة أن يظهر للسالك سر قولهم لا يعرف اللهَ إلا اللهُ ، يعني أن يعرف السالك أن المعرفة ليست من مقتضيات التركيب الإنساني وما ظهر فيه من المعرفة ليس منه بل هو مرآة له انعكست فيه الصور العلمية الإلهية ومثل هذا العجز لا ينافي معرفة الإنسان ، وزعم البعض أن العجز عن المعرفة جهل وذلك باطل . « رشحة » ١٨٩ .

وقال الشبلي رضي الله عنه : من عرف الله تعالى لا يكون له غم أبدا .

« ١ » بضم السين وفتح الدال جمع سدفة وهي الظلمة . من حاشية زكريا الأنصاري على « رسالة القشيري » .

وقيل : أوحى الله تعالى إلى داود ﷺ : يا داود إن محبتي في خلقي أن يكونوا روحانيين والروحانية عِلْمٌ هو أن لا يغتموا وأنا مصباح قلوبهم يا داود لا تمزج الهم قلبك فينقص ميراث حلاوة الروحانيين .

وأوحى أيضا إلى داود ﷺ : بي فافرحْ وبذكري فتنعم .

فباستنارة القلب بنور المعرفة واحتظائه بوجود العيان والرؤية يخرج منه الهم ويحل محل الروحانية ، على أن في وجود الهموم والأحزان لمن لم يبلغ هذا المقام إذا لم يقدر على دفعها عن نفسه فوائد جزيلة لا ينبغي أن تستحقر ، من قِبَل أنها موجبة لخمود النفس وصفاء القلب وزوال الأشر والبطر والفرح بالدنيا ، ثم هي كفارات إن كانت في الأمور الدنيوية ودرجات إن كانت في الأمور الأخروية ، والهم متعلق بما يكون في المستقبل والحزن متعلق بما كان في الماضي . « الحكم » ٤٢

واعلم أن خرق حجب الأسماء والصفات والشؤون والاعتبارات من حضرة الذات تعالت وتقدّست على قسمين : خرق باعتبار الشهود وخرق باعتبار الوجود ، فالخرق الوجودي ممتنع والخرق الشهودي ممكن بل واقع وإن كان نصيب أقل قليل وأخصّ خواص وما ورد في الخبر من قوله عليه الصلاة والسلام : « إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة لو كشفت لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »

فالمراد من هذا الكشف والخرق الوجودي الممتنع ، وما كتب في بعض الرسائل من خرق جميع الحجب من حضرة الذات تعالت وتقدست فالمراد منه الخرق الشهودي ، كما أن الحق سبحانه يكرم شخصا ببصيرة يرى بها الأشياء من وراء الحجب والأستار ، وخرق الحجب والأستار هنا باعتبار الشهود وما كتب في بعض المواضع من جواز خرق الحجاب ليس بمنافٍ لخبر عدم جواز خرق الحجب فإن ذلك الخرق غير هذا الخرق فلا تكن من الممترين قاله الإمام الرباني قدس سره الرحماني .

وقال شاه شجاع الكرماني ﷺ : من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعمر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنة لم يخطئ له فراسته . « نفحات » ١٣٨ .

وكان أبو العباس المرسي ﷺ يقول : لا تنظروا إلى حمرة وجهي فإنها من حمرة قلبي ، وأثنى عليه شيخه الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ وأوصى بالأخذ عنه ، فمن ثنائه عليه قوله للناس : عليكم بالشيخ أبي العباس فوالله إنه ليأتيه البدوي يبول على ساقيه فلا يمشي إلا وقد أوصله إلى الله تعالى . « تقريب » ٦١ ، وراجع « تنوير الصدر » في ١٦١ وفي ٦٤ ، وراجع « ترصيع الجواهر » في ٢٣ .

وقال في الحكم العطائية : الحقائق ترد في حال التجلي مجملة وبعد الوعي يكون البيان فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه : حقائق العلوم اللدنية التي يقذفها الحق تعالى في أسرار العارفين عند براءتهم من الدعوى وتحررهم من رق الأشياء وتعرضهم بسيرهم إلى نفحات الحق باللجاء والافتقار لما يفتح عليهم المولى ، يكرمهم الحق تعالى بها تحقيقا لوعده لهم من غير تعلم ولا دراسة ، وعند ورودها عليهم وتجليها لهم تكون مجملة لا تتبين لهم معانيها ولا يدركون جهات حقيقتها ، فإذا وعوها وتصرفت فيها أذهانهم بالاعتبار والتأمل تبين لهم معناها وظهر لهم موافقتها لما بأيديهم من العلوم العقلية والنقلية من غير مخالفة ، فهي علوم وأسرار ذوقية ومنح إلهية ترد على الأرواح لا تنال بمعتاد الطلب .

قال الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه وأصحاب الحقائق يجري بحكم التصرف عليهم شيء لا علم لهم به ععلى التفصيل وبعد ذلك يكشف لهم وجهه فربما يجري على لسانهم شيء لا يدرون وجههم ثم بعد فراغهم عن النطق به يظهر لقلوبهم برهان ما قالوه من شواهد العلم إذ تحقيق ذلك بجريان الحال في ثاني الوقت . انتهى كلام الإمام أبي القاسم وهو موافق لما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى . والله تعالى أعلم .

وكأنهما أشارا بذلك إلى المسألة المتعارفة بينهم من موافقة الحقيقة للشريعة وقد عبروا عن ذلك بعبارات ، فقد سئل عبد الله بن طاهر الأبهري رضي الله عنه عن الحقيقة فقال : الحقيقة كلها علم ، فسئل عن العلم فقال : العلم كله حقيقة ص « ١٠٨ » .

قال الشبلي ﷺ : الألسنة ثلاثة : لسان علم ولسان حقيقة ولسان حق ، فلسان العلم ما تأدى إلينا بالوسائط ، ولسان الحقيقة ما أوصله الله تعالى إلى الأسرار بلا واسطة ، ولسان الحق ليس إليه طريق .

و قال رويم ﷺ : الحقائق ما قارن العلم ، وقال أبوبكر الدقاق : كنت في تيه بني إسرائيل فوقع في قلبي أن علم الحقيقة بخلاف علم الشريعة ، فإذا شخص تحت شجرة أم غيلان صاح بي وقال : يا أبا بكر ! كل حقيقة تخالف الشريعة فهي كفر . انتهى « الحكم » ٣٩ .

فصل

في بيان معنى الجمع والتفرقة بالاستقلال

وقد رمزنا إليهما في مواضع ونفصل هنا إن شاء الله تعالى

اعلم أيها المتحلي بصفات الكمال أن الجمع والتفرقة من خصائص هذه الطريقة وإن كانت معرفتهما ضرورية في غيرها لكن في هذه آكد اهتماما ، وفي حقهما للقوم كلامٌ كثير ونذكر إن شاء الله تعالى ما لا بد منها على سبيل الاختصار

اعلم أن الجمع في اصطلاح القوم هو الاستغراق في شهود عظمة الله تعالى وصفات جماله وجلاله ، والفرق شهود الخلق .

فإذا ورد على العارف بالله تعالى حالة الجمع فني عن نفسه وغيره من أبناء جنسه واستغرق بربه وذهب فيه بالكلية فلا خاطر هنالك يخطر ولا موجود يظهر إلا الموجود الحق جلّ وعلا ، وإلى هذا الجمع الإشارة بقوله عليه الصلاة و السلام : « لي وقت لا يسعني فيه إلا ربي » .

ثم إن دوام وارد الجمع عزيزٌ جدا وعند دوامه تظهر أمور عجيبة وشؤون غريبة ، والكامل من يجمع بين الحق والخلق فيكون مع الخلق بظاهره ومع الحق بباطنه وقلبه ، وذلك رتبة الأنبياء والصديقين والأولياء الكاملين كما قيل :

كُنْ باطِناً نَحْوَ المُنى وَبِظاهِرٍ كَالأَجْنَبِيّ

ولا شيء أعون للعبد على موصله إلى الله تعالى مثل الإكثار من ذكر الله تعالى وامتثال أمره واجتناب نهيه مع إظهار الذل والافتقار والتبرّي من حول العبد وقوته والرجوع إلى حول الله وقوته ورؤية الفضل والمنة لله تعالى . انتهى

وقال الشيخ أبو بكر الواسطي ﷾ : إن كنت قائما بغيرك فأنت فانٍ بلا جمع ولا تفرقة ، قال : الجمع هنا كناية عن رؤية التوفيق في العمل والتفرقة عبارة عن أداء وظائف العبودية بوصف نفسه .

وقال : من عرف مضمون هذا الكلام وأدركه بذوقه فقد تخلص ونجى عن تفرقة الأغيار .

وقال بعض الأكابر في معنى الجمع وجمع الجمع : إن الجمع ما له عليه وما لك عليك وجمع الجمع ما لك وما له عليه .

وقال : وما قاله مولانا الرومي ﷾ في « المثنوي » :

وَنَحْنُ في دارِ الغرور يا أُخَي   كَالألِفِ الخالِيَةِ عَنْ كُلِّ شَيْ

هذا هو المقام يعني مرتبة جمع الجمع .

وقال بعض العارفين : إذا تجلى الله تعالى للعبد بذاته يجد جميع ذوات الموجودات وصفاتهم وأفعالهم متلاشيةً في أشِعّة ذاته تعالى وصفاته وأفعاله ، ويجد نفسه بالنسبة إلى جميع الموجودات كأنه مدبرها ويجدها بالنسبة إليه كالأعضاء إلى البدن ، ولا يكون شيء من الموجودات قريبا إلى بعض آخر منها إلا أنه يراه أقرب إليه من الكل ، ويرى ذاته وذات الحق سبحانه وتعالى وصفاته وصفات الحق وأفعاله مع أفعال الحق متحدة لكونه مستهلكا في عين التوحيد والاستهلاك فيه مستلزم لأن يجد ما نسب إلى الحق سبحانه منسوبا إلى نفسه .

وليس للعارفين مقام في التوحيد أعلى من هذه المرتبة فإذا انجذبت البصيرة بمشاهدة جمال الذات يختفي نور العقل الفارق بين الأشياء والمميز بين الواجب والممكن بغلبة نور الذات القديم ويرتفع التمييز بين الحادث والقديم لكون الباطل لا شيء محضا غير ظاهر عند ظهور الحق ، ويقال لتلك الحالة عند هذه الطائفة جمعًا . ذكره الشيخ عبيد الله أحرار ﷾ في « الرشحات » .

وهذا الذي قطع حلقوم العارف لعدم إدراك العوام غاية حقائق العارفين وجهلهم أسرار الحقائق الموهبة لهم ، والله على كل شيء قدير .

وذكر العلامة إسماعيل حقي ﷺ في « روح البيان » ما عبارته هذه : قيل : أصل الجمع والتفرقة قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، فهنا جمع ثم فرق ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ ، جمع ثم فرق بقوله : ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾

والجمع أصل والتفرقة فرع ، فكل جمع بلا تفرقة زندقة وكل تفرقة بلا جمع تعطيل ، وقد أشرنا إليه .

وقال الجنيد ﷺ : القرب بالوجد جمع وغيبته بالبشر تفرقة .

وقيل : جمعهم في المعرفة وفرقهم في الأحوال والجمع اتصال لا يشاهد صاحبه إلا الحق ، فمتى شاهد غير الحق فما جمع ، والتفرقة شهود لمن شاهد بالمباينة .

وعباراتهم في ذلك كثيرة والمقصود أنهم أشاروا بالجمع إلى تجريد التوحيد وأشاروا بالتفرقة إلى الاكتساب ، فعلى هذا لا جمع إلا بتفرقة ، ويقولون « فلان في عين الجمع » يعنون استيلاء مراقبة الحق على باطنه ، فإذا عاد إلى شيء من أعماله عاد إلى التفرقة ، فصحة الجمع بالتفرقة وصحة التفرقة بالجمع ، وهذا رجع حاصله إلى أن الجمع من العلم بالله والتفرقة من العلم بأمر الله ، ولا بد منهما جميعا .

قال المزني ﷺ : الجمع عين الفناء بالله والتفرقة العبودية متصل بعضها ببعض ، وقد غلط قوم وادعوا أنهم في عين الجمع وأشاروا إلى صرف التوحيد وعطلوا الاكتساب فتزندقوا ، وإنما الحكم حكم الروح والتفرقة حكم القالب ، وما دام هذا التركيب باقيا فلا بد من الجمع والتفرقة .

قال الواسطي ﷺ : إذا نظرت إلى نفسك فرقت ، وإذا نظرت إلى ربك جمعت ، وإذا كنت قائما بغيرك فأنت فان بلا جمع ولا تفرقة .

وقيل : جمعهم بذاته وفرقهم في صفاته ، وقد يريدون بالجمع والتفرقة أنه إذا أثبت لنفسه كسبا أو نظر إلى أعماله فهو في التفرقة ، وإذا أثبت الأشياء بالحق فهو في الجمع .

ومجموع الإشارات ينبئ أن الكون يفرق والمكوّن يجمع ، فمن أفرد المكون جمع ومن نظر إلى الكون فرق ، فالتفرقة عبودية والجمع توحيد ، وإذا أثبت طاعته نظرا إلى كسبه فرق وإذا أثبتها بالله جمع ، وإذا تحقق بالفناء فهو جمع الجمع ، ويمكن أن يقال رؤية الأفعال تفرقة ورؤية الصفات جمع ورؤية الذات جمع الجمع .

سئل بعضهم عن موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام في وقت الكلام فقال : أفنى موسى عن موسى فلم يكن لموسى خبر عن موسى « عوارف المعارف » للسهروردي ١٥٤ .

وقال شيخ شيخنا قدس الله أسرارهما : وأما الجمع والتفرقة فقال الشيخ أبو علي ﷺ : الفرق ما نسب إليك والجمع ما سلب عنك ، ومعناه أن ما يكون كسبا للعبد من إقامة وظائف العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق ، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع ، ولا بد للعبد منهما فإن من لا تفرقة له لا عبودية له ومن لا جمع له لا معرفة له ، فقول العبد ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ إشارة إلى التفرقة بإثبات العبودية ، وقوله ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ إشارة إلى الجمع .

وإذا خاطب العبد ربّه بلسان نجواه إما سائلا أو داعيا أو مثنيا أو شاكرا أو متنصّلا أو متبهلا قام في مقام التفرقة ، وإذا أصْغى بسره إلى ما يناجيه به مولاه واستمع بقلبه ما ناداه به وعرفه إياه أو لَوَّحَ لقلبه وأراه فهو في مقام الجمع .

وأنشد قوّال بين يدي أبو سهل الصّعلوكي ﷺ هذا المصراع :

جَعَلْتُ تَنَزُّهي نَظَري إلَيْكا . . . .

وكان أبو القاسم النصرباذي ﷺ حاضرا ، فقال أبو سهل ﷺ : جعلتَ بفتح التاء ، وقال النصرأباذي : بل بضمّها ، فقال له أبو سهل : أليس عين الجمع أتم ؟ ! فوافقه النصرباذي .

وهذا ظاهر ، لأن معناه مع الفتح الله تعالى خصص عبده بذلك ومنحه من فضله وكرمه لا صنع فيه للعبد ، ومعناه مع الضم إثبات فعل العبد ، فكان الأول جمعا والثاني تفرقة فإن ما يرجع إلى إرادة العبد وحاله يسمى تفرقة وما يرجع إلى إرادة الحق يسمى جمعا .

فالجمع إثبات الحق للعبد بشواهد الحقيقة في نفسه لبقاء التفرقة بين المريد والمراد بحقائق المشاهدة ، فالتفرقة بداية الإرادة والجمع نهايتها ومن لا مشاهدة له فلا جمع له .

وجمع الجمع مقام آخر أتم من الجمع ، فإن الجمع شهود الأشياء بالله والتبري من الحول والقوة إلاّ بالله ، وجمع الجمع الاستهلاك بالكلية والفناء عما سوى الله فلا يحس بشيء سواه عند غلبة سلطان الحقيقة ، وبعد ذلك مقام عزيز يسمونه الفرق الثاني وهو أن يرد إلى الصحو عند أداء الفرائض في أوقاتها فيكون رجوعًا لله بالله تعالي لا للعبد بالعبد .

وقال بعض المحققين : المراد بلفظ الجمع والتفرقة أن الله تعالى جمع الخلق كلهم في الأزل وخاطبهم بقوله : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ثم فرقهم بالسعادة والشقاوة والتقريب والإبعاد والإكرام والإهانة وأشباه ذلك ، فقال هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي وقال فريق في الجنة وفريق في السعير .

وللجنيد ﷺ في معنى الجمع والتفرقة :

وتَحَقَّقْتُكَ في سِرِّي فناجاكَ لِساني ... فَاجْتَمَعْنا لِمَعانٍ وَافْتَرَقْنا لِمعــان

إنْ يَكُنْ غَيَّبَكَ التَّعظيمُ عَن لَحْظِ عياني ... فَلَقَدْ صَيَّرَكَ الوَجْدُ مِنَ الأحشآءِ داني

انتهى . « جامع الأصول »

وقال الشيخ العارف أحمد بن علان ﷺ : إن مقام الجمع مقام عظيم وصاحبه لا يشهد فيه إلاّ الحق ويفنى بالحق عن الخلق حتى يفنى عن نفسه ، وأكمل منه أن يرجع إلى الفرق بعد الجمع وهذا مقام البقاء وأهل التمكين والإرشاد ومقام الأنبياء ووارثيهم ، ولهذا قال الجنيد ﷺ لما سئل ما النهاية قال : الرجوع إلى البداية ، وإلى هذا المعنى أشار أبو يزيد البسطامي ﷺ أيضا : خضتُ بحرا وقف الأنبياء على ساحله ، يعني وصلت لجّة البحر ولم أصِل إلى كمال الأنبياء البالغين إلى الفرق بعد الجمع ، فمقصوده بذلك ﷺ إنحطاط رتبته عن رتبتهم ، خلاف ما يفهمه العوام من عبارته وهذا هو اللائق بحال أبي يزيد ﷺ .

وما قاله بعض العارفين شعرا :

لَوْ عايَنَتْ عَيْناكَ يَـــومَ تَزَلْزَلَـتْ ... أرْضُ الـنّـفـوسِ وَدُكَّتْ الجِبالُ
لَرَأيْتَ شَمْسَ الحَقِّ يَسْطُعُ نورُها ... يَوْمَ الـتَّـزَلْـزُلِ والـرِّجالُ رِجـالُ

فهو مقام الجمع الذي أشرناه . انتهى

وقال ﷺ في شرح ابن بنت ميلق :

يَـرْوي وَيَظْـمَأُ لا يَنْفَـكُّ شارِبُـهُ ... يَصْحو وَيَسْكَرُ وَالمَحْبوبُ يَسْقيهِ

أي تارة يسكر السالك بالشراب الذي شربه فيظهر عليه أوصاف أهل السكر من الشطحات وغيرها من حركات أهل الجذبات وتارة يرجع إلى صحوه وكماله وفرقه بعد جمعه ، وهو شأن أهل الكمال ، فالكامل من لا يحجبه فرقه عن جمعه ولا جمعه عن فرقه ولا سكره عن صحوه ولا صحوه عن سكره ، فظاهره للفرق وباطنه للجمع ، قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ : كان لي صاحب كثيرا ما يأتيني بالتوحيد فقلت له : إن أردت التي لا لائمة فيها فليكن الفرق بلسانك موجودا والجمع بقلبك مشهودا .

وقال الباز الأشهب الشيخ أرسلان الدمشقي قدس سره : وإذا كنت أيها السالك معه سبحانه وتعالى حجبك عنك ، وإذا كنت معك استعبدك له أي جعلك عبدا له ، وقال العارف عبد الغني النابلسي قدس سره في شرحه قوله (استعبدك له) : أي ولا يتركك معك في حقيقته العلمية لأنها تعطيل لمقام العبودية فأنت حينئذ عبد صرف لربّ صرف وهو مقام محمدي شريف ، قال تعالى : ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ ، ولله در القائل :

لا تَدْعُني إلاّ بـِ : يـا عَبْدَهُ فَإنَّـهُ أَشْـرَفُ أَسْـمائـي

ويمكن أن يقول في معنى هذا الكلام كله : إذا كنت معه بأن كنت ناظرا إليه مشتغلا به تعالى عن نفسك حجبك عن نفسك فلا تجد نفسك ويبقى هو تعالى ولا أنت وهو مقام الجمع ، وإذا كنت معك أي مع نفسك لا معه تعالى بل أنت معرضا عنه تعالى مشتغلا بنفسك عن الاشتغال به تعالى وهو مقام الفرق استعبدك أي جعلك عبدا له تعالى وأتعبك بأنواع التكاليف الشاقة .

وقال العارف ابن بنت ميلق رضي الله عنه :

لَهُ لَدى الجَمْعِ فَرْقٌ يَسْتَضيءُ بِهِ كَالجَمْعِ في فَرْقِـهِ ما زالَ يُلْقيـهِ

أي للسالك المذكور عند كماله وتمكنه فرق عند جمعه يستضيء به وجمع في فرقه ولا يزال يلقيه ويبديه أي يصير السالك في كماله حاويا للجمع والفرق ، فلا فرقه يحجبه عن جمعه ولا جمعه يحجبه عن فرقه ، فهو مع الحق في الباطن وهو جمعه ومع الخلق في الظاهر وهو فرقه . فشهود الأشياء كلها من الله تعالى إيجاد جمع وشهودها من الخلق استناد فرق على لسان العارف موجود والجمع بقلبه مشهود كما أشرنا إليه آنفا .

وما أحسن ما قال بعضهم في هذا المعنى :

ومِنْ داخِلٍ كُنْ صاحِباً غَيْر غافِلٍ ومِنْ خارجٍ خالِطْ كَبَعْضِ الأجانِبِ

فصل

في بيان معنى الشهود والوصول وما فيها من الأسرار

اعلم أيها الفائز بالتجافي عن الغرور أن طريق وصول السالك إلى مطلوبه هذه ، وذلك أن الذاكر إذا فني بالفناء الكلي عند ذكره في المذكور وخرج عن التعلقات الكونية بحيث انمحت عنه شائبة الأنانية يعبر عنه بالوصول وهو المقصود من جميع المجاهدات والرياضات وتحمل المشقات بتهذيب النفس .

فمتى حصل للمريد الصادق هذا الكمال المعبر يفوز السالك بالوجود المعنوي الذي هو من المواهب الإلهية ، وبهذه الموهبة التي هي الوجود المعنوي يستعد للمشاهدة التي يتنافس فيها الأوّلون والآخرون ويعبر أيضا بالوصول ، وليس هذا الوصول كالوصول الذي هو القربة من وصول عالم المحسوس لما أن الحق سبحانه وتعالى منزه عن جميع التعلقات الإمكانية وشوائب الحدوث ، بل المراد من هذا الوصول المقصود الاستغراق والتوجه الكلي إليه سبحانه وتعالى بفنائه عن جميع ما سواه حتى عن نفسه بغيبته عن الوجود ، وهذا الفناء الحقيقي هو الوصول والمشاهدة ، وليس المراد كما قال أهل الإلحاد بتصور الحلول والاتحاد لما أن الممكن الحقيقي الحسي والشرعي والعقلي غير حقيقة واجب الوجود ، لما أنه سبحانه وتعالى على خلاف ما تصوره العقل وتخيله الوهم .

والسالك الواصل إلى هذه المرتبة فانٍ في غيبته ومعدوم عن وجوده والمعدوم في نفسه لا يحكم عليه بشيء ، وكبار المشائخ إذا عبروا بالاتحاد فمرادهم القربة والموافقة بكمال الرضاء عنه سبحانه وتعالى ، مثلا إذا قيل أن فلانا متحد مع فلان فالمراد موافقة بعضهم بعضا وعدم المخالفة بينهما وليس المراد وجود الذاتين ذاتا واحدا وهو محال ، فحاصل المراد عند مشائخ الطريقة عن المحو والفناء والمعدوم أن السالك بكمال توجهه إليه سبحانه وتعالى يستغرق في بحر الوحدة بأنوار التجليات فينعدم نفسه بذهوله وغيبته

عن الوجود النفساني بفنائه عن جملة الإدراكات باضمحلال ما سواه تعالى حتى بنسيان نفسه بتمام توجهه وبركة إعراضه عن كل ما سواه .

مثلا أن ناظر المشرق يذهل عن المغرب وبالعكس كالغريق الذي يتعلق لكل شيء ولا يكون له هم سوى الخلاص من الغرق وكالعاشق الفاني في معشوقه لا يدري سواه لذهوله في معشوقه ، كالنسوة اللاتي قطعن أيديهن حين رأين يوسف عليه السلام فبشدة فنائهن في محبة يوسف عليه السلام لم يعلمن قطع أيديهن لشدة تفكرهن في وصالهن إليه ولم يُبقِ عندهن خبراً مما قلن من قبل ولا مما بعد من العتاب .

وإلى هذه الحالة يعبر السادات بالمحو والفناء والعدم ، فمتى وصل السالك إلى هذه الدولة السنية فيفوز بالسعادة الكبرى التي هي كيمياء السعادة وينال أسنى المطالب ويمكن له الدخول من أي باب شاء شرفنا الله تعالى وإياكم بها ومتعنا وإياكم بدوامها آمين .

فصل

في بيان فضيلة الذكر وأفضلية الذكر الخفي وبيان الفرق بين الذكر والتذكر

اعلم أيها الولد المأمون وفقك الله تعالى للتقوى أن الذكر أفضل القربات وأعظم المثوبات ، فكم آيات وأحاديث في حق فضلها وتفضيل ذاكرها .

وذكر الله أمر معتنى به وكونه من أفضل العبادات وأشرف القربات ثابتة بالنص والإجماع ويكفيك قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ ، ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ ، ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ، وأمثالها من البينات والأحاديث الصحيحات .

قال علي كرم الله وجهه : يا رسول الله دلني على أقرب الطرق إلى الله تعالى وأفضل الأعمال عنده ، قال ﷺ : « عليك بمداومة ذكر الله تعالى سرا وجهرا » .

فليس عمل أكرم عند الله تعالى من ذكره لأنه تعالى جليس من ذكره كما قال تعالى في الحديث القدسي : « أنا جليس من ذكرني » ، وليس عمل يكفي العبد عن سائر الأعمال إلا ذكر الله تعالى .

قال رسول الله ﷺ : « من ذكر الله فقد أطاعه وإن لم يصلّ ولم يصم » ، عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : بلى يارسول الله ! قال : « ذكر الله تعالى » .

قال ابن مالك رحمه الله : المراد الذكر القلبي فإنه هو المنزلة الزائدة من بذل الأموال والأنفس لأنه عمل نفسي ، وفعل القلب الذي هو أشق من عمل الجوارح أعلى وأولى بل هو الجهاد الأكبر ، لا الذكر اللساني أي باللسان الذي اشتمل على صياح وانزعاج وشدة تحريك العنق واعوجاج ، كما يفعله بعض

الناس زاعمين أن ذلك جالب الحضور وموجب للسرور ، حاشا لله ، بل سبب الغيبة والغرور . انتهى

ولا شك أن الذكر يطلق على الجنانيّ وعلى اللساني وأن المدار على القلب الذي ينقلب بسبب ذلك المذكور من الغيبة إلى الحضور ، وإنما اللفظي وسيلة ولحصول الوصول وصلة .

واختلف المشائخ في أيهما أفضل بالنسبة إلى المبتدئ وإن كان ينتهي المنتهي أيضا إلى الذكر القلبي ، وأما الأمور البدعية والأغراض الدنيوية فخارجة عن الأنواع الذكرية ، ولا ريب أن الجمع بينهما أكمل وفي تحصيل المثوبة أفضل ، والظاهر أنه المراد هنا لأن المجاهد المذكور والمقاتل المشكور لا يخلو عن الذكر القلبي ، اللهم إلاّ أن يقال المراد أن ذكره القلبي الذي هو الجهاد الباطني أفضل من مضاربته التي هي الجهاد الظاهري فيكون الحديث نظير قوله ﷺ : « لو أن رجلا في حجره دراهم يقسمها وآخر يذكر كان الذاكر لله أفضل »[1] كما رواه الطبراني عن أبي موسى ، فاندفع ما تحير به ابن حجر حيث قال : كون الذكر الشامل للقرآن خيراً من بقية الأعمال اللسانية ومن إنفاق المال وبذل النفوس مشكلٌ ، إذ قضية كلام أئمتنا العكس . انتهى

ولدفع هذا الإشكال وما يترتب عليه من المقال قال شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام رحمه الله في « قواعده » : هذا الحديث لا يدل على أن الثواب على قدر النصب في جميع العبادات بل قد يأجر الله تعالى على قليل الأعمال أكثر مما يأجر على كثيرها ، فإذا الثواب يترتب على تفاوت الرتب في الشرف انتهى وهو القول الحق .

وأما قول ابن حجر رحمه الله أنه جرى على الأخذ بظاهر الحديث مع قطع النظر عن مقتضى كلام الأئمة فهو تقليد مطلق .

« ١ » الحديث كما روي في السنن : « لو أن رجلا في حجره دراهم يقسمها وآخر يذكر الله كان الذاكر لله أفضل » .

ثم أغرب وقال : الإنفاق يقطع داء البخل وبذل النفس يقطع داء الجبن وإدمان الذكر لا يقطع شيئاً من هذين الداءين اللذين لا أخبث منهما بل لا يجدي إلا حدَّ المقصود . انتهى

وهو مبني على غفلته عن معنى الذكر وحقيقته ! فإنه لا يرتفع جميع العلل الظاهرة والباطنة إلا بالذكر المؤثر في القلب الذي هو سلطان الأعضاء ، ومنه بذل الأموال والأنفس وغيرها ، وبدونه إنما هو خسارة مال وضياع نفس لا فائدة فيهما حيث لا تقرب بهما .

ولهذا قال الشارح : ولعل الخيرية والأرفعية في الذكر لأجل أن سائر العبادات من إنفاق الذهب والفضة ومن ملاقاة العدو والمقاتلة معهم إنما هي وسائل ووسائط يتقرب العباد بها إلى الله تعالى ، والذكر إنما هو المقصود الأسنى والمطلوب الأعلى ، وناهيك عن فضيلة الذكر قوله تعالى : ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ و « **أنا جليس من ذكرني** » ، و« أنا معه إذا ذكرني » الحديث ، وغير ذلك .

ولذا قال الغزالي رحمه الله بعد ما دخل في مقام الذكر : ضيعت قطعة من العمر في « الوجيز » و « الوسيط » و « البسيط » ، بل يعدّ العارفون الغفلة من أنواع الردة ولو خطرة ، على سبيل المبالغة ، كما قال :

وَلَـوْ خَـطَـرَتْ لي في سِواكَ إرادَةٌ عَلى خاطِري سَهْوًا حَكَمْتُ بِرِدَّتي

ثم لا ارتياب أن أفضل الذكر قول (**لا إله إلا الله**) ، وهي القاعدة التي بني عليها أركان الدين ، وهي الكلمة العليا والقطب الذي يدور عليها رحى الإسلام ، وهي الشعبة التي كانت أعلى شعب الإيمان

قال الطيبي رحمه الله : بل هو الكل وليس غيره : ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ أي الوحي مقصور على استيثار الله تعالى بالوحدانية لأن المقصود الأعظم من الوحي هو التوحيد وسائر التكاليف متفرع عليه .

ثم قال : ولأمر ما تجد العارفين وأرباب القلوب واليقين يستأثرونها على سائر الأذكار لما رأَوا فيها من خواص ليس الطريق إلى معرفتها إلا الوجدان والذوق . انتهى

ومما يوضح لك ذلك أن السيد علي بن ميمون المغربي ﷺ لماّ تصرف في الشيخ علوان الحموي ﷺ وهو كان مفتيا مدرسا ، فنهاه عن الكل وأشغله بالذكر ، فطعن الجهال فيه بأنه أضل شيخ الإسلام ومنعه من نفع الأنام ، ثم بلغ السيد أنه يقرأ القرآن أحيانا فمنعه منه ، فقال الناس : إنه زنديق يمنع من تلاوة القرآن الذي هو قطب الإيمان وغوث الإيقان ، لكن طاوعه المريد إلى أن حصل له المزيد وانجلت مرآة قلبه وحصل له مشاهدة ربه ، فأذن في قرآءة القرآن ، فلما فتح المصحف فتح عليه الفتوحات الأزلية والأبدية وظهر له كنوز المعارف والعوارف الظاهرية والباطنية ، فقال السيد : أنا ما كنت أمنعك من القرآن ، وإنما كنت أمنعك من اللقلقة والغفلة عما فيه من البيان في هذا الشأن والله المستعان ، رواه« ١ » مالك وأحمد والترمذي وابن ماجه . انتهى كلام « المرقاة » .

ورأس مال الجنة ذكر الله تعالى بحضور القلب ورأس مال النار الغفلة كما قال تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ ، والغفلة : إهانة شيء الواجب تعظيمه ، فهي من أمارات الكفر ، والذكر الحقيقي المذكور في الآيات والأحاديث لا يخلو عن حلاوة وطمأنينة ، فإن لم تكن تلك الحلاوة فيه فذلك ذكر اللسان فقط الذي هي من دأب الغافلين ، اللهم اجعلنا من الذاكرين .

وقال الشبلي ﷺ : رأيت رجلا يقول : **الله الله** ، فوقع ميتا ، فانشق صدره فرأيت مكتوبا على كبده **الله الله** ، وسمعت قائلا يقول : يا شبلي هذا من المحبين قليل« ٢ » .

« ١ » أي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضل الذكر وهو متقدّم في كلام المرقاة : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها وأنقاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخيرلكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم . . » .
« ٢ » أي هذا الحال قليل بين المحبين .

فقلما وقع المرء على الذكر إلا وقد وصل ولا سيما بالذكر القلبي الذي هو شهود وزلفى وحضور وقربى ، وهو ذكر حقيقي يبدل الغيبة بالحضور ويفني الذاكر في المذكور ، لكن مع هذا لا بد أن يكون الذكر بتلقين الشيخ الكامل الذي عرف أسرار الأذكار وخواصها بتلقين شيخ آخر وهو كذلك إلى رسول الله ﷺ حتى يثمر في الذكر شهود المذكور ، لأن الله تعالى أجرى عادته في كشف أسرار أسمائه أن يكون بتلقين الرسول ﷺ ثم بتلقين خلفائه الذين تلقنوا تلك الأذكار كابرا عن كابر عن رسول الله ﷺ .

ولو أن ذاكرا يذكر جميع الأذكار في جميع الليل والنهار بنفسه من غير تلقين الشيخ فلا يبلغ مبلغ الرجال ولا يصل إلى مرتبة الكمال التي هي مرتبة المرشد الواصل ، وأقل ما يحصل للذاكر إذا تلقن الذكر عن الشيخ الكامل ودخل في سلسلته أن يحرك حلقة الذكر ويجاذبه أرواح المشائخ إلى رسول الله ﷺ ، ومن لم يتلقن الذكر منهم ولم يدخل في سلسلتهم لا يجاذبه أحد منهم ولا يحرك حلقتهم الذكر طول عمره كما قاله محمد مراد قدس سره ، كذا في « سلسلة الخواجكان » ، ونذكر كيفية التلقين في فصل الشغل الخ .

وعن ثوبان رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ . . الخ« ١ » ، كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فقال بعض أصحابه : نزل في الذهب والفضة ما نزل فلو أنا علمنا أي المال خير اتخذناه ؟ فقال « أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة مؤمنة »

والقلب إذا سلم من آفاته شكر الله تعالى فسرى ذلك على لسانه فحمد الله تعالى وأثنى عليه . وظاهر كلام الطيبي رحمه الله أن القلب مقدم على اللسان في نسخه فبني عليه ما ذكره وإلا فيقال إذا ذكر الله بلسانه سرى ذلك إلى جنانه فشكر على إحسانه فقدر الله تعالى له مؤمنة تعينه على

« ١ » الآية هي : ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ .

إيمانه ، وهذا طريق المريدين ومسلك أكثر السالكين ، والذي ذكره الطيبي ﷺ طريق المرادين المجذوبين ، قال تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ . « مشكاة »

اعلم أن الهِجِّير هو الذي يلازمه العبد من الذكر[1] كان ما كان ، ولكل ذكر نتيجة لا يكون لذكر آخر ، وإذا عرض الإنسان على نفسه الأذكار الإلهية فلا تقبل منها إلا ما يعطيه استعداده ، فأول فتح له في الذكر قبوله له ، ثم لا يزال يواظب عليه مع الأنفاس فلا يخرج منه نفس في يقظة ولا في نوم إلا به لاستهتاره فيه ، وبعض ما يُنْتجه[2] لا إله إلا الله من العلم الإلهي له ست وثلاثون وجها يعطي كل وجه ما لا يعطيه الوجه الآخر .

بيت :

كُنْ مِنَ القَوم حَيْثُ كانوا وَلا تَكُنْ دونَهُمْ فَتَشْقى
فَهُمْ عِبادُ الإلهِ صِدْقاً رَقَوا مِنَ العِلْمِ كُلَّ مَرقى

قال بعض كبراء العارفين رحمهم الله تعالى : ومن الأولياء الذاكرون الله كثيرا والذاكرات رضي الله تعالى عنهم تولاهم الله تعالى بإلهام الذكر ليذكروه فيذكرهم ، وهذا يتعلق بالاسم (**الآخِر**) فإنه تعالى قال : ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[3]

فكل مقام إلهي يتأخر عن مقام كوني فهو من الاسم (**الآخر**) ، إن الشيخ علي بن سهل قُدِّسَ سِرُّهُ سأل الشيخ عمرو بن عثمان المكي قُدِّسَ سِرُّهُ : ما قانون الذكر في الجملة ؟ فقال : وجود إفراده مع معرفة أوصافه . « نفحات » ١٣٧ .

وذكر في « رشحات عين الحياة » أنه كتب الخواجه محمد فارسا قُدِّسَ سِرُّهُ أن حقيقة الذكر عبارة عن تجلي الحق سبحانه لذاته بذاته في عين العبد

« ١ » الهِجّير هو الكثرة من الذكر دائما ، و متى لم يكن حال الذاكر على هذا فليس هو بصاحب هِجِّير « الفتوحات المكية » لابن العربي قُدِّسَ سِرُّهُ .

« ٢ » في الأصل يتّجه .

« ٣ » فأخّر ذكره إياهم عن ذكرهم إياه وقال : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي . . فالأمر يتردد بين الاسمين الأول والآخر . « الفتوحات المكية » لابن العربي قُدِّسَ سِرُّهُ .

من حيثية اسمه (المتكلم) ، وقال : لا يتيسر هذا المقام من غير أن يشتغل الطالب بالذكر مدة مديدة حتى يحصل في قلبه دوام الحضور ، فإن كرَّ في ميدان الاجتهاد ثانيا وسلب هذه النسبة عن نفسه فهو عناية له من الحق سبحانه ثم أنشد هذا البيت :

حَمَلْتَ كَمَـرءٍ طالِبِ الثأرِ مَـرَّة   فَجُزْتَ بِها عِلماً إلى عَيْنِ مَعْلومِ

رشحة ١٨٩

وقال أبو العباس الدينوري ﷺ : أدنى الذكر أن تنسى ما دونه ، ونهاية الذكر أن يغيب الذاكر ويستغرق بمذكوره عن الرجوع إلى مقام الذكر ، وهذا حال فناء الفناء[١] . « نفحات » ١٩٤

وقال العارف ابن بنت ميلق ﷺ :

لِلْقَومِ سِرٌّ مَعَ المَحْبوبِ لَيْسَ لَهُ   حَدٌّ وَلَيْسَ سِوى المَحْبوبِ يُحْصيـهِ

قال ﷺ : « لي وقت مع الله لا يسعني . . . » إلى آخر الحديث .

وهذا حكم ورثته لهم مع الله سر لا يصل مخلوق إليه حتى الملك ، وهذا هو الذكر الخفي الذي لا يشعر به ملك ، وذلك عند تشرفهم بتجلي الذات ، فإنه عند ذلك تذهب العبارات وتمحى الإشارات ويكل اللسان ويبهت الجنان ، وهذا أمر لا يسعه إلا الإيمان حتى تلمع لامعة من مقام الإحسان .

وإذا لَمْ تَرَ الهلال فَسَلِّمْ   لِأُناسٍ رَأوه بِالأبْصـارِ

وانظر إلى قوله في الحديث القدسي : « ما وسعني أرضي . . » إلى آخر الحديث[٢] فقلب وسع الحق كيف يمكن أن يعبر عما فيه ، وأن ذلك الوسع مما لم تفهمه العقول وإنما يقبله الإيمان ثم الإحسان . انتهى كلام أحمد بن علان ﷺ .

« ١ » وهو عالم البقاء وهذا عالم الأنبياء وكبار الأولياء وفناء الفناء بقاء كما أن نفي النفي إثبات « مفتاح المعية » عبد الغني النابلسي ﷺ .

« ٢ » الحديث هو : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « لَمْ تَسَعْنِي سَمَائِي وَلا أَرْضِي ، وَوَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ اللَّيِّنِ الْوَادِعِ » .

فـالذكر أعلى المقامات كلها ، والذاكر هو الرجل الذي له الدرجة على غيره من أهل المقامات والفقير على الحقيقة من افتقر إلى الأغنياء من المخلوقين ولم يحجبه المظهر عن صفة الحق سبحانه .

وهكذا كل صفة علوية لا تنبغي إلا لله ﷻ يكون مظهرها في المخلوقين ، فإن العلماء بالله تعالى يذلون تحت سلطانها ، فإذا رأيت عارفا يزعم أنه عارف وتراه يتعزز على أبناء الدنيا لما يرى فيه من العزة والجبروت ؛ فاعلم أنه غير عارف ولا صاحب ذوق ، وهذا لا يصح إلا للذاكرين الله كثيرا والذاكرات أي في كل حال ، هذا معنى الكثير .

قـال الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله تعالي في « قوت القلوب » : زِنْ أعمالك وأقوالك في كل طرفة عين بالموازين الثلاثة : وهي ميزان لِمَ وكيف ولمن ، وسل نفسك أولا عن النية وثانيا عن العلم وثالثا عن الإخلاص ، فإذا أجابتك وعلمت أن العمل لله ﷻ فأمضه وإلا فانته عنه ، ولا يمكن الاطلاع على هذه الموازين إلا بمراقبة دائمة مع وجود صحة القلب ، ولا يمكن المراقبة وحصول الصحة للقلب إلا بمداومة الذكر القوي الخفي بشرط النفي والإثبات ، ولا يمكن المداومة على الذكر إلا بتجريد الظاهر عن الدنيا ، ولا يمكن تجريد الظاهر عن الدنيا إلا بكثرة ذكر الموت ، وأرجو من الله تعالى الرؤوف الرحيم أن يختصَّ« ١ » برحمته الواسعة وفضله العميم أن يرزقنا الفقر المحمود الذي يثمر الاستغناء من غير الحق ﷻ ليرشد الخلق إلى طريق الحق للحق بالحق وما ذلك على الله بعزيز .

وإن الذكر المعنعن عند المشائخ النقشبندية المجددية قدس الله تعالى أسرارهم العلية سبعة أوراد :

الورد الأول لطيفة القلب ، **والورد الثاني** في ذكر اللطائف الأخر ، **والورد الثالث** ذكر النفي والإثبات ، **والورد الرابع** المراقبات ، **والورد الخامس** تعليم الحقائق الإلهية ، **والورد السادس** تعليم الحقائق الأنبيائية ، **والورد السابع** التهليل اللساني .

« ١ » لعله يختصّنا ويرزقنا

وجميع هذه الأوراد في هذه الأرجوزة كل واحدة بفصل مخصوص مختصر وقد وضعته على اصطلاح سادات هذه الطريقة وعسى الله أن يجعلنا في زمرتهم والله ذو الفضل العظيم .

والذكر المخصوص في هذه النسبة العلية الصديقية للمريد الصادق والمتفق عليه سادات الطريقة هو **الذكر الخفي القلبي** ، وكتب السادات مشحونة بذلك ومتفقة إلا بعض الدجالين الذين ليس لهم شائبة من المشيخة إلا مجرد الاسم لجلب حطام هذه الفانية .

ولنذكر جميع ما يتعلق بهم إن شاء الله تعالى في مواضعها وما يجب عليهم أي على السالكين من الأذكار .

وأوصى سيدنا الأمير كلال ﷺ في مرض موته لجميع أصحابه باتباع الخواجه نقشبند رحمه الله تعالى وجعلنا في بركاتهم فقالوا له : إن الخواجه نقشبند لا يذكر بذكر الجهر فكيف نتبعه ؟ فقال : إن كل ما أعطاه الله تعالى له فيه حكمة فلا تخالفوه انتهى .

وقد ورد : « في الأخفى أنا » وفيه تصريح بفضل الذكر القلبي ، وقد ورد أيضا : « من أحبني قتلته ومن قتلته فأنا ديته » كما في « المرقاة » ، وما ورد : « من خدمني فله الجنة ومن خدم أوليائي فله أنا » .

فانظر أيها الرشيد : في ذلك الحديث مرتبة من خدم الأولياء بالمحبة الإلهية ، ففيها إشارة بل صراحة إلى التجلي الذاتي الذي هو نصيب المشرب المحمدي .

قال الأشرف ﷺ : الذكر نوعان قلبي ولساني والأول أعلاهما وهو المراد في الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يذكر الله في جميع الأحيان ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ ، وهو أي الذكر الكثير أن لا ينسى الله تعالى في كل حال وفي كل زمان ، وكان للنبي ﷺ حظ وافر من كلا النوعين إلا في حالة الجنابة ودخول

الخلاء فإنه كان يقتصر فيهما على النوع الذي لا أثر فيه للجنابة ، ولذلك كان يقول إذا خرج من الخلاء : « غفرانك . . الخ » رواه مسلم .

وقد أخرج أبو يعلى عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « لفضل الذكر الخفي الذي لا تسمعه الحفظة يزيد على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين ضعفا » .

وورد أيضا : « إذا كان يوم القيامة وجمع الخلائق للحساب وجاءت الحفظة بما حفظوا وكتبوا قال الله تعالى لهم : انظروا هل بقي له من عمله شيء ، فيقولون : ما تركنا شيئا مما علمناه وحفظناه إلا وقد كتبناه وأحصيناه فيقول الله تعالى لذلك العبد : عندي حسناتك التي لا تعلمها وأنا أجزيك بها وهي الذكر الخفي » كذا ذكره السيوطي رحمه الله تعالي .

وهذه الأحاديث حجة للسادات النقشبندية زبدة القادات الصوفية قدس الله أسرارهم في كون ذكرهم بالسر .

فقول ابن حجر : فالحق أن الأعلى ما جمع القلب واللسان ثم اللساني ثم القلبي – مبني على غفلة« ١ » انتهى كما في « المرقاة » .

وقال الإمام الغزالي رحمه الله في « أصول الأربعين » : وإنما مبدأه – أي الذكر– الذكر باللسان ثم بالقلب تكلفا وتخلقا ثم بالقلب طبعا وذوقا ثم استلاء المذكور جل جلاله وانمحاء الذكر ، وهذا سر قوله عليه الصلاة والسلام : « من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله تعالى » ، بل سر قوله عليه الصلاة والسلام : « يفضل الذكر الخفي الذي لا تسمعه الحفظة على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين ضعفا » .

« ١ »أي قوله هذا مبناه غفلةٌ ، لأنه إذا أراد بالذكر مطلق الذكر سواء أمره الشارع به أم لا فيرد ما ذكرناه ولإجماع علماء الظاهر والباطن على أن الحضور القلبي أفضل من مجرد الذكر اللساني « مرقاة المصابيح » .

فعلم أن كل ذكر يشعر به قلبك فإنه تسمعه الحفظة فإن شعورهم يقارن شعورك ، حتى إذا غبت في ذكرك عن شعورك بذهابك في المذكور بالكلية يغيب ذكرك أيضا عن شعور الحفظة كما غبت عنه ، وما دام القلب يشعر بالذكر ويلتفت إليه فهو معرض عن الله تعالى غير منفك عن شرك خفي حتى يصير مستغرقا في المذكور الحق جل جلاله ، فذلك هو التوحيد الحقيقي ، وكذا القول في المعرفة ، فمن طلب المعرفة للمعرفة فقد قال بالثاني ، ومن وجدها فكأنه لا يجدها بل يجد المعروف بها ، وهو الذي استمكن في حقيقة الوصال وحلّ بحبوحة حظيرة القدس . انتهى

وقال الشيخ عبيد الله أحرار قدس سره : قال شيخنا شيخ خادم في قوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ : إن طائفة من الناس يحصلون من الذكر قساوة القلب وذلك أنهم يذكرون الله سبحانه وتعالى من غير رعاية الأدب وعلى غير الحضور بل على الغفلة والفتور بمقتضى نفوسهم الخبيثة وطبائعهم الخسيسة ، ولعل (من) في قوله تعالى ﴿مِّن ذِكْرِ﴾ إشارة إلى أمثال هذا الذكر وإن فسر المفسرون (مِنْ) بـ (عَنْ) وقالوا : معناه غفل عن ذكر الله . انتهى

ويؤيد ذلك ما ورد في الحديث القدسي : « يا موسى قل لعصاة أمتك لا يذكروني ، فإن ذكروني . . . الخ أذكرهم باللعنة » .

وقال الشاذلي قدس سره : إذا ثقل الذكر على لسانك وكثر اللغو من مقالك وانبسطت الجوارح في شهواتك وانسد باب الفكر عن مصالحك ، فاعلم أن ذلك من عظم أوزارك أو لكون النفاق في قلبك ، وليس لك طريق إلا التوبة و الإصلاح والاعتصام بالله والإخلاص في دين الله ، ألم تسمع قوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقل من المؤمنين ، فتأمل هذا الأمر وابك وافزع إن كنت صادقا . « جامع » ١٣٣

وقال أيضا : هن ثلاثة : فرّغ لسانك للذكر وقلبك للشكر وبدنك لمتابعة الأمر فأنت إذا من الصالحين . « جامع الاصول » في ١١٦

وقال مولانا شمس الدين حبيب الله مرزاجانجانان ﷾ : إن الاشتغال بالطريقة إنما هو لحصول المحبة الإلهية ، ويكون فرط المحبة أحيانا من المواهب ، ولكن المداومة على الذكر من فرائض طريق أوليآء الله تعالى .

فينبغي الإكثار من الذكر بترك جميع مرادات النفس فإن القلب لا ينجلي من غير ذكر كثير ، فإن ظهرت غيبوبة أو كيفية أخرى في أثناء الذكر ينبغي أن يجتهد في حفظها ، فإن اختفت ينبغي أن يجتهد في الذكر ثانيا بتمام التضرع وقد ذكرنا حقيقة الذكر في فصله فراجعه .

ثم اعلم أيها الأعز طالب الحق أن التزام اللازمِ الملزومَ موصلٌ إليه ، وقد نطق في بيانه أبو العباس أحمد زروق رحمه الله تعَالى ، فمن ثم فضل الذكر غيره إذا ما أردت أن يلزمك فالزم ملزوميته« ١ » .

وقد قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ ولا أعظم من هذه الكرامة وجعل لكلٍّ حدا ووقتا إلا ذكره تعالي إذ قال : ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ و﴿قِيَامًا وَقُعُودًا ﴾ و ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ ، وقال رجل : يا رسول الله كثرت علي شعائر الإسلام فدلني على عمل أدرك به ما فاتني ، قال : « لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله تعالى » ، ولأبي سعيد عند« ٢ » ابن حبان : « اذكر الله حتى يقولوا مجنون » .

والذكر منشور الولاية فمن أعطي الذكر فقد أعطي المنشور ، قال شيخنا أبو العباس الحضرمي ﵁ : وعليك بدوام الذكر وكثرة الصلاة على رسول الله ﷺ ، وهي سلّم ومعراج وسلوك إلى الله تعالى إذا لم يلق الطالب شيخا مرشدا ، فقد سمع« ٣ » بعض العارفين بالحرم الشريف رجلا من الصالحين روى لي ذلك عن بعض أهل الصدق مع الله تعالى وكلاهما معروفان رأيتهما والله أعلم .

« ١ » اللازم ما يمتنع انفكاكه عن الشيء ، والملازمة هي كون الشيء مقتضيا للآخر ، أي كلما ثبت تصور الملزوم ثبت تصور اللازم فيه كوجود النهار لطلوع الشمس فإن طلوع الشمس ملزوم ووجود النهار لازم « التعريفات » للجرجاني . واللازم هنا ذكر الله تعالى للعبد والملزوم ذكر العبد لله تعالى فمن أراد لزوم اللازم فليلزم ملزومه .

« ٢ » وفي هامش نسخة « أ » : استعمال عند في مثله طريق معروف عند المحدثين . فراجعه .

« ٣ » الكلام من « قواعد التصوف » بهذه العبارة : سمعت في ست وأربعين وثمانمائة بالحرم الشريف ، رجلا من الصالحين روى لي ذلك عن بعض أهل الصدق مع الله تعالى وكلاهما معروفان رأيتهما والله سبحانه اعلم .

قال العارف بالله سيدي أبو العباس أحمد ابن إدريس ﵁ : قال الله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ فقال : اذكروا الله تعالى وأتى باسمه الصريح ليكون أشد تشويقا لذكره ، قال الشاعر :

فَبُحْ باسمِ مَنْ أهْوى وَدَعْني منَ الكُنى فَلا خَيْرَ في اللَّذاتِ مِنْ دونِها سِتْرُ

ثم أطلقه في كل وقت ولم يقيد بوقت من الأوقات ، ثم قال : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ فقيده بالبكرة والأصيل ، وذلك لأن الذكر في كل حالة هو المراقبة ، فإذا ذكرت الله تعالى على كل حال بقلبك ولسانك وتجنبت ما نهيت عنه وامتثلت ما أمرت به كان ذكرا مطلقا .

وأيضا لأنك مفتقر إليه في جميع الحركات والسكنات والأنفاس والخطرات ، فما طرفة عين إلا وأنت مفتقر إليه فيها والتسبيح هو تنزيه الحق جل وعلا ، فنزهه عن أن تكون البكرة في حقه بكرة أو يكون الأصيل في حقه أصيلا ، وكذلك شرع في السجود والركوع وعند القيام من المجلس ، ففي كلها تسبحه أي تنزهه عن أن يكون متصفا بهذه الأفعال .

وقال أيضا قدوة العارفين مربي السالكين العارف بالله أبو العباس أحمد المشهور بابن زروق ﵁ في « قواعده » : إعطاء الحكم في العموم لا يقضي بجريانه للخصوص فاحتيج له في الخاص لدليل يخصه حتى يتخصص به ، ومن ذلك الجهر بالذكر والدعاء والجمع فيهما ولهما ، فأما الذكر فدليله « من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » قيل ومن أدلته : ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾

وقال ابن عباس ﵄ : ما كنت أعرف انصراف الناس من الصلاة على عهد رسول الله ﷺ إلا بالذكر . رواه البخاري .

والجهر في ذكر العبد في أدبار الصلوات وبالثغور وفي الأسفار حتى قال عليه الصلاة و السلام : « اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبا . . » .

وقد جهر عليه الصلاة والسلام بأذكار وأدعية في مواطن جمة وكذا السلف ، وصح قوله جوابا لأهل الخندق : « اللهم لا خير إلا خير الآخرة فاغفر للأنصار والمُهاجِرة » ، وكل هذه دالة على الجهر والجمع ، لكن في قضايا خاصة يكون وجودها مستندا لا دليلا ، لاحتمال قصرها على ما وقعت فيه وكونها مقصودة لغيرها لا لذاتها .

فلزم تمهيد أصل آخر وإثبات الحكم لقضية خاصة لا يجري في عموم نوعها لاحتمال قصره على ما وقع فيه ، سيما عند من يقول الأصل المنع حتى يأتي المبيح ، والجمع للذكر والدعاء والتلاوة أخص من الجمع بينهما لكونه مقصودا بخلاف الأول فإنه أعم من ذلك ، فلزم طلب دليل يخصه .

وأما الجمع للذكر ففي المتفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ : « إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون حلق الذكر » الحديث ، وفي آخره : « يسألهم ربهم ما يقول عبادي ؟ فيقولون : يسبحونك ويحمدونك ويكبرونك ويهللونك ويمجدونك » الحديث ، وهو صريح في ندب الجمع لعين الذكر للترغيب في سياقه ، وما وقع في آخره من أن فيهم من ليس منهم فيقول تعالى : « هم القوم لا يشقى جليسهم » فأخذ منه جواز قصد الاجتماع لعين الذكر بوجه لا يسوغ تأويله لحديث : « ما جلس قوم مسلمون مجلسا يذكرون الله تعالى فيه إلا حفت بهم الملائكة وتنزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده » والذكر يُؤَوَّل بالعلم مرة وبذكر الآلآء أخرى وحمل على ظاهره أيضا فسقط التمسك به في أعيان الأذكار لدلالته على ما تأول به لاحتماله .

فإن قيل : يجتمعون وكل على ذكره ، فالجواب : إن كان سرا فجدواه غير ظاهرة وإن جهرا فكل على ذكره فلا يخفى ما فيه من إساءة الأدب بالتخليط بشرطه ، نعم وتأويل التسبيح والتحميد والتمجيد بالتذاكر في التوحيد من أبعد البعيد فتأويله غير مقبول لبعده عن الأفكار حتى لا يخطر إلا بالإخطار وذلك من مقاصد الشرع بعيد جدا ، فافهم .

وأما الدعاء بالجمع له فقد جاء في حديث حبيب بن مَسْلَمة الفهري ﷺ وكان مجاب الدعوة وقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يجتمع ملأ فيدعو بعضهم ويؤمن بعضهم إلا استجاب الله لهم دعاءهم » رواه الحاكم وقال على شرط مسلم ، وذكره شيخنا أبو يزيد الثعالبي رحمه الله تعالى في « دلائل الخيرات » وأظنه نقله من « ترغيب المنذري » .

وحكى الشيخ أبو إسحاق الشاطبي ﷺ عمل عمر ﷺ به وإنكاره له وعدّه من البدع الإضافية التي تذم لما يَقْتَرِن بها لا لذاتها .

وأما التلاوة فصحح النووي وغيره : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يقرؤون القرآن ويتدارسونه إلا حفت بهم الملائكة »

الحديث كما في الذكر وأخذوا منه جواز قراءة الحزب الذي يقرأ في المساجد ، كل ذلك على أصل الشافعي ومذهبه ﷺ .

وأما مذهب مالك ﷺ فالكراهة لعدم عمل السلف ولسدّ ذريعة الابتداع بالزيادة على ذلك والخروج فيه لغير الحق وقد وقع ما اتّقاه ﷺ .

وقال ﷺ : وفضيلة الشيء غير أفضليته ، وحكم الوقت غير حكم الأصل ، فلا يلزم من الترغيب الأفضليةُ وإن ثبت الفضل ، ولا من الترك أو الفعل لعارض الوقت رفض حكم الأصل ، والجمع للدعاء والذكر والتلاوة فقد صح ندب كل ذلك بالأحاديث المتقدمة فلا يصح دفع أصل حكمه ، وإن أُوثر عليه غيرُه فلأفضلية الغير عليه ، كالذكر الخفي وما يتعدى من العبادات نفعه كالعلم والجهاد والتكسب على العيال إلى غير ذلك مما كان اعتناء الصحابة به وشغلهم فيه حتى شغلهم عن الاجتماع للذكر والفراغ له من غير ضميمة شيء من ذلك إليه ، ألا تراهم عند إمكانه مع ما هم فيه استعملوه كالأسفار والأعياد وأدبار الصلوات ونحو ذلك .

ولما جاء عليه الصلاة و السلام حلقة الذاكرين تجاوزها وجلس مع المتذاكرين في العلم فآثر المتذاكرين لتعدّي نفعهم ولاحتياجهم إليه فيما

هم به إذ لا علم لهم إلا من قِبَله فقصدهم ما جاء به ، بخلاف الذاكرين فإن ما هم فيه بيّن بنفسه ونفعُه قاصر عليهم لكنه لم ينكر على أولئك وإن آثر هؤلاء ، والله أعلم .

وقال العارف المذكور أيضا ﷺ : للزمان حكم يخصه بحيث يخصص مباحه بمنع أو كراهة أو وجوب ويرد مندوبه لمنع أو كراهة ، كل ذلك إذا كان كل منهما مؤديا لما يعطاه حكمه من دليل آخر يقتضيه ، والقول بمنع الجمع للذكر وكراهته في هذه الأزمنة من ذلك كمنع النساء من الخروج إلى المساجد ونحوه مما هو ممنوع لما عرض فيه وبه لا لذاته إذ أصل الشريعة إباحته أو ندبه .

وللناس في ذلك مذهبان : فمن يقول بسدّ الذرائع يمنع جميع الصور لصورة واحدة ، وهو مذهب مالك رحمه الله تعالى ، ومن لا يقول بها إنما يمنع ما يقع على الوجه الممنوع ، وهو مذهب الشافعي رضي الله عنه وغيره .

ولما تكلم سيدي أبو عبد الله بن عباد رحمه الله تعالى على مسألة الحزب قال : إنه من روائح الدين التي يتعين التمسك بها لذهاب حقائق الديانة في هذه الأزمنة وإن كان بدعة فهو مما اختلف فيه ، وغاية القول فيه الكراهة ، فصح العمل به على قول من يقول به .

قلت : وقد يلحق الذكر به في بعض الأماكن والأوقات بشرط ولعل الشارع إنما قصد بترغيبه من بعد الصدر الأول لاحتياجهم له . فأما قول ابن مسعود رضي الله عنه لقوم وجدهم يذكرون جماعة : لقد جئتم ببدعة ظلمًا ولقد فُقتم أصحاب محمد علما ، فالجواب عنه بأنه لم يبلغه حديث الترغيب فيها ، أو أنه أنكر الهيئة ونحوها ، وإلا فلا يصح إنكاره بهذا الوجه بعد صحة الحديث والله أعلم .

واعلم أن مراعاة الشروط في مشروطها لازم لمريدها وإلا لم يصح وجوده له وإن قامت صورته .

وشروط الذكر التي تتعين عند الجمع ثلاث :

أولها خلو الوقت عن واجب أومندوب متأكد يلزم من عمله الإخلال به ، كأن يسهر فينام عن الصلاة أو يتثاقل فيها أو يفرط في ورده أو يضر بأهله إلى غير ذلك .

الثاني خلوه عن محرم أومكروه يقترن به كاستماع النساء أو حضورهن أو حضور من يتقى من الأحداث أو قصد طعام لا قربة فيه أو فيه شبهة ولو قلّت أو فراش محرم كحرير وغيره أو ذكر مساوي الناس أو الاشتغال بالأراجيف إلى غير ذلك .

الثالث التزام أدب الذكر من كونه شرعيا أو في معناه بحيث يكون بما صح واتضح وذكره على وجه السكينة وإن مع قيام وقعود أخرى ، لا مع رقص وصياح ونحوه فإنه من فعل المجانين كما أشار إليه مالك رحمه الله تعالى لما سئل عنهم فقال : أمجانين هم ؟ ، وغاية كلامهم الاستقباح بوجه يكون المنع فيه أحرى فافهم . انتهى كلام العارف ﷺ . « قواعد » ٤٣ .

وحاصل ما استفدنا من ساداتنا في هذه الطريقة أن هذا الاجتماع بالذكرالجهري الذي في زماننا خاصة بين المتشيخين بتذكرهم الذكر بالصياح مع جمع الأغنياء في جهة والنساء والمردان في جهة ، وإخراج أصوات غليظة قصدا بزعمهم إيصال التأثير للمريدين وتزلزل المريدين وصياحتهم بالتصنع وسقوطهم كالمغشيين بالدّين **عن** عقولهم ، ليمدح الحاضرون أن الفلان ينجذب بشدة أثر شيخ كذا وكذا واستبشار بعضهم مع بعضٍ بذلك وسرور المتصنع بأقوالهم ومدح الشيخ المتشيخ منه ثم من نفسهٗ وتكدر طبيعة الشيخ ومريديه بحضور آخر عندهم من عالم أو عارف ثم وقوعهم على أعراض الناس مع تنسيب شيخهم إلى القطبانية مع كونه ممن لا يجوز عنده الجلوس ، كل هذه مكروهة بل حرام ثابت بالنص والحديث ، وقد عمت هذه الفتنة من أمثالهم في زماننا هذا ، قاتلهم الله أينما كانوا ، وذكرنا بعض أوصافهم في غير هذا .

فحاصل الأصل أن لا تجعل الأذكار والعبادات سببًا في الأغراض الدنيوية إجلالا لها كما عليه المتشيخون ، اللهم فقههم في الدين واجعلهم ممن يفقهون القول فيتبعون أحسنه آمين .

وسأل الإمام الرباني ﷼ النوراني الشيخ ميرمحمد نعمان وقال : ما سبب المنع من ذكر الجهر بعلة البدعة في هذه الطريقة العلية مع أنه مُورث للذوق والشوق ؟ ولم لا يمنع من أمور أخرى لم تكن في زمن النبي ﷺ مثل لبس الفرَجي والشال والسراويل ؟ فأجاب ﷼ وقال : أيها المخدوم إن فعله ﷺ على نوعين فعل على سبيل العبادة وفعل على طريق العرف والعادة ، فالفعل الذي صدر عنه على سبيل العبادة نعتقد خلافه بدعة منكرة ونبالغ في المنع عنه لكونه إحداثا في الدين وهو مردود ، والفعل الذي صدر عنه ﷺ على طريق العرف والعادة لا نعتقد خلافه بدعة منكرة ولا نبالغ في المنع لعدم تعلقه بالدين بل وجوده وعدمه مبنيان على العرف والعادة لا على الدين والملة ، فإنّ عرف بعض البلاد على خلاف عرف بلاد أخرى وكذلك يقع التفاوت في العرف في بلدة واحدة بحسب تفاوت الأزمنة ومع ذلك إذا روعيت السنة العادية تكون مثمرة للنتائج ومنتجة للسعادة ، ثبتنا الله تعالى وإياكم على متابعة سيد المرسلين .

وقال الشيخ عبيد الله الأحرار ﷼ : الحضور الذي يحصل للسالك في نهاية الذكر وغاية العبور عن مراتب الذكر ربما يحصل قبل الوصول إلى النهاية لكن لا يكون لهذا الحضور بقاء ، بل يزول سريعا بمقتضى بقية أحوال الطبيعة البشرية ، فإن تيسر العبور عن مراتب الذكر الذي هو عبارة عن مشاهدة بعض الأنوار ومكاشفة شيء من الأسرار تقعد تلك المراتب مقام الطبيعة كالأجسام اللطيفة فيتخلص السالك عن قيد الطبيعة البشرية وربط التفرقة .

وذكر في « البهجة السنية » للشيخ الخاني ﷼ : واعلم أن المقصود من الذكر حضور القلب مع المذكور لا حركة القلب وقت الذكر فإن الحركة ليست بشرط عندهم .

قال الإمام الرباني ﷻ في بعض مكاتيبه : إن أريد من ذكر القلب تحركه بالذكر فدوامه ليس بشرط لا في حالة الفناء ولا في غيرها ، والذي يطلب دوامه هو الحضور القلبي والتوجه إلى جناب الحق جل ذكره وجد التحرك أو لم يوجد . انتهى

وقال الخواجه محمد بارسا ﷻ : إن المداومة على الذكر تبلّغ مرتبة تتحد حقيقة الذكر مع جوهر القلب ، ويحتمل أن يكون معنى هذا الكلام أن حقيقة الذكر أمر منزه عن الحروف والأصوات ، وجوهر القلب عبارة عن لطيفة مدركة منزهة عن شائبة كم وكيف ، فيحصل الاتحاد لهذه اللطيفة بهذا الأمر المنزه عن الحروف والأصوات بواسطة كمال الاشتغال ويظهر وصف الوحدة والواحدية فلا يقدر الذاكر في هذا الحال أن يفرق و يميز بين جوهر القلب ، وحقيقة الذكر بسبب استيلاء المذكور وغلبته على مملكة القلب وارتباط القلب بالمذكور على وجه لم يبق فيه فكر غير المذكور ولا يسعه أصلا انتهى ما في « الرشحات » .

وقال الخواجه ﷻ لحضرة العزيزان ﷻ : طريقان في الذكر جهر وخفية واخترت الخفية لأنها أقوى وأولى .

وكان يقول ﷻ : إن الوقوف العددي أول مراتب العلم اللدني .

نقل رجل من أهل العلم والصلاح : إني قبل أن يلقنني حضرة الخواجه ﷻ الوقوف العددي بيّن سلسلته وأوصلها إلى حضرة الخواجه عبد الخالق و الشيخ يوسف الهمداني قدس الله تعالى أسرارهم وقال : إن يوما سأل حضرة الخواجه عبد الخالق الغجدواني الأستاذَ الإمام صدر الدين ﷻ وكان يقرأ عليه في التفسير وقد وصل إلى هذه الآية ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ هذه الخفية التي ذكرها الحق سبحانه وتعالى إن كان الذاكر يرفع صوته أو يحرك أعضاءه وقت الذكر يكون الغير مطلعا عليه ولا تبقى الخفية ، وإن ذكر بالقلب فالشيطان يجري في عروق ابن آدم مجرى الدم فيطلع عليه ، فقال الأستاذ : هذا علم لدني فإن يرد الله تعالى ييسر لك رجلا من أهل الله يعلمك ذلك ويحصل

لك من صحبته معرفة ما هنالك ، وكان حضرة الخواجه عبد الخالق ﷶ منتظرا لذلك حتى تشرف بحضرة الخضر ﵇ ولقنه الوقوف العددي وقد ذكرنا بيان ذلك في كتابنا هذا أيضا . راجع « جامع الأصول » ١١٨ .

وذكر الشيخ محمد مراد ﷶ في « تحفة الأحباب » ما عبارته : إن عبد الخالق الغجدواني ﷶ اجتمع مع الخضر ﵇ وتبنّاه الخضر وعلمه طريق الذكر الخفي وأمره بأن يغطس في الماء ويذكر بقلبه لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ففعل مثل ما أمر فحصلت له الجذبة القيومية ، ثم تسلسلت تلك الجذبة بالذكر الخفي في هذه الطريقة عند الخواجكان فهو كان أول من اشتغل بالذكر الخفي في هذه الطريقة فلذلك كان رئيس الطريقة في الذكر الخفي ، والذكر الخفي لقنه رسول الله ﷺ لأبي بكر صبيحة ليلة الغار بكلمة (لا إله إلا الله) بالقلب على الكيفية المعهودة وكان ذلك التلقين على وجه التثليث ، وقد خص النبي ﷺ الذكر الخفي بأبي بكر ﵁ من بين الصحابة وصب في صدره جميع المعارف الإلهية لكونه في المرتبة الصديقية التي هي أقرب المراتب إلى مرتبة النبوة ، فلذا قال عليه الصلاة والسلام : « ما صب الله في صدري شيئا إلا وصببته في صدر أبي بكر » ﵁ « تحفة » .

واعـــلم أيها المنصف المحق وفقك الله للشغل عن الشغل وجعلك من أهل الفضل أنا ذكرنا كلام السادات القادات هنا في حق الذكر الخفي والجهري وبسطنا الكلام وإن كانت فيها ما خرجت عن المقصود ، والآن نذكر لكم ما هو المعتمد الحقيق من الذكر في هذه الطريقة المجددية وإن أكثر اللوام فيها أقوالا ، ولازم على المنصف أن يتدبر في مشربه ممن أخذ هذه الطريقة وممن جاء وممن ابتدأ ثم أين ومتى وقع التغير وممن وقع وعلى أي صورة ، وهل القائلون بكون الذكر الخفي معتمدا في هذه الطريقة أمناء فحينئذ يمكن أن يقول الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال :

إن إمام الطريقة وغوث الخليقة بهاء الدين نقشبند محمد البخاري الأويسي ﷶ السامي كان موفقا من عند الله وآثار الولاية واضحة في وجهه

وأنوار الكرامة والهداية لائحة من جبينه في طفوليته ، وكان لحضرته نظر القبول للولدية من حضرة خواجه محمد بابا السماسي ﷺ حين كان طفلا ، وكان تعلمه لآداب الطريقة بحسب الصورة من الأمير كلال ﷺ كما أشرنا إليه عند ذكر محمد بابا السماسي ﷺ ، وأما بحسب الحقيقة فهو أويسي تربى من روحانية خواجه عبد الخالق الغجدواني ﷺ كما هو معلوم من واقعته التي رآها في مبادي أحواله وتفصيلها مذكورة في « المقامات » .

لا يخفى أن جمعا من مشائخ خواجكان ﷺ جمعوا بين الذكر الخفي وذكر العلانية وذلك من لدن خواجه محمود الإنجير الفغنوي إلى زمان الأمير كلال رحمهما الله تعالى ويقال لهم في هذه السلسلة الشريفة العلانيون .

ولما كان زمان ظهور حضرة الخواجه بهاء الدين ﷺ وكان مأمورا من روحانية الخواجه عبد الخالق الغجدواني ﷺ بالعمل بالعزيمة اختار ذكر الخفية واجتنب ذكر العلانية ، وكلما شرع أصحاب الأمير كلال ﷺ في الذكر الجهري كان حضرة الخواجه ﷺ يقوم عن هذا المجلس ويخرج ، وكان ذلك يثقل على خاطر سائر الأصحاب ، وكان حضرة الخواجه ﷺ لا يلتفت إليه ولا يتقيد برفع هذا الثقل عن خواطرهم ، ولكن كان لا يترك دقيقة من خدمة الأمير كلال ﷺ وملازمته ولا يخرج رأس التسليم والإرادة من ربقة متابعته .

وكان التفات الأمير كلال ﷺ إلى حضرة الخواجه ﷺ في الزيادة يوما فيوما ، فخاض بعض الأصحاب في طعن حضرة الخواجه ﷺ وعرضوا على الأمير بعض أحواله وصفاته في صورة القصور والنقصان فلم يردهم الأمير ﷺ بشيء في هذه النوبة حتى اجتمع الأصحاب كبارهم وصغارهم زهاء خمسمائة نفس في قرية سوخار لعمارة المسجد والرباط ومنازل أخرى .

فلما تم أمر العمارة اجتمع الأصحاب كلهم عند الأمير ﷺ فتوجه الأمير إلى الطاعنين في حضرة الخواجه وقال : إنكم أسأتم الظن في حق ولدي بهاء الدين ﷺ وأخطأتم في نسبة أحواله إلى القصور وأنتم لا تعرفون أمره ولا تقدرون قدره ، فإن نظر الحق سبحانه وتعالى شامل لحاله دائما ونظر خواص

عباد الله تابع لنظره سبحانه وتعالى وليس لي صنع واختيار في مزيد النظر في حقه ، وكان حضرة الخواجه ﷺ في ذلك الوقت مشغولا بنقل الآجر فطلبه الأمير ﷺ وتوجه إليه في هذا المجمع وقال : يا ولدي بهاء الدين إني قمت بموجب أمر محمد بابا في حقك حيث قال : كما أني بذلت جهدي في تربيتك كذلك لا تقصر أنت في تربية ولدي بهاء الدين ، ففعلت ما أمرت .

ثم أشار إلى صدره الشريف وقال : قد أفرغت ثدي العرفان لأجلك فتخلص طائر روحانيتك من بيضة البشرية ولكن باز همتك عالية الطيران فأجزتك الآن أن تطوف في البلدان ، فإذا وصل إلى مشامك رائحة المعارف من الترك والتاجيك فاطلبها منه ولا تقصر في أمر الطلب بموجب همتك .

قال حضرة الخواجه ﷺ : إن صدور هذا الكلام من حضرة الأمير ﷺ كان سببا لابتلائي فإني لو كنت في صورة المتابعة المعهودة للأمير لكنت أبعد من البلاء وأقرب إلى السلامة .

فصحب بعد ذلك مولانا عارفا ﷺ سبع سنين ثم وصل إلى ملازمة الشيخ قثم وخليل أتا ﷺ وصاحب خليل أتا إثنتي عشرة سنة وسافر إلى الحجاز مرتين وسافر معه الخواجه محمد فارسا ﷺ في المرة الثانية ولما وصلوا إلى خراسان أرسل الخواجه محمد فارسا ﷺ مع سائر أصحابه من طريق باورد إلى نيسابور وتوجه بنفسه إلى هِراة لملاقاة مولانا زين الدين أبي بكر التايبادي ﷺ وصاحبه ثلاثة أيام في تاياباد ، ثم توجه إلى الحجاز ولحق الأصحاب في نيسابور وأقام مدة في مرو بعد رجوعه من الحجاز ، ثم قدم بخارى فأقام بها إلى آخر عمره .

وتفصيل أحواله مذكورة في مقاماته ، ولما أشار الأمير كلال ﷺ في مرض موته إلى أصحابه بمتابعته قال الأصحاب : إنه لم يتابعك في ذكر العلانية فكيف نتابعه ؟ فقال الأمير ﷺ : كل عمل صدر منه فهو مبني على الحكمة الإلهية وليس له اختيار فيه . . الخ . هكذا ذكر في « رشحات عين الحياة » .

فانظر أيها الأخ وهل كان ما فعله بهاء الدين ﷺ خطأً أو كذباً أو جهلاً وهل هذه الطريقة وصلت إلينا بواسطته أم لا وهل كان خواجه بهاء الدين ﷺ أمينا في هذه أم لا ؟ فإن كان هذه حقا فما سبب خروجكم عن طريقته وما دليلكم للمخالفة له وكيف تنسبون طريقتكم إليه وتخالفونه ؟ وإن كنتم تخالفونه وتنسبونه إلى الجهل أو الكذب أو البطالة فأنتم معتزلون عن الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وقال الشيخ الأكبر محي الدين العربي ﷺ : وليكن ذكرك الاسم الجامع الذي هو : الله الله الله لا تتعدّ هذا الذكر حتى ينبعث الناطق من سرك ، فإذا أحسست بظهور الناطق فيك بالذكر فلا تترك حالك التى كنت عليها ، فإنها قوة عرضية إن أخللت بجمعيتك لم تلبث أن تزول سريعة . انتهى

وقال الشيخ عبيد الله أحرار ﷺ : إن الذكر بمثابة الفأس يقطع به شوك الخواطر من طريق القلب .

وقال أيضا : الأمر أن يكون السالك مستغرقا في الذكر على وجه لا يبقى له شوق في الجنة ولا خوف النار ويكون النوم والسهر عنده متساويين ، فكيف يدنو الشيطان من أطراف هذا الشخص العظيم الشأن .

ووقع لملك هرات حسين مع حضرة الخواجه بهاء الدين الأويسي رئيس السادات النقشبندية ﷺ مجلسٌ وكلامٌ كثير اكتفينا عن ذكره ، ففي مجلسه سألوا حضرة الخواجه ﷺ إن صفة الفقر موروثة لكم ؟ فقال حضرة الخواجه ﷺ : لا بل بحكم جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين وصلت إليّ جذبة وتشرفت بهذه السعادة ، فسأله الملك : إن طريقكم ذكر الجهر والخلوة والسماع ، فقال حضرة الخواجه ﷺ : لا يكون ذلك ، فقال له الملك : فطريقتكم ماذا ؟ قال حضرة الخواجه ونفسي فداء من روحه المقدس : اتباع كلام أتباع حضرة الخواجه عبد الخالق الغجدواني قدس الله أرواحهم ، وكان ذكره بالسر ملقنا من حضرة الخضر عليه السلام .

ومع هذا أن متشيخي زماننا يزعمون بأن الذكر في هذه الطريقة بالجهر بل يدعون ليس الذكر إلا الجهر ، فانظر أيها المنصف إلى إنصافهم يزعمون بأنهم من أتباع حضرة الخواجه بهاء الدين ﷺوخلفائه إلى شاه خالد إلى إسماعيل الكرديري ﷺ وكلهم على الذكر السري ولم يأذنوا لأحد من مريديهم بالجهر بل كلهم متفقون على اصطلاح واحد في جميع أمور الطريقة العلية النقشبندية قائلين إنهم على أسوة معدن الكرامات ومنبع الفيوضات حضرة الخواجه ﷺ .

وأما مشائخ زماننا فقد ابتدعوا أمورا وأدخلوا في هذه الطريقة مفاسد ، وأكثرهم يتشيخون بأنفسهم ويضلون الناس بأهوائهم فضلوا وأضلوا ، لا كثر الله أمثالهم وهداهم إلى الصراط المستقيم .

وقال شيخ مشائخنا شمس الدين حبيب الله مرزا جانجانان ﷺ : إن الاشتغال بالطريقة إنما هو لحصول المحبة الإلهية ، وحصوله يكون بكثرة الذكر والفكر ، وينبغي أن يجتهد في الذكر ثانيا بتمام التضرع وكمال الانكسار ، وليداوم السالك على الذكر بهذا الوجه حتى يحصل له دوام الكيفية والحضور .

وقال : إن الإيمان الإجمالي بأن يقول آمنت بالله ورسوله وما جاء به النبي ﷺ من عند الله وأحب ما يحبه الله ورسوله وأبغض ما يبغضه الله ورسوله كاف في النجاة ، وإثبات كل مقدمة بدليل إنما هو شأن العلماء المتبحرين وليس عامة المسلمين مكلفين بذلك .

وقال : إن تعظيم أولياء الله ومحبة عامة المشائخ الكرام لازم ومن اعتقد في شيخه أفضليته على غيره لانتفاعه به واستفادته منه لا يستبعد ذلك منه ، والفقير الراقم يقول بل حصول المنفعة إنما هو به لما أن تفريد الشيخ مما يستحسن لزومه ، كما ذكر في المطولات .

وقال بعض السادات : إذا كان الذكر ملكة على وجه يكون القلب حاضرا دائما ويكون الذاكر متلذذا به فهو من الأبرار ، ويمكن أن يقال له إنه حاضر

بالله ولا يطلق عليه واصل إلى الله فإن الواصل من ينتفي عنه إسناد الحضور إليه ويعتقد أن الحاضر إنما هو الحق بذاته .

وقال ﷺ : إن النهاية التي يصل إليها الأولياء ما لا تكون المشاهدة غائبة عنهم فيها فلئن غابت المشاهدة عنهم فإنما الغيب لغاية استغراقهم في الشاهد الحقيقي . انتهى

وقال الشيخ عبيد الله أحرار ﷺ في « الرشحات » في معنى (لا إله إلا الله) : قال بعض الأكابر : إن ذكر لا إله إلا الله ذكر عام وذكر الله ذكر خاص وذكر هو ذكر خاص الخاص مع أنه يمكن أن يكون في ذكر (**لا إله إلا الله**) ذكر خاص الخاص فإنه لا نهاية لتجليات الحق فلا يتصور التكرار في هذه الصورة أصلا بل يكون في كل آن نافيا لصفة ومثبتا لصفة فلا يتخلص من النفي والإثبات أبد الآبدين . « رشحة » .

قال في معنى (**لا إله إلا الله**) : إن لفظة الله اسم عند البعض للذات من حيث هي فيحتمل أن يكون المعنى لا إله : ليس إله عبارة عن مرتبة الألوهية يعني الذات مع الصفات بموجود[1] إلا الله يعني الذات البحت المعراة عن الكل ، ولا ينبغي أن يستبعد هذا المعنى فإنه لا شهود للسر غير الذات المقدسة في زمان خلو القلب عن الأغيار . وهذا المعنى يحصل للمبتدئين في سلسلة خواجه عبد الخالق الغجدواني ﷺ فَهِمَ من فَهِم ، ناديت غير مرة إن كان في الأحياء حي .

وقال في بيان هذا المعنى : إنه يحصل لمبتدئ طريقة خواجه بهاء الدين النقشبند ﷺ ذوق من غيب الهوية في أول الإقدام . « رشحة » .

قال في معنى قوله تعالى ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ﴾ : إن المراد كن متوجها إلى نفس الذات دون الصفات . اهـ

« ١ » في نسخة بموجب

وقال مولانا وشيخ شيخنا ﷻ : وأما الذكر فاعلم أن الله تعالى جعل للعبد أسبابا بعدد أنفاس الخلائق يصل بها إلى الحضرة الربانية ويعتكف بها في معتكف الحضرات الرحمانية ، وتلك الأسباب باطنة وظاهرة فالباطنة نحو مراقبة الحق واستحضار العبد في جميع أوقاته أو غالبها أنه بين يدي الله تعالى وأنه تعالى مطلع عليه وناظر إليه ومحيط بكل شيء في جميع الكائنات فيحمله ذلك على ترك المعصية وحفظ الباطن من الأخلاق الرذيلة والظاهرة كدوام الطاعات من الجمعة والجماعة والزكاة والصدقات وسائر الخيرات والعبادات خصوصا الأذكار .

واعلم أن أول صيغ الذكر لفظة الله عند النقشبندية مع ملاحظة المعنى وقول لا إله إلا الله عند الشاذلية وهما والاستغفار والصلاة عند سائر الطرق بحضور تام وأدب ، قال الله تعالى : « أنا جليس من ذكرني وأنا مع عبدي إذا ذكرني وتحركت بي شفتاه » ، ومعنى مجالسة الله تقريب رحمته وعنايته ومدده وفيضه وفتحه ونور أسمائه وصفاته من عبده بحيث إذا صدق في ذكره عمر قلبه بتلك الأسرار وملأه بهذه الأنوار .

ومعنى لفظة « الله » أي الله مقصودي أو مطلوبي أو محبوبي أو يا الله أنت مقصودي أو الله لا شريك له أو الله مقصودي أو هو موجود أو معبود أو أنت الله لا غيره أو لا غيرك .

والأصح عند النقشبندية لا تركيب له ، بل يقول (**الله**) ويلاحظ بحت الذكر بلا تركيب ولا معناه و ماله ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

ومعنى التوحيد : **أما للعموم** فنفي الألوهية عما سواه تعالى والإله عند أكثر المتكلمين المعبود بالحق ، وعند بعضهم المستغني عن كل ما سواه المفتقر إليه كل ما عداه ، فقولنا لا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا الله ، أو لا مستغني عن كل ما سواه مفتقراً إليه كل ما عداه إلا الله .

وأما للسالك فمعناه : لا معبود إلا الله للمبتدئ لأن مقتضاه العبادات إبتداء ، أو لا مقصود إلا الله للمتوسط لأن مقتضاه الطلب ، أو لا موجود إلا الله للمنتهي لأن مقتضاه الفناء لما سوى الله والبقاء لله .

واعلم أن لهذا المنتهي أربع حالات :

إما أن يكون في **توحيد الأفعال** فيكون المنفيّ بلا إله كل فاعل سوى الله تعالى .

أو في **توحيد الصفات** فيكون المنفي بها كل ما عداه

أو في **توحيد الذات** فيكون المنفيّ بها كل ما سواه

أو في **توحيد المجمل** باعتباره مفصلا فينفي عنه شهود الإجمال بشهود التفصيل . « جامع الأصول »١٥

وقال أيضاً فيه ١١٨ : واعلم أن اسم الجلالة والعظمة والهيبة ويقال اسم الذات هو لفظة **الله** ، وهذا الاسم الشريف موضوع للذات الإلهية باعتبار اتصافها بجميع صفات الألوهية وأسماء الربوبية والجلال والجمال والكمال ، وعند بعض العارفين هو اسم موضوع للذات البحت من حيث هي لا باعتبار الاتصاف بشيء لقوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴾ ، وبهذا الوضع كان أعلى من اسم **الأحد** ومن سائر الأسماء الإلهية من حيث الرتب .

وقيل مشتق وقيل لا ، وقيل عربي وقيل لا ، وقيل موضوع لمعين وقيل لا ، وقيل مستعمل بجميع الألسنة وقيل لا .

والأصح أنه اسم الذات وجميع الأسماء والصفات والكمال مندرجة تحته ، وهو الاسم الأعظم عند أبي حنيفة وعند العارفين من أهل الطريقة ، وأن لكل نبي من الأنبياء اسما مخصوصا تجلى الله عليه ، ولنبينا ﷺ هذا الاسم الشريف وبه تجلى الله عليه ، فلذا كانت رتبة هذا الاسم الشريف أعلى من رتب سائر الأسماء الإلهية .

وعند الشاذلية طريق النفي والإثبات ، وقد وضع إبراهيم المواهبي الشاذلي ﷺ في **لا إله إلا الله** رسالة وسماها « كتاب التفريد لضبط قواعد التوحيد » قال : في الجلوس للذكر التربع ونتيجته التمكن وسره دوام الوضوء ، هذا ظاهرا وأما باطنا فإشارة إلى التمكن بكمال اعتدال القابلية وإن أحب جلس كالمتشهد حيث لا ألم ، ثم يعتمد باليدين على الركبتين مع سدل الكمين ليتقوى على الحركة الجامعة للقلب للتشتت هذا ظاهرا ، وأما باطنا فالاعتماد بيد الصدق والإخلاص على حد مستند الكتاب والسنة لتجتمع فيك خصائص الخواص ثم غمض العيون استعانة على خلو الباطن من تطرق المحسوسات هذا ظاهرا ، وأما باطنا فتغميض عين الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى ، ثم الأخذ بـ **لا إله إلا الله** من الجانب الأيسر الذي هومشكاة فتيلة القلب النوراني المعنوي مارّا بها من أسفل الصدر إلى الجانب الأيمن ، ثمّ إلى أعلاه راجعا حتى تصل بها إلى المأخذ وهو المحيط ، والمأخذ ما تضمنته كلمة النفي ، والموضع ما تضمنته كلمة الإثبات ، والنفي مصحوبك في ذهابك من أسفل الصدر وفي إيابك من أعلاه راجعا إلى المأخذ فتفارقه بالإثبات .

وسرّ ذلك أنّ القلب برزخ بين العالم العلوي و السفلي ، ففي أخذك منه إلى أسفل الصدر إشارة إلى استيعاب العالم السفلي بـ لا إله ثم في عودك إليه من أعلى الصدر استيعاب بها للعالم العلوي نافيا عن السوى معنى إلا الله ، هذا سرّ النفي والإثبات .

فحاصل المهمات أنّ الاسم الجامع الذي هو الله ورد النقشبنديين وعليه مدارهم لكونه الجامع لجميع الأسماء والصفات ، وأما النفي والإثبات فهو ورد الشاذلية ، وقد انعكس أحوالهم لبعض الجهلة ويحدثون البدع في الطرائق ويضلون الناس بأهوائهم الباطلة ، قاتلهم الله تعالى أنّى يؤفكون . اهـ

وقال الإمام الرباني ﷺ في المكتوب الثالث عشر : عمِّروا أوقاتكم بالذكر الإلهي جل شأنه ولا يكون لكم شغل بأحد ، والتزموا ذكر النفي والإثبات وأخرجوا بتكرار هذه الكلمة الطيبة من ساحة الصدر جميع المرادات ، حتى

لا يكون المطلوب المقصود والمحبوب غير واحد ، فإن عجز القلب عن الذكر فقولوا باللسان بشرط الإخفاء فإن الجهر ممنوع في هذا الطريق ، وقد علمتم بقية طرز الطريقة وأوضاعها ، وإياكم والعدول عن طريق التقليد ما استطعتم فإنّ لتقليد شيخ الطريقة ثمرات وفي الخلاف لطريقه خطرات . اهـ في ١٤ .

وقال شيخ شيخنا ﷺ أيضا في « جامعه » في ١٢٢ : واعلم أن حقيقة تصفية القلب بطريق الذكر إنما هي بذكر اسم الذات وذكر النفي والإثبات ، وكيفيته في الطريقة المجددية أن يتلفظ الذاكر بلسان القلب لفظة الله لأنّ القلب كله لسان وكله سمع وكله بصر إذا تجرد عن القيود ، وذلك التلفظ إنما يكون بحيث لا يتحرك القلب الصنوبري لأنّ تلفظ القلب الحقيقي الروحاني لا يحرك القلب الصنوبري ، فإذا عسر على الذاكر التلفظ الروحاني باسم الذات فليذكره بالقلب الصنوبري بطريق العدد كذكره باللسان ، ففائدته مثل فائدة اللسان ، فإذا تمكن الذاكر في الذكر بالقلب الصنوبري يترقى بعد ذلك إلى الذكر بالقلب الحقيقي .

فالذكر الصنوبري يوصل إلى الذكر بالقلب الحقيقي والذكر بالقلب الحقيقي يوصل إلى مرتبة المراقبة ، فلذلك قيل إن ذكر القلب هو المراقبة .

وقد ورد في فضيلة هذا الذكر حديث بقوله عليه الصلاة والسلام : « الذكر الذي لا تطلع عليه الحفظة يزيد على الذكر الذي تطلع عليه الحفظة سبعين ضعفا » . وفيه رواية أخرى وقد ذكرناها من قبل . انتهى

واعلم أن الذكر ترداد اسم المذكور على القلب واللسان ، وهو أمر لازم وفرض دائم ، قال الله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾

فهو سيف الله من سيوف المريدين وحصن الذاكرين ومنشور الولاية أي مسكنها ، فمن وفّق للذكر فقد أعطي منشور الولاية ومن تركه فقد عزل عنها ، ومعيار الوصلة ودلالة ضياء النهاية وأقرب الطرق للوصول وأفضل الأعمال للقلوب ، وليس وراء الذكر شيء من الفضائل ، وجميع الخصال الحميدة راجعة إلى المذكور ومنشأها الذكر ، والآيات والأخبار التي جاءت في فضيلة الذكر كثيرة كما ذكرنا .

وقال بعض العارفين : إذا أراد الله أن يوالي عبده فتح له باب ذكره ، فإن استلذ به فتح له باب القرب ، ثم رفعه إلى مجالس الأنس ثم أجلسه على كرسي التوحيد ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية وكشف له الجلال والعظمة ، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة خرج عن حسّه ودعاوى نفسه .

وقال الشيخ علي المرصفي ﷺ : قد عجز الأشياخ فلم يجدوا دواء للمريد للوصول إلى الله تعالى أعظمَ ولا أسرعَ من مداومته على الذكر .

ومن خصائصه كشف الحجب المانعة فوقه«١» ، ولا يزال كذلك إلى أن يصل إلى مقام الكمال اللائق به ، بخلاف من سلك بغير الذكر من سائر العبادات ، فإنه لطول حجابه لا يكاد يفارق المقام الذي هو عليه لعشقه به ، فقلما وقع المريد على الذكر إلاّ وقد وصل ، ولا سيما الذكر القلبي الذي هو شهود وزلفى وحضور وقربى ، وهو ذكر حقيقي يبدل الغيبة بالحضور ويفني الذاكر في المذكور ، لكن لا بدّ أن يكون بتلقين الشيخ الكامل الذي عرف أسرار الأذكار ، لأنّ الله تعالى أجرى عادته في كشف أسرار أسمائه أن يكون بتلقين الرسول ﷺ ثم بتلقين خلفائه الذين تلقنوا تلك الأذكار كابرا عن كابر إلى رسول الله ﷺ ، ولو أنّ ذاكرا يذكر الله تعالى بجميع الأذكار في جميع الليل والنهار بنفسه من غير تلقين الشيخ فلا يبلغ مبلغ الرجال ولا يصل إلى مرتبة الكمال إلا بتربية المرشد الواصل .

وأقلّ ما يحصل للذاكر إذا تلقن الذكر عن الشيخ الكامل ودخل في سلسلته إذا حرك حلقة ذكر نفسه بما أصابه تجاوبه أرواح المشائخ إلى رسول الله ﷺ إلى حضرة الله تعالى ، ومن لم يلقن الذكر منهم ولم يدخل في سلسلتهم لا يجاوبه أحد منهم ولا يحرك حلقتهم ذكره طول عمره ، وهذا فائدة التلقين فافهم وإن هذا ذكرناه غير مرة .

« ١ » هكذا في الأصل وفي كتاب الآداب المرضية : من خصائصه كشف الحجب المانعة عند دخول حضرة الله تعالى فلمّا إنكشف للمريد حجاب شرفي من ذلك المقام طلب المقام الذي فوقه .

ومن كلام الشيخ أحمد سعيد الفاروقي قدس سره في « المقامات » : ثم إن المشائخ الكرام رحمهم الله تعالى أوّلا قرروا تهذيب لطائف عالم الأمر ووضعوا لذلك طرقا ثلاثة :

الطريق الأول : الذكر سواء كان باسم الذات أو النفي والإثبات ، وكيفيته أن يلصق الذاكر لسانه بالحنك الأعلى ويخلي قلبه من الخواطر وحديث النفس ويشخص قبالة قلبه صورة الشيخ الذي تلقى منه الذكر بكمال الأدب معه ويقول بلسان القلب الذي محله تحت الثدي الأيسر بفاصلة اصبعين الله الله ملاحظا مفهومه كما آمنا به ، وهو الذات الموصوف بالصفات الكلية المنزه عن السمات الناقصة ويواظب على الذكر في جميع الأوقات حتى يجري القلب بالذكر ثم هكذا يذكر بلطيفة الروح ثم وثم . اهـ في ١٩٥ .

قال الشيخ محمد معصوم قدس سره : إن قوله (يخلي قلبه) : مراده أنه يمر على قلبه اللفظ المبارك **الله** بطريق الخطرة وينطق بلسان قلبه بهذا اللفظ الخطير من غير أن يتصور صورة قلبه ، ولا يحبس لِنَفَسِهِ مدخلا في الذكر أصلا بل يبقى النفس على حاله يدخل ويخرج ويقصد من اللفظ المبارك الله ذاتا بلا مثل ، ولا يلاحظ معه صفة من الصفات حتى لا يتنزّل من ذروة الذات إلى حضيض الصفات ولا يميل عن التنزيه إلى التشبيه ، كذا في « كنز الهداية » هامش « المقامات السعدية » .

سأل الإمامَ الرباني قدس سره واحدٌ : هل في طريقتكم الذكر الجهري والخلوة والسماع ؟ فقال رضي الله عنه : لا ، فقال السائل : فبناء طريقتكم على أي شيء ؟ فقال : الخلوة في الجلوة ، الظاهر بالخلق والباطن بالحق ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾

وِمِنْ داخِلٍ كُنْ صاحِباً غَيْرَ غافِلٍ ... ومِنْ خارِجٍ خالِطْ كَبَعْضِ الأجانِبِ

« المقامات السعدية » ١١

وذكر في « تقريب الأصول » للسيد زين دحلان قدس سره والقول لبعض العارفين قال : وقال بعضهم : في قوله تعالى لداود عليه السلام : « وبذكري فليتنعموا » أي بذكري إياهم في الأزل حيث لا وجود لهم ، وإلا فإن الذكر المنسوب إليهم محل الآفات والعلل وهم أجلّ رتبة من أن يكون نعيمهم بشيء متلبس بهم ، وليس في هذا توهين ذكر العبد ربّه بل فيه التنبيه على أنه إذا ذكر ربه فليذكر منة الله عليه حيث قد مر في الأزل توفيقه له ، فإن الذكر أقرب الطرق الموصلة إلى الله تعالى وهو من علامات الولاية كما قيل : الذكر منشور الولاية فمن وفق للذكر فقد أعطي المنشور ومن سلب الذكر فقد عزل ، ولذا قيل :

الذِّكْرُ أَعْظَمُ بابٍ أَنْتَ داخِلُهُ لله فَاجْعَلْ لَهُ الأَنْفاسَ حُرَّاسا

قال الإمام القشيري رضي الله عنه : الذكر عنوان الولاية ومنار الوصلة وتحقيق الإرادة وعلامة صحّة البداية ودلالة صفاء النهاية ، فليس ورآء الذكر شيء وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر ومنشأها عن الذكر ، وفضائل الذكر أكثر من أن تحصى .

ولو لم يرد فيه إلا قوله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ وقوله عزّ وجلّ فيما يرويه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني ، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير منه » إلى آخر الحديث لكان في ذلك كفاية ، وهذا الحديث متفق على صحته وهو يدلّ على عظم فضل الذكر . وإن العبد إذا عمل عملا قليلا يجزيه الله جزاء كثيرا وخرج ذلك مخرج المثل المحسوس بقوله : « وإن أتاني يمشي . . » إلى آخر الحديث .

ومن خصائص الذكر أنه غير موقت بوقت ، فما من وقت إلا والعبد مطلوب منه إما وجوبا وإما ندبا بخلاف غيره من الطاعات . انتهى كلامه . « التقريب »١٠٩

وفي شرح « الحكم العطائية » : قال مجاهد ﷺ : الذكر الكثير أن لا ينساه أبدا ، وروي عن رسول الله ﷺ : « أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون » ، فينبغي للعبد أن يستكثر منه في كل حالاته ويستغرق فيه جميع أوقاته ولا يغفل عنه ، وليس له أن يتركه لوجود غفلته فيه فإنّ تركه له وغفلته عنه أشدّ من غفلته فيه .

وعليه أن يذكر الله تعالى بلسانه وإن كان غافلا فيه فلعلّ ذكره مع وجود الغفلة يرفعه إلى الذكر مع وجود اليقظة وهذا نعت العقلاء ، ولعلّ ذكره مع وجود اليقظة يرفعه إلى الذكر مع وجود الحضور وهذه صفة العلماء ، ولعلّ ذكره مع وجود الحضور يرفعه إلى الذكر مع وجود الغيبة عما سوى المذكور وهي مرتبة العارفين المحققين من الأولياء قال الله تعالى : ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي إذا نسيت ما دون الله تعالى عند ذلك تكون ذاكرا لله تعالى ، وفي هذا المقام ينقطع ذكر اللسان ويكون العبد محوا في وجود العيان وفي هذا المعنى أنشدوا :

ما إنْ ذَكَرْتُـــكَ إلاهَمَّ يُقْلِقُني سِرِّي وَقَلْبي وَروحي عِنْدَ ذِكْراكَ
حَتَّى كَأَنَّ رقيباً مِنْكَ يَهْتِفُ بي إيَّاكَ وَيْحَـكَ وَالـتِّـذْكارَ إيـَّاكَ !
أَوَما تَرى الحَقَّ قَدْ لاحَتْ شَواهِدُهُ وَوَاصَلَ الكُلَّ من مَعْناهُ مَعْناكَ

وقال الواسطي ﷺ مشيرا إلى هذا المقام : الذاكرون في ذكره أكثر غفلة من الناسين لذكره لأن ذكره سواه .

وقال أبو العباس ابن البناء ﷺ في كلام ذكره على مقدم كتاب أبي العزّ تقي الدين ابن المظفر الشافعي ﷺ وهو كتاب « الأسرار العقلية في الكلمات النبوية » : ورأيت هذا الكلام بخطه ﷺ : ومن أحسن الذكر ما هاج في خاطر وارد من المذكور جل ذكره ، وهذا هو الذكر الخفي عند المتصوفة على الاستمرار والتمكن في الأسرار ، وأما قولهم : حتى يتمكن الذاكر إلى حالة يستغرق بها عن الذكر ، فليس ذلك تمكن حلول ولا اتحاد بل حكمة وقدرة من عزيز حكيم .

وبيان ذلك : أن يكون القلب عند الذكر في المذكور فارغا عن الكل فلا يبقى فيه غير الله تعالى جل ذكره ، فيصير القلب بيت الحق ويمتلئ منه فيخرج الذكر من غير قصد ولا تدبير ، وحينئذ يكون الحق المبين لسانه الذي ينطق به ويده التي . . الخ الحديث . انتهى من ص ٢٩ .

وقال أبو يزيد ﵁ : لو أن العرش في زاوية من زوايا قلب العارف لما أحس به ، فقلب هذا صفته لا يحيط بأسراره ولا يعلم ما فيه إلا مواليه .

فعليك يا أخي بالتحبب لأمثال هذه القلوب واخضع لها لعل الله تعالى ينظر إليها نظرة فيراك فيها فيجذبك جذبة هي خير لك من عمل الثقلين .

وذكر في « المكتوبات » الإمام الرباني ﵁ أنه قال : كنت يوما في مجلس الطعام مع حضرة شيخنا ، فقال الشيخ كمال الذي هو من مخلصي حضرة شيخنا : بسم الله الرحمن الرحيم جهرا حين شرع في الأكل فلم يناسب ذلك منه لحضرة شيخنا حتى قال بالزجر البليغ : امنعوه لا يحضر مجلس طعامنا .

وسمعت حضرة شيخنا يقول إنّ الخواجه النقشبند ﵁ جمع علماء بخارى وجاء بهم إلى خانقاه شيخه الأمير كلال ﵁ ليمنعوهم عن ذكر الجهر ، فقال العلماء للأمير : إن ذكر الجهر بدعة فلا تفعلوه ، فقال في جوابهم : لا أفعل .

فإذا صدر من أكابر هذه الطريقة مثل هذه المبالغة في المنع عن ذكر الجهر فماذا نقول في السماع والوجد والتواجد والأحوال والمواجيد التي تترتب على أسباب غير مشروعة فهي من قبيل الاستدراجات عند الفقير ، فإنّ الأحوال والأذواق قد تحصل لأهل الاستدراج أيضا ويظهر لهم في مرايا صور العالم كشف التوحيد والمكاشفة والمعاينة وفلاسفة اليونان وجوكية الهنود وبراهمتهم شركاء في تلك الأمور ، وعلامة صدق الأحوال موافقتها للعلوم الشرعية مع الاجتناب عن ارتكاب الأمور المحرمة والمشتبهة . « المكتوبات » ٢٧٩ ج ١ .

فصل

في بيان تربية القالب الإنساني

اعلم أيها الأخ المأمون أنّ تربية اللطائف من المهمات الضرورية للسالك الصادق وأن تربية بعض اللطائف في ضمن تربية البعض ، مثلا أن تربية العناصر الأربعة في ضمن تربية القالب الإنساني ، وأما تربية القالب على مقتضى الحديث الشريف من : « بني الإسلام على خمس . . » وذلك أن رعاية الأعمال الشرعية والأركان الدينية في محلها وأوقاتها بشروطها وآدابها بامتثال الأوامر واجتناب النواهي والسعي بالجد البالغ في حفظ آدابها وأدائها هي تربية القالب .

فبمقتضى حكمة الله سبحانه البالغة يفتح من عالم الأرواح طريق إلى القلب ومنه إلى النفس ومن النفس إلى القالب ، وتنزل جميع الفيوضات من عالم الغيب فترد من عالم الغيب إلى الروح ومنه كذلك إلى القلب ومنه إلى القالب فيظهر له عمل وحال مناسب لاستعداده وحاله ، فإن كان عمله صالحا واستعداده صحيحا صادقا يكون أمره نورانيا .

وإن كان قبيحا يكون ظلمانيا ومن تلك الأعمال الظلمانية والقبائح تحصل للنفس كدورة وظلمة وتنزل منها إلى القلب ثم منه إلى الروح ، فيقع الحجاب للروح ، وعلى مقدار تلك الكدورة والكثافة والظلمة تسد باب الروح من عالم الغيب وينقطع من عالم الغيب مطالعة الروح كما قد ذكرنا في فصل السالك نبذة من هذه ، وذلك إن بزيادة الكدورة والظلمات في الأعمال تزيد كثافة الحجاب للروح من الغيب ، فلا تزال تزيد حتى ينقطع من عالم الغيب بالكلية عياذا بالله ، فإن لم يداركه بالعمل الصالح ونوره ولم يصل الأمداد للروح يصير صما بكما عميا لا يعقلون فيكون متصفا بالأوصاف المهلكة ويحرم عن الحضور المطلوب ، وإن أدرك للروح الإمداد بالعمل الصالح حتى يتنور واجتهد بالسعي الصادق بالعمل الصالح وداوم على الازدياد النوراني فيفتح بفضل الله وسعة رحمته بمقدار صلاحيته الفيض الإلهي والمدد الرباني ، ولا يزال يزيد يوما فيوما حتى يتجوهر ويحصل له القبولية بالترقيات فيفوز بالسعادة السرمدية ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

فصل

في بيان تربية النفس

اعلم أيها الإنسان الكامل أن تربية النفس أوّل الجهاد الذي أمرنا ربّنا سبحانه وتعالى غير مرة ، وهو أشد المأمورات وأهم المطلوبات لكونها أعدى الأعداء ، قال رسول الله ﷺ : « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » .

ومن تفسير القاضي في تفسير قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ الآية ، قال : من أراد أن يعرف أعدى عدوه الساعي في إماتته الموت الحقيقي فطريقه أن يذبح بقرة نفسه التي هي القوة الشهوية حين زال عنها شَرَه الصِّبا ولم يلحقها ضعف الكبر ، وكانت معجبة رائقة المنظر غير مذللة في طبعها الدنيوي ، مسلمة عن دنسها لا شية بها من مقابحها بحيث يصل أثره إلى نفسه فيحيا حياة طيبة ويعرب عما ينكشف به الحال ويرتفع ما بين العقل والوهم من الشرازة والنزاع « كشكول » ٢٩٥

وقال بعض العارفين : إن هذه النفس في غاية الالخساسة والدناءة ونهاية الجهل والغباوة ! ينبّهك على ذلك أنها إن همّت بمعصية أو ابنعثت لشهوة فلو شفعت إليها بالله سبحانه وتعالى ثثم برسوله وبجميع أنبيائه ثم بكتبه والسلف الصالح من عباده وعرضت عليها الموت والقبر والقيامة والجنة والنار لا تكاد تعطي القياد ولا تترك الشهوة ، ثم إن منعتها رغيفات سكنت وذلّت ولانت بعد الصعوبة والجماح وتركت الشهوة . « كشكول »٢٤٠

وقال محفوظ بن محمود النيسابوري ﷶ : من أراد أن يبصر طريق رشده فليتهم نفسه في الموافقت فضلا عن المخالفات .

وقال أيضا : من أبصر محاسن نفسه ابتلي بمشاوئ الناس ومن أبصر عيوب نفسه سلم من رؤية مساوئ الناس « نفحات » ١٨٦

فالنفس عدوك المتملق الذي يصاحبك بالتملق على صورة صديقك الأمين دائما مترصدا للفرصة عليك وليس لمكرها نهاية ، وتهذيبها بالأخلاق الحسنة وإتيانها بالقهر إلى منهج الاستقامة من أعظم الجهادات لما أن عداوتها أشد من الشيطان والكفار ، وإرجاع هذه الأمارة إلى صفة المطمئنة أمر عظيم كخرق العادة ، على أن إصلاح النفس من السعادات الكبرى ، وبتربيتها بتهذيبها يحصل معرفة الله سبحنه وتعالى وأيّ نعمة يوازي معرفته سبحانه وتعالى لما أنّ معرفة الله تعالى رأس مال العبد الذي يتنافس الأنبياء والأولياء فيها ، وأن معرفة النفس لدى أهل الحق عبارة عن البخار اللطيف الحاصل من جوف القلب والحكماء يسمونه بالروح الحيواني ، وهذه النفس إذا أطلقت يراد بها الأمارة ، ونذكر ذلك إن شاء الله تعالى غير مرة ، وهي منبع كل شرّ وفساد ومعدن كل أخلاق ذميمة وأوصاف رذيلة ، وحكمها سائر في جميع البدن ، ونفوس الحيوانات بمثابتها .

ولكن سرّ نفس الإنسان ومال رأسها[1] مأخوذة من عالم البقاء ، وذلك أن النفس الإنساني إذا فارقت من البدن يبقى في إحدى الدارين بخلاف نفوس الحيوانات اللاتي ترجع إلى التراب .

ثم إن للنفس صفتين ذاتيتين متولِّدتين من بطن الأم : أحدهما هوائي ، وثانيهما غضبي ، أما من الصفة الهوائية فتتولد منها الشهوة والحرص والطمع وطول الأمل وحبّ الدنيا وأمثالها من الصفات الذميمة ، وأما من الصفة الغضبية فتتولد منها الكبر والعجب والعداوة والحسد والحقد وأمثالها من الأخلاق القبيحة ، وهاتان الصفتان لا تفارقان[2] النفس مصاحبتان معها دائما ، بيد أن هاتين الصفتين تعينان في محافظة النفس ، فالصفة الهوائية لجلب الخير والمنفعة لها والصفة الغضبية لدفع الضرر عنها ، وهاتان الصفتان وإن كانتا منبع كل تهلكة ورذالة ولكن لا بد للنفس منهما للمصلحة المذكورة ، وتلك حكمة ربانية لا يدرك غورها أحد ، وزوال هاتين الصفتين بالكلية بلا بقاء أثر تورث النقص للنفس عن تحصيل الكمال التام ، وزيادتها بالإفراط تؤدي إلى الهلاك وتورث النقص في العقل والإيمان والدين .

« ١ » هكذا في الأصل ولعله : ورأس مالها .
« ٢ » في الأصل : لا تتفارق من النفس .

فصارت كلّ واحدة منها سببا للآخر للمصلحة الإلهية فسبحان القادر النور ، فإذا كان الحال كذلك إن تربية هذه على حد الاعتدال بمقتضى الطريقة الأحمدية بإتيان الأخلاق الحميدة في مقام الأوصاف الذميمة هي عين الاستقامة ورأس السعادة ، وذلك بأن تبدل الصفة الهوائية بالمحبة الإلهية والشهوة بالعفّة والحرص بالغيرة ، وتبدل الصفة الغضبية كذلك بالشجاعة والسكينة والوقار والعداوة بالبغض في الله والحسد بالغبطة وأمثالها ، والاتصاف بكمال الأخلاق الحميدة للنفس إقامتها على آداب ميزان الشريعة المحمدية ومحافظة الطريقة الأحمدية كما هو المطلوب الأسنى والمرغوب الأعلى ، فإن في إصلاح النفس والقلب والبدن بالاعتدال زيادة في العقل والإيمان والدين فتثمر منها ثمرات الاستقامة ، فترجع من صفات الأمارة التي هي عين الرعونة إلى خلاص المطمئنة التي هي رأس السعادة .

اللهم وفقنا للقيام على آداب السنة والجماعة وارزقنا حسن الاستقامة بفضلك يا الله .

وقال الإمام حجة الإسلام رحمه الله : لفظ النفس يطلق على معنيين :

أحدهما : اللطيفة الربانية الروحانية الإنسانية ، لأنه نفس الإنسان أي ذاته وحقيقته العالمة بالله عزّ وجلّ

والثاني : فى المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان ، وهو الجامع للصفات المذمومة وهو الغالب في الاستعمال ، فيقولون : لا بدّ من مجاهدة النفس وكسرها .

واللطيفة التي ذكرناها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها ، فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت بالنفس المطمئنة قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ ، والنفس بالمعنى الثاني لا يتصور رجوعا إلى الله سبحانه فإنها مبعدة عن الله عز وجل وهي من حزب الشيطان ومذمومة غاية الذم وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك » .

وقال بعض العارفين رحمه الله في قوله عزّ من قائل : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ ، معناه لا كرامة بالنسب لتساوي الكل في البشرية المنتسبة إلى ذكر وأنثى ، والامتياز بالشعوب والقبائل لتعارف الأنساب لا للتفاخر فإنه من الرذائل ، والكرامة لا يكون إلا بالاجتناب من الرذائل الذي هو أصل التقوى ، ثم لما كان التقوى أزيد رتبة كان صاحبها أكرم عند الله عزّ وجلّ أجلّ قدرا ، فالمتقي من المناهي الشرعية التي هي الذنوب في عرف ظاهر الشرع أكرم من الفاجر ، ومن الرذائل الخلقية كالجهل والحرص والبخل والجبر أكرم من المتجنب عن المعاصي الموصوف بالرزائل الخلقية ، والمتقي من نسبة التأثير والفعل إلى الغير بالتوكل ومشاهدة أفعال الحق سبحانه وتعالى أكرم من المندوب بالفضائل الخلقية المحجوب برؤية أفعال الخلق عن تجليات أفعال الحق سبحانه وتعالى ، والمتقي من الحجب الصفاتية بالانسلاخ عنها في مقام الرضا ومحو الصفات أكرم من المتوكل في مقام توحيد الأفعال المحجوب بصفاته عن تجليات صفات الحق سبحانه ، والمتقي من وجوده المخصوص أي أنيَّته«١» التي هي أصل الذنوب بالفناء أكرم من الجميع .

إنّ الله عليم بمراتب نفوسكم خبير بتفاضلكم عليم بكرم القلوب وتقواها خبير بهمم النفوس في دعوتها ، وأكرم الخلق على الله عَزَّ وَجَلَّ من كان أبعد من نفسه وهو الأقرب من الله سبحانه وتعالى . انتهى

وقال بعض الحكماء : إن النفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلة لا يستغني بمحمودها عن التأديب ولا يكتفى بالمرضيّ منها عن التهذيب لأن لمحمودها أضداد مقابلة ، يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبة ، وإن أغفل تأديبها تفويضا إلى العقل أو توكلا على أن ينقاد إلى الأحسن بالطبع أعدمه التفويض درك المجتهدين وأعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الأدب عاطلاً وفي صورة الجهل داخلا « كشكول » ٢٤٦

« ١ » أي من أناه وقوله أنا انا

ثم اعلم أيها الكريم أن النفس هي الحاملة للحس والحركة الإرادية بالقوة الحيوانية ، وهي حائزة للبخار الذي يحصل من الجوهر الجسمي ويعبر عنه بالروح الحيواني ، والصفة الأمارة أول حالها التي تلائم طبيعتها لأنها مائلة إلى الشهوات وجاذبة للسفالة ، وفي هذه الحالة أنها منبع شر وفساد ومعدن الأخلاق الذميمة وأخبث من الشيطان كما قيل :

والنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعينَ شَيْطانا .... «١»

ومن صفة الأمارة ترجع إلى المطمئنة والراضية المرضية بالرياضة والاجتهاد والتهذيب والترويض على أخلاق الله سبحانه وترتقي إلى الدرجات العالية والمقامات الفائقة ، وتصير حينئذ منبع كل خير ومطية كل معرفة وسرّ بعد أن كانت معدن كل فساد وشرّ وحاملة كل رذيلة وضرّ ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

و قال سيدي أحمد بن إدريس الحسيني المغربي ﵁ : قال الله تعالى ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ : عظّم الله تعالى النفس اللوامة وهي التي تذكر ذنوبها فتلزم نفسها ، ولومها نفسها هو قيامتها وهو معنى قول رسول الله ﷺ : « حاسبوا نفوسكم قبل أن تحاسب » ، فمن حاسب نفسه ولامها فقد أقام قيامته لأن يوم القيامة هو يوم الحساب .

وفي الحديث : كان رسول الله ﷺ في سفر فنزل منزلا فذهب رجل إلى الرمضاء وجعل يتمرغ فيها ويقول لنفسه : ذوقي حر النار جيفة بالليل وبطالة بالنهار وتطمعين أن تدخلي الجنة ، فبينما هو يتقلب في الرمضاء إذ أبصره رسول الله ﷺ فجاء إليه فقال : يا رسول الله غلبتني نفسي ، فقال له ﷺ : « إنّ الله قد باهى بك الملائكة » ، ثم قال ﷺ لمن حضر من أصحابه : « تزوّدوا من أخيكم » فجعل كل واحد منهم يقول أدع لي ، فقال رسول الله ﷺ : « عُمّهم عمّهم » ، وذلك لكونه حاسب نفسه في خلوته ووبّخها ولامها ، فالكيس اللبيب من أكثر اللوم على نفسه وحاسبها قبل أن يحاسب على مثاقيل الذر .

« ١ » تَوَقَّ نَفْسَكَ لا تَأْمَنْ غَوائِلَها .

اللّهمّ إنا نسألك توبة نصوحا وأن تشغلنا بعيوبنا عن عيوب غيرنا برحمتك يا أرحم الراحمين آمين . انتهى

واعلم أنّ نفس الإنسان وذاته الذي هو مخاطب ومكلف مأمور منهي بأوامر الله ونواهيه جسماني لطيف ساري في هذا البدن المحسوس سريان النار في الفحم وماء الورد في الورد ، وهو الذي يشير إليه كل أحد بقوله أنا ، وهو الإنسان حقيقة ، وهو الولي والنبي والمثاب والمعاقب على أعماله ، وهو كان في صلب آدم حين سجد له الملائكة ، وهو الذي سأله الله تعالى بقوله : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ ، وهو الذي يتوفى في المنام ويخرج ويسرح ويرى الرؤيا فيسرّ بما يرى أو يحزن ، فإن أمسكه الله تعالى ولم يرجع إلى جسده تبعه الروح والجسد الكثيف المعبر عنه بالبدن .

والروح السلطاني محل تعينه هو القلب الصنوبري ، والروح الحيواني محل تعينه هو الدماغ ، ويقال له القلب والعقل والنفس أيضا سرى في جميع أعضاء البدن إلا أنّ سلطانه قويّ في الدماغ فهو أقوى مظاهره ، وهو أي الروح الحيواني إنما حدث بعد تعلق الروح السلطاني ، فهذا الهيكل هو من انعكاس الروح السلطاني ليكون مبدأ الأفعال لأنّ الحياة أمر مغيّب مستور في الحيّ لا يعلم إلا بآثارها كالحسّ والحركة والعلم والإرادة وغير ذلك ، وهذا يدلّ على الروح الحيواني ، فما دام هذا البخار باقيا على الوجه الذي يصلح أن يكون علاقة بينهما فالحياة قائمة ، وعند انتفائه وخروجه عن الصلاحية له تزول الحياة ويخرج الروح عن البدن خروجا اضطراريا كذلك قد يخرج منه خروجا اختياريا ويعود إليه متى شاء ، وهو الذي سمّاه الصوفية بالانسلاخ .

فقد عرفت من هذا أنّ مذهب أهل السنة والجماعة أن الروح جسم لطيف مغاير لهذا الهيكل المحسوس وانكشف لك حال الروح ووقفت على أحوال البرزخ وأحوال القبر وما فيه من الألم واللذة الجسمانيين وانحلّ عندك وجه كونه روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران .

فالشهداء أحياء بالحياة البرزخية متنعمون لأنهم أجسام لطيفة كالملائكة فإنهم موجودون أحياء .

قال الولي الفناري ﷺ في « تفسير الفاتحة » : كل نعيم يتنعم به الصديقون والشهداء والصالحون في البرزخ خيالي ، وكذا كل عذاب يتألم به الجهنّميون .

ومصداق ذلك أنه إذا نفخ في الصور وبعث الخلق ينسى كل واحد منهم حاله في البرزخ ويتخيل أن ذلك الذي كان فيه منام كما تخيّله المستيقظ ، وقد كان حين مات وانتقل إلى البرزخ كالمستيقظ هناك ، وأن الحياة الدنيا كانت له كالمنام وفي الآخرة يعتقد في أمر الدنيا والبرزخ أنه منام في منام وأن اليقظة الصحيحة هي التي هو عليها في الدار الآخرة حيث لا نوم فيها ولا نوم بعدها . انتهى كلامه ، قاله في « أسئلة الحكم » ، « روح البيان » ١ في١٧٥

واعلم أن معرفة النفس فرض عين لكل فرد من أفراد الإنسان ، لأن معرفة الرب موقوفة على معرفة النفس لقوله عليه الصلاة والسلام : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » ، ونقيضه : من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه ، فمعرفة الرب فرض عين ، لأن عبادة الرب تعالى تتوقف على معرفته تعالى ، لأن من لم يعرفه لم يعبده وعبادة الرب فرض عين لقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .

وكل ما يتوقف عليه فرض فهو فرض ، فمعرفة النفس فرض عين فمن جهل بمعرفة نفسه فهو أجهل بمعرفة ربه ، فلا بدّ من معرفة نفسه حتى يعرف به ربه ويعبده ، ثم اعلم أن من لم يعرف نفسه ما دامت في جسده لا يعرفها بعد المفارقة عن جسده ولا يعرف ربه أيضا ، كما أشار إليه تعالى بقوله : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ ﴾ والحاصل أن معرفة النفس منبع العلوم والحكم ومطلع الفضائل والشيم ومصباح كشف أحوال الملكوت ومشكاة الشهود وأسرار الجبروت ومعارج الوصول إلى حضرة اللاهوت فما يصل أحد من بني آدم إلا بمعرفة نفسه ولم يتخذ الله وليا إلا من اتصف بمعرفة نفسه .

ثم اعلم أنّ معرفة النفس لا تحصل بنظر عقلي ، بل إنما تحصل بنور يقذفه الله تعالى في قلب عبده ، ولا يقذف الله ذلك النور إلا في قلب من تمسك بحبل الشريعة الغرّاء ، وتشبث بذيل السنة العلياء من الرياضات المتعالية والمجاهدات المتوالية بالانسلاخ عن الدنيا بالكلية والتجرد عن القوى الجزئية والكلية وتزكية النفس عن الصفات الرديئة وتوصيفها بالأخلاق الحميدة ، فبعد ذلك يقذف الله تعالى في قلبه نورا من عنده ، وبذلك النور يعرف نفسه ثم يعرف ربه كما قال تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ .

فمن ذلك جميع علوم الأنبياء والأولياء والعرفاء بالله تعالى ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور .

ولا يظن ظانّ أنّ تلك المعرفة تحصل بقراءة الكتب الشرعية ومطالعة كتب الصوفية من غير مجاهدة بالأعمال الصالحة وغير تزكية النفس وتجريدها عن الشواغل البدنية ، فهيهات أن ذلك الظان يعطى له معرفة أو كشف أو شهود . « جامع الأصول » ١٦٠ .

وقال الشيخ عبيد الله أحرار ﷺ في بيان الخواطر الشيطانية والنفسانية : أورد الشيخ في « الفتوحات » أن الشيطان على نوعين : شيطان صوري وشيطان معنوي ، فالشيطان الصوري هو إبليس وهو يلقي في خاطر الناس أحيانا أمرا حقانيّا ، فيتصرف فيه الشيطان المعنوي الذي هو النفس ويجعله أمرا باطلا ، وقد يفعل أمورا يعجز عنها الشيطان الصوري ، مثلا يلقي الشيطان الصوري في قلب شخص فعل سنّة من السنن الحسنة وهو من الأمور الحقانية ، فإنه قد ورد في الحديث : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » فيتصرف فيها الشيطان المعنوي حتى يحثّه على وضع الأحاديث وأن يسندها إلى النبي ﷺ ويسميها سنة حسنة ليعمل بها الناس فيكون له أجر منها وهو غافل عن الحديث الصحيح المتفق على صحته البالغ حدّ التواتر وهو قوله ﷺ : « من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

والمثال الثاني الذي أورده حضرة الشيخ أيضا أن الشيطان الصوري يلقي في القلب مثلا تلاوة القرآن جهرا وهي أمر حقاني ، فيضم إليه الشيطان المعنوي إرادة إسماع الغير ليقولوا إنه قارئ فأبطله بإدخال الرياء والسمعة فيها وأمثال ذلك كثيرة . انتهى

وقال العارف ابن عطاء الله ﷺ في « الحكم » : إحالتك الأعمال على وجود الفراغ من رعونات النفس ، إذا كان العبد متلبسا بحال من أحوال دنياه وكان له فيها شغل يمنعه عن العمل بالأعمال الصالحة وأحال ذلك العمل على فراغه من تلك الأشغال وقال : إذا تفرّغت عملت ، فذلك من رعونة نفسه ، والرعونة ضرب من الحماقة ، وحماقته من وجوه :

الأول : إيثار الدنيا على الآخرة ، وليس هذا من شأن عقلاء المؤمنين وهو خلاف ما طلب منه قال الله تعالى : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾

والثاني : تسويفه بالعمل إلى أوان فراغه ، وقد لا يجد مهلة بل يختطفه الموت قبل ذلك أو يزداد شغله لأن أشغال الدنيا يتداعى بعضها إلى بعض ، كما قيل :

فَمَا قَضى أَحَدٌ مِنْها لُبَانَتَه ... ولا انْتَهى أَرَبٌ إلا إلى أَرَبِ

والثالث : أنه ربما يفرغ منها إلى الذي لا يرضيه من تبدل عزمه وضعف نيته ، ثم فيه من دعوى الاستقلال ورؤية الحول والقوة في جميع الأحوال ما يستحقر في جنبه جميع هذا ، بل الواجب عليه أن يبادر إلى الأعمال على أي حال كان ، وأن ينتهز فرصة الإمكان قبل حلول الفوت و مفاجأة الموت ، وأن يتوكل على الله تعالى في تيسيرها عليه وصرف الموانع الحائلة بينها وبينه ، وما أحسن قول ابن الفارض في هذا المعنى :

وَعُدْ مِنْ قَرِيبٍ فاستجبْ واجتنب غدا ... وشَمِّرْ على ساقِ اجْتهادٍ بِنَهْضَةِ

وكُنْ صارمًا كالوَقْتِ فالمَقْتُ في عَسَى ... وإياك مَهْلاً فَهْيَ أَخْطَرُ علّةِ

وسِرْ زَمَنا وانهضْ كَسيرًا فحَظُّكَ الـ ... ـبَطالة مَا أَخّرْتَ عَزْمًا لصِحَّةِ

وجُدَّ بِسَيْفِ العَزْمِ سَوْفَ فَإنْ تَجُد ... تَجِد نَفْساً فَالنَّفْسُ إنْ جُدْتَ جَدَّتِ

اهـ .

وقال شيخ شيخنا ﷾ في « جامعه » في ٢٥ : اعلم أن الخواطر هي موازين يحفظ بها الولي بدايته ويخلص بمعرفتها نهايته ، والخواطر أربعة : أولها الرباني وهو مصيب أبدا وبه تكون الفراسة للمؤمن الكامل والمكاشفة عند السالك الصادق ، ويرد بثلاثة تجليات : بالجلال والجمال والكمال ، فإذا ورد بالجلال يمحق ويفنى ، وإذا ورد بالجمال يثبت ويبقى ، وإذا ورد بالكمال يصلح ويهدى .

وللخواطر أربعة موارد : فالخاطر الرباني يرد على الروح ، والملكي على العقل ، والنفساني على القلب ، والشيطاني على الطبع .

واعلم أن الخاطر الأول أبدا لا يكذب ، والثاني أبدا لا يغش ، والثالث أبدا لا يصدق ، والرابع أبدا لا ينصح .

وأكثر ما يرد الخاطر الرباني إذا خرج من الخلوة أو انفصل عن غيبته أو فكر في حقيقته ، وهو المفيد للولي في حال الكمال ويهبه الاستقامة والاعتدال ويكون خارقا للعادة في عالم الغيب والشهادة ، والملكي يرد واعظا وآمرا وناهيا وناصحا ، والنفساني يرد بالكبر والعجلة والغضب والنورانية عند أكل الحرام ومعاشرة اللئام ومجالسة أهل الجدال والكلام ، والشيطاني يرد عند الميل إلى الطبع والفرار من قيود الشرع .

ثم الرباني يبلغ منازل المقربين ويكاشف من اختصه الحق بعلوم الأولين والآخرين ، والملكي يحض على مقام أهل اليمين ويشوق لمنازل الصالحين ، والنفساني يرغب في العاجل ويزهد في الآجل ويدعي في الرتب ويفرد العلة والسبب ويزدري بأحوال المتقين وينزل بالهوى إلى أسفل السافلين ، والشيطاني يعد بالفقر ويزين الأماني ، فاتزنوا بميزان الشرع وتبصّروا يا إخواني . اهـ

وقال أبو عمرو الدمشقي ﷾ : علامة قسوة القلب أن يكل الله العبد إلى تدبيره فيألفه ولا يسأله حسن الكلاءة والرعاية والنبي ﷺ [قال] : « اكلأني كلاءة الطفل الوليد » « نفحات » ٢٠٧

وقال أيضا فيه ٢٦ : واعلم أن للقوم في قطع مسافة النفس والتوصل إلى الحقيقة طريقين ، وهم بحسب ذلك فرقتان : فرقة بطريق الجلاء وهو استعمال الرياضات وتزكية الأخلاق ، فهؤلاء إن أخذوا تلك الأعمال عن شرع فهم الصوفية ، وإلا فهم الأشرافيون من الحكماء الإلهيون ، وفرقة بالاشتغال بالعلوم والبحث ، وهؤلاء إن استندوا إلى شريعة فهم المتكلمون وإلا فهم المشاؤون .

قال أحمد زروق ﷺ : إنّ الفريق الأول يقولون إن النفس في أصل نشأتها كالمرآة صقيلة نظيفة يتجلى فيها كل شيء يقابلها من الماضي الموجود والآتي منه ، لكنها معوّقة عن ذلك بأحد أمرين إما صدأها بصور الأكوان شهودا واعتمادا واستنادا ، أو انصرافها عن المقصود بالتوجه إلى غيره من العلوم والعمليات وغيرها مما يصرفها عن المقصود بانطباعه فيها ، فلو انجلت في الأمر الأول لأبصرت رفع حجابها ، ولو توجّهت في الثاني لرأت نفي احتجابها ، وما دامت معوّقة بأحدهما فهي مصروفة عن المقصود ، فلا يمكن الوصول إليه . اهـ

وقال أيضا : وقال الشاذلي ﷺ : رأس النفس إرادتها ويدها علمها وعقلها ورجلاها تدبيرها واختيارها .

وقال : موت النفس بالعلم والمعرفة والاقتداء بالكتاب والسنة .

وقال : إن من أعظم القربات عند الله تعالى مفارقة النفس بقطع إرادتها وطلب الخلاص منها وما تهوى لما يرجى من حياتها ، وإن من أشقى الناس من يحبّ أن يعامله الناس بكل ما يريد وهو لا يجد في نفسه بعض ما يريد ، فطالب نفسك بإكرامك ولا تطالبهم بإكرامهم لك ، لا تكلف إلا نفسك .

وقال : ليس شيء أشدّ وأشقّ في العمل بالطاعة والذكر والتلاوة من ضبط النفس وحضور القلب وحفظ المعاني وإعطاء الحروف حقها مع إرادة وجه الله تعالى ، وهو موضع الإخلاص والعزيمة على العمل بها وبه يرجى

وهو موضع الصدق ، ونهوض السرّ عن الدنيا وعن كل شيء سوى المولى وهو موضع النية .

وقال حاكيا عن أستاذه : الأنفس ثلاثة : أنفس لم يقع عليها البيع لحريتها وهي أنفس الأنبياء ، وأنفس وقع عليها البيع لشرفها وهي أنفس المؤمنين ، وأنفس لم يقع عليها البيع لخستها وهي أنفس الكفار ، قال : قلت للأستاذ : فإن أبا بكر وعمر ﵄ قد تقدم منهما الشرك ، قال : هما على الحرية وإنما هما كمن أسر وهو حرّ .

وقال : قد أيست من منفعة نفسي لنفسي ، فكيف لا أيأس من منفعة غيري لنفسي ، ورجوت الله لغيري فكيف لا أرجوه لنفسي . اهـ

وقال مشائخ الطريقة قدس الله تعالى أرواحهم : علامة خاطر الحق سبحانه أن تطمئن له القلوب والجوارح ، ولا يعرض عليه أحد كائنا ما كان يتسلم ويسترسل وينطلق من قيود الشك والريب . « مقامات بهائية » ٥٤ .

وقال الشيخ علي الواعظ الهروي ﷴ في« الرشحات » عن شيخ مشائخنا علاء الدين محمد العطار ﷶ : لا تكون الخطرات مانعة فإن الاحتراز عنها متعسر ، وإنّي كنت في نفي الاختيار الطبيعي مدة عشرين سنة فمرت خطرة على النسبة ولكنها لم تستقر ، فمنع الخطرات بالكلية أمر قوي عسير ، وذهب البعض إلى أنّ الخطرات لا اعتبار لها ولكن لا ينبغي أن يتركها حتى تصير متمكنة فإن بتمكّنها تحصل السدّة في مجاري الفيض ، ولهذا يلزم على السالك التفحص عن أحواله الباطنية دائما ، وجعل السالك نفسه خاليا بإخراج النفس ظاهرا بأمر المرشد في حضوره وغيبته إنما هو لأجل نفي الخطرات التي تمكنت في الباطن ، وسبب تخلية السالك نفسه أن لكل معنى صورة وهو متلبس بها ، ونفي الخطرات معنى من المعاني وله صورة وهي تخلية السالك نفسه بإخراج النفس ، ولذلك ينبغي للسالك أن يخلي نفسه دائما بإخراج النفس من الخطرات والموانع التي تمكنت فيه . « رشحة » ٧٢

وقال الإمام الرباني ﷺ في « المكتوبات » : إن كل فساد منشأه النفس الأمّارة ، فهو مرض ذاتيّ وسمّ قاتل ومناف لمقام العبودية ، وكل فساد حصل من خارج ولو كان بإلقاء الشيطان فهو من الأمراض العارضة الزائلة بأدنى العلاج ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ ، وبلاؤنا إنما هو أنفسنا وعدوّ أرواحنا مصاحبنا السوء ، والعدو الخارجي يستولي علينا بمدده إياه ويزيلنا عن منزلتنا بإعانته إليه ، وأشد الأشياء جهالة هو النفس الأمارة فإنها عدو نفسها ومريدة بالسوء إياها ، وهمتها إهلاك نفسها ومتمناها معصية ربها الذي هو مولاها ووليّ نعمها وإطاعة الشيطان الذي هو عدوّها ، ينبغي أن يعلم أن التمييز بين المرض الذاتي والعرضي ومعرفة الفساد الداخلي والخارجي في غاية التعذر ، وربما يظن الناقص نفسه كاملا بزعمهم أن مرضه عارضي لا ذاتي .

وقال نجم الدين الكبرى ﷺ في« تأويلاته » : كلّ لِين يظهر في قلوب المؤمنين بعضهم على بعض فهو رحمة الله تعالى ونتيجة لطفه مع عباده لا من خصوصية أنفسهم ، فإن النفس لأمّارة بالسّوء وإن كانت نفس الأنبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام . انتهى

وفي هذا الكلام تنبيه على أن الأنبياء وإن كان سلوكهم من النفس المطمئنة إلى الراضية والمرضية والصافية إلى أن بلغوا مبلغ النبوة والرسالة ، لكن نفوسهم متصفة بالأمّاريّة كسائر الناس ، ولكن الله تعالى يعصمهم من مقتضاها فافهم فإنه محل اعتبار وإمعان . « روح البيان » ٣٨١

وقال أيضا فيه : واعلم أن من بذل نفسه وماله في طلب الجنة فله الجنة وهذا هو الجهاد الأصغر ، ومن بذل قلبه وروحه في طلب الله فله رب الجنة وهذا هو الجهاد الأكبر ، لأن طريق التصفية وتبديل الأخلاق أصعب من مقاتلة الأعداء الظاهرة ، فالقتل إما قتل العدو الظاهر وإما قتل العدوّ الباطن وهو النفس وهواها . « روح البيان »

وفي « التأويلات النجمية » : إن لكل قوم عجلا يعبدونه من دون الله تعالى ، قوم يعبدون عجل الدراهم والدنانير وقوم يعبدون عجل الشهوات وقوم يعبدون عجل الجاه وقوم يعبدون عجل الهوى وهذا أبغضها على الله تعالى ، فالله تعالى يلهم موسى قلبِ كلِّ سعيد : ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾ ، أي ارجعوا إلى الله تعالى بالخروج عما سواه ولا يمكنكم إلا بقتل النفس ﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ بقمع الهوى لأن الهوى هو حياة النفس وبالهوى ادّعى فرعون الربوبية وعبد بنو اسرائيل العجل وبالهوى أبى واستكبر إبليس ، أو ارجعوا بالاستنصار على قتل النفس بنهيها عن هواها فاقتلوا أنفسكم بنصر الله وعونه ، فإن قتل النفس في الظاهر يسير للمؤمن والكافر ، وأما قتل النفس في الباطن وقهرها فأمر صعب لا يتيسر إلا لخواص الحق بسيف الصدق وبنصر الحق ، ولهذا جعل مرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ، وكان النبي ﷺ إذا رجع من غزو يقول : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ، وذلك لأن المجاهد إذا قتل بسيف الكفار يستريح من التعب مرّة واحدة ، وإذا قتل بسيف الصدق في كل يوم ألف مرة تحيا كل مرة نفسٌ على بصيرة أخرى وتزداد في مكرها ، فلا يستريح المجاهد طرفة عين من جهادها ولا يأمن مكرها .

وبالحقيقة النفس هي صورة مكر الحق سبحانه ، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ ، يعني قتل النفس بسيف الصدق خير لكم لأن بكل قتلة رفعة درجة لكم عند بارئكم ، فأنتم تتقربون إلى الله تعالى بقتل النفس وقمع الهوى ، وهو يتقرّب إليكم بالتوفيق للتوبة والرحمة عليكم كما قال : « من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً » ، وذلك قوله تعالى : ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ « روح البيان » ٩٠

و ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ الخ ، والإشارة في الآيتين إن الذين يزكون أنفسهم من أهل العلوم الظاهرة بالعلم ويباهون به العلماء ويمارون به السفهاء ، لا تتزكى أنفسهم بمجرّد تعلّم العلم ، بل تزيد صفاتهم المذمومة مثل المباهاة والمماراة والمجادلة والمفاخرة والكبر والعجب والحسد والرياء وحبّ

الجاه والرياسة وطلب الاستيلاء والغلبة على الأقران والأمثال ، بل الله يزكي من يشاء التزكية ويتهيّأ لها بتسليم النفس إلى أرباب التزكية ، وهم العلماء الراسخون والمشائخ المحققون كما يسلّم الجلد إلى الدباغ ليجعله أديما ، فمن يسلم نفسه للتزكية إلى المزكّي ويصبر على تصرفاته كالميت في يد الغسال ويصغي إلى إشاراته ولا يعترض على معاملاته ويقاسي شدائد أعمال التزكية فقد أفلح بما تزكّى .

والمزكّي هو النبيّ ﷺ في أيام حياته كما قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴾ وبعده هم العلماء الذين أخذوا التزكية ممن أخذوا منه قرنا بعد قرن من الصحابة والذين اتبعوهم بإحسان إلى يومنا هذا ، ولَعَمْرِي إنهم في هذا الزمان أعزّ من الكبريت الأحمر ، قال الشيخ الحسيني قُدِّسَ سِرُّهُ في حقه أبياتا لا نوردها هنا . . الخ « روح البيان » ٤٥٠

قال الإمام الهروي قُدِّسَ سِرُّهُ في « الرشحات » : والقول للشيخ رضي الدين عبد الغفور قُدِّسَ سِرُّهُ جرى يوما كلام في تحقيق أحوال الجن فقال حضرة المولوي عبد الغفور : أورد الشيخ محي الدين بن عربي قُدِّسَ سِرُّهُ في بعض رسائله أنه قد وقع الاختلاف في أن أبا الجن هل هو إبليس أم غيره ، والتحقيق أنه غير إبليس بل إبليس واحد منهم ، وكان أبو الجن خنثى على إحدى فخذيه ذكر وعلى الأخرى فرج ويتولد أولاده من سحق إحدى فخذيه على الأخرى ، ولما كان تركيبهم من النار والهواء اللتين هما ركنان خفيفان فلا جرم غلبت عليهم السخافة والخفة وخصوصا إذا انضمّ عليهما الروح ، فهم في غاية الخفة ونهاية سرعة السيرة وكثرة الحركة ، وتركيبهم ضعيف غاية الضعف يهلكون بوصول أذية يسيرة أو ثقل من بني آدم ، وتكون أعمارهم قصيرة من تلك الحيثية ، فإذا ظهر واحد منهم لشخص بصورة مثالية يهرب عنه مسرعا ويكون غائبا عن نظره .

وقال حضرة الشيخ قُدِّسَ سِرُّهُ : وطريق حبسهم عن الهرب والفرار عن النظر أن ينصب العين عليهم من غير التفات إلى يمين وشمال ، وما دام النظر منصوبا عليهم لا يقدرون الغيبة عن النظر بوجه من الوجوه ويبقون على مكانهم مثل

المحبوس ، ولهذا يظهرون أنواع الحركات وأصناف الحالات والتخييلات والتسويلات ليصرف الناظر نظره إلى طرف آخر فيتمكنون من الفرار .

قال حضرة الشيخ : إن تعليم حبسهم بهذا الوجه إنما هو بتعليم الله تعالى إياي بطريق الإلهام .

وقال : إن العلم والعرفان قليلان فيما بينهم وإدراكاتهم قاصرة في الأمور المعنوية غاية القصور وخصوصا في معرفة الله تعالى ، ويكون أكثرهم سفهاء وأغبياء ، وليس في اختلاطهم فائدة كثيرة ، بل في صحبتهم ضرر كثير فإنه تحصل عن صحبتهم صفة الكبر في باطن الإنسان لكون تركيبهم من النار والهواء ، والجزء الناريّ غالب في تركيبهم والكبر والترفّه من خواص النار .

ولهذا قال إبليس في أول ما أظهر الكبر : خلقتني من نار ، وقال : إن بعض الإعصار[1] الكائن في الصحراء إنما يحصل من أثر مضاربتهم ومحاربتهم ، وهو فيما بين ذلك الإعصار يحارب بعضهم بعضا وتكون الفتنة والمجادلة والمحاربة كثيرة فيما بينهم ، وذلك بسبب تجبّرهم وتكبّرهم اللذَيْن هما لازمان لذاتهم ، فإذا مات أحدهم ينتقل إلى البرزخ ولا يمكنه الرجوع إلى النشأة الدنياوية ثانيا ، ويكون في البرزخ إلى الحشر ، ثم إذا استحق واحد منهم عذاب جهنم يعاقب بالزمهرير لقلة تأثره من عذاب النار وإن أمكن تعذيبه بالنار ، فإن حرارة نار جهنم زائدة على حرارة النار العنصرية بمراتب كثيرة وشديدة في الغاية . « رشحات » ١٣٠ .

« ١ » الريح التي تحمل غبارا كثيفا .

فصل
في تربية القلب

اعلم أيها الرشيد المسترشد أن فِي الإنسان مضغة إذا صلحت صلح البدن كله وإذا فسدت فسد البدن كله ، ألا وهي القلب .

فاعلم أيها الأخ أن القلب في بدن الإنسان بمثابة العرش الأعظم ، وجهة النسبة من هذه الحيثية كما أن العرش الأعظم صفة الرحمانية التي هي مظهر الاستواء بمقتضى قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ ، كذلك قلب الإنسان محلّ ظهور استواء الرحمانية ، لكن ليس للعرش ترقٍّ والقلب قابل للترقي فافهم ، وصفة العرش استواء الرحمانية عليه ، ومن هذه الجهة متى حصلت الإفاضة إلى عالم الأجسام بالفيض الإلهي من صفة الرحمانية فقابله هو العرش فتدبّر فإنه دقيق .

وللعرش وجهان ينظر بأحد الوجهين إلى عالم الملكوت والوجه الآخر إلى عالم الأجسام ، فالوجه الناظر إلى عالم الملكوت يقبل الفيض من الحق سبحانه وتعالى وهذا الفيض يعمّ الجسمانية بالجملة .

فالحاصل أن لجميع الجسمانيات نسبة مع العرش ، والفيض الإلهي يصل من هنالك بسبب تلك المناسبة على قدر الاستعداد ، فإن تعطلت النسبة بالكلية لحظة ولم يصل الفيض تنعدم جملة الجسمانيات في الساعة .

كذلك إن للقلب أيضا وجهين : أحدهما إلى عالم الأرواح والآخر إلى عالم الأجساد والقلب وفيض الروح مع نوره إلى عالم الأجساد ومنه ينتشر إلى جميع البدن .

فالحاصل أن من القلب مجرى إلى جميع الأعضاء ، ومنها يصل النصيب إلىجملة البدن ، وهذا الفيض إن انقطع بالكلية من القلب إلى البدن يهلك البدن في تلك الساعة ، أو انقطع ذلك الفيض من العضو لحظة يتعطل ذلك العضو بلا مرية .

فبناء على المذكور أن تربية القلب وتصفيته أن تخلصه من الخواطر الرديّة وتوجهه إلى الحق سبحانه وتعالى بقطع النظر عن السوى وتخليصه لله تعالى ، وللقلب أطوار لا يعدّ ولا يحصى ، وفي حق وصف قلب الكامل ورد الحديث القدسي : « بل وسعني قلب عبدي المؤمن » .

وحقيقة توجه القلب إلى جناب الحق سبحانه وتعالى وعلامة سجوده له هو أن يميل من جميع المخلوقات ويصرف عن التعلقات الكونية ولذاتها بحيث لا يبقى له منها أثر ونصيب ، ويرجع بكليته إلى الحق سبحانه وتعالى بكيف لا يحسّ معه تعالى بشيء من السوى بحيث لا يكون له مراد ما سوى الحق تعالى ، وأن يفني أوقاته في الخدمة والعبودية بلا فراغ لحظة ، وذلك هو التوحيد المقصود .

وإن تربية السرّ منوطة بتربية القلب فإن كملت تربية القلب كملت أيضا تربية السرّ بمقداره ، لما أن محلّ السرّ ومنشأه أيضا هو القلب من جهة والسرّ نور عين القلب فتدبر والله تعالى يتولاك .

ثم اعلم أيها المسترشد الموفق أن التسمية بالقلب على طريق التجوز ، وإلاّ فليس المراد من القلب قطعة اللحم الموجود في الجسد لما أن تلك القطعة موجودة في كل حيوان .

ومعلوم لكل عاقل لبيب وكامل أديب أن حامل أسرار الله سبحانه و تعالى ليس مجرد تلك القطعة اللحمية ، وهي أحقر من أن تكون محلاّ للأسرار الإلهية ، بل القلب المقصود هنا النفس الناطقة التي هي مرآة الروح ، وهو مظهر الصفات الكمالية ومعدن الأسرار الربانية الجامع فيها من الأوصاف والشؤون اللاهوتية والحائز للأحوال الكونية ، وهو مرآة الروح الإلهي الذي هو مدبر بدن الإنسان وراعيه ، والمحمول بالقلب من البخار اللطيف فهو عبارة عن الروح الحيواني ، وأما القلب السابق الذي هو مظهر السر الإلهي فهو عبارة عن القلب الوارد في الحديث القدسي : « بل وسعني قلب عبدي المؤمن . . » الخ . اهـ

وقال في « الحكم العطائية » : أنوار أذن لها في الوصول وأنوار أذن لها في الدخول ، الأنوار الواردة على القلوب من خزائن الغيوب تنقسم إلى قسمين : أنوار أذن لها في الوصول الى ظاهر القلب فقط ، و أنوار أذن لها فى الدخول إلى صميم القلب وسويدآئه ، فالأنوار الواصلة إلى ظاهر القلب يشاهد العبد معها نفسه وربّه ودنياه وآخرته ، فيكون تارة مع نفسه وتارة مع ربه ، وطورا يسعى في العمل لآخرته وطورا يعمل في أمور دنياه .

والأمور الداخلة إلى صميم القلب وسويدائه لا يظهر فيها إلا وجود الله ﷻ ، فلذلك لا يحب سواه ولا يعبد إلاّ إيّاه .

قال بعض العارفين : إذا كان الإيمان في ظاهر القلب كان العبد محبّا للآخرة والدنيا وكان مرة مع الله تعالى ومرة مع نفسه ، فإذا دخل الإيمان باطن القلب أبغض العبد دنياه وهجر هواه . اهـ في« حكم » ٣٤ « جواهر » هامش

وقال الشيخ أبو الحسن الخرقاني قدس سره : إن أنور القلوب قلب لا يكون فيه ما سواه تعالى ، وأفضل الأعمال عمل لا يكون فيه فكر رؤية المخلوقين ، وأطيب الرزق ما يكون بسعيك ، وأفضل الرفقاء من يكون عيشه بالله . « رشحة » ١٥ .

قال بعض العارفين : إن كل آية في القرآن جاءت في القيامة الكبرى تشير معانيها إلى القيامة الصغرى حتى كأنها هي ، ومما يؤيد فهم العارفين لتلك المعاني الإشارية ما نقل عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما سئل هل خصّكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس ؟ فقال : ليس عندنا إلا فهم في كتاب الله تعالى وما في هذه الصحيفة ، وليس في الصحيفة إلا مسائل معدودة لا تعلق لها بالمعارف ، وإنما الشأن كله في كتاب الله الذي تنزل على القلوب الصافية من الأغيار ، فرّغ قلبك من الأغيار يملأ بالمعارف والأسرار ، كما لا يحب العمل المشترك لا يحب القلب المشترك ، العمل المشترك لا يقبل والقلب المشترك لا يقبل عليه ، ربما وردت عليك الأنوار فوجدت القلب

محشوّاً بصور الآثار فارتحلت من حيث نزلت فنزول القرآن قد مضى والنزول على قلوب الأولياء باقٍ إلى يوم القيامة .

بل العارفون يجدون في قلوبهم تأثرا وعبرة من كل الأكوان ، ليس شيء إلا وهو يدعوك إلى مولاك بلسان حاله ويناجيك في سرّك إن كنت من أهل الأسرار . « تقريب الأصول » ١٢٣

والمراد من القلب هو القلب الحقيقي ، وهو عبارة عن اللطيفة الداركة للكليات والجزئيات المتوسطة بين روح الأمر والنفس الناطقة ، وهذا القلب كله لسان يتكلم به وكله بصر يبصر به وكله سمع يسمع به وكله مدرك يدرك به ، وهو وأخواته من الروح والسر والخفي والأخفى من عالم الأمر أي من فوق العرش ، لأن عالم الأمر عبارة عن الموجودات الخارجة عن الحس والخيال وعن الجهة والمكان ، وعالم الأمر هو الذي خلقه الله تعالى بأمر كن ، أي بمجرد التجليات الإرادية من غير مادة أي من غير عنصر سوى التجليات الإرادية . « تحفة الأحباب »

وقال ترجمان الحقيقة الشيخ السهروردي ﷺ في « العوارف » : وفي الخبر : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات » والقلوب الصافية التي كَمُلَ أدبها لكمال أدب قوالبها تصير سماوية تدخل بالتكبير في السماء كما تدخل في الصلاة ، والله تعالى حرس السماء من تصرّف الشياطين فالقلب السماوي لا سبيل للشيطان إليه ، فتبقى هواجس نفسانية عند ذلك لا تنقطع بالتحصن بالسماء كانقطاع تصرف الشيطان ، والقلوب المرادة بالقرب تدرج بالتقريب وتعرج في طبقات السموات ، وفي كل طبقة من أطباق السماء يتخلف شيء من ظلمة النفس ، وبقدر ذلك يقل الهاجس إلى أن يتجاوز السموات ويقف أمام العرش ، فعند ذلك يذهب بالكلية هاجس النفس بساطع نور العرش وتندرج ظلمات النفس في نور القلب اندراج الليل في النهار وتتأدى حينئذ حقوق الآداب على وجه الصواب « عوارف المعارف » .

تتمة لا بأس بإيرادها هنا : قال الخوارزمي في « المفيدة » : إحضار القلب في الصلاة وغفلته لوجهين : أحدهما ظاهر والآخر باطن ، أما الظاهر فأن يصلي في موضع يبصر شيئا أو يسمع شيئا فيشتغل قلبه بذلك ، فعلاجه أن يصلي في الخلوة بحيث لا يسمع شيئا ، ولا يكون فيها نقش ولا كتابة واتخذت العبّاد الزوايا في بيوتهم حفظا لقلوبهم وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أراد أن يصلي يخرج السيف والمصحف والمتاع عن بيته فإن كان له شغل فالتدبير أن يقدم ذلك الأمر حتى يفرغ قلبه للصلاة ولهذه الدقيقة قال ﷺ : « إذا حضر العشاء والعِشاء فابدؤوا بالعشاء » ليدخل في الصلاة على بصيرة فارغ القلب ويحضر قلبه للذكر أيضا وقراءة القرآن فإن غلب أمر على قلبه فليشغل قلبه بالذكر فإن لم يندفع فالعلة صعبة فلا بد من تناول مسهل ، والمسهل ترك ذلك الأمر بالكلية فإن لم يطق ذلك فلا يبرأ عن هذا المرض أبدا فإن لم يندفع أبدا فيكون مثاله مثال من جلس تحت شجرة تأوي إليها العصافير ويصوتون فيعدّ حصا لينفر به العصافير كي لا يسمع أصواتهم فهو سوداء وماليخوليا[1] فإنهم يطيرون وعن قريب يعودون فإن أراد أن يتخلص منهم فالتدبير أن يقطع الشجرة جتى ينجو منها شاتان وخروف والمعنى معروف . انتهى « مفيد العلوم »١٦٦

« ١ » نوع من أمراض العقل والدماغ .

فصل

في بيان تربية الروح

اعلم أيها المستمد من كمالات الأولياء أنا ذكرنا اللطائف في هذا الكتاب وفصلناها أيضا في كتابنا « بغية الصّعلوك في آداب السلوك » ، لكن لما كانت كيفية تربية كل لطيفة مستقلة لم نجد بدّا من ذكرها ونفصل بعضها ثانيا إن شآء الله تعالى .

اعلم أن روح الإنسان من عالم الأمر وفي حق قربه للحق خاصية ليست لباقي الموجودات ، فعالم الملك قائم على عالم الملكوت ، وعالم الملكوت قائم على عالم الأرواح ، وعالم الأرواح قائم على روح الإنسان ، وروح الإنسان قائم على صفات الحق الحي القيوم ، وجميع المظاهر من عالم الغيب وعالم الشهادة جميع وجودها بالوسائط إلا الوجود الإنساني ، فوجود الإنسان بلا واسطة وليس لوجود روح الإنسان واسطة ، بل ظهوره بأمر (**كن**) ، وكذلك إن قالب الإنسان وعجينه وجوده بلا واسطة بتشرفه بالحديث القدسي : « خمرت طينة آدم بيدي أربعين صباحا » .

وأما البدن فممتزج بالروح بمقتضى قوله تعالى : ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ بإضافته إلى نفسه سبحانه وتعالى بلا واسطة ، يعني بنسبة الروح إلى نفسه تعالى بقوله تعالى ﴿مِن رُّوحِي﴾ ، وهذا أمر شريف ودقيق عجيب .

والآن : إن تربية الروح وكمالها تزيينه بصفات الربوبية من العلم والمعرفة الإلهية والحلم والكرم وأمثالها من الأخلاق المرضية الإلهية حتى يستحق صاحبه لأن يكون خليفة للحق سبحانه وتعالى ، فيلزم من أوّل الأمر إرضاع الروح بلبن الطريقة والحقيقة والمعرفة من ثدي النبوة والولاية ، ويلزم أيضا أن تكون تربية الروح من الرسول أو من القائم مقامه من كمل الأولياء ، فإن لم تحصل التربية بالكيفية المذكورة لا يحصل الفوز والفلاح .

فبسبب ازدواج الروح بالبدن يتيسر بينهما الألفة والأنس ، لكن التعلق بينهما بواسطة الحواس الظاهرة والقوة الباطنة ، وأوصاف البشرية ينقطع بالتدريج لكونها حجبا للروح بعضها نوراني وبعضها ظلماني ، وإنها أسباب للروح للقربية والبعدية ، ويحرم بها عن مشاهدة جمال الحق وجلاله سبحانه وتعالى .

فإذا زال سبب من تلك الأسباب المذكورة من الروح يحصل القرب للروح إلى الحق سبحانه وتعالى بمقدار زوالها فتدبر ، ويشم لمشام البدن من الأنس بالحق ذوق سبحان القادر النور ، فيتخلّص من التعلقات والموانع ويتّصف بالطهارة والصّفاء على الفطرة الأصلية ، وفي هذا المقام أن الروح بتخلّصه من التعلقات كالموانع والعوائق ونجاته من الآفاق والأنفس يتيسر له المطالعة للآيات البينات ويكون قادرا للنظر فيها ، ففي أي شيء وقع النظر يشاهد له الآيات للحق سبحانه وتعالى كما قيل :

فَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ الواحِدُ

ويظهر له سرّ قول : « ما نظرت شيئا إلا ورأيت الله فيه » ، فحينئذ يتيسر للروح العروج إلى مقام الفناء في الله بترقي المحبة والمعرفة ، فيبقى جميع التعلقات وراء نار المحبة وتتابع له المدد بالجذبة الإلهية فيصير صاحبه في جملة الرجال ، جعلنا الله وإياكم من الذين صفت أرواحهم وزكت آمين .

ثم اعلم أيها الطالب السعيد أن روح الإنسان نازل من عالم الأمر إلى قلب الإنسان الذي هو الروح الذي حامل اللطيفة المدركة ، وهو ربما يتعلق ببدن الإنسان وربما يقطع التعلق ويتجرد عن كل شيء ، ومعنى هذا ظاهر لأهله أهل الذوق اكتفينا عن ذكره وهو حادث باق ولا ينعدم بالموت ولا يفنى به ، ومن قال بقدمه كفر عند الفقهاء ، والروح هي لطيفة نورانية ملكوتية وهي باطن القلب وألطف منه ، وإذا احتجبت الروح عن مراعات القلب أساءت الجوارح الأدب ، لأن القلب والنفس والجوارح كلها لا تعمل عملا بدون مراقبة الروح . « تحفة » .

لطيفة لا بأس من إيرادها هنا : قال الإمام العلامة شمس الدين ابن القيم ﷺ في « كتاب الروح » : إن للروح شأنا آخر غير شأن البدن ، فيكون في الرفيق الأعلى وهي متصلة ببدن الميت بحيث إذا سلم على صاحبها ردت السلام وهي في مكانها هناك ، انتهى نقلا من السيوطي ﷺ في كتابه « المنجلى » .

وقصة الإمام الخطيب الشربيني ﷺ مشهورة متواترة عند العلماء المصريين أنّه خطب وصلّى الجمعة في أربعين مسجدا في جمعة واحدة . اهـ من كتاب « هدية الذاكرين وحجة الناظرين » للشيخ يوسف الطرَبِزُوني ﷺ ، راجع السهلي ٨٠ الله يتوفى الأنفس .

فصل

في بيان تربية السر

والسر هي لطيفة ربانية جبروتية وهو باطن الروح وألطف منها ، ومرتبة السر محل دخول السالكين إلى عالم الجبروت ، وطريق الدخول في عالم الجبروت أن السالك يدخل أوّلا في مرتبة قلبه ويقطع تلك المرتبة ، ثم يعرج منها إلى مرتبة الروح ويقطعها أيضا ، ثم يعرج منها إلى مرتبة السر ثم يعرج من مرتبة السر إلى مقام المشاهدة عالم الجبروت .

وهذا الأمر مما لا يقف عليه كل أحد وإنما يقف عليه حذاق السالكين الذين كثر سلوكهم في هذا الباب دخولا وخروجا . « تحفة » .

فصل

في بيان تربية الخفي الذي هو سر الروح

اعلم أيها المتشرف بصحبة السادات أن الخفيَّ المعبر عنه بسر الروح مقام عظيم ، ولا يليق أن تمد إليه يد كل أحد لارتفاع مقامه إلا أيدي الخواص الذين منَّهم الله تعالى بالطبع السليم والعقل المستقيم ، ومعرفة تربيته من ضروريات الطريقة العلية ، وذلك أن وظيفة الروح في هذا المقام أي في مقام السر أن تُنْزل سره في عتبة الحضرة سبحانه وله الحمد ، وأن لا يرفع الرأس منه وينصرف من جملة الأغيار والتعلقات الغيرية الكونية إلى حضرته بفنائه فيه بالفناء الكلي ، ويخرج عن جميع الإرادات الغيرية حتى يتمحض للذات البحت الصرف ، وأن يطلّق الدنيا وضرتها بالطلاق الثلاث بحيث لا رجعة فيها ، ولا ينزل همته عن الدرجات العالية والمقامات الشريفة بكيف لو عرض عليه جميع خزائن الكائنات لا يلتفت لأجلها ولو بمجرد الميل إلى جهة ، حتى يصير محمدي المشرب باختيار العبودية والفقر الصرف بلا مفارقة عن متابعة الحضرة الجلالية .

وأن لا يخرج قدمه خارج دائرة الفقر والعبودية ولو هتف له هاتف الحق بنداء : يا عبدي سل ما شئت تُعْطَ فإني قريب ألف مرة ، لا يجيب إلا بطريق الإخلاص : أنت المراد يا ربّ ، ويستحق أن يقول حينئذ : لا موجود إلا الله .

وفي هذا المقام أن الترقي في فنائه في الله وخروجه عن أثر نفسه ، ومراعاة الأدب مع الحق في هذا المقام واجب ضرورة ، وأن جميع الأنبياء والأولياء في هذا المقام عاجزون متحيرون لم يجدوا من أمرهم إلا تحيّرا ، وهذه المرتبة السنية لا يتجاوزها بالأقدام ولا بكثرة الأموال والأنعام سوى بالعجز والانكسار والتضرع ولا يجد لهم المدار إلا بها ، ومقصود العاشق ومرغوبه إلى معشوقه يظهر في هذا المقام ، ولا يفيد شيئا هنا بالقال والقيل إلا بالاضطراب من الغريب ولا ينال الغاية إلا بذلك الحال الحقير الكئيب كما

قال في أحسن كلامه وهو أصدق القائلين : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ بالوعد الكريم ويتوجه بالهمة الرفاعية إلى جمال الصمدية ليحصل له جذبة من جذابات الحق التي توازي عمل الثقلين .

وبهذه البشارة ينال العاشق الغريب إلى مدده فيتيسر له الصعاب ويهون له العتاب فتصير تربية الروح وترقيه جذبة ربانية ولسان حال صاحبه ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ، فيفوز من هذه الدولة العظمى وتتزايد له الكرامات وتنحصر فيه الكمالات ، والله يقضي بالحق لمن يشاء وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ثم إن الخفي هو لطيفة ربانية مودعة في الإنسان بالقوة ، ولا يحصل في الروح بالفعل بل يحصل بغلبة الواردات الربانية ، ثم بإفاضة الفيوضات الإلهية وتجلّي الصفات السبحانية تقع القبولية لله سبحانه بواسطة الروح ، وهو لطيفة لاهوتية ملازمة بعالم الصفات وهو باطن السر وألطف منه ، ومرتبة الخفي مرتبة الحيرة والاستغراق « تحفة » .

فصل

في بيان الأخفى

اعلم أن الأخفى سرّ إلهي مخصوص لله سبحانه وليس للعبد فيه مدخل ، كالعلم المشتمل على جميع الحقائق على ما هي عليها ، ويقال له سر السر وسر الغيب .

وهو لطيفة لاهوتية أيضا لكنه ملازم بعالم الذات ومظهر لتجلياتها ، كما ورد في الحديث القدسي : « إن في جسد بنى آدم لَمُضغة وفي المضغة فؤادا وفي الفؤاد سرا وفي السر خفيا وفي الخفي أخفى وفي الأخفى أنا » .

وإنما سمي أخفى لكونه أبلغ في الاختفاء من الخفي وألطف منه وهو باطن الخفي ، والباطن من هذه اللطائف أكبر من الظاهر على خلاف العادة .

ولما وصل السالك إلى مرتبة الأخفى يكون جميع اللطائف متحدة مع الأخفى لكون تلك اللطائف حقيقة واحدة في الأصل ، لكن بحسب الأطوار والمراتب تكون متعددة من عالم الأمر كما ذكرناه في فصل القلب « تحفة » .

فصل

في بيان اللطائف ومقاماتها وما يتعلق بها

اعلم أيها الإنسان الكامل وفقك الله تعالى بالتحلي أن الله تعالى خلق الإنسان وعلمه البيان ، وجعله محلا للحكمة والعرفان ، وأكرمه بالعقل والكمال وخصه للجمال ووضع هذه الحكمة وفصل الخطاب في اللطائف بأدقّ البرهان ، وإنما كمالة الإنسان باللطائف لأنها محل المعارف ، فلذلك واظب أرباب القلوب من السادات على رعاية الآداب في تصفية لطائفهم علما منهم بأن تصفية الباطن وتنوّره بتجوهر اللطائف وتنوّرها .

ومن المعلوم لكل نجيب ونقيب بأن نوع الإنسان معجّن ومخمّر من أربعة باتفاق الصوفية : جسد وقلب وروح وسر ، وأما عند الإمام الرباني ﷻ فمجموعة من عشرة ، خمسة منها من عالم الأمر وهو : قلب وروح وسر وخفي وأخفى ، وخمسة من عالم الشهادة وهو : العناصر الأربعة من الماء والتراب والنار والهواء والنفس

والعوالم أربعة : عالم ناسوت وعالم ملكوت وعالم جبروت وعالم لاهوت ، فعالم ناسوت يتعلق بالجسد ، والجسد مركّب من العناصر الأربعة كما ذكرنا ، وعالم ملكوت من السماء وما فيها يتعلق بالقلب والقلب منبع الأسرار ومعدن الأنوار ، وعالم الجبروت من عالم الأرواح يتعلق بالروح والروح محل معرفة الله تعالى ، وعالم اللاهوت من ما وراء العرش يتعلق بالسر والسر محل المشاهدة ، رزقنا الله تعالى مشاهدة تتبعها مكالمة آمين .

فمراتب مظاهر إلهية ثمانية : عالم ملك مظهر عالم ملكوت ، وعالم ملكوت مظهر عالم جبروت ، وعالم جبروت مظهر أعيان ثابتة ، وأعيان ثابتة مظهر أسماء إلهية ، وأسماء إلهية مظهر صفات سبحانية ، وصفات سبحانية مظهر أحدية أي الوحدانية والألوهية ، والأحدية مظهر وحدة الذات اسم شريفي مسمياتي ، ووحدة ذاتي مظهر هوية مطلقة وذات حق وذات بحت .

وأما لطيفة النفس أي لطيفة جسم الإنسان والنفس الحيوانية فالمراد منها هي النفس الأمارة ، وتسميتها بالأمارة لكون مجموعها من العناصر الأربعة التي تكونت دما حارا من امتزاجها ، فمن ذلك الدم يحصل بخار حار لطيف له قوة مؤثرة وهو منبع شهوة ومعدن غضب ومجموعها من عالم الخلق ، وأما ما كان من عالم الأمر من اللطائف الخمسة .

فأولها قلب الإنسان كما ذكر آنفا وموضعه تحت الثدي الأيسر بمقدار أصبعين مائل إلى الخلف ومودوع في السويداء ، وهو نقطة كنقطة العين بمقدارها وهو منبع أنوار ومعدن أسرار ، وهو تحت قدم أبينا آدم عليه السلام المستفيض من نبينا محمد ﷺ ونوره أصفر ، وحقيقة القلب لطيفة مضيئة مودعة في القلب وهي محل الأخلاق المحمودة آمر بالخير عارف بالله تعالى .

وثانيها روح الإنسان ويسميها بالنفس الناطقة ، وليس له حلول في محل ولا نزول في مكان ، لكن تعلق اللطيفة الربانية ومحل تنزلها هي السويداء ومحله تحت الثدي الأيمن ، وهو تحت قدم نوح وإبراهيم عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام«١» المستفيضان من نبينا محمد ﷺ ونوره أحمر ، وحقيقة الروح جسم لطيف بل هي الروح بعينها التي تتردد في تجاويف أعضاء الإنسان .

وثالثها سر الإنسان وهو القوة الشريفة الحاصلة في قلب الإنسان وهو محل المشاهدة ، وموضعه فوق الثدي الأيسر تحت قدم موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام المستفيض من نبينا محمد ﷺ ونوره أبيض ، وحقيقة السر لطيفة من نور الله مودعة في القلب هي محل المشاهدة كما أن الأرواح محل للمحبة والقلوب محل للمعارف ، والسر ما لك عليه إشراف وسر السر ما لا اطلاع عليه لأحد غير الحق .

« ١ » وقد ذكر في « التحفة المرضية » ما نصه هذا : ألا ترى إن إبراهيم عليه السلام لما لم يدبر لنفسه ولا اهتمّ بها بل ألقاها إلى الله تعالى وأسلمها إليه وتوكل في شأنه عليه كانت عاقبة الاستسلام وجود السلامة والإكرام وقد أمرنا الله تعالى أن لا نخرج عن ملته وأن نرعى حق تسميته بقول تعالى : ﴿ملة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين﴾ فحق على كل من كان إبراهيميا أن يكون من تدبير نفسه بريا ومن منازعة ربه خليا والمراد أن لا يكون لك مع الله تعالى مراد .

قال بعض العارفين على لسان هواتف الحق :

مرادي منك نسيان المرادِ   إذا رمتَ السبيل إلى الرشادِ

ورابعها الخفي وهو المكنوز بالقوة في الروح الإنساني وهو سر سبحاني ، فإذا كمل سر الإنسان بتجوهره يظهر من القوة إلى الفعل ، وموضعه فوق الثدي الأيمن تحت قدم عيسى على سيدنا وعليه الصلاة والسلام المستفيض من نبينا محمد ﷺ .

وخامسها الأخفى وعلمه مخصوص لجنابه سبحانه وتعالى ، فإن فرض كشف بعض أحوال الحقائق التي لا يتناهى لكان متعلقا بالروح الرباني بمجرد فرضه فقط ، وإلا فليس في ذلك العلم نصيب لغيره سبحانه وتعالى ، ومحله وسط الصدر تحت قدم نبينا محمد ﷺ ونوره أخضر .

ونذكر ثانيا بعض تعلقات اللطائف تفصيلا إن شاء الله تعالى ، وإن من اللطائف لطيفة شريفة أخرى وهي مرآة للمكاشفة وإن أهل المكاشفة يستفيدون المعاني منها ، لكن إنها معدودة من اللطائف الخمسة ونموها من حضرة المثال وهي مودوعة في دماغ الإنسان وهي قوة ومرآة نامية ، وأكابر القوم يسمونها بحضرة الخيال .

ثم اعلم أيها الأخ الصالح أنا ذكرنا محل اللطائف تغليبا للأغلب ، لكنها أغلبيّ لا كلّي ، وذلك أن بعض السادات من المشائخ يقولون إن اللطائف الخمسة بعضها تحت الأيسر ، وبعضهم تحت ذلك بقليل وبعضهم فوقها وبعضهم حذاءها ، ولم يعينوا موضعا مخصوصا وليسوا متفقين في حقها ، بيد أن من كان أهل الذوق والبصيرة يظهر له بأدنى تأمل موضعها .

فالحاصل أن نورانية هذه اللطائف ولطافتها لما كانت متعلقة ومقارنة للهيكل الجسماني الظلماني ينبغي الاجتهاد في إرجاعها إلى الكمال والسعي لإيصالها إلى موضعها بتخليصها عن الرذائل النفسانية ، ولا يحصل هذا إلا بالسلوك على يد مرشد كامل ، فإذا سلك على يد ذلك الكامل فينقلب الغفلة إلى الحضور حتى يحصل له الغيبة عن وجوده ، ذلك الفضل من الله ، ويعبَّر على قانون المشائخ لهذه الحالة بالحضور الصافي .

ثم إن اللطائف تتعلق بعضها بعضا وذلك أن السر متعلق لعالم الأمر والروح متعلق لعالم الأرواح والقلب متعلق لعالم العرش والكرسي .

ولذلك يقال في اصطلاح السادات : إن القلب من عالم الجنة والنفس من عالم الدنيا وهو من عالم الكون والفساد .

ثم إن السر اثنان : سر ظاهر وسر باطن ويعبر عنه بسر السر ، أما السر الظاهر فهو مظهر الذاتي الواحدي والجمعي ، وهذا السر غير الروح السلطاني لما أن الروح السلطاني مظهر تعيين الثاني وصفاتي وواحدي وفوقي وروح حيواني ، وهو مظهر تعيين ثالثي وفعلي وسفلي .

وأما سر السر ويقال له أيضا غيب السر وسر أخفى ، وهو مظهر الوجود البحت المبرأ عن جميع التعينات السلبية والإيجابية مطلقا ، ولأجل ذلك يقال : إن النفس تابعة للقلب والقلب تابع للروح والروح تابع للسر ، وظاهر الإنسان من عالم الملك مقيد بالمكان والجهات وباطنه من عالم الملكوت وهومطلق عن جميع القيود ، فقلب الإنسان الكامل مبرأ ومعرى من الزمان والمكان .

فريدة في بيان نقل الذكر في اللطائف : اعلم أيها الأعز أن السالك بمواظبته على الذكر القلبي على طبق اصطلاح أرباب القلوب برعاية آداب النسبة الشريفة يسري ذلك الذكر من القلب إلى الروح ، ومنه ينتقل بالسراية تدريجا إلى لطيفة السر ، ومنه ينتقل إلى اللطيفة الخفي ، ومنه إلى الوطن الأصلي الذي هو سويداء قلبه رجوعا ويعبر عن هذه المرتبة بالأخفى .

وقد وقع الاختلاف بين مشائخ بخارى ومشائخ سمرقند قدس الله أرواحهم في خصوص سير اللطائف كما أشرنا إليها قبيل هذا .

أما مشائخ بخارى يقولون : سير اللطائف ابتداء من الجانب الأيمن ثم من الجانب الأيسر ثم من الأيمن والأيسر ، ومشائخ سمرقند يقولون : إن ترتيب مشائخ بخارى خطأ وغلط ، لما أن القلب إنما هو تحت الثدي الأيسر وهو أولى للنظر الإلهي ، ورجوعه إلى مبدأه أولى وأليق وأنسب .

ولما سئلوا عن اعتراضهم على مشائخ بخارى وسبب إراءتهم بعكس ما رأوهم أجابوا : إن القلب مظهر الكمالات الغير المتناهية ، ومنه بدأ الأمر وإليه يعود والأمر لما بدئ من القلب فرجوعه إليه أنسب ، إذ كل شيء يرجع إلى أصله .

جوهرة في بيان تربية اللطائف : ثم اعلم أن كلام الله تعالى وأحكام رسوله ﷺ متعلقة بعضها لقالب الإنسان وبعضها للقلب وبعضها للنفس وبعضها للروح وبعضها للسر ، أما ما كانت متعلقة للقالب فهي الأحكام الشرعية ، وما كانت متعلقة للنفس فهي أحكام الطريقة ، وما كانت متعلقة للقلب فهي أحكام الأحوال ، وما كانت متعلقة للروح فهي أحكام المعرفة ، وما كانت متعلقة للسر فهي أحكام الحقيقة ، فافهم فهذا دقيق .

ولما كانت تربية اللطائف من أربى المهمات وأسناها تحقق أن منزلة الإنسان عند الله تعالى وكماله ومرتبته يكون على قدر كمال تربية لطائفه وتجوهرها بتنورها .

ثم اعلم أيها الأخ الأسعد جعلك الله تعالى وإيانا في زمرة السعداء الصالحين أنه لا بدّ للسالك والمريد الصادق من المداومة على الذكر ودفع الخواطر النفسانية ومحافظة النسبة الشريفة ليتنور باطنه ويتصفى ويتوجه إلى الله تعالى بالكلية ، فإذا صفا باطنه فيظهر من الباطن علامة من الأنوار المختلفة وينكشف له لكل لطيفة نور مخصوصا ، وهذه الأنوار أغلبية لا كلية كما ذكرنا في هذا الفصل فللقلب نور أصفر وللروح نور أحمر وللسر نور أبيض وللخفي نور أسود وللأخفى نور أخضر .

وهذه الأنوار تظهر للسالك أوّلا بالمشاهدة ويعبر عنها في اصطلاح السادات بالسير الأنفسي وبعضهم يعبرون بالسير الآفاقي ، وذلك أن النور المتصل بالعرش يسمى بالآفاقي وما جاوزه يسمى بالسير الأنفسي ، ومن كشف له الأنوار يراها مشاهدة ولبعضهم لا يكشفها ، ومع ذلك إن من كان على كمال الاستقامة لا بأس من مشاهدة الأنوار وعدمها ولا خلل بالعدم ،

بل يمكن أن يكون عدم المشاهدة أحوط للسالك وأولى لئلا يتعرض للقلب خطرات بمشاهدتها ، فافهم فإنه مهم دقيق والله تعالى يعصمك .

وقال الإمام الرباني قدس سره : ثم اعلم أن السالك إذا اشتغل بالذكر الإلهي جل سلطانه بعد تصحيح النية وتخليصها ، وقدم الرياضات الشاقة والمجاهدات الشديدة وحصّل التزكية وبدل الأوصاف الرذيلة بالأوصاف الحسنة وتيسرت له التوبة والإنابة وزال حب الدنيا عن قلبه وحصل له الصبر والتوكل والرضا وشاهد هذه المعاني الحاصلة له في عالم المثال بالتدريج والترتيب ، ورأى نفسه طاهرا ومصفى عن الكدورات البشرية والصفات الرذيلة لكان قد أتمّ السير الآفاقي البتة .

واختار طائفة في هذا المقام الاحتياط وقرروا الأمر على تمثل كل لطيفة من اللطائف السبعة الإنسانية في عالم المثال بصورة نور من الأنوار المناسبة لها ، وجعلوا علامة صفاء كل لطيفة ظهور نور من تلك الأنوار المثالية ، وابتدأوا هذا السير من لطيفة القلب ، وأوصلوه بالتدريج والترتيب إلى لطيفة الأخفى التي هي منتهى اللطائف ، وجعلوا علامة صفاء قلب السالك مثلا ظهور ذلك القلب في عالم المثال بصورة النور الأحمر ، وجعلوا علامة صفاء الروح ظهوره بصورة النور الأصفر ، وقد ذكرناها من قبل وعلى هذا القياس .

فكان حاصل السير الأفاقي أن يشاهد السالك تبدل أوصافه وتغير أخلاقه في مرايا عالم المثال وأن يحس زوال ظلماته وكدوراته في ذلك العالم ، حتى يحصل له اليقين بصفائه ويثبت العلم بتزكيته .

ولما كان السالك في هذا السير يشاهد أحواله وأطواره ساعة فساعة في عالم المثال الذي هو من جملة الآفاق ، ورأى فيه انتقاله من هيئة إلى هيئة ، كان سيره في الأفاق وإن كان هذا السير في الحقيقة سيرا في نفس السالك ، وكانت الحركة حركة كيفية في أخلاقه وأوصافه . انتهى

ثم اعلم أيها الأخ أن لللطائف معارج ، فمنها لطيفة تعرج إليه في يوم كان مقداره ألف ألف سنة ، ولطيفة تعرج إليه في يوم كان مقداره سبعمائة سنة ، ولطيفة تعرج إليه في يوم كان مقداره ثلاثمائة وستين سنة ، ولطيفة تعرج إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ولطيفة تعرج إليه في يوم كان مقداره أقل من لمحة ، وهذه اللطيفة الإنسانية الكاملة المتحققة للمرائية وإفشاء سر معاريجها المقدرة من حد القرآن مما لا يحل إفشاءه تعرج الملائكة يعني القوى الروحانية والروح الإنسي إليه أي إلى حضرة الله ﷻ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، لأنهم ما كسبوا من أرض البشرية استعدادا وقوة .

فأما المدبرات الأمر التي أنزلها الله من السماء والأرض ، فهم يعرجون إليه في يوم كان مقداره ألف سنة ، كما قال عز من قائل : ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

ولأجل هذا السر قال الشيخ الصمداني أبو الحسن الخرقاني قدس الله روحه : إني صعدت ظهيرة لأطوف بالعرش فرأيت جماعة كثيرة يطوفون بالعرش طوافا ولا يعجبني طوافهم لبرودتهم وسكونهم فطفت بالعرش ألف طوفة وما أتموا واحدا فسألتهم : من أنتم وما هذه البرودة في طوافكم ؟ قالوا : نحن الملائكة وهذا طبعنا لا يمكن أن نتجاوز مما جبلنا الله تعالى عليه ، فسألوني : من أنت وما هذه السرعة ؟ قلت : أنا ابن آدم وهذه السرعة نتيجة الطبيعة التي ركزت فينا . انتهى

ولقد أدركت هذا وإن لم يكن من الضروريات لتحديد الفهم والله يعصمكم وهو على كل شيء قدير .

ثم اعلم أن العالم عالمان : روحاني وجسماني ، ولكن يختلف باختلاف الألفاظ لما أنهم يقولون حسي وعقلي وعلوي وسفلي ، والكل متقارب وإنما تختلف باختلاف العبارات ، وذلك إذا اعتبرتهما في أنفسهما قلت جسماني وروحاني ، وإن اعتبرتهما بالإضافة إلى العين المدركة لهما قلت حسي وعقلي ، وإن اعتبرت أحدهما إلى الآخر قلت علوي وسفلي ، وربما سميت

بأحدهما عالم الملك والشهادة والآخر عالم الغيب والملكوت ، ومن يطلب الحقائق من الألفاظ ربما يتحير عند كثرة الألفاظ وتخيل كثرة المعاني ، والذي ينكشف الحقائق يجعل المعاني أصلا والألفاظ تَبَعاً ، و أمر الضعيف بالعكس منه إذ يطلب الحقائق من اللفظ ، وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى : ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

وإذا عرفت معنى العالمين فاعلم أن العالم الملكوتي عالم غيب إذ هو غائب عن الأكثر ، والعالم الحسي عالم الشهادة إذ شهده الكافة ، والعالم الحسي مرقاة إلى العقل ، فلو لم يكن بينهما اتصال ومناسبة لانسدَّ طريق الترقي إليه ، ولو تعذر ذلك لتعذر السفر إلى الحضرة الربوبية والقرب من الله تعالى ، فلا يقرب أحد من الله سبحانه ما لم يطأ بحبوحة حظيرة القدس .

والعالم المرتفع عن إدراك الحس والخيال هو الذى تعينه بعالم القدس ، فإذا اعتبرنا جملة من حيث لا يخرج منه شيء ولا يدخل ما هو غريب منه سميناه حضرة القدس ، وربما سمينا الروح البشري الذي هو مجرى لوائح القدس الوادي المقدس .

ثم هذه الحظيرة فيها حظائر بعضها أشد إمعانا في معنى القدس ، ولكن لفظ الحظيرة تحيط بجميع طبقاتها فلا تظنن أن هذه الألفاظ طامات غير معقولة عند أرباب البصائر .

واشتغالي الآن بشرح كل لفظ مع ذكره يصد عن المقصد ، فعليك التشمر لفهم الألفاظ .

فأرجع إلى الغرض وأقول : لما كان عالم الشهادة مرقاة إلى عالم الملكوت ، وكان سلوك الصراط المستقيم عبارة عن هذا الترقي وقد يعبر عنه بالدين وبمنازل الهدى ، فلو لم يكن بينهما اتصال ومناسبة لما تصور الترقي من أحدهما إلى الآخر ، فجعلت الرحمة الإلهية عالم الشهادة على موازنة عالم الملكوت ، فما من شيء في هذا العالم إلا وهو مثال لشيء من ذلك العالم ،

وربما كان الشيء الواحد مثالا لأشياء من الملكوت ، وربما كان للشيء الواحد من الملكوت أمثلة كثيرة من عالم الشهادة ، وإنما يكون مثالا إذا ماثله نوعا من المماثلة وطابقه نوعا من المطابقة ، وإحصاء تلك الأمثلة يستدعي استقصاء جميع موجودات العالمين بأسرها ولن تفي به القوة البشرية ، وما اتسع لفهمه القوة البشرية فلا يفي الأعمار القصيرة ، فغايتي أن أعرفك أنموذجا ليستدل باليسير على الكثير وينفتح لك باب الاستبصار بهذا النمط من الأسرار .

فأقول : إن كان في عالم الملكوت جواهر نورانية شريفة عالية يعبر عنها بالملائكة ، منها يفيض الأنوار على الأرواح البشرية ولأجلها قد تسمى أربابا ويكون الله تعالى رب الأرباب لذلك ، ويكون لها مراتب في نورانيتها متفاوتة ، فبالحريّ أن يكون مثالها من عالم الشهادة الشمس والقمر والكواكب ، والسالك للطريق أولا ينتهي إلى ما درجته درجة الكواكب ، فيتضح له إشراق نوره وينكشف له أن العالم الأسفل تحت سلطانه وتحت إشراق نوره ويتضح له من جماله وعلو درجته ما يبادر فيقول : هذا ربي ، ثم إذا اتضح له ما فوقه مما رتبته رتبة النور أي أفول الأول في مغرب الهوى بالإضافة إلى ما فوقه فقال : لا أحب الآفلين ، وكذلك يترقى حتى إلى ما مثاله الشمس فيراه أكبر وأعلى فيراه قابلا للمثال لنوع مناسبة له معه ، والمناسبة مع ذي النقص نقص وأفول أيضا ، فمنه يقول : ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ ، ومعنى (الذي) إشارة مبهمة لا مناسبة لها ، إذ لو قال من أمثال مفهوم (الذي) لم يُتصور أن يجاب عنه .

فالمنزه عن كل مناسبة هو الأول الحق ، ولذلك لما قال فرعون لموسى عليه السلام : وما رب العالمين ؟كالطالب لماهيته لم يجبه إلا بتعريفه سبحانه بأفعاله ، إذ كانت الأفعال أظهر عند السائل . انتهى كلام مؤلف « كشف المحجوب » .

وقال شيخنا قدس سره : العالم هو الظل الثاني وليس إلا وجود الحق الظاهر بصور الممكنات كلها ، فلظهوره بتعيناتها سُمِّي باسم السوى والغير باعتبار إضافته إلى الممكنات ، إذ لا وجود للممكن إلا بمجرد هذه النسبة ،

وإلا فالوجود عين الحق والممكنات ثابتة على عدميتها في علم الحق وهي شؤونها الذاتية .

فالعالم صورة الحق والحق هوية العالم وروحه ، وهذه التعينات في الوجود الواحد أحكام اسمه (الظاهر) الذي هو مجلى لاسمه (الباطن) عالم الجبروت هو عالم الأسماء والصفات الإلهية .

عالم الأمر وعالم الملكوت وعالم الغيب هو عالم الأرواح والروحانيات لأنها وجدت بأمر الحق بلا واسطة مادة ومدة ، وعالم الخلق وعالم الملك والشهادة هو عالم الأجسام والجسمانيات ، وهو ما يوجد بعد الأمر بمادة ومدة . « جامع الأصول » .

وقد أطلنا الكلام في العالم لكون معرفة ذلك من المهمات .

وقال الشيخ عبيد الله أحرار ﷺ : إن سر ظهور العالم لا يكون معلوم شخص إلا بالمجاهدات الكثيرة والرياضات الشديدة يصحبها الهمم العالية . . الخ

المراد ممن يصحبها الهمم العالية كما قاله الشيخ محي الدين ﷺ في « الفتوحات » أن يكون مرمى قصده وهمته ومطمح نظره ذات الحق سبحانه وتعالى ، فإذا كانت تلك الهمة موجودة لكن ليست لصاحبها مجاهدات كثيرة ورياضات شديدة لا ينكشف له سر ظهور العالم الذي هو من الأسرار الغامضة ، ومجرد وجود الهمة من غير أن يلابس بالمجاهدة والرياضة وكذلك مجرد حصول المجاهدة والرياضة من غير تحصيل هذه الهمة لا يعطيان نتيجة ولا يجذبان نفعا أصلا ، ذكره في « الرشحة » .

ولا يخفى أن عالم الملك عبارة في اصطلاح القوم الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم عن عالم الشهادة ، ويقال له عالم الخلق أيضا ، يعني عالم الأجسام والجسمانيات وهو من محدب فلك الأفلاك المسمى بالعرش الأعظم في لسان الشرع إلى مركز كرة الأرض ، وهو عالم يتوقف وجوده على مدة ومادة ، وعالم الملكوت عبارة عن عالم الأرواح والروحانيات من الملائكة

وغيرهم ويقال له عالم الأمر أيضا ، وهذا عالم لا يتوقف وجوده على مدة ومادة بل هو موجود بمجرد أمره تعالى بلا واسطة ولا سبب .

قال الشيخ عبد الرزاق الكاشي ﾒ في « اصطلاحاته » : إنما قيل لهذا العالم عالم الأمر لكونه موجودا بمجرد أمره تعالى .

وقال الشيخ الأكبر محي الدين العربي ﾒ : إنما قيل لهذا العالم عالم الأمر لعدم النهي فيه بل فيه أمر محض ، فإن استعداد أهل ذلك العالم وهم الملائكة الكرام على وجه لا يتطرق إليهم اسم المخالفة حتى يترتب إليه النهي .

وعالم الجبروت عبارة عن عالم أسماء الله تعالى وصفاته ، وعالم اللاهوت عبارة عن مرتبة الذات من غير اعتبار الأسماء والصفات ، وعالم الناسوت عبارة عن عالم الأجسام والجسمانيات ، وهذان اللفظان أعني عالم اللاهوت والناسوت متقابلان ومأخوذان من عبارة النصارى واصطلاحاتهم وتطلقهما الصوفية أحيانا على مرتبة الغيب والشهادة والله أعلم .

وقال الشيخ صدر الدين قنوي ﾒ بمضمون هذا : إن جميع أفعال وأعمال وأخلاق الإنسان مركوزة في النفس ومكنوزة في القلب ، ولكن إن جملة ذلك عبارة عن القوى الباطني ، وذلك أن كل شيء منها تتشكل في عالم البرزخ أي متصورة بأشكال مختلفة ، فإن أريد من تلك الأشكال معرفة الصورة إما ظلماني أو نوراني فيمكن علم ذلك على هذه الكيفية ، وذلك أن من غلب عليه العشق والمحبة فيظهر له صور الاشربة والذكر والقرآن والتسبيح والتفاح والعنب والبطيخ وأمثالها من العبادات والطاعات والصدق والإخلاص والتقوى والورع والمعرفة والحور والغلمان والقصور واللؤلؤ والمرجان والياقوت ، أي يظهر على صور هذه ، وإن غلب على أحد من السالكين الشهوة والقوة الغضبية فيظهر له الخنزير والثيران والحيات والأفاعي ، وإن غلب صفة الكبر فيظهر له صور الأسود واللبوة وأمثالها من الضواري ، وإن غلب صفة البخل والحرص يظهر له على صورة العنكبوت والعقرب وأمثالها ، وتكون رؤية هذه الصور والأشكال إما في النوم أو الواقعة . كذا في « رشحات » .

وقال الإمام الرباني ﵁ في « مكتوباته » : إن الإنسان عبارة عن مجموع عالم الأمر وعالم الخلق ، عالم الخلق هو صورة الإنسان وظاهره ، وعالم الأمر هو حقيقة الإنسان وباطنه ، وإنما قالوا للأعيان الثابتة حقائق الممكنات باعتبار أن الممكنات ظلال تلك الأعيان ، وتلك الأعيان أصولها ، فإن حقيقة الممكنات وماهيتها هي نفس ظلال تلك الأعيان ، لأن الممكنات صارت ممكنات بتلك الظلال وحصل لها بها وجود ظلي ، بخلاف الأعيان التي يثبتون فيها تعينات وجوبية ويرونها فوق مراتب الإمكان ، فإن تعين الوحدة وتعين الواحدية اللذين هما في مرتبة الأعيان الثابتة قالوا : إن كلا منهما تعين وجوبي ، واعتقدوا التعينات الثلاثة الباقية ، أعني التعين الروحي والتعين المثالي والتعين الجسمي تعينات إمكانيات .

فالقول بكون التعين الوجوبي حقيقة للتعين الإمكاني على سبيل التجوز ، لأن الحقيقة الإمكانية إنما تكون من عالم لا من مرتبة الوجوب ، وكان أصل الشيء هو حقيقة الشيء .

فما قالوا من أن الصوفي كائن بائن يعني بظاهره مع الخلق وبباطنه مفارق عنهم وكان مع الحق سبحانه وتعالى ، وأرادوا بظاهره عالم الخلق وبباطنه عالم الأمر ، وقالوا في حق هذا المقام الذي هو مقام الجمع بين التوجهين أنه عال جدا واعتقدوه مقام التكميل والإرشاد وظنوه مرتبة الدعوة .

ولهذا الفقير في ذلك الموطن معرفة خاصة : وهي أنه يكون شخص من أخص الخواص ويكون مجموع عالم الخلق والأمر بالنسبة إليه صورة وظاهرا ، وتكون حقيقته وباطنه الاسم الذي هو مبدأ تعينه مع أسماء وشؤونات أخر هي كالأصل لذلك الاسم حتى تنتهي إلى حضرة الذات المجردة عن الشؤون والاعتبارات .

وهذا العارف التام المعرفة إذا تيسر له الوصول إلى الاسم الذي هو قيومه بعد طَيِّهِ جميع المراتب الإمكانية وصار قوله أنا منقلعا عن المراتب

الإمكانية ومنطبقا على ذلك الاسم ، وانطبق على مراتب فوق ذلك الاسم التي هي كالأصول لذلك الاسم آنا فآنا بالترتيب على سبيل العروج ، وبلغ بهذا النمط مرتبة الأحدية المجردة ، تصير تلك المراتب التي انطبق عليها قوله أنا كلها حقيقته ويكون عالمه الأمري كعالمه الخلقي صورة تلك الحقيقة وتلك الصورة مثل الكسوة لتلك الحقيقة ، وهي كالشخص اللابس لتلك الكسوة .

وحيث كان إطلاق أنا في الآخرين مقصورا على عالم الخلق والأمر لا جرم تكون صورتهم وحقيقتهم عين عالم الخلق والأمر والأسماء التي هي مبادي تعيناتهم ليست غير أن تكون قيومات لهم . انتهى

فريدة في وحدة الوجود والشهود : ذكر شيخ شيخنا قدس سرهما في « جامعه » وحدة الوجود وقال : فقال الإمام جعفر ﷺ : إن الله تعالى أول الأول وآخر الآخر وأظهر الظاهر وأبطن الباطن ، فسقطت هذه المعاني وبقي هو . انتهى ، وهذا معنى قولهم : التوحيد إسقاط الإضافات .

واعلم أن التوحيد الوجودي هو الذوق والشوق والوارد ووضوح أسرار المعية والصيحة والغيبة والاستغراق والرقص والسماع والوجد والتواجد ، وكلها في سير لطيفة القلب فإن سيرها أولا في دائرة الإمكان ، ومن أحوال هذه الدائرة الجذب والحضور والجمعية والواردات والكشف الكوني وكشف الأرواح وكشف عالم المثال ، وسير عالم الملك وهو عبارة عما تحت الأفلاك ، وسير عالم الملكوت وهو عبارة عن عالم الملائكة والأرواح والجنة وما فوق السموات وكلها داخلة في دائرة الإمكان ، بل تشاهد أمثال هذه الشعبذات في نصفها السافل ويقولون لهذا السير الأفاقي ، بل كمال الحضور والجمعية والجذبات القوية يحصل في الدائرة الثانية التي هي عبارة عن سير تجليات الأفعال الإلهية ، وسير ظلال الأسماء والصفات وهي المسماة بدائرة الولاية الصغرى ، وعلامة وصول القلب إلى دائرة الولاية الصغرى اضمحلال توجهه إلى الفوق وإحاطته بالجهات الست ، وأن يرى معيته تعالى اللامثلية بالإدراك اللامثلي بسيطة بالوجود وبجميع العالم ، وينكشف أسرار التوحيد الوجودي .

ومنشأ ذلك أنه يظهر للسالك بسبب كثرة العبادات والمجاهدات وترك المألوفات والمرغوب ودوام الذكر والفكر غلبة العشق والمحبة للمحبوب الحقيقي وينجذب قلبه ويتوجه إلى جناب القدس ، وهذه المجاهدات والترك إذا وقعت منه موافقة لاتباعه عليه الصلاة والسلام ، تصفّي باطنه من علائق السوى وتُجَلّي قلبه من وسخ الغفلة إلى حد يكون باطنه مرايا عكوس ظلال الأسماء والصفات الواجبة ، وحيث لم ير السالك العاشق المسكين محبوبه وقد وصل إليه تعشقه بتصور الصفات وعكوس الظلال عين المحبوب ، فيتكلم بالشطحيات ويرى صورة محبوبه مرآة باطنه ، ويكون غائبا ومدهوشا ويقع في سره خيال الوصال ولا يفرق لغاية عطشه بين الظل والأصيل .

فلا جرم يتفوه ويجهر بالاتحاد والعينية ، وتصل غلبة هذه الرؤية عليه إلى حد يرتفع عن نظره تعينه وتشخصه أيضا ويقول جهرا : سبحاني وأنا الحق .

وحيث ورد في الحديث القدسي : « أنا عند ظن عبدي بي » يعاملونه بموافقة ظنه ، ولما فني صاحب هذه الحالة عن نفسه وعن حظوظه فهو بعيد عن الطعن والملام ، وداخل في زمرة الأولياء والمجذوبين للحق سبحانه .

واعلم أن التكلم بكلمات التوحيد ووحدة الوجود قبل وصول القلب إلى الدائرة الثانية التي هي مقام انكشاف التوحيد خلاف الشريعة ، فتخيل العوام مراقبة التوحيد لا يزيدهم غير خسارة الدنيا والآخرة . انتهى وراجع في « الجواهر » ٣٥ .

فصل

في بيان مراتب التجليات ومعانيها و سنذكر بعض متعلقاتها إن شاء الله تعالى

اعلم أيها الأخ السعيد أن التجلي مقام عظيم ووهب جسيم ، ولم يزل الأنبياء والأولياء يتنافسون فيها ، وقل أهلها في هذا الزمان خاصة لخفاء الأولياء واختفائهم .

واعلم أن التجليات الواردة على أهل الله تعالى ثلاثة أقسام : فعلية وأسمائية وذاتية ، ولكل واحد طرق وموارد ومراتب شتى غير محصورة تفاصيلها إلا جملها .

أما التجلي الفعلي فإنها إنما يبدو عندما رقت حجب النفس وشفت بزوال آثار الانحرافات عنها وعن كل ما ينسب إليها من القوى والصفات ، وخَفَّتْ أثقال أوزار الآمال والأماني وأحكام العادات والتعلقات والتشوفات عن ظهرها ، إما بمحض العناية والجذبة التي توازي عمل الثقلين ، وإما بالمداومة على الذكر ، أو التحقق بالمقامات الإسلامية بأداء حقوقها وتعدي بعض المقامات الإيمانية حتى ظهر فيها غلبة حكم الوحدة والعدالة ، وزال عنها حكم كثرة الانحرافات واستيفاء حظوظ البشرية والحيوانية ، وبدا أثر وحدة القلب الباطن في حقيقة النفس أعني وصف عدالتها بين حكم الصور المحسوسة وبين حكم معنى الحياة وبين حكم أثر الروح الحيوانية المضاف إليها التدبير للمزاج والصورة ، وسرى أثر تلك الوحدة والعدالة في جميع الصفات الأصلية ومظاهرها المضافة إلى النفس نحو البصر والسمع والنطق والعقل ، فمتى ما نظر هذا السائر عند ذلك ببصره المنصبغ بحكم هذه الوحدة والعدالة إلى شيء حال غلبتها على أحكام الكثرة والانحرافات لم يُلْفِ«١» ذلك الشيء المدرك ببصره إلا حسنا معتدلا ملائما مقيلا ، وخصوصا إذا كان المنظور إليه شخصا إنسانيا كان اجتلاء الحسن ثمَّ أتم وأكمل .

« ١ » أي لم يجد .

والحسن بحسب المفهوم في عرف العموم حسي وعقلي وروحاني وشرعي ، ويضاده القبح في جميع هذه المراتب الأربع ، وللحسن رتبة خامسة عند الله تعالى خارجة عن مفهوم العامة وعن فهم لا يضاده قبح يتعلق ذلك الحسن بحكمة الموجد الحق تبارك وتعالى وأوصافه ، ثم إذا وافق نظره ببصره المنصبغ بصبغة الوحدة والعدالة في حسن ذلك المنظور إليه توجُّهٌ صحيح وحداني خالص إلى حضرة محبوبه ومطلوبه الحق سبحانه وتعالى وتقدس ربما يتجرد له في أثناء ذلك الحسن فعل الحق الباري عزّ وعلا في كل سبب ، ويكشف عليه من حيث ذلك القلب النسبي وحدة فعل الحق تعالى وتقدس دون أن يتجلى له الفاعل الحقيقي الحق سبحانه . . الخ ، فيشاهد الناظر في صور صاحب اللعب بالصور الخيالية أفعاله الظاهرة والصادرة في الحس من تلك الصور الجمادية ، ومن حركاتها وسكناتها من صاحب اللعب ويرى تلك الأفعال أنها صادرة من ذلك الرجل المستتر بستارته ، فيرى بسبب شفوف الستارة فعل ذلك الفاعل ولا يرى الفاعل ، وذلك مثل الشهود من جهة عين اليقين ، لا علم اليقين المقيد بحال الحجاب بالكلية ، ولا حق اليقين المتعلق بشهود تجلي الفاعل من حيث أسمائه أو صفاته أو من حيث ذاته .

فبهذه الشهود يشيد طلب هذا السائر ويزداد وجدا في السير وقوة في التوجه ، وحينئذ يحدث هذا التجلي الوجداني الفعلَ المشهود في لباس الحسن الوجداني المضاف إلى هذا المنظور إليه عند نظرته الأولى فيه أثرا من حقيقة الحب الأصلي الساري في جميع الأشياء ، الكائن في حقيقة هذا السائر وسر المحرض والباعث له على هذا السير ، ويبرز ذلك الأثر من باطنه منجذبا إلى جاذبه الذي هو عين التجلي الفعلي ووحدته وعدالته الظاهر بصورة حسن ذلك المنظور ، فيظهر ذلك الأثر الحبي المشار إليه بقوله : « حتى أحبه » أي حتى أظهر أثرا مخصوصا من حقيقة الحب لا عينه المشار إليه بقوله : « فإذا أحببته » ، فإن ذلك العين إنما يظهر عند التجلي الأسمائي أو الذاتي في القلب الحقيقي التقي النقي .

وأصحاب هذا التجلي الفعلي والتعلق بالحب بسببه على طبقات بحسب تفاوت استعداداتهم ، فمنهم من أوقفه قصور استعداده على صورة معينة بحيث لا يحصل له التجلي الفعلي إلا من حيثية تلك الصورة ، ويتعلق حبه بتلك الصورة ويتقيد بها ولا يمكنه التجاوز عن صورة ، غاية ما في الباب أن ينتقل من معين مقيد إلى مثله ، فلا يزال محصورا في قيد منظور إليه معين إذا انصرم حبل تشبث بآخر مدة حياته .

ومنهم من يعطيه قوة استعداده الجواز عن المعين المقيد إلى المطلق ، لكن يقع في معرض توقف لعارض فيجوز عنه عند زوال العارض بطيئا أو سريعا ، وربما تقع هذه العوائق له مرارا كثيرة حتى يتخلص من القيد ويترقى إلى إطلاق رؤية هذا التجلي في كل منظور إليه .

ومنهم من يترقى إلى الإطلاق بسرعة عظيمة مع أدنى توقف في منازله كحال الخليل عليه السلام .

ومنهم من يكون ترقيه وجوازه بكمال استعداده في غاية السرعة كالبرق الخاطف بلا توقف وعائق أصلا كسير صاحب ذوق ، ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ ، فإنه لم يزغ بصره إلى شهود مقيد متعين طرفة عين ولا طغى قلبه وحبه بالتطلع إلى الآثار والأغيار لمحة ، وقوله ﷺ : « لو كنت متخذا أحدا خليلا لاتخذت أبابكر خليلا ، ولكن أخي وصاحبي وقد اتخذ الله صاحبكم خليلا » يشير إلى هذا الترقي بسرعة ويعبر عن هذا الذوق الخ .

والمراقبة هي استدامة علم العبد باطلاع الرب عليه في جميع أحواله .

والمشاهدة – وقد ذكرناها في هذا الكتاب – هي رؤية الحق في كل ذرة من ذرات الوجود مع التنزيه عما لا يليق بعظمته .

التجلي هو ما ينكشف لقلب السالك من أفعاله تعالى ، فإذا تجلى بفعل من أفعاله انكشف للسالك جريان قدرة الله في الأشياء فيرى أنه تعالى هو المحرك والمسكن شهودا حاليا لا يعرفه إلا أهله .

والتجلي الصفاتي هو ما ينكشف لقلبه من صفاته تعالى ، فإذا تجلى عليه بصفة من صفاته تعالى بعد خفآء صفة العبد ظهر عليه بعض آثار تلك الصفة ، فإذا تجلى عليه بصفة السمع صار يسمع نطق الجمادات وقس عليه سائر الصفات .

وأما تجلي الأسماء فهو ما ينكشف لقلبه من أسمائه تعالى فإذا تجلى عليه باسم من أسمائه اصطلم العبد تحت نور ذلك الاسم ويصير بحيث إذا نودي الحق تعالى بذلك أجاب المنادي : ذلك العبد المستغرق . « شيخ أرسلان » .

والتجلي عند المشائخ الكرام في نفسه على قسمين أحدهما شعشعاني والآخر غير شعشعاني ، أما نور شعشعاني فهو نور الذات الذي كالشمس في اختطاف الأبصار ، ولتجلي هذه المرتبة يعبرون بالبرقي الآني لكونه كالبرق الخاطف فإنه إن استمر هذا التجلي في آنين لا يقدر المتجلى له أن يتحمل ذلك ويقع صعقا كما صار ذلك لموسى عليه السلام في الطور بمفهوم قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ الآية .

وأما نور غير شعشعاني فهو كنور القمر لا يخطف الأبصار ، والمتجلى له يقدر تحمله لكن إن داوم عليه يكاد أن يصعق أو يصل إلى مرتبة الصعق وإن لم يصل إلى عين الصعق الشعشعاني ، فالفرق بينهما كما بين الشمس والقمر فتفطن ، وأن المتجلى له لا يشعر بنفسه عن غيره .

واختفاء الأغيار عند ظهور أنوار الحق سبحانه وتعالى في نظر المتجلى له كاختفاء الكواكب عند طلوع الشمس مع بقاء أعيانها ، وأهل الله سبحانه قد يجري على ألسنتهم في غلبة الأحوال أنهم الحق ، أي أنهم متحققون في الحق فانون فيه ، وليس المعنى أن المتجلى له يخرج عن الشعور بالكلية مطلقا ، فذلك صفة الأبله السفيه كما ذهب إليه أوهام الدجالين ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وهذا التعريف نذكر في الغيبة إن شاء الله تعالى .

وقال بعض العارفين : اضطر كل ناظر بعقله إلى تحقق سبق الوجود على العدم ، إذ كل موجود يشهد بذلك ، ولو سبق العدم المطلق لاستحال وجود موجود ، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن

وَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلى أَنَّهُ واحِــدُ

لا ريب أن اللذة العقلية أتم وأعظم من الحسية بما لا يتناهى ، والترقي إلى الله تعالى بالأعمال الحميدة والأخلاق المجيدة ولذة مناجاته السعيدة من أفضل الكمالات وأعظم اللذات .

فمن العجب كيف جعل الحق تعالى على طاعته وما يقرب إليه جزاء ؟ ! فإن للدال على الهدى فضلا على الموَفَّق ، والمُمِدُّ على فعله أولى بأن يكون له الجزاء ، لكن بسطة جوده وسعة رحمته اقتضت الأمرين معا قال تعالى : ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾

فانظر كيف أفاد إحسانه إحسانا وسماه جزاء ، واقض حق العجب من دقائق ذلك واشكر من سلك بك هذه المسالك !

فأنت أيها الطالب لا تعرف ضلالك عن معرفة الوجود الحق بسبب غلبة أحكام الكثرة والانحرافات عليك ، ولو عرفت لألزمت نفسك الرجوع عن ضلال هذا الشرك والكفر بإزالة كل بقية في النفس من أحكام الكثرة والانحرافات الخفية ؛ ليظهر وحدة القلب الكامنة فيها ، وحينئذ يستبين حقيقة الحق بظهور التجلي الوجودي الوجداني في القلب ويتبدل الشرك والكفر بالتوحيد الصرف .

وحقيقة الشرك والكفر الاحتجاب عن الحق سبحانه وتعالى في أي مرتبة كان بأي شيء كان ، وحقيقة الحجاب انطباع الصور الكونية في القلب المانعة لقبول تجلي الحقائق ، وبواسطة فناء كثرة صفات النفس والخرافات يقلب حينئذ حكم وحدة القلب وعدالته على أحكام كثرة النفس ويقهرها ، ثم بعد ذلك يرجع أحيانا إلى آثار نفسه فيه بحكم النشأة البشرية فيغلب عليه حكم التجلي الحاصل في قلبه ويظهر فيه ذلك التجلي بأحكامه ، ووقتا لا يغلب عليه أحكام النفس ولا أحكام التجلي ويكون مع وحدة قلبه .

ثم اعلم أن التجلي مطلقا ظهور أنوار الغيب إلى قلب العبد الصادق ، ولها مراتب أربعة :

الأولى مرتبة تجلي الآثار ، والآثار هي ظل وآثار الأفعال الإلهية ، ومعناه أن نفس السالك من جملة تلك الآثار .

والثانية مرتبة تجلي الأفعال ، وذلك أن جميع الآثار والألوان صنع الأفعال الإلهية ، ومعناه أن أفعال وصنع السالك من تلك الرشحة ، والأفعال أيضا ظل الأسماء والصفات الإلهية .

والثالثة مرتبة تجلي الصفات ، وذلك أن صفات الكمالية والجلالية والجمالية للحق سبحانه وتعالى ، والمعنى أن كمال السالك وكمال أوصافه من أثر كمال الله سبحانه على سبيل الانعكاس وأن الصفات ظل الذات .

والرابعة مرتبة تجلي الذات ، وذلك أن جميع الموجودات ولوازمها للحق سبحانه وتعالى ، وليس للسوى مدخل سوى مجرد الاسم ، وهذه نهاية المرتبة وهو أصل ومنبع جميع التجليات ، وباقي التجليات ظل هذه التجلية أو ظل ظلها أو فرعها ، والسالك الواصل إلى هذا المقام معدود من الواصلين ، جعلنا الله تعالى وإيّاكم من الواصلين إلى مقامات أرباب حق اليقين .

فالحاصل أن التجلي بالآثار يكون في الجسد ، وتجلي الأفعال في القلب ، وتجلي الصفات في الروح ، وتجلي الذات في السر ، وأن الشهود أيضا أربعة : شهود أفعال في القلب وشهود أسماء في الروح وشهود صفات في السر وشهود الذات في الأخفى .

ثم اعلم أن التجلي بطريق الأفعال رتبة من القرب ، ومنه يترقى إلى التجلي بطريق الصفات ومن ذلك يترقى إلى التجلي الذاتي ، والإشارة في هذه التجليات إلى رتب في اليقين ومقامات في التوحيد شيء فوق شيء وشيء أصفى من شيء .

فالتجلي بطريق الأفعال يحدث صفو الرضا والتسليم ، والتجلي بطريق الصفات يكسب الهيبة والأنس ، والتجلي بالذات يكسب الفناء والبقاء ، وقد يسمى ترك الاختيار والوقوف مع فعل الله تعالى فناء يعنون فناء الإرادة ، والإرادة ألطف أقسام الهوى ، وهذا الفناء هو الفناء الظاهر ذكره في « العوارف » للشيخ السهروردي ﷺ .

وذكر شيخنا ﷺ في « جامعه » ٦٩ وقال : التجلي هو ما يظهر للقلوب من أنوار الغيوب ، والتجلي الأول هو التجلي الذاتي وهو تجلي الذات وحدها لذاتها ، وهي الحضرة الأحدية التي لا نعت فيها ولا رسم ، إذ الذات وجود الحق المحض لأن ما سوى الوجود من حيث هو وجود الحق ليس إلا العدم المطلق ، وهو اللاشيء المحض فلا يحتاج في أحديته إلى وحدة وتعين يمتاز به عن شيء أي وحدته عينه لا عين غيره ، فوحدته عين ذاته وهذه الوحدة منشأ الأحدية والواحدية ، لأنها عين الذات من حيث هي ، أعني لا بشرط شيء هو الواحدية ، والحقائق في الذات الأحدية كالشجرة في النواة وهي غيب الغيوب .

والتجلي الثاني هو الذي تظهر به الأعيان الممكنات الثابتة التي هو شؤون الذات لذاته تعالى ، وهو التعين الأول بصفة العالمية والقابلية لأن الأعيان معلوماته الذاتية القابلية للتجلي الشهودي ، وللحق نزول عن الحضرة الأحدية إلى الحضرة الواحدية بالنسب الأسمائية .

والتجلي الشهودي هو ظهور الوجود المسمى باسم النور وهو ظهور الحق بصورة أسمائه في الأكوان التي من صورها ، وذلك الظهور مدد هو نفس الرحمن الذي أوجد به الكل . « جامع الاصول » .

ثم اعلم أن السالك ما دام أثرٌ من بقايا أحكام كثرة نفسه باقيا فيه فلا بد أن يكون مبتلى بالشرك الخفي بحيث يثبت وجودا آخر في مقابلة المحبوب يضاف إليه الآثار فيلتفت قليلا إليه وإلى الآثار ، وإلى ذلك الالتفات الإشارة بقوله سبحانه : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ ، أي على علم

بأن له إلها مستحقا للألوهية سوى من اتخذه الساعة إلها ، وما دام في السالك أدنى تطلع إلى الغير فبقدر ذلك التطلع اليسير ينقطع عن تطلعه إلى محبوبه ، وينقطع عن وصله وقربه ، فإن عرف بيقين أن الذي اتخذه إلها هو فانٍ وهالكٌ يرجع من ضلال الالتفات عليه إلى هدى الإعراض عنه والإقبال بكلّيته على من علمه إلها حقيقيا ومحبوبا أصليا ، فإذا عرف هذا وأفنى ذلك القدر اليسير من بقايا أحكام كثرة نفسه الخفية بحيث يظهر وحدة قلبه ويتجلى فيه حضرة محبوبه فحينئذ وحّده توحيدا على بصيرة وانتفى عنه أثر إثبات الغير ، ولكن مع ذلك إذا رجع بحكم ضرورة النشأة إلى نفسه وحسه وعقله وزال عنه ظهور الوحدة فظهر في نظره شهود الكثرة يظهر له حينئذ شهود الغير والسوى بحيث يزعم ويدعي أن ذلك الغير **والسوى ثابت** ، فلم يثبت السالك في مقام التوحيد مالم يمح عنه إثبات الغير ودعواه إياه .

فهذا الشأن والأمر العظيم الذي هو حقيقة التوحيد وشهوده من ذلك السالك لا ينقصه إلا شهود الغير والغيرية والمغايرة بين المطلق والمقيد المضاف إلى نفس السالك وحسه وعقله المتسم كل واحد بِسِمَة الخلقية ، فإن كلا منهم لم يدرك الأشياء وأعيانهم أيضا إلا متميزا بالوجود مستقلا بالذات ، وكلا منهم أضاف إلى كل وجودا مغايرا لوجود الآخر ، ونسب إليه صفات وأحوالا مغايرة للصفات والأحوال المنسوبة إلى الآخر ، وادعى أن لكل وجودا ثابتا مستقلا غير وجود غير محتاج ولا متعلق بوجود سواه ، فلزم من هذا عين الشرك ونقص شهود عين التوحيد .

فحالة الكشف ظهر له عين التوحيد ، وحالة الاحتجاب عرض له هذا الشرك بحكم شهود النفس والعقل ، فلو انمحى عن السالك دعوى أن للغير والغيرية تحققا وثبوتا بحكم سراية أثر الجمعية من مقام الحقيقة وحضرة جمع الجمع في ظاهره وباطنه ونفسه وحسه وعقله ، لظهر له أمر التوحيد وحقيقته في كل حال أعني في حال الكشف والحجاب ، ولثبت له تمكن من شهود حقيقة التوحيد على كل حال ، ووصل إلى مرتبة الراسخين الكاملين

العارفين الموحدين بالحقيقة ، ولا يقدر السالك على ذلك إلا بالله سبحانه ، فهو سبحانه وتعالى مُثَبِّتُه بذلك المحو الذي من فعله ﷻ جزاء على فعل السالك الذي هو امتثال أمره سبحانه وتعالى لا حجتك .

وما دام العبد يضيف إلى نفسه صفة أو فعلا فهو عاكف على الشرك الخفي ، ونظر الشرك يفرق بينه وبين محبوبه وشهود الحقيقة مشروط بوحدة النفس وانخلاعها عن تكثير الصفات وتعداد الجهات ليحصل المناسبة بينها وبين الواحد النازل بها ، ويصل السالك بذوق الكشف والوجدان إلى مقام المنازلة وهو مقام ارتفاع الإثنينية كما قاله محمد فارسا ﷺ فتأمل فإنه دقيق .

فائدة

اعلم أن عند القوم تجليا بالجيم المعجمة وتحليا بالمهملة وتخليا بالخاء المعجمة :

فالتجلي ظهور الذات محجبة بالأسماء والصفات وذلك عند فنائه عن بشريته كما قال سيدي مصطفى البكري قدس الله سره ونفعنا به :

أبى القَلْبُ إلا حُبَّ دَعْدٍ وأَسْماء   إذا ما تَجَلَّتْ في بَراقِعِ أَسْماء

والتحلي القيام بمعاني الأسماء تعبدا كما قال في الحديث : « تخلقوا بأخلاق الله تعالى » .

والتخلي بالخاء المعجمة سقوط إرادة العبد واختياره اعتمادا وتوكلا عليه . « تنوير الصدر » ٦٥

واعلم أيها الصادق الأمين ، أنّ أسرار الملكوت محجوبة عن القلوب المدنسة بحب الدنيا التي استغرقت أكثرها طلب العاجلة ، وإنما ذكرنا هذا القدر تشويقا وترغيبا ، ثم إن صدقت رغبتك تشمرت للطلب واستعنت

فيه بأهل البصيرة واستمددت منهم ، فما أراك تفتح لو استبددت فيه برأيك وعقلك ، والموَفَّقُ بعضُهم[١] .

المعرفة أخص من العلم لأنها تطلق على معنيين كل منهما نوع من العلم :

أحدهما العلم بأمر باطن يستدل عليه بأثر ظاهر قال سبحانه وتعالى : ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ .

وثانيهما العلم بمشهود سبق به عهد ، كما إذا رأيت شخصا رأيته قبل ذلك بمدة فعلمت أنه ذلك المعهود ، فقلت : عرفته بعد كذا سنة عهدته ، فالمعروف على الأول غائب وعلى الثاني شاهد .

فمن العارفين من ليس له طريق إلى معرفة الله تعالى إلا الاستدلال بفعله على صفته ، وبصفته على اسمه ، وباسمه على ذاته أولئك ينادون من مكان بعيد .

ومنهم من خُصَّ بحكم العناية الأزلية فيشهده سبحانه بعد المشاهدة السابقة في معهد ألست بربكم ، ويعرف به أسماءه وصفاته عكس ما يعرف العارف الأول .

وبين العارفين بون بين وتفاوت بعيد ، إذ الأول لغيبة معروفه كنائم يرى خيالا غير مطابق الواقع ، والثاني معروفه كمتيقظ يرى شهودا حقيقيا مطابقا للواقع ، والحق سبحانه وتعالى وحداني الذات والصفات والأسماء والأفعال ، بمعنى أنّ كل شيء نسب إليه ذات أو صفة أو اسم أو فعل فنسبتها إليه مجازية ، لأنها في الحقيقة عكوس أنوار تجليات الذات والصفات الأزلية والأسماء والأفعال الإلهية في مظاهر الكون ، وليس لمظاهرها شيء منها حقيقة كما للمرآة من الصور المتجلية فيها .

« ١ » عبارة تستعمل بمعنى الموفق قليل .

فالسمع والبصر وغيرهما من الصفات في أيّ موصوف كان هو الله تعالى حقيقة ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾إشارة إلى تخصيصه ﷻ بالصفات والأسماء ، وإظهار الحق تعالى سر ذاته وصفاته ما كان لخفائه عليه قبل ذلك ولكن ليتجلى باسمه (الظاهر) آخرا كما كان متجليا باسمه (الباطن) أولا .

والعجب كل العجب أنه سبحانه ما ظهر بشيء من مظاهر أفعاله إلا وقد احتجب به ! وذلك لإيقان صنعته وبليغ حكمته ، ولا نعني بالاسم اللفظ بل مدلوله وهو الذات الموصوفة بصفة كاللطيف والقهار ، وهذا معنى قول العلماء رحمهم الله تعالى : الاسم هو المسمى ، وعلامة المتحقق باسم من أسماء الله تعالى أن يجد معناه في نفسه كالمتحقق باسمه الحق علامته أن لا يتغير بشيء كما لم يتغير الحلاج قدس الله روحه تحقيقا لتحققه بهذا الاسم . انتهى كلام السادات .

وذكر شيخنا قُدِّسَ سِرُّهُ في « جامعه » ٢٢٥ : الستر والتجلي ، فالستر للعوام والتجلي للخواص ، والمراد بالستر قيام الحجب المانعة من المشاهدة ، وصاحب التجلي موصوف بالخشوع أبدا لقوله عليه الصلاة والسلام : « إذا تجلى الله تعالى لشيء خشع له » ، وللخواص أيضا ستر مع أنهم في دوام التجلي ، والحالتان في حقهم متناقضان لفظا لا معنى ، لأن التجلي عبارة عن انكشاف سرادقات الجلال عن كمال الجمال ، والستر في حق الخواص عبارة عن حفظهم عن التلاشي والاحتراق وتمكينهم في مقام الثبات ، إذ لولا ستره عليهم ما يكاشفهم به لتلاشوا عند ظهور سلطان الحقيقة إذ الخلق لا بقاء لهم عند وجود الحق ، وإلى هذا أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله : « إنه لَيُغانُ«١» على قلبي حتى أستغفر الله تعالى في اليوم سبعين مرة » . والاستغفار طلب الغفر وهو الستر ، فمعناه أنه كان يطلب الستر للثبات والبقاء عند غلبة سلطان الحقيقة ، وإليه أيضا أشار ﷺ بقوله : « يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك » .

« ١ » وفي هامش نسخة « ش » : أي يقع الحجاب .

وفي الخبر : « إن الله جلّ وعلا لو كشف عن وجهه لأحرقت سبحات وجهه ما أدرك بصره » .

وقيل : إنما قال الله تعالى لموسى : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ ليستر عليه بتلك المشاغلة بعض ما كان فيه من دوام التجلي الحاصل له بمناجاة سماع الخطاب الإلهي ويردّه إلى حالة الثبات والتمكن .

فالحاصل أن الستر للعوام عقوبة وللخواص رحمة ، وأصحاب الذوق كعوام هذه الطائفة ، فلا جرم أن عيشهم في التجلي وبلاءهم في الستر ، وأما الخواص فهم بين طيش وعيش ، إذا تجلى لهم طاشوا وإذا ستر عليهم ردّوا إلى الثبات والتمكن فعاشوا . انتهى

وينتقل من الغيبة إلى الشهود ، والمعنى أن الانتقال من الغيبة إلى الشهود من قبيل العطف التفسيري وليس المراد من الشهود ، والمعاينة رؤية الحقيقة بالحمل بالبصر وهو ظاهر قال ﷺ : « إن أحدكم لن يرى ربه حتى يموت » ، بل المراد به حالة تحصل للعبد عند رسوخه في كمال الإعراض عما سواه تعالى وتمام توجهه إلى حضرته بحيث لا يكون في لسانه وقلبه ووهمه وسرّه غيره ، وهذه الحالة سميت مشاهدة لمشاهدة البصيرة إياه واشتغال القلب والقالب به وأشار إليه من قال :

خَيالُكَ في عَيْني وَذِكْرُكَ في فَمي ... وَحُبُّـكَ فيْ قَلْبـي فَأيْـنَ تَغيـبُ ؟ !

ذكره شيخ زاده

وقال بعض سادات القوم : إن نهاية هذا الطريق هل هي حضور ومشاهدة أم فناء وغيبة ، وما يفهم من كلام بعض الأكابر أنها حضور ومشاهدة ، ولكن أشبه أن تكون النهاية في الواقع هي الفناء والغيبة فإن التعلق بالحضور والمشاهدة نوع تعلق بالغير . اهـ

وقال أيضا : إن للشهود معنيين : **أحدهما** شهود الذات المقدسة المبرأة عن الظهور في لباس المظاهر ، **وثانيهما** شهود الذات المقدسة من لباس المظاهر من غير وصف الكثرة بل بنعت الوحدة ، ويقال لهذا الشهود عند الصوفية شهود الأحدية في الكثرة ، وكان النبي ﷺ على هذا الشهود بعد البعثة . انتهى

ونقل عن الشيخ أبي سعيد أبي الخير قدس سره أنه قال : تكلم في ماهية التصوف سبعمائة شخص من مشائخ الطريقة قدس الله أرواحهم ، وأتم الأقوال وأحسنها في هذا الباب هو أن التصوف صرف الوقت لما هو أولى به . انتهى

وقال الشيخ عبيد الله الأحرار قدس سره : كان الشيخ أبو سعيد قدس سره يقول لأصحابه : لا تجيؤوا عندي بلحم قديد بل بلحم جديد .

قال الشيخ محي الدين ابن عربي قدس سره : إن مقصود الشيخ أبو سعيد من هذا الكلام تعليم الهمة لأصحابه ، يعني لا تجيئوا عندي بأسرار الناس وحقائقهم ومعارفهم ، بل احضروا عندي بشيء خاص بكم ظاهر من مِنَصَّة قلوبكم . انتهى

وقال بعض الأكابر في معنى قول الشيخ عبيد الله الأحرار قدس سره قال : كان حضرة الشيخ بهاء الدين عمر قدس سره يركب فرسا أبيض في أكثر الأوقات فسئل عن سببه بعض خواصه فقال : إن اختياره للفرس الأبيض لكون بعض التجليات الصورية مشهودا له كذلك . . الخ ، يعني أن خصوصية كل صورة بالنسبة إلى أرباب المكاشفات والمجاهدات مبنيّة على اختلاف الاستعدادات واختلافات المعاني والحقائق اللتان تنكشفان لهم في صور الأشياء ، مثلا وقع التجلي الصوري لموسى عليه السلام في لباس شجرة في الوادي المقدس ، ووقع لسيدنا محمد صﷺ في صورة شاب مخطط الوجه كما نطق به بعض الأحاديث . انتهى كلامه .

ولا يخفى أنه كتب الشيخ الأكبر محي الدين بن العربي قدس سره في بعض مؤلفاته : رأيت ربي على صورة الفرس .

وقال الشيخ ركن الدين علاء الدولة ﷺ في شرح هذا الكلام في بعض مصنفاته : إن السالكين يرون الحق سبحانه وتعالى بالتجليات الصورية وهي مناسبة للآثار ، ويرونه بالتجليات النورية وهي مناسبة للأفعال ، وقد يرونه بالتجليات الذوقية وهي مناسبة للذات ، ويتجلى الحق سبحانه وتعالى للعبد في التجليات الصورية التي هي مناسبة للآثار في صورة جميع الأشياء من مفردات العنصريات والمعادن والنباتات والحيوانات وأفراد الإنسان ، فإذا تجلى في واحد من المواليد الثلاثة ثم أراد أن يتجلى في مرتبة أعلى منه يتجلى أولا في أفق ذلك المولود ثم يبتدىء بمولود آخر فوق ذلك ، كما أنه إذا تجلى من المعادن ثم أراد أن يتجلى من النبات يتجلى في صورة المرجان الذي هو أفق المعادن فإنه أقرب المعادن إلى مرتبة النبات لنموه مثل النباتات ، وإذا أراد أن يترقى من النبات إلى الحيوان يتجلى في صورة النخل لكونها أفق النباتات وأقربها إلى مرتبة الحيوان لوجود بعض خواص الحيوانات فيها فإنها تصير يابسة بقطع رأسها ولا تثمر من غير التلقيح وذلك من خواص الحيوان حيث لا تحمل إناثه حتى تجتمع مع ذكوره ، ومتى أراد الترقي من سائر الحيوانات إلى مرتبة الإنسان يتجلى في صورة الفرس لكونه أفق سائر الحيوانات بالنسبة إلى الإنسان لكونه أقرب الحيوانات إليه حيث أن فيه شعورا وفطنة ، وليس فوق الإنسان صورة في التجليات الصورية ، وغاية التجلي الصوري في مرتبة الإنسان أن يتجلى الحق سبحانه وتعالى للسالك في صورة صاحب التجلي يعني المتجلى له .

وليس للسالك مزلة قدم أصعب من أن يتجلى له الحق سبحانه وتعالى في صورة بحيث لا يرى السالك أحدا غير نفسه ، وكلما نظر يرى الكل نفسه ويجد الموجودات كلها محاطة بنفسه ، ومنشأ ظهور قول « سبحاني ما أعظم شأني » و « أنا الحق » و « ما في جبتي سوى الله تعالى » و « هل في الدارين غيري » وأمثالها ، كلها إنما هو هذا التجلي ، وأكثر زلة القدم وقعت لأهل الكشف في هذا التجلي الصوري حتى اجترؤوا على التفوه بمثل هذه الكلمات ، ووقع أكثر مزلة الأقدام للحكماء في التجلي المعنوي حيث أعرضوا

عن متابعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام اغتراراً بمدركاتهم المعنوية فهلكوا في بادية البعد والضلال .

ولما كانت الأولياء محفوظين بيُمْن متابعتهم للأنبياء عليهم السلام وإن وقع منهم سهو في بعض أوقات غلبة السكر عليهم ، لكنهم رجعوا عنه في حال الصحو وتابوا ، فلا جرم رقاهم الله تعالى من منازل التجليات الصورية والنورية والمعنوية إلى مدارج التجليات الذاتية ، وخلصهم من مزلة الأقدام وأوصل سرهم إلى النعيم المقيم أعني التجلي الذاتي رفيع الدرجات ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . انتهى « الرشحات عين الحياة » .

وقال الشيخ العارف الرباني أبو يعقوب يوسف بن أيوب الهمداني ﷿ عن بعض العارفين قال : إن الحق سبحانه وهاب على الدوام فياض على الاستمرار ، فإن استعد العبد و تهيأ وصفا مرآة قلبه وجلاّها حصل له الوهب على الدوام ، ويحصل له في لحظة واحدة ما لا يقدر على تقييده في أزمنة لاتساع ذلك العالم وضيق هذا العالم المحسوس ، وكيف ينقضي ما لا يتصور له نهاية ولا غاية يقف عندها ، ومن كان يأخذ عن الله تعالى كيف ينتهي كلامه أبدا ، فشتان بين من يقول : حدثني فلان عن فلان وبين من يقول : حدثني قلبي عن ربي ﷻ ، وهذا وإن كان رفيع القدر فشتان بينه وبين من يقول : حدثني ربي عن ربي سبحانه ، وهذا هو العلم الذي يحصل للقلب من المشاهدة الذاتية والله ﷻ يرشدنا وإياكم إلى عمل نعمل صالحا يرضاه منا ، ولو فتحنا الكلام على هذه المعارف لكلت اليمين ولايكاد بالحقيقة يبين ، وليست هذه العلوم نتيجة عن فكر ونظر ، ومن طلب الأمر من غير طريقه لم يظفر بتحقيقه ، فنكل علم ذلك إلى الله وإلى من عرف الله تعالى من رسول مرسل أو ولي ملهم ، وفي الحديث : « ما التبس عليكم فكلوه إلى عالمه » . انتهى .

وأما المشاهدة والمكاشفة فقد ذكرناهما في فصلهما فراجعه .

وقال شيخ شيخنا ﷿ : وأما التجلي والواردات والأنوار فاعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يتجلى لأرباب السلوك تجليا متساويا في الرتبة والأسلوب

الواحد والاطراد ، بل تختلف رتب التجليات باختلاف استعداداتهم من حيث القوة والضعف في الصفوة والزكاء ، ومن حيث التقرب والتبعد من الحضرة الإلهية ، لأن مراتب الكشف إنما تزيد وتنقص في التجليات الإلهية بقدر أنوار بصائر القلوب ، وقدر أنوار بصائر القلوب إنما يتفاوت بقدر القرب والبعد من الحضرة الإلهية ، كما أن مراتب رؤية الأبصار تتفاوت بقدر أنوار حاسة الإبصار ، و تفاوت أنوار حاسة الابصار هو باختلاف استعداد القوة الباصرة في اعتدال المزاج العنصري وباختلاف القرب والبعد من المبصرات ، لأن نور الباصرة«١» إنما يكون أزيد إذا كان مزاج الرائي أعدل وكان قربه عن المبصر أكثر ، فحينئذ تكون رؤيته أزيد وأكمل ، وكذلك الحال في شهود البصائر بأنوار التجليات الإلهية ، لأن نور البصيرة إنما يكون أزيد إن كان الاستعداد أقوى وكان قرب البصيرة منه تعالى أكثر فحينئذ تكون البصيرة أكثر شهودا وأكمل كشفا .

واعلم أن أشرف الأنوار وأعلاها نور الحق سبحانه وتعالى ثم نور الروح ثم نور القلب ، فإن ارتقى السالك من مرتبة القلب إلى مرتبة الروح صار نور بصيرته أشرف وأعلى من مرتبة نور القلب ، فعلم من هذا أنه كلما قرب السالك إلى الحضرة الإلهية كان نور بصيرته أشرف وألطف حتى صار له نور قريب التشابه بنوره تعالى ، فلذلك التبس الأمر لبعض من وصل إلى تلك المرتبة فتكلم بكلام دال على الله فتعالى الله علوا كبيرا ، لكن ذلك الكلام يعفى عنه وإذا تاب واستغفر واعتذر كان عذره مقبولا ، ولا يظن السالك أنه إذا وصل إلى تلك المرتبة يحصل له الاتحاد مع الحق سبحانه لأن اتحاد الخالق مع المخلوق محال ذاتي من كل الوجوه ، لأن الاتحاد معناه أن يصير الشيء بعينه شيئا آخر ، فهذا الاتحاد إما في الجسمانيات بأن يكون بالاتصال والامتزاج والتركيب وبطلانه ظاهر في حقه تعالى ، وإما في المجردات وبطلانه ظاهر أيضا ، لأن الشيئين إذا اتحدا فإن بقي أحدهما مع بقاء الآخر فيتعددان فلا

«١» الباصرة هي العين

اتحاد بينهما ، فإن بطل أحدهما وبقي الآخر فلا اتحاد أيضا ، وإن بطلا معا فلا وجود لهما فضلا عن الاتحاد ، فثبت بطلان الاتحادين بين الخالق والمخلوق .

وأما الاتحاد الذي يدل عليه كلام بعض الواصلين إلى نور الأحدية الذاتية في بعض السكرات فلعلاقة القربية ونسبة الأحدية التي تحت تلك العلاقة عند الالتفات إلى ذاته لاستعلاء نور الأحدية عليه ، فينطلق لسانه حينئذ بكلام حكم الأحدية وذلك الكلام ليس في الحقيقة منه بل هو كلام الحق تعالى يتكلم بلسان عبده لكمال قربيته إليه تعالى كما تكلم بالشجرة لموسى عليه السلام : ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾

وَلْتَفْـنَ حَتَّـى عَـنْ فَنائِـكَ إنَّـهُ	عَيْـنُ الوصـالِ فَعنْـدَ ذاكَ تَـراهُ
فـإذا فَنيـتَ بـهِ فَلَسْـتَ بذاتِـهِ	كَـلا وَلَا أيْضـاً تَكـونُ سِـواهُ
شَـيْئانِ مَـا اتَّحَـدا وَلكِـنْ ههُنـا	سِـرٌّ يَضيـقُ نِطاقُنـا عَمّـا هو

انتهى « جامع الأصول » ٢٢٤

واعلم أن هذا الطريق الذي نحن في صدد قطعه كله سبعة أقدام بعدد اللطائف السبع الإنسانية ، قدمان منها في عالم الخلق يتعلقان بالقالب أعني البدن العنصري والنفس ، وخمسة منها في عالم الأمر مربوطة بالقلب والروح والسر والخفي والأخفى ، وفي كل قدم من هذه الأقدام السبع ترتفع عشرة آلاف حجاب نورانية كانت تلك الحجب أو ظلمانية : « إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة » .

ففي القدم الأولى التي توضع في عالم الأمر يظهر التجلي الأفعالي ، وفي الثانية التجلي الصفاتي ويقع الشروع في التجليات الذاتية في الثالثة ثم وثم ، على تفاوت درجاتها كما لا يخفى على أربابها في كل خطوة من الخطوات السبع يبعد السالك عن نفسه و يقرب من ربه سبحانه وتعالى حتى يتم القرب بتمام هذه الأقدام ، فحينئذ يتشرف بالفناء والبقاء ويبلغ درجة الولاية الخاصة .

واختار مشائخ النقشبندية قدس الله أسرارهم ابتداء هذا السير من عالم الأمر وهم يقطعون مسافة عالم الخلق أيضا في ضمن هذا السير بخلاف مشائخ سلاسل أُخَر قدس الله أسرارهم ، ولهذا كان طريق النقشبندية أقرب الطرق فلا جرم صارت نهاية غيرهم مندرجة في بدايتهم . شعر :

يَدُلُّ عَلى حُسْنِ الزَّمانِ رَبيعُهُ

وطريق هؤلاء الأكابر هو بعينه طريق الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، فإن ما حصل للأصحاب في أول صحبة خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام بطريق اندراج النهاية في البداية قلما يحصل لكمّل الأولياء في النهاية ، ولهذا كان الوحشي قاتل حمزة رضي الله عنه أفضل من أويس القرني الذي هو خير التابعين لنيله صحبة النبي ﷺ مرة واحدة ، سئل عبد الله بن المبارك رضي الله عنه : أيهما أفضل معاوية أو عمر بن عبد العزيز ؟ فقال : والله الغبار الذي دخل في أنف فرس معاوية مع رسول الله ﷺ خير من عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم كذا مرة .

فينبغي أن يتأمل في أنه إذا كان بداية جماعة بحيث اندرجت فيها نهاية غيرهم ماذا تكون نهايتهم وكيف يسعها إدراك الآخرين ، وما يعلم جنود ربك إلا هو !

لَوْ عابَهُمْ قاصِرٌ طَعْناً بِهِمْ سَفَهاً ... بَرَّأْتُ ساحَتَهُمْ مِنْ أَفْحَشِ الكَلِمِ
هَلْ يَقْطَعُ الثَّعْلَبُ المُحْتالُ سِلْسِلَةً ... قِيدَتْ بِهـا أُسْدُ الدنيا بِأَسْرِهِـمِ

كذا قاله الإمام الرباني قدس سره الصمداني في « مكتوباته » ٧٠

فصل

في العبودية وما يناسبها والعباد

وقال الجيلي رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته : الفرق بين العبادة والعبودية والعبودة هو أن العبادة صدور أعمال من العبد لله تعالى لطلب الجزاء ، والعبودية صدور أعمال البر من العبد لله تعالى لا عن طلب الجزاء عملا خالصا له تعالى ، والعبودة هي عبارة عن العمل بالله تعالى ، ولذلك كانت الهيمنة لمقام العبودة على جميع المقامات . « تنوير الصدر » على هامش « الأحزاب » في٧١

وقال ابن عطاء الله السكندري ﷿ في « حكمه » : كن عبدا لله تعالى في كل شيء عطاء ومنعا وعزا وذلا وغنى وفقرا وقبضا وبسطا .

والمعنى أي معنى قول (اجعلنا) صيرنا (عبيدا) عابدين متذللين لك خاضعين لعظمتك (في جميع الحالات) اجعلنا كاملين في العبودة الخالصة التى يختار فيها الرق على الحرية كما قال ابن الفارض ﵀ :

عَبْدُ رِقٍّ ما رَقَّ يَوْماً لِعِتْـقٍ   لَوْ تَخَلَّيْتَ عَنْهُ ما خَلّاكا

اهـ .

يعني ما مال خاطره إلى أن يعتق . منه ٧٢ . راجع « جامع الأصول » في ١٨٥ وفي ١٣٣

فصل

في بيان الفنآء والبقاء تفصيلا والغيبة عن الوجود ومعناها

وسئل أبو سعيد ابن الأعرابي رضي الله عنه عن الفناء فقال : الفناء أن تبدوا العظمة والجلال على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة والأحوال والدرجات والمقامات والأذكار تفنيه عن كل شيء وعن عقله وعن نفسه وفنائه عن الأشياء وعن فنائه عن الفناء لأنه يغرق في التعظيم عقله .

قالوا : والفناء على ثلاثة أوجه : **فناء في الأفعال** ومنه قولهم : لا فاعل إلا الله تعالى ، **وفناء في الصفات** ومنه قولهم : لا حي ولا عالم ولا قادر ولا مريد ولا سميع ولا بصير ولا متكلم على الحقيقة إلا الله تعالى ، **وفناء في الذات** أي لا موجود على الإطلاق إلا الله تعالى وأنشدوا في ذلك :

فَيَفْنى ثُمَّ يَفْنى ثُمَّ يَفْنى   فَكانَ فَناؤُهُ عَينَ البَقـاءِ

« شرح الحكم » ١٩

وقال سيدي محي الدين قدس سره : من شهد الخلق لا فعل لهم فقد فاز ، ومن شهدهم لا حياة لهم فقد حاز ، ومن شهدهم عين العدم فقد وصل ، وأنشدوا في هذا المعنى :

مَـنْ أبْصَـرَ الخَلْـقَ كالسَّرابِ   فَقَـدْ تَرَقَّـى عَـنِ الحِجابِ
إلـى وُجـودٍ يَـراهُ رَتْـقـاً   بـلا ابْتِعـادٍ وَلا اقْـتِـرابِ
وَلَـمْ يُشـاهِدْ بِـهِ سِـواهُ   هُنـاكَ يُهْـدَى إلـى الصَّوابِ
فَـلا خِطـابٌ بِـهِ إلـيـهِ   وَلا مُشـيرٌ إلـى الخِطـابِ

ابن عباد . اهـ« ١ »

« ١ » الرندي شارح « الحكم العطائية » ج ١ ص ١٦ .

وقالوا : الحجاب ينقسم إلى ما هو حجاب ظلمانيّ كثيف وإلى ما هو نوراني لطيف ، والحجاب الظلماني يكون في توحيد الأفعال للعوام الجهال والحجاب النوراني يكون للخواص في توحيد الأسماء والصفات الآخذين في طريق الأعمال الشاهدين لما يصدر عنهم من حسن الأفعال وسنيّات الأحوال .

ولكلّ حجاب علامة على من قام به ، فعلامة حجاب العوام برؤية الخلق وأفعالهم دون الله تعالى وعلامة حجاب الخواص برؤية أعمالهم وأن لهم فيها حولا أو قوة .

فالحجاب الظلماني يقتضي العذاب وسوء الحساب والثاني يقتضي الالتفات إلى الأغيار وكثائف الأستار والتعوق عن اللحوق بأهل التحقق والعيان .

فمن كان مشهده أفعال الخلق دون الله تعالى فهو بعد لم يخرج عن حيز المبعدين ولم يعدّ من أصحاب اليمين فضلا عن أن يكون من المقرّبين السابقين ، ومن شهد أن لا فعل لهم دون الله تعالى فهو معدود من عوام المؤمنين ومن جملة أصحاب اليمين فهو موحد في الأفعال وذلك متعين على كل مسلم متديّن ، فحيث صح له ذلك فقد نجا بحمد الله من ورطة الجحود وانتظم في نظام الإيمان وتكفل له بالأمان من جملة عباد الرحمن .

ومن ترقى من ذلك بأن شهد أن لا حياة لهم فذلك رتبة في التوحيد ومقام في التفريد الخاص بالمقربين ، وهو أول رتبة في طريق الإرادة وإشراق شمس السعادة ، وقد أذن له في الدخول وأن له الوصول والظفر بالمأمول ، وأماّ رتبة خواص الخواص فهو أن يشهدوا وجودهم عين العدم لاستغراق أرواحهم في شهود القدم بمطالعة أنوار الذات المحرقة وأسرار الصفات المشرقة ، فهذا هو الواصل الإمام الكامل فلو كلف إلى رؤية الغير لم يستطع إلى ذلك سبيلا ، جعلنا الله تعالى من محبيهم وأيّدنا على آدابهم آمين ، قاله السيد ابن زيني دحلان ﷺ .

وقال الشيخ السهروردي ﷺ : و من ملكه الله تعالى اختياره وأطلقه في التصرف يختار كيف شاء وأراد لا منتظرا للفعل ولا منتظرا للإذن هو باق ، والباقي في مقام لا يحجبه الحق عن الخلق ولا الخلق عن الحق ، والفاني محجوب بالحق عن الخلق ، والفناء الظاهر لأرباب القلوب والأحوال والفناء الباطن لمن أطلق عن وثائق الأحوال وصار بالله لا بالأحوال وخرج عن القلب فصار مع مقلبه لا مع قلبه . انتهى « عوارف » في الباب ٦١ .

وقال العارف بالله علي بن حسين الهروي عن شيخه عبيد الله الأحرار قدس الله أسرارهما قال : قال شيخنا : قال بعض أكابر النقشبندية قدس الله أرواحهم : إن وجود العدم يعود إلى وجود البشرية ، وأما وجود الفناء فلا يعود إلى وجود البشرية .

ومعنى هذا الكلام بحسب الظاهر أن المراد من وجود العدم هو تحقق صفة العدم في الطالب التي هي عبارة عن الغيبة التي تحصل للمبتدئين في الطريقة النقشبندية في أثناء مشغوليتهم ، وأما بحسب الحقيقة فإن وجود العدم عبارة عن ظلّ الوجود الحقيقي الذي يلقيه إلى مدركة السالك ثم بواسطة كمال شغله الباطني وخلو قلبه عن النقوش الكونية يظهر ذلك الظل بعد غيبته ، وهذا الظل هو وجود ذلك العدم وهذا الوجود يعود إلى وجود البشرية يعني يزول هذا الظل ثانيا ويستتر ويغلب لوازم وجود البشرية ، بخلاف الوجود الموهوب الحقاني الذي يقال له البقاء بعد الفناء فإنه لا يزول لحصوله بعد التحقق بمقام الفناء فكما أن الفناء يعقبه وجود البقاء كذلك هذا العدم يعقبه الوجود ، وذلك الوجود وإن كان في الحقيقة ظل الوجود الحقيقي الباقي لكنه بواسطة عدم التحقق بمقام الفناء يتوارى أحيانا إلى أن يكون ثابتا وراسخا انتهى .

وقال الشيخ عبيد الله الأحرار ﷺ : إذا استتر الملك والملكوت عن الطالب ونسيهما الطالب يكون ذلك فناء ، وإذا استتر وجود السالك عن نفسه يكون ذلك فناء الفناء ، امتُحِنَ فلان في هذا المعنى فاستولت عليه الهيبة فتضرع حتى ارتفعت عنه ولذا لم يجوز الأكابر امتحان هذه الطائفة .

وقال بعض السادات ﷺ : ليس معنى الفناء المطلق أن لا يكون لصاحب الفناء شعور بأوصافه وأفعاله أصلا ، بل معناه نفي إسناد الأوصاف والأفعال إلى نفسه بطريق الذوق وإثباته للفاعل الحقيقي جل ذكره ، وما قاله الصوفية إن النفي لا ينافي الإثبات إنما هو بهذا المعنى . انتهى

ثم اعلم أيها الرشيد الموفق أن أقاويل الشيوخ في الفناء والبقاء كثيرة ولجميعهم محامل ، وكلهم تكلموا على وفق مشربه وعلى قدر استعداده ، وكلهم إن شاء الله تعالى على الحق والصواب وما قاله أهل الحق حق بلا ارتياب .

قال في « عوارف المعارف » : فبعضها إشارة إلى فناء المخالفات وبقاء الموافقات وهذا تقتضيه التوبة النصوحية فهو ثابت بوصف التوبة ، وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل وهذا يقتضيه الزهد ، وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف المذمومة وبقاء الأوصاف المحمودة وهذا يقتضيه تزكية النفس ، وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء المطلق .

و كل هذه الإشارات فيها معنى الفناء من وجه ولكن الفناء المطلق هو ما يستولي من أمر الحق سبحانه وتعالى على كون العبد ، فيغلب كون الحق على كون العبد ، وهو ينقسم إلى فناء ظاهر وفناء باطن ، فأما الفناء الظاهر فهو أن يتجلى الحق سبحانه وتعالى بطريق الأفعال ويسلب عن العبد اختياره وإرادته فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلا إلا بالحق ثم يأخذه في المعاملة مع الله تعالى بحسبه ، حتى سمعت أن بعض من أقيم في هذا المقام من الفناء كان يبقى أياما لا يتناول الطعام والشراب حتى يتجرد له فعل الحق فيه ويقيض« ١ » الله له من يطعمه ويسقيه كيف شاء وأحب ، وهذا لعمري فناء لأنه فني عن نفسه وعن الغير نظرا إلى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله تعالى .

والفناء الباطن أن يكاشف تارة بالصفات وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات فيستولي على باطنه أمر الحق حتى لا يبقى له هاجس ولا وسوسة ،

« ١ » أي يقدّر .

وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه ، وقد يتفق لبعض الناس غيبة الإحساس وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق .

وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصري ﷺ وقلت له : هل يكون بقاء المتخيلات في السر ووجود الوساوس من الشرك الخفي ، وكان عندي أن ذلك من الشرك الخفي فقال لي : هذا يكون في مقام الفناء ، ولم يذكر أنه من الشرك الخفي أم لا . انتهى

وقد ذكر أيضا فيه : وقد يسمى ترك الاختيار والوقوف مع فعل الله تعالى فناء ، يعنون فناء إرادة الهوى كما ذكرنا هذا آنفا ، والإرادة ألطف أقسام الهوى ، وهذا الفنآء هو الفناء الظاهر وأما الفناء الباطن وهو محو آثار الوجود عند لمعان نور الشهود ، ويكون في تجلي الذات وهو أكمل أقسام اليقين في الدنيا ، وأما تجلي حكم الذات فلا يكون إلا في الآخرة ، وهو المقام الذي حظى به رسول الله ﷺ ليلة المعراج ومنع منه موسى عليه السلام بـ (لن تراني) ، فليعلم أن قولنا في التجلي إشارة إلى رتب الحظ من اليقين ورؤية البصيرة ، فإذا وصل العبد إلى مبادي أقسام التجلي وهو مطالعة الفعل الإلهي مجردا عن فعل سواه يكون تناوله الأقسام من الفتوح . انتهى « رشحة » ٢١٢ .

وقال بعض العارفين : إن الفناء أن يفنى عن الحظوظ فلا يكون له في شيء حظ ، بل يفنى عن الأشياء كلها شغلاً بمن فني فيه .

وقد قال عامر بن عبد الله ﷺ : لا أبالي امرأة رأيت أم حائطا ، ويكون محفوظا فيما لله عليه مصروفا عن جميع المخالفات ، والبقاء يعقبه وهو أن يفنىعما له ويبقى بما لله تعالى .

وقيل الباقي أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا ، فيكون كل حركاته في موافقة الحق دون مخالفته فكان فانيا عن المخالفات باقيا في الموافقات .

وعندي أن هذا الذي ذكره هذا القائل هو مقام صحة التوبة النصوحية وليس من الفناء والبقاء في شيء .

ومن الإشارة إلى الفناء : روي عن عبد الله بن عمر ﵄ أنه سلم عليه إنسان وهو في الطواف فلم يرد عليه فشكاه إلى بعض أصحابه فقال : كنا نتراءى الله تعالى في ذلك المكان .

وقيل : الفناء هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسى ﵇ حين تجلى ربه للجبل .

وقال الخراز ﷳ : الفناء هو التلاشي بالحق والبقاء هو الحضور مع الحق .

وقال الجنيد : الفناء استعجام الكل واشتغال الكل منك بكليته .

وقال إبراهيم بن شيبان ﷳ : علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية وماكان غير هذا فهو من المغاليط . انتهى

اعلم أن المقصود من الفناء الذي هو عبارة عن نسيان ما سوى الحق تعالى هو زوال تعلق المحبة بما دون الحق سبحانه وتعالى ، فإنه إذا زالت ذوات الأشياء وصفاتها وأفعالها عن النظر والإدراك يزول تعلق المحبة بها بالضرورة ، ولا بد في طريق الولاية من نسيان السوى ليزول التعلق بما دون الحق سبحانه وتعالى وفي مدارج قرب النبوة لا حاجة في زوال التعلق بالأشياء إلى نسيان الأشياء أصلا ، فإن في قرب النبوة لا يبقى التعلق بالأصل الذي هو حسن وجميل في حد ذاته اسما ولا رسما عن التعلق بالأشياء وهي قبيحة لا حسن فيها في نفسها سواء نسيت الأشياء أو لا ، فإن صفة الذم إنما عرضت للعلم بالأشياء بواسطة قبح التعلق بها لكونه مستلزما للإعراض عن جناب قدسه تعالى ، فإذا زال التعلق بالأشياء زالت صفة الذم عن العلم بها فلم يبق مذموما وكيف يكون العلم بالأشياء مذموما فإن الأشياء كلها معلومات الحق سبحانه وتعالى وعلمه بها من صفاته الكاملة .

فإن قيل : إذا لم يكن العلم بما دون الحق سبحانه وتعالى زائلا فكيف يجتمع العلم بالحق تعالى مع العلم بما سواه سبحانه وتعالى في وقت واحد فلا مندوحة إذا من نسيان ما سواه تعالى .

قلت : إن العلم المتعلق بالأشياء من قبيل العلم الحصولي والعلم المتعلق بحضرة الحق سبحانه وتعالى مشابه بالعلم الحضوري ، فكلا العلمين يجتمعان في وقت واحد ولا يلزم منه محذور أصلا ، وإنما يلزم المحذور إذا كان كلا العلمين حصوليين ، وإنما قلنا من قبيل العلم الحصولي ومشابه بالعلم الحضوري فإنه ليس هناك حقيقة الحصول ولا مجال للحضور ، وعلمه تعالى المتعلق بالأشياء ليس حصوليا فإنه لا حلول للحوادث في ذاته تعالى وصفاته ولا حصول ، وعلم مثل هذا العارف ظل من ذلك العلم ، والعلم المتعلق بحضرة الحق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يقال أنه حضوري فإنه تعالى أقرب إلى المدركة من نفس المدركة أيضا .

والعلم الحضوري بالنسبة إلى ذلك العلم كالعلم الحصولي بالنسبة إلى العلم الحضوري ، وهذه المعرفة وراء طور العقل والفكر من لم يذق لم يدر .

فتقرر أن العلم بالأشياء ليس بمناف للعلم بالحق ، فلا يكون نسيان الأشياء لازما أصلا بخلاف طريق الولاية ، فإن زوال علاقة الأشياء هناك غير متصور بدون نسيان الأشياء ، فإن في الولاية تعلقا بالظلال وليس في ذلك التعلق قدرة إزالة التعلق بالأشياء مع وجود العلم بها ، فلا بد فيها أولا من نسيان الأشياء حتى تزول التعلقات بها ، وهذه معرفة مخصوصة بهذا الدرويش لم يتكلم بها أحد ، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله تعالى لقد جاءت رسل ربنا بالحق قاله الإمام الرباني ﷺ في « مكتوباته » في ٣٧٠ .

وقال الخواجه علاء الدين نوّر الله مرقده وطيب مشهده : إن المريدين من بركة نظر حضرة الخواجه بهاء الدين ﷺ يتشرفون بسعادة المراقبة في القدم الأول ، وإذا أراد نظر حضرة رحمته يصلون إلى درجة الفناء ويفنون عن أنفسهم ويبقون بالحق . انتهى كلامه .

سأل بعض أكابر الطائفة حضرة الخواجة ﷺ عن معنى قول البعض : « الصوفي غير مخلوق » فما تأويل هذا الكلام ؟ أجاب حضرة الخواجه ﷺ

وقال : إن للصوفي في بعض الأوقات صفة وحالا لا يكون فيها هو ، فهذا الكلام بالنسبة إلى ذلك الوقت ، وإلا فالصوفي مخلوق .

أشار ﷺ في هذا الجواب إلى حالة كمال الفناء فإنه يذهب فيها الوجود الوهمي ويضمحل بالكلية ويبقى الوجود الحقيقي المنزه عن نقائص الحدوث ، فالمراد بغير المخلوق هذا الوجود ، لا الوجود الوهمي الذي هو صفة الصوفي .

وهذا معنى لا يتضح بالعبارة وإنما المقصود منها الإشارة فعليك بمقام الإيمان في هذا الشأن حتى يذيقك الله تعالى لمحة من الفناء فتدخل مقام الإحسان وتشاهد الأمر بالعيان والله المستعان .

وإن أكابر الأولياء يعرض عليهم أحوال في الفناء كما في السكر ، بيد أن لهم في ذلك أسرارا خصهم الله تعالى بها لا يطلع عليها أحد إلا من أذاقه الله تعالىمن العلم اللدني .

فانظر إلى ما قال الحسين بن منصور الحلاج ﷺ : (أنا الحق) فأراد به حقيقة نفسه ، وكذلك قال فرعون : (أنا ربكم) لكن أراد به صورة نفسه ، فلو عرف فرعون حقيقة نفسه لكان قوله (أنا) مقبولا . والله أعلم

وقال الخواجه بهاء الدين ﷺ في معنى « الكاسب حبيب الله » : إن المراد من الكسب هنا كسب الرضا ، ومعنى هذا الكلام : ينبغي للعبد أن يكسب ملكة الرضا بكل ما يفعله الحق سبحانه ، وفي الحقيقة يتيسر حصول هذا المعنى إذا تحقق العبد بالفناء الحقيقي .

وقيل : الفاني لا يرد إلى أوصاف البشرية ، ذكره في « جامع الأصول » ، وبحصول الفناء التام يحصل له أول درجة الولاية الصغرى .

تنبيه

ليس معنى الفناء والزوال هو الفناء الوجودي والزوال الوجودي ، ومعنى البقاء بالله هو زوال الإمكان من الممكن رأسا وحصول الوجود له ثانيا ، فإنه محال عقلي والقول بذلك كفر ، بل هو خلع وليس مع بقاء الإمكانية مثل خلع وليس أثبته أرباب المعقول في العناصر بطريق الكون والفساد إلا أنهم أبقوا هيولاها ثابتا في الحالين مع تبدل الصور النوعية ، ونحن لا نقول بالهيولى ولا نثبته بل نقول أن الفناء والبقاء إعدام وإيجاد من القادر المختار جل شأنه ، جاء في الخبر : « لن يلج ملكوت السموات من لم يولد مرتين »، كأنه أشار إلى الإيجاد الثاني بالولادة الثانية .

وإنما قالوا البقاء بالله تجوزا وتشبيها لزوال الصفات الرذيلة وحصول الأخلاق الحميدة كأنها شبيهة بصفات مرتبة الوجود تعالت وتقدست ، وقد حققت في غير موضع أن ذات الممكن هو العدم ليس إلا هو فلا معنى لزواله ، فإن الممكن ممكن في جميع الأحوال حال الفناء والبقاء كما كان في حال عدمهما ، والواجب تعالى واجب على الاستمرار والدوام لا يلحق بجناب قدسه شيء ولا ينفصل عنه أمر .

ولا يخفى عليك أن بقاء الإمكان في الممكن ليس عبارة عن بقاء الأثر في الممكن وبقاء ثبوته في مرتبة من مراتب الثبوت فإنه مناف للفناء الأتم ، والفاني بهذا الفناء بعد رد الأمانات إلى أهلها ورد الظلال المنعكسة فيه إلى أصلها من الوجود وتوابعه كلها من الصفات الكاملة والنعوت الفاضلة لحق هو بالعدم الصرف الكامل في العدمية بحيث لم يوجد فيه إضافة ولا نسبة إلى شيء ولا اسم ولا رسم ، فإن وجود الإضافة في العدم ينبئ عن ثبوته ولو في الجملة « مكتوبات » الرباني ٧٠

وقال مولانا وشيخ شيخنا ﷺ في « جامع الأصول » في ٥٦ : واعلم أن أكابر النقشبندية جعلوا أصل الفائدة في الجمعية والحضور ، وأنهم لا يمدون أيديهم إلى كل رطب ويابس ولا يتوجهون إلى الصور والأشكال الغيبية ولا يعتبرون

الكشف والأنوار ويرغبون بحصول أمور أربعة : الجمعية والحضور والجذبات والواردات .

فالجذبات عبارة عن انجذاب اللطائف إلى جهة الفوق ، والواردات عبارة عن ورود حال من جهة الفوق على القلب بحيث لا يطيق تحمله إلا بتعسر ويقولون لهذه الواردات في هذه الطريقة الإعدام والوجودات ، وهذا الوارد يرد على السالك في ابتداء حاله أحيانا بل يرد في كل شهر مرة ثم يكثر وروده فيرد في كل أسبوع مرة وفي كل يوم مرة بل في يوم مرات إلى أن يصل من التواتر إلى التوالي فيحصل اتصال الواردات ، وهذا العدم والوجود هو الفناء والبقاء في جهة الجذبة ، ولكن متى تحقق فناء القلب زال من ساحة الصدر التعلق العلمي والالتجاء لما سواه ولم يظهر خطور السوى أصلا وفناء القلب يصير في تجليات الأفعال الإلهية يعني رؤية أفعال ما سوى الحق آثار فعله تعالى ، وإذا غلبت هذه الرؤية على السالك يرى أيضا صفات الممكنات وذواتها مظهر صفات الحق وذاته ويترنم بالتوحيد الوجودي ، وهو عبارة عن رؤية وجود الممكنات أمواج وجوده ويرى ذاته تموجه في بحر وجود حضرة الحق ويقول لهذا أرباب التوحيد الوجودي الفنآء في الله ، وإذا استغرق السالك في هذا البحر لم يجد لبصيرته مشهودا سوى البحر ، وكلما نظر إلى كل جانب لا يرى غير البحر وأمواجه ، بل يجد ذاته قطرة من هذا البحر ويرتفع من نظره امتياز القطرة أيضا لكمال استغراقه . انتهى

وسئل أبو الحسن الخرقاني ﷻ : لمن يجوز التكلم في الفناء والبقاء ؟ قال : لمن إذا علقوه بشعرة في الهواء فجاءت ريح شديدة بحيث تقلع الأشجار وتهدم الجدار وتكدر البحار وتحرك الجبال والأحجار لا تقدر أن تحركه من مكانه قيد أشبار ، يعني لا يترك ما هو فيه وإن عظمت المصيبة وعمت الحوادث لقوة يقينه ، وقال : لا تصاحبوا شخصا إن أنتم تقولون الله هو يقول شيئا آخر . « رشحة » ١٥

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ ، فالحنيف هو الذي مال بكليته إلى الله تعالى ولم تبق له وجهة إلى سواه ، والخلة هي كصبغ الثوب فالعرض الجوهر والجوهر العرض ، فمن أسلم وجهه لله أي أسلم نفسه فلم يبق له في نفسه تصرّف ولا تدبير ، وصار حنيفا مائلا بكليته إلى الله تعالى لا يرى سواه ، صار بصره الذي يبصر به الخ كذا في « العقد النفيس » ١٢٦ .

فصل

في بيان الرابطة وكيفيتها وما يترتب عليها

الرابطة أمر مهم في هذه الطريقة الصديقية ويحصل بها منافع كثيرة ، وإن السادات ما زالوا يواظبون عليها ، قال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

فعلى مقتضى معناها قال الشيخ خواجه عبيد الله الأحرار السمرقندي قُدِّسَ سِرُّهُ : إن معنى الكينونة مع الصادقين على وجهين : أحدهما أن تكون المعية بالصورة بأن يكون بصدق الصحبة ملازما معهم مجالسا بحسن الظن مع أهل الصفاء فيتنوّر باطنه بتلك المصاحبة ، وثانيهما بالمعنوية أي بالجهة المعنوية ، وذلك بأن يكسب السالك الصادق طريق الرابطة مع أهلها ، فبتلك الطريقة وبواسطة أهل الكمالة يتجوهر باطنه وينال مطلوبه .

ومن المعلوم أن صورة الرابطة أن المريد يخيل صورة شيخه بين حاجبيه ويجلس بالتواضع والانكسار فانيا في شيخه متسلما له بحيث يعلم أن نفسه في قبضة شيخه يتصرف فيها كيف شاء ، ويصبر كذلك منتظرا لنزول الفيض من الشيخ حتى يحصل له المطلوب ، وأن كبار المشائخ قَدَّسَ اللهُ أَسْرَارَهُمْ عدوا الرابطة طريقا موصلا حتى قال شيخ محمد معصوم قُدِّسَ سِرُّهُ : إن الرابطة الكاملة التي حصلت برعاية آداب الصحبة كافية للوصول ، فافهم ، فبناء عليه إن رابطة المريد لشيخه مع الاستعداد التام والقابلية موجبة للفيض بقدر استعداده .

وإنما عدّت الرابطة من المهمات لما أن المراد من الرابطة مطلقا أن الصحبة مع الشيخ كلّ وقت حضرا وسفرا متعذر ، فلذلك يحتاج المريد إلى الصحبة المعنوية ليرابطه في غيبته كما في صحبة حضوره ، فصارت الرابطة متعارفة بينهم بالصحبة المعنوية ، فافهم والله تعالى يتولاك .

ثم اعلم أيها الأعز وفّقك الله تعالى للاستقامة أن طرق الوصول إلى الله تعالى عند السادات النقشبندية ﷺ أربعة : فمنها الرابطة ، وهي طريقة مستقلة للوصول ، وهي عبارة عن ربط القلب بالشيخ الواصل إلى مقام المشاهدة المتحقق بالصفات الذاتية وحفظ صورته في الخيال ولو بغيبته ، فرؤيته بمقتضى « الذين إذا رؤا ذكر الله » تحصل الفائدة كما تحصل من الذكر بموجب « هم جلساء الله تعالى » .

ولا يخفى ما ورد من الأحاديث في الحث على جليس الصالح ، والشيخ كالميزاب ينزل الفيض من بحره المحيط إلى قلب المريد المرابط ، وإن وجد الفتور في الرابطة يحفظ صورة شيخه في خياله بموجب « المرء مع من أحب » ، فبحفظ الصورة يتحقق ويتصف المريد بأوصاف الشيخ وأحواله التي له .

وقيل : الفناء في الشيخ مقدمة الفناء في الله تعالى ، وإن وجد في إحضار الصورة سكرا أو غيبة يترك الالتفات إلى الصّورة ويكون متوجها إلى ذلك الحال ، كما نقل في « مقامات السنية النقشبندية » أنه كان واحد من الصوفيّة مشغولا بطريق الرابطة ، وكان يوما في مجلسه« ١ » متوجها إلى تلك الصورة فوجد أثر الغيبة وما التفت إليها ، فقال خواجه نقشبند قدس سره : خلني وكن متوجها إلى تلك الغيبة ، لأن زمان الغيبة عمّا سوى الله تعالى يسمونه زمان الوصول والشهود في اصطلاح القوم .

وفي « المعربات » : قال الغوث الصمداني قدس سره : ينبغي أن يعلم أن سلوك هذه الطريقة العلية مربوط بالرابطة بالشيخ المقتدى به ومحبته ، الذي قطع هذا الطريق بالسير المرادي وانصبغ بقوة الجذبة بهذه الكمالات ، فنظره شاف للأمراض القلبية ، وتوجهه رافع للعلل المعنوية ، وصاحب هذه الكمالات إمام الوقت وخليفة الزمان ، الأقطاب والبدلاء بظلال مقاماته قانعون ، والأوتاد والنجباء بقطرة من بحار كمالاته متسلون كما قاله الشيخ الخاني قدس سره في « بهجته » .

« ١ » كذا في الأصل والمقصود في مجلس الخواجه نقشبند قدس سره .

واعلم أن استحضار الرابطة على أقسام : **الأول** أن يتصور المريد صورة شيخه الكامل بين عينيه ثم يتوجه إلى روحانيته في تلك الصورة ولا يزول عن التوجه إليها حتى يحصل له الغيبة أو أثر الجذبة .

الثاني أن يتصور صورته بين جنبيه ثم يتوجه إلى روحانيته في تلك الصورة كذلك حتى يحصل له الغيبة أو أثر الجذبة ، فبعد حصول الأمرين في الوجهين يترك الرابطة ويشتغل بذلك الأمر الحاصل بالغيبة أو بالجذبة ، وكلما يزول عنه ذلك الحاصل من الرابطة يعود إليها حتى يرجع إليه ذلك الحال ، فهكذا يداوم على الرابطة حتى يفنى عن ذاته وصفاته في صورة الشيخ .

فعند ذلك يشاهد روحانية الشيخ مع كمالاته في صورته لأن الكمالات لا تفارق الروحانية ، فتربّيه روحانية الشيخ بعد ذلك إلى أن توصله إلى الله تعالى فيكون من الواصلين الكاملين ، فبالرابطة يتربىّ المريد من الشيخ ولو كان أحدهما في المشرق والآخر في المغرب .

الثالث أن يتخيل صورة شيخه في جبهته ويقررها وسط الجبهة ، وهو أقوى لدفع المخيلات من القسمين اللذين قبله .

والرابع أن يستحضر صورة شيخه في وسط قلبه ، وهو أعون على دفع الخطرات القلبية .

الخامس أن يتخيل الصورة في جبهته وينزل إلى وسط قلبه ويقدر أن القلب دهليز واسع ويقطع الخواطر جملة واحدة ، وهذا القسم أنفع الأقسام التي قبله وأصعبها .

السادس أن ينفي نفسه ويثبت شيخه ، وهو أقوى لرفع البليات .

ثم اعلم أن الرابطة إنما تفيد إن كانت مع الإنسان الكامل المتصرف بقوة الولاية ، لأن الإنسان الكامل مرآة الحق سبحانه وتعالى ، فمن ينظر إلى روحانيته بعين البصيرة يشاهد الحق فيها ، فبالرابطة يستفيض الشيوخ عن

الصبيان الكاملين ويستفيض الأحياء عن الأموات المتصرفين ، لأن الرابطة تدخل المستفيض تحت تصرف ولاية روحانية المفيض وتتصرف فيه الروحانية وتفيض عليه من الكمالات الإلهية والتجليات الربانية وتبلغه إلى الحضرات العلية ، سواء كان المفيض ميتا أو حيا وسواء عرف ذلك أو لم يعرف . انتهى ما ذكره الشيخ الخاني ﷺ في « بهجته » .

وقال مولانا وشيخ شيخنا ﷺ في « جامعه » في ٥٦ : إن الرابطة عبارة عن حفظ السالك صورة شيخه في مدركه أو في قلبه أو يتصور صورته بأنها صورة شيخه ، فإذا غلبت الرابطة على السالك يرى صورة شيخه في كل شيء ويقولون لهذا الفناء في الشيخ ، فطريق الرابطة هي أقرب الطرق ومنشأ ظهور العجائب والغرائب ، فالذكر وحده بلا رابطة وبلا فناء في الشيخ ليس موصلا ، وأما الرابطة وحدها مع رعاية آداب الصحبة فكافية في الإيصال . انتهى

وقال ابن علوان رضي الله عنه :

سَعِدَتْ عَيْنٌ رَأَتْكَ وَقَـرَّتْ وَ كذا عينٌ رَأَتْ مَنْ رَآكا

ومثّلوا ذلك بالشمس إذا أشرقت على الجدار أنار الجدار الآخر لمواجهة ذلك الجدار الذي أشرقت عليه الشمس ، وهذه طريقة معروفة عند المشائخ يسمونها بالرابطة ، وهي رؤية وجه الشيخ فإنها تثمر ما يثمر الذكر بل هي أشد تأثيرا من الذكر لمن عرف شروطها وآدابها ، وذلك إنما يكون للشيخ الكامل العارف المتشرف بالتجليات الذاتية ، ومن ذلك كان تربيته ﷺ للصحابة وكانوا يستغنون برؤية طلعته الشريفة عن كل رياضة ومجاهدة وينتفعون بأنوار طلعته السعيدة أكثر مما ينتفعون بالأذكار في مدة مديدة ، ولهذا كانت الصحابة رضي الله عنهم لا تتضاهى« ١ » ، والاجتماع بالمشائخ ولو ساعة مرتبة بها يتباهى . انتهى

« ١ » أي لا يشابههم أحدٌ .

قال في « البردة » :

وَكُلُّهُـمْ مِنْ رَسولِ اللهِ مُـلْتَمِـسٌ   غَرْفاً مِنَ البَحْرِ أوْ رَشْفاً مِنَ الدِّيَمِ

قال بعضهم : دخلت على ذي النون المصري ﷺ فرأيته هو وأصحابه مراقبين ، فانتفعتُ بالرؤية قبل سماع الكلام ، وهكذا العارف تستفيد من لحظه قبل أن تسمع شيئا من لفظه ، وترشدك أحواله من قبل أن تصل إلى سمعك أقواله .

قال بعضهم في معرفة مثل هذا العبد :

إذا أنْتَ قد جالَسْتَ شَخْصاً وَلَمْ تَجِدْ   حُضورَكَ يَنْمـو فَاجْـتَـنِـبْـهُ وَفارِقِ
وَلا تَصْحَبْ الأغْيارَ واخْتَرْ مُصاحِباً   يُفيدُكَ جَمْعَ القَلْبِ مِـنْ غَيْرِ عائِـقِ

وقال الشيخ العارف علي بن حسين الهروي ﷺ في « الرشحات » : قال مولانا نظام الدين ﷺ : المشيخة هي أن يقدر الإنسان أن يجمّل نفسه بجمال في نظر المريدين ، فإنه متى لم يوجد الجمال لا تتقوّى رابطة المريد بمراد وجه المحبة التي هي موجبة للجذبة والتصرف ، وقد علمت ذلك بتدبير العقل وتجربته ، ولكن لا وقت لي لأن أتكلّف دائما وأُظهر نفسي بالجمال حتى لا يقع فتور على عقائد الناس وعلاقتهم ، ولهذا سن تسريح اللحية وتحسين تكوير العمامة وتنظيف الثياب وغيرها مما يترتب عليه تحسين الظاهر . « رشحة » ١٩٦

ثم اعلم أن الوجه الذي صار سببا لفتور نسبة الرابطة مانع من الالتذاذ بالطاعات ، وسبب الفتور أحيانا يكون قبضاً وأحيانا كدورة طارية بواسطة ارتكاب زلات وإن كانت قليلة ، والوجه الأول ليس بمذموم ، بل هو من لوازم سلوك الطريقة ، وينبغي تدارك عروض الوجه الثاني بالتوبة والاستغفار إلى أن يرتفع أثره بكرم الله سبحانه وتعالى .

وحيث أن التميز بين القبض والكدورة يستدعي دقة النظر فالتوبة نافعة على كل حال أدام الله تعالى لنا ولكم الاستقامة « مكتوبة » ١٥٠ .

وقال الشيخ الهروي ﷺ في « المكتوبات الربانية » : اعلم أن حصول رابطة الشيخ للمريد بلا تكلف وتعمل علامة المناسبة التامة بين المرشد والمريد التي هي سبب الإفادة والاستفادة ، ولا طريق أقرب من طريق الرابطة أصلاً ، فيا سعادة من استسعد بهذه الدولة .

أورد حضرة الخواجه أحرار ﷺ في الفقرات أن ظل الدليل أولى من ذكر الحق سبحانه باعتبار النفع ، يعني أن ظل الدليل أولى للمريد من اشتغاله بالذكر ، فإنه لم تحصل بعد للمريد مناسبة كاملة بالمذكور جل وعلا حتى ينتفع من طريق الذكر انتفاعا تاما والسلام .

وقال ذو الجناحين محمد مراد المنزلوي ثم المكي ﷺ في هامش « المكتوبات » نقلا عن « مفتاح الفلاح » في آداب الذكر : قالوا - يعني المشائخ - : وإن كان - أي المريد - تحت نظر شيخ يخيل شيخه بين عينيه فإنه رفيقه في طريقه وهاديه ، ويستمد أول شروعه في الذكر من همته معتقدا أن استمداده منه هو استمداده من النبي ﷺ لأنه نائبه .

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رضي الله تعالى عنه في رسالته « مدارج السالكين » : الأدب السابع أن يخيل خيال شيخه بين عينيه ، وهو عندهم من أهم الآداب وآكدها .

وقال أيضا في « البحر المورود » : اعلم يا أخي أن ربط أحدنا قلبه بشيخه حي أو ميت ينفعنا ولو لم يكن ذلك الشيخ في علم الله شيخا ، لأن ربطنا حقيقة إنما هو لاستناده إلى الله تعالى لا لذاته ، ومحال أن يوجد الحق تعالى عند السراب الذي ظنه الظمآن مآء ويفقد عند عبد من عباده مشهور بالصلاح مع أن السراب ليس له حقيقة ، بخلاف الصالح له وجود وحقيقة ، فافهم .

وقال الشيخ تاج الدين الحنفي ﷺ في كتابه المشهور بـ « التاجية » : الثانية طريقة الرابطة بالشيخ الذي وصل إلى مقام المشاهدة وتحقق بالتجليات الذاتية ، فإن رؤيته بمقتضى « هم الذين إذا رؤوا ذكر الله » .

فينبغي أن يحفظ صورته في الخيال وتتوجه للقلب الصنوبري حتى تحصل الغيبة والفناء عن النفس ، وإن وقفت عن الترقي فينبغي أن تجعل صورة الشيخ على كتفك الأيمن في خيالك وتعتبر من كتفك إلى قلبك أمرا ممتدا وتأتي بالشيخ على ذلك الأمر الممتد وتجعله في قلبك ، فإنه يرجى لك حصول الغيبة والفناء . انتهى

وقال الشيخ إبراهيم بن عمر الملا الأحسائي ﷺ في « رسالته » : فإن لم تمكنه مصاحبة الشيخ لتعذره ببعده عنه ، فعليه بإحضاره في خياله ويعتقد أنه في حضرته وصحبته ويتصور نفسه كأنها بين يديه ويحفظ ذلك التصور في خياله ويفنى في وجود الشيخ بكليته ، ثم يتوجه من وجود الشيخ إلى الله تعالى ويتكلف بذلك ، ويكرره مرة بعد أخرى إلى أن يشرق النور الإلهي على لطيفته إشراقاً يكشف الغطاء عن أسرار المعاني فيكون بالله لا بغيره ولا بنفسه . انتهى في هامش « المكتوبات » ٢٦٨

بيد أن قول العارف تاج الدين الحنفي ﷺ : وإن وقفت عن الترقي فينبغي أن تجعل صورة الشيخ على كتفك الأيمن . . الخ ، وهذا لم نعهَد من مشائخنا ولم نسمع منهم و . . الخ .

ثم اعلم أن المريد إنما يحتاج إلى الرابطة إن لم يقدر على الاستفاضة من الله تعالى من غير واسطة ، وإن قدر عليها يجب عليه أن يترك الرابطة ، لأن الاشتغال بالرابطة حينئذ اختيار التنزل على الترقي وترجيح مرتبة الحجاب على مرتبة الشهود فذلك إعراض عن الله تعالى ، ولكن لا يترك محبة الشيخ ولا يترك نسبته لأن حفظ النسبة يزيد المشاهدة ويقرب السالك إلى مقام الأنس والمحادثة . « سلسلة الخواجكان »

ومن آداب الرابطة أن يعتقد المريد أن كمالات الشيخ لا تفارق الروحانية وأن الروحانية ليست مقيدة بمكان دون مكان أخرى ، ففي أي مكان يتصوره تحضر فيه روحانيته .

وأن يعتقد أن تصرفات روحانية الشيخ من تصرفات الحق سبحانه وتعالى ، وأن يحفظ محبة شيخه ، وأن يراعي نسبته في كل حال وأن لا يترك الرابطة عند حصول بعض الأحوال قبل أن يتمكن فيه ذلك الحال لأنه إن ترك الرابطة يزول عنه ذلك الحال لأنه من أحوال الشيخ كالعارية عنده .

وأن يداوم على الرابطة في جميع الحالات ولا يفارقها أصلا لما أن الرابطة تربي المريد من الشيخ ولو كان أحدهما في المشرق والآخر في المغرب .

ومع ذلك إن الرابطة إنما تفيد إن كانت مع الإنسان الكامل المتصرّف بقوة الولاية ، لأن الإنسان الكامل مرآة الحق سبحانه وتعالى ، فمن نظر إلى روحانيته بعين البصيرة شاهد الحق فيها .

فبالرابطة يستفيض الشيوخ عن الصبيان الكاملين ويستفيض الأحياء عن الأموات المتصرفين ، لأن الرابطة تدخل المستفيض تحت تصرف ولاية روحانية المفيض ويتصرف الروحانية بولايته وتفيض فيه من الكمالات الإلهية والتجليات الربانية وتبلغه إلى الحضرات العلية ، سواء كان المفيض حيا أو ميتا و سواء عرف ذلك أو لم يعرف . « سلسلة خواجكان » .

وقال الشيخ محمد الخاني ﷺ : تنبيه : قد علم مما تقرر أن المراد بالمرشد الكامل الذي يصلح أن يجعل رابطة للمتوسلين به هو الذي حصل له مقام البقاء بعد الفناء في الله سبحانه وتعالى الأتمَّين ، ولكن هنا مزلة الأقدام لأن هذه الطريقة العلية مندرجة بدايتها في نهايتها ونهايتها في بدايتها ، فربما يحصل للمريد بعض أحوال قبل فنائه فضلا عن حصول بقائه فيظن كمال نفسه ويأذن للمريدين في أن يجعلوه رابطة فيخسر هو ومن رابط به ، فلا بدّ أن يشهد له بحصول الكمال وأنه بلغ مبلغ الرجال أهل الفضل والعرفان كشيخه ومرشده الكامل ويأمره بذلك .

وقد أخل بهذا الشرط في هذا الزمان أكثر أصحابنا الذين حصل لهم الإذن بتلقين الذكر من جناب حضرة سيدنا وسندنا ونور أبصارنا وضياء قلوبنا أبي البهاء ضياء الدين شيخنا الشيخ خالد النقشبندي المجددي ﷷ وأمرهم أن يلقنوا رابطة للمريدين لأنه مشهود له بالكمال ومأذون له بذلك من قبل مرشده الكامل المشهود له . انتهى

وقد زجر الشيخ ضياء الدين شاه خالد ﷷ مريديه عن ذلك وكتب إلى المريدين والمأذونين بعنوان النهي عن ذلك والمقصود من ذلك أن حضرة الشيخ شاه خالد سليماني ﷷ لم يأمر المريدين أن يرابطوا بصورته المباركة إلا بعد أمر شيخه له بذلك وشهادته له بالكمال والوصول إلى الفناء والبقاء الأتمين .

ومن كان كذلك فيسوغ له ذلك ، والعجب العجيب أن بعض مريدي هذا المنهي المزجور هم كذلك يأمرون المنتسبين إليهم بأن يرابطوا بهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وبعضهم بعد وفاته وانتقاله إلى الدار الآخرة أمروا المنتسبين إليهم بأن يرابطوا بهم ، وادّعى بعضهم أن الميت إذا انتقل إلى دار الآخرة لم يبق له التفات إلى الدنيا ، وهذا القائل خطؤه أشد من خطأ مدعي الكمال في نفسه ، لأنه يفهم من قوله إنكار تصرّف الأولياء بعد موتهم نعوذ بالله من ذلك ، وكأنه غفل عما هو متفق عليه بين أهل الطريق .

ولقد سألت شيخنا العارف ذا الجناحين أبا عبد الرحمن زين الله الشريفي المعموري ونفسي فداه عن الرابطة إلى من نرابط ؟ فوصل الكتاب : يمكن أن ترابط إلى من هو أحب إليك سواء الشيخ خالد سليماني أو آخر من خلفائه من مشائخكم ، لأن الرابطة مربوطة بالمحبة الحبية ولا تؤثر الرابطة إلاّ مع المحبة التامة وقد كتب في حق ذلك كتابا وعبارته هذه :

واعلم أن الشيخ خالد السليماني ﷷ خرجت روحه الزكية من الدنيا إلى المقامات العلية من الآخرة ولم يشهد لأحد من أصحابه بالكمال ولم يأذن لأحد بأن يجعل إلى نفسه رابطة فيما نعلم ، بل كان ينهى عن ذلك أشد النهي كما قدمنا لك بعضه .

والشيخ إسماعيل القائم مقامه ﷺ لم يأذن لأحد أن يرابط بصورته الشريفة مع أنه مشهود له ببعض الكمال من مرشده الكامل ومنصوب مقامه ، وكذلك الشيخ عبد الله الهروي ﷺ لما جلس مجلس الكمال بعد سيدنا الشيخ إسماعيل ﷺ لم يأذن لأحد أن يرابط بصورته حتى انتقل إلى دار البقاء ، فانظر أيها الأخ إلى أدب هؤلاء السادات الكرام الذين هم أخص رجال الطريقة العلية . انتهى ما قاله الخاني ﷺ .

وقال : وقد أطلنا هنا لأجل التنبيه والتحذير من الاغترار بذلك ، لأن ضرره عظيم على المريدين لأن المقصود من الرابطة طرد الغفلة ودفع الظلمة عن القلب وإبعاد وساوس الشيطان عنه ، والناقص هو عاجز عن دفع الغفلة والظلمة وطرد الشيطان عن قلبه ، فكيف بمن يستحضره ، ويدلك على أن سبب ادعاء الرابطة من بعض الناقصين حصول بعض الأحوال في الابتداء ما ذكره الغوث الصمداني مجدّد الألف الثاني ﷺ في بعض « مكتوباته » بقوله : ولما كان في هذه الطريقة العلية اندراج النهاية في البداية ظهر للمبتدئين في هذه الطريقة أحوال تشبه أحوال المنتهين ، بحيث لا يفرق بين هذين النوعين من الأحوال إلا عارف حديد البصر من الرجال .

الرابطة وهي عند الصوفية مطلقا انتظار المريد بعين البصيرة إلى روحانية الشيخ مع ميلان قلبه إليه بالمحبة الذاتية ، وقد أشرنا إليه في أول هذا الفصل ، وأما عند النقشبنديين فهي على نوعين :

أحدهما أن تكون عند حضور الشيخ ، فكيفية ذلك أن يتوجه المريد مع المحبة الذاتية إلى قلب الشيخ بطريق التسليم إليه والاستهلاك فيه حتى يفنى عن جميع صفاته في صفات الشيخ

وثانيهما أن تكون في غيبة الشيخ ، فكيفية ذلك أن يتصور المريد صورة شيخه بين عينيه ثم يتوجه إلى روحانيته في تلك الصورة ولا يزال عن التوجه إليها حتى يحصل له الغيبة أم أثر الجذبة ، فبعد حصول أحد الأمرين يترك الرابطة ويشتغل بذلك الأمر الحاصل يعني الغيبة أم أثر الجذبة ، فهكذ يداوم

على الرابطة حتى يفنى عن ذاته وصفاته في صورة الشيخ ، فعند ذلك يشاهد روحانيته مع كمالاته في صورته لأن كمالاته لا تفارق روحانيته ، فتربيه روحانية الشيخ بعد ذلك إلى أن يوصل إلى الله تعالى فيكون من الواصلين الكاملين .

فالرابطة تقرب المريد من الشيخ ولو كان أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب ، وبها يستفيض الشيوخ عن الصبيان الكاملين ويستفيض الأحياء من الأموات المتصرفين ، لأن الرابطة تدخل المستفيض تحت تصرف ولاية روحانية المفيض ويتصرف الروحانية بولايته وتفيض فيه من الكمالات الإلهية والتجليات الربانية وتبلغه إلي الحضرات العلية سواء كان المفيض حيا أو ميتا وسواء عرف ذلك أو لم يعرف .

وهي أقرب الطرق للوصول إلى الله تعالى فلا يحتاج بعد ذلك إلى أمر آخر ، وهي أصل الوصول **لأن جميع الأصول تحتاج إلى الرابطة في ظهور خصائصها لا سيما في هذه الطريقة العلية** ، لأن جميع الأشغال تحتاج إليها فلا يفيد شيء منها إلا بمقارنة الرابطة ، فلذلك سميت هذه الطريقة الرابطة .

اعلم أن الرابطة فرع المحبة فمن لم يكن فيه محبة لم يكن فيه رابطة ، وهي مما يتوقف عليه الاستفاضة فمن كانت فيه الرابطة يمكن له التربية والاستفاضة ومن لم يكن فيه الرابطة لم يمكن الاستفاضة ولو قارن الخضر عليه السلام ، ثم اعلم أن الرابطة إنما تفيد إذا كانت مع الإنسان الكامل المتصرف بقوة الولاية ، لأن الإنسان الكامل مرآة الحق سبحانه وتعالى ، فمن نظر إلى روحانيته بعين البصيرة شاهد الحق فيها .

وهي على قسمين : إما أن تكون مع الأحياء أو تكون مع الأموات .

فأما التي تكون مع الأحياء فقد بينا كيفيتها ، وأما التي مع الأموات فكيفيتها أن يجرد المريد نفسه عن العلائق العنصرية ويطلق باطنه عن القيودات الطبيعية ويعري قلبه من العلوم والنقوش والخواطر الكونية ، ثم يتصور روحانية ذلك

الميت نورا مجردا من الكيفيات المحسوسة ويحفظ ذلك النور في قلبه حتى يحصل فيه فيض من فيوضات ذلك الميت أو حال من أحواله ، لأن روحانية الكاملين منبع الفيوضات الإلهية فمن أدخل المنبع في قلبه يناله فيض منه البتة .

وإن كانت الرابطة عند قبر ميت فلا بد أن يسلم على صاحب ذلك القبر ثم يقف في طرف اليمين قريبا من رجليه ويضع يده اليمنى على اليسري فوق السرة ويطرق رأسه على صدره ثم يقرأ الفاتحة مرة وسورة الإخلاص إحدى عشرة مرة وآية الكرسي مرة ويهب ثوابه لذلك الميت ،

ثم يجلس عنده ويتوجه إلى روحانيته في القبر بطريق الاستفاضة ، ومن توجه من محله إلى روحانية النبي ﷺ في قبره الشريف في المدينة المنورة يستفيض منه ، وكذلك إذا توجه أحد من محله إلى روحانية الأولياء في قبورهم يستفيض .

فالرابطة من غير توجه كافية في الاستفاضة ، نعم إذا اجتمعت مع التوجه فنور على نور ، لكن المدار على قوة الرابطة فمن داوم عليها حصل له جميع أحوال الطريقة وكمالات الحقيقة ، ومن اختلّت رابطته انقطعت استفاضته ولم يحصل له أحوال السلوك ولم يظهر له أسرار الوصول « الآداب المرضية » للشيخ جمال الدين الحسيني الغازي الغموقي قدس سره .

فصل

في بيان السير والسلوك والجذبة

اعلم أيها السعيد أن لأهل الطريقة سيرا وسلوكا ، والمراد منهما سِيَرٌ علميّة[1] وسلوك عرفانية ، وهي من مقولة الكيف وليس هنا للحركة المكانية مجال .

قال الإمام الرباني مجّدد الألف الثاني ﷺ : إن للسير والسلوك أربع مراتب :

الأولى مرتبة السير إلى الله تعالى ، وهو عبارة عن الحركة العلمية ، وذلك أن الحركة من الأدنى الأسفل إلى الأعلى والأشرف ثم منه إلى أعلى الأعلى وأشرف الأشرف يترقى كذلك حتى ينتهي إلى علم واجب الوجود ، وممكنات هذه العلوم بالكلية مضمحلة عن نقش لسان السالك فافهم ، ثم بعد هذا العلم يحصل للسالك حال صادق ويعبر عنه عند المشائخ الكرام بالفناء في الله تعالى ونشير بعد إلى بيان هذا إن شاء الله تعالى .

والثانية من تلك المراتب سير في الله ، وذلك أيضا عبارة عن الحركة العلمية ، وهو علم مراتب واجب الوجود والأسماء والصفات والشؤون والاعتبارات والتقديس والتنزيه الإلهي ، وما وراء هذه فهو مما لا يمكن التعبير عنه والإشارة والتسمية بل التعبير عنها محال فتدبر ، وسادات الطريقة يعبّرون عنها بالبقاء بالله تعالى .

والثالثة من تلك المراتب سير عن الله تعالى ، وهو أيضا عبارة عن الحركة العلمية ، وهذا سير العلم الأعلى إلى الأسفل ومنه إلى أسفل الأسفل بالتنزل ، كتنزل علم واجب الوجود إلى علم الأسماء والصفات ومنها إلى علم الممكنات رجوعا ، وأهل هذه حائزون مرتبة نسي الله بالله ورجع من الله مع الله ، والعارف الذي بهذا العلم واجد فاقد وواصل مهجور وقريب بعيد ، جعلنا الله تعالى في زمرتهم آمين .

« ١ » في الأصل عليّة .

والرابعة سير في الأشياء ، والسير في الأشياء هو سير العارف في علم الأشياء وهو مضمحل عن لسان اللوح ، وبعد كونه مضمحلا هو عبارة عن بروزه شيئا فشيئا وحصول المعارف بالكمالات ، ويعبر أكابر القوم لذلك بالتلوين بعد التمكين وهو أعلى المقامات .

فالحاصل أن السير الرابع يصير مقابل السير الأول والسير الثالث يصير معادل الثاني ، والسير إلى الله مع السير في الله تعالى إنما يحصل لتحصيل الولاية وهي عبارة عن الفناء في الله والبقاء بالله ، وأما السير عن الله مع السير في الأشياء فهي مقام الدعوة وتحصيلها ، وهي مخصوص للأنبياء والمرسلين وكمّل أوليائه المتقين ، ولأكابر الأولياء منها نصيب والحمد لله ربّ العالمين .

والسير إلى الله تعالى يكون في مرتبة القلب ، والسير في الله يكون في مرتبة الروح ، وسير مع الله في السر ، والسير عن الله في مرتبة الخفي ، فتفطن فهو دقيق .

قال بعض العارفين : السير إلى الله تعالى هو قطع عقبات النفس ومحو آثارها ودواعيها حتى تطهر من ذلك ويحصل لها أهلية القرب من الله تعالى وتصل إلى سعادة لقائه ، ولولا معاناة هذه الأشياء لم تيسر السير والسلوك ، **فما حياة القلب إلا في إماتة النفس ، فالنعمة العظمى الخروج عن النفس لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله تعالى** .

قال أبو يزيد رضي الله عنه : من لم يمت لم ير الحق عز وجل ، ولا يمكن الخروج من النفس بالنفس ، وإنما يكون الخروج من النفس بالله تعالى . انتهى

وكان الشيخ محمد المغربي تلميذ الشيخ أبي العباس المرسي رحمهم الله تعالى يقول : لا يصح لعبد أن يضع قدمه في طريق السير إلى حضرة الله عز وجل حتى يقطع ثلاثة منازل : يزهد في نعيم الدنيا ثم يزهد في نعيم الآخرة ثم يرضى عن الله تعالى إذا ضربه بالبلاء الذي يقطع أوصاله ، فبعد ذلك يبتدئ المريد للطريق إلى حضرة الله تعالى في طريق السير . انتهى « بهجة » ١٦ .

وسئل سيدي عبد الله بن علوي الحداد ﷺ عن معنى السير إلى الله تعالى ما هو ؟ فأجاب بأنه تزكية النفس والجوارح عن منكرات الأخلاق والأعمال ، وبذلك يقرب العبد من الله تعالى قرباً معنويا وكلما كان أزكى وأطيب كان أدنى وأقرب .

والسالك من مشى على المقامات بحاله لا بعلمه وتصوره ، والطريقة هي العمل بمقتضى ما شرعه الله تعالى على لسان نبيه ﷺ و ما شرعه الله تعالى يسمّى شريعة وكذا العلم بذلك فإنه أيضا يسمّى شريعة ، والعمل بذلك العلم يسمّى طريقة ، والحصول على ثمرة ذلك من مناجاة وجه الحق والوقوف على حق اليقين يسمّى حقيقة .

والواصل إلى الله تعالى من وصل من العلم بالله تعالى إلى حد انتهى إليه علم العلماء به من خلقه ، وأهل هذه المرتبة يتفاوتون فيها تفاوتا لا ينحصر . وللواصل إلى هذا المقام حالتان يسمّى إحداهما بالجمع والأخرى بالفرق ، وهي مذكورة في موضعها .

ثم اعلم أن الطالب إذا كان متوجها إلى فوق بطريق السلوك فمتى بلغ اسما هو ربه«١» وصار فانيا ومستهلكا فيه يصح إطلاق الفناء عليه ، وبعد البقاء بهذا الاسم يسلم إطلاق البقاء عليه ، وبهذا الفناء والبقاء يشرف بأول مرتبة من مراتب الولاية ولكن ههنا تفصيل ، وبسط الكلام فيه ضروري . انتهى« مكتوبات » ٣٢٠ .

وقال الشيخ على بن حسين الهروي ﷺ في « الرشحات » : ولا ينبغي للسالك أن يكون أدون من تلامذة النساج ، فإن أحدهم يبقى مدة في تعلم وصل الخيوط وترتيبها وأين له الاشتغال بأمور أخرى ، فكذلك ينبغي للطالب أن يسعى بالجدّ والجهد حتى يكون أستاذا في نفي الخواطر وماهرا في كيفية نفيه ، ولا ينبغي في الابتداء الاشتغال بشغل آخر غير نفي الخواطر .

« ١ » لعل المراد هو صاحبه ، لأن رب الشيء هو صاحبه ، فيكون المعنى : متى بلغ اسما مناسبا له من اسماء الله تعالى ، كالرحمن أو الكريم

والذين يطالعون الرسائل ويجمعون منها الكلام فلا نفع لهم منها أصلا ، بل أمثال ذلك كلها تعطيل وتضييع للأوقات ، فإن طريق الحق سبحانه وتعالى وأمره سلوك وعمل لا سماع وجدل وتطويل الأمل .

فمن كان في بغداد عند السلطان مثلا وهو قادر على أن يجالسه دائما ومع ذلك يكون مشغولا بمطالعة مكتوب كتبه واحد من كُتّابه ورعاياه وأرسله إلى الشام ومحتظيا به ، فهو في غاية الجهل والغواية ونهاية الغفلة والعماية ، فكيف يبعد إنسان عن حضور السلطان باختياره ويسافر من بغداد إلى الشام لمطالعة مكتوب كُتّابه . انتهى « رشحات » ٩٩ .

نقل عن حضرة الخواجه ﷼ سأله واحد من أكابر أئمة ما وراء النهر عن المقصود عن السير والسلوك ، فقال حضرة الخواجه : المقصود المعرفة التفصيلية ، فسأله ذلك الرجل أيضا عن المعرفة التفصيلية ، فقال حضرة الخواجه : الذي علم من المخبر الصادق إجمالا يعلم ذلك بطريق التفصيل ويرفع السالك عن مرتبة الدليل والبرهان إلى مرتبة الكشف والعيان . « مقامات » ٥٥

ثم اعـــلم أيها المأمون أن سادات هذه الطريقة العلية قالوا : إن رعاية هذه الطريقة وحفظها على آدابها لا يمكن ولا يتحقق إلا برعاية السالك بهذه الشروط الإثنى عشرة والرسوخ في القيام عليها :

الأول أن يعتزل السالك عن الخلق أي لا يخالط الناس إلا بقدر الضرورة .

والثاني ترك التلذذات والتنعمات وأن يؤثر القناعة منها حتى يتّصف بالقناعة .

والثالث الملازمة على الجماعة وأن لا يصلي إلا بالجماعة بكيف لا يترك الجماعة إلا بعذر ضروري .

والرابع ترك الفضول من الكلام إلا بقدر الحاجة الضرورية .

والخامس أن يكون الطعام واللباس وجميع الأشياء المنوطة خالية من الحرام بل ومن الشبهات وأن يحترز منها احترازا .

والسادس أن يتحمل أذايا الخلق ولا يشتكي عنها لأن من لا يحملها لا يصير سيّدا .

والسابع أن يكون مع عياله بالشفقة والعطف والمحبة وأن يحترز في حقهم بالغاية .

والثامن أن يكون عليّ الهمّة في إيثار إخوانه الفقراء بالبذل لهم والنظر بالشفقة إليهم .

والتاسع أن يكون مع العيال وغيرهم بحسن الخلق في المعاملة معهم .

والعاشر أن لا يتوغل مع أهل الدنيا ويفرّ منهم ولا يتواضع لأجل الدنيا الدنية لهم والمداهنة معهم فإن ذلك مما يوجب سخط الله تعالى ومقته .

والحادي عشر أن يكون ملازما ليلا ونهارا على الأوراد ومداوما عليها .

والثاني عشر أن يكون في اهتمام بليغ في حفظ الحضور وتصفية النسبة .

فإن داوم على رعاية هذه الشروط والملازمة عليها فلا ريب أنه بهذه العبادات والطاعات يبلغ مبلغ الرجال ويتفرد ويفتح البصيرة ويصير مستعدّا للمشاهدة ، وذلك مرتبة الصديقين .

بيد أنه يلزم لأجل حصول هذه الشروط أن يداوم السالك أيضا على هذه الأسباب لينال المسببات بالأسباب :

الأول قطع التفات السالك لقبول الخلق وردهم .

والثاني أن لا يفرح بمدحهم ولا يحزن بإذايتهم وسبهم بإضاعة وقته بالتتبع لمدح الناس واستقراء[1] ذامّيه ليوبّخه كما عليه مشائخ زماننا في الغالب .

والثالث أن يكون بالصبر والرضاء على أمور الدنيا ومضايقتها ونكباتها .

« ١ » بمعنى بحث و تفحص

والرابع أن يكون صادقا في جميع أموره عالما بكونه في نظر الله تعالى .

والخامس أن لا يدعو على أحد بالشر .

والسادس أن يرى كل أحد أفضل منه وينظر لنفسه بعين الحقارة من جميع الناس .

والسابع أن لا يتغافل عن ذكر الله تعالى .

والثامن أن يكون جميع ما يفعله بالاستخارة والمشاورة وأن لا يفعل شيئا إلا بهما .

والتاسع أن يستمدّ في جميع مهماته من أرواح المشائخ أرباب القلوب .

والعاشر أن لا يخوض في الخصومات مع الخلق والسعي إلى المحاكمات .

والحادي عشر أن لا يكون له مع أحد من المؤمنين عداوة ولا غل ولا غش وكبر وحقد وحسد بل ينظر إليهم بعين الاستعطاف والاحترام كأن جميعهم أولياء الله تعالى أو كلّ من رآه أبو العباس الخضر عليه السلام .

والثاني عشر أن لا يتغافل عن دعاء الخير للمؤمنين . وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وقال الإمام الرباني قدس سره النوراني : اعلم أن مشائخ الطريقة النقشبندية قدس الله تعالى أسرارهم اختاروا ابتداء السير من عالم الأمر وصاروا يقطعون مسافة عالم الخلق في ضمنه ، بخلاف مشائخ سائر الطرقات ، فإن ابتداء سيرهم من عالم الخلق ، وبعد طي مسافة عالم الخلق يضعون القدم في عالم الأمر ويصلون إلى مقام الجذبة ، ولهذا كان طريق النقشبندية أقرب الطرق وقد ذكرنا ذلك غير مرة ، فلا جرم صارت نهاية الآخرين مندرجة في بدايتهم ، وقس من حال بستاني ربيعي[١] .

« ١ » أي يمكنك أن تعرف حال الربيع عامة بالنظر إلى هذا البستان خاصّة ، والمقصود أن الناظر إلى مشائخ الطريقة النقشبندية يمكنه أن يعرف عظمة هذه الطريقة .

ومع كون ابتداء سيرهم من عالم الأمر لا يتأثر بعض الطالبين من هذه الطريقة بسرعة ولا يجدون الحلاوة ولا التلذذ الذي هو من مقدمات الجذبة بالسهولة .

ووجه ذلك أن لطائف عالم الأمر ضعيفة فيهم بالنسبة إلى عالم الخلق وهذا الضعف هو الذي صار سدة في طريق التأثير والتأثر وامتداد زمان بطء التأثر إلى أن يقوى لطائف عالم الأمر فيهم وتغلب على عالم الخلق وأن ينعكس الأمر ، وعلاج هذا الضعف بحيث يكون مناسبا لهذه الطريقة هو التصرف التام من صاحب التصرف ، والعلاج المناسب لسائر الطرق تقديم تزكية النفس والرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة الواقعة على وفق الشريعة على صاحبها الصلاة والسلام . انتهى

وينبغي أن يعلم أن بطء التأثر ليس من علامة نقصان الاستعداد ، وكم من طائفة تامّي الاستعداد يبتلون بهذا البلاء والسلام . « مكتوبات » ١٣١ ج ١

واعلم أن الأسفار أربعة : **الأول** هو السير إلى الله من منازل النفس إلى الوصول إلى الأفق المبين وهو نهاية مقام القلب ومبدأ التجليات الأسمائية ، **الثاني** هو السير فى الله بالاتصاف بصفاته والتحقق بأسمائه إلى الأفق الأعلى وهو نهاية الحضرة الواحدية ، **الثالث** هو الترقي إلى عين الجمع والحضرة الأحدية وهو مقام قاب قوسين ما بقيت الإثنينية ، فإذا ارتفعت فهو مقام أو أدنى وهو نهاية الولاية ، السفر **الرابع** هو السير بالله عن الله للتكميل وهو مقام البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع . انتهى « جامع الأصول » ٧٦ .

وكان الشيخ الكبير داود بن ماخلان ﵁ يقول : سيرك قدما واحدا على إثر قدم عارف أحسن من مائة ألف فرسخ تسيرها بهواك ، وكان يقول : أعلى مقامات المغفرة وجود الفتح الحقيقي وهو توقيع الولاية[١] « تقريب الأصول » ٥٢ .

« ١ » أي ختمها ومَهرها وتوثيقها .

وقال الإمام الرباني مجدد الألف الثاني ﷺ الروحاني في « مكتوباته » :
لما كان مطمح نظر السالك بعيدا في رؤيته كان ذلك آفاقا لا أنفسا ، وصار السير أيضا منتسبا إلى الآفاق وقالوا بتمام السير إلى الله تعالى عند تمام هذا السير المنسوب إلى الآفاق ، وجعلوا الفناء مربوطا بهذا السير وعبّروا عن هذا السير بالسلوك ، فإذا وقع السير بعد ذلك يسمونه سيرا أنفسيا ويقال له السير في الله ويثبتون البقاء بالله في هذا الموطن ويرون في هذا المقام حصول الجذبة بعد السلوك ، ولما حصلت التزكية للطائف السالك في السير الأول وتخلّصت عن الكدورات البشرية حصلت لها قابلية ظهور ظلال الاسم الجامع الذي هو ربّ السّالك وعكوس ذلك الاسم في مرايا تلك اللطائف وتكون تلك اللطائف موارد تجليات جزئيات ذلك الاسم (الجامع) وظهوراتها .

وإنما يسمون هذا السير بالسير الأنفسي لأن الأنفس صارت مرايا ظلال الأسماء وعكوسها لا أن سير السالك في الأنفس كما مر في السير الآفاقي من أنه قيل سيرا آفاقيا باعتبار المرآتية لا لكون السير في الآفاق ، وهذا السير في الحقيقة سير في ظلال الأسماء في مرايا الأنفس . ولهذا قيل لهذا السير سير المعشوق للعاشق ، شعر :

ما صورَةُ المِرْآةِ مِنْ حَرَكاتِها   لـكِـنَّها انْطَبَعَتْ بِها لِصَفائِـها

يمكن أن يقال لهذا السير في الله باعتبار أنهم قالوا : إن السالك يتخلق في هذا السير بأخلاق الله تعالى وينتقل من خلق إلى خلق ، فإن للمظهر نصيبا من بعض أوصاف الظاهر ولو في الجملة ، فكأنه تحقق السير في أسماء الله تعالى . هذا نهاية تحقيق هذا المقام وتصحيح هذا الكلام .

واعلم أيها العبد الصالح أن قلوب المؤمنين بشوقها للقاء حبيبها تهون عليها المشاق وترتكب الأخطار وتقتحم العقبة الحائلة بينها وبين محبوبها ، فيصير العسير يسيرا والصعب ذلولا ، يذللون بشجاعتهم كل صائل ويجوزون

بشوقهم كل شامخ حائل ولم يلههم عن محبوبها عاجل ولا آجل مشمّرون للسباق عن ساق :

إذا كانَ المَآلُ لِقاءَ ليلى　　　فَما لاقيتَ مِنْ تَعَبٍ نَعيمٌ

فإن الأجير في الطين مثلا في شدة أيام الحر لولا أن الأجرة تبعثه وتعينه على احتماله لما أمكن ، فإن المستغني عن الأجرة كالمستحيل في حقه ذلك الاحتمال ، وكلما كثرت الأتعاب زادت الأجور وتراكم الثواب « عقد النفيس » ١٢٨ .

وكتب في « مكتوبات » الرباني ﷺ أنه سأل سائل الخواجه بهاء الدين النقشبندي قدس الله سره الأقدس أنه ما المقصود من السير والسلوك ؟ فقال : كون المعرفة الإجمالية تفصيلية والاستدلالية كشفية ، رزقنا الله الثبات والاستقامة على الشريعة علما وعملا . انتهى

نقل حضرة الخواجه علاء الدين طيب الله مرقده عن حضرة الخواجه ﷺ أنه لما كان يحكي عن رياضاته ومجاهداته ذكر فتور الطالبين ، وقال في الآخر : كل صبح إذا خرجت من المنزل أقول لعل طالبا يكون واضعا رأسه على الأعتاب ، فأجد العالم كلهم شيوخا ليس فيهم مريد .

أشار الخواجه رضي الله تعالى عنه إلى أن شرط المريد وآدابه أن يكون بين يدي الشيخ كالميت بين يدي الغاسل ليس له إرادة ولا اختيار ، بل يدع نفسه للشيخ يتصرف فيه كتصرف الغاسل في الميت حتى يتنظف من الأوساخ الظاهرة والباطنة .

وهذا المعنى في المريدين أعز من الكبريت الأحمر ، فلذلك لا ينتج ولا يسير في السلوك إلا الفرد بعد الفرد ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، فما لم يكن المريد على هذا الوصف فهو بمعزل عن الإرادة ، وأكثر المريدين متمسكون بخيالات اعتقادات ، فإذا وجدوا من المشائخ خلاف معتقدهم أنكروا وخالفوا ، ففي الحقيقة هم مريدوا معتقداتهم ومتخيلاتهم لا مريدوا

مشائخهم ، ومن كان كذلك كان شيخا لا مريدا ، ولذلك قال ﷺ : كلهم شيوخ ليس فيهم مريد . ذكره في « البهجة السنية » .

وقال الخواجه بهاء الدين النقشبنديّ ﷺ : إن السالكين في دفع الخواطر الشيطانية والنفسانية متفاوتون : فبعضهم قبل أن يصل إلى خاطرهم شيء من الشيطان والنفس يرونه ويدفعونه ذلك الوقت ، وبعضهم إذا دخل خاطرهم يدفعونه قبل أن يستقر ويستحكم ، وبعضهم بعد أن يدخل ويستقر يسعون في دفعه ، وهذا الدفع لا ينفع النفع البالغ ولكن إن حصلوا منشأ ذلك وسبب الانتقالات إليه فلا يخلو من الفائدة .

وقال حضرة الخواجه ﷺ : من أعظم الحرمان أن تجتمع بالأولياء ولا ترزق القبول منهم ، وما ذاك إلا لسوء الأدب في الباطن والظاهر ، ليس الشأن أن ترزق الطلب وإنما الشأن أن ترزق حسن الأدب ، لا تطالب نفسك بتأخر مطلبك ولكن طالب نفسك بحسن أدبك . انتهى كلامه « مقامات »٣٤

زار بعض السلاطين ضريح تربة أبي يزيد ﷺ فقال : هل ههنا شخص اجتمع بأبي يزيد ؟ فقالوا : نعم وأشاروا إلى شيخ كبير ، فقال له السلطان : ماذا سمعت منه ؟ قال سمعته يقول : من رآني لا تحرقه النار . فاستعظم السلطان ذلك الكلام فقال : كيف يقول أبو يزيد مثل هذا وأبو لهب رأى النبي ﷺ وتحرقه النار ؟ فقال ذلك الشيخ للسلطان : إن أبا لهب لم ير محمدا رسول الله وإنما رأى يتيم أبي طالب فلذلك تحرقه النار .

ففهم السلطان ما أشار إليه ذلك الشيخ يعني أن أبا لهب لم ير النبي بعين النبوة والتعظيم ولم يتأدب عند حضرته بامتثال أوامره ونواهيه ، وإنما رآه بعين الحقارة وكونه يتيما لأبي طالب لا يستحق الانقياد والخضوع بين يديه فلم تنفعه تلك الرؤية ، وهكذا الوارثون له ﷺ لهم حكم مورثهم ، فإن انقدت إليهم وخضعت وانكسرت بين أيديهم وجعلت أوامرهم من الفرائض عليك انتفعت بمصاحبتهم ، وصار نحاسك بحلول إكسيرهم عليه ذهبا إبريزا ، وإلا فمضرة اجتماعك أعظم من البعد عنهم ، فلو اجتمعت بالقطب يا أخي وأسأت الأدب

معه ولم تمتثل أمره كان اجتماعك هذا من أعظم أسباب هلاكك ، فتأدّب تفز بالمطلب والله يعصمك . انتهى

وقال الشيخ محمد الخاني ﷺ : فالمقصود من السير والسلوك وتزكية النفس وتصفية القلب إزالة الآفات المعنوية والأمراض القلبية كما قال تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ حتى يتحقق بحقيقة الإيمان ، فإن وجد إيمان مع وجود هذه الآفات فهو بحسب الصورة فقط ، فإن وجدان الأمارة حاكمة بخلافه ومصرة على حقيقة كفرها ، ومثل هذا الإيمان والتصديق الصوري مثل إيمان الصفراوي بحلاوة السكر فإن وجدانه شاهد بخلافه ، فكما أنه لا يحصل اليقين الحقيقي بحلاوة السكر إلا بعد إزالة مرض الصفراء فكذلك لا تحصل حقيقة الإيمان إلا بعد تزكية النفس والاطمئنان وحينئذ يكون وجدانيا ، وهذا القسم من الإيمان محفوظ من الزوال ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ صادق في شأنهم ، شرفنا الله تعالى بشرف هذا الإيمان الكامل الحقيقي .

وقال الشيخ النقشبندي ﷺ في بيان أن الجذبة التي قبل السلوك ليست من المقاصد والتي بعدها من المقاصد . انتهى

قال الخواجه بهاء الدين ﷺ : إنهم بنوا أمر السالك على الساعة حتى يقدر أن يدرك أنفاسه هل مرت بالحضور أو بالغفلة لأنهم لو بنوا أمره على النفس لم يقدر أن يدرك هاتين الصفتين . انتهى

و ذكر في مقامات حضرة الخواجه ﷺ ما لفظه هذا : وورد في الأخبار أن رسول الله ﷺ كان في السفر فأبو بكر وعمر رضي الله عنهما كانا في خدمته وكانا يصومان ، فأمرهما الرسول ﷺ أن يأكلا وقال هذا سفر ويحصل الضعف بواسطة الصيام وتتخلفون بذلك عن خدمة الصحبة وتشغلون الغير بالخدمة .

فدل ذلك منه ﷺ أن ترك الصيام لاغتنام الخدمة أفضل ، وكيف لا يكون كذلك وقد قال ﷺ : « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه المسلم » فاسلك يا أخي سبيل الاستقامة .

واعلم أنه لو أن إنسانا عبد الله مائة سنة بصيامها وقيامها وترك آثامها وكان الله في عونه لحظة واحدة ، فأيّ الأمرين تراه أنفع له أتلك اللحظة أم تلك المائة ؟ شتان بين النسبتين ، فلحظة من عناية ملك الملوك خير من عبادة الألوف من السنين .

فكذلك قيل : جذبة من جذبات الحق تعالى خير من عبادة الثقلين ، فلهذه النكتة العظيمة أمر ﷺ الصحابة بالإفطار لاغتنام خدمة الإخوان ، ولهذا أشار العارفون بأن **خدمة المشائخ خير للمريدين من النوافل** .

فتأمل يا أخي واعرف آداب الطريق وأزل من ساحة قلبك أوساخ المخالفات وحصباء التعويق واحرث أرض قلبك بآلات الموافقة والانكسار واسق هدى الأرض بمياه الاستغفار ، تغنم الحصاد وتأمن الفساد وتسود مع من ساد . انتهى والله الهادي

وقال شيخ مشائخنا مولانا أبو سعيد قُدِّسَ سِرُّهُ وذكره مولانا محمد مراد قُدِّسَ سِرُّهُ في « تعريبه » : إنه يحصل في سير لطائف عالم الأمر أنواع الكيفيات ويحصل في سير اللطيفة القلبية أعني مراقبة الأحدية الصرفة ومراقبة المعية الغيبة والاستغراق وقطع التعلقات والمقتضيات الطبيعية وغيرها .

ويحصل في سير لطيفة النفس الذي تستعمل فيه مراقبة الأقربية والمحبة الاستهلاك والاضمحلال وارتفاع الأنانية وغيرها ، ويرد القبض في سير لطائف عالم الخلق إلى العناصر الثلاثة سوى عنصر التراب ، وتحصل المناسبة لتجليات اسم (الباطن) والملأ الأعلى عليهم السلام وتهذيب اللطيفة القالبية .

وفي الكمالات الثلاثة تحصل اللالونية ولطافة نسبة الباطن ، وفي الحقائق السبعة تحصل وسعة الأنوار وبداهة ما كان نظريا محتاجا إلى الاستدلال

وزيارة الأنبياء عليهم السلام في المنام أو في عالم المثال وأذواق المحبة الذاتية . مصراع :

إلى مَنْ يَكونُ مَيْلُ لَيلى وَعَطْفُها . . . .

آخر :

وَما كُلُّ عَبْـدٍ يَشْتَريـهِ الخَلائِـقُ وَما كُلُّ مَنْ تَحْتَ الثِّيابِ رِجالُ

فإن نال سالك هذه الطريقة أمثال هذه العلوم والمعارف فمباركة له ، وإلا فقد اكتسب العجب والأنانية فويل له ، فكل من حصل في صحبته تلك الحالات فبها ونعمت ، وإلا فهو شين على الطريقة ويلحق به العار بالمشائخ الكبار . انتهى

والعجب من المريدين يشينون الطريقة وإنهم أصحاب إرشاد هداهم الله سبحانه إلى رضائه واشتياق لقائه آمين .

وقال شيخ شيخنا نجم العرفان أحمد ضياء الدين الكمشخناوي ﷺ : **فاعلم أنه لا بد لمن أراد الوصول إلى مقام الكشف والشهود أن يخلص محبة الله تعالى عن محبة السوى** ، ويفرد قصده لذاته تعالى لا لأجل الكشف والكرمات ، ويعبد مخلصا لله لا للأجر والنجاة ، ويطبق جميع أعماله على قانون الشريعة وميزان السنة ، ويجرد قلبه عن غواشي العلوم وشواغل الخواطر ، ويزكي نفسه عن الأماني والآمال وأوساخ العناصر ، ويطلق روحه عن عقال القيود الجسمانية والعوائق الحيوانية ، ويحل عقاله عن قيود القوى والحواس ، ويزكي أخلاقه عن الرذائل والمذمومات ، ويجرد ذهنه عن العوائق البدنية والعادات الطبيعية ، ويتوجه على الدوام إلى العوالم الروحانية والمجردات القدسية ، ويستبعد عن مقتضيات البشرية ويستقرب إلى الخصال الملكية .

ويترك الدنيا وأهلها وما فيها ويعتزل أهل الدنيا ويقطع النظر عن المخلوقات وينظر إليها بنظر العدم والفناء ، ويعرض عن جميع المستلذات والمُحَسَّنات ،

ويجتنب جميع ما يشغله عن الله تعالى ويلازم جميع ما يتعلق بتوحيده تعالى من الذكر وسائر العبادات ، ويجتهد في محو الرسوم ونفي التعلقات .

ولا يطلب من الله تعالى بعمله أجر الآخرة بل لا يطالب إلا رضاه ، وأن يقصر طاعته على الفرائض والواجبات والسنن ، وبعد ذلك لا يشتغل إلا بعمل يورث التوحيد والتجريد والتفريد ، لأن الوصول إليه تعالى لا يصير إلا بهذه الثلاث ، ويترك الرخص والبدع والكسل والشهوة والغضب والعداوة ، ويلازم العفة والحلم والإحسان ، ويضطر على المجاهدات والرياضات والتفكر في المجردات والتوجه إلى الروحانيات ، ويلازم الجوع والعطش وعري الجسد وترك النوم ، ويختار الفقر والضرورة في جميع الأحوال ، ويلازم الزهد والورع والتقوى على كل حال ، ويحفظ خاطره عن صور المعقولات والمحسوسات وهواجس النفس ووساوس الشيطان ، ولا يهتم بهموم السوى لما ورد في الخبر : « إن الحكمة لتنزل من السماء فلا تدخل قلبا فيه هم غد » ، ويصفو بمحبة لقاء الله تعالى واشتياقه وعشقه والانجذاب إلى جنابه ، ويرجو لقاء ربه بالأعمال الصالحات لما ورد : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » ولقوله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ .

واعلم أن أقسام طرق السلوك الثلاثة ، وما يتنوع منها كلها مبلغة للمرام لكن بعضها أصعب وأطول وبعضها أقرب وأسهل ، فإذا كان الشيخ داريا بمعالجة الأمراض وخبيرا بصفات النفوس والأغراض سلكه بكل حزب نهجه القويم ورد الخاسر لأحسن تقويم .

وذلك لأن النفوس الإنسانية مرايا للتجليات وبحسب كثافة المرآة وصدئها تنشرح في تلطيفها وجلائها ، وإياك والتحويل والتشديد فإن الحق أقرب إليك من حبل الوريد انتهى « جامع الأصول » في ١٥٠ .

وقال الشيخ أحمد بن علان قُدِّسَ سِرُّهُ : ليس للسالك من الأحوال والمقامات والمكاشفات والأذواق إلا ما كان منه في استعداده ، فإن الحق تعالى يتجلى لكل سالك بحسب استعداده . فكلما ترقى السالك في سلوكه أشرقت عليه

تجليات أعلى مما تقدم ، ولا يزال يروى ويظمأ ويكون في ريه الظمأ كما تقدم من الإشارة إليه بقول الشيخ ابن بنت ميلق ﷺ :

فِي رِيِّهِ ظَمَأٌ وَالصَّحْوُ يُسْكِرُهُ   وَالوَجْدُ يُظْهِرُهُ طَوْراً وَيُخْفيهِ

والحاصل أنه لايزال السالك في سلوكه من التجليات والمقامات إلا ما سبق في علمه تعالى ولم يتعلق إلا بما في استعداده وإن كان ذلك الاستعداد أيضا من فيضه الأقدس يتجلى به في فيضه المقدس ولا يظلم ربك أحدا

ولهذا المعنى قال العارف أبو عبد الله القرشي ﷺ : الزم الأدب وحظك وحدك من العبودية ، ثم لا تتعرض لشيء فإن أرادك له أوصلك إليه ، وقال في « الحكم » : ليس الشأن أن ترزق حسن الطلب ، ولكن الشأن أن ترزق حسن الأدب ، فالطريق كله آداب كما ذكرناه فإن الحق تعالى يتجلى لكل سالك بحسب استعداده .

والآداب ثلاثة : آداب الشريعة وآداب الطريقة وآداب الحقيقة .

فآداب الشريعة امتثال الأوامر واجتناب المناهي ، وآداب الطريقة شهود المنة ، وآداب الحقيقة معرفة ما لك وما له سبحانه وتعالى ، فلك الفقر والعجز والضعف والذلة وله سبحانه الغنى والقوة والعزة ، ولهذا قال ﷺ : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » كما ذكرنا معنى ذلك في موضعه .

وقال الإمام العارف الرباني ﷺ في « المكتوبات » : إن بين طريق الخواجه النقشبند وطريق الخواجه عبيد الله أحرار قدس سرهما فرقا ومغايرة بعد الوصول إلى مقام الجذبة النقشبندية ، وكذلك بين علومهما ومعارفهما أيضا فرق ، وغالب توجه الخواجه أحرار ﷺ بعد ذلك إلى نسبة أجداده من طرف أمه وكانوا كبراء بطنا بعد بطن ، وهذا الفناء والانعدام الذي ذكر فيما سبق من لوازم نسبة هؤلاء الأكابر ، وهذا الفقير اختار لتربية الطالبين طريق حضرة الخواجه نقشبند لمصلحة أبناء هذا الوقت ورأيت المناسب ظهور علوم هذا الطريق ومعارفه التي هي أكثر مناسبة بعلوم الشريعة في مثل هذا الزمان

الفاسد الذي ظهر فيه ضعف تام في أركان الشريعة ، فعينت هذا الطريق لإفادة الطالبين فلو أراد الله الحق سبحانه ترويج الطريقة الأحرارية بواسطة هذا الحقير لنوّر العالم بأنوارها ، فإني قد أعطيت أنوار كل من هذين الشخصين المعظمين على وجه الكمال وكشف عن طريق تكميل كل منهما ، إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

مَليكٌ مِنْ عِنايَتِهِ بِلُطْفِهْ لَأعْطى لِلْفَقيرِ العالَمينا

« مكتوبات » ٣٤٥ .

والسلوك هو تزكية النفس عن رذائل الأخلاق البشرية وتخليصها عن القيودات العنصرية والتعلقات الكونية بالرياضات الشاقة والمجاهدات اللائقة على موافقة الشريعة ومتابعة السنة مع الاشتغال بما يتلقن به من الأذكار الواردة .

وأما الجذبة فالمراد هنا جذبة المبتدئين ، وهي مشاهدة قلبية يحصل بها توجه للقلب إلى جناب الحق سبحانه وتعالى ، وأما جذبة المنتهين فهي مشاهدة روحية يحصل بها توجه الروح إلى مدارج الشهود . « تحفة الأحباب » وراجع « سلك العين » ٣٢٥

وقال شيخنا ﵁ في « جامعه » ١٤٥ و ٢٢٤ : واعلم أن الجذب وحده من غير سلوك في الطريق المستقيم بامتثال أوامر الحق والاجتناب عن نواهيه لا نتيجة له غير الدخول في حيز البله والمجانين ، فغايته السلامة من مواطن الهلاك لسقوط التكليف به كما في « المطالب الوفية » .

وكذلك السلوك بامتثال الأوامر والاجتناب عن النواهي من غير جذب إلهي لا نتيجة له غير دخول في حيز العلماء والعباد من أهل الظاهر القانعين بما يظهر عليهم من العلم والعبادة ، فيراهم الناس فيحمدونهم على ذلك فيرفعون أقدارهم ويكونون في باطن الأمر على رياء وعجب وكبر وحسد وغرور وغفلة وغيرها من أمراض القلب ويظهر صاحب هذه الواقعات شبيها بالحيوانات .

وأما السالك أولا المجذوب ثانيا أو بالعكس فهذان الرجلان هما أهل الله وخاصته ، فالسالك المجذوب عالم عامل بعلمه يورثه الله تعالى علم ما لم يعلم وكان فضل الله عليك عظيما ، والمجذوب السالك عامل عالم أخلص لله أربعين صباحا فتفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه كما قال الله تعالى : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾

واعلم أن الشريعة المحمدية لمن تأمل جميع الأحكام المشروعة فيها وعمل بها على الوجه المشروع دون البدعة داعية إلى تحصيل الجذب الإلهي .

وأما العمل بها على طريق البدعة فهو مبعد عن الجذبة ، ولذا قبحت البدعة وزاد قبحها على فعل المعصية ، والآيات والأحاديث وسير الأصحاب والتابعين والأولياء طافحة بذكر الجذب والصعق والخشية والبكاء قال الله تعالى : ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ وقال : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ وقال : ﴿مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ﴾. الآية . انتهى

وأما الجذبة هي تقريب العبد بمقتضى العناية الإلهية المهيأة له كل ما يحتاج إليه في طي المنازل إلى الحق بلا كلفة وسعي منه وجهد وتكلف .

والمجذوب هو من اصطنعه الحق تعالى لنفسه واصطفاه لحضرة أنسه وطهره بماء قدسه فحاز من المنح والمواهب ما فاز به بجميع المقامات والمراتب بلا كلفة المكاسب والمتاعب .

وقال الشيخ ابن بنت ميلق رضي الله عنه :

والناسُ عَبْدانِ مَجْذوبٌ وَسالِكٌ مَا ... دُعـــي إليـــه بِتَعْـليـــمٍ وَتَـنْبيـهِ

فقال الشيخ أحمد بن علان قدس سره في شرح قوله : (الناس عبدان) أي قسمان : الأول مجذوب سالك والثاني سالك مجذوب ، وقد ذكرنا طرفا من هذا قبل ، أي سالك الطريق الذي دعي إليها بتعليم من الشيخ في السلوك والذكر وتنبيه منه على دقائق يحتاج إليها السالك في سلوكه .

والحاصل أن المجذوب السالك هو الذي تقدمت له الجذبة بالعناية الإلهية ثم سلك هو الطريقة وعرف كيفية الوصول إلى مولاه ، والسالك المجذوب هو الذي سلك الطريق أولا بالآداب المعروفة عند المشائخ ثم حصلت له الجذبة وأشرقت عليه الأنوار وتحقق بالمعارف وتبدّت له الأسرار .

والجَـذْبُ أخْـذَةُ عَبْـدٍ بَغْتَـةً ... يُبْدي عِنايَـةَ أمْرٍ لَيْـسَ يَنْويـهِ
هُوَ المُـرادُ وَمَخْطـوبُ العِنايَةِ لا ... يُحِـسُّ كُلْـفَـةَ تَكْليـفٍ تُلاقيـهِ

الجذب أخذة لقلب العبد من الأكوان بالعناية الإلهية وإدخاله في مقام الإحسان حتى يرى ما ليس يخطر ببال ولم ينوه في البكور والآصال ، كما ورد : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ولم يقيد ذلك بآخرة ولا دنيا ، فالعارف جنته حاضرة ، وما لغيره آجل فهو له نقد عاجل وهو المجذوب المراد ومخطوب العناية لا يحس كلفة في التكاليف الشرعية لأنها تصير له ذوقا وحالا .

ولهذا قال : يقال : « يصل العارف إلى مقام يسقط عنه التكليف » لا بالمعنى الذي يفهمه أهل الإباحة والزندقة ، بل بمعنى أنه لا يبقى عليه الكلفة في عملها ، لأن العبادات تصير في حقه كالعادات لا يذكر كالشهوات كما يصير الحضور لأهل الجنة سجية وخلقا ، فكذلك الأعمال عند العارفين .

ولهذا لم يترك العبادة سيد هذا المقام ﷺ بل قام حتى تورمت قدماه فقيل له : كيف تفعل ذلك وقد غفر الله تعالى لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ﷺ : « **أفلا أكون عبدا شكورا** » . فأفاد ﷺ أن هذا من شكر النعمة تمام الخدمة ، وذلك موجب للمزيد قال تعالى : ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ .

ولهذا سيد الطائفة الجنيد رضي الله عنه لم يترك وردا في حال نزعه فقيل له في ذلك فقال : ومن أولى مني بذلك ، وهذه صحائفي تطوى ، فلم يترك الخدمة رضي الله عنه في مثل تلك الحالة فكيف سواها .

وَقَدْ يَغيبُ عَن الإحْساسِ مُخْتَطَفاً وَذو العِنايَةِ حِـفْـظُ الحَـقِّ يَحْميهِ

أي وقد يغيب المجذوب عن إحساسه ويفقد شعوره ، ومثل هذا يسقط عنه التكليف شرعا إذ التكليف منوط بالعقل والتمييز ، والمجذوب في مثل هذه الحالة غائب عن عقله وتمييزه ، ومع ذلك إن أرباب العنايات يحفظهم الحق في مثل هذا الوقت ويحميهم عن تضييع وظائف الخدمة ، فتارة يكون غائبا عن حسه فاقد الشعور وتارة يرد عليه الحس تكملة له فيأتي بما يريد من أنواع الخدمة والعبادات ، فهو في أخذه محفوظ وفي ورده قائم بالخدمة ملحوظ .

كان الشبلي رضي الله عنه مستغرقا في جذباته ، فإذا جاء وقت الصلاة قام إليها وهذه عناية من الله تعالى بعبده .

ولقد كنت في حال جذبتي يعتريني قبيل الصلاة انعقاد في سائر جوارحي كأني مربوط ومكفوت لا أقدر أحرك يدي ولا ألتفت إلى جانبي ، فتقام الصلاة وأنا بهذه الحالة فأقول في قلبي كيف تقوم الصلاة وأنت جالس بين يدي الناس ، فعندما تتم الإقامة تنفك عنى هذه الحال وتفارقني حتى كأني نشطت من عقال ، وكنت على هذه الحال أياما حتى انقضت .

فإذا كان أهل الطريق محفوظين في حال الجذبة عن تضييع الفرائض فكيف لا يحفظون في حال التمكين والبقاء ؟ ! ولهذا قال أبو سعيد الخراز قدس سره : كل باطن خلافه الظاهر فهو باطل . انتهى كلام الشيخ أحمد بن علان قدس سره .

تَـراهُ يَعْبُدُ لا يَلْوي عَلَى شُـغُـلٍ سِـوَى العِبادَةِ يَسْتَحْـلـي تَفانيـهِ
تَـرى الحَقائِقَ تَبْدو مِنْـهُ في نَسَقٍ مَـعَ الكُشـوفِ لِأَنَّ اللهَ يُـلْـقيـهِ
وَذو السُّلـوكِ تَراهُ فـي لَذاذَتِـهِ مُـجاهِـدَ الـنَّفْـسِ ذا رَعْيٍ لِباقيهِ
يَمْشـي عَلى نَهْجِ أَهْلِ الصِّدْقِ مُلْتَزِماً شُـرُوطَـهُمْ خائِفاً فـيما يُرَجِّيـهِ

أي السالك المجذوب – وهو القسم الثاني من أهل الطريق – تراه في إرادته مجاهدا لنفسه مراعيا لبقية أحواله متأدبا بآدابه باذلا جهده في

الوصول إلى منازل أحبابه يمشي على طريق أهل الصدق ملتزما شروطهم جامعا للخوف والرجاء ، فيخاف في رجائه ويرجو في خوفه كما هو شأن أهل الكمال في سلوكهم .

واعلم أن مقام الإحسان هو العمل على شهود الحق تعالى في حال العبادة ، وفي ذلك تنبيه عجيب فإنه بتلك المشاهدة يبصر أن الفاعل هو الله تعالى لا هو ، فإن العبد إنما هو محل لظهور العمل لا غير .

وقال في الباب العشرين وأربعمائة : اعلم أن أعمالنا حقيقة لله وحده وإنما أضافها إلينا ابتلاء واختبارا لينظر الله تعالى – وهو العالم بما يكون قبل أن يكون – هل ندّعيها لأنفسنا فيقيم الحق تعالى بذلك علينا الحجة أو نضيفها له فنقف موقف الأدب نظير قوله تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ ، فإنه تعالى إنما قال ذلك لينظر هل نضيف إليه ما أضافه إلى نفسه مع جهلنا بالكيف أم نردّ ظاهر ذلك ونؤوله فنقع في سوء الأدب . انتهى « يواقيت » ١٨٠

قلت : قد رأيت في كلام سيدي عليّ بن وفا ﷺ : إن وراء مقام الإحسان مقاماً آخر يسمى مقام الإيقان ، ولم أر ذلك في كلام غيره فليتأمل ، وقد تقدم في مبحث الأجوبة عن الأنبياء أن أهل مقام الإحسان لا يتصوّر منهم معصية ما دام في حضرة الإحسان ، وأن من هنا عصم الأنبياء وحفظ غيرهم من الأولياء لعكوف الأنبياء والأولياء في حضرة الإحسان ، أما الأنبيآء فهم فيها على الدوام ، وأما الأولياء فهم فيها في أغلب أحوالهم ، وغاية معصية أهل حضرة الإحسان أن يقعوا في خلاف الأولى لا في حرام ولا مكروه كما مر في الجواب عن آدم عليه السلام ، والله أعلم . « يواقيت » ١٢٦

وقال جلال المحلي رحمه الله تعالى : حقيقة الإحسان مراقبة الله تعالى في جميع العبادات الشاملة للإيمان والإسلام أيضا حتى تقع عباداتُ العبد كلّها في حال الكمال والإخلاص وغيرها . انتهى« يواقيت » ١٢٥ .

وقال ﷺ أيضا[1] :

وَالجَذْبُ إنْ كانَ مِنْ بَعْدِ السُّلوكِ لَهُ	فَضْلٌ عَلَى الجَذْبِ مِمَّا السّعْيُ تاليهِ
فَالجَذْبُ هذا الذي التَّفْضيلُ فيهِ عَلى	الجَذْبِ الذي ظَهَـرَتْ حِسّاً بَواديـهِ
وَفي الحَقيقَةِ لَوْلا الجَذْبُ ما سُلِكَتْ	طَـريقُ حَـقٍّ وَلا رُئِيَـتْ مَـرائيـهِ
لَولا العِنايَةُ وَالتَّخْصيصُ قَدْ سَبَقـا	فـي دَعْـوَةِ العَبْـدِ ما قامَتْ دَعاويهِ

فقال الشيخ أحمد بن علان ﷺ في شرحه : الجذب الذي يجيء من السلوك أفضل من الذي يتلوه السعي ، أي من الجذب المقدم على السلوك .

وهذا الجذب المفضل هو الجذب الذي ظهرت في الحس ظواهره وأشرقت على جميع السالك أنواره وأزهرت أذاخره .

وفي الحقيقة لولا الجذب من الحق لعبده ما سلك طريق الحق ولا رئيت مظاهره ، ولولا العناية والتخصيص قد سبقا في دعوة العبد ما تمَّت له مقاصده ، عنايته فيك لا شيء منك ، وأين كنت حيث واجهتك عنايته وقابلتك رعايته ؟ !

لم يكن في أزَلِهِ إخلاصُ أعمال ولا وجودُ أحْوال ، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال وأعظم النوال . انتهى « شرح ابن علان » ٣١ .

فإن قلت : فلم سمي المجذوب مجذوبا ؟

فالجواب كما قاله الشيخ الأكبر ﷺ في « الفتوحات » في الباب ٢١٦ أنه إنما سمي مجذوبا لجذب الحق تعالى له وأخذه بأعطافه ، ولولا أنه كان متعشقا بحاله مستحسنا له ما جذبه الحق تعالى فكان سبب هذا الكشف تعشق أحواله الطبيعية ، ولولا الجذب العنيف ما ترك ما كان فيه من اللذة ، لكن من رحمة الله تعالى أنه نقله إلى ما هو أحلى وألذ ، فإن أحوال المجاذيب في لذاذاتهم لا يعادلها اللذة لكونها لذة معنوية في غير مادة محسوسة ، فلا تشبه حلاوة العسل ولا حلاوة الجماع بل هى أعلى وأجل .

---

[1] أي ابن بنت ميلق .

فإن قلت : هل تدوم تلك اللذة مع المجذوب إلى موته أم تزول ؟

فالجواب : تدوم اللذة معه زمانا ثم يفقدها .

قال الشيخ محي الدين ﷺ : وكل جذب لا يمنح صاحبه علما لم يكن عنده قبل الجذب فليس هو بجذب ولا تلك الحلاوة حلاوة فتح . « يواقيت » ١٩٢ .

وقال الشيخ سيدي أبو المواهب ﷺ : إذا فتح على السالك فتح التعرف لا يبالي قلّ العمل أو كثر . « تقريب الأصول » ٧٧ .

وقال خاتمة المحققين العارف بالله عبد الغني النابلسي ﷺ في « خمرة الخان » : قال رسول الله ﷺ : « تعرّضوا لنفحات الحق فإن لله تعالى في أيام دهركم نفحات » ، والتعرض إنما يكون بالتهيؤ وإزالة الموانع ، وأصل ذلك الإيمان بالغيب عن العقل والحس والإستسلام لذلك باطنا وظاهرا حتى لا يبقى في العبد خاطر ينازعه في شيء من الدين ، ثم التأدب في معاملة الحق والخلق بالآداب الشرعية أمرا ونهيا حتى يجد الجاذب من قلبه إلى حضرة ربه من غير تكلف ويدخل في مقام الجذبة الإلهية ، كما قال ﷺ : « جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين » وقد ذكرنا هذا آنفا ، فعند ذلك يدخل في تصرف الحق تعالى وتنعزل نفسه عن التصرف فيه فيسلم من الشرك الخفي والجلي ، ويدخل في دائرة أهل التوحيد ، فإما أن يبقى في مقام الجذبة مسلوب الاختيار أو يرد إلى مقامه الأول مسلوب الاختيار في حالة اختياره مطلقا على مراكز اضطراره ، ويعلم ولا يعلم وهو موجود وليس بموجود وفاعل وليس بفاعل ، وهكذا جميع أحواله متناقضة وفي هذا التناقض عين الوفاق . انتهى

فصل

في التلوين والتمكين وما فيهما

قال في « الرشحات » : قال ﷺ : لا يمكن معرفة هذه الطائفة في غير مقام التلوين ، وظهر لي الآن أن معرفتهم في مقام التمكين غير واقع ، فمن وجدهم في مقام التمكين وعمل فيه تقليداً لهم يبقى بلا حظ ولا نصيب ، بل يخاف عليه من الزندقة ، اللهم إلا أن يظهروا له أنفسهم عناية له . انتهى كلامه

لا يخفى أن التلوين عند مشائخ الطريقة ﷺ عبارة عن تقلّب قلب السالك وتنقله في الأحوال الواردة إلى القلب .

وقال البعض : إنه عبارة عن تقلب قلب بين الكشف والحجاب بسبب غيبوبة صفات النفس مرة وظهورها أخرى ، فلا جرم يمكن معرفة السالك في هذا المقام من جهة تلوين أحواله بين الصفتين المتقابلتين ، كالقبض والبسط والسكر والصحو وأمثالها .

والتمكين عبارة في اصطلاحهم عن دوام كشف الحقيقة بواسطة اطمئنان القلب في مواطن القرب ، فلا جرم لا يمكن معرفة السالك في هذا المقام ، فإن صاحب التمكين قد وصل إلى مرتبة سعة العلم ، فهو مماثل ومشابه لأهل الظاهر في الأكل والشرب والبيع والشراء والنوم واليقظة وسائر الصفات البشرية .

والتقليد لأهل التمكين في الأمور الطبيعية وترك الرياضات والمجاهدات موجب لخطر الزندقة ، كما قال الخواجه علاء الدين العطار ﷺ : وأما إذا حملنا التلوين على ما اصطلحه قطب الموحدين وغوث المحققين الشيخ محي الدين بن العربي ﷺ وأتباعه ، فمعرفة صاحب التلوين أشكل وأدق من معرفة صاحب التمكين ، فإنه قال في اصطلاحاته : إن التلوين عند الأكثرين مقام ناقص وعندنا هو أفضل وأكمل من كل المقامات وحال العبد فيه حال قوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ، والتمكين عندنا عبارة عن التمكين في التلوين .

قال أستاذي مولانا رضي الدين عبد الغفور عليه الرحمة : إن معنى كلام الشيخ ﷺ « التلوين عندنا أكمل المقامات » ليس معناه أن السالك يتصرف في كل آن بتجلي من التجليات الغير المتناهية أو يدرك في كل زمان مدركا من المدركات التي لا حدّ لها ولا غاية ، بل المراد أن حقيقة السالك تكون لا لونية مشابهة للأصل ومطابقة له يعني الذات البحت المنزهة عن الكيف والكم ، فكما أن كل يوم هو في شأن واقع فيها كذلك هنا يظهر عن حقيقة السالك في كل زمان لون ما ، ويجعل السالك تابعا لنفسه وتكون نسبة حقيقته مساوية لجميح الألوان ، بل يعمل في كل لحظة بمقتضى لون من الشؤونات الإلهية ويكون في حقيقته لا لونيا ، كما قيل بالترجمة :

وَأنا الذي لا لَــوْنَ لي مُتَعَيِّــنٌ   لَسْتُ أسْوَداً وَمُعَصْفَراً وَمُزَعْفَرا

فلا شك أن معرفة شخص يظهر بجميع الألوان ونسبته متساوية لها ، وفي حقيقته يكون لا لونيا أشكل وأعسر من معرفة صاحب التمكين الذي هو مقيم في مرتبة واحدة دائما وثابت ومستقيم على لون واحد والله اعلم . انتهى في « رشحات » ٧٣

وقال في « عوارف المعارف » في التلوين والتمكين : فالتلوين لأرباب القلوب لأنهم تحت حجب القلوب ، وللقلوب تخلص إلى الصفات ، وللصفات تعدّد بتعدّد جهاتها ، فظهر لأرباب القلوب بحسب تعدد الصفات تلوينات ولا تجاوز للقلوب وأربابها من عالم الصفات .

وأما أرباب التمكين فخرجوا عن مشائم الأحوال وخرقوا حجب القلوب وباشرت أرواحهم سطوع نور الذات ، فارتفع التلوين لعدم التغير في الذات إذ جلّت ذاته تعالى من حلول الحوادث والتغيرات ، فلما خلصوا إلى مواطن القرب من أنصبة تجلّي الذات ارتفع عنهم التلوين ، فالتلوين حينئذ يكون في نفوسهم لأنها في محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها .

والتلوين الواقع في النفوس لا يخرج صاحبه عن حال التمكين لأن جريان التلوين في النفس إبقاء رسم الإنسانية وثبوت القدم في التمكين كشف حق الحقيقة ، وليس المعنيُّ بالتمكين أن لا يكون للعبد تغيّرٌ فإنه الآن أيضا بشرٌ ، وإنما نعني به أن ما كوشف به من الحقيقة لا يتوارى عنه أبدا ولا يتناقض بل يزيد ، وصاحب التلوين قد يتناقض الشيء في حقه عند ظهور صفات نفسه وتغيب عنه الحقيقة في بعض الأحوال ويكون ثبوته على مستقر الإيمان وتلوينه في زوائد الأحوال . انتهى

وقال شيخ شيخنا قدس الله سرهما : التلوين هو مقام الطلب والفحص عن طريق الاستقامة وهو الصراط المستقيم ، والتمكين هو مقام الاستقامة والثبات على الصراط المستقيم ، وإنما سموا أرباب التلوين لتلونهم وتبدل صفاتهم البشرية في طلب الصراط المستقيم ، بخلاف أرباب التمكين فإنهم ثابتون مستقرون على استقامتهم .

فالتلوين صفة أرباب الأحوال والتمكين صفة أهل الحقائق ، فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين لأنه يرتقي من حال إلى حال وينتقل من وصف إلى وصف ، فإذا وصل تمكّن ، فصاحب التلوين أبدا في الزيادة وصاحب التمكين وصل واتصل .

وقال المشائخ : انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم ، فإذا ظفروا بها فقد وصلوا ، يريدون بذلك زوال أحكام البشرية عنهم واستيلاء سلطان الحقيقة عليهم .

وقال أبو علي ﷺ : كان موسى ﷺ صاحب تلوين لأنه رجع عن سماع كلام الله تعالى وطلب الرؤية إلى ستر وجهه لما أثرت فيه الحال ، ومحمد ﷺ كان صاحب تمكين فرجع كما ذهب ليلة المعراج لم يؤثر فيه ما شاهده ولا ما سمعه تلك الليلة .

وكان يقول : مثال حالهما امرأة العزيز والنسوة ، فالنسوة لما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن ما قلن لأنهن لم يكن لهن في حبه مقام تمكين ، وامرأة

العزيز كانت بيوسف أتم بلاء منهنّ ولم يجر عليها ذلك اليوم شيء مما جرى على النسوة لكونها صاحبة تمكين في حبه .

وقال غير أبي علي ﷺ : كلاهما كانا صاحبي تمكين ، يعني موسى ومحمد عليهما السلام بمعنى خروجهما عن أوطان البشرية ، لكن لما دخلا في ولاية الحق والحقيقة وهي لا منتهى لها كان فيها سلوك وتلوين يليق بتلك الحال ، غير أن جواذب الحق إلى قلب محمد عليه الصلاة و السلام كانت أقوى منها إلى قلب موسى عليه السلام .

ويدل على هذا النوع من التلوين قوله عليه الصلاة و السلام : « لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل » ، وفي رواية أخرى : « لي مع الله وقت لا يسعني غير ربي »

أخبر عن وقت مخصوص ، وبهذا استدل من قال من المشائخ : التمكين لا يدوم ، واستدل أيضا بقوله عليه الصلاة و السلام لأصحابه : « لو بقيتم على ما كنتم عليه عندي لصافحتكم الملائكة » .

وقيل : يصح دوام الأحوال كلها لكن للواصلين ، وخطاب النبي عليه الصلاة والسلام بما ذكروه إنما يكون على قدر فهم المخاطبين وبحسب أحوالهم .

وأما المسلوب عن نفسه وإحساسه بالكلية فهو من المحو المحض ، فلا تلوين له ولا تمكين له ولا مقام ولا حال ولا تسويف ولا تكليف ما دامت به تلك الغيبة ، إلا أنه قد يصدر منه فعل يظن أنه متصرف به وهو في التحقيق مصرف به قال الله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾

ثم قيل : صاحب البرهان والنظر - وهو صاحب علم اليقين - في أول مقام التلوين ، وصاحب حق اليقين في آخره وهو أول مقام التمكين ، قالوا : لعل الخليل عليه السلام كان صاحب علم اليقين ، فكان في أول مقام التلوين لما أخبر الله عنه بقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ . انتهى « جامع الأصول » في ١٩٢

فصل

في بيان الإنابة وكيفية آداب الشغل وما يرد عليها والتلقين

وقال الشيخ الهروي عن شاه غلام علي الدهلوي ﷺ : إن البيعة على ثلاثة أقسام : بيعة للتوسل بالمشائخ الكرام وبيعة للتوبة عن المعاصي والذنوب العظام وبيعة لكسب النسبة والوصول إلى مرتبة الرجال الفخام هامش« رشحة » ٧٨

وقال الإمام الرباني الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي ﷺ : اعلم أنه إذا جاء عندك طالب بإرادة الطريقة ينبغي لك أن تتأمل وتتأنى كثيرا في تعليم الطريقة إياه خوفا من أن يراد إليك الاستدراج في هذا الأمر ومن أن يكون المنظور فيه خرء بيتك ، خصوصا إذا ظهر الفرح والسرور من مجيء المريد .

فينبغي سلوك طريق الالتجاء والتضرع في هذا الباب والاستخارات المتعددة إلى أن يحصل اليقين بكون تعليم الطريقة إياه مرضيا وأنه لا يراد به الاستدراج والإضلال ، لأن التصرف في عباد الله تعالى وتضييع الوقت في تربيتهم غير مجوّز بلا إذن الحق سبحانه وتعالى ، وفي قوله تعالى : ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ دلالة على هذا المعنى .

حكي أنه لما توفي واحد من الأعزة جاء الخطاب بأنه : أنت الذي لبس الدرع في ديني على عبادي ، قال : بلى ، قال : هلا وكلت خلقي إلي وأقبلت بقلبك عليّ والإجازة التي صدرت لك ولغيرك مشروطة بالشروط ومنوطة بحصول العلم بمرضاة الله تعالى فإنه ما جاء بعد وقت الإجازة المطلقة ، فينبغي رعاية تلك الشروط إلى ورود ذلك الوقت والشرط هو الإخبار فتفطن . . الخ .

وسئل الإمام الرباني ﷺ أنه قد يجيء بعض الرجال والنساء ويلتمسون الطريقة ولكن لا يحترزون من الأكل واللبس الحاصلين من الربا هل نعلمهم الطريقة أو لا ؟ ويقولون نحن نصلح بالحيل الشرعية ، ينبغي أن تعلمهم

الطريقة وأن ترغبهم في الاجتناب من المحرم ولعلهم يتخلصون من ذلك الاشتباه ببركة الطريقة . انتهى

وقال أيضا في ٢٠٢ : اعلم أن مقام المشيخة والإرشاد ودعوة الخلق إلى الحق وطريق الرشاد مقام عال جدا ، ولعلكم سمعتم « الشيخ في قومه كالنبي في أمته » ، وقد ذكرنا هذا في هذه الأرجوزة غير مرة فأي مناسبة بهذه المنزلة العلية لكل قاصر وعاجز .

هَلْ كُلُّ مَنْ خِلْتَ رجلا رجل مَيْدانِ   أَوْ كُلُّ مَنْ صارَ ذا مُلْكٍ سُلَيْمانُ

فإن العلم بتفاصيل الأحوال والمقامات ومعرفة حقائق المشاهدات والتجليات وحصول الكشوف والإلهامات وظهور تعبير الواقعات كل ذلك من لوازم هذا المقام العالي ، وبدونها خرط القتاد .

غاية ما في الباب أن أكابر الطريقة ﷻ يجيزون بعض مريدهم بنوع إجازة قبل وصوله إلى مقام المشيخة بملاحظة بعض المصالح ، ويجوزون في حقه تعليم الطريقة للطالبين في الجملة ليطلع على الأحوال والواقعات ، ويلزم الشيخ المقتدى به في هذا النوع من التجويز أن يأمر ذلك المريد المجاز بالاحتياط وكشف مواد الغلط بالتأكيد واطلاعه على نقصه دائما وإظهار عدم تماميته وكماله بالمبالغة ، فإن تساهل الشيخ في إظهار الحق في هذه الصورة يكون خائنا ، وإن أساء ذلك المريد يكون مخذولا ، أما يعلم أن رضا الحق جل وعلا منوط برضا الشيخ وسخطه تعالى مربوط بسخطه ما هذه المصيبة وأي بلاء وقع . اهـ « مكتوبات »

وقال الإمام الشعراني ﷺ : واعلم يا أخي أن السر في التلقين إنما هو ارتباط القلوب بعضها ببعض إلى رسول الله ﷺ إلى حضرة الحق جل جلاله ، وأقل ما يحصل للسالك إذا دخل في سلسلة القوم بالتلقين أنه إذا حرك السلسلة تجاذبه أرواح الأولياء من شيخه إلى رسول الله ﷺ إلى حضرة الحق جل وعلا ، فمن لم يدخل في طريقهم كذلك فهو غير معدود منهم ولا يجاذبه أحد من الأولياء . اهـ

واعلم وفقك الله تعالى للخير أن تكميل الغير فرع كمال الإنسان نفسه وهو درجة الولاية الخاصة ، ولكن إذا ظهر في الصحبة رشد في الطالبين وحصلت لهم أحوال ومواجيد فهي أيضا غنيمة وإن لم يبلغوا حد الفناء والبقاء ، وحكمها في هذا الوقت حكم الكبريت الأحمر إن فعل ذلك أيضا ، ولكن تعليم الطريقة أيا من كان بعد الاستخارات والتوجهات مناسب بل لازم ، وينبغي أن تكونوا على خوف وخشية من هذا العمل حذرا من تسلط الشيطان من هذه الجهة أعاذنا الله تعالى وإياكم من شره . « مكتوبات » ١٤٧

ثم اعلم أيها الأخ الأسعد فرّحك الله باللطف الأبد« ١ » أن هؤلاء المشائخ النقشبنديين ﷺ في تربية الفقراء على حسب الطاقة والإمكان ، ولهم في ذلك كيفيات مختلفة ترجع كلها إلى واحدة ، فإنها وإن اختلفت ظاهرا ففي الباطن غير مختلفة ، وغاية أمرهم أنهم يأخذون العهد على المريد بأن يجلس على طهارة بين يدي الشيخ ويضع يده في يده ويقول له : هذا عهد الله بيني وبينك على الكتاب والسنة لا ترتكب كبيرة ولا تصر صغيرة وأنه متى وقع منك شيء من ذلك ووقعت في تلك المهالك تبادر بالتوبة ورفع تلك الحوبة وأن تلازم على فعل الواجبات وأن تواظب السنة والجماعة وأن تعمل بالعزيمة وتجانب عن الرخصة والبدعة ، ونحن أَخوان في الله تعالى الناجي منا يأخذ بيد أخيه يوم القيامة ، ونحن من أتباع إمام الطريقة وغوث الخليقة خواجه نقشبند بهاء الدين الأويسي البخاري ﷺ .

ثم يستتيبه عن جميع المعاصي والمخالفات التي أضاع فيها عمره ويقولان : **أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيّوم وأتوب إليه** ثلاثا ثلاثا ، ثم يقرأ الشيخ مرة للتبرك : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ، ثم يضع الشيخ والمريد أيديهما على ركبتيهما ويغمضان أعينهما ثم يذكر الشيخ بقلبه اسم الذات على نية التلقين والتعليم لقلب المريد ثلاثا ، ثم يذكر المريد أيضا بقلبه

« ١ » لعله الأبديّ .

على نية التلقن ثلاثا ، ثم يرفع الشيخ والمريد أيديهما معا للدعاء فيدعو الشيخ له ويؤمن المريد ، وبعد تمام الدعاء يمسحان أيديهما على وجوههما .

وبعده يقبل المريد ركبة الشيخ ويقوم من محله وبإذن الشيخ يذهب ويشتغل بما أمر به الشيخ ويحفظ نسبة الشيخ على كل حال ويوفي العهد والميثاق ولا ينقضه إلى أن يموت « الآداب المرضية » .

وهذه ما عليها اصطلاح القوم مختصرا ونفصّله إن شاء الله تعالى بإيراد ما تلقينا من مشائخنا السادات القادات تيمنا والحمد لله رب العالمين .

ومن الناس من يدّعي المشائخ بقوله بأنه لا يمكن التلقين ولا إعطاء الورد ولا يجوز ذلك للمرشد الكامل للمريد السالك إلا إن كان السالك قد خرج من التعلّقات النفسانية بالكلية بلا بقاء تعلق مّا للدنيا ولا لما فيها ، فإن كان فيه حظ النفس ولو قليلا لا يجوز للشيخ تلقينه[1] .

وقد ذكروا للبرهان لذلك أقوال المشائخ الذين رأوهم في بعض الكتب ، وهذا الزعم منهم وَهَمٌ عظيم وخيال وفساد محال يقول بجهله ما ليس له علم من اصطلاحات المشائخ ومقاصدهم ، وما ذلك منهم إلا بمجرد عدم تهذبهم بأيدي المرشدين الكاملين .

ألم يعلموا أنّ النفس أمّارة حتى نفوس الأنبياء حتى أخلصهم الله تعالى بالأسباب بعنايته سبحانه وتعالى ، وليس الإنسان معصوما سوى الأنبياء ، فإن كان السالك قد تخلّص من حظوظ النفس والتعلّقات الدنيوية بالكلية فما المقصود من سلوكه في سلسلة المريدين مع كونه واصلا لمقام المرادين الكامين ، فبمثل هذا يريدون إطفاء نور هذه النسبة العلية ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون .

قال العارف أبو العباس ابن زروق رضي الله عنه : إقرار المرء بعيبه وبنعم الله تعالى عليه دون تتبع ذلك بتفاصيله يزيد في جرأته ويمنعه من التحقق بحقيقته ، وتتبع ذلك تفصيلا يقضي بارتسامه في النفس جملة حتى يؤثر موجبها اعترافا بالنقص في الأولى وشكرا للنعمة في الثانية فافهم .

« ١ » راجع المكتوب الخامس من « مكتوبات » السيد المؤلف .

وفائدة التدقيق في عيوب الناس وتعرفها وتعرف دقائق الأحوال معرفة المرء بنفسه وتواضعه لربه ورؤية قصوره وتقصيره ، وإلا فليس في قوة البشر التبري من كل عيب بإزالته ، إذ لو أنك لا تصل إلى الله تعالى إلا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك لم تصل إليه أبدا فافهم ، وقد فصلنا في تحليل هذا الإشكال بالكلام الثابت عن السادات .

وقال ﷺ أيضا : المسبوق بقول إن نقله باللفظ تعيّن العزو لصاحبه وإلا كان مدلسا وكذا بالمعنى المجازي للفظ القائل من غير زيادة عليه بالإشارة لوجه نقله ، فإن وقع له تصرف تمييز الوجه معه من غير إخلال بالكلام لزم بيان كل بوجهه ، وإلا فإطلاقه أو نسبته له إن تحقق تصرفه فيه أولى ، ولينظر فيه مع ما زيد عليه وما نقل إليه إذ قيل : من نقل بالمعنى فإنما ينقل فهمه لأنه ربما كان في اللفظ من زيادة المعاني ما لا يشعر به الراوي بالمعنى ولو في القمح بالبر ، ولا يلزم في التكميل والترجيح والتوفية هضيمة الأول ولا دعوى الثاني ، فإن إلزام ذلك مخل بإظهار الحق ثم إن إلزامه بلسان الحق فصيح بما لم يصح ردّ قائله ، وإلا بآء متهمه بالجحود فافهم .

وقال : مراعاة اللفظ لتوصيل المعنى لازم كمراعاة المعنى في حقيقة اللفظ ، فلزم ضبط المعاني في النفس ثم ضبط اللسان في الإبانة عنها والأصل المتكلم في الأولى واصل في الثاني ، فمن هذا الوجه وضع الأئمة لحن العامة ونبهوا على وجوه الغلط في العبارات وربما كفر وبدع وفسق محقق لقصور عبارته عن توصيل مقصده بوجه سليم عن الشبه ، وأكثر ما وقع هذا الفن للصوفية حتى كثر الإنكار عليهم أحياء وأمواتا ، وقد يكون الضرر من وجه آخر وهو عدم الإذن الشائع بين القوم حتى أن الحقيقة الواحدة تقبل من رجل ولا تقبل من آخر ، بل وربما قبلت من شخص وردّت من آخر مع اتحاد لفظها ومعناها وقد شاهدنا من ذلك كثيرا ونصّ عليه الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ . « قواعد » ٦٥ .

وقال الشيخ عبد الله الخاني ﷺ في بيان ما يتعلق بالأخذ والشروع في سلوك الطريقة العلية : قال في « معراج السعادة » : قال المحبوب الصمداني المجدد الألف الثاني ﷺ : الطالب إذا أراد أخذ الطريق من الشيخ فأول أمر يأمره الشيخ به الاستخارة اقتداء برسول الله ﷺ وامتثالا بأمره ﷺ ويكررها إما ثلاث مرات أو سبع مرات ، فإن لم يتذبذب في هذا الخطب الجسيم والمطلب الفخيم يشرع فيه مستعينا بالله سبحانه وتعالى .

وإن اكتفى الشيخ الكامل المكمل باطمئنان قلبه وإقباله على ذلك فهو يقوم مقام الاستخارة ، وإن انضم إليها ذلك فهو نور على نور في المبدأ والمعاد ، ويقدم الشيخ بعد الاستخارة تعليم التوبة ويكتفي فيها بالإجمال من غير تفصيل للذنوب والمعاصي ، فإن الهمم في هذا الزمان قاصرة والتكليف بالتفصيل يقتضي مدة ، فالأولى إهمال ذلك إلى مرور الأيام .

قال العبد الضعيف الراجي رحم الله تعالى إفلاسه : إن للشيوخ الكرام قدست أسرارهم في هذا الأمر اقتداء برسول الله ﷺ حيث ثبت أن بعض المبايعين أرادوا المبايعة له ﷺ على أربع صلوات أو على أقل من ذلك فبايعه على ذلك وقال : الصلاة لا تترك ، فكذلك الشيوخ يقنعون في بداية الأمر بالإجمال من التوبة اعتمادا منهم على أن النور الإلهي إذا تمكن من قلبه يأبى أن يكون كل حركة وسكنة منه إلا بالله سبحانه وتعالى .

قال : ثم يلقنه ذكرا مناسبا لحاله ويمده في ذلك بتوجهه وهمته ويبين له آداب الطريق وشرائطه ويرغبه في متابعة الكتاب والسنة ويقطع عنده الكلمة بأن الوصول إلى المطلوب لا يمكن إلا بهذه المتابعة وينبهه على أن الوقائع والكشوف المخالفة أدنى مخالفة للكتاب والسنة لا يلتفت إليها أولو الأبصار ولا توزن بميزان الاعتبار .

وقال ﷺ في بعض« مكاتيبه » مجيبا لمن سأله أن بعض الرجال و النساء يريدون أخذ الطريقة مع أن أكلهم ولبسهم من مال لا يخلو عن ربا ، ويظهرون أن هذا الأخذ عنهم ليس إلا بالحيلة الشرعية هل يتأهل هؤلاء للطريقة : لقنوهم الذكر وعلّموهم ورغّبوهم في الاجتناب عن المحرم .

قال العبد الراجي رحم الله تعالى إفلاسه : المعنى في هذا أيضا ما قد سبق عن النبي ﷺ ، ومن هذا ما قاله الشيوخ في الكلام على « العوارف » من أن الطالب إذا وجد في طاعته وعبادته اختلاج الباطن بشيء من السمعة والرياء لا يترك العبادة ، بل يستغفر الله تبارك وتعالى .

وقال رضي الله تعالى عنه مجيبا لمن سأله عن طريق التعليم للنساء : إن كانت المرأة محرما فأي مانع ؟ ! وإلا فتجلس وراء الحجاب وتأخذ الطريقة .

قال صاحب العروة الوثقى رضي الله تعالى عنه : ينبغي ترغيب الطالبين المسترشدين في وظائف الطاعات ورعاية الآداب ، والمقصود حصول هذه النسبة الشريفة ، أما العلم بحصول البياض« ١ » فأمر آخر ، إن تفضل الله سبحانه به فهو كرامة منه تعالى وإلا فلا ضير . « البهجة السنية » ٣٧ .

وقال الشيخ العارف أبو العباس أحمد الشهير بـ زروق قدس سره في آخر « قواعده » : قال شيخنا أبو العباس الحضرمي قدس سره : ارتفعت التربية بالاصطلاح ولم يبق إلا الإفادة بالهمة والحال ، فعليكم بالكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان ، وذلك جار في معاملة الحق والنفس والخلق ، فأما معاملة الحق فثلاث : إقامة الفرائض واجتناب المحرمات والاستسلام بالأحكام ، وأما معاملة النفس فثلاث : الانصاف في الحق وترك الانتصاف لها والحذر من غوائلها في الجلب والدفع والرد والقبول والإقبال والإدبار ، وأما معاملة الخلق فثلاث : توصيل حقوقهم لهم والتعفف عما في أيديهم والفرار مما يغير قلوبهم إلا في حق واجب لا محيد عنه .

وكل مريد مال لركوب الخيل وآثر المصالح العامة واشتغل بتغيير المنكر في العموم أو توجه للجهاد دون غيره من الفضائل أو معه حالة كونه في فسحة منه أو أراد استيفاء الفضائل أو تتبع عورات إخوانه وغيرهم أو تعلل بالتجريد أو عمل بالسماع على وجه الدوام أو أكثر الجمع والاجتماع

« ١ » البياض في عُرف القوم كناية عن نقاء الباطن وصفائه .

لا لتعلم أو تعليم أو مال لأرباب الدنيا بعلة الديانة وأخذ بالرقائق دون المعاملات وما بينه عن العيوب أو تصدر للتربية من غير تقديم شيخ أو إمام أو عالم أو اتبع كل ناعق وقائل بحق أو باطل من غير تفصيل لأحواله أو استهان بمنتسب لله تعالى وإن ظن عدم صدقه بعلامة أو مال للرخص والتأويلات أو قدم الباطن على الظاهر أو اكتفى بالظاهر عن الباطن أو أتى من أحدهما ما لا يوافق عليه الآخر أو اكتفى بالعلم عن العمل أو بالعمل عن الحال والعلم أو بالحال عنهما أو لم يكن له أصل يرجع إليه في عمله وعلمه وحاله وديانته من الأصول المسلمة في كتب الأئمة ككتب ابن عطاء الله في الباطن وخصوصا « التنوير » و« مدخل » ابن الحاج المالكي في « الظاهر » وكتاب شيخه ابن أبي جمرة ومن تبعهما من المحققين رضي الله تعالى عنهم ، فهو هالك لا نجاة له ، ومن أخذ بهما فهو ناج مسلم إن شاء الله تعالى والعصمة منه والتوفيق .

وقد سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ فقال : « إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخويصة نفسك » ، وقال عليه الصلاة و السلام : « في صحف إبراهيم عليه السلام : وعلى العاقل أن يكون عارفا بزمانه ممسكا للسانه مقبلا على شأنه ، وعلى العاقل أن يكون له أربع ساعات : ساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يناجي فيها ربه وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يبصرونه بعيوبه ويدلونه على ربه وساعة يخلي فيها بين نفسه وشهواته المباحة » أو كما قال[1] رزقنا الله تعالى ذلك وأعاننا عليه ووفقنا إليه وصحبنا بالعافية فيه فإنه لا غنى بنا عن عافيته وهو حسبنا ونعم الوكيل وصلى الله على رسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا والحمد لله رب العالمين . اهـ

« ١ » الخبر عن وهب بن منبه قال : في حكمة آل داود : حق على العاقل أن تكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يناجي فيها ربه وساعة يخلو فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوب نفسه وساعة يخلي بين نفسه وبين شهواتها التي لا قوام له إلا بها مما يحل .

وقال أيضاً : الغفلة عن محاسبة النفس توجب غلظها فيما هي به ، والتقصير في مناقشتها يدعو لوجود الرضا عنها ، والتضييق عليها يوجب نفرتها ، والرفق بها معين على بطالتها ، فلزم دوام المحاسبة على المناقشة والأخذ في العمل بما قارب وصح دون مسامحة في واضح ولا مطالبة بخفي من حيث العمل ، واعتبر في النظر تركا وفعلا ، واعتبر في قولهم : من لم يكن يومه خيرا من أمسه فهو مغبون ، ومن لم يكن في زيادة فهو في نقصان ، وإن الثبات في العمل زيادة فيه لأن إضافة اليوم لأمس مع ما قبله مضعف له سيما وقد قيل : فتح كل مقام على الضعف من الذي قبله وإن الفتوحات على تضاعيف بيوت الشطرنج ، ومن ثم قال الجنيد رحمه الله تعالى : لو أقبل مقبل على الله سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاته منه أكثر مما ناله ، ويشهد لهذه الجملة ﴿فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ فافهم .

قال بعض الأكابر : إن بعد صلاة العصر لساعة ينبغي أن يشتغل فيها بأفضل الأعمال ، قال البعض : إن أفضل الأعمال في تلك الساعة المحاسبة وهي أن يحاسب الطالب ساعات ليله ونهاره ، كم ساعة منها مرت على الطاعات وكم ساعة كانت مصروفة في المعاصي والسيئات ، فما كانت مصروفة في وجوه البرّ والطاعات فيشكر وما كانت مبذولة في طرق المعاصي والسيئات فيستغفر . « رشحة » ١٩٠ .

فصل

في بيان كيفية النفي والإثبات ومتعلقاتها وتلقين النسبة[١]

اعلم أيدك الله تعالى أن النفي والإثبات من أهميات الطريقة وضروريتها وهو مقام عظيم ، وذلك أن المريد المستعد إذا اجتهد في تصفية لطائفه وتنورت بسريانها في جميعها ينظر الشيخ إلى لطائفه بنظر الشفقة والمحبة الإلهية ويلقن له بالنفي والإثبات ، ولتلقينه آداب وذلك أن المريد الصادق يجلس أمام شيخه بإشارته مقابلا له متصلا ركبتيه بركبتي الشيخ .

وهذه الجلسة باقية موروثة من رسول الله ﷺ حين أتاه جبرائيل عليه السلام وجلس عنده متصلا ركبتيه بركبتي رسول الله ﷺ حين حضره لإعلام أحكام الدين ، ثم يغمض المريد عينيه ويطبق فاه ويلصق لسانه حنكه الأعلى ويلصق أسنانه بعضها بعضا ويحبس نفسه تحت السرة ثم يقول الشيخ أولا ثلاث مرات بإحضار كلمة (لا) من تحت السرة بحضور القلب بجره إلى الدماغ بالخط بالتخيل الصادق ، ثم يجر كلمة (إله) إلى جهة الكتف الأيمن بالتمييل والتحريك ، ويضرب كلمة (إلا الله) على القلب بالضرب العنيف بحيث يصل حرارة الضرب إلى جميع الأعضاء والمفاصل سراية ، ثم يفعل المريد كما فعله شيخه وأمره .

وهذا التلقين مما تتوارثه السادات من رسول الله ﷺ حين لقنه لعلي كرم الله وجهه ، وأن المريد ينفي وجوده عن الوجود والمحدثات بالفناء والعدم ويخيل من لفظة (لا إله) أي لا معبود أو لا مقصود إلا الله بنفي جميع التعلقات البشرية ، ويخيل من لفظة (إلا الله) إلا الذات الصرف البحت بإثبات وجوده الواجب له سبحانه وتعالى .

ثم بعد تلقين الشيخ هذا الذكر من النفي والإثبات لازمٌ على المريد أن يفني أوقاته جلها على هذا الذكر من غير فتور ولا قصور بالاستغراق التام

« ١ » وقد ذكرنا التلقين في فصل الإنابة فراجعه .

والاضمحلال عن جميع ما سواه سبحانه وتعالى ، وأن يكرر تلك الكلمة الطيبة بالدوام حتى يتقرر صورة التوحيد في القلب ويصير صفة لازمة للقلب حتى يكون الذكر ملكة لا يفارق عن القلب والقالب .

وتخييل قول (لا معبود إلا الله) من لفظة (لا إله إلا الله) حال المبتدئ ، و(لا مقصود إلا الله) حال المقتصد ، و(لا موجود إلا الله) حال المنتهي ، فتدبر فإنه مهم .

وقال مولانا الشيخ عبيد الله الأحرار ﷻ : إن المراد من الذكر المذكور والمقصود منه أن يكون قلب الطالب الذاكر دائما مع الحق سبحانه وتعالى بصفة المحبة والتعظيم ، فإن حصل للطالب الحضور في الجمعية والصحبة و حصل له الاستغراق ، فهي خلاصة الذكر وحضور القلب فيعم له الذكر ولا يبقى في قلبه أمر الدنيا ومصلحة الآخرة ولا همّ ولا فكر سوى في الله بالله ، ولا يخلو قلبه عنه البتة وتيسر له السير التام العلمي ، فيلزم عليه الاجتهاد لتخليص قلبه عن جميع التعلقات البشرية ليجتني من روضة العناية الإلهية ثمرة المعرفة ، والله يتولاك .

ثم بعد اشتغاله بالكلمة الطيبة وخلاص قلبه من الخواطر ببركة الكلمة الطيبة وصفائه عن الأغيار يأتي بـ (البازكشت) ويقول : إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي بعد إتيان محمد رسول الله ﷺ بعد الكلمة الطيبة .

وإن المشائخ الكرام قالوا : إن لفظ محمد رسول الله ﷺ لفظ شريف وهو زينة الذكر ، وإتيانها في أثناء الذكر وإتيان (بازكشت) بعدها مرغوب ومهم عند السادات ويقولون : إن (بازكشت) ترجمان النية الخالصة ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾

وقال بعض أكابر الطريقة رضي الله عنهم في معنى (لا إله إلا الله) : إن الذاكر يقول في مرتبة سلوكه أحيانا : لا معبود إلا الله وأحيانا لا مقصود إلا الله وأحيانا لا موجود إلا الله ، فالمعنى أنه مادام لم يشرع في السير إلى الله تعالى

يلاحظ وقت الذكر لا معبود إلا الله ، وبعد شروعه فيه يلاحظ لا مقصود إلا الله وما لم ينته السير إلى الله ولم يضع قدمه إلى السير في الله فملاحظة لا موجود إلا الله كفر ، أعاذنا الله تعالى من الجهالة والتلبيس .

وللنفي والإثبات تسعة شروط وقوف قلبي لاطلاع القلب ، وحبس النفس لدفع الخواطر«١» ، وملاحظة الخط لإراءة طريق الذكر ، وملاحظة النقش لجريان لا إله إلا الله ، وملاحظة المعنى للوصلة بتخييل لا معبود إلا الله أو لا مقصود أو لا موجود إلا الله تعالى بحسب المقام ، وضرب لا إله إلا الله ضربا شديدا إلى القلب لتوسعة القلب ، وقوته لإخراج الأخلاق الرديئة الدنية ، وملاحظة عدد الوتري للتمييز ، وذكر (محمد رسول الله) للإيصال إلى ولدية النبوة ، و« بازكشت » وهو إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي لتصحيح النية . « جامع الاصول » ١٣١

قال مولانا محمد معصوم ابن المجدد ﷿ : والأكثر في طريقتنا تقديم اسم الذات ، فإن لم يتأثر الطالب منه يؤمر بمجرد الوقوف القلبي ويتوجه حتى يتأثر بإذن الله تعالى ، ثم النفي والإثبات وسائر الأشغال .

وبعد تعلم السالك طريق الاشتغال يقال له أنت مخير فكل شغل أبعد من التفرقة في حقك وأقرب إلى الجمعية اشتغل به ، لكن الاشتغال بالنفي والإثبات أدخل في الترقي وتنوير الباطن ، وإذا غلب على السالك الحضور والاستغراق فيؤمر بترك الذكر ما دام في هذه الحالة . انتهى

« ١ » وقال الشيخ العارف الهروي عن شيخه عبيد الله أحرار قدس الله أسرارهم في الرشحة قال حضرة شيخنا : ذكر يوما في مجلس بهاء الدين عمر ﷿ أن بعض أكابر الطريقة يأمر بحبس النفس في الذكر ويعدّه شرطا فيه فقال الشيخ : إن حبس النفس طريقة جوكية الهنود وإنما الشرط في هذا الطريق حصر النفس لا حبس النفس فبلغ هذا الكلام الخواجة يوسف عليه الرحمة بأن الشيخ ينفي الطريقة فكتب إلى الشيخ : سمعت أنكم نفيتم طريقة حبس النفس قائلا بأن أحدا من مشائخ الطريقة قدس الله أرواحهم لم يأمر بهذا ومن المقرر والمحقق أن الخواجة بهاء الدين وخلفاؤه قدس الله أسرارهم كانوا يأمرون بحبس النفس في الذكر فكيف تنفونه فكتب الشيخ ﷿ في جوابه : إن مقصودنا من هذا الكلام ليس نفي طورهم فأجمل في الجواب وأبهم « رشحة »٧٧ .

والحاصل كما قاله في « تحفة الأحباب » : إن من استعد لتقديم الجذبة على السلوك فله ذلك ، والمراد بالجذبة هنا جذبة المريدين وهي مشاهدة قلبية يحصل بها توجه القلب إلى جناب الحق سبحانه وتعالى .

وأما جذبة المنتهين فهي مشاهدة روحية يحصل بها توجه الروح إلى مدارج الشهود ، والسلوك تصفية القلب وتزكية النفس عن رذائل الأخلاق البشرية وتخليصها عن القيودات العنصرية والرعونة النفسية والتعلقات الكونية بالرياضات الشاقة والمجاهدات اللائقة على موافقة الشريعة ومتابعة السنة مع الاشتغال بما يتلقن به من الأذكار الواردة ، فله الاشتغال باسم الذات لما أنه يناسب لصاحب الجذبة ، لأن قلبه خال عن الأغيار وعن التعلقات إلى الأكوان فلا يحتاج إلى نفي تلك الأغيار ونفي تلك التعلقات ، بل إنما يحتاج إلى ظهور حقيقة جذبة المحبة الذاتية ، فهذا يحصل باشتغاله باسم الذات من غير احتياج إلى النفي والإثبات .

ومن استعد لتقديم السلوك على الجذبة فله أن يشتغل بالنفي والإثبات من غير حبس النفس إلى أن يستعد للجذبة ، وبعد ذلك أيضا يشتغل باسم الذات كما في ابتداء الأمر .

ومعنى الاشتغال هنا الاشتغال وفق تلقين الشيخ كذلك ، وليس المعنى الاشتغال بنفسه بلا تلقين من الشيخ كما يتبادر إليه بعض الأوباش .

وإنما اعتبر المشائخ ﷺ مراعاة استعداد الطالبين في تلقين الذكر لتسهيل سلوكهم ، لأنهم إن لم يعتبروا الاستعداد ولقنوا من يستعد لتقديم السلوك اسم الذات ، أو لقنوا لمن يستعد لتقديم الجذبة النفي والإثبات يدخل الاختلال في سلوكهما من بطء الوصول أو صعوبة السلوك أو غير ذلك من الآفات ويشق للشيخ والمريد إصلاح أمر السلوك وجبر ما فسد .

وكلاهما أي النفي والإثبات واسم الذات يتلقن بالقلب الحقيقي الذي هو عبارة عن اللطيفة الداركة للكليات والجزئيات المتوسطة بين روح الأمر

والنفس الناطقة ، وهذا القلب كله لسان يتكلم به وكله بصر يبصر به وكله سمع يسمع به وكله مدرك يدرك به ، والقلب الحقيقي مشارك لأخواته من حيث الحقيقة من الروح والسر والخفي والأخفى .

أما الروح هو عبارة عن اللطيفة النورانية الملكوتية وهي باطن القلب وألطف منه وإذا احتجبت الروح عن مراعاة القلب أساءت الجوارح الأدب ، لأن القلب والنفس والجوارح كلها لا تعمل عملا بدون مراقبة الروح .

وأما السر هو عبارة عن اللطيفة الربانية الجبروتية وهو باطن الروح وألطف منها ، ومرتبة السر محل دخول السالكين إلى عالم الجبروت ، وطريق الدخول في عالم الجبروت أن السالك يدخل أولا في مرتبة قلبه وتقطيع تلك المرتبة ثم يعرج منها إلى مرتبة الروح وتقطيعها أيضا ثم يعرج منها إلى مرتبة السر ثم يعرج منها إلى مقام مشاهدة عالم الجبروت ، وهذا الأمر مما لا يقف عليه كل أحد إلا حذاق السالكين الذين كثر سلوكهم فى هذا الباب دخولا وخروجا .

وأما الخفي هو عبارة عن لطيفة لاهوتية ملازمة بعالم الصفات ، وهو باطن السر وألطف منه ، ومرتبة الخفي مرتبة الحيرة والاستغراق .

وأما الأخفى هو عبارة عن لطيفة لاهوتية أيضا لكنه ملازم بعالم الذات ومظهر لتجلياتها كما ورد في الحديث القدسي : « إن في جسد ابن آدم لمضغة وفي المضغة فؤادا وفي الفؤاد سرا وفي السر خفيا وفي الخفي أخفى وفي الأخفى أنا » ، وإنما سمي الأخفى لكونه أبلغ في الاختفاء من الخفي وألطف منه وهو باطن الخفي .

والباطن من هذه اللطائف أكبر من الظاهر على خلاف العادة وذكرها الخفي ، وهو أفضل من الجهري بمراتب ، ولما وصل السالك إلى مرتبة الأخفى يكون جميع اللطائف متحدة مع الأخفى لكون تلك اللطائف حقيقة واحدة في الأصل ، لكن بحسب الأطوار والمراتب تكون متعددة .

وهذه المذكورات من اللطائف من عالم الأمر الذي خلقه الله تعالى بأمر (كن) أي من فوق العرش ، لأن عالم الأمر عبارة عن الموجودات الخارجة عن الحس والخيال وعن الجهة والمكان ، ومعنى (بأمر كن) أي بمجرد التجليات الإرادية من غير مادة من العنصر ورتبها بحكمته البالغة مع لطائف عالم الخلق على طريق التعشق والمحبة بحيث يكره منها مفارقة أخرى حتى كانت لطائف عالم الأمر بسبب ذلك التعشق مقهورة تحت حكم لطائف عالم الخلق . انتهى

وكل من هذه اللطائف محل الذكر أي محل ذكر اسم الذات على الترتيب المذكور بحسب التقدم والتأخر في اللفظ ، وجميع هذه مذكورة في مواضعها .

وقال الإمام الرباني ﷸ : النفي يكون في البداية والانتفاء في النهاية ، وبينهما فرق عظيم .

وقال ﷺ أيضا : ذكر اسم الذات يناسب الجذبة ، وذكر النفي والإثبات يناسب السلوك ، وفي هذه الطريقة الجذبة مقدمة على السلوك . وقال رضي الله تعالى عنه : **علامة سلامة القلب أن لا يخطر عليه غير الحق تعالى .**

ومن كلام الإمام الرباني أحمد سعيد الفاروقي ﷸ في « المقامات » : أن النفي والإثبات أن يحصر النفس تحت السرة ويصعد منها بكلمة (لا) بلسان الخيال وينتهي بها إلى الدماغ ، ومنه يأتي بكلمة (إله) وينزل بها إلى الكتف الأيمن كما ذكرناه مرات عديدة ، ومنه يجري (إلا الله) فيضرب بها على القلب بحيث يظهر أثر الذكر في سائر اللطائف ويقول عند إطلاق النفس بلسان الخيال : (محمد رسول الله) .

وحين الذكر يشترط ملاحظة المعنى بأن لا مقصود إلا الله ، وفي جناب النفي ينفي نفسه وسائر الموجودات ، وفي جانب الإثبات يلاحظ إثبات الحق تعالى .

ومن الشروط أيضا في كل ذكر بعد مرات أن يقول بلسان الخيال مع التذلل والانكسار : إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي أعطني محبتك ومعرفتك .

ومن آكد الضرورات الذي لا بد منه خصوصا في الذكر أن يكون التوجه دائما إلى القلب ، وتوجه القلب إلى الذات الإلهية جل سلطانها ، لأن حصول نسبة الحضور في البال بدون هذين التوجهين محال ، وهذ يسمى عندهم بالوقوف القلبي .

وينبغي للسالك أن يتحفظ على قلبه من غلبة الخواطر عليه ويقال له : (نكاه داشت) .

وحبس النفس في الذكر مفيد ، ومن فوائده : حرارة القلب والشوق والذوق والرقة وانتفاء الخواطر وظهور المحبة ، ويمكن أن يكون موجبا لحصول الكشف .

وينبغي في ذكر النفي والإثبات مراعاة عدد الفرد إذا كان بالحبس ، ومن ثمه يقال لهذا الوقوف العددي ، وهذا الذكر مأثور عن سيدنا الخضر عليه السلام الذي علمه الشيخَ عبد الخالق الغجدواني قدس سره وبسطنا الكلام في هذا في غير هذا الموضع والله الهادي . « مقامات السعدية » ١٩٧ .

وقال الشيخ محمد معصوم قدس سره : إن الذكر في حد ذاته مسنون حسن ، وقال : إن الحبس يكون بدعة لو ثبت أن هذا العمل لم يكن في الصدر الأول وذلك ممنوع ، وأيضا إن حضرة الخضر هو الذي علم حضرة الخواجه عبد الخالق الغجدواني وأمره الخضر عليه السلام بأن ينغمس في الماء ليكون النفس محبوسا ، فلا يمكن الحكم في عمله بالبدعية .

ونقل عن حضرة المجدد قدس سره أن هذا الذكر قد وصل إلى أهل الطريقة النقشبندية معنعنا من الصديق الأكبر ، وطريقة الصحبة أيضا وصلت إليهم منه رضي الله عنه كذا في « كنز الهداية » هامش « المقامات » .

وقال الشيخ الهروي قدس سره : رأى مولانا في حجرتي مصحفا في الرف فقال ماهذا الكتاب ؟ قلت : هو مصحف ، قال : إن ذلك من البطالة ، يعني أن وظيفة المبتدئ في بداية سلوكه الاشتغال بالنفي والإثبات .

وقال : إن تلاوة القرآن وظيفة المتوسطين ، والصلاة شغل المنتهين ، وأهم المهمات للمبتدئين الاشتغال بالنفي والإثبات ، وترك الأهم والاشتغال بغيره بطالة كمن يقرأ الفاتحة في القعود زعما منه أنها أم القرآن ، وهذا الذي كثر في حق الدجالين الزعم قائلين : وهل شيء أفضل من القرآن كلام الله العزيز ؟ ! مع جهلهم معنى الفضيلة وما نطق بها السادات أرباب القلوب ، اللهم اجعلنا من الصادقين المخبتين .

ثم اعلم أيها الأخ المأمون طالب السر المصون أن التلقين مزلة أقدام كثير من المشائخ وأطالوا الكلام بالقال والقيل وبه ضل كثير في هذه الطريقة الصديقية وأضلوا بعضهم بمجرد التعصّب اقتداء بآثار الجهلة الدجالين المتشيخين ، وبعضهم بجهلهم اصطلاح القوم بعدم وقوعهم في أيدي المرشدين الكمّل ، وبعضهم بالتكبر والترفع بل بالعقد المكنوز في صدورهم على المرشدين ومريديهم باتباعهم الأهوية الشيطانية بغلبة رعونة نفوسهم فوقع أكثرهم في الخسران ، وبعضهم اجتهدوا في طلب مرشد كامل وبذلوا جهدهم بصفاء السريرة باتباع السنة ، ففازوا بمرامهم وربحوا في تجارتهم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ثم إن التلقين إنما وصل إلينا بالحقيقة من الله سبحانه وتعالى كما شهدت عليه آثار التنزيل بقوله تعالى : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ﴾ .. الخ ، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ .. الخ ، وذلك كما أن التلقين من رسول الله ﷺ إلى خلفائه ثم إلى أصحابه ثم ورثته من العلماء الصالحين والمشائخ الكاملين بواسطة المشائخ بطنا بعد بطن لإخراج السالكين من بحر الظلمات إلى فضاء الرحمة ، كذلك وصل التلقين إلى الأنبياء أيضا بواسطة أبينا آدم عليه السلام بطنا بعد بطن . قال تعالى : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ ، ثم من آدم إلى أولاده وأولاد أولاده إلى سيدنا سيد الكائنات عليه وعليهم السلام .

وهذا التلقين على قسمين وقد شهر بالنسبة ، فهي إذا تلقين ظاهر وتلقين باطن ، والمعنى في ذلك أن التلقين بالنسبة الظاهرية فرادى فرادى فقد

وصل إلينا من يوسف الكوراني وغيره بسند صحيح أن عليا ﷺ سأل النبي ﷺ فقال : دلني على أقرب الطرق إلى الله وأسهلها على عباده وأفضلها عند الله ، فقال عليه الصلاة و السلام : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله الا الله »إلى آخر الحديث ، وقد ذكرناه آنفا ، وتسمى هذه نسبة عليّ في تلقين الذكر ، وعليه بعض الطرق كالشاذلية والقادرية وأمثالهما .

وأما التلقين الباطني وهي النسبة الباطنية في تلقين الأذكار القلبية وهو المراد المطلوب ، فذلك بإثبات من غير نفي بلفظ الذات الجامع الذي هو اسم الجلالة لقوله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾ .. الخ ، وتسمى هذه النسبة بالصديقية وهي منسوبة إلى الصديق الأعظم ، وعليها مشائخ هذه الطريقة النقشبندية ، وهي التي أخذها باطنا عن النبي ﷺ ، وهذا هو الذكر الذي وقر في قلبه ﷺ وعني به لقول النبي ﷺ عن ربه : « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ، بل بشيء وقر في قلبه » .

وقد تفرعت نسبة جميع الطرق من هاتين النسبتين ، فهما أصلان ومعهما عون الرحمن ، وهذه النسبة الباطنية الصديقية في الحقيقة من الله تعالى بلا واسطة آدم ﷺ ، بل بواسطة رسول الله عليه الصلاة و السلام فقط ، كما قال عليه الصلاة و السلام : « ما صب الله في صدري شيئا إلا وصببته في صدر أبي بكر » بخلاف سائر الطرق .

وأكثر المتشيخين معزولون عن فهم معنى النقشبندية ، ويبدعون في هذه الطريقة العلية أمورا لم تعهد قط من أحد ، وأرادوا إضاعة هذه النسبة السنية من أصلها لأجل الدنيا وجلب حطامها ، ويكتنزون ببدعاتهم الكنوز حلالا كان أو حراما حتى لا يخرجون الزكاة مما جمعوا ، اللهم نعم إن الزكاة إنما أوجب الله لتزكية أموالهم وكيف يزكى الحرام الذي جمعوها من أموال الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل بالخدعات والأقوال المموهة كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

وأما التوحيد بـ : (لا إله إلا الله) فإن كل من توجه وقلبه لغير الله حجب عن الله تعالى ، وكل من ذكر وقلبه بغير مذكوره حجب بألف حجاب .

فإذا طهرت ظاهرك من الأنجاس والأدناس وباطنك من الوساوس والظنون والأوهام فقل خمسة آلاف مرة : لا إله إلا الله ، و يكون ذلك بعد تمام النفي و الإثبات وأقله عند الشاذلية اثنا عشر ، وإياك أن يكون ذكر عدد بلا حضور ومعنى .

وأصل الذكر التلذذ والحلاوة فإن غلب عليك خشوع ودموع واحتراق واغتراق فذلك علامة الفتح ، ولا يزال الذاكر يذكر حتى يدرك العجائب والغرائب والأسرار العظيمة والكيفية الفخيمة ، ثم لا يحرك لسانه بالذكر ويبقى الفكر وهو مقام الأكابر وفيه كلام فاعرف .

وهذا التوجه سريع الفتح وأكثر العباد تركوا العبادات والرياضات واشتغلوا بالتوجهات حتى أحرق الذكر من قلوبهم ما سوى الله وتوقفوا ، فإذا كان مع رياضة حصل الكمال الأعظم سريعا البتة بلا شك . انتهى « جامع الاصول » ١٨٤

فصل

في بيان الولايات

الولاية الصغرى و الولاية الكبرى والولاية العليا وما فيها من المراقبات والتجليات ودوائرها وما يعتريها

اعلم أيها الصديق أيّدك الله بالتحقيق أن المراقبة في اللغة انتظار الفيض الإلهي ، وفي اصطلاح سادات الصوفية هي على معنيين :

الأول علم العبد وشعوره بدوام اطلاعه تعالى في كل حال وهذه المراقبة واجبة في كل حين .

والثاني انتظار الفيض من الله تعالى مع ملاحظة ورود الفيض ومنشئه وموارده ، لكن إنها لا يتعقل فهمها إلا بالذوق الحاصل بواسطة المرشد أو بالعلم الوهبي من الله تعالى وقليل ما هم ، وقد يعبر بالإحسان المعروف على أن مفهومهما واحد لما أن المراقبة استدامة علم العبد باطلاع الرب عليه في جميع أحواله وذلك عين معنى الإحسان .

ثم اعلم أن المراقبة نسبةٌ زكية وعبادةُ تصفيةٍ ، ومن تحقق بها نَوَّر الله سبحانه و تعالى قلبه بنور المعرفة واليقين ، وشرح صدره بكشف الحقيقة على النهج المبين ، فلا تخطئ فراسته ولا تبطل مكاشفته ، ويكون متصرفا في الملك والملكوت ومقربا في حضرة الجبروت وتحسن معاملته مع الله سبحانه وتعالى في جميع الأوقات ، ويكون كمن يعبد الله تعالى بجميع العبادات لأن مراقبة الله تعالى أعظم العبادات وأكمل الطاعات .

فلذلك كانت خواص الصحابة ﷺ يشتغلون بدوام المراقبة وطول الفكرة لما ورد : « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » ، وهي من الطرق الموصلة إلى مرتبة المشاهدة ، فمن داوم عليها كان من الواصلين ، وهي عند العامة انتظار أحكام الله تعالى للعمل بها ، وأما عند الخاصة فهي على ثلاثة أنواع :

النوع الأول استدامة العلم باطلاع الحق في جميع الأحوال والاستمرار والاقتداء بجميع الأحكام في كل الأحوال .

النوع الثاني مطالعة آثار الأسماء والصفات في الكائنات والمسارعة إلى الله بجميع العبادات .

النوع الثالث مكاشفة أسرار حقائق الأسماء والصفات ومشاهدات أنوار التجليات .

وهذا النوع درجة الولاية الصغرى ومرتبة الوصول إلى الله تعالى ، وهو ما يبلغ إليه السالكون بالمراقبة ونهاية ما يصل إليه السائرون بالمحاضرة .

وفي هذه المرتبة تتم الأفنية وتقوم الأبنية وتنتفي الحالات وتثبت المقامات ، فمن وصل إلى هذه المرتبة يعمر أوقاته بالموافقة ويحمل أعضاءه بالعبادات وينور قلبه بالمشاهدة ، فيكون جميع أوقاته في خدمة الله تعالى ويصير جميع أعضائه في خدمة الله تعالى عامدا ويستمر قلبه في طلب الله تعالى شاهدا ويتحقق في المعرفة بحقيقة التوحيد ويقوم في العبودية بالترقي والمزيد ، وإن الولايات الثلاث إنما تحصل بالمراقبة وهي من أهم المهمات وإنها تحصل في الولايات ، ونذكر هنا الولايات ثم كيفية المراقبة وآدابها :

فأما الولاية الصغرى ، هي اتصاف العبد بصفات الله تعالى وتخلقه بأخلاقه ، والفرق بين الولاية الصغرى وبين الولاية الكبرى أن الولاية الصغرى ظل الولاية الكبرى ووسيلة للولاية الكبرى .

ولا تحصل الولاية الصغرى إلا بحيلولة حجب الأسماء والشؤون بخلاف الولاية الكبرى ، فإنها تحصل من غير حيلولة تلك الحجب ، ولا ينال السالك إلى الولاية الكبرى إلا بالوراثة ووساطة النبي ﷺ أو القائم مقامه ، لأن السالك في هذه المرتبة يشاهد ذات الحق تعالى في مرآة الروح المحمدية ، كما قال صاحب « تحفة الأحباب » : وقال مولانا وشيخ شيخنا قدس سره في « جامع الأصول » : إن الولاية الصغرى عبارة عن سير تجليات الأفعال الإلهية وسير

ظلال الأسماء والصفات ، فاعلم أن دائرة ظلال الأسماء والصفات مبدأ لتعينات جميع الممكنات سوى الأنبياء والملائكة عليهم السلام ، وأن كل فرد من أفراد العالم يصل إليه الفيوضات بتوسط الصفات والظلال التي هي وسائط المخلوقات وذات حضرة الحق ، ولولم تكن هذه الأسماء والصفات لم يوجد العالم الذي كان عدما محضا ، لأن الحضرة الموصوفة بالاستغناء ليس لها مناسبة بالعالم إن الله لغني عن العالمين ، فكل شخص من أفراد العالم يصل إليه فيوض وكمالات بواسطة يقولون لها مبدأ تعين هذا الشخص وحقيقته ويسمونه أيضا العين الثابتة ، وما قالته الصوفية من أن الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق إشارة إلى هذه الظلال .

وإذا دخلت هذه اللطيفة في دائرة الولاية الصغرى تفني وتستهلك في أصل أصله وحقيقته وتبقى بحقيقته هذه ، ففناء لطيفة القلب يصير في التجلي الفعلي ففي هذا الوقت يختفي عن نظر السالك أفعاله وأفعال جميع المخلوقات ، ولا يرى في نظره غير فعل الفاعل الحقيقي ، ويسمون ولاية هذه اللطيفة **ولاية آدم** عليه السلام ويقولون للسالك الواصل إلى مقصوده من طريق هذه الولاية **آدمي المشرب** .

وفناء لطيفة الروح يصير في الصفات الثبوتية لحضرة الحق سبحانه ، وفي هذا الوقت يرى السالك صفاته وصفات جميع المخلوقات مسلوبة عنهم ، ويرى أن كلها منسوبة إلى الله تعالى .

ولما كان وجود الأصل أصلا لجميع الصفات فلا جرم ينفي السالك وجوده ووجود الممكنات ويثبته لله تعالى وحده بالتوحيد الوجودي ، ويقولون لولاية اللطيفة **ولاية نوح وإبراهيم عليهما السلام** ، ويقولون للسالك الواصل من هذه **إبراهيمي المشرب** .

وفناء لطيفة السر يصير في شؤونات ذات الله ، وفي هذا المقام يجد السالك ذاته مضمحلة في ذات الحق سبحانه ، ويقولون لولاية هذه اللطيفة **ولاية موسى** عليه السلام ، والسالك الواصل من هذه **موسويّ المشرب** .

وفناء لطيفة الخفاء يصير في الصفات السلبية له تعالى ، وفي هذ المقام يفرد السالك جناب كبريائه تعالى عن جميع المظاهر ، ويقولون لولاية هذه اللطيفة **ولاية عيسى** عليه السلام ، والسالك الواصل من هذه **عيسوي المشرب** .

وفناء لطيفة الأخفى يصير في مرتبة الشأن الإلهي الجامع لهذه المراتب كلها ، وفي هذا المقام يصير السالك متخلقا بالأخلاق الإلهية .

واعلم أن ولاية هذه اللطائف كلها تكون في ولاية الدائرة الصغرى وأنهم كما يؤمرون في دائرة الإمكان بمراقبة الأحدية كذلك يؤمرون في الولاية الصغرى بمراقبة المعيَّة التي هي مفهوم الآية ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ .

وتمام سير دائرة الإمكان يعرفه السالك إن كان له كشف ، أو يخبره الشيخ إن كان صاحب كشف ، وإن لم يكن لهما كشف فينبغي أن يلاحظ السالك جمعية قلبه ، فإن بلغ انتفاء الخواطر أوقاتها إلى أربع ساعات كاملا فحينئذ يشرع في مراقبة المعية بأن يلاحظ معيته تعالى به وبجميع لطائفه وعناصره بل بكل ذرة من ذرات الممكنات ، حتى يدرك معيته تعالى اللامثلية بالإدراك اللامثليّ ، وتحيط بالجهات الست ويضمحل التوجه والحضور الذي كان قد ظهر ، ففي ذلك الوقت يشرع في سير الولاية الكبرى . انتهى

وأما الولاية الكبرى هي ولاية النبوة ، وهي عبارة عن سير دائرة الأسماء والصفات وشؤونات الذات له تعالى : فاعلم أنه لما ورد على السالك أسرار التوحيد الوجودي وسر المعية ، كأن يرى في وجدانه نورا من العرش المجيد بل فوقه إلى الثرى محيطا به وبكل ذرة من الممكنات ، ولون ذلك النور لكونه لا لونيا كان مناسبا للسواد وكان مصداق : « كان الله في عماء » ، وقد رأى أنه طلع مثل الشمس من المطلع وانمحى ذلك النور الأسود الذي كان يظنه ذات الله تعالى ولم يبق له أثر ، ورأى أنه عاد وجود الممكنات الذي كان يوجد مضمحلا في ذلك النور الأسود إلى الظهور كوجود النجوم في شعشعان نور الشمس ، ولكن لعدم كون حدة البصر في السير القلبي بقدر يقدر على التمييز بين وجود الممكن والواجب كان يقول بالاتحاد .

ولما وهبوا له من عنايتهم حدة النظر في سير الولاية الكبرى التي هي ولاية الأنبياء ومقام الصحو والانتباه رأى أن لوجود الممكنات ثبوتا واستقرارا البتة ، ولكن يجد وجود الأشياء ظليا أثرا من الوجود الإلهي وقع على الإعدام وجعلها موجودة وكذلك يشاهد في لطيفة النفس ، ومن هنا يجد معنى أقربيته تعالى .

والفرق بين المعية والأقربية أن غاية المعية هي الاتحاد وكتمان الاثنينية ، فإنه وإن كان وجود الممكن مشهودا لكنه مستفاد من حضرة الحق لا ذات الممكن ، وكذلك صفاته وإن كانت ظاهرة فهي أيضا من ذلك الجناب سبحانه ، وحقيقته عدم لا يمكن الإشارة إليه أصلا .

فعلم من هذا التحقيق أن وجود الأصل بالنسبة إلى وجود الظل أقرب إلى الظل ، فإن ما ظهر من الأصل لا من غيره إذا نظر إلى وجوده يجده أثرا من الأصل ، وإذا نظر إلى صفاته يراها أثرا من صفات الأصل ، فلا جرم يعترف بأقربية الأصل ، كيف والقرب الذي ظهر الظل مع ذاته هو من وجود الأصل فجاء الأصل أقرب إلى الظل من وجوده .

وبيان الأقربية لا يسعه التقرير إذ العقل الناقص عاجز عن درك أقرب إليه من ذاته ، فإن هذه المعاملة وراء العقل و موقوفة على الانكشاف .

واعلم أيها المأمون أسعدك الله تعالى أن لطائف عالم الأمر الخمس أعني القلب والروح والسر والخفي والأخفى التي هي من أجزاء العالم الصغير أعني الإنسان أصولها في العالم الكبير كالعناصر الأربعة التي هي أجزاء الإنسان ، فإن أصولها في العالم الكبير وظهور أصول الخمس فوق العرش حيث يوصف باللامكانية ، ومن ههنا يقال لعالم الأمر لامكانيا تتم دائرة الإمكان خلقه وأمره وصغيره وكبيره بالوصول إلى نهاية تلك الأصول ، وإلى هذا الموطن ينتهي امتزاج العدم بالوجود الذي هو منشأ الإمكان .

فإذا طوى السالك الرشيد محمدي المشرب هذه الخمس من عالم الأمر بالترتيب وشرع في السير في أصولها من عالم الكبير وطوى كلها بالترتيب

والتفصيل بعلو الفطرة بل بمحض فضل الحق سبحانه وتعالى وانتهى إلى النقطة الأخيرة ، فلا جرم يكون قد أتم دائرة الإمكان بالسير إلى الله تعالى وصار مستحقا لأن يطلق عليه اسم الفناء ، يعني لأن يوصف به وشرع في الولاية الصغرى التي هي ولاية الأولياء ، فإن وقع السير بعد ذلك في ظلال الأسماء والصفات الوجوبية التي هي أصل الخمسة التي في عالم الكبير في الحقيقة ولم يتطرق إليها شائبة العدم وطوى كلها بفضل الله سبحانه وتعالى بطريق السير في الله وبلغ نهايتها ، فقد أتم دائرة ظلال الأسماء الواجبة أيضا وحصل له الوصول إلى مرتبة الأسماء والصفات الواجبة .

ونهاية عروج الولاية الصغرى إلى هذا المقام ، وفي هذا الموطن يتحقق الشروع في حقيقة الفناء ، ويوضع القدم في بداية الولاية الكبرى التي هي ولاية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

واعلم أن دائرة الولاية الكبرى متضمنة لدوائر ثلاثة وقوس ، يعني أن نصف الدائرة الأولى من الدوائر الثلاثة للولاية الكبرى ينكشف فيه سر الأقربية والتوحيد الشهودي ، والنصف السافل لهذه الدائرة للأسماء والصفات الزائدتين ، والنصف العالي مشتمل على الشؤونات الذاتية ، وإلى الدائرة يكون للطائف الخمسة الأمرية العروج .

ومورد فيض هذه الدائرة لطيفة النفس مع شركة اللطائف المذكورة ويتخيلون في هذه الدائرة الأقربية يعني مفهوم الآية : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ .

وإذا تيسر العروج من دائرة الأقربية يقع السير في دائرة الأصل . ومنها يترقى إلى أصل الأصل ومنها إلى الأصل الثالث الذي هو عبارة عن القوس ، وفي هاتين الدائرتين وفي النصف يحصل كمال الاستهلاك والاضمحلال ، وفي هذه الدائرة حقيقة الفناء وفي الولاية السابقة صورة الفناء ، ويعملون في هاتين الدائرتين وفي نصف مراقبة المحبة ، يعني مفهوم الآية ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ومورد الفيض فيها لطيفة النفس .

واعلم أن طريق المراقبة في هذه الدوائر أن يخيل السالك ذاته في داخلها ويلاحظ أن فيض المحبة من دائرة أصل الأسماء والصفات يرد على لطيفة أنانيته ، وكذلك في دائرة أصل الأصل أن فيض المحبة منها يرد على لطيفة أنانيته ، وكذلك في القوس الذي هو الأصل الثالث أن فيض المحبة منه يرد على لطيفة أنانيته ، وفي هذه الدوائر يفيد التوحيد بتهليل اللسان مع ملاحظة المعنى .

وعلامة قطع بعض الدائرة وتمامها هي أن الدائرة تنكشف للسالك كقرص الشمس ، وكلما قطع من الدائرة شيء فعلى قدره يكون لها الظهور بالنورانية بكمال الشعشعان ومقدارها الذي لم يقطع يعلم فإنه يرى بلا نور كالشمس في وقت الكسوف .

وعلامة تمام دائرة الولاية الكبرى أن معاملة فيض الباطن التي كانت تتعلق بالدماغ هي تتعلق بالصدر ، وحينئذ يحصل انشراح للصدر وتكون سعة الصدر بقدر خارج عن البيان ، وإن كان سعة الصدر في السير القلبي بقدر خارج عنه رأى في قلبه سموات متعددة وشاهد فيه قلوبا كثيرة وتكون هذه السعة في القلب فقط ، وأما سعة الصدر التي تحصل في الولاية الكبرى فتكون شاملة لتمام الصدر عموما وتكون في محل لطيفة الأخفى خصوصا .

وعلامة شرح الصدر بطريق الوجدان هي أن يرتفع الاعتراض على أحكام القضاء ، وفي هذا المقام يصير مطمئنا ويحصل له الارتقاء على مقام الرضا ، ويكون راضيا بالقضاء في جميع الأحوال و الافعال . انتهى هكذا صرح مولانا شيخ شيخنا وذكره في « جامع الأصول » وسنورد على هذا بعيد هذا تتميما لزيادة التفصيل والله الهادي إلى سواء الصراط .

وأما الولاية الكبرى هي ولاية النبوة ، وفي هذه المرتبة يصير السالك صاحب القدرة ، ويقدر على إظهار ما يريده لكون هذه المرتبة مرتبة النبوة ، قال ﷺ : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » .

وإنّ **الولاية الصغرى** أيضا على نوعين :

الأول : ولاية عطائية وهي أن يعطيها تعالى لمن يشاء قبل المجاهدة بالجذبة الذاتية .

والثاني : ولاية كسبية وهي أن يحصلها العبد بعد الكسب بالجذبة الحاصلة بالمجاهدة والسلوك في طريق القوم وهي طريق المعرفة ، وفي هذه المرتبة يضع السالك قدمه في ابتداء الولاية ، وذلك معنى كلام القوم من أن بحصول الفناء التام في الذاكر - وهو استيلاء أمر الحق على العبد بحيث يغلب وجود الحق على وجود العبد ، فلا يكون للعبد اختيار عند ذلك بل يكون رجوعه في كل أمر إلى الله تعالى - حصلت له أول درجة الولاية الصغرى ، وهي قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه .

فحينئذ يكون ذلك الذاكر في هذه المرتبة متصفا بصفات الله تعالى لأن هذه المرتبة عبارة عن بقاء العبد بالله تعالى .

وأما الولاية الأعلى : وهي ولاية الملائكة على اختلاف مراتبهم في تلك الدرجة ، والسالك في هذه المرتبة يتجرد عن الصفة البشرية ويتصف بصفة الملكية ويتنزه عن التعلقات العنصرية ، وبقي ذلك الذاكر بالله تعالى بحيث لا يحجبه الخلق عن الحق ولا الحق عن الخلق لقوته على حفظ الجانبين ، فيكون الذاكر في هذا المقام مستقيما في العبودية في جميع الأحوال لأن مقام البقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية .

وهذا المقام موهبة إلهية وخصوصية ربانية ، ولذلك لا يرد الباقي بالله تعالى إلى صفاته الأصلية ، فحينئذ يليق للسالك الاشتغال بنوافل الصلاة في بعض الأوقات ليتقرب بها إلى الله تعالى بكمال التقرب بمقتضى : « لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته » . . الخ ، لأن حصول المقامات والوصول إلى الدرجات منوطة بالنوافل ؛ لأن النوافل تنتج الأحوال الصادقة ، والأحوال الصادقة تنتج الكشف الصحيح ، والكشف الصحيح ينتج

معرفة الله تعالى التي هي النور الظاهر من تجلي الذات الإلهية ، ونذكر الصلاة النافلة ومتعلقاتها إن شاء الله تعالى في موضعها .

والعبد إذا تحقق بالحق لا ينكر قوله (أنا الحق) ، بل ذلك حق كما وقع لبعض العارفين رضي الله تعالى عنهم ، وبهذا القول وأمثاله ابتلي جم غفير من الأولياء لحكمة ربانية لتقاصر عقول العوام عن مقاصد الأولياء وأسرار الأصفياء ، ومعنى تحققه بالحق أن يكون مستغرقا به حتى لا يكون فيه متسع لغيره بل ولا لنفسه ، حتى لا يكون له أصلا كما قال بعضهم : أنا من أهوى ومن أهوى أنا ، وقول الآخر خطابا لله تعالى : وَقَدْ رُفِعَتْ تَاءُ المُخَاطَبِ بَيْنَنا .

وأهل التصوف لما كان الغالب عليهم فناء أنفسهم كان الجاري على ألسنتهم في أكثر الأحوال من أسماء الله تعالى اسم الحق ، لأنهم يلحظون الذات الحقيقية دون ما هو ها لله في نفسه[1] .

وأهل الكلام لما كان الغالب عليهم مقام الابتداء ورؤية الأفعال كان الجاري على ألسنتهم في الأكثر اسم الباري الذي هو بمعنى الخالق ، وهم المخاطبون بقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، والصديقون لا يرون شيئا سواه ، وهم المخاطبون بقوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

رجعنا إلى ما نحن بصدده ، ثم اعلم أن كيفية المراقبة أن يكون السالك طاهر البدن والثياب وحضور القلب والفؤاد في مكان طاهر بحيث لا يصل إليه أصوات الحيوانات ولا يدخل فيه الإنسان ، ثم يجلس فيه على ركبتيه مستقبل القبلة مغمض العينين ، ثم يخرج من حوله وقوته وينسى جميع علمه ومعرفته ويعطل حواس ظاهره وفؤاد باطنه ، ثم يتوجه بالقلب المطلق مع الجذبة إلى جناب ذات الحق سبحانه على طريق الذهول والاستهلاك فيه ، ولا ينفك عن المراقبة بهذه الكيفية في جميع الأوقات بعد أداء الفرائض والسنن الراتبات

« ١ » أي هاء الجلالة أقرب من هويّتهم إلى أنفسهم .

حتى يزول عنه تزاحم الخواطر وتثاقل العناصر وتتزكى نفسه ويعتدل طبعه وتغلب روحانيته على جسمانيته .

فبعد ذلك إن استقرت فيه تلك الحالة وصارت له كالصفة اللازمة تستحب له مخالطة الناس ، وهذا موضع مزلة أقدام كثير ، ويلزم الاشتغال حينئذ بنوافل الصلاة وتلاوة القرآن والأوراد ، لأن السالك إذا وصل إلى هذه المرتبة يمكن له التقرب بجميع الأعمال ويعرف طريق الاستفاضة في أحسن الأحوال .

وإن للمراقبة شروطا وآدابا لا بد منها لمن يريد الترقي بها ونذكرها إن شاء الله تعالى ، فمن حفظها يرتقي من المراقبة إلى المشاهدة ومن المشاهدة إلى المكالمة كما قال الشيخ القطب الحقيقي إبراهيم الدسوقي قدس سره : نسألك مشاهدةً تتبعها مكالمة .

ثم إن شروطها أن تكون المراقبة بإذن الشيخ الكامل وتعليمه وتربيته وتلقينه ، وأن تكون مع الجذبة القيومية ، وأن تكون بعد قطع العلائق الحسية والمعنوية ، وأن تكون بعد ترك النسب والإضافات وبعد الوقوف عند الواردات .

وأما الآداب فهو دوام السكوت وملازمة البيوت وكف الحواس عن الإحساس وتعطيل القوى عن الإدراك - كما قال : العجز عن درك الإدراك إدراك - وترك مطالعة الكتاب والكتابة والإعراض عن اتباع النفس في طلب المعلوم والمعرفة ومخالفة الهوى وترك المنى والخروج عن كل داعية تدعو إلى السوى والسعي في طريق الوصول إلى الله الملك الأعلى ودوام التوجه إلى لقائه تعالى وترك الطمع إلى المقامات والاجتناب عن الكرامات والتأدّب مع الله تعالى في الظاهر والباطن ومراقبته في جميع المظاهر والمواظبة على كتمان السرائر .

فمن داوم على المراقبة بهذه الشروط والآداب ينال إلى ذلك الجناب ويبلغ مبلغ الرجال ويشاهد الجمال والجلال ويصح له التربية والتلقين ويقدر على إرشاد الناس إلى الله تعالى بحق اليقين ، ومن ليس كذلك فلا يليق للمشيخة والإرشاد كما عليه أكثر العباد .

فصل

في بيان مراقبات اللطائف الخمسة الآمرية

اعلم أن مراقبة لطيفة القلب من تجلي الأفعال الإلهية من الحضرة الآدمية على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، والسالك الواصل إلى هذه يسمى بآدمي المشرب .

وكيفية مراقبة هذه أن السالك يقابل بقلبه الصافي لقلب فخر الكائنات صلى الله تعالى عليه وسلم ويقول بلسان القلب أو بلسان القالب : إلهي إن الفيض الحاصل من تجلي الأفعال الإلهية من قلب نبينا ﷺ إلى قلب أبينا آدم عليه السلام فأوصل إلى لطيفة قلبي ذلك الفيض بواسطة قلوب المشائخ الكرام .

ويستمرّ كذلك زمنا منتظراً لورود الفيض إلى قلبه ، فلا ريب أنه يرد إليه الفيض على قدر استعداده ، ومورد الفيض هو لطيفة القلب ومنشأ الفيض الأفعال الإلهية .

وعلامة ورود الفيض أن يجد السالك نفسه مسلوب الأفعال وينسب جميع أفعاله إليه تعالى بسبب غلبة التجليات .

وقال بعض السادات : إن المراقبة والتوجه وهي أن يلازم القلب معنى اسم الذات على مفهوم الإيمان على طريق الاستغراق والاستهلاك بحيث لا ينفك عنه في أيّ حال كان ، فإن انتهى أمره إلى انتفاء العلم مطلقا حصل مبادي الفناء ، ذكره « جامع الأصول »

وقال مولانا شيخنا قدس سره في « جامع الأصول » : وأما المراقبة فعليك بتسليم ما أمرت به في ظاهرك ، فإذا فعلت ذلك فاجلس على بساط المراقبة وخذ بالتخليص في باطنك حتى لا يبقى فيه شيء مما نهاك عنه ، وأَعطِ الجدَّ حقه وقلّل النظر إلى ظاهرك إن أردت فتح باطنك لأسرار ملكوت ربك ، فما ورد عليك من خطرات تصدّك عن مرادك فاعلم أولا قرب ربك منك علما

يباشر قلبك بتكرار النظر في جلب منافعك ودفع مضارك ، وانظر هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض فإن من الأرض ومن السماء قلبك ، فإذا نزل من السماء إلى الأرض شيء فمن ذا الذي يصرفه عنك غير الله ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم ، فأعط المعية حقها بلزوم العبودية له في أحكامه ، ودع عنك منازعة الربوبية في أفعاله فإن من ينازعه يُغْلَب ، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير .

نعم الحق ما أقول لك ، ما من نفس من أنفاسك إلا والله متوليه مستسلما كنت أو منازعا ، لأنك تريد الاستسلام في وقت وتأبى النزاع ، وتريد النزاع في وقت آخر وتأبى الاستسلام ، فدلّت هذه على ربوبيته في جميع أفعاله لا سيما عند من اشتغل بمراعاة قلبه لتحصيل حقائقه .

فإذا كان الأمر بهذا الوصف فأعط الأدب حقه فيما يرد عليك بأن لا تشهد لشيء منك أوّليةً إلاّ بأوّليته ، ولا آخرية إلا بآخريته ولا ظاهرية الا بظاهريته ولا باطنيةً إلا بباطنيته .

فإذا تنبهت لمؤول الأول نظرت لما يؤَوِّل فيما يؤَوِّله ، فإن صدر عليك خاطر من محبوب يوافق النفس أو مكروه لا يلائمها مما لم يحرّمه الشرع فانظر لما يخلقه الله تعالى فيك بأثر ما يخطر ببالك ، فإن وجدت تنبيها على الله تعالى فعليك بالتحقق به فذلك أدب الوقت عليك ولا ترجع إلى غير ذلك ، فإن لم تجد السبيل إلى التحقق به فعَرِّسْ بين يديه فهو أدب الوقت عليك ، ومهما رجعت إلى غيره فقد أخطأت سبيلك .

فإن لم يكن ذلك منك فعليك بالتوكل والرضا والتسليم ، فإن لم تجد السبيل إليه فعليك بالدعاء في جلب المنافع ودفع المضار بشرط الاستسلام والتفويض ، وأحذِّرُك من الاختيار فإنه شر عند أولي الأبصار .

فإذاً هي أربعة آداب : آداب التحقيق وآداب التعريس وآداب التوكل وآداب الدعاء ، فمن تحقق به حفظ عنه ومن عَرَّسَ عنده كفي من غيره بربّه ، ومن توكل عليه كفي من اختيار نفسه باختيار ربه ، ومن دعاه بشرط الإقبال والمحبة أجابه إن شاء فيما يصلح له أو منعه إن شاء فيما لا يصلح له .

ولكل أدب بساط :

الأول بساط التحقيق ، إذا ورد عليك خاطر من غيره وكشف لك عن صفاته فكن هنالك بِسِرِّكَ وحرام عليك أن تشهد غيره .

الثاني بساط التعريس ، فإذا ورد عليك خاطر من غيره وكشف لك عن أفعاله فعَرِّسْ هناك بسرك وحرام عليك أن تشهد غير صفاته شاهداً ومشهوداً ، وفي الأول فني الشاهد وبقي المشهود .

الثالث بساط التوكل ، فإذا ورد عليك خاطر من غيره وكشف عن غيوبه جلست على بساط محبّته متوكلا عليه راضيا بما يبدو لك من آثار فعله في أنوار حجبه .

الرابع بساط الدعاء ، فإن ورد عليك خاطر من غيره وكشف لك عن فقرك إليه فقد دَلَّكَ على غناه واتخذ الفقر بساطا واحذر أن تنزل عن هذه الدرجة إلى غيرها فتقع في مكر الله من حيث لا تعلم .

وأقل ما يكون منك إذا نزلت عنها أن ترجع إلى نفسك مدبراً لها ومختارا بها ، نعوذ بالله من دعاوى الشرك وتعطيل النفس عن المجاهدات ومن خلو القلب عن المشاهدات . اهـ بحروفه .

مراقبة لطيفة الروح
من تجلي الصفات الثبوتية من الحضرة النوحية والإبراهيمية

واعلم أن مراقبة لطيفة الروح الإبراهمية تكون على هذه الكيفية ، وذلك أن السالك يجعل لطيفة روحه مقابلا للطيفة روح حضرة فخر الكائنات ﷺ فيعرض حاله إلى الله سبحانه وتعالى قائلا : إلهي إن الفيض الحاصل من تجلي الصفات الثبوتية حصلت من حضرة روح لطيفة سيد الكائنات ﷺ إلى حضرات روحي لطيفة نوح وإبراهيم عليهما السلام ، فبواسطة أرواح سادات المشائخ فأوصِل وأنزِل ذلك الفيض إلى لطيفة روح هذا الفقير ، وينتظر بالانكسار إلى ورود الفيض برجاء الإفاضة منهم .

وقال شيخ شيخنا قُدِّسَ سِرُّهُ في « جامعه » : واعلم أن المراقبة هي أقرب الطرق إلى الله تعالى من حيث التقرب إليه كما قيل : القصد إليه تعالى بالقلوب أبلغ من حركات الأعضاء في الأعمال بالصلاة والصيام والأذكار والأوراد ونحوهما ، لأن صاحب الهمة العالية لا يزال عاملا بقلبه وتساعده على الأعمال جوارحه ، فهو يكون دائما في الترقي والتقرب وأبداً في التحبب . اهـ

وهي بعينها معنى النفي والإثبات من غير ملاحظة حروف الكلمة الطيبة ، لأن المراقبة هي ملاحظة إثبات وحدة الوجود الإلهية في الباطن ، وهذا المعنى هو بعينه معنى (إلا الله) لأن نتيجة ذكر النفي والإثبات هي المراقبة ، لأن حقيقة النفي والإثبات بالقلب هي أن يتلفظ الذاكر بلسان القلب (لا إله)نافيا بها جميع تعلقات القلب ، ثم يتلفظ أيضا بلسان القلب (إلا الله) مثبتا بها وجود وحدانية الحق فيه .

ولا حاجة في ذكر النفي والإثبات على هذه الكيفية إلى حبس النفس ، وإنما الحاجة فيه إلى الحضور مع المذكور والذهول عما سواه ، فإذا ذكر الذاكر هذين الاسمين بهذه الكيفية تحصل له بذكرهما صفوة وزكاء نفس ويكون الذاكر بذكرهما عارفا بالله تعالى وواصلا إلى الله تعالى ، فلا يحتاج ذلك لمعرفة الحق إلى طريق آخر .

والطريق الآخر في ملاحظة الذكر عند كلمة التوحيد هو أن يلاحظ نفي وجود إله عن قلبه بكلمة النفي وأن يلاحظ إثبات وجود الله فيه بدلا منه بكلمة الإثبات ، فنفي وجود إله أصل لجميع معاني (لا إله) ، وإثبات وجود الله أصل جميع معاني (إلا الله) ، فمن يلاحظ هذين المعنيين في كلمة التوحيد فكأنما يلاحظ جميع معانيها ، فبهذه الملاحظة يكشف الذاكر وحدة وجود الله ويصل إليه تعالى « جامع الأصول » .

مراقبة لطيفة السرّ
من تجلي الشؤنات الذاتية من الحضرة الموسوية

اعلم أيدك الله تعالى بالتقوى ، أن طريق مراقبة لطيفة السر أن السالك يعرض لطيفة سره مقابلا للطيفة سرّ سيد الكائنات عليه الصلاة والسلام ويعرض إلى الحق سبحانه وتعالى ويقول : إلهي إن الفيض من تجلي الشؤون الذاتية وصلت من لطيفة سرّ رسول الله ﷺ إلى لطيفة سر حضرة موسى عليه السلام ، فبواسطة سر كرام المشائخ ويمنهم أنزل وأوصل إلى لطيفة سر الفقير بالإفاضة ، وينتظر بذلك إلى الفيض بكمال الخشوع .

وقال الشيخ عمر الشبراوي الشاذلي قدس سره في « تنوير الصدر » : السر هو ما يكتم في النفس من الحديث ، وعند العارفين باطن الروح ، وهي الحقيقة القابلة للتجليات ومحل المشاهدات وأصل مجتمع الأنوار الربانية المودعة في الذوات الإنسانية .

وقال الإمام المصنف : السر هو الذي لا يطلع عليه ملك ولا شيطان ولا تحس به النفس ولا يشهده العقل **وهوفي الإضمار لم تَحْوه الهِمَم** ولم تَدْرِهِ الفِطَن ، وهو لب لباب القلب من حقائق المحض من خطرات الإلهام كشرر النار الكامن في الشجر الرطب ، فإذا أراد الله إظهاره انتقل إلى الأحوال .
« تنوير الصدر » ٤٠ .

مراقبة لطيفة الخفي

من تجلي الصفات السلبية من الحضرة العيسوية

وهو على هذا المنوال : وذلك أن السالك يجعل لطيفة خفيه مقابلا للطيفة خفي خاتم الأنبياء ﷺ ويعرض أمره إلى الحق سبحانه وتعالى ويقول : إلهي إن الفيض الحاصل من تجلي الصفات السلبية وصلت من لطيفة خفي رسول الثقلين ﷺ إلى حضرة لطيفة خفي عيسى عليه السلام ، فبواسطة لطيفة الخفي من المشائخ الكرام أوصل ذلك الفيض إلى لطيفة خفي هذا الفقير بالإفاضة ، ويصبر متنظراً بإظهار الذلة والمسكنة .

مراقبة لطيفة الأخفى

من تجلى الشأن الجامع الإلهي من الحضرة المحمدية بجميع الشؤون

اعلم زادك الله الحسنى وبلغك المُنى«١» ، أن طريق المراقبة من اللطيفة الأخفى هو أن يجعل السالك لطيفة أخفاه مقابلا لحضرة لطيفة الأخفى من رسول الله ﷺ ويعرض حاله إلى الحق سبحانه وتعالى بقوله : إلهي وسيدي إن الفيض الحاصل من تجلي الشأن الجامع وصل بالإفاضة إلى حضرة أخفى رسول الله ﷺ ، فبواسطة أخفى سادات المشائخ وبركاتهم أوصل وأنزل ذلك الفيض إلى أخفى هذا الفقير المفلس بالإفاضة الحقية .

وينتظر ورود الفيض بفضل الله وكرمه العميم ، وإن السالك الصادق إذا حاز الولاية الصغرى بالكمالة يعرج إلى الولاية الكبرى .

ونذكر ما في الولايات من المراقبات على أسلوب السادات وقد أشرنا إليها فيما سبق وإن منشأ الفيض في هذه المراقبات من المرتبة الأحدية ومورد

« ١ » جمع أمنية وهي ما يتمناه المرء

الفيض هي اللطائف بحال أن يكون السالك متصفا بالكمال وفقنا الله تعالى وإياكم الكمال وأنالنا أقصى الآمال .

ثم اعلم أيها المراد جعلك الله تعالى من أهل السداد أن معنى الشؤون الإلهية وطريق معرفتها وأن بيانها وإن كان يعسر تفصيلها بالقيل والقال إلا بالذوق الصحيح بواسطة الشيخ الكامل لكن نشير إليها بأسهل الطرق وإن لم نقدر تفصيلها بالكلية ، وذلك أن الشأن هو الفاصل المتخيل المتصور بين شيئين وهو معدوم وأمر غيبي وليس له في الخارج وجود كتخيل الفاصلة بين السواد والبياض وبين الحلو والمر بفرض الفاصلة بينها .

والمعنى في ذلك أن للحق سبحانه وتعالى تجليات متنوعة وظهورات مختلفة ، وما تُصور وتُخيل بينهما من الفاصلة يعبّر عنه بالشؤون الإلهية ، فحكمها ظاهر وهي في الحقيقة غيبي أبدا .

وللشأن الإلهي اعتباران : فالأول يعبّر عنه بالشأن المطلق ومرادها هي الأفعال الإلهية ، والثاني شأن ذاتي أي يعبر عنه بالشؤون الذاتية ، فإذا عُبّرت بها فمرادهم الاعتبارات الأصلية الإلهية .

ومن كل واحدة من تلك الاعتبارين يفيد الاسم من أسماء الله تعالى بظهور المرتبة المخصوصة له ، مثلا إذا قطعت النظر عن الظهورات التفصيلية للحق سبحانه وتعالى وصار المراد فقط تعيين الوجود الحالي يسمى بالأحد ، وباعتبار استلزام تبعية الأحوال الباقية واعتبار الظهور يسمى بالذات ، وباعتبار قبول آثار الشؤون واعتبار تعينها يسمى بالله وبالواحد ، وباعتبار ظهور الظاهر من الشؤون وباعتبار انبساط وجود الحق يسمى بالرحمن ، وباعتبار كون الرحمة العامة على الموجودة بالتخصيص يسمى بالرحيم .

وهكذا إن الاعتبارات الأصلية الإلهية تسمى بالشؤون الذاتية و الشؤون الإلهية ، فتفكر فإنه دقيق ولا يدرك كل أحد فهم هذه إلا بالذوق الصحيح والشيخ الكامل«١» .

ونفصل لهذه بكيف يبادر إليها الفهم إن شاء الله تعالى وما ذكرنا هنا هو الملخص المصفى من كلام السادات وإن ذكرت هنا بما لم يذكروا وحسبنا الله ونعم الوكيل . انظر في « جواهر المعانى » ٢٠٤ /٢

قال الشيخ عمر الشبراوي الشاذلي ﷺ : الأخفى هو باطن السر فلا يطلع عليه أحد ولا يعلمه إلا الله تعالى ، قال ابن الفارض ﷺ :

أَخْفَيْتُ حُبَّكُمْ فَأَخْفاني أَسًى ... حَتَّى لَعَمْري كِدْتُ عَنِّي أَخْتَفي
وَكَتَمْتُهُ عَنِّي فَلَوْ أبْدَيْتُهُ ... لَوَجَدْتُهُ أَخْفى مِنَ الُّلطْفِ الخَفي

إذ اللطف الخفي هو التوفيق الذي يخلقه الله تعالى في العبد من حيث لا يشعر ، وقوله : (كدت عني أختفي) إشارة إلى الفناء بالله تعالى فإنه إذا ظهر للعارف أخفاه عن نفسه فلا يجد غير الله تعالى .

وقال بعض العارفين : أخفى فعل ماض أي أنه تعالى يعلم أسرار العباد وأخفى سرّه عنهم . « تنوير الصدر على معرفة البر »٤٠ .

مراقبة الأحدية

في دائرة الإمكان نصفها السافل من العرش إلى الثرى

اعلم أيها الولد الأسعد أن دائرة الامكان أولى الدوائر ، وهو مقام شريف للسالك يشتغل فيها بمراقبة الأحدية الصرفة ، وهي التوجه إلى حضرة الذات من حيث أنه موصوف بصفات الكمال منزهة عن جميع النقائص وانتظار

« ١ » الشؤون هي الأفعال والشؤون الذاتية هي اعتبار نفوس الأعيان والحقائق في الذات الأحدية كالشجرة وأغصانها وأوراقها وثمارها إلى النواة وهي التي تظهر في الواحدية وتنفصل بالعلم « جامع الأصول »٧٦ .

الفيض من ذلك الجناب المقدس ، وهو مسمى الاسم المبارك **الله** ، ومورد الفيض فيها لطيفة القلب .

وإذا حصل الحضور والجمعية للقلب بحيث بلغ انتفاء الخواطر إلى ساعتين ، فذلك عند البعض علامة تمام دائرة الإمكان ، لكن هذه العلامة لمن ليس له كشف عياني وأما لصاحب الكشف فعلامته قطع بعض الدائرة وتمامها كما كتب حضرة الجدّ هي أن الدائرة تنكشف للسالك كقرص الشمس وكلما قطع من الدائرة شيء ، فعلى قدره يكون لها الظهور بالنورانية بكمال الشعشعان ومقدارها الذي لم يقطع يرى بلا نور كالشمس في وقت الكسوف ، وقال بعضهم : علامة تمامها رؤية الأنوار ، وعلامة تمامها على ما قلنا حصول الحضور مع الله تعالى .

وتلك الدائرة تنقسم إلى الصنفين : أعلى وأسفل ، فالأعلى فوق العرش ويقال له عالم الأمر ، والأسفل من العرش إلى الأرض ويقال له عالم الخلق .

وبعد هذا يشتغل بمراقبة المعيَّة المفهومة من النظم الكريم : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ملاحظا معية الحق تعالىمعه ومع كل ذرة من ذرات الكائنات ، وههنا التهليل اللساني مع التوجه إلى القلب ، وتوجه القلب إلى الله تعالى وملاحظة المعنى يفيد فائدة كثيرة ، وهذه المراقبة معمولة في دائرة الولاية الصغرى التي هي ولاية الأولياء نفعنا الله تعالى ببركاتهم ، ومورد الفيض هنا لطيفة القلب ، وهذه من الدوائر ثانيتها ويقال لها دائرة ظلال الأسماء والصفات أيضا ، وإن دائرة الظلال تتضمن مبادي تعينات الخلائق سوى الأنبياء والملائكة .

وظل كل اسم مبدأ لتعين شخص من الأشخاص حتى أن مبدأ تعين الصديق الأكبر هو النقطة الفوقانية من هذه الدائرة كذا قال الإمام المجدد رضي الله عنه .

قال حفيده الشيخ عبد الأحد رضي الله عنه : وهذه الدائرة مقام القطب والغوث والأفراد والأوتاد وسائر فرق الأولياء من أهل المناصب بالأصالة ، وأما الترقي من ههنا فبالوراثة والتبعية . . الخ .

وفي هذه الدائرة يقع السير في تجليات الأفعال الإلهية ، وفيها ظهور التوحيد الوجودي والذوق والشوق والآهة والصيحة والاستغراق والغيبة ودوام الحضور ونسيان ما سوى الحق المعبر عنه بفناء القلب .

وإذا أحاط التوجه بالجهات الست وزالت جهة الفوق فقد جاء وقت تزكية النفس التي محلها وسط الجبهة ، فحينئذ يشرع السير في دائرة الولاية الكبرى التي هي ولاية الأنبياء العظام عليهم الصلاة والسلام .

قال في « المناقب الأحمدية » : قال المؤلف عفا الله عنه : إن سيدي الوالد ﵁ قد توجه من كمال كرمه إلى غلامه هذا في هذا المقام وورد عليه غير التوحيد الوجودي جميع الأحوال . . وقد مر التوحيد الوجودي . . الخ .

واعلم أن انكشاف المقامات العالية لأهل القرب والكشف بصورة الدائرة لكونها في غير جهة من الجهات ، وإلا فأين للدائرة أن تصل إلى تلك المراتب العالية ، وهذا المقام ظل الأسماء والصفات التي هي في الولاية الكبرى لا مطلق الأسماء والصفات ، وههنا بطريق الظلية من جميع المقامات الفوقانية آثار وأشكال فافهم والله يتولاك .

ولما خلق الله تعالى الهيكل الجسماني الإنساني أودع هذه اللطائف الأمرية بالمواضع المذكورة من جسم الإنسان بالتعلق والتعشق له ، وإذا اشتملت عناية الحق بحال العبد يوصله إلى خدمة ولي من أوليائه ، وذلك الولي يأمره بالرياضات والمجاهدات لتزكية الباطن وتصفيته ويوجه لطائفه إلى أصوله بِيُمْن كثرة الأذكار والأفكار .

ففي هذه الطريقة ثلاثة أشغال : الأول الذكر سواء اسم الذات والنفي والإثبات كما سبق ، والثاني المراقبة وهي عبارة عن انتظار الفيض من المبدأ الفياض ، ولهذا عينوا لكل مقام مراقبة من المراقبات ، فعينوا لدائرة الإمكان مراقبة الأحدية وهي عبارة من مراقبة الذات الجامع لجميع صفات الكمال والمنزه عن جميع صفات النقصان ، وهو مسمى الاسم المبارك **الله** ، فيلاحظ ورود الفيض من تلك الذات على لطيفة القلب ، وفي بعض الأحيان يشتغل بهذه المراقبات بلا ذكر ولا يفيد الذكر بلا مراقبة . انتهى« جامع الأصول » ٥٥ .

مراقبة المعية

في دائرة الولاية الصغرى والولاية المطلقة

قال شيخ شيخنا ﷺ : حقيقة الولاية هذه فالولي في اللغة ضد العدو وفي اصطلاح أهل الحقيقة له معنيان : فعيل بمعنى مفعول كقتيل وجريح ، **وهو من يتولى الله تعالى رعايته وحفظه** فلا يكله إلى نفسه لحظة كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ، والثاني : فعيل مبالغة فاعل ككريم وعليم ، وهو الذي يتولى عبادة الله تعالى وطاعته فيأتي بها على التوالي من غير أن يتخللها عصيان أو فتور ، وكلا المعنيين شرط في الولاية .

فمن شرط الولي أن يكون محفوظا كما أن من شرط النبي أن يكون معصوما ، وكل من كان للشرع عليه اعتراض فهو مغرور مخادع ، هكذا ذكره الإمام القشيري ﷺ وغيره من أئمة الطريق قال : وسمعت الأستاذ أبا علي ﷺ يقول : قصد أبو يزيد البسطامي ﷺ بعض من وثق بولايته ، فلما وافى مسجده رآه قد تنخم في المسجد فرجع ولم يسلم عليه وقال : من لا يؤمن على أدب من آداب الشرع كيف يؤمن على أسرار الحق ؟ !

واختلف أهل الحقيقة هل يجوز أن يعلم الولي أنه ولي أم لا ؟ قال بعضهم : لا ، ولو ظهر له من الكرامات ما ظهر لجاز أن يكون ذلك مكرا من الله تعالى به ؛ لأن العاقبة هي الأصل وهي مجهولة فكم رجل انعكس عليه حاله وخالف مبدأه مآله ، وإلى هذا ذهب جماعة من شيوخ هذه الطائفة لا يحصون .

وقال بعضهم : يجوز أن يعلم أنه ولي باطلاع الله تعالى على عاقبة أمره ودوام حاله بطريق الكرامة ، والدليل - العشرة المبشرة بالجنة ، وإلى هذا ذهب الأستاذ أبو علي الدقاق ﷺ.

وقال أبو يزيد البسطامي رحمه الله : أولياء الله عرائسه ولا يرى العرائس إلا المحارم ، فهم مُخَدَّرون عنده في حجاب الأنس لا يراهم أحد في الدنيا والآخرة .

وقال أيضا : كُلٌّ يكاشف على قدر طاعته إلا من تولاه الله سبحانه وتعالى ببره وقام عنه بنفسه ، قال القشيري رضي الله عنه : وكلام أبي يزيد رحمه الله يشير إلى أن الخواصَّ ارتقوا عن هذه الأقسام كلها ، فلا العواقب في فكرهم ولا السوابق في ذكرهم ولا الطوارق في أسرارهم ، فأصحاب الحقائق مُحوا عن نعوت الخلائق .

ويجوز أن يكون الولي وليا ثم تبطل ولايته ، وقيل : لا يجوز ، والأول مختار .

والغالب على الولي أوان محوه صدقُه في أداء حقوق الله تعالى ، ثم رفقه وشفقته على خلق الله تعالى في كل حال ، ثم دوام التحمل منهم بتحييل الخلق وطلب الإحسان من الله إليهم ابتداء من غير أن يسألوه ذلك وتعليق الهمة بنجاتهم وترك الانتقام منهم وكف النفس عن أموالهم واللسان عنهم بكل حال والتعامي والعمى عن مساويهم ، ولا يكون خصما لأحد في الدنيا ولافي الآخرة . انتهى « جامع الأصول » ١٩٨

وأما المراقبة المعية على وفق قوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ بأن يلاحظ ورود الفيض من الذات التي هي معه ومع كل ذرة من ذرات العالم معية بلا كيفية على لطيفة القلب ، وفي هذا المقام يوجب الترقي للسالك التهليل اللساني مع رعاية الوقوف القلبي وملاحظة المعنى ، بأن يلاحظ وقت النفي أي نفي وجوده ووجود جميع ما سوى الله تعالى ، أو ما يراد نفيه بخصوصه ، ووقت الإثبات إثبات الحق تعالى على ما مر في النفي والإثبات .

ويستعمل هذه المراقبة في الولاية الصغرى التي هي ولاية الأولياء ، ومورد الفيض فيها لطيفة القلب ، وتنكشف لأهل الكشف هنا دائرة ثانية يقال لها ظلال الأسماء والصفات ودائرة الولاية الصغرى وهذه صورتها ٦

والسير هنا يقع في تجليات الأفعال الإلهية ، ويحصل أيضا في هذا المقام التوحيد الوجودي والذوق والشوق والتأوُّه والصيحات والاستغراق والغيبة ودوام الحضور ونسيان السوى الذي هو عبارة عن فناء القلب .

وفي هذا المقام علامة من جميع المقامات الفوقانية بطريق الظلية ، فإذا قطع السالك هذه الدائرة بعناية الله تعالى وتوجه المرشد وجذبه وحصل له الحضور التام يشرع في تزكية النفس التي محلها وسط الجبهة ، ويضع قدمه بعون الله ولطفه في دائرة الولاية الكبرى « رشحة » ٤١٤ .

وقال الشيخ إسماعيل حقي ﷺ في « روح البيان » في المجلد الأول في ٥٢٢ : قال حضرة الشيخ بافتاده أفندي ﷺ : الملكوت ليس في الفوق ، بل الملك والملكوت عندك هنا ، فإن الله تعالى منزه عن الزمان والمكان والذهاب والإياب ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ فللسالك مرتبة ينظر فيها إلى الله تعالى وإلى الحق ، ويسمي تلك بالمعيَّة ، ثم بعد ذلك إذا وصل إلى الفناء الكلي واضمحل وجوده يسمى ذلك مقام الجمع ، ففي ذلك المقام **لا يرى السالك سوى الله** ، كمن أحاطه نور لا يرى الظلمة ، ألا يرى أنّ من نظر إلى الشمس لا يرى غيرها ، وتلك الرؤية ليست بحاسة البصر ولا كرؤية الأجسام ، بل كما ذكره العلماء وكمّل الأولياء والأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، والموحد إذا كان موحدا يوصله التوحيد إلى الملكوت والجبروت واللاهوت ، أعني الموحد يتخلص عن الاثنينية والتقييد بالأكوان والأجسام والأرواح ، فيشاهد عند ذلك سر قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ، اللهم اجعلنا من الواصلين « روح البيان » ، وقال تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾.

قال خاتم المحققين عبد الغني النابلسي ﷺ في شرح كلام شيخه الباز الأشهب الشيخ أرْسَلانْ الدمشقي ﷺ : وهو معكم حاضر وناظر في عالم الدنيا وفي عالم الآخرة ، فإذا كنت معه سبحانه وتعالى أي وجدت أيها السالك بأن صَوَّر لك الحق تعالى في نفسك أنك موجود معه سبحانه وتعالى ، وإلاّ ففي حقيقة الأمر لا وجود لك معه تعالى أصلا ، بل ما أظهره لك مما نسميه أنت

إنما ذلك هو متصور بالنور المطلق الذي علمه تعالى على إطلاقه ثم قيده بالصُّوَر ، كما أن الصندوق والباب والكرسي هي ذات الخشب لا زائد عليها ، والصندوق والباب والكرسي بعد زوال الحقيقة الخشبية عدم صرف ، فلا وجود إلاّ للخشب إن وجد الصندوق والباب والكرسي وإن لم يوجد .

ولا تظن حيث ذكرنا لك هذا المثال أنّ الحق تعالى للعالم كالخشب لهذه الأشياء المصنوعة ، بل نور محمد ﷺ كذلك ، فإذا وصلت إلى الحقيقة المحمدية وصلت إلى الله تعالى ، فلا تحتاج حينئذ إلى أحد يعلمك « خمرة الحان وزنة الألحان في شرح رسالة الشيخ أرسلان » .

دائرة الولاية الكبرى

اعلم أيها المسترشد الأمين أن الولاية الكبرى ولاية عظيمة ، كيف لا وهي ولاية الأنبياء عليهم السلام ، وهي متضمنة لثلاث دوائر وقوس ونذكرها تفصيلا إن شاء الله تعالى .

وقد أكثر السادات كلاما في هذه الولايات على كيفيات مختلفة على حسب مشاربهم وإن كان مقصدهم واحدا ، جعلنا الله تعالى في بركاتهم ، لكن نذكر هنا كلام بعضهم تيمنا .

قال الإمام الرباني مجدد الألف الثاني قُدِّسَ سِرُّهُ : إنّ مركز هذه الدائرة الظلالية ظل مركز الدائرة الفوقانية التي هي أصلها ، ومسماة بدائرة الأسماء والصفات والشؤون والاعتبارات ، والحقيقة المحمدية هي مركز هذه الدائرة الأصلية في الحقيقة التي هي إجمال الأسماء والشؤونات .

وتفصيل الأسماء إنما هو في الدائرة التي هي مرتبة الواحدية ، وإطلاق الوحدة والأحدية على مرتبة ظلال الأسماء مبني على اشتباه الظل بالأصل ، ومن هذا القبيل إطلاق السير في الله تعالى في ذلك الموطن ، فإنّ السير في ذلك الموطن داخل في الحقيقة في السير إلى الله تعالى هذا ، فإن وقع العروج بعد ذلك إلى دائرة الأسماء والصفات التى هي أصل دائرة الظلال بطريق السير

في الله تعالى يكون ذلك شروعا في كمالات الولاية الكبرى ، وقد ذكرناها في بيان الولايات«١» .

وهذه الولاية مخصوصة بالأنبياء عليهم السلام بالأصالة ، ووصل أصحابهم الكرام أيضا إلى هذه الدولة بالتبعية .

ثم اعلم أن الولاية عبارة عن نور بحكم ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ يشرق من مشرق عناية الحق سبحانه وتعالى على قلب«٢» العبد فيحصل له بذلك انشراح الصدر وانفتاح القلب ، والإسلام الحقيقي يظهر في لباس نور اليقين كما قال الله تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ، كما هو مراد قوله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾

ويختص هذا العبد بشرف القرب والمحبة والكرامة من الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ وهذا السر النوري يسري في ورثته من الأولياء الصالحين ، وكلما ظهر منه في كل محل فهو أثر ذلك النور وأثر القلب والكرامة والمحبة وإن كان ذلك يسمى في لسان أهل الظاهر كرامة ، والله أعلم فافهم فإنه نفيس .

مراقبة الأقربية في الدائرة الأولى من دائرة الولاية الكبرى

إن أولى الدوائر من دوائر الولاية الكبرى دائرة مراقبة الأقربية المفهومة من قوله تعالى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ ، فيلاحظ ورود الفيض من الذات التي هي أقرب إليه من عرق الروح ومنشأ للدائرة الأولى من الولاية الكبرى ، ومورد الفيض هنا لطيفة النفس مع اللطائف الخمسة .

وههنا أيضا التهليل اللساني والخيالي بشرائطه موجب للترقي ، ومن أحوال هذا المقام الحضور ودوام الانتظار والعروج والنزول والجذابات كما في القلب ، بل الجذبات ههنا في التدريج تخبط البدن كله ، وكيفيات هذا

« ١ » في ص ٥١٦ .
« ٢ » وفي هامش نسخة « أ » : قطب ، كذا في الأصل .

المقام وحالاته بالنسبة إلى ما في القلب لطيفة لا لذة فيها ، ولكن بعد ما ثبتت وقويت نسبة لطيفة النفس تكون حالات القلب في جنبها نسيا منسيا .

ومِـنْ بَعْدِ هـذا ما يَدِقُّ بَيانُـهُ   وَما كَتْمُهُ أَحْظى لَدَيَّ وَأَجْمَلُ

وما فوق ذلك من المقامات فممّا اختص به الإمام الرباني ﷷ ويقال لمن سلكه مجدديا ، وقد قطع جميع المقامات المجدّدية أولاده وأحفاده وخلفاؤه وخلفاء خلفائه إلى يومنا هذا وتحققوا بأحوالها كلها ، لكن بعد جهد بليغ واجتهاد كثير ورياضة شاقة ومجاهدة شديدة وترك مقتضيات النفس والطبيعة وبذل الروح والمُهَج في أزمنة طويلة كما وقفت عليها في تراجمهم .

والآن قد تقاعست الأمم وتقاعدت الهمم وصار السالكون بحيث لو وجد فيهم من يتم سلوك الطريقة النقشبندية على وجه التفصيل فهو غاية الغنيمة ، وانحصرت همتهم في أخذ التوجه إلى آخر المقامات المجددية ، ويزعمون أنّ ذلك هو السير والسلوك ، هيهات هيهات : أين الثرى من السِّماك الأعزل ؟ فلا جرم لا يحصل لهم غير العجب والغرور والأنانية . . الخ . مختصرا ما في هامش « الرشحة » ٢١٥ .

وقال في « رشحات عين الحياة » : إن الله سبحانه وتعالى قد علّم رسوله ﷺ طريق المراقبة حيث قال : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ .

وأصل المسألة هو أن الله تعالى قال ذلك تعليما لنبيه ﷺ ، فخلاصة الأمر أن تكونوا مشتغلين بالله تعالى فإنه قريب إلى عبده من كل شيء ، بل هو أقرب من أن نقول أقرب ، فإن حال القرب لا تسعه العبارة ، فمتى عبروا عن القرب بالعبارة ينقلب القرب بُعْدا ، والقرب ليس هو قولك قد تقربت إليه حتى تعبِّر عنه بعبارة ، بل القرب كونك ممحوّا وفانيا فيه ، وذهولك عن نفسك وعن غيرك فيه ، وأن لا يكون لك علم بأنك أين كنت ومن أين جئت ، وأن لا تقدر أن تعبر عنه بعبارة مطلقا .

قال شخص عند واحد من الأكابر : إن الشيخ الفلان يتكلم في القرب ، فقال : إذا وصلت إليه قل له أن قرب القرب في المحل الذي نحن فيه بعد البعد ، فإن القرب عبارة عن عدم كونك ، فإذا كنت معدوما فيه كيف تسعه العبارة ؟ ! شعر :

لَيْسَ يسري قُرْبٌ بِالهُبوطِ والصُّعود   إنَّـمـا الـقُـرْبُ انْطِلاقٌ عَـنْ وُجودْ

وقال الشيخ عبيد الله أحرار ﷺ : قال الجنيد ﷺ : أستاذي في المراقبة هِرَّة ، فإني رأيت مرة هرة قاعدة على فم جحر فأرة متوجهة إليه بكليتها بحيث لا تتحرك منها شعرة ، فنظرت إليها متعجبا ، فبينما أنا في التعجب نوديت في سرّي أن : يا قليل الهمة إني لست بأقل من الفأرة في كوني مقصودا لك ، فلا تكن أنت أدون من الهرة في طلبي ، فشرعت في المراقبة من ذلك اليوم .

أعَلِمْتَ ما قالَ الحَبيبُ تَلَطُّفاً ؟   إيَّاكَ والنَّظَراتِ لِلْأغْيارِ

وقال شيخ شيخنا ﷺ : إن أقربية المراقبة من سائر الطرق ليست على إطلاقها ، بل بالنسبة إلى أهل الجذبة لأن المراقبة لا تصير أقرب الطرق إليه تعالى إلا بالنسبة إليه ، وأما بنسبة إلى غيره فليست المراقبة أقرب الطرق كما ذكرنا أقربية المراقبة في مراقبة لطيفة روح قبيل هذا ، بل تكون الأقربية بالنسبة إلى غير أهل الجذبة أبعد الطرق إليه تعالى ، لأن السلوك يحتاج إلى السلوك بالأسماء والمجاهدة . انتهى « جامع الأصول » ٢٠٤ .

واعلم أن مراقبة العبد وإن كانت كمالا لما فيها من حفظ السر عن الغفلة ، فهو قصور بالنسبة لما فوق ذلك من جهة شهود العبد ذلك من نفسه وأنه هو المراقب والمتحفظ عن الغفلة .

والأكمل أن يشهد ذلك من الله وأنه هو الذي استعمله ودفعه إليه وهو الحافظ له ، فهنالك يدركه من الحياء ما يحمله على التوبة مما ظن به أنه قريب ، فيلتزم التوبة بالرعاية لقلبه أن لا يشهد ذلك منه بحال ، ثم تناديه الهواتف أن ذلك اشتغال بما هو وصف له ، وذلك حجاب عن المراد ، فتظهر

له أوصافه فيستعيذ بالله ويأخذ في الاستغفار والتوبة ، ويطلب الرجوع من أوصافه بالرجوع إلى أوصاف مولاه .

والحاصل أنه كان أولا يراقب سره من الغفلة ، ثم صار يراقب أن يشهد الحفظ منه وكان يتوب من حظوظ الأغيار وصفاتها ، ثم صار يتوب من حظوظ نفسه وقوتها ، **فينتقل عن شهود كونه عاملا وحاملا إلى شهود كونه محمولا ومعمولا** ، وصار يستغفر من شهود الحالة الأولى ويراها ذنبا وكان من أهل التبليغ في الأحكام الشرعية في القيام بها والعمل بمقتضاها ، فصار ثابتا من أهل التبليغ في الأحكام القهرية والتعزز بها .

فيظهر بهذا كله أن العبد ما دام يشهد أوصاف نفسه فهو محجوب ، وعند تحقق الوصول تفنى أوصافه وتمحى نعوته ، فمن شهد وصف نفسه فهو محجوب بما يظن أنه كشف ، ومُبْعَدٌ بما يظن أنه قرب ، فلا يصل حتى يكون أمامه وراء وصباحه مساء ، فما دام بين جهاته وفي مضيق صفاته وتحت حجاب ذاته فهو بعيد لم يصل إلى البغية ، وهواتف الحقائق لأهل الله تعالى ناطقة ولهم مفاوضة ، وهي إنما تكون لمن سبقت له عناية ومنَّ عليه بنور الهداية . « تقريب » ١٦٨

مراقبة المحبة في الدائرة الثانية

ثم اعلم أيها الأمين أن الدائرة الثانية من دوائر ولاية الكبرى مراقبة المحبة المفهومة من قوله جلّ ذكره : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ فيلاحظ ورود الفيض من الذات التي هي تحبه وهو يحبها ، والتي هي منشأ الدائرة الثانية هي أصل الدائرة الأولى من دائرة الولاية الكبرى .

ومورد الفيض ههنا وفيما يأتي من الدائرة الثالثة والقوس لطيفة النفس فقط ، فيراقب فيها ورود فيض من ذات الحق سبحانه وتعالى من حيثية كونها محبا لها ، وباعتبار كونها منشأ للدائرة الثانية كما ذكرناها من الولاية الكبرى التي هي أصل الدائرة الأولى منها على لطيفة النفس فقط .

مراقبة المحبة في الدائرة الثالثة

وفي هذه الدائرة الثالثة المراقبة ، بأن يلاحظ أن الفيض يرد على نفسه من الذات التي تحبني وأحبها والتي هي منشأ للدائرة الثالثة التي هي أصل للدائرة الثانية من الولاية الكبرى وكذلك القوس بأن الفيض يرد على نفسه من ذات تحبني وأحبها وأنها منشأ للقوس الذي هو أصل للدائرة الثالثة من الولاية الكبرى .

وهذه الأصول الثلاثة اعتبارات في حضرة الذات ومبادئ للصفات والشؤونات . شعر :

لَمْ يَزَلْ كُلّ زَمانٍ في مُحَيَّاهُ نِقابُ   كُلَّما جِئْتُ حِجاباً فَلَهُ ثَمَّ حِجابُ

وفي هذا المقام العالي انشراح الصدر والشكر والرضا على حكم القضاء وتلقي التكليفات الشرعية بالقبول من غير احتياج في ذلك إلى دليل ، وصيرورة الاستدلاليات بديهيّات ، والطمأنينة من الصورات«١» الحاصلة من الجذبات وقوة اليقين بمواعيد رب العالمين والاستهلاك والاضمحلال للنفس ، وذوبانها ذوبان الثلج في الشمس ، وظهور التوحيد الشهودي ، وانتفاء أنانية السالك بحيث لا يرى في الوجود وتوابعه إلاّ الله سبحانه وتعالى وما له من ذلك شيء البتة ، فلا يكاد يسمع بإطلاق لفظ أنا عليه .

وفيه اتهام نفسه في النيات ورؤية القصور بحيث لا يرى نفسه محلا لشيء سوى الشرور والمنقصة المشوبة بالغرور ، وفيه تهذيب الأخلاق وتطييب الأعراق وتزكية الخصائل من سائر الرذائل كالحرص والبخل والحسد والحقد والكبر وحب الجاه وغير ذلك مما يذمه الشرع ويأباه .

فحاصل المعنى المراد أن الدائرة الثانية والثالثة ونصف الدائرة أنّ المراقبة مراقبة محبة والشغل بها بمثابة ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ الآية

« ١ » لعله التصورات .

وفي ملاحظة معناها منشأ الفيض ، ومورد الفيض لطيفة النفس كما سبق آنفا والآن إن كيفية المراقبة في هذين الدائرتين أن السالك يخيل أن ذاته يعلم في داخل الدائرة ويلاحظ بأن فيض ذاته من محبة دائرة أصل الأسماء والصفات نزولا منها وواردا إلى لطيفة النفس ، وكذا يلاحظ بأن نصف الدائرة التى هي الأصل الثالث يرد عليها المحبة الإلهية ، والسالك حين سلوكه في هذه الدوائر يلاحظ معنى كلمة التوحيد والتهليل اللساني يفيد الترقي .

وكيفية ذلك بأن يمدّ كلمة (لا إله) إلى الرأس من جهة اليمنى كما ذكرنا ذلك و(إلا الله) يضربه بالعنف إلى صفحة القلب بالقوة وبإخراج حروفها من مخارجها بحيث يسمعها مع ملاحظة معناها بلا غفلة ، وإن علامة كمال سير الولاية الكبرى أن الفيض المتعلق بالدماغ يتعلق إلى باطن الصدر وينشرح هنالك الصدر ، وعلامة انشراح صدره ارتفاع الاعتراض عن القضاء والقدر عن صدره بالكلية ، وتطمئن نفسه تحت القضاء والقدر في أي حال كان ، وإذا اطمأنت النفس تحت الأقدار تعبر بالمطمئنة ، ومنها يترقى إلى مقام الرضا وهي أعلى مقام .

مراقبة المحبة في القوس

هو أيضا قوس المحبة ، فيفعل فيه ما فعل فيما قبله بتبديل قوله للدائرة الثالثة . . الخ ، بقوله للقوس الذي هو أصل الدائرة الثالثة منها ، وهذه الأصول الثلاثة المذكورة اعتبارات في حضرة الذات ومبادٍ للصفات والشؤونات ، ويحصل في هذا المقام انشراح الصدر والصبر والشكر والرضا والتسليم ، ويرتفع الاعتراض على قضايا الحق سبحانه وتعالى وقدره ، وتصير الاستدلاليات بديهيات بحيث لا يبقى الاحتياج إلى الدليل في قبول التكليفات الشرعية ، ويحصل أيضا الاستهلاك والاضمحلال والتوحيد الشهودي وانتفاء الأنانية لحصول اليقين بكون الوجود وتوابعه منسوبا إليه تعالى بحيث لا يقدر على إطلاق أنا على نفسه وغير ذلك من ارتفاع الرذائل وحصول الخصال

الحميدة ، وبتمام قطع دائرة الولاية الكبرى يتم السير في الاسم (الظاهر) ، فيقع السير والسلوك بعد ذلك في الاسم (الباطن) ، ويضع السالك قدمه بعنايته تعالى في دائرة الولاية العليا التي هي دائرة الملائكة الكرام عليهم الصلاة والسلام ونذكرها عن قريب إن شاء الله تعالى .

مراقبة الاسم الظاهر

إن السالك إذا قطع الدوائر الثلاثة من الولاية الكبرى يشتغل بمراقبة مسمى الاسم الظاهر ، وهنالك منشأ فيض مسمى الاسم الظاهر ، ومورد فيض لطيفة نفس مع اللطائف الخمسة فان تراقب بملاحظة مورد الفيوضات فيناسب له التعريض إلى الاسم الباطن كما سنبينه هنا إن شاء الله تعالى ، وذلك أن سير الولاية الكبرى كان في الاسم الظاهر وفي سير اسم الظاهر ترد التجليات الصفاتية من غير ملاحظة الذات كما كان سير الولاية العليا في الاسم الباطن .

ثم اعلم أيها الولد الأمين أن الإنسان لا يدرك بباطن نفسه وبظاهرها شيئا إلا مما هو من أحكام تجليات اسمه الظاهر ، فإذا تجلى الحق سبحانه وتعالى باسمه الظاهر لظاهر نفس مَن تجلى له أدرك علما ظاهرا من العلوم الظاهرة وفتح عليه بذلك العلم الذي هو بصدده ولم يزهد في شيء من الموجودات ، فحصل ما حصل من العلوم وجد خير الدنيا والآخرة لانجلاء ظاهر النفس بما وصل إلى ظاهرها من التجلي ، ولم يزهد في شيء لعدم وصول التجلي إلى باطن نفسه وامتلائه به كما قاله سيدي حرازم ﷺ ، وهذا مقام عظيم ، لكن التجليات إنما تقع في الصفات من غير تلاحظ الذات كما ذكرنا هنا .

مراقبة الاسم الباطن في الولاية العليا

أيّها المأمون بعد ما تمّ دائرة الولاية الكبرى التي ينتهي بها السير في الاسم الظاهر بمحض فضل الله سبحانه وتعالى يقع السير في الاسم الباطن ، وهذه الدائرة تسمى بالولاية العليا التي هي ولاية الملائكة الكرام عليهم السلام ، وههنا المعاملة بالعناصر الثلاثة سوى عنصر التراب ، وفيه مراقبات ذات مسمى بالاسم الباطن ومنشأ الولاية العليا ، والترقي هنا منوط بالتهليل اللساني وصلاة النافلة ، وفي هذا المقام ظهور التوجه والحضور والعروج والنزول للعناصر الثلاثة ، وحصول وسعة عجيبة في باطن السالك ووجود المناسبة بالملائكة العليا ، وربما تظل له الملائكة ظاهرين .

وههنا تدرك الأسرار اللائقة بالستر عن الأغيار ، وإذا تمَّ للسالك سيره في اسم هو الظاهر واسم هو الباطن فقد حصل له جناحان يطير بهما إلى المقصود الذي هو الذات البحت الذي هو عالم القدس ومحل الأنس ، فحينئذ يقع السير بفضل الله تعالى جلّ إحسانه في كمال النبوة ونذكره هنا إن شاء الله تعالى .

واعلم أيها المأمون أن الولاية العليا درجة أعلى من الولاية ، حتى إنها تفوق على ولاية الأنبياء عليهم السلام ، وأفضليتهم من جهة النبوة والوسعة ههنا أزيد من الوسعة التي كانت في المقام السابق ، فإن تلك الوسعة على قدر وسعة الأسماء والصفات والشؤون والاعتبارات من غير اعتبار الذات ، وفي هذه الوسعة ذاته تعالى مع تلك الكمالات ملحوظة فشتان ما بينهما .

وليس تفوق حقيقة على حقيقة أخرى موجبا لأفضلية صاحب الحقيقة الأولى على صاحب الحقيقة الثانية ، إذ يجوز أن يحصل لصاحب الحقيقة التحتانية عروجات على الحقيقة الفوقانية ويتصل إلى مراتب القرب ، ويكون صاحب الحقيقة الفوقانية محبوسا في حقيقته ولا يحصل له عروج من حقيقة ولا يكتسب مزية القرب الذي هو مدار الفضل ، ألا ترى أن ولاية الملأ الأعلى فوق خواص البشر ، والحال أن الفضل لخواص البشر باعتبار العروج من

حقائق الملائكة ، والملائكة ما لهم عروج من حقائقهم كما قال تعالى حكاية عنهم : ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾.

وذكر في « شرح المواقف » أن الملائكة وإن كانوا فوق البشر في بعض الأمور لكن الأفضلية بمعنى كثرة الثواب للبشر ، وأيضا عالم الأمر فوق عالم الخلق ، والفضل لعالم الخلق لأن قرب عالم الخلق أصلي وقرب عالم الأمر ظلي ، وعنصر التراب أدنى لطائف عالم الخلق وعالم الأمر ، وقد صارت دناءته بسبب رفعته ، والقرب الحاصل للأرضيين ليس للقدسيين السمائيين ، كذا قاله الإمام محمد معصوم قدس سره .

ويشرع في مراقبة الاسم الباطن التي هي في الولاية العليا في تزكية العناصر الثلاثة التي هي أجزاء هيكله الجسماني سوى عنصر التراب ، وتكرار التهليل والمداومة على الصلاة النافلة يورث الترقي في هذا المقام ، وههنا يحصل التوجه والحضور والعروج والنزول للعناصر الثلاثة المذكورة ، وتحصل المناسبة أيضا بالملأ الأعلى بل ربما تظهر الملائكة الكرام وتدرك أسرارا لائقة بالإخفاء والستر .

قال الإمام الرباني قدس سره : ولما انتهى سيري إلى نهاية الولاية الكبرى توهم لي أن قد تم الأمر ، فنوديت في سري أن كل ذلك تفصيل الاسم الظاهر الذي هو أحد جناحي الطيران والاسم الباطن أمامك بعد . اهـ

وقال شيخ شيخنا قدس سره : فاعلم أنه لما كان لسوى الأنبياء والملائكة مبادي التعينات وهي ظلال الأسماء والصفات وقد سموا سير هذه المرتبة بالولاية الصغرى ، وللأنبياء الكرام مبادي التعينات وهي الأسماء والصفات والشؤونات وقد سموا سير هذه المرتبة بالولاية الكبرى ، كذلك للملائكة العظام مبادي التعينات المسماة بالولاية العليا وسير العناصر سوى العنصر الترابي ، ولما تفضل وتعطف الشيخ على السالك بتوجه في دائرة الولاية الكبرى فاضت عليه أحوال كلّ دائرة وكيفياتها ، وإذا تفضل أيضا بتوجه لأجل شرح الصدر رأى أن معاملة الدماغ تعلقت بالصدر ووجد سعة ، وأدركت لعناصره الجذبات

الإلهية ووقع لها العروج وورد عليها أحوال اللطيفة اللونية وتيسر فناؤها الذي في ذات مسمى الباطن وحصل لها الاضمحلال وتيسر بقاؤها بتلك المرتبة المتعالية وحصلت المناسبة بالملائكة الكرام « جامع الأصول » .

واعلم أن سير الولاية الكبرى كان في اسم الظاهر وسير الولاية العليا كان في اسم الباطن ، فإنه وإن كان يرد فيه أيضا تجليات الأسماء والصفات ولكنه أحيانا يشاهد فيه الذات ، وقد كشف الصورة المثالية لحضرة زائدة فرأى أنها ظهرت ، ولكن قد أحاطت بها الأسماء والصفات لحضرة الحق كالخطوط الشعاعية للشمس ، وقد تشاهد من غير خطوط ولكنها تظهر وهي في كمال اللالونية وتعود الخطوط الشعاعية إلى الاستتار

وإن سير اسم الباطن فإنه وإن كان يرد فيه أيضا تجليات الأسماء والصفات ولكنه أحيانا يشاهد فيه الذات .

مراقبات كمالات النبوة

إن مراقبة كمال النبوة عبارة عن دوام التجلي الذاتي بدون حجب الاسمآء والصفات ، وهي مراقبة الذات البحت الذي هو منشأ كمالات النبوة ، ومورد الفيض لطيفة عنصر التراب فقط ، وفي هذا المقام العظيم قطع مسافة نقطة خير من قطع جميع مقامات الولاية ، وفيه يكون الحضور بلا جهة ويزول أمثال الاضطراب في الطلب والانتظار والوجد وقلق الشوق بحصول برد اليقين .

وهذه الدرجة العالية المشرفة أجل من أن ينالها أيدي الحال والمقام والمعرفة ، والمصداق قول الملك الجبار : ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ ، وههنا وجود الإدراك والوجدان وعلى عدم الوصول دليل وبرهان بل فيه النكارة والجهالة من لوازم النسبة في كل حال مع ما فيه من وصل العريان لفضل الملك المنان ، وهو وصول دونه حصول لأهل الولايات اتصال بربهم يجل عن التكييف والدرك بالعقل .

وههنا أيضا يحصل صفاء الوقت وحقيقة الاطمئنان واتباع الهوى لما جاء به المصطفى ﷺ وكمال الوسْعة في نسبة الباطن واللاكيفية واليأس والحرمان ، ومعارف هذا المقام شرائع الانبياء العظام عليهم الصلوات والتسليمات .

وهذا المقام بالأصالة خاص للأنبياء ، ولأتباعهم أيضا نصيب منه بالتبعية والوراثة ، وما كان من معارف الولاية من التوحيد الوجودي والشهودي فهو في هذا المقام كالمطروح في الطريق دون بلوغ المرام ، وقد ذكر التوحيد بأنواعه في فصله بحمد الله .

قال الإمام الرباني قدس سره النوراني في معنى قطع النقطة : ينبغي أن يقاس أن جميع هذه الكمالات المتقدمة فليست إلا كنسبة البحر مع القطرة انتهى .

ولا يلزم من حصول كمالات النبوة لبعض الأفراد من الأمة بطريق التبعية والوراثة أن يكون ذلك البعض نبيًّا أو مساويا لنبي ، لأن حصول كمالات النبوة شيء آخر وحصول منصب النبوة أمر آخر ، كما حققه حضرة المجدد مفصلا قاله الشيخ محمد معصوم قُدِّسَ سِرُّهُ .

وذكر الإمام الشعراني قُدِّسَ سِرُّهُ في « اليواقيت » و« الجواهر » عن بعض العارفين : اعلم أن النبوة لم ترتفع مطلقا ، وإنما ارتفع نبوّة التشريع فقط ، وفي « الفتوحات المكية » في الباب السبعين والمائتين أن النبوة وإن انقطعت في هذه الأمة بحكم التشريع ، فما انقطع الميراث منها ، فمنهم من يرث بنبوة ، ومنهم من يرث برسالة ، ومنهم من يرث بنبوة ورسالة ، كذا في « عطية الوهاب » .

والدليل على هذا هو ما في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات » الحديث ، وفيه : قال ﷺ : « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزأ من النبوة » ، وفي رواية : « خمسة وعشرين » ، وفي رواية : « سبعين » ، وقال ﷺ : « السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزؤ من أربعة وعشرين جزأ من النبوة » أخرجه الترمذي كذا في « الجامع الصغير » .

وهذه المرتبة هي مرتبة الخلافة ومنصب النيابة عن الحضرة الربوبية ، فحينئذ يجوز للولي الذي بلغ إلى هذا المقام تربية الخلق ودعوتهم إلى الحق وتكميلهم بالكمالات الإلهية وإيصالهم إلى معرفة الله تعالى ، وما وراءَها طفيليا« ١ » ، على أن الله تعالى جعل وراء هذه الكمالات حاجزا ومانعا للسالكين عن الوصول إليها ، مالم تشتمل عليهم العناية الإلهية ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ .

ولا يظن الظانّ بسهولة الأمر لحصول كمالات النبوة ، فإن أدنى درجة من درجات هذه الكمالات تقطع مقدار خمسين ألف سنة ، وإذا كان الأمر كذلك فلا يتمكن الوصول إليها أبدا إلا بفضل الله تعالى وعنايته للسالك

كَيفَ الوُصولُ إلى سُعادَ وَدونَها ... قُلَلُ الـجبالِ وَدونَـهُنَّ حُتـوفُ
الرِّجْلُ حافِيَةٌ وَما لي مَرْكِـبٌ ... وَالكَفُّ صِفْرٌ والطَّـريقُ مَخـوفُ

وقد رمزنا إليها على سبيل الاختصار بالإجمال على مقدار طاقتنا وهمتنا ، فمن فتح له باب العناية فلا يُقِلّ هذا المقدار ، وإن رمنا إلى التفصيل فلا تسعه الأسفار ، والله تعالى يتولاك .

ومعنى التجلي الذاتي بلا حجب الأسماء والصفات ليس هو ظهور الذات تعالت وتقدست ، هيهات ، فإن معنى التجلي ظهور شيء في مرتبة ثانية أو ثالثة أو رابعة إلى ما لا نهاية ، بل هذا مبني على اصطلاحات الإمام الرباني ﷺ من أن فوق الأسماء والصفات شؤونات واعتبارات كما بينه في « مكاتيبه » ويشير إليه قوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٍ﴾ وقوله ﷺ : « إن لله سبعين حجابا » الحديث ، وما قاله القائل :

تَبارَكَ اللهُ وارَتْ ذاتَهُ حُجُبٌ ... فَـلَيْسَ يَعْـلَـمُ غَيْرُ اللهِ ما اللهُ

صادق في هذا المقام . اهـ

« ١ »الطُفَيْليّ :" الذي يدخل الوليمة والمآدبَ ولم يُدْعَ إليها « لسان العرب » .

مراقبة كمالات الرسالة

إن مراقبة كمالات الرسالة وهي انتظار الفيض من الذات البحت التي هي منشأ كمالات الرسالة ، ومورد الفيض من هنا إلى آخر المقامات هي الهيئة الوحدانية الحاصلة للسالك بعد تهذيب اللطائف العشر وتكميلها .

وههنا إحاطة العروج والنزول والانجذاب بالبدن ، وبعد ذلك مراقبة الذات البحت الصرف التي هي منشأ كمالات الرسالة ، ومورد الفيض الهيئة الوحدانية الحاصلة للسالك بعد تهذيب اللطائف العشر .

وقال شيخ شيخنا ﷺ في « الجامع » ٩٠ : اعلم أنهم قرروا التجلي الذاتي الدائمي على ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى كمال النبوة وفيها يعملون مراقبة ذات ، وهي منشأ كمال النبوة .

والمرتبة الثانية كمال الرسالة وههنا يعملون مراقبة ذات هي منشأ كمالات الرسالة ويرد فيض هذا المقام على الهيئة الوحدانية الحاصلة للسالك في هذا المقام ، والهيئة الوحدانية عبارة عن مجموع عالم الأمر وعالم الخلق ، فإنه تحصل لكل منهما بعد التصفية والتزكية هيئة أخرى .

مثلا إذا أراد شخص أن يركب معجونا من أدوية مختلفة التأثير فإنه يدق ويسحق كل واحد منها فرادى ، ثم يجمعها في قوام القند والعسل ، فيحصل للأدوية المذكورة هيئة أخرى وينشأ لها اسم المعجون ، فكذلك اللطائف العشر يحصل لها هيئة أخرى ويقع لها عروجات كثيرة في هذا المقام ، وفيما بعده من الفوقانية وأنواره وسعته ولالونيته أكثر من المقام السابق ، ونسبة كل مقام سابق بالنسبة إليه كاللب مع القشر .

والمرتبة الثالثة عبارة عن كمالات أولي العزم ونذكرها بعيد هذا إن شاء الله تعالى . انتهى

وقال أيضا ﷺ : واعلم أنه إذا وقعت معاملة الباطن على الهيئة الوحدانية يعني كمالات الرسالة يكون الترقي في الباطن بمحض الفضل ، ولا يبقى للعقل ولا للعمل دخل في ذلك أصلا ، وإن كان الترقي فى جميع المقامات بالفضل الإلهي لا بالعمل ، لكن لما كانت الأعمال هنالك كالأسباب ، أما في هذا المقام فلا دخل لتلك الأسباب ، وأن للذكر في إزالة الكدورات البشرية أثرا تاما لكنه لترقي هذه المقامات لا ينتج ، مثلا لو اشتغل بذكر اسم الذات أو النفي والإثبات أو التهليل اللساني يرى أن هذه الأذكار لا تصل إلى هذا المقام ، بل تقف في الطريق إلا إذا انضمّ إلى التهليل اللساني لفظ محمد رسول الله والصلاة عليه ﷺ ، فتحصل حينئذ قوة في هذه المقامات الفوقانية ، بل تفهم السعة بلفظ محمد رسول الله أزيد من التهليل ، ويحصل ترقيات في هذه المقامات بواسطة القرآن المجيد ، وكل مرتبة يصل إليها السالك فبواسطة الكلام المجيد . انتهى

مراقبة كمالات أولي العزم

وهي انتظار الفيض من الذات البحت التي هي منشأ كمالات أولي العزم ومورد الفيض الهيئة الوحدانية بعد التهذيب ، وتلاوة القرآن المجيد والصلاة بطول القنوت توجبان الترقي في الكمالات الثلاثة ، وفيما بعدها من الحقائق السبع وغيرها .

وهذه المقامات العالية الدرجات مع ما فيها من اللالونيات واللطائف أمواج البحر الغير المتناهي من الذات البحت الإلهي جل جلاله وعم نواله .

قال في « المقامات الأحمدية » : قال المؤلف عفا الله عنه : إن سيدي الوالد ﷺ من غاية إفضاله توجه إلى غلامه هذا في هذه الكمالات الثلاثة وأوصلني إلى الأحوال المكتوبة ، فأدركت الفرق بينهما عيانا بأن المقام الفوقاني كاللب والتحتاني كالقشر ، وعلمت أن في إطلاق الذات البحت والوصل العرياني كناية عن هذا .

ولأجل عدم الإدراك قالوا : لا حصول ثمة ، والهيئة الوحدانية تشاهده فوق رأسه ، وهي عبارة عن مجموع عالم الأمر وعالم الخلق ، فإنه تحصل لكل منهما بعد التصفية والتزكية هيئة أخرى .

مثلا إذا أراد شخص أن يركب معجونا من أدوية مختلفة التأثير فإنه أولا يدق ويسحق كل واحد منها فرادى فرادى ، ثم يجمعها في قوام القند والعسل فيحصل للأدوية هيئة أخرى وخاصية وتسمى باسم المعجون ، وكذلك اللطائف العشر تحصل لها هيئة أخرى ويقع لها عروجات كثيرة في هذا المقام كما ذكرنا ذلك في بيان مراقبة كمالات الرسالة ، كذا قال الجد ﷺ .

وفي هذا المقام لا تنقص قراءة القرآن من ثلاثة أجزاء والزائد أفضل ، ويشرع في الأذكار والأوراد المأثورة في الأحاديث الشريفة في الصباح والمساء والمنام وغيرها من هذه المقامات العالية وتفيد فائدة عظيمة ، وبقدر اتباع السنة السنية يحصل الترقي فافهم والله أعلم . انتهى

وقال شيخ شيخنا ﷺ : اعلم أن المرتبة الثالثة التي قرروا للتجلي الذاتي عبارة عن كمالات أولي العزم ، وهي تورد على هيئة الوحدانية ، فيض هذا المقام في كمال العلوم وكثرة الأنوار ، وههنا يعلمون مراقبة ذات هي منشأ كمالات أولي العزم ، وفي هذا المقام ينكشف أسرار المقطعات القرآنية والمتشابهات ، وههنا يجعلون بعضَ الأكابر صاحبَ سر يقع بين المحب والمحبوب يعطونه بواسطة الاتباع لرسول الله ﷺ نصيبا من الفضيلة الخاصة بذلك الجناب اهـ « جامع » في ٦٣ .

مراقبة حقيقة الكعبة الربانية

وهي انتظار الفيض من الذات ، وهي منشأ فيضه التي هي مسجودة للممكنات كلها ومنشأ لحقيقة الكعبة ، وههنا تشاهد عظمة الحق وكبرياءه سبحانه وتعالى ، وتغلب على باطن السالك هيبة عظيمة .

ومورد الفيض الهيئة الوحدانية بعد التهذيب ومراقبة الكعبة الربانية التي هي عبارة عن ظهور سرادقات العظمة والكبرياء الثابتتين للذات الإلهية جل سلطانها وعز إحسانها .

قال الإمام الرباني ﷺ : ليست صورة الكعبة عبارة عن الحجر والطين ، إذ لو لم يكن الحجر والطين في البين كانت الكعبة كعبة ومسجودا إليها للخلائق ، بل صورة الكعبة مع كونها من عالم الخلق كحقائق الأشياء أمر مبطن خارج عن حيطة الحس والخيال ، وهي من عالم المحسوسات وليست بمحسوسة أصلا ، وهي متوجه إليها للأشياء وليست في التوجه رأسا ، وهي وجود لبس ثوب العدم ، وعدم ظهر بكسوة الوجود ، وهي في الجهة بلا جهة وفي السمت بلا سمت .

وبالجملة هذه الصورة ذات حقيقة أعجوبة يعجز العقل عن تشخيصها وتحار العقلاء عن تعيينها ، وكان لها مثالا من عالم اللامثلية واللاكيفية ، وفيها تبعة أثر من اللاشبهية واللانظرية . انتهى

وفي هذه المراقبة تغلب على باطن السالك هيبة عظيمة ، وإذا تحقق السالك بالفناء والبقاء في هذه المرتبة المقدسة وجد ذاته متصفة بهذا الشأن ، وشاهد توجه الممكنات إلى جنابه بالعيان ويترنم لسان حاله بأفصح تبيان شعر :

وَكُلُّ الجِهاتِ السِّتِّ نَحْوي تَوَجَّهَتْ   بِما ثَـمَّ مِنْ نُسْكٍ وَحَــجٍّ وَعُمْـرَةِ

وقال شيخ شيخنا قدس الله أسراهم : وأما الحقائق الإلهية فاعلم أنه بعد كمالات أولي العزم يقع السلوك إلى طرفين ، وذلك باختيار المرشد ، فأيهما شاء يسلك الطالب إليه :

أحدهما : طرف الحقائق الإلهية وهي عبارة عن حقيقة الكعبة وحقيقة القرآن وحقيقة الصلاة .

وثانيهما : طرف الحقائق الأنبيائية ، وهي عبارة عن الحقيقة الإبراهمية والحقيقة الموسوية والحقيقة المحمدية ، ولما توجه المرشد في حقيقة الكعبة شاهد في هذا المقام عظمة الحق وكبرياءه واستولت هيبته على الباطن .

وههنا يعلمون[1] مراقبة ذات هي مسجود للممكنات ، وكم شخص حصل له الفناء والبقاء في هذه المرتبة القدسية فوجد نفسه متصفا بهذا الشأن ، وعلم توجه الممكنات إلى جانبه وإن كان في الكمالات حصول لالونيات كثيرة ليس في هذه المقامات بهذا القدر ، لكن علو النسبة الباطنة وسعتها في هذه المقامات زيادة على الزيادة واللالونية في الحقائق الأنبيائية مع هذا العلو والسعة أقل منها في الحقائق الإلهية .

وسرّ ذلك أن السالك إذا حصل له الفناء والبقاء في مرتبة الذات البحت ، وتخلق بأخلاق تلك المرتبة فلا جرم يحصل في مدركه قوة يدرك بها النسبة الفوقانية ، وكذا لا يجد لالونيات تلك المقامات ، فإنه يعلم أن نسبة الكمالات مع النسب الفوقانية من جنس واحد ولو مناسبة صورية .

وسبب تمييز اللالونية في نسبة الكمالات أن السالك كانت قوة إدراكه بقدر ما حصل له قبل في الولايات بسبب الفناء والبقاء في مرتبة الصفات والشؤونات ، ولهذا يعسر إدراك مرتبة الذات ، فإن كمالات الولايات كانت حاصلة من مرتبة أخرى وكمال النبوة من باب آخر ، فلا مناسبة بينهما أصلا ولو مناسبة صورية .

وأما ما قاله بعض الأكابر من أن مرتبة الولاية ظل مرتبة النبوة فغير ثابت ، بل لا مناسبة بينهما في أمر ما أصلا .

وأما مرتبة الكمالات فلها مناسبة مع هذه الحقائق ، بل قال المحققون : إن الحقائق بالنسبة إلى الكمالات مثل الأمواج ، ومعنى هذا أن الكمالات لما كانت فوقانية مواطن التجليات الذاتية الدائمية فلا جرم أن كل نسبة إذا كانت

« ١ » في الأصل يعملون .

فوقانية لا تخرج عن مرتبة الذات ، فإطلاق لفظ الأمواج عليها سديد ، فتظهر في نسبة الحقائق أشياء لا تظهر في نسبة الكمالات .

مثلا يظهر في حقيقة الكعبة المعظمة عظمة وكبرياء ومسجودية للممكنات على نحو يعجز العقل عن إدراك ذلك ، حتى أن حصول هذه المراتب بدون توجه المرشد متعذر ، ولما توجه المرشد في حقيقة القرآن المجيد عاين أسرارا في سرادقات العظمة والكبرياء ورأى في عالم المثال حقيقة الكعبة وكيفيتها حتى عرج منها ودخل حقيقة القرآن . انتهى « جامع الأصول » ٦١

مراقبة حقيقة القرآن

وهي انتظار الفيض من الذات سبحانه وتعالى التي هي منشأ من مبدأ الوسعة ، وإطلاق الوسعة من ضيق العبارة والإحاطة اللامثلية للذات الإلهية التي هي منشأ لحقيقة القرآن ، وهنا تظهر بواطن كلام الله تعالى ويكون كل حرف من كلامه تعالى بحرا لا نهاية له موصلا إلى كعبة المقصود ، ويكون لسان التالي كالشجرة الموسوية .

ومورد الفيض الهيئة الوحدانية ويكون مجموع تاليه لسانا يتلو به القرآن ، وعلامة انكشاف أنوار القرآن المجيد في الغالب ورود ثقل على باطن العارف ، كما يومئ إليه قوله تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ .

وقال مولانا وسر سرنا وشيخ شيخنا العارف القطب أحمد ضيآء الدين الكمشخانوي قدس سره في « جامع الأصول » : إن حقيقة القرآن عبارة عن مبدأ سعة حضرة الذات ، ويكون شروع سعة حضرة الذات من هذا المقام ، ويظهر هنا أحوال شبيهة بالسعة ، وإلا فإطلاق لفظ السعة هنا من ضيق ميدان العبارة .

وفي هذا المقام تظهر بواطن كلام الله تعالى ، وفيه وجدت كل حرف من حروف القرآن المجيد بحرا لا نهاية له موصلا إلى كعبة المقصود ، وهنا نكتة

عجيبة : وهي أنه لما كان في قراءة القرآن مع هذه القصص المختلفة والأوامر المتغايرة والنواهي المتباينة ظهور أشياء وأسرار وأنوار تلوح على قدرته تعالى وحكمته البالغة ، ذكر الله القصص وحكايات الأنبياء عليهم السلام لأجل تعليم العوام وتفهيمهم ، وأرشد الناس إلى أحكام الشريعة لهدايتهم ، ومع هذا يظهر في بطون تلك الحروف كيفيات عجيبة ومعاملات غريبة تزيد حيرة على حيرة ، ويكون في كل حرف ظهور شأن خاص يصاد به قلوب أهل الاختصاص .

وفي وقت قراءة القرآن يكون لسان القارئ كالشجرة الموسوية ويكون القالب كله لسانا ، وعلو النسبة هنا بحيث أن نسبة الكمالات مع علوها وسعتها بل نسبة حقيقة الكعبة المعظمة مع عظمتها وكبريائها تشاهد تحته ، وهنا يعملون مراقبة مبدأ سعة لامثلية حضرة الذات ، ومورد فيض هذا المقام هو الهيئة الوحدانية ، ثم بعد ذلك يتوجه المرشد في دائرة حقيقة الصلاة ونذكرها إن شاء الله تعالى قريبا .

مراقبة حقيقة الصلاة

وهي انتظار الفيض من الذات التي هي منشأ كمال الوسعة اللامثلية للذات الإلهية التي هي منشأ لحقيقة الصلاة .

والسالك المتحقق بهذه الحقيقة يخرج حين أداء الصلاة من النشأة الدنيوية ويدخل في النشأة الأخروية ، ويحصل له حالة شبيهة بالرؤية الأخروية ، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة و السلام : « الصلاة معراج المؤمن » ، « وقرة عيني في الصلاة » .

ومورد الفيض الهيئة الوحدانية ، ويتجلى له على وجه الكمال بلا اشتباه حقيقة « أن تعبد الله كأنك تراه » ، كما أشار سيد الأنام عليه الصلاة والسلام إلى هذه الحالة الشريفة والرتبة المنيفة بالقول المذكور هنا « الصلاة

معراج » . . الخ ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أقرب ما يكون العبد من الرب في الصلاة » ، فلولا الصلاة ماذا يكشف النقاب عن وجه المقصود ؟ وأي شيء يدل الطالب على المطلوب المودود ؟ وهي التي يتلذذ بها أرباب العزائم ، وهي التي تتروح بها أصحاب السقام ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « أرحني يا بلال » رمز إلى هذا المعنى ، و« قرة عيني في الصلاة » لمح إلى هذا المتمنى ، أخرجه أبو داود والدارقطني بسند صحيح .

قال الحافظ العراقي ﷺ في تخريج أحاديث « الإحياء » : قال في « مجمع البخاري » : وكان اشتغاله ﷺ بها راحة له ، فإنه كان يعد غيرها من الأعمال الدنيوية تعبا ، وكان يستريح بها لما فيها من مناجاة ربه ، ولذا قال : « وقرة عيني في الصلاة » وما أقرب الراحة من قرة العين . انتهى

ثم إن من عدم الاطلاع على حقيقة الصلاة أن الجمَّ الغفير من هذه الطائفة طلبوا تسكين اضطرابهم من مقامات الأنغام وتصوروا دواءهم في السماع والوجد والتواجد قصدا إلى بلوغ المرام ، فلا جرم أن الرقص وأمثاله صارت لهم عادة وفي سائر أوقاتهم معتادة ، فلو لاح لهم من كمالات حقيقة الصلاة نبذة أو شمَّة لما التفتوا إلى الوجد والتواجد وما ركنوا إلى السماع والنغمة ، شعر :

ما شاهدوا شَمْسَ الحَقيقَةِ في العُلا فَتَتَبَّعوا سَمَرَ اللّيالي مُهْمَلا

وقد سمعوا قوله ﷺ : « إن الله تعالى لم يجعل شفاءكم في حرام » ، نعم الغريق يتعلق بكل حشيش ، وحبك الشيء يعمي ويصم ، قاله الإمام المجدد ﷺ

أيها الأخ الأسعد الأمجد كما أن بين الصلاة والنغمة فرقا ، كذلك الفرق بين الكمالات التي منشأها الصلاة وبين الكمالات التي منشأها النغمة ، فاعلم فإن العاقل يكفيه الإشارة .

أيها المسترشد إن هذا الكلام اليوم ثقيل على أكثر الناس وبعيد عن أفهامهم غاية البعد ، لكنهم لو أنصفوا ووازنوا هذه العلوم والمعارف وعلوم هؤلاء ومعارفهم بميزان الشريعة ، ولاحظوا صحة الأحوال وسقمها بمطابقة العلوم الشرعية وعدم مطابقتها ، ونظروا في أي منهما تعظيم الشريعة أكثر وتوقير النبوة أوفر لرجعوا عن الاستبعاد ولأقرّوا بأنه محض السداد قاله الإمام الرباني ﷺ وفقكم الله لنهج الاستقامة والسداد .

وقال شيخ شيخنا ﷺ : بعد حقيقة القرآن يتوجه المرشد في دائرة حقيقة الصلاة ، فيشاهد هنا كمال سعة لامثلية حضرة الذات ، وأي شيء أظهر من السعة والعلو في هذا المقام الذي أحد جزأيه حقيقة القرآن والآخر حقيقة الكعبة .

وههنا يعملون مراقبة كمال سعة لامثلية لحضرة الذات ، وإذا وجد السالك حظا من هذه الحقيقة الطيبة يخرج حين أداء الصلاة من هذا النشئ الدنيوي ويدخل في النشئ الأخروي ، ويحصل له حالة شبيهة بالرؤية الأخروية ، وإذا رفع يديه للتحريمة يغسلهما من الكونين وينبذ وراء ظهره كلتا الدارين ، ويقف قائلا : ألله أكبر ، في حضرة الملك الجليل ، ويرى نفسه حقيرا مبتذلا ولا شيئا محضا في جنب عظمة الله تعالى ويفدي كله للمحبوب الحقيقي .

وحين القرآءة يكون موجوداً بوجود موهوب لائق بتلك الرتبة المقدسة ، ويصير متكلما مع حضرة الحق ومخاطبا ذلك الجناب المقدس ، ويكون لسانه كالشجرة الموسوية كما سبق في حقيقة القرآن .

وإذا ذهب إلى الركوع وأتى بغاية الخشوع يمتاز بمزيد القرب ، ويتشرف حين قراءة التسبيح بكيفية أخرى ، فلا جرم يحمد على هذه النعمة رافعا رأسه من الركوع ، ويقف أيضا في حضرة الحق .

والسر في أداء القومة أنه إذا أريد السجود فالذهاب من القيام إلى السجود أبلغ في مزيد التذلل والانكسار ، وأي شيء أبين من الذوق الذي يحصل حين أداء السجود حيث يعجز العقل عن إدراك ذلك ، والذي يفهم أن خلاصة

الصلاة هي السجود ، وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩﴾ ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « الساجد يسجد على قدمي الله » .

ولما توهم في هذا القرب أن العنقاء اصطيدت كبّر رافعا رأسه من السجدة ، وقوله : « الله أكبر » أي أكبر من أعبده حق عبادته وأقرب إليه حق قربه .

وسؤال المغفرة في الجلسة نشأ من جريمة ذلك التوهم ، ثم يسجد ثانيا لطلب مزيد القرب ، ثم يقعد للتشهد ويأتي بشكر الجناب الإلهي وتحياته على إحسانه بهذا القرب ، والإتيان بكلمتي الشهادة لأن هذه الدولة القريبة بدون التصديق والإقرار بالتوحيد والرسالة محال ، وقراءة الصلاة على النبي ﷺ لأن حصول هذه النعمة بواسطة تبعيته عليه الصلاة و السلام ، واختار الصلاة الإبراهيمية لأن في الصلاة خلوة مع المحبوب الحقيقي ومنادمة مخصوصة ومصاحبة منصوصة عن مقام الخلة التي هي منصب الخليل عليه السلام ، فكأنه يطلب ببركة هذه الصلاة الإبراهيمية تلك المنادمة ، فيكون نديم الحق فافهم . « جامع الأصول » في ٦٣ .

مراقبة معبودية الصرف

قد انتهى السير الفوقي ولا مجال له ، بل للسير النظري مجال ، وهي انتظار الفيض من الذات التي هي المعبود الصرف ، وههنا يظهر سر معنى الكلمة الطيبة (لا معبود إلا الله) وأنه لا يستحق للعبادة حقيقة بأي نوع كانت احد غير حضرته الأحدية المجردة ولو أسماء وصفات فأين الممكنات ، ولا يبقى هنا حقيقة الشرك وينزع من أصله .

وهذه المرتبة أصل الكل وملاذ الجميع ، ويقصر عن شأن هذه المرتبة العالية الوسعة والامتياز أيضا ، ولا مجال للسير القدمي هنا بل للسير النظري بحمد الله مجال . ثمة شعر :

هذا الذي لَوْ لَمْ يَكُـنْ أَيْضاً هُنـا   لَـكانَ بِالـوارِدِ باقِيَـةَ العَـنا

وههنا مراقبة الذات التي هي المعبود الصرف ، ولعل أمر قفْ يامحمد إشارة إلى قصور القدم عن هذه المرتبة ، يعني : قف يا محمد ﷺ ولا ترفع القدم من مكانك ، فإن فوق مرتبة حقيقة الصلاة الصادرة من مرتبة الوجوب مرتبة تجرّد الذات العلية وتقدسها ، ليس لقدم إمكانٍ ثمَّةَ اتباعٌ وجولان ، وفي هذه المرتبة الرفيعة تنجلي حقيقة الكلمة الطيبة (لا إله إلا الله) ، فتنتفي العبادة من الآلهة التي لا تستحقها ، وتثبت للمعبود الحقيقي الذي لا يستحق العبادة أحد سواه ، وفيها يظهر كل الامتياز المقصود بين ما للعابد وبين ما للمعبود .

فمن هنا يعلم أن معنى الكلمة الطيبة بالنسبة إلى المنتهين (لا موجود إلا الله) ، وإلى المبتدئين (لا معبود إلا الله) ، وإلى المتوسطين (لا مقصود إلا الله) ، وما به الترقي في هذه المرتبة المقدسة بحيث يورث فيها قوة النظر وحدة البصر هو التعبد بالصلاة التي هي شغل أرباب النهايات .

وقد انتهى السير هنا في الحقائق الإلهية التي يتوقف الترقي فيها على التفضل والله الهادي إلى سبيل الرشاد ، ولا يبقى للعمل في ذلك دخل أصلا وإن كان الترقي في جميع المقامات بالفضل الإلهي جل شأنه لا بالعمل ، لكن كانت الأعمال هنالك كالأسباب ، وأما في هذه المقامات فلا دخل لتلك الأسباب ، وإن كان في الذكر في إزالة الكدورات البشرية أثر تام ، لكنه لترقي هذه المقامات لا ينتج ، مثلا لو اشتغل بذكر اسم الذات أو النفي والإثبات أو التهليل اللساني يرى أن هذه الأذكار لا تصل إلى هذه المقامات ، بل تقف في الطريق . . إلى آخر ما قاله حضرة الإمام الرباني قُدِّسَ سِرُّهُ .

ويظهر هنا كمال الامتياز بين العابدية والمعبودية ، والترقي في هذه المقدسة موقوف على المواظبة على الصلاة التي هي وظيفة المنتهين ، وبالحقيقة يكون الترقي بالتفضل الإلهي ، وبعده يقع السير في حقائق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والترقي فيها منوط بمحبة سيد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

اعلم كما أن الحق سبحانه وتعالى يحب ذاته كذلك يحب أسماءه وصفاته ، وكل واحد من هذه المحبة لها اعتباران : المُحبية يعني المصدر المبني للفاعل ، والمَحبوبية يعني المصدر المبني للمفعول ، وظهور كمالات المُحبية والمَحبوبية الذاتيتين إنما هو في الحبيب الأكرم ﷺ ، وظهور الكمالات المُحبية الذاتية في كليم الله ، وظهور كمالات المحبوبية الصفاتية والأسمائية في خليل الله على نبينا وعليهما الصلاة والسلام ، فيكون حينئذ شروع سير السالك في الكمالات الصفائية والحقيقة التي مقام الخلة كناية عنها ، وها هي نذكرها هنا .

وقال شيخ شيخنا قدس سره : إن المرتبة المقدسة المعبودية الصرف ليس للقدم السيري مجال ، بل للسير النظري فقط الذي يسير حيث شاء ، وقد تم السير القدمي الذي كان في مقام العابدية ، لكن من عناية الله تعالى أنهم ما أوقفوا النظر ، فيكون هنا السير النظري ، ولما توجه المرشد في هذا المقام رأى في المعاملة نفسه في مقام عال نوراني لا لوني جدا ، وكلما أراد أن يذهب إلى ذلك المقام لم يتيسر له ذلك ، فعلم حينئذ أن ذلك مقام المعبودية الصرف الذي لا مجال للقدم فيه إلا للنظر الذي يسير حيث شاء كما ذكرنا غير مرة .

وههنا ينكشف سر معنى الكلمة الطيبة (لا معبود إلا الله) كما أشرنا إليه أيضا هنا ، ويظهر أنه لا يستحق العبادة حقيقة بأي نوع كانت أحدٌ غير حضرة الأحدية المجردة ولو أسماء وصفات ، فأين الممكنات ، ولا يبقى هنا حقيقة الشرك وينزع من أصله ، وقد انتهى سير الحقائق الإلهية هنا . انتهى « جامع » ٦٣ .

مراقبة الحقيقة الإبراهيمية

المفهومة من قوله تعالى : ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ التي هي عبارة عن الخلّة ، وهي محبوبية الأسماء والصفات ، وهذه منشأ الخلة ومنشأ للحقيقة الإبراهيمية ، وفي هذا المقام تظهر المحبوبية الذاتية .

ومعنى هذه العبارة كما مرّ أنه تعالى كما يحب ذاته يحب صفاته وأفعاله ، وأن لكل من هاتين المحبتين من المحبّية[1] والمحبوبية اعتبارين ، فظهور كمالات محبوبية الذات لحبيب الله ﷺ ، وظهور كمالات محبية الذات لكليم الله عليه السلام ، وظهور كمالات محبوبية الأسماء والصفات لخليل الله عليه السلام وغيره من سائر الأنبياء عليهم السلام ، وههنا تكرار الصلاة الإبراهيمية مفيد للترقي ، وعين الترقي في هذه الحقائق منوط بمحبة خير الخلائق ﷺ ، وسير السالك من هذه الحقائق هي الحقيقة الإبراهيمية المعبر عنها بمقام الخلة .

وهذا المقام لما له من كمال العظمة والاحتشام وكثرة البركات القابضة من رب الأنام كان سائر الأنبياء عليهم السلام تابعين لخليل الله تعالى في هذا المقام ، حتى أن رسول الله ﷺ أُمِر باتباع ملته عليه السلام حيث قال له : ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ ، ومن هنا شبه ﷺ ما طلبه من الله عز وجل من الصلاة والبركات بالصلاة والبركة الفائضتين على إبراهيم عليه السلام حيث علم أمته بقوله : « اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهم وعلى آل سيدنا إبراهم ، إنك حميد مجيد » .

فانظر إلى جلال هذا المقام وعظم ما فيه من الخير والبركة ، وهنا للسالك مع الحق سبحانه وتعالى نوع مخصوص من المؤانسة والخلوة فيه ، وظهور محبوبية الصفات التي هي في عالم المجاز عبارة عن محبوبية الخط والخال والعارض[2] ، فافهم والله يتولاك .

وقال منبع الأسرار مولانا وشيخ شيخنا قدس سره : إن الحقائق الأنبيائية هي عبارة عن الحقيقة الإبراهيمية والحقيقة الموسوية والحقيقة المحمدية والحقيقة الأحمدية .

« ١ » في الأصل المحبة

« ٢ » لعلّها إشارات مجازيّة إلى علامات الجمال التي تغنّى بها المحبّون ، فالخطّ هو الخط الذي يكون بين الحاجبين ويظهر عند الغضبِ ، والخال نقطة داكنة وتسمّى الشامة ، كما قال الشاعر :

له غُرَّةٌ في طَرْفِهِ ثم عارِضٌ . . . وخالٌ على يدٍ يحارُ لهُ طرفي

فاعلم أنه كما أن الترقي في الحقائق الإلهية موقوف على التفضل ، كذلك الترقي في الحقائق الأنبيائية موقوف على المحبة ، ولما توجه المرشد في الحقيقة الإبراهيمية إليه بمراقبة ذات هي منشأ الحقيقة الإبراهيمية أفاض عليه ببركة التوجه كيفية عظيمة وأسراراً فخيمة في هذا المقام ، وبعد هذا وردت عليه الأنوار من هذا المقام الذي هو عبارة عن خلة حضرة الحق .

وههنا يظهر أنس خاص وخلوة ذات اختصاص مع حضرة الذات ، وقد فهم أن هذه المعاملة والكيفية التي تحصل في هذا المقام لا تظهر بهذه الخصوصية في سائر المقامات العالية ولو من قسم الفضل الجزئي ، فإن في هذا المقام تظهر المحبوبية الصفاتية ، وفي الحقيقة المحمدية والأحمدية تظهر المحبوبية الذاتية .

ومعنى هذه العبارة أن الذات المتعالي كما يحب ذاته يحب صفاته ، فالأول يقال له الحقيقة المحمدية والأحمدية ، والثاني يقال له اسم الخلة وإن كان هو الحقيقة الإبراهيمية ، وفي هذا المقام يحصل في السالك أنس مع الذات حتى لا يتوجه إلى غير حضرة الذات ولو أسماء وصفات ولا إلى مزارات المشائخ ، ولا يطيب له الاستمداد والاستعانة من غيره تعالى ولو أرواحاً وملائكة ، وههنا تكرار الصلاة الإبراهيمية مفيد للترقي . انتهى في « جامع الأصول » .

واعلم أن أسماء الرب ثلاثة : ذاتية ووصفية وفعلية ، لأن الاسم إما أن يطلق على الذات باعتبار نسبة وتعين ، وذلك الاعتبار إما أمر عدمي نسبي محض كالغني والأول والآخر ، أو غير نسبي كالقدوس والسلام ، وتسمى هذه الأسماء أسماء الذات أو معنى وجودي يعتبره العقل من غير أن يكون زائدا على الذات خارج العقل ، وهو إما أن لا يتوقف على تعقل الغير كالحي والواجب ، وإما أن يتوقف على تعقل الغير دون وجوده كالعالم والقادر ، وتسمى هذه الأسماء أسماء الصفات ، وإما أن يتوقف على وجود الغير كالخالق والرازق ، وتسمى هذه الأسماء أسماء الأفعال لأنها مصادر الأفعال . انتهى« جامع » ٧٣ .

مراقبة الحقيقة الموسوية أي المحبة الصرف للذات ، وهي انتظار الفيض من الذات التي هي منشأ للمحبية الذاتية للذات والمنشأ للحقيقة الموسوية ، وقد يحصل في هذا المقام من غير اختيار حتى جرى من لسانه﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ ، وههنا يفيد الترقي أيضا الصلاة اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين خصوصا على كليمك موسى عليه السلام ، ومنشأ الفيض قوله تعالى : ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ .

وفي هذا المقام يظهر اصطفاؤه عليه السلام لكلامه تعالى ، وهي عبارة عن الحقيقة الموسوية فتدبر ، وفي هذه المرتبة يظهر كيفية عجيبة مع كمال القوة وينجلي محبة ذاته تعالى لذاته العلية ، وفيها مع ما فيها من المحبة الذاتية ظهور شأن الاستغناء ، ولهذا السر صدر عن الكليم عليه السلام في بعض المواضع كلمات تشعر بالاستغناء والدلال كما قال تعالى حكاية عن الكليم عليه السلام : ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ فافهم .

وقال شيخ شيخنا قدس سره : وفي هذا المقام يتوجه المرشد في دائرة المحبوبية الذاتية الصرف ، وأمره هنا بمراقبة ذات هي منشأ الحقيقة الموسوية والمحبية الذاتية للذات ، فترد عليه كيفية هذا المقام بالقوة التامة وتظهر محبية ذاته تعالى لذاته ، والحقيقة الموسوية عبارة عن تلك المحبية .

وأما ما ذهب إليه بعض الأكابر من إثبات المحبوبية لموسى عليه السلام ، فإن كان مراده بذلك أنه عليه السلام محبوب للحضرة سلمنا ، فإن مرتبة النبوة والرسالة وأولي العزم لا تحصل بدون المحبوبية ، وإن الأنبياء الكرام كلهم محبوبون ومرادون لحضرة الحق وطريقهم طريق الأحباب ، فليس هذا الكلام منافيا لمطلبنا ، وإن كان مراده بذلك أن الحقيقة الموسوية عبارة عن المحبوبية الذاتية في الحقيقة الأحمدية ، فذلك محل تأمّل .

وقد تحمل كيفية في هذا المقام حتى جرى من لسانه من غير اختيار ربّ أرني أنظر إليك ، وهو خصوص هذا المقام ، والعجب أن هذا المقام مع ظهور المحبية الذاتية فيه يظهر فيه شأن الاستغناء والدلال ، وهذا من اجتماع الضدين ، ومن هنا يعلم سر ما صدر في بعض المواضع من حضرة الكليم عليه السلام من بعض كلمات تفهم الدلال مثل ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ و ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ .

وهنا تفيد الترقي أيضا هذه الصلاة وهي : اللهم صل على محمد وعلى آله وأصحابه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين خصوصا على كليمك موسى عليه السلام انتهى . والله يعصمك وهو ولي التوفيق في « جامعه » ٦٤ .

مراقبة الحقيقة المحمدية أي المحبية الذاتية والمحبوبية الذاتية ، وهي انتظار الفيض من الذات التي هي منشأ لمحبية ذاتية ومحبوبية ذاتية ، والمنشأ للحقيقة المحمدية ، فظهر له المحبية الممتزجة مع المحبوبية ، وفيها يظهر كمال الرغبة إلى اتباعه ﷺ في الحركات والسكنات ، خصوصا العمل بالكتاب والسنة ، وكثرة الصلوات على سيد الأنام ﷺ توجب الترقي .

منشأ الفيض قوله تعالى : ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ ومن يكون تابعا لدلائل محبوبٍ لازم أن يكون متبوع محبوب بالطريق الأولى .

وفي هذه المرتبة المقدسة حصول الفناء والبقاء على طرز خاص ، وفيها ظهور اتحاد مخصوص مع سيد الورى ﷺ ، وفيها ينجلي معنى ارتفاع التوسط كما قال به أكابر الأولياء .

قال الإمام الرباني قدس سره : إن لتوسطه ﷺ معنيين :

أولهما كونه ﷺ حائلا وحاجبا بين السالك والمطلوب .

وثانيهما وصول السالك بطُفَيله بتوسط تبعيته ومتابعته ﷺ .

فالتوسط بكلا المعنيين كائن في السلوك قبل الوصول إلى الحقيقة المحمدية ، وأما بعد الوصول إلى حقيقة الحقائق فالتوسط بالمعنى الثاني .

لا يقال : يلزم من عدم التوسط هنا وإن كان بصفة واحدة قصور لجناب الحضرة الخاتمية عليه الصلاة والسلام ، لأننا نقول : إن عدم التوسط هذا مستلزم لكمال ذلك الجناب لا لقصوره ﷺ ؛ لأن كمال المتبوع أن يصل تابعه بطفيل تبعيته إلى جميع درجات الكمال وأن لا يترك دقيقة منها أصلا ، وهذا المعنى كائن في عدم التوسط لا في وجوده ، لأن الشهود في الأول بلا حجاب ، وهو أقصى درجات الكمال ، وفي الثاني بالحجاب ، فكان الكمال في عدم التوسط والنقص في التوسط .

ومن شوكة المخدوم وعظمته أن لا يتخلف عنه خادمه في مقام من المقامات أصلا ، وبتبعيته يكون في دولته شريكا على السواء ، وفي الحديث : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » عليه وعليهم الصلاة والسلام ، ويكون رؤية الأخروية بلا توسط شيء ولا حيلولة أمر ، وجاء في حديث صحيح : « إن العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه » ، وهذه المعارف من المعارف اللدنية الخاصة لهذا الفقير ، وأصحاب الظواهر يكادون يعتقدون عدم التوسط كفرا ، والحال أنه كمال الإيمان ويضلّلون من جهلهم قائله ويتصورون التوسط من كمال الإيمان ويعدون القائل به من كمل التابعين ، كل ذلك لعدم درك حقيقة الحال انتهى كلام محمد مظهر قدس سره .

رجعنا إلى ما نحن بصدده من أنه ينجلي فيها ارتفاع التوسط ويشتبه التابع بالمتبوع بحيث أن اسم التبعية كأنه يرتفع من البين بالكلية ويتوهم أن التابع كالمتبوع يأخذ ما يأخذ من الأصل ، كأنما يشربان من عين واحدة ويتشاركان في معانقة حبيب واحد على مخدة واحدة ويتمازجان تمازج اللبن مع السكر .

ومع هذا كله يظهر هنا نوع خاص من المحبة بسيد المرسلين ﷺ بحيث يفهم منه كلام إمام الطريقة المحبوب السبحاني مجدد الألف الثاني رضي الله عنه حيث قال : أحب الله عز وجل لكونه رب محمد ﷺ ، وفيها يظهر كمال الرغبة إلى اتباع

حبيب رب العالمين سيد الأنبياء والمرسلين ﷺ في الحركات والسكنات كلها من الأمور الدينية والدنيوية .

واعلم أن الحقيقة المحمدية التي هي الظهور الأول حقيقة الحقائق بمعنى أن حقائق سائر الخلائق كالظل لها على الإطلاق ، سواء كانت حقائق الأنبياء العظام أو حقائق الملائكة الكرام على نبينا وعليهم السلام . انتهى

مراقبة الحقيقة الأحمدية

أي المحبوبية الذاتية فقط ، وهي انتظار الفيض من الذات التي هي منشأ المحبوبية الذاتية فقط ومنشأ الحقيقة الأحمدية ، وفي هذا المقام تنكشف المحبوبية الذاتية كما أن في الخلة انكشاف المحبوبية الصفاتية .

ومعنى المحبوبية الذاتية أن في ذات المحبوب مع قطع النظر عن صفاته[١] الجميلة شيء موجب للتعشق والمحبة ، وهنا هذه الصلاة يفيد الترقي وهي : اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أفضل صلواتك عدد معلوماتك وبارك وسلم كذلك .

ومعنى انكشاف المحبوبية الصفاتية ظهور علو النسبة بشعشعان الأنوار وحصول الكيفيات العجيبة الأطوار ما يجل عن التقرير ويغني عن التحرير .

وملخصه انكشاف المحبوبية الذاتية التي هي عبارة عن ظهور حب المحبوب بنظر الذات ، يعني أن في ذات المحبوب مع قطع النظر عن صفاته الجميلة كالخط والخال كما ذكرنا هنا وغيرهما كما مر في بيان الخلة يكون شيء موجب للعشق والمحبة ، وهو أمر ذوقي لا يدركه إلا من أعطي الذوق ، ولنعم ما قال الشاعر :

ذاكَ المَليحُ لَهُ الهُوِيَّةُ ، كُلّهُ هُـوٌّ ، فَرُمْ أيـــنَ الهُوِيَّةُ أينا

« ١ » في الأصل صفات .

وقال الآخر :

ما كُـلُّ ذي خَـدٍّ وخالٍ شاهِـدا　　　بَلْ ذاكَ ذو هُوّ همة يكون جاذبا

وقد ذكر الشيخ محمد مظهر ﷺ في مناقبه ما ذكره القيوم الرباني مجدد الألف الثاني ﷺ في « مكتوباته » القدسية قال ﷺ : إن لنبينا ﷺ اسمين مباركين : أحدهما محمد ﷺ والآخر أحمد ﷺ ، وهما مذكوران في القرآن العظيم حيث قال الله تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ ، وقال تعالى حاكيا لتبشير عيسى ﷺ : ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ ولكل من هذين الاسمين المباركين ولاية على حدة .

أما الولاية المحمدية فإنها وإن كانت ناشئة من مقام محبوبيته ﷺ ، ولكن المحبوبية ثمة ليست بمحبوبية صرفة ، بل هي ممزوجة بنشاء من المحبة ، والمزج هذا وإن لم يكن ثابتا لها بالأصالة ولكن مانع لها من مقام المحبوبية الصرفة .

والولاية الأحمدية ناشئة عن صرف محبوبيته ﷺ بحيث لا شائبة فيها من المحبية أصلا ، وهذه الولاية لها تقدم على تلك الولاية وإنها أقرب إلى المطلوب بمرحلة واحدة وأرغب إلى المحب ، لأنه كلما كان المحبوب في محبوبيته أتم وفي استغنائه أكمل كان في نظر المحب أحسن وأجمل ، فينجذب المحب إليه جذبا أيّ جذب ، يتركه والها لا عقل له ولا قلب ، شعر :

ليسَ افْتِتاني حُسْنٌ من بَهائِهِ　　　بَلْ أَصْلُ بَلْوايَ من اسْتِغْنائِهِ

المراد من البلوى إفراط العشق المطلوب للعاشق .

سبحان الله اسم أحمد اسم سام عجيب حيث أنه مركب من الكلمة المقدسة أحد ، وحلقة حرف الميم التي هي من غوامض الأسرار الإلهية المكنونة في عالم اللَامثل ، ولا يمكن التعبير عن ذلك السر في عالم المثل بغير حلقة الميم ، ولو أمكن ذلك لعبر عنه الحق سبحانه وتعالى .

فالواحد أحد لا شريك له وحلقة الميم هذه كناية عن طوق العبودية المميز للعبد عن المولى ، فالعبد عبارة عن حلقة الميم ، وإنما جيء بلفظ أحد تعظيما له ﷺ وتخصيصا له .

سؤال : ما معنى الفناء والبقاء اللذين اصطلحت عليهما المشائخ قدس الله أرواحهم وعلقوا بهما الولاية ، وعلى أي معنى هذا الفناء والبقاء المذكوران في التعين المحمدي ؟

جواب : الفناء والبقاء المربوط بهما الولاية هما الفناء والبقاء الشهوديان ، فإن كان هنالك فناء وانتفاء فذلك باعتبار النظر ، وإن كان بقاء وإثبات فكذلك باعتبار النظر ، وللصفات البشرية ثمة استتار لا زوال .

والمراد من الصفات البشرية هاهنا اللوازم والحوائج البشرية ، فإنها تضعف وتستر عند غلبة الروحانية وتخمد ولا تزول لما تقدم في المقدمة في أحوال المجدد قوله : قباب أولياء الله صفاته البشرية . . . الخ .

وليس المراد هنا الصفات النفسانية المذمومة والأخلاق الرذيلة المكروهة ، فإنها تفنى بالكلية البتة عن الأولياء الواصلين إلى حقيقة الفناء والبقاء ، وقد فصلنا الفناء والبقاء في فصلهما فراجع . انتهى

وأما فناء هذا التعين المحمدي بخلاف ذلك ، فإن زوال الوجودي فيه متحقق للصفات البشرية والانخلاع من الجسدية إلى الروحية ، وفي جانب البقاء هنا أن العبد وإن لم يصر حقا ولم يخرج من دائرة المعبودية لكنه يكون أقرب إليه تعالى ، ويحصل له كمال المعية الإلهية ويزداد بعده من نفسه وتسلب عنه أحكامها البشرية . انتهى

مراقبة الحب الصرف الذاتي

وهي الحقيقة المحمدية عند الإمام الرباني ﵁ ، وما بيناه أولا هو ظلها ، فإن عنده أول معنى الحق بحضرة اللاتعين هو التعين الحبي ، وهو انتظار الفيض من الذات التي هي منشأ الحب الصرف ، كما ورد في الحديث القدسي : « كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق لأعرف » .

ويظهر هنا كمال العلو اللامثلية واللالونية ، فإن هذه المرتبة أقرب إلى مرتبة حضرة اللاتعين ومن المقامات المخصوصة بالنبي عليه الصلاة و السلام ، وحقائق سائر الأنبياء عليهم السلام لا تثبت في هذا المقام .

وقال ابن تيمية : لا يعرف سند صحيح ولا ضعيف لحديث « كنت كنزا » . . الخ وتبعه الزركشي والعسقلاني ، لكن معناه صحيح مستفاد من قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ، أي ليعرفوني كما فسره ابن عباس ﵁ ، كذا قال مولانا علي القاري ﵁ .

وهذه هي الحقيقة المحمدية عند التحقيق ، وما بيناه أولا هو ظلها ، ويشير إليه حديث : « لولاك لما خلقت الأفلاك » .

وأما حديث : « لولاك لما خلقت الأفلاك » قد روى الديلمي عن ابن عباس ﵁ مرفوعا : « أتاني جبرائيل ﵇ فقال : يا محمد لولاك ما خلقت الجنة ، ولولاك ما خلقت النار » ، وفي رواية ابن عساكر : « لولاك ما خلقت الدنيا » ، كذا قال مولانا علي القاري ﵁ .

وقال شيخ شيخنا ﵁ : ويظهر هنا نسبة الباطن ، فإن هذه المرتبة أقرب إلى حضرة الإطلاق واللاتعين . اهـ

فإن عند الإمام الرباني ﵁ أول معنى الحق بحضرة اللاتعين هو التعيين الحبي ، وقرره ﵁ بأن هذا التعين الأول في الحقيقة المحمدية . انتهى

مراقبة اللاتعين

وهي انتظار الفيض من الذات المنزهة والتعينات كلها ، وهذه من المقامات المخصوصة أيضا بالنبي ﷺ ، ولا يكون هنا السير القدمي ، وأما النظر فلا بد منه أيضا فيها ، لكن نظر المسكين فيها لعدم تناهي الذات حائر وهائم . شعر :

قَدْ ضاقَ ذَيْلُ النَّظَرِ عَنْ وَرْدِ حُسْنٍ أَكْثَرِ   جانيهِ يَشْكو دائماً عَنْ ذَيْلِهِ المُقَصِّرِ

وههنا مراقبة الذات الموجودة بالوجود الخارجي المنزهة عن التعينات كلها ، ويقال المرتبة غيب الهوية وغيب المطلق وأبطن البطون ، وهي مرتبة استهلاك جميع النسب والاعتبارات والشؤنات ، وقد تقدم بيانها في أوائل الرشحات والله أعلم ، وهذا هو نهاية المقامات المجددية المعمولة في طريقة مشائخنا .

وهنا مقامات أخرى مثل دائرة السيف القاطع الواقعة حذاء دائرة الكبرى التي نذكرها هنا ، ودائرة القيومية الناشئة من كمالات أولي العزم المختصة بالقيوم ، ودائرة حقيقة الصوم الواقعة حذاء حقيقة القرآن ، لكنها غير مشهورة وغير معمولة إلا النادرين الكاملين في مقام التكميل ، كشيخنا ذي المواهب أبي عبد الرحمن زين الله الشريفي المعموري ونفسي فداه ، وكان يلقن لكمل خلفائه ، جعلنا الله تعالى في بركات أنفاسه وأنفاس مشائخه .

واعلم أنه قد كثر السؤال بين الإخوان عن معنى المنشأ وعن حقائق الأنبياء أنها قديمة أو حادثة ، ممكنة أو واجبة ؟

وجواب الأول : أن المنشأ اسم مكان من نشأ بمعنى مكان الظهور والطلوع والصدور ، وكثيرا ما يستعمل في معنى العلة والسبب والباعث لظهور شيء ووجوده كما يقال : منشأ هذا الأمر كذا ، بمعنى سبب ظهوره وعلته والباعث عليه .

وجواب الثاني : قال الإمام الرباني ﷺ في « المكتوبات » في المكتوب الحادي والعشرين بعد المائة من المجلد الثالث : فإن قيل إن هذا التعيّن الأول والحقيقة المحمدية هل هو ممكن أو واجب أو حادث أو قديم ؟ قلت : إن ذلك التعين تعين إمكاني ومخلوق حادث ، قال عليه الصلاة والسلام : « وأول ما خلق الله تعالى نوري » ، وكل ما هو مخلوق ومسبوق بالعدم فهو ممكن حادث ، فإذا كان حقيقة الحقائق ممكنة حادثة تكون سائر الحقائق ممكنة وحادثة بالطريق الأولى . انتهى منتخبا ذكره في « تعريب المنزلوي » .

مراقبة دائرة السيف القاطع

فاعلم أن هذه الدائرة وقعت حذاء دائرة الولاية الكبرى ، ووجه تسميته بهذا الاسم أن السالك إذا وضع قدمه في هذه فإنها تقطع وجوده مثل السيف القاطع وتعدمه ولا تترك منه اسما ولا أثرا ، ولهذا سموها بذلك ، وبعد هذا يتوجه المرشد في دائرة القيومية ، ونذكرها بعد هذا إن شاء الله تعالى .

مراقبة دائرة القيومية

وهي ناشئة من دائرة كمالات أولي العزم ، وسر ذلك أن القيومية منصب الأنبياء عليهم السلام من أولي العزم ، وخص الله سبحانه وتعالى من هذه الأمة بهذا المنصب العظيم حضرة المجدد الإمام الرباني وأولاده وخلفاءه ﷺ ، كما أن عبد الله الدهلوي ﷺ اتخذ هذا المقام فكان قيوم الزمان وقطب الأوان ، فكل أحد تعلقت المشيئة الإلهية بهذا المنصب أن يختص به فلا حاجة له بالتوجه ، ويظهر له في البين أحوال وأسرار لا يستقيم بيانها باللسان ، ويتشرف بفيض خاص من هذه الدائرة العالية الشأن التي قصرت عن كيفية علوها الأذهان .

اللهم اجعلنا من الواصلين إليها القائمين على آدابها العارفين بأسرارها وأيدنا في زمرة هؤلاء السادات بحرمة سيد الكائنات آمين يا رب العالمين .

مراقبة حقيقة الصوم

التي وقعت حذاء حقيقة القرآن وهي انتظار الفيض من الذات التي هي منشأ لحقيقة الصوم ، ويرد على السالك الذرة اللامقدارية آثار هذه الحقيقة العالية ، وأنوارها خارجة عن التعقل فظهر له عدم خاص وصمدية ذات اختصاص ، وحصل له حظ وافر وبحر عميق وأسرار لا يمكن إظهارها على حبيبه من الصلوات والتسليمات أوفاها والحمد لله أولا وآخرا .

وقد قال مولانا الشيخ محمد مظهر قدس سره الأنور : قد شرفني سيدي الوالد ﷺ في هذا المقام العالي الذي هو عبارة عن صمدية حضرة الذات تعالت وتقدست ، فتشرفت بأسرار هذا المقام وأنواره ، فله الحمد والمنة ، والتوجه إليها في رمضان أولى وأنسب . انتهى كلامه

وإني[1] الفقير الذليل قد شرفني شيخي أبو المواهب ونفسي فداه على هذه المراقبة العلية وأبدى لي بعض أسرارها بحيث يعجز اللسان من إبدائها ، وبفضل الله سبحانه وتعالى قد اتفق حين تلقين هذه المرتبة البحر الزاخر والطود الباخر مولانا محمد مراد المنزلوي ﷺ ، وقد وقع جمع كثير من اليوم الثاني من تلقين هذه المراقبة من الخلفاء والصلحاء ، وتصدق شيخنا ونفسي فداه بمال عظيم للحاضرين ، ودعا لي وسأل من الحاضرين الدعاء ، وخصص عدة من الخلفاء بالتسمية ليدعوا لي مع تأمين الباقين وأشهدهم على إجازتي وإقامتي خليفة مقامه في حياته وبعد مماته ، وسلم صك الخلافة ليدي وعليها خاتمه مع خطه ، ثم في اليوم الثالث دعاهم وتصدق لهم بصدقات كثيرة ولجمع كثير من الفقراء الواردين القائمين خارج الدار وألبسني الخرقة النقشبندية على نهج آداب مشائخه ، ودعا لي أيضا وأمنوا دعاءه وأوصاني وأمرني ونهاني ، جعلنا الله تعالى في زمرة عباده الصالحين إنه ولي المتقين .

« ١ » في هامش نسخة « أ » : أي المؤلف ﷺ .

وهذه بيان السلوك لمقامات هذه الطريقة منحها الله تعالى بلطفه العميق إلى السالك الصديق ، ولو صرف تمام عمره في شكر هذا الإحسان ولم يبق من نفسه اسما ولا أثرا وجعل ذاته وشأنه كتراب الذل والهوان لما أدى واحدا من ألوف إلا بلطف المنان ، الأمان الأمان ، نسألك حق الإيمان ياعزيز يا لطيف يا حنان .

وقال شيخنا نقلا عن مرشده أحمد ضياء الدين الكمشخانوي ﷰ ما نصه في كتابه « جامع الأصول » ٢٠٥ : واعلم أن المراقبة هي رؤية جناب الحق تعالى بعين البصيرة على الدوام مع تعظيم مذهل وجذب حامل وسرور باعث وشوق حادث ، وقالوا : المراقبة مراعاة السر لاطلاع الحق في كل لحظة ولفظة كما ذكرناه على معنى قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ ﴾ إلى آخر الآية ، والمعنى الثاني أدنى مراتب المراقبة .

وقد أشار عليه الصلاة والسلام إلى هاتين المرتبتين بقوله : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، فإن دوام السالك على المراقبة مع المجاهدة التامة يترقى عن مرتبة المراقبة إلى مرتبة المشاهدة لأن المجاهدة بذرة المشاهدة فمن لم يزرع المجاهدة في أرض الاستعداد لم يحصد المشاهدة في التجليات من أرض الاستعداد ، بل المجاهدة إنما هي فلك بحر المشاهدة ، فمن ركب المجاهدة يسبح في بحر المشاهدة ، لأنه يكشف للعبد أن أنوار وجود وحدة الذات الإلهية محيطة بجميع الأشياء وأنه تعالى متجل بصفاته وأسمائه في مصنوعاته وأنه تعالى ظاهر في كل صورة ، لكن ذلك الكشف على حسب استعداد المكاشفين في صفاء أرواحهم وزكاء نفوسهم وجودة حواسهم واستعلائهم على الجسمانية وارتقائهم إلى الروحانية وتفاوت قربتهم من الحضرة الإلهية ، وبقدر هذه الخصوصيات يصير الابتهاج بأنواع الربوبية والاستكشاف بأسرار الأحدية . انتهى

وقال بعض العارفين : المراقبة تسليط هيبة حضور الحق ونظره على القلب وسائر الأعضاء في حركاتها وسكناتها ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾ .

واعلم أن المراقبة أصل كل خير وسعادة ونجاة ولا يصل العبد إلى مقام المراقبة إلا بعد محاسبة نفسه على ما مضى وإصلاح وقته حاضرا ، وقال بعضهم : من راقب الله في خواطره عصمه الله في جوارحه .

وقال ابن عطاء قدس سره : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات .

وقال أبو عثمان قدس سره : قال أبو حفص الحداد قدس سره : إذا جلست تعظ الناس فكن واعظا لنفسك ، ولا يغرنك اجتماعهم عليك ، فإنهم يراقبون ظاهرك والله يراقب باطنك « جامع الأصول » ٢٠٥ .

وقال المعرب الشيخ محمد مراد المنزلوي قدس سره في « تعريبه » : إن دوام المراقبة يورث القوة في نسبة الباطن ، وإشراف الملك والملكوت بنظر الموهبة وكثرة ذكر التهليل تورث فناء الصفات البشرية ، والإكثار من الصلوات على النبي ﷺ يورث الواقعات الحسنة ، ويحصل الانكسار والتواضع من كثرة النوافل ، ويزيد النور والصفاء من كثرة التلاوة ، وذكر التهليل مفيد في الطريقة بشرط ملاحظة المعنى ، وأما مجرد تكرار اللفظ فهو من بضائع ثواب الآخرة .

وقال : إن التكثير من تكرار اسم الذات مثمر لنسبة الجذبة الإلهية ، ويفيد النفي والإثبات في السير والسلوك وقطع مسافة الطريقة ٢٨ هامش .

وذكر الشيخ العارف علي الواعظ ابن حسين الهروي عن مولانا علاء الدين محمد العطاري قدس سرهم : أن طريق المراقبة أعلى وأقرب إلى الجذبة من طريق النفي والإثبات ، ويمكن الوصول من طريق المراقبة إلى مرتبة الوزارة والتصرف في الملك والملكوت . والإشراف على الخواطر والنظر بنظر الموهبة وتنوير البواطن كل ذلك من دوام المراقبة ، ويحصل من ملكة المراقبة دوام الجمعية ودوام قبول القلوب ، ويسمى ذلك بالجمع والقبول ، وقال : لما ذهبت في الابتداء إلى خوارزم كنت مشتغلا بحسب الباطن مع كل من الأصحاب باختيار باطنه ليعلم أنه هل لهذه الصفة بقاء أم لا ، فحصلت من ذلك الاشتغال فائدة عظيمة وبقيت تلك الملكة « رشحة » ٧٢ .

فصل

في بيان الطريق الذي وضعه أهل الله تعالى للوصول إلى الحق سبحانه وتعالى

ولهذا الطريق أسباب وأمور ، فمن ذلك الطريق الذي هو سبب الوصول المراقبة ، وقد ذكرنا المراقبات المشهورة بين كمّل المشائخ من هذه الطريقة الصديقية التي هي أعلى الطرق وأزكاها ، ونذكر هنا حقيقة المراقبة وما فيها من كلام السادات .

قال أبو العباس أحمد زروق ﷺ : تمييز الخواطر من مهمات أهل المراقبة لنفي الصوارف عن القلوب ، فلزم الاهتمام بها لمن له في ذلك أدنى قدم .

والخواطر أربعة : رباني بلا واسطة ونفساني وملكي وشيطاني ، وكل إنما يجري بقدرة الله تعالى وإرادته وعلمه ، فالرباني لا متزحزح ولا متزلزل كالنفساني ، ويجريان لمحبوب وغيره .

فما كان في التوحيد الخاص فرباني ، وفي مجاري الشهوات فنفساني ، وما وافق أصلا شرعيا لا يدخله رخصة ولا هوى فرباني ، وغيره نفساني ، ويعقب الرباني برودة وانشراح ، والنفساني يبس وانقباض ، والرباني كالفجر الساطع لا يزداد إلا وضوحا ، والنفساني كعمود قائم إن ينقص بقي على حاله ، فأما الملكي والشيطاني فمترددان ، ولا يأتي الملكي إلا بخير والشيطاني قد يأتي به فيشكل ، ويفرق بأن الملكي تعضده الأدلة ويصحبه الانشراح ويقوى بالذكر ، فأثره كغبش الصبح وله نفاذ ما بخلاف الشيطاني ، فإنه يضعف بالذكر ويعمى عن الدليل وتعقبه حرارة ويصحبه اشتعال وغبار وضيق وكزازة[1] في الوقت وربما تبعه كسل .

« ١ » أي ضيق .

فالشيطاني من يسار القلب والملكي من يمينه والنفساني من خلفه والرباني مواجه له ، والكل رباني عند الحقيقة ، ولكن باعتبار النسب ، فما عري عنها نسب للأصل ، وإلا فنسبته ملاحظة الحكمة ، ثم تحقيق هذا الأمر إنما يتم بالذوق ، فقد قالوا : من عقل ما يدخل جوفه عرف ما يهجس في نفسه .

واعلم أيها المأمون الموفق أن الوصول إلى الله تعالى الذي يشير إليه أهل هذه الطريقة هو الوصول إلى العلم الحقيقي بالله تعالى ، وهذا هو غاية السالكين ومنتهى سير السائرين ، وأما الوصول المفهوم بين الذوات فهو متعال عنه سبحانه وتعالى .

قال الجنيد ﵁ : متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير له بمن له شبيه ونظير ، هيهات هذا ظن عجيب ، إلا بما لطف اللطيف من حيث لا درك ولا وهم ولا إحاطة إلا إشارة اليقين وتحقيق الإيمان .

وقال السهروردي ﵁ في « عوارف المعارف » : واعلم أن الاتصال والمواصلة أشار إليهما الشيوخ ، وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان ، فهو رتبة في الوصول ثم يتفاوتون ، فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال وهو رتبة التجلي ، فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله تعالى ويخرج في هذه الحالة عن التدبير والاختيار ، وهذه رتبة في الوصول .

ومنهم من يقف في مقام الهيبة والأنس بما يكاشفه قلبه من مطالعة الجلال والجمال ، وهذا تجل بطريق الصفات وهو رتبة في الوصول .

ومنهم من يرتقي إلى مقام الفناء مشتملا على باطنه نور اليقين والمشاهدة معمى في شهوده عن وجوده ، وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين ، وهذه رتبة في الوصول ، وفوق هذه رتبة حق اليقين ، ويكون من ذلك في الدنيا لمح وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى تحظى به روح العبد وقلبه ونفسه حتى قالبه ، وهذا من أعلى مراتب الوصول .

فإذا تحققت الحقائق بعلم العبد من هذه الأحوال الشريفة أنه في أول المنزل فأين الوصول هيهات ، منازل طريق الوصول لا تنقطع أبدا الآباد في عمر الآخرة الأبدي ، فكيف بالعمر القصير الدنياوي ؟ !

والحاصل أن الوصول إلى الله تعالى هو الوصول إلى العلم به ، أي إلى مشاهدته بعين البصيرة مشاهدة تغني عن الدليل والبرهان ، ويعبّر عن ذلك العلم بالمشاهدة وبعلم اليقين وبالتجلي وبالفيض الرحماني والتعرف العياني والذوق الوجداني .

وحاصل كلام السهروردي تقسيم الوصول إلى ثلاث مراتب ، كلها ذات تجل وشهود ، لكنها اختلفت باختلاف التجلي .

فالأولى : تجلي الفعل بأن يكشف لصاحبها عن صدور الأفعال كلها من الله تعالى ، فلا يمكنه رؤية الفعل من غيره مع ذلك ، وإنما ينكشف ذلك لبصيرته ، فمهما رأى فعلا من الأفعال أو نظر أثرا من الآثار من حيث أنه صنع الواحد ، فلا يرى السماء والأرض والحيوان والشجر من حيث أنها أرض وسماء وحيوان وشجر ، بل من حيث أنها صنع الله تعالى ، فمن ناظرها من هذه الحيثية كان ناظرا إلى الله تعالى ، وهو الذي يقال فيه أنه فني في التوحيد وفني عن نفسه ، وإليه الإشارة بقول بعضهم : كنا بنا فغبنا عنا فبقينا بالله . وفي هذا المقام يسقط التدبير والاختيار ، وذلك أساس الطريق وعمدته ، وصاحب هذا المقام صاحب مقام علم اليقين .

والثاني : تجلي الصفات الجمالية من كرم وحلم ورفق وإحسان ورحمة ولطف وعطف وفضل وامتنان التي هي منشأ الأنس ، والجلالية من بطش وسطوة وعزة ونقمة التي هي منشأ الهيبة ، وهذا صاحب تجريد وتفريد أي لا يفعل الطاعة لأجل الأغراض الدنيوية أو الأخروية ، بل ما كوشف به من العظمة يقتضي أنه يؤديها عبودية وانقيادا ، فهو مجبول على قصد الأغراض ولا يرى نفسه فيما يأتي ، بل يرى نعمة الله عليه ، فهو صاحب فناء لفنائه عن السوى ، وبقاء لشهوده صفات الحق ، ولفناء صفاته المذمومة وبقاء صفاته

المحمودة ، وصاحب هذا المقام صاحب عين اليقين ، له سكر بما فاجأه تجلي نور الجمال والجلال يزيد على سكر صاحب علم اليقين .

والثالث : تجلي الذات المقدسة بما يتكامل من تشعشع أنوار قلبه في اليقين ، فيستولي على قلبه أنوار الحق حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس ، وليس من ضرورته الفناء ، بل الكامل في ذلك هو الذي يكون في غاية الصحو يجمع بين الحق والخلق .

فعلم من ذلك أن قربك من الله سبحانه وتعالى أن تكون مشاهدا لقربه منك قربا معنويا ، فتستفيد من هذه المشاهدة شهود المراقبة في التأدب بآداب الحضرة ، ولو لم نقل ذلك بل أردنا القرب الذي هو من صفات الأجسام ، فهذا لا يصح لأن ذلك مستحيل على الله تعالى ، فمن أين أنت ووجود قربه قربا حسيا ، فالقرب الحقيقي قرب الله منك ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ .

فحظك أنت من ذلك إنما هو مشاهدتك لقربه فقط ، وأما حقيقة قربك فليس لك منه شيء ، ولا يليق بك إلا وصف البعد وشهوده من نفسك ، وفي مناجاة ابن عطاء الله ﵁ : إلهي ما أقربك مني وما أبعدني عنك .

لكن ينبغي للعبد أن لا ييأس من قبول العمل إذا لم يجد فيه حضور قلب ، فإن ذلك إلى الله تعالى ، فقد يقبل من العمل ما لم تدرك ثمرته عاجلا من وجدان حضور أو حلاوة أو غير ذلك ، ولو لم يكن إلا قصد التقرب به وسقوطه عن نظرك لكان كافيا ، وقد تقدم أن من علامات قبول العمل نسيانك إياه وانقطاع نظرك عنه بالكلية ، وتقدم أيضا قول « الحكم » : لا عمل أرجى للقبول من عمل يغيب عنك شهوده ويحتقر عندك وجوده انتهى كلام العارف السيد ابن زيني دحلان ﵁ ، وقد بسطت كلامه لكثرة منافعه وحلاوة مآثره ، فلله در العارف حيث بسط ما يغني عن جوع وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وقال بعض العارفين : الوصول عندي حصول نسبة الحضور بالله للقلب على سبيل الذوق والذهول عما سواه تعالى ، فإن كانت تلك النسبة متصلة فقد تشرف صاحبها بدوام الوصل . انتهى

وقال أيضا : الوصل في الحقيقة اجتماع القلب بالله تعالى على سبيل الذوق ، فإن كان حصول هذا المعنى على سبيل الدوام يقال له وصل دائمي ، وهذا هو النهاية .

وما قاله حضرة الخواجه بهاء الدين ﷻ : نحن ندرج النهاية في البداية ، فالمراد به هو ذلك الوصل .

وما قاله : إنما نحن واسطة في الوصول لا غير ، فينبغي الانقطاع عنا والاتصال بالمقصود هو ذلك الوصل .

وقال : لو كان لهذه النسبة قدر ما عندكم لحملتم الأحجار فوق رؤسكم ، يعني لتحصيلها وحفظها . انتهى ما في « الرشحات » ٢١٢ .

وفي « جواهر » ج٢ في ٦٥ : اعلم أن الطاعة سبب للوصول إلى الجنة ، والأدب في الطاعة سبب لقرب الحق سبحانه . وذهبت كملاء المشائخ قدس الله أرواحهم إلى أن اللازم للمريد في الابتداء تصفية الباطن ، فيشتغل بالتصفية والتزكية حتى يحصل دوام المراقبة بتمام الحضور ، وإلا يزيد دنس القلب ومرضه بكل عمل صالح يؤديه على وجه الكمال . اهـ

وإن في كل نفس خزينة ، فينبغي أن يكون واقفا ، فإن الله تعالى حاضر وناظر ، وينبغي الاستحياء من الله تعالى وأن لا يغفل عنه فإن الله سبحانه يقول تشنيعا للغافلين وتوبيخا لهم : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ ﴾ ، يعني ليس في جوف بني آدم قلبان حتى يجعل أحدهما مشغولا بالدنيا والثاني بالحق سبحانه وتعالى ، بل فيه قلب واحد ، فإن جعله مشغولا بالدنيا يبقى بلا حظ من الله تعالى ، وإن كان متوجها به إلى الله تعالى تنفتح من قلبه كوة إلى الله فتشرق منها إليه شمس الفيض الإلهي .

فكما أن الشمس إذا طلعت تكون كل ذرة من ذرات العالم محفوفة من نورها من المشرق إلى المغرب وينبسط نورها على الكل ، فإن كان بيت لا روزنة له ولا كوة يبقى محروما من ذلك النور البتة ، كذلك القلب إن كان حاضرا فحضوره بمثابة الكوة يشرق إليه منها نور فيض الوجود ، وإن كان غافلا يفوت عنه الاحتظاظ بذلك النور ، كالبيت الذي لا كوة فيه ، ولا نقص في فيض الإله ولا بخل ، ولكنما النقصان في نفس قابل . ذكره الشيخ عبيد الله أحرار قدس سره .

واعلم أن للوصول طريقين : الجذبة والسلوك ، وبعبارة أخرى : التزكية والتصفية ، والجذبة التي قبل السلوك ليست من المقاصد ، والتصفية التي قبل التزكية ليست من المطالب .

والجذبة التي تكون بعد تمام السلوك والتصفية التي تكون بعد حصول التزكية الكائنة في السير في الله من المقاصد المطلوبة ، فالجذبة والتصفية السابقة لأجل تسهيل السلوك على السالك ، وبدون السلوك لا ينال المطلوب وبلا قطع المنازل لا يظهر جمال المحبوب ، فالجذبة الأولى كالصورة للثانية ، وفي الحقيقة لا مناسبة بينهما .

فالمراد من اندراج النهاية في البداية اندراج صورة النهاية ، وإلا فحقيقة النهاية لا تسعها البداية . اهـ « البهجة السنية » ، مكتوب ٩٩

وقال قطب المشائخ حضرة خواجه بهاء الدين النقشبندي الأويسي قدس سره : معرفة كيفية التحول والانتقالات من صفة إلى صفة في غاية الإشكال .

و قد قال قدس سره : إن الطريق الذي بواسطتها يصل العارفون ويجدون معروفهم وغيرهم لا يجدون ثلاثة : المراقبة والمشاهدة والمحاسبة :

فالمراقبة – وقد ذكرناها في مواضعها غير مرة – وهي نسيان المخلوق بدوام النظر إلى الخالق ، يعني أن السالك ينبغي أن يكون ناظرا لجناب الأحدية ويرقم الفناء والعدم على ناصية جميع المخلوقات . ودوام المراقبة نادر ، وطريق حصولها وجدناه في مخالفة النفس .

والمشاهدة واردات غيبية تنزل على القلب بواسطة أن الزمان الماضي لا سكون له لا يمكننا إدراك ذلك الوارد على صفة يكون حالا فينا ، ولكن ندركه من القبض والبسط ، ففي القبض نكون مشاهدين للجلال ، وفي البسط نشاهد صفة الجمال .

والمحاسبة هي أن كل ساعة تمر علينا نحاسب أنفسنا فيما مر فيها هل مر بالحضور أو بالتفرقة ، فتجد الكل نقصانا فيشرع في العمل من رأسه .

وكان حضرة العزيزان ﷺ يقول : ينبغي لك أن تعمل وينبغي لك أن تنظر أنك لا تعمل ، وتنظر نفسك بعين الحقارة وتأخذ العمل من رأسه .

وقال الخواجه ﷺ : في هذا الحال نحن واسطة دولة الوصول ، فينبغي الانقطاع منا والاتصال بالمقصود .

وسنة أرباب التكميل والاتصال هكذا أن يربطوا أطفال هذا الطريق في مهد الحقيقة ويسقوهم ثدي التربية إلى أن يصلوا إلى حد الوصال ، وبعد ذلك ليسجوهم« ١ » عن ذلك اللبن بنوع خاص ويجعلونهم محرما لمقام حضرة الأحدية حتى يقدروا على حصول الفيض من حضرة الأحدية بغير واسطة ، فإنه لا يمكن الوصول إلى المقصود إلا بالدليل والخفير ، ولو وجد الواصل عمر الدنيا وصرفه في شكر الموصل له إلى هذه السعادة لما وفى بذلك . انتهى

وقال الإمام الرباني ﷺ في « مكتوباته » ٢٠٦ : إن أمثال هذه الكلمات يظهر لمبتدئ هذا الطريق كثيرا في أوائل الإقدام ، وهم لا يعتبرونها أصلا بل ينفونها ، وأين الوصل وأين النهاية ؟

كَيْفَ الوُصولُ إلى سُعادَ وَدونَها قُلَـلُ الجِبـالِ وَدونَـهُـنَّ حُتوفُ

« ١ » سجى أي سكنَ وفتر .

والله سبحانه وتعالى منزه عن الكيف والمثال ، وكل ما هو داخل تحت الرؤية والإدراك والشهود والمكاشفة فهو غيره سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه وراء الوراء ، فلا تغتروا أصلا بجوْز هذا الطريق وموزه مثل الأطفال .

وقال المشائخ الكرام : منازل الوصول لا يقطع أبدا الآباد في العمر الأخروي الأبدي ، فكيف في العمر القصير الدنيوي . اهـ

وقال بعض العارفين : أول ما يتنبه العبد للعبادة ويستيقظ من سنة الغفلة وتتوق نفسه إلى الانخراط في سلك السعداء ، يكون بخطرة سماوية وجذبة إلهية وتحريك رباني وتوفيق سبحاني ، وهو المعني بقوله تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ، والمشار إليه في كلام صاحب الشرع ﷺ بقوله : « إن النور إذا دخل في القلب انفسح وانشرح » ، فقيل : يا رسول الله هل لذلك علامة يعرف بها ؟ فقال : « التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله » . « كشكول » ٢٣٩ .

وذكر العلامة خاتمة المحققين الشيخ محمد مراد المنزلوي ثم المكي قدس سره في هامش « المكتوبات » ما نصه : ومنها أن السالك إذا وقع سيره في تفاصيل الأسماء والصفات صار طريق وصوله إلى حضرة الذات جل سلطانها مسدودًا فإنه لا نهاية للأسماء والصفات حتى يمكن الوصول إلى المقصد الأقصى بعد قطعها ، وقد أخبر المشائخ من هذا المقام بأنه لا نهاية لمراتب الوصول ، فإنه لا نهاية لكمالات المحبوب .

والمراد بالوصول هنا وصول إلى الأسماء والصفات ، والمسعود هو الذي يقع سيره في الأسماء والصفات بطريق الإجمال وصار واصلا إلى حضرة الذات بالسرعة .

والواصلون إلى الذات يلزمهم الرجوع للدعوة بعد وصولهم إلى نهاية النهايات ، وعدم الرجوع غير متصور في ذلك الموطن ، بخلاف المتوسطين فإنه لا يلزمهم الرجوع بعد وصولهم إلى نهاية استعدادهم ، بل يمكنهم أيضا أن يرجعوا ، ويمكنهم أيضا أن لا يرجعوا ويختاروا الإقامة هناك .

فمراتب الوصول متصورة إلى المنتهين بالتمام بل لازمة ، وأما المتوسطون الذين سلكوا مسلك تفاصيل الأسماء والصفات فلا نهاية في حقهم لمراتب الوصول ، وهذا العلم من جملة العلوم المخصوصة بالفقير والعلم عند الله سبحانه وتعالى . اهـ ١٤٨ .

وقال أيضا في ٢٣ : ومنها أن نزول الواصلين إلى نهاية النهاية هو عين هذا النزول إلى غاية الغاية ، ومتى وقع النزول بتلك الخصوصية يكون صاحب الرجوع متوجها إلى عالم الأسباب بكليته ، لا أن بعضه متوجه إلى الحق وبعضه الآخر إلى الخلق ، فإن هذا علامة عدم الوصول إلى نهاية النهاية وعدم النزول إلى غاية الغاية .

وغاية ما في الباب يقع للطائف صاحب الرجوع توجه خاص إلى الجناب الأقدس جل سلطانه وقت أداء الصلاة التي هي معراج المؤمن ، ويبقى هذا التوجه إلى تمام الصلاة ، وبعد الفراغ منها يكون متوجها بكليته إلى الخلق ، ولكن المتوجه إلى جناب القدس وقت أداء الفرائض والسنن هي اللطائف الست ، وفى وقت أداء النوافل ألطف تلك اللطائف فقط يمكن أن يكون في حديث : « لي مع الله وقت » إشارة إلى هذا الوقت المخصوص والقرينة على تعيين تلك الإشارة في حديث : « وقرة عيني في الصلاة » ، والعلاوة« ١ » على هذه القرينة الكشف الصحيح والإلهام الصريح ، وهذه المعرفة من المعارف المخصوصة لهذا الدرويش الخ . هامش « مكتوبات » ٢٢

وأما المشائخ فقد اعتقدوا الكمال في الجمع بين التوجهين والأمر إلى الله سبحانه وتعالى والسلام على من اتبع الهدى . اهـ

وقال القطب الشعراني ﵁ في « اليواقيت » في ١١٢ : وسمعت سيدي عليا الخواص ﵀ يقول : أكمل الورثة للأنبياء هم المجتهدون ﵃ ، لظهور قيامهم بالإرث بتعليم شريعته للناس والفتوى بها ، بخلاف الصوفية عرفا إنما هم معدّون لتعليم الأخلاق الباطنية في الغالب . انتهى

« ١ » أي الزيادة .

وسمعته أيضا يقول : المجتهد المطلق هو الوارث الحقيقي للشارع ، لكون الشارع أمره أن يعمل بكل ما أدى إليه اجتهاده . وسمعته أيضا يقول : الاجتهاد وإن كان مبناه على الظن فقد يكون منتهاه إلى علم اليقين أو عين اليقين أو حق اليقين ، انتهى وقد ذكرناها في موضعها .

واعلم أن طرق الوصول إلى الله تعالى والفناء عند السادات أربعة[١] على ما في « الحديقة » :

الطريق الأولى : وهي الأعلى والأقوى محبة الشيخ الحقيقي الكامل السالك بطريق الجذب المشروط بثلاثة شروط : **الأول** أن يصحبه خدمة له وانتسابا إليه وافتخارا به وإقبالا عليه ، **الثاني** أن لا يعترض شيخه ولا ينكر عليه فعلا من أفعاله مطلقا ظاهرا وباطنا ، ويعد خطرات وهمه ذنوبا يستغفر الله تعالى منها ، لأن شيخه بيد الله تعالى والله تعالى لا يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولكنه تعالى يمتحن من أراد من خلقه بالشيخ وغيره ، **الثالث** أن يكون بين يديه كالميت بين يدي الغاسل - كما ذكرنا هذه غير مرة - لا يخالفه في شيء مطلقا ولا ينتصر لجانب نفسه مع شيخه أبدا .

وتلك الصحبة تكون مقرونة بأصلين هما كمال اتباع النبي ﷺ ومحبة الشيخ ، وشيخ الصحبة هو الشيخ الحقيقي الموصل إلى الله تعالى بحاله لا بواسطة شيء آخر كالخرقة أو الذكر ، فإن شيخ الخرقة يسري حاله في الخرقة ثم يصل إلى المريد ، وكذلك شيخ الذكر ذكره أمدّه لا شيخه ، فهما شيخان مجازا وهو شيخ حقيقة لعدم الواسطة بين قلبه وقلب المريد .

« ١ » وقال أبو سعيد القرشي ﷺ : الواصل الذي يصله الله تعالى فلا يخشى عليه القطع أبدا والمتصل الذي بجهده يتصل وكلما دنا انقطع وكان هذا الذي ذكره حال المريد والمراد لكون أحدهما مبادئا بالكشوف وكون الآخر مردودا إلى الاجتهاد ، وقال ابو يزيد ﷺ : الواصلون في ثلاثة أحرف : هممهم لله تعالى وشغلهم في الله تعالى ورجوعهم إلى الله تعالى ، وقال الساري ﷺ : الوصول مقام جليل وذلك أن الله تعالى إذا أحب عبدا أن يوصله اختصر عليه الطريق وقرب إليه البعيد ، وقال الجنيد ﷺ : الواصل هو الحاصل عندي ، وقال رويم ﷺ : أهل الوصول أوصل الله قلوبهم إليه فهم محفوظون القوى ممنوعون من الخلق أبدا « عوارف » .

وقال العارف عبد الغني النابلسي ﵁ : ورسم ما يتخيله السالك من معاني التجليات الإلهية وقت حضوره معها بها لا بنفسه إنما يكون من المرشد الكامل بطريق التوجه الرباني والإمداد الرحماني ، فتارة يتأتى بالإلقاء الإلهامي من القلب إلى القلب مع صدق الحال ، وتارة يتأتى بتقرير العبارات وتبيين الإشارات ، وتارة بإلباس خرقة الصوفية المشهورة ، وشرطها كمال الصدق من الطرفين ، فيسري الحال الصادق بأمر الله في المريد الصادق ، وتارة ينظر الشيخ الصادق من قوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه : « كنت بصره الذي يبصر به » في حديث التقرب بالنوافل ، وتارة ينظر المريد الصادق من قوله ﷺ : « إذا رؤوا ذكر الله » ، وهذا الأمر يختلف باختلاف الاستعداد في السرعة والبطء والإخلاص في الخدمة والأدب مع المشائخ والإخوان والعلماء وحفظ حرمتهم غيبة وحضورا .

الطريق الثانية : الرابطة ، وهي طريق مستقل للوصول ، هي عبارة عن ربط القلب ، وقد ذكرنا في الرابطة بالشيخ الواصل إلى مقام المشاهدة المتحقق بالصفات الذاتية وحفظ صورته في الخيال ولو بغيبته ، فرؤيته بمقتضى « إذا رؤوا ذكر الله » بها تحصل الفائدة كما تحصل من الذكر بموجب « هم جلساء الله تعالى » . ولا يخفى ما ورد من الأحاديث في الحث على الجليس الصالح ، والشيخ كالميزاب ينزل الفيض من البحر المحيط إلى قلب المريد المرابط ، وإن وجد الفتور في الرابطة يحفظ صورة شيخه في خياله بموجب « المرء مع من أحب » ، فيحفظ الصورة ويتحقق ويتصف بأوصاف الشيخ وأحواله التي له .

وقيل : الفناء في الشيخ مقدمة الفناء في الله تعالى كما ذكرناه ، وإن وجد في إحضار الصورة سكرا أو غيبة يترك الالتفات إلى الصورة ، فيكون متوجها إلى ذلك الحال ، كما نقل في مقامات النقشبندي ﵁ أنه كان واحد من الصوفية مشغولا بطريق الرابطة ، وكان يوما في مجلسه متوجها إلى الصورة فوجد أثر الغيبة وما التفت إليها ، فقال خواجه نقشبند ﵁ : خلني وكن متوجها إلى تلك الغيبة ، لأن زمان الغيبة عما سوى الله تعالى يسمونه زمان الوصول والشهود في اصطلاح القوم .

وإن هذه الرابطة مثل الصحبة كافية للانعكاس والانصباغ ، لأن الرابطة تجعل المريد في حماية ولاية شيخه بأن يكون ذلك المريد محفوظا عن الخلاف في جميع أحواله حتى يكون فانيا في الشيخ بترك اختيار نفسه باقيا مع اختيار شيخه فتنعكس إلى قلبه بواسطة الشيخ الأنوار الإلهية ثم لايزال المريد مع شيخه كذلك حتى يترقى من انعكاس تلك الأنوار بواسطة شيخه فلذلك قال بعض العارفين : أدخل الشيخ في قلبك وأسكنه فيه ولا تخرجه حتى تصير عارفا بسببه لأن المشائخ ينابيع الفيوضات الإلهية فمن أدخل المنبع في بيته فقد نال فيضه .

الطريق الثالثة : الالتزام بما لقنه من الأذكار ، وهو طريق مستقل أيضا للوصول ، وللذكر آداب كثيرة سبق تفصيلها وسيأتي بعضه .

الطريق الرابعة : التوجه والمراقبة ، وقد ذكرنا تفصيلها والحمد لله رب العالمين « جامع الاصول » ١٦٥ .

وقال ابن عطاء الله ﷺ في « الحكم » : وصولك إلى الله تعالى وصولك إلى العلم به ، وإلا فجل ربنا أن يتصل هو بشيء . الوصول إلى الله تعالى الذي يشير إليه أهل هذه الطريقة هو الوصول إلى العلم الحقيقي بالله تعالى ، وهذا هو غاية السالكين ومنتهى سير السائرين ، وأما الوصول المفهوم بين الذوات فهو متعال عنه .

وقال الجنيد رضي الله عنه : متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير له بمن له شبيه ونظير ، هيهات ، هذا ظن عجيب ، إلا بما لطف اللطيف من حيث لا درك ولا وهم ولا إحاطة إلا إشارة اليقين وتحقيق الإيمان .

قال الشيخ أبو حفص عمر ابن محمد بن عبد الله السهروردي قدس سره صاحب كتاب « عوارف المعارف » : واعلم أن الاتصال والمواصلة أشار إليهما الشيوخ ، وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو رتبة في الوصول ، ثم يتفاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال ، وهو رتبة في التجلي فيفنى فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله تعالى ، ويخرج في هذه الحالة عن التدبير والاختيار ، وهذه رتبة في الوصول . ومنهم من يوقف في مقام الهيبة والأنس بما يكاشفه قلبه من مطالعة الجلال والجمال ، وهذا تجل بطريق وهو رتبة في الوصول . اختصارا « حكم » ٣٢ .

فصل

في الخلوة والجلوة والخمول والأربعينيات وشروطها

اعلم أيها المؤمن الصالح أن الله تعالى ألهم لأوليائه أحسن أسبابه لإقامة الدين الحنيفي وما يكون سببا لمعرفته سبحانه وتعالى ، ليحصل بها صفاء قريحتهم من الأوساخ النفسية ولتتطهر النفس الأمارة من الرعونة ليدخل في قلب وقالب من شاء من عباده نور ربوبيته وجوهر صمديته .

وقد ألف الصالحون لأجلها على العزلة والخلوة وروّضوا أنفسهم عليها لكون العزلة والخلوة من أعلى الأسباب لتزكية القلب ، وللخلوة عندهم شروط نذكرها إن شاء الله تعالى ، ولها كيفيات مختلفة شتى على حسب مقتضى أربابها .

واعلم أيها الأعز أن الخلوة أخص من العزلة ، وهي بوجهها وصورتها نوع من الاعتكاف ، ولكن لا في المسجد ، وربما كانت فيه ، وقد يكون عند بعض المشائخ موضعا معدا لذلك ، وذلك مما لا يستحسنه أرباب الطريقة النقشبندية خوفا من الشهرة وستراً للحال .

وأكثرها عند القوم لا حد له ، لكن السنة تشير للأربعين بمواعيد موسى عليه السلام ، والقصد في الحقيقة الثلاثين ، إذ هي أصل المواعدة ، وجاوز عليه الصلاة والسلام بحراء شهرا كما في مسلم ، وكذا اعتزل من نسائه ، وشهر الصوم واحد ، وزيادة القصد ونقصانه كالمريد في سلوكه وأقلها عشرة ، لاعتكافه عليه الصلاة و السلام للعشر ، وهي للكامل زيادة في حاله ولغيره ترقية ، ولا بد من أصل يرجع إليه .

والقصد بها تطهير القلب من أدناس الملابسة وإفراد القلب لذكر واحد وحقيقة واحدة ، ولكنها بلا شيخ مخطرة ، وله فتوح عظيمة ، وقد لا تصح بأقوام ، فليعتبر كل أحد بها حاله ، ولكن لا بد من إذن شيخ الصحبة وأمره حين بلغ إلى مقام الخلوة ووقتها معلوم لشيخه ، وإلا فالخلوة بنفسها خطر

عظيم والله ولي التوفيق ، وبها يكون فراغ القلب إن كانت بمصلحة مرشد كامل للعبادة والمعرفة المطلوبة .

وعلى قاصدها يلزم الزهد وإسقاط الكلف واختيار الأدنى وترويض النفس قبل الدخول على الأخلاق الحسنة والقناعة ، لأن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى .

ومن الشواغل الأحداث سنا أوعقلا ودينا« ١ » ، فلذا نهي عن صحبتهم ، إذ التلون مانع من الراحة ، ولذا أمر بمجانبة الصحبة وإيثار العزلة ، سيما في هذه الأزمنة ، لكن بشرطها لا كما يفعله جهلة المتشيخين ، وهي كفايته عن الخلق وكفايتهم عنه في الضروري دينا ودنيا مع سلامتهم من سوء ظنه وإقامة الشعائر الإسلامية من الواجبات والسنن المؤكدة ، كما قال أبو العباس أحمد ﷺ .

قال القطب الشعراني ﷺ في « لطائف المنن » : وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول : الكامل هو من يُسلك الناس وهم في حرفهم ، لأنه ما ثم سبب مشروع إلا وهو مقرب العبد إلى حضرة الله تعالى ، وإنما يُبعد الناس من الحضرة الإلهية عدم إصلاح ذات بينهم في ذلك الأمر ، سواء العلم والعمل وسائر الحرف المشروعة .

وكان أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : إنما يستلذ بالبطالة وتعطيل السد من فسد حاله وقلّت مروته ، فآثر الدعة والراحة وتحمَّل منن الخلق وانتظرهم أن ينفقوا عليه كالنساء ، ولو كان عند هذا بعض مروة لقدم مرارة السبب والمشقة على حلاوة التلذذ بالمأكل والمشرب والملبس من صدقات الناس . انتهى

وكان يقول : استغناؤكم بالشيء أحسن من ادعائكم الكمال في الطريق وأنتم محتاجون إلى الناس ، فإن الحاجة إلى الناس تنافي ادعاء الكمال .

« ١ » المقصود قليل الدين .

وكان يقول : لا تتركوا الأسباب لما تجدونه من قوة اليقين ، فإن ذلك لا يدوم وربما عاقبكم الله ﷻ بقوله : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ .

فإن قيل : إن غالب مشائخ العصر لا حرفة بيدهم فكيف كمالهم ؟ فالجواب : إنهم لما اشتغلوا بالله ﷻ كل الاشتغال رزقهم من حيث لا يحتسبون ممن لا منة عليهم في الدنيا ولا حساب عليهم في العقبى ، فأين أنت منهم يا بطال ، فكلامنا مع المريدين لا مع العارفين والحمد لله رب العالمين .

ومما عمت به البلوى في هذا العصر أن الدجالين المتشيخين يُسلكون الناس في شرذمتهم وأروا لهم للتلقين طريقة ابتدعوها من أنفسهم لم تعهد من القوم ولم تسمع من أربابها ويجلبون حطام هذه الفانية باسم الدين والطريقة ، ويجلبون الأغنياء خاصة ، ولا يسألون من الحرام والحلال ، ويستحلون ما وقع في أيديهم والناس يبذلون لأجل الثناء والرياء أموالا وعطايا ، ويمتنعون عن آداء حقوق الناس التي يجب آداؤها فرضا ، ويظنون أن ذلك حسن ويحسنون صنعا أولئك هم الأخسرون الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ويحسبونه هينا ، أولئك لا خلاق لهم في الدنيا ولهم فىالآخرة عذاب أليم .

وقال في « لطائف المنن » : كان مبنى طريق الشاذلي والنقشي على الجمع على الله تعالى وعدم التفرقة وملازمة الخلوة والذكر ، وكان لكل مريد سبيل يحمله عليه ، فيسلك كل واحد بالسبيلِ الذي يناسبه ، وكان يأمر أصحابه بالجمع على محبته ، وكان لا يأمر أحداً بترك حرفته أو تجارته ، بل يعرفه الطريق وهو باق على حاله ، وكان يكره كل من ينادي على سر صاحبه بالإفشاء ، وكان يقول عن شيخه : اصحبوني ولا أمنعكم أن تصحبوا غيري ، فإن وجدتم منهلا أعذب من هذا المنهل فرِدوا ، وكان لا يحب المريد الذي لا سبب له .

وكان أبو العباس ﷻ يحث على الحرفة ويقول : عليكم بالسبب ، وليجعل أحدكم مكوكه[1] سبحته أو تحريك أصابعه في الخياطة . انتهى

أخرج أبو الشيخ والضياء المقدسي ﷻ قال عليه الصلاة و السلام : « من أخلص العبادة لله تعالى أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » ، وابن ماجه : « من رابط ليلة في سبيل الله كانت له كألف ليلة صيامها وقيامها »عن عثمان

وقال شيخ شيخنا ﷻ : واعلم أن التوفيق للعزلة دليل سعادة الأبد ، لأن من خلط الناس داراهم ومن داراهم راآهم ، ومن راآهم نافقهم ، ومن نافقهم استحق الدرك الأسفل من النار بنص كتاب العزيز ، وعليك بمحو اسمك من صحائف القلوب وصفائح الألسن ، فإن العرفاء مظاهر بلاء ، والخامل كامل ، وطالب الاسم والرسم ظاهره عامر وباطنه خراب ، وطالب الحق والحقيقة باطنه في الرحمة وظاهره من قبله العذاب .

وقال سيدي أبو المواهب ﷻ : لا تصلح العزلة إلا لمن تفقه في دينه ، وقد كان السلف يشتغلون أولا بالعلم إلى سن الأربعين ، ثم يعتزلون للاستعانة بالعلم على العمل بما علموا .

وقال ﷺ : دليلنا في القول بالخلوة ما صح أنه ﷺ كان يختلي في غار حراء حتى جاءه الوحي ، فدل على أن الخلوة حكم مرتب عليه الوحي وذريعة مجيء الحق وظهور نور الله تعالى .

وقال ﷺ : من شرط الخلوة الطي يعني ترك الأكل أو تقليله ، وله تأثير كبير ، واختار القوم الأربعين لأن الأربعين فيها يكون نتاج النطفة علقة ثم مضغة ثم صورة ، وهي مدة الدر في صدفه وعدد أيام توبة داود ﷺ . « تقريب » ٢٨ .

« ١ » المكوك كرة من المَعدن أو نحوه يُلفّ عليها الخيط تستعمل في الخياطة .

وقال الشيخ عبيد الله أحرار ﷺ في « الشطحات » : لا تقاس هذه السلسلة العلية على كل زمّار ورقّاص ، فإن نسبتهم عالية جدا ، وقد جلس خواجه أوليا من كبار أصحاب خواجه عبد الخالق قدس سرهما الأربعين لأجل مراقبة الخواطر في باب مسجدٍ من مساجد بخارى ، وهذ أمر خارج عن طور العقل ودائرة الإدراك ، وسألوه عن الخلوة في الجلوة ، قال : هي أن تمشي في الأسواق ولا تسمع أصوات أهلها ، وكان لهؤلاء الأكابر أمثال هذه المشغولية والمفاخر ، ولا ينبغي أن يعد هذا الطريق أمرا سهلا .

وقال ﷺ : لا تعتقدوا طريقة خواجكان شيئا سهلا .

وكان خواجه محمد پارسا ﷺ مع كونه في نهاية الكمالات الصورية والمعنوية لا يفارق رسائل خواجكان ﷺ أبدا خصوصا « الرسالة القدسية » منها ، فإنه كان لا يتركها أصلا ، بل كان يطالعها دائما لكونه مما لا بد منه . انتهى

وقال العارف ابن عطاء الله ﷺ في « الحكم » : ادفن وجودك في أرض الخمول ، فما نبت مما لم تدفن لا يتم نتاجه .

لا شيء أضر على المريد من الشهرة وانتشار الصيت لأن ذلك من أعظم حظوظه التي هو مأمور بتركها ومجاهدة النفس فيها ، وقد تسمح نفس المريد بترك ماسوى هذا من الحظوظ ، ومحبة الجاه وإيثار الاشتهار مناقض للعبودية التي هو مطالب بها .

قال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه : ما صدق الله من أحب الشهرة .

وقال بعضهم : طريقتنا هذا لا تصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل .

وقال أيوب السختياني رضي الله عنه : والله ما صدق الله عبد إلا سرّه أن لا يشعر بمكانه .

وقال رجل لبشر بن الحارث رضي الله عنه : أوصني ، فقال : أخمل ذكرك وأطب مطمعك .

وقال بعضهم ﷺ : ما أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح .

وقال أيضا : لا يجد حلاوة الآخرة من أحب أن يعرفه الناس .

وقال الفضيل ﷺ : بلغني أن الله ﷻ يقول في بعض ما يمن به على عبده : « ألم أنعم عليك ، ألم أسترك ، ألم أخمل ذكرك ؟ ! » .

ثم إن تلك الأشياء الراجعة إلى محبة الاشتهار والاستعلاء مما يقدح في إخلاص العبد على اختلاف مراتبه ، لأنه إما بسقوط الناس عن النظر إليهم أو سقوط النفس عن النظر إليها ، ولا يثبت للمريد جميع ذلك إلا بالخمول وسقوط المنزلة عند نفسه وعند الناس ، لأنه إن لم يكن بهذه المثابة لم ينفك عن الأغراض التى تبعثه على استمالة قلوب الخلق ، لما يرى لنفسه عليهم من الحق ، فتدعوه نفسه إلى ذلك دعاء خفيا ، فينصبغ عمله بالرياء انصباغا لا يتفطن له . انتهى

وقال أيضا : فإذا أخمل العبد نفسه وألزمها التواضع والمذلة واستمر على ذلك حتى صار له خلقا وجبلة بحيث لا يجد لصفته ألما ولا لمذلته طمعا ، فحينئذ تتزكى نفسه ويستنير بنور الإخلاص قلبه وينال من ربه أعلى درجات الخصوصية ويحصل على أوفر نصيب من المحبة الحقيقية . اهـ .

وقال شيخ شيخنا ﷺ في « جامعه » ١٥٢ : واعلم أن العزلة والخلوة معروفتان ، وهما مطلوبتان شرعا ، قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم ﷺ : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله : ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ ، وقال الله تعالى : ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾

وقال النبي ﷺ : « خير الناس من يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله ، ثم رجل يعبد الله في شعب من الشعاب ويدع الناس من شره » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أحب الناس إلى الله الفرارون بدينهم يبعثهم الله تعالى مع عيسى ابن مريم يوم القيامة »

وقال أهل الحقيقة : الخلوة صفة أهل الصفوة ، والعزلة من أمارات الوصلة ، ولا بد للمريد من العزلة عن أبناء جنسه في ابتداء حاله ثم في نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه .

والعزلة نوعان : عزلة العوام وهي مفارقة الناس بجسده طالبا لسلامتهم من شره ، لا لسلامته من شرهم ، فإن العزلة على الوجه الأول صفة الأتقياء لأنها نتيجة احتقار النفس واستصغارها ، وعلى الوجه الثاني صفة الشيطان ، لأنها أنفة وعار من خلق الله ، وتَكَبُّرُ إبليس معناه أنا خير منه ، وإلى العزلة الأولى وقعت الإشارة بقوله عليه الصلاة و السلام في الحديث السابقة : « ويدع الناس من شره » .

وقيل لبعض الرهبان : أنت راهب ؟ فقال : لا ، بل أنا حارس كلب عقور عن أذى الخلق وهو نفسي أخرجتها من بين الخلق ليسلموا منها .

ومر رجل ببعض الصالحين فجمع ذلك الصالح ثيابه عن المار فقال له الرجل : لم تجمع ثيابك عني وثيابي ليست بنجسة ؟ فقال الشيخ : وهمت في ظنك ، ثيابي هي النجسة فجمعتها عنك لكيلا تنجسك .

والعزلة الثانية عزلة الخواص ، وهي مفارقة الصفات البشرية إلى الصفات الملكية وإن كانت للناس ومجاوراتهم«١» ، ولهذا قالوا : العارف كائن بائن ، معناه كائن بظاهره مع الناس ، بائن عنهم بباطنه وسرّه .

وقال أبو علي الدقاق ﷺ : البس مع الناس ما يلبسون وكل معهم ما يأكلون ، وانفرد بسرك .

وفي العزلة فوائد : منها السلامة من الغيبة والرياء والنفاق والاشتغال بزينة الدنيا ولهوها ، والأمان من ملل الأصدقاء ، وستر الفاقة عن العدو والشامت والصديق المتوجع ، والتفرغ للنظر في العلم واستنباط الحكمة .

« ١ » أي وإن كانوا بين الناس ويجاورونهم بأجسامهم لكن قلوبهم في عزلة .

ومن أراد العزلة فينبغي أن يحصل قبلها من العلم ما يصحح به عقيدة توحيده لكيلا يهويه الشيطان بوساوسه وما يصحح به فرائض الله عليه ليكون بناء أمره على أصل محكم وأساس قوي .

وينبغي أن تكون عزلته خالية من ذكر كل شيء سوى ذكر ربه ، ومن إرادة كل شيء بعزلته سوى إرادة ربه ، ثم يؤاخذ نفسه في عزلته بتأديبها وتهذيبها بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات والعبادات .

والحاصل أن العزلة الحقيقية عند القوم اعتزال الصفات المذمومة ومفارقتها .

واعلم أنه قد خلط في طريق الخلوة والأربعينية قوم وحرفوا الكلم عن مواضعه ودخل عليهم الشيطان وختم عليهم باب الغرور ، ودخلوا الخلوة من غير أصل مستقيم من تأدية حق الخلوة بالإخلاص ، وسمعوا أن المشائخ والصوفية كانت لهم خلوات وظهرت لهم وقائع وكوشفوا بغرائب وعجائب ، فدخلوا الخلوة لطلب ذلك ، وهذا عين الاعتلال ومحض الضلال ، بل الخلوة والوحدة والعزلة لسلامة الدين وتفقد أحوال النفس وإخلاص العمل لله ، بل قالو : لن يصفو للعاقل فهم الأخير إلا بإحكام ما يجب عليهم من إصلاح الحال الأول .

وأما المواطن التي تجب على السالك فهي أن يكون خاليا من جميع الأذكار إلا ذكر ربه ، وخاليا من جميع المرادات إلا مراد ربه ، وخاليا من مطالب النفس من جميع الأسباب ، فإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه في فتنة أو بلية .

وقال محمد بن حامد ﷺ : خير الدنيا والآخرة في الخلوة والقلة ، وشرهما في الكثرة والاختلاط ، فمن دخل الخلوة معتلا في دخوله دخل عليه الشيطان وسول له أنواع الطغيان وامتلأ من الغرور والمحال ، وظن أنه على أحسن حال ، وقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها ،

وأقبلوا على ذكر من الأذكار واستجمعوا نفوسهم بالعزلة عن الخلق ، ومنعوا الشواغل من الحواس كفعل الرهابين[1] والبراهمة والفلاسفة وجمع لهم تأثير في الصفاء مطلقا .

فما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله أنتج تنوير القلب والزهد في الدنيا وحلاوة الذكر والمعاملة لله بالإخلاص في جميع الفرائض والسنن ، وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة رسول الله ينتج صفاء في النفس يستعان به على اكتساب العلوم الرياضية مما تعتني به الفلاسفة والدهريون ، خذلهم الله تعالى ، وكلما كثر ذلك كثر البعد من الله تعالى ، ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية أو بما قد يتراءى له من صدق الخواطر وغير ذلك حتى يركن إليه كل الركون ، ويظن أنه قد ظفر بالمقصود ، والله يريد الاستقامة وأنت تطلب الكرامة .

وقد يفتح على الصديقين شيء من خوارق العادات وصدق الفراسة وتبيين ما سيحدث في المستقبل ، وقد لا يفتح ولا يقدح في حالهم عدم ذلك ، وإنما يقدح الانحراف عن حد الاستقامة ، فما ينتج من ذلك على الصديقين يصير سببا لمزيد إيقانهم ، والداعي لهم إلى صدق المجاهدة والمعاملة والزهد والأخلاق الحميدة ، وما يفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سببا لمزيد بعده وغروره وحماقته واستطالته على الناس به حتى يخلع ربقة الإسلام من عنقه وينكر الحدود والأحكام ويظن أن المراد من المعاملات ذكر الله تعالى ، ويترك متابعة الرسول ﷺ إلى تلحُّد وتزندق ويلوح بأنواع الخيالات ، ويظن أنه بوقائع المشائخ عارف من غير علم بحقيقة عوارف ومعارف .

واعلم أن من العزيمة أن يختار السالك العزلة ، وهي الوحشة والتفرد عما يشغله عن الله تعالى مما سواه .

ولذا قال عليه الصلاة و السلام : « القناعة راحة والعزلة عبادة » .

« ١ » جمع راهب وهو عابد النصارى .

وقد ذكر شيخ شيخنا في كتابه « جامع الأصول » ما لفظه : واعلم أنه لا يمكن الوصول إلى معرفة الأصول والسعادة إلا بالخلوة ، ولا بد منها للإرشاد التام لفعله عليه الصلاة و السلام ، فإنه حبب إليه الخلوة وكان يخلو بغار حراء فيتحنث أي يتعبّد فيه الليالي ذوات العدد ، حتى جاء الحق وهو في الغار ، وقد أمر بالدعوة إلى الحق لجميع الكفار .

وللخلوة خمسة وعشرون شرطا :

الأول النية مع الإخلاص بقطع مادة الرياء وطلب السمعة بالكلية ، فإن صحة الخلوة مبنية على تلك القضية .

فالواجب على المريد الطالب للحق وإرادته أن يخلص له بقلبه وقالبه في جميع حركاته وسكناته ، وأن يقطع علائقه من الدنيا الفانية ويصحح غرضه ويصدق مع الله في السر والعلانية .

الثاني أن يستأذن الشيخ في دخول الخلوة وأن يجعل التواضع لديه طبعا ، ولا يدخلها بلا إذن الشيخ وحضوره قطعا .

الثالث أن يدخل الشيخ الخلوة ويصلي فيها ركعتين قبل دخول المريد ويتوجه إلى الله تعالى بتسهيل الأمر عليه وأن يجعله فيها سعيدا .

الرابع أن يدخلها كما يدخل المسجد ، مقدما رجله اليمنى مبسملا متعوّذا من شر النفس والشّيطان بالله اللطيف ، مخلصا لربّه ومولاه منقطعا عمّا سواه .

الخامس أن لا يعلق همته بكرامة تحصل له ، فجميع المرشدين نفروا عن الميل إلى الكرامات جميع المريدين .

قال ابن عطاء الله ﷺ : ما أرادت همّة سالك أن تقف عند ما كشف لها إلا نادته هواتف الحقيقة : الذي تطلب أمامك ، ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا نادته حقائقها : إنما نحن فتنة فلا تكفر .

السادس أن تكون الخلوة مظلمة لا يدخلها شعاع الشمس ولا ضوء النهار ، فيسد على نفسه طرق الحواس الظاهرة ، فَسَدُّ طرقها شرط لفتح خلاص القلب من الأغيار ، ويلازم الوضوء فإنه إذا داوم عليه أوشك ان تلألأ منه الأنوار الإلهية وتظهر عليه أتم الظهور لقوله عليه الصلاة و السلام : « الوضوء نور » .

السابع أن لا يستند إلى جدار الخلوة ولا يتكئ علي شيء ولو مبنيا ملاحظا قوله تعالى : « أنا جليس من ذكرني » ، ثم يلازم خيال شيخه بين عينيه فإنه رفيقه في طريقته وهو معه بمعناه وبروحانيته .

الثامن أن تشغل قلبك بمعنى الذكر مراعيا معنى الإحسان الذي له هيأك وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

التاسع الصوم فإنه يصفي القالب من الرطوبات الحسية فيصفوا القلب من الكدورات البشرية .

العاشر أن يعتقد في نفسه أنه إنما يدخل الخلوة لكي يستريح الناس من شره .

الحادي عشر أن يكون السالك في خلوته متيقظا لأعدائه الأربعة : الشيطان والهوى والدنيا ونفسه ، وأن يكون تاركا لغفلته .

فكلما يتجلى له في الخلوة من الصور فيقول له : أنا الله ، أو يقول له : أن الشيء الفلاني هو الله ، فليقل : سبحان الله الذي ليس كمثله شيء آمنت بالله ، وليذكر جميع ما يراه ويخطرله شيخه ، ويشتغل بالذكر حتى يتجلى له مذكوره ، فإذا أفناه عن الذكر به أو أنامه فتلك المشاهدة أو النومة ، وسبيل التفرقة أن المشاهدة تترك في المحل شاهدها فتقع اليقظة واللذة عقبها ، وأما النومة فلا تترك شيئا فيقع عقبها الندم والاستغفار .

الثاني عشر أن لا يتكلم مع أحد في الخلوة أو خارجها إلا مع شيخه لغرض واقعة ضرورة البيان أو الخادم الذي أقامه الشيخ للفقراء فيكلمه بقدر حاجته ، أو إذا تعين الكلام عليه شرعا كخوف سقوط الأعمى .

الثالث عشر أن تكون الخلوة بعيدة عن حس الأصوات ، فإن القلب الرقيق يؤثرفيه الخطرات المذمومة ولو يسيرا وأثر القليل عليه كثير .

الرابع عشر إذا خرج إلى الصلاة أو الوضوء فليغط رأسه ورقبته بشيء مطرقا إلى الأرض غير ناظر إلى أحد .

الخامس عشر المحافظة على صلاة الجمعة والجماعة ، فتركها خطأ وغلط . فإن وجد تفرقة في خروجه فليكن له رفيق يصلي معه في خلوته ، وإلا فليحضر مع الجماعة بحيث يدرك مع الإمام تكبيرة الإحرام ، فإذا سلم الإمام انصرف إلى خلوته .

السادس عشر نفي الخواطر مطلقا ولا يشتغل بالتمييز بين الخاطر الإلهي والملكي والشيطاني والنفسي ، إذ التمييز بينها ومعرفة أقسامها لا يكون إلا بتحصيل أنواع الأنوار .

والمبتدئ لم يسلم له هذا المقام فينبغي أن ينفي الجميع لئلا يضيع أوقات حضوره مع الحق تعالى ، ولا يجوز للذاكر في مذهب أهل الذكر والخلوة أن يتفكر في معنى آية أو الحديث أو غيرها إلا إذا ورد عليه معنى من المعاني في أثناء الذكر من التنبيهات الإلهية والواردات الحقيقية من غير تدنيس لأفكار البشرية فيفهمها ويرجع إلى الحضور فإن خاف النسيان فليكتبها سريعا .

السابع عشر أن لا ينام إلا عن غلبة ، فإذا نام نام بالطهارة ، فإذا لزم المجاهدة وترك الاستراحة صار ذلك دأب الأركان الأربعة المائية والترابية والهوائية والنارية ، فيكشف له عن القلب الحجب البشرية ، فحينئذ ينظر إلى عالم الملكوت بعين قلبه فيشتاق إلى مشاهدة ربه .

الثامن عشر الملازمة لأوسط الأمور في جميع الأحوال حتى ينال رتبة الكاملين من الرجال ، فيكون بين جوع وشبع في الطعام ، وقال بعض المتأخرين : ينبغي أن يكون طعام الخلوة دسما من غير حيوان وما خرج من الأنعام .

التاسع عشر إذا كان في خلوته لا يفتحها لمجيئ الناس للتبرك والزيارة إليه ، ولينظر إلى حال الرسول في ابتداء أمره وإرادة تكميل جمعيته على الله تعالى كيف كان يتحنث في غار حراء بمكة ولا يستصحب أحدا ﷺ .

العشرون ملازمة الذكر في لطيفة القلب ثم في لطيفة الروح ثم في لطيفة السر ثم في لطيفة الخفاء ثم في لطيفة الأخفى ثم في لطيفة النفس ثم في لطيفة الجسد ثم في النفي والإثبات المرتفع إلى الدماغ ثم في النفي والإثبات الذي كالمنشار يخرج من لطيفة القلب يمرّ على اللطائف المعارضة إلى لطيفة الروح بـ (لا) و(إله) تضرب إلى لطيفة الروح والا تمر على اللطائف بالرجوع ولفظة الجلالة تضرب لطيفة القلب ، وذلك بغير حبس النفس فيكون الذكر بـ (لا إله إلا الله) كالمنشار وكيفية ذلك وما بعده في « الدر المسبوك في انتهاء غاية السلوك » .

الحادي والعشرون إذا شاهد شيئا في الواقعة إما في النوم أو اليقظة أو في الفهوانية وهي ما بين النوم واليقظة لا يستحسن ذلك ولا يستقبحه ولا يزيد عليه ولا ينقصه ، بل يعرض جميع ذلك على شيخه ولا يطلب منه تأويله ، فربما لا يرى الشيخ المصلحة في التأويل ، ولا يكتم واقعته عن شيخه فإن الكتمان خيانة والله لا يحب الخائنين ، ولا يعرف تأويل واقعة الذكر إلا الذاكرون .

الثاني والعشرون دوام تخييل صورة شيخه وهو الرابطة بينه وبين خالقه ، فيجعل قلبه مربوطا به لأن ذلك يجره إلى مراقبة ربه .

والمراد من ربط قلب المريد بشيخه واستحضار روحانيته معه إنما هو لدفع وسوسة الشيطان وترك الإثم والعدوان ، فإنه إذا هم بمعصية يتمثل له

الشيخ فينزجر عن فعلها إن كان ربطه كاملا على محبته دائما ، كما أخبر الحق تعالى عن يوسف عليه السلام بقوله : ﴿ **وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ** ﴾ ، وهو أنه مثّل له أبوه يعقوب عليه السلام عاضا على أنملته .

الثالث والعشرون دوام التوبة بالاستغفار عن الكبائر والصغائر وهفوات الخواطر في كل يوم سبعين مرة .

الرابع والعشرون أن لا يعين مدة للخلوة وقت دخوله كأربعين وعشرين وسبع وثلاث من الأيام ، ولا يحدث نفسه بذلك ، فإن خطر له هذا الخاطر خرج من يوم دخوله ، بل يحدّثها أن الخلوة قبرها لا يخرجها منها إلى يوم النشور وإخراج الناس من القبور ، فيكون الأمر لشيخه متى أراد أخرجه .

الخامس والعشرون أن يرى الاستمداد الحاصل له إنما هو من شيخه ، واستمداد شيخه من النبي ﷺ ، فهو نائب عنه والنبي ﷺ نائب عن ربه عزّ وجل .

فلو أن رجلا جمع العلوم وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضات عند شيخ مرشد كامل وإمام ناصح مؤدب بالشرع عالم بالفنون ، فما حرم من حرم الوصول إلا بتضييع الأصول وترك الاقتداء بالدليل والعدول في هوى نفسه عن سواء السبيل .

فالمطلوب من العاقل العمل بما أمر به أفضل البشر ﷺ ودوام ترك الاعتراض على كل ما يرد عليك من الله تعالى من خير أو شر ، والإيمان بأن الخير والشر من الله تعالى بالقدر وأن جميع الكائنات بمراد الله تعالى ، لا يكون إلا ما يريد . وهو يقتضي التفويض والتسليم لله تعالى فيما عليك قدر ، واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تزجر . انتهى « جامع الأصول » في ٢٤٧

وقال أيضا قدس سره : واعلم أن السير والسلوك في أربعين يوما يشتغل فيها المريد بالخلوة مع الإخلاص التام بما يلقنه المرشد من أسمائه تعالى لقوله عليه الصلاة والسلام : « من أخلص لله أربعين صباحا تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » .

وأحسنه أن يكون ابتداؤه في ليلة النصف من شعبان ويكون خروجه في آخر ليلة عيد رمضان ، فإذا أراد الدخول فليغسل ثيابه وخلوته وبدنه وينوي بالغسل التوبة من جميع الكبائر والصغائر وهفوات الخواطر .

وإذا كان عليه حق لأحد يدفعه له ، أو اغتابه يطلب منه السماح والرضا ممن له خلطة معه ، وليكن جلوسه في الخلوة مستقبلا للقبلة على الوضوء في جميع أوقاته ، وذلك بعد إتقانه لعلم الحال الذي لا بد له من معرفته في الفروض الخمسة من علم لا إله إلا الله وصومه وصلاته وحجه وزكاته .

وقد أمر الحق بذلك كله في كتابه : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ، فعلمها أن تعلم بالمستحيل والجائز والواجب من صفاته . انتهى في ١٤٤ .

وعن سفيان الثوري رحمه الله أنه قال : سمعت الصادق جعفر بن محمد رضي الله عنهما يقول : عزت السلامة حتى خفي مطلبها ، فإن تكن في شيء فيوشك أن تكون في الخمول ، فإن لم توجد في الخمول فيوشك أن تكون في التخلي وليس كالخمول ، وإن لم تكن في التخلي فيوشك أن تكون في الصمت وليس كالتخلي ، فإن لم توجد في الصمت فيوشك أن تكون في كلام السلف الصالح ، والسعيد من وجد نفسه في خلوة والله الموفق . « كشكول » ١١٣ .

أودع تاجر من تجار نيسابور جاريته عند الشيخ أبي عثمان الحيري رحمه الله ، فوقع نظر الشيخ عليها يوما فعشقها وشغف بها فكتب إلى شيخه أبي حفص الحداد رحمه الله بالحال ، فأجابه بالأمر بالسفر إلى الري إلى صحبة الشيخ يوسف رحمه الله ، فلما وصل إلى الري وسأل الناس عن منزل الشيخ يوسف رحمه الله أكثر الناس في ملامته وقالوا : كيف يسأل تقي مثلك عن بيت شقي فاسق ؟ ! فرجع إلى نسيابور وقص على شيخه القصة فأمره بالعود إلى الري وملاقاة الشيخ يوسف المذكور رحمه الله ، فسافر مرة ثانية إلى الري وسأل عن منزل الشيخ يوسف ولم يبال بذم الناس له وازدرائهم به فقيل له إنه في محلة الخمارة ، فأتى إليه وسلم عليه فرد عليه السلام وعظمه وكان إلى جانبه صبي بارع الجمال وإلى جانبه الآخر زجاجة مملوة من شيء كأنه الخمر بعينه ، فقال له الشيخ أبو عثمان رحمه الله : ما هذا

المنزل في هذه المحلة ؟ فقال : إن ظالما شري بيوت أصحابنا وصيرها خمارة ولم يحتج إلى شراء داري ، فقال له : ما هذا الغلام وما هذا الخمر ؟ فقال : أما الغلام فولدي من صلبي ، وأما الزجاجة فخل ، فقال : ولم توقع نفسك في مقام التهمة بين الناس ؟ فقال : لئلا يعتقدوا أنني ثقة أمين ويستودعوني جواريهم فابتلي بحبهن ، فبكى أبو عثمان بكاء شديدا وعلم قصد شيخه ، فهكذا أحوال أهل الله تعالى نفعنا الله تعالى بهم . انتهى « كشكول » ٦٥ .

وقال العارف بالله السيد أحمد بن إدريس ﵁ في مدح التخلي عن الناس : قال الله سبحانه وتعالى : ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ في مريم عليها السلام ، وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ، فنتيجة الوهب تحصل من مقدمة العزلة . « عقد » ٥٧ .

وقال ابن عطاء الله ﵁ في « حكمه » : الخلوة والعزلة من أوجب الواجبات على المريد ، فإن نفسه إذ ذاك تكون ساكنة هادئة قد نسيت عوائدها وفترت دواعيها ، وبمداومته على ذلك يحصل له من التزكية والتحلية والاستقامة والطمأنينة ما هو المقصود بالرياضة والمجاهدة ، فإن اعتراه شيء مما ذكرناه اختل عليه حاله واحتاج من أجل ذلك إلى المجاهدة الشاقة والرياضة الصعبة ، وأنى له مع ذلك تلافي ما فاته وقد قالوا : وقفة المريد شر من فترته .

قال الإمام أبو االقاسم القشيري ﵁ : والفرق بين الوقفة والفترة أن الفترة رجوع عن الإرادة وخروج منها ، والوقفة خروج عن السير باستيلاء حالات الكسل ، وكل مريد وقف في ابتداء إرادته لا يجيء منه شيء . انتهى كلامه ﵀ .

فبدايات الأمور هي التي يجب أن يراعيها المريد ، والله ولي التوفيق والتسديد ، ولا غنى للمريد في هذا القسم عن تحصيل ما يحتاج إليه من العلوم الشرعية على ما ينبغي ، وعمل الباطن يرجع حاصله إلى أمر واحد وهو إخلاص التوحيد لله ﷻ باعتقاد العبودية له ، وذلك بأن يحمل نفسه على الاستسلام لأحكام الله تعالى وترك المنازعة والتدبير والاختيار بين يديه .

وهذا المعنى هو الذي ضمنه المؤلف رحمه الله تعالى كتابه « التنوير في إسقاط التدبير » ، فليستعن المريد على ذلك به ولا يقصد برياضته ومجاهدته الوصول إلى شيء من الكرامات وخرق العوائد وأنواع الإجابات ، فإن ذلك فتنة وبلية قاطعة عليه طريق العبودية .

قال أبو عثمان المغربي ﷺ : من اختار الخلوة على الصحبة ينبغي أن يكون خاليا عن جميع الأذكار إلا ذكر ربه وخاليا من جميع الإرادات إلا رضا ربه ، وخاليا من مطالبة النفس من جميع الأسباب ، وإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه في فتنة أو بلية .

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي ﷺ : من عمل ليجد أو يرى لم يفتح له بشيء حتى يكون قصده تحقيق العبودية والقيام بما يجب عليه من حقوق الربوبية .

قال صاحب كتاب « عوارف المعارف » : من دخل الخلوة معتلا في دخوله دخل عليه الشيطان وسول له أنواع الطغيان وامتلأ من الغرور والمحال وظن أنه حصل على حسن الحال ، قال : وقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها وأقبلوا على ذكر من الأذكار واستجمعوا نفوسهم بالعزلة عن الخلق ومنعوا الشواغل من الحواس كفعل الرهابين والبراهمة والفلاسفة .

والوحدة في جمع الهم لها تأثير في صفاء الباطن مطلقا ، فكل ما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله ﷺ أنتج تنوير القلب والزهد في الدنيا وحلاوة الذكر والمعاملة لله بالإخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك ، وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة رسول الله ﷺ ينتج صفاء في النفس يستعان به على اكتساب علوم رياضته مما يعتني به الفلاسفة والدهريون .

وكلما أكثر من ذلك كثر البعد عن الله تعالى ، ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية أو بما قد يتراءى له من صدق الخاطر وغير ذلك حتى يركن إليه كل الركون ، ويظن أنه قد فاز بالمقصود من الخلوة ، ولا يعلم أن هذا الظن من الفائدة غير ممنوع من النصارى والبراهمة وليست هي المقصودة من الخلوة لقول بعضهم : الحق يطلب منك الاستقامة وأنت تطالبه بالكرامة « الحكم » ٦٤ ، وراجع « سلك العين » ٢٢٤ .

فصل

في بيان أحوال المتوجهين إلى الله سبحانه وتعالى من الرجال والأقطاب

اعلم أيها الأخ المسعود جعلك الله تعالى وإيانا من أصحاب الميمنة أن أحوال أولياء الله تعالى مختلفة باختلاف مقاماتهم واعتقاداتهم ، ففتح كل أحد ونوره على حسب فتح متبوعه ونوره وكمالة المتبوع يظهر من التابع ، فمن أخذ علم حاله عن أقوال العلماء مجردة كان فتحه ونوره منهم ، فإن أخذه عن نصوص الكتاب والسنة ففتحه ونوره تام ، ولكن فاته نور الاقتداء وفتحه ، ولذلك تحفظ الأئمة عليه حتى قال ابن المديني رحمه الله تعالى : كان ابن مهدي يذهب لقول مالك ، ومالك يذهب لقول سليمان بن يسار ، وسليمان يذهب لقول عمر بن الخطاب ، فمذهب مالك إذن مذهب عمر ﷺ .

وقال الجنيد رحمه الله تعالى : من لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء و يأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد من اتبعه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ ، وقال عز من قائل : ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فافهم كذا قاله أبو العباس أحمد زروق رحمه الله تعالى .

وأرباب القلوب من السادات القادات تكلموا في أحوالهم بما لا يكاد يفهم منه شيئا إلا ما يسوء ظنه لقصور فهمه وذوقه عن فهم الأسرار اللدنية والآثار الربانية .

وأما من كان من أهل العلم الباطن فيشرح صدره ويستفيد من رموزاتهم أمورا عجيبة وتتنوع الفرع بتنوع أصله ، وقد تقدم أن أصل التصوف مقام الإحسان ، وهو متنوع إلى نوعين : أحدهما بدل من الآخر هما : أن تعبد الله كأنك تراه وإلا فإنه يراك ، فالأول رتبة العارف والثاني رتبة من دونه ، وعلى الأول يحوم الشاذلية ومن نحا نحوهم وعلى الثاني يحوم الغزالي رحمه الله ومن نحا

نحوه ، والأول أقرب لأن غرس شجرتها مشير لقصد ثمرتها ، ومبناها على الأصول التي يحصل لكل مؤمن وجودها ، فالطباع مساعدة عليها والشريعة قائمة فيها ، إذ مطلوبها تقوية اليقين وتحقيقه بأعمال المتقين فافهم .

وقال أبو العباس أحمد رحمه الله تعالى : في اختلاف المسالك راحة للسالك وإعانة له على ما أراد من بلوغ الأرب والتوصل بالمراد ، فلذلك اختلف طرق القوم ووجوه سلوكهم ، فمن ناسك يؤثر الفضائل بكل حال ، ومن عابد يتمسك بصحيح الأعمال ، ومن زاهد يفر من الخلائق ، ومن عارف يتعلق بالحقائق ، ومن ورع يحقق المقام بالاحتياط ومن متمسك يتعلق بالقوم في كل مناط ، ومن مريد يقوم بمعاملة البساط ، والكل في دائرة الحق بإقامة حق الشريعة والفرار من كل ذميمة وشنيعة .

وقال في « القواعد » : لا حكم إلا للشرع ، فلا تحاكم إلا له . قال الله تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ ، وقد أوجب وحرّم وندب وكره وأباح ، وبيّن العلماء ما جاء عنه كل بوجهه ودليله ، فلزم الرجوع لأصولهم في ذلك من غير تعدٍّ للحق ولا خروج عن الصدق .

فمن أخذ بالأولين اطرح حيث يتفق إجماعا ، وحيث يختلف اعتبر إمامه في حكمه ، فلا ينكر عليه إلا ما اتفق عليه بمذهبه إن تكرر بغير ضرورة ، وإلا فالضرورة لها أحكام وما بعد الواجب والمحرم ليس على أحد فيه سبيل إن أثبت حكمه على وجهه ولم يتعلق بغير تركه ولم يخرج به الأمر لحد التهاون أو شهد أحواله بالإرزاء على ذلك ورقة الديانة به ، فربّ طاعم شاكر خير من صائم صابر ، ومن ثم أجمع القوم على أنهم لا يوقظون نائما ولا يصيمون مفطرا ومن وجه دخول الرياء والتكلف ولأن العناية بإقامة الفرائض هي الأصل لا غير ، وكل السنة تشهد لذلك والله أعلم .

وقال رضي الله عنه أيضا : طلب التحقيق بالصدق يقضي بالاسترسال مع الحركات في عموم الأوقات دون مبالاة بغير الموجب والمحرم . فمن ثم وقع الغلط

لكثير من المتصوفة في الأعمال ، ولكثير من الناس في الإنكار عليهم خلاف الأولى بهم« ١ » ، فوجب الحفظ من الصوفي على إقامة رسم الطريقة بترك ما يريب ونفي ما يعيب وإن كان مباحا ، لأن دخوله فيه إدخال للطعن على طريقه فافهم .

النظر لعرف الحقيقة مخل بوجه الطريقة ، فمن ثم وقع القوم في الطامات وتكلموا بالشطحات حتى كفر من كفر وفسق من فسق بواضح الشريعة ولسان العلم ظاهرا وباطنا ، فلزم التحفظ في القبول بأن لا يؤخذ إلا عن الكتاب والسنة ، وفي الإلقاء لا يلقي إلا بالوجه الشائع فيهما من غير منازع ، وإلا فلا عتب على منكر استند لأصل صحيح .

وقد قال أبو سليمان الداراني ﵁ : إنها لتقع النكتة من كلام القوم في قلبي أياما فأقول لا أقبلك إلا بشاهدي عدل : الكتاب والسنة ، لما أن كل صوفي أهمل أحواله من النظر لمعاملة الحق كما مر فيها وصرف وجهه لنحو الحق دون نظرلسنته في عباده ، فلا بد له من غلط في أعماله أو شطح في أحواله أو وقوع طامة في أقواله ، فإما هلك أو أهلك أو كانا معا جاريين عليه ، ولا يتم له ذلك ما لم يصحب متمكنا أو فقيها أو مريدا عالما صديقا صادقا يجعله مرآة له ، إن غلط رده وإن أدهى دفعه وإن تحقق أرشده ، فهو ينصفه في حاله وينصحه في جميع أحواله ، إذ لا يتهمه ولا يهمله فافهم وفقك الله تعالي لمرضاته آمين .

وقال شيخ مشائخنا شاه غلام علي الدهلوي ﷿ : **حب الدنيا رأس كل خطيئة ، ورأس كل خطيئة كفر ، فينتج من هاتين المقدمتين أن حب الدنيا كفر .**

وقال : إن علامة زوال العين أن لا يقدر السالك على أن يقول أنا ، كما قال الخواجه عبيد الله أحرار ﷿ : ما أيسر أن يقول أنا الحق وما أعسر إزالة أنا وما أشكلها ، فالمراد أن أصعب الأمور في هذه النسبة العلية تزكية النفس عن شائبة الأنانية وعن وجوده .

« ١ » أي وقع كثير من الناس في الإنكار عليهم وذلك خلاف الأولى بهم وهو ترك الإنكار .

وقال خواجه عبيد الله أحرار ﷿ : قال حضرة مولانا يوما : إن من طريقة أكابر خواجكان قدس الله أرواحهم المقررة عندهم ما إذا حضر عندهم شخص ينظرون ماذا يقع في خاطرهم بعد حضوره ، فما لاح في خاطرهم يحكمون بأنه وصف هذا الشخص ونعته ظهر فيهم بطريق الانعكاس ، فإن مرايا قلوبهم لما كانت مصفاة عن نقوش الغير والسوى بسبب كمال صفائها لا ينسب إليهم ما ظهر فيها ، فإن كان الظاهر فيهم ما يتعلق بالإيمان والإسلام من الصلاة والصوم وتحصيل العلوم الدينية يقولون ظهر نسبة الإسلام ونسبة الديانة ونسبة العلم . وإن ظهرت المحبة والعشق يقولون : ظهرت نسبة الجذبة ، انتهى ذكره في « الرشحات » .

وقد كتب العارف بالله الشيخ أبو سعيد ﷿ إلى بعض خواصه مكتوبا نقلا من رسالة مولانا الشيخ عبد الغني ابن الشيخ أبو سعيد قدس سرهما ما لفظه : وبعد الحمد والصلاة فليعلم أن المقامات والاصطلاحات التي قررها الإمام الرباني المجدد الألف الثاني ﷿ تظهر في كل درجة ، منها كيفيات وأنوار وحالات وأسرار ، واختيار الطريقة بدون تلك الأشياء عبث ، فلم يضيعون العمر ، فإن لم تكن المقامات العشرة من مقام إلى مقام الرضا حاصلة في باطن السالك ولازمة فيه فما الفائدة من هذه الطريقة ، وفقنا الله تعالى للقيام على آداب أرباب القلوب آمين .

وقال الشيخ الأكبر ﷿ في الباب الثاني عشر وثلاثمائة : اعلم أن الحق تعالى إذا أراد أن يوحي إلى قلب ولي من أوليائه بأمر مّا تجلى الحق إلى قلب ذلك الولي برفع الحجب ، فيفهم الولي من ذلك التجلي ما يريد الحق أن يعلم ذلك الولي به ، فيجد الولي في نفسه علم ما لم يكن يعلم كما وجد النبي ﷺ العلم بالضربة بين ثدييه وفي شربه اللبن ، ومن الأولياء من يشعر بذلك ومنهم من لا يشعر به بل يقول وجدت في خاطري كذا وكذا ولا يعرف من أتاه به ، ولكن من عرف فهو أتم . « كبريت أحمر » ١٣٠«١» .

« ١ » أكثر الطريان تدبير على المتوجهين « تنوير » ٣٧ .

وإظهار الكرامة وإخفاؤها على حسب النظر لأصلها وفرعها ، فمن عبر من بساط إحسانه أصمتته الإساءة مع ربه ، ومن عبر من بساط إحسان الله لم يصمت إذا أساء .

وقد صح إظهار الكرامة من قوم وثبت العمل في إخفائها عن قوم كالشيخ أبي العباس في الإظهار وابن أبي جمرة في الإخفاء رضي الله عنهم ، حتى قال بعض تلامذة ابن أبي جمرة قدس سره طريقهما مختلف ، فبلغ ذلك شيخه فقال : والله ما اختلف قط طريقنا ولكنه بسطه العلم وأنا قبضني الورع ، وهذا فصل الخطاب في بابه والله أعلم . قاله أبو العباس قدس سره .

وقال سيدي أحمد بن زيني دحلان عن علي بن وفا رضي الله عنه : العارفون يظهرون مواجيدهم للناظرين في مرايا الأدلة المقبولة عندهم والنظار يأخذون مواجيدهم من تلك الأدلة المقبولة . وقال منه أيضا رضي الله عنه من استضعف لإيمانه فعاقبته التمكن وعلو الشأن ، ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ .

وقال أيضا في معنى قول العارفين « إن للربوبية سرا لو ظهر لعطل نور الشريعة » : المراد به الفناء وإعطاء سر التكوين ، وإن العبد يفعل ما يشاء يعني لو أعطي العبد ذلك لتعطلت أفعال الشريعة كلها وبطل القول بالكسب واختل النظام ، وقال في معنى قول بعضهم : يصل الولي إلى حد يسقط عنه التكليف ، المراد به : سقوط كلفة الأعمال ومشقّتها من باب « **أرحنا بها يا بلال** » .

وقال في قول سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه : وكُلُّ بَلا أَيّوب بَعْضُ بَلِيَّتي : إن بلاء أيوب عليه السلام كان في الجسد دون الروح وبلاء العارف فيهما جميعا .

وقال سلطان المعنوي« ١ » أبو إسحق صدر الدين قنوي قدس سره بالأمر المهم بالإيضاح والتحقيق : إن الإنسان إن عمل فعلا أو عمل حسنا وكان ذلك الفعل مائلا إلى ما سوى الله تعالى بل لقصد آخر أيّ قصد كان ، فذلك عمل لأجل

« ١ » لعله المعاني .

مقتضيات نفسه وليس من العبودية لله تعالى ، بل هو ساقط عند الله تعالى من الاعتبار ، وإن كان عمله الحسن لله تعالى مجرداً بلا قصد ما في فعله بل يعمل بنية خير في العمل أو مفتضيا بالمأمور أو منتهيا عن المنهي فقط ، فذلك هو الرجل مصاحب الخير ، وإن كان الإنسان يعمل بالعمل الصالح لأجل رضاء الله تعالى وابتغاء مرضاته وليس له من عمله شيء ما من النية والقصد سوى مجرد وجه الله تعالى فذلك هو الرجل التام ، وإن كان الإنسان يعمل ويعلم أن جميع أعماله على مقتضى شهوده تعالى ويجتهد في تقربه إلى الله تعالى بالنوافل على حسب حديث رسول الله ﷺ : « لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته . . » إلى آخره ، فذلك هو الرجل التام الكامل ، وإذا كان الإنسان يعمل العمل الصالح بضم عمله للشهود والحضور ، وكان شهوده حينئذ بعين الحق بلا رؤية حظ نفسه ، بل برؤية جميع أفعاله وأحواله لله تعالى بإضافته له تعالى وبمشاهدة جميع حركاته وسكناته لله بالله ، فهو عبد مخلص وعمله خالص ، وإن كان الإنسان على طبق مضمون الحديث السابق « كنت سمعه وبصره » وكينونته بالشهود ، بكون جميع مراتبه ونسبته وسريان شهوده وثباته على سعة رحمته وإحاطة علمه ومتصفا بقبول أوصافه ومنسلخا عن أحوال نفسه مستغرقا في ربه بتمام الفناء ثم بكمال البقاء برفع الحجاب من قلبه وفتح بصيرته مديما ثابتا على ذلك فذلك هوالرجل اللائق للعبودية والخلافة وكامل في الإحاطة والإطلاق وماهر في جميع ما ينتسب إليه الخ وينبغي أن يكون مكملا ومقبولا لإرشاد الخلق إلى طريق الحق الخ .

فصل

في بيان الروح ومعنى الروحاني والجسماني وما يتعلقه من البرزخ

قال بعض الأعزة الذي كان له رجوع دائم إلى ملازمة مولانا الجامي ﷳ : كنت يوما في مجلس وعظ خواجه شمس الدين محمد الكوسوي ﷳ فقال في رأس المنبر : قد أشكل عليّ مدة مديدة ما يقوله أهل الشرع من أن ضغطة القبر بالنسبة إلى جميع الناس من المؤمنين والكافرين حق ، وقال : إنها تكون على وجه ينقلب الجانب الأيمن على الأيسر والأيسر على الأيمن ، فإنه لا تردد في كون تلك الصورة تعذيبا محضا فكيف يتصور ذلك في حق الأنبياء والأولياء ، بل في حق صلحاء المؤمنين ، ثم خطر في قلبي أن الغرض من انقلاب الأيمن على الأيسر وعكسه هو جعل الروحاني جسمانيا والجسماني روحانيا ، ولما كان توجيه الخواجه إجماليا سألت يوما مولانا الجامي ﷳ عن معنى هذا الكلام ؟ فقال : إن الصوفية قدس الله أرواحهم يقولون للبرزخ قبر ، والبرزخ عبارة عن مرتبة تكون واسطة بين العالم الجسماني والروحاني ، ومعنى جعل الروحاني جسمانيا هو أن يجعل الروح مصورة بصورة مثالية ، يعني تظهر لها صورة مقدارية يمكن أن تكون عبارة عن كم وكيف ، ومعنى جعل الجسماني روحانيا ليس المراد بالجسم هنا البدن الكائن في حيطة القبر ، فإن الروح المجردة قد تركته بالكلية ، بل المراد منه أن طائر الروح الذي كان له تعلق لهذا الجسم الكثيف وقيل له من حيثية ذلك التعلق جسمانيا مجازا يظهر له بعد مفارقته من هذا الجسم تعلق آخر في هواء الانقطاع في غاية اللطافة ، ويقال له من حيثية ذلك التعلق روحانيا ، ووجه آخر لهذا الكلام أن الصفات الروحانية مخفية ومستترة في هذا العالم تحت حجاب الصفات الجسمانية ظاهرة وغالبة ، فكل فرد من أفراد الإنسان في هذا العالم أعني عالم الكون والفساد ظاهرة فيه الصفات الإنسانية والصفات السبعية والشهوية مخفية .

وقد قيل : إن جميع المعاني يكون مصورا في العالم الروحاني على وجه يظهر الشخص الذي كانت صفة من الصفات السبعية مبطنة فيه في صورة ذلك السبع ،

فحينئذ يكون الروحاني الذي هو صفة معنوية مستترة جسمانيا البتة ، والجسماني الذي هو صفة ظاهرة الآن روحانيا ، يعني مخفيا ومستترا ، فلا يلزم التعذيب على هذين الوجهين ، ذكره فى « الرشحات » .

وقال أكابر السادات كحجة الإسلام والشيخ الأكبر والشيخ أحمد السهروردي وأمثالهم ﷺ : **إن روح الإنسان هو المسمى بالنفس الناطقة** ، واتفقوا على أنه من عالم الأمر ، أمر رباني وسر رحماني الذي ليس له مادة ، بل هو جوهر حصل بواسطة لفظ كن ، وليس له جسم ليكون له حلول في مكان ولا عرض ليقبل القسمة أو يحل في القلب أو الدماغ ، بل هو جوهر قائم بنفسه ويعلم نفسه وخلقه ويدرك المعقولات ، وفي العرض ليست هذه الصفات ، ولا يتصف بالكلية والجزئية ، وأن كونه متصلا للنفس أو منفصلا عنها أو داخلا فيها أو خارجا أو مختص لجهة أو له حلول أو له جهات مما لا يتعقل ، بل جميع هذه الصفات عارضة للجسم ولازمة له ، والنفس الناطقة معراة ومبراة من هذه الأوصاف ، ومع ذلك إنه حادث لا قديم ومن قال به كفر ، لكن ليس له الفناء ولا يجري عليه الموت بل يكون في إحدى الدارين ، والقرآن العظيم يشهد ببقائه قال تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ ، ومعلوم أن ليس للميت فرح وحزن ورزق وأمثالها ، بل المذكورات من شأن الموجود الحي كما قال عليه الصلاة و السلام : « أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في رياض الجنة »[١] ، وذلك مقرر وثابت لدى أهل الإسلام ، وأن الدعاء بالمغفرة إنما هو للحي الموجود لا للميت المعدوم ، كما ذهب على خلافه جهلة القوم .

فالحاصل أن النفس الناطقة ليست منطبعة في البدن لتفنى ويقدم بموت البدن ، بل المعدوم الفاني بالموت هو الروح الحيواني ، وهو عبارة عن بخار اللطيفة المتكونة في القلب ، وهذا البخار يتصاعد إلى الدماغ وسائر الأعضاء بواسطة العروق والأعصاب ويحل في الحواس الظاهرة والمشاعر الباطنة نظرا إلى الاستعداد هو المسمى بالروح الحيواني ويبطل بالموت ، والنفس الناطقة ليس لها فناء ولا عدم .

« ١ » الحديث كما روي : « أرواح الشهداء عند الله يوم القيامة في حواصل طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح في الجنة حيث شاءت ثم ترجع إلى قناديلها فيشرف عليهم ربهم فيقول الكم حاجة تريدون شيئا فيقولون لا إلا ان نرجع إلى الدنيا فنقتل مرة أخرى .

فصل

في بيان سلسلة الطريقة وكيفية قراءة ختم الخواجكان وما يلزم فيها من الآداب

وذكر صاحب « التعريب »[1] شيخنا محمد مراد المنزلوي ﷺ ونفسي فداه الذي هو الحبر المقدم في العلم الظاهر والباطن بما لفظه : وأما هذه الختمات فالمروي منها من قدماء أكابر النقشبندية هو ختم خواجكان ، وكانوا يستعملونه عند ظهور حادثة ووقوع بلية برعاية شروطه من عدم الزيادة على الأعداد المعينة والنقص عنها ويصرفون همتهم لدفعها ، إلا أنهم كانوا يستعملونه في جميع الأوقات ، وإنما كان استعماله واستعمال غيره من الختمات على سبيل الدوام عند مشائخنا المتأخرين ، ويمكن اختيارهم ذلك على الدوام لأمرين :

أحدهما : كثرة الحوادث والبلية في زماننا بحيث لا يخلو منه وقت كما يحكم به المشاهدة

والثاني : أن لكل مقام مقالا ولكل ميدان رجالا ، فإنهم لما رأوا عدم تأثر بعض الطالبين لقلة الاستعداد من طريق الخفية واحتظاظهم به اختاروا المداومة على تلك الختمات من أجلهم ، وذلك جائز بل مطلوب وليس بتغيير للطريقة .

وكيـفيـــتــه : أن يقرأ أولا سورة « الفاتحة » سبع مرات والصلاة على النبي ﷺ مائة مرة و « ألم نشرح لك » تسعة وتسعين مرة والإخلاص ألفا ، ثم « الفاتحة » سبعا ثم الصلاة مائة .

ويزاد في آخر هذه الكلمات السبع مائة مرة « يا قاضي الحاجات يا كافي المهمات يا دافع البليات يا رافع الدرجات يا شافي الأمراض يا مجيب الدعوات يا أرحم الراحمين » ، ثم يهدي ثوابه إلى أرواح المشائخ خصوصا الخواجكان ، أعني من الخواجه عبد الخالق إلى الخواجه بهاء الدين النقشبند قدس الله أسرارهم ، ويسأل حاجته يستجاب بإذن الله تعالى . ثم ختم الإمام الرباني وهو لا

« ١ » كتاب « تعريب المكتوبات الشريفة » .

حول ولا قوة إلا بالله خمسمائة مرة ويزاد في رأس كل مائة « العلي العظيم » ، والصلاة في أوله وآخره مائة مائة ، ثم يهدي ثوابه إليه .

ثم ختم مولانا ومرشدنا وقبلة صدورنا ذو المواهب أبو عبد الرحمن زين الله الشريفي المعموري ﷺ ، وكذا ختم مولانا جامع القطبتين أبو عبد الرحمن محمد ذاكر الوهبي الجسطاوي المحمدي الأويسي ﷺ .

ثم ختم الغوث الجيلاني ﷺ وهو : حسبنا الله ونعم الوكيل خمسمائة مرة والصلاة في أوله وآخره مائة مائة ، ثم يهدي ثوابه إليه .

ثم ختم خواجه النقشبند ﷺ وهو يا خفي اللطف أدركني بلطفك الخفي خمسمائة مرة ، والصلاة أولا وآخرا مائة مائة ، ثم يهدي ثوابه إليه .

ثم ختم محمد معصوم ﷺ وهو : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين خمسمائة مرة ، والصلاة أولا وآخرا مائة مائة .

وهذه الختمات الثلاث تستعمل عندنا في حلقة الصبح ، وأما عدهم بالحصاة فإنما هو للتسهيل ، فإنه كلما يحضر شخص يعطونه عددا معينا من الحصاة فيستعمل بقدره ، بخلاف ما إذا استعملوه بسبحة فإنه كلما يحضر أحد في أثناء الختم يحتاج حينئذ أن يقول لكل من الحاضرين أن استعملوا الآن هذا القدر ، وفي هذا كما ترى تعسر .

وإنما قلنا إن ما بيناه هو الطريقة دون غيره لتنبيه الطائفتين أعني القاصرين عن إدراك حقيقة الطريقة المغترين بظاهر صورتها المتشبهين بأهلها المقتصرين على تلك الختمات زعما منهم أنها هي الطريقة ، وقد عمَّ ذلك أكثر البلدان خصوصا ديارما وراء النهر التي هي كانت أولا معدن هذه الطريقة ومقر أهلها بل منبع العلوم وروضة جميع الفضيلة ، وصار الآن يقفون الضياع والعقار لهذه الختمات ويحضرون يومين من كل أسبوع في المساجد والرباطات ويستعملون هذه الختمات وينفقون محصول الوقف على من يحضر فيها ويحسبون أن ذلك هو الطريقة مع أن الوقف والوصية بالختمات باطلة والأكل منه حرام في غالب المذاهب .

وقد علمت أن هذه الختمات ليست من حقيقة الطريقة ولا من لوازمها ، بل هي من مستحسناتها لما أن الدعاء هنالك يكون غالبا بذكر أكابر السادات من أهل الله تعالى إلى رسول الله ﷺ ، وعند ذكرهم تنزل الرحمة وكفى ذلك نعمة من الله تعالى .

والطائفة الثانية المنكرون المفترون على الطريقة وأهلها لما رأوا من أحوال الطائفة الأولى زعما منهم أن هذه الختمات هي الطريقة لا غير وأنها بدعة حتى سمعت أن بعضهم ألف رسالة في ردها ، ونحن نساعدهم في ذلك ، فإنهم لا يردون على الطريقة بل يذبون عنها في الحقيقة بالرد على الطائفة الأولى ونقول : ليت مشائخنا قدس الله أسرارهم لم يكثروا من ذلك ، فإن المتوسط الذي لم يبلغ مرتبة دوام الحضور ولم يتميز ظاهره من باطنه يتضرر منها وتوجب له الوساوس والخطرات ولا مرد لذلك ، فإنه مما حكمت به المشاهدة وشهدت به التجارب ، ولكن إن لهم في ذلك غرضاً صحيحاً وما يفعلونه أولى مما شعرنا .

وأيضا من المتشيخين طائفة أخرى خاصة في الديار الداغستانية ينكرون على الختم بالكلية وينسبونها إلى بدعة أو فاحشة ويحكمون على مستعمليها بالنفاق أو الجهل مع كونهم أجهل الجاهلين وأضل المغترين ، وبدل ذلك يجتمعون مع الأغنياء وأرباب الدنيا ويقرؤون المواليد ويغتابون الناس بل ينسبون أكابر الطرق إلى الجهل ويظهرون بأفواههم الباطلة ومزخرفاتهم العاطلة مقاماتهم وأحوالاتهم لأنهم دون غيرهم ، ويجرون الناس إليهم بالحيل المذاقة ، وأفسدوا الطريقة وأدخلوا فيها أمورا مبتدعة لم يسبق قط من السادات ، فعمَّت بسببهم الفتنة في الدين ووقعت الثلمة في الإسلام وصار الناس لا يميزون الطريقة من الطريحة ، لا كثر الله مثلهم وأراحنا الله تعالى من شومهم آمين .

مَتى ما تُخالِطْ عالَمَ الإنْسِ لَمْ يَزَلْ ... بِسَمْعِكَ وَقْرٌ مِنْ مَقالِ سَفيهِ
إذا ما الفَتى لَمْ يَرْمِ شَخْصَكَ عامِداً ... بِكَفَّيْهِ عَنْ ضِغْنٍ رَماكَ بِفيهِ
وَقَدْ عَلِمَ اللهُ اعْتِقادي وَإنَّني ... أَعوذُ بِاللهِ مِنْ شَرٍّ ما أنا فيهِ

فصل

في بيان الأوراد المشهورة في هذه الطريقة العلية من القرآن والنوافل والأدعية وبعض خصائصها

اعلم أيها المأمون وفقك الله تعالى لحوز العلم المصون أن الأذكار لأرباب الطريقة في أوقاتها عند أرباب القلوب جندٌ من جنود الله تعالى ، وبها يتقوى الذاكر فيما يفعله من الطاعات والعبادة ، وبمواظبتها بالخلوص ينال المسترشد إلى المقامات .

ونورانية الأذكار محرقة لأوصاف العبد ومثيرة لحرارة طبعه بانحراف عن طبعها . فمن ثم أمر بالصلاة على رسول الله ﷺ معها لأنها كالماء تقوي النفوس وتذهب وهج الطباع ، وسر ذلك في السجود لآدم عند قولهم ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ، ولهذا أمر المشائخ بالصلاة على رسول الله ﷺ عند غلبة الوجد ، والذوق لذلك شاهد .

وقد أشار إلى ذلك الصديق رضي الله عنه إذ قال : **الصلاة على محمد ﷺ أمحق للذنوب من الماء البارد للنار** ، ألا ترى إلى آخره فليعتمد .

وقد نص في « مفتاح الفلاح » أن علامة الفتح ثوران الحرارة في الباطن والله أعلم كذا نطق أحمد زروق قدس سره .

واعلم أن النظر لسابق القسمة وواجب الحكمة هو القاضي بأن الدعاء عبودية اقترنت بسبب كاقتران الصلاة بوقتها ، وكذا الذكر المرتب لفائدة ونحوها ، لأنك إن قلت تذكير فإنما يذكَّر من يجوز عليه الإغفال ، وإن قلت تنبيه فإنما ينبَّه من يمكن منه الإهمال ، وإن قلت تسبب **فجل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل** وقد جاء الأمر وترتيب الإجابة عليه ، فلزم أن يراعى من حيث الحكمة ، ولذا صح بمفروغ منه ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ و﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ ، ﴿وَلَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ عند من قال به ، وهو دعاء الأبدال والله تعالى أعلم .

وسئل السيد الشريف أبي العباس أحمد بن إدريس المغربي الحسيني ﵁ عن الدعاء في الصلاة هل يأتي به بصيغة الجمع إذا كان إماما ولو كان واردا عن النبي ﷺ بصيغة الإفراد مثل « اللهم أعط نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » ونحو ذلك ، فيقول : اللهم أعط أنفسنا . . الخ ؟ فقال : ائت بصيغة الجمع وإن كان واردا بصيغة الإفراد ، لأن في الحديث : « من أم قوما فأفرد دونهم نفسه فقد خانهم » .

وعن ثوبان ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث لا يحل لأحد أن يفعلهن : لا يؤم رجل قوما فيخص نفسه بالدعاء دونهم ، فإن فعل فقد خانهم . ولا ينظر في قعر بيت قبل أن يستأذن ، فإن فعل فقد دخل خائنا ، ولا يصلي وهو حاقن حتى يتخفف » رواه أبو داود واللفظ له ، والترمذي وابن ماجه وحديثه مختصر ، وقال الترمذي : حديث حسن ، ورواه أبو داود أيضا من حديث أبي هريرة ﵁ .

ومنها : أن يسأل الله تعالى بعزم ورغبة وحضور قلب ورجاء ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ ، والنبي ﷺ وإن أتى بصيغة الإفراد فهو روح كل مؤمن ، ففي الحديث عن النبي ﷺ قال : « ما دخلت شوكة في رجل أحدكم إلا وجدت ألمها » .

وأيضا إذا كان الإنسان منفردا يأتي بصيغة الجمع وينوي المسلمين وهو أولى ، هذا معنى ما ذكره السيد أعاد الله علينا من بركاته .

وسئل ﵁ عن الدعاء في الصلاة فأجاب بأنه يدعو فيها بما شاء ، فإن بعض الصالحين كان يدعو حتى بملح العجين .

والدعاء إنما هو تكريم وتعظيم لباب المناجاة ، وإلا فالله هو الغني عن عباده ، وهو يعلم بما تدعو في أي يوم وفي أي ساعة من قبل خلقك ، وهو كريم جواد ويعطي قبل السؤال وفضله ابتداء ، لكنه يري لك الخير كأنه وكيل

والوكيل ينظر مصلحة الموكل ابتداء وانتهاء ، فربما تدعو فلا يؤثر الدعاء في ظاهر الأمر ، وقد وعد سبحانه وتعالى بأن يستجيب : ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ ، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ ، ووعده الحق ولكنك حين تعلم بمصلحة تأخير الإجابة تحمد العاقبة ، فما أسعد من وكله ورضي به وكيلا ، وكفى به وكيلا ، وقد تصاب ببلاء فتدعو وتتضرع وذلك المقصود منك ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ ، ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ، فتدعو أن الله يزيله عنك ثم لا يزول لكن لو عرفت حقيقة الأمر لاخترت بقاءه لأنه الدواء ولا بد للدواء من مرارة أو كيّ . انتهى .

قال النووي رحمه الله تعالى في « أذكاره » : **اعلم أن الأذكار المشروعة في الصلاة وغيرها واجبة كانت أو مستحبة لا يحسب شيء منها ولا يعتد به حتى يتلفظ به بحيث يسمع نفسه إذا كان صحيح السمع لا عارض له** . انتهى .

ثـــم الاشتغال بالورد والأذكار من المهمات للسالكين نبتدئ من أهمها لما ورد فيها من الثواب الجزيل وفي تركها من الوعيد الشديد ، وأهمها وأفضلها الصلاة في الجماعة ، وهي أفضل من جميع الأوراد ، والقيام بالليل والصيام بالنهار ، ونذكر تفصيلها إن شاء الله تعالى بعيد هذا ، صرح بالنهي عن تركها فقال« ١ » :

لا تَـتْـرُكَنَّ جَـماعَةً قَدْ فُضِّلَتْ بِالسَّبْعِ والعِشْرينَ مِنْ فَضْلٍ عَلا
وَلِـمَ الـتَّـعَلُّمُ إنْ تَكُنْ تَـتَساهَـلُ في مِثْلِ هذا الرِّبْحِ أَخْسَرَ أَجْهَلا

يعني لا تترك الجماعة في المكتوبات الخمس لأن الصلاة مع الجماعة تفضل على صلاة الفذ أي المنفرد بسبع وعشرين درجة ، وقيل بخمس وعشرين درجة كما أخبر بذلك عليه الصلاة والسلام .

« ١ » أي الشيخ العلامة زين الدين المليباري ﷻ في « هداية الأذكياء » .

وقال ﷺ : « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الجماعة إلا استحوذ عليهم الشيطان - أي غلب - فعليك بالجماعة دآئما ، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » ، رواه أبو داود والنسائي وصححه ابن حبان والحاكم .

وقال ﷺ : « صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده ، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل ، وما كان أكثر فهو أحب إلى الله تعالى » رواه أبوداود وغيره وصححه ابن حبان وغيره .

وقال بعض السلف : إذا قامت الجماعة نظر الله تعالى إلى قلب الإمام إن كان فيه خير[١] رضي عنهم وقبل صلاتهم وغفر لهم ، وإن لم يكن فيه خير نظر إلى قلوب المأمومين ، فإن كان فيهم من في قلبه خير رضي عنهم وقبل صلاتهم وغفر لهم ، وإن لم يكن فيهم من في قلبه خير نظر إلى اجتماعهم في الصلاة وإلى قيامهم بين يديه فيرضى عنهم ويتقبل صلاتهم ويغفر لهم .

وجاء في الحديث عن النبي صلى عليه وسلم أنه قال : « خلق الله تعالى مدينة في الجنة يقال لها مدينة الجلال ، وفيها قصر يقال له قصر العظمة ، وفيه بيت يقال له بيت الرحمة ، وفيه أربعة آلاف سرير على كل سرير أربعة آلاف حوراء ، وفيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ، قيل : يا رسول الله لمن هذا ؟ قال : « لمن صلى لله الصلوات الخمس في الجماعة » .

(ولِمَ التعلم) : أي ولأي شيء التعلم للعلم إن تكن تتساهل في مثل هذا الربح الكثير الذي هو فائدة رأس مال تجارة الآخرة ، وذلك لا فائدة لك في طلب العلم الذي تزعم أنك حريص على اقتباسه ، فإنما ثمرة العلم النافع العمل به ، ومن أفضله صلاة الجماعة في المسجد ، فإن تعذرت فيه ففي بيتك لا سيما مع أهلك تحصيلا لثوابها لهم وتمرينا لهم عليها ، كذا في « كفاية الأتقياء في شرح هداية الأذكياء » للسيد بكري الدمياطي ﵁ .

« ١ » وفي هامش نسخة « أ » : أي الحضور .

قال العارف بالله الشيخ أبو العباس أحمد زروق ﵁ : اِستراق النفوس بملائمها طبعا لما فيه نفع ديني مشروع ، فمن ثم رغب في أذكار وعبادات لأمور دنيوية كقراءة سورة الواقعة لدفع الفاقة ، و : **بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم** لصرف البلاء المفاجأة ، و : **أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق** لصرف ذوات السموم والحفظ في المنزل إلى غير ذلك من أذكار صرف الهموم والديون والإعانة على الأسباب كالغنى والعز ونحوه .

وبيان ذلك أنها إن أفادت عين ما قصدت له كان ذلك داعيا لحبها ، وحبها داع لحب من جاء بها ومن نسبت له أصلا وفرعا ، فهي مؤدية لحب الله وإن لم تؤد ما قصدت له فاللطف موجود بها ولا أقل من أنس النفس بذكر الحق ودخول ذلك من حيث الطباع أمكن وأيسر ، ولهذا الأصل أسس الشيخ أبو العباس البوني ﵁ ومن نحا نحوه في ذكر الأسماء وخواصها ، وإلا فالأصل أن لا تجعل الأذكار والعبادات سببا في الأغراض الدنيوية إجلالا لها والله أعلم « قواعد » ٤٤ .

وقال السيد الشيخ عبد الرحمن السقاف ﵁ : **من لا له ورد فهو قرد** ، ومن ليس له أذكار فليس بمذكر ، ومن لا يطالع « الإحياء » ليس له حياء ، ومن لم يقرأ « المهذب » ما عرف المذهب ، ومن لا له أدب فهو دب .

والكلام على فضل الذكر وما ورد فيه شهير لا حاجة إلى الإطالة ، وقد ذكرناها في بابه ما يغني عن جوع ويتخذ المريد ما يأمره به شيخه من الأذكار ، وإذا فقد الشيخ المرشد فالأذكار النبوية الواردة عن النبي ﷺ هي أفضل من غيرها .

ويكفي منها الورد اللطيف للقطب الحداد ، فإن الأذكار التي فيه هيأمهات الأذكار المأثورة ونوردها في هذه الأرجوزة إن شاء الله تعالى ، وكذا يكفيه تلاوة القرآن والصلاة على النبي ﷺ .

وذكـــر **العلامة** سيدي عبد الرحمن بن مصطفى العيدروسي نزيل مصر في شرحه على صلاة سيدي أحمد البدوي ﷺ وفي كتابه المسمى « مرآة الشموس في مناقب آل العيدروس » أنه يعدم المربون في آخر الزمان ويصير ما يوصل إلى الله تعالى الصلاة على النبي ﷺ مناما ويقظة ، وأن جميع الأعمال منها المقبول ومنها المردود إلا الصلاة على النبي ﷺ ، **فإنها مقطوع بقبولها إكراما له** ﷺ ، وحكي اتفاق العلماء على ذلك .

قلت : ومعنى قول سيدي العيدروسي ﷺ أنه يعدم المربون ليس بالكلية بل يصير المربي أعز من الكبريت الأحمر ولا يظهر غالبا لقلة المستعدين والله أعلم . اهـ

وقوله (يعدم المربون) معناه يقلّ ، لما أن الأولياء اختفوا عن العوام إلا من قيضه الله لإرشاد الخلق .

وفي « لطائف المنن » للقطب الشعراني ﷺ : سمعت أخي أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول : إذا نمت في الليل مثلا فبادر إلى التوبة والاستغفار لتفريطك باستجلابك النوم وغيبتك عن حضور تلك المواكب الإلهية وحرمانك مما فرق فيها من الغنائم التي ليست في نعم الدنيا لها نظير ، فما أمرت بالاستغفار من النوم إلا لعدم كونك نمت عليه وعلى ذلك يحمل حديث : « ليس في النوم تفريط » عند بعض العارفين وإن كان ظاهر الحديث العموم .

ثم بعد ذلك يجب عليك الرضا من حيث كونه تعالى أنامك صحيح الجسم على راحة مثلا وأباح لك النوم في الجملة ، وربما كان نومك أرجح من قيامك لغلبة رؤية نفسك على من تراه نائما طول الليل وغلبة الإعجاب بذلك ، ومعلوم أن النائم سالم من المناقشة التي كان معرضا لها لو أنه قام الليل ، فربما قام رياء وسمعة وربما قام طالبا للثواب لا امتثالا لأمر الله تعالى ، وفي كل ذلك المناقشة .

وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله تعالى يحث أصحابه كثيرا على نية القيام من الليل كل ليلة ليكتب للناوي أجر من قام تلك الليلة كاملا موفرا مع سلامته من المناقشة ويقول : قد قال رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، ولم يقل : وإنما لكل امرئ ما عمل توسعة على أمته ، فكل عمل لم يقسم لهم مباشرته يحوزون ثوابه بالنية . انتهى

وبالجملة فسدى اللحم ولحمته نِعَم كما أن سداه ولحمته من جهة أخرى ذنوب ، والحمد لله رب العالمين .

قال سيدي أحمد بن إدريس الحسيني المغربي قدس سره : إن الدعاء إنما هو تشريف وتكريم لباب المناجاة والكرم ، وإلا فهو سبحانه وتعالى أعطاك يا ابن آدم كل ما أنت مفتقر إليه بسؤالك حالا لا مقالا بأن جعل لك جميع ما في السموات والأرض وخلق فيك ما تنتفع به من الأعضاء والجوارح ، ثم هو أيضا يعلم حاجتك التي تسأله قبل أن يخلقك وقبل أن يخلق السموات والأرض .

والنكتة في أمره بالدعاء إظهار سر كرمه تعالى وأنه يجازي على كل شيء من جنسه جزاء وفاقا ، وذلك أنه سبحانه وتعالى باجتناب ما نهاه عنه والائتمار بما أمرنا به وجازانا على ذلك بأن ائتمر لأوامرنا وانتهى عن نواهينا ، فإنك تقول في الدعاء : اللهم اغفر لي ، فيأتمر لك بأن يغفر لك ، وتقول : اللهم لا تخزني ، فينتهي عن نهيك بأن لا يخزيك .

ولذا قال تعالى شأنه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ أي : فليستجيبوا لي بالائتمار بما أمرتهم به والانتهاء عما نهيتهم عنه فإذا كانوا كذلك فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فائتمر لأمره وانته عن نهيه سبحانه وتعالى ما أكرمه .

ومع هذا فإن المصلحة في ائتمار العبد لما أمر به وانتهائه عما نهي عنه عائدة عليه ، واستجابة دعائه عائدة عليه ، والله سبحانه وتعالى غني عنه في الجميع . فانظر إلى هذا الكرم ، سبحان الله الكريم لا إله إلا هو . انتهى

وقال العارف ابن زروق ﵁ : استواء العبادتين في الاصل مع جواز ترك إحداهما للأخرى شرعا يقضي بالبدلية فيهما فالذكر بدل من الدعاء عند اعتراض الاشتغال به عنه وبالعكس وقد صح : « من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » فظهرت افضلية الذكر في هذه الحالة . **والتحقيق أن الافضل في كل محل ما وقع فيه** إذ الكل وقع لأنبياء الله تعالى في أحوال ، وهم فيها على أفضل الأحوال . انتهى

واعلـــم أن الخواص ثابتة في الأقوال والأفعال والأعيان ، وأعظمها خواص الأذكار إذ ما عمل آدمي عملا أنجى له من عذاب الله تعالى من ذكر الله تعالى ، وقد جعلها الله تعالى للأشياء كالأشربة والمعاجين في منافعها لكل ما يخصه ، فلزم مراعاة العام في العموم وفي الخاص مما يوافق حال الشخص ، وعلم من اعتبار الجانب الشرعي في القسط والعمل سيما ، وقد قال مالك ﵀ في « المجهولات » : ما يدريك لعلها كفر ، قلت : وقد رأيت من يرقي بألفاظ كفرية والله أعلم . قال ابن زروق ﵁

وقال رحمه الله تعالى : ما خرج مخرج التعليم وقف به على وجهه من غير زيادة ولا نقصان ، فلقد روي أن رجلا كان يذكر في دبر كل صلاة سبحان الله والحمد لله والله اكبر مائة مرة من كل واحد ، فرأى كأن قائلا يقول : أين الذاكرون أدبار الصلوات ؟ فقام ، فقيل له : ارجع فلست منهم ، إنما هذه المزية لمن اقتصر على الثلاث والثلاثين ، فكل ما ورد فيه عدد قصر عليه ، وكذا كل لفظ ، نعم ، اختلف في زيادة سيدنا في الوارد من كيفية الصلاة عليه ﷺ ، والوجه أن يقتصر على لفظه حيث تعبد به ويزاد حيث ما يراد الفضل في الجملة . وقال ابن العربي ﵁ في زيادة (وارحم محمدا) إنه قريب من بدعة وذكره في المعارضة والله أعلم .

وقال الشيخ أبو العباس أحمد بن زروق ﵁ : حق العبد أن لا يفرط في مأمور ولا يعزم على محظور ولا يقصر في مندوب ، فإن قصر به الحال حتى وقع في الأول أو الثاني أو الثالث لزمه الرجوع لمولاه بالتوبة واللجأ

والاستغفار ، ثم إن كان ذلك بسبب منه عتب نفسه ولامها ، وإن كان لا بسبب منه فلا عتب على قدر لا سبب للعبد فيه .

ودليل ذلك في حديث سؤال علي وفاطمة ، إذ سألهما عليه الصلاة و السلام من عدم صلاتهما بالليل فأجابه علي بقوله : إن الله قبض أرواحنا ، فمر وهو يقول : ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ ولما ناموا ليلة الوادي حتى طلعت الشمس قال عليه الصلاة و السلام : « **إن الله قبض أرواحنا** » ، وذلك أن عليا وفاطمة تسببا بوجود الجنابة كما ذكره ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى ، فكان الجواب بالعذر وإن كان نفس الحق جدلا إذ سئلا عن السبب ، و الصحابة في الوادي لم يتسببوا بل وكَّلوا من يقوم لهم بالأمر من هو أهلٌ للقيام به ، فافهم « قواعد » ٤٨ .

وإقامة الورد في وقته عند إمكانه لازم لكل صادق ، فإذا عارضه عارض بشرية أو ما هو واجب من الأمور الشرعية لزم إنفاذه بعد التمسك بما هو فيه جهده من غير إفراط مخل بواجب الوقت ، ثم يتعين تداركه بمثله لئلا يعتاد البطالة ولأن الليل والنهار خلفة والأوقات كلها لله تعالى ، فليس لك اختصاص وجه إلا من حيث ما خصص .

فمن ثم قال بعض المشائخ : ليس عند ربكم ليل و لا نهار ، يشير للكون بحكم الوقت لا كما يفهمه البطالون من عدم إقامة الورد .

وقيل لبعضهم وقد رأيت بيده سبحة : أتعد عليه ؟ قال : لا ولكن أعدّ له .

فكل مريد أهمل أوقاته فبطال ، وكل مريد تعلق بأوقاته دون نظر للحكم الإلهي فهو فارغ من التحقيق ، ومن لا يعرف موارد الأحوال عليه فغير حاذق ، بل هو غافل .

ولذلك قيل : من وجد قبضا أو بسطا لا يُعرف له سبب فلعدم اعتنائه بقلبه ، وإلا فهما لا يردان دون سبب . والله أعلم ، انتهى ما قاله أبو العباس أحمد زروق قُدِّسَ سِرُّهُ .

والأهـــم أن يديم العمل لله تعالى من غير فتور ظاهرا وباطنا وقلبا وقالبا وإلا فباطنا ، وترتيب ذلك أن يصلي ما دام منشرحا ونفسه مجيبة ، فإن سئم ينزل من الصلاة إلى التلاوة ، فإن مجرد التلاوة أخف على النفس من الصلاة ، فإن سئم التلاوة أيضا يذكر الله تعالى بالقلب واللسان فهو أخف من القراءة ، فإن سئم الذكر يدع ذكر اللسان ويلازم بقلبه المراقبة .

والمراقبة علم القلب بنظر الله تعالى إليه ، فما دام هذا العلم ملازما لقلبه فهو مراقب ، والمراقبة عين الذكر وأفضله ، فإن عجز عن ذلك أيضا وتملكته الوساوس وتزاحم في باطنه حديث النفس فلينم ، ففي النوم السلامة ، وإلا فكثرة حديث النفس تقسي القلب ككثرة الكلام لأنه كلام من غير لسان ، فليحترز من ذلك .

قـال سهل بن عبد الله قدس سره : **أسوأ المعاصي حديث النفس** ، والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره فإنه بحديث النفس وما يتخايل له من ذكر ما مضى ورأى وسمع كشخص آخر في باطنه ، فيقيد الباطن بالمراقبة والرعاية كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر . كذا ذكره ترجمان الحقيقة الشيخ السهروردي قدس سره في « العوارف » اهـ .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من داع يدعو إلا استجاب الله له دعوته أو صرف عنه مثلها سوءاً أو حط عنه من ذنوبه بقدرها ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم » .

فإذا الإجابة المطلقة حاصلة لكل داع بحق حسبما ورد الوعد الصدق ، إلا أن الإجابة أمرها إلى الله تعالى يجعلها متى شاء ، وقد يكون المنع وتأخير العطاء إجابة وعطاء لمن فهم عن الله تعالى ذلك ، فلا ييأس العبد من فضل الله تعالى إذا رأى منعا أو تأخيرا وإن ألحّ في دعائه وسؤاله .

وقد يكون تأخير ذلك إلى الآخرة خيرا له ، فقد جاء في بعض الأخبار : يبعث عبد فيقول الله تعالى له : ألم آمرك برفع حوائجك إليّ ؟ فيقول : نعم ،

وقد رفعتها إليك . فيقول الله تعالى : ما سألت شيئا إلا أجبتك فيه ولكن نجزت لك البعض في الدنيا وما لم أنجزه في الدنيا فهو مدخر لك فخذه الآن ، حتى يقول ذلك العبد : **ليته لم يقض لي حاجة في الدنيا** .

وقد ورد عن رسول الله ﷺ معنى النهي عن الاستعجال في إجابة الدعاء في قوله : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول : قد دعوت فلم يستجب لي » .

وقد دعا موسى وهارون عليهما السلام على فرعون فيما أخبر الله عنهما حيث قال : ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ ، ثم أخبر أنه قد أجاب دعاءهما بقوله سبحانه وتعالى : ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ، قالوا : وكان بين قوله تعالى لهما ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ وهلاك فرعون أربعون سنة ، قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾ أي على عدم استعجال ما طلبتما ، ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ هم الذين يستعجلون الإجابة . قاله السيد أحمد زيني قدس سره . انتهى

وناهيك شرفاً وعزّاً وحظّاً ما يتحصّله له بسبب مداومة الدعاء من محبة الله تعالى وموافقة رضاه .

وقال رجل من أصحاب أبي عبد الله رضي تعالى عنه : قلت لأبي عبد الله : إن في كتاب الله تعالى آيتين أطلبهما فلا أجدهما . فقال : وما هما ؟ قلت : ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ ، فندعوه فلا نرى إجابة ، قال : أفترى الله تعالى أخلف وعده ؟ قلت : لا ، قال : ففيم عدم الإجابة ؟ قلت : لا أدري ، قال : لكني أخبرك عن ذلك : من أطاع الله فيما أمر به ثم دعاه من جهة الدعاء أجابه ، قلت : وما جهة الدعاء ؟ قال : تبدأ فتحمد الله تعالى وتمجده بذكر نعمه عليك فتشكره ثم تصلي على النبي ﷺ ، ثم تذكر ذنوبك فتقر بها ، ثم تستغفر منها ، فهذه جهة الدعاء ، ثم قال : وما الآية الأخرى ؟ قلت : قوله تعالى ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾ فأراني أنفق وما أرى خلفا ، قال :

أفترى الله أخلف وعده ؟ قلت : لا ، قال : فبم ذلك ؟ قلت : لا أدري ، قال : لو أن أحدكم اكتسب المال من حله وأنفقه في حقه لم ينفق درهما إلا أخلف عليه .

قال الفارسي ﷺ عن النبي ﷺ : أنه قال : « إن الله يستحي من العبد أن يرفع إليه يديه فيردهما خائبين » « مكارم الأخلاق » ١٠٨ .

وقال قطب العارفين أحمد بن إدريس الحسيني ﷺ في ٢٦ : قد يكون الدعاء في الساعة التي يتجلى فيها الحق سبحانه وتعالى بصفة الوهاب فلا يرد فيها الدعاء ، ولو كان من كافر ، فإن إبليس قال : رب أنظرني إلى يوم يبعثون وهو مطرود ملعون نجس الباطن والظاهر ، فاستجيب له وقال : ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾

ومن هنا نهانا رسول الله ﷺ عن لعن الدواب وغيرها حتى أن المرأة التي لعنت جملها وهي في سفر قال : « قد استجيب لك ولا نقبل ملعونا ، اطردوا الجمل » فطردوه وكان كلما أقبل إليهم الجمل طردوه بالخيل ، فحرمت المرأة الجمل وظلمته بسبب لعنها له .

والرجل الذي رأى قيام يوم القيامة وذلك أنه سرق سرجه فسأل عنه فقيل له : قد سرق ، فقال : ذهب في لعنة الله ، فلما رأى أن القيامة قد قامت وهو ممن قتل شهيدا فأتي بفرسه وبولها وزبلها يوضع في الميزان ، فقال : أين سرجها إنه يثقل في الميزان ؟ فقيل له : ذهب في اللعنة التي قلتها في ساعة كذا ، فقد يؤتى الرجل من قبل نفسه وهو لا يشعر .

ومن الحكايات العجيبة أن ذئبا برد في ليلة بردا شديدا ، فتمنى سلوقيا« ١ » يلحقه ليدفأ ، فما ثم إلا وقد أقبل عليه السلوقي فهرب منه حتى جوز فقال : لو رجمت في فمي لما تمنيت هذه الأمنية ، فما تم إلا ولقيه رجل فرجمه بحجر حتى هرس أسنانه فطلع إلى رأس الجبل ونادى بأعلى صوته : ألا من يريد أن يدعو فإن أبواب السماء قد فتحت .

« ١ » نوع من أنواع الكلاب .

والدعاء في نفسه إنما هو إظهار للعبودية والتذلل وإجلال وتعظيم لباب الكريم ، وليس لأنه غافل عنك سبحانه وتعالى أو عن حاجتك ، بل يعلم بما توسوس به نفسك قبل أن توسوس ، وهو يعلم السر وأخفى . وهو سبحانه وتعالى كريم جواد لا يحتاج إلى سؤال . قال شاعر في مدح بعض الملوك يسمى مَعْنَا« ١ » :

أيا جودَ مَعْنٍ ناجِ مَعْناً بِحاجَتي فَما لِي إلى مَعْنٍ سِواكَ سَبيلُ

فما ظنك بملك الملوك « عقد نفيس » .

اختلف العارفون في أن الأولى للعبد الدعاء أو الإمساك لأنه لا يرد القضاء والمختار التفصيل .

وهو أنه إن كان في مقام الجمال والبسط فالأولى له الدعاء تلذذا بمخاطبة مولاه ، وإن كان في مقام الجلال والهيبة فالأولى له الإمساك ، كما وقع للخليل عليه السلام حين ألقي في النار .

وقد جرت عادة الملوك أنهم في حال الغضب لا يقدر أحد أن يكلمهم ولا يراجعهم ، بخلاف حالة البسط ، ولله المثل الأعلى ، فالأولى للعبد التسليم في مقام الجلال والهيبة والغضب ، والأولى به الدعاء في مقام الجمال والبسط .

ثم إذا دعا فليكن بدعائه ممتثلا لأمر الله تعالى حيث يقول : ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ ، ولا يكن قاصدا لحظ نفسه ، بل يفعل ذلك عبودية وامتثالا للأمر . **وعلامة صدقه أن لا يضطرب قلبه إذا لم يحصل مراده** ، بل كان بعض العارفين يطمئن قلبه ويسكن إذا حصل غير مراده أكثر مما حصل مراده ويقول : إن مراد الله تعالى خير من مرادي ، والله أعلم بالمصلحة مني ، وأما إذا حصل مراده فإنه يقول : أخشى أن يكون ذلك استدراجا ، فمن كان يدعو امتثالا للأمر على هذا الشرط فهو خير له من الإمساك ، بخلاف من يريد أن

« ١ » هو معن بن زائدة .

الأشياء تجري على مراده ويضطرب قلبه ويسخط إذا تأخر مراده ، فهذا خلق مذموم ليس من أخلاق المخلصين ، ومن يكون مطمئن القلب إذا حصل مراد الله تعالى كان راضيا بقضاء الله تعالى ، فانيا في الله تعالى .

والفناء في الله تعالى من أعظم المقامات ، وعلامته أن يوفَّق صاحبه لأداء العبادات المفروضة ولا يخل بشيء منها ، ومن كان فناؤه فيه إخلال بشيء من الفرائض يخشى عليه السلب والانتكاس والعياذ بالله تعالى .

وصاحب الفناء الكامل يكون رجوعه إلى الصحو وإلى الخلق خيرا له لإرشاد العباد ودعوتهم إلى الله تعالى ، وإنما يجري عليهم أولا الفناء عن الخلق ليتجلى عليهم بصفة قهره فيسلبهم أعمالهم وأحوالهم ومقاماتهم وبقهرهم حتى يخافوه ولا يأمنوا مكره ويعرفوا قدر ما حباهم من النعم ، فإذا رجعوا إلى الخلق يكونون معهم باللطف والذل والتواضع والنصيحة والإرشاد . . الخ « تقريب الأصول » ١٠٤ .

وقال في « شرح الحكم » لابن عبّاد النفزي : ويعلم أن الخيرة له في جميع ما به يتولاه وإن خالف ذلك مراده وهواه ، فإذا دعا وطلب من مولاه شيئا يرى أن له فيه مصلحة أيقن بالإجابة لا محالة ، قال الله تعالى : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ، قال تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ .

وعن جابر ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل او كف عنه من السوء مثله ، مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم » . . الخ .

فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله يحب الملحين في الدعاء » . وقد جاء في الحديث : « قال جبريل عليه السلام : يا رب عبدك فلان أقضي له حاجة ؟ فيقول : دعوا عبدي ، فإني أحب أن أسمع صوته » رواه أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ .

ومقتضى هذا أن من الناس من يعجل الله له نوال حاجته لكراهة صوته ، وقد روي هذا المعني أيضا منصوصا . فليكن العبد خائفا من ذلك عند تعجيل إجابة دعائه .

قال أبو محمد عبد العزيز المهدي ﷺ : كل من لم يكن في دعائه تاركا لاختياره وراضيا باختيار الحق فهو مستدرج ، وهو ممن قيل له : اقضوا حاجته فإني أكره أن أسمع صوته ، فإذا كان في دعائه مع اختيار الحق تعالى ، لا مع اختيار نفسه ، كان مجابا وإن لم يعط ، والأعمال بخواتيمها . اهـ .

وقد تكون الإجابة مرتبة على شروط لا علم للداعي بها فتؤخَّر لعدم وقوع ذلك أو بعضه ، وذلك مثل وجود الاضطرار ، قال الله تعالى : ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ ، فرتب الإجابة على الاضطرار .

وقال بعض العارفين : إذا أراد الله تعالى أن يستجيب دعاء عبده رزقه الاضطرار في الدعاء ، والاضطرار لا يتحققه العبد من نفسه في جميع حالاته . قال بعضهم : المضطر الذي إذا رفع إلى الله تعالى يده لم ير لنفسه عملا .

وهذا حال شريف ومقام منيف يعسر على أكثر الناس الوصول إليه ، فكيف يتحقق مما ينبني عليه اهـ . من « الحكم » ٨ .

ومن الأوراد المهمة التي واظب عليها السادات المسبعات العشر ، وقد أوصاني شيخنا العارف أبو المواهب زين الله الشريفي ونفسي فداه بالمواظبة عليها وأكد الأمر في ذلك لخلفائه .

قال بعض الأكابر : إذا قارب طلوع الشمس يبتدأ بقراءة المسبعات ، وهي من تعليم الخضر عليه السلام علمها إبراهيم التيمي قدس سره وذكر أنه تعلمها من رسول الله ﷺ ، وينال بالمداومة عليها جميع المتفرق فى الأذكار والدعوات . وهي عشرة أشياء سبعة سبعة : الفاتحة ، والمعوذتين ، وسورة الإخلاص ، وقل يا أيها الكافرون ، وآية الكرسي ، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، والصلاة على النبي ﷺ وآله بأن يقول : اللهم صل على محمد وعلى آل

محمد وسلم ، والاستغفار بأن يقول : اللهم اغفر لي ولوالدي ولجميع المؤمنين والمؤمنات ، وقوله سبعا : اللهم افعل بنا وبهم عاجلا وآجلا في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ولا تفعل بنا وبهم يا مولانا ما نحن له أهل ، إنك غفور رحيم جواد كريم رؤف رحيم . « مفتاح التفاسير » .

وقال علي الخواص ﵁ : إذا توجهت إلى الله تعالى في حصول أمر دنيوي أو أخروي فتوجه إليه وأنت فقير ذليل ، فإن غناك وعزتك يمنعانك الإجابة ، وإن كان بالله ﷻ لأن الغنى والعزّ صفتان لا يصح للعبد الدخول على الله تعالى بهما أبدا ، لأن حضرة الحق تعالى لها العزة ذاتية ، فلا عزيزا ولا غنيا ، وهذا أمر من ذاقه لا يمكنه أن ينكره من نفسه . « تقريب » ٩٤ .

ومن كلام بعض العارفين : لا يكن تأخير العطاء مع الإلحاح في الدعاء موجبا ليأسك ، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك لا فيما تختاره أنت لنفسك ، وفي الوقت الذي يريده لا في الوقت الذي تريده .

فريدة في الأدعية المأثورة والواردات المجربات عن السادات

مما يقرأ للأمر المهم والأوجاع منقول عن الصادق[١] ﵁ تقول ثلاث مرات : اللهم أنت لها ولكل عظيمة ففرجها عني . وإن قرأته للوجع فضع يدك حال قراءته على موضع الوجع . « كشكول » للعاملي ٩٢ .

دعاء منقول عن سيد البشر[٢] ﷺ : من أراد أن لا يوقفه الله تعالى على قبيح أعماله ولا ينشر له ديوانا فليدع بهذا الدعاء في دبر كل صلاة وهو : **اللهم إن مغفرتك أرجى من عملي وإن رحمتك أوسع من ذنبي ، اللهم إن لم أكن أهلا أن أبلغ رحمتك فرحمتك أهل أن تبلغني لأنها وسعت كل شيء يا أرحم الراحمين**[٣] . منه ٩٤ .

« ١ » أي الإمام جعف الصادق ﵁ .

« ٢ » وهو من دعاء عمر بن عبد العزيز ﵁ كذا في « حلية الأولياء » .

« ٣ » وقد كان الإمام الشافعي ملازما عليه . « شرح تائية السلوك » للعلامة الشرنوبي عبد المجيد .

ومن الواردات المجربة هذه : اللهم إني أسألك يا من احتجب بشعاع نوره عن نواظر خلقه ، يا من تسربل بالجلال والكبرياء واشتهر بالتجبر في قدسه ، يا من تعالى بالجلال والكبرياء في تفرد مجده ، يا من انقادت الأمور بأزمتها طوعا لأمره يا من قامت السموات والأرض مجيبات لدعوته ، يا من زين السماء بالنجوم الطالعة وجعلها هادية لخلقه وجعلها مفرقة بين الليل والنهار لعظمته ، يا من استوجب الشكر بنشر سحائب نعمه أسالك بمعاقد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وبكل اسم هو لك سميت به نفسك واستأثرت به في علم الغيب عندك وبكل اسم هو لك أنزلته في كتابك أو أثبته في قلوب الصافين الحافين حول عرشك ، فتراجعت القلوب إلى الصدور عن البيان بإخلاص الوحدانية وتحقق الفردانية مقرّة لك بالعبودية وإنك أنت الله أنت الله أنت الله لا إله إلا أنت ، وأسألك بالأسماء التي تجليت بها للكليم على الجبل العظيم ، فلما بدا شعاع نور الحجب من بهاء العظمة خرت الجبال متدكدكة لعظمتك وجلالك وهيبتك وخوفا من سطوتك راهبة منك ، فلا إله إلا أنت ، فلا إله إلا أنت ، فلا إله إلا أنت ، وأسالك بالاسم الذي فتَقْت به رتق عظيم جفون العيون للناظرين الذي تدبرت به حكمتك وشواهد حجج أنبيائك ، يعرفونك بنظر القلوب وأنت في غوامض مسراة سوائد القلوب ، أسألك بعزة ذلك أن تصلي على محمد وآل محمد وأن تصرف عني وأهل خزانتي وجميع المؤمنين والمؤمنات جميعَ الآفات والعاهات والأعراض والأمراض والخطايا والذنوب والشك والشرك والكفر والنفاق والشقاق والضلالة والجهل والمقت والغضب والعسر والضيق وفساد الضمير وحلول النقمة وشماتة الأعداء وغلبة الرجال ، إنك سميع الدعاء لطيف لما تشاء . انتهى . « كشكول » ٢٤٤ .

وورد أيضا دعاء مجرب : يا واحد يا أحد يا فرد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، أسألك بنبيك محمد ﷺ نبي الرحمة وعترته أئمة الأئمة أن تصلي عليه وعليهم وأن تجعل لي من أمري فرجا قريبا ومخرجا رحبا وخلاصا عاجلا إنك على كل شيء قدير .

والدعاء المشهور المروي عن الإمام الشافعي ﵁ : اللهم إني لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني ولا أتقي إلا ما وقيتني ، أللهم وفقني لما تحبه وترضاه من القول والعمل في طاعتك إنك ذو الفضل العظيم .

وليقل أيضا ما هو مروي عن الإمام الشاذلي ﵁ : اللهم إن الأمر عندك محجوب عني ولا أعلم أمرا أختاره لنفسي ، لكن أنت المختار لي فإني فوضت مقاليد أمري إليك ورجوتك لفقري وفاقتي ، فأرشدني إلى أحب الأمور إليك وأرجاها وأحمدها عندك عاقبة في الدين والدنيا والآخرة ، إنك على كل شيء قدير وتفعل ما تشاء وتحكم ما تريد . « تقريب » ١٤٢

وقال سيدي أبو المواهب ﵀ : ومما جربنا فصحّ أن من أراد قضاء حوائجه ودفع مصائبه فليرفع الأمر إلى الله تعالى قبل أن يعلم بها الناس ، هكذا عادة الله تعالى مع من يتعلق به أول مرة ، فاعمل على ذلك فإنه الكبريت الأحمر والفرج القريب والمعين على ذلك الصبر . منه ٧٩ .

عجيب ما قاله الباز الأشهب حسين منصورالحلاج ﵇ حين قدم للقتل بسعاية الأوباش : إلهي أفنيت ناسوتيتي في لاهوتيتك وبحق ناسوتيتي على لاهوتيتك أن ترحم على من سعى في قتلي . « نفحات » ٢٠٩ .

ومما أرشد إلى قطب العارفين السيد أحمد بن إدريس المغربي الحسيني ﵁ : يا لطيف « ألف مرة » ، ثم تقول بعد كل مائة : الطف بي في أموري كلها كما تحب وترضى ، وأرضني في ديني وبدني ودنياي وآخرتي يا ذالجلال والإكرام ، اللهم يا لطيف لطفت بخلق السموات والأرض ولطفت بالجنين في بطن أمه ، الطف بي في قضائك لطفا يليق بجلالك وكرمك يا أرحم الراحمين ويا رب العالمين ويا أكرم الأكرمين « العقد النفيس » ٩١ .

ومن الأدعية التي تواظب عليها السلف السادات الدعاء الوارد عن رسول الله ﷺ : اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر .

وقال أيضا في « عقده » ما معناه : إن من قال ذلك صباحا ومساء فقد صار نائبا عن جميع المخلوقات ناطق وصامت وجامد ومائع ومسلم وكافر في الحمد ، فيعود عليه أجر ذلك الحمد عن كل فرد من المخلوقات .

وهذا شيء لا يعلمه ولا يحصره إلا الله سبحانه وتعالى ، فسبحانه ما أكرمه جل وعلا يجازي بهذا الجزاء الوافي الذي لا يعد ولا يحصى على كلمة واحدة ، ثم انظر بلاغة كلام من لا ينطق عن الهوى الذي أعطي جوامع الكلم عليه الصلاة والسلام « العقد النفيس »٢٥٣ .

وقال الشيخ أبو بكر الخوارزمي رضي الله عنه في « المفيد » : اعلم أن الدعاء نوع عبادة . قال النبي ﷺ : « الدعاء هو العبادة » ، **وقال الله تعالى** : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ، سمي الدعاء عبادة والدعاء هو العبادة والدعاء له كشف وإجابة .

قال النبي ﷺ : « ما من مسلم يدعو بدعوة لا يكون فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله تعالى بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخر له في الآخرة وإما أن يكشف له من السوء مثلها » ، فقالوا : إذاً نكثر الدعاء ، فقال : « الله تعالى أكبر » يعني عطاء الله أكثر .

فإن قلت : يجب على المؤمن الرضاء بالقضاء ، فما معنى الدعاء وكل شدة وبلاء ، سراء وضراء بقضاء الله تعالى ؟

الجواب : عرفت شيئا وغابت عنك أشياء :

إذا رَأَيْـتَ نُيوبَ الّليـثِ بارِزَةً ... فَـلا تَظُنَّنَّ أنَّ الّليْـث مُبْتَسِمُ

فلا تظن أيها المسترشد أن معنى الرضاء بالقضاء ترك الدعاء ، فالعاقل لا يترك السهم المرسل إليه حتى يصيبه مع قدرته على المعالجة بالحرز والتحرز عنه بوجه ، فمن جملة الرضاء بالقضاء أن يتوسل إلى محبوبه بمباشرة ما جعله سببا ، بل لا نترك الأسباب مخالفة لمحبوبه ومناقضة لرضاه ، فليس من الرضاء للعطشان أن لا يمد اليد إلى الماء البارد زاعما أنه رضي بالعطش الذي هو من قضاء الله تعالى ، بل من قضائه ومحبته أن يزيل العطش بالماء ، فمعنى الرضاء بالقضاء ترك الاعتراض ولا يخالف قضية الدعاء .

وسئل بعض العلماء : لم لا يستجاب دعاؤنا ؟ قال : لأن الله تعالى أنعم عليكم فلا تشكرونه ، وعصيتموه فلم تستغفروه ، وسمعتم العلم فلم تستعملوه ، وصحبتم الزهاد فلم تعملوا بمثل أعمالهم ، ورأيتم الجبابرة وما لهم فلم تعتبروا .

وقال بعض العلماء : لا يمنعكم من الدعاء ما تعرفون من أنفسكم من الشر ، فإن الله سبحانه استجاب لعدوه إبليس مع كفره ، قال : ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فاستجاب دعاءه فقال : ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ ، والدعاء أفضل العبادات لا يتداخله الرياء الخ . « مفيد العلوم » .

فصل

في الوصايا التي كانت من ضروريات المريد السالك في هذه النسبة السنية

عن أبي عبد الله الملطي قال : لما أراد موسى أن يفارق الخضر عليهما السلام قال : أوصني بشيء ! قال : كن نفاعا ولا تكن ضرارا ، كن بشاشا ولا تكن عضبانا ، ارجع عن اللجاجة ولا تمش في غير حاجة ولا تعير أحدا بخطيئة ، وابك على خطيئتك يا ابن عمران . انتهى

وذكر صاحب « التقريب » عن شيخه محمد مظهر قدس سرهما أن أهم ما ينصح به الإخوان الكرام أن يكون شغلهم بالله تعالى على الدوام ، وأن يصرفوا جميع هممهم إلى ذكر الله الملك العلام بلا غفلة لمحة عنه سبحانه ، حتى يحصل الحضور التام ويزول التعلق حبا وعلما بما سواه من الأنام .

وقال أيضا : خلاصة الحياة الطيبة تفويض الأمور إلى الله تعالى ورؤية تقلب الأحوال من تقدير الملك المتعال ، وعدم التكلم بلِم وكيف في الوقائع والحوادث ، وترك المعارضة وعدم المضايقة مع المكوَّن الحادث وتقوية القلب بتفكر مواعد الحق تعالى وتذكر خزائنه الغيبية ، واليأس من نفسه ومن الخلق بالكلية . انتهى

وقال الشيخ يوسف بن الحسين الرازي رضي الله عنه حين سئل : يا بني صحح حالك مع الله تعالى لا يشغلك عنه ولا تشغل بما يقول الخلق منك ، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وإذا صحت حالك مع الله تعالى أرشدك للطريق إليه ، واقتد بسنة النبي ﷺ وظاهر العلم ، وإياك أن تدعي فيما ليس لك علم ، فما أهلك عامة المريدين إلا الدعاوى . « نفحات الانس » ١٥٦ .

قال بعض العارفين لشيخه : أوصني بوصية جامعة ! فقال : أوصيك بوصية الله رب العالمين للأولين والآخرين ، قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

﴿ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ ، ولا شك أنه تعالى أعلم بصلاح العبد من كل أحد ، ورحمته ورأفته به أجل من كل رأفة ورحمة ، فلو كان في الدنيا خصلة هي أصلح للعبد وأجمع للخير وأعظم في القدر وأعرف في العبودية من هذه الخصلة لكانت هي الأولى بالذكر والأحرى بأن يوصي به عباده ، فلما اقتصر عليها علم أنها جمعت لكل نصح وإرشاد وتنبيه وسداد وخير وارفاد « كشكول » ٢٤٢ .

وقال أيضا بعض العارفين : إن خيرات الدنيا والآخرة جمعت تحت كلمة واحدة وهي التقوى ، انظر إلى ما في القرآن الكريم من ذكرها ، فكم علق عليها من خير ووعد عليها من ثواب وأضاف إليها من سعادة دنيوية وكرامة أخروية اهـ .

وقال الشيخ عبيد الله أحرار ﷺ : اعلموا أيها الأحباب أن الحق سبحانه وتعالى مع كونه في غاية العظمة والكبرياء في غاية القرب منكم فكونوا في هذا الاعتقاد وإن لم يكن هذا المعنى معلوما لكم الآن ، لكن ينبغي أن تكونوا مع الأدب دائما في الخلاء والملأ ، فإذا كان أحدكم في بيته وحده لا يمدن رجليه ، واقعدوا في الخلوة مصاحبين للحياء ناكسين رؤسكم وغامضين عيونكم ، وكونوا مع الله تعالى بالصدق في السر والعلانية والظاهر والباطن ، فإن قمتم بحفظ هذه الآداب يكون لكم ذلك المعنى بالتدريج ، وينبغى تحلية أنفسكم بحليّ الآداب الظاهرية والباطنية .

فالآداب الظاهرية القيام بأوامر الشرع ونواهيه والمداومة على الوضوء والاستغفار وتقليل الكلام والاحتياط في جميع الأمور وتتبع آثار السلف .

والآداب الباطنية عسيرة جدا ، وأهم الآداب حفظ القلب عن خطور الأغيار فيه خيرا كان أو شرا ، فإنهما مساويان في كونهما حجابا عن الحق تعالى . انتهى

وقد كتب الإمام الرباني ﷺ الصمداني نصيحة إلى بعض مريديه بما لفظه : النصيحة التي أنصح بها هي تصحيح العقائد أولا بموجب أهل السنة والجماعة الذين هم الفرقة الناجية شكر الله تعالى سعيهم ، والعمل بمقتضى الأحكام الفقهية بعد تصحيح الاعتقاد أيضا ضروري ، لا بد من امتثال ما نحن به مأمورون ، ولا مهرب من الانتهاء والاجتناب عما نحن منهيون عنه .

ينبغي أولا أداء الصلوات الخمس من غير فتور ولا كسل مع رعاية الشرائط وتعديل الأركان ، ولا بد من أداء الزكاة أيضا على تقدير حصول النصاب ، وعند الإمام الأعظم ﷺ تجب الزكاة في حلي النساء أيضا .

ولا ينبغي صرف الأوقات في اللهو واللعب ، وإتلاف العمر فيما لا يعني ، فضلا عن صرفها في أمور منهي عنها ، وإياكم والرغبة في الغناء والنغمة والانخداع بالالتذاذ بها ، فإنها سم مطلي بالعسل ، وعليكم بالاجتناب عن الغيبة والنميمة بين الناس ، فإنه قد ورد في ارتكاب هاتين الذميمتين وعيد شديد .

والاجتناب عن الكذب والبهتان أيضا ضروري ، وهاتان الرذيلتان حرامان في جميع الأديان ، ومرتكبهما موعود عليه بوعيدات كثيرة .

وستر عيوب الخلق وذنوب الخلائق والعفو والتجاوز عن زلاتهم من عزائم الأمور ، وينبغي الشفقة والمرحمة على الممالك والأتباع ، والإغماض من تقصيراتهم دون أن يؤاخذهم بها ، وضرب هؤلاء المساكين بوجه وبلا وجه« ١ » وشتمهم وإيذاؤهم غير مناسب وغير ملائم .

ينبغي للإنسان أن ينظر إلى تقصيراته الواقعة في كل ساعة بالنسبة إلى جناب قدسه تعالى ، و هو تعالىلا يعجل في المؤاخذة عليها ولا يمنع الرزق بسببها .

« ١ » أي بسبب ولا سبب .

وبعد تصحيح الاعتقاد وإتيان الأحكام الفقهية ينبغي استغراق الأوقات بذكر الله تعالى على نهج أخذتموه ، وكل ما ينافيه ينبغى أن يجتنب عنه .

كُلُّ شَيءٍ غَيْرُ ذِكْرِ اللهِ لَـو أَكْلُ قِنْدٍ« ١ » فَهْـوَ سُـمٌّ قاتِـل

وقد قيل في الحضور أيضا أنه كلما يحتاط في الأمور الشرعية يزيد في المشغولية ، وإذا وقعت المساهلة في الأحكام الشرعية يزول الحلاوة والالتذاذ بالمشغولية ، والله يهدي من يشاء وإليه ينيب . « مكتوبات » ٥٠ .

وينبغى صرف الأوقات إلى ذكر الله تعالى بعد أداء الصلوات الخمس مع الجماعة وأداء السنن الرواتب ، وأن لا يشتغل بغيره سواء كان وقت الأكل أو النوم أو المشي .

وقد بينا لكم طريق الذكر فينبغي الاشتغال به بهذا الطريق المعهود ، فإن طرأ الفتور على الجمعية ينبغي البحث عن سبب ذلك الفتور وتعيينه وتشخيصه أولا ثم التثبت بأسباب تلافي التقصير ثانيا ، وينبغي التوجه إلى الحق بالالتجاء والتضرع التام ، وأن يسأله سبحانه دفع ظلمة الفتور والتقصير ، وأن يتوسل بالشيخ الذي أخذ عنه الذكر ، والله سبحانه الميسر كل عسير . وينبغي أن يكون الرغبة فى السعي والاجتهاد في تحصيل الإقبال بالكلية على جناب قدسه تعالى و الإعراض عما سواه تعالى .

هذا هو الأمر والباقي من العبث ، وحصول هذه الدولة العظمى موقوف في هذا الوقت على الإخلاص للطائفة العلية النقشبندية والتوجه إليهم ، فإن الذي يحصل في صحبتهم الواحدة لا يتيسر إلا بالرياضات الشديدة والمجاهدات الشاقة في مدة مديدة ، وذلك لأن في طريق هؤلاء الأكابر اندراج النهاية في البداية بحيث يعطى في أول صحبتهم ما يقع فى يد المنتهين في نهايتهم .

وطريق هؤلاء الأكابر هو طريق الأصحاب الكرام ، فإنه كان يحصل لهم في أول صحبة خير البشر عليه الصلاة والسلام ما يندر حصوله لأولياء الأمة

« ١ » القند عسل قصب السكر .

في النهاية ، وهذا طريق اندراج النهاية في البداية ، فعليكم بمحبة هؤلاء الأكابر فإنها ملاك الأمر والسلام اهـ . « مكتوبات » ٩٨ .

وقال[١] شيخ[٢] شيخنا[٣] حكاية عن الشاذلي قدس الله تعالى أسرارهم : انتزع عن حب الدنيا بالإيثار ، وعن المعصية بترك الإصرار ، وداوم على مسألة الرحمة اللدنية واستعن بها على الفعلية ، ولا تعلق قلبك بشيء تكن من الراسخين في العلم الذين لا يغيب عنهم سر ولا علم ، فإن خطر بقلبك خطرات المعصية والدنيا فألقها تحت قدميك حقارة وزهدا ، املأ قلبك علما ورشدا ولا تتشوَّف لها فتغشاك ظلمتها وتنحل أعضاؤك لها ، ثم لا بد من معانقتها إما بالهمة والفكرة أو بالإرادة والحركة ، فعند ذلك يتحير اللب ويكون كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى ، ولا هدى إلا لمن اتقى ولا تقوى إلا لمن أعرض عن الدنيا ، ولا يعرض عن الدنيا إلا من هانت عليه نفسه ، ولا تهون النفس إلا على من عرفها ، ولا يعرفها إلا من عرف الله ، ولا يعرف الله إلا من أحبه ، ولا يحب الله إلا من اصطفاه الله واجتباه وحال بين نفسه وهواه .

وقل : يا الله يا قدير يا مريد يا عزيز يا حكيم يا حميد يا رب يا ملك يا موجود يا هادي يا منعم هب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، وأنعم على عبدك بنعمة الدين وبنعمة الهداية إلى الصراط المستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور بحرمة هذا الاسم الأعظم آمين .

وقـــال : إذا توجهت إلى شيء من عمل الدنيا والآخرة فقل : **يا قوي يا عزيز يا عليم يا قدير يا سميع يا بصير .**

« ١ » في « الجامع » ص ٣٢ .

« ٢ » أي أحمد ضيآء الدين ﷺ .

« ٣ » أي زين الله الشريفي ﷺ .

وقال : إذا ورد عليك مزيد من الدنيا والآخرة فقل : ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ .

وقال : إن المغبون في الدنيا والآخرة من أصحب مصائب الأجور بمصائب الثبور ، والرضا عن الله تعالى ثوابه الرضا من الله تعالى ، فمن لم يرض عن الله تعالى لم يرض الله تعالى عنه ، ومن يسخط عن الله تعالى يسخط الله تعالى عنه . قال الله تعالى : ﴿كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾

وقال أيضا : حد السخط إرادة ما لم يرد الله تعالى بالحكم . وقال : من آمن بالقسمة حرم عليه أن ينازع في الحكم .

وقال : كل مصيبة يرجى ثوابها ولا يخاف عقابها فليست بمصيبة ، إنما المصيبة ما لا يرجى ثوابها ويخاف عقابها .

وقال أيضا : **أخس الناس منزلة عند الله** تعالى **من جعل دينه لقضاء حوائجه** .

وقال : إذا كانت لك حاجة وأردت أن تقضي فأثبت الملك والقدرة والعلم والإرادة والمشيئة لله تعالى ، واجعل فقرك إليه وحاجتك عنده ، واحذر أن يمر بصر قلبك إلى غير الله تعالى فتحجب عنه ، بل فوض إليه ولا تفرح ولا تحزن ولا تخف ولا ترجُ ولا تذل ، والمؤمن لا يذل نفسه ، وقل : بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم .

فاعلم أن أول قدم المريد في هذه الطريق ينبغي أن يكون على الصدق ليصح البناء على أصل صحيح ، فإن المشائخ قالوا : إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول .

قال القشيري ﷺ : ويقبح بالمريد الانتساب إلى مذهب من ليس من أهل هذا الطريق ، لأن الناس إما أرباب النقل والأثر وإما أصحاب العقول والفكر . وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة[1] ، فالذي للناس غيوب فهو لهم

« ١ » أي جملة القسمين . « شرح زكريا الأنصاري على رسالة القشيرية » .

ظهور ، والذي لغيرهم من المعارف مقصود فلهم من الله تعالى موجود . فهم أهل الوصال والناس أهل الاستدلال ، كما قيل :

لَيْلِـي بِـوَجْهِـكَ مُشْـرِقٌ   وَظَلامُهُ في النَّاسِ ساري
فَالنَّاسُ في سُدَفِ الظَّلَامِ   وَنَحْنُ فِـي ضَـوءِ النَّهـارِ

ولم يكن في عصر من الأعصار شيخ من الشيوخ من هذه الطائفة إلا وأئمة ذلك العصر من العلماء يتواضعون له ويتبركون به ويقدمونه على أنفسهم ، ولولا مزيته واختصاصه لكان الأمر بالعكس . « جامع الأصول » ١٠٤ .

ولقد كتب بخط الشيخ محمد فارسا ﷺ ما أوصاه حضرة الخواجه علاء الدين ﷺ زمن وفاته لأصحابه . قال للأصحاب : لا تقيسوا أحوالكم على ما يمر علَيّ من تفرقة الظاهر ، بل كونوا على رعاية الحضور الظاهري والباطني ، وإلا تكونوا متفرقين ومتحيرين .

وقال ﷺ : قد ذهبت الأحباب والأعزة وكذلك يذهبون ، ولا شك أن ذلك العالم أفضل من هذا العالم وقد أريت الخضرة في النظر فقال شخص : نعم الخضرة ، فقال : التراب أيضا طيب لم يبق ميل إلى هذا العالم أصلا غير أن الأحباب يجيؤون ولا يجدونني فيرجعون مكسوري القلوب .

وقـــال في هذا المرض للأصحاب : اتركوا الرسم والعادة وافعلوا خلاف ما هو رسم الخلق وعادة العامة ، وليوافق بعضكم بعضا .

وحكمة بعثة النبي ﷺ إنما هي لإبطال العادات ورسوم البشرية ، وليكن كل واحد منكم مقيما في جنب الآخر وجواره بنفي نفسه وإثبات صاحبه ، واعملوا في جميع الأمور بالعزيمة ولا تعدلوا عنها ما استطعتم ، والصحبة سنة مؤكدة فداوموا على تلك السنة خصوصا وعموما ، ولا تتركوها البتة ، فإن استطعتم على هذه الأمور التي أمرتكم بها يحصل لكم على استقامة لحظة ما حصل لي في جميع عمري ، وتكون أحوالكم في التزايد ، وإن تركتم هذه الوصايا وخالفتموها تكونوا أذلاء متفرقين انتهى « رشحات » ٧٤ .

وقال الشيخ عبد الخالق الغجدواني ﷾ في بعض تحريراته : إني لما بلغت من العمر اثنتين وعشرين سنة فوضني محيي القلوب الميتة أبو العباس أحمد الخضر ﵇ إلى الشيخ الكبير العارف الرباني خواجه يوسف الهمداني ﷾ ووصاه بتربيتي ، فما دام ساكنا فيما وراء النهر كنت في خدمته وملازمته واستفدت واستفضت ، ثم لما رجع خواجه يوسف إلى خراسان اشتغل خواجه عبد الخالق ﷾ بالرياضات وستر حاله عن الأغيار وبلغ ولايته وكرامته مرتبة كان يذهب إلى مكة في كل وقت من أوقات الصلوات ويرجع ، وظهر له في ولاية الشام مريدون لا يحصون ، وبنيت رباطات فيها على اسمه ، وجلس مدة في مقام الإرشاد ودعوة الخلق ودلالة الطالبين على طريق الحق ، وله رسالة « الوصية في آداب الطريقة » كتبها لأجل ولده المعنوي خواجه أوليا كبير ﷾ مشتملة على فوائد جزيلة وعوائد جليلة لا بد منها لجميع السالكين والمريدين ، و من جملتها هذه الفقرات الجامعة نوردها للتبرك والتيمن :

قال ﷾ : أوصيك يا بني بتعلم العلم والأدب والتقوى في جميع الأحوال ، وعليك بأن تتبع آثار السلف وأن تلازم السنة والجماعة وتعلم الفقه والحديث واجتنب الصوفي الجاهل ، وصل الصلوات بالجماعة على الدوام بشرط أن لا تقبل شيئا من وظائف الإمامة والآذان .

وإياك وطلب الشهرة ، فإن فى الشهرة آفة ، ولا تكن مقيدا بمنصب واختر الخمولة دائما ، ولا تكتب اسمك في الحجج والوثائق ، ولا تحضر محكمة القضاء ، ولا تكن كفيلا لأحد ، ولا تدخل في وصايا الناس ، ولا تصحب الملوك وأبناءهم ، ولا تبن رباطا ولا تقعد فيه ولا تكثر السماع ، فإن الإكثار منه يورث النفاق ويميت القلب ، **ولا تنكر السماع فإن أصحاب السماع كثير . وكن قليل الكلام وقليل الطعام وقليل المنام ، وفرّ من الخلق فرارك من الأسد** ، والزم الخلوة ولا تصحب الولدان والنسوان والمبتدعين والأغنياء المتكبرين والعوام كالأنعام ، وكل من الحلال واحذر من الشبهة .

ولا تتزوج ما استطعت فتطلب الدنيا ويكون دينك هباء في طلب الدنيا ، ولا تكثر الضحك واحذر في الضحك من القهقهة ، فإن كثرة الضحك تميت القلب . وانظر إلى كل أحد بعين الشفقة ولا تحقر أحدا .

ولا تزين ظاهرك **فإن تزيين الظاهر ينبئ عن خراب الباطن** ، ولا تجادل مع الخلق ولا تطلب شيئا من أحد ولا تأمر أحدا بالخدمة . واخدم المشائخ بالمال والبدن والروح ، ولا تنكر على أفعالهم **فإن منكر المشائخ لا يفلح أبدا** ، ولا تكن مغرورا بالدنيا ولا بأهلها .

وينبغي أن تكون مغموم القلب دائما ، وأن يكون بدنك مريضا وعينك باكية وعملك خالصا ودعآؤك مقرونا بالتضرع ، ولباسك خلقا ورفيقك طالبا صادقا ورأس مالك فقرا وبيتك مسجدا ومونسك الحق تعالى . انتهى ما ترجمه العارف بالله مولانا محمد مراد المنزلوي ثم المكي من كلام الهروي ﷻ .

فانظر أيها الرشيد إلى هذه الوصية ما أحسنها وألطفها مع اختصار العبارة ، كأنه نطق عن الحق بالحق وفقنا الله تعالى ولكم لاتباع السنة والوصول إلى حق اليقين .

فلا تغتر أيها الصادق الأمين بجوز الطريق وموزه مثل الأطفال ، ولا تتخيلوا الوصول إلى النهاية ولا تظهروا الوقائع لشيوخ ناقصين فإنهم يستكثرون القليل بمقياس وجدانهم ويزعمون البداية نهاية ، فلا جرم يقع الطالب المستعد في زعم الكمال ويتطرق الفتور إلى طلبه .

ينبغي للعاقل طلب شيخ كامل والتماس علاج الأمراض الباطنية منه ، وما لم يلق شيخا كاملا ينبغي نفي تلك الأحوال بحرف (لا) وإثبات المعبود بالحق المنزه عن الكيف والمثال .

قال الخواجه بهاء الدين النقشبند ﷺ : كلما يكون مرئيا أو مسموعا أو مدركا فهو غيره تعالى ينبغي نفيه بحقيقة كلمة (لا) ، فعليك نفي ما يظهر في الأكثر ، وهو تعالى وراء الوراء ، ولا يتخيل في جانب الإثبات غير التكلم

بكلمة المستثنى أصلا ، وهذا هو طريق هذه الطريقة والسلام على من اتبع الهدى والتزم متابعة المصطفى ﷺ .

ومن المعلوم أن مدار هذه الطريقة على أصلين : الاستقامة على حد لا ينبغي أن يرضى بترك أدنى آدابها ، ومحبة شيخ الطريقة ، وقد ذكرناه غير مرة ، والثبات عليها والإخلاص على نهج لا يبقى مجال الاعتراض عليه أصلا ، بل يكون جميع حركاته وسكناته مستحسنة ومحبوبة في نظر المريد .

ونعوذ بالله سبحانه من وقوع خلل في أمر من الأمور المتعلقة بهذين الأصلين ، فإن هذين الأصلين إذا كانا على الاستقامة بعناية الله سبحانه وتعالى فسعادة الدنيا والآخرة نقد الوقت ، فينبغي الاحتياط في مراعاتها وتلافي التقصيرات بالتضرع والابتهال .

وإيـــــاك والغرور بمجرد اسم الإجازة ، فالإجازة سلسة ثقيلة يُغْتَرُّ بها كثيرا ، ولا ينفع الإجازة إلا بالاستقامة التامة ، ولا يلزم السعي والاجتهاد في تحصيل كل ما يقع في الخاطر ، وقد يقع أشياء تركها أولى وأنسب . والنفس اللجوجة إذا ولعت بأشياء تريد أن تحصلها وتتمها ولا تلاحظ في حقيّتها وبطلانها . ولقد حررت في حق هذه كلمات كثيرة ، فينبغي لك أن تكون في فكر نفسك وتدبير أمرك حتى تذهب بسلامة الإيمان ، وما ذا تنفع الإجازة والمريدون ؟ فإذا جاء طالب صادق حين اشتغالك بنفسك وشأنك فحينئذ تعلمه الطريقة ، لا أنك تجعل الطريقة أصل الأمر ومقصودا بالذات وتجعل معاملتك تابعة له ومقصودا بالعرض ، فإن ذلك ضرر محض وخسران صرف ، قاله الإمام الرباني قدس سره الصمداني .

وقال الشاذلي رضي الله عنه : أشقى الناس من يعترض على مولاه وأركس في تدبير دنياه ونسي المبدأ والمنتهى والعمل لأخراه واتبع هواه اهـ .

وقال العلامة أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري المأوردي في كتابه « أدب الدنيا والدين » قال : وحكى الأصمعي رحمه الله تعالى قال :

دخلت على الرشيد رحمة الله عليه يوما وهو ينظر في كتاب ودموعه تسيل على خده ، فلما أبصرني قال : أرأيت ما كان مني ؟ قلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ، فقال : أما أنه لو كان لأمر الدنيا ما كان هذا ثم رمى إلي بالقرطاس فإذا فيه شعر أبي العتاهية رحمه الله تعالى :

هَلْ أنْتَ مُعْتَبرٌ بِمَنْ خَرِبَتْ ... مِنْهُ غَداةَ قَضى دَساكِرُه
وَبِمَنْ أذَلَّ الدَّهْرُ مَصْرَعَهُ ... فَتَبَرَّأتْ مِنْهُ عَساكِرُهُ
وَبِمَنْ خَلَتْ مِنْهُ أسِرَّتُهُ ... وَتَعَطَّلَتْ مِنْهُ مَنابِرُهُ
أيْنَ المُلوكُ وَأيْنَ عِزُّهُمُ ... صَاروا مَصيراً أنتَ صائِرُهُ
يا مُؤْثِرَ الدُّنْيا لِلَذَّتِهِ ... والمُسْتَعِدّ لِمَنْ يُفاخِرُه
نِلْ ما بَدا لَكَ أنْ تَنالَ مِنْ ... الدُّنْيا فَإنّ المَوتَ آخِرُه

فقال الرشيد : والله لكأنّي أخاطَبُ بهذا الشعر دون الناس ، فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيرا حتى مات رحمه الله تعالى .

وقال أبو حازم رضي الله عنه : إن عوفينا من شر ما أعطينا لم يضرنا فقْدُ ما زوي عنا . وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو أعطيت فأمضيت » .

وقال خالد بن صفوان رضي الله عنه : بت ليلتي أتمنى فكسبت البحر الأخضر والذهب الأحمر ، فإذا يكفيني من ذلك رغيفان وكوزان وطمران .

وقال مورق العجلي رضي الله عنه : يا ابن آدم تؤتى كل يوم رزقك وأنت تحزن وينقص عمرك وأنت لا تحزن ، تطلب ما يطغيك وعندك ما يكفيك .

وقال أبو حازم رضي الله عنه : إنما بيننا وبين الملوك يوم واحد ، أما أمس فقد مضى فلا يجدون لذته ، وإنا وهم من غد على وجل ، وإنما هو اليوم فما عسى أن يكون . انتهى « أداب الدنيا »١٠٤ .

وقال بعض الصلحآء : إن بقاءك إلى فنآء وفناءك إلى بقآء ، فخذ من فنائك الذي لا يبقى لبقائك الذي لا يفنى .

وقال بعض العلماء : أي عيش يطيب وليس للموت طبيب .

وقال الرشيد لابن السماك رحمهما الله تعالى : عظني وأوجز . فقال : اعلم أنك أول خليفة يموت .

وقال بعض البلغاء : الأمل حجاب الأجل .

وقال بعض الشعراء :

ألا إنَّما الدُّنيا مَقيلُ لِــــراكِبٍ	قَضى وَطَراً مِنْ مَنْزِلٍ ثُمَّ هاجَرا
وَراحَ ولا يَدْري عَلامَ قُدومُهُ	ألا كُلُّ ما قَدَّمْتَ تَلقى مُوَفَّرا

وروى سعيد ابن مسعود ﵁ أن أبا الدرداء ﵁ قال : يا رسول الله أوصني . فقال ﷺ : « اكسب طيبا واعمل صالحا ، واسأل الله تعالى رزق يوم بيوم واعدد نفسك من الموتى » .

وكتب الربيع بن خيثم ﵁ إلى أخ له : قدم جهازك وافرغ من زادك ، وكن وصي نفسك والسلام .

وذكر في « المكتوبات الربانية » في ١٦١ كتابا إلى شرف الدين حسين ﵁ : إياك أيها الولد والانخداع بطراوة الدنيا الدنية والافتتان بمزخرفاتها الشنيعة التي لا معنى فيها ، فإن الدنيا ليس لها مدار ولا اعتبار ولا هي محل قرار ، وهذا المعنى وإن لم يكن اليوم معلوما لكم ولكنه سيكون غدا معقولا البتة ، ولكن لا ينفع ، **وينبغي لك أن تكون مولعًا وحريصا بتكرار ذكر القلب** ، معتقدا أنه من أجل نعم الله جلّ شأنه ، وأن تصلي الصلوات الخمس مع الجماعة من غير تكاسل وفتور ، وأن تؤدي زكاة الأموال إلى الفقراء والمساكين بنشاط القلب ، وأن تجتنب المحرمات والمشتبهات ، وأن تكون مشفقا على الخلق ، وهذا هو طريق النجاة والخلاص اهـ « مكتوبات » .

وقال ذو النون المصري ﵁ : إياك وهذه الأوراد المتصلة فإن النفس تألفها ، وانظر ما فيه مخالفة نفسك من صيام وفطر فاعملها **فإن في متابعة النفس طاعة كانت أو معصية فتنة** ، فما ألفت النفس شيئا إلا وفيه بلاء وخطر « نفحات الأنس » ١٥٠ .

وقال أكابر السادات وذكره شيخ شيخنا ﵁ في « جامعه » ما نصه : إذا أردت أن يكون لك نصيب مما لأولياء الله تعالى فعليك برفض الناس جملة واحدة ، إلا من يدلّك على الله تعالى بإشارة صادقة وأعمال ثابتة لا ينقضها كتاب ولا سنة ، وأعرض عن الدنيا بالكلية ولا تكن ممن يعرض عنها ليعطى شيئا على ذلك ، بل كن في ذلك عبد الله تعالى أمرك أن ترفض عدوه ، فإن كنت في هاتين الخصلتين الإعراض عن الدنيا والزهد في الناس فأقم مع الله تعالى في المراقبة والزم التوبة بالرعاية والاستغفار بالإنابة والخضوع للاحكام بالاستقامة .

وتفسير هذه الأربعة أن تكون عبداً لله تعالى فيما تأتي وتراقب قلبك أن لا يرى في المملكة شيئا غيره . فإذا أتيت بهذا نادتك هواتف الحق من أنوار العز : إنك قد عميت عن طريق الرشد من أين لك القيام بالمراقبة ، وأنت تسمع : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ فهنالك يبدو لك من الحياء ما يحملك على التوبة بما ظننت أنه قربة ، فالزم التوبة بالرعاية لقلبك ولا تشهد ذلك منك بحال فتعود إلى ما خرجت ، فإن صحت هذه منك نادتك الهواتف أيضا من قبل الحق تعالى : أليس بالتوبة منه بدأت والإنابة تتبعها واشتغالك بما هو وصف لك حجاب عن مرادك ، فهناك تنظر أوصافك فتستعيذ بالله تعالى منها فتأخذ في الاستغفار والإنابة .

فالاستغفار طلب الستر من أوصافك بالرجوع إلى أوصافه وإن كنت بهذه الصفة ناداك من قريب : اخضع لأحكامي ودع عنك منازعتي واستقم مع إرادتي برفض إرادتك ، وإنما هي ربوبية تولت عبودية ، فكن عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ، فمتى رأيت منك قدرة وكلتك إليها وأنا بكل شيء عليم ، فإن صح لك هذا الباب ولزمته أشرقتَ من هنالك على أسرار لا تكاد تسمع من العالمين . اهـ « جامع » ٤٥ .

قال قثم الزاهد ﵀ : رأيت راهبا على باب بيت المقدس كالواله فقلت له : أوصني ، فقال : كن كرجل احتوشته السباع فهو خائف مذعور يخاف أن يسهو فتفرسه أو يلهو فتنهشه ، فليْله ليل مخافة إذا أمن فيه المغترون ، ونهاره نهار حزن إذا فرح فيه البطالون ، ثم إنه ولى وتركني فقلت : زدني ، فقال : إن الظمآن يقنع بيسير الماء انتهى .

وقال عنوان المصري ﵀ : سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق ﵁ عن وصية وقلت : أوصني يا أبا عبد الله ، فقال : أوصيك بتسعة أشياء فإنها وصيتي لمريدي الطريق إلى الله تعالى ، اِسْأله أن يوفقك لاستعمالها : ثلاثة منها في رياضة النفس ، وثلاثة منها في الحلم ، وثلاثة منها في العلم ، فاحفظها وإياك والتهاون بها ، فقال عنوان : ففرغت له ، فقال : أما اللواتي في الرياضة فإياك أن تأكل ما لا تشتهيه ، فإنه يورث الحماقة والبله ، ولا تأكل إلا عند الجوع وإذا أكلت فكل حلالا وسمّ الله واذكر حديث رسول الله ﷺ : « ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه » فإن كان ولا بد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه ، وأما اللواتي في الحلم ، فمن قال لك إن قلتَ واحدة سمعتَ عشرا فقل له : إن قلتَ عشرا لم تسمعْ واحدة ، ومن يشتمك فقل له : إن كنت صادقا فيما تقول فأسأل الله تعالى أن يغفر لي ، وإن كنت كاذبا فيما تقول فأسأل الله تعالى أن يغفر لك ، ومن وعدك بالخنى فعده بالنصيحة والدعاء ، وأما اللاتي في العلم ، فاسأل العلماء ما جهلت ، وإياك أن تسألهم تعنتا وتجربة ، وإياك أن تعمل برأيك شيئا ، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلا ، **واهرب من الفتيا هروبك من الأسد** ، ولا تجعل رقبتك جسرا للناس ، قم عني يا أبا عبد الله فقد نصحت لك ولا تفسد علي وردي فإني امرء ضنين بنفسي ، والسلام على من اتبع الهدى .

وفي الحديث : « لا يترك الناس شيأ من دينهم لاستصلاح دنياهم إلا فتح الله عليهم ما هو أضر منه » « كشكول » ١٩٥ .

ومما أوصى به أمير المؤمنين ﷺ أولاده : يا بني عاشروا الناس عشرة ، إن غبتم حنوا إليكم وإن فقدتم بكوا عليكم يا بني إن القلوب جنود مجندة تتلاحظ بالمودة وتتناجى بها ، وكذلك هي في البغض ، فإذا أحببتم الرجل من غير خير سبق منه إليكم فارجوه ، وإذا بغضتم الرجل من غير سوء سبق منه إليكم فاحذروه « كشكول » ٢١٥ .

أوصى حضرة الخواجه بهاء الدين النقشبند ﷺ بوصيتين ، هما للسالك كالعينين والأذنين :

إحداهما : أن السالك لو وصل في أي محل وصل لا يرى نفسه إلا في أول قدم من الطريق .

الثانية : أنه لو نال من السلوك على المراتب لا يرى نفسه إلا أنها أقل من نفس فرعون بمائة مرة ، وإن لم يرها كذلك فليس له في السلوك نصيب .

فانظر إلى هاتين الوصيتين تجد السالك يحتاج إليهما كاحتياجه للسمع والبصر بل أشد وأكثر ، فإنه متى أخطأهما أصابه العجب ، وهو أشد المهالك كما شهد بذلك سيد الكائنات ﷺ ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، وقد ذكرناها في هذه الأرجوزة ، وفقني الله تعالى وإياك وسائر السالكين لنيل هذه الأذواق ، ولا حرمنا اليسر في هذا المساق ويسّر لنا بفضله مطايا السباق . « تقريب » ١٦٣ .

وقد كتب مولانا الشيخ سراج الدين إسماعيل الكردميري النقشبندي إلى خليفته أبي إسحق محمد اليراغي قدس الله أسرارهم موصيًا له بالنصيحة بما نصه هذا : بحمد من تجلى ذاته لذاته في المرتبة الأحدية فظهر منه نقطة الحقيقة الأحمدية وفصلها لتعينات مختلفة في عالم الجبروت وجعلها مدارا لفيض الوجود والتقرب في عالم الملكوت ، وبعد فقد تحقق عندنا محبتكم الذاتية إجمالا وبإرسال المراسلة الميمونة تأكدت تفصيلا .

ثم اعلم أنه قد اتفق جميع الملل على أن المطلب الأعلى والمقصد الأقصى معرفة الله تعالى وصفاته تفصيلا ، وذلك لا يحصل إلا بعد تصقيل الروح الإنساني عن ظلمات النفس الحيواني وتوجيهها إلى مرتبتها الأولى ، وتخلية اللطائف عن منشأ الرزائل وتحليتها بمنبع الفضائل وتبديل الغياهب السائرة بالأنوار الباهرة وجعل عالم الخلق تابعا لعالم الأمر ، وذلك بعد التثبت بالانكسار التام والخضوع الأتم بيد مرشد كامل بلا واسطة أو بها ، حتى يتصرف قربا وبعدا في عالم الملك والملكوت أحياء وأمواتا ، فعلم أن تعشقكم إلينا إنما هو لمجرد التلاقي الجسماني ، وإلا فالتلاقي الروحاني حاصل والتصرف الباطني كامل .

ثم لا يخفى عليكم أن خليفة الفقير ما أرسل إليكم إلا من طرف الحضرات بعد العلم بأن ما يحصل عندنا يحصل عنده ، فمن يغتنم بصحبته يصل إلى ما لا يدركه علم العلماء وعقل العقلاء . اهـ

ثم إني أوصيك بالتمسك بالكتاب والسنة والأمر بتصحيح الاعتقاد بمقتضى آراء أهل السنة والجماعة الذين هم الفرقة الناجية على ما أطبق عليه أئمة الكشف والوجدان ، وأوصيك بتوقير حملة القرآن والفقهاء والفقراء وبسلامة الصدر وسماحة النفس وسخاوة اليد وبشاشة الوجه وبذل الندى وكف الأذى والصفح عن عثرات الإخوان والنصيحة للأصاغر والأكابر وترك الخصومات وترك الطمع والاعتماد في قضاء الحوائج إلى الله تعالى فإنه لا يضيع من عول عليه ، وأن لا ترجو النجاة إلا في الصدق ولا الوصول إلى الله تعالى إلا في اتباع النبي ﷺ ، وأن لا تظن أنك أفضل من أحد ، بل لا ترى لنفسك وجودا ، وكل ما يتطاول عليك بالحسد والنميمة فوض أمره إلى الله تعالى ولا تغتب من أحد ، ولا تتكلم بالأحوالات لك بين الناس ليمدحوك .

واعلم بأن كل أحد فوقك علما وعملا ، وحبب أهل طريقتك محبة أولادك ، وإياك وابتداع أمور في الطريقة من جهتك أو من جهة شيخك ، وعضّ بنواجذك لأخذ اصطلاح السادات الموروثة من رئيس هذه الطريقة

النقشبندية مولانا بهاء الحق والملة الشيخ خواجه نقشبند بهاء الدين البخاري الأويسي قدس الله سره ، وعليك بالاقتداء أيضا لخلفائه وخلفاء خلفائه كالإمام الرباني ثم الشيخ خالد سليماني ﷺ ووسائطهم ، فإنهم سرج هذه النسبة العلية وساداتها جعلكم الله تعالى بالاستقامة الكاملة من أهل الحضور والمشاهدة وأفاض علينا من بركات أنفاسهم أمين .

وقال الإمام الرباني ﷺ في مكتوبه إلى جان جانان ﷺ : أيها المخدوم المكرم إن أهل هذه السلسة العلية وقعوا في هذه الديار غرباء ومناسبةُ أهل هذه الديار لطريقة هؤلاء الأكابر الذين هم ملتزمون للسنة بواسطة شيوع البدعة في هذه الديار قليلةٌ ، ومن ههنا اخترع بعض أهالي هذه السلسلة بواسطة قصور نظره في هذه الطريقة العلية أيضا بدعاتٍ وجذب قلوب الناس بعلاقة ارتكاب تلك البدعات إلى جانبه وظن هذا العمل بزعمه تكميلا لهذه الطريقة العلية ، حشاها عن ذلك وكلا ، بل هؤلاء الجماعة يجتهدون في تخريب الطريقة وتضييعها ، ولم يدركوا حقيقة معاملة أكابر هذه الطائفة هداهم الله سبحانه سواء الصراط .

وحيث أن أهل هذه السلسلة العلية عزيزو الوجود في هذه الديار ينبغي لمريدي هذه السلسلة ومحبيهم إمداد هؤلاء الأكابر وطلبة هذا الطريق وإعانتهم ، فإن الإنسان مدني الطبع مجبول على التمدن محتاج في تعيشه إلى بني نوعه .

قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فإذا كان في كفاية مهمات خير البشر عليه وعلى آله الصلوات والتسليمات دخل للمؤمنين فما المضايقة على الآخرين ؟

وأكثر أغنياء هذا الوقت يزعمون الدرويشية في عدم الاحتياج وليس كذلك ، فإن الاحتياج ذاتي لجميع الممكنات ، بل حسن الإنسان هو في هذا الاحتياج وذلّ العبودية ناشئ من هذه الجهة ، فإنه لو زال الاحتياج فرضا عن الإنسان وحصل له الاستغناء لا يكون فيه غير العصيان والعناد والطغيان ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ .

غاية ما في الباب أن الفقراء لتخلصهم عن التعلق بالأغيار يحيلون الاحتياج إلى الأسباب على مسبب الأسباب ويرون الدولة المبذولة العامة من خوان نعمته تعالى ويعتقدون أن المانع والمعطي في الحقيقة هو الله تعالى .

وحيث أوردت الأسباب في البين بواسطة حِكم ومصالح ، ونسب الحسن والقبح إليها يجعل هؤلاء الأكابر أيضا الشكر والشكاية راجعين إليها ويرون الحسنة والسيئة منها ، فإنهم لو لم يعتبروا الأسباب لأبطلوا معاملة عظيمة ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ اهـ ١٠٧ .

وقال في « تقريب الأصول » والقول لأبي عثمان قال : قال لي أبو حفص ﷺ : **إذا جلست للناس أي لِوعظهم فكن واعظا لقلبك ولنفسك لينتفعوا بوعظك ، فإنه إذا صحت نيتك في وعظ نفسك خرج الكلام من قلبك ووقع في قلب السامعين** ، ولا يغرنك اجتماع الناس عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله سبحانه وتعالى يراقب باطنك ، ولتكن راضيا بقضاء الله تعالى عليك وبما يصل منه إليك .

قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ﷺ في شرحه على « رسالة القشيري » : يجب على العبد أن يرضى بما يُجريه الله عليه بشرط أن يكون الذي يجرى عليه مطلوبا شرعيا ، وأما إذا كان غير مطلوب شرعا ، فهو في رضا الشيطان لا في رضا الله تعالى ، **نعم يجب عليه الرضا بالقضاء من حيث القضاء** ، أي من حيث صدوره من الله تعالى ، لا من حيث المقضي ، أما من حيث المقضي فلا يرضى به إلا إن كان موافقا للشرع ، فيجب الرضا بالقضاء وببعض المقضيات لا بكلها ، إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أن يرضى به كالمعاصي والكفر ، قال الله تعالى : ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ ، فلا يرضى العبد بما كان مخالفا للشرع ولو مكروها أو خلاف الأولى وإن كانت مرادة لله تعالى . « تقريب » ١٠٤

وقال الشيخ عبد الله الخاني ﷺ في « بهجته » : يا أخي رحمك الله قد سافرت إلى أقصى البلاد ، وعاشرت أصناف العباد ، فما رأت عيني ولا سمعت أذني أشر ولا أقبح ولا أبعد عن جناب الله تعالى من طائفة تدعي أنها من كمل الصوفية وتنسب نفسها إلى الكمل وتظهر بصورتهم ، ومع هذا لا تؤمن بالله تعالى ورسله ولا باليوم الآخر ولا تتقيد بالتكاليف الشرعية وتقرر

أحوال الرسل وما جاؤا به بوجه لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان . فكيف من وصل إلى مراتب أهل الكشف والعيان اهـ .

وصيـــــة : يا أخي ، لا تجادل فقهاء الشريعة رضوان الله تعالى عليهم على طريق أهل الله ، فإنهم أهل حق وقفوا عند الظاهر لأن استعدادهم الغير المجعول أعطي ذلك ، وإن جادلتهم فجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .

وصيـــــة : عليك باعتقاد أهل الحديث ، واجتهد أن تكون منهم فإنهم هم ورثة الأنبياء ، وإياك وتقليد أهل الكلام فإنهم ملعبة للشيطان ، ولا تكفّر أهل القبلة ولا تتكلم فيهم إلا بخير .

وصيـــــة : إياك والتأويل فإنه دهليز للإلحاد والزندقة ، وإذا أولت على طريق أهل الإشارة فإياك أن تنفي الظاهر فإنه هو مراد الشارع بلا شك ومن نفاه فقد كفر بلا شبهة . وليكن حالك في المتشابهات حال مالك رضي الله عنه حين سئل عن الاستواء فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، واحذر أن تكون من الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة و ابتغاء تأويله وقف عند ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وإياك أن تكون على خلاف هذه الحالة فتكون من ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ .

وإذا وقفت لما أمرتك به فلا تأمن مكر الله فتكون من الخاسرين وقل ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ .

وصيـــــة : عليك بالعزلة كما سنبينه لك إن شاء الله تعالى ، واعرف زمانك وإخوانك وعاملهم معاملة يستحقونها ، وأغلق بابك دون الخلق ، واغتنم الوحدة وكف جوارحك عن الفضول ، وتعرض لنفحات الله تعالى فإن لربك في أيام دهرك نفحات ، **وإياك والاختلاط بأهل الدنيا واعرض عنهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا** ، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب وعاقبها قبل أن تعاقب و مت بالاختيار حتى تحيى عند نزول هاذم اللذات .

وصيـــــة : احفظ الله يحفظك واتق الله تجده أمامك ، تعرّف إلى الله تعالى في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله ، فقد جف القلم بما هو كائن ، ولو جهد الخلق على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا عليه ، ولو جهد الخلق على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله لم يقدروا عليه ، فإن استطعت أن تعمل لله بالصدق في اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا .

واعلم أن النصر مع الصبر والفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا . وفيما أوردناه كفاية لأرباب العناية ، فإن الله تعالى يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، وهو الفعال لما يريد . انتهى « بهجة » ١٥ ، وراجع « شرح سلك العين » ١٠١ .

وقال ﷺ : « من عيّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله » « تفسير البحر » . وعن يحيى بن جابر رضي الله عنه قال : ما عاب رجل قط رجلا إلا ابتلاه منه بذلك العيب « شرح سلك العين » ١٠٢ .

وقال يحيى بن معاذ رضي الله عنه : ليكن حظ المؤمن منك ثلاثا : فإذا لم تنفعه فلا تضره ، وإذا لم تسرّه فلا تغمّه ، وإن لم تمدحه فلا تذمه .

وقال أمير المؤمنين كرم الله وجهه لرجل يسأله أن يعظه : **لا تكن ممن يرجو الآخرة بلا عمل ويرجو التوبة بطول الأمل** ، يقول في الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها بقول الراغبين ، إن أعطي منها لم يشبع وإن منع لم يقنع ، ينهى ولا ينتهي ويأمر بما لا يأتي ، يحب الصالحين ولا يعمل عملهم ويبغض المذنبين وهو أحدهم ، ويكره الموت لكثرة ذنوبه ويقيم على ما يكره الموت ، إن سقم ظلّ نادما وإن صح أمن لاهيا ، يعجب بنفسه إذا عوفي ويقنط إذا ابتلي ، إن أصابه بلاء دعا مضطرا وإن ناله رخاء أعرض مغترا ، تغلبه نفسه على ما يظن ولا يغلبها على ما يستيقن ، يخاف على غيره بأدنى من ذنبه ويرجو لنفسه بأكثر من عمله ، إن استغنى بطر وفتن وإن افتقر قنط ووهن ، يقصر إذا عمل ويبالغ إذا سئل ، إن عرضت له شهوة أسلف المعصية وسوّف التوبة ، وإن عرته محنة انفرج عن شرائط الملة ، يصف

العبر ولا يعتبر ويبالغ في الموعظة ولا يتعظ ، فهو بالقول مُدل ومن العمل مُقل ، ينافس فيما يفنى ويسامح فيما يبقى ، يرى الغنم مغرما والغرم مغنما ، يخشى الموت ولا يبادر الفوت ، يستعظم من معصية غيره ما يستقل أكثر منه من نفسه ، ويستكثر من طاعته ما يحتقر من طاعة غيره ، فهو عن الناس طاعن ولنفسه مداهن ، اللهو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقراء ، يحكم على غيره لنفسه ولا يحكم عليها لغيره ، يرشد غيره ويغوي نفسه ، فهو يطاع ويعصي ويستوفي ولا يوفي ، ويخشى الخلق في غير ربه ولا يخشى ربه في خلقه .

قال جامع « النهج » : كفى بهذا الكلام موعظة ناجعة وحكمة بالغة وبصيرة لمبصر وعبرة لناظر مفكر . ذكره البهاء العاملي في « كشكوله » في ١٩٦ .

وإني المغبون أقول : كلما نظرت في هذه الموعظة أراها فكأنها جمعت لأجلي ، وليس من هذه الأوصاف شيء إلا وتقرر في نفسي . وفقنا الله تعالى لاتباع الحق أمين .

وقال الشيخ المقتول في بعض مؤلفاته : اعلم أنك ستعارض بأعمالك وأقوالك وأفكارك ، وسيظهر عليك كل حركة فعلية أو قولية أو فكرية صورا جانّيّة« ١ » ، فإن كانت تلك الحركة عقلية صارت تلك الصورة مادة لملك تلتذ بمنادمته في دنياك وتهتدي بنوره في أخراك ، وإن كانت تلك الحركة شهوية أو غضبية صارت تلك الصورة مادة لشيطان يؤذيك في حال حياتك ويحجبك عن ملاقاة النور بعد وفاتك انتهى « كشكول » ٣٥ .

« ١ » أي خفيّة .

فصل

في بيان شطحات الصوفية وخرافات متشيخي زماننا ثبتهم الله تعالى وإيانا بالقول الثابت

وقال ابن زروق ﷺ : الأغلب في الظهور لازم في الاستظهار بما يلازمه ، وقد عرف أن التصوف لا يعرف إلا مع العمل به ، فالاستظهار به دون عمل تدليس ، وإن كان العمل شرط كماله ، وقد قيل : يهتف العلم بالعمل ، فإن وجده وإلا ارتحل ، أعاذنا الله تعالى من علم بلا عمل .

وقال أيضا : لا يصلح العمل إلا بعد معرفة حكمه ووجهه ، فقول القائل « لا أتعلم حتى أعمل » كقوله « لا أتداوى حتى تذهب علتي » ، فهو لا يتداوى ولا تذهب علته ، ولكن العلم ثم العمل ثم النشر ثم الإجادة . وبالله التوفيق .

اعلم أيها الرشيد المسترشد أن سوء الخاتمة محذور ، ولها تفتَّتَ أكبادُ الصديقين ، فإن الموت أمر عظيم ، ووداع الدنيا وجعٌ أليم ، والفطام عن هذه المألوفات شديد ، وبين يدي كل برّ وفاجر عقبات صعاب ، فعندها يخشى نزع الإيمان . ولها أسباب كثيرة ، ولكن أخوفها وأصعبها شيئان إثنان :

أحدهما بدعة مترسخة في القلب ، متشبثة في جوانب الصدر ، ينقضي عليها طول الدهر ومدة العمر يعتقد أنها حق ، فإذا هي باطلة . فإذا كشف لصاحبها في وقت الموت وكشف له القناع تبين من بكى ممن تباكى ، ويظهر له أن ما اعتقده كان باطلا وأن ما تركه وهجره كان حقا ، فيخشى عليه زوال الإيمان .

والثاني أن يكون إيمانه ضعيفا ومحبة الدنيا غالبة على قلبه ، ومحبة الله تعالى ورسوله ضعيفة في قلبه . فإذا رأى أنه مسلوب من جميع الشهوات ممنوع من سائر اللذات قهرا ، ويحمل إلى دار لا رغبة له فيها ويذوق شرابا لم يذقه ، فيكره جميع ذلك ويكره الموت ويكره أمر الله تعالى وأمر رسوله ويكره مفارقة الدنيا والموت ، فحينئذ يخاف عليه نزع الإيمان ، كما قاله الشيخ أبو بكر الخوارزمي في « المفيد » ١٤٨ .

وسئل سيد الطائفة جنيد البغدادي ﷺ عن التصوف فقال : خلق كريم يظهره الكريم في زمان كريم من رجل كريم بين قوم كرام .

وقال أيضا : إذا صافى عبد أو ارتضاه بخالصته وعدّه من خاصته ألقى إليه كرمة كريمة من لسان كريم في وقت كريم على مكارم كريم بين قوم كرام « نفحات » ١٣٣ و « شرح سلك العين » ١٩٦ .

وقال ابن زروق ﷺ : لا علم إلا بتعلّم من الشارع أو من ناب منابه فيما أتى به ، إذ قال عليه الصلاة و السلام : « إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلّم ، ومن طلب الخير يُؤتَه ومن يتق الشر يُوقَه » .

وما تفيده التقوى إنما هو فهم يوافق الأصول ويشرح الصدور ويوسع العقول ، ثم هو منقسم لما يدخل تحت دائرة الأحكام ، ومنه ما لا يدخل تحت دائرة العبارة وإن كان مما تناوله الإشارة ، ومنه ما لا تفهمه الضمائر وإن أشارت إليه الحقائق مع وضوحه عند مشاهده وتحقيقه عند متلقّيه ، وقولنا فيه : فهمُ تجوّزٍ لا ثبات أصله لا غير ، فاعرف ما أشرنا إليه وبالله التوفيق « قواعد » ١٠ .

واعلم أيها الأمين على أسرار الحق المبين ، أن أكثر مشائخ زماننا بغلبة أهوية نفوسهم الخسيسة توغلوا في أمور لم تسمع من السلف ولا من الخلف ، وأروا نفوسهم نفوس الكمل من السادات ، بل بعضهم يتكلمون عن مقام القطبانية والغوثية ويضلون الناس بأهوائهم الباطلة وأقوالهم المزخرفة العاطلة لمجرد جلب حطام الدنيا باسم الدين ، ويعلمون الناس أمورا لم يسمع من أحد من السادات بابتداعهم أمورا خارجة عن هذه النسبة العلية الصديقية السنية ، فكادت الطريقة إلى الانطماس بهم أقرب ، فجعلوا أنفسهم في مسند الإرشاد للناس والرشد عنهم بعيد ، وتكلموا من الفيوضات وباب الفيض عنهم مسدود ، وعدوا أنفسهم بهذا الكمال والخيال والوصال الوهمي في مقام التكميل ومسند المشيخة ودعوة الخلق وضيعوا بعلة منقصتهم استعدادَ كثير من المستعدين للكمالات ، وأزالوا بشوْم برودة صحبتهم حرارة طلب الطالبين ، ضلوا فأضلوا ، ضاعوا فأضاعوا .

وتخيل هذه الكمالات وتوهم الوصال في المجذوبين غير السالكين أكثر منه في السالكين المجذوبين الغير الواصلين مع كونهم لا يعلمون السالك المجذوب من المجذوب السالك ، فضلا عن الكمال ، فإن المبتدئ والمنتهي متشابهان في صورة الجذبة ومتساويان في العشق والمحبة في الظاهر ، وإن لم يكن بينهما مناسبة في الحقيقة ، وكان أحوال كل منهما مغايرة لأحوال الآخر وممتازة عنها ، ما نسبة الفرشي بالعرشي ؟ ! فإن كل شيء يوجد في البداية فهو معلول وإلى غرض ما محمول ، وحيث كان ما في الانتهاء بالحق فهو للحق ، وسيذكر تفصيل هذا الكلام عن قريب إن شاء الله تعالى .

وتكون هذه المشابهة الصورية والمناسبة الضرورية باعثة على ذلك التخيل ، وحيث كانت الجذبة مقدمة على السلوك في الطريقة النقشبندية العلية كثر هذا القسم من التخيل والتوهم في مجاذيب هذا الطريق الذي لم يشرفوا بعد بدولة السلوك ، وقد ذكرنا في باب السلوك والجذبة طرفا من هذا ففيه ما يغنيك إن شآء الله تعالى .

فانظر أيها الأخ المنصف بالإنصاف ، وهل رأيت من مشائخنا أحدا إلا النادر إلا من فيه هذه العلامات ؟ ! كيف لا ، إن أكرمت أحدا في محافلهم ومجالسهم أو تكلّمت مع أحد دونه ، فيملأون غيظا وينظرون شزرا ويظهرون أمورا ، وتتكدر ألوانهم لمجرد إكرام أحد في مجلسهم لعلمه أو تقواه أو حسبه أو نسبه ، أوإن قدمت في محضرهم أحدا للإمامة فيُهْجَر مع صاحب الدار أو مع الجميع ، أو يفرّ من المجلس أو يفعل له ثانيا إعادة لشدة حقده وسوء ظنه للناس ، أو يتكلم من أمّ قوما بإظهار ما في باطنه من الخبث والران إن يخف من الفضيحة ، وإلا فبعد المفارقة يتكلم مع مريده أن فلان المكرَّم عندهم كذا وكذا بعدِّ مساويه ، وإن أمر أحدا بحاجة ، فإن قضى حاجته بالسرعة فيشرح صدره وتملأ عينه ضحكا ويمدح القاضي ويبشره بأمور عاليات ليس لنفسه منها شائبة ولا رائحة ، فإن لم يقض حاجته بعذر أو بعسر فيتوعد له ويقول : انظروا ماذا ينزل عليه من البلايا لأجل مسامحته في أمري ، فإن جاء له من

الله تعالى نكد أو قضاء فانظر حينئذ إلى بشاشته وإلى بشاشة مريديه الدجالين وأقوالهم أن فلانا ترك أدب شيخنا فكان قال كذا وكذا ، فالله تعالى ابتلاه ، هذه علامات مشائخ زماننا من أكثرهم ، لا كثر الله أمثالهم فينا آمين .

روي عن علي ﴿كرم الله وجهه﴾ أنه قال : إن الله تعالى يقول للفقراء يوم القيامة : « ألم تكونوا يرخص لكم في السعر ؟ ألم تكونوا تبادرون بالسلام ؟ ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج ؟ » . وفي حديث آخر : « لا أجر لكم ، قد استوفيتم أجوركم » .

وعن وهب بن منبه ﴿رضي الله عنه﴾ أن رجلا من العباد قال لأصحابه : إنما فارقنا الأولاد والأموال مخافة الطغيان ، فنخاف أن يكون قد دخل علينا في أمرنا هذا من الطغيان أكثر مما دخل على أهل الأموال والأولاد ، وإن أحدنا إذا لقيه أحد أحب أن يعظمه لمكان دينه ، وإن سأل حاجة أحب أن يقضى له لمكان دينه ، وإن اشترى شيئا أحب أن يرخص عليه لمكان دينه ، فبلغ ذلك ملكهم فركب في موكب من الناس ، فإذا السهل والجبل قد امتلأ من الناس ، فقال ذلك العابد : ما هذا ؟ فقيل له : هذا الملك قد أتاك ، فقال للغلام : ائتني بطعام ، فأتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر ، فأقبل يحشو شدقه ويأكل أكلا عنيفا ، فقال الملك : أين صاحبكم ؟ قالوا : هذا ، قال : كيف أنت ؟ قال : كالناس ، وفي رواية : بخير ، فقال الملك : ما عند هذا بخير ، وانصرف ، فقال العابد : الحمد لله الذي صرفك عني وأنت ذامٌّ لي .

ومن هذا النوع من الرياء خاف الكبار وعدوا أنفسهم بسببه من الأشرار انتهى .

وقال أبو المواهب الشاذلي ﴿قدس سره﴾ : احذروا زخارف أهل الرضا عن النفس ، خصوصا الذين اتخذوا العلم حرفة وشبكة لصيد حرام الدنيا مع تكبرهم على الناس ، فإنهم قد حرموا خيري الدنيا والآخرة ولهم نُعوت ممقوتة وأحوال مزرية ، لم يبق لهم بين الناس حرمة ولا قبول شفاعة ، اتخذوا حسن الزي شعارا وتكبروا بذلك استكبارا .

وقد قال الشيخ تاج الدين رحمه الله تعالى في « الحكم » : **لأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه** « تقريب الأصول » . ٧٩

وقال السيد الشريف العارف بالله أحمد بن إدريس الحسني ﷺ : قال الله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ ، فقال ﴿إِنَّ كَثِيرًا﴾ ولم يبق إلا قليل ، وهم أولياء الله تعالى الورثة للعلم من رسول الله ﷺ الذين بهم يقتدى . وهؤلاء أعز من الكبريت الأحمر ، قال تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡ﴾ . وقال فيما عداهم : ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ، ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ .

فإن ظفرت بواحد من أهل العلم من هؤلاء الأقلين فعضّ عليه بالنواجذ . وأنت تعرفه بالقرائن المنصوصة في القران ، وهو الذي لا يميل إلى الدنيا ولا يطمئن بها فيكون كبلعم بن باعوراء حيث أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، ولا يأكل أموال الناس بالباطل فيدخل في قوله تعالى ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ ، ومن القرائن لا تجد مثله إلا قليلا ، والحق واضح والحق أحق أن يتبع . « عقد النفيس » .

فريدة

في الإنكار على أولياء الله تعالى

وما فيه من السخط وغضب الله تعالى

قد دون العلماء والصلحاء كتبًا في حق الإنكار على الصوفية لكون الإنكار موجبا لمقته سبحانه وتعالى عياذا بالله تعالى .

وبعضهم أنكروا عليهم لما رأوا منهم ما يوجب الإنكار كشطحات غالب المشائخ والصوفية في هذا الزمان كما ذكرناها آنفا ، ولكن نذكر هنا من أقوال مشائخنا بعض كلام السادات :

إن الإنكار على السادات الصوفية والطريقة العلية المتبعين للسنة السنية والدافعين للبدعة الردية ، خصوصا أهل العلم النافع والعمل الرافع والمعارف والأسرار والكشف الصحيح والأنوار ، سم قاتل وهلاك عظيم ، وقد ورد به الوعيد الشديد ، وهو أمر خطير ، وهو علامة إعراض القلب عن الله تعالى وحشوه بالأمراض ، ويخشى على فاعله سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى .

وهو لا يصدر غالبا إلا من بعض المتفقهة القاصرين كما قال العارف عبد الغني النابلسي رحمه الله : **وقد اعتادت المتفقهة في كل زمان على التفتيش عن عيوب الناس الشرعية** بحيث لا يؤولون ما يجدونه مخالفا لعلمهم وإن كان له ألف تأويل ، بل ينكرون بمقتضى علمهم ما يكون محتملا للخطأ ولو بوجه ضعيف وإن كان صوابه ظاهرا ، بل ربما بعضهم يجهل مذهب الآخر فينكر عليه ما خالف مذهبه ، بل ينكرون أصل الطريق وأربابها كلها .

وهذه طريق المتفقه المتعصب والسفهاء لا الفقهاء فإنهم قاصرون ، مرادهم أن يعرفوا بين الناس بالعلم والفقه والرياسة لأغراض شيطانية يريدون إنفاذها وشهوات نفسانية يحاولون إيجادها ، فيضطرهم الأمر إلى التفتيش عن عيوب الناس ، فكيف يؤولون شيئا مقصودهم التفتيش عليه ؟ ! ومتى ظفروا

بوجه فاسد في حال إنسان فكأنهم ظفروا بملك الدنيا ويفرحون شديدا ، إن رأوا حسنة في الكامل دفنوها ، وإن رأوا سيئة أفشوها ، فمن المحال أن يقبلوا عثرة مؤمن أو يتغافلوا عن زلة مسلم ، لأنهم في زعمهم لا يرتقون ولا بشيئ يرتفعون إلا بإنكار المناكر ، خصوصا على الكامل الخاشع والعابد الذاكر ، فيكونون ضُلّالا ومضلين .

وأما الفقهاء أصحاب القدم الراسخ في العلوم على حسب المذاهب الأربعة ، فإن قلوبهم متجافية عن الدنيا مقبلة على الآخرة ، وبسبب ذلك لا حسد عندهم ولا تكبر ولا عداوة ولا حقد ولا رياء ولا سمعة ، يعلمون أحكام الله تعالى على وجه التحقيق أصولا وفروعا ، ومن شدة شفقتهم على عباد الله تعالى لا يكادون يجدون في الناس منكرا أصلا من كمال اشتغالهم بعيوب أنفسهم عن عيوب الناس ، ولا يجدون في الغير مفسدة يعدونها على أنفسهم ولا يخفى عليهم دسائس النفوس ، فهم في صدد كمال نفوسهم وتطهيرها ، فهم في شغل شاغل عن إنكار المناكر على الغير ، وإذا رأوا أمرا لا ينظرون منه إلا الوجه الحسن في حق الغير احتياطا وورعا .

وعندهم أحكام شرعية عظيمة وأمور كلية يقرؤونها للناس في الدروس وعلى الكراسي والمنابر ، وليس في قلوبهم وجود شيء منها في أحد من الناس على التعيين أصلا ، كما أن الله تعالى أنكر المنكر في القرآن بلا تعيين أحد مع علمه تعالى بالمناكير وأهلها في كل زمان ، ولذا كان عليه الصلاة والسلام يقول : « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا » ولا يذكر أحدا بسوء .

فهؤلاء هم الناس الذين يليق في حقهم أن يقال علماء فقهاء أمناء أحكام دين الله تعالى ، ولقد روي عن أبي حنيفة والشافعي رضي الله عنهما أنهما قالا : إن لم تكن العلماء أولياء فليس لله ولي ، والمراد العاملون بلا شك لقوله عليه الصلاة والسلام : « لا يكون العالم عالما حتى يكون بعلمه عاملا » ، كذا ذكره بعضهم مرفوعا ، وإنما هو موقوف على أبي الدرداء رواه ابن حبان والبيهقي رضي الله عنه . هكذا ذكره في « جامع الأصول » ١٩٤ و « جواهر » في ٥٩ وفي ٢١ من المجلد الثاني .

وقال الشيخ الأكبر محي الدين بن عربي ﷺ في الباب ٣٦٣ من « الفتوحات » : اعلم أن من عدم الإنصاف إيمان الناس بما جاء به من آيات الصفات وأخبارها على لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام وعدم إيمانهم بها إذا أتى بها أحد من كمل العارفين الوارثين للرسل ، فإن البحر واحد ، فكما وجب الإيمان بما جاءت به الرسل من ذلك كذلك يجب الإيمان بما جاء به الأولياء المحفوظون ، وكما سلمنا لما جاء به الأصل كذلك نسلم لما جاء به الفرع بجامع الموافقة للشريعة ، ويا ليت الناس إذا لم يؤمنوا بما جاء به الأولياء يجعلونهم كأهل الكتاب لا يصدقونهم ولا يكذبونهم . انتهى

فتأمل في هذا المبحث وتعقله فإنك لا تجد ما فيه في كتاب ، والله يتولاك . « يواقيت » ١٤ و« قواعد » ١٤ و « عقد نفيس » في حق الأولياء من لم يشرب الخ . ٢٤٣ .

وقال ابن زروق ﷺ : اعتبار النسب« ١ » في الواقع يقضي بتخصيص الحكم عن عمومه ، ومن ذلك وجود الغيرة على علوم القوم من الإنكار ، وحماية عقول العوام من التعلق بما يخص منها حامل على وجود القصد بتخصيصها ، هذا مع كثرة ما يخص منها ومداخل الغلط فيه علما وعملا ودعوى أو غير ذلك فافهم وأعط كل ذي حكم حقه .

فالأعمال للعامة والأحوال للمريدين والفوائد للعابدين والحقائق للعارفين والعبادات قوت لعائلة المستحقين وليس لك إلا ما أنت له آكل فافهم « قواعد » ٨ .

وقال الشيخ العارف أبو تراب النخشبي ﷺ : إذا ألف القلب الإعراض عن الله تعالى صحبته الوقيعة في أولياء الله تعالى .

وقال الأستاذ أبو القاسم الجنيدي ﷺ : التصديق بعلمنا هذا ولاية . يعني الولاية الصغرى دون الكبرى . انتهى . « سلك العين » ٢٨ .

« ١ » أي النسبة .

قال الإمام المحقق أبو العباس أحمد المشهور بزروق ﷺ : دواعي الإنكار على القوم خمسة :

أولها : النظر لكمال طريقهم ، فإذا تعلقوا برخصة أو أتوا بإساءة أدب أو تساهلوا في أمر أو بدا منهم نقص أسرع للإنكار عليهم ، لأن النظيف يظهر فيه أقل عيب ، ولا يخلو العبد من عيب ما لم تكن له من الله عصمة أو حفظ .

الثاني : رقة المدرك ومنه وقع الطعن على علومهم في أحوالهم ، إذ النفس مسرعة لإنكار ما لم يتقدم لها علمه .

الثالث : كثرة المبطلين في الدعاوي والطالبين للأغراض بالديانة ، وذلك سبب إنكار حال من ظهر منهم بدعوى وإن أقام عليها الدليل لاشتباهه .

الرابع : خوف الضلال على العامة باتباع الباطن دون اعتناء بظاهر الشريعة كما اتفق لكثير من الجاهلين .

الخامس : شحة النفوس بمراتبها ، إذ ظهور الحقيقة مبطل حقيقة ، فمن ثم أولع الناس بالصوفية أكثر من غيرهم وتسلط عليهم أصحاب المراتب أكثر من سواهم ، وكل الوجوه المذكورة صاحبها مأجور أو معذور أو مغرور ، إلا الأخير والله أعلم .

وقال ﷺ أيضا : تعريف العيوب مع الستر نصيحة ، ومع الإشاعة والهتك فضيحة ، فمن عرفك بك من حيث لا يشعر الغير فهو الناصح ، ومن أعلمك بعيبك مع شهود الغير فهو الفاضح .

وليس لمسلم أن يفضح مسلما إلا في موجب حكم بقدره من غير تتبع لما لا تعلق له بالحكم ولا ذكر عيب أجنبي عنه ، وإلا انقلب الحكم عليه بقهر القدرة الإلهية حسب الحكمة الربانية والوعد الصدق الذي جاء في قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك » .

ونهى عليه الصلاة و السلام عن التثريب للأمة عند جلدها في حد الزنا ، فكيف بالحر المؤمن القائم الحرمة بإقامة رسم الشريعة ، قد صح : « من ستر مسلما ستره في الدنيا والآخرة ، ومن أقال مسلما عثرته أقال الله عثرته يوم القيامة » .

قال ابن زروق ﵁ : التعاون على الشيء ميسر لطلبه ومسهل لمشاقه على النفس وتعبه ، فلذلك ألفته النفوس حتى أمره به على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، فلزم مراعاة الأول في كل شيء لا الثاني .

ومنه قول سيدي أبي عبد الله بن عباد ﵁ : أوصيكم بوصية لا يعقلها إلا من عقل وجرب ، ولا يهملها إلا من غفل فحجب وهي : أن لا تأخذوا في هذا العلم مع متكبر ولا صاحب بدعة ولا مقلد ، فأما الكبر فطابع يمنع عن فهم الآيات والعبر ، والبدعة توقع في البلايا الكبر ، والتقليد يمنع من بلوغ الوطر ونيل الظفر ، قال : ولا تجعلو لأحد من أهل الظاهر حجة على أهل الباطن .

قلت : بل يحثون على أن يجعلوا أهل الظاهر حجة لهم لا عليهم ، إذ كل باطن مجرد عن الظاهر باطل . والحقيقة ما عقد بالشريعة فافهم . « قواعد » ١٩ وراجع« شرح سلك العين » ٢٨ ورماح٢ /٢٣١

فصل

في الورع والتقوى والقناعة والفقر والغنى وأمثالها والأسباب

عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى يقول : عبدي اَدّ ما افترضت عليك تكن [من] أعبد الناس ، وانته عما نهيتك عنه تكن من أورع الناس ، واقنع بما رزقتك تكن أغنى الناس » .

وقال ﷺ لأبي هريرة ﵁ : « كن ورعا تكن أعبد الناس » .

وقال الحسن البصري ﵁ : مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة .

وقال أبو هريرة ﵁ : جلساء الله غدا أهل الورع والزهد . أوحى الله تعالى إلى موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام : لا يتقرب إليّ المتقربون بمثل الورع .

قال بعض العلماء بالله تعالى : لا يتم الورع إلا أن يرى عشرة أشياء فريضة على نفسه : أولها حفظ اللسان من الغيبة ، والثاني الاجتناب عن السخرية ، والثالث الاجتناب عن سوء الظن ، والرابع غض النظر عن المحارم ، والخامس صدق اللسان ، والسادس أن يعرف منة الله كيْلا يعجب بنفسه ، والسابع أن ينفق ماله في الحق ولا ينفقه في الباطل ، والثامن أن لا يطلب لنفسه العلوّ والكبر ، والتاسع المحافظة على الصلوات وأن يكون الاجتهاد لأن يصلي بالجماعة ، والعاشر الاستقامة على السنة والجماعة ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ذكره في « المكتوبات » الإمام الرباني/ ١٠٩ .

وقال الشيخ الهروي عن شيخه ﵇ : قال الخواجه عبد الخالق الغجدواني ﵇ : ينبغي أن يتحمل الثقل عن الناس ، وذلك لا يحصل إلا بكسب الحلال باليد في الشغل والقلب مع المحبوب ، كلامٌ مقرر في طريقة خواجكان قدس الله أرواحهم .

قال علي الخواص : لا يكمل الفقير حتى يحمل كله عن شيخه فإن من رمى أثقاله على شيخه فهو شيء الأدب ، وسئل ﷺ عن القساوة التي يجدها العبد في قلبه فقال للسائل : اشكر الله تعالى حيث ستر عنك حالك لتكون عبدا له صرفا لا عبد خشوعك وحضورك فقال له السائل : وأنا إن شاء الله عبد له صرفا مع ذلك ومع غيره فقال : صحيح لكن الامتحان آفاته كثيرة والمحبوب عند الله من ادخر له ما وعده به على أعماله إلى الدار الآخرة وخرج من الدنيا برأس ماله كاملا من غير خسارة « تقريب »٩٦

قال أبو حفص ﷺ : الفقير الصادق هو الذي يكون في كل وقت بحكمه ، فإذا ورد عليه وارد يشغله عن حكم وقته يستوحش منه وينفيه .

وقال سهل بن عبد الله ﷺ : إذا جنك الله الليل فلا تؤمل النهار حتى تسلم ليلتك وتؤدي حق الله تعالى فيها وتنصح فيها لنفسك ، وإذا أصبحت فكذلك .

وسئل سهل ﷺ : متى يستريح الفقير ؟ فقال : إن لم ير وقتا غير الوقت الذي هو فيه .

وقال مولانا وشيخ شيخنا قدس سره : ليس الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير ولبس الصوف والتصنع ، وإنما هو بالصبر واليقين في الهداية ، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ وهذا ثغر كريم لرجل كريم فيه خمس خصال : الصبر والتقوى والورع واليقين والمعرفة ، الصبر إذا أوذي أن لا يؤذي ، والورع فيما يخرج وفيما يدخل من فمه ، وفي القلب أن لا يلج فيه غير ما يحبه الله تعالى ورسوله ، واليقين في الرزق والمعرفة بالحق التي لا تذل معها لأحد من الخلق﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ .

وقال الشاذلي قدس سره : الورع نِعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه ، فقد انتهى بهم الأمر إلى الأخذ من الله تعالى وعن الله تعالى والقول بالله تعالى

والعمل لله تعالى وبالله تعالى على البينة الواضحة والبصيرة الفائقة ، وهم في عموم أوقاتهم وسائر أحوالهم لا يدبرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولا ينظرون ولا ينطقون ولا يبطشون ولا يمشون ولا يتحركون إلا بالله ولله من حيث يعلمون ، وهجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فهم مجموعون في عين الجمع لا يتفرقون فيما هو أعلى ولا أدنى ، وأما أدنى الأدنى فالله يورعهم عن ذلك ثوابا لورعهم مع الحفظ لمنازلاتهم الشرع عليهم .

ومن لم يكن لعلمه وعمله ميراث فهو محجوب بدنيا أو مصروع بدعوى وميراثه التعزز لحقه والاستكبار على مثله والصوْلة بعلمه والدلال على الله بعمله ، فهذا هو الخسران المبين .

والأكياس يتورعون عن هذا الورع ويستعيذون بالله منه ، ومن لم يزدد بعلمه وعمله افتقارا لربه وتواضعا لخلقه فهو هالك ، فسبحان من قطع كثيرا من أهل الصلاح بصلاحهم عن مصلحهم كما قطع المفسدين بفسادهم عن موجدهم ، فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم .

وقال ﷺ أيضا : أكرم المؤمنين وإن كانوا عصاة ، وأقم عليهم الحدود واهجرهم رحمة بهم لا تعززا عليهم ، ولا تقتد بمن لا يتورع عما تناولته أيدي الكافرين . انتهى

وسئل محمد بن منصور ﷺ عن حقيقة الفقر فقال : السكون عند كل عدم والبذل عند كل موجود « نفحات »١١٦ .

الفقر عدم الاملاك و الخروج عن احكام الصفات .

الفقير هو الذي لا يملك ولا يملك .

الصوفي من استصفى الحق لنفسه توددا ، والفقير من استصفى نفسه في فقره تقربا « منه »١٧ .

قال بعض الحكماء : من شرف الفقير أنك لا تجد أحدا يعصي الله ليفتقر وأكثر ما يعصي المرء ليستغني ، أخذ هذا المعنى محمود الوراق فقال :

إنَّـكَ تَعْصِـي لِـتَنـالَ الغِنـى ... وَلَسْـتَ تَعْصِـي اللهَ كَـيْ تَفْتَقِرْ
يَـا عـائِـبَ الفَقْـرِ ألا تَنْـزَجِرْ ... عَيْـبُ الغِنى أكْثَـرُ لَـوْ تَعْتَبِـرْ

« كشكول » ٢٥٢

وسئل حضرة الخواجه بهاء الدين ﷺ : ما معنى قول بعضهم « الفقير هو الذي لا يحتاج إلى الله » ؟ فقال : المراد من هذا النفي الاحتياج للسؤال ، كما قال السيد إبراهيم ﷺ : « حسبي من سؤالي علمه بحالي » .

قال في « الحكم » شرحا لهذا المقام : ربما دلهم الأدبُ على ترك الطلب اعتمادا على قسمته واشتغالا بذكره عن مسألته ، إنما يذكر من يجوز منه الإغفال وإنما ينبه من يمكن منه الإهمال .

وسئل أيضا حضرة الخواجه ﷺ عن معنى قول بعضهم « إذا تم الفقر فهو الله » ، فقال : هذا إشارة إلى الفناء ومحو الصفات وذكر بيتا بالفارسي مضمونه : لما لم تكن ما ذا كان فلم يكن إلا الله وإذا لم تبق وفنيت من بقي فلم يبق إلا الله .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ في هذا المعنى : لن يصل العبد إلى الله تعالى حتى يفنى أفعاله في أفعاله وأوصافه في أوصافه وذاته في ذاته ، فمن فنيت أفعاله وصفاته وذاته فليس له اسم ولا رسم ، ولم يبق إلا الله لفناء الوجودات الوهمية وبقاء الموجود الحقيقي انتهى .

وقال بعض أكابر الطريقة قدس الله تعالى أسرارهم : جاء الخضر ﷺ عند الخواجه عبد الخالق الغجدواني ﷺ مرة فجاءه الخواجه بقرصين من خبز الشعير من بيته فلم يأكله الخضر ﷺ فقال الخواجه : لم لا تأكل فإنه حلال ؟ فقال الخضر ﷺ : نعم ، لكن العاجن عجنه على غير طهارة فلا يجوز لنا أكله .

وقال السيد الشريف قطب العارفين السيد أحمد الحسيني في « العقد النفيس » : قال الله تعالى لموسى عليه السلام : إذا رأيت الفقر قد أقبل فقل مرحبا بشعار الصالحين ، وإذا رأيت الدنيا قد أقبلت فقل هذا ذنب عجلت عقوبته .

والفقر الحقيقي عند أهل الله تعالى هو فقد ما سوى الله تعالى من القلب ، وذلك أنه ما جعل الله تعالى لرجل من قلبين في جوفه ، فإذا اشتغل القلب بالمال فلا يتسع إلا له عن الله سبحانه وتعالى ، وإذا تخلى عن كل شيء اشتغل بالله عمن سواه ، اللهم إني أعوذ بك من كل عمل يخزيني ، وأعوذ بك من كل صاحب يرديني« ١ » ، وأعوذ بك من كل أمل يلهيني ، وأعوذ بك من كل فقر ينسيني ، وأعوذ بك من كل غنى يطغيني ، وأعوذ بك من كل قاطع يقطعني عنك . « العقد النفيس » ١١٩ .

وقال في الحديث : « القناعة كنز لا يفنى » : إن القناعة عندنا أن لا يميز الإنسان بين خبز شعير ناضج وبين غير ناضج حين وجده ، وأن يأكل منه أيضا ما يقدر به أن يحرك يديه ورجليه للصلاة .

قال : ينبغي أن يعيش على وجه يتيسر ذلك العيش دائما ، وأن يقنع في الأكل واللبس بما لا شيء أدنى منه ، ثم فتح يده المباركة وقال : إذا جاع شخص يكفيه كفة من الأرز أو الدقيق ، فمن اعتاد هذا فقد استراح .

وقال : من وقع في صحراء لا ماء فيها ولا عمران ولا يُرجى فيها وجود طعام بوجه من الوجوه ، ومع ذلك لا يكون فيه توجه الخاطر إلى طعام ولا في باطنه استطلاع واستشراف عليه ، يمكن أن يقال في حقه أن القناعة حاصلة فيه على الحقيقة .

وسئل بعض العارفين من الصوفية عن الفقر ، فما من واحد إلا وأجاب بجواب غير جواب الآخر ، وكل ذلك حق بالإضافة إلى حاله ، وليس بحق في نفسه ، إذ الحق لا يكون إلا واحدا .

« ١ » وفي هامش نسخة « أ » : يؤذيني خـ .

ولذلك قال عبد الله الجلاء ﵁ وقد سئل عن الفقر فقال : اضرب بكميك الحائط وقل ربي الله فهو الفقر .

وقال الجنيد ﵁ : الفقير هو الذي لا يسأل أحدا ولا يعارض وإن عورض سكت ، وقال سهل بن عبد الله ﵁ : الفقير الذي لا يسأل ولا يدخر .

وقال آخر : هو أن لا يكون لك ، فإن كان لك فلا يكون لك من حيث لم يكن لك .

وقال إبراهيم الخواص ﵁ : هو ترك الشكوى وإظهار أثر البلوى .

والمقصود أنه لو سئل منهم مائة لسمع منهم مائة جواب مختلفة قلّما يتفق إثنان ، وذلك كله حق من وجه فإنه خبر كل واحد عن حاله وما غلب على قلبه ، ولذلك لا ترى إثنين منهم يثبت أحدهما لصاحبه قدما في التصوف أو يثني عليه ، بل كل واحد منهم يدعي أنه الواصل إلى الحق والواقف عليه ، لأن أكثر ترددهم على مقتضى الأحوال التي تعرض لقلوبهم ، فلا يشتغلون إلا بأنفسهم ولا يلتفتون إلى غيرهم ، ونور العلم إذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء ورفع الاختلاف ، ومثال نظر هؤلاء ما رأيت من نظر قوم في أدلة الزوال بالنظر في الظل كما هو مبسوط في « إحياء علوم الدين »« ١ » .

وينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال ، وغرض المعطي ، وغرضه في الأخذ .

« ١ » قال في « الإحياء » : ومثال نظر هؤلاء ما رأيت من نظر قوم في أدلة الزوال بالنظر في الظل فقال بعضهم هو في الصيف قدمان وحكي عن آخر أنه نصف قدم وآخر يرد عليه وأنه في الشتاء سبعة أقدام وحكى عن آخر أنه خمسة أقدام وآخر يرد عليه فهذا يشبه أجوبة الصوفية واختلافهم فإن كل واحد من هؤلاء أخبر عن الظل الذي رآه ببلد نفسه فصدق في قوله وأخطأ في تخطئته صاحبه إذ ظن أن العالم كله بلده أو هو مثل بلده كما أن الصوفي لا يحكم على العالم إلا بما هو حال نفسه والعالم بالزوال هو الذي يعرف علة طول الظل وقصره وعلة اختلافه بالبلاد فيخبر بأحكام مختلفة في بلاد مختلفة ويقول في بعضها لا يبقى ظل وفي بعضها يطول وفي بعضها يقصر . اهـ

أما نفس المال فينبغي أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها ، فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه ، وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب .

وأما غرض المعطي فلا يخلو إما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية ، أو الثواب وهو الصدقة والزكاة ، أو الذكر والرياء والسمعة إما على التجرد وإما ممزوجا ببقية الأغراض .

أما الأول وهو الهدية فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله ﷺ ، ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة ، فالأولى تركها ، فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض ، فقد أهدي إلى رسول الله ﷺ سمن وأقط وكبش فقبل السمن والأقط وردّ الكبش .

وكان ﷺ يقبل من بعض الناس ويرد على بعض ، وقال : « لقد هممت أن لا أتهب إلا من قريشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي » ، وفعل هذا جماعة من التابعين .

وقال العارف أبو العباس ابن زروق رضي الله عنه : **المداهنة** رفع الباطل والحق بالباطل المشبه للحق ، **والمداراة** رفع الباطل بوجه مباح وكذا إثبات الحق ، سواء كان لك أو لغيرك ، وقد صح أن المداراة صدقة . وقد صح : « من شفع لأخيه بشفاعة فأهدي له من أجلها هدية فقد فتح بابا عظيما على نفسه من الرياء » .

والفرق بين الهدية والرشوة أن ما قصد للمودة فهو الهدية إن تجرد ، وما قصد لجر نفع غير ديني ولا في مال الشخص نفسه بل للإعانة فرشوة ، وهذه الأربع يخفى إدراكها على حذاق العلماء في آحاد المسائل ، فتعيّن الورع فيها والله أعلم . « قواعد » ٦٣ .

وجاءت إلى فتح الموصلي ﵁ صرة فيها خمسون درهما فقال : حدثنا عطاء عن النبي ﷺ أنه قال : « من آتاه الله تعالى رزقا من غير مسألة فرده فإنما يردّه على الله تعالى » ، ثم فتح الصرة فأخذ منها درهما ورد سائرها .

وكان الحسن ﵁ يروي هذا الحديث أيضا ولكن حمل إليه رجل كيسا ورزقه من رقيق ثياب خراسان فرد ذلك وقال : من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله ﷻ يوم القيامة وليس له خلاق .

وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء ، وقد كان الحسن ﵁ يقبل من أصحابه .

وكان إبراهيم التيمي ﵁ يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المِئِين فلا يأخذها .

وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول : اتركه عندك وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل مني قبل القبول فأخبرني حتى آخذه ، وإلا فلا .

وأمارة هذا أن يشق عليه الرد لو ردّه ويفرح بالقبول ويرى المنة على نفسه في قبول صديقه هديته ، فإن علم أنه يمازجه منة فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقراء الصادقين .

وقال بشر الحافي ﵁ : ما سألت أحدا قط شيئا إلا سرياً السقطي ﵁ لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا ، فهو يفرح بخروج شيء من يده ويتبرم ببقائه عنده ، فأكون عونا له على ما يحب انتهى مختصرا من « الإحياء » . وهذه كلها على مقتضى آراء القوم ومشربهم .

ومن المواضع موضع الأخذ أولى من الرد ، كما قال بعض السادات : آفة الرد أعظم من آفة الأخذ .

قال ﷺ : « ما المعطي من سعة بأعظم أجرا من الآخذ إذا كان محتاجا » .

وقال ﷺ : « من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه » وفي لفظ آخر : « فلا يرده » .

وقال بعض العارفين : من أعطي ولم يأخذ سأل ولم يعط .

وقد كان سري السقطي يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمة الله عليهما شيئا فرده مرة ، فقال له السري : يا أحمد ، احذر آفة الرد ، فإنه أعظم من آفة الأخذ ، فقال أحمد : أعد عليّ ما قلت ، فأعاده ، فقال أحمد : ما رددت عليك إلا لأن عندي قوت شهر ، فاحبسه لي عندك فإذا كان بعد شهر فانفذه إلي .

وقد قال بعض العلماء : يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول فى شبهة أو غيره .

فأما إذا كان ما أتاه زائدا على حاجته فلا يخلوا إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه ، فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالبا طريق الآخرة ، فإن ذلك محض اتباع الهوى ، وكل عمل ليس لله تعالى فهو في سبيل الشيطان أو داع إليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

ثم له مقامان : **أحدهما** أن يأخذ في العلانية ويرد في السر ، أو يأخذ في العلانية ويفرق في السر ، وهذا مقام الصديقين ، وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمأنت نفسه بالرياضة .

والثاني أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه ، أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه . فيفعل كليهما في السر أو كليهما في العلانية الخ . « إحياء » .

وقال أبو العباس أحمد المشهور بابن زروق قدس سره : طلب الشيء بوجه واحد مع الإلحاح أقرب لنواله وأدعى لدوام سببه المطلوب في نفسه لإفراد الحقيقة له ، فلزم التزام ورد لا تنتقل عنه حتى تحصل نتائجه ، وإلا فالمنتقل قبل الفتح كحافر بئر لا يدوم على محل واحد ، وكالمقطر قطرة على كل محل يريد تأثير المحل بالقطر أثرا يظهر لعمله مع ذلك أثر .

قيل : والدوام في الشيء زيادة فيه باعتبار العمر لا باعتبار العود ، ومن استوى يوماه هو الذي لم يعمل فيهما شيئا ، ومن احتوى أمسُه على خلاف يومه فهو المحروم ، فإنه ليس عنده إلا عمل أمسه .

وقال ﷺ : **إقامة الأسباب ملحوظ في الأصل بحكم إقامة العالم لإستقامة وجوده** ، فلذلك ذم ما خالف وجود حفظ النظام ووقع مستغربا في الوجود من الأسباب وغيرها وأكدته الغيرة الإلهية بلزوم نقيض المقصود كالفقر في الكيمياء والذل في طلب السيمياء وميتة السوء في علم النجوم ، لأن الكل خروج عن حكمة الأسباب ومعاندة لحكم الحق تعالى ومقاومة له في طلب الأكمل بالمتوهم ويزيد الأخير بالتجسس على مملكة الله تعالى كما أشار إليه في « التنوير » ، ولكل نصيب مما لصاحبه وإن اختلف البساط . قاله في « قواعده » . انتهى

وقال ﷺ : إن غاية اتباع التقوى التمسك بالورع ، وهو ترك ما لا بأس به مما يحيك في الصدر حذرا مما به بأس ، كما صح : « لا يبلغ الرجل درجة المتقين حتى يترك ما حاك في الصدر » .

وشك بلا علامة وسوسة ، وورع بلا سنة بدعة ، ومنه التورع عن اليمين في الحق بالحق من غير إكثاره ، فلا يصح قول من قال : من الديانة أن لا تحلف بالله صادقا ولا كاذبا ، لما استفاض من آثار السلف وأحاديث النبي ﷺ .

قال عليه الصلاة والسلام : « إن يحلف به ، فاحلفوا بالله وبروا وصدقوا » ، ونهى الله تعالى أن يُجعل عرضة للأيمان ، فليتق وقوعه غاية ولا يجتنب بالكلية .

فإن كان جازما على أحد بأكل ماله على وجه الحرام أو الغصب ووقع على صاحبه أن يحلف على طبق دعواه بكونه حقه أو حق غيره .

فينبغي عليه أن يحلف بالحق للحق ، وإلا أي وإن لم يحلف بعدّه من الديانة يحنث ، وذلك لأنه يترك أخاه المسلم أن يأكل الحرام مع قدرته إبراءه عن الحرام ، بل هو كالإعانة على معصية ، فتدبر فإنه مما عمّت به الجدوى وزلت فيها أقدام كثير والحمد لله رب العالمين اهـ .

ولما احتضر سلمان الفارسي رضي الله عنه تحسر عند موته فقيل له : علامَ يا أبا عبد الله ؟ قال : ليس أسفي على الدنيا ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلينا وقال : « ليكن بلغة أحدكم كزاد الراكب » وأخاف أن نكون جاوزنا أمره وحولي هذه الأشياء ، وأشار إلى ما يليه وإذا هو سيف ودست وجفنة . انتهى

وكان أبو حازم قدس سره يقول : عجبت لقوم يعملون لدار يرحلون عنها كل مرحلة ، ويتركون العمل لدار يرحلون إليها كل يوم مرحلة .

وروى شيخ الطائفة في « التهذيب » في أوائل كتاب المكاسب بطريق حسن أو صحيح عن الحسن بن محبوب قدس سره عن حريز قدس سره قال : سمعت أبا عبد الله رضي الله تعالى عنه وأرضاه يقول : **اتقوا الله ومَوِّتوا أنفسكم بالورع وقوة الثقة** والاستغناء بالله عن طلب الحوائج إلى صاحب سلطان ، واعلم أن من خضع لصاحب سلطان أو لمن يخالفه على دينه طلبا لما في يديه من دنياه أخمله الله ومقته عليه ووكله إليه ، فإن هو غلب على شيء من دنياه فصار إليه منه شيء نزع الله منه البركة ولم يوجره على شيء من دنياه ينفعه في حق ولا عتق ولا بر .

أقول : قد صدق رضي الله عنه ، فإنا قد جربنا ذلك وجربه المجربون قبلنا واتفقت الكلمة منا ومنهم على عدم البركة في تلك الأموال وسرعة نفادها واضمحلالها ، وهو أمر ظاهر محسوس يعرفه كل من حصل شيئا من تلك الأموال الملعونة ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا رزقا حلالا طيبا يكفينا ويكُفَّ أكفنا عن مدها إلى هؤلاء وأمثالهم إنه سميع الدعاء لطيف لما يشآء « كشكول » ٩٤ .

وقال أرسطو للإسكندر وهو صبي : إذا وليت الملك فأين تضعني ؟ قال : حيث تضعك طاعتك .

وبلغنا عن إبراهيم بن أدهم قدس سره أنه فقد الحلال فسف من التراب مدة أربعين يوما حتى وجد الحلال اللائق بحاله ومقامه .

وسمعت أخي أفضل الدين ﵀ يقول : ينبغي لكل مؤمن في هذا الزمان إذا حضر عنده طعام أو شراب أن لا يأكل منه حتى يقول بتوجه تام :

اللهم إن كان في هذا الطعام شبهةُ حرام فاحمني منه ، وإن لم تحمني منه فلا تجعله يقيم في بطني ، وإن جعلته يقيم في بطني فاحفظني من المعاصي الناشئة من أكله ، فإن لم تحفظني منها فمنّ عليّ بالتوبة النصوح ، فإن لم تمنّ عليّ بالتوبة فالطف بي ولا تؤاخذني يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين .

وكان يقول : لا ينبغي لفقير السؤال حتى يبيع آلات الدار الزائدة على الضرورة كالطراحة والمخدة والعمامة الزائدة والثوب الزائد والأواني كلها حتى نعله الزائد .

وكان يقول : لا ينبغي لفقير في هذا الزمان إذا وجد الحلال الصرف أن يشبع منه ، بل يأكل بقدر سد الرمق فقط خوفا أن يقع في الحرام .

وسمعته أيضا يقول : **ليست القناعة أن تأكل كل ما وجدته ولو كسرة يابسة كل يوم ، وإنما القناعة أن تطوي ثلاثة أيام فأكثر مع وجود الأكل عندك** اهـ .

وقال بعض الأكابر : خاطب الحق سبحانه وتعالى الغوث الأعظم بهذا الخطاب : يا غوث الأعظم ! مر أصحابك باختيار الفقر ثم بالفقر عن الفقر ، فإذا تم فقرهم فلا هم إلا أنا . « رشحة » ١٩٨

وقال الشيخ محمد بن يوسف بن معدان البنا ﷿ : إني دخلت في بئر زمزم لأدعو ، فسمعت صوت هاتف : يا ابن يوسف ! اختر من الأمرين واحدا ، أيَّهما إليك أحب ؟ العلم مع الغنى والدنيا أم المعرفة مع القلة والفقر ؟ فقلت : المعرفة مع القلة والفقر ، فسمعت الهاتف ثانيا : قد أُعطيتَ ، قد أعطيت « نفحات » ١٥٨ .

وقال في « الحكم العطائية » : من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك و يمنعك ما يطغيك ، وجدان الكفاية من الرزق ، وعدم الزيادة عليها والنقصان منها من نعم الله تعالى التامة الكاملة على العبد ، لما له في ذلك من حصول جميع المصالح الدينية والدنيوية .

أما مصالح الدين في عدم الزيادة على الكفاية فظاهر ، إذ لو وجدها ربما أوجب له ذلك طغيانا كما قال الله تعالى : ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ فالاستغناء هو وجود الزيادة على الكفاية ، وهو سبب الطغيان ، والطغيان أصل كل معصية لله ﷻ ، وقصة ثعلبة بن حاطب حين طلب الدعاء من النبي ﷺ أن يرزقه الله تعالى مالا ، وما مال إليه أمره أمر مشهور .

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خير الرزق ما يكفي ، وخير الذكر الخفي » .

وفي حديث أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما طلعت شمس ولا غربت إلا بجنبها ملكان يناديان يسمعان الخلائق غير الثقلين : يا أيها الناس ! هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » ، أو كما قال رسول الله ﷺ .

وأما مصالح الدنيا في ذلك فسيأتي التنبيه عليها في قول المؤلف رحمه الله تعالى (ليقلّ ما تفرح به يقلّ ما تحزن عليه) .

وأما مصالح الدين عند وجود الكفاية وعدم النقصان منها فمن أجل توصله بذلك إلى الاستعانة بها على طاعة الله تعالى . ولأجل ذلك عظمت النعمة بها على العبد ، قال الله تعالى : ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ ، أي لا تنس نصيبك في الآخرة أن تتوصل إليه بما آتاك الله من الدنيا .

وأما مصالح الدنيا في ذلك فظاهر لا يحتاج إلى التنبيه عليه ، إذ بذلك يحصل له طيب العيش وراحة القلب والبدن وصيانة الوجه عن ذل المسألة عند وجود الحاجة والفاقة .

فعلى العبد أن يشكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة ويقنع بما أباح له من هذه المنة الجسيمة ، فيستعمل بذلك راحة نفسه والاستغناء من بني جنسه ويحصل له بذلك حلاوة الزهد في الأمور العاجلة وتجافي القلب عن زهراتها ، فإن طلب الزيادة من الدنيا ولم يقنع بما قسم له منها خيف عليه من اقتحام المهالك ، إذ يجرّه الحرص والطمع إلى ذلك . من « الحكم » جلد ٤٢/٢ .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ : لا تعدل مع الفقر والصبر والسلامة شيئا ، استغن بالله في فقرك فإن الغنى يطغي وينسي الرب ، من آثر الحياة الدنيا آثر هواه على أمر الله تعالى ، آثر الطبع والنفس على أمر الله تعالى ، آثر الفطر على الصوم ، آثر الحرام على الحلال ، آثر الغفلة على التيقظ ، آثر المعصية على الطاعة ، ويحك ! سوأتك بادية ، استح من النبي ﷺ إنه قال : « لأن تسمع برجل خير من أن تأتيه ، ولأن تأتيه خير من أن تخبره » ، فإذا خبرته مَقَتَّه ومقتّ عمله ، المؤمن ملك في الدنيا وملك في الآخرة ، ارجع إلى ربك بالتوبة والذلة والافتقار والمسكنة والتضرع والمسألة يعطك مما في خزائنه ، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ ، وهذه مفاتيح خزائنه قد مكنك منها فاشكر الله تعالى بها على ذلك وتمسك بها وتبرأ من حولك وقوتك وقل بصدق وإخلاص : لا حول ولا قوة إلا بالله . « تقريب الأصول » ٣٢ .

وقال ﷺ أيضا : إن أردت أن تصح على يديك الكيمياء فأسقط الخلق من قلبك واقطع الطمع عن ربك أن يعطيك غير ما سبق لك ، ثم إن أردت أن تكون مرتبطا بالحق فتبرأ من نفسك واخرج من حولك وقوتك اهـ « منه »

ومن الأمثال : الأمير من قنع بالقليل عن الكثير ، ومن لم يرض باليسير فهو أسير .

وذكر في كتاب « المخزون » ما رواه علي ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « ابن آدم اِكفل لي بثلاث أكفل لك بالجنة : إن قنعت بما رزقك الله فأنت أغنى الناس ، وإن انتهيت عما حرم الله عليك فأنت أورع الناس ، وإن عملت بما فرض الله عليك فأنت أعبد الناس » .

وقال يحيى بن معاذ الرازي ﷺ : صارت الأغنياء بترك القناعة فقراء مع كثرة المال ، **وصارت الفقراء أغنياء بغير المال مع القناعة** .

وسمعت بعضهم يقول : بينما فتح الموصلي ﷺ جالس مع أصحابه إذا بصبيَّيْن معهما رغيفان على رغيف أحدهما كامخ[١] وعلى رغيف الآخر عسل ، فقال صاحب الكامخ لصاحب العسل : أعطني من عسلك ملعقة ، فقال : على أن تكون كلبا لي ، قال فجعل في فمه خرقة وجعل يقوده ويقول : هو هو ، فالتفت فتح الموصلي إلى أصحابه وقال : لو قنع هذا بكامخه لم يصر كلبا لصاحب العسل .

إذا جَعَلْتُ القُنوعَ شَأني ... أتى مِنَ الرِّزْقِ ما كَفاني
فَاسْتَغْني بِالدَّهْرِ عَنْ فُلانٍ ... وَعَنْ فُلانٍ وَعَنْ فُلانِ

وقال الإمام الأجل الشافعي ﷺ :

أَمَتُّ مَطامِعي فَأَرَحْتُ نَفْسي ... فَإِنَّ النَّفْسَ ما طَمِعَتْ تَهونُ
وَأَحْيَيْتُ القُنوعَ وَكانَ مَيتاً ... فَفي إحْيائه عِرْضي مَصونُ
إذا طَمَعٌ يَحُلُّ بِقَلْبِ عَبْدٍ ... عَلَتْهُ مَذَلَّةٌ وَعَلاهُ هُونُ

« مخزون في تسلية المحزون » ٦٤

« ١ » الكامخ نوع من الأدم أي ما يُشَهّى به للطعام .

فصل

في الكرامات والواردات والواقعات

اعلم أيها المؤمن التقي أن الكرامات والواردات من خصائص الطرق غالبا ، وتكون رؤيتها في البداية أكثر منها في النهاية ، **وليس بالكرامة فضل ، بل الاستقامة هو المطلوب الأعلى** .

قال ابن عطاء الله ﷺ في لطائف المنن حاكيا عن شيخه أبي العباس المرسي ﷺ : الناس على قسمين : قوم وصلوا بكرامة الله تعالى إلى طاعة الله تعالى وقوم وصلوا بطاعة الله تعالى إلى كرامة الله تعالى قال سبحانه وتعالى : ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ . تقريب ١٢٤

وقد ذكرنا في حق ذلك كلاما ونذكر هنا أثرا منها ليكون تتميما لما ذكر : واشتهر على ألسنة العارفين : حقيقة بلا شريعة باطلة ، وشريعة بلا حقيقة عاطلة . وقالوا : الحقيقة كلها علم ، ومتى وردت الواردات الإلهية على قلب العبد فإنها تمحو عنه جميع رعوناته وتهدم عليه ستر عاداته لأن لها سلطنة عظيمة على ذلك .

فإذا وردت على قلب مشحون بأنواع الرذائل والقبائح والخبائث أزالت ذلك وأنبتت عوضا منه أحوالا علية وأوصافا سنية مرضية **إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة** فالواردات الإلهية شبيهة بجنود الملك إذا حلّت قلّما قهرت ما فيه وأزالته وسرت أنوارها في الجوارح ، فلا يرى صاحبها إلا ساعيا في مرضاة ربه تعالى باتباع المأمورات واجتناب المنهيات وزيادة نوافل الخيرات رغبة في مرضاة المحبوب ، وهذه حالة السالكين ، وقد يقوى عملها في القلب حتى يفنى صاحبها عن الكون وعن نفسه ، وهذه حالة المجذوب .

لا يقال : إن العوائد مما جبلت عليها الطبائع ، فكيف تزيلها الواردات ؟ لأنا نقول : انّ الوارد له القهر كجند الملك ، ولذلك قال ابن عطاء الله ﷺ في « الحكم » : الوارد يأتي من حضرة قهار لأجل ذاك لا يصادمه شيء إلا دمغه ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ . انتهى كلام سيدي زين دحلان ﷺ اهـ وراجع « تنوير » ١٨ .

وقـــال الشيخ العارف علي بن حسين الهروي ﷺ عن شيخه عبيد الله الأحرار ﷺ : إن الدليل على صحة الأحوال الواردة أن يحصل تلك الأحوال وقت الفناء والاضمحلال ويزول الكلفة في الأعمال ويحصل الميل إلى الشريعة الغراء وتتجدد المحبة لها حتى يقوم بإتيان أحكام الشريعة بكمال الشوق والبهجة والسرور من غير كلفة وكسالة وفتور . انتهى .

وذكر في رشحات عين الحياة : سئل الشيخ أبو سعيد بأنه إذا خطر خاطر ونفيناه بكلمة بازكشت فانتفى فبأي علامة نعرف أنه نفساني أو شيطاني فقال : انظروا فإن عاد في اللباس الأول وخطر ثانيا مثل الأول فاعلموا أنه نفساني فإن الإبرام واللجاجة من صفة النفس فإنها تطالب بحاجة واحدة مرات كثيرة فإن حصلت تطالب بأخرى وإلا فهو شيطاني فإن مراد الشيطان إضلال وإغواء إن لم يقدر أن يقطع طريق السالك في لباس يأتي في لباس آخر ويدق بابا آخر . انتهى

والشيخ أبو العباس بن زروق ﷺ قال في « قواعده »/ ٥٣ : من ظهرت عليه خوارق تقتضي ما هو أعم من كرامته نظر فيما يفعله ، فإن صحت ديانته معها فكرامة وإن لم تصح فاستدراج أو سحر ، وإن ظهر بعد ثبوت الرتبة مناف مما يباح بوجه تأول مع إقامة الحق الشرعي إن تعين ، وإن كان مما لا يباح بوجه فالحكم لازم والتأويل غير مصادف محلا ، إذ الحقائق لا تنقلب والأحكام ثابتة على الذوات فلزم الحكم عليه بحكمه وأصل تأويل ما يباح بوجه مذكور في قضية الخضر وموسى عليهما السلام إذ بيّن الوجه عند فراقه . انتهى

وقال حضرة الخواجه بهاء الدين ﷺ : الأولياء يطلعونهم على الأسرار ولكنهم لا يظهرون بغير إجازة ، وهذا سر عظيم لمن فهم وإخفاء الأسرار صنع الأبرار ، وذكر بيتا بالفارسي مضمونه : لا تظهر السر فتهريق الدم على الأرض .

وقال ﷺ : كل ما ظهر منا بالنسبة إلى إظهار الخواطر وأحوال الخلق فلسنا في البين إما بالإلهام أو بالإعلام بواسطة إشارة إلى مقام الفناء كما قال تعالى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

وكتب في « النفحات » : إن ولاية جميع الأولياء تسلب بعد الموت إلا ولاية أربعة منهم ، اعلم أنه يمكن أن يكون مراده بالولاية التصرفات وظهور الكرامات ، لا أصل الولاية التي هي عبارة عن قرب إلهي جل سلطانه ، وأن يكون مراده بالسلب أيضا سلب كثرة ظهور الكرامات لا سلب أصل الظهور ، مع أن هذا الكلام كشفي ومجال الخطأ كثير في الكشف ، فلا يدري ماذا رأى وماذا فهم . انتهى .

وقال العارف الشيخ داود بن ماخلا ﷺ : إن الله تعالى يستر عن العارفين كثيرا من مقاماتهم وكراماتهم حتى لا تخطر الدعوى على بالهم . « تقريب » ٥٣ .

قال الإمام الرباني قدس سره النوراني : اعلم أن ارتكاب فضول المباحات باعث على قلة ظهور الخوارق ، خصوصا إذا أفضى كثرة مباشرة الفضول إلى حد المشتبه وأدت منه عياذا بالله سبحانه وتعالى إلى حوالي المحرم ، فأين الكرامات حينئذ وأين الخوارق ، وكلما يضيق دائرة مباشرة المباح واكتفى منه بقدر الضرورة يكون مجال الكشف والكرامة أوسع وطريق ظهور الخوارق أوضح ، وظهور الخوارق من شرائط النبوة ، لا من شرائط الولاية .

فإن إظهار النبوة واجب دون إظهار الولاية ، بل السر والإخفاء في هذه المرتبة أولى ، فإن هناك دعوة الخلق وهنا قرب الحق جل شأنه . ومعلوم أن الإظهار لازم للدعوة والستر مناسب للقرب .

وكثرة ظهور الخوارق من ولي لا يدل على أفضليته من الذين لم يظهر منهم من الخوارق كما ذكرنا ونذكره .

وقد حقق شيخ الشيوخ هذا المعنى في « العوارف » ، فإذا لم يكن قلة ظهور الخوارق وكثرته في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام موجبة للأفضلية والمفضولية مع كونها شرطا للنبوة ، كيف تكون في الولاية موجبة للتفاضل مع كونها غير شرط فيها ؟ !

وأظن أن المقصود الأصلي من رياضات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومجاهدتهم وتضييقهم في مباشرة المباح على أنفسهم هو تحصيل ظهور الخوارق التي هي واجبة عليهم وشرط نبوتهم ، لا الوصول إلى درجات القرب الإلهي جل سلطانه ، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مجتبون فيجر بهم بسلسلة جذب المحبة جرًّا جرًّا ويوصل بهم إلى درجات القرب الإلهي بلا مشقة منهم .

والطريق الذي يحتاج فيه للوصول إلى درجات القرب الإلهي إلى الرياضات والمجاهدات هو طريق الإنابة والإرادة الذي هو طريق المريدين ، وطريق الاجتباء هو طريق المرادين .

والمريدون يذهبون بأرجلهم بالمشقة والمحنة والمرادون يحملون إلى منزل المقصود بالإعزاز والإكرام ويوصل بهم إلى درجات القرب بلا محنة منهم . انتهى .

واعلم أيها السعيد المجددي **علامة وصول نفحة من مشام هذا العلم حصول التصديق الكامل بهذا العلم ويسلم لأهل هذا العلم حقا لهم** ، فإن التصديق بمقامهم ولاية فتدبر ، كما قال تاج العارفين أبو القاسم جنيد ﷺ : التصديق بطريقتنا هذا ولاية صغرى .

وقال الخواجه : مذهب الحق أن كل كرامات الأولياء معجزة لرسول ذلك الولي وثبوت الولاية بظهور الكرامة المقارنة للاستقامة في متابعة الرسول ﷺ في الأفعال والأقوال .

ومن الأنفاس الشريفة لحضرة الخواجه قُدِّسَ سِرُّهُ أنه قال : لا اعتماد على ظهور خوارق العادات والكرامات ، وإنما المعتبر الاستقامة ومتابعة السنة كما هو مسطور في العقائد ، وكل ما هو كرامة للولي تكون معجزة للرسول عليه الصلاة والسلام ، فإن بظهورها يعلم أنه ولي ولا يكون وليا إلا وأن يكون محقا في ديانته يعني على نهج الشرع وسيرته .

وفي كتاب « التعرف في علم التصوف » مذكور : أجمع فقهاء الأمة من أهل السنة والجماعة على إثبات كرامات الأولياء وإن كانت تدخل في المعجزات ، كالمشي على الماء وكلام البهائم وطي الأرض وظهور الشيء في غير وقته وموضعه .

وقد ثبتت كرامات الأولياء وجاءت قضاء كل واحد في الأخبار والآثار بالنقل الصحيح ، ولسان التنزيل ناطق بذلك ، والمنكر لكرامات الأولياء والمتكلم فيها في الحقيقة كالمنكر للمعجزة ، والاعتراض على أهل الله تعالى غير مبارك ، فإن كل شيء يجري عليهم مبني على حكمة . فجعل ذلك سببا للقدح والطعن فيهم في غاية الخطر .

وذكر في كتاب « قوت القلوب في معاملة المحبوب » : كل من أنكر مقاما من مقامات أهل اليقين أو طريقا من طرق العارفين أحسن أحواله ضعف اليقين وأردى أحواله الكفر وأقل عقوبته حرمان الوجد وفقدان الشهود .

ونقل في « فاتحة العلوم » عن بعض العارفين : كل من لم يكن له من علم الصديقين والمقربين نصيب أخاف عليه من سوء الحال في النفس الأخير ، وأقل ما يحصل من خراب الحال لمنكر هذا العلم أنه لا يكون محفوظا من هذا العلم بوجه من الوجوه انتهى .

سئل حضرة الخواجه ﷺ عن الفقراء في نفي الكرامات ماذا يقولون فقال : كل شيء في صفة حقيقة كلمة التوحيد منفي ، فما الكرامات في جنب ذلك ، وأصحاب الكرامات كلهم محجوبون والعارفون عن النظر إليها معدومون .

سئل أيضا حضرة الخواجه بهاء الدين النقشبندي ﷺ أن بصيرة ومعرفة أهل الله تعالى للخواطر والأعمال والأحوال من أين ؟ فقال : من نور الفراسة التي أكرمهم الله تعالى بها ، كما ورد في الحديث الصحيح : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » .

و إن بعض المشائخ طلبوا من حضرة الخواجه بهاء الدين ﷺ الكرامات فقال : **كرامتنا ظاهرة ، مع وجود هذه الذنوب يمكننا أن نمشي على الأرض** .

وقال أيضا ﷺ : إن ظهور الأحوال من الشيخ كرامات في نظر المريد انتهى . ومر مثل هذا في فصل بيان أحوال المتوجهين راجعه .

وقال بعض الأعلام : لا ينال عبد الكرامة حتى يكون على إحدى صفتين : إما أن يسقط الناس من عينه ، فلا يرى في الدنيا إلا خالقه وإن أحدا لا يقدر أن يضره ولا ينفعه ، وإما أن يسقط الناس عن قلبه ، فلا يبالي بأي حال يرونه . انتهى « كشكول » ١١٤ .

فإن قيل : إن الكرامات وخوارق العادات التي ظهرت من حضرة الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ لم تظهر من ولي أصلا ، فيكون الفضل له من جميع الأولياء .

قلت : إن كثرة ظهور الخوارق لا دلالة فيها على الأفضلية ، بل يمكن أن يكون الذي لم يظهر منه خارق أصلا أفضل من الذي ظهرت منه الخوارق والكرامات ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

قال شيخ الشيوخ في « العوارف » بعد ذكر الكرامات وخوارق المشائخ للعادات : وكل هذه مواهب الله سبحانه وتعالى وقد يكاشَف بها قوم ويعطى ،

وقد يكون فوق هؤلاء من لا يكون له شيء من هذا لأن هذه كلها تقوية اليقين ، ومن منح صرف اليقين لا حاجة له إلى شيء من هذا ، فكل هذه الكرامات دون ما ذكرناه من تجوهر الذكر في القلب ، وجعل كثرة ظهور الخوارق دليلا على الأفضلية كجعل كثرة فضائل علي كرم الله وجهه ومناقبه دليلا على أفضليته على الصديق رضي الله عنه ، فإنه لم يظهر منه هذا القدر من الفضائل والمناقب .

ثم إن خوارق العادات على نوعين :

النوع الأول : العلوم والمعارف الإلهية التي تتعلق بذات الواجب جل وعلا وصفاته وأفعاله وراء طور نظر العقل وخلاف المتعارف المعتاد ، وجعل الحق سبحانه عباده الخاصة ممتازين بها .

والنوع الثاني : كشف صور المخلوقات والإخبار عن المغيبات التي تتعلق بالعالم . والنوع الأول مخصوص بأهل الحق وأرباب المعرفة ، والنوع الثاني شامل للمحق والمبطل ، فإنه حاصل لأهل الاستدراج أيضا .

والنوع الأول شرافة واعتبار عند الحق جل وعلا ، لكونه مخصوصا بأوليائه وعدم مشاركة أعدائه فيه ، والنوع الثاني معتبر عند عوام الخلائق ومعزز ومكرم عند أنظارهم ، حتى لو ظهر ذلك من أهل الاستدراج يكادون يعبدونه من جهلهم ويطيعونه وينقادون له فيما يأمرهم به من رطب ويابس وينهاهم ، بل المحجوبون لا يعدون النوع الأول من الخوارق والكرامات ، والخوارق عندهم في النوع الثاني ، والكرامات مخصوصة عندهم بكشف صور المخلوقات والإخبار عن المغيبات .

ما أبعدهم عن العقل ، أي شرافة وأي كرامة في علم يتعلق بأحوال المخلوقات حاضرة كانت أو غائبة ، بل الأليق والأنسب أن يبدل مثل هذا العلم جهلا ليحصل نسيان المخلوقات وأحوالها ، واللائق بالشرافة والكرامة هو معرفة الحق تعالى ، وهي المستحقة للإعزاز والاحترام .

وَرُبَّ مَليحٍ لا يُحَبُّ وَضِدُّهُ يُقَبَّلُ مِنْهُ العَيْنُ وَالخَدُّ والفَمُ

« مكتوبات » الرباني ﷺ النوراني ٣٢

وسأل الملك حسين صاحب هراة حضرةَ الخواجه ﷺ و بعض المشائخ قالوا : الولاية أفضل من النبوة ، أيّ ولاية أفضل من النبوة ؟ فقال حضرة الخواجه : ولاية ذلك النبي أفضل من نبوته فافهم .

ومن المعلوم المقرر أن المزية لا تقتضي التفضيل والاقتداء لا يصح إلا بذي علم كامل أو دين .

ولو قيل بالتفضيل بالمزايا للزم تفضيل إبليس على عوام المؤمنين ، إذ له مزية خرق الهواء و المشي على الماء ونفوذ الأرض في لحظة وما أثبته الله تعالى له من أنه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه .

وللزم تفضيل الخضر على موسى عليهما السلام وكل ذلك لا يصح ، فلزم أن التفضيل بحكم من الله في الجملة فلا يتعرض له إلا بتوقيف ثابت في بابه ، ولكن للدلائل ترجيح فوجب التوقف عن الجزم وجاز الخوض في الترجيح إذا أحوج إليه الوقت ، وإلا فترك الكلام فيه أولى والله أعلم ، قاله الشيخ ابن زروق ﷺ .

قال الشيخ العارف السيد أحمد زين دحلان ﷺ نقلا عن العارف ابن عطاء الله ﷺ في « الحكم » : الوارد يأتي من حضرة قهار ، لأجل ذاك لا يصادمه شيء إلا دمغه ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾

وقال ابن عطاء الله ﷺ : لا تُزَكِّيَنَّ واردا لا تعلم ثمرته ، فليس المراد من السحابة الإمطار ، إنما المراد منها وجود الأثمار .

والمعنى : لا تمدح الوارد ولا تفرح به وأنت لا تعلم ثمرته ، وثمرته تأثر القلب به وتبدل صفاته المذمومة بصفات محمودة ، فإن لم يوجد هذا عندك فلا تفرح به فإن ذلك نوع من الاغترار وانخداع بلبسة الإظهار ، فكن على حذر منه .

فالوارد إنما يراد لثمرته لا لحظ النفس ، فإن كثيرا ممن يحصل عندهم تلك الأحوال القلبية يغترون بها ، وربما تركوا الأعمال الظاهرة مع وجود عقلهم .

ثم اعلم أن الواردات وسائل لحصول مقاصدها ، وهي ثمراتها التي تكون بعد حصولها . فإذا حصلت مقاصدها فلا وجه لطلب بقاء الواردات ، كما أنه لا يطلب بقاء السحاب والإمطار بعد حصول الأثمار ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾

فإياك أن تقف مع الواردات فتصير حجابا في حقك والمقصود أمامك ، ولا تحزن على فقد الوارد إذا فقدته فلك في الله تعالى غنى عن كل شيء ، وليس يغنيك عن الله تعالى شيء . ورحم الله تعالى القائل :

لِكُلِّ شَيءٍ إذا فارَقْـتَـهُ عِوَضٌ ... وَلَيْسَ لِلهِ إنْ فارَقْتَ مِنْ عِوَضِ

فلا تأس على فقد شيء إذا وجدت الله في كل شيء ، وكيف يأسى على فقد شيء من عنده مالك كل شيء ، وكيف تتعلق همة من رضي عنه الملك بغير الملك ، وليس يغنيك عن الله شيء إذا فقدته .

ولقد أحسن من قال :

المُلْكُ مُلْـكـي إذا ظَـفِرْتُ ... بالوَصْلِ مِمَّنْ بِهِ كَلِفْتُ
إنْ لَمْ يَكُنْ مَنْ أحِبُّ عِنْدي ... في جَـنَّـةِ الخُـلْدِ لا نَعِمْتُ

انتهى

قال في « الحكم العطائية » وشرحه : **تنوعت أجناس الأعمال على العاملين لتنوع واردات الأحوال** ، أي الواردات التي تنتج أحوالا قائمة بقلوبهم تقتضي ميلهم إلى تلك الأعمال أو واردات هي الأحوال ، فإن الوارد قد يسمى حالا كما سيأتي ، يعني أن بعض المريدين نجده مشتغلا بالصلاة وبعضهم بالصيام وهكذا ، وسبب ذلك وارد إلهي اقتضى ميل هذا إلى كذا وهذا إلى كذا .

وينبغي لكلٍّ أن يعمل بمقتضى ميله المذكور إن لم يكن تحت تربية شيخ ، وإلا فلا يشتغل بشيء إلا بإذنه وإرادته .

وحاصل ذلك أن تنوع الأوراد في حق المريدين ناشئ عن تنوع الواردات على قلوبهم . فينبغي لكل مريد أن يعمل بمقتضى وارده بالشرط المتقدم ، لا يعمل بمقتضى وارد غيره ولا يعترض على ذلك الغير في عدم اشتغاله بما اشتغل به هو « شرح الشرقاوي » ١٠ .

وفـــي « التفسير الكبير » للإمام النحرير فخر الدين الرازي رضي الله عنه : إذا ظهر فعل خارق العادة على إنسان فذلك إما أن يكون مقرونا بالدعوى أو لا مع دعوى ، والقسم الأول أن ما يكون بالدعوى إما أن يكون دعوى الإلهية أو دعوى النبوة أو دعوى الولاية أو دعوى السحر وطاعة الشياطين ، فهذه أربعة أقسام :

القسم الأول ادعاء الإلهية ، وجوز أصحابنا ظهور خوارق العادات على يده من غير معارضة ، كما قال : إن فرعون كان يدعي الألوهية وكان يظهر على يديه خوارق العادات ، وكما نقل ذلك أيضا في حق الدجال ، قال أصحابنا : وإنما جاز ذلك لأن شكله وخلقته يدل على كذبه ، فظهور الخوارق على يديه لا يفضي إلى التلبيس .

والقسم الثاني ادعاء النبوة ، وهذا القسم على قسمين ، لأنه إما أن يكون ذلك المدعي صادقا أو كاذبا ، فإن كان صادقا وجب ظهور خوارق العادات على يده ، وهذا متفق عليه ، وبتقدير أن يظهر وجب حصول المعارضة .

وأما القسم الثالث وهو ادعاء الولاية ، فالقائلون بكرامات الأولياء اختلفوا في أنه هل يجوز ادعاء الكرامة ثم أنها يحصل على وفق دعواه أم لا .

القسم الرابع وهو ادعاء السحر وطاعة الشياطين ، فعند أصحبنا يجوز ظهور خوارق العادات على يد إنسان من غير شيء من الدعاوى ، فذلك الإنسان إما أن يكون صالحا مرضيا عند الله تعالى ، وإما أن يكون خبيثا مذنبا ،

والأول من القول بكرامات الأولياء ، وقد اتفق أصحابنا على جوازه ، وأنكرها المعتزلة إلا أبا الحسين البصري وصاحبه محمود الخوارزمي .

وأما القسم الثاني وهو أن يظهر خوارق العادات على بعض من كان مردودا عن طاعة الله تعالى . فهذا هو المسمى بالاستدراج فافهم .

وقد ثبت أن كرامات الأولياء حق ثابت بكتاب الله تعالى والآثار الصحيحة المروية وإجماع أهل السنة والجماعة على ذلك ، وقد ذكرناها في هذا الكتاب وفي كتابنا « مواقف السادات » فراجعه .

وذكر في « المكتوبات الربانية » ما عبارته هذه : كتب الشيخ محي الدين بن العربي ﷻ : إن بعض الأولياء الكرام الذي ظهرت منه كرامات وخوارق كثيرة ندم في آخر النفس من ظهور تلك الكرامات وقال تمنيا : **يا ليت هذه الكرامات لم تظهر مني** ، فلو كان التفاضل باعتبار كثرة ظهور الخوارق لا يكون للندامة على ذلك الطور معنى .

فـــإن قيل : إذا لم يكن ظهور الخوارق شرطا في الولاية كيف يتميز الولي من غير الولي وكيف يتبين المحق من المبطل ؟

أجـــيب : لا يلزم التمييز ، بل يكون المحق ممتزجا بالمبطل ، **فإن اختلاط الحق بالباطل لازم لهذه النشأة الدنيوية** .

والعلم بولاية ولي ليس بلازم أصلا ، وكثير من أولياء الله تعالى لا اطلاع لهم على ولايتهم ، فكيف يكون الاطلاع على ولايتهم لازما لغيرهم .

وفي النبي لا بد من الخوارق ليتميز النبي من غير النبي ، فإن العلم بنبوة نبي واجب . والولي لما كان داعيا على شريعة نبيه كفاه معجزة نبيه ، فلو كان الولي يدعو إلى ما وراء الشريعة لما كان له بد من خارق ، وحيث كانت دعوته مخصوصة بشريعة نبي لا يلزم الخارق أصلا .

العلماء يدعون إلى ظاهر الشريعة ، والأولياء يدعون إلى ظاهر وباطن الشريعة ، يدلون المريدين والطالبين أولا على التوبة والإنابة ويرغبونهم في الأحكام الشرعية ويهدونهم ثانيا إلى طريق ذكر الحق جل وعلا ، ويؤكدون في استغراق جميع أوقاتهم بالذكر الإلهي جل سلطانه إلى أن يستولي الذكر ولا يبقى في القلب غير المذكور أصلا ، ليحصل النسيان عن جميع ما سوى المذكور حتى لو كلف بتذكر الأشياء لا يكاد يتذكر .

ومن اليقين أنه لا حاجة للولي لأجل هذه الدعوة التي تتعلق بظاهر الشريعة وباطنها إلى الخوارق أصلا .

والشيخوخة والمريدية عبارتان عن هذه الدعوة التي لا تعلق لها بالخوارق ولا مساس لها بالكرامة ، مع أنا نقول : **إن المريد الرشيد والطالب المستعد يحس في كل ساعة في أثناء سلوك الطريق خوارق شيخه وكراماته ويستمد منه في المعاملة الغيبية في كل زمان** ، ويجد منه فيها مددا .

وظهور الخوارق بالنسبة إلى الأغيار ليس بلازم ، وأما بالنسبة إلى المريدين فكرامات في كرامات وخوارق في خوارق ، وكيف لا يحس المريد خوارق الشيخ فإن الشيخ أحيى القلب الميت وأوصل إلى المكاشفة والمشاهدة ، فإذا كان عند العوام الإحياء الجسدي عظيم الشأن فعند الخواص الإحياء القلبي والروحي برهان رفيع البنيان انتهى .

وقـــال مولانا شاه غلام علي الدهلوي ﷺ : إن طالب ذوق وشوق وكشوف وكرامات ليس بطالب لله . انتهى .

وقال أيضا : **إن الناس على أربعة أقسام : عديم المروة وصاحب المروة وصاحب الجود والفرد ، فعديم المروة هو طالب الدنيا ، وصاحب المروة طالب العقبى ، وصاحب الجود هو طالب العقبى والمولى ، والفرد هو طالب المولى فقط** .

وقال الشيخ أحمد بن زروق ﵁ في « القواعد » : كرامة التابع شاهدة بصدق المتبوع له من حرمته لثبوت الإرث له منه ، فمن ثم جاز التبرك بآثار أهل الخير ممن ظهرت كرامته بديانة أو علم أو عمل أو أثر ظاهر كتكثير القليل والإخبار عن الغيب حسب فراسته وإجابة الدعوة وتسخير الماء والهواء إلى غير ذلك مما صح من آيات الأنبياء ، فيكون كرامة الأولياء إذاً لأصل التأسي حتى يأتي المخصص ، ولم يزل أكابر« ١ » يتبركون بأهل الفضل من كل عصر وقطر ، فلزم الاقتداء بهم حسب ما يهتدي إليه الظن في الأشخاص . والله أعلم .

وقال ﵁ : يعرف باطن العبد من ظاهر حاله لأن الأَسِرَّة تدل على السريرة وما خامر القلوب فعلى الوجه أثره يلوح ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود

وقال ذلك الرجل لرسول الله ﷺ : فلما رأيته علمت أنه ليس بوجه كذاب .

وقال عز من قائل في المنافقين : ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ﴾ .

وقيل : **الناس حوانيت مغلقة ، فإذا تكلم الرجلان تبين العطار من البيطار ، لأن الكلام صفة المتكلم** ، وما فيك ظهر على فيك .

فمعرفة الرجل من ثلاثة : كلامه وتصرفه وطبعه ، وتتعرف كلها من مغاضبته فإن لزم الصدق وآثر الحق وسامح الخلق فهو ذاك ، وإلا فليس هناك ، والله أعلم .

وقال ﵁ أيضا : لكل بلاد ما يغلب عليها من الحق والباطل ، فإذا أردت أن تعرف صالح بلد فانظر لباطل أهلها هل هو بريء منهم أو لا فإن كان بريئا فهو ذاك ، وإلا فلا .

« ١ » لعله : الأكابر .

وبحسب هذا فاعتبر في أهل المغرب الأقصى السخاء وحسن الخلق ، فإن وجدته وإلا فدع ، وفي أهل الأندلس كذلك وفي أهل المشرق الغيرة لله وسلامة الصدر إلى غير ذلك .

وقد أشار رسول الله ﷺ لهذا الأصل فذكر أوصاف البلاد وعوارضها كقوله في المشرق : « الفتنة ههنا » وكذا نجد ، وفي الفرس : « لو كان الإيمان بالثريا لأدركه رجال منهم » ، وفي أهل اليمن « إنهم ذو أفئدة » ، وفي أهل المدينة : « إنهم خير الناس » مع ما وصفهم الله به من قوله ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ وما وصف به أهل مصر من الأوصاف المذمومة وغيرها التي يبلغ عددها سبعة عشر موضعا في كتاب الله تعالى .

وقال عليه الصلاة والسلام : « السكينة والوقار في أهل الغنم ، والفخر والخيلاء في أهل الخيل ، والغلظة والجفاء في الفدادين[١] تُبَّاع أذناب الإبل والبقر » ، وقال عمر رضي الله عنه في إفريقية : بلاد مكر وخديعة ، وقال مولانا جلت قدرته لذي القرنين في أهل المغرب الأقصى : ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ فدل على استحقاقهم لكل ما يعاملون به من خير أو شر وأنهم لكذلك والله أعلم .

ولنذكر هنا على مجرى صاحب « التعريب » مولانا محمد مراد المنزلوي قدس سره ما ذكره نقلا مما في « منازل السائرين » : قال شيخ الإسلام الهروي والإمام الأنصاري قدس سره في « منازل السائرين » وشارحه : والذي ثبت عندي بالتجربة أن فراسة أهل المعرفة إنما هي في تمييزهم من يصلح لحضرة الله جل وعلا ممن لا يصلح ويعرفون أهل الاستعداد الذين اشتغلوا بالله سبحانه وتعالى ووصلوا إلى حضرة الجمع ، وهذه فراسة أهل المعرفة .

وأما فراسة أهل الرياضة بالجوع والخلوة وتصفية الباطن من غير وصلة إلى جانب الحق تعالى ، فلهم فراسة كشف الصور والإخبار بالمغيبات المختصة بالخلق ، فإنهم لا يخبرون إلا عن الخلق ، لأنهم محجوبون عن الحق سبحانه وتعالى .

« ١ » وهم الذين تعلو أصواتُهم في حروثِهِم ومواشيهم والمقصود سكان البوادي .

وأما أهل المعرفة فلاشتغالهم بما يرد عليهم من معارف الحق تعالى لا يكون إخبارهم إلا عن الحق تعالى .

ولما كان العالم أكثرهم أهل انقطاع عن الله سبحانه وتعالى واشتغال بالدنيا ، مالت قلوبهم إلى أهل كشف الصور والإخبار عما غاب من أحوال المخلوقات ، فعظموهم واعتقدوا أنهم أهل الله تعالى وخاصته ، وأعرضوا عن كشف أهل الحقيقة واتهموهم فيما يخبرون عن الله سبحانه وتعالى وقالوا : لو كان هؤلاء أهل الحق كما يزعمون لأخبرونا عن أحوالنا وأحوال المخلوقات ، وإذا كانوا لا يقدرون على كشف أحوال المخلوقات فكيف يقدرون على كشف أمور أعلى من هذه ، وكذبوهم بهذا القياس الفاسد وعميت عليهم الأنباء الصحيحة ، ولم يعلموا أن الله تعالى قد حمى هؤلاء عن ملاحظة الخلق وخصهم وشغلهم عما سواه حماية لهم وغيرة عليهم ، ولو كانوا ممن يتعرض لأحوال الخلق ما صلحوا للحق سبحانه .

وقد رأينا أهل الحق إذ التفتوا أدنى التفات إلى كشف الصور أدركوا منها ما لا يقدر غيرهم على إدراكه بالفراسة التي يثبتها أهل المعرفة ، وهي الفراسة فيما يتعلق بالحق سبحانه وتعالى وما يقرب منه .

وأما فراسة أهل الصفاء الخارجين المتعلقين بالخلق فلا يتعلق بجناب الحق سبحانه وتعالى ولا ما يقرب منه ، ويشترك المسلمون والنصارى واليهود وسائر الطوائف فيها ، لأنها ليست شريفة عند الله تعالى فيختص بها أهله .

وقال مولانا وشيخ شيخنا ﷺ : وأما الفرق بين الأحوال الربانية والطبيعة الشيطانية فلا بد من معرفتها حتى يميزها عيانا . قالوا : لمدعي السماع له حالات ثلاث :

فالحالة الأولى نقتصر على شيء منها ، وهو أن الإنسان إذا كان صاحب صدق فإذا ورد عليه شيء تشتغل الروح معه وتتحد الجوارح وينحرف الطبع ويتغير المزاج ، فإن الجسم اشتغل عنه حافظه بما يلقى إليه ، فإذا انصرف عنه

النور الملكي سرى عنه وقد عرق جبينه واحمر وجهه ، وقام كأنما نشط من عقال ، هي المحادثة ولأولياء الله تعالى فيها مشارب شتى .

والحالة الثانية هي أنه متى اشتد على الإنسان وغاب عن الوجود الحسي ، فإن حصل في تلك الغيبة علم يعقله هنا ويعقله إذا رجع إلى حسه ، ويعبر عنه على ما أعطاه الله تعالى من العبارة ، فهو الحال الإلهي ويملأ القلب سرورا عند الإفاقة ، وإن غاب ثم رد ولم يجد شيئا إلا أنه أخذ عنه بفيضة أفيضت عليه لم تتم له فائدة ، ولكن غاب عن حسه ، فهذا حاله من المزاج لما حمي القلب بالذكر أو بالتخيل صعد منه البخار من التجويف الكبير إلى الدماغ ، فحجب العقل ومنع الروح الحيواني من السريان ورمى بصاحبه كالمصروع ، فهذا حال صحيح ، ولكن من المزاج الطبيعي ليس له فائدة ، وكثيرا ما يرى شبحا أوسحابا أو بستانا أو برا أو بحرا ، وهو هذا البخار .

وأما الحالة الثالثة فهو الكذاب ، وهو الذي يعقل أهل مجلسه في السماع أو في خلوة ، فهذا صاحب وسوسة وحديث نفس ، قد سخر به الشيطان ، فكل ما يلقى إليه يتخيل أنها علوم وهي سموم ، فلا يعول على كل ما يخاطب به في هذه الحالة ولو صادف الصحة فيها ، كما قال الفقهاء : من صلى جاهلا بكيفية الوضوء والصلاة والقبلة لا تصح صلاته وإن صادف الصحة .

فكما أن هذه المسألة أصل عند العلماء فكذلك عند الصوفية ، فلا يعول أبدا على ما يخاطب الجاهل بطريق فإنه لا يحسن أن يفرق بين الحق والباطل ، فكيف يعول على قوله ، فإن هذه الحالة شيطانية وإنه ليس في قوة الشيطان أن يغيبك عن حسك ثم يلقي إليك وتعقل عنه ، وإنما هو على وجهين إما أن يغيبك ولا يلقي إليك وأنت مع حسك وفي باطنك شيء من حرارة وتوهم واستماع إلى شيء وضرب من الاستعداد للخطاب ، فإن عرف أنه تمكن منه في هذا المقام ألقى إليه خطابا ، فيحسن بذلك على حسب ما يلقى إليه فيخبر عما وجده وإخباره أنه وجد هذا في نفسه صحيح ، وربما يقول له بمواقع خطابه : عبدي أنا ربك لا تنظر إليّ إلا بي ، فإن نظرت

إليّ بك أشركت ، فأنا الناظر والمنظور وأنا الساجد والمسجود وأنا الذاكر والمذكور ، وما أشبه ذلك من الخطاب .

ويقنع إبليس منه أن يعتقد أن ذلك من الله تعالى فيستولي عليه فيصير محلا له طول عمره ، فلو علم هذا الجاهل أن خطابة الحق لا تزيل إحساسا وليس بالوهم ولا بالخيال ولا بالاستعداد ولا بالانتظار ولا بخاطر يخطر بالبال ولا ببقاء الحس والقال لرجع عن جهله .

ولو علمت أن هذا من جهلك بنفسك وبغرور الشيطان بك لتبت إلى الله تعالى وعرضت هذه الأمور على مرشد يعرفك الحق ، فإن أمرتك ونهتك بضرب من العبادات فهي شيطانية ، فأكثر من الذكر وقراءة آية الكرسي والمعوذتين والحمدلة والبسملة والاستغفار وترك الطمع والدنيا .

فهذه الثمانية السلاح وإن لم تأمرك ولكن تخبرك بمواقع في الكون من أمر مغيب من خوارق العادات ، فأنت على الاحتماء من أن تكون شيطانية أو غيرها ، فميز بينهما بسرعة الإلقاء والتفرقة ، وإن لم تلق إلا شيئا ثم شيئا آخر ثم آخر فهو روح شيطاني فألهمها فجورها وتقواها ، وإن استمر أمر واحد فإنك في حال الفتنة أيضا ، فلا تقبل من الإلقاء إلا ما حصل لك في حال الفناء الكلي عن نفسك وحسك ، ولا يبقى في تمثيل ولا حس سوى مجرد الفهم منك لما يكون منه ، فإن سر المشاهدة للبهت وسر الكشف للعلم وسر البقاء للأدب وسر الفناء للتوحيد وسر القبض للافتقار وسر البسط للسؤال وسر المعرفة للعجز ، والأسرار كثيرة فتفطن والله تعالى يعصمك . انتهى .

وقال مولانا أيضا في « جامع الأصول » : بسط الكرامة أربعة حب يشغلك عن حب غيره ، ورضا يفضل به حبك ، وزهد يحققك بزهد رسوله ، وتوكل يكشف لك عن حقيقة قدرته .

وقالوا : كرامة الصديقين خمسة : أولها دوام الذكر والطاعات بشرط الاستقامة ، والثانية الزهد في الدنيا بإيثار القلة ، والثالثة تجديد اليقين مع

المعارضات ، والرابعة وجود الوحشة مع أهل المنفعة والأنس مع أهل المضرة ، والخامسة ما يظهر على الأبدان من طي الأرض والمشي على الماء وغير ذلك مما لا يجري تحت حكم العادة ، ولهذه الفضائل أوقات وأشخاص وأماكن ، فمن طلبها في غير وقتها قلما يعثر عليها .

وعلى الجملة لا يعطاها من طلبها ولا من تحدثه نفسه بها واستعمل نفسه في طلبها ، إنما يعطاها عبد لا يرى نفسه ولا عمله وهو مشغول بمحاب الله تعالى ، ناظر لفضل الله تعالى ، آيس عن نفسه وعمله ، وقد تظهر على من استقام في ظاهره ، وإن كانت هيئة النفس في باطنه .

وقال الشاذلي ﵁ : كرامة الله تعالى في الرضا تلهيك عن المصائب إلى يوم اللقاء .

وقال : إنما هنا كرامتان جامعتان محيطتان في الدنيا : كرامة الإيمان بزيادة الإيقان وشهود العيان ، وكرامة العمل بالاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوي والمخادعة ، فمن أعطيهما وجعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مفترٍ كذاب أوذو حظ في العلم والعمل بالصواب ، كمن أكرم بشهود الملك والخدمة إلى عين الرضا وجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع المرضى ، وكل كرامة لا يصحبها الرضا من الله تعالى وعن الله تعالى فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص أو هالك مثبور .

وقيل لي : إن أردت كرامتي فعليك بطاعتي وبالإعراض عن معصيتي ، فإن زللت بغلبة الشهوة وعظيم القدرة فاعلم قربي منك ونظري إليك وإحاطتي بك وقدرتي عليك ، واستنقذ نفسك مني ومن عظيم قدرتي وقل : **يا موجود قبل كل موجود وهو الآن على ما هو عليه موجود ، يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن ضاقت علي الأرض بما رحبت وضاقت علي نفسي ، ولا ملجأ منك إلا إليك ، فتب علي لأتوب إنك أنت التواب الرحيم** . انتهى .

وأما كرامات الأولياء فقد ذكرها شيخ شيخنا في « جامعه » بالتفصيل .

فمنها ما ذكره أنه هي ما يكرمهم الله تعالى به من الأمور الخارقة للعادة ، **ووقوع الكرامات جائز ومتحقق عند أهل العلم والمعرفة كما ذكرنا من قبل ، وفائدتها معرفة الولي الصادق من المدعي الكاذب بتعريف الله تعالى .**

وقال أبو عثمان ﷺ : من كان له سريرة صالحة سنية أظهر الله تعالى منها رداء يعرف به ، ولا بد من كونها فعلا خارقا للعادة في زمن التكليف .

والفرق بين المعجزة والكرامة قيل : بدعوى النبوة ، واختاره القاضي أبو بكر وهو المعتمد ، وقيل : بوجوب الإظهار في المعجزة ووجوب الإخفاء والستر في الكرامة ، وقيل : بالقطع وعدمه ، فالنبي يقطع بكون ذلك معجزة والولي يجوِّز كونه مكرا ، وقيل : إن كان ظهور الأمر الخارق للعادة على يد الشخص غير مقرون بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجا ، وإن كان مقرونا بهما فإن لم يكن معه دعوى النبوة فكرامة ، وإلا فمعجزة .

وقال شيخ شيخنا قدس سره في « جامعه » : وقال المنكرون : الولي لا تصح له الولاية إلا إن ظهرت على يده كرامات ، ولو عالما عاملا متبعا السنن مجتنبا البدع بإخلاص ورسوخ وتمكن في اليقين والتيقن .

فنقول : هذه الشبهة لا يليق لها الجواب ، بل هي مغالطة كما سبق عن الأئمة : إن لم تكن العلماء أولياء فليس لله تعالى ولي .

وقال السهروردي قدس سره : وفوق أصحاب الكرامات بسبب وبلا سبب أقوام ارتفعت الحجب عن قلوبهم فاستغنوا عن السبب وظهور الكرامات والخوارق ، ولهذا لم ينقل عن الصحابة إلا القليل من ذلك لما باشرت صريح الإيمان قلوبهم .

وقال زكريا الأنصاري رحمه الله : والكرامات أمر خارق للعادة على يد ولي غير مقارن لدعوى النبوة منه ، وفيها تثبت له ، ولهذا ربما وجدها أهل البدايات في بدايتهم وفقدوها في نهايتهم ، لأن ما هم عليه من الرسوخ والتمكن لا يحتاجون معه إلى تثبت ، ولذا قل ظهورها على يد السلف من الصحابة والتابعين ، وصاحب الكرامات لا يستأنس بها ، بل يشتد خوفه مخافة أن يكون

ذلك استدراجا ، والمستدرج يستأنس بما ظهر عليه ، وعند ذلك يستحقر غيره وينكر عليه ويحصل له الأمن من مكر الله تعالى وعقابه .

فإذا ظهر شيء من هذه الأحوال على من ظهر عليه ذلك دل هذا على أنه استدراج لا كرامة ، ولذلك قال المحققون : أكثر ما اتفق من الانقطاع من حضرة الرب سبحانه وتعالى إنما وقع في مقامات الكرامات ، ولذلك كانوا يخافون منها ويعدونها من أشد البلاء وحيض الرجال . انتهى .

وقال الشيخ أحمد بن علان ﷺ : وخرق العوائد الصادرة عن أولياء الله تعالى فهي صادرة عنهم في الظاهر وهم بمعزل عنها في الباطن ، لأنهم لا يرون لهم فعلا ولا وصفا ولا وجودا ، وهذا معنى قولهم : العارف كائن بائن .

ومن هنا يظهر لك لمعة من معنى قوله ﷺ في الحديث القدسي : « لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه . . » إلى آخر الحديث المشهور .

فمن كان الحق سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله كيف يستغرب منه صدور شيء من الخوارق ، وعُدْ عن فهمك وعملك وخيالك في فهم هذا الحديث وأمثاله ، فإنه من المتشابه الذي لا يليق بأمثالنا إلا الإيمان به على ما أراد الله تعالى ورسوله ﷺ ، كما هو طريقة السلف وطريقة القوم ، لأن علوم القوم فوق طور العقل ، فلا يتوصل إليها إلا بالذوق حتى يلوح للسالك ذوق من أذواق هذه الطورية وينفتح قلبه للحقائق ، فيفهم بقدر ما يُفهّمه الله تعالى على حسب استعداده .

وغاية ما يعبر المعبر إذا تنَزَّل في عالم العبارات أن يقول : المراد من هذا الحديث بيان حال الفناء والخروج عن أوصاف البشرية ، وأما المعنى الذوقي فلا يفهمه إلا أربابه :

ما يَعْرِفُ الشَّوْقَ إلّا مَنْ يُكابِدُهُ ولا الصَّبابَةَ إلا مَنْ يُعانيها

وقال أيضا : إن العقول الضعيفة تستشكل صدور الخوارق وتستغربها من مخلوق .

فاعلم أيها المحجوب لا عجب في صدور أمثال هذه الخوارق من السادات الكرام ، فإن الأشياء الصادرة عنهم كلها في الظاهر إنما هي صادرة من الله تعالى في الحقيقة ، ولله تعالى في الكون أسرار ترى فيه .

ولذلك قال العارف ابن بنت ميلق :

إنْ كُنْتَ تَعْجَبُ مِنْ هذا فَلا عَجَبٌ	للهِ فـي الكَوْنِ أسْرارٌ تُرى فيـــهِ
لا شَيءَ في الكَوْنِ إلا وَهْوَ ذو أثَرٍ	فَـما المُـؤَثِّـر غَـيْـرُ اللهِ قاضـيهِ

أي لا شيء في الكون ذو أثر إلا والله سبحانه وتعالى هو المؤثر والقاضي فيه بالحقيقة .

فمع حفظ هذا الأصل كيف يبقى لك أيها المحجوب تعجب في مثل ذلك ؟ ! وقد تقدم الكلام المستوفى في هذا المعنى آنفا ، فصحح يا أخي في أحوال القوم الإيمان لتحوز الولاية الصغرى وتتدرّج إلى مقام الإحسان . انتهى

وروي عن علي الخواص ﵀ أنه كان يقول : أسنى ما أكرم الله به العلماء هو العلم خاصة ، فهو الكرامة التي لا يعادلها كرامة إذا عمل به ، وذلك لأن موطن الدنيا إنما هو للعلم والعمل ، وأما النتائج من خرق العوائد ونحو ذلك فإن موطنه الدار الآخرة . انتهى .

وقد ذكر الشيخ الأكبر في الباب السابع والسبعين ومائة أن أعظم الكرامات أن يصل العبد إلى حد لو غفل العالم كله عن الله تعالى لقام ذكر ذلك الولي مقام ذكر الجميع ، فإذا قال : سبحان الله مثلا انتقش في جوهر نفسه جميع ما كان يقوله ذلك العالم كله لو ذكر الله تعالى ، وذلك لأن الله تعالى إذا جازى ذلك الولي أعطاه مثل ثواب جميع العالم انتهى « يواقيت » ١١٨ .

وذكر في « اليواقيت » قال : وسمعت عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : الكمل يخافون من وقوع الكرامات على أيديهم ويزدادون بها وجلا وخوفا ، لاحتمال أن يكون استدراجا ، ومعجزات الأنبياء تزيد قلوبهم تثبتا ، لعصمتهم عن وقوع الاستدراج لهم .

وأيضا فإن الأنبياء يحتجون بالمعجزات على المشركين ، والأولياء يحتجّون بالكرامات على نفوسهم لتصلح ولنفوسهم لتطمئن .

وأجمع القوم على أن كل من خرق العادة بكثرة العبادات والمجاهدات لا بد له أن يخرق له العادة إذا شاءها .

وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام ﵀ يقول : من أصدق دليل على صحة طريق الصوفية وإخلاصهم في أعمالهم ما يقع على أيديهم من الكرامات والخوارق . منه ١١٣ .

فإن قلت : فهل يستحب للولي أن يحمي نفسه وأصحابه بالحال والكرامة ؟

فالجواب : نعم يستحب له ذلك ، كما صرح به سيدي إبراهيم المتبولي ﵁ وقال : إن كان ذلك نقصا في المقام فهو كمال في العلم . انتهى

فإن قلت : فهل القتل بالهمة والولاية والعزل الذي يقع من بعض الأولياء كمال فيهم أم نقص ؟

فالجواب : هو نقص بالنسبة لما فوقه من المقامات ، وقد أعطي الشيخ أبو السعود ابن الشبلي مقام التصريف في الوجود فتركه وقال : نحن قوم تركنا الحق تعالى يتصرف لنا ، **فكان أكمل من الشيخ عبد القادر الكيلاني ﵁ مع أنه تلميذه** ، هكذا ذكره الشيخ في الباب الثاني والتسعين ومائة .

وأيضا ، فإن الكامل لا يجد في الوجود شيئا حقيرا حتى يرسل تصريفه عليه أو ينفذ همته فيه .

ومن شرط نفوذ الهمة أن تكون على حقير ، فيرى صاحب الحال نفسه كبيرا وغيره حقيرا ، فيجمع حقارته في قلبه ثم يتوجه بقلبه إليه فيؤثر فيه القتل أو المرض و نحو ذلك .

وقال الشيخ محي الدين ابن عربي ﷼ في الباب الخامس والثمانين ومائة قال : ولا يخفى أن الكرامة عند أكابر الرجال معدودة من جملة رعونات النفس ، إلا إن كانت لنصرة دين أو جلب مصلحة . لأن الله تعالى هو الفاعل عندهم لا هم ، هذا مشهدهم وليس وجه الخصوصية إلا وقوع ذلك الفعل الخارق على يدهم دون غيرهم ، فإذا أحيا كبشا مثلا أو دجاجة فإنما ذلك بقدرة الله تعالى لا بقدرته ، وإذا رجع الأمر إلى القدرة فلا تعجب فتأمل .

فإن قلت : فهل التطور الذي يقع للأولياء كمال أم نقص ؟

فالجواب : هو كمال يدل على فناء بشريتهم وقوة أرواحهم حتى صاروا كأهل الجنة يلبسون من الصور ما شاؤا ، فإن من غلبت بشريته على روحانيته فهو كشف لا يصح له تطور ، إذ التطور من خصائص الأرواح .

وذكر الشيخ الأكبر ﷼ في « فتوحاته » : واعلم أن الكرامة على قسمين : حسية ومعنوية ، ولا تعرف العامة إلا الحسية ، مثل الكلام على الخاطر والإخبار بالمغيبات الآتية والأخذ عن الكون والمشي على الماء واختراق الهواء وطي الأرض والاحتجاب عن الأبصار وإجابة الدعوة في الحال ونحو ذلك ، فهذا عند العامة هو الولي .

وأما الكرامة المعنوية فهي التي بين الخواص من أهل الله تعالى ، وأجلها وأشرفها أن يحفظ الله تعالى على العبد آداب الشريعة فيوفق لفعل مكارم الأخلاق واجتناب سفسافها ، وأن يحافظ على آداء الواجبات والسنن في أوقاتها مطلقا ، والمسارعة إلى الخيرات وإزالة الغل والحقد والحسد وطهارة القلب من كل صفة مذمومة ، وتحليته بالمراقبة مع الأنفاس ومراعاة حقوق الله تعالى في نفسه وفي الأشياء ، ومراعاة أنفاسه في دخولها وخروجها ،

فيتلقاها بالأدب ويخرجها وعليها حلة الحضور مع الله تعالى لأنها رسل الله تعالى إليه ، فترجع شاكرة من صنيعه معها .

فهذه عند المحققين هي الكرامات التي لا يدخلها مكر ولا استدراج ، فالكامل من قدر على الكرامة وكتمها ، ثم إذا فرضنا كرامة فلا بد أن تكون نتيجة عن استقامة ، فلا يبعد أن يجعلها الله ﷻ هي حظ جزاء أعمال ذلك الولي ، فيذهب إلى الآخرة صفر اليدين من الخير .

وإنما قلنا إن الكرامات المعنوية لا يدخلها مكر ولا استدراج ، لأن العلم يصحبها والحدود الشرعية لا تنصب حبالة للمكر الإلهي ، بل هي عين الطريق الواضحة إلى نيل السعادة . « يواقيت » ١٨

وقال الإمام القشيري رحمه الله تعالى في « رسالته » : ولكثرة ما تواتر بأجناسها أي بأجناس الكرامات الأخبار والحكايات صار العلم بكونها فظهورها على الأولياء علما قويا ، انتفى عنه الشكوك ، ومن توسط هذه الطائفة وتواتر عليه حكايتهم وأخبارهم لم يبق له شبهة في ذلك . « نفحات » مختصرا ٧٧ .

وقد ذكرنا الكلام في إثبات الكرامات من الكتاب والسنة .

قال الإمام المستغفري قدس سره : كرامات الأولياء حق بالكتاب والسنة ، وظهورها عن أهل الله تعالى مشهورة حتى وصلت إلى حد التواتر بلا نهاية ، كما قال تعالى : ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ و ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ و ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾

وما صدر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال : يا سارية ، القصة مشهورة ، وما كتبه إلى نيل مصر ، وما صدرت من المشائخ ما هي خرق عادات غير محصورة .

وكان شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى كثير الكشف لا يخطر عنده أحد بخاطر إلا ويقول : قل ما عندك .

وقال الشيخ محمد المغربي الشاذلي ﷺ : مرة الشيخ زكريا الأنصاري كان يقول لي : إذا حصل عندي صداع حال المطالعة يقول انوِ الشفاء بالعلم فأنوي به فيذهب الصداع لوقته .

وكان أي الشيخ زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى لا يدعو لأحد أو عليه إلا ويستجاب فيه الدعاء ، فأشار عليه بعض الأولياء بالستر بالعفة وقال له : استر الطريق فإن هذا ما هو زمانها ، فلم يكد يتظاهر بشيء من أحوال القوم

وجاء مرة أعمى وسأله أن يدعو له بردّ بصره فدعا له وقال له سافر خوفا أن يرد بصره فيهتكه بين الناس فسافر فلما كان في غزة ردّ الله عليه بصره وكتب للشيخ يخبره بذلك « تقريب » ٩٢

والكرامات وخوارق العادات أنواع شتى لا يدركها ضبطا ، قال بعض كبراء العارفين : والأصل الذي يجمع لك هذا كله أنه من خرق عادة في نفس مما استمرت عليها نفوس الخلائق أو نفسه فإن الله تعالى يخرق له عادة مثلها في مقابلتها يسمى كرامة عند العامة .

وأما الخاصة فالكرامة عندهم العناية الإلهية التي وهبتهم التوفيق والقوة حتى خرقوا عوائد أنفسهم ، فتلك الكرامة عندنا ، وأما هذه التي تسمى في العموم كرامة فالرجال أنفوا من ملاحظتها ، لمشاركة المستدرج الممكور به فيها ولكونها معاوضة ، فيخافون أن يكون حظ عملهم ، لأن الحظوظ محلها الدار الآخرة ، فإذا عجل منها بشيء فزعنا أن تكون حظ عملها ، وقد وردت في ذلك أخبار ، وأنى يصح الخوف مع الكرامة ، فإذا ليست بكرامة عندنا ، وإنما هي خرق عادة ، فإن اقترن معها البشرى بأنها زيادة لا تنقص حظا ولا سبقت لحجاب فحينئذ يسمى كرامة ، فالبشرى على الحقيقة هي الكرامة .

وقال أيضا : أجل الكرامات وأعظمها التلذذ بالطاعات في الخلوات والجلوات .

ومنها مراعاة الأنفاس مع الله تعالى ، ومنها حفظ الأدب معه في تلقي الواردات في الأوقات ، ومنها الرضاء عن الله تعالى في جميع الحالات ، ومنها البشرى لهم من الله تعالى بالسعادة الأبدية في الدار الآخرة ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . « نفحات » ٨٠ .

واعــــلم أن الولاية على قسمين ، عامة وهي مشتركة بين جميع المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ ، وخاصة وهي خاصة بالواصلين إلى الله تعالى من أهل السلوك ، والولاية عبارة عن فناء العبد في الحق تعالى والبقاء به .

ولا يشترط في الولاية الكرامات الكونية كما هو رأي أكثر الأوباش الجهلة ، فإن الكرامة الكونية توجد في غير الملة الإسلامية ، لكن يشترط فيها الكرامات القلبية كالعلوم الإلهية والمعارف الربانية .

فهاتان الكرمتان قد يجتمعان كما اجتمعتا في الشيخ عبد القادر الكيلاني والشيخ أبي مدين المغربي رضي الله عنهما ، فإنه لم يأت من أهل الشرق مثل عبد القادر في الخوارق ، ومن أهل المغرب مثل أبي مدين مع ما لهما من العلوم والمعارف الكلية ، وقد تفترقان فتوجد الثانية دون الأولى ، كما في أكثر الكمل من أهل الفناء .

وأما الكرامات الكونية كالمشي على الماء والطيران في الهواء وقطع المسافة البعيدة في المدة القليلة وغيرها ، فقد صدرت من الرهبانية والمتفلسفة الذين استدرجهم الحق بالخذلان من حيث لا يعلمون ، وهكذا كثير من الممكور بهم يشرعون في الرياضات ، فيلوح لهم من صفاء الروحانية ظهور ما يشبه بعض الآيات وخوارق العادات ، فإذا لم يكن مؤيدا بالإيمان ومقرونا برؤية البرهان لم يزدهم إلا العجب والغرور ، فانخراق حجب البشرية قد يحصل

بالرياضات فيلوح بسبب ذلك شيء من أنوار السر وحينئذ يرى الشخص بعض الآيات والمعاني المعقولة ، وقد كان لبعض الفلاسفة ولكن حيث لم يوجد الإيمان فعاقبة ذلك إلى الخزي والهوان .

فالفرق بينهم وبين المسلمين أن المسلمين مؤيدون بنور الإيمان فيزيدهم ذلك في القرب والكرامات فتظهر لهم فراسات وكشوفات من تجلي أنوار الحق ، كما قال تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ذكره في « تقريب الأصول » ٢٢٦ .

وكان سيدي أبو المواهب ﷺ يقول : الفرق بين الكشف الحسي والخيالي أنك إذا رأيت صورة شخص أو فعلا من أفعال الخلق فغمض عينيك ، فإن بقي لك الكشف فهو خيالي وإن غاب عنك فهو حسي ، فإن الإدراك تعلق به الموضع الذي رأيته .

وإذا ورد عليك وارد الوقت فاقبله ولا تتعشقه ، فإن تعشقته حجبت به عن الترقي ، وإذا ورد عليك وارد فاحفظه ، فإنك تحتاج إليه إذا ربيت ، فإن أكثر الشيوخ إنما أتى عليهم في التربية لتفريطهم في حفظ ما ذكرناه وزهدهم فيه .

وكان ﷺ يقول : من المحال أن ينفتح لك باب الملكوت والمعارف وفي القلب شهوة ، كما أن من المحال أن ينفتح لك باب العلم بالله تعالى من حيث المشاهدة وفي القلب لمحة للعالم بأسره الملكي والملكوتي . « تقريب » ٧٨ .

وقـــال أيضا ﷺ : ومن حظوظ النفس طلب الكرامات وخوارق العادات ، فالأولى بالعبد مجاهدة النفس في حملها على الاستقامة وإظهار الذل والفاقة لله تعالى عبودية له وامتثالا لأمر ، **فإن الاستقامة خير من ألف كشف وألف كرامة** ، والكرامة إنما تكون لتقوية اليقين ، ومن حصلت له الاستقامة قوي يقينه ، فلا يحتاج إلى الكرامة .

وقد أفرد كثير من العلماء ذكر معائب النفس بالتأليف كالحرث بن أسد المحاسبي وغيره ، فليرجع إليها من أراد سلامة دينه ودنياه .

ومن عيوب النفس وآفاتها القاطعة لها عن الوصول إلى معرفة الله التدبير لكل ما فيه شهوة وحظ لها ، أو لما ليس فيه شهوة وحظ لكنها ركنت إلى حولها وقوتها وغفلت عن الله تعالى . منه ٣١ .

وقال : قال ابن عطاء الله ﷺ في « الحكم » : أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها .

قال الشارح : الرضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة ، وعدم الرضا عنها أصل الصفات المحمودة .

وقد اتفق على هذا جميع العارفين وأرباب القلوب ، وذلك لأن الرضا عن النفس يوجب تغطية عيوبها ومساويها ، ويصير قبيحها حسنا ، كما قيل :

وَعَيْنُ الرِّضا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَليلَةٌ

وعدم الرضا عن النفس على عكس الرضا عنها ، وذلك لأن العبد إذ ذاك يتهم نفسه ويتطلب عيوبها ولا يغتر بما يظهر من الطاعة والانقياد كما قيل في الشطر الأخير :

كَما أَنَّ عَيْنَ السّخْطِ تُبْدي المَساوِيا . منه ٢١ .

وقال في « الحكم العطائية » : متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد عليك ، ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ ، الواردات الإلهية على العبد تمحو عنه جميع رعوناته وتهدم عليه مستمر عاداته ، ولها سلطنة عظيمة على ذلك ، فإذا وردت على قلب مشحون بأنواع الخبائث والرذائل أزالت ذلك عنه بمرة وأثبتت عوضا عن ذلك أحوالا علية وأوصافا مرضية .

أنشدني سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه في هذا المعنى :

لَوْ عـايَنَتْ عَينـاكَ يومَ تَـزَلْزَلَتْ ... أَرْضُ النُّفـوسِ وَدُكَّتْ الأَجْبـالُ
لَرَأَيْتَ شَمْسَ الحَقِّ يَسْطَعُ نورُها ... حـينَ الـتَّزَلْزُلِ والـرِّجالُ رِجالُ

الأرض أرض النفوس ، والجبال جبال العقل ، والشمس شمس المعرفة ، والإشارة بالآية إلى هذا المعنى بينة . الوارد يأتي من حضرة قهار ، لأجل ذلك لا يصادمه شيء إلا دمغه ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ .

الوارد موسوم بسمة القهر والغلبة لوروده من حضرة القهار الغالب على أمره ، لأجل ذلك لا يصادمه شيء من رعونات البشرية إلا دمغه وأزاله وهو أيضا حق ورد على باطل ، والباطل لا ثبات له مع الحق . « الحكم »جلد ٣٩/٢ .

وقـــال فيه أيضا بما عبارته هذه : وقد يفتح على الصادقين بشيء من خرق العادة وصدق الفراسة وتبين ما ستحدث في المستقبل ، وقد لا يفتح عليهم ذلك ، ولا يقدح في حالهم عدم ذلك ، وإنما يقدح في حالهم الانحراف عن حد الاستقامة .

وما يفتح من ذلك على الصادقين يصير سبب مزيد انتفاعهم والداعي لهم إلى صدق المجاهدة والمعاملة والزهد في الدنيا والتخلق بالأخلاق الحميدة ، وما يفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سببا لمزيد بعده وغروره وحماقته واستطالته على الناس وازدرائه بالخلق .

ولا يزال به حتى يخلع ربقة الإسلام من عنقه وينكر الحدود والأحكام والحلال والحرام ، ويظن أن المقصود من العبادات ذكر الله تعالى ويترك متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام ثم يتدرج من ذلك إلى تلحد وتزندق نعوذ بالله تعالى من الضلال ، وقد يلوح لأقوام خيالات يظنونها وقائع ويسمونها بوقائع المشائخ من غير علم بحقيقة ذلك ، انتهى كلامه رحمه الله .

وهو في غاية الحسن ونهاية التحقيق ، فبمداومة العبد على مثل هذه الأساليب التي ذكرناها مشاهدا لتوفيق ربه عز وجل وتأييده له يحصل له من الله تعالى مزيد كثير ، وعند ذلك يتطهر باطنه من جميع الآفات وخبائث الصفات وتستنير سريرته بأنوار المكاشفات والملاطفات . « شرح الحكم » جلد٢/ ٥٤ ، ٦٤

وقال القطب الحقيقي الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ ذكره في « تقريب الأصول » : إذا كشف لك عن حقيقة من الحقائق وعارض كشفك الكتاب والسنة ، فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك : إن الله تعالى قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ولم يضمنها لي في جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة .

وقد أجمع العارفون والعلماء العاملون على أنه لا يجوز العمل بالكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة .

وقال ﷺ : إذا عرض لك عارض يصدك عن الله تعالى وعن الإقبال على طاعته فأكثر من ذكر الله تعالى وأثبت . قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، فهذا العارض فئة من الفئات ، فاثبت واذكر الله تعالى واستعن به يحصل لك الفلاح ويمنع لك هذا العارض « تقريب الأصول » ٣١ .

فصل

في بيان صفات الملامية وكلام السادات في حقهم والعارفين

اعلم أيها المقتفي بآثار السادات جعلك الله تعالى وإيانا من أهل السعادات أن للناس طبقات مختلفات ، ولكل منها رجال ولكل منهم أحوال ومقامات ، نذكر نبذة من أحوال بعضهم تيمنا وتبركا فالحمد لله رب العالمين .

الطبقة العليا وسادات الطريقة المثلى الملامية ، ومقامهم مقام رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق ﷺ .

وممن تحقق به من الشيوخ أبو يزيد البسطامي ﷺ ، وكان سلمان الفارسي ﷺ من أجلهم قدرا .

ويتضمن هذا المنزل من العلوم علم كشف الإنسان ما في نفس الملك وعلم الآخرة المعجلة والدنيا المؤجلة ، والملامية أرفع الرجال ، جازوا جميع المنازل ورأوا أن الله سبحانه وتعالى قد احتجب عن الخلق في الدنيا ، واحتجبوا عن الخلق بحجاب سيدهم ، فهم من خلف الحجاب لا يشهدون في الخلق سوى سيدهم ، فإذا كان في الدار الآخرة وتجلى الحق سبحانه ظهر هؤلاء بظهور سيدهم سبحانه ، لا يتميزون عن المؤمنين بحالة زائدة يعرفونها يمشون في الأسواق ويتكلمون مع الناس ، لا يبصر أحد من خلق الله تعالى واحدا منهم يتميز عن العامة بشيء زائد على عمل مفروض أو سنة معتادة في العامة ، قد انفردوا مع الله سبحانه وتعالى راسخين ، لا يتزلزلون عن عبوديتهم مع الله سبحانه طرفة عين ، لا يعرفون للرياسة طعما باستيلاء الربوبية على قلوبهم وذلتهم تحتها ، قد أعملهم الله سبحانه بالمواطن وما يستحقه من الأعمال والأحوال ، وهم يعاملون كل موطن .

قال الشيخ العارف أبو عبد الرحمن محمد بن حسين السلمي النيسابوري رحمه الله : قوم زين الله بواطنهم بأنواع الكرامات ، وغار الحق سبحانه وتعالى عليهم أن يجعلهم مكشوفين للخلق .

وهذا من أسنى الأحوال أن لا يؤثر الباطن على الظاهر ، وهذا شبيه بحال النبي ﷺ لما رفع إلى المحل الأعلى من القرب والدنو وكان قاب قوسين أو أدنى ، أُرْجِعَ إلى الخلق وتكلم معهم في الأحوال الظاهرة ولم يؤثر من حال الدنو والقربة على ظاهره شيء .

وحال الصوفية - وهم الذين يظهر عليهم أنوار أسرارهم - شبيه بحال موسى عليه السلام ، لم يطق أحد النظر إلى وجهه بعد ما كلمه الله تعالى .

ومن أصول أهل الملامية ما قيل : هم قوم لم يكن لهم في الظاهر مراءاة للخلق ، ولا لهم في بواطنهم دعوى مع الله تعالى ، وسرهم الذي بينهم وبين الله عز وجل لا يطلع عليه أقاربهم ولا قلوبهم ، وهم على إظهار مقام التفرقة للخلق والتحقيق بعين الجمع مع الحق سبحانه وتعالى وقضاء الحقوق وترك اقتضاء الحقوق وترك الانتصار للنفس والانتقام لها ، وبذل النفس لمن يهينها .

وممن تحقق بمقامهم أبو حفص الحداد النيسابوري رحمه الله ، كان إذا دخل البيت يلبس المرقعة والصوف وغير ذلك من ثياب القوم ، وإذا خرج إلى الناس خرج إليهم بزي أهل السوق .

وأنهم إذا رأوا لأنفسهم إجابة دعوة حزنوا واستوحشوا وقالوا هذا مكر واستدراج ، وأنهم يتقون من فراسة المؤمن ولا يدعون لأنفسهم فراسة لما أن النبي ﷺ يقول : « اتقوا فراسة المؤمن » ، ومن يتق فراسة الغير فيه كيف يدعي لنفسه فراسة ؟

ويقولون : يجب أن تظهروا الغناء والاستغناء أيام حياتكم ، فإذا متم أظهروا فقركم عند موتكم .

ويقولون : يجب مخالفة النفس في جميع الأحوال .

وقال أبو يزيد البسطامي ﷺ وهو ممن تحقق بمقامهم من المشائخ رحمهم الله تعالى : الخلق يظنون أن طريق الوصول إلى الله تعالى أشهر من الشمس وأبين منها ، وإنما سؤالي منه ﷻ أن يفتح عليّ الطريق إليه ولو بمقدار رأس إبرة .

وكذلك كانت سادات مشائخهم رحمهم الله تعالى كلما كان حالهم مع الله تعالى أصح وأعلى كانوا أكثر تواضعا وأشد ازدراء بأحوالهم وأنفسهم .

وينبغي على مدّعي المشيخة والإرشاد أن يكون على رعاية آداب هولاء والتتبع بآثارهم والاقتفاء على أسوتهم ليكون من جملة الواصلين ، وليكون سلما يرتقى به إلى مقامات الوصول ، وللسادات كلام طويل في حق هؤلاء السادات كثر الله تعالى من أمثالهم .

وقال الشيخ الأكبر ﷺ في « فتوحاته » في الباب التاسع والثلثمائة : رجال الله تعالى ثلاثة أصناف لا رابع لهم ، عباد وصوفية وملامية ، وهم كمل الرجال ، فضابط العباد أنهم رجال غلب عليهم الزهد والتبتل والأفعال الظاهرة المحمودة ، لا يرون شيئا فوق ما هم عليه ولا معرفة لهم بالأحوال ولا بالمقامات ، ولا رائحة عندهم من العلوم الإلهية الوهبية ولا بالمعارف والكشوفات ، ويخافون على أعمالهم من تحبطها لاعتمادهم عليها دون الله تعالى .

وضابط الصوفية أنهم رجال فوق هؤلاء العباد ، لأنهم يرون الأفعال كلها لله تعالى مع ما هم عليه من الجد والاجتهاد والورع والزهد والتوكل وغير ذلك ، ويرون أن ما هم فيه بالنظر للمقامات التي فوقهم كلا شيء ، ولكنهم مع حسن أخلاقهم وفتوتهم أهل رعونة ونفوس بالنظر لأهل الطبقة الثالثة ، وعندهم رائحة الدعاوى .

وضابط الملامية الذين هم على قدم أبي بكر الصديق ﷺ أنهم رجال لا يزيدون على الصلوات الخمس إلا الرواتب ، ولا يتميزون عن الناس بحالة زائدة يعرفون بها ، يمشون في الأسواق ويتكلمون مع الناس بكلام العامة ،

قد انفردوا بقلوبهم مع الله تعالى ، لا يتزلزلون عن عبوديتهم قط ولا يذوقون للرياسة طعما لاستيلاء الربوبية على قلوبهم ، فهم أرفع الرجال مقاما ﷺ أجمعين . « الكبريت الأحمر » ١٢٨ .

وقال الشيخ بهاء الدين ﷺ : الأشياء تتبين بضدها ، والشغل بالحق غير الشغل بالخلق ، ولما كان في كل شيء استكراه من ضده ينجذب مما يكره إلى ما يحب ، ولهذا ترى أهل هذه السلسلة ربما يمشون في الأسواق ومواضع ازدحام الخلق ويقعدون فيها لينجذب قلوبهم إلى الحق سبحانه بواسطة ضدية الخلق والاستكراه من شغلهم « رشحات » ٢٠٠ ، وراجع إلى « نفحات الأنس » للجامي في ٢٢ وكذا في ٣٠ وراجع « سهلي » في ٤٦ .

ثم اعلم أيها الأخ الأسعد أن الزمان لا يخلو عن الأولياء لما أنهم في كل عصر ، لما أن علم المكاشفة متحقق وثابت إلى يوم القيامة لأصحاب السلامة من الندامة والملامة .

قال علي القاري ﷺ في شرحه لـ « عين العلم » : فالولاية باقية دائمة إلى قيام الساعة ، وقال في « روح البيان » أيضا : إن الأرض لا تخلو من ولي صالح .

قال في « جوامع الكلم » : إن الإمام السيوطي ﷺ نقل الحديث على أن الأرض لا تخلو من مسلم ومن أولياء ، وكذلك قال الفاسي ﷺ في شرحه لـ « الدلائل » ومثله في « منقذ الضلال » للإمام الغزالي ﷺ : وكما أن لكل زمان صاحب دولة ظاهر ، فكذلك له صاحب رحمة وتصرف معنوي ، ولذا قال النبي ﷺ : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » .

وقال في « روح البيان » : إن الأولياء في كل عصر من أعصار هذه الأمة على عدد الأنبياء ، وهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، وقد يزيد عددهم على عدد الأنبياء بحسب نورانية الزمان ، وقد ثبت أن كل أربعين رجلا في قوة ولي .

قال بعض العلماء : يخاف على من أنكر وجود الأولياء سوء الخاتمة . قال في « اللمعة » : سئل بعض العارفين عن عدد الأولياء أينقصون من عدد الأنبياء في زمن من الأزمان أم لا ؟ فأجاب وقال : لو نقص منهم واحد ما أمطرت السماء قطرة ولا أبرزت الأرض نباتا ، فلولا الصالحون لهلك الطالحون انتهى كلام « اللمعة »

وقال الشيخ الأكبر ابن العربي ﷺ : الأولياء على عدد الأنبياء ، فلا بد أن يكون في كل عصر مائة ألف وأربعة وعشرون ألف ولي ، لكل نبي ولي ، كم من ولي حبيب في البِيَع والكنائس ، حقت الكلمة وجفت الحكمة ونفذ الأمر .

قـــال الطحطاوي ﷺ في حاشية « الدر المختار » : وقال محي الدين العربي الملقب بالشيخ الأكبر ﷺ في « الفتوحات المكية » : واعلم أن رجال الله تعالى في هذه الطريقة هم المسمون بعالم الأنفاس ، وهو اسم يعم جميعهم . وهم على طبقات ، كثير منهم يحصرهم عدد ومنهم من لا عدد لهم خاص فيقلون ويكثرون .

فمنهم الأقطاب لا يكون منهم إلا واحد وهو الغوث وهم الأئمة ، ولا يكون منهم في كل زمان غير اثنين .

ومنهم الأوتاد رضوان الله عليهم ، وهم لا يزيدون من أربعة ولا ينقصون ، وكلما نذكر من هؤلاء باسم الرجال فقد يكونون أيضا من النساء .

ومنهم الأبدال ﷺ ، وهم سبعة لا يزيدون ولا ينقصون .

ومنهم النقباء ﷺ ، وهم إثني عشر في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون .

ومنهم النجباء ﷺ ، وهم ثمانية في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون وإن اختلفت الأقوال في عددهم .

ومنهم الحواريون ، ومنهم واحد في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون .

ومنهم رجبيون ﷺ ، وهم أربعون في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون ، وهم رجال حالهم القيام بعظمة الله تعالى ، وهم من الأفراد هم أرباب القول الثقيل من قوله تعالى ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ وسموهم رجبيون لأن حال هذا المقام لا يكون إلا في شهر رجب خاصة من أول استهلال رجب إلى انقضائه ، ثم يفقدون ذلك الحال من أنفسهم فلا يجدونه إلى دخول رجب من السنة القابلة .

ومنهم الختم رضي الله تعالى عنه ، وهو واحد في كل زمان ، بل واحد في العالم .

ومنهم ﷺ ثلثمائة نفس على قلب آدم عليه السلام في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون .

ومنهم ﷺ أربعون شخصا على قلب نوح عليه السلام في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون .

ومنهم ﷺ سبعة على قلب إبراهيم عليه السلام ، لا يزيدون ولا ينقصون في كل زمان .

ومنهم ﷺ خمسة على قلب جبرائيل عليه السلام ، لا يزيدون ولا ينقصون في كل زمان .

ومنهم واحد على قلب إسرافيل عليه السلام في كل زمان وله الأمر ، وكان أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه منهم .

وأما رجال عالم الأنفاس ﷺ ، فمنهم رجال الغيب وهم عشرة لا يزيدون ولا ينقصون .

ومنهم ﷺ ثمانية عشر نفسا لا يزيدون ولا ينقصون في كل زمان ، وكان منهم شيخنا أبو مدين رضي الله عنه .

ومنهم ثمانية رجال يقال لهم رجال القوة الإلهية ، ومن نمط هؤلاء ﷺ خمسة رجال لا يزيدون ولا ينقصون في كل زمان وهم على قدم هؤلاء في القوة .

ومنهم أيضا ﷺ خمسة عشر نفسا .

ومنهم ﷺأربعة وعشرون نفسا في كل زمان يسمون رجال الفتح لا يزيدون ولاينقصون .

ومنهم ﷺ سبعة أنفس في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون .

ومنهم ﷺ أحد وعشرون نفسا في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون .

و منهم ﷺثلاثة انفس وهم رجال الإمداد الإلهي والكوني في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون .

ومنهم ﷺ ثلاثة أنفس إلهيون رحمانيون في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون .

ومنهم ﷺ رجل واحد وقد تكون امرأة في كل زمان وهو القاهر فوق عباده .

ومنهم رجل واحد في كل زمان لا يقوم غيره مقامه .

ومنهم ﷺ رجل واحد وقد تكون امرأة ولا يوجد في كل زمان إلا واحد .

ومنهم ﷺ رجل واحد يسمى بمقامه سقيط .

ومنهم ﷺ رجلان في كل زمان يقال لهما رجال الغنى بالله ، والله غني عن العالمين .

ومنهم ﷺ رجل واحد يتكرر بقلبه في كل نفس ما تكاد تراه في إحدى المنزلتين إلا رأيته في الأخرى .

ومنهم ﷺ اثنا رجال عين التحكيم والزوائد وهم عشرة أنفس في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون .

ومنهم ﷺ اثنا عشر نفسا وهم البدلاء وما هم الأبدال في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون .

ومنهم ﷺ رجال الاشتياق وهم خمسة أنفس .

ومنهم ﷺ ستة أنفس في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون ، وكان منهم ابن هارون الرشيد السبتي .

وبـــــالجملة فما من أمر محصور بالعالم في عدد ما إلا ولله رجال بعدده في كل زمان يحفظ الله تعالى بهم ذلك الأمر ، وقد ذكرنا وأكثر الأولياء لا يعرفون والإمامين والأوتاد إلا النواب ، ولهذا يتطاول كل أحد لنيل هذه المقامات ، ثم إذا خصوا بها عرفوا عند ذلك أنهم نواب لذلك القطب ، فاعرف هذه النكتة فإنك لا تراها في كلام أحد غيرنا ، ولولا ما ألقي في سري من إظهارها ما أظهرتها . « يواقيت » ٩١ .

فلنذكر من رجال الله الذين لا يختصون بعدد خاص يثبت لهم في زمان بل يزيدون وينقصون .

فمنهم ﷺ الملامية كما ذكرنا ، فذكر في هذه الفرقة ثلاثة وأربعين صنفا بأسمائهم ومناقبهم .

ثم بعد أوراق قال أيضا : وأما عدد الأولياء الذين على عدد المنازل فهم ثلثمائة وستة وستون نفسا ، وهم الذين على قلب آدم عليه السلام ونوح وإبراهيم وجبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، وهم ثلثمائة وأربعون وسبعة وخمسة وثلاثة وواحد ، فيكون المجموع ثلثمائة وستة وخمسين ، هذا عند أكثر الناس من أصحابنا ، وذلك لحديث الوارد في ذلك .

وأما طريقتنا وما يعطيه الكشف الذي لا مرية فيه فهو مجموع الأولياء الذين ذكرنا أعدادهم من أول هذا الباب ، ومبلغ ذلك خمسمائة وتسعة

وثمانون نفسا ، ومنهم واحد لا يكون في كل زمان ، وما بقي منهم في كل زمان لا يزيدون ولا ينقصون .

والمجمع عليه من أهل الطريق أنهم على ست طبقات أمهات أقطاب دائما وأوتاد وأبدال ونقباء ونجباء ، وأما الذين زادوا على هؤلاء بالكشف فطبقات الرجال عندهم الذين يحصرهم العدد لا يخلو عنهم زمان خمس وثلاثون طبقة . انتهى كلامه بالاختصار من مواضع عديدة من الباب الثالث والسبعين من الجلد الثاني .

وفي « النهاية » : أبدال الشام هم الأولياء ، قال الجوهري رحمه الله : الأبدال قوم من الصالحين لا يخلو الدنيا منهم ، إذا مات واحد أبدل الله تعالى مكانه بآخر .

ثم قيل : إنهم سموا أبدالا لأنهم قد يرتحلون إلى مكان آخر ويقيمون في مكانهم الأول شَيخا آخر شبيها بشيخهم الأصلي بدلا عنه .

وفي القاموس : الأبدال قوم بهم يقيم الله تعالى الأرض ، وهم سبعون ، أربعون في الشام ، وثلاثون في غيرها . انتهى .

وذكر أبو نعيم الأصفهاني في « حلية الأولياء » بإسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : **قال رسول الله** صلى الله عليه وسلم : « خيار أمتي في كل قرن خمسمائة ، والأبدال أربعون . فلا الخمسمائة ينقصون ولا الأربعون ، كلما مات رجل بدل الله عز وجل من الخمسمائة مكانه وأدخل في الأربعين » .

وقال الشيخ زكريا رحمه الله تعالى في « رسالته » على « تعريف غالب ألفاظ الصوفية » : القطب : ويقال له الغوث ، هو الواحد الذي كان هو محل نظر الله تعالى من العالم في كل زمان ، أي نظرا خاصا يترتب عليه إفاضة الفيض واستفاضته ، فهو الواسطة في ذلك بين الله تعالى وبين عباده ، فيقسم الفيض المعنوي على أهل بلاده بحسب تقديره تعالى ومراده .

ثم قال : الأوتاد أربعة ، منازلهم على منازل الأركان من العالم شرق وغرب وشمال وجنوب .

قلت : فهم الأقطاب في الأقطار يأخذون الفيض من قطب الأقطاب المسمى بالغوث الأعظم ، فهم بمنزلة الوزراء تحت حكم الوزير الأعظم .

ثم قال : الأبدال قوم صالحون لا تخلو الدنيا منهم ، إذا مات منهم واحد أبدل الله تعالى مكانه آخر ، وهم سبعة .

قلت : الابدال اللغوي صادق على رجال الغيب جميعا ، وقد سبق للبدل معنى آخر فالأولى حمله عليه ، فإنهم أربعون على ما في الحديث السابق وسبعون على ما ذكره صاحب القاموس .

فقوله « وهم سبعة » وَهَمٌ . ثم قال : النقباء هم ثلثمائة ، والظاهر أنهم خمسمائة على ما سبق في الحديث ، ثم قال : النجباء هم المشتغلون بحمل أثقال الخلق وأوزارهم وهم أربعون .

وقد أخرج ابن عساكر عن ابن مسعود ﷺ مرفوعا أن لله تعالى ثلثمائة نفس قلوبهم على قلب آدم ﵇ ، وله تعالى أربعون قلوبهم على قلب موسى ﵇ ، وله سبعة قلوبهم على قلب إبراهيم ﵇ ، وله تعالى خمسة قلوبهم على قلب جبرائيل ﵇ ، وله ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل ﵇ ، وله تعالى واحد قلبه على قلب إسرافيل ﵇ ، كلما مات واحد منهم أبدل الله تعالى مكانه من السبعة ، وكلما مات واحد من السبعة أبدل الله تعالى مكانه من الأربعين ، وكلما مات واحد من الأربعين أبدل الله تعالى مكانه من الثلثمائة ، وكلما مات واحد من الثلثمائة أبدل الله تعالى مكانه من العامة ، يدفع الله تعالى بهم البلاء من هذه الأمة .

ثم في الحديث دلالة على ما ذكرنا من احتمال أنه لا يلزم أن يكون الأبدال من أهل الخاصة ، بل يمكن أن يكونوا من أرباب الأحوال ، قاله علي القاري عليه الرحمة في كتابه « المرقاة شرح المشكاة » في بيان أشراط الساعة .

وفي الفصل الثاني أيضا : واعلم أن اختلاف النسب قد يكون لاختلاف الحقائق وقد يكون لاختلاف المراتب في الحقيقة الواحدة ، فقيل : إن التصوف والفقر والملامة والتقريب من الأول ، وقيل من الثاني وهو الصحيح على أن الصوفي هو العامل في تصفية وقته عما سوى الحق ، فإذا سقط ما سوى الحق من يده فهو الفقير .

والملامتي منهما هو الذي لا يظهر خيرا ولا يضمر شرا كأصحاب الحرف والأسباب ونحوهم من أهل الطريق ، والمقرب من كملت أحواله فكان بربه لربه ليس له سوى الحق أخبار ولا مع غير الله تعالى قرار ، فافهم .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ : العباد بنوا أمورهم على عشرة أصول : الصلاة والصوم والذكر والتلاوة والدعاء والاستغفار والتضرع واعتزال الناس وتحصيل القوت على وجه حلال وبساطهم الذكر .

والزاهد يزيد عليهم بأربعة أوصاف بالزهد في الدنيا عموما وفي الناس خصوصا وبالشوق إلى الأحوال ومقامات الرجال .

وأما الأوليــاء فهم درجات ، قسط منهم في العلوم والمعرفة والنور والتوجه واليقين وكشف الغيب والرسوخ فيه والتحقق بالفناء وبإيثار البقاء وبساطهم المحبة الفرعية .

وأما الصديقون فلهم في بدايتهم خمسة أحوال وخمسة في نهايتهم ، فالأولى طي الوجود عن أسرارهم وكشف أمور الدنيا لأرواحهم ومراقبة القلوب ومراعات العقول وحفظ النفس .

وأما الخمسة التي في نهايتهم فالتحقق بالمحبة والهمة لأسرارهم والثبات في الخلة والاتصاف بالبقاء ، وبساطهم المحبة الأصلية انتهى .

وذكر شيخ شيخنا في « جامعه » أن المهيمون هم الملائكة المهيمة في شهود جمال الحق الذين لم يعلمو أن الله تعالى خلق آدم لشدة اشتغالهم بمشاهدة الحق

وهيمانهم ، وهم العالون الذين لم يكلفوا بالسجود لغيبتهم عما سوى الحق وولههم بنور الجمال ، فلا يسعون شيئا مما سواه وهم الكروبيون . اهـ

وقال السيد الشريف أحمد بن إدريس المغربي الحسيني ﷿ : قال الله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ ، فقال ﴿إِنَّ كَثِيرًا﴾ ولم يبق إلا قليل ، وهم أولياء الله تعالى الورثة للعلم من رسول الله ﷺ الذين بهم يقتدى ، وهؤلاء أعز من الكبريت الأحمر . قال تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ ، وقال تعالى : ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ وقال فيمن عداهم : ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ .

فإن ظفرت بواحد من أهل العلم من هؤلاء الأقلين فعض عليه بالنواجذ ، وأنت تعرفه بالقرائن المنصوصة في القرآن ، وهو الذي لا يميل إلى الدنيا ، يطمئن بها فيكون كبلعم بن باعوراء حيث أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، ولا يأكل أموال الناس بالباطل ، فيدخل في قوله تعالى : ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ ومن القرائن لا تجد مثله إلا قليلا ، والحق واضح والحق أحق أن يتبع انتهى .

وقال العارف ابن عطاء الله ﷿ في « الحكم » : تنوعت أجناس الأعمال لتنوع واردات الأحوال ، واردات الأحوال هي ما يرد على القلوب من المعارف الربانية والأسرار الروحانية ، وهي التي توجب لها أحوالا حميدة .

فمنها وارد يوجب هيبة ، ومنها وارد يوجب أنسا ، ومنها وارد يوجب قبضا ، ومنها وارد يوجب بسطا إلى غير ذلك من مختلفات الأحوال .

ولما كانت هذه الواردات أيضا متنوعة كانت أجناس الأعمال التي تقتضيها هذه الواردات أيضا متنوعة ، والأعمال الظاهرة أبدا تبع لأحوال القلوب الباطنة كما سيقوله المؤلف بعد هذا في قوله (حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال) اهـ .

وقال شيخ شيخنا ومولانا أحمد ضياء الدين الكمشخانوي ﷺ في « جامع الأصول » : وأما تعريف القطب وسائر الأولياء فقالوا : إن الأقطاب كثيرة ، فإن كل مقدّم قوم هو قطبهم ، وأما القطب الغوث الفرد الجامع فهو واحد ، وذلك أن نقبآءهم ثلثمائة ، وهم الذين استخرجوا خبايا النفوس ، ولهم عشرة أعمال أربعة ظاهرة وستة باطنة ، فالأربعة الظاهرة فكثرة العبادة والتحقق بالزيادة والتجرد عن الإرادة وقوة المجاهدة ، وأما الباطنة فهي التوبة والإنابة والمحاسبة والتفكر والاعتصام والرياضة .

وأما النجباء فأربعون وقيل سبعون ، وهم مشغولون بحمل أثقال الخلق ، فلا ينظرون إلا في الحق ، ولهم ثمانية أعمال أربعة باطنة وأربعة ظاهرة ، أما الظاهرة فهي الفتوة والتواضع والأدب وكثرة العبادة ، وأما الباطنة فالصبر والرضا والشكر والحياء ، وهم أهل مكارم الأخلاق والعرفان .

وأما الأبدال فسبعة رجال ، وهم أهل فضل وكمال واستقامة واعتدال ، قد تخلصوا من الوهم والخيال ، ولهم أربعة أعمال باطنة وأربعة ظاهرة ، فأما الظاهرة فالصمت والسهر والجوع والعزلة ، ولكل من هذه الأربعة التفاصيل والأخبار .

أما السهر فظاهره عدم النوم ، وأما باطنه فعدم الغفلة ، وأما الجوع فظاهره جوع الأبرار لكمال السلوك ، وباطنه جوع المقربين لموارد الأنس ، وأما العزلة فظاهرها ترك المخالطة للناس ، وباطنها ترك الأنس بهم ، وأما الأعمال الباطنة فهي التجرد والتفريد والجمع والتوحيد .

ومن خواص الأبدال من سافر من القوم من موضعه وترك جسدا على صورته ، فذلك هو البدل لا الغير .

والبدل على قلب إبراهيم عليه السلام . وهؤلاء الأبدال لهم إمام مقدم عليهم يأخذون عنه ويقتدون به وهو قطبهم ، وقيل الأبدال أربعون وسبعة هم الأخيار ، وكل منهم لهم إمام منهم هو قطبهم .

وأما الأوتاد فهم عبارة عن أربعة رجال ، منازلهم : أربعة أركان العالم شرقا وغربا وجنوبا وشمالا ، ومقام كل واحد منهم تلك الجهة ، ولهم ثمانية أعمال أربعة ظاهرة وأربعة باطنة .

فأما الظاهرة فكثرة الصيام وقيام الليل والناس نيام وكثرة الامتثال والاستغفار بالأسحار . وأما الباطنة فالتوكل والتفويض والثقة والتسليم ، ولهم واحد منهم هو قطبهم .

وأما الإمامان فهما شخصان أحدهما عن يمين القطب والآخر عن شماله . فالذي عن يمينه ينظر في الملكوت ، وهو أعلى من صاحبه ، وهو مرآة ما يتوجه من المركز القطبي إلى العالم الروحاني من الإمدادات التي هي مادة الوجود والبقاء ، وهذا مرآة لا محالة . والذي عن شماله ينظر في الملك وهو ما يتوجه منه إلى المحسوسات من المادة الحيوانية ، وهذا مرآة كذلك . وصاحب اليمين هو الذي يخلف القطب .

ولهما ثمانية أعمال : أربعة باطنة وأربعة ظاهرة ، فأما الظاهرة فالزهد والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأما الباطنة فالصدق والإخلاص والحياء والمراقبة .

وأما الغوث فهو عبارة عن قطب عظيم ورجل عزيز وسيد كريم ، تحتاج إليه الناس عند الاضطرار في تبيين ما خفي من الأمور المهمة والأسرار ويطلب منه الدعآء ، وهو مستجاب الدعاء لو أقسم على الله لأبره في قسمه ، مثل أويس القرني في زمان رسول الله ﷺ ، ولا يكون القطب قطبا حتى تجتمع فيه هذه الصفات التي اجتمعت في هؤلاء الذين تقدم ذكرهم .

اعلم أن القطب وقد يسمى غوثا باعتبار التجاء الملهوف إليه هو عبارة عن الفرد الجامع الواحد الذي هو موضع نظر الله تعالى في كل زمان ، أعطاه الطلسم الأعظم من لدنه وهو يسري في الكون والأعيان الباطنة والظاهرة سريان

الروح في الجسد ، بيده قسطاس الفيض الأعم ، وزنه يتبع علمه وعلمه[١] يتبع علم الحق وعلم الحق يتبع علم الماهيات الغير المجعولة ، فهو يفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل ، وهو على قلب إسرافيل عليه السلام من حيث حصة الملكية الحاملة مادة الحياة والإحساس لا من حيث إنسانية .

وحكم جبرائيل عليه السلام فيه كحكم النفس الناطقة في النشأة الإنسانية ، وحكم ميكائيل عليه السلام فيه كحكم القوة الجاذبة ، وحكم عزرائيل عليه السلام كحكم القوة الدافعة فيها .

فالقطبية الكبرى هي مرتبة قطب الأقطاب ، وهو باطن نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلا تكون إلا لورثته لاختصاصه عليها بالأكملية ، فلا يكون خاتم الولاية وقطب الأقطاب إلا على باطن خاتم النبوة . انتهى

فإن قلت : فما المراد بقولهم فلان من الأقطاب على مصطلحهم ؟ **فالجواب** : مرادهم بالقطب في عرفهم كل من جمع الأحوال والمقامات ، وقد يتوسعون في هذا الإطلاق فيسمون القطب في بلادهم أو بلدهم كل من دار عليه مقام ما من المقامات ، وانفرد به في زمانه على أبناء جنسه .

فرجل البلد قطب ذلك البلد ، ورجل الجماعة قطب تلك الجماعة وهكذا ، ولكن الأقطاب المصطلح عليهم فيما بين القوم لا يكون منهم في الزمان إلا واحد وهو الغوث .

فإن قلت : فهل يكون القطب الغوث أحدا من مشائخ سلسلة القوم كالشيخ يوسف العجمي وسيدي أحمد الزاهد وسيدي مدين وأضرابهم قدس الله اسرارهم ؟

فالجواب : كما قاله سيدي على الخواص رضي الله عنه : لا يلزم أن يكون أحدهم قطبا ، فإن مقام القطبانية عزيز جل أن يلمح سناء كل أحد ، ولكن المسلكون المذكورون كالحُجَّاب على باب الملك ، يُعَلِّمون كل من أراد دخول حضرة

« ١ » وفي نسخة « أ » : وعمله .

الملك الآداب اللائقة به ، وما ظهر على يديهم من الكرامات والخوارق إنما هو لشدة صفاء نفوسهم وكثرة مراقبتهم لله تعالى وكثرة إخلاصهم ومجاهداتهم . « يواقيت » ٩١

وقـــال في « تنوير الصدر » في ١٧٤ : إن القطب هو الممد لأولياء زمانه ، ومن فيض أنواره تستمد جميع الأنوار ، فإن مقام القطبية أعلى درجات الأولياء بعد الصحابة ﷺ ، لأنه لا يتمكن في القطبية - كما قال الشعراني في « اليواقيت » في المبحث الخامس والأربعين نقلا عن الشيخ الأكبر - إلا بعد أن يحصل معاني الحروف التي في أوائل السور المقطعة مثل **الم** و **المص** ونحوهما ، فإذا أوقفه الله تعالى على حقائقها ومعانيها تعينت له الخلافة .

فإن قلت : فما علامة القطب ؟ فإن جماعة في عصرنا قد ادعوا القطبية وليس معنا علم يرد دعواهم .

فالجواب كما قاله الشيخ الأكبر : إن اسم القطب في كل زمان عبد الله وعبد الجامع المنعوت بالتخلق والمتحقق بجميع الأسماء الإلهية بحكم الخلافة ، وهو مرآة الحق تعالى ومحلّ النعوت المقدسة ومحل المظاهر الإلهية .

ومن شأنه أن يكون الغالب عليه الخفاء ، لأنه محفوظ في خزائن الغيرة ملتحف بإرادته الصون ، لا يعتريه شبهة في دينه قط ولا يخطر له خاطر يناقص مقامه ، يغار لله ويغضب لله تعالى ، لا تظهر روحانيته إلا من خلف حجاب الشهادة والغيب ، حاله دائما العبودية والافتقار له تعالى ، ولا يكون له رياسة على أحد من الخلق بوجه من الوجوه مصاحب لهذا الحال دائما .

إن كان صاحب دنيا وثروة تصرف فيها تصرف عبد في مال سيد كريم ، وإن لم يكن بيده دنيا وكان ما يفتح الله تعالى به لم تستشرف له نفس ، بل يقصد بنفسه عند الحاجة بيت صديق ممن يعرفه ، يعرض عليه ما تحتاج إليه طبيعته كالشافع لها عنده فيتناول لها منه قدر ما تحتاج إليه ثم ينصرف ، لا يجلس عند حاجته إلا لضرورة ، فإن لم يجد حاجته لجأ إلى

الله تعالى في حاجة طبيعته لأنه مسؤول عنها ومتولّ عليها ، ثم ينتظر الإجابة من الله تعالي فيما سأل عاجلا أو آجلا .

فمرتبته الإلحاح في الدعاء والشفاعة في حق طبيعته ، بخلاف أصحاب الأحوال ، فإن الأشياء كلها تتكون عن همتهم ، لأن الله تعالى عجل لهم نصيبا من أحوالهم في الجنة فهم ربانيون ، والقطب منزه عن الحال ، ثابت في العلم ، فإن أطلعه الله تعالى على ما يكون أخبر بذلك على وجه الافتقار[1] ، لا على وجه الافتخار ، ولا تطوى له أرض ولا يمشي في هواء ولا على ماء ، ولا يأكل من غير سبب ولا يطرأ عليه شيء من خرق العوائد إلا في النادر لأمر يراه الحق تعالى ، فيفعله بإذن الله تعالى من غير أن يكون ذلك مطلوبا له .

وكذلك من شأنه أن يجوع اضطرارا لا اختيارا ، كثير النكاح راغب فيه موفي الطبيعة حقَّها على الوجه المشروع ، ومع ذلك يصبر على النكاح لعدم الطّول ، يعلم من تجلي النكاح ما يحرّضه على طلبه والتعشق فيه لا يتحقق له قط في العبودية ولا لغيره من العارفين عبوديته في شيء أكثر مما يتحقق في النكاح ، لا يرغب فيه للنسل وإنما يرغب فيه لمجرد الشهوة وإحضار التناسل في نفسه لأمر مشروع ، فنكاحه لمجرد اللذة كنكاح أهل الجنة ، وقد غاب عن هذه الحقيقة أكثر العارفين فيه من شهود الضعف وقهر اللذة المغيبة له عن إحساسه فهو قهر لذيذ ، وذلك من خصائص الأنبياء ، ولعلو مراقي هذا المقام جهله أكثر الأولياء وجعلوا النكاح شهوة حيوانية ونزهوا أنفسهم عن الإكثار منها .

وبالجملة فالقطب هو الرجل الكامل الذي حصل الأربعة دنانير ، كل دينار منها خمسة وعشرون قيراطا وبها توزن الرجال .

والأربعة هم الرسل والأنبياء والأولياء والمؤمنون ، فهو وارثهم كلهم رضي الله تعالى عنه ، ومن شأن القطب الوقوف دائما خلف الحجاب الذي بينه وبين الحق تعالى ، فلا يرتفع حجابه حتى يموت ، فإذا مات لقي الله

« ١ » في « اليواقيت والجواهر » : الافتقار لله .

تعالى ، وهو كالحاجب الذي ينفذ أوامر الملك وليس له من الله تعالى إلا صفة الخطاب لا الشهود .

فإن قلت : فهل يحتاج القطب في توليته إلى مبايعة في دولة الباطن كما هي الخلافة في الظاهر ؟

فالجواب : نعم ، كما قاله الشيخ الأكبر في « الفتوحات » وعبارته : اعلم أن الحق تعالى لا يولي عبدا قط مرتبة القطبانية إلا وينصب له سريرا في حضرة المثال يقعده عليه ، ينبئ صورة ذلك المكان عن صورة المكانة ، **كما ينبئ صورة الاستواء على العرش عن صورة إحاطته تعالى علما بكل شيء** ، ولله المثل الأعلى .

فإذا نصب له ذلك السرير فلا بد أن يخلع عليه جميع الأسماء التي يطلبها العالم وتطلبه ، فيظهر بها حللا وزينة ، فإذا قعد على السرير قعد بصورة الخلافة ، وأمر الله تعالى العالم ببيعته على السمع والطاعة ، ودخل في البيعة كل مأمور من أدنى وأعلى إلا العالون من الملائكة ، وهم المهيَّمون في جلال الله ﷻ ، العابدون لله تعالى بالذات لا بأمر إلهي ظاهر على لسان رسول .

واعلم أن أول من يدخل عليه الملأ الأعلى على مراتبهم ، الأول فالأول ، فيأخذون بيده على السمع والطاعة . وأول من يبايعه النبي ﷺ ، ثم المقدمون من عمار السموات والأرض من الملائكة المسخرة ، ثم الأرواح المدبرة للهياكل التي فارقت أجسامها بالموت ، ثم الجن ، ثم سائر ما سبح الله تعالى ، إلا العالون من الملائكة كما مر ، وكذلك الأفراد من البشر لا يدخلون تحت دائرة القطب وما له فيهم تصرف ، إذ هم كل مثل مؤهلون لما ناله هذا الشخص من القطبية ، لكن لما كان الأمر يقتضي أن لا يكون في الزمان إلا واحد يقوم بهذا الأمر تعين ذلك الواحد ، لكن لا بالأولوية وإنما هو بسبق العلم فيه بأن يكون هو الوالي وفي الأفراد من يكون أكبر منه في العلم بالله تعالى وحده .

ثم اعلم أنه لما كان نصب الإمام واجبا لإقامة الدين وجب أن يكون واحدا لئلا يقع التنازع والتضاد والفساد ، فحكم هذا الإمام في الوجود حكم القطب .

قال وقد يكون من ظهر من الأئمة بالسيف كأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما في وقتهما وقد لا يكون قطب الوقت ، فتكون الخلافة لقطب الوقت ، لا يكون إلا بصيغة العدل ، ويكون هذا الخليفة الظاهر من جملة نواب القطب في الباطن من حيث لا يشعر ، فإن الجور والعدل يقع من أئمة الظاهر ولا يكون القطب إلا عادلا .

واعلم أن القطبية كما أنها قد تكون لولاة الأمور كذلك قد تكون في الأئمة المجتهدين من الأربعة وغيرهم ، بل هي فيهم أظهر ، ويكون تظاهرهم بالاستتار بالعلم الكسبي حجابا عليهم لكون القطب شأنه الخفاء كما تقدم رضي الله عنهم أجمعين .

ثم قال الشيخ الأكبر المذكور : **وقد اجتمعت بالخضر** عليه السلام **وسألته عن الإمام الشافعي** رضي الله عنه **فقال : كان من الأوتاد الأربعة . ثم سألته عن مقام الإمام أحمد فقال : هو صديق .**

فإن قيل : هل يكون محل إقامة القطب بمكة دائما كما هو مشهور ؟

فالجواب : هو بجسمه حيث شاء الله تعالى لا يتقيد بالمكث في مكان ، ومن شأنه الخفاء كما مر . فتارة يكون حدادا وتارة يكون تاجرا وتارة يبيع الفول ونحو ذلك .

ثم اعلم أن لكل بلد أو إقليم قطبا غير الغوث ، يحفظ الله تعالى تلك الجهة به ، سواء كان أهلها مؤمنين أو كفارا .

ثم قال : وقد اجتمعت بقطب الزمان سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة بمدينة فاس وكان أشل اليد ، فتكلمت على مقام القطبية في مجلس كان فيه ، فأشار إلي أن استره عن الحاضرين ففعلت .

فإن قلت : فهل للقطبية مدة معينة إذا ولّها صاحبها لا يعزل منها حتى تنقضي ؟

فالجواب : ليس للقطبية مدة معينة ، فقد يمكث سنة أو أكثر أو أقل أو ساعة . فإنها مقام ثقيل لتحمل صاحبها أعباء الممالك الأرضية كلها ملوكها ورعاياها .

فإن قلت : فهل للقطبية تصريف في أن يعطي القطبية لمن شاء من أصحابه أو أولاده ؟

فالجواب : ليس له تصريف في ذلك ، وقد بلغنا أن بعض الأقطاب سأل الله تعالى أن يكون القطبية من بعده لولده ، فإذا بالهاتف يقول له : ذلك لا يكون إلا في الإرث الظاهر ، وأما الوارث الباطن فذلك إلى الله وحده ، والله تعالى أعلم . نفعنا الله تعالى ببركاتهم آمين اهـ .

فصل

في بيان الإجازة والتلقين وآداب الشيخ الكامل

وقال الإمام محمد معصوم الفاروقي في « مكتوباته » ﷺ إنه لو أعطي الإجازة لتلقين الذكر والقيام للإرشاد إما في الواقعات أو في المنام بظهور أرواح الكبار من المشائخ العظام فهل يكفي هذا الإذن أو لا يكفي ؟

أجيب بأن الإجازة لإرشاد الناس والقيام مقام المشيخة أمر عظيم ولايجوز ارتباط مثل هذه الأمور بالرؤيا والواقعات ، بل لا بد من إعطاء الإجازة في حالة اليقظان .

وقال أيضا : إذا أعطى الإجازة يلزم على المعطي أن يشرط على السالك الاتباع بالشريعة العلية والتمسك بالسنة السنية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وقال أيضا : فإن مكر الله تعالى على عباده كثير ، ومن أراد الخلاص منه يلزم عليه أن يتمسك الميزان الشرعي الذي ورد من صاحب الشريعة ﷺ ، ثم إن وافق الوارد الباطني على هذا الميزان أمسكه ، وإلا يترك ، فإن الإمام جنيد البغدادي ﷺ قال : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، يعني أن الكتاب والسنة هما ككفتي الميزان ، انتهى كلام « الخطاب » .

وقال الإمام الرباني ﷺ في المكتوبات : أتدري من المرشد : المرشد من تستفيد منه طريق الوصول إلى جناب قدس الحق جل سلطانه وتجد منه مددا وإعانة في هذا الطريق ومجرد لبس الكلاء والخرقة وأخذ الشجرة وغيرها مما صار عرفا ورسما بين الناس كلها خارجة عن حقيقة المرشدية والمريدية وداخلة في الرسوم والعادات إلا أن الخرقة إن حصلت من الشيخ الكامل المكمل وعاملت بها بالاعتقاد والإخلاص فاحتمال حصول الثمرات والنتائج قوي في هذه الصورة « مكتوبات » ١٦٢

وقال الإمام الغزالي ﷺ : العلم بلا عمل جنون ، والعمل بلا علم لا يكون . وإذا لم تعمل اليوم ولم تتدارك الأيام الماضية تقول غدا رب ارجعوني لعلي أعمل صالحا ، ويقال لك : يا أحمق إنك من هناك جئت . انتهى كلامه .

قال أبو سعيد الخراز ﷺ : كل باطن - أي العلم الباطن ، وهو التصوف - يخالف الظاهر الذي هو علم الشريعة المأخوذة من الكتاب والسنة فهو باطل ، لأنه وسوسة شيطانية .

وقال أيضا : إن الأعمال مورث للأحوال ، ولا يورث الأحوال إلا من صحيح الأعمال ، فمثل هذه المكاشفات اللدنية إنما تنكشف بالاستقامة على متابعة رسول الله ﷺ .

وقال في « الخطابي » : إن للطريقة ظاهرا وباطنا ، فالظاهر الأعمال الشرعية ، وأما الباطن فالأحوال . انتهى

وقــال العلامة أبو العباس أحمد بن زروق المشهور ﷺ : وحدة الاستحقاق مستفادة من شاهد الحال ، وقد يشتبه الأمر فيكون التمسك بالحذر أولى لعارض الحال .

وقد يتجاذب الأمر من يستحقه ومن لا ، فيكون المنع لأحد الطرفين دون الآخر ، وقد أشار سهل لهذا الأصل بقوله : إذا كان بعد المائتين فمن كان عنده شيء من كلامنا فليدفنه فإنه يصير زهد الناس في كلامهم ، ومعبودهم بطونهم وعدّد أشياء تقتضي بفساد الأمر حتى يحرم بَثُّه لحمله على غير ما قصد له ، ويكون معلمه كبائع السيف من قاطع الطريق ، وهذا حال الكثير من الناس في الوقت اتخذوا علمهم الرقائق والحقائق سلما لأمور لاستهواء قلوب العامة وأخذ أموال الظلمة واحتقار المساكن والتمكن من محرمات بينة وبدع ظاهرة ، حتى إن بعضهم خرج من الملة وقبل منه الجهال ذلك بادعاء الإرث والاختصاص في الفن .

ورأيت بعضهم يتبعون الشهوات ويفعلون أمورا لم تعهد من السادات أصلا .

ومن أفعالهم المنهية المنكرات ميلهم بالمحبة إلى الأغنياء والفساق والمنافقين ، فإن رأوا منهم الحرمة يستبشرون ويخبرون الناس في محافلهم أن الغني الفلاني أو الأمير أو صاحب الأمر احترمني كذا بتخليط الكذوبات والمزخرفات .

ومنهم من لا يذهب هو ولا مريدوه إلى المساجد للجماعة حتى ولا للجمعة بزعمهم أن الشيخ لا يريد الجماعة مع أولئكم المنافقين .

ومن أفعالهم يجلبون الغني الجاهل ويدفعون الفقير ، وإذا جاءهم عالم أو عابد متق أو كامل مرشد فيتغير طبيعتهم ويتكدر مجلسهم ويعبسون في وجهه خوفا من عدم وصول حظ له من الدنيا منه .

ومن أفعالهم جمع الحطام حلالا كان أو حراما ، بعضها بالحيل وبعضها بالسؤال وبعضها بالوسائط ، ويراءون فيها على كيفيات مختلفة وأمثالها منهم كثيرة ذكرناها في شطحات المتشيخين قاتلهم الله تعالى ولا كثرهم آمين .

ثم اعلم أيها الموفق المستعد لحوز المكارم أن ضبط النفس بأصل يرجع إليه في العلم والعمل لازم لمنع التشعب والتشعث[١] .

فلزم الاقتداء بشيخ قد تحقق اتباعه للسنة وتمكنه من المعرفة ليرجع إليه فيما يرد أو يراد مع التقاط الفوائد الراجعة لأصله من خارج ، إذ **الحكمة ضالة المؤمن** ، وهو كالنحلة ترعى من كل طيب ثم لا تبيت في غير جبحها وإلا لم ينتفع بعسلها .

وقد تشاجر فقراء الأندلس وغيرهم في أكثر الأماكن من المتأخرين في الاكتفاء بالكتب عن المشائخ ثم كتبوا للبلاد ، وكل أجاب على حسب فتحه .

وجملة الأجوبة دائرة على ثلاث ، أولها النظر للمشائخ فشيخ التعليم تكفي عنه الكتب للبيب حاذق يعرف موارد العلم ، وشيخ التربية تكفي عنه

« ١ » أي التفرّق

الصحبة لذي دين عاقل ناصح ، وشيخ الترقية يكفي عنه اللقاء والتبرك وأخذ كل ذلك من وجه واحد أتم .

الثاني النظر بحال الطالب ، فالبليد لا بد له من شيخ يربيه واللبيب يكفي الكتاب في ترقيه ، لكنه لا يسلم من رعونة نفسه وإن وصل لابتلاء العبد برؤية نفسه .

الثالث النظر للمجاهدات ، فالتقوى لا تحتاج إلى شيخ لبيانها وعمومها والاستقامة تحتاج إلى شيخ في تمييز الأصلح منها .

وقد يكتفي دونه اللبيب بالكتب ومجاهدة الكشف ، والترقية لا بد فيها من شيخ يرجع إليه في فتوحها كرجوعه عليه الصلاة والسلام للعرض على ورقة حين فاجأه الحق .

وهذه الطريقة قريبة من الأولى والسنة معها والله أعلم ، كما قال الشيخ أبو العباس أحمد زروق ﷰ في « قواعده » .

وقال أيضا ﷰ : أخذ العلم والعمل عن المشائخ أتم من أخذه دونهم ، بل هو آيات في صدور الذين أوتوا العلم واتبع سبيل من أناب فلزمت المشيخة ، سيما والصحابة أخذوا عنه عليه الصلاة و السلام ، وقد أخذ عن جبريل واتبع إشارته في أن يكون عبدا نبيا ، وأخذ التابعون عن الصحابة .

فكان لكلٍّ أتباع يخصون به كابن سيرين وابن المسيب والأعرج في أبي هريرة ، وطاوس ووهب ومجاهد لابن عباس إلى غير ذلك ﭫ .

فأما العلم والعمل فأخذه جلي فيما ذكروا كما ذكروا ، وأما الإفادة بالهمة والحال فقد أشار إليها أنس ﭬ بقوله : ما نفضنا التراب عن أيدينا من دفنه ﷺ حتي أنكرنا قلوبنا ، فأبان أن رؤية شخصه الكريم كانت نافعة لهم في قلوبهم ، إذ من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها ، فلذلك أمر بصحبة الصالحين ونهى عن صحبة الفاسقين .

وقال بعض الأكابر : ينبغي للشيخ أن يكون قادرا على أكل المريد ، فإن لم يكن كذلك فهو لا يستحق المشيخة ، ومعنى أكل المريد كون الشيخ بحيث يقدر أن يتصرف في باطن المريد ويأكل أخلاقه الذميمة ، يعني يقدر على إزالتها عنه ويثبت مكانها الأخلاق الحميدة ويوصله إلى درجة الحضور والشعور ذكره في « الرشحات » اهـ في ٤٤ .

وقال حضرة الخواجه ﭬ : هذه الطائفة على ثلاثة أقسام : مقلد وكامل وكامل مكمل .

فالمقلد يعمل بحسب سماعه ، والكامل لا يتجاوز عن نفسه ولا يمكن التربية إلا للكامل المكمل ، وقد عز وجوده في زماننا هذا ، والموجود مستور لقلة المستعدين ، والمدعين في مقام التكميل كثير ، والفقير في الدهشة والحيرة يسير ، وفقنا الله تعالى للاستقامة .

واللازم على المرشد أن يتفحص أحوال مريده وأن يامره بما يصلح له بنسبة إلى الزمان والوقت وأن يعين أمره حتى يشرع فيه باختيار المرشد . انتهى

وسئل الإمام قطب الإرشاد سيدي عبد الله بن علوي الحداد ﭬ عن قول كثير من العارفين : لا يكون الشيخ شيخا حتى يكون عنده علم بأصول الدين وفروعه .

فأجاب : بأن الشيخ الداعي إلى الله تعالى لا بد أن يكون عنده علم بأصول الدين وفروعه على الإجمال أو على التفصيل ، إما من طريق الكسب والتعلم أو من طريق الوهب والإلهام ، كما وقع ذلك لكثير كالشيخ سعيد العامودي ﭬ ، فإنه كان أميا والشيخ أحمد الصياد والشيخ علي الأهدل والشيخ أبي الغوث ﭬ وغيرهم . فلا بد للشيخ من علم بأمر الدين على الوجه الأكمل في الباطن والظاهر ، وقد ورد : « ما اتخذ الله من ولي جاهل ولو اتخذه لعلمه » انتهى

وحاصله أن هؤلاء المشائخ الذين ذكرهم وغيرهم من الشيخ الكبير داود بن ماخلا وعبد العزيز الدباغ وشيبان الراعي والحداد وعلي الخواص ﭬ وأمثالهم كانوا أميين ، ثم لما فتح الله تعالى عين بصيرتهم تدفقت في قلوبهم بحار من

علوم الشرائع والحقائق ، وما ذاك إلا ببركة متابعتهم للنبي ﷺ وصدقهم في محبته ، ذكره السيد زيني أحمد دحلان قدس سره في « تقريب » ٥٥ .

وقال فيه : قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه : قد يجذب الله العبد إليه فلا يجعل عليه منة لأستاذ ، وقد يجمع شمله برسول الله ﷺ فيكون آخذا عنه ، وكفى بهذا منة .

فهو ﷺ هو الواسطة في الفيض العميم لمن له شيخ ولمن لا شيخ له وهو ﷺ فيضه من سيده وخالقه سبحانه وتعالى ، وإلى الله تعالى ترجع الأمور وإليه يُرجع الأمر كله ، إلى ربك الرجعى وإلى ربك المنتهى .

فهو سبحانه وتعالى ولي الجميع وسيدهم والكل عبيده وأصفياؤه ، والعبد قد يفنى في مقام الشهود لله تعالى فلا يرى إلا الله تعالى ويغيب عن الواسطة ، ولكن مقام البقاء أعلى ، وهو إثبات الوسائط مع اعتقاد أن أمور الوسائط قائمة بالله تعالى ، وهو مولاهم الذي في مظاهرهم أجلاهم .

وأعظم واسطة وأكمل رابطة هو سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد ﷺ مدد الخلافة من نوره ﷺ الجاري من معنى قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ .

قال بعض العارفين : من خصائصه ﷺ أن نوره محيط بالكون كله من نقطة (كن) إلى أن عاد الدور في المكوّن ، فهو أعظم سبب في الوصول إلى السعادة الأبدية والخيرات الدنيوية والأخروية . انتهى « تقريب » ٦٧ .

وقال العارف سيدي علي وفا رضي الله عنه : صورة الأستاذ الناطق مرآة سر المريد الصادق ، إذا نظر فيها ببصيرته شهدها على صورة سريرته ، فأول مبادي المريد أن تتحلى طويته بسمات أهل الصلاح والولاية ، فإذا كشف لبصيرته عن أستاذه رأى صورة صلاحه وولايته في صفاء صورة أستاذه فينطق أن أستاذه هو الصالح الولي ، فيستمد من بركات ملاحظته المتوالية وهممه العالية ، ولا يزال مطلبه من الأستاذ دعواته المنيفة وخواطره الشريفة ،

فيتودد إليه تودد المتأنس حتى ينفخ إسرافيل العناية في صور صورة قلبه روح تخصيص الأولى ، فهناك يشهد أستاذه آدم الزمان ومالك أزمة الأكوان فيعظمه تعظيم الشاب لأبيه المهاب إلى أن يسفر حجاب صورته الآدمية عن جمال ما خصه من الروح المحمدية ، فهناك يشهد أستاذه سيدا محمديا ويكون له عبدا ولا يجعل له في سواه إربا ولا قصدا إلى أن يغشى سدرة سر الأنوار الروحانية وينزع من البصر نزعة الزيغ وخطا الطغيانية ، فينظر إلى أستاذه فلا يرى إلا الواحد يتجلى في كل مشهد على قدر وسع الشاهد ، فيصير عدما بين يدي وجود ومحوا في حضرة شهود ، فأول أمره توفيق واوسطه تصديق وآخره تحقيق ، وهذه النهاية هي بداية السعادة بقدم الصدق فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ .

وقال ﷺ : المخصوص بالله تعالى هو الذي نفذ جميع الأقطار سره وجهره ، فلم يسعه غير الله تعالى ولم يسع الله تعالى غيره ، وغير المخصوص بالله تعالى بضد ذلك ، فهو مقيد في الأرض أو السماء أو البرزخ أو الجنة والنار . انتهى

وقال القطب الشعراني ﷺ : وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي رحمه الله تعالى يقول : لو أن الفقيه أتى العبادات والمأمورات الشرعية بغير علة كما أمره الله تعالى لاستغنى عن الشيخ ، ولكنه أتى العبادات بعلل وأمراض ، فلذلك احتاج إلى طبيب يداويه حتى يحصل له الشفاء .

ومن هنا استغنى التابعون عن الخلوة والرياضة كما عليه تلامذة الأشياخ ، ولم ينقل عن أحد منهم أنه دون شيئا في علاج الأمراض الباطنة لعدمها في عصرهم أو قلتها جدا حتى لا تكاد توجد ، وكان معظم اجتهادهم إنما هو في جمع أحاديث الشريعة والمطابقة بينها وبين الكتاب العزيز ، وهذا أهم بيقين من اشتغالهم بعلاج أمراض لعلها لا توجد .

وقد حصل بذلك الجواب عن قول من قال : لأيّ شيء لم يدون الأئمة المجتهدون شيئا في علم التصوف أو يشتغلوا بالذكر لتنجلي قلوبهم كما يفعل

الصوفية ؟ فإنه لا يقول عاقل قط عن أحد يعني من الأئمة أنه يعلم من نفسه عجبا أو رياء أو غلا أو حقدا أو مكرا أو خديعة ولا يجاهد نفسه أبدا ، ولو أنهم علموا أن فيهم شيئا من ذلك لقدموا علاجه على سائر الأعمال من باب **ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب وما أمِروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** . فافهم . « يواقيت » ١٠٦ .

وقـــال السيد أحمد ابن إدريس الحسيني المغربي ﷺ : الحازم اللبيب من إذا ظفره الله تعالى بشيخ يعرِّفه بالله تعالى عض عليه بالنواجذ ، فإن أهل الله تعالى قليلون ولا يظفر بأحدهم إلا من وفقه الله تعالى واعتنى به ثم اقتدى به وصدقه في جميع أفعاله وأقواله ولو لم يقبله عقله في ظاهر الأمر فإن للقوم ابتلاء ، ألا ترى قصة الخضر مع موسى عليهما السلام ، فإن فيها عبرة لمن اعتبر .

فإن موسى عليه السلام لو صبر على الخضر عليه السلام لرأى عجبا ، ولكنه رأى ذلك مخالفا في الظاهر لشريعته فلم يصبر ، وفي ذلك حكمة من الله تعالى وتكريم لنبيه موسى عليه السلام ليذوق مرارة تعليم المخلوق له فيعرف قدر تعليم الخالق له .

ثم الخضر عليه السلام صدق الله قوله ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ، وموسى عليه السلام صدق الله قوله ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ ، لأنه لم يأمره بأمر حين يعصيه فيه ، وإنما نهاه بقوله ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ .

ومن هنا تبين أنه ليس من ائتمر فقد انتهى ، ولا من انتهى فقد ائتمر ، بل مصادر النهي غير مصادر الأمر ، فلما لم يصبر عليه السلام فاته العلم الذي جاء لتعلّمه من الخضر مع أنه قد جرت له عليه السلام أمور كالأمور التي أنكرها على الخضر عليه السلام ، فإنه في قوله في السفينة ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ قد جرى له ما هو أعظم من ذلك وهو إتخاذ الحوت في البحر سربا حتى وصل إلى مقره ، فالذي قدر على إمساك ذلك قادر على إمساك الماء عن دخول السفينة ، ثم إمساك البحر له لما ضربه بعصاه فعبره هو وبنو إسرائيل وكان كل فرق كالطود العظيم ، ثم قتل النفس قد سبق منه قتل القبطي ، ثم عدم اتخاذ الأجر على الجدار ، قد استقى لابنتي شعيب ولم يطلب منهما أجره مع أنه كان في

شدة الجوع ، فإن قوله : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ لم يرد به إلا سد رمقه من الجوع ، وهنا استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ، لكن طلبهما للطعام ليس بسؤال وإنما هو طلب حق ، فإن الضيافة واجبة ، فما استطعماهم إلا ليحطوا عنهم الواجب الذي عليهم ، فالمصلحة عائدة عليهم ، لا أنهما يسألانهم مسئلة افتقار إليهم ، أستغفر الله العظيم .

فإذا علمت بعائدة نفع الامتثال للشيخ في أوامره ونواهيه فما أرى لك إلا أن تكون بين يديه كما قال عبد الكريم الجيلي ﷻ :

وَكُنْ عِنْدَهُ كَالمَيْتِ عِنْدَ مُغَسِّلٍ ... يُقَلِّبُـهُ ما شـاءَ وَهْـوَ مُـطـاوِعُ

إلى آخر الأبيات . انتهى

وقال الشيخ أبو مدين ﷺ : من خرج إلى الخلق يدعوهم إلى الله تعالى قبل وجود حقيقة تدعوه إلى ذلك فهو مفتون ، وكل من رأيته يدعي مع الله تعالى حالا لا يكون على ظاهره منه شاهد فاحذره ، ومن تحقق بعين العبودية نظر أفعاله بعين الرياء وأحواله بعين الدعوى وأقواله بعين الافتراء ، وما وصل إلى صريح الحرية من بقي عليه من نفسه بقية وفي الجوع صفاء الأسرار في استغراق الأذكار ، وفي الصبر حلول النظر .

وقال الشيخ العارف بالله تعالى أبو عبد الله القرشي ﷺ : الزم العبودية وآدابها ولا تطلب بها الوصول ، وأبت البشرية أن تتوجه إلى الله تعالى إلا في الشدائد ، فقيل له في ذلك فقال : عطشت مرة في طريق الحج فقلت لخادمي : اغرف لي من الماء المالح ، فغرف لي ماءً حلوا فلما ذهبت الضرورة غرفت فإذا هو مالح .

وكان يقول : لا يكون الابتلاء إلا في الفحول من الرجال .

وقال الشيخ داود ابن ماخلا ﷺ : لسان العارف قلم يكتب به ألواحا في قلوب المريدين ، فربما كتب في لوح قلبك ما لم تعلم معناه وبيانه عند ظهور

آياته ، وإذا أكرم الله تعالى عبدا طوى عنه شهود خصوصيته وأقامه في تحقيق عبوديته ، فالعبد إذا كان غائبا من حقوق عبوديته خيف عليه من الشطح والانبساط والتعدي عن حدود الأدب والعدول ، عن سواء الصراط المستقيم ، ومن أعظم أبواب الفتح يقظة العبد من غفلته انتهى كلام السيد زين أحمد ﷺ

وقال بعض العارفين : من خرج عن محبة الدنيا سمي عابدا زاهدا ، ومن خرج عن نفسه وهواها سمي عارفا .

وكان يقول : من عرف ما دون الله تعالى قبل معرفته لله تعالى حجب ، ومن عرف الله تعالى قبل معرفته لخلقه لم يحجب .

وقال أيضا : إنما يدخل العبد الوسواس في الصلاة ولا يدخله إذا سمع كلام عارف وهو بين يديه ، لأن المصلي يناجي ربه والمستمع للعارف يناجيه ربه ، ومن أعظم نعم الله تعالى على عباده أن يظهر بينهم عارفا وإن لم يعرفوه ولم يروه .

وقال أيضا : إذا عرفت الله تعالى فلا تظن شرا فما هناك بعد معرفته شر .

وقال أيضا : الكامل من يستر باطنه بظاهره ، وقال ﷺ : إذا نفخ في الصور يقول المريد الصادق سمعت هذا منذ زمان .

وقال بعض السادات : إن الشيخ من منح الله تعالى وهداياه للعبد المريد الصادق إذا صدق في إرادته وبذل في مناصحة مولاه جهد استطاعته ، لا على ما قد يتوهمه من لا علم عنده ، وعند ذلك يوفقه الله تعالى لاستعمال الآداب معه لما أشهده من عالي مرتبته ورفيع درجته .

قال سيدي أبو مدين ﷺ : الشيخ من شهدت له ذاتك بالتقديم وسرك بالتعظيم ، الشيخ من هذّبك بأخلاقه وأدّبك بإطراقه وأنار باطنك بأشراقه ، الشيخ من جمعك في حضوره وحفظك في مغيبه ، وليس شيخك من سمعت منه ، إنما شيخك من أخذت عنه ، وليس شيخك من واجهتك عبارته ، إنما

شيخك الذي أثرت فيك إشارته ، وليس شيخك من دعاك إلى الباب ، إنما شيخك من رفع بينك وبينه الحجاب ، وليس شيخك من واجهك بقاله ، إنما شيخك الذي نهض بك حاله ، شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى ودخل بك على المولى ، شيخك هو الذي ما زال يجلو مرآة قلبك حتى انجلت فيه أنوار ربك ، نهض بك إلى الله تعالى فنهضت إليه ، وسار بك حتى وصلت إليه ، ولا زال محازيا لك حتى ألقاك بين يديه ، فزجّ بك في أنوار الحضرة وقال : ها أنت وربُّك ! انتهى كلام سيدي أحمد زيني ﷺ في « تقريبه » ١٨٧ .

وقال الشيخ عبيد الله أحرار السمرقندي ﷺ : إذا حصلت لك نسبة في صحبة خواجه بهاء الدين ﷺ مثلا ثم وقعت في صحبة شيخ آخر ووجدت منه هذه النسبة أيضا فماذا تصنع أتترك صحبة خواجه بهاء الدين أم لا ؟ ثم قال : إذا وجدت هذه النسبة من كل مكان ينبغي لك أن تعتقد أنها أيضا من خواجه بهاء الدين ﷺ .

وقال أيضا في سياق هذا الكلام : إذا وجد المريد الصادق شيخا أكمل من شيخه يجوز له أن ينقطع عن الشيخ الكامل ويتصل بالشيخ الأكمل ، لكن مع عدم الإنكار على الشيخ الأول .

وقال : قال الشيخ أبو عثمان الحيري ﷺ : كنت متمنيا من قلبي الاحتظاظ بمواجيد هذه الطائفة وأذواقهم في مبادي الحال دائما ، فوصلت إلى مجلس وعظ يحي بن معاذ الرازي ﷺ اتفاقا ، فاطمأن قلبي هناك فكنت في ملازمته مدة ، ثم وقعت بعد ذلك في صحبة شاه شجاع الكرماني ﷺ ، ولما حضرت عنده طردني عن مجلسه وقال : إنه صاحب أمل لا يجيء منه شيء ، فقلت في نفسي : هذا رأسي وهذا عتبته ، فلا أرفع رأسي عنها أبدا ، فأذن لي بحضور صحبته بعد مدة ، فكنت في ملازمته زمانا ، ثم توجه الشيخ في ذلك الأثناء لزيارة الشيخ أبي حفص الحداد ﷺ ورافقته فيه ، ولما وصلت إلى صحبته أخذني عني بالتمام ولكن لم أقدر أن أقول لشاه شجاع ﷺ أنا أكون هنا ، ولما تهيأنا للرجوع قال الشيخ أبو حفص لشاه شجاع : إن لي مع هذا الغلام الحيري

لأمرا فاتركه عندي ، فتركني عنده وذهب فتم أمري في صحبة أبي حفص ﷺ وخدمته . انتهى « رشحات » ١٩٤

وينبغى للشيخ أن يعتبر حال المريد ويتفرس بنور الإيمان وقوة العلم والمعرفة ما يتأتى منه ومن صلاحيته واستعداده .

فمن المريدين من يصلح للتعبد المحض وأعمال القوالب وطريق الأبرار ، ومن المريدين من يكون مستعدا صالحا للقرب وسلوك طريق المقربين المرادين بمعاملة القلوب والمعاملات السنية ، ولكل من الأبرار والمقربين مباد ونهايات ، فيكون الشيخ صاحب الإشراف على الباطن يعرف كل شخص وما يصلح له .

والعجب أن الصحراوي يعلم الأراضي والغروس ، ويعلم كل غرس وأرض ، وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعته ومضارها ، حتى المرأة تعلم قطنها وما يتأتى منه من الغزل ودقته وغلظه ، ولا يعلم الشيخ حال المريد وما يصلح ؟ !«١»

وكان رسول الله ﷺ يكلم الناس على قدر عقولهم ويأمر كل شخص بما يصلح له .

فمنهم من كان يأمره بالإنفاق ، ومنهم من يأمره بالإمساك ، ومنهم من يأمره بالكسب ، ومنهم من قرره على ترك الكسب كأصحاب الصفة«٢» .

وكان رسول الله ﷺ يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل واحد . فأما في رتبة الدعوة فقد كان يعمم الدعوة ، لأنه مبعوث لإثبات الحجة ، يدعو على الإطلاق ولا يخصص بالدعوة من يتفرس فيه دون غيره . كذا في « عوارف المعارف » .

« ١ » وفي هامش نسخة « جـ » : قوله : ولا يعلم الشيخ . . . الخ . معناه فيما بدا للفقير بتوفيق القدير أن سهروردي رضي الله عنه يقول : والعجب أن الصحراوي يعلم . . . الخ ، وكل صاحب صنعة يعلم . . . الخ ، ولا يعلم الشيخ حال . . . الخ . يعني أن كون أولائك يعلمون ما ذكر وكون الشيخ لا يعلم حال مريده هذا مما لا يصح أبدا ، ولا يكون . ولذا تعجب منه . هذا مراده في فهمي والله أعلم . رب اغفر لكاتبه .
« ٢ » وفي هامش نسخة « جـ » : قوله : **كأصحاب الصفة** هو بضم الصاد وتشديد الفاء وهم طائفة من الصحابة تركوا الدنيا رأسا وأقبلوا على العبادة .

واعلم أيها المسترشد من كل رشيد أن أكثر الدجالين من مشائخ زماننا – هداهم الله تعالى وإيانا إلي منهج الاستقامة وجعلهم أهلا للإنابة – يثبون على اسم المشيخة وثبة الأسد على فريسته ، ومنهاجهم جمع الناس إلى محافلهم والمكالمة معهم على صورة الوعظ ظهورا لمجرد جمع الحطام الدنيوية ، ليس لهم ولا لعقبهم منها ولو منفعة ، لما أن المال يذهب سريعا من طريق جاء ، ويجلسون للدعوة ويأكلون ويلبسون من أدناس الناس ، ويمتهنون لأجل الدنيا لذوي الأموال ، فيسد لهم الفتوح فيذهبون على ما كانوا عليه .

والأفضل لكل أحد أن يكون مع الأسباب لقوت نفسه وعياله ، والسؤال عند الضرورة على حكم الشرع ، وقد أشرنا إلى ذلك في فصل الشطحات ، اللهم لا تجعلنا وإياهم فتنة في الدين بحرمة سيد المرسلين وآله الميامين .

ومن المشائخ من يمكن له الأكل من الفتوح الإلهي ، وذلك إذا كمل الصوفي بالله تعالى وكمل زهده لكمال تقواه .

يحكم الوقت عليه التسبب وينكشف له صريح التوحيد وصحة الكفالة من الرب الكريم ، فيزول من باطنه الاهتمام بالأقسام ، ويكون مقدمة هذا أن يفتح الله تعالى له بابا من التعريف بطريق المقابلة على كل فعل يصدر منه ، حتى لو جرى يسير من ذنب بحسب حاله أو الذنب مطلقا مما هو منهي عنه في الشرع يجد غب ذلك في وقته أو يومه .

كان يقول بعضهم : إني لأعرف ذنبي في سوء خلق غلامي .

وقيل : إن بعض الصوفية قرض الفأر خفه فلما رآه تألم وقال :

لَوْ كُنْتَ مِنْ مازِنٍ« ١ » لَمْ تَسْتَبِحْ إبِلي بَنو اللَّقيطَةِ مِنْ ذَهْلِ ابنِ شَيْبانا

إشارة إلى أن الداخل عليه مقابلة له على شيء استوجب به ذلك ، فلا تزال به المقابلات متضمنة للتعريفات الإلهية حتى يتحصن بصدق المحاسبة

« ١ » مازن وذهل أسماء لقبائل عربية .

وصفاء المراقبة عن تضييع حقوق العبودية ومخالفة حكم الوقت ، ويتجرد له حكم فعل الله تعالى ، وتنمحي عنده أفعال غير الله تعالى ، فيرى المعطي والمانع هو الله تعالى ذوقا وحالا لا علما وإيمانا ، ثم يتداركه الحق بالمعونة ويوقفه على صريح التوحيد وتجريد فعل الله تعالى ، قاله الشيخ السهروردي ﷺ

ومن آداب الشيخ الكامل أن يكون له خلوة خاصة ووقت خاص لا يسعه فيه معاناة الخلق ، حتى يفيض على خلوته فائدة خلوته ، ولا يدعي لنفسه قوة ظنا منها أن استدامة المخالطة مع الخلق والكلام معهم لا يضره ولا يأخذ منه وأنه غير محتاج إلى الخلوة ، فإن رسول الله ﷺ مع أنه على أكمل الأحوال كان له قيام الليل وصلاة يصليها ويدوم عليها وأوقات يخلو فيها .

فطبع البشر لا يستغني عن السياسة ، قل ذلك أو كثر ، لطف ذلك أو كثف ، وكم من مغرور وقانع باليسير من طيبة القلب اتخذ ذلك رأس ماله واغتر بطيبة قلبه واسترسل في الممازجة والمخالطة ، وجعل نفسه مناخاً«١» للبطالين بلقمة تؤكل عنده وبرفق يوجد منه ، فيقصده من ليس قصده الدين ولا بِغْيته سلوك طريق المتقين ، فافتتن وأفتن وبقي في خطة القصور ووقع في دائرة الفتور ، فما يستغني الشيخ عن الاستمداد إلى الله تعالى والتضرع بين يدي الله تعالى بقلبه وإن لم يكن بقالبه وقلبه ، فيكون له في كل كلمة إلى الله تعالى رجوع ، وفي كل حركة بين يدي الله تعالى خضوع .

وإنما دخلت الفتنة على المغرورين المدعين للقوة والاسترسال في الكلام والمخالطة ، لقلة معرفتهم بصفات النفس ، واغترارهم بيسير من الموهبة ، وقلة تأدبهم بالشيوخ .

وكان الجنيد رحمه الله تعالى يقول لأصحابه : لو علمت أن صلاة ركعتين لي أفضل من جلوس معكم ما جلست عندكم ، فإذا رأى الفضل في الخلوة يخلو ، وإذا رأى الفضل في الجلوة يجلس مع الأصحاب . فتكون جلوته في حماية خلوته ، وخلوته مزيدا لجلوته .

« ١ » المناخ موضع قعود الجمل .

وفي هذا سر ، وذلك أن الآدمي ذو تركيب مختلف ، فيه تضاد وتغاير على ما سلفنا من كونه مترددا بين السفلي والعلوي ، ولما فيه من التغاير له حظ من الفتور عن الصبر على صرف الحق .

ولهذا كان لكل عامل فترة ، والفترة قد تكون في صورة العمل ، وتارة في عدم الروح في العمل ، وإن لم يكن في صورة العمل ففي وقت الفترة للمريدين والسالكين تضييع واسترواح للنفس وركون إلى البطالة .

فمن بلغ رتبة المشيخة انصرف قسم فترته إلى الخلق ، فأفلح الخلق بقسم فترته ، وما ضاع قسم فترته كضياعه في حق المريدين ، فالمريد يعود من الفترة بقوة الشدة وحدة الطلب إلى الإقبال على الله تعالى ، والشيخ يكتسب الفضيلة من نفع الخلق بقسم فترته ويعود إلى أوطان خلوته الخ . « عوارف المعارف » .

ومن أنفع الآداب للشيخ خاصة ولغيره عامة المواظبة على الجماعة خاصة في المسجد في كثير من القوم ، إلا إن تعذر ، أو غيره بعذر .

وإن الصلوات بالجماعة بالدوام مما يورث الترقي ، فترك المحافظة على صلاة الجماعة غلط وخطأ ، فإن كانت تفرقة في خروجه يكون له شخص يصلي معه ، ولا ينبغي أن يرضى بالصلاة منفردا البتة ، فبترك الجماعة يخشى عليه آفات .

وقد رأينا من يتشوش عليه عقله في خلوته ، ولعل ذلك بشؤم إصراره على ترك الجماعة ، وقد شاهدنا أكثر الدجالين المتشيخين ينفردون في الصلاة بإراءة ذلك للجهال مثله أمرا عظيما ، ويقولون في ذلك أمورا ليسوا فيها ، حتى رأيت بعضا منهم لا يصلي مأموما لئلا يقع عن عيون الأوباش ، فإن صلى مأموما يصلي صلاة بالإعادة ويري لمريديه في ذلك احتياطا .

وليس ذلك منهم إلا لأجل التعصب أو للتعنت أو التكبر ، لا كثّر الله تعالى مثلهم في الناس أولئك هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة . انتهى .

وقال حضرة الخواجه ﷾ : هذه الطائفة أمناء ، فكل ما منّ على[1] الطالب من ذرة أو قطمير فإنهم يرونه ويظهرونه له من طريق التحقيق ، فإن في مقام الشفقة لا ينبغي الإخلال بشيء ، فتارة يكون الشيء الحقير في نظرهم جبلا .

وقال أيضا : أولياء الله تعالى أهل الكرم ومعلمون ألطاف حضرة الأزل ، فالقصورات التي تقع من الطالبين يرونها ويجاوزون عنها ، ولكن أحوالهم مختلفة ، ففي زمان مشاهدة ألطاف الربوبية الجبل عندهم كالريشة ، وفي بعض الأحوال يرون الذر أعظم من البحر كما ذكرنا هنا . انتهى

وقال حضرة الخواجه ﷾ : ينبغى أن تكون معاملة سادات هذه الطائفة مع كل أحد بقدر قابليته ، فإن كان الطالب مبتدئا فيحملون ثقله ويخدمونه كما وقع الخطاب من حضرة العزة لداود عليه السلام : يا داود إذا رأيت لي طالبا فكن له خادما ، يحتاج الطالب إلى زمن كثير حتى تحصل له قابلية سلوك الطريق ، وإلا فلا يفيد شيئا سوى الدهشة في صلاحيته .

وقال أبو العباس أحمد بن زروق ﷾ : لا يلزم من اختلاف المسالك اختلاف المقصد ، بل قد يكون مقصدا مع اختلاف مسالكه كالعبادة والزهادة والمعرفة مسالك لقرب الحق على سبيل الكرامة وكلها متداخلة .

فلا بد للعارف من عبادة ، وإلا فلا عبرة بمعرفته إذا لم يعبد معروفه ، ولا بد لها من زهادة وإلا فلا حقيقة عنده إذ لم يعرض عمن سواه .

ولا بد للعابد منهما إذ لا عبادة إلا بمعرفة ، ولا فراغ للعبادة إلا بزهد ، والزهد كذلك ، إذ لا زهد إلا بمعرفة ولا زهد إلا بعبادة ، وإلا عاد بطالة .

نعم ، من غلب عليه العمل فعابد ، أو الترك فزاهد ، أو النظر لتصريف الحق فعارف ، والكل صوفية والله أعلم .

« ١ » لعله ما منّ به .

وذكر شيـــخ شيـخنا قدس سرهما في « جامعه » في حق المرشد عدة شروط ، ومنها قال : ويشترط في المرشد أن يكون عالما بما يحتاج إليه المريدون من الفقه وعقائد التوحيد بقدر ما يزيل به الشبهة التي تعرض للمريد في البداية ، وأن يكون عالما بكمالات القلوب وآدابها وآداب النفوس وأمراضها وكيفية حفظ صحتها واعتدالها ، وأن يكون رؤوفا رحيما بالمسلمين خصوصا بالمريدين ، وأن يكون ناصحا لهم ، فينظر في حال من يصحبه منهم إن رآه قابلا للسلوك سلكه وحسن له الطريق وعلى ترك الأسباب أعانه ولكل ما أمكنه إعطاؤه من المال وغيره ملكه ، وإن رآه غير قابل لذلك رده إلى حرفته أو إلى تعاطي شيء من الأسباب هنالك ، فإن الله تعالى لا يحب العبد البطال .

ومن عـــلامـــة المرشد الأمين أن يستر ما اطّلع عليه من عيوب المريدين ، وأن يكون في الحالة الوسطى في جميع أحواله من جوع وشبع ونوم وسهر وقبض وبسط .

والحالة الوسطى هي ما بين الإفراط والتفريط ، ولا يقدر عليها إلا الكمل من الرجال ، ولذا كان من اتصف بها صالحا للإرشاد بلا محال ، وأن يكون قد استوى عنده جميع المآكل والملابس ، وأن يكون غني النفس وحسن الخلق ، لا يغضب إلا لله ، وإذا جآءه أحد يريد الإرشاد لا يكون في وجهه عابسا ، وينبغي أن يكون جلاله ممزوجا بجماله ، وغضبه ممزوجا برضاه ، وقهره ممزوجا بلطفه ، وصلنا الله تعالى بلطفه وكرمه إلى تلك الصفات .

فإذا سئلت عما يجب على الشيخ في حق المريد وعما يجب على المريد في حق الشيخ ، فالجواب : يجب على الشيخ للمريد ثلاثة أشياء : التسليك في البداية ، والتبليغ في النهاية ، والحفظ في الرعاية ، ويجب على المريد للشيخ ثلاثة أشياء : امتثال أمره ، وكتمان سره ، وتعظيم قدره .

وإذا سئلت عن الأدب على كم قسم ؟ فالجواب : على ثلاثة : آداب مع الله الذي هو مولاك ، وآداب مع شيخك الذي رباك ، وآداب مع العلماء والصالحين ، وذلك من علامات المخلصين .

وقال الشيخ الأكبر ﷺ : يجب على الشيخ إذا رأى شيخا آخر فوقه أن ينصح نفسه ويلزم خدمة ذلك الشيخ الآخر وتلامذته ، فإنه صلاح وسعادة في حقه وحق أصحابه ، ومتى لم يفعل هذا فليس بمنصف وناصح نفسه ولا صاحب همة ، بل هو ساقط الهمة وضعيفها ، بل ربما يكون محبا للرياسة والتقدم ، وهذا في طريق الله تعالى نقص .

ألا ترى قوله عليه الصلاة والسلام : « لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي » ، وإلياس وعيسى بل كل الأنبياء تحت حكم شريعة رسول الله ﷺ في الدنيا ، وفي الآخرة تحت لوائه ، فهكذا ينبغي أن تكون شيوخ الطريق .

وقال الشعراني ﷺ : ثم إني إذا رأيت أحدهم أعرف مني بالطريق تلمذت له ، ولو كنت مأذونا لي قبل ذلك من شيخ آخر ، لأن المقامات ليس لها حد يقف عليه العبد .

قلت : فإذا وجب على الشيخ لزوم خدمة الشيخ الأكمل منه وكان حال الشيوخ التلمذ لمن هو أعرف منهم بالطريق و لو كانوا مأذونين من شيخ آخر كحال موسى مع الخضر عليهما السلام ، فما تقول فيمن لم يشم رائحة من أسرار الطريق أو شم وهو ناقص منحط عن ذروة التحقيق ، فتبصر وانصف والله أعلم . اهـ . « جامع » ١١٢

وقال العارف ابن بنت ميلق رضي الله عنه

أخلــص ودادك صدقا فــي محبته	والــزم ثــرى بابه واعكــف بناديهِ
واســتغرق العمر في آداب صحبته	وحصّل الــدرّ والياقــوت من فيهِ
وابــذل قــواك وبــادر فــي أوامرهِ	إلــى الوفــاق وبالــغ فــي مراقيهِ
واحذر بجهــدك أن تأتي ولو خطأ	مــا لا يحــب وباعد عــن مناهيهِ
واعلــم يقينــا بــأنّ الله ناصِــرهُ	إن لــم تكن ناصِــرا فــالله يكفيه
وأنزل الشــيخ فــي أعلــى منازلهِ	واجعلــه قبلــة تعظيــم وتنزيــهِ
ولســتَ تفعــل هــذا إن ظننتَ به	نقصــاً ولا خلــلاً فينــًا يعانيــه

وقال الإمام الرباني في آداب المشائخ ومتعلقاتها ، ومن الإشارات الصادرة من الإمام الرباني المجدد للألف الثاني قدس سره ما ذكره في هامش « المكتوبات » في ٢٤ : ومنها إذا حضر الطالب عند شيخ ينبغي له أن يأمره بالاستخارة ، ويكرر الاستخارة من ثلاثة إلى سبعة ، فإذا لم يظهر بعد تكرار الاستخارة تذبذب في الطالب يشرع في أمره .

فيعلمه أولا طريق التوبة ، ويأمره بصلاة ركعتي التوبة ، فإن وضع القدم في هذا الطريق بلا توبة غير نافع ، ولكن ينبغي أن يكتفي في حصول التوبة بقدر الإجمال ويحيل تفصيله على مرور الأيام ، فإن الهمم قاصرة في هذه الأيام جدا ، فإذا كلف القاصرون بتحصيل تفصيل التوبة أوّلا فلا جرم أنه يستدعي مدة ، فربما يقع الفتور على طلبه في تلك المدة فيحرم من المطلب ، بل لا يتم التوبة أيضا .

وبعد ذلك يعلمه طريقا مناسبا لاستعداده ويلقنه ذكرا موافقا لقابليته ، ويبذل التوجه في أمره ويراعي الالتفات في حقه ويبين له آداب الطريقة وشرائطه ، ويرغبه في متابعة الكتاب والسنة وآثار السلف الصالحين ، ويعلمه أن الوصول إلى المطلوب بغير هذه المتابعة محال ، ويعلمه أيضا أن الكشوف

والوقائع إذا كانت مخالفة للكتاب والسنة ولو كان مقدار شعرة لا يعتبره أصلا ، بل يكون مستغفرا عنه .

وينصحه بتصحيح العقائد على مقتضى آراء الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة ، ويأمره بتعلّم الأحكام الفقهية الضرورية والعمل بموجبه ويؤكد في هذا الباب ، فإن الطيران في هذا الطريق بدون جناحي الاعتقاد والعمل لا يمكن أن يتيسر .

ويرشده بالتأكيد إلى رعاية الاحتياط في اللقمة والاجتناب من المحرم والمشتبه ، ويمنعه عن أكل كل ما يجده والتناول من كل محل يحصله من غير أن يصحح في هذا الباب فتوى الشريعة الغراء .

وبالجملة لا بد للسالك من أن يجعل كريمة ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ نصب عينه .

وأحوال الطالبين لا تخلو عن أحد الأمرين : إما أن يكونوا أصحاب كشف ومعرفة أو أرباب جهل وحيرة .

وكلتا هاتين الطائفتين متساويتان في الوصول بعد طي المنازل ورفع الحجب ، لا مزية لأحدهما على الآخر في نفس الوصول .

ومثلهما مثل شخصين وصلا إلى الكعبة الشريفة بعد طي المنازل البعيدة ، إلا أن أحدهما استعمل نظره في منازل الطريق وتفرج فيها وعلم كل واحد منها بالتفصيل على قدر استعداده ، وغمض الثاني عينيه منها ولم يطلع على تفاصيلها .

وهذان الشخصان متساويان في نفس الوصول إلى الكعبة لا زيادة لأحدهما فيه على الآخر ، وإن تفاوتا في معرفة منازل الطريق وعدمها ، وكذا هنا .

وأما بعد الوصول إلى المطلوب فلا بد لكل منهما من الجهل ، لأن المعرفة في ذات الله تعالى جهل وعجز عن المعرفة الخ هامش « المكتوبات »٢٤ .

وقال صاحب « المقامات السعدية » في ١٣٦ : جاء طالب إلى حضرة الشبلي ﷻ مستدعيا للإرادة والدخول في الطريقة ، فقال له الشيخ : هل تعلم كلمة الإسلام ؟ قال : نعم ، قال : كيف هي ؟ قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فقال : قل هكذا : (لا إله إلا الله شبلي رسول الله) ، والشخص لصدقه في الطلب تكلم بما أمر به بلا توقف ، فقال الشيخ : أنا أخس أمته ، وإنما امتحنتك فعلمت أن لك إرادة وإخلاصا قويا ، فشرع في تربيته وأوصله إلى مطلبه رحمهما الله تعالى .

وكان يقول ﷺ : هكذا امتحن الأكابر المريدين في أول الطلب ، وما شرعوا في تربيتهم قبل العلم بصدق الطلب .

وقال : إن حضرة شيخ شيخنا بميرزا صاحب رحمه الله تعالى كان يقول أولا للطالب : ليس عندي شيء ، ارجع إلى أهل الكمال ، فإن ألحّ ثانيا يقول : إن في الطريقة النقشبندية عدم اللذة والكيف« ١ » ، كثير كلعق الحجر بلا ملح ، فارجع إلى مشائخ السلاسل الأخر ، فإن ألحّ ثالثا يأمره بالرياضات من الصوم وترك المألوفات ، فإن رآه ممتثلا في أمره جدا يقبله ، وإلا فلا . انتهى

ثم اعلم أن قول (الشبلي رسول الله) ليس فيه دعوى النبوة أصلا فتفكر ، بل فيه إيهام دعوى الرسالة التي تطلق على غير النبي كثيرا ، فيرفعه الفهم بحمله على مصطلح أهل الباطن وهو الرجوع بعد الفناء والمرسل من الله تعالى لإرشاد العباد ، أو على طريق أهل الظاهر بأنه أراد به رسول رسوله بحذف المضاف ، ولا قباحة فيه سيما إن كان لضرورة الاختبار .

وسمعت سيدي الوالد ﷻ يقول : في هذا الزمان بسبب قصور الطلب تُرك الامتحان واكتفي بالاستخارة المأثورة أو المعمولة ، لئلا يتقاعد المريد عن الطلب ، والحكم يختلف باختلاف الزمان اهـ .

« ١ » أي اللذة والسرور .

ومن آداب المشائخ أنه اجتمع شخصان في طريق ضيق فقال أحدهما للآخر : تقدم ، فقال له : بمَ أستحق للتقدم عليك ؟ قال : لأنك صاحبت الجنيد نصف يوم ، فجعل مصاحبة الجنيد نصف يوم فضيلة يستحق بها التقدم عليه ، وهكذا أهل الإنصاف . ذكره الإمام أحمد بن علان ﷺ في شرحه . اهـ

وينبغى للشيخ أنه كلما يجيء مريد لطلب الطريقة وإرادة الإنابة أن يرى في النظر مثل النمر والأسد وأن يخاف من أن يراد به مكيدة واستدراج ، فإن وجد الفرح والسرور في النفس عند قدوم المريد ينبغي أن يعتقده شركا وكفرا وأن يتداركه بالندامة والاستغفار إلى أن لا يبقى أثر من هذا السرور ، بل إلى أن يجيء محل السرور والفرح الخوف والحزن .

وينبغي أن يجتنب غاية الاجتناب عن ظهور الطمع والتوقع في مال المريد ومنافعه الدنيوية ، فإنه مانع لرشد المريد وباعث على كون الشيخ خرابا ، فإن المطلوب هناك كله الدين الخالص ألا لله الدين الخالص ، لا مجال للشركة في جناب الحضرة الإلهية بوجه من الوجوه .

واعلم أن كل ظلمة وكدورة تطرأ على القلب فإزالتها تتيسر بالتوبة والاستغفار والندامة والالتجاء إلى الحق سبحانه وتعالى بأسهل الوجوه ، إلا ظلمة طرأت على القلب من طريق محبة الدنيا الدنيئة ، فإنها تجعل القلب خرابا وإزالتها في غاية التعسر ، بل في نهاية التعذر ، صدق رسول الله ﷺ حيث قال : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » ، نجانا الله تعالى وإياكم من محبة الدنيا ومحبة أبنائها والاختلاط بهم ، فإنها سم قاتل ومرض مهلك وبلاء عظيم وداء عميم ، قاله الإمام الرباني ﷺ في « مكتوباته » في ١٥٥

واعلم أيها الأمين ، إني بسطت الكلام في حق الشيخ والمشيخة حتى ينفر منه طبع الناظر بناء على أهمية الأمر في تفصيله وكونه أحق للتفصيل لكون الإسلام مع غربته في هذا الزمان أن بعض الناس لأجل الدنيا يريدون محقه بالكلية ، فمن علامة ذلك ابتداع أمور في هذه النسبة السنية الصديقية التي هي زبدة الشريعة ووسيلة الحقيقة ، كيف لا وقد سمعت من بعض المتشيخين لما

سئلوا من أين أخذوا هذا الذكر والزعقات والمجالس المضحكة ، وهل كان الذكر الجهري لدى نقشبند بهاء الحق والملة الشيخ محمد البخاري الأويسي ﷺ ؟ فأجاب : وهل كان الناس في زمانه كما في زماننا ، والناس كانوا وقتئذ بكيف وفي زماننا بكيف آخر ، فلأجل ذلك لازم أن يكون الذكر بالجهر لا بالسر ، فانظر في هذا الجواب وجهالته وعدم معرفته على أن النظر للأزمنة والأشخاص لا من حيث أصل شرعي أمر جاهلي ، حيث قال الكفار : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ، فرد الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ، وقالوا ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ فرد الله تعالى عليهم : ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ ، فلزم النظر لعموم فضل الله تعالى من غير مبالاة بوقت ولا شخص ، إلا من حيث ما خصه الله تعالى به ، والأولياء في ذلك تبع للأنبياء ، لأن الكرامة شاهدة للمعجزات ، والعلماء ورثة الأنبياء في الرحمة والحرمة ، وإن تباينا في أصل الفضل فافهم . « قواعد » ٥٣

فصل

في المتفرقات وفي بيان العلوم والمعارف وما فيها من أقوال السادات القادات أهل السعادات التي ينبغي أن تكون في الشيخ الكامل المرشد المربّي

اعلم أيها الموفق ، وفقك الله تعالى إلى ما فوق ما أملت - أن العلم رأس الحكمة والمعرفة والولاية ، وبه ينال الإنسان ما تمناه ، وفوائده غير محصورة ، فانظر في عظم قدره كيف علق أولي العلم معه في التنزيل بقوله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ ، وكم مرة أثنى الله تعالى أهله وكم حديث في حقه .

ثم إن العلم علمان : علم ظاهر وعلم باطن ، والفرق بينهما أن الأول يحصل بمطالعة الكتب واستعلامها ، بخلاف الثاني ، فإنه لا يحصل إلا بمتابعة المرشد الذي ثبتت نسبته واتصلت سلسلته إلى سيد المرسلين عليه وعلى آله الصلاة والسلام .

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في « الإحياء » : فاعلم أن علم طريق الآخرة قسمان : علم مكاشفة وعلم معاملة ، فالقسم الأول علم المكاشفة هو علم الباطن ، وذلك غاية العلوم وهو علم الصديقين والمقربين .

وعلم المكاشفة فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهير الباطن وتزكيته من صفاته المذمومة ، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معان مجملة غير متضحة ، فتتفسح إذ ذلك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وتعالى وبصفاته الباقيات التامات وأفعاله وبحكمه إلى آخر ما قال .

ثم قال : وهذه هي العلوم التي لا تسطر في الكتب ولا يتحدث بها من أنعم الله تعالى عليه بشيء منها إلا مع أهله وهو المشارك فيه على سبيل المذاكرة وبطريق الاسرار .

وهذا هو العلم الخفي الذي رواه ﷺ : « إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى ، وإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى ، فلا تحقروا عالما آتاه الله تعالى علما منه ، فإن الله تعالى لا يحقره إذا آتاه » .

وأما القسم الآخر وهو علم المعاملة ، فهو علم أحوال القلب ، أما ما يحمد منها كالصبر والشكر والخوف والرجاء والرضاء والزهد والتقوى والقناعة والسخاء ومعرفة المنة لله تعالى في جميع الأحوال والإحسان وحسن الخلق وحسن الظن وحسن المعاشرة والصدق والإخلاص . . . ، إلى آخر ما قال .

وأما ما يذم فخوف الفقر وسخط المقدور والغل والحقد والحسد والغش وطلب العلو وحب الثناء وحب البقاء في الدنيا للتمتع والكبر والرياء والغضب والأنفة والغدارة والبغضاء والطمع والبخل والرغبة« ١ » والبذخ« ٢ » والأشر والبطر وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء والفخر والخيلاء والتنافس والمباهاة والاستكبار عن الحق والخوض فيما لا يعني وحب كثرة الكلام والصلف« ٣ » والتزين للخلق والمداهنة والعجب والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس وزوال الحزن من القلب وخروج الخشية منه وشدة الانتصار للنفس إذا نالها الذل وضعف الانتصار للحق واتخاذ إخوان العلانية على عداوة السر والأمن من مكر الله تعالى في سلب ما أعطي والاتكال على الطاعة والمكر والخيانة والمخادعة وطول الأمل والقسوة والفظاظة والفرح بالدنيا والأسف على فواتها والأنس بالمخلوقين والوحشة لفراقهم والجفاء والطيش والعجلة وقلة الحياء وقلة الرحمة .

« ١ » أي في الدنيا ، وفي الأصل : الرعبة .
« ٢ » أي الترف .
« ٣ » التفاخر .

فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحش ومنابت الأعمال المحظورة ، وأضدادها – وهي الأخلاق المحمودة – منبع الطاعات والقربات . إلى آخر ما قال .

هيهات هيهات ، قد اندرس علم الدين بتلبس العلماء السوء ، فالله تعالى المستعان وإليه الملاذ ، انتهى كلام الإمام الغزالي ﴿قدس سره﴾ في « إحيائه » .

وقال العلامة علي القاري ﴿قدس سره﴾ في شرحه لـ « عين العلم » : العلم علمان أي علم الآخرة والمعتبر في الأحوال الفاخرة ، أو النافع في المرتبة الزاخرة ، أو علم التصوف والأحوال الناضرة ، نوعان : وقد ورد : « العلم علمان ، فعلم بالقلب فذلك العلم النافع ، وعلم على اللسان ، فذلك حجة الله تعالى على ابن آدم » رواه ابن أبي شيبة والحكيم مرسلا والخطيب عن جابر مرفوعا

علم المكاشفة وهو ما يطلب منه كشف العلوم فقط المعبر عنه بعلم الباطن ، ومقابله المعاملة ، وهو ما يطلب منه مع الكشف العمل به ، وهو نور يظهر في القلب إما بالجذبة الإلهية ، وإما بالرياضة الشرعية وعند تطهير القلب وتزكيته من الأخلاق الذميمة والصفات الردية ، فيشاهد به الغيب أي ما غاب من غيره من العلوم المتعلقة بالرب سبحانه وتعالى من وجود ذاته وشهود صفاته في مكوّناته ومصنوعاته كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ وهو متحقق أي ثابت إلى يوم القيامة لأصحاب السلامة من الندامة والملامة .

وعن علي ﴿كرم الله وجهه﴾ : « علم الباطن سر من أسرار الله تعالى وحكم من أحكام الله تعالى يقذفه في قلوب من يشاء من عباده » رواه الديلمي وأبو عبد الرحمن السلمي .

ولا يصرح به أي لا يمكن التعبير عن علم المكاشفة لفقد الرواية أي تصريحا ، بل روي أحيانا تلويحا لأنه من الأمور الوجدانية ، فلا يمكن أن يروى وينقل إلا بالرموز والإشارات الإيمائية الوجدانية ، فإن العاقل تكفيه الإشارة ، والغافل لا يفيده إلا صريح العبارة .

وأيضا إن علم المكاشفة لا رخصة في إيداعها في الكتب ، وإن كانت هي غاية مقصد الطالبين ومطمح نظر السالكين ، وعلم المعاملة طريق إليه ودليل عليه ، ولكن لم يتكلم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع الخلق إلا في علم الطريق والإرشاد إليه .

وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيماء على سبيل التمثيل والإجمال ، وورد في حق ذلك أحاديث ذكرناها من قبل آنفا ، وعلم المكاشفة أفضل من علم المعاملة ، لأنه الأكمل والمقصود بالذات بخلاف علم المعاملة ، فإنه ليس مقصودا بالذات بل للعمل به .

وعلم المعاملة أي النوع الثاني ، وهو العلم بما يقرب إلى الله تعالى من المأمورات وما يبعد عنه من المنهيات .

وينقسم هو أيضا إلى قسمين ، إلى علم ظاهر يتعلق بأعمال الجوارح عادة وعبادة ، وإلى علم يتعلق بأحوال القلوب مذموما ومحمودا ، وهو أي علم المعاملة مقدم على العمل وعلى علم المكاشفة لأنه الشرط ، إلا إن جذبته العناية كما في سحرة فرعون ، وقد ورد : « جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين » .

والحاصل أن السلوك إلى الله تعالى إما بتقديم المجاهدة على الجذبة وإما بتقديم الجذبة على المجاهدة كما يشير إليه قوله سبحانه و تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ .

ثم اعلم أنه لا يلزم من وجود المعاملة حصول المكاشفة بخلاف العكس في المقابلة .

هذا أي العلم المنقسم إلى المكاشفة والمعاملة ما ورد بفضله أي فضل تعلمه وتعليمه الشرع من الكتاب والسنة وأخبار الأمة ، وأيضا المراد من العلم المكاشفة فيما ورد : « فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي » ،

ولفظ الترمذي والدارمي عن أبي الدرداء : « كفضلي على أدناكم » ، وفيه مبالغة لا تخفى .

وفي حديث مشهور رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه والدارمي وابن حبان ولفظه : « إن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » و« إن العلماء ورثة الأنبياء » ، ولفظ الترمذي عن أبي أمامة ﵁ : « فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي » وقال حسن صحيح ، وورد « فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد سبعون درجة » .

والظاهر أن المراد بالعالم هنا هو الجامع بين علمي المكاشفة والمعاملة ، بل المستجمع بين علم الشريعة وعلم الطريقة المؤدي إلى الحقيقة والمعاملة القلبية الواجبة فيما ورد : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » انتهى كلام علي القاري ﷼ .

وأمثال هذه كثيرة مشحونة في كتب القوم ، ونحن اكتفينا بهذا القدر لكفايته على العالم المنصف ، وإن لم يكن منصفا أو كان جاهلا غير مستمع كالأنعام فلا يخاطب بأمثال هذا الكلام .

وقال في « عوارف المعارف » : علم الباطن ما يزداد العبد به يقينا ، وهذا العلم يكتسب بالصحبة ومجالسة الصالحين من العلماء الموقنين والزهاد المقربين الذين جعلهم الله تعالى من جنوده ليسوق الطالبين إليهم ويقربهم بطريقهم ويرشدهم بهم ، فهم ورثة علم النبي عليه الصلاة والسلام ، ومنهم من يتعلم علم اليقين . انتهى والحمد لله .

نبذة في فضيلة علم الباطن وأهله على العلم الظاهر وأهله وإن كان في الكل فضل إن قارن الاستقامة

ويدل عليه ما مر في هذه الرسالة من الأحاديث الشريفة والآثار اللطيفة وكلام « الإحياء » و« عين العلم » وأمثالها .

فالأول ينتج الولاية الخاصة ، والثاني الولاية العامة وبينهما فرق ، وأهالي الأول إن كملوا يكونون من المقربين ، وصواحب الثاني إن عملوا يكونون من الأبرار ، وبينهما فرق كما في التنزيل .

والأولون في تطهير القلب وتزكية النفس بالأذكار المأخوذة من السادات الصوفية الصافية الموضوعة للتطهير والتزكية بخلاف الثاني ، وفي التنزيل : ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وفيه أيضا : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ .

والأول ينتج الفناء في الله تعالى بخلاف الثاني ، فإن غالب أهاليهم ينكرون الفناء ويقولون إنه طامات غير معقولة ، كما صرح به الإمام الغزالي ﷺ في أصول الأربعين ، وهو أول قدم في الولاية والأخيرون في ذكر اللسان ، فإذا سكت انقطع وإذا نام فني ، بخلاف الأولين فإنهم في أول السلوك عند كمل الشيوخ في الذكر بجميع اللطائف وذرات البدن ، فحينئذ يحصل للذاكر ضعف في البدن كما في شرح « سلسلة الذهب » ، فيذكر الجسد ويجري في جميع الجسد الكثيف ، فيكون كالقلب يتحرك بالذكر من أسفله إلى أعلاه ، ويسمى هذا (سلطان الذكر) ، قاله في « جامع الأصول » وغيره .

وإذا ناموا فذكرهم دائم لا ينقطع ، وإذا كان لسانهم في المقال كان بواطنهم وظواهرهم في الأذكار ، وإذا كان ظواهرهم في المخلوق كان بواطنهم في الخالق ، وإذا كان ظواهرهم في المعاملة كان بواطنهم في الحقانية ، ولا يمنع ظواهرهم عن بواطنهم ولا بواطنهم عن ظواهرهم ، وفي التنزيل : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ كما في « جوامع الكلم » .

والأولون في المعنى والأخيرون في الدعوى ، مع أن التصوف ترك الدعاوي وكتمان المعاني كما ذكرنا في موضعه كما في « مكتوبات » محمد معصوم الفاروقي ﷺ .

وقال الإمام الغزالي ﷺ : وقد كان أهل الورع مقرين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب ، وكان الإمام الأجل الشافعي ﷺ يجلس بين يدي شيبان الراعي ﷺ كما يقعد الصبي في المكتب بين يدي أستاذه ويسأله كيف يفعل في كذا وكذا ؟ فيقول : مثلك يسأل هذا البدوي ؟ فيقول : إن هذا وفق لما غفلنا عنه ، وكان أحمد بن حنبل ﷺ ويحي بن معين يختلفان إلى معروف الكرخي ﷺ ولم يكن له في العلم الظاهر منزلتهما وكانا يسألانه ، ولذلك قيل : علماء الظاهر زينة الأرض ، وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت .

ثـــم قال : فلا تغفل عن الصحابة وعلو منصبهم ، ولم يكن تقدمهم بالكلام والفقه ، بل بعلم الآخرة وبسلوك طريقها ، وما فضل أبو بكر ﷺ الناس بكثرة صيام ولا بكثرة رواية ولا فتوى ولا كلام ، ولكن بشيء وقر في صدره كما شهد له سيد المرسلين ﷺ كما ذكرنا هذا قبل .

فليكن حرصك في طلب ذلك السر ، فهو الجوهر النفيس والدر المكنون الذي لا مقيس ، ودع عنك ما تطابق أكثر الناس عليه وعلى تفخيمه وتعظيمه لأسباب ودواع يطول ذكرها وتفصيلها في هذا الكتاب ، فلقد قبض رسول الله ﷺ عن الآلاف من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، كلهم علماء بالله أثنى عليهم رسول الله ﷺ ، ولم يكن منهم أحد يحسن في صنعة الكلام ولا نصب أحد منهم نفسه للفتيا إلا بضعة عشر رجلا . انتهى كلام « الاحياء »

وقال الإمام الغزالي ﷺ أيضا : التقوى ثمرة علم الباطن ، دون الفتاوى والأقضية ، روى أنس بن مالك ﷺ قوله ﷺ : « لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من الغدوة إلى طلوع الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب » .

ثم قال في موضع آخر : أشرف العلوم هو علم الآخرة أعني قسمي المعاملة والمكاشفة ، فغاية المعاملة المكاشفة ، وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى .

ولست أعني به اعتقاد العامي وأهل الكلام ، بل ذلك نوع يقين وهو ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبد طهر باطنه بالمجاهدة عن الخبائث حتى ينتهي إلى رتبة إيمان أبي بكر الصديق ﵁ الذي لو وزن بإيمان العالمين لرجح ، كما يشهد به سيد البشر ﷺ .

فما عندي أن اعتقاد المتكلم لا يزيد على ما يعتقده العامي إلا في صنعة الكلام وكان يعجز عنه عمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين حتى كان تفضيلهم أبي بكر بالسر الذي وقر في صدره

والعجب ممن يسمع مثل هذه الأقوال من صاحب الشرع صلوات الله تعالى وسلامه عليه ثم يزدري ما يسمعه على وفقه ويزعم أنه من ترهات الصوفية وأن ذلك غير معقول .

فكن حريصا على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكملين ، ولا يرشدك إليه إلا حرصك في الطلب .

وبالجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله تعالى ، وهو بحر لا يدرك منتهى غوره ، وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ثم الأولياء ثم الذين يلونهم . انتهى

وقال في « عوارف المعارف » : وقال ابن مسعود ﵁ : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم بالخشية .

قال الحسن بن عبد الله : « إن الله لا يعبأ بذي علم » ، وفي رواية : « إنما يعبأ بذي فهم ودراية » ، فعلوم الوراثة مستخرجة من علم الدراسة ، ومثال علم الدراسة كاللبن الخالص السائغ للشاربين ، ومثال علم الوراثة كالزبد

المستخرج منه ، فلو لم يكن لبن لم يكن زبد ، ولكن الزبد هو الدهنية المطلوبة من اللبن . . إلى آخر ما قال من التفصيل الدال على فضل علماء الباطن على علماء الظاهر .

ثـــم قـــــال فيه : مراتب علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، وقد يقال : التوحيد والمعرفة والمشاهدة وللايمان من كل من فروعه علوم .

ثم قال فيه : فصار علم الصوفية وزهاد العلماء نسبته إلى علم علماء الدنيا الذين ظفروا باليقين بطريق النظر والاستدلال كنسبة الزبد المستخرج من اللبن ، لأنه المشاهدة بعين اليقين وحق اليقين .

وعلم علماء أهل الدراية كاللبن لأنه اليقين بالاستدلال فقط ، فإن فضيلة الإنسان بفضيلة العلم ووزانة الأعمال على قدر الحظ من العلم ، وقد ورد في الخبر : « فضل العالم على العابد . . » إلى آخره

والإشارة في هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء والنكاح والطلاق والعتاق ، وإنما الإشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين .

وقد يكون عالما بالله تعالى ذا يقين كامل وليس عنده علم من فروض الكفايات ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أعلم من علماء التابعين بحقائق اليقين ودقائق المعرفة ، وقد كان علمآء التابعين فيهم من هو أقوم بعلم الفتوى والأحكام من بعضهم .

قال بعضهم : إذا أراد الله تعالى بعبد سوءا سد عليه باب العمل وفتح عليه باب الكسل ، فما أعجب هذه الكلمة وأحقها ، فلما أجابت نفوس الصوفية وقلوبهم وأرواحهم الدعوة ظاهرا وباطنا كان حظهم من العلم أوفر ونصيبهم من المعرفة أكمل ، فكانت أعمالهم أزكى وأسلم وأفضل .

ثم قال : وكمال الحظ من اليقين والعلم بالله للصوفية وللعلماء الزاهدين ، فبان بذلك فضلهم وفضل عملهم .

ثم إني أصور مسألة يستبين بها فضل العالم الزاهد العارف بصفات نفسه على غيره[1] . . إلى آخر ما قال .

ثم قال : وهذا من أوائل علم الصوفية ، فما ظنك بنفائس علومهم وشرائف أحوالهم ؟ انتهى كلام « الجوامع » .

وقال ابن زروق ﵀ : اعتبار المهم وتقديمه أبدا شأن الصديقين في كل شيء ، فكل من طلب من علوم القوم رقيقها قبل علمه بجملة أحكام العبودية منها وعدل عن جلي الأحكام إلى غامضها فهو مخدوع بهواه ، لا سيما إن لم يكن الظواهر الفقهية للعبادات ويحقق الفارق بين البدعة والسنة في الأحوال ويطالب نفسه بالتحلي قبل التجلي أو يدعي لها ذلك ، ولله درّ السري ﵁ حيث قال : من عرف الله تعالى عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والأحمق يغدو ويروح في لاش ، والعاقل عن محبوبه فتاش ، وفي « الحكم » : تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب ، والله أعلم . من « قواعد » ٨ .

وقال إبراهيم الخواص ﵁ : العلم كله في كلمتين : لا تكلف فيما كفيت ولا تضيع ما استكفيت . « نفحات » ١٨٧ .

وقال في « تنوير الصدر » ١٩٢ : العلم النافع هو الذي يبسط في الصدر شعاعه فيظهر له كل شيء على حكمه ، لأنه إذا أشرق صدره بالنور عرف القبيح والحسن ، فيأتي الحسن ويجتنب القبيح ، وأما العلم الحاصل باللسان والتعلم ، فإن عمل به نجا وإلا فلا ، إذ هو محل للشهوة ونحو ذلك ، فإن ذلك محبط ومضيع للعمل .

« ١ » عالم دخل مجلسا وقعد وميز لنفسه مجلسا يجلس فيه كما في نفسه من اعتقاده في نفسه لمحله وعلمه فدخل داخل من أبناء جنسه وقعد فوقه فانعصر العالم وأظلمت عليه الدنيا ولو أمكنه لبطش بالداخل فهذا عارض عرض له ومرض اعتراه وهو لا يفطن أن هذه علة غامضة ومرض يحتاج إلى المداواة ولا يتفكر في منشأ هذا المرض . « عوارف المعارف » .

فـــائدة : قال الشيخ الأكبر : اعلم أن المصلي أو المدرس أو نحوهما من عمال الطاعة إذا أضمر في نفسه أنه يصلي مثلا رياء أو سمعة وكان قد أخلص في أول شروعه في الطاعة فلا يبالي ، فإن الأصل صحيح فلا يبطل عمله ، فإن ذلك الخاطر من الشيطان فإن غرضه أن يترك العبد العمل الذي شرع فيه على صحة ليخالف قوله تعالى : ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ بسبب تلك الشبهة التي يلقيها إلى قلب العبد . انتهى

وقال العلامة أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري المأوردي ﷺ في كتاب « آداب الدنيا والدين » في ٢١ : اعلم أن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب ، لأن شرفه يثمر على صاحبه وفضله ينمي على طالبه ، قال الله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ، فمنع المساواة بين العالم والجاهل لما قد خصّ العالم من فضيلة العلم والآيات والأخبار في فضله وشرفه . . الخ .

ثم قال : واعلم أن كل العلوم شريفة ، ولكل علم منها فضيلة ، والإحاطة بجميعها محال . . الخ وإذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل ، وجب صرف الاهتمام إلى معرفة أهمها والعناية بأولاها .

وأفضلها علم الدين لأن الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون ، **إذ لا يصح آداء عبادة جهل فاعلها صفات آدائها ولم يعلم شروط إجزائها . . الخ** .

ويكفي لفضل العلم الباطن أن كثيرا من العلماء العاملين والفضلاء الكاملين والمدرسين المقبولين عند الخواص والعوام والأمراء والوزراء ذوي الاحترام تركوا تدريسهم في العلم الظاهر لأجل طلب علم الباطن على ما قالوا في بيان مناقبهم كما في « الشقائق النعمانية في مناقب الدولة العثمانية » وغيره .

فمنهم أبو الفتح ﷺ ، قال في فصل الخطاب للإمام الرباني ﷺ : أبو الفتح أحمد بن محمد الغزالي كان صاحب كرامات وإشارات وصاحب قبول تام ، وكان من الفقهآء غير أنه مال إلى التصوف ، فغلب عليه ودرس بالنظامية نيابة

عن أخيه أبي حامد محمد الغزالي لما ترك التدريس زهادة فيه ، وفيه اختصر كتاب « إحياء » وسماه « لباب الإحياء » ، وله كتاب آخر سماه « التبصرة » ، طاف البلاد وخدم الصوفية وخدموه وصحبهم وصحبوه . كذا قال الإمام اليافعي رحمه الله .

ومنهم الإمام الغزالي قدس سره صاحب « الإحياء » حين كونه ابن خمسين سنة كان مدرسا في بغداد مقبولا عند العلماء والأمراء ، فقصد على ترك الدراسة والوطن لأجل مصاحبة أهل الخير والمعرفة والسلوك عندهم ، فألحّ عليه الأمراء والصلحاء وغيرهم فلم يقبل منهم ذلك ، وفارق بغداد وترك الدراسة وفرق ما كان معه من الأموال ولم يدخر منها شيئا سوى قدر الضرورة والكفاف لقوت الأهل والأولاد ولم يخبر إلى أين يذهب وارتحل إلى الشام .

ثم بعد ما مكث هناك مدة ما شآء الله تعالى قريبا إلى سَنَتَين ارتحل إلى الحرمين ، وكان هو من حيث الباطن من أهالي الكمال أيضا فحصل له إرادة ترك العزلة لنشر العلم تجددا لرأس المائة التي كان فيها ، فشاور في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدة ، فاتفقوا إلى الإشارة بترك العزلة وأبدوا المنامات الكثيرة المتواترة من الصالحين يشهد أن هذه الحركة مبدأ كل خير قدره الله تعالى على رأس هذه المائة ، فرجع وقال : إني أرجع إلى نشر العلم ، **وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكتسب الجاه وأدعو إليه بقولي وعملي وكان ذلك قصدي وبغيتي ، والآن أدعو الناس إلى العلم الذي به يترك الجاه ويعرف به سقوط رتبة الجاه** ، هذا الآن نيتي وقصدي ، يعلم الله تعالى مني ذلك ، كذا قاله الإمام الغزالي قدس سره في « المنقذ من الضلال » .

وقال فيه أيضا : وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاءها والقدر الذي أذكره نفعا لمن سمع به ، **إني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع الشريف ليغيّروا شيئا من سيرهم**

وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من مشكاة النبوة .

ثم قال هو فيه : ومن أول الطريقة يبتدئ المكاشفات والمشاهدات ، حتى أنهم في اليقظة يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى رجعات يضيق عنها نطاق الناطق ، فلا يحاول معبّر يعبّر عنها إلا اشتمل لفظه إلى خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه .

وعلى الجملة ينتهي الأمر إلى قرب يتخيل طائفة إلى الحلول وطائفة إلى الاتحاد وطائفة إلى الوصول ، كل ذلك خطأ ، بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول : كان ما كان فما أنا أذكره . انتهى ما في « المنقذ » .

وقال الإمام في « مكتوباته » : قال الإمام أحمد بن حنبل في ترك الإمام الأعظم في آخر عمره في مدة سنتين الاستنباط والاجتهاد واختياره العزلة ما قال ، ولما سئل الإمام الأعظم عن سبب ذلك قال : **لولا السنتان لهلك النعمان** اهـ .

وقال الإمام الشعراني ﷺ في كتابه « الميزان » : سمعت سيدي عليا المرصفي رحمه الله تعالى يقول مرارا : كان أئمة المذاهب وارثين لرسول الله ﷺ في علم الأحوال والأقوال معا ، خلاف ما توهم بعض الصوفية حيث قال : إن المجتهدين لم يرثوا من رسول الله ﷺ إلا علم القال فقط . إلى آخر ما قال . انتهى

وقال في « در المختار » : إن داود الطائي ﷺ أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة ﷺ وهو فارس هذا الميدان . قاله ابن العابدين ﷺ . وقال في « الرسالة المدنية » : فالطريقة مقدمة للولاية . . . إلى آخر ما قال ابن المهمات .

وقال بعض العارفين : لكل شيء أهل ووجه ومحل وحقيقة وأهلية التصوف لذي توجه صادق أو عارف محقق أو محب مصدق أو طالب منصف

أو عالم تقيده الحقائق أو فقيه تفيده الاتساعات لا متحامل بالجهل أو مستظهر بالدعوى أو مجازف في النظر أو عامي غبي أو طالب معرض أو مصمم على تقليد أكابر من عرف في الجملة فافهم ، قاله في « القواعد الصوفية » اهـ .

وقال العارف الشيخ داود بن ماخلا ﷺ : الكامل من يستر باطنه بظاهره . « تقريب » ٥٢ .

وقال في « المرقاة » : الفرقة الناجية هم أهل السنة البيضاء المحمدية والطريقة النقية الأحمدية ، ولها ظاهر سمي بالشريعة شرعت للعامة ، وباطن سمي بالطريقة منهاجا للخاصة ، وخلاصة خصت باسم الحقيقة معراجا لأخص الخاصة ، فالأول نصيب الأبدان من الخدمة ، والثاني نصيب القلوب من العلم والمعرفة ، والثالث نصيب الأرواح من المشاهدة والرؤية .

قال القشيري قدس سره : والشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية ، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول ، ولله در من قال من أرباب الحال : ألا فالتزموا سنة الأنبياء واحفظوا سيرة الأصفياء ، ومن يبدع بدعة لم يكرم بوجدانه رتبة الأتقياء . انتهى كلامه

وقال أيضا : العلم علمان ، فعلم بالقلب أي حاصل وداخل فيه لا يطلع عليه غير الله تعالى ، فذلك العلم النافع ، إشارة إلى أنه في كمال العلوّ والرفعة لا يناله كل أحد ، ولعل في ذلك إيماء إلى أنه ينبغي أن يقرب المرء إلى العلم النافع ، كما أنه أورد في القسم الثاني « ذلك » إيماء إلى أنه ينبغي أن يبعد عنه« ١ » ، وعلم على اللسان ، ولكون ما فيه من الخطر بلا خلاف لتعلقه بالخلق المقتضي للسمعة والرياء والمداهنة للأمراء ، قال ﷺ : « فذلك حجة الله على ابن آدم » .

« ١ » أي بناء على أن اللام في « ذلك » للبعد ، و« ذاك » تستعمل للأقرب .

وقد يحمل الأول على العلم الباطن والثاني على العلم الظاهر ، لكن فيه أنه لا يتحقق شيء من علم الباطن إلا بعد التحقق من إصلاح الظاهر ، كما أن علم الظاهر لا يتم إلا بإصلاح الباطن .

ولذا قال الإمام مالك ﵀ : **من تَفَقَّه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق .**

وقال أبو الطالب المكي ﵀ : هما علمان أصليان لا يستغني أحدهما عن الآخر .

وقال العلامة المحقق أبو العباس أحمد زروق ﵁ : في كل علم ما يخص ويعم فليس التصوف بأولى من غيره في عمومه وخصوصه ، بل يلزم بذل أحكام الله تعالى المتعلقة بالمعاملات من كل عموما ، وما وراء ذلك على حسب قابله لا على قدر قائله لحديث : « حدثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله » .

وقيل للجنيد رحمه الله تعالى : يسألك الرجلان عن المسألة الواحدة ، فتجيب هذا بخلاف ما تجيب هذا ، فقال : الجواب على قدر السائل ، قال عليه الصلاة و السلام : « أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم » .

ثم اعلم أن العلم بفائدة الشيء ونتيجته باعث على التهمّم به والأخذ في طلبه لتعلق النفس بما يفيده إن وافقها ، وإلا فعلى العكس ، وقد صح أن شرف الشيء بشرف متعلقه ، ولا أشرف من متعلق علم التصوف ، لأن مبدأه خشية الله تعالى التي هي نتيجة معرفته ومقدمة اتباع أمره وغايته إفراد القلب له تعالى .

فلذلك قال الجنيد ﵁ : لو علمت أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه وهو واضح . انتهى

وقال ﷺ : العلم إما أن يفيد بحثا على الطلب وحثا عليه ، وإما أن يفيد كيفية العمل ووجهه ، وإما أن يفيد أمرا وراء ذلك خبريا يهدي إليه ، فالأول من علوم القوم علم الوعظ والتذكير ، والثاني علم المعاملات والعبودية ، والثالث علم المكاشفة .

فالأول دائر على قوله تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ ، هذه لقوم وهذه لقوم كل على حسب قبوله ، والثاني دائر على قوله تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ ، والثالث راجع لقوله تعالى : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ و « من عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم » .

وإن كان« إنما العلم بالتعلم » ففي الأصل لا في الفرع« ١ » ، ومن ثم قال أبو سليمان ﷺ : إذا اعتقدت النفوس ترك الآثام جالت في الملكوت ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علما . انتهى

وقال العارف السيد أحمد بن إدريس المغربي رحمه الله تعالى : علم الله تعالى نبيه ﷺ ليلة أسري به ثلاثة علوم : علم الشريعة , وعلم الخواص , وعلم خواص الخواص ، فعلم الشريعة في جميع الأمة يعلمها الخاص والعام ، وعلم لم يعلمه إلا الخواص ، وعلم لم يعلمه إلا خواص الخواص ، وهو معنى قول علي كرم الله وجهه : ههنا علم – وأشار الى صدره – ما وجدت له حملة ، وقول أبي هريرة ﷺ : أخذت وعائين من علم عن رسول الله ﷺ ، أما أحدهما فبثثته ، وأما الآخر فلو بثثته لقطع مني هذا الحلقوم ، اللهم اجعلنا من خواص الخواص برحمتك يا أرحم الراحمين آمين .

« ١ » أي الحكم الأصلي أنه لا علم إلا بتعلم عن الشارع ، أو من ناب مَنابَه فيما أتى به ، و طلب الشيء من وجهه وقصده من مظانه أقرب لتحصيله ، ولكن قد تبث أنّ دقائق علوم الصوفية منح الهية ، ومواهب اختصاصية ، لا تنال بمعتاد الطلب كما قال عليه الصلاة والسلام : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » « قواعد التصوف » .

وقال بعض العارفين : إن خلاصة العلوم المتداولة التفسير والحديث والفقه ، وخلاصة تلك العلوم الثلاثة التصوف ، وموضوع علم التصوف بحث الوجود .

وقد قالوا : ليس في جميع المراتب الإلهية والكونية إلا وجود واحد ظاهر بصورة العلمية ، وهذا المبحث في غاية الإشكال ونهاية الدقة ، والخوض فيه بالتعقل والتخيل موجب للضلالة والزندقة ، فإن في هذا العالم كلابا وخنازير وأمثالهما مما لا يحصى من الحيوانات الخسيسة وأنواع النجاسات والقاذورات ، وإطلاق الوجود عليها في غاية القباحة والشناعة ، واستثناؤها من الوجود موجب لإبطال القاعدة الكلية ومخالف لاصطلاح هذه الطائفة العلية .

فالواجب على الأذكياء الاشتغال بتصفية مرايا حقوقهم عن النقوش الكونية وعدم الميل عنه إلى أمر آخر ، حتى تشرق أشعة أنوار الوجود في اللطيفة المدركة بواسطة تصفية محالها وتزكيتها ، فيظهر لهم ذلك المعنى على ما ينبغي ، كما قاله الشيخ علي ابن حسين الهروي عن شيخه ﷺ .

وقال أيضا : إن التصوف أمر يسير ، وهو أن القلب مرآة ووجهه إلى عالم الملك ، والتصوف هو قلبُ وجهِ مرآة القلب إلى عالم الملكوت . انتهى

وقال بعض العارفين ﷺ : العلوم ثلاثة ، علم سلوكي فيجب إبداؤه ، وعلم كشفي فقد لا يباح إبداؤه ، وعلم سري فلا يباح إظهاره قط .

وقال العارف سيدي علي وفا رضي الله عنه : سبقت كلمة الله تعالى التي لا تتبدل وسنته التي لا تتحول أن لا ينفخ روح علمه في مخصوص إلا انقسم الخلق له بين مَلَكيّ ساجد وشيطانيّ حاسد ، فاحرص على أن تكون لأهل النعم العلمية محتاجا خاضعا لتسلم أو تعلم أو ترحم ، وإياك أن تكون لهم مبغضا أو حاسدا فتسلب أو ترجم أو تحرم .

وقال رضي الله عنه : **قلب العارف حضرة الله تعالى ، وحواسه أبوابها ، فمن تقرب إلى حواس العارف بالقرب الملائم له فتحت له أبواب الحضرة** . انتهى

وقال أيضا ﷺ : من عرف الحق فكل أوقاته ليلة قدر .

وقال سيدي أبو المواهب الشاذلي رضي الله تعالى عنه : لا تجالسوا العارفين إلا بالأدب ، فربما مقت من أساء أدبه معهم ومحى من ديوان القرب ، ومن لم تؤدبه الصوفية فليس بأديب .

وكان ﷺ يقول : الواردات مختلفة من حيث الموروودة عليه لا من حيث نفسها , فإنها واحد فهي كالمطر على أرض فيها أنواع من البذر ، فالمطر واحد والنبات مختلف ، يسقى بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض في الأكل .

والتعبد هو مفتاح باب الخير ، فمن فاتته الأوراد في بدايته فقد حرم الواردات في نهايته ، فللأعمال أنوار كما أن للعارف أسرار ، فعليك أيها السالك بالدوام على الأوراد ولو بلغت المراد . انتهى

ويحكى عن يحي بن معاذ ﷺ أنه رأى أبا يزيد ﷺ في بعض مشاهدته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخمصيه مع عقبيه عن الأرض ، ضاربا بذقنه شاخصا بعينيه لا يطرف ، قال : ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قعد فقال : اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء والمشي في الهواء فرضوا بذلك ، وإني أعوذ بك من ذلك ، حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء ، ثم التفت فرآني فقال : يحيى ! قلت : نعم يا سيدي ، فقال : مذ متى أنت ههنا ؟ قلت : منذ حين ، فسكت فقلت : يا سيدي حدثني بشيء ، فقال : أحدثك بما يصلح لك : أدخلني في الفلك الأسفل فدوّرني في الملكوت السفلي ، وأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى ، ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوّف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ، ثم أوقفني بين يديه فقال : سلني أي شيء رأيت حتى أهبه لك ، فقلت : يا سيدي ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه ، فقال : أنت عبدي حقا ، تعبدني لأجلي صدقا ، لأفعلنّ بك ولأفعلن ، فذكر أشياء ، فقال يحيى : فهالني

ذلك وامتلأت به وعجبت منه فقلت : يا سيدي لِم لم تسأله المعرفة وقد قال لك ملك الملوك سلني ما شئت ؟ قال : فصاح بي صيحة وقال : اسكت ! ويلك غرت عليه مني حتى لا أحب أن يعرفه سواه . انتهى

وقال الإمام علي ﷻ : ثم اعلموا معاشر الإخوان أن غواة آخر الزمان هم علماء زوقوا أفواههم ثم أفتوا واتبعوا أهواءهم ، لم يقرؤوا العلم ابتغاء الأجر وإنما ذاك لدنيا تسري ، تراهم قد وسعوا أكماما وملأوا بطونهم حراما ، لذلك تلقى الناس في المزلة ، إذ زلة العالم ألف زلة ، رزية العالم إن لم يعمل بعلمه ، والغير إذ لم يسأل . تمّ من « مجموعة الأحزاب » ٥٩٦ .

وقـــال الشيخ الأكبر في « الفتوحات » في الباب ٢٣١ : من أعظم المكر بالعبد أن يرزق العلم الذي يطلب العمل ويحرم العمل به ، أو يرزق العمل ويحرم الإخلاص فيه ، فإذا رأيت يا أخي هذا من نفسك أو علمته من غيرك فاعلم أن المتصف به ممكور به حينئذ . « يواقيت » ١٠٨ .

وقال الشيخ عبيد الله أحرار ﷺ : لو جمع شخص علوم الأولين والآخرين لا يكون شيء من تلك العلوم ممدّا وأمينا له في النفس الأخير ، بل يكون جميع معلوماته ممحوا عن لوح مدركته إلا ما حصّله من ملكة الحضور والجمعية ، وما ينفع في النفس الأخير ويكون ممدّا ومعينا إنما هو هذا الحضور والجمعية لا غير .

فينبعي للعاقل أن يغتنم أيام الشباب بالتزام رياضة قليلة في مدة يسيرة وأن يقعد على زاوية حتى يحصل له ملكة الحضور والجمعية ويتخلص الخاطر من مزاحمة النفي والإثبات . انتهى

فائدة في بيان كون العلم حجابا : وهو موجب لزلة أقدام الطائفة المتشيخين ذكره الإمام الغزالي ﷺ في بعض مصنفاته ولا بأس بإيراده هنا على وجه الاختصار ، وهو هذه :

وقد علم مما سبق شرف جوهر القلب وصار طريق الصوفية واضحا ، وأظنك قد سمعت من الصوفية قولهم إن العلم حجاب من هذه الطريقة فتنكر عليهم بأنه إذا كان شيء بحيث يكون العلم حجابا عنه كيف يقدم عليه ، أم كيف يرغب فيه وأي فضيلة له ؟ فلا تنكر علي ، فإنه حق وصدق .

فإن الاشتغال بالعلم الذي يحصل من طريق المحسوسات يكون حجابا عن هذه الأحوال البتة ، فإن القلب مثل الحوض ، والحواس الخمس مثل الأنهار الخمسة ينصبّ منها الماء فيه ، فإن أردت أن تملأ الحوض بالماء الطاهر الصافي فتدبيره أن تسد هذه الأنهر أولا حتى لا ينصب فيه ماء من خارج ، ثم تفرغ الحوض من الماء والطين الأسود ثانيا ، ثم تحفر قعر الحوض ثالثا لينبع الماء الصافي من داخل الحوض ، فإن الحوض ما دام مشغولا بالماء الذي ورد عليه من خارج لا يمكن نبع الماء من داخله ، وإن سلمنا لا يكون طاهرا صافيا لاختلاطه بالماء النجس ، وكذلك لا يحصل العلم داخل القلب حتى يكون خاليا من كل علم حصل من خارج .

وأما لو امتنع العالم من تعلم العلم ولم يشتغل قلبه بما تعلم سابقا فلا يكون علمه السابق حجابا له عن الطريقة ، بل يمكن أن يكون سببا للفتوحات .

وكذلك إذا خلى السالك نفسه عن الخيالات والمحسوسات لا تكون الخيالات السابقة حجابا له ، وسبب كون العلم حجابا هو أن شخصا لو تعلم علما مع دلائله وبراهينه على ما بيّن في فن الجدال والمناظرة وأقبل عليه بكليته واعتقد أن ليس وراء هذا علم أصلا ، فإن وقع شيء على قلبه من خطرات سماوية يقول : إن هذا خلاف ما أنا سمعته وعلمته ، وكل ما هو خلافه فهو باطل ، فلا يمكن لمثل هذا الشخص انكشاف حقيقة الأمور ، فإن هذه الاعتقادات التي يعلّمها عوام الخلق إنما هي صورة الحقيقة لا عينها ، والمعرفة التامة هي خروج تلك الحقائق من الصورة إلى العين كخروج اللب من القشر .

ومن المعلوم أن من تعلم طريق الجدل في نصرة الاعتقاد الحق وحراسته لا تنكشف له الحقيقة أصلا ، فكيف يظن أن هذا هو الحقيقة لا غير ، فمن ظن ذلك يكون ظنه حجابا له عن الحقيقة .

ولما كان الظن غالبا فيمن تعلم شيئا من هذه العلوم لا جرم يكون هذا القوم محجوبين غالبا ، فمن خرج من هذا الظن لا يكون العلم حجابا له ، فإنه معتقد أن وراءه شيئا آخر أعلى من علمه ومتطلع عليه ، وإن تيسر لمثل هذا الشخص فتح فقد بلغ درجة الكمال ، ويكون طريقه أشد أمنا وأوضح ممن لم يترسخ قدمه في العلم قبل ، فإنه يمكن أن يبقى في عقدة الخيال الباطل مدة مديدة ، بل تكون شبهة يسيرة حجابا له ، والعالم يكون محفوظا من مثل هذا الخطر والسلام ، والله يتولاك . هكذا ذكر في « تعريب » محمد مراد رحمه الله تعالى .

فإن قلت : فما معنى قولهم (العلم حجاب عن الله تعالى) مع أن العلم هو الذي يكشف عن حقائق الأمور ؟

فالجواب ، كما قاله الشيخ في الباب الثاني من « الفتوحات » : أنه ليس المراد به ذم العلم – معاذ الله أن يريد القوم ذلك – وإنما مرادهم أن أحدا لا يعلم الحق تعالى إلا بواسطة العلم ، فالواسطة هي التي علمت الحق تعالى لا أنت ، فما علم الحق تعالى حقيقة إلا علمك لا أنت ، وعلمك دائما حاجب لك عن معرفة كنه الحق تعالى ولو رقيت في العلم به تعالى ما رقيت فلا يصح وقوف تجلي الحق لك حتى تدركه ، لأن كل تجل يقع كلمحة بارق لا يثبت آنين أبدا ، ومن هنا امتنع للخلق تكييف الحق فافهم .

فعلم أنه ليس مشهود كل أحد من الحق إلا علمه ، فإياك إن جريت على أسلوب الحقائق أن تقول : إنك علمت المعلوم ، فإنك ما علمت إلا بالعلم ، والعلم هو العالم بالمعلوم الذي هو الحق .

وبين العلم والمعلوم بحور لا يدرك أحد قعرها ، فإن سر التعلق بينهما مع تباين الحقائق بحر مركبه عسير ، بل لا تركّبه العبارة أصلا ولا الإشارة ، ولكن يدركه الكشف من خلف حجب كثيرة . . الخ . « يواقيت » ٦٠ .

وقال العلامة الشيخ إسمعيل حقي النازلي ﷺ في « روح البيان » في تفسير قوله تعالى ﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ : واعلم أن العلم والدراسة جعلا سببا للربانية التي هي قوة التمسك بطاعة الله تعالى ، وكفى هو دليلا على خيبة سعي من جهد نفسه وكدّ روحه في جمع العلم ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل .

فكأن مثله مثل من غرس شجرة حسناء تؤنقه أي تعجبه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها ، فالعمل بغير العلم والعلم بغير العمل لا ينبت كل منهما بانفراده النسبة إلى الرب .

فعلم أن العالم الذي لا يعمل بعلمه منقطع النسبة بينه وبين ربه ، كالعامل الجاهل ، فكل منهما ليس من الله تعالى في شيء حيث لم تثبت النسبة إلا للتمسك بالعمل المبني على العلم .

قال علي ﷺ : قصم ظهري رجلان : عالم متهتك وجاهل متنسك ، لأن العالم ينفر الناس عن العلم بتهتكه ، والجاهل يرغب الناس بتنسكه ، قال رسول الله ﷺ : « نعوذ بالله من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع » .

فعلى المعلم والمتعلم أن يطلب بعمله مرضاة الله تعالى وبعلمه الربانية ، فمن اشتغل بالتعليم والتعلم لا لهذا المقصد ضاع سعيه وخاب عمله ، والإشارة أن من دأب أهل الحقيقة تربية الأتباع والمريدين ليكونوا ربانيين متخلقين بأخلاق الربانية العاملين بما يعلمون من الكتاب وبما كانوا يدرسون من العلوم ولا يقنعون على دراستها ولا يغترون بمقالات أخذوها من أفواه القوم .

وبعض مدعي هذا الشأن الذين غلبت عليهم أهواؤهم وصفاتهم البشرية يدعون المشيخة من رعونة النفس قبل أوانها ويخدعون الخلق بأنواع الحيل

ويستتبعون بعض الجهلة ويصيدونهم بكلمات أخذوها من الأفواه ويمكرون ببعض أهل الصدق من الطلبة ويقطعون عليهم طريق الحق بأن يمنعوهم من صحبة أهل الحق ومشايخ الطريقة ويأمروهم بالتسليم والرضا فيما يعاملونهم ولا يعرّفون غيرهم فيعبدونهم من دون الله تعالى كما هو دأب أكثر مشائخ الزمان ، فإنه ليس من دأب من يؤتى الكتاب والحكم والنبوة « روح البيان » في ٣٤١ الجلد الأول .

وقال إبراهيم الخواص رضي الله عنه :

لَقَدْ وَضَحَ الطَّرِيقُ إِلَيكَ حَقّا ... فَمَا أَحَدٌ بِغَيْرِكَ يَسْتَدِلّ

فَإِنْ وَرَدَ الشّتاءُ فَأَنْتَ كَهْفٌ ... وَإِنْ وَرَدَ المَصيفُ فَأَنْتَ ظِلّ

« نفحات »١٨٧

وقال قطب العارفين السيد أحمد بن إدريس الحسيني قدس سره في « العقد النفيس » ١٣٣ : القول بلا علم من خطوات الشيطان ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، ثم في آية الإفك : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ .

ثم قال تعالى في الوعيد لهم : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ ، فقدم الألسن على غيرها ، وفي غيرها من المواضع يقدم السمع أو غيره على حسب ما يقتضيه المقام ، والمقام هنا يقتضي تقديم الألسن لأن الإفك وقع بها .

فانظر أيها المسترشد في تسمية الله تعالى للقول بغير علم ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ، فلا ينبغي أن يقول الإنسان إلا ما يعلم ، والعلم ليس إلا من عند الله تعالى ورسوله ﷺ ، وهو آية محكمة أو سنة ماضية أو لا أدري .

قال رسول الله ﷺ لأبي هريرة : « يا أبا هريرة ! علم الناس القرآن وتعلمه ، فإنك إن مت وأنت على ذلك زارتك الملائكة كما يزار البيت العتيق ، وعلّم الناس سنتي وإن كرهوا ذلك ، وإن أردت أن لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدث في دين الله حديثا برأيك » .

وعدم الاعتماد على هذا هو الذي أنشأ الخلاف في الأمة والشقاق ، ولو وقفوا عند الكتاب والسنة لكان الأمة في طريقة واحدة التي سلكها الصحابة رضي الله عنهم الذين هم واسطة عقد نظام هذه الأمة ، فنشأ الخلاف من حين ابتداء التأليف والقول بغير (قال الله) (قال رسوله) وإحداث في الدين ما ليس فيه ، إنا لله وإنا إليه راجعون . « عقد » ١٣٤ .

تزيين بكلام العارفين« ١ » : وقال الشيخ العارف بالله أبو عبد الله القرشي رضي الله عنه : لو خير العارف بين مائة ألف خصوصية أو كشف حجاب لاختار أن يكشف له ذرة من حجاب ، والحال ما جذبك إلى حضرته ، والعلم ما ردك إلى خدمته ، ولولا ضيق المجاري كنت ترى النور جاري ، وما منعك من شم نسيم القرب إلا زكامك ، ولا حجبك عن شهود النور إلا ظلامك ، ومن تزايد له حب في محبوبه بسبب جديد فهو في دعوى نهاية المحبة بعيد ، والحالة التي لا اعتراض عليها من ظاهر ولا باطن جمع لا شطح فيه وفرق لا شك فيه ، ومن أبدى من أسرار الله تعالى ما لا يليق إبداؤه وأفشى من العلم المكنون ما لا يناسب إفشاؤه عوتب بسوء الظنون فيه أو بما هو فوق ذلك من العقوبات .

وقال رضي الله عنه : قال الله تعالى : ابن أدم ، لو زال عنك (أنا) للاح لك من أنا ، فانظر أيها المنصف إلى هذا القول .

وقال رضي الله عنه : لا ينال الشيطان من آدميّ نيلا إلا إن نزل إلى أرض شهوته .

« ١ » اعلم أن العارف هن من أشهده الله ذاته وصفاته وأسماءه وأفعاله فالمعرفة حال تحدث من شهوده « جامع » .

وقال ﷺ : إنما فرّ العباد من الناس لأنهم وجدوا منهم نتن جيفة الدنيا لظواهر بشريتهم ، وإنما أقبل العارفون عليهم لأنهم وجدوا معهم طيب ريح الأرواح لباطن خصوصياتهم .

وقال أبو عبد الله السنجري قدس سره : علامة الأولياء ثلاثة : تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة وإنصاف عن قوة « نفحات » ١٦٠

وقال ﷺ : ما عمل العارفون في هذه الدار على حال ولا مقام ، وإنما عملوا على تحقيق انحيازهم إلى الله تعالى وإن الكل في طي ذلك .

وقال سيدي علي وفا ﷺ : من شهد أن القدوس هو القائم بالأمور لم يشهد فى الوجود إلا الكمال ، ومن انعكس انتكس ، إن لكم لما تحبون فاعبدوا ما شئتم .

وقال في قوله تعالى ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ أي لفظ الله هى العليا لأنه الاسم الأعظم الجامع لحقائق جميع الأسماء .

وقال ﷺ : من عرف الحق لم ير إلا الحق ، فما ذا بعد الحق إلا الضلال .

وقال ﷺ : من أحب أن يكون في حفظ رب العالمين فليخدم بصدق أولياءه العارفين .

وقال ﷺ : ما أحب الله تعالى عبدا إلا ملأ قلبه استغراقا في محبة مرضاته ، ولا كره عبدا إلا ملأ قلبه محبة لمكروهاته .

وقال سيدي محمد أبو المواهب الشاذلي ﷺ في إنكار بعضهم على من قال (حدثني قلبي عن ربي) : لا إنكار ، لأن المراد أخبرني قلبي عن ربي من طريق الإلهام الذي هو وحي الأولياء ، وهو دون وحي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولا إنكار إلا على من قال (كلمني الله تعالى) كما كلّم موسى عليه السلام ، ففرّق بين أخبر وكلم يا من أنكر وتوهم . انتهى

وقال ﷺ : أقسم الحي القدوس أن لا يدخل حضرته أحد من أصحاب النفوس ، واحذر أن تخرق سور الشرع يا من لم يخرج من عادة الطبع ، واحذر أن تقول أنا مطلوق من الحدود لأني دخلت حضرة الشهود ، فإن الذي دعاك هو الذي نهاك . انتهى .

وقال العارف بالله الشيخ داود بن ماخلا ﷺ : لو تنفس عارف في بلده ثبت إيمان كل عبد فيها ، وكل عارف لا يميت وجوده أمام مريده لا يصل مريده إلى الله تعالى .

وقال : أمام كل وصول غيبي عارض شهواني ، وما نظر مريد لعارف بعين توقير ووداد إلا كان سالكا سبيل حق ورشاد ، ولا يلوح لك نور حقائق الإيمان حتى تخرج من عامة الأكوان ، ومواد الحكمة منطوية في القوة الإنسانية ، وإنما يفضل الحكيم على غيره باستخراجها من القوة إلى الفعل ، فإن كان لك في الوصول نية فلا تبق منك بقية ، فابن آدم ذو وجودات مطوية ، فتبصروا في خلالها فعسى يلوح لكم شيء من جمالها .

وكان يقول : أمتعة الدنيا لطف وبركة لأنها بساط لعطاء لا ينقطع وفضل لا ينحصر .

قال بعض العارفين : إن العبد بالإكثار من ذكر الله تعالى يتجوهر قلبه حتى تنفتح له شقائق نعمان الجنان وتهتف برائق معناه حركات اللسان ، فإذا حصلت فهذه الحالة الشريفة والخاصة المنيفة لازمتها ملكة يقتدر بها على قلب الأعيان في كل زمان ومكان ، وهي التي تصرف بها في القلوب حتى ترهبت فيه كل مرهوب بإذن علام الغيوب .

ولذلك يقولون : الولي نهّاب وهّاب ، فلهبته يقال : الولي إذا أرادك أغناك ، والولي إذا شاء كون ، والولي إكسير لأنه كامل التدبير عملا بقوله ﷺ : « **لا يزال عبدي يتقرب إلي** » . إلى آخر الحديث » رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ .

أيجوّز عاقل حلول القديم تعالى ربنا عن الحدوث والحلول والمكان والزمان ، كان الله تعالى ولا زمان ولا مكان ، وهو الآن على ما عليه كان ، ولا ضد له ولا ند له ولا حد له ولا حدود ولا شبيه له ولا مثل له ولا كفؤ له ولا شريك له ولا وزير له ، له الملك والملكوت والعزة والجبروت ، وإنما معنى ذلك عبارة عن تغطية أوصاف المحبوب من البشر بأوصاف الملك الأكبر .

ومعنى قوله « كنت سمعه الذي . . » إلى آخر الحديث : أجعل سلطان حبي غالبا عليه حتى يسلب منه الاهتمام بشيء غير ما يقربه إليّ فيصير منخلعا عن الشهوات ، ذاهلا عن الحظوظ واللذات ، مقيما بقلبه ، أينما يتوجه لقي الله تعالى بمرأى منه وسمع ، لا تطرق حالته الغفلة ، ولا تحول دون شهوده الحجة ، ولا يعتري ذكره النسيان ، ولا يخطر بباله الأحداث والأعيان ، يأخذ بمجامع قلبه حبّ الله ، فلا يرى ولا يسمع ولا يفعل إلا ما يحب الله تعالى ، ويكون الله تعالى في ذلك له يدا ومؤيدا وعونا ووكيلا ، يحمي سمعه وبصره ويده ورجله عما لا يرضاه .

وحقيقة هذا القول ارتهان كلية العبد بمراضي الله تعالى وحسن رعاية الله تعالى له . فإن العرب إذا أرادوا اختصاص الشيء بنوع منه والاهتمام به والعناية به والاستغراق فيه والوله والنزوع له سلكوا هذا الطريق ، تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه ، تحقق بذلّك يمدك بعزه ، تحقق بضعفك يمدك بقوته وحوله ، تحقق بفقرك يمدك بغناه ، فإن من ثبت له الفقر الأكبر ثبت له الغنى الأكبر .

ووجه الحيلة أن لا تكون للعبد حيلة حتى لا يركن إلى شيء سوى مولاه ، فمن تحقق بأوصاف العبودية يمده بأوصاف الربوبية ، لا سيما إذا لازم الذكر الذي هو مغناطيس العبودية ، فيستوحش أن يسمى بالعبد في الحضرة الإلهية فيمده بأوصاف الربوبية . وأدنى ذلك شهادته إسراع اللطف من اللطيف ، لأن من لازم العبودية والافتقار والاضطرار والاحتياج أسرعت إليه المواهب .

فمن أراد أن تسرع إليه المواهب فليستحق بالفقر ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ ، وجدير لمن اعترف بالملكية لمولاه أن يعتني به ثم لا يسأل عمن شاناه وناواه ، ومن لازمه إظهار إنعام مولاه عليه فيخلع هو على من يشاء ممن قصده أو أوى إليه ، وفي الأمثال : ضيف الكرام لا يضام ، وكيف لا يثبت ذلك لعبد أكرم الأكرمين ؟ !

وقال سيدي أبوالحسن الشاذلي رضي الله عنه : وناده من البُسُط الأربعة : يا عزيز من للذليل غيرك ، يا قوي من للضعيف غيرك ، يا قادر من للعاجز غيرك ، يا غني من للفقير غيرك .

فإذا فعلت ذلك كانت الإجابة طوع يديك ، ويفهم من قوله ﷺ : « أكثروا من ذكر الله حتى يقولوا مجنون » . . الخ . قاله سيد أحمد زيني قدس سره .

ثم اعلم أيها الرشيد – أيقظك الله تعالى إلى أجلّ مقامات التوحيد – أن للأولياء علامات كثيرة .

فمن ذلك ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال في وصفهم : « إذا رأيتهم ذكر الله تعالى » .

قال إمام العارفين الخواجه علي الحكيم الترمذي قدس سره في شرح هذا الحديث في كتابه « نوادر الأصول في أحاديث الرسول » : إن قلب الولي معدن أنوار الجلال الإلهي ومنبت كبرياء القرب وبهائه ، وظهور نور وجه المولى ناشئ من قلبه ، فإن[1] أحيا قلب العبد المؤمن بالحياة الطيبة بذلك النور يكون عكس ذلك النور على صحيفة جبينه لائحا فحق كل من نظر إلى وجه ذلك الولي المحبوب حصل له ذكر الحق تعالى[2] .

« ١ » في الأصل فإنه .

« ٢ »و هم الأولياء الذين عليهم سمات ظاهرة من الله تعالى قد علاهم بهاء القربة و نور الجلال و هيبة الكبرياء و أنس الوقار إذا نظر الناظر إليه ذكر الله لما رأى عليه من آثار الملكوت والقلب معدن هذه الأشياء و مستقر النور و شرب الوجه من ماء القلب فإذا كان على القلب نور سلطان الوعد والوعيد تأدى إلى الوجه ذلك النور فإذا وقع بصرك عليه ذكرك البر والتقوى « نوادر الأصول فى أحاديث الرسول للترمذي » .

ونقل عن حضرة العزيزان ما مضمون هذه وذلك أنك إذا جلست مع كل شخص ولم تجد قلبك يجتمع معه ولا سكنت منك زحمة الماء والطين فاجتنبه ، وإلا فلا يجعلك روح العزيزان في حل ، كما قال بعض العارفين ما يقاربه :

إذا أَنْتَ مَعْ شَخْصٍ جَلَسْتَ وَلَمْ تَجِدْ حُضورَكَ يَنْمـو فَاجْـتَـنِـبْـهُ وفارِقِ
ولا تَصْحَبِ الأغْيارَ وَاخْتَرْ مُصاحِباً يُفيـدُكَ جَمْعَ القَـلْبِ مِنْ غَيْرِ عائِـقِ

فأشار حضرة العزيزان إلى علامة الولاية ، فالعبد ببركة مجالسة كبراء الحقيقة يصل من صحبة الماء والطين إلى صحبة الروح والقلب ومن القالب إلى جمعية .

وحضرة الخواجه ﷽ كان كثيرا ما يقول : للولي ثلاث علامات ، الأولى إذا رأيت وجهه أحبه قلبك ، الثانية إذا تكلم في المجلس سلب وجود الكل بحديثه ، الثالثة أن لا يحصل من عضو من أعضائه حركة مكروهة .

وفي الحديث القدسي : « إذا وجدتُ قلب عبدي خاليا عن الدنيا والآخرة ملأته حبي ، حتى إذا ملأته قبضت عليه فكان في قبضتي كنت سمعه وبصره ويده ورجله ولسانه وفؤاده ، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي وبي يتكلم وبي يعقل » إشارة غامضة إلى هذه العلامات وذلك أن العبد إذا كان يقول بالحق ويسمع بالحق . . الخ كانت جميع حركاته وسكناته على أتم ما يكون من الحسن والقبول ، وكل من رآه أو سمع كلامه أحبه وصار متعلقا به ، قاله الخواجه قدس سره ، جعلنا الله تعالى من أتباعه آمين .

وقال السري السقطي قدس سره : بداية المعرفة تجريد النفس للتفريد للحق . « نفحات » ١٠٧

ثم اعلم أيها الأعز أن ثبوت المزية لا يقضي برفع الأحكام ، ولزوم الأحكام الشرعية لا يرفع خصوص المزية .

فمن ثبت عليه أو لزمه حد وقع عليه مع حفظ حرمته الإيمانية أصلا ، فلا يمتهن عرضه إلا بحجة على قدر الحق المسوغ .

وإن ثبتت مزية دينية لم ترتفع إلا بموجب رفعها ، فالولي ولي وإن أتى حدا أو أقيم عليه ما لم يخرج لحد الفسق بإصرار وإدمان فيفي ظاهر الحكم عنه بالولاية .

وقد ورد عن النبي ﷺ حديث : « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله » ، « لو سرقت فاطمة . . » وقد أعاذها الله من ذلك ، ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ .

فمن ثم أفتى الشبلي قدس سره بقتل الحلاج والحريري قدس سره بضربه وإطالة سجنه وقال هو في نفسه : ما على المسلمين أهم من قتله نصحا للدين من دعاوى الزندقة ، لا إقرارا على نفسه وإعانة على قتله بما علم براءته من حقيقته والله أعلم ، قاله الشيخ ابن زروق أبو العباس أحمد قدس سره . فتدبر في نفاسة هذا القول .

ونقل عن حضرة الخواجه قدس سره ، سئل عن بعض مشائخ الطريقة قالوا : إن الولاية المحمدية ختمت بنا ، فقال حضرة الخواجه : إنهم ختم ولاية زمانهم .

نقل الخواجه علاء الدين – روّح الله تعالى روحه – عن حضرة الخواجه قدس سره أنه قال : إن هذة الليلة جماعة من أقطاب الزمان وأوتاد الأرض حضروا ووضعوني في لباد أبيض ورفعوا أطراف ذلك على تخت عظيم ، وبعد الآن ليس عليّ غم أصلا .

ونقل عن حضرة الخواجه قدس سره أنه قال : لي ستون سنة وأنا مؤمن بهذا الطريق .

وكان حضرة الخواجه قدس سره يقول : إن الصلاة والصيام والمجاهدة طريق إلى الوصول لحضرة الأحدية تعالت وتقدست ، ولكن لا يحصل هذا إلا بترك الاختيار ورؤية قصور الأعمال .

ومر يوما على حضرة الشريعة قدس سره لغط أن التعلق بالسوى حجاب كبير لسالك الطريق ، ثم ذكر بيتا بالفارسي مضمونه : إن التعلق حجاب بلا حاصل فإذا تخلصت من هذه العقد وصلت . انتهى

وقال الشيخ العارف داود بن ماخلا ﷺ : إذا مرت بك سحابة حقيقية غيبية فقف تحتها ، فهي إما أن تظلك وإما أن تبلك .

ومن علامة عدم حرية الرجل نقله قدمه حيث قاده هواه ، فاثبت على حسن قصدك لتحقق حصول مقصودك ، ومن دليل استقامة المؤمن شوقه لما ليس فيه هوى نفسه وخوفه ورجاؤه مما لا يلائم نفسه ، والمريد سيره بباطنه ، وظاهره تبع ، والعابد سيره بظاهره ، وباطنه تبع ، فالعابد يراقب أوراده ، والمريد يراقب وارداته .

وقال رضي الله تعالى عنه : ما تعلم العلماء العلم ليعصموا ، وإنما تعلموه ليرحموا ، وما تعلموا ليتحصنوا بعلمهم من الأقدار ، وإنما تعلموا ليفروا إلى الله تعالى باللجأ والافتقار .

وكان يقول : أحوال أهل المعرفة غريبة جدا ، فإنهم إن كانوا مع بشريتهم فحيتان في الماء ، وإن كانوا مع خصوصياتهم فطيور في هواءهم ، وإذا كانوا بوصف نفوسهم غرقى في بحار الدنيا ، وإن كانوا بوصف أرواحهم جوالون في أفق العالم الأعلى ، وكلما قلت الحيلة من المخلوقات كثر من الخالق التوفيق والإعانات ، وميزان الأنوار إلى قلوب المريدين صدق المحبة . انتهى .

وقال في « عوارف المعارف » : قال يحيى بن معاذ ﷺ وقد سئل عن وصف العارف فقال : رجل معهم بائن منهم .

وقال مرة : عبد كان فبان ، فأرباب النهايات هم عند الله تعالى بحقيقتهم موفقين بتوفيق الله تعالى الأجلّ ، جعلهم الله تعالى من جنوده في خلقه ، بهم يهدي وبهم يرشد وبهم يجذب أهل الإرادة ، كلامهم دواء ونظرهم شفاء ، ظاهرهم محفوظ بالحكم وباطنهم معمور بالعلم .

قال ذو النون ﷺ : علامة العارف ثلاثة : لا تطفئ نور معرفته نور ورعه ، ولا يعتقد باطنا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم ، ولا يحمله كثرة نعم الله تعالى وكرامته على هتك أستار محارم الله تعالى .

فأرباب النهايات كلما ازدادوا نعمة ازدادوا عبودية ، وكلما ازدادوا دنيا ازدادوا قربا ، وكلما ازدادوا جاها ورفعة ازدادوا تواضعا وذلة ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، وكلما تناولوا شهوة من شهوات النفوس استخرجت عنهم شكرا صافيا ، يتناولون الشهوات تارة رفقا بالنفوس لأنها معهم كالطفل الذي يلطف بالشيء ويهدى له شيء ، لأنه مقهور تحت السياسة ملطوف به ، وتارة يمنعون نفوسهم الشهوات تأسيا بالأنبياء واختيارهم التقلل من الشهوات الدنيوية . انتهى

وقال الإمام الغزالي ﷺ في « الإحياء » : إن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء ، فإذا جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف ، يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه ، فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض ، وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا ، إلا أنهم يتفاوتون في سعة متنزهاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم ، وهم درجات عند الله تعالى ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم .

فظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة أقوى عند ذوي الكمال من لذات الحواس كلها ، وأن هذه اللذة لا تكون لبهيمة ولا لصبي ولا لمعتوه ، وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوي الكمال مع لذة الرياسة ، ولكن يؤثرون الرياسة . انتهى .

وقال الشيخ ابن زروق ﷺ : المقصود موافقة الحق وإن كان موافقا للهوى ، حتى قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : إذا وافق الحق الهوى فذلك الشهد بالزبد ، وقد أغرق قوم في مخالفة النفوس حتى خالفوا الحق في طي ذلك .

ومنه استئذانهم في الواجب والضروري الذي لا يمكن انفكاكه وتركهم جملة من السنن لا بعينها مع ترك ما ألفو منها ، وهذا وإن كان مؤثرا في النفس فهو مشير للباطل وصائر بصاحبه لعكس القصد ، نسأل الله العافية .

ومما نقل عن بعض السادات أن بعض المريدين كان ينظر في وجه حضرة الخواجه ﷺ فقال له : لا تنظر إلينا فتضيع قلبك وتصير مجنونا ، يعني أن أنوار الحق الساطعة في وجهه الشريف لا يقدر على تحملها كل أحد ، كما أن الناظر إذا أحدق في عين الشمس تغرق بصره وضاع ، كذلك الناظر في وجه العارف إذا أحدق نظره كان سببا لضياع قلبه ، إلا أن يمده ذلك العارف بمدده ويعطيه من تلك الأنوار بحق استعداده اهـ .

وهذا دليل على كون حضرة بهاء الدين النقشبندي ﷺ قطب الوجود ، وذلك لما أن الظاهر من وصف القطب هو كالشمس المحرقة لا يطيق لصحبته وقربته أهل الظاهر وأيضا أثقل لأهل الباطن لشدة استغراقه إذ رباه الله تعالى بجلاله واحترق بتجليات الجلال ، فصار كالنار المحرقة كما ظهر من موسى عليه السلام آثار التجلي إلى ما شاء الله تعالى ويكون الخضر عليه السلام في خدمته لنظام أمره ، ومقامه مقام الاستغراق ، ومقام قطب الإرشاد فوقه في أمور الباطن ، لأنه صاحب التصرف ولا تصرف لقطب المدار ، إذ كل ما يظهر منه يظهر بلا اختيار كأنه كالآلة . كذا ذكره القطب غوث الأنام الذي صافحه رسول الله ﷺ أبو عبد الله محمود الفعال الألمالي ﷺ . وراجع ابن الفارض ٨٢ في حق قلب العارف . اهـ .

ولما كان الخواجه قطب الإرشاد مع كونه قطب الوجود باتفاق الأولياء الصالحين والسادات العارفين فاق من جميع الأولياء ولم يبق لأحد مجال للخروج من قوله ولا سبيل لتغيير كلامه ، فلزم على المرشدين والمريدين المسلسلين له العض بالنواجذ لكلامه واصطلاحه .

فمن أدخل برأيه خلاف رأي الخواجه - عياذا بالله - فهو مبتدع ضال ، ضلّ باتباع الهوى ، أعاذنا الله تعالى وإياكم من الخذلان الحاصل من الكدورات لحضرات جنابه وخلفائه القائمين على آدابه ، جعلنا الله تعالى في زمرة الصالحين آمين .

وقال الإمام الرباني ﷺ الرحماني في « مكتوباته » في ١٣٤ بما عبارته : وسئلت عن معنى القطب وقطب الأقطاب والغوث والخليقة وعن خدمة كل منهم ووظيفته وأنه هل لهم اطلاع على خدمتهم أم لا والبشارة بقطبية الأقطاب التي تجيء من عالم الغيب هل لها أصل أو هي من اختراع الخيال والوهم ؟

ينبغي أن يعلم أن كل اتباع نبي عليه وعليهم الصلاة والسلام إذا أتموا بالتبعية مقام النبوة يشرف بعضهم بمنصب الإمامة ، وبعضهم يكتفي بمجرد حصول ذلك الكمال ، وهذان المعظمان متساويان في نفس حصول ذلك الكمال ، وإنما التفاوت في حضور المنصب وعدمه ، وفي أمور تتعلق بذلك المنصب .

وإذا تم لأتباع الكمل كمالات الولاية بشرف بعضهم بمنصب الخلافة يكتفي بعضهم بمجرد حصول تلك الكمالات كما مر آنفا ، وكل من هذين المنصبين يتعلق بالكمالات الأصلية .

وأما في الكمالات الظلية فالمناسب لمنصب الإمامة ، يعني لأن يكون حذاءه وظله هو منصب قطب الإرشاد ، والمناسب لمنصب الخلافة منصب قطب المدار .

وكأنّ هذين المقامين التحتانيين ظلال ذينك المقامين الفوقانيين ، والغوث عند الشيخ محي الدين العربي ﷺ هو قطب المدار المذكور ، وليست الغوثية عنده منصبا على حدة وممتازة عن منصب القطبية .

وما هو معتقد الفقير أنّ الغوث غير قطب المدار ، بل هو ممده ومعاونه في أموره وشؤنه ، وقطب المدار يستمد منه في بعض الأمور ، وفي تعيين مناصب الأبدال ونصبهم له دخل أيضا .

ويقال للقطب باعتبار الأعوان والأنصار قطب الأقطاب أيضا ، لأن أعوان قطب الأقطاب وأنصاره حكام .

ومن هنا قال صاحب « الفتوحات المكية » : ما من قرية مؤمنة كانت أو كافرة إلا وفيها قطب .

واعلم أن صاحب المنصب صاحب علم البتة ، وأمّا الذي فيه كمال ذلك المنصب دون نفس المنصب فلا يلزم كونه من أرباب العلم وكونه مطلعا على خدماته .

والبشارة التي تصل من عالم الغيب هي بشارة حصول كمالات ذلك المقام ، لا بشارة حصول منصب ذلك المقام التي هي منوطة بالعلم . انتهى وراجع « العقد النفيس » ٢١٨ في قوله : أخفى الله ثلاثة الخ .

وقال مولانا وشيخ مشائخنا شاه غلام علي الدهلوي ﷺ : إن الأولياء على ثلاثة أقسام : أرباب الكشف والعرفان ، وأرباب الإدراك والوجدان ، وأرباب الجهل والنكران ، يعني بالأحوال الحاصلة والعرفان .

وقال : إن العقل النوراني ما يدل على المقصود من غير دلالة أحد ، والظلماني ما يسلك الطريق بمصباح هداية المرشد .

وقال : ينبغي للطالب أن لا يغفل عن المطلوب لحظة ، ذكره في « التعريب » لشيخنا محمد مراد المنزلوي ونفسي فداه .

وقال الشيخ أحمد سعيد الفاروقي ﷺ : قباب أهل الله تعالى صفاتهم البشرية ، يحتاجون إلى ما يحتاج إليه الناس ، فالولاية لا تخرجهم من الاحتياج ، والحقّ سبحانه سترهم بوجه لا يدرك ظاهرهم كمالات باطنهم ، فكيف يدرك ما عداهم ، فباطنهم رحمة الله و ماء حياة ، من شربه حيّ بحياة أبدية ، وظاهرهم نقمة من نظر إليه حرم من بركاتهم السنية ، فهم كنيل مصر ، ماء للمحبوبين وبلاء للمحجوبين اهـ .

قال العارف بالله ابن عباد النفزي رحمه الله تعالى في « شرح الحكم » : أمّا العارفون الموحدون فإنهم على بساط القرب والمشاهدة ، ناظرون إلى

ربهم فانون عن أنفسهم ، فإذا وقعوا في زلة أو أصابتهم غفلة شهدوا تصريف الحق تعالى لهم وجريان قضائه عليهم ، كما أنهم إذا صدرت عنهم طاعة أو لاح عليهم لائح من يقظة لم يشهدوا في ذلك أنفسهم ولم يروا فيها حولهم ولا قوتهم ، لأن السابق إلى قلوبهم ذكر ربهم ، فأنفسهم مطمئنة تحت جريان أقداره ، وقلوبهم ساكنة بما لاح لها من أنواره ، ولا فرق عندهم بين الحالين ، لأنهم غرقى في بحار التوحيد ، قد استوى خوفهم ورجاؤهم ، فلا ينقص من خوفهم ما يجتنبونه من العصيان ، ولا يزيد في رجائهم ما يأتون به من الإحسان .

قال شارح « المجالس » : العارفون قائمون بالله تعالى قد تولى الله تعالى أمرهم ، فإذا ظهرت منهم طاعة لم يرجو عليها ثوابا ، لأنهم لم يروا أنفسهم عمّالا لها ، وإن ظهرت منهم زلّة فالدية على القاتل ، لم يشاهدوا غيره في الشدة والرخاء ، قيامهم بالله ونظرهم إليه وخوفهم هيبته ورجاؤهم الأنس به اهـ .

وأما غيرهم فبقوا مع نفوسم في نسبة الأعمال والأفعال إليها ، وطلبوا الحظ لها وعليها ، فاعتمدوا على أعمالهم وسكنوا إلى أحوالهم ، وإذا وقعوا في زلة نقص بذلك رجاؤهم ، كما أنهم إذا عملوا طاعة جعلوها من أعظم عددهم وأقوى معتمدهم ، فتعلقوا بالأسباب وحجبوا بتفرقهم بها عن رب الأرباب ، فمن وجد هذه العلامة في نفسه فليعرف منزلته وقدره ولا يتعد طوره فيدَّعيَ مقامات الخاصة من المقربين ، وإنما هو من عامة أصحاب اليمين الخ .

فالاعتماد على فضله سبحانه وكرمه أولى إن كان حرا عاقلا من الاعتماد على الأفعال المدخولة والصفات المعلولة ، لأن مقابلة فضله وكرمه بأفعالنا من قلة معرفتنا بالكريم المتفضل .

ولذلك قال ابن عطاء الله ﷺ : من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل ، والله أعلم .

ومما نقل في « نوادر الأصول » بالنقل الصحيح أن رسول الله ﷺ قال ما معناه : إن الصديقين من أمتي لهم مرتبة خلافة الأنبياء ، يدعون إلى ما يدعوا إليه النبي ﷺ .

وقال أبو يزيد رضي الله عنه : آخر نهاية الصديقين أول أحوال الأنبياء .

ومن كلمات حضرة الخواجه القدسية : نهاية مقام عامة المؤمنين بداية مقام الأولياء ، ونهاية مقام الأولياء بداية مقام الشهداء ، ونهاية مقام الشهداء بداية مقام الأنبياء ، ونهاية مقام الأنبياء بداية مقام الرسل ، ونهاية مقام الرسل بداية مقام المصطفى ﷺ ، ومقام المصطفى ﷺ لا يعلمه شخص ، وفي الأول مقامات أرواحهم كذلك وفي يوم الميثاق كذلك ، هم على هذه المراتب المذكورة كانوا ، وفي القيامة أيضا يكونون على هذه المراتب وأسرارهم في محبة الحق تكون على هذه المراتب .

وفي كتاب « ختم الولاية » للإمام خواجه محمد الحكيم الترمذي قدس الله روحه أورد في آية ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ أن ابن عباس رضي الله عنهما قرأ « ولا محدّث أيضا » ، وفيه إشارة إلى أن بعض أولياء الله تعالى كذلك من طريق الإلهام يقع لهم محادثة وخطاب من جانب الحق تعالى ، يعرف ذلك إن وصل ذلك المقام .

وفي « نوادر الأصول » في شأن هذا الصنف من الأولياء : ولما صفت عقول المحدثين وطهرت قلوبهم وتنزهت من الآفات والشهوات والعلائق كلموا على القلوب ، فإذا كان الكلام على الأرواح في المنام جزءا من ستة وأربعين جزأ من النبوة ، فلهذا كان على القلوب في اليقظة كثيرا وربما كان ثلث النبوة ، وربما كان نصفها ، وربما كان أكثر على قدر قرب القلوب من ربها في تلك المجالس والخلوات . انتهى ما قاله خواجه بهاء الدين النقشبندي قدس سره .

وقال صاحب « الحكم » ابن عطاء الله وشارحه النفري قدس سره : **مما يدلك على وجود قهره سبحانه وتعالى أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه ،**

اتفقت مقالات العارفين والمحقيقين وإشاراتهم ومواجيدهم على ما ذكرناه قبيل هذا من أن ما سوى الله تعالى عدم محض من حيث ذاته لا يوصف بوجود مع الله تعالى ، إذ لو وصف به لكان ذلك شركة وإثنينية ، وهو مناقض لإخلاص التوحيد ، قال الله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « أصدق كلمة قالها الشاعر : ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل » .

قال بعض العارفين : أبى المحققون أن يشهدوا غير الله تعالى لما حققهم به من شهود القيومية وإحاطة الديمومية .

و قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : إننا لننظر إلى الله تعالى ببصر الإيمان والإيقان ، فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان ، ونستدل به على الخلق هل في الوجود شيء سوى الواحد الحق فلا نراهم ، وإن كان ولا بدّ فنراهم كالهباء في الهواء ، إن فتشتهم لم تجدهم شيئا .

وقال ابن عطاء الله قدس سره في « تنوير الصدر » : فما سوى الله تعالى عند أهل المعرفة لا يوصف بوجود ولا فقد ، **إذ لا يوجد معه غيره لثبوت أحديته** ، ولا **فقد لغيره لأنّه لا يفقد إلا ما وجد** ، ولو انهتك حجاب الوهم لوقع العيان على فقد الأعيان ولأشرق نور الإيقان فغطى وجود الأكوان اهـ .

واعلم أيها الأعز أن من تحقق بأحوال العارفين كانت أحوال أهل الجنة له نقدا عاجلا .

قال أبو يزيد رضي الله عنه : إذا أعطاك حلاوة من ذكره فماذا تريد بالجنة ؟ ! وقال في كلام آخر : رأيت أعظم شيء مما يعذبني الله تعالى به ، **فلم أجد أشد عذابا من الغفلة** .

فادخل يا أخي جنة العارفين بدوام حضورك ، واقطع العلائق وتبتل إلى مولاك في بطونك وظهورك ، وقد ورد **أن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة لا يتحسرون إلاّ على ساعة مرت لهم في الدنيا بغير ذكر الله تعالى** .

فاحرص على هذه الحالة التي إذا دخل أهل الجنة الجنة لا يتحسرون إلاّ عليها ، وأنفق أوقاتك وأنفاسك فيها ، ذكره الشيخ ابن علان ﵁ في شرحه اهـ . « ابن بنت ميلق » ١٥ .

وذكر في « اليواقيت » : سمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : الكامل من الأولياء هو من مات عن التصريف والتدبير اكتفاء بفعل الله تعالى له ، فيسرق الناس ماله حال حياته ويسرقون ستره وشمعه بعد مماته ، فلا يقابل أحدا بسوء ، بخلاف الولي الناقص ، كل من تعرض له عطبه ، وذلك علامة على بقايا بخل عنده . ومن شرط الكامل الكرم حيا وميتا . انتهى من ١١٧ .

وقال أيضا : وقد ذكر الشيخ أيضا في الباب الحادي والسبعين : ثم اعلم أن فتوة أولياء الله تعالى إذا أذن لهم في الشفاعة أن يبدؤا بالشفاعة فيمن آذاهم في دار الدنيا ورماهم بالكفر والزندقة والرياء والنقائص ، وذلك ليزيلوا عنه الخجل حين يرى مقام أولياء الله تعالى في الآخرة عند الله تعالى من التقريب وإجابة السؤال ، وقد كان في دار الدنيا يجهل ذلك ، وهناك تطمئن نفوس المنكرين ويزول منهم الخوف الذي حصل لهم من أولياء الله تعالى في ذلك اليوم العظيم .

قال : وإنما لم يبدأ الأولياء بالشفاعة فيمن أحسن إليهم واعتقدهم في دار الدنيا ، لأن المحسن مطمئن بما قدم من الإحسان ، فعين إحسانه يكفيه ويكون شفيعا له عند الله تعالى ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان . انتهى

وكان سيدي علي الخواص رحمه الله تعالى يقول : لا يكمل الفقير حتى يسأل الله تعالى العفو والصفح في دار الدنيا عن كل من سبّه أو ذمّه أو أنكر عليه ، ليوافي القيامة مغفورا له ولا يحصل له خجل ولا خوف ممن سبّهم أو

أنكر عليهم من أهل الله ﷻ ، ولهذا المقام حلاوة يجدها العبد وانشراح عكس من ينتقم ممن آذاه أو أنكر عليه والله أعلم . اهـ من « يواقيت »١٩٢ .

وقال الإمام القشيري ﷺ : المعرفة صفة من عرف الله تعالى بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله تعالى في معاملته ، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه ، فحظِي من الله تعالى بجميل إقباله وصدق في جميع أحواله وانقطع عن هواجس نفسه ولم يصغِ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره .

فإذا صار من الخلق أجنبيا ومن آفات نفسه بريا ومن المساكنات والملاحظات نقيا ودام في السر مع الله تعالى مناجاته وحق في كل لحظة إلى الله تعالى رجوعه وصار محدَّثا من قبل الحق سبحانه وتعالى بتعريف أسراره فيما يجري من تصاريف أقداره ، سمي عند ذلك عارفا وتسمى حالته معرفة ، فبمقدار أجنبيته من نفسه تحصل معرفته بربه ﷻ . « تقريب الأصول » في ٥ .

وقال شيخ شيخنا ﷺ : وأما المعرفة فهي ما قطعك عن غير الله تعالى وردّك إلى الله تعالى ، وخصلتان يسهلان الطرق إلى الله تعالى المعرفة والمحبة ، **حبك الشيء يعمي ويصم عن غيره** ، واعرف الله تعالى ثم استرزقه من حيث شئت غير مكِبٍّ على حرام ولا راغب في حلال ، وانصح الله تعالى في عباده ولا تخنه في أمانته ، واعبد الله تعالى باليقين تكن إماما من أئمة الدين ، وانتقل عن علم الجهلة إلى الجهل تكن من الوارثين ، ولك أسوة من المرسلين ومتحقق من النبيين .

ومن نسب وأضاف وأحب أو أبغض أو تحبب أو تقرب أو خاف أو رجا أو سكن أو أمن لشيء أو بشيء غير الله تعالى أو تعدى حدا من حدود الله تعالى فهو ظالم ، والظالم لا يكون إماما ، قال الله تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ومن صدق الله في نفسه فهو إمام قلّت روايته أو كثرت ، ومن كان إماما فلا تضره أن يكون أمة واحدة وإن قلّت أتباعه ، وقيل : حقيقة المعرفة الغنى بالله تعالى عن جميع الأنام « جامع الأصول » ٤٦ .

وذكر في « تقريب الأصول » ٥٣ قال الشيخ الكبير داود بن ماخلا رضي الله عنه : لولا أن الله تعالى قيد الأرواح بقيدين ثقيلين لطارت إلى الله تعالى طيرانا .

قال الشعراني رضي الله عنه : المراد بالقيدين الأمر والنهي ، وكان رضي الله عنه يقول : قلب العارفين يكتب وقلب المريدين يكتب فيه وقلب الغافلين لا يكتب ولا يكتب فيه .

وكان يقول : إذا بدت لك الحقائق كان علما ، وإذا بدت فيك كان كشفا ، والعالم الرباني في الوجود كالقلب والوجود له كالجوف ، وما جعل الله تعالى لرجل من قلبين في جوفه ، ولو أن المدد الحقيقي ورد في هذا العالم من عارفين على السواء لسرى في قلوب الآخذين وجود الشرك الخفي .

قال الشعراني قدس سره : مراده أن الرتبة في كل عصر لواحد في نفس الأمر ، والزائد أعوان له والله أعلم . ومراده بالواحد القطب الغوث ، والله تعالى أعلم .

وكان رضي الله عنه يقول : لو كشف للعبد المؤمن أو العارف على ما في طي قلبه لأشرقت منه الأكوان .

وكان رضي الله عنه يقول : لا بد أن يجلس العارفون في الجنة ويحدثوا الناس حديثا فوق هذا من حديث الجنة وعملها وأدبها . اهـ . « تقريب الأصول » ٥٢ .

وكان يقول : لولا روح الحقائق ماتت الخلائق .

وكان يقول : لا بد للعارف من التنزل من عليّ همته إلى درجة مريده ليربّيه .

وكان يقول : لو لم يصبح واحد الزمان يتوجه في أمر الخلائق من البشر لفجأهم أمر الله عز وجل فأهلكهم .

قال بعض العارفين : وكأنه يعني بواحد الزمان القطب الغوث ، والله أعلم . « تقريب الأصول » ٥٣ .

وكان داود بن ماخلا ﷺ يقول : العابد يُسلم في عمره مرة والمريد يُسلم في عمره كذا وكذا مرة .

وأتباع كل طائفة يأخذون بلإيمان ، وأتباع هذه الطائفة يأخذون بالعيان . والعارف لا قلب له يعيش به لأنه بربه لا بقلبه .

وكان بعض العارفين يقول : عاش من لا قلب له .

وأنشدوا :

يقولون لَوْ عَزَّيْتَ قَلْبِكَ لَارْعَوى   فَقُلْتُ : وَهَلْ لِلْعارِفينَ قُلُوبُ

« تقريب الأصول » ٥٢ .

و قال في « الحكم العطائية » : مطلب العارفين من الله تعالى إنما هو الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية ، مطلب العارفين من ربهم أعلى من مطالب غيرهم ، سواء كانوا عبادا أو زهادا أو علماء ، لأن مطلب العارفين من ربهم إنما هو الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية فقط من غير مراعاة حظ ولا بقاء مع نفس ، وكل من عداهم لم يفارقوا الحظوظ والأغراض في مطالبهم ، وقد تقدم من كلام المؤلف رحمه الله تعالى : خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك .

وقال سيدي أبو مدين ﷺ : شتان ما بين من همّته الحور والقصور وبين من همته رفع الستور ودوام الحضور . اهـ صـ ٦٢ من « شرح الحكم »

خاتمة في بيان العارف بالله تعالى وصفاته

ذكر الشيخ محي الدين ﷺ في الباب السابع والسبعين ومائة أن العارف عند طائفة الصوفية هو من أشعر قلبه الهيبة والسكينة وعدم العلاقة الصارفة عن شهود الحق تعالى ، وإذا ذكر الله تعالى واستولى عليه الذكر يغيب عن الأكوان ، يهابه كل ناظر ، هو مع الله تعالى بلا وصل ولا فصل ، كثير الحياء ،

في قلبه التعظيم ، يقدم حق الحق تعالى على حظوظ نفسه ، بطنه جائع وبدنه عار ، لا يأسف قط على شيء لكونه لا يرى غير الله تعالى ، طيار مدى الدهر ، تبكي عينه ويضحك قلبه[1] ، هو كالأرض يطأه البر والفاجر وكالسحاب يظل كل شيء وكالمطر يسقي ما يجب وما لا يجب لا يقضي مطره قط من شيء وذلك ليدوم افتقاره إلى الله تعالى ذوقا ، شأنه الفقر والذل بين يدي الله تعالى ، يفتح له في فراشه كما يفتح له في صلاته ، وإن اختلفت الواردات بحسب المواطن وأطال في ذلك .

ثم قال : وأما صفة العارف عندنا وعند غيرنا من المحققين فهو أن يكون قائما بالحق في جمعيته ، نافذ الهمة ، مؤثرا في الوجود على الإطلاق من غير تقييد ، لكن على الميزان المعلوم عند أهل الله تعالى ، جهول النعت والصفة عند جميع العالم من بشر وجن وملك وحيوان ، لا يعرف مقامه فيجد ولا يفارق العادة فيتميز ، هو خامل الذكر مستور المقام عامّ الشفقة على خلق الله تعالى ، عارف بإرادة الحق تعالى قبل ظهور المراد ، فيريد بإرادة الحق لا ينازع ولا يقاوم ولا يقع في الوجود ما لا يريده ، شديد في لين ، يعلم مكارم الأخلاق من سفسافها فينزلها منازلها مع أهلها تنزيل حكيم ، يتبرأ ممن تبرأ الله تعالى منه ، يحسن إليه مع البرآة منه ، يشاهد لتسبيح المخلوقات كلها على تنوعات أذكارها ، لا يظهر إلا لعارف مثله .

وأطال في ذلك ثم قال : وقد اختلف أصحابنا في مقام المعرفة ومقام العلم ، فقالت طائفة : مقام المعرفة رباني ومقام العلم إلهي ، قال : وبه أقول ووافقني على ذلك المحققون كسهل بن عبد الله التستري وأبي يزيد وابن العريف وأبي مدين قدس الله أسرارهم ، وطائفة قالت : مقام المعرفة إلهي ومقام العلم كذلك ، وبه أقول أيضا ، فإنهم إن أرادوا بالعلم ما أردنا بالمعرفة ، وأرادوا بالمعرفة ما أردناه بالعلم فالخلاف فيه لفظي ، وعمدتنا قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ فسماهم

« ١ » بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه عز وجل يفرح قلبه .

عارفين وعلماء ، ثم ذكر قولهم فقال : ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ ولم يقل : يقولون « إلهنا آمنا » ولا « علمنا » ولا « شهدنا » .

وقد علمت من جميع ما قررناه في هذا المبحث أن طريق المعرفة بالله تعالى عند القوم إنما هو الكشف لا الظن المبني على الفكر« ١ » ، وتأمل قوله تعالى : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ كأنه تعالى يقول : ما حذرناكم من النظر في ذات الله تعالى إلا رحمة بكم وشفقة عليكم لما نعلم ما تعطيه القوة المفكرة للعقل من نفي ما أثبته على ألسنة رسلي من صفاتي فتردونها بأدلتكم العقلية فتحرمون الإيمان بها فتشقون شقاء الأبد .

ولذا اختلفت مقالات أهل النظر في الله تعالى ، وتكلم كل بما اقتضاه نظره ، فنفى واحد عين ما أثبته الآخر ، وما اجتمعوا على أمر واحد في الله تعالى من حيث النظر في ذاته ، وعصوا رسله بما تكلموا به مما نهاهم الله تعالى عنه نهي شفقة ورحمة بهم ، فرغبوا عن رحمة الله تعالى وضل سعيهم .

فاثبت يا أخي على اعتقاد كل ما جاءتك به الشريعة تسلم فهمته أو لم تفهمه ، فإنه تعالى أعلم بنفسه وأصدق في قوله ، والله تعالى أعلم « يواقيت » ٥٨ .

« ١ » كما في « اليواقيت » ج ١ ، ص ٨٧ – ٨٨ .

فصل

في التوكل واقوال السادات فيها وفي الصدق واليقين وكونهم مع الأسباب والزهد وقبول الهدايا وأمثالها والتفويض والاستسلام

وقال الشيخ الكبير محفوظ بن محمود النيسابوري رضي الله عنه : التوكل أن يأكل العبد بلا طمع ولا شره « نفحات » في ١٨٢ ، وقال الشاذلي قدس سره : حقيقة التوكل أن تدع التدبير من خُلُقِك ، وقيل : حقيقته نسيان كل شيء سواه ، وسره وجود الحق دون كل شيء يلقاه ، وسر سره ملك وتمليك لما يحبه ويرضاه ، وحق التوكل صرف القلب عن كل ما سوى الله تعالى ، وكتب بعضهم إثباتا للأسباب بمقتضى الحكمة الإلهية و هذا تحقيق التوكل وأعلى درجاته ما نصه : إنما كان هذ المقام لأن فيه القيام بالعبودية ، والقيام بالعبودية أتم فيه حيث راعى صاحبه الحكمة التي اقتضتها إرادة الله تعالى مع اعتقاده أن السبب لا تأثير له والمؤثر هو الله تعالى وحده ، وأما المقام الثاني الذي يقطع صاحبه النظر عن الأسباب ، فصاحبه لم يراع الحكمة التي اقتضتها إرادة الله تعالى في وضع الأسباب التي أجرى العادة بحصول الشيء عندها لا بها ، فلم تتم العبودية لصاحب هذا المقام لأنه يريد أن الله تعالى يخرق له العادة ويبطل تلك الحكمة ، فهو وإن كان سكونه إلى الله تعالى ، لكن عبوديته لم تكمل ، ولهذا كان المقام الذي صار لمريم بعد كمالها وخوطبت فيه بقوله تعالى ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ أتم وأكمل وأعلى من المقام الأول الذي كان لها قبل الكمال الذي أشير إليه بقوله تعالى ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗا﴾ .

لكن يشترط لمن يتلبس بالمقام الأعلى أن لا يتعمق في الأسباب ، بل يتعاطى الأسباب الخفيفة التي أجرى الله تعالى العادة يقينا أوظنا عند حصولها أنه يوجد الشيء عندها لا بها مع كمال وثوقه بالله تعالى واعتقاد أن لا مؤثر سواه ، ويتبرأ من حول نفسه وقوته ، فهذا أكمل في العبودية من كون العبد

يريد أن يخرق الله تعالى له العادة ويوجد له الشيء بلا تعاطي سبب وكذا التعمق في الأسباب ، فإنه مناف لمقام العبودية ، بل مناف للتوكل ، كما حققه الإمام الغزالي ﷺ في « الإحياء » اهـ .

وذلك أن الإمام الغزالي ﷺ في « الإحياء » قسم الأسباب في كتاب التوكل إلى سبب مقطوع به ومظنون وموهوم ، وقال : إن تعاطي السبب المقطوع به والمظنون لا ينافي التوكل ، بشرط اعتقاد عدم التأثير مع اعتقاد أن المؤثر هو الله تعالى وحده ، وأما تعاطي السبب الموهوم حصول الشيء عنده فإنه مناف للتوكل .

قال : فالمقطوع به مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله تعالى ومشيته ارتباطا مطردا لا يتخلف ، كما إذا كان الطعام موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج إليه ، ولكنك لست تمد يدك إليه وتقول : أنا متوكل ، وشرط التوكل ترك السعي ، ومد اليد إليه سعي وحركة ، وكذا مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعالي الحنك على أسافله فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء .

وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت في أن الله تعالى يخلق نباتا من غير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وقاع . فكل ذلك جنون .

فالتوكل في أمثال ذلك تعاطي تلك الأسباب ، مع العلم بأن الله تعالى خالق للطعام واليد وغير ذلك ، وخالق للشبع عند أكل الطعام ، لا أن الطعام هو المشبع ، فيكون سكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى .

الرتبة الثانية الأسباب التي ليست متيقنة ، ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل بدونها ، كحمل الزاد في السفر مع الاعتماد على الله تعالى ، لا على الزاد .

الرتبة الثالثة ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة ، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في طلب الاكتساب

ووجوهه ، فترك الموهوم منها من شرط التوكل ، وهي التي نسبتها إلى دفع الضر نسبة الكيّ والرقية ، انتهى ما قاله السيد أحمد زيني ﵀ في « تقريب الأصول »« ١ » .

وقال قطب الطريقة النقشبندية ﵀ : الكاسب حبيب الله تعالى ، إشارة إلى كسب الرضا لا إلى كسب الدنيا ، وقال ﵀ : كل من سلّم نفسه للحق سبحانه وفوّض أمره إليه تعالى فالتجاؤه لغير الحق شرك فهو معفو من أهل العموم وأما أهل الخصوص فغير معفو عنهم .

وقال ﵀ : ينبغي للمتوكل أن لا يرى نفسه متوكلا ويخفي توكله في الكسب .

والتـــوكـــل هو الاكتفاء بعلم الله تعالى فيك عن تعلق قلبك بسواه ، فإذا علمت أن الله تعالى عالم بحالك ، قادر على كفايتك ، أرحم بك من أبيك وأمك بل ومنك ، انجمع قلبك عليه ولم تتوجه بقلبك إلا إليه ، ولم تنطرح إلا بين يديه وذلك من أعظم ما يحتاج إليه السالك في سلوكه ، واحتياجه إليه أشد من احتياج الظمآن إلى الماء .

وأما اليقين فالمراد منه الاعتقاد الجازم بأن ما أخبر الله تعالى به ورسوله ﷺ حق لا شك فيه ، على وجه يستولي ذلك على قلب السالك ويصير له كالعيان ، فتعلم حالا وذوقا أن الله تعالى ما خلق سائر الجن والإنس إلا ليعبدوه .

فلم يخلق لك الحواس إلا لتصرفها في الطاعة ، ولم يخلق لك القلب إلا لتجعله موضعا لذكره والفكر فيما يوصلك إليه ويقربك منه وأن لا تشغله بسواه ، فمن حصل له اليقين الذوقي على هذا الأسلوب لم يصرف اللسان إلا في ذكره ، ولم يصرف الأذن إلا في استماع كلامه وكلام رسوله وكلام أوليائه وكل شيء يوصله إلى مولاه ، ولا يصرف بصره إلا فيما ينفعه ويرشده إلى طريقه .

« ١ » راجع « العقد » في التوكل ١٥٩ ، و« رماح » في ٤٢ ج١ ، و « تنوير » في ٥٧ , وفي ٢٧ ، وفي ٥٣ ، و « يواقيت » في ١٩٧ ج ، و« سهلي » في ٣١ ، وفي ٣٢٩ ، وفي ٤٩ ، وفي ٦٩ ، في قوله ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ في المواضع تفصيل التوكل ، فراجعها .

وهكذا يحاسب نفسه في جميع النعم التي أنعم بها عليه مولاه ، حتى يحوز مقام الشكر الذي هو صرف العبد جميع ما أنعم الله تعالى به عليه فيما خلق لأجله ، فيستوجب المزيد كما قال تعالى : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ .

وأصل ذلك كله التحقيق بمقام اليقين ومعرفة أن الله تعالى مطلع عليه في كل وقت ، فالحق سبحانه وتعالى مطلع على السرائر والظواهر في كل نفس وحال ، فأيما قلب رآه[1] مؤثرا له حفظه من طوارق المحن ومضلات الفتن ، وهذا المقام قطب دائرة أهل الطريق . . الخ .

ثبتنا الله تعالى وإياكم بالقول الثابت وهدانا إلى الصراط المستقيم آمين .

وقال الشيخ أحمد بن علان ﷺ : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ الآية ، أي كافيه وناصره .

وحقيقة التوكل كما قال إبراهيم الخواص رضي الله عنه أن تكتفي بعلم الله تعالى عن تعلق القلب بما سواه ؟ ! وصاحب هذا المقام لا يلتفت في نصرته إلى زيد ولا إلى عمرو ولا إلى أحد من الخلق ولا إلى نفسه وحوله وقوته ، لأن الكل سواء ، وهو لا يعرج على غير المولى .

قيل لأبي يزيد رضي الله عنه : فوّض أمرك إلى الله تعالى فقال : ليس لي أمر فأفوضه إليه وفرقان بين الأمر من الله سبحانه وتعالى وبين الأمر من العبد « عقد » ٥٨

وما أحسن ما قال في هذا المعنى :

أنا لا أعْرِفُ إلا أنْتُــــمُ   فَاجْبُروني بِعَطآءٍ مِنْكُمُ
كُلُّ شَخْصٍ وَعَــــزيـزٍ   لَيْـــــــسَ إلا أنْتُــــمُ

واسمع ما قال الله تعالى في كتابه العزيز تحقيقا لهذا المعنى : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ .

« ١ » أي الحق تعالى .

وكذلك المشائخ الكمل إذا قيل لهم إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فينقلبون بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، ينصرهم الله تعالى على يدك أيها الطالب أو على يد غيرك ، والسعيد من أسعده بخدمتهم ووفّقه لنصرهم ومحبتهم .

وإذا سَخَّرَ الإلهُ أناساً لِسَعيدٍ فَإِنَّهُمْ سُعَـداءُ

انتهى

وذكر القطب الشعراني ﷺ في « اليواقيت » ما لفظه : **خاتمة في بيان أن** الاكتساب لا ينافي التوكل .

ولا ينبغي نصب خلاف في أن السعي أفضل من التوكل على هذا ، لأن الحق تعالى جعل الرزق على حالين ، فما سبق في علم الله تعالى أنه يأتيك محمولا بلا سعي لا يقال فيه أن السعي أفضل ، وما سبق في علم الله تعالى أنه لا يأتيك إلا بالسعي في تحصيله لا يقال فيه ترك السعي أفضل ، فإن الرزق في طلب صاحبه دائر ، والمرزوق في طلب رزقه حائر ، وبسكون أحدهما يتحرك الآخر ، ولكن هذا الحال يحتاج إلى كشف ، ومن لا كشف عنده فهو مخير بين السعي وعدمه ، وغالب الخلق يقولون كل شيء رأيناه يحتمل أن يكون قسم لنا ، فتراهم يتجاذبونه ، وكل من غلب صاحبه تبين أنه له كالزقاق الذي يدخله الجاهل ، فإن رآه ينفذ خرج منه ، وإن رآه مسدودا رجع .

ثم ما قررناه أولا هو على مذهب المحققين من الصوفية ، وأما على مذهب المتكلمين فرجح قوم التوكل مطلقا وآخرون الاكتساب مطلقا .

قال ابن السبكي ﷺ : والمختار أن ذلك يختلف باختلاف الناس ، فمن كان في توكله خاليا من التسخط إذا ضاق رزقه ، ولا تتطلع نفسه إلى ما في أيدي الناس ، فالتوكل في حقه أرجح لما فيه من الصبر والمجاهدة للنفس ، ومن كان في توكله على خلاف ما ذكرنا ، فالاكتساب في حقه أرجح من التسخط والتطلع .

وقد سئل حسن البصري رضي الله عنه عن شخص يريد أن يجلس في بيته تاركا للحرفة ولا يخرج ويقول : أنا متوكل على الله تعالى ، فقال : إن كان له يقين كيقين إبراهيم عليه السلام فليفعل ، وإلا فليخرج إلى الحرفة لئلا يصير يأكل بدينه وزهده ويصطاد بهما الدنيا . انتهى

وقال الشيخ محي الدين قدس سره في باب الجنائز من « الفتوحات » : اعلم أن اضطراب قلب المؤمن في أمر رزقه لا يقدح في أصل إيمانه ، وإنما يقدح في كماله فقط ، وذلك لأن هذا الاضطراب ما هو عن تهمة في حق الله تعالى في أن الله تعالى لا يرزقه ولا بد من حيث كونه حيوانا ، ولكن لم يُعْلِمْه الحق متى يرزقه ، إنما أعلمه أنه لا يموت حتى يستكمل رزقه ، فما يدري عند فقد السبب الجالب للرزق هل فرغ وجاء أجله فيكون فزعه من الموت ، أم رزقه لم يفرغ في علم الله فيكون اضطرابه لجهله بوقت حصول الرزق بانقطاع السبب ، فيخاف من ألم الجزع المتوقع أو من دوامه إن كان وقع ، فهذا سبب الاضطراب . انتهى

وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : قد يدعي بعض الناس التوكل ويسعى كل السعي ، وإن لامه أحد على ذلك يقول : سعيي لأجل العيال ، لا لأجل نفسي ، فمثل هذا يجب عليه أن يمتحن نفسه بأن يفرق جميع ما يكتبسه على العيال أولا فأولا ولا يدخر لنفسه منه شيئا وينظر ، فإن وجد في نفسه رائحة اضطراب فليعلم أنه غير متوكل على الله ، وإنما هو مدع كذاب ، فإن القوم ما سعوا في الرزق إلا امتثالا لأمر الله تعالى حتى لا تتعطل الأسباب ، فهمتهم امتثال الأمر ، لا الاعتماد على الأسباب والله أعلم . انتهى « يواقيت » ١٩٨ .

وفي « تعريب » مولانا محمد مراد المنزلوي رحمه الله تعالى ما نصه : كان شيخ مشائخه« ١ » قدس سره موصوفا بكمال الزهد والتوكل ، وكان له استغناء تام عن الدنيا وأهلها ، وكان لا يقبل هداياهم إلا قليلا ، وكان يقول : وإن ورد

« ١ » مشائخه حبيب الله مرزا جان جانان قدس سره .

المنعِ عن رد الهدية ولكن لم يرد الأمر بوجوب أخذها أيضا ، وما هو يقين الحِليَّة فأخذه بركة ، فإن جاء أحد من أصحابي بشيء من الهدايا على وجه الإخلاص والاحتياط فأقبله ، وأما هدايا الأمراء والأغنياء فلا يخلو أكثرها من شبهة تعلق حقوق الناس بها ، وما هو كذلك يعسر الخروج عن عهدة حسابه يوم الحساب لما ورد في « سنن الترمذي » : « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه وعن علمه فيما فعل وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه » فالتأمل في أخذ الهدايا ضروري .

قيل : كان ﷺ مرة في أيام شدة البرد مرتديا برداء خَلِق فقط ، وكان النواب خان فيروز جنك حاضرا فيه ففاضت عيناه بالدموع من مشاهدة هذا الحال ، وقال لواحد من مصاحبيه : ما أسوأ إقبالنا وما أبعدنا من السعادة حيث أن وليا من أولياء الله تعالى قد ثبت انتسابنا إليه ، ومع ذلك لا يقبل هديتنا ، فقال له حضرة مولانا : إني نويت الصوم من قبول هدية الأغنياء ، وقد حان الآن وقت غروب شمس العمر ، فإن أفسدت صومي يلزم علي لكفارته عشرة كرونكه من الروبلة« ١ » ، وكان يقل من أكل طعامهم أيضا قائلا بأن ظلمة طعامهم تكدر نسبة الباطن ، ولهذا قيل : شر الطعام طعام الأغنياء . ذكره في « التعريب » .

وقال الشيخ عبد الله الملقب بشاه غلام علي الدهلوي ﷺ : لا بد في هذه الطريقة من أربعة أشياء : اليد المكسورة والرجل المكسورة والدين الصحيح واليقين الصريح ، فاليد المكسورة أن لا تمدها إلى الأغيار بالسؤال ، والرجل المكسورة أن لا تذهب بها إلى باب الأغنياء تاركا باب المولى المتعال ، والدين الصحيح ما لا ينقص من آدابه شيء ، واليقين الصريح ما لا يعتريه شك .

وقال الشاذلي رضي الله عنه : حقيقة الصدق موافقة الحق في السر والعلانية ، وحقيقة الإخلاص نسيان كل مذكور سوى المعبود .

« ١ » لكوك من الروبية كذا في الأصل .

فحاصل المطلوب أن من يريد الوقوف على باب مولاه وتمنى أن يفتح له باب القرب ورجاه ، فعليه أن يحفظ حواسه من كل ما فيه الاشتباه ، ويصون نفسه عن الحرام والشبهة ليتنور بالتصفية باطنه ، ويوافق بورعه سره وعلانيته ، لما أن آكل الحرام والشبهة مطرود عن الباب بغير شبهة .

ألا ترى أن الجنب ممنوع عن دخول بيته ، والمحدث يحرم عليه مس كتابه مع أن الجنابة والحدث أثران مباحان ، فكيف بمن هو منغمس في قذر الحرام وخبث الشهوات ؟ ! لا جرم أنه أيضا مطرود عن ساحة القرب ، غير مأذون له في دخول الحرم . « كشكول » [٢٣١] .

وسئل القطب الحسيني السيد أحمد بن إدريس ﷸ فى « العقد النفيس » عن التوكل ، فقال ﵁ : قال الله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ ، وذلك أنهم علموا أن النصر لا يكون إلا من الله تعالى ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ ، فوكّلوه وفوّضوا ولم يعترضوا لأن الموكِّل لا يعترض على الوكيل إلا لأحد الأمرين : إما أن يكون متّهما للوكيل بنوع خيانة أو أنه ليس عالما بالمضار من العدو فيدفعها أو غير عالم بجلب المنافع لموكله فيجلبها ، وكل ذلك غير مجوّز على الله ، تعالى الله علوا كبيرا ، فلما صدقت الوكالة له جل وعلا لم يتكلوا على كثرة ولا اكترثوا من قلة ، فنجاهم من عدوهم ونصرهم عليهم . وفي يوم حنين يقول الله تعالى فيهم : ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾ .

وذلك لأنه أصابهم ما أصابهم لأنهم اتكلوا على أنفسهم فوكلهم إليها فانهزموا ، ولم يبق إلا الرسول ﷺ فعمت المصيبة جميع الصحابة ، ولم يتكلم بتلك الكلمة إلا البعض وهي قولهم « لن نغلب اليوم من قلة » .

فانظر إلى هذه المصيبة التي أصابتهم من الله تعالى ، لكنها في الحقيقة من أنفسهم ، ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾

ثم انظر إلى الحسنة ما تكون إلا من عند الله سبحانه ابتداء ، فإنك إذا فعلت الحسنة فمن أقدرك عليها ؟

لَكَ الحَمْدُ ياربِّي عَلى كُلِّ نِعْمَةٍ   وَمِنْ أَعْظَمِ النَّعْماءِ قَوْلي لَكَ الحَمْدُ

انتهى ما في « العقد النفيس » ٢١

و قال الشيخ عبد الغني النابلسي قُدِّسَ سِرُّهُ في كتابه « خمرة الحان في شرح كلام الشيخ أرسلان » قُدِّسَ أسرارُهم : التوكل على الله تعالى متعلق بالإيمان ، أي التوكل على الله تعالى ظاهرا و باطنا بترك الاهتمام والاعتماد على غير الله تعالى من جميع الأسباب الشرعية كالطاعات للثواب والمخالفات للعقاب والعاديات كالأكل للشبع وشرب الماء للري ولبس الثوب لستر العورة ودفع ألم البرد والحر ونحو ذلك ، أو العقل كاستعمال الحواس لإدراك الجزئيات أو الفكر لإدراك الكليات وما أشبه ذلك .

فإن اعتماد المكلف بقلبه على شيء من هذه الأسباب واتكاله عليه وطمأنينة قلبه به يمنعه من التوكل على الله تعالى ، إلا أن الاشتغال بهذه الأسباب كلها مع عدم الاعتماد عليها بالقلب وعدم طمأنينة القلب بها ، فإن ذلك لا يمنع من التوكل عليه تعالى ، وهذا هو المطلوب من المكلف في معاطاة الأسباب دون الأول .

وقال مولانا أبو الحسن الخرقاني قدس سره النوراني لما سئل أن الإنسان من أين يعرف أنه غافل أم يقظان ؟ قال : إذا ذكر الله سبحانه وتعالى فكان من الفرق إلى القدم من خشية الله تعالى ملآن فهو يقظان .

وسئل عن الصدق فقال : الصدق أن يتكلم بالجنان ، يعني يترجم لسانه ما في جنانه « رشحات » .

وقال في « المصباح » اليقين : هو العلم الحاصل عن نظر واستدلال ولا يقبل الاحتمال ، وعين اليقين ما حصل من مشاهدة وعيان ، وحق اليقين ما حصل عن العيان .

قال سبط ابن الفارض قدس سرهما :

تَـنَـقَّـلْ إلى حَـــقِّ اليَقينِ تَنَزُّهاً   عَنِ النَّقْلِ والعَقْلِ الذي هُوَ قاطِعُ

يعني تنقل عن علم اليقين الذي هو للعوام إلى عين اليقين مرتبة الخواص ، إلى حق اليقين مرتبة خواص الخواص ، فإن اليقين ما نزلت به الكتب وجاءت به الرسل من الشرائع والأديان والأخبار الصادقة .

فالعوام يعملون فقط ، والخواص يعاينونه بالكشف عنه فقط ، وخواص الخواص يتحققون به في ذواتهم أنه حق مضاف إلى اليقين . « تنوير الصدر » ١٨٤ .

وقال النابلسي ﷺ : إن مشاهدة حق اليقين لا تنفع إلا إذا كان العبد في مقام الفناء ، وما دام العقل حاكما لا يصل لهذا المقام .

وإيضاح ذلك أن يقال : إن لله تعالى بيتا بمكة ثابتا بالأدلة القطعية يجب على القادر السعي إليه والطواف به فهذا هو علم اليقين الثابت بالأدلة ، فإذا شاهده وعاينه ببصره فهذا عين اليقين ، فإذا أشهده الله تعالى وحققه به بحيث يشاهد نسبته إلى الله تعالى فهذا هو حق اليقين . « منه » وراجع « سهلي » ٢٩

وفي ١٢٦ : علم اليقين عين اليقين حق اليقين ، راجع « خمرة الحان » للنابلسي في ٢٩ على متن : **واليقين خروجك عنك** . . الخ .

وفي « نوادر الأصول » : أن لأهل اليقين حظا من النبوة ، ألا ترى إلى قول رسول الله ﷺ : « إن الهدى الصالح والسَّمْتَ الصالح والاقتصاد جزء من خمس وعشرين جزءاً من النبوة » ، فثمرة محبة أولياء الله تعالى سعادته بلا نهاية ، وعداوتهم سبب لغاية الخسران . انتهى

وأمـــــا اليقين فقالوا : من علم اليقين بالله وبما لك عند الله أن تتعاطى بين الخلق ما لا تصغر به عند الحق وإن صغرت به في أعين الخلق بلا اعتراض من الشرع ولا منازعة من الطبع .

بل من عين اليقين نسيان الخلق عند هجوم الشدائد وتتابع الفوائد بسواطع الشواهد ، بل من حق اليقين الغرق في شيء كأنك نفس الشيء ، كمن اضطر إلى رؤية البحر فركبه وانكسرت سفينته فتلاطمت عليه أمواجه ، فمنهم من يعد[1] ويفنى ويذهب مع الذاهبين وينقل إلى درجات العليين ، ومنهم من يحيا ويبقى مع الباقين ، لا حظ للمقتدي به ، بل هو مستور عن الخلق أجمعين ، ومنهم من يبقى برزخا بين الحق والخلق ظاهرا بالنعتين كاملا في الوصفين قدوة للثقلين .

ومنهم الإمام الأكبر الفرد القطب الغوث الجامع المختص بالأسماء والصفات والأنوار والأخلاق ، وما لا يسع أن يسمعه سامع ، ومن دونهم من لا درجة له من الأوليآء والعباد والزهاد ومن أهل النظر بالدليل والبرهان ولم يطلع بعد على الكشف والعيان ، ومن دونهم أهل الوسائل بالأعيان والأحوال وأهل التخليط في الأفعال والأقوال ، من يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل ما يشاء .

وقال الشاذلي رضي الله عنه : **إن كنت مؤمنا موقنا فاتخذ الكل عدوا** كما قال إبراهيم عليه السلم : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وإن كنت محمديا فاتلُ هذه الآية : ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ ﴿ والمؤمنون ﴾ أخرج الفعل بشيئين الماضي والاستقبال تحقيقا للرسول والمؤمنين ، وأما الله تعالى فلا ماضي ولا استقبال عنده ، إذ لا يتحد عنده شيء[2] .

« ١ » لعله يعود .
« ٢ » تنبيه إلى نفي اتحاد الله تعالى مع أحد من خلقه ، إشارة لقوله : فسيرى الله ورسوله والمؤمنون .

وقال ﷺ : الصادق الموقن لو كذبه أهل الأرض ما ازداد بذلك إلا يقينا ، ولو صدقه أهل الأرض لم يزد به إلا تمكينا .

وقال ﷺ : أربعة من كن فيه احتاج الخلق إليه وهو غني عن كل شيء : المحبة لله تعالى والغنى بالله تعالى والصدق واليقين ، الصدق في العبودية واليقين في أحكام الربوبية ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون . انتهى .

وقال قدس سره : وفي الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أخوف ما أخاف على أمتي ضعف اليقين » وضعف اليقين إنما يكون من رؤية أهل الغفلة ومخالطة أرباب البطالة والقسوة ، قال أبو طالب المكي ﷺ : وأضرّ ما ابتلي به العبد وأدخله وأعمله في هلاكه وأشده لحجبه وإبعاده ضعف يقينه لما وعد من الغيب وتوعد عليه بالشهادة ، وقوة اليقين أصل كل عمل صالح .

وقال بعض هذه الطائفة : قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله : كيف الطريق إلى التحقيق والوصول إلى الحق ؟ قال : لا تنظر إلى المخلوقات فإن النظر إليهم ظلمة ، قلت : لا بد لي منهم ، قال : فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة ، قلت : لا بد لي منهم ، قال : فلا تعاملهم فإن معاملتهم خسران ووحشة وحسرة ، قلت : أنا بين أظهرهم ولابد لي من معاملتهم ، قال : فلا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هلكة ، قلت : هذا لعلّة ، قال : يا هذا تنظر إلى اللاعبين وتسمع كلام الجاهلين وتعامل البطالين وتسكن إلى الهالكين وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع غير الله عز وجل هيهات ! هذا لا يكون أبدا .

وقال ﷺ : حقيقة الاستقامة وجود الإقامة على بساط المشاهدة .

وقيل : هي الثبات على الحق بعون الحق . اهـ .

وقال شيخ شيخنا ﷺ في « جامعه » : الاستقامة في اللغة ضد الاعوجاج ، وفي اصطلاح أهل الحقيقة هي الوفاء بالعهود كلها وملازمة الصراط المستقيم .

والصراط المستقيم رعاية حد التوسط والعدل في كل الأمور من الطعام والشراب واللباس والنكاح وكل أمر ديني ودنيوي ، فذلك هو الصراط

المستقيم في الدنيا كالصراط المستقيم في الآخرة ، ومن هُدي إلى معرفة الصراط المستقيم في الدنيا كان سببا لنجاته عند مروره عليه في الآخرة ، والهداية إلى معرفته من أعظم نعم الله تعالى على العبد ، قال الله تعالى : ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ، وقال في حق النبي ﷺ : ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ وقيل : الاستقامة أن لا تختار لنفسك غيرما يختاره الله تعالى لك ولا تدبّر لها أمرا .

وقال الشبلي قدس سره : هي أن تشهد الدنيا قيامة وقد مدح الله تعالى المستقيمين بقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ الآية ، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : لم يشركوا بالله تعالى شيئا ، وقال عمر رضي الله عنه : لم يروغوا روغان الثعلب ، أي لعبه ، فقول الصديق رضي الله عنه محمول على مراعاة أصول التوحيد ، وقول عمر رضي الله عنه محمول على ترك طلب التأويل .

وقيل : معناه : استقاموا بأفعالهم كما استقاموا بأقوالهم .

وقال النبي ﷺ : « استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة » .

وقال أبو علي الدقاق قدس سره : الاستقامة لها ثلاثة مدارج : أولها التقويم وهو تأديب النفس ، وثانيها الإقامة وهي تهذيب القلوب ، وثالثها الاستقامة وهي تقريب الرب .

واعلم أن الاستقامة درجة بها تمام الأمر وكماله ، وهي مقام لا يطيقه إلا الأكابر ، يؤيده ما حكي عن بعض المشائخ أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال له : يا رسول الله ! روي عنك أنك قلت : « شيبتني سورة هود » ، فما الذي شيبك فيها قصص الأنبياء وهلاك الأمم ؟ قال : لا ، ولكن قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ .

وقيل : إن الاستقامة توجب دوام الكرامة ، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى : ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ . انتهى ما في « الجامع » ١٢٤ .

وقال بعض السادات : علامة صحة الأحوال استقامة الأفعال ، قال ﷺ لمن قال أوصني : « قل آمنت بالله ثم استقم » .

و ذكر في « تقريب الأصول » ما عبارته : قال الإمام القشيري رضي الله عنه : واعلم أن مدار الأمر كله في الوصول إلى الله تعالى الاستقامة والعمل على منهاج الشريعة مع الاقتداء والمتابعة للنبي ﷺ وأصحابه والسلف الصالح من أمته ، وكل من للشرع عليه اعتراض فهو ممكور به مخادع ، وقد ارتحل عن بعض القلوب حرمة الشريعة فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة لمقاصدهم الخسيسة ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام ، فعدوا ذلك في جملة الصدق وهو جهل منهم ، فكيف يكون صادقا من لم يعظم ما عظمه الله تعالى ولم يحترم من أمره الله تعالى باحترامه واستخفوا بأداء العبادات التي هي وسيلة لحضور القلب مع الله تعالى ، فإذا حضر[1] المُتَوَسَّلُ إليه أغنى عن الوسيلة . اهـ ٩٩

« ١ » في الأصل : حصر .

فصل

في الإخلاص وما فيه من علامات الخواص والاستقامة واليقين والصدق

اعلم أيها الموفق السعيد أن الإخلاص والاستقامة ليس فوقهما شيء ، و هما جوهران لا قيمة لهما وقل وجودهما ، والواجد هو الفائز ، ونحن نسمع اسمهما ولا نراهما ، كأخبار الجن نسمع ولا نرى ، وهما توأمان لا بد لأحدهما عن الآخر ، ورأس الأمر مربوط عليهما بالعروة الوثقى ، فإن حل منهما فلا أمر ولا شيء ، وللسادات فيهما كلام كثير ، ونذكر في أرجوزتنا هذه نبذة منهما ، جعلنا الله تعالى من الفائزين بهما آمين .

وذلك أن حقيقة الاستقامة هي الوفاء بالعهود كلها وملازمة الصراط المستقيم برعاية حد التوسط في كل الأمور من الطعام والشراب واللباس في كل أمر ديني ودنيوي ترغيب وترهيب أو حال أو حكم أوصفة أو معاملة .

وذلك هو الصراط المستقيم كالصراط المستقيم في الآخرة ، والتمشي على هذا الصراط الذي يقال له الاستقامة الاعتدالية عسير جدا ، لأن الاستقامة على جميع حدود الله تعالى على الوجه الذي أمر الله بالاستقامة عليه مما يكاد يخرج عن طوق البشر .

ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « شيبتني هود » ، ومن يطيق مثل هذه المخاطبة بالاستقامة إلا من أيّد بالمشاهدة القوية والآثار الصادقة ، ثم بعناية الله تعالى به وتفضله عليه بالتثبت كما قال تعالى : ﴿ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ ﴾ ثم بحفظ وقت المشاهدة ومشافهة الخطاب ، ولولا هذه المقدمات لتفسخ دون هذا الخطاب ، ألا تراه كيف قال للأمة : « استقيموا ولن تحصوا » ، أي لن تطيقوا الاستقامة التي أمرت بها .

وذكر في « اللواقح » : سمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : من أقل درجات الإخلاص أن يكون في أعماله كلها كالدابة المحملة ، فهي تعبانة من ثقل حملها منكسة الرأس ، لا تعلم بنفاسة ما هي حاملته ولا بخسته ، ولا تعلم هو لمن ولا إلى أين ينتهي حملها ، ولا ترى لها بذلك فضلا على غيرها من الدواب ، ولا تطلب على حملها أجرا . اهـ

وقال بعض المشائخ : صحح أعمالك بالإخلاص وصحّح إخلاصك بالتبري من الحول والقوة . اهـ

ومما رواه الأئمة في الإخلاص مرفوعا قوله ﷺ : « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، فارقها والله عنه راض » رواه ابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

وروى البيهقي مرسلا أن رجلا قال : يا رسول الله ما الإيمان ؟ قال : : « الإخلاص » ، قال : فما اليقين ؟ قال : « الصدق » .

وروى الحاكم وقال صحيح الإسناد أن معاذ بن جبل قال : يا رسول الله أوصني ! قال ﷺ : « أخلص نيتك يكفك العمل القليل » .

وروى البيهقي مرفوعا : « طوبى للمخلصين ، أولئك مصابيح الهدى تنجلي« ١ » عنهم كل فتنة عظمآء » .

وروى البيهقي أيضا والبزار مرفوعا أن الله تبارك وتعالى يقول : « أنا خير شريك ، فمن عمل عملا أشرك فيه غيري فهو لشريكي وأنا منه بريء ، يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم لله ، فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص ، ولا تقولوا هذا لله ولوجوهكم ، فإنها لوجوهكم وليس لله منها شيء » .

وفي رواية لأبي داود وغيره بإسناد جيد مرفوعا : « إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغي به وجهه » .

« ١ » في الأصل تتجلّى .

وروى الطبراني مرفوعا : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ، إلا ما ابتغي به وجه الله تعالى » .

وروى الحافظ رزين العبدري مرفوعا ومرسلا : « من أخلص لله تعالى أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » .

قال الحافظ المنذري : ولم أقف لهذا الحديث على إسناد صحيح ولا حسن ولا على ذكره في شيء من الأصول التي جمعها رزين ، والله أعلم .

وروى الإمام أحمد والبيهقي مرفوعا : « قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان وجعل قلبه سليما ولسانه صادقا ونفسه مطمئنة وخليقته مستقيمة وجعل أذنه مستمعة وعينه ناظرة » . انتهى

وروى الحافظ أبو نعيم عن عائشة ﵂ أنها كانت تقول : من رأى نفسه من المخلصين كان من المرائين ، ومن رأى نفسه من المرائين كان من المخلصين . والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة ، أعرضنا عن ذكرها .

وقال حضرة الخواجة ﷳ الولاية نعمة عظيمة ، ينبغي للولي أن يعرف أنه ولي حتى يقوم بشكر هذه النعمة العظيمة والولي محفوظ والعناية لا تتركه يتجاوز الحدود وتصونه عن الآفات البشرية والاعتماد على ظهور خوارق العادات والأحوال والكرامات فالمعتبر هو الاستقامة في الأفعال والأقوال .

قال الشيخ عبد الرحمن السلمي رحمه الله في كتابه « حقائق التفسير » لهذه الآية : ﴿فاستقم كما أمرت﴾ : نقل عن واحد من أرباب الحقيقة أنه قال : كن طالب الاستقامة لا طالب الكرامة

ومن كلام هذه الطائفة لو أن وليا دخل بستانا وسمع من ورق كل شجرة من ذلك البستان يا ولي الله ينبغي أن لا يكون له التفات سعيه في الظاهر ولا في الباطن لتلك الأصوات بل ينبغي أن يكون كل لحظة في تحقيق صفة العبودية والتفرغ في الزيادة وكمال هذا المقام ، كان ﷺ كلما كان الإنعام

والإكرام الإلهي عليه أكثر كان تضرّعه ومسكنته وعبوديته أكثر ولذلك قال أفلا أكون عبدا شكورا وكلما يقدر على الولي من القصور الحكمة في ذلك نفي وجود بشريته . انتهى

وقال الشيخ عبيد الله أحرار ﷻ ينبغي أن يحصل يقينا لا يحصله ماء ولا يحرقه نار مثلا إذا حصل لشخص يقين بوجود قمح لا يقدر شيء أن يذهب بهذا اليقين بخلاف استحضار وجود قمح في الذهن فإنه قد يقع عنه ذهول بسبب تعارض أنواع الاشتغال . انتهى

وقال الإمام الرباني قدس سره : من كان في قلبه مقدار خردلة سوى هو الحق فاعلم أنه مرض إن تحلية الظاهر بالشريعة الغراء وربط الباطن على الدوام بالله أمر عظيم أي صاحب دولة يتشرف بشرف هاتين النعمتين العظيمتين والجمع بين هاتين النسبتين في هذا الوقت بل الاستقامة على ظاهر الشريعة عزيز الوجود جدا بل أعزّ من الكبريت الأحمر . رزقنا الله سبحانه وتعالى من كمال كرمه كرامة الاستقامة بمتابعة الشريعة وأذاقنا حلاوة الطريقة وأسعدنا بعرفان الحقيقة إنه جواد كريم .

قيل لمحمد بن الفضل ﷻ : حاجة العارفين إلى ماذا ؟ قال : حاجتهم إلى الخصلة الواحدة التي كملت بها المحاسن كلها ، ألا وهي الاستقامة ، فكل من كان أتم معرفةً كان أتم استقامةً .

وذكر في « تقريب الأصول » أيضا ما قاله الشبلي ﷻ : إن الاستقامة أن تشهد الوقت الذي أنت فيه قيامة قامت ، تستشعر فيها قيامك بين يدي مولاك ، فتحسن استقامتك له في دنياك وتنظر الأمر المطلوب منك في ذلك الوقت فتأتي به مخلصا لله تعالى« ١ » .

« ١ » رزقنا الله تعالى الإخلاص في النيات والصدق في العبادات وأدامنا على ذلك إلى المماة إنه قريب مجيب الدعوات آمين آمين آمين ، والحمد لله رب العالمين .

وقال أبو علي الجرجاني ﷺ : كن طالب الاستقامة ، لا طالب الكرامة ، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة ، ومولاك يطلب منك الاستقامة ، فالكرامة الكبرى الاستقامة في خدمة الخالق ، لا بإظهار الخوارق ، ولا تتيسر الاستقامة إلا بإيفاء حق كل مرتبة من الشريعة والطريقة والمعرفة والحقيقة ، فمن رعاية حد الشريعة العدالة في الأحكام ، فالاستقامة في مرتبة الطبيعة برعاية الشريعة ، وفي مرتبة النفس برعاية الطريقة ، وفي مرتبة الروح برعاية المعرفة ، وفي مرتبة السر برعاية المعرفة والحقيقة .

فمراعاة تلك الأمور في غاية الصعوبة ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « شيبتني هود » ، فالكمال الإنساني بتكميل تلك المراتب ، لا بإظهار الخوارق .

سئل أبو يزيد البسطامي ﷺ : ما الكمال عندك ؟ فقال أن تكون في الظاهر مع الخلق ، وفي الباطن مع الحق .

والحاصل أن النفوس جبلت على الاعوجاج عن طريق الاستقامة ، إلا ما اختص منها بالعناية الأزلية والجذبة الإلهية ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ، ومن لم يصبه رشاش النور الإلهي عند قسمة الأنوار فما له من نور يخرجه من الظلمات ، فالبعيد عن الشقاء من سبقت له الحسنى ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ، فالحسنى هي السعادة ، ومن آثار سبق العناية الأزلية أن لا يسمعوا حسيس جهنم القهر ، وحسيسها مقالات أهل الأهواء والبدع المشوبة بالوهم والخيال وظلمة الطبيعة ، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون . كذا في « تقريب الأصول » لسيد زيني ﷺ .

وقال أيضا : وقال ابن زكريا ﷺ في شرح قول « الحكم » : **من عبر من بساط إحسانه أصمتته الإساءة ، ومن عبر من بساط إحسان الله تعالى إليه لم يصمت إذا أساء** : كما ذكرنا هذا ، أي إذا حدثتك نفسك أيها المريد بأنك تأهلت للاقتداء وإظهار العمل والتحدث بالنعم ، وأن ذلك مقامك الذي أقامك

الله تعالى له وتوهمتَ حصول النتائج ، فاختبر حالك بهذا ، فإن كان يلحقك عند الإساءة قصور وخجل وانقباض فلست هناك .

قال : والكلام مع أهل الإرادة ، وأما العامة أمثالنا الذين إلى الآن لم يتوجهوا للطريق فالحذر من تسويل النفس لهم وتزوير الشيطان .

وذكر في الحكمة التي قبل هذه ، وهي قوله : **من علامة إقامة الحق لك في الشيء إدامته إياك فيه مع حصول النتائج** أن كمال الاستقامة التزام العبودية ، وذلك لا ينحصر في عمل مخصوص وحالة معينة ، فقد يحصل ذلك بالتعلم ، وقد يحصل بالتعليم ، وقد يكون بالعزلة ، وقد يكون بالاجتماع ، وقد يكون بالأسباب إلى غير ذلك من مختلفات الأحوال ، فالشأن أن تقيم حيث أقامك الله تعالى وترضى بما اختاره لك .

وعلامة ذلك أن تعبر من بساط إحسان الله إليك ، لا من بساط إحسانك أنت ، وأن تكثر الشكر لله تعالى في جميع الأحوال .

وحقيقة الشكر أن تصرف جميع ما أنعم الله تعالى به عليك فيما خلق لأجله ، فيشمل ذلك المال والبدن والأعضاء الظاهرة والباطنة ، فمتى استعملت شيئا منها في غير ما خلق له ، كان ذلك كفرانا لتلك النعمة انتهى .

قال بعض العارفين : لما نزل قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ قلقت الصحابة خوفا من كونهم لا يقدرون على القيام بمعنى ذلك ، فأنزل الله تعالى رحمة لهم : ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ .

فالاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر ، لأنها الخروج عن المعهودات والمألوفات ومفارقة الرسوم والعادات من حظوظ النفس والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق ، ولذلك قال ﷺ : « استقيموا ولن تحصوا » .

قال الواسطي ﵀ : الخصلة التي كملت بها المحاسن هي الاستقامة ، حتى لو فقدت من أحد ثم ادعى كرامة قبح ذلك منه وعدّ نقصا في حاله ، ولو جرى ذلك له كان استدراجا ومكرا .

نعوذ بالله من بلائه وفتنته ، وقد قال تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ . انتهى وراجع « سهلي » في ٨٠ و « العقد النفيس » ٢٥٣ .

واعـــلم أن الصدق أخص من الإخلاص ، فإن الإخلاص تجريد العمل من الشوائب كلها قليلها وكثيرها ، حتى لا يكون له باعث غير قصد التقرب ، فلا يبعثه عليه قصد الحظ العاجل ولا الآجل ، وهذا إخلاص خاصة المقربين .

وأما الأبرار فإخلاصهم السلامة من الرياء والسمعة ، وإن لاحظوا طلب الثواب والفرار من العقاب .

ثم إن إخلاص المقربين هو العمل بقصد الامتثال من غير طلب جزاء وإن أمكن حصوله ، فللنفس فيه تلبيس ومخادعة كثيرة فمن للعامل بصدقها وسلامتها من العيوب« ١ » حتى يحصل الصدق وهو مطابقة الباطن للظاهر فأنى لك به ، ومن يهدي للملوك الأمور النفيسة ليس كمن يهدي لهم شيأ معيبا ، فإن المهدي للمعيب إلى العقوبة أقرب .

فالعامل على خطر يخاف أن يظهر في عمله عيب أخفته نفسه ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ ، ولهذا وصف الله الكاملين بقوله : ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ .

فإذا حصل الريب في السلامة من العيب تكفيك السلامة من العقاب ، فالواجب على العبد أن يكون مستحيا من مولاه ، منكسر القلب بشهود التقصير في العبودية ، فبذلك تحقق فاقته واضطراره ، وخير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك وترد فيه إلى وجود ذاتك ، وبذلك يكثر العطاء ، ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ الآية .

« ١ » أي كيف للعامل أن يتيقن سلامة عمله وأنى له بذلك ؟

وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ ﷺ حين قال له أوصني يا رسول الله ، قال : « أخلص لله يكفك القليل من العمل » « سهلي » ١٢٩

وقال الخواجه بهاء الدين نقشبند ﷺ : **تصحيح أمور النية مهم في الغاية ،** لأن النية من عالم الغيب لا من عالم الكسب ، فلذلك لم يُصَلِّ ذلك الكبير في الدين يعني ابن سيرين جنازة الحسن البصري وقال : لم تحضرني النية .

وقال تاج العارفين ابن عطاء الله ﷺ في « الحكم » : الأعمال صور قائمة ، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها[١] .

إخلاص كل عبد في أعماله على حسب رتبته ومقامه ، فأما من كان منهم من الأبرار فمنتهى درجة إخلاصه أن تكون أعماله سالمة من الرياء الجلي والخفي وقصد موافقته أهواء النفس ، طلبا لما وعد الله تعالى به المخلصين من جزيل الثواب وحسن المآب ، وهربا عما أوعده به المجرمين من أليم العذاب وسوء الحساب ، وهذا من التحقيق بمعنى قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي لا نعبد إلا إياك ولا نشرك في عبادتنا غيرك ، وحاصل أمره إخراج الخلق عن نظره في أعمال برّه مع بقآء رؤيته لنفسه في عمله والاعتماد عليها .

وأما من كان منهم من المقربين فقد جاوز هذا إلى عدم رؤيته لنفسه في عمله فإخلاصه إنما هو في شهود إنفراد الحق تعالى بتحريكه وتسكينه من غير أن يرى لنفسه في ذلك حولا ولا قوة ، ويعبر عن هذا المقام بالصدق الذى به يصحّ مقام الإخلاص وصاحب هذا مسلوك به سبيل التوحيد واليقين وهو من التحقق بمعنى قوله تعالى : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، أي لا نستعين إلا بك ، لا بأنفسنا وحولنا وقوتنا .

فعمله الأول هو العمل لله تعالى ، وعمله الثاني هو العمل بالله تعالى ، فالعمل لله تعالى يوجب المثوبة ، والعمل بالله تعالى يوجب القربة ، والعمل لله تعالى يوجب تحقيق العبادة ، والعمل بالله تعالى يوجب تصحيح الإرادة ،

« ١ » وقال الشاذلي : حقيقة مشاهدة الغيوب بكشف القلوب ، وملاحظة الأسرار بمخاطبة الأفكار .

والعمل لله تعالى نعت كل عابد ، والعمل بالله تعالى نعت كل قاصد ، والعمل لله تعالى قيام بأحكام الظواهر ، والعمل بالله تعالى قيام بالضمائر ، وهذه العبارات للإمام أبي القاسم القشيري رضي الله عنه ، وبهذا يتبين الفرق بين المقامين وتباينهما في الشرف والجلالة .

فإخلاص كل عبد هو روح أعماله ، فبوجود ذلك تكون حياتها وصلاحيتها للتقرب بها ، ويكون فيها أهلية وجود القبول لها .

وبعدم ذلك يكون موتها وسقوطها عن درجة الاعتبار ، وتكون إذ ذاك أشباحا بلا أرواح وصورا بلا معان اهـ .

وذكر العارف ابن عباد النفزي في شرحه على « الحكم » : قيل لسهل بن عبد الله التستري رضي الله عنه أي شيء أشد على النفس ؟ قال : الإخلاص ، لأنها ليس لها فيه نصيب .

وقال يوسف بن الحسين رضي الله عنه : أعز شيء في الدنيا الإخلاص ، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنه ينبت فيه على لون آخر .

قال الشيخ أبو طالب المكي رضي الله عنه : والإخلاص عند المخلصين إخراج الخلق عن معاملة الخالق ، وأول الخلق النفس ، والإخلاص عند المحبين أن لا يعمل عملا لأجل النفس ، وإلا دخل عليه مطابقة العوض أو تشوف[1] إلى حظ طبع ، والإخلاص عند الموحدين خروج الخلق عن النظر إليهم في الأفعال ، وترك السكون والاستراحة بهم في الأحوال اهـ .

وقال شيخ شيخنا قدس سره : وأما الإخلاص فقالوا : الإخلاص نور من نور الله تعالى استودعه الله تعالى قلب عبده المؤمن فقطعه به عن غيره ، فذلك هو أصل الإخلاص ، ثم يتشعب أربع شعب : إرادة الإخلاص في العمل على التعظيم لله تعالى ، وإرادة الإخلاص على التعظيم لأمر الله تعالى ، وإرادة الإخلاص لطلب الأجر والثواب ، وإرادة الإخلاص في تصفية العمل عن

« ١ » التشوّف هو الترقّب والتطلّع .

الشوائب أن لا يراعي فيه غير ذلك ، وكل هذه الإرادات استعبدنا بها[1] ، فمن تمسك بواحدة منها نجا وأخلص لهم درجات عند الله تعالى والله تعالى بصير بما يعملون .

وأشار إلى ذلك بقوله : الإخلاص سر من سري استودعته من أحببته من عبادي .

وقال الشاذلي ﷺ : رأيت كأني أطوف بالكعبة طالبا من نفسي الإخلاص وأنا أفتش عليه في سري ، فإذا النداء : يا علي كم تدندن مع من يدندن وأنا السميع القريب العليم الخبير وتعريفي يغنيك عن علم الأولين والآخرين ما خلا علم الرسول وعلم النبيين ، وإنما مرادك الإخلاص وهو على ضربين : إخلاص الصديقين وإخلاص الصادقين ، فإخلاص الصادقين لطلب الأجر والثواب ، وإخلاص الصديقين لنظر وجود الحق مقصودا له ، لا لشيء من عنده ، فمن استودع ذلك في قلبه فهو المستثنى على لسان عدوه بقوله : ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾

وقال ﷺ : إن أردت السلامة من الغرور فأخلص العمل لله تعالى بشرط العلم ، ولا ترض عن نفسك بشيء .

وقال سهل ﷺ : الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله خاصة .

وقال آخر : الإخلاص أشد شيء على النفوس ، لأنه ليس لها فيه نصيب .

وقال آخر : الإخلاص في العمل أن لا يريد صاحبه عوضا في الدارين .

وقال المحاسبي قدس سره : الإخلاص إخراج الخلق عن معاملة الرب تعالى .

وقال آخر : الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها .

وقال الجنيد قدس سره : تصفية العمل من الكدورات . « كشكول » ٢٢٨

« ١ » أي تعبّدنا بها فإرادتها عبادة .

وقال في « تقريب الأصول » : الإخلاص التوقي عن ملاحظة الخلق ، بأن لا تفرح برؤيتهم لما أنت فيه من العمل ليمدحوك ، وأن لا تخشى أن ينقصوك .

ولا بد أن تكون مع الإخلاص صادقا ، والصدق التنقي عن مطالعة النفس بأن تتخلص من الإعجاب ، فلا تستحسن عملك ولا تضيفه إلى نفسك .

فالمخلص لا رياء له ، والصادق لا إعجاب له ، ومتى شهد العبد في إخلاصه الإخلاص احتاج إخلاصه إلى إخلاص ، بل سماه بعضهم رياء فقال : رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين ، فحق المخلص أن لا يرى إخلاصه ولا يسكن إليه ، فمتى خالف ذلك لم يكمل إخلاصه .

وقال ذو النون رضي الله عنه : من علامات الإخلاص استواء المدح والذم من جميع الناس .

وقال الشيخ أبو عثمان المغربي قدس سره : الإخلاص ما لا يكون فيه للنفس حظ بحال ، بأن لا يكون فيه رياء ولا عجب ، وهذا إخلاص العوام ، وأما إخلاص الخواص ، فهو ما يجري عليهم من ربهم من الأعمال خالصة كاملة ، فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ، فلا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد ، وإنما اعتدادهم برحمة ربهم وفضله عليهم ، فذلك إخلاص الخواص في أعمالهم الجارية عليهم من ربهم .

والكلام في الإخلاص كثير اختصرنا على هذا . انتهى من « التعريب »١٠١

فصل

في الزهد

و اعلم أن الزهد المرغوب من مقامات التوكل التي هي أعلى المقامات ، والعارفون يتنافسون فيها ويصلون إلى الله تعالى بها ، ولا يحصل مقام التوكل إلا لمن صفت سريرته وسعدت عريكته .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه : إذا أردت عز الدارين فادخل في طريقتنا هذا يوما أو يومين .

وما أحسن ما قال بعضهم :

حَرامٌ عَلى مَـنْ وَحَّـدَ اللهَ وَحْـدَهُ وَأَفْـرَدَهُ أنْ يَحْـتَـذيْ أحَـداً رِفْـدا

فَيا صاحبي قِفْ بي مَعَ الحَقِّ وِقْفَةً أموتُ بِها وَجْداً وَأَحْيا بِها وَجْدا

وَقُلْ لِمُلوكِ الأَرْضِ تَجْهَدُ جَهْدَها فَذا المُلْكُ مُلْكٌ لا يُباعُ وَلا يُهْدى

رأى شخصٌ إبراهيم بن أدهم ﷺ وهو يرقع ثوبه فقال له : ما عوضك الله تعالى يا إبراهيم عن ملك بلخ ؟ قال : شيء لا يصل إليه عقلك ، ولكن أظهر لك شيئا مما تفهمه ، فرمى بإبرته إلى البحر ودعا الله تعالى أن يردها عليه ، فإذا كل حوتة في فمها إبرة من ذهب فقال : يارب ما أردت إلا إبرتي ، والتفت إلى ذلك الشخص وقال : هذا مما أعطاني مما تفهمه .

وما أحسن ما قال صاحب « الحكم » في مناجاته : إلهي ما وجد من فقدك وما فقد من وجدك ، لقد خاب من رضي دونك بدلا ، ولقد خسر من بغى عنك متحولا اهـ .

وقال العارف ابن زروق ﷺ : الزهد في الشيء برودته عن القلب حتى لا يعتبر في وجوده ولا في عدمه ، فمن ثم قال الشاذلي ﷺ : والله لقد عظمتها إذ زهدت فيها ، قلت : يعني بالظاهر ، لأن الإعراض عنها تعظيم

لها وتعذيب للظاهر بتركها ، كما أشار إليه ابن العريف رحمه الله في « مجالسه » والهروي رحمه الله في « مقاماته » .

وقد قال أيضا رضي الله عنه : رأيت الصديق في المنام فقال لي : علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجود ووجود الراحة منها عند الفقد ، كحال الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، إذ لم ينظروا إليها عند الفقد ولا شغلتهم عند الوجود ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ، وما قال : لا يبيعون ولا يتحركون .

وقال بعض الصحابة لصدر التابعين : أنتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كانوا خيرا منكم ، قيل : ولم ذلك ؟ قال : كانوا أزهد منكم في الدنيا . ابن عباد ٣٩ في « سلك العين » ٤٨٢

وقد أدب الله تعالى الأغنياء بقوله : ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ وأدب الفقراء بقوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ثم قال تعالى : ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ ، وذلك لا يقتضي عينا ولا وقتا ، فلزم التزام كل ما أمر الله تعالى به ، فافهم .

وقال أيضا : ما ذمّ لا لذاته قد يمدح لا لذاته ، ومنه وجود المال والجاه والرياسة ونحو ذلك مما ليس بمذموم لذاته ولا محمود في ذاته ، بل يحمد ويذم لما يعرض له ، ولذلك ذم عليه الصلاة والسلام الدنيا بقوله : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها » ، ومدحها بقوله : « فنعمت مطية المؤمن » ، وأثنى سبحانه على قوم طلبوا الرياسة الدينية إذ قالوا : ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ وقال عليه الصلاة والسلام : « وأسالك رحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة » ، وقال ذلك الرجل له عليه الصلاة و السلام : دلني على عمل إن عملته أحبني الله وأحبني الناس ، فقال : « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس » الحديث . وقال يوسف الصديق عليه السلام : ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ، إلى غير ذلك .

فلزم اعتبار النسب وتحقيق المقام إباحة ومنعا ، والمحاشاة أقرب لسلامة الضعيف من باب ضعفه لا لخلل في ذات الحكم ، إذ الأصل الإباحة .

ومن ثم قال عليه الصلاة و السلام لأبي ذر ﵁ : « إنك رجل ضعيف ، وإنك إن تطلب الإمارة وكلت إليها ، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، فافهم انتهى من « القواعد » .

وقال أيضا : وملك العبد لما بيده من أعراض الدنيا غير متحقق له ، بل إنما هو خازن فيه لقصره عليه تصرفا وانتفاعا دون غيره ، ومن ثم حرم الله تعالى عليه الإقتار والإسراف حتى عدّ رسول الله ﷺ في المنجيات القصد في الغنى والفقر ، ونهى ﷺ عن إضاعة المال ، إلى غير ذلك .

فمن ثم قال لنا أبو العباس الحضرمي ﵁ : ليس الشأن من يعرف تفريق الدنيا فيفرقها ، إنما الشأن من يعرف كيفية إمساكها فيمسكها ، قلت : وذلك لأنها كالحية ليس الشأن في قتلها وإنما الشأن في إمساكها وهي حية .

وفي حديث : « ليس الزهد بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال ، إنما الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك » .

وقال الشيخ أبو مدين ﵁ : الدنيا جرادة ورأسها حبها ، فإذا قطع رأس الجرادة حلت .

وقال الشيخ أبو محمد عبد القادر ﵁ لما سئل عن الدنيا : أخرجها من قلبك واجعلها في يدك ، فإنها لا تضرك انتهى .

وكل هذه الجمل تدل على أن الزهد فيها ليس عين تركها ، فافهم « منه »

وقال سيدي أبو المواهب رضي الله عنه : لما طلب موسى عليه السلام من الحق الرؤيا زيادة على ما آتاه من الكلام لم يجبه وقال : فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ، فدلت الآية أنه لا ينبغي للعبد أن يطلب الزيادة على ما أعطاه الله تعالى إلا مع التفويض . « تقريب » ٧٨

فصل

في الرياء ومتعلقاتها

قال السيد أحمد زيني ﷺ نقلا عن « الحكم » : حظ النفس في المعصية ظاهر جلي ، وحظها في الطاعات باطن خفي ، ومداواة ما يخفى صعب علاجه ، وذلك لأن حظها في التلذذ بها ، فإنها لا تطلب منك التلبس بالمعصية إلا لأجل أن تلتذ بها ، فيحصل لك الوبال والنكال ، وحظها في الطاعة باطن خفي لا يطلع عليه إلا أرباب البصائر ، وذلك لأن في الطاعة مشقة عليها ، فإذا أمرتك بالطاعة لم تعلم حظها فيه إلا بعد تفتيش ، فقد تريك أن حظها فيها التقرب إلى الله تعالى ، وفي الباطن ليس لها حظ إلا إقبال الناس عليك واشتهارك بينهم بالصلاح .

ومن حاسب نفسه وراقب خاطره تبين له مصداق هذا ، ومداواة ما يخفى أي زوال حظوظها الخفية صعب علاجه لأنه يحتاج إلى دقة فهم ونفوذ إدراك .

فأرباب البصائر يتهمون نفوسهم إذا مالت إلى عبادة من العبادات ويفتشون عن سبب ميلها إليها ، فإن كان لحظ من حظوظها تركوها أو عالجوا نفوسهم في حال فعلها ، حتى تكون خالصة لله تعالى .

وقد يجد الشخص من النشاط واللذة في نوع من العبادات ما لا يجده في نوع آخر ، وما ذاك إلا لأجل أن حظها فيه أكثر من الآخر ، فإذا كان من أهل البصائر انتقل عما مالت نفسه إلى غيره ، فإن طاوعته لم يكن لها في الاشتغال بذلك النوع حظ ، وإلا كان لأجل حظها .

ومن ذلك فعل الطاعات مع الرياء ، فإنه قد تحبه النفس ولو لم يره الناس ، لأن حظها إذا رآه الناس ظاهر جلي ، وأما إذا لم يروه فإنه باطن خفي ، وذلك في شخص فعل الطاعة في مكان لا يراه فيه أحد ، فيظن أنه مخلص فيه ليس عنده شيء من الرياء مع أن الرياء أخفى في النفس من دبيب النمل ، فيحتاج هذا الشخص إلى امتحان نفسه حيث ادعت الإخلاص .

وقد ذكروا لذلك علامات يعرف بها أنه مخلص أو مراء ، فإن كان يحب بقلبه توقير الناس له وتعظيمه وتقديمه في المحافل والمجالس ، ويحب مسارعتهم إلى قضاء حوائجه بحيث إذا قصر أحدهم في حقه الذي يزعم أنه يستحقه حسب ما قام بنفسه يستبعد ذلك ويستنكره ، ويجد في نفسه تفرقة بين إكرامه وإكرام غيره وإهانته وإهانة غيره ، فهو مراء بعمله وإن أخفاه عن أعين الناس ، حتى أن بعض من كان كذلك يظهر ذلك على لسانه ويتوعد من قصر في حقه بمعاجلة الله تعالى بالعقوبة وأن الله تعالى لا يدعهم حتى ينتصر له ويأخذ بثأره ، وذلك كله يدل على سخافة عقله وأنه مراء بعمله ، طالب به الثواب من الخلق لا من الخالق .

واعلـــــم أيها الأمين أن الدين قد امتزج بالرياء ، خاصة في زماننا هذا ، والمتشيخون خاضوا فيها لأجل جلب حطام هذه الفانية ، قد فرحوا بالنفاق وامتزجوا والتبسوا في العيان واشتبهوا وما لأقوالهم إذا كشفت حقائق بل جميعها شبه ، وسنبين قدرا منها إن شاء الله تعالى ، وذلك أن حقيقة الرياء طلب المنزلة في قلوب الخلق ، يفعل العبد عبادة ، و يبني مسجدا ورباطا ويتصدق بصدقة ويحب أن يحمده الناس ويثنوا عليه ، ويكون مقصده رؤية الخلق دون رضا الرب تعالى ، فإن كان مقصده محمدة الخلق فقط فهو شرك . والرياء كبيرة عظيمة قال ﷺ : « لا أخاف على أمتي في شيء كما أخاف من الشرك الخفي ، ألا وهو الرياء » .

وعلاج ذلك شديد لامتزاجه بقلب الأدمي وترسخه فيه ، وسبب صعوبته أن الأدمي منذ كبر ونشأ بين الناس رآهم يتراءون فيما بينهم ويزين بعضهم بعضا ويمدح بعضهم بعضا ، وعلاجه علمي وعملي ، أما العلمي فأن يعلم ضررة أن كل ما يفعله الآدمي إنما يفعله لوصول لذة إليه في الوقت أو في ثاني الوقت ، فإذا علم العافية والعاقبة وجب أن يترك تلك اللذة في الحال . هكذا قاله الخوارزمي في « المفيد » اهـ مختصرا .

فصل

في ذكر البلاء وأهلها وما لهم عند الله تعالى من الأجور بها والصبر عليها

قال ابن عباد النفزي ﵁ في « شرح الحكم » : قال أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي ﵁ : ولقد مرضت في سالف أيامي مرضة ، فلما شفاني الله تعالى منها مثّلت في نفسي ما دبر الله تعالى لي من هذه العلة في مقدار هذه المدة وبين عبادة الثقلين في قدر أيام علتي فقلت : لو خيرت بين هذه العلة وبين أن تكون لي عبادة الثقلين في مقدار مدتها ، إلى أيهما يميل اختياري ، فصح عزمي ودام يقيني ووقفت بصيرتي أن مختار الله تعالى أكثر شرفا وأعظم خطرا« ١ » وأنفع عاقبة ، وهي العلة التي دبّرها لي ولا شوب فيه إذا كان فعله ، فشتان بين فعله بك لتنجو به وبين فعلك لتنجو به ، فلما رأيت ذلك دق في عيني عبادة الثقلين في مقدار تلك المدة في جنب ما آتاني ، **فصارت العلة عندي نعمة** ، وصارت النعمة منة ، وصارت المنة أملا ، وصار الأمل عطفا ، فقلت في نفسي : بهذا كانوا يستمرون في البلاء على طيب النفوس مع الحق ، وبهذا الذي انكشف كانوا يفرحون بالبلاء اهـ .

فهذه هي وجهة التعرف التي فتحها الله تعالى له ، وحصلت له الغبطة بها وآثارها على عبادة الثقلين ، والله تعالى أعلم .

فإذا أنزل الله تعالى على العبد شيئا من البلايا فليستشعر ما ذكرناه وليجعله نصب عينيه ، وليجدد تذكاره على نفسه حتى يحصل له من السكون والطمأنينة ما يحمل عنه أثقال ذلك ويزيل عنه مرارته ويوجده حلاوته ، وعند ذلك يكون حاله في بلائه حال الشاكرين من الفرح والاغتباط به ، فيرى من حق شكره أن يأتي بما يمكنه من أعمال بره .

« ١ » أي قدرا .

واعتبر جميع ما قلنا في هذه المسألة بالحكاية التي ذكرها أبو العباس ابن العريف رحمه الله تعالى في كتابه « مفتاح السعادة » و« منهاج سلوك طريق الإرادة » قال فيه : كان بالمغرب عمر الله بالاسلام رجل يدعى أبا الخيار رحمه الله تعالى ونفعنا بذكره ، أصله من صقالية« ١ » وموطنه بغداد ، وجاوز سنّه التسعين وهو في الرق لم يعتقه مولاه وذلك منه عن قصد واختيار ، وعم جسده الجذام ورائحة المسك توجد منه على مسافة بعيدة .

قال الذي حدثني : رأيته يصلي على الماء ، ثم لقيت بعده محمد الأسفنجي ﷿ فإذا هو الأبرص فقلت له : يا سيدي كأن الله تعالى لم يجد للبلاء محلا من أعدائه حتى أنزله بكم وأنتم خاصة أوليائه ! قال : فقال لي : اسكت ، لا تقل ذلك ، إنه لما أشرفنا على خزائن العطاء لم نجد عند الله تعالى شيئا أشرف ولا أقرب إليه من البلاء فسألناه إياه ، فكيف بك لو رأيت سيد الزهاد وقطب العباد وإمام الأولياء و الأوتاد بغار في أرض طرسوس وجبالها ، لحمه يتناثر وجلده يسيل قيحا وصديدا ، وقد أحاط به الذباب والنمل ، فإذا كان الليل لم يقنع بذكر الله تعالى وشكره على ما أعطاه من الرحمة وأسكن جسده من العافية حتى يشد نفسه بالحديد ويستقبل القبلة عامة ليله حتى يطلع الفجر . انتهى وراجع « سهلي » في ٧٩ .

وقال العارف بالله سيدي أحمد بن إدريس الحسني ﷺ في الحديث القدسي « إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أردها عليكم ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلاّ نفسه »

معناه باعتبار ما يكون عند نزول المصائب من السخط والجزع لا في نفس الأمر ، فإن من وكل الله سبحانه وتعالى وحسن فيه ظنه فلا يرى كل مصيبة تصيبه إلا خيرا وإن كانت في الصورة شرا فإنه يعدّها خيرا ، لأن الصبر عليها من عزم الأمور ، فلولا هي ما وجد الصبر الذي ينال بسببه

« ١ » صقلّيّة : مدينة من مدن إيطاليا كانت إمارة تابعة للدولة الفاطمية .

خيرا ، فإذا لا يرى إلا خيرا ، وهو يحمد الله تعالى عند السراء وعند الضراء عازما ومعتقدا أن ما فعل به مولاه فهو خير .

ولو كشف له الغطاء ما اختار غيره ، ومن رآى غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، أي هو الذي صيره شرا بسخطه عند نزول المصيبة وعدم رضاه بها ، وإلا فلو رضي وحمد الله تعالى لكانت خيرا ، فإنه بسببها إذا قال : إنا لله وإنا إليه راجعون يصلي عليه الله تعالى وملائكته ، وأي خير أعظم من هذا ، قال الله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ لأن كل ما أصابك من عند الله تعالى ، وإذا كان من عند الله تعالى فهو خير وإن كان في ظاهر الأمر شرا مع الرضا والتسليم والصبر ، فإذا لم ترض به فأنت الذي صيرت الخير شرا ، ثم تقع السيئة من العبد ، وقد فتح الله تعالى له باب التوبة ، فإذا تاب انقلبت تلك السيئة حسنة في نفسها ، فهي حسنة باعتبار المآل ، وهي من الله سبحانه وتعالى ، وإذا لم يتب بل أصر عليها ، فهي سيئة وهي من نفسه بسبب إصراره عليها . « العقد النفيس » ١٣٤

فصل

في السبحة والعمامة والخرقة وزي أهل التصوف والسواك والإسبال

وعن الصادق ﷺ قال : ضمنت لمن يخرج من بيته متعمما تحت حنكه أن يرجع إلى أهله سالما .

وعنه قال : من خرج في سفر فلم يُدِرْ العمامة تحت حنكه فأصابه ألم لا دواء له ، فلا يلومنّ إلا نفسه .

وعن أبي الحسن ﷺ قال : أنا لضامن لمن خرج يريد سفرا متعمما تحت حنكه أن لا يصيبه السرقة والغرق والحرق . « مكارم الأخلاق » ٩٥ .

واعلم أن إلباس الخرقة ومناولة السبحة وأخذ العهد والمصافحة والمشابكة من علم الرواية ، إلا أن يقصد بها حال فتكون من أجله .

وقد ذكرنا الأحاديث في ذكر الحديث المسلسل في بابه في حقها ، وقد ذكر ابن أبي جمرة أخذ العهد في باب البيعة وألحقه بأقسامها ، وأخذوا إلباس الخرقة من أحاديث وردت في خلعه عليه الصلاة والسلام على غير واحد من أصحابه ومبايعة سلمة بن الأكوع تشهد لإيداع السر فيها ووجهها وطريقها ، ليس هذا محله ، نعم ، هي لمحب أو منتسب أو محقق ، وفيها أسرار خفية يعلمها أهلها والله تعالى أعلم .

وقال ﷺ أيضا : المتشبه بالقوم ملحق بهم لحديث : « من تشبه بقوم فهو منهم » ، لأنه مؤذن بالمحبة .

وقد صح : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، قال ﷺ : « أنت مع من أحببت » ، فجاز التشبه بأهل الخير في زيهم ، إلا إن قصد التلبيس والتغرير كلبس المرقعة وأخذ السبحة والعصا والسجادة والأصباغ ونحوه لما في ذلك

مما ذكر ومن حماية النفس عن كبائر لا تمكن معه ، وإن أمكنت فلا تمكن المجاهرة بها ، ثم لباس المرقعة أقدر على دفع الكلاب وأذهب للكبر وأقرب للحق مع الاقتداء بعمر ﵁ ، إذ لبسها مع وجود غيرها لصلاح قلبه .

ألا تراه حين ألبس غيرها قال : أنكرت نفسي ، وهي أيضا أقرب لوجود الحلال في اللباس ، نعم ولمنع أكثر الإذايات في الأسفار و غيرها ، وقد أمر الله تعالى النساء المؤمنات مع أزواج رسول الله ﷺ وبناته بالتدني« ١ » حتى يعرفن فلا يؤذين ، وكان عمر ﵁ يضرب الإماء على التنقب للتشبه بالحرائر .

وقال الشيخ أبو يوسف الدهماني ﵁ لفقير له أخذه العرب ولم يكن معه زي الفقراء : المفرط أولى بالخسارة ، لأن هذه الأسباب سلاح ، من دخلها احترم من أجل الله تعالى ، ومن لم يحترمه فقد هتك حرمة الله تعالى ، ومن هتك ذمة الله تعالى فلا يفلح .

وقال الشيخ لبعض الشباب : إياكم وهذه المرقعات ، فإنكم تكرمون لأجلها ، فقال : إنما نكرم بها لأجل النسبة إلى الله تعالى ، قال : نعم ، قالوا : حبّذا من نكرم لأجله ، فقال الشيخ : بارك الله تعالى فيكم أو كما اتفق اهـ .

وقال شيخ شيخنا ﵁ : خرقة التصوف هي ما يلبسه المريد من يد شيخه الذي يدخل في إرادته ويتوب على يده لأمور ، منها التزي بزي المراد ، ليلتبس« ٢ » بصفاته كما يلبس ظاهره بلباسه ، وهو لباس التقوى ظاهرا وباطنا . قال الله تعالى : ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾

ومنها وصول بركة الشيخ الذي ألبسه من يده المباركة إليه .

ومنها نيل ما يغلب على الشيخ في وقت الإلباس من الحال ، فيرى الشيخ ببصيرته النافذة المنورة بنور القدس أنه يحتاج إليه برفع حجبه العائقة وبتصفية

« ١ » أي بلبس الحجاب المُشار إليه في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾ .
« ٢ » وفي نسخة « جـ » : ليلبس .

استعداده ، فإذا وقف على حال من يتوب على يده علم بنور الحق ما يحتاج إليه ، فيتنزل من الله تعالى ذلك حتى يتصف قلبه به ، فيسري من باطنه إلى باطن المريد .

ومنها المواصلة بينه وبين الشيخ ، فيبقى بينهما الاتصال القلبي والمحبة دائما ، ويذكره الأتباع على الأوقات في طريقته وسيرته وأخلاقه وأحواله ، حتى يبلغ مبلغ الرجال ، فإنه أبٌ حقيقي كما قال عليه الصلاة و السلام : « الآباء ثلاثة أبٌ ولدك وأبٌ علّمك وأبٌ ربّاك » . « جامع الأصول » في ٧٢ .

وقد أطنب خاتمة المحققين الشيخ محمد مراد المنزلوي – ونفسي فداه – في « تعريبه » على هامش « المكتوبات » ما عبارته :

ومنها : ينبغي السعي حتى يتيسر العمل بالسنة والاجتناب عن البدعة ، خصوصا البدعة التي تكون رافعة للسنة ، قال عليه الصلاة والسلام : « من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد » .

وأعجب من حال جماعة يحدثون في الدين مع وجود إكماله وإتمامه أشياء يطلبون بتلك المحدثات تكميل الدين ، ولا يبالون بما عسى يكون ذلك المخترع رافعا للسنة ، مثلا إرسال ذنب العمامة بين الكتفين سنة ، وقد اختار جمع إرساله من طرف اليسار ، وكان منظورهم في ذلك التشبه بالموتى .

وقد اقتدى بهم جمع كثير في هذا الفعل ولا يدرون أن هذا العمل رافع للسنة ومؤد إلى البدعة وموصل إلى الحرمة ، أيهما أفضل التشبه بالموتى أو التشبه بمحمد رسول الله ﷺ ، وهو الذي تشرف بالموت قبل الموت ، فإن يطلبوا التشبه بالميت فالتشبه به أولى والعجب أن نفس العمامة بدعة في كفن الميت فكيف ذنبها ؟ !

وبعض المتأخرين استحسن العمامة في كفن الميت إذا كان من العلماء وعند الفقير الزيادة نسخ والنسخ عين الرفع . ثبّتنا الله تعالى على متابعة السنة السنية المصطفوية على مصدرها الصلاة والسلام . انتهى ما في هامش « المكتوبات » ١٥١

وقال الشيخ السهروردي ﷺ : سمعت شيخنا يقول : جاء بعض أبناء الدنيا إلى الشيخ أحمد الغزالي ﷺ ونحن بأصبهان ، يريد منه الخرقة ، فقال له الشيخ : اذهب إلى فلان - يشير إليّ - حتى يكلمك في معنى الخرقة ، ثم احضر حتى ألبسك الخرقة ، قال : فجاء إليّ ، فذكرت له حقوق الخرقة وما يجب من رعاية حقها وآداب من يلبسها ومن يؤهل للبسها ، فاستعظم الرجل حقوق الخرقة وجبن أن يلبسها ، فأُخْبِر الشيخ بما تجدّد عند الطالب من قولي له ، فاستحضرني وعاتبني على قولي له ذلك وقال : بعثته إليك حتى تكلمه بما يزيد رغبته في الخرقة ، فكلمته بما فترت عزيمته ، ثم الذي ذكرته كله صحيح ، وهو الذي يجب من حقوق الخرقة ، ولكن إذا ألزمنا المبتدئ ذلك نفر وعجز عن القيام به ، فنحن نلبسه الخرقة حتى يتشبه بالقوم ويتزيا بزيّهم فيقربه ذلك من مجالسهم ومحافلهم ، وببركة مخالطته معهم ونظره إلى أحوال القوم وسيرهم يسلك مسلكهم ويصل بذلك إلى شيء من أحوالهم .

ويوافق هذا القول من الشيخ أحمد الغزالي ﷺ ما أخبر شيخنا . . الخ يقول : سمعت أبا القاسم الجنيد ﷺ يقول : إذا لقيت الفقير فلا تبدأ بالعلم وابدأه بالرفق ، فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه ، وبرفق الصوفية بالمتشبهين بهم ينتفع المبتدئ الطالب ، وكل من كان منهم أكمل حالا وأوفر علما كان أكثر رفقا بالمبتدئ الطالب . « عوارف » .

وقال العارف أبو العباس زروق ﷺ في « القواعد » : اعتبار النسب الحكمية جار في الأمور الحكمية على وجه نسبتها منه ، فمن ثم اعتبر العدد في الذكر ، إذ مرجع الوجود إليه باعتبار جواهره وأعراضه ، فإذا وافقت النسبة محلها وقع التأثير حسب القسمة الأزلية .

ولعقد الأعداد وجه في الشرع ، إذ قال عليه الصلاة و السلام لنساء من المؤمنات : « واعقدن بالأصابع فإنهن مسؤلات مستنطقات » ، وأقر بعض أزواجه على تسبيحها في نوى كانت بين يديها .

وكان لأبي هريرة ﷺ خيط قد ربط فيه خمسمائة عقدة يسبح فيها .

والسبحة أعون على الذكر وأدعى للدوام وأجمع للفكر وأقرب للحضور وأعظم للثواب ، إذ له ثواب أعدادها وما تعطلت فيه لضرورة أو تعطل منها لغلط ونحوه لتعيينها ، وفي تحصيل ثواب ذكر جامع لعدد كقولك : (سبحان الله عدد خلقه) على ما هو به مع تضعيفه أو دونه أو لقوة أقوال بلا تضعيف .

قيل : وذوات الأسباب كتسبيح التعجب أفضل من مطلقها ، فيترك المطلق للمقيد في وقته ، والله تعالى أعلم . « قواعد » .

وذكر في « اللواقح » في ١٨ : وقد بلغنا عن الشبلي ﷺ أنه احتاج إلى سواك وقت الوضوء فلم يجده ، فبذل فيه نحو دينار حتى تسوك به ولم يتركه في وضوء ، فاستكثر بعض الناس بذل ذلك المال في سواك فقال : إن الدنيا كلها لا تساوي عند الله تعالى جناح بعوضة ، فماذا يكون جوابي إذا قال لي : لِم تركت سنة نبيّي ولم تبذل في تحصيلها ما خصك الله تعالى به من جناح البعوضة ؟ فأعجزه ومضى .

وأظنك يا أخي لو طلب منك صاحب السواك نصفا واحدا حتى يعطيه لك لتركت السواك وقدمت النصف ، وأنت تزعم أنك من أولياء الله تعالى ومن المقربين عند رسول الله ﷺ .

والله إنها دعوى لا برهان عليه . وسيأتي ما يستفاد منه في الأحاديث : إن قليل العمل مع الأدب خير من كثير العمل من غير أدب .

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول لقراء القرآن : إياكم والغيبة والتكلم بالكلام الفاحش ثم تتلوا القرآن فإن حكم ذلك حكم من مس بألفاظ القرآن القذر ، ولا شك في كفره .

فعظم يا أخي سنة نبيك واستغفر الله تعالى من استهانتك بتركها ، فإنك لو صرحت بالاستهانة كفرت ، وحكم الباطن عند الله تعالى في ذلك حكم الظاهر ، والله غفور رحيم .

وروى البخاري وغيره واللفظ له مرفوعا : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة - وفي رواية مسلم - عند كل صلاة » ، و رواية النسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه : « لأمرتهم بالسواك مع الوضوء عند كل صلاة » ، وفي رواية للطبراني : « ما زال جبريل يوصيني بالسواك حتى خفت على أضراسي » ، وفي رواية له : « حتى خشيت أن يدردرني - أي يسقط - أسناني » .

وروى أبو نعيم رحمه الله تعالى مرفوعا بإسناد جيد كما قاله المنذري : « لأن أصلي ركعتين بسواك أحب إلي من أن أصلي سبعين ركعة بغير سواك » ، وفي رواية أخرى بإسناد حسن : « ركعتان بسواك أحب إليّ من أن أصلي سبعين ركعة بغير سواك » .

والأحاديث في ذلك كثيرة جدا ليس هذا موضع ذكرها .

وحمل العصا سنة ، وفي مسند الفردوس عن أنس ابن مالك ﵁ أنه قال : قال رسول الله ﷺ : أيعجز أحدكم أن يتخذ في يده عصا في أسفلها عكاز يدعم عليها إذا أعيا ويجس بها الماء ويميط بها الأذى عن الطريق ويقتل بها الهوام ويقاتل بها السباع ويتخذها قبلة بأرض فلاة » .

وعنه ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « حمل العصا علامة المؤمن » .

فصل

في زيارة القبور وبناء الدار عليها وتجصيصها والكلام في حق ذلك

وقد صرح كثير من العارفين أن الولي بعد موته ووفاته تتعلق روحه بمريده ، فيحصل لهم ببركته أنوار وفيوضات .

وممن صرح بذلك قطب الإرشاد سيدي عبد الله بن علوي الحداد ﷺ ، فإنه ﷺ قال : الولي يكون اعتناؤه بقرابته واللائذين به بعد موته أكثر من اعتنائه بهم في حياته ، لأنه في حياته كان مشغولا بالتكليف ، وبعد موته طرح عنه الأعباء وتجرد ، والحي فيه خصوصية وبشرية ، وربما غلبت إحداهما الأخرى وخصوصا في هذا الزمان ، فإنها تغلب البشرية ، والميت ما فيه إلا الخصوصية فقط .

وقال أيضا : إن الأخيار إذا ماتوا لم تفقد منهم إلا أعيانهم وصورهم ، وأما حقائقهم فموجودة ، فهم أحياء في قبورهم ، وإذا كان الولي حيا في قبره فإنه لم يفقد شيئا من علمه وعقله وقواه الروحانية ، بل تزداد أرواحهم بعد الموت بصيرة وعلما وحياة روحانية وتوجها إلى الله تعالى .

فإذا توجهت أرواحهم إلى الله تعالى في شيء قضاه سبحانه وتعالىوأجراه إكراما لهم ، وهذا معنى قول بعضهم إن لهم التصرف ، فالتصرف الحقيقي الذي هو التأثير والخلق والإيجاد لله تعالى وحده لا شريك له ، ولا تأثير للولي ولا غيره في شيء قط ، لا حيا ولا ميّتا .

فمن اعتقد أن للولي أو غيره تأثيراً في شيء فهو كافر بالله تعالى ، فأهل البرزخ من الأولياء في حضرة الله تعالى ، فمن توجه إليهم وتوسل بهم فإنهم يتوجهون إلى الله تعالى في حصول مطلوبه .

فالتصرف الحاصل منهم هو توجههم بأرواحهم إلى الله تعالى ، والتصرف الحقيقي لله وحده ، فالواقع منهم من جملة الأسباب العادية التي لا تأثير لها ، وإنما يوجد الأمر عندها ، لا بها ، على حسب ما أجراه الله تعالى من العوائد ، وعلى هذا المعنى يفسر السلب الذي يسند إلى الأولياء فيقال : سلب فلان فلانا ، فهو بتوجهه إلى الله تعالى في حصول السلب إن أراده الله تعالى يحصل بفعل الله لا بفعله .

فاحذر أن يشتبه عليك أحد المعنيين بالآخر فتزل ، والله الهادي إلى سواء السبيل . انتهى راجع « تنوير الصدر » في ٢٢١ .

وقال الشيخ العارف علي الواعظ الهروي ﵁ في « الرشحات » : قد تقرر عند أهل التحقيق أن الترقي واقع بعد الموت .

وكلام الشيخ محي الدين بن عربي ﵁ ناظر لهذا المعنى الذي ذكرناه في فصل زيارة الأموات حيث قال : اجتمعت مرة في تجلٍّ من التجليات مع أبي الحسن النوري ﵁ فقبّلني وصار ريانا مني فقلت له : ألم تقل أن عطشان التوحيد لا يروي من الغير ، فخجل فقلت : من أخذ عن العالي لا يقال أنه أخذ عن الغير .

ولأرباب التحقيق كلام كثير غير هذا يدل على الترقي بعد الموت .

وقال : يقول راقم الحروف : قال الشيخ محي الدين بن عربي ﵁ في بعض مواضع « الفتوحات » : إن أحد نفاة الترقي بعد الموت الشيخُ أبو الحسن النوري ﵁ ، ولا يخلو حاله بعد الموت عن أحد الأمرين ، إما أن يعلم يقينا أن الترقي واقع أو يعلم أنه غير واقع .

فإن كان الأول ثبت المدعى ، وإن كان الثاني فهذا علم آخر حصل له بعد الموت ، فالترقي بعد الموت حاصل على كل حال . « رشحة » ١٩٧ .

ومن كلام شيخ مشائخنا الشيخ أحمد الفاروقي ﷺ : أمنية الفقير أن تكون أنفاس الحياة المستعارة مصروفة في مراضيه سبحانه في زاوية الخمول ولسانه رطبا بتكرار الكلمة الطيبة لا إله إلا الله محمد رسول الله ، إلهي وفقني مع الأحبآء لذلك وبعّد عن صدورنا التعلق بما سواك علما وحبا حتى لا يخطر على قلبي خيال الغير أصلا آمين . « المقامات السعدية » .

وقال العارف الهروي عن شيخه عبيد الله الأحرار ﷺ : إن زائر مشاهد المشائخ الكرام يقدر أن يأخذ عنهم الفيض بقدر ما يعرف صفة المزور ويتوجه إليه بتلك الصفة ويحضر عنده بها ، وإن القرب الصوري في زيارة المشاهد المقدسة وإن كانت له آثار كثيرة ، ولكن لا يمنع البعد الصوري في الحقيقة عن التوجه إلى الأرواح المقدسة ، وفي قوله ﷺ : « صلوا عليّ حيثما كنتم » بيان وبرهان لهذا المعنى ، ومشاهدة الصور المثالية لأهل القبور عند التوجه والزيارة ليس لها كثير اعتبار في جنب معرفة صفاتهم ، ومع ذلك كله قال الخواجه بهاء الدين ﷺ : إن مجاورة الله تعالى أحق وأولى من مجاورة خلق الله تعالى .

وكثيرا ما كان يجري على لسانه المبارك هذا البيت

كَمْ تَعْبُـدونَ مَراقِـدَ الأمْواتِ ... قُمْ وانْتَهِجْ في مَنْهَجِ السَّاداتِ

وينبغي أن يكون مقصود زائر مشاهد الأكابر ﷺ التوجه إلى الله تعالى ، وأن يجعل روح ذلك الولي الذي اجتباه الله تعالى إليه وسيلة لكمال التوجه ، كما أن التواضع للخلق وإن كان في الظاهر تواضعا لهم ينبغي أن يكون المقصود من التواضع في الحقيقة التواضع لله تعالى ، فإن التواضع إنما يكون محمودا إذا كان لله تعالى خاصة بمعنى أنه **يرى الخلق مظاهر لآثار قدرة الله وحكمته** ، وإلا فيكون تصنعا وتكلفا وسمعة وضعة لا تواضعا ، ويكون مذموما جدا كما ورد في الحديث : « من تواضع لغني لغناه ذهب ثلث دينه » ، وفي رواية : « ثلثا دينه » .

وقال بعض الأكابر ﷺ : هذا إذا تواضع بظاهره ، وأما إذا تواضع بباطنه فيذهب دينه كله . انتهى « رشحات » .

وقال شيخ شيخنا ﷺ في « جامعه » في آداب زيارة الأنبياء عليهم السلام والأولياء : فليتوسل المريد بروحانية مرشده الذي عمّه من خيره ، ويتخذه شفيعا إلى حضرة ذلك المزار في ابتداء سيره ، ويلاحظه أمامه على طريقة الشافعين للقوم العاصين ، ويستغفر كثيرا من جميع ذنوبه ومخالفة وعده ، بل من علمه وفضله وزهده ، ويلاحظ نفسه مفلسا من العمل الصالح ، ولا يتأذى بمشاق الطريق ، بل يعدها فضلا ونعمة من الله تعالى ، فإن في ذلك إشارة إلى حصول المطلوب ، كما وقع لموسى مع الخضر عليهما السلام في قوله تعالى : ﴿لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾ .

ويخلص في حضرة القبر النية الظاهرية والباطنية ، ويسلم عليه من كل باب من أبوابه مع الذل والانكسار عند القرب لرجائه ويقول : السلام عليكم تحية مني إليكم ، ويقرأ في كل باب الفاتحة والإخلاص ثلاثا ثلاثا ، ويقول : أتوسل بكم إلى رب البرية لتسهيل أموري في الدنيا والآخرة .

والأحسن أن لا يقصد بتلك الزيارة غير مرضاة الذات القدسية ، لا غرضا من الأغراض الدنية .

ثم إذا وقع نظره على مرقد حضرة القبر يقرأ الفاتحة في كل خطوة مرة إلى سبع خطوات ، ويربط قلبه بقلب حضرة القبر على الوقوف القلبي للاستفاضة من باطنه ، سواء كان من الأحياء أو من الأموات .

ثم يقف متوجها إلى ضريح المزار قريبا من رجليه مستدبرا للقبلة ملاحظا مرشده الشفيع له بحضرة المزار ومتوسلا بذلك الشفيع إليه .

وحينئذ يسلم عليه ويقرأ الفاتحة والإخلاص قائما كأنه حي وهو واقف بين يديه ، فلو جلس وقرأ عُشرا من القرآن فهو أفضل .

ثم يستفيض من قلبه جاعلا قلبه ملاصقا بقلب المزار ، لكن قلبه أنزل ، ولا يسهو عن الوقوف القلبي بغاية التضرع والانكسار ولا يتغافل ، ويحسن الظن به إن كانت له حاجة فإنها تقضى بواسطته بإذن ربي قال تعالى : « أنا عند ظن عبدي بي » ، كما ذكرنا هذا القول مرات .

ومدة تلك الاستفاضة بإقامته وعلى قدر ذوقه وجمعيته وأدبه ، ثم يدعو له وللمؤمنين والمؤمنات بقوله : « اللهم اغفر لي وللمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات » ، **ويخصص نفسه ومرشده بالدعوات الصالحات ، ويتوسل بالمزار إلى رابطته الداعي له إلى الله برشده لينيله من خيره ورفده** ، ويتحقق بإجابة دعواته ، فإنه لا يدعو داع بمباح إلا وصاحب المرقد يؤمّن على دعائه فيستجيب الله تعالى له بفضله وعنايته .

وإذا أراد الذهاب وانتصبت قدماه يسلم كالأول ويقرأ الفاتحة والإخلاص أو مع عُشرٍ من القرآن[١] ويتوسل به في أموره الدنيوية والأخروية إلى ربه .

ويفعل ذلك في كل باب من أبوابه ، ويخرج على قفاه ، فإذا فعل ذلك حصل مطلوبه وانتصر وانقطع عنه كل شر وضرر . « جامع الأصول » ٢٠٧ .

وقال الشيخ العارف الواعظ علي بن حسين الهروي ﷺ في « رشحات عين الحياة » : كشف القبور عبارة عن تمثل روح صاحب القبر بصورة مناسبة لصورته المثالية ، فيراه صاحب الكشف في تلك الصورة بعين بصيرته ، لكن لما كانت في الشياطين قوة التمثل والتشكل بصور مختلفة وأشكال متنوعة لم تعتبر أكابر النقشبندية ﷺ هذا الكشف .

وطريقتهم في زيارة أصحاب القبور واطلاع أحوالهم أنهم إذا وصلوا إلى قبر واحد من الأكابر يخلون أنفسهم عن جميع النسب والكيفيات ويجلسون منتظرين لظهور نسبةٍ ، فيعلمون من تلك النسبة حال صاحب القبر .

« ١ » بما يعادل ثلاثة أجزاء .

وطريقهم في صحبة شخص أجنبي أيضا كذلك ، فإذا جاء عندهم شخص ينظرون إلى بواطنهم ، فما ظهر فيها بعد مجيء هذا الشخص يرون أنه منه ، وليس لهم دخل فيه ، فيعاملون معه بمقتضى ذلك من اللطف والقهر .

وقال الشيخ محي الدين بن عربي ﷺ لمثل هذا الظهور « تجلي المقابلة » .

فظهور هذا المعنى إنما هو بواسطة صفاء بواطنهم المنورة وجلائها ولطهارة مرآة نفوس حقائقهم عن النقوش الكونية بحيث لم يبق فيها غير التجلي الذاتي بسبب كمال محاذاتها للذات المنزهة عن الكم والكيف ، فما يظهر في بواطنهم غير ذلك لا يكون منهم ، بل من انعكاسه في مرآة قلوبهم بواسطة تقابل شخص هو له .

وقال مؤيدا لهذا المعنى : قال مولانا نظام الدين خاموش عليه الرحمة يوما : قم بنا نزور اليوم مقابر شاش ، فذهبت في خدمته ، فقعد عند قبر زمانا ، ثم قام بكيفية عجيبة وقال : قد كانت نسبة الجذبة غالبة على صاحب هذا القبر ، وكان هذا قبر خواجه إبراهيم كيمياكر ﷺ وكان من مجاذيب زمانه ، ثم جاء عند قبر آخر وتوقف فيه لحظة ثم خرج منه وقال : كانت النسبة العلمية غالبة على صاحب هذا القبر ، وكان ذلك قبر الشيخ زين الدين كوى عارفان ﷺ ، وكان من العلماء الربانيين . « رشحة » ١٩٧ .

وقال الشيخ ابن زروق رضي الله عنه في « القواعد » : ما صح واتضح وصحبه العمل لازم الإباحة« ١ » كزيارة المقابر ، فقيل : إلا لمجرد الاعتبار بها لقوله عليه الصلاة والسلام : « فإنها تذكر الآخرة . . » إلى آخره . اهـ ٥٥

« ١ » أي بقي على حكم الإباحة .

فصل

في الزيارات بين المشائخ والأصحاب وغيرها

وهي مما تورث المحبة والمودة وتجلب المنفعة إن كانت الزيارة برعاية حقوقها وآدابها

اعلم أيها المأمون أن القطب الشعراني ﷺ ذكر في « المنن » ما عبارته : أن من رأى شخصا مشهورا من الصالحين يتكدر من إخوانه إذا انقطعوا من زيارته وجفوه ، فليس ذلك من حيث الاستئناس بهم بحكم الطبع ، وإنما ذلك من حيث كونهم عنوانا على رضى ربه عنه ، وعدم رضا الحق تعالى من عبده لا يطاق حمله ، فلذلك طمّن« ١ » الحق تعالى قلب نبيه ﷺ بقوله : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ .

وأنشد سيدي علي وفا قدس سره من جملة أبيات :

أَنْتَ الحَياةُ فَلَيْسَ عَنْكَ تَصَبُّرٌ   وَجَفاكَ مَوْتٌ ما عَلَيهِ تَجَلُّدُ

وكان سيدي على الخواص رحمه الله تعالى يقول : لا ينبغي لفقير أن يتكدر من انقطاع الناس عن التردد إليه والغفلة عنه ، بل الأليق به الفرح ، لأن كثرة صحبة الناس اليوم تشغل الفقير عن ربه عز وجل .

وفي القرآن العظيم : ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فليمتحن من يدعي محبة الوحدة بهذا الميزان ، فإن وجد نفسه تشتاق إلى رؤية من لا يذكّره الله تعالى فليعلم أنه كاذب في دعواه .

قال : ومن تأمل حال أكثر المزاورين اليوم من الفقراء وغيرهم وجد زيارتهم معلولة ، والحمد لله رب العالمين .

« ١ » أي طمْأن .

فصل

في النسك والرياضات والمجاهدة والزهد

قال محمد بن الفضل البلخي ﷍ : أعرف الناس بالله أشدهم مجاهدة في أوامره وأتبعهم لسنة نبيه ﷺ . « نفحات » ١٦٩ .

واعلم أن السلف الصالحين قد بذلوا نفوسهم وأرواحهم لله بالمجاهدات والمكابدات بترك المتلذذات من الطعام والشراب والملبس والمسكن وغيرها حتى تقطرت الدم من دماغهم .

ولذلك قال السري السقطي ﷍ :

لا فــي النَّهارِ وَلا في الَّلَيْلِ لِي فَرَجٌ   فَــلا اُبالي أطــالَ الَّليــلُ أمْ قَصُرا

اهـ . منه ١٠٦

و في الحديث عن رسول الله ﷺ : « اجتهدوا في العمل ، فإن قصر بكم ضعف فكفّوا عن المعاصي » .

وروى محمد بن يعقوب رحمه الله تعالى بإسناده إلى جعفر بن محمد الصادق ﷛ عن النبي ﷺ : « أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبها بقلبه وباشرها بجسده وتضرع لها ، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على يسر أو عسر » . « كشكول » ٢٤٠ .

وقال الشيخ عبيد الله أحرار ﷍ : إن المقصود من الرياضات إنما هو نفي التعلقات الجسمانية بالكلية ، والتوجه الكلي إلى عالم الأرواح وعالم الحقيقة ، والمقصود من السلوك أن يتخلص العبد باختياره وكسبه عن هذه التعلقات التي هي مانعة للعبد عن الطريقة ، وأن يعرض كل واحد من تلك التعلقات على نفسه ، فإن كان قادرا على تركه فليعلم أن هذا التعلق ليس

بمانع عن الحق تعالى ولم يغلب عليه ، فإن لم يكن قادرا على تركه ورأى قلبه مربوطا فليعلم أنه مانع له عن الطريقة ، فليتثبت بتدبير قطعه وقلعه عنه .

وقد كان حضرة الخواجه إذا لبس ثوبا جديدا يقول أولا للاحتياط : إن هذا حق فلان ، ويلبسه مثل ثوب العارية .

وقال أيضا : ينبغي لأهل الطريقة أن يكثر من الرياضة والمجاهدة حتى يصل إلى مرتبة ومقام ، لكن للسالكين طريق آخر أقرب من جميع الطرق ، يمكن أن يصل منه إلى المقصود سريعا ، وهو أن يجتهد الطالب في أن يتمكن في قلب واحد من أرباب القلوب بواسطة خلق حسن أو خدمة لائقة به ، فإن قلب هذه الطائفة مورد لنظر الحق سبحانه وتعالى ، فيكون له نصيب منه انتهى .

وقال الشيخ عبيد الله أحرار ﷺ : ليست الأصالة عند أهل التحقيق أن يكون آباء شخص وأجداده من جنس الأمراء والوزراء ، ولا أن يكونوا منتظمين في سلك الفسقة والظلمة ، بل الأصالة عبارة عن حسن جوهر يكون في ذات الإنسان كالفطرة السليمة والسيرة السنية ، والذي يظنه أكثر الناس من أصالة أفراد الناس فهو عين سوء الأصل .

وقال أيضا : إذا أراد رجل خبيث الأصل أن يعد عيب إنسان يجري أولا على لسانه عيوب نفسه التي هي مركوزة في طبيعته الخسيسة ، فإنها أقرب إلى فمه من عيوب غيره .

وقال أيضا : ينبغي إظهار الشفقة والمرحمة على جميع الفقراء والسائلين وأن لا يمنع اللقمة من الأخيار والأشرار نظرا إلى موجده مع قطع النظر عن ذات السائل ووصفه ، وليس من اللوازم أن يكون المحسَن إليه جنيدا أو شبليا ، فإن عالي الهمة وصاحب الورع لا يتردد إلى أبواب الناس ولا يسأل عنهم شيئا أصلا ، ولكن من أين يعرف أن لا يكون في هذا اللباس والخرقة صاحب دولة مجهول ، بل الواقع في أكثر أولياء الله تعالى أن يستروا أحوالهم بصورة الفقر والفاقة . كذا في « الرشحات » في ١١٩

وقال الشيخ ابن زروق ﵁ : النسك الأخذ بكل ممكن من الفضائل من غير مراعاة لغير ذلك ، فإن رام التحقيق في ذلك فهو العابد ، وإن رام الأخذ بالأحوط فهو الوَرِع ، وإن آثر جانب الترك طلبا للسلامة فهو الزاهد ، وإن أرسل نفسه مع مراد الحق فهو العارف ، فإن أخذ بالتخلق والتعلق فهو المريد .

وكل هذه قد توجه الكلام عليها في « القوت » و « الإحياء » ، فباعتبار الأول اعتبر نقل الفضائل جملة وتفصيلا بأي وجه أمكن ، ما لم تعارض سنة أو تنقض قاعدة أو تقم بدعة أو تدفع أصلا أو ترفع حكما ، حتى قالا بكثير من الموضوعات والأحاديث الباطل إسنادها كصلاة الرغائب والأسبوع« ١ » والأدعية وأذكار لا أصل لها ، كأذكار الأعضاء في الوضوء ونحوه ، وباعتبار الكل رغبوا ورهبوا بنحو ذلك ، ولهم فيه أدلة معلومة . والله تعالى أعلم .

واعلم أن السالك مسافر إلى مولاه ، ومتى كان معه أكثر مما يحتاجه في سفره كان ذلك معوقا له عن السير ، فإن حضرة الحق محرمة على من يدخلها ومن خلفه شيء يجذبه .

فتزهّد في كل ما لا تحتاج إليه حتى يؤل بك الأمر إلى أن تزهد في الدنيا والآخرة ونفسك ، ولا تريد سوى مولاك ولا ترغب في حال ولا مقام ولا ظهور كرامة بين الأنام .

وهذا الأخير هو الذي يقتل الدجالين من المتشيخين الذين يريدون إراءة شيء على سبيل الكرامة ليميل إليه الناس ، عافانا الله تعالى من سوء ظنوننا وأعمالنا ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾

قال ابن عطاء الله ﵁ في « الحكم » : كيف يشرق قلب وصور الأكوان منطبعة في مرآته ، أم كيف يرحل إلى الله تعالى وهو مكبل في شهواته ، أم

« ١ » وهي : أربع ركعات ليلا وأربع نهارا في السبت والأحد ، وليلة الاثنين اثنتا عشرة ويومه ركعتان ، وليلة الثلاثاء ركعتان ويومه عشرون وليلة الأربعاء ركعتان ويومها اثنتا عشرة ، وليلة الخميس ركعتان ويومه ركعتان وليلة الجمعة اثنتا عشرة ويومها .

كيف يطمع أن يدخل حضرة الله ﷻ وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته . فافهم والله ولي التوفيق .

وقال بعض العارفين : ادعوا الله تعالى بلسان لم تعصوا به الله تعالى حتى تترتب عليه الإجابة ، يعني تواضعوا لأولياء الله تعالى وأظهروا لهم الانكسار والافتقار حتى يدعوا لكم فيستجابَ .

نحمد الله تعالى ونشكر هذه الطائفة ما أحسن حمل هذا الكلام إلى أعجب المحامل قدس الله تعالى أرواحهم وأعاد علينا بركاتهم ، فقد أيقظونا إلى سعة رحمة الله تعالى بعد أن آيسنا من أنفسنا ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين .

وقال الشيخ السهروردي قدس سره : ومن أخلاق الصوفية شكر المحسن على الإحسان والدعاء له ، وذلك منهم مع كمال توكلهم على ربهم وصفاء توحيدهم وقطعهم النظر عن الأغيار ورؤيتهم المنعم الجبار ، لكن يفعلون ذلك اقتداء برسول الله ﷺ على ما ورد أن النبي ﷺ خطب فقال : « ما من الناس أحد أمنّ علينا من ابن أبي قحافة ، لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » ، وقال : « ما نفعني مال أحد مثل ما نفعني مال أبي بكر » .

فالخلق حجبوا عن الله بالخلق في المنع والعطاء ، والصوفي في الابتداء مغن عن الخلق ، ويرى الأشياء كلها من الله تعالى حيث طالع ناصية التوحيد وخرق الحجاب الذي منع الخلق عن صِرف التوحيد ، فلا يثبت للخلق منعا ولا عطاء ويحجبه الحق عن الخلق .

فإذا ارتقى إلى ذروة التوحيد يشكر الخلق بعد شكر الحق سبحانه وتعالى ويثبت لهم وجودا في المنع والعطاء بعد أن يرى المسبب أولا ، وذلك لسعة علمه وقوة معرفته يثبت الوسائط ، فلا يحجبه الخلق عن الحق كعامة المسلمين ، ولا يحجبه الحق عن الخلق كأرباب الإرادة والمبتدئين .

فيكون شكره للحق لأنه المنعم والمعطي والمسبب ، ويشكر الخلق لأنهم وسائط وأسباب . ذكره في « العوارف » .

وينبغي أن يعلم أن الرياضات والمجاهدات من شرائط طريق الإنابة والإرادة ، وأنها ليست بشرط في طريق الاجتباء ومع ذلك هي نافعة .

مثلا حصل حمل شخص جرا جرا وهو مع ذلك الجر يستعمل سعيه أيضا ، فلا شك أنه أسرع ذهابا من الذي لا يستعمل سعيه ، وإن جاز أن يكون الجر وحده أحيانا أقوى وأجدى من الجر المركب المذكور .

فالسعي والمشقة لا يكون شرط كمال الوصول في طريق الاجتباء ، كما أنه ليس بشرط في نفس الوصول ، نعم فيه احتمال النفع ولو في بعض المحال .

وفوائد الرياضات ومنافع المجاهدات التي هي عبارة عن الاقتصار على ضروريات المباح كثيرة لأرباب الاجتباء أيضا بغير المعنى المذكور ، مثل دوام الجهاد الأكبر وطهارة البطن ونظافته«١» من التلويثات الدنيوية ، فإن كل الحوائج الضرورية ليس بداخلة في الدنيا ، وكل ما هو فضول فداخل في الدنيا ونفع الآخرة في الرياضة والاقتصار على الضرورة قلة المحاسبة والمؤاخذة الأخرويّتين وأنها سبب لارتفاع الدرجات الأخروية ، فإن مسرة الآخرة تكون أضعاف محنة الدنيا ، فظهر لرياضات الأنبياء ومجاهداتهم عليهم الصلاة و السلام وجوه أخر غير الوجوه الذي ذكرناها آنفا .

فاتضح أن الرياضة والاقتصار على ضروريات المباح وإن لم تكن شرطا للوصول في طريق الاجتباء ولكنها محمودة في حد ذاتها ومستحسنة ، بل بالنظر إلى الفوائد المذكورة ضرورية ولازمة . ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . انتهى ما قاله الإمام الرباني ﷺ في « مكتوباته » في ١١٠ .

« ١ » أي بالجوع والتقلل من الطعام .

وقال الشيخ المشهور بابن زروق ﵁ : لا بد من عبادة ومعرفة وزهادة لكل عارف وعابد وزاهد ، لكن من غلب عليه طلب العلم كان عابدا ، ومعرفته وزهده تابع لعباداته ، ومن غلب عليه ترك الفضول كان زاهدا ، وعبادته ومعرفته تابع لزهده ، ومن غلب عليه النظر للحق بإسقاط الخلق كان عارفا ، وعبادته وزهده تابع لأصله ، فالنسب تابع للأصول ، وإلا فالطرق متداخلة ، ومن فهم غير ذلك فقد أخطأ ، نعم يخف الأمر ويقوى بحسب البساط والله أعلم .

وقال الشيخ عبيد الله أحرار ﵁ : إذا قعدتم مع أحد من هذه الطائفة اجتهدوا في معرفة حقيقته ، ثم أنشد هذه الأبيات المثنويات :

كُنْتُ مَشْغوفاً بِكُلِّ الاجْتِماع ... صِرْتُ في صَحْبِ الخِيارِ والرّعاعْ

كانَ كُلُّ النَّاسِ أصْحابي عَلى ... ظَنِّهِمْ والقَلْبُ بِالسِّرِّ اخْتَلَى

لَمْ يَكُنْ سِرِّي بَعيداً مِنْ أنيني ... وَلكِنْ أيْنَ فَهْمٌ لِلدَّني

وقال الشيخ العارف الهروي عن شيخه ﵁ في « رشحات » : إن أفضل الأحوال الظاهرة والباطنة وأكملها الاجتهاد في التفويض المناسب للحال ، وكان جميع الأنبياء والأولياء على ذلك بأسرهم .

وينبغي للعبد أن يجتهد في كل لحظة دائما في كسب التفويض بباطنه بالنسبة إلى أحواله الظاهرة والباطنة ، وأن يمحو وينفي عن نفسه جميع أنواع الاختيار الذي يظهر منه بكسب التفويض ، وأن يعلم يقينا أن اختيار الحق سبحانه وتعالى له خير البتة من اختياره لنفسه .

واللازم على الطالب دائما بالنسبة إلى المرشد في حضوره وغيبته أن يقوم بكسب هذا التفويض بحسب أحواله الباطنية ، يعني لا ينبغي للطالب أن يختار شيئا من أحوال الباطن وأن يريد حصولها ، بل ينبغي له تفويض اختياره وإرادته لمرشده في حضوره وغيبته . انتهى « رشحة » ٧١

وقال الشيخ العارف السهروردي قُدِّسَ سِرُّهُ في « عوارف المعارف » : ويجمع حمل حال الصوفية شيئان هما وصف الصوفية ، وإليها الإشارة بقوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ .

فقوم من الصوفية خصوا بالاجتهاد الصرف ، وقوم منهم خصوا بالهداية بشرط مقدمة الإنابة ، فالاجتباء المحض غير معلل بكسب العبد ، وهذا حال المحبوب المراد يباديه الحق بمنحه ومواهبه من غير سابقة كسب منه يسبق كشوفه اجتهادَه ، وفي هذا أخذ طائفة من الصوفية رفعت الحجب عن قلوبهم وبادرهم سطوع نور اليقين ، فأثار نزول الحال فيهم شهوة الاجتهاد والأعمال ، فأقبلوا على الأعمال باللذاذة ، والعيش فيها قرة أعينهم فيسهل الكشفُ عليهم الاجتهاد كما سهّل على سحرة فرعون لذاذة النازل فيهم من صفو العرفان تحمّل وعيد فرعون فقالوا : ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قال جعفر الصادق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وجدوا أرياح العناية القديمة بهم فالتجأوا إلى السجود شكرا وقالوا : آمنا برب العالمين . انتهى .

وقد ورد : « أهل الخالصة الذين هم المرادون اجتباهم مولاهم وأكمل لهم النعمة وهيأهم للكرامة ، فأسقط عنهم حركات الطلب ، فصارت حركاتهم في العمل والخدمة على الألفة والذكر والتنعم بمناجاته والانفراد بقربه » .

وبهذا الإسناد إلى عبد الرحمن السلمي قُدِّسَ سِرُّهُ قال : سمعت علي بن سعيد يقول : المراد محمول في حاله ، معان على حركاته وسعيه في الخدمة ، مكفيّ مصون عن الشواهد والنواظر .

وهذا الذي قاله الشيخ أبو سعيد قُدِّسَ سِرُّهُ هو الذي اشتبه حقيقته على طائفة من الصوفية ولم يقولوا بالإكثار من النوافل ، وقد رأوا جمعا من المشائخ قلّت نوافلهم ، فظنوا أن ذلك حال مستمر على الإطلاق ، ولم يعلموا أن الذين تركوا النوافل واقتصروا على الفرائض كانت بداياتهم بدايات المريدين ، فلما وصلوا إلى روح الحال وأدركتهم الكشوف بعد الاجتهاد امتلئوا بالحال فطرحوا نوافل

الأعمال ، وأما المرادون فتبقى عليهم الأعمال والنوافل ، وفيها قرة أعينهم ، وهذا أتمّ وأكمل من الأول ، فهذا الذي أوضحناه إحدى طريقتي الصوفية .

فأما الطريق الآخر طريق المريدين ، وهم الذين شرطوا لهم الإنابة فقال تعالى : ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ ، فطولبوا بالاجتهاد أولا قبل الكشوف .

قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ ، يدرجهم الله تعالى في مدارج الكسب بأنواع الرياضات والمجاهدات وسهر الدياجير وظمأ الهواجر ، تتأجج فيهم نيران الطلب وتتحجب عنهم لوامع الارب ، يتقلبون في رمضاء الإرادة وينخلعون عن كل مألوف وعادة ، وهي الإنابة التي شرَطها الحق سبحانه وتعالى لهم وجعل الهداية مقرونة بها ، وهذه الهداية أيضا هداية خاصة ، لأنها هداية إليه تعالى غير الهداية العامة التي هي التهدي إلى أمره ونهيه بمقتضى المعرفة الأولى .

وهذا حال السالك المحب المريد ، فكانت الإنابة غير الهداية العامة ، فأثمرت هداية خاصة واهتدوا إليه بعد أن اهتدوا له بالمكابدات ، فخلصوا من مضيق العسر إلى فضاء اليسر ، وبرزوا من وهج الاجتهاد إلى روح الأحوال ، فسبق اجتهادهم كشوفهم ، والمرادون سبقت كشوفهم اجتهادهم .

أخبرنا الثقة الأمين يقول : سمعت الجنيد قدس سره يقول : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، ولكن من الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات انتهى .

فهذان الطريقان يجمعان أحوال الصوفية ، ودونهما طريقان آخران ليسا من طرق التحقق بالتصوف : **أحدهما** مجذوب أبقي على جذبته ، ما رد إلى الاجتهاد بعد الكشف ، **والثاني** مجتهد متعبد ، ما خلص إلى الكشف بعد الاجتهاد .

وللصوفية في طريقهما باب مزيدهم وصحة طريقهم بحسن المتابعة ، ومن ظن أن يبلغ غرضا أو يظفر بمراد لا من طريق التابعة فهو مخذول مغرور .

قال الجنيد ﷻ : عِلمنا هذا مشتبكٌ بحديث رسول الله ﷺ . « عوارف المعارف » .

وقال بعض العارفين : إن إبليس إنما ينكّد مجاهدات العابدين ويكدّر صفاء أحوال العارفين ، لأنه يراهم يرفلون في خلع كانت عليه ويتبخترون بأندية كانت إليه ، ومعلوم أن كل من عزل عن ولاية عادى من استبدل به عنه غيرة على الولاية وحسرة على أبواب الرعاية . « كشكول » ٢٣٩ .

وقال الشيخ ابن زروق ﷻ في « قواعده » : الرياضة تمرين النفس لإثبات حسن الأخلاق ودفع سيئها ، وبهذا اختصاص عمل التصوف ، وأخذه من كتب السلمي أقرب لتحريره وتحقيقه وتحصيله لدومة تقدير تأصيله والإيماء لتفصيله ، بخلاف « رسالة » القشيري ، فإن ذلك منها متعذر لأن مدارها على الحكايات ومأخوذ من الأحكام من غير تأصيل وكلٌّ منهما متعذر السلوك تحقيقا لثلاثة أوجه :

أحدها عدم الانضباط لها لتلفق النفس وعدم انضباطها لتفقد تحقيق الأصل .

الثاني يحتاج في سلوك المميز من أخ بصير صالح أو شيخ محقق ناصح يبصّر بالعيوب وينبه على موارد الغلط واللبس .

الثالث إن وقعت السلامة فيها فالسلامة من الدعوى معها متعذرة لنظر صاحبها لنفسه فيما دفع أو جلب ، وهو أمر لا يمكن دفعه إلا بشيخ ، فلذلك اشترط أهلها وجوده فيها ، والله تعالى أعلم . في ٢٥ .

وقال حضرة الخواجه بهاء الدين ﷻ : المجاز قنطرة الحقيقة ، المراد أن جميع العبادات الظاهرة والباطنة والقولية والفعلية مجاز ، فما لم يجاوزها السالك لا يصل إلى الحقيقة اهـ .

وقال عبيد الله أحرار ﷾ : لو سمعت أو علمت أن في أقصى بلاد الصين كافرا يتكلم بكلام هذه الطائفة على أصوله لسافرت إليه ولازمته وقبلت منه المنة .

فانظر أيها المنصف الموفق أن هؤلاء السادات مع ما فيهم من نور الحقيقة يواظبون على رعاية أصول هذه النسبة العلية حذرا من وقوع التغيرات في اصطلاحاتهم ، ونحن وقعنا في زمان تعسا لرأسه أن كل أحد يدعي المشيخة بإبداع أمور لم يصدر قط من هذه السادات ويتكلمون بأقوال مموهة شيطانية نفسانية مبتدعا في كل ما يقولون ، وينكرون على أقوال هؤلاء السادات الذين أكثرهم البرخيون« ١ » .

والعوام الذين هم أضل من الأنعام يقتفون آثارهم ويظهرون أمورا لإرضاء هؤلاء المبتدعين سدّا لثلمة حظوظ نفوسهم الطماعة ويزعمون أن شيخهم مجتهد أو مجدد ، ولا يطلبون من الأحكام الشرعية ما تصح صلاتهم وصيامهم ولا ما يبطل به سوى طلب مجرد الاسم .

فكثرت الفتنة بهم في الناس وصار الدين الحنيفي ملعبة ومسخرة لهم ، استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، ولا يعلمون معنى الذكر والتذكر فضلا عن إتيانهم ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، فذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلهِهِمُ الأمل فسوف يعلمون .

وقال في « رشحات » نقلا عن محمد بارسا ﷾ : إن الحجاب بين الله تعالى وبين العبد هو انتقاش الصور الكونية في القلب لا غير ، ويزيد هذا الانتقاش بسبب الصحبة مع أرباب التفرقة والتفرجات المتشتتة ورؤية الألوان والأشكال المتنوعة ويستتر في القلب ، فينبغي نفيه بمحنة ومشقة شديدة .

« ١ » نسبة إلى آصف بن برخيا الذي أحضر عرش بلقيس لسليمان عليه السلام وكان عنده علم من الكتاب ويعلم اسم الله الأعظم .

وأيضا تزيد تلك النقوش من مطالعة الكتب والتكلم بكلام رسمي وكلمات شتى وسماعها ، وتتحرك هذه النقوش وتتموج بمشاهدة الصور الجميلة واستماع الغنآء والنغمات المطربة .

وهذه المذكورات كلها موجبات للبعد والغفلة عن الحق سبحانه و تعالى ، فنفيها واجب على الطالب ، فينبغي له أن يجتنب عن كل ما يزيد الخيالات الفارغة ليتوجه إلى الله تعالى بقلب صاف .

وقد جرت سنة الله تعالى بأن لا يحصل ذلك المعنى من غير محنة ومشقة وترك لذات جسمانية وشهوات حسية ، والراحة المطلوبة إنما هي في دار الآخرة ، فإن التزمت مشقة يسيرة في أيام معدودة في الدنيا تسترح في الآخرة أبد الآباد ، فإنه لا قدر لهذا العالم بالنسبة إلى عالم الآخرة ، وكأنه بذر خشخاش مرمي في صحراء لا نهاية لها . انتهى .

وقال أيضا خواجه عبيد الله أحرار ﷺ : كان واحد من أصحابه يكتب رسائل في فصل الربيع ، وكان يخطر بباله أن يتنزه ويتفرج بعد إتمامها ، فجاء في ذلك الأثناء صحبته فأنشأ مضمون هذين البيتين :

دَخَلْتُ بِمَنْ أَهْوى بِبُسْتانٍ عابِرا ... فَكُنْتُ مِنَ الغَفَلاتِ لِلْوَرْدِ ناظِرا

فَقالَتْ لَكَ الوَيْلاتُ يا مُدَّعي الهَوى ... أَتَرْمُقُ وَرْداً تارِكاً خَدّي زاهِرا

ثم قال : إذا ذهبت للتفرج فإن كنت محتظيا به فأنت غافل عن الحق سبحانه وتعالى ، وإن لم تكن محتظيا به فما الفائدة فيه ؟ وتكتب الرسائل ، فإن أردت العمل بما فيها فتكفيك كلمة وهي **كن مشغولا بالله** ، وإن لم ترد العمل بما فيها فما الفائدة في تحريرها ، يعني أن في كلمة لا وحدها ألف سهولة .

وهذا الكلام جار في جميع المقام ، ففي كل شيء غير الحق سبحانه قلت (لا) فقد تخلصت . انتهى .

وقال أيضا : إن من علامة الفتوة والمروة كون الإنسان محزونا ومهموما دائما ، فإن القعود على الفراغ في عالم الأسباب ليس بحسن ، والذي ليس له حزن وهم تفوح منه رائحة الغفلة والفتور ، والذي فيه حزن وهم يفوح منه طيب الجمعية والحضور ، ونسبة أكابر النقشبندية ﷺ تظهر في صورة الحزن والغم . انتهى .

واعلم أن التشديد في العبادة منهيّ عنه كالتراخي منها ، والتوسط أخذ الطرفين فهو أحسن الأمور كما جاء : « خير الأمور أوسطها » ، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾ الآية ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ الآية .

قال عليه الصلاة و السلام : « أما أنا فأقوم وأنام وأصوم وأفطر » الحديث ، وكان يقوم من الليل نصفه وثلثه وثلثيه ، وهو الوسط باعتبار من يأتي على كله أو لا يقوم منه إلا اليسير .

وكذلك رد عبد الله بن عمر للوسط بصيام نصف الدهر وقيام نصف الليل وختم القرآن في سبع إلى غير ذلك ، فلزم التوسط في كل مكتسب لأنه أرفق للنفس وأبقى للعبادة .

والعبادة إقامة ما طلب شرعا من الأعمال الخارجة عن العبادة أو الداخلة ، سواء كان رخصة أو عزيمة ، إذ أمر الله فيهما واحد ، فليس الوضوء بأولى من التيمم في محله ، ولا الصوم بأولى من الإفطار في محله ، ولا الإكمال بأولى من القصر في موضعه .

وعليه يتنزل قوله عليه الصلاة والسلام : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تترك عزائمه »[1] ، لا على الرخصة المختلف في حكمها ، إذ الورع مطلوب في كل مشكوك الحكم بخلاف المحقق ، فإن تركه تنطع .

وعلى هذا الأخير يتنزل كلام القوم قدس الله تعالى أسرارهم في ذم الرخض والتأويلات ، والله أعلم . قاله أبو العباس ابن زروق ﷺ .

« ١ » الحديث كما روي : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تترك عزائمه » .

وقال رحمه الله تعالى : إن كمال العبادة بحفظها والمحافظة عليها ، وذلك بإقامة حدودها الظاهرة والباطنة من غير غلو ولا تفريط ، والمفرط مضيع ، والغالي مبتدع ، سيما إن اعتقد القربة في زيادته .

فمن ثم قيل : الوسوسة بدعة وأصلها جهل بالسنة وخبال في العقل ، يدفعها دوام ذكر : (سبحان الملك الخلاق) ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ مع كل ورد والتزام التلهي ، والأخذ بالرخص من أقوال العلماء النافية لها ، لا تتبع الرخص فإنها ضلال فافهم . انتهى .

وقال بعض السادات : من أخذ عملاً من كامل مكمل فالمواظبة والمداومة عليه موجبة للوصول إلى درجات عالية ، وإن الاشتغال بدفع الأخلاق الردية مشكل جدا فالأولى أن يلتزم شيئا من الأعمال الباطنية أو ينتظر ظهور أمر يخلصه عن الكل .

وقال ﭬ خطابا لبعض الخدام والأصحاب كلمات ، وقال في أثناء الكلام والحاصل أنه : ينبغي أن يجتهد حتى يحصل للقلب توجه دائمي إلى الحق سبحانه ، فيمكن بعد ذلك حصول التنبه لصاحب هذا التوجه ، إن التوجه من الله تعالى إلى ذاته وليس للمتوجه دخل في البين . انتهى .

وقال الشيخ محمد الكوسوي ﭬ : ينبغي للسالك أن يكون مثل الباز ، فإنه يطير مرة فإن التقى صيدا فبها ، وإلا فيستقر ويستريح .

وأنا أقول : ينبغي أن يكون مثل هام ، فإنه لا يطير أصلا بل يستريح دائما ويقنع بكسرة عظم .

وقال : يقول الناس من غاية الكسالة (نفعل غدا أمرا) ، ولا يتفكرون أن يومهم هذا غد أمسهم ، فماذا يفعلون في هذا اليوم حتى يسوّفوا الأمر إلى غد .

وهذه القطعة مبينة لمضمون هذا :

وَما الدَّهْرُ إلّا ما مَضى وَهوَ فائِتٌ ... وَما سَوْفَ يَأتي وَهوَ غَيْرُ مُحَصَّلِ
وَعَيْشُكَ فيما أنْتَ فيه فَإنَّهُ ... زَمانُ الفَتى مِنْ مُجْمَلٍ وَمُفَصَّلِ

انتهى .

واعلم أن الإنسان كما أنه لا بد له من تصحيح الاعتقادات كذلك لا بد له من إتيان الأعمال الصالحات .

وأجمع العبادات وأقرب الطاعات هو أداء الصلاة ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « الصلاة عماد الدين ، فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين » .

ومن وفّق لمواظبة أداء الصلوة فقد امتنع عن الفحشاء والمنكر ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ مؤيّد لهذا الكلام .

والصلاة التي ليست بهذه المثابة - يعني لم تمنع صاحبها عن الفحشاء والمنكر - فهي صورة الصلاة لا حقيقة لها ، ولكن ينبغي أن لا تترك الصورة إلى أن تحصل الحقيقة ، فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله ، ولا يستبعد اعتبار أكرم الأكرمين الصورة وأن يقبلها مكان الحقيقة .

فعليكم المواظبة على آداء الصلاة مع الجماعة ومع الخشوع والخضوع ، فإنها سبب النجاة والفلاح . قال الله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ① ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ .

والحاصل أنه ينبغي أن يعمل مع وجود الخطر ، يعني الرد ، ألا ترى أن العساكر يحصل لهم اعتبار كثير في مقابلة حركتهم اليسيرة ومناضلتهم القليلة وقت غلبة العدو ، وإنما يعتبر صلاح الشبان لأنهم اختاروا الصلاح وكلفوا أنفسهم عليه مع وجود غلبة الشهوة النفسانية فيهم .

وقد نال أصحاب الكهف جميع تلك الحشمة والعظمة والرتبة عند الله تعالى بسبب هجرة واحدة من مخالفي الدين ، وورد في الحديث النبوي عليه الصلاة والسلام : « عبادة في الهرج كهجرة إليّ » ، فكان المنافي عين الباعث في الحقيقة . انتهى .

وقال الشيخ الكبير داود بن ماخلا ﷺ : المؤمن الذي يجاهد نفسه يختم الله له بالإسلام أكثر من مائة ألف مرة ، لتكرار موته في ذات الله تعالى بسيوف المجاهدة « تقريب الأصول » ٥٢ .

وقال الإمام الرباني ﷿ : التوسط في الأحوال كلها من الأكل والشرب وغيرهما أشد من رياضات شديدة ومجاهدات كثيرة شاقة ورعاية آداب الشريعة في العبادات والعادات ، لا سيما إقامة الصلاة على وجهها أجهد . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾

وقال عين القضاة الهمداني وكان قد حصل العلوم العقلية والنقلية نحو ثمانية عشر سنة : نظرت في حالي بعد تحصيل هذه العلوم فما وجدت قلبي إلا متفرقا ، فأقبلت إلى كتب الإمام محمد الغزالي ﷿ أربع سنين حتى ضبطتها وفهمتها وظننت أني قد حصلت المقصود ، فوفد علينا الإمام محمد الغزالي ﷿ فلازمته عشرين يوما ، فأشرقت عليّ أحوال وظهر أمور لو أني بقيت في طلبها ألف عام ما انتهى ذلك الطلب ، وكيف لا يكون كذلك ومطلب القوم ذات الحق سبحانه وتعالى ، لا يعرجون على اسم ولا على صفة ، بل لو قاموا في طلبهم أبد الآباد يرون أنفسهم في أول قدم . انتهى .

وقال بعض الأفاضل : رأيت أبا ميسرة العابد وقد بدت أضلاعه من الاجتهاد فقلت : يرحمك الله ، إن رحمة الله واسعة ! فغضب وقال : هل رأيت ما يدل على القنوط ، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فأبكاني والله كلامه .

ولينظر العاقل إلى حال الرسل والأبدال والأولياء واجتهادهم في الطاعات وصرفهم العمر في العبادات لا يفترون عنها ليلا ولا نهارا ، أما كان لهم حسن

ظن بالله ، بلى والله إنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله تعالى وأحسن ظنا بجوده من كل ظان ، ولكن علموا أن ذلك بدون الجد والاجتهاد أمنية محضة وغرورٌ بحتٌ ، فأجهدوا أنفسهم في العبادة والطاعة ليتحقق لهم الرجاء الذي هو من أحسن البضاعة .

ومن كلام الغزالي ﷺ : الفرق بين الرجاء والأمنية ، أن الرجاء يكون على أصل ، والتمني لا يكون على أصل .

مثاله من زرع واجتهد وجمع بيدرا ثم يقول : أرجو أن يحصل منه مائة قفيزة ، فذلك منه رجاء ، ومن لا يزرع زرعا ولا يعمل يوما قد ذهب ونام وأغفل سنة ، فإذا جاء وقت البيادر : يقول أرجو أن يحصل لي مائة قفيز ، فيقال : من أين لك هذه الأمنية التي لا أصل لها ؟

فكذلك العبد إذا اجتهد في عبادة الله تعالى وانتهى عن معاصيه يقول : أرجو أن يتقبل الله تعالى هذا السير ويتم هذا التقصير ويعظم الثواب ، فهذا رجاء منه ، وأما إذا غفل وترك الطاعات وارتكب المعاصي ولم يبال بسخط الله تعالى ورضاه ووعده ووعيده - كراقم هذه الحروف - ثم يقول : أرجو من الله تعالى الجنة والنجاة من النار ، فذلك منه أمنية لا حاصل لها « كشكول » ٢٣٢ .

والعاقل من يعمل في يومه لغده قبل خروج الأمر من يده ، ولله درّ القائل :

حَتَّامَ أنْتَ بِما يُلْهيكَ مُشْتَغِلُ ... عَنْ نَجْحِ قَصْدِكَ مِنْ خَمْرِ الهَوىثَمِلُ

تُمْضي مِنَ الدَّهْرِ بالعَيْشِ الذَّميـمِ إلى ... كَمْ ذَا التَّواني وَكَمْ يُغْري بِكَ الأمَلُ

وَتَدَّعي بِطَريقِ القَوْمِ مَعْرِفَةً ... وَأنْتَ مُنْقَطِعٌ والقَوْمُ قَدْ وَصَلوا

فَانْهَضْ إلى ذرْوَةِ العَلْياءِ مُبْتَدِراً ... عَزْماً لَتَرْقى مَكاناً دونَهُ زُحَلُ

فَإنْ ظَفِرْتَ فَقَدْ جاوَزْتَ مَكْرُمَةً ... بَقاؤُها بِبَقاءِ اللهِ مُتَّصِلُ

وَإنْ قَضَيْتَ بِهِمْ وَجْداً فَأحْسَنُ ما ... يُقالُ عَنْكَ : قَضى مِنْ وَجْدِهِ الرَّجُلُ !

« كشكول » ١٣٨

وحكي عن إبراهيم بن أدهم ﷺ أنه كان يسير إلى بيت الله تعالى راجلا ، فإذا أعرابي على ناقة فقال : يا شيخ إلى أين ؟ فقال إبراهيم : إلى بيت الله تعالى ، قال : وكيف راجل لا راحلة لك ؟ فقال : إن لي مراكب كثيرة ، قال : ما هن ؟ قال : إذا نزلت عليّ بلية ركبت مركب الصبر ، وإذا نزلت عليّ نعمة ركبت مركب الشكر ، وإذا نزل علي القضاء ركبت مركب الرضا ، وإذا دعتني النفس إلى شيء علمت أن ما بقي من العمر أقل مما مضى ، فقال الأعرابي : أنت الراكب وأنا الراجل ، سر في بلاد الله تعالى .

فالاشتغال طول العمر بالمجاهدة لازم حتى تنقلع الأخلاق الذميمة من النفس وتتبدل بالأوصاف الشريفة من الصبر وغيره ، ومثل هذه المجاهدة هي المرابطة .

روي أن واحدا كان يختم كل ليلة ويجتهد في العبادة ، فقيل له : إنك تتعب نفسك وتوقعها في المشقة ، فقال : كم عمر الدنيا ؟ فقيل : سبعة آلف سنة ، فقال كم مقدار يوم القيامة ؟ قيل : خمسون ألف سنة ، فقيل : لو عمر المرء بعمر الدنيا لحقَّ له أن يجتهد في العبادة لهذا اليوم الطويل ، فإنه سهل بالنسبة إليه . « روح البيان » جلد٤٠٩/١ .

وقال الشيخ شمس الدين محمد الروجي ﷺ : قال الشيخ محي الدين العربي ﷺ : ينكشف لبعض الأولياء سر ظهور العالم بعد رياضات كثيرة ، فطلبت أمس هذا المعنى من الحق سبحانه وتعالى فظهر أمر لم تطق قوتي البشرية لتحمل ثقله ، وكان يفارقني الوجود العنصري ويتلاشى ، وقرب أن تخرج روحي من بدني ، فناجيت الله سبحانه وتعالى متضرعا ليدفعه عني فأخفاه عني ، وأثره باق إلى الآن ، وكلامي اليوم من قبيل كلّميني يا حُميراء ، وتكلم في ذلك اليوم بكلام كثير على خلاف عادته .

وقال يوما : لو تركونى على اختياري ما كنت أفتح فمي بكلمة أبدا ، وإنما أتكلم بالضرورة ، ثم أنشد هذين البيتين :

وَلَقَدْ أَحَدِّثُكُمْ بِأَسْرارِ الهَوى	عَمْداً لِيَسْتُرَ سِرَّهُ إعْلانُـــهُ
وَلَرُبَّما كَتَمَ الهَوى إظْهــارُهُ	وَلَرُبَّما فَضَحَ الهَوى كِتْمانُه

« رشحة » ١٥٥

وقال العلامة ابن عباد النفري الرندي ﷺ في شرحه « للحكم » : قال الإمام أبو القاسم القشيري ﷺ : فأرباب المجاهدات إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الرديئة لم ينظروا إلى المستحسنات . قال : وهذا أصل كبير لهم في المجاهدات في أحوال الرياضات . اهـ .

وقال شيخ شيخنا ﷺ في « جامعه » : إن طرق التزكية والتصفية كثيرة لا تحصى ، فلذلك قيل : الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق ، وأصول تلك الطرق التي لا تحصى هذه ، وهي طريق الذكر ثم طريق المراقبة ثم طريق الوقوف القلبي ثم سائر العبادات البدنية من الصلاة والصيام والحج والجهاد ثم المالية من الزكاة والحسنات ثم الرياضات الحكمية من تجريد النفس عن الشواغل الدنيوية والعلائق البدنية وتقليل الأكل والنوم والعزلة عن الخلق وغير ذلك من الأمور الرياضية .

ثم اعلم أن الرياضات لا تفيد ولا تقرب العبد إلى الله تعالى ما لم تكن على موافقة الشريعة ومتابعة السنة ، كما قال الشيخ الجنيد ﷺ : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر رسول الله ﷺ ، فحينئذ لا بد لمن أراد التقرب إلى الله تعالى بالرياضات الحكمية أن يقتدي بالشريعة الغراء ويتبع السنة الحسناء حتى ينتج له من الرياضات التقرب إليه تعالى والمعرفة به .

فلعدم الاقتداء وترك الاتباع قد خلا المرتاضون بمجرد الرياضات الاختراعية عن نور الهداية في معرفة الحق سبحانه وتعالى مع تعمقهم في

تزكية النفس بتلك الرياضات الشاقة ، بل أفسدوا عقائدهم كلما تعمقوا في الرياضات ، لأن كل من لم يطبق رياضته بالشريعة ولم يتبع السنة فليس له نصيب من التقربات الإلهية والمعرفة الحقانية ، ولا تحصل له من تلك الرياضات إلا الأوهام الفاسدة والخيالات الكاسدة التي ليس لها من الله تعالى قبول ، بل إنما بها له عن طريق الحق خروج وعدول ، انتهى .

وفي الخبر عن سيد البشر ﷺ أنه يفتح للعبد يوم القيمة كل يوم من أيام عمره أربع وعشرون خزانة عدد ساعات الليل والنهار ، فخزانة يجدها مملوة **نورا وسرورا ، فيناله عند مشاهدتها من الفرح والسرور ما لو وزع على أهل** النار لأدهشهم عن الإحساس بألم النار ، وهي الساعة التي أطاع فيها ربه ، ثم **يفتح له خزانة أخرى فيراها مظلمة منتنة مفزعة ، فيناله عند مشاهدتها من الجزع والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لنغص عليهم نعيمها ، وهي الساعة التي عصى فيها ربه** ، ثم يفتح له خزانة أخرى فيراها فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوؤه ، وهي الساعة التي نام فيها أو اشتغل فيها بشيء من مباحات الدنيا ، فيناله من الغبن والأسف على فواتها ما لا يوصف حيث كان متمكنا من أن يملأها حسنات ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾« كشكول » ١٢٨

وذكر في « المكتوبات » ٣٧٩ ما نصه : وحاصل السؤال الثاني أنّ في الطريقة النقشبندية العلية التزام اتباع السنة السنية النبوية ، والحال أنه عليه الصلاة والسلام والتحية صدر عنه رياضات عجيبة ومجاهدات شديدة كالجوع الشديد ، وفي هذا الطريق يمنعون عن الرياضة ، بل يرونها بواسطة ظهور الكشوفات الصورية بها مضرة .

والعجب أنه كيف يتصور احتمال الضرر في اتباع السنة ، أيها المحب من قال أن الرياضة ممنوعة في هذا الطريق ، ومن أين سمع أنهم يرون الرياضة مضرة ؟

وفي هذا الطريق دوام المحافظة على اتباع السنة السنية على صاحبها الصلاة والسلام والسعي في ستر الأحوال واختيار توسط الحال ورعاية حد

الاعتدال في المطاعم والملابس وسائر الأفعال ، كل ذلك من الرياضات الشاقة والمجاهدات الشديدة .

غاية ما في الباب أن العوام كالأنعام لا يعدون هذه الأمور من الرياضات ولا يرونها من المجاهدات ، بل الرياضة والمجاهدة منحصرة عندهم في الجوع وكثرة الجوع عظيم القدر في نظرهم ، فإن الأكل عند هؤلاء المتصفين بصفات البهائم من أهم المهام وأعظم المقاصد ، فلا جرم يكون تركه من الرياضة الشاقة والمجاهدة الشديدة عندهم ، بخلاف المحافظة على السنة والتزام متابعتها وأمثالها ، فإن هذه الأمور لا قدر لها عند العوام ولا اعتداد بها ، حتى يرون تركها من المنكرات وتحصيلها من الرياضات .

فاللازم لأكابر هذه الطريقة أن يجتهدوا في ستر الأحوال وترك الرياضة التي هي عظيمة القدر عند العوام وباعثة على قبول الأنام ومستلزمة للشهرة المتضمنة على الآفات العظام .

قال عليه الصلاة والسلام : « بحسب امرئ من الشر – إلا من عصمه الله تعالى – أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه » .

وعند الفقير الجوع الكثير أسهل وأيسر جدا من مراعاة حد الاعتدال في المأكولات ، ورياضة توسط الحال مستحقة لأن تكون أزيد وأفضل من رياضة كثرة الجوع .

وقال فيها : قال حضرة والدى الماجد ﷺ : رأيت في علم السلوك رسالة ، ورأيت فيها أن رعاية حد الاعتدال في المأكولات والمحافظة على الحد الوسط فيها كافية في الوصول إلى المطلوب ، لا حاجة مع هذه المراعاة إلى الذكر والفكر ، والحق أن توسط الحال في المطاعم والملابس بل في جميع الأمور حسنة وجميلة جدا . شعر :

إِيَّاكَ وَالأَكْلَ حَتَّى يَحْدُثَ الثِّقَلُ   وَلا تَجوعَنْ إلى أنْ يَضْعُفَ البَدَنُ

وقال أبو الفتح علي الثقفي ﷺ : لو أن رجلا جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدب ناصح ، ومن لم يأخذ أدبه من آمر له وناه يريه عيوب نفسه ورعونات أعماله لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات .

وقال سيدي أبو مدين ﷺ : من لم يأخذ الأدب من المتأدبين أفسد من يتبعه « شرح حكم » ٦٥ .

وذكر في « العقد النفيس » من كلام القطب العارف السيد أحمد بن إدريس المغربي ﷺ ما عبارته : قال ﷺ : أصل التقوى هو الجهاد في سبيل الله ، والجهاد الأكبر هو جهاد النفس والشيطان ، والنفس هي أعظم الأعداء ، فهي كارَّة عليك في كل لحظة في مظهر صديق لك ، وهذا أعظم ممن كان متظاهرا بالعداوة . قال الشاعر :

احْـذَرْ عَـدُوَّكَ مَـرَّةً	وَاحْذَرْ صَديقَكَ أَلْفَ مَرَّةْ
فَـلَـرُبَّما انْقَلَبَ الصَّديقُ	فَصارَ أَعْرَفَ بِالمَضَـرَّةْ

ثم قد علَّمنا الحق سبحانه وتعالى في القرآن كيفية الجهاد من كل وجه فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ والنفس هي أقرب ما يليك وغير ذلك ، فإن حاربت نفسك واتقيتها ودافعتها عن جميع جوارحك وأعضائك ضعفت ، وإذا ضعفت جنحت للسِّلم ، فإن جنحت للسلم فاجنح لها وبعد لا تضرك أبدا ، فإذا كنت مطيعا لها صرت عبدا لها تأمرك وتنهاك منهزما منها في ذل وأي ذل ، وصرت غير متق لله تعالى لأنك أمنت من بطشه ومكره ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ لأنه

سبحانه وتعالى توعدك إذا اتبعت هوى النفس والشيطان فأمنت من أن توعده باتباع ما نهاك عنه ، ولو اتقيته لانتهيت عما نهاك عنه .

فإذا اتقيت نفسك فقد اتقيت الله تعالى ، وإذا لم تتق نفسك ولم تحاربها ولم تدافعها فلم تتق الله تعالى ، لأن تقوى الله تعالى مترتبة على محاربة النفس والشيطان « عقد النفيس » ١٣٨ .

وقال الشيخ جمال الدين ابو بكر الخوارزمي ﷺ في « مفيده » : واعلم أن النفس ما حملتها تتحمل ، فإذا هذبتها وأدبتها تهون عليك مصائب الدنيا ، وإن استرسلتها عقرتك وآذتك ، فتصبح في هم وتمسي في غم . فالجهاد الأكبر معالجة النفس ، والله تعالىأعلم .

وأنشد الشبلي ﵀ :

يَميـنــاً صـادِقــاً حَــقّـاً ... بِرَبِّ العَرْشِ وَالكُرْسِــيْ

فَـمــا عالَجْــتُ فـي عُسْرٍ ... كَمِثْلِ العُسْــرِ في النَّفْسِ

فَــإنْ صارَعْـتُـهـــا وَيْـلٌ ... وَإنْ صارَعْتُها عُرْســي

مَـــعَ الإبْـلـيـــسِ إبْليسٌ ... وما الإبْليسُ في النَّفْسِ !

فمن يطيق رياضة النفس وخلق الإنسان على خلقة لا سبيل إلى نقضها ، خلق عجولا ضعيفا شهوانيا كارها للمصائب نفورا عن الفقر ، فخوف الفقر من جبلة النفس ، والامتناعُ منها[١] ، ولكن أرشدكم إلى دقيقة لطيفة تميزون بها بين ما هو لله تعالى وبين ما هو حظ النفس والشيطان .

مثاله : إنسان صائم قد أجهده العطش فنظر إلى ماء بارد ، فلا شك أنه يشتهيه ، فاشتهاؤه من قبل الجبلة ، وامتناعه من فعل الإيمان ، ورجل نظر إلى امرأة حسناء فلا يقدر أن لا يشتهيها ، ولكن غض بصره من فعل الإيمان ، وحب الرياسة من طبيعة الإنسان ، ولكن كف النفس عن الحرام وسفك الدماء وأخذ المال من الإيمان ، فافهم ذلك وقس عليه في الجملة .

« ١ » أي الامتناع عن الخير .

أفعال الخير تدل على السعادة ، وأفعال الشر تدل على الشقاوة ، والعاقبة مخفية ، والأعمال بخواتمها والسلام . ١٨٥ .

و قال أيضا : واعلم أنك لو أردت أن تجرب نفسك في ترك ولاية أو تجرع غصص واختيار عزلة لعَصتْ ، ولو تشفعت إليها بجبريل وميكائيل وكل ولي وزاهد لم تجب حتى تتشفع إليها بالجوع ، فحينئذ تطيعك وتتسلى عن الشهوات واللذات وتتذكر أيات .

أراكَ عَلَى البَطالَةِ لا تُبالِــي ... حَلالاً كانَ كَسْبُكَ أَمْ حراما

وَتَقْطَعُ طولَ عُمْرِكَ بِالتَّمَنِّـي ... وَبِالتَّسْويفِ عاماً ثُــمَّ عاما

وَلَوْ عَلِمَ الخَلائِقُ سوءَ فِعْلي ... لَما رَدُّوا عَلَى مِثْلي سَلامــا

وأعظم مصيبة تنزل بالإنسان عبادة نفسه ، فمن ابتلي به قسا قلبه ولم يخرج عن متابعة الهوى ، ومن كان متابعا للهوى كانت النار له مأوى ، ومن جزع في المصائب فقد أرغم القضاء والقدر ، كما قيل : لا أرضى بالقسمة ولا أشكر على النعمة ولا أستغفر من المعصية ولا أصبر على المحنة ، فأين حقيقة العبودية ؟ ١٨٨

وقال السري السقطي رضي الله عنه : خمسة أشياء من جوهر النفس : فقير يظهر الغنى ، وجائع يظهر الشبع ، ومحزون يظهر الفرح ، ورجل بينه وبين رجل عداوة فيظهر المحبة ، ورجل يصوم النهار ويقوم الليل ولا يظهر الضعف . ١٦٦ .

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : استفدت من الصوفية طول صحبتي لهم شيئين : قولهم (الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك) ، وقولهم (إن لم تشغل نفسك بالخير شغلتك بالشر) . « لطائف المنن » ٦٥ .

وقال الحلاج لما قال له خادمه وقد قرب صلبه : أوصني ، قال : عليك بنفسك إن لم تشغلها شغلتك . « الفتاوى الحديثية » ٢٣٠ .

فصل

في الخوف والرجاء وما يتعلق بهما

اعلم أيها الأخ الكيس المتفطن أن حسن الظن من علامة الإيمان ، والخوف والرجاء كجناحي الطير شيئان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر غالبا ، وليس للفقير بد من هذه الثلاثة لقصوره فيما هو فيه مع سعة رحمة الله تعالى وعظيم فضله وكرمه .

قال رسول الله ﷺ : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » .

وقال المشائخ رحمهم الله تعالى : الخوف والرجاء بمنزلة جناحي الطير وإنما يتيسر للطائر الطيران إذا لم يتفاوت جناحاه ، كما روي عن أبي بكر الصديق ؓ أنه قال : بلغ خوفي ورجائي إلى حد لو قيل إنه لا ينجو إلا واحد لظننت أني ذلك الواحد ولو قيل إنه لا يهلك إلا واحد لظننت أني ذلك الواحد . انتهى كلام « كشف المحجوب »

وقال الحسن البصري ؓ : إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا مفاليس ليست لهم حسنة ، يقول أحدهم « أحسن الظن بربي » وهو يكذب ، ولو أحسن الظن بربه أحسن العمل ، وتلا قوله تعالى : ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

قال ابن عباد قُدِّسَ سِرُّهُ في « شرح الحكم » : حسن الظن بالله تعالى أحد مقامات اليقين ، والناس فيه على قسمين : خاصة وعامة ، **فالخاصة** حسنوا الظن بالله تعالى لما هو عليه من النعوت السنية والصفات العلية ، **والعامة** حسنوا الظن به لما هم فيه من سبوغ النعم وشمول الفضل والكرم ، والتفاوت بين المقامين ظاهر ، ولذلك لا يخاف من الانقلاب والتغيير في أحدهما ما يخاف في الآخر ، لأن أرباب المقام الأول لما تحققوا في المعرفة بالله تعالى واحتظوا

بأنوار اليقين اطمأنت قلوبهم وسكنت نفوسهم فلم يبق فيهم متسع لوجود تهمة ولا مجال لسوء ظن ، وأرباب المقام الثاني لم يرتقوا عن نظرهم إلى الأفعال ، وهي متلونة عليهم في كل حال ، وعند وقوع ما لا يلائمهم منها بهم ربما تضعف عن تحمل مكارهها قوى قلوبهم ، فلا تحصل لهم البراءة من خواطر سوء الظن وتحدث النفس بما يقتضي وجود هلع وجزع ، فليكن العبد عند ذلك مشاهدا معنى قوله تعالى : ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وما أشبهه ، وليقس النادر على الغالب .

قال أبو محمد عبد العزيز المهدوي ﷺ : حسن الظن عبارة عن قطع الوهم أن يكون أو لا يكون ، لأن الوهم قاتل ، فمتى أعطيت أذنك للوهم هلكت فالإصغاء بالأذن إلى الشيطان أو النفس جنس واحد . انتهى .

وقال يحي بن معاذ الرازي ﷺ : أوثق الرجاء رجاء العبد ربه ، وأصدق الظن حسن الظن بالله تعالى ، ومن مواطن حسن الظن بالله تعالى التي ينبغي للعبد أن لا يفارقه فيها أوقات الشدائد والمحن وحلول المصائب في الأهل والمال والبدن لئلا يقع بسبب عدم ذلك في الجزع والسخط ، فإن أفعال الله تعالى لا تخلو عن اللطف والحكمة . اهـ .

وقال بعض العارفين : إذا كان أبونا آدم بعدما قيل له اسكن أنت وزوجك الجنة صدر منه ذنب واحد فأمر بالخروج من الجنة فكيف نرجو نحن دخولها مع ما نحن مقيمون عليه من الذنوب المتتابعة والخطايا المتواترة « كشكول »٢٥

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ : « أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء » .

وكان ابن مسعود ﷺ يحلف بالله تعالى : ما أحسن عبد ظنه بالله ﷻ إلا أعطاه ذلك ، لأن الخير كله بيده ، فإذا أعطاه حسن الظن به فقد أعطاه ما يظنه ، لأن الذي حسن ظنه هو الذي أراد أن يحققه له .

وقال في « تقريب الأصول » : يروى أن الزهري ﷺ قارف ذنبا فاستوحش من ذلك وهام على وجهه ، فقال له زين العابدين ابن الحسين ﷺ : يا زهري ! قنوطك من رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء أعظم من ذنبك ، فقال الزهري : الله أعلم حيث يجعل رسالته ، فرجع إلى أهله .

ويرحم الله القائل :

ذُنوبِيَ إنْ فَكَّرْتُ فيها عَظيمَـةٌ ... وَرَحْمَةُ رَبِّي مِنْ ذُنوبِي أوْسَـعُ
وَما طَمَعي فيْ صالحٍ قَدْ عَمِلْتُهُ ... وَلكِنَّـني في رَحْمَـةِ اللهِ أطْـمَعُ

فلا بد للمؤمن من خوف ورجاء ، والخوف بلا رجاء قنوط ، والرجاء بلا خوف غرور .

والخوف والرجاء حقيقتان متلازمتان ، ولذلك قيل : الخوف كله لأهل الرجاء إلا اليأس من رحمة الله تعالى ، والرجاء كله لأهل الخوف إلا الأمن من مكر الله تعالى .

قال يحي ابن معاذ ﷺ : من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار ، ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاغترار ، ومن عبد الله تعالى بالخوف والرجاء استقام على المحجة البيضاء ، ومن عبد الله تعالى بالمحبة المجردة من الخوف والرجاء فقد تزندق وسلك مسلك القائلين بعدم الكسب والاختيار وسلب فاعلية العبد بالكلية وأنه مدفوع استعمل بكل وجه واعتبار فلا تكليف إذن حتى يترتب عليه الخوف والرجاء .

فهذا الذي يزعم أنه محب لله يعبده مقرا بربوبيته معترفا بالعبودية لربه تعالى وأن له الخلق والتصرف والإحسان والإنعام ويحبه لذلك ولا يخاف ولا يرجو فقد تزندق بفقد الخوف والرجاء .

فعلى العبد أن يستعظم ذنبه وإن كان صغيرا استعظاما لا يؤديه إلى اليأس والقنوط ، فإنه لا كبيرة إذا واجهك فضله تعالى .

فاتق ربك واحذره وخفه ولا تستهون شيئا من مخالفته ، فلا يكن في عزمك وطويّتك إلا تقواه واتباع أوامره واجتناب نواهيه ، فإن صدر منك مخالفة فحسن ظنك بالله تعالى واستحضر أنه أهل للعفو عنك ولمغفرة ذنبك فإنه أهل التقوى والمغفرة .

وفي الحديث : « المؤمن من سرته حسنته وساءته سيئته » ، أي سرته من حيث معاملة الله له بذلك حيث خلق الحسنة فيه لا من حيث كونه عمله وفعله ، وساءته سيئته من حيث كونه اكتسبها ولا ينظر إلى كونه مخلوقة لله تعالى ومقدرة عليه ، فإن هذا النظر يحمله على التهاون بها .

فالنظر إلى صفة العدل والفضل ناشئ عن شهود الجلال والجمال ، فصاحب النظر إلى عمله تارة يغلب خوفه وتارة رجاؤه ، وأما من يشهد العدل والفضل فإنه يستوي فيه خوفه ورجاؤه .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لبعض بنيه : يا بني خف الله خوفا ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك ، وارج الله عز وجل رجآء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك .

وقال عمر رضي الله عنه : لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلا لرجوت أن أكون ذلك الرجل ، ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلا لخفت أن أكون ذلك الرجل .

ومن هنا قالوا : إن المؤمن الكامل يستوي خوفه ورجاؤه ، فيكونان كجناحي طائر ، واستحضر أن الإحسان لا ينفع مع البغض ، والإساءة لا تضر مع الحب ، فإذا ظهرت صفة العدل على من أبغضه ومقته بطلت حسناته وعادت صغائره كبائر ، وإذا ظهر وصف الكرم والفضل لمن أحبه اضمحلت سيئاته ورجعت كبائره صغائر . انتهى .

وقال الشيخ العارف بالله شهاب الدين السهروردي قدس سره في « العوارف » : ثم الخوف والرجاء لا يعدمهما صاحب القبض والبسط ولا صاحب الأنس

والهيبة لأنهما من ضرورة الإيمان لنقصان الحظ من القلب وعند صاحب الفناء والبقاء والقرب لتخلصه من القلب ، وقد يرد على الباطن قبض وبسط ولا يعلم سببهما ، ولا يخفى سبب القبض والبسط إلا على قليل الحظ من العلم الذي لم يحكم علم الحال وعلم المقام ، ومن أحكم علم الحال والمقام لا يخفى عليه سبب القبض والبسط ، وربما يشتبه عليه سبب القبض والبسط كما يشتبه عليه الهم بالقبض والنشاط بالبسط ، وإنما ذلك لمن استقام قلبه .

ومن عدم القبض والبسط وارتقى منهما فنفسه مطمئنة ، لا تنقدح من جوهرها نار توجب القبض ولا يتلاطم بحر طبعها من أهوية الهوى حتى يظهر منه البسط . انتهى .

وقال الشيخ أبو الفضل الأحمدي رضي الله تعالى عنه : عليك بحسن الظن في شأن ولاة أمور المسلمين وإن جاروا ، فإن الله تعالى لا يسأل أحدا قط في الآخرة لم حسنت ظنك بالعباد ، ولا تسب من أحد إذا سببت إلا فعلَه لا عينه ، فإن عينك وعينه واحد ، فلا تسب إلا الفعل الردي المذموم لقوله ﷺ في الثوم : « إنها شجرة أكره ريحها » ، فلم يقل « أكرهها » وإنما كره ريحها الذي هو بعض صفاتها .

وكان رضي الله عنه يقول : لا يخلو المنقص لأعراض الناس عن ثلاثة أحوال : إما أن يرى نفسه أفضل منهم ، فهو حينئذ أسوأ حالا منهم كما وقع لإبليس مع آدم عليه السلام ، وإما أن يرى نفسه مثلهم ، فما أنكر إلا على حال نفسه حقيقة ، وإما أن يرى نفسه دونهم ، فلا يليق به تنقيص من هو خير منه . « تقريب » ٩٧ وراجع « العقد النفيس » ٢٢٨ و« السهلي » ٩١

وقال الشيخ السيد أحمد زيني دحلان قدس سره في « تقريب الأصول » : ومما يعينك على حسن الظن بالله تعالى تذكرك كثرة إنعامه عليك وإحسانه إليك ، فقد من الله سبحانه وتعالى عليك بما هو أصل الخيرات وأساس الفضائل والكرامات ، فأعطاك الإيمان من قبل أن تسأله إياه ، وناهيك أنه يوصلك بالإيمان إلى النظر إلى وجهه الكريم الذي يتلاشى في جنبه كل نعيم بعد

أن تتوصل به إلى الجنة بما فيها من أجناس النعيم ، وبعد أن أعطاك الإيمان عاملك بضروب النعم الدينية والدنيوية والمالية مما لا سبيل إلى استقصائه وعدّه ، فتذكر ذلك وتفكّر فيه .

ومما يعينك أيضا على حسن الظن بالله تعالى ضروب المحن والبلايا وأنواع الهم والحزن ، فإنها وسائل إلى طرقات رفيع المقاصد ، لا يعرف قدرها إلا أهل الهمم العالية والقلوب الطاهرة الزكية لأنها نعم باطنية حتى قال بعضهم في قوله تعالى ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ النعم الباطنة هي البلايا والمحن وأنواع الهم والحزن ، فليكن العبد عند نزولها أشد فرحا منه عند نزول المحاب ، فذلك كله مما يقوّي حسن الظن لا مما يضعّفه كما يتوهمه بعض القاصرين ، فقد يجهل بعض الناس فيظن أن شدة البلاء وكثرته إنما تنزل بالعبد لهوانه ، وهذا لا يقوله إلا من أعمى الله تعالى قلبه ، بل العبد يبتلى على حسب دينه ، فكن حسن الظن بربك عند كل نعمة وبلية واعتقد أنه لا يريد بك إلا خيرا .

قال ابن عطاء الله ﷺ في « الحكم » : إن لم تحسن ظنك به لأجل حسن وصفه ، فحسن ظنك به لوجود معاملته معك ، فهل عوّدك إلا حسنا ، وهل أسدى إليك إلا مننا ؟

وقد أشار بذلك إلى أن الناس على قسمين : خاصة وعامة ، فالخاصة حسنوا الظن به لما هو عليه من النعوت السنية والصفات العلية ، والعامة حسنوا الظن به لما هم فيه من سبوغ النعم وشمول الفضل والكرم ، والتفاوت بين المقامين ظاهر .

فينبغي لك أيها المريد أن تحسن ظنك به مطلقا في إيصال المنافع ودفع المضار وعدم الالتفات لغيره ، فإن لم تقدر على حسن الظن الذي هو مقام الخاصة فتلبس بمقام العامة وحسن الظن به بمقام العامة ، وحسن الظن به لوصفه ينتج لك محبته وصحة الاعتماد والتوكل عليه ، وحسن الظن به لوجود معاملته معك ينتج لك شكر نعمته والتشوف لورود فضله ورحمته .

ولا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى ، فإن من عرف ربه استصغر في جنب كرمه ذنبه ، فإذا استعظمت الذنب فاستعظمه عظمة تحملك على التوبه والإقلاع وصدق العزم على أن لا تعود لمثله ، فهذه عظمة محمودة ، وهي من علامة إيمان العبد ، والعظمة المذمومة هي التي توقع في اليأس والقنوط وتؤدي إلى سوء الظن بالله تعالى .

ومن الذنوب التي يجب أن تتوب منها وتقلع عنها سوء طنك بالناس ، فإن ذلك من معاصي القلب الرديئة الموجبة سوء الخاتمة ، والعياذ بالله تعالى . انتهى كلام « التقريب » .

وقال الإمام الأجل الشافعي ﵁ : من أحب أن يختم له بخير فليحسن الظن بالناس .

وقال بشر الحافي ﵁ : من سره أن يسلم فليلزم الصمت وحسن الظن بالناس .

وقال الشيخ عبد العزيز الديريني ﵁ : من أراد أن الوجود كله يمده بالخير فليجعل نفسه تحت الخلق كلهم في الدرجة ، فإن المدد الذي مع الخلق كالماء ، والماء لا يجري من المواضع المنخفضة دون العالية والمتساوية ، ولا يرى الإنسان نفسه كذلك إلا ان أحسن الظن بالناس .

ومحل حسن الظن فيما يحتمل الخير والشر ، أما الأفعال التي صرح الشارع بتحريمها كالزنا وشرب الخمر وأخذ الرشا والمكس وأكل الحرام ونحو ذلك فلا يجوز فيها لمؤمن أن يحمل صاحبها على محمل حسن .

وقد أجمعوا على أنه لا يصل أحد إلى مقام حسن الظن بالناس إلا إن طهر الله تعالى قلبه من سائر الرذائل بحيث لا تخطر الفحشاء في قلبه ، وما دام في باطنه شيء من الرذائل فمن لازمه غالبا سوء الظن بالناس قياسا على ما عنده .

ولذلك قيل :

إذا ساَءَ فِعْلُ المَرْءِ ساَءَتْ ظُـنونُهُ وَصَدَّقَ ما يَعْـتادُهُ مِـنْ تَـوَهُّـــمِ
وَعــادى مُـحِـبِّـيـهِ بِقَوْلِ عِداتِــهِ وَأَصْبَحَ في لَيْلٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمِ

ولا يسلم العبد من سوء الظن بالناس إلا بالتواضع ، ولا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة في قلبه ، فعند ذلك تذوب النفس وفي ذوبانها صفاؤها عن غش الكبر والعجب ، فتلين وتنطبع للحق والخلق بمحو آثارها وسكون وهجها وغليانها .

فالتواضع الحقيقي هو ما كان ناشئا عن شهود عظمته وتجلي صفته ، والمؤمن الكامل يشغله الثناء على الله تعالى عن أن يكون لنفسه شاكرا ، وتشغله حقوق الله تعالى عن أن يكون لحظوظه ذاكرا ، حتى أنه لا يلتفت في نسبة شيء من المحاسن إلى نفسه ولا يطلب حظا لها ، بل يكون حريصا على توفية حقوق الله تعالى وحقوق عباده . انتهى .

وقال الشيخ أبو العباس أحمد زروق ﷻ : النظر بعين الكمال المطلق يقتضي التنقيص فيما ليس بنقص عند تحقيقه ، والعصمة غير موجودة لسوى الأنبياء ، فلزم أن ينظر الغالب على أحوال الشخص لا لكلها ، فإن غلب صلاحه رجح وإن غلب غير ذلك رجح ، وإن تساويا نظر فيه بوجه التحقيق فأعطى حكم المسالمة ، فإن أمكن التأويل في الجميع تأول مالم يخرج لحد الفسق البين أو يتعلق بما ينقض طريقه .

قيل للجنيد ﷺ : أيزني العارف ؟ فسكت مليا ثم قال : وكان أمر الله قدرا مقدورا ، قال ابن عطاء الله ﷺ : ليت شعري لو قيل له أتتعلق همة العارف بغير الله ، لقال لا .

قلت : لأن عنوان معرفته تعلقه بربه ، فإذا انتقض ذلك انتفى عن المعرفة فافهم .

وسئل قطب العارفين السيد أحمد بن إدريس الحسيني المغربي عن قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

فأجاب بأن الظن يحصل للإنسان من قبل نفسه فيصدقه عليه الشيطان ، ولذا قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ أي إبليس المجال ، وليس أنه لولا إبليس ما عصي الله تعالى ، فإن إبليس عصى من قبل نفسه وليس له شيطان ، وهو أيضا يخطب على منبر فى النار بما حكى الله تعالى عنه في القرآن . ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ﴾

وهذا الظن وقع فيه الناس إلا من عصمه الله تعالى ، ولذا قال تعالى : ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني لا المؤمنون جميعهم بل فريق ، نسأل الله العافية والسلامة .

فإنك ترى أنك لولا سعيك في الرزق لما أكلت ولا اكتسبت ، وهذا ظن اتبعته ورميت اليقين وهو قول الله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾.

وهذا وإن كان في بني إسرائيل فهو عام لأن القرآن أنزل على رسول الله ﷺ ليتخلق به هو وأمته ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أي لهم ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ ، أتى بقوله ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا ﴾ بإضافة الرزق إليها ثم عطف بقوله ﴿وَإِيَّاكُمْ ﴾ تنكيتا لابن آدم لو فهم أن الدابة لما لم تحمل رزقها ابتدأناها بالرزق كما قدمناها في اللفظ بقولنا ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا ﴾ ، وابن آدم لما كان له سعي في رزقه أخرناه في الرزق كما أخرنا لفظه بقولنا ﴿وَإِيَّاكُمْ ﴾ فهذا هو ظن من قبل نفس الإنسان .

فلما ألقى إبليس المجال بهذا الظن صَدَّقه ، فصار الإنسان عازما جازما بأنه لو لم يسع لما رزق أصلا .

كذلك العلم ظن الإنسان من قبل نفسه أن العلم هو ما عليه الناس الآن مكبُّون كالمنطق والتعمق في النحو والصرف وعلم الأصول ، فصدقه عليهم إبليس وصاروا عازمين جازمين بأن ذلك هو العلم لا علم غيره ، ثم يصدق الرجل قول الرجل إذا نقله له عن صاحب مذهبه ويعلم أنه صادق لا ريب فيه ، فيحكم به وهو يعلم علما يقينا أن الشاهد الواحد لا تقبل شهادته حتى ينضم إليه آخر أو امرأتان ، فيرمي هذا اليقين الذي هو من قبل الله تعالى ، ثم يعمل بظنه الذي حصل عن إخبار المخبر له بأن صاحب مذهبه قال كذا ، فيصدقه عليه إبليس ويرى أن ذلك هو الحق .

إذا قالَتْ حَذامِ فَصَدِّقوها   فَإنَّ القَوْلَ ما قالَتْ حَذامِ[١]

ثم قد يكون كلام إمامه معارضا لكتاب الله ولسنة رسوله اللذين جميع الأمة متلقية لهما بالقبول عن النقل الصحيح الذي لا يشك في صحة نقلهما من له أدنى مسكة بالإسلام . فإن وجد تأويلا قطر[٢] كتاب الله وسنة رسوله إلى قول إمامه ، وإن لم يجد تأويلا رماهما وعمل بقول إمامه ويقول : لو كان هذا الحديث صحيحا لعلمه إمامي فهذا معنى ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾

وإضافة الظن إلى إبليس لكونه كان بسببه المجال لإبليس في كونه صدقه عليهم ، وإلا فالظن والتصديق منه لكن لما صار التصديق له صار الظن داخلاً تحته فانقلب الظن له وصار الظن و التصديق كلاهما له . اللهم أعذنا من الشيطان حتى لا يكون له علينا سلطان[٣] .

« ١ » حذام اسم امرأة ، وهذا النظم يضرب به المثل عند العرب في تصديق الرجل لصاحبه « جَمْهَرَة الأمثال » للعسكري .

« ٢ » أي جعل فهمه للكتاب والسنة قطارا يوصله إلى قول إمامه .

« ٣ » يوجد في النسخة الأصلية هنا زيادة : وروى ابن ماجه أنه ﷺ قال : « عليكم بالبغيض النافع التلبينة فوالذي نفسي بيده إنه ليغسل بطن أحدكم كما يغسل أحدكم الوسخ عن وجهه ، وروى أحمد والبخاري ومسلم أنه ﷺ قال : « التلبينة مجمة لفؤاد المريض تذهب ببعض الحزن » . انتهى « عقد النفيس » ٢٥٨ .

فصل

في بيان رؤية الله جل وعلا ورؤية رسول الله ﷺ وشرف وكرم في اليقظة والواقعات والمنام ، وفي كونه ﷺ وسيلة لكل رحمة وخير ، وما تعلق بجناب حضرته والصلاة عليه ﷺ

قال في « تنوير الصدر » في٢٠ في حق رؤية الحق : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ أي لا تحيط به الأبصار كما تحيط بغيره ، فالمنفي في الآية الإدراك وهو الإحاطة ، وأهل السنة أثبتوا الرؤية وهي المعاينة ، وقد تكون بلا إدراك بل على وجه لا يحيط به التعريف من غير انحصار ولا إحاطة ولا مقابلة ولا إدراك ولا نهاية ولا تكيف ولا ثبوت مسافة بينه وبين الرائي له ، فيراه المؤمنون بإدراك يخلقه الله تعالى لهم ، يدركون به ما ليس في جهة كما خلق في قلوب العارفين في الدنيا العلم بما ليس في جهة ، ومقتضى كلام ابن عباس رضي الله عنهما ومقاتل التسوية بين الإدراك والرؤية ، فإنهما قالا : لا تراه الأبصار في الدنيا وهو يرى في الآخرة ، ويدل على تخصيصها في الآخرة ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ، فقوله﴿نَاظِرَةٌ﴾ مقيد بيوم القيامة ، ويكون هذا جمعا بين الآيتين .

ثم اعلم أن تحقيق هذا المقام أن رؤية الله تعالى في الدنيا لم تثبت إلا لرسول الله محمد ﷺ بالإجماع ، وأما المؤمنون فيرونه في الآخرة .

وغاية ما تمناه العارفون الرؤية القلبية ، كقول سبط سيدي عمر بن الفارض قدس الله سره ونور ضريحه :

أَنِلْنا مَعَ الأَحْبابِ رُؤْيَتَكَ التي ... إِلَيْها قُـلوبُ الأَوْلِيـاءِ تُسـارِعُ

ولذا لم يقل (عيون) بل قالوا : (قلوب الأولياء تسارع) ، لأن الرؤية في الدنيا بالقلب كما علمت ، وأما رؤية البصر فهي الموعود بها في الآخرة .

وأما قول ابن الفارض :

وَإذا سَألْـتُـكَ أنْ أراكَ حَقيقَـةً   فَاسْمَحْ وَلا تَجْعَلْ جوابيَ لَنْ تَرى

وإن كان فيه ما يفيد بظاهره علوّ مقامه عن سيدنا موسى عليه السلام فأجاب عنه العلامة الأمير في « حاشيته على عبد السلام » بأن رؤية كل بحسبه ، أي فهو طالب للرؤية القلبية بخلاف سيدنا موسى عليه السلام ، و قال ابن الفارض قدس سره في محل آخر :

أبْـقِ لي مُقْلَـةً لَعَلِّـيَ يَـوْماً   قَبْلَ مَوْتي أرى بِها مَنْ رَآكا

أويقال أن ابن الفارض قدس سره مراده الرؤية في الدار الآخرة بدليل التعبير بإذا ، فإنها تدل على الاستقبال ، على أنه إذا كان ممكنا فيجوز الطلب بكل ما يمكنه ذلك ، ولا يلزم من الطلب الحصول .

وما أحسن قول أبي الفارس قدس سره : لو نيل بالفضل مطلوب لما حرم الرؤيا الكليم وكان الحظ للجبل .

قال النابلسي قدس سره : قوله (وإذا سألتك) ولم يقل (وإن سألتك) إشارة إلى أن سؤاله سيتحقق منه الإمكان وعدم امتناعه .

وقوله (لن تراني) إشارة إلى ما أجيب به موسى عليه السلام للرؤية كان مع بقائه على مادته في جبلته ، ولهذا كان جوابه (لن تراني) ، يعني وأنت على ما أنت عليه من المادة الطبيعية والنشأة الإنسانية ، فإن الرؤية بالتجرد عن الأوصاف المذكورة كانت مدخرة للحقيقة المحمدية والنشأة الأحمدية ، وقد كان من غير سؤال منه صلى الله عليه وسلم ولا طلب ، وللورثة المحمدية نصيب من ذلك ، ولهذا ودَّ سيدنا موسى عليه السلام أن يكون من أمته عليه الصلاة والسلام ، ولقوله عليه الصلاة والسلام : « لو كان أخي موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي » .

ولما كان سيدي عمر بن الفارض ﵁ من الأولياء المحمديين ومن ورثة محمد ﷺ قال : (لا تجعل جوابي لن ترى) ، ولا بد في أن يوجد في المفضول ما لا يوجد في الفاضل من الخصوصيات . انتهى اختصارا من « تنوير الصدر » ٢٢ راجعه .

وقال سيدي العارف بالله السيد عبد الرحمن بن مصطفى العيدروسي في شرحه على صلاة سيدي أحمد البدوي ﵁ : إن سيدنا محمدا رسول الله ﷺ هو الذي أعطى جميع الأنبياء والرسل مقاماتهم في عالم الأرواح ، حتى بعث بجسمه ﷺ ، فالأنبياء الذين سلفوا أخذوا منه ﷺ ، وأوليائهم ومتبعوهم أخذوا منهم . انتهى ما في « التقريب » للسيد ابن دحلان ﵁ .

وقال أيضا فيه : وقال سيدي أبو الحسن الشاذلي ﵁ : كل نبي وولي مادته من رسول الله ﷺ ، فمن الأولياء من يشهد عينه ، ومنهم من تخفى عليه عينه ومادته ، فيبغي بالذي يرد عليه ولا يشتغل بمادته .

وقال سيدي محي الدين بن العربي ﵁ : كل نبي وولي إنما يأخذ بواسطة روحانية النبي ﷺ ، من الأولياء من يعرف ذلك ومنهم من لا يعرفه ، وأما المهيمنون من طوائف الملائكة فإنهم لما كانوا في شدة الاستغراق في شهود الحضرة جعلوا كأنهم لا يعقلون غير الذات العلية ، فكمال الاستغراق أدمج لهم الحضرة المحمدية ، ولا يلزم من هذا نفي كونه ﷺ واسطة لهم كغيرهم كما لا يخفى انتهى .

وما أحسن ما قاله سيدي الشيخ محمد ابن الشيخ أبي الحسن البكري ﵁ في هذا المعنى :

ما أَرْسَلَ الرَّحمنُ أَوْ يُرْسِلُ	مِنْ رَحْمَةٍ تَصْعَدُ أَوْ تَنْـزِلُ
مِنْ مَلَكوتِ اللهِ أَوْ مُلْكِهِ	مِنْ كُلِّ ما يَخْتَصُّ أَوْ يَشْمُلُ
إلا وَطـهَ المُصْطَفى عِنْدَهُ	نَبِيُّهُ مُخْتـارُهُ المُـرْسَـلُ
واسِطَـةٌ فيها وَأَصْلٌ لَهـا	يَعْلَمُ هذا كُلُّ مَـنْ يَعْـقِلُ

والأبيات طويلة ، ثم قال في آخرها :

وأنْــتَ بابُ اللهِ أيُّ امـْرئ أتاهُ مِنْ غَيْـــرِكَ لا يَدْخُلُ

وقال بعض العارفين : مدده ﷺ موصول بكل موصول ومفصول ، والتلقي من يده في كل مدد مشهود لأهل العقول ، فمن زال حجابه عرف ، ومن ران عليه انحرف وانصرف .

قال سيدي عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس قُدِّسَ سِرُّهُ : كل من حصلت له الرحمة في الوجود أو خرج له قسم من رزق الدنيا والآخرة والظاهر والباطن والعلوم والمعارف والطاعات إنما خرج له ذلك على يد رسول الله ﷺ بواسطته ﷺ ، وهو الذي يقسم الجنة بين أهلها .

ولذلك عدوا من خصائصه ﷺ أنه أعطي مفاتيح الخزائن ، أي أعطي مفاتيح خزائن أجناس العالم ، فيخرج لهم بقدر ما يطلبون بحسب القسمة الإلهية ، فكل ما ظهر في هذا العالم فإنما يعطيه سيدنا محمد ﷺ الذي بيده المفاتيح ، فلا يخرج شيء من الخزائن الإلهية إلا على يديه ﷺ ، وهو معنى اسمه الخليفة ، فلا طاقة لأحد بالنفي والشهود بدون واسطته ﷺ ، فهو المرآة الكبرى والمَجلى الأعظم ، وأقواله وأفعاله كلها دائرة على الدلالة على الله تعالى والتعريف به ولا نهاية للمعرفة ، فما دام الإنسان يترقى فيها فهو مغترف من بحره ومستمد منه ، حتى الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليه و عليهم أجمعين .

وقال بعض السادات : قلت يوما لواحد من أكابر سمرقند إنه إذا رأى شخص في المنام أن الحق سبحانه وتعالى قد مات فما يكون تعبيره ؟ قال : قال الأكابر : إذا رأى أحد موت النبي ﷺ في المنام فتعبيره وقوع القصور والفتور في شرع صاحب الواقعة ، وكأنه رأى في منامه موت صورة الشريعة ، ولهذا الرؤيا مشابهة لتلك .

قال الشيخ عبيد الله أحرار ﷰ : يمكن أن يكون تعبيره على وجه آخر ، وهو أنه قد يكون لصاحب الرؤيا حضور بالله فيزول هذا الحضور ويتطرق إليه الغفلة والفتور ، فيكون تعبير هذا الرؤيا انعدام نسبة هذا الحضور والشهود .

وقال الشيخ العارف الهروي ﷰ : قد عبر مولانا عبد الرحمن الجامي ﷰ هذا الرؤيا بتعبير آخر وقال : يحتمل أن يكون قد زال من قلب صاحب هذه الواقعة وانعدم شيء من أهوائه التي كان يتخذها إلها بموجب قوله تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ فيكون رؤية موته تعالى انعدام ذلك الهوى واضمحلاله ، فعلى هذا تكون تلك الواقعة دليلا على زيادة حضوره . انتهى ذكره في « الرشحات » .

وقال العارف الشعراني ﷺ في « اللواقح »في ٨ : فإن أكثرت من الصلاة والسلام عليه ﷺ **فربما تصل إلى مقام مشاهدته** ﷺ ، وهي طريق الشيخ نور الدين الشوني والشيخ أحمد الزواوي والشيخ محمد بن داود المنزلاوي ﷰ وجماعة من مشائخ اليمن ، فلا يزال أحدهم يصلي على رسول الله ﷺ ويكثر منها حتى يتطهر من كل الذنوب ويصير يجتمع به يقظة أيّ وقت شاء ومشافهة ، ومن لم يحصل له هذا الاجتماع فهو إلى الآن لم يكثر من الصلاة والتسليم على رسول الله ﷺ الإكثارَ المطلوبَ ليحصل له هذا المقام .

وأخبرني الشيخ أحمد الزواوي أنه لم يحصل له الاجتماع **بالنبي** ﷺ **يقظة حتى واظب على الصلاة عليه** ﷺ **سنة كاملة يصلي كل يوم وليلة خمسين ألف مرة ، وكذلك أخبرني الشيخ نور الدين الشوني** ﷰ **أنه واظب على الصلاة على النبي** ﷺ **كذا وكذا سنة يصلي كل يوم ثلاثين ألف صلاة .**

وسمعت سيدي عليا الخواص ﷬ : لا يكمل عبد في مقام العرفان حتى يصير يجتمع برسول الله ﷺ أيّ وقت شاء .

قال : وممن[1] بلغنا أنه كان يجتمع بالنبي ﷺ يقظة ومشافهة من السلف الشيخ أبو مدين شيخ الجماعة والشيخ عبد الرحيم القناوي والشيخ موسى الزولي والشيخ أبو الحسن الشاذلي والشيخ أبو العباس المرسي والشيخ أبو السعود ابن أبي العشائر وسيدي إبراهيم المتبولي والشيخ جلال الدين السيوطي قدس الله أسرارهم كان يقول : رأيت النبي ﷺ واجتمعت به يقظة نيفا وسبعين مرة .

و أما سيدي إبراهيم المتبولي قدس سره فلا يحصى اجتماعه به ، لأنه كان يجتمع به في أحواله كلها ويقول : ليس لي شيخ إلا رسول الله ﷺ .

وكان الشيخ أبو العباس المرسي قدس سره يقول : **لو احتجب عني رسول الله ﷺ ساعة ما عددت نفسي من جملة المؤمنين** .

واعلم أن مقام مجالسة رسول الله ﷺ عزيزة جدا ، وقد جاء شخص إلى سيدي علي المرصفي قدس سره وأنا حاضر فقال : يا سيدي قد وصلت إلى مقام صرت أرى رسول الله ﷺ يقظة أيّ وقت شئت ، فقال له : يا ولدي بين العبد وبين هذا المقام مائتا ألف مقام وسبعة وأربعون ألف مقام ، ومرادنا : تتكلم لنا يا ولدي على عشرة مقامات منها ، فما درى ذلك المدعي ما يقول وافتضح .

فاعلم ذلك والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

وكان مولانا صاحب الكرامات والكيمياء الشيخ **محمود** الفعال الألمالي قدس سره المدفون بحاجي ترخان ممن رآه وصافحه ﷺ يقظة وقصته مشهورة .

وأما الذين اجتمعوا معه ﷺ في الواقعة والمنام فكثيرة لا تحصى ، وقد اجتمعت به ﷺ في الواقعات والمنام بضعا وثلاثين مرة[2] ، ورأيته أيضا مرات على حاله منكسرة الرباعية ، والحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده .

« ١ » وفي نسخة : مما .

« ٢ » وقد جمعت في « سراج السعادات في سير السادات » جميع ما أدركته من وقائع شيخنا هذا سيف الله قدس سره في حق رؤية نبينا ﷺ وأصحابه وأهل بيته وفي حق رؤية سائر الأنبياء والأولياء . فمن أراد أن يعرف تفاصيل وقائعه قدس سره فليراجع إليه في ترجمته ، والسلام . من الحقير حسن حلمي القحى . اهـ من خطه قدس سره .

وكان سيدي أبو المواهب الشاذلي ﷺ كثير الرؤيا لرسول الله ﷺ ، وكان يقول : قلت لرسول الله صلى الله عليه إن الناس يكذبوني في صحة رؤيتي لك ، فقال رسول الله ﷺ : وعزة الله وعظمته من لم يؤمن بها وكذبك فيها لا يموت إلا يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا .

وقال«١» ﷺ : رأيت رسول الله ﷺ على سطح جامع الأزهر عام خمسة وعشرين وثمانمائة سنة ، فوضع يده على قلبي وقال : يا ولدي الغيبة حرام ، ألم تسمع قوله تعالى : ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ .

وقال ﷺ أيضا : رأيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ! صلاة الله عشرا على من صلى عليك مرة واحدة هل ذلك لمن كان حاضر القلب ؟ فقال : لا ، بل لكل مصل علي ولو كان غافل القلب ، ويعطيه الله تعالى أمثال الجبال من الملائكة تدعو له وتستغفر له ، وأما إذا كان حاضر القلب فيها فلا يعلم ذلك إلا الله تعالى .

وقال بعض العارفين : من فاته كثرة الصلاة والصيام فليكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ فإنه من صلى على النبي ﷺ صلى الله عليه عشرا ، فلو فعل الإنسان جميع الطاعات طول عمره وصلى على النبي ﷺ مرة واحدة لرجحت تلك الصلاة الواحدة على كل ما عمله جميع عمره من جميع الطاعات ، لأنك تصلي على حسب وصفك والله يصلي عليك أي يرحمك على حسب ربوبيته ، عطية القوم على قدر أقدارهم .

هذا إذا كانت صلاة واحدة ، فكيف إذا صلى عليك عشرا بكل صلاة ؟ فما أحسن عيش من أطاع الله تعالى بذكره والصلاة على رسوله ﷺ . فكم من صنائع صنعت لك وأنت لا تدري ، وفضائل الصلاة على رسول الله ﷺ كثيرة وردت فيها أحاديث لا تحصى ، ويفهم من مجموعها حصول فوائد للمصلي عليه لا تحصى .

« ١ » أي الإمام الشاذلي قدس سره ولعله من كراماته قدس سره .

فمنها امتثال أمر الله تعالى حيث قال : ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ وهذه الفائدة أعظم الفوائد ، وهي العبودية المحضة لأنها أشرف مقامات العبد .

ومن فوائد الصلاة على النبي ﷺ موافقة العبد لربه في الصلاة عليه ﷺ ، وإن اختلف معنى الصلاتين ، وفوائدها نذكر إن شاء الله تعالى استقلالا ، وفقنا الله تعالى للقيام على أدب رسول الله ﷺ وشرف وكرم .

وقال الصفدي قُدِّسَ سِرُّهُ : قد تكلم الفقهاء فيمن رأى النبي ﷺ وأمره بأمر هل يلزم العمل به أو لا ، قالوا : إن أمره بما يوافق أمره يقظة ففيه خلاف ، وإن أمره بما يخالف أمره يقظة ، فإن قلت إن من رآه ﷺ على الوجه المذكور من صفته فرؤياه حق ، فهذا من قبيل تعارض الدليلين والعمل بأرجحهما ، وما ثبت في اليقظة فهو أرجح ، فلا يلزمنا العمل بما أمره مما خالف أمره يقظة . انتهى . « كشكول » ١٣٦

وقال الشيخ الأكبر قُدِّسَ سِرُّهُ في الباب الرابع عشر من « الفتوحات » : اعلم أن الحق تعالى قصم ظهور الأولياء بانقطاع النبوة والرسالة بعد موت النبي محمد ﷺ ، وذلك لفقدهم الوحي الرباني الذي هو قوت أرواحهم ، ولو أن أحدا من الأولياء كان في مقام نبي فضلا عن كونه قد فضله ما قصم ظهره ولا احتاج إلى وحي على لسان غيره ، وإنما غاية لطف الله تعالى بالأولياء أنه أبقى عليهم وحي المبشرات في المنام ليستأنسوا برائحة الوحي . اهـ « يواقيت » ٨١ .

واعلم أن المنامات والواقعات لا اعتماد عليها ولا اعتبار لها ، فإن الإنسان لا يكون سلطانا أو قطب وقت في الحقيقة بسبب رؤية نفسه كذلك في المنام ، فإن كان في الواقع سلطانا أو قطب الوقت فمسلم ، وكذلك كل ما ظهر من الأحوال والمواجيد في الصحو والإفاقة ففيه مجال للاعتماد عليه ، وإلا فلا . « مكتوبات » ١٧٢

وسئل قطب العارفين السيد أحمد بن إدريس الحسيني رضي الله عنه عمن رأى النبي ﷺ على غير الصورة التي هو منعوت بها هل يعمل بها أم لا وهل الرؤيا على غير هذه الصورة حق أم لا ؟ **فأجاب** أنها رؤيا حق ، وأن من رأى النبي ﷺ فقد

رآه حقا وإن كان على غير صورته ، بدليل أن جبريل عليه السلام كان يجيئ للنبي صلى الله عليه وسلم على صورة دحية رضي الله عنه ، وإنما تختلف حالات الرائين له صلى الله عليه وسلم ، ففي المرآة تنظر صورتك ، فإن كنت حسنا رأيت حسنا وإن كنت قبيحا رأيت قبيحا ، كذلك من رأى النبي صلى الله عليه وسلم يراه على قدر عمله مع الله تعالى ، والمؤمن مرآة أخيه ، وأما إذا أمره بأمر أو نهاه عن نهي ، فإن كان على الصورة المنعوت بها صلى الله عليه وسلم فأمره في النوم كأمره في اليقظة في أنه يتبع ، وكذا ما نهى عنه ، وأما إذا لم يكن على صورته تلك الحالة فلا يتبع إلا إذا وافق الشرع .

ثم ذكر رضي الله عنه في المرآة معنى آخر فقال : والمرآة هذه آية عظيمة ، فإنك ترى صورتك فيها متيقنا لذلك ، وتعلم أيضا يقينا أنها ليست صورتك ، فهو عدم ووجود في حالة واحدة ضدان لا يفترقان ، وكذلك حين خلق الله تعالى آدم عليه السلام قبض يديه تعالى كما يليق بجلاله ثم قال لآدم : اختر أيهما شئت ، فقال اخترت يمين ربي وكلتا يدي ربي يمين مباركة كما يليق بجلاله سبحانه وتعالى ، ففتحها فإذا فيها آدم وذريته وجميع الأنبياء كما ورد ذلك في الحديث ، فذلك الظهور وجود في عدم وعدم في وجود ، فسبحان الله العظيم . « عقد النفيس » ٦٢

وقال شيخ شيخنا قدس سره في « جامع الأصول » : واعلم أن الواقعات القلبية والروحية والملكية تكون مع الذوق ويحصل للنفس منها قوة وشرب وشوق ، ويظهر لها التنفر عن الخلق ولذة عالم الشهادة ومشتهيات عالم الجسم ، ويحصل لها الاستئناس مع المغيبات والعالم الروحاني ولما ينكشف لها عالم الأسرار والحقائق تنقطع بالكلية إلى عالم الغيب ، ثم بعد ذلك تحصل المشاهدة ، وهي أن مرآة القلب إذا صفت بلا إله إلا الله وحصلت لها الصقالة وذهب عنها الصدأ تظهر لها أنوار الغيب بحسب الصقالة ، فتكون أولا كالبرق واللوامع واللوائح ثم كالسراج ثم كالشمع ثم كالمشعل ثم كالكواكب ثم كالهلال ثم كالبدر ثم كالشمس ثم أنوار مجردة ، ووصف ذلك يطول ، ثم من بعدها التجليات ، ويليها المكاشفات ، ثم الوصول إلى حقيقة المعرفة . انتهى

فصل

في بيان معنى القبض والبسط وما ورد فيهما من أقوال السادات

و قال في « الحكم العطائية » : بسطك كي لا يبقيَك مع القبض ، وقبضك كي لا يتركك مع البسط ، وأخرجك منهما كي لا تكون لشيء دونه .

القبض والبسط من الحالات التي يتلوّن بها العارفون ، وهما بمنزلة الخوف والرجاء للمريدين المبتدئين .

وسببهما الواردات التي ترد عل باطن العبد ، وقوتهما وضعفهما بحسب قوة الواردات وضعفها .

والمقصود هنا أنهما وصفان ناقصان بالنسبة إلى ما فوقهما ، فإنهما يقتضيان بقاء العبد ووجوده ، فمن لطف الله تعالى بعبده تلوينه فيهما ثم إخراجه عنهما بفنائه عن نفسه وبقائه بربه .

قال فارس ﷺ : القبض أولا ثم البسط ثم لا قبض ولا بسط ، لأن القبض والبسط يقعان في الوجود ، وأما مع الفناء والبقاء فلا .

وكان الجنيد ﷺ يقول : الخوف يقبضني ، والرجاء يبسطني ، والحقيقة تجمعني ، والحق يفرّقني ، إذا قبضني بالخوف أفناني عني ، وإذا بسطني بالرجاء ردني علي ، وإذا جمعني الحقيقة أحضرني ، وإذا فرقني بالحق أشهدني غيري فغطاني عني ، فهو في ذلك كله محركي غير مسكني ، وموحشي غير مونسي ، فحضوري لذوق طعم وجودي ، فليته أفناني عني فمتعني أو غيبني عني فروحني .

وقد تكلم صاحب كتاب « عوارف المعارف » في القبض والبسط بكلام بديع طويل تركت نقله هنا اختصارا ، فمن أراد فلينظره هناك . اهـ .

العارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا ، ولا يقف على حدود الأدب في البسط إلا قليل ، إنما اشتد خوف العارفين في البسط ما لم يشدوا في القبض من قِبل ملاءمته لهوى أنفسهم بخلاف القبض كما سيقوله المؤلف الآن ، فيخافون حينئذ من رجوعهم إليه وذوقهم لطعم نفوسهم ، وفي ذلك الطرد والبعد .

وقد كتب يوسف بن الحسين الرازي إلى الجنيد ﵄ : لا أذاقك الله تعالى طعم نفسك ، فإنك إن ذقتها لا تذوق بعدها خيرا أبدا ، ومن ثم يتأكد عليهم في ذلك ملازمة الأدب ودوام الانقباض والانكسار ، وذلك أمر عسير في هذا الحال ، ولذلك لا يقف على حدود الأدب في البسط إلا قليل . « شرح الحكم » ٦٣

وقال شيخ شيخنا قدس الله تعالى سرهما في « جامعه » : وأما القبض والبسط فقالوا إنهما يتعاقبان كتعاقب الليل والنهار ، والعبد قلما يخلو منهما ، والحق يقتضي منك العبودية فيهما .

فمن كان وقته القبض فلا يخلو أن يعلم بسببه أو لا ، وأسباب القبض ثلاثة : ذنب أحدثته ، أو دنيا ذهبت عنك أو نقصت لك ، أو ظالم يؤذيك في مالك أو نفسك أو عرضك أو عيالك أو جاهك أو دينك أو غير ذلك ، فإن ورد شيء من هذه الأسباب ، فالعبودية أن ترجع إلى الشرع ، أما في الذنب فبالتوبة والإنابة وطلب الإقالة ، وأما فيما ذهب عنك أو نقص لك فبالتسليم والرضا والاحتساب ، وأما فيما يؤذيك به ظالم فبالصبر والسكون والثبات ، فاحذر أن تظلم نفسك فتنتصرلها فتعدّي الحق في حق الظالم ، فيجتمع عليك ظلمان ظلم غيرك لك وظلمك لنفسك ، فإن فعلت ما أشرت به من الصبر والاحتمال أثابك سعة الصدر حتى تعفو وتصفح ، وربما أثابك من نور الرضا ما ترحم به من ظلمك فتدعو له فتجاب دعوتك ، فتلك درجة الصديقين والرحماء ، وتوكل على الله تعالى .

وأما إذا ورد عليك القبض ولم تعلم له سببا فالوقت وقتان ليل ونهار ، فالقبض أشبه شيء بالليل ، والبسط أشبه شيء بالنهار ، فإذا ورد عليك القبض بغير سبب ، فالواجب عليك السكون ، وهو عن ثلاثة أشياء : عن الأقوال والحركات والإرادات ، فإذا فعلت ففي قريب يذهب عنك الليل بطلوع نهارك ، أو يبدو لك نجم تهتدي به ، أو قمر تستضيء به ، أو شمس تبصر بها .

والنجوم نجوم العلم ، والقمر قمر التوحيد ، والشمس شمس المعرفة ، وإن تحركت في ظلم ليلك فقل : سلمنا ، تسلم من الهلاك ، واعتبر بقوله تعالى : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ الآية فهذا حكم العبودية في القبضين .

وأما من كان وقته البسط ، فلا يخلو إما أن يعلم له سببا أو لا .

فالأسباب ثلاثة أيضا : الأول زيادة الطاعة أو نوال من المطاع كالعلم والمعرفة والثاني زيادة من دنيا بكسب أو كرامة أو هبة أو صلة ، والثالث المدح والثناء من الناس وإقبالهم عليك وطلب الدعاء منك وتقبيل يدك وأنواع تعظيمك .

فإذا ورد عليك شيء من هذه الأسباب ، فالعبودية تقتضي أن ترى النعمة والمنة عليك من الله تعالى في الطاعة والتوفيق فيها وتيسير أسبابها ، **واحذر أن ترى شيئا منها من نفسك** ، وحقها أن يلازمها خوف السلب فتكون مفتونا ، هذا في جانب الطاعة والنوال من الله تعالى ، وأما الزيادة من الدنيا فهي نعم كالأولى ، وخَف مما بطن من آفاتها وغوائلها وتصريفها وجهة كسبها إلى غير ذلك من الواجبات والمندوبات والمحرمات ، وأما مدح الناس وسائر تعظيماتهم فالعبودية تقتضي شكر النعمة بما ستر عليك ، وخف من الله تعالى أن يظهر ذرة مما بطن منك فيمقتك أقرب الناس إليك .

وأما البسط الذي لا تعرف له سببا ، فحق العبودية ترك السؤال والإدلال والصولة على النساء والرجال . اهـ . من ٣٤

فصل

في بيان الذل والتواضع والافتقار وما أشبهها من المدح والذم

قال أبو يزيد البسطامي ﷺ : إلهي ما ذكرتك إلا عن غفلة ، وما خدمتك إلا عن فترة . « نفحات » ١١٠ .

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي قدس سره : اعمل على أن ليس في الأرض أحد غيرك ولا في السماء أحد غيره « نفحات »١١٦

وقال علي الخواص رضي الله عنه : من شرط التواضع أن يغيب عنك شهود التواضع اهـ . « تقريب » ٩٦ .

أوحى الله سبحانه وتعالى إلى عزير : إن لم تطب نفسا بأن أجعلك علكا في أفواه الماضغين لم أكتبك عندي من المتواضعين انتهى .

قال يوسف بن أسباط قدس سره وقد سئل : ما غاية التواضع ؟ قال : أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحدا إلا رأيته خيرا منك .

وقد ذكر الشيخ أحمد ابن علان في شرحه على قول ابن بنت ميلق رضي الله عنهم :

وَلِلْفَقيرِ وُجوهٌ لَيْسَ يَحْصُرُها   عَدٌّ وَكُلُّ وُجودٍ فَـهْـوَ واديـهِ

الفقير هو الفاني الخارج من أوصاف بشريته المتحقق بعبوديته ، ومثل هذا تشرق عليه أوصاف الربوبية وتسطع عليه من مشرقة أنوار الخصوصية وتصدر من مظهره القدرة الإلهية ، ويكون متخلقا بأوصاف مولاه كما ورد : « تخلقوا بأخلاق الله » ، فتعم رحمته الخلق وتواضعه لكل فرد ، حتى كأن الخلق كلهم أجزاؤه ، فيتنعم إذا تنعموا ويتألم إذا تألموا ويقابل السيئة بالحسنة ويصل من قطعه ويعطي من حرمه ويعفو عمن ظلمه ، كما وقع للنبي ﷺ حيث شج الكفار رأسه الشريف وكسروا رباعيته فقال الصحابة : ادع عليهم يا رسول

الله : فقال : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » ، فدعا لهم بالهداية واعتذر عنهم بعدم العلم .

وكذلك ينبغي لورثته إذا بلغه من أحد سيئة أن يقول : اللهم اهد فلانا فإنه لا يعلم ، فمن اقتدى به ﷺ في مثل هذه الخصلة كان له من الإرث النصيب الوافر ، كما أشرنا إليه من قبل ، ومن تحقق بهذا المقام كانت أوصافه«١» تحصر ومحاسنه تتزايد في كل وقت وتظهر . انتهى .

ثم اعلم أيها الأخ الأسعد أن المشائخ أرباب التمكين لما علموا أن في النفوس الداء الدفين والحظوظ النفسية ورعونتها ودسائسها بالغوا في شرح التواضع إلى حدّ ألحقوه بالضِّعَةِ تداويا للمريدين .

والاعتدال في التواضع أن يرضى الإنسان بمنزلة دون ما يستحقه ولو من الشخص جموح النفس لا وقفها«٢» على حد تستحقه من غير زيادة ولا نقصان ، ولكن لما كان الجموح في جبلة النفس لكونها مخلوقة من صلصال كالفخار ، فيها نسبة النارية وطلب الاستعلاء بطبعها إلى مركز النار احتاجت التداوي بالتواضع وإيقافها دون ما يستحقه ، لئلا يتطرق إليها الكبر ، وذم الكبر لا يخفى . « عوارف » من الباب ٣٩

قال الشيخ السهروردي قدس سره ترجمان الحقيقة شهاب الدين : وقد انفهم من كثير من إشارات المشائخ في شرح التواضع أشياء إلى حد أقاموا التواضع مقام الضعة ، ويلوح فيه الهوى من أوج الإفراط إلى حضيض التفريط ، ويوهم انحرافا من حد الاعتدال ، ويكون قصدهم في ذلك المبالغة في قمع نفوس المريدين خوفا عليهم من العجب والكبر ، فقل أن ينفك مريد في مبادي ظهور سلطان الحال من العجب ، حتى نقل عن جمع من الكبار كلمات مؤذنة بالإعجاب .

« ١ » لعله يقصد الأوصاف السيئة .
« ٢ » بأن لا يقف لنفسه على منزلة يراها أهلاً لها .

وكل ما نقل من ذلك القبيل من المشائخ لبقايا السكر عندهم وانحصارهم في مضيق سكر الحال وعدم الخروج إلى فضاء الصحو في ابتداء أمرهم ، وذلك إذا حدّق صاحب البصيرة نظره يعلم من استراق النفس السمعَ عند نزول الوارد على القلب .

والنفس إذا استرقت السمعَ عند ظهور الوارد على القلب ظهرت بصفتها على وجه لا يجفو على الوقت وصلاقة الحال ، فيكون من ذلك كلمات موزونة بالعجب كقول بعضهم : من تحت خضراء السماء مثلي ، وقول الآخر : قدمي على رقبة جميع الأولياء ، وكقول الآخر أيضا : أسرجت وألجمت وطفت في أقطار الأرض وقلت : هل من مبارز ، فلم يخرج إليّ أحد ، إشارة منه في ذلك إلى تفرده في وقته .

ومن أشكل عليه ذلك ولم يعلم أنه من استراق النفس السمع ، فليزن ذلك بميزان أحوال أصحاب رسول الله ﷺ وتواضعهم واجتنابهم عن أمثال هذه الكلمات واستبعادهم أن يجوز للعبد التظاهر بشيء من ذلك ، ولكن يجعل لكلام الصادقين وجها في الصحة ويقال إن ذلك طفح عليهم سكر الحال ، وكلام السكارى يحمل .

ولقد رأيت في عصرنا ممن يدعي المشيخة ، بل يدعي القطبانية ، بل يدعي أنه خاتم الأولياء ويتكلم بكلام على نهج كلام الدسوقي والجيلاني وغيرهم قدس الله تعالى أسرارهم ، فلما امتحنتُ في عدة أمور وجدته لا يعرف اللطيفة حاشا عن المراقبة[1] ، ولم نجد عنده شائبة من آثار السادات ولا حولاً ولا قوة . إلخ .

« ١ » و هذا الحقير القحي رحم الله إفلاسه اجتمع مع واحد يدعى القطبانية ويقول لو كان على وجه الأرض أعلى مني رتبة في المشيخة فليتقدم فلما تفحصت عن أحواله ونظرت وتوجهت إلى ما فيه من صدقه أو كذبه وجدته رجلا لم يضع قدمه ولو في المقام الأول من الإرادة فضلا فيما فوقه بل أنكر على ذكر القلب وقال : إني سمعت أن شيخكم العسوى ومريديه يقولون إن القلب يذكر الله تعالى فهل لذلك لسان ؟ فكدت أن أبكي رحمة به و بما حلّ به من هذه المصيبة ، غفر الله له ولنا آمين . حسن حلمى سامحه الله من فرطاته آمين . « من خط قدس سره حسن حلمى أفندي ﷽ . على هامش الكتاب » .

ومما أوحاه الله تعالى إلى موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام : يا موسى كن خلق الثياب جديد القلب ، تخفى على أهل الأرض وتعرف في أهل السماء . اهـ . وراجع « تنوير الصدر » ٨٩ من مبحث الذل و٦١ و« رشحات » ١٩١ .

ومن كلام بعض العارفين : لا تتعدّ همتك إلى غيره ، فالكريم المطلق لا تتخطاه الآمال ، من أثبت لنفسه تواضعا فهو المتكبر حقا ، إذ ليس التواضع إلا عند رفعة ، فمتى أثبتَّ لنفسك تواضعا فأنت من المتكبرين .

وقال أيضا : ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع ، ولكن المتواضع هو الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع ، إذا أردت ورود المواهب عليك فصحح الفقر إليه ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ « كشكول » ٢٣٩ .

وقال الإمام الرباني قدس سره النوراني : اعلم أن اللازم لأمثالنا الفقرآء اختيار الذل والافتقار والتضرع والإلتجاء إلى الحق والانكسار دائما وأداء وظائف العبودية والمحافظة على حدود الشريعة ومتابعة السنة السنية على صاحبها الصلاة والسلام والتحية وتصحيح النيات في تحصيل الخيرات وتخليص البواطن وتسليم الظواهر ورؤية العيوب ومشاهدة استيلاء الذنوب والخوف من انتقام علام الغيوب ، واستقلال الحسنات وإن كانت كثيرة ، واستكثار السيئات وإن كانت يسيرة ، وكراهة الشهرة وقبول الخلق ، قال عليه الصلاة والسلام : « بحسب امرئ من الشر أن يشار إليه بالأصابع في دين أو دنيا ، إلا من عصمه الله تعالى » ، واتهام النيات والأفعال وإن كانت صحيحة مثل فلق الصبح ، وعدم اعتناء بالأحوال والمواجيد وإن كانت مطابقة للواقع ، وعدم الاعتماد عليها .

ولا ينبغي أيضا استحسان مجرد تأييد الدين وتقوية الملة وترويج الشريعة ودعوة الخلق إلى الحق جل وعلا ، فإن هذا القسم من التأييد قد يكون أحيانا من الكفار والفجار وقال عليه الصلاة والسلام : « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » .

وكلما يجيء مريد لطلب الطريقة وإرادة الإنابة ينبغي أن لا يفرح به لئلا يكون مكرا واستدراجا ، وأن يكون في حذر وخوف في السر والعلانية زمن الإطاعة والعصيان حتى ينزل عليه الرحمة لمجرد فقره وافتقاره وانكساره كما قال جل وعلا في الحديث القدسي : « أنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلي » ، هذا والله يتولاك . اهـ

نقل عن حضرة الخواجه ﷺ أنه سئل أن الفقراء قد تجاوزوا عن أنفسهم ولا يطلبون منفعة فلماذا يقولون : اللهم اغفر لي ؟ فقال : يطلبون النظافة لغيرهم .

وسئل حضرة الخواجه ﷺ عن الفقراء في نفي الكرامات ماذا يقولون ؟ فقال : كل شيء في صفة حقيقة كلمة التوحيد منفي ، فما الكرامات في جنب ذلك ، وقال : أصحاب الكرامات كلهم محجوبون ، والعارفون عن النظر إليها معدومون .

وسئل أيضا حضرة الخواجه ﷺ أنّ بصيرة ومعرفة أهل الله تعالى للخواطر والأعمال والأحوال من أين ؟ فقال : من نور الفراسة التي أكرمهم الله تعالى بها كما ورد في الحديث الصحيح : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى » . انتهى

وسأل بعض الأكابر حضرة الخواجه ﷺ إذا أخذ الحق سبحانه وتعالى حالا من عبده الفقير فماذا يصنع ؟ فقال حضرة الخواجه ﷺ : إن كان فيه رمق باق من ذلك الحال ، وإن لم يبق فيه رمق منه فالمقصود منه الصبر والرضا .

وقال ﷺ : طلبه تعالى طلب البلاء« ١ » ، وورد في الأحاديث القدسية : « من أحبني ابتليته » ، وهذا المعنى ظاهر ، فإن المحب يكون في طلب المحبوب ، فكلّما كانت عزته أكثر كان البلاء والخطر في طلبه أكثر .

« ١ » أي من طلب الله تعالى فكأنه يطلب الابتلاء لأنه من لوازم قربه تعالى من العبد .

ورد في الأخبار أن شخصا جاء إلى النبي ﷺ وقال : إني أحبك . فقال له : « استعد للفقر » ، وآخر قال : يا رسول الله إني أحب الله ، فقال رسول الله ﷺ : « استعد للبلاء » . انتهى

وقال ابن عباد النفزي الرندي ﵀ في شرحه على « الحكم » : قال الشيخ أبو طالب : ومتى ذل في نفسه واتضع عند نفسه فلم يجد لذلّته طعما ولا لضعته حسا ، فقد صار الذل والتواضع كونه ، فهذا لا يكره الذم من الخلق لوجود النقص في نفسه ، ولا يحب المدح منهم لفقد القدر والمنزلة في نفسه ، فصارت الذلة والضعة صفة له لا تفارقه ، لازم لزوم الزبالة للزبال والكساحة للكساح ، وهما صنعتان له كسائر الصنائع ، وربما فخروا بهما لعدم النظر إلى نقصهما .

فهذه ولاية عظيمة له من ربه قد ولاه على نفسه وملكه عليها فقهرها بعزه ، وهذا مقام محمود محبوب ، وبعده مقام المكاشفات بأسرار الغيوب .

ثم قال : ومن كان حاله مع الله تعالى الذل طلبه واستحلاه كما يطلب المستكبر العز ويستحليه إذا وجده ، فإن فارق ذلك الذل ساعة تغير قلبه لفراق حاله ، كما أن المتعزز إذا فارق العز ساعة تكدر عليه عيشه لأن ذلك حياة نفسه .

فإذا لا بد للمريد من إسقاط جاهه وإخمال ذكره وفراره عن مواضع اشتهاره وتعاطيه أمورا مباحة تسقطه من أعين الناس ، كقصة السائح الذي سمع به ملك زمانه فجاءه إليه ، فلما علم بذلك السائحُ استدعى بقلا وجعل يأكله أكلا عنيفا بمرأى من الملك ، فلما رآه على تلك الحالة استحقره واستصغره وانصرف عنه ذاما له . اهـ .

وقد بالغ أئمة الصوفية ﵃ في مداواة علة الجاه الذي علق بالقلوب حتى استعملوا في ذلك أشياء منكرة في ظاهر الشرع ، ورأوا ذلك جائزا لهم أن يفعلوه ويأمروا به .

وذلك مثل قصة الرجل[1] الذي دخل الحمام ولبس من فاخر ثياب الناس تحت ثيابه بحيث تظهر ، ومشى بذلك متحيرا بحيث يرى ويظن به السرقة ، فلما رآه الناس أخذوه وصفعوه ونزعوا الثياب عنه واشتهر عندهم بالسرقة ، حتى كان يعرف عندهم بلص الحمام ، فحينئذ وجد قلبه .

وفي ذلك قال بعض السادات : كما فعل الخواص في لبس خلعة ابن ملك لحمام لغسل تجردا ، ومثل ماذكر ما يروى عن أبي يزيد ﵁ في قصة الشاهد الذي أمره بحلق رأسه ولحيته وتعليق مخلاة الجوز في عنقه وإعطائه لمن يصفعه من الصبيان ، وطوافه على تلك الحالة في المحافل والمحاضر . والحكايتان مشهورتان ذكرهما الإمام أبو حامد الغزالي ﵁ .

قال بعض المصنفين : وإذا جاز لمن غص بلقيمات من طعام حلال أن يسيغها بجرعة من الخمر إذا لم يجد غيره مع أن تحريمه مقطوع به ولا يفوته إلا حياة فانية ، فلأن يجوز مثل هذا إذا تعين أولى ، إذ يفوته بذلك الحياة الباقية والقرب من الله تعالى .

فإذا التزم العبد هذه الطرق من الرياضات ماتت **نفسه وحيي قلبه وقرب من حضرة ربه** واجتنى ثمرة غرسه على غاية الكمال والتمام ، وتلك الثمرة أخلاق الإيمان التي تكيفت بها نفسه وصات كصفات ذاتية له ، وهي نتيجة الحكمة التي أنبتها الله تعالى في قلوب عباده المتواضعين ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا .

قال عيسى ﵇ لأصحابه : أين تنبت الحبة ؟ قالوا في الأرض ، فقال عيسى ﵇ : كذلك الحكمة لا تنبت إلا في قلب مثل الأرض .

وقد ورد في مدح الخمول وذم الشهرة أحاديث كثيرة ، ولكن رغبنا عن ذكرها لشهرتها ، لكون الأرجوزة مختصرة لا تسع أمثالها .

« ١ » و قد أجاب ابن حجر ﵁ في « التحفة » لجواز فعل ما فعله هذا الرجل ﵀ بأجوبة مرضية فراجعه « قحي حسن أفندي » رحم الله إفلاسه .

وقال سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷷ : اعلم أنك إذا أردت أن يكون لك نصيب مما لأولياء الله تعالى فعليك برفض الناس جملة ، إلا من يدلك على الله تعالى بإشارة صادقة وأعمال ثابتة لا ينقضها كتاب ولا سنة ، وأعرض عن الدنيا بالكلية ولا تكن ممن يعرض عنها ليعطى شيئا على ذلك ، بل كن في ذلك عبدا لله أمرك أن ترفض عدوه .

فإن أتيت بهاتين الخصلتين الإعراض عن الناس والزهد في الدنيا فأقم مع الله تعالى بالمراقبة والتزام التوبة بالرعاية والاستغفار والإنابة والخضوع للأحكام بالاستقامة .

وتفسير هذه الوجوه الأربعة أن تقوم عبدا لله فيما تأتي وما تذر ، وتراقب أن لا يرى قلبك في المملكة شيئا لغيره ، فإن أتيت بهذا نادتك هواتف الحق من أنوار العز أنك قد عميت عن طريق الرشد : من أين لك القيام مع الله تعالى بالمراقبة وأنت تسمع قوله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ فهنالك يدركك من الحيآء ما يحملك على التوبة مما ظننت أنه قريب .

فالتزم التوبة بالرعاية لقلبك أن لا يشهد ذلك منك بحال فتعود إلى ما خرجت عنه ، فإن صحت هذه منك نادتك الهواتف أيضا من قبل الحق تعالى : التوبة منه بدت والإنابة منه تتبعها واشتغالك بما هو وصف لك حجاب عن مرادك ، فهناك تظهر أوصافك ، فتستعيذ بالله تعالى منها وتأخذ في الاستغفار والإنابة ، والاستغفار طلب الستر من أوصافك بالرجوع إلى أوصافه ، فإن كنت بهذه الصفة أعني الاستغفار والانابة ناداك عن قريب : اخضع لأحكامي ودع عنك منازعتي واستقم مع إرادتي برفض إرادتك ، وإنما هي ربوبية تولّت عبودية ، **وكن عبدا مملوكا لا تقدر على شيء** ، فمتى رأيت منك قدرة وكلتك إليها ، وأنا بكل شيء عليم . « شرح الحكم » للنفزي الرندي ﷺ في ٢١

وقال شيخ شيخنا ﷷ : **فاعلم أن التواضع من أفضل الأوصاف** الحميدة وأحسنها وأكرمها ، وبه نال النبي ﷺ الفضل على الأولين والآخرين ، فكان ﷺ أشد الناس تواضعا ، وقد خير بين أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا ، فاختار

أن يكون نبيا عبدا ، فقال له إسرافيل عند ذلك : فإن الله تعالى قد أعطاك بما تواضعت له وإنك سيد ولد آدم وأول شافع وأول من تنشق عنه الأرض .

ومن تواضعه عليه الصلاة والسلام أنه كان يركب الحمار ويردف خلفه ويعود المساكين ويحلب شاته ويرقع ثوبه ويخصف نعله ويخدم نفسه ويعلف ناضحه ويقم البيت ويعقل البعير ويأكل مع الخادم والأجير ويحمل بضاعته عن السوق .

وقال الشاذلي ﷺ : وسم السعادة في رجل عرف الحق فتواضع لأهله وإن عمل ما عمل ، ووسم الشقاوة في رجل جحد الحق وتكبر على أهله ولو عمل ما عمل .

وقال : خرجت البستان مع أصحابي بمدينة تونس ثم عدت إلى المدينة وكنا ركبانا على الحمير ، فلما وصلنا قريبا من المدينة نزلوا وكان طين« ١ » وقالوا : يا سيدي انزل هنا ، فقلت : ولِمَ ؟ فقالوا : هذه المدينة ونستحي أن ندخلها على الحمير فشلت رجلي وأردت موافقتهم ، فإذا النداء : يا علي إن الله تعالى لا يعذب على راحة يصحبها التواضع ، ولكن يعذب على تعَب« ٢ » يصحبه الكبر . انتهى « جامع الأصول » ٣٨ .

وقال الشيخ أحمد بن علان ﷺ : إن العبودية لها أوصاف أربعة ، والربوبية لها أوصاف أربعة .

فأوصاف العبودية الفقر والضعف والعجز والذلة ، **وأوصاف الربوبية** الغنى والقوة والقدرة والعز ، فكلما تحقق السالك بوصف العبودية أمره الرب بوصف من أوصاف الربوبية .

قال في « الحكم » : كن بأوصاف ربوبيته متعلقا وبأوصاف عبوديتك متخلقا .

« ١ » أي على الأرض .
« ٢ » في نسخة : على راحة .

وقال أيضا : تحقق **بأوصافك يمدك بأوصافه ، تحقق بفقرك يمدك بغناه ، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته ، تحقق بذلّك يمدك بعزه ، تحقق بعجزك يمدك بقدرته .**

ومن هنا يفهم السر في قوله تعالى ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ لم يسمه في هذا المقام بمحمد ولا بأحمد ولا برسول ولا بنبي ، وإنما وصفه بالعبودية بالإشارة إلى أن مقام الإسراء لا يحصل إلا من باب العبودية ، كما أنه ﷺ له إسراء ولم يصل إلى إسرائه إلا من باب عبوديته ، كذلك ورثته لهم إسراء بحسب استعدادهم ، ولا يصلون إلى إسرائهم إلا من الباب الذي دخله به مورثهم ﷺ .

فعض يا أخي بالنواجذ على العبودية ، واجعلها واسطة عقد أمورك ، وتمسّك بها في بطونك وظهورك .

وقال في « الحكم » أيضا : مطلب العارفين من الله تعالى الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية ، خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك ، إذا أردت أن تعرف قدرك عنده فانظر فيماذا أقامك ، فعليك بمتابعته ﷺ في الأفعال والأقوال والأحوال تكن آخذا من العبودية بالنصيب الوافر .

وقد قال العارف بالله الشيخ ابن بنت ميلق رضي الله عنه :

يَدْنو وَيَعْلو وَيَرْنو وَهْوَ مُصْطَلِمٌ ... في الحالَتَيـنِ بِـتَمْيـيـزٍ وَتَوْليهِ

أي يدنو السالك بتحققه بأوصاف عبوديته ، ويعلو بإمداد مولاه بأوصاف ربوبيته ، فإن العبد كلما دنا وتحقق بأوصاف عبودبته علا وارتفع وأمده الرب بأوصاف ربوبيته ، فدنوّه عين علوّه ، وانخفاضه عين ارتفاعه وسُموّه .

وقوله (يرنو وهو مصطلم في الحالتين) ، أي حالة تحققه بعبوديته وحالة تعلقه بربوبية مولاه ، فالتمييز مناسب للتحقيق بالعبودية لأنه جهة فرقه ، والتولية مناسب لإشراق أوصاف الربوبية لأنه جهة جمعه ، فهو جامع فارق ، فجمعه يقتضي التولية ، وفرقه يقتضي التمييز .

وهذا حال أهل الكمال كما قال الشيخ : لما أن العارف وإن ظهرت فيه أوصاف الربوبية وأشرقت عليه فهو باق في عبوديته ، فالعبد عبد والرب رب ، فكلما أشرقت عليه أوصاف الربوبية أكثر وازداد في تحققه بعبوديته أكثر وتحلَّى بخلع الأوامر واجتناب النواهي ذوقا وحالا .

كما قال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » ، وهذا أعلى مراتب الإيمان ، لا يكمل إلا للعارف .

وقال سلطان العارفين أبو يزيد البسطامي قدس سره : كلما ازداد العارف في المعرفة **ازداد اتهاما لنفسه واحتقارا لها** ، كما قال الله تعالى حاكيا عن نبيه عليه السلام : ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ . « مقامات بهائية » ٥٤ .

وقال ابن عطاء الله قدس سره في مناجاته : إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك ، وهذا حالي لا يخفى عليك ، هذا تطارح منه على مولاه ومبالغة في بث شكواه وتلطف في سؤال رحماه ، وبمثل هذا يرجى إجابة الدعاء واستحقاق جزيل العطاء ، وقد قالوا : أبواب الملوك لا تقرع بالأيدي بل بنفس المحتاج .

وقال بعضهم : قلت للنهرجوري قدس سره : أجد في قلبي قسوة ، وقد شاورت فلانا فأشار عليّ بالصوم فلم تزل ، وشاورت آخر فأشار علي بالسهر فلم تزل ، فقال النهرجوري رضي الله عنه : خلطا بك ، احضُر الملتزم إذا نام الناس وتضرع وقل : تحيرت في أمري فخذ بيدي ، ففعل فزالت القسوة .

وقال الشاعر :

وَما رُمْتُ الدُّخولَ عَلَيهِ حَتَّى ... حَلَلْتُ مَحِلّةَ العَبْدِ الذَّليـــلِ
وَأَغْضَيتُ الجُفونَ عَلى قَذاها ... وَصُنْتُ النَّفْسَ عَنْ قالٍ وَقيلِ
وَذُلُّ العَبْدِ لِلْمَوْلى غِنـــاهُ ... وَغايَتُهُ إلى العِزِّ الطَّويـــلِ

فذل العبد لمولاه غاية العز والفخر .

وقال ذو النون المصري رحمه الله : **ما أعز الله عبدا بعز هو أعز له من أن يدله على ذل نفسه** ، وما أذل الله عبدا بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه . « الحكم » ٩٢ .

وقال السيد أبو مدين رضي الله عنه :

وَلا تَرَ العَيْبَ إلا فيكَ مُعْتَقِداً	عَيْباً بَدا بَيِّناً لكِنَّهُ اسْتَتَرا
وَحُطَّ رَأسَكَ وَاسْتَغْفِرْ بِلا سَبَبٍ	وَقُمْ عَلى قَدَمِ الإنْصافِ مُعْتَذِرا
وَإنْ بَدا مِنْكَ عَيْبٌ فَاعْتَرِفْ وَأَقِمْ	وَجْهَ اعْتِذارِكَ عَمَّا فيكَ مِنْكَ جَرى
وَقُلْ : عُبَيْدُكُمُ أَوْلى بِصَفْحِكُمُ	فَسامِحوا وَخُذوا بِالرِّفْقِ يا فُقَرا
هُمْ بِالتَّفَضُّلِ أَوْلى وَهْوَ شيمَتُهُمْ	فَلا تَخَفْ دَرَكاً مِنْهُمْ وَلا ضَرَرا

فحاصل المعنى : تحقق بأوصافك من فقرك وضعفك وعجزك وذلّتك ، فإذا تحققت بأوصافك وشهدت نفسك هذا الشهود رأيت نفسك كلها عيوبا لكن مستترة ، فعند ذلك تحظى بظهور أوصاف مولاك فيك الخ .

فتواضع وانكسر وحط أشرف ما عندك – وهوّ رأسك – في أخفض ما يكون – وهو الأرض – لتحوز مقام القرب ، أي فليكن شأنك دائما التواضع والانكسار وطلب المعذرة والاستغفار ، سواء وقع منك ذنب أو لم يقع .

وإن بدا منك عيب أو ذنب فاعترف واستغفر كما ورد : « أنين المذنبين أفضل عند الله من زجل[١] المسبّحين » ، لما في أنين المذنبين من الذلة والانكسار ، وربما خالط زجلَ المسبحين شيءٌ من العجب والافتخار .

فلذلك قال في « الحكم » : ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول ، وقضي عليك بالذنب وكان سببا للوصول .

« ١ » الزجل هو الصَّوت .

وقال القطب الشعراني ﵁ في « اليواقيت » في ١٩٢ : وكان سيدي على الخواص رحمه الله تعالى يقول : لا يكمل الفقير حتى يسأل الله تعالى العفو والصفح في دار الدنيا عن كل من سبه أو ذمه أو أنكر عليه ليوافي القيامة مغفورا له ولا يحصل له خجل ولا خوف ممن سبهم أوأنكر عليهم من أهل الله تعالى ، ولهذا المقام حلاوة يجدها العبد وانشراح عكس من ينتقم ممن آذاه أو أنكر عليه . والله تعالى أعلم .

وكان سيدي أبو الحسن الشاذلي ﵁ يقول : لا تكمل عبادة فقير حتى يصير يشاهد الشرع في كل عبادة عملها ، يعني يعملها بحضرته على الكشف والمشاهدة ، لا على الإيمان والحجاب .

ثم قال : فإن قال قائل ما دليلك على ذلك ؟ قلنا له : قد رأيت النبي ﷺ في واقعة من الوقائع فقلت له : يا رسول الله ما حقيقة متابعتك في العمل على موافقة شريعتك ؟ فقال : هي أن تعمل العمل مع شهودك للشرع حال العمل وبعد العمل . اهـ .

واعلم أن الإنسان متى اعتمد على الدنيا فاته الدين ، ومتى أطاع الله تعالى ورجح الدين على الدنيا آتاه الله تعالى الدين والدنيا على أحسن الوجوه ، وكما أن أكثر الأسباب الصورية وإن كان مدارا للفتح الصوري ، لكنه في الحقيقة لا يحصل إلا بمحض فضل الله تعالى ، فكذلك كثرة الأعمال والطاعات وإن كانت سببا للفتح المعنوي ، لكنه في الحقيقة لا يحصل إلا بخصوص هداية الله تعالى .

فلا بد من العجز والافتقار والتضرع إلى الله الغفار . « روح البيان » من قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ ﴾ في ٩٨٥ من المجلد الأول .

وقال الشيخ ابن عطاء الله في « الحكم » : لا نهاية لمذامك إن أرجعك إليك ، ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك .

والمعنى أن من أرجعه الحق تعالى إلى نفسه ووكله إلى عقله وعمله وخدمته فقد طرده عن بابه وأبعده عن جنابه ، فتكون أحواله مدخولة معلولة وأعماله مستقبحة مرزولة ، ومن آواه الله تعالى إليه وأظهر جوده عليه ورأى الفضل والمنة لله عليه فقد اصطنعه لنفسه ورفعه إلى حضرة قدسه ، وكانت أحواله حسنة جميلة وأعماله كلها ممدوحة مقبولة ، كما قيل : لما أنست إلى حماك تعرفت ذاتي فصرت أنا وإلا من أنا .

والحاصل أنه إذا وكلك لنفسك وخلى بينك وبينها لم يبق فيك ما يستحسن ولم تنقص عيوبك ومساويك ، فإذا لم يوفقك ولم يعنك لم يظهر منك إلا النقائص ، وإن وفقك وأعانك ظهر عليك من الفتح العجب العجاب

ويقال للصديقين على لسان الحضرة : إذا رددناكم عليكم لم يبق إلا العجز والضعف والفاقة والذلة ، وإذا أخذناكم عن أنفسكم صرتم بنا أغنياء قادرين أقويآء أعزاء ، تنفعل لكم الأكوان وتتسخر لكم الأشياء .

ولبعضهم :

إذا كُنّا بـهِ تِهْنا دَلالا — علـى كـل المَوالـي والعَبيـدِ
ولكنّا إذا عُدنا إلينا — يُعطّلُ ذلُّنا ذلّ اليهـودِ

قال سهل بن عبد الله ﷺ : إن الله تعالى يلقي على الخصوص الفاقة ويحوجهم إلى الخلق بالاحتياج والطمع فيهم ، ويلقي في قلوب الخلق المنع لهم وحرمانهم مما في أيديهم ليردهم إليه ، فإذا رجعوا إليه آيسين منقادين رزقهم من حيث لا يحتسبون ، ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴾ ، واستحضر أن ذلك كله بالله لا بنفسك وقل : اللهم لا تكلني إلى نفسي ، ولهذا كان رسول الله ﷺ دائم الافتقار إلى مولاه ، وكان يقول : « لا تكلني إلى نفسي طرفة عين واكلأني كلاءة الوليد » ، أي المولود فإن أمه وأهله يبالغون في حراسته وحفظه من كل ما يؤذيه . « تقريب الأصول »١٢

وقال قطب العارفين السيد أحمد الحسيني المغربي ﷗ : قال عبد القادر الكيلاني رحمه الله تعالى : طلبت الله تعالى من باب الصلاة فوجدت فيه الازدحام ، وطلبته من باب الصدقات فوجدت فيه الازدحام ، وطلبته من باب الصوم فوجدت فيه الازدحام ، وطلبته من باب الذل فولجته ثم التفت فوجدته خاليا ، فالذل لله تعالى أصل العبادة ، فإن الصلاة عماد الدين لأن فيها الخضوع والتذلل ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وذلك أنه وضع وجهه الذي هو أشرف أعضائه وفيه أشرف جوارحه في الأرض الذلول .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾، وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ ﴾ إلى قوله ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ فنصرهم الله تعالى في يوم بدر وهم أذلاء ، وفي يوم حنين لما أعجبتهم كثرتهم و ظنوا العز من أنفسهم فقال أحدهم : لن نُغلب اليوم من قلة غلبوا ، قال تعالى في حقهم : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ ، والحال أن القائل منهم ليس من كبار الصحابة فعمت المصيبة ، فلا ذل إلا لله ، ولا عز إلا بالله تعالى ، ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾

وأما الذل لغير الله تعالى فهو الذي تعوّذ منه رسول الله ﷺ بقوله : « أعوذ بك من الذل إلا لك » ، فمن تذلل لربه وخضع له فحق عليه أن يعزه في الدنيا والآخرة ، فالذل هو عين العز وأي عز أعظم وأكبر من تذلل العبد لمولاه .

فقد ترى رجلا عزيزا في ظاهر الأمر وهو عند الله تعالى بالعكس ، ورجلا ذليلا وهو عند الله عزيز ، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال لأبى ذر ﵁ : « انظر إلى أحقر الناس منظرا فى عينك » وهو حينئذ في المسجد ، فنظر يمينا وشمالا فوجد رجلا في ذلة عليه ثوب رث فقال : هذا يا رسول الله ، فقال له رسول الله ﷺ : « انظر يا أبا ذر من أعز الناس في نظرك ؟ » ، فنظر إلى رجل في هيأة وعليه حلة ، فقال : هذا يا رسول الله ، فقال : « هذا – وأشار إلى

الحقير - أفضل عند الله من ملء الأرض من مثل هذا »[1] ، وكلا الرجلين من الصحابة وبينهما هذا التفاوت .

فانظر إلى قدر الذل لله والافتقار والاستكانة إليه ، اللهم خلقنا بأخلاق من اصطفيت من عبادك يا أرحم الراحمين . « عقد النفيس » ١٥٣ .

وهذا التواضع المهم إنما هو في مواضعه لا مطلقا ، وقد قال الإمام الشافعي ﷺ : **أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ، ورغب في محبة من لا ينفعه .**

وكان سيدى علي الخواص ﷺ يقول : لا تتواضع لظالم عليك ولا تبدأه بالصلح ، فتكبر نفسه بغير حق وتذل نفسك في غير محل انتهى[2] .

فليكن الفقير على حذر ولا يقول أستغفر الله في محل يبنى عليه مفسدة ، وإنما ذلك في حق المؤمنين الذين يخافون على دينهم .

وعليه يحمل قوله تعالى : ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ ، بخلاف اللئيم فإنك إذا أكرمته ازداد طغيانا ، فاعلم ذلك . ذكره القطب الشعراني ﷺ في « لطائف المنن » .

وقال ذو النون المصري ﷺ : لا تسكن إلى مدح الناس ولا تجزع من قبولهم وردهم ، فإنهم قطاع الطريق ، واسكن إلى ما يتحقق من أحوالك سرا و علنا ، واطلب كل الخير والفضل في التواضع ، لما أن الخير كله في بيت ومفتاحه التواضع ، والشر كله في بيت و مفتاحه الكبر « نفحات الأنس » ١٥١ .

« ١ » الحديث كما روي : عن أبي ذر ﷺ أنه كان عند النبي ﷺ فطلع رجل من أشراف الناس ، فقال له النبي ﷺ : « يا أبا ذر ، كيف رأيك في هذا ؟ »فقال : لله ورسوله أعلم قال : « صدقت ، وليس عن هذا سألتك » فقلت : من أشراف الناس ، فطلع آخر من أهل الصفة من مساكين الناس ، فقال النبي ﷺ : « أي أبا ذر ، كيف رأيك في هذا ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « صدقت ، وليس عن هذا سألتك » فذكر أنه ممن لا يدعى ولا يفتقد منه مشهد ولا مغيب نحو ذا فلما قاما قال النبي ﷺ : « هذا خير من طلاع الأرض من مثل هذا » .

« ٢ » في الأصل زيادة : وقد آذاني شخص بمكة . . الخ

فصل

في البدع والسنن والفسق و أمثالها من الرياء وغيرها والكذب والطمع

وقال الإمام الرباني ﷺ في « رسالة المبدأ والمعاد » بما لفظه : ومنها ينبغي السعي حتى يتيسّر العمل بالسنة والاجتناب عن البدعة ، خصوصا البدعة التي تكون رافعا للسنة . قال عليه الصلاة والسلام : « من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد » .

وأعجب من حال جماعة يحدثون في الدين مع وجود كماله وإتمامه أشياء ، يطلبون بتلك المحدثات تكميل الدين ولا يبالون بما عسى يكون ذلك المخترع رافعا للسنة .

يقول المعرب مولانا محمد مراد ﷺ : شدد الإمام الربانيﷺ في البدعة تشديدا كثيرا في غير موضع من مكاتيبه ويحق له ذلك ، فلولاه لاستغرقت ظلمات البدعة جميع بلاد الهند وما وراء النهر .

ولا يخالف قوله في ذلك قول العلماء الأسلاف رحمهم الله تعالى حيث قسموا البدعة إلى حسنة وسيئة ، وأرادوا بالحسنة ما يكون له أصل في الصدر الأول ولو إشارة ، كبناء المنابر والمدارس والرباطات وتدوين الكتب وترتيب الدلائل ونحو ذلك ، والسيئة ما ليس له أصل فيه أصلا .

فالإمام ﷺ لا يطلق اسم البدعة على القسم الأول لوجود أصله في الصدر الأول ، فلا يكون مبتدعا ومحدثا ، بل يخصه بالقسم الثاني فقط لكونه مبتدعا ومحدثا حقيقة ولقوله ﷺ : « وكل بدعة ضلالة » ، فالنزاع بينهما لفظي ، أعني في إطلاق اسم البدعة على القسم الأول وعدم إطلاقه .

قال سيدي الشيخ محمد مظهر ﷺ في « المقامات السعدية » : وكان والديﷺ يقول : البدعة الحسنة عند الإمام الرباني ﷺ **داخلة في السنة** ، ولا

يطلق عليها اسم البدعة بموجب « كل بدعة ضلالة » والنزاع لفظي بينه وبين العلماء القائلين بوجود الحسن في البدعة ، وأثبت هذا بأبلغ الوجوه في رسالة « الرابطة » اهـ .

و قال في هامشه : قوله (لفظي) إلخ ، أي فكل بدعة لم تخالف السنة – وهي البدعة الحسنة عند العلماء – داخلة عند الإمام الرباني ﷺ في السنة ، وإنما كتب ذلك ردا للوهابية القائلين بعدم الحسن في البدعة أصلا متمسكين بقول الإمام الرباني ﷺ .

قلت : وكون هذا النزاع لفظيا إنما هو بينه وبين العلماء المتقدمين ، وأما المتأخرون الذين وسعوا ذيل البدعة الحسنة وأدخلوا فيها كثيرا من البدعة السيئة خصوصا في زمنه وفي بلاده ﷺ كما رد عليهم أفعالهم المخصوصة التي ليس لها أصل في الصدر الأول ولم يرد بحسنها نقل من العلماء المتقدمين المتشرعين ، فالنزاع بينه وبينهم معنوي حقيقي ، فادر ذلك أيضا .

وقد وقع في كثير من مكاتيبه منعه عن قراءة المولد بعلة البدعة ولكن هذا المنع من وصف قراءة المولد لا من أصلها[1] ، كما فصل ذلك في المكتوب الثاني والسبعين من الجلد الثالث ، فتذكره . اهـ ، وراجع « تنوير الصدر » ٩٢ .

وذكر في « اللواقح » عن الخواص ﷺ أنه قال : : إذا راءى العبد بعلمه وعمله حبط عمله بنص الكتاب والسنة ، وإذا حبط عمله فكأنه لم يعمل قط شيئا ، فكيف يرى نفسه بذلك على الناس مع توعده بعد الإحباط بالعذاب الأليم . فليتنبه طالب العلم لمثل ذلك . اهـ .

قلت : وكذلك ينبغي للفقير المنقطع في كهف أو زاوية أن يتفقد نفسه في دعواها الإخلاص والانقطاع إلى الله تعالى ، فإن الصادق يفرح إذا غفل عنه الناس ونسوه فلم يفتقدوه بهدية ولا سلام ، ويفرح إذا انقلب أصحابه كلهم عنه واجتمعوا بشيخ آخر مرشد اهـ . راجع « عقد النفيس » ١٢٥ ، ١٥٧ ، و « جامع الأصول » ١٢٥

« ١ » أي الممنوع إنما هو طريقة القراءة التي ربما يصحبها رقص أو حركات تتنافى مع الأدب مع الحضرة النبوية الشريفة وأما أصل القراءة فلا مانع منه إن أتى بشروطه وآدابه .

وقال الشيخ أبو العباس ابن زروق ﷺ : إفراد القلب لله تعالى مطلوب بكل حال ، فلزم نفي الرياء بالإخلاص ونفي العجب بشهود المنة ونفي الطمع بوجود التوكل ، ومدار الكل على **سقوط الخلق من نظر العبد** ، فلذلك قال سهل بن عبد الله ﷺ : **لا يبلغ العبد حقيقة من هذا الأمر حتى تسقط نفسه من عينه** ، فلا يرى في **الدارين إلا هو وربّه** ، أو يسقط الخلق من عينه فلا يبالي بأي حال يرونه ، قلت : فلذلك ينتفي عنه كل شيء من ذلك ، وإلا دخل الرياء عليه حيث لا ينظر الخلق إليه باستشرافه لعلم الخلق بخصوصية .

وقد قال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ : من أراد الظهور **فهو عبد الظهور** ، ومن أراد الخفاء فهو عبد الخفاء ، وعبد الله سواء عليه أظهره أو أخفاه انتهى . « قواعد »٦٢ .

وقال أيضا : إذا صح أصل القصد فالعوارض لا تضر ، كما قال مالك ﷺ في الرجل يحب أن يرى في طريق المسجد ولا يحب أن يرى في طريق السوق ، وفي الرجل يأتي المسجد فيجد الناس قد صلوا فيرجع معهم حياء ، وكما قال عليه الصلاة والسلام في الرجل يحب جمال نعله وثوبه ، ومن ثم قال سفيان الثوري ﷺ : إذا جاءك الشيطان في الصلاة فقال : إنك مراء ! فزدها طولا .

وقال الفضيل ﷺ : **العمل لأجل الناس شرك ، وترك العمل لأجل الناس رياء** ، والإخلاص أن يعافيك الله تعالى منهما . انتهى

وفي طيه«١» أن الرياء يقع بالترك كالفعل ، فاشتقاقه من الرؤية رؤية المرائي الخلق لا رؤيتهم له ، ولولا ذلك لما صح منه في الخلوة ، ثم هو فيما قصد للعبادة لا فيما قصد به الخلق مجردا ، فإنه الشرك الأعظم أو قريب منه والله أعلم ، وقال أيضا : قصد نفي الخواطر بإقامة الحجة على إبطالها يزيدها تمكينا في النفس لسبقها وقيام صورتها في الخيال ، فظهر أن دفعها إنما هو بتسليمها والتلهي عنها في أي باب كانت .

« ١ » أي في مضمونه ومعناه المستتر .

ومن ثم قال سفيان ﷺ : فزدها طولا ، وقال عليه الصلاة والسلام : « ليقل : الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة » .

ويقال : الشيطان كالكلب ، إن اشتغلت بمقاومته فرق الإهاب وقطع الثياب ، وإن رجعت إلى ربه صرفه عنك برفق .

وقد جاءني ليلة في بعض الصلوات وقال : إنك مراء ، فعارضته بوجوه فلم يرجع حتى فتح بتسليم دعواه وطردها في أعمالي بحيث قلت : الرياء في هذه إثبات للإخلاص في غيرها ، وكل أعمالي معيبة وهذا غاية المقدور ، فانصرف في ذلك الوقت والحمد لله .

وقال أيضا : إظهار العمل وإخفاؤه عند تحقق الإخلاص مستو ، وقيل وجود تحققه مقو لرؤية الخلق ، وقد جاء طلبه شرعا من غير إشعار بشيء من وجوه الإخلاص ولا الرياء ، فظهر أن مراعاته لخوف التلوين ولراحة القلب من مكابدة الإظهار في العموم ولحسم مادة ما يعرض أثناءه .

قيل : وتفضيل النافلة لما علل به عليه الصلاة والسلام من قوله : « اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ، فان الله تعالى جاعل منها في بيوتكم بركة ولا تتخذوها قبورا »[١] والله تعالى أعلم « قواعد » ٦٣ .

﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ : قال : هم المنافقون غافلون عن مراعاة أوقات الصلاة ومراعاة حقوقها وهذا وعيد شديد إذ ليس كل من كان في سورة المطيعين واقفا مع العابدين كان مطيعا مقبول العمل ، وفي زبور داود عليه السلام : قل للذين يحضرون الكنائس بأبدانهم ويقفون مواقف العباد وقلوبهم في الدنيا أبي يستخفون أم إياي يخدعون ، وفي الخبر : « ليس لأحد من صلاته إلا ما عقل » تفسير « سهل »١٢٩

« ١ » **هما حديثان : الأول** : « إِذَا قَضَىَ أَحَدُكُمُ الصّلاَةَ فِي مَسْجِدِهِ ، فَلْيَجْعَلْ لِبَيْتِهِ نَصِيباً مِنْ صَلاَتِهِ . فَإِنّ الله جَاعِلٌ فِي بَيْتِه مِنْ صَلاَتِه خَيْراً » .

والثاني : « اجْعَلُوا مِنْ صَلاَتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ . وَلاَ تَتّخِذُوهَا قُبُوراً » .

فصل

في السماع والرقص والسكر والوجد والغيبة والاجتماع للذكر والدعاء والجذبة في الذكر

قال الإمام الرباني ﷺ في « المكتوبات » : واعلم أن الرقص والسماع داخل في الحقيقة في اللهو واللعب ، وقوله تعلى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ نازل في شأن المنع عن الغناء ، كما قال مجاهد رضي الله عنه الذي هو تلميذ ابن عباس رضي الله عنه ومن كبار التابعين أن المراد بلهو الحديث الغناء .

وفي « المدارك » : لهو الحديث السمر والغناء ، وكان ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم يحلفان أنه الغناء .

وقال مجاهد رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ أي لا يحضرون الغناء .

وحكي عن إمام الهدى أبي منصور الماتريدي قدس سره : من قال لمقرئ زماننا (أحسنت) عند قرآءته يكفر ، وبانت منه امرأته وأحبط الله تعالى كل حسنة .

وحكي عن أبي نصر الدبوسي عن القاضي ظهير الدين الخوارزمي قدس سره : من سمع الغناء من المغني وغيره أو يرى فعلا من الحرام فيحسن ذلك باعتقاد أو بغير اعتقاد ، يصير مرتدا في الحال بناء على أنه أبطل حكم الشريعة ، ومن أبطل حكم الشريعة فلا يكون مؤمنا عند كل مجتهد ، ولا يقبل الله تعالى طاعته وأحبط الله تعالى كل حسناته . أعاذنا الله سبحانه وتعالى من ذلك .

والآيات والأحاديث و الروايات الفقهية في حرمة الغناء كثيرة جدا على حد يتعذر إحصاؤها .

ومع هذه كلها لو أورد شخص حديثا منسوخا أو رواية شاذة في إباحة الغناء لا ينبغي اعتباره منه ، فإنه لم يفت فقيه في وقت من الأوقات بإباحة

الغناء ولم يجوز الرقص والضرب بالأرجل ، كما هو مذكور في « ملتقط » الإمام الهمام ضياء الدين الشامي ﷺ .

وعمل الصوفية ليس بسند في الحل والحرمة ، أما يكفيهم أن نعذرهم ولا نلومهم ونفوض أمرهم إلى الله تعالى ، والمعتبر هنا قول الإمام أبي حنيفة والإمام أبي يوسف والإمام محمد رحمهم الله تعالى ، لا عمل الشبلي وأبي الحسين النوري ﷺ .

وقد جعلت الصوفية القاصرون اليوم السماع والرقص دينهم وملتهم مستندين إلى عمل مشائخهم ، واتخذوه طاعتهم وعبادتهم أولئك الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهواً وقد علم من الرواية السابقة من استحسن الفعل الحرام فقد خرج من زمرة أهل الإسلام وصار مرتدا .

فينبغي التأمل ما ذا يكون شناعة تعظيم مجلس السماع والرقص بل اتخاذه طاعة وعبادة .

ولله الحمد والمنة لم يقبل مشائخنا بهذا الأمر وخلصوا أمثالنا المقلدين من تقليد هذا الأمر .

وقد نسمع أن المخاديم يميلون إلى السماع ويقعدون مجلس السماع وقراءة القصائد في ليالي الجمعة ، وأكثر الأصحاب يوافقونهم في ذلك الأمر .

والعجب ألف عجب أن مريدي السلاسل الأخر إنما يرتكبون هذا الأمر مستندين إلى عمل مشائخهم ، ويدفعون الحرمة الشرعية بعملهم وإن لم يكونوا محقين في هذا الأمر في الحقيقة .

وما معذرة أصحابنا في ارتكاب هذا الأمر وفيه ارتكاب الحرمة الشرعية من طرف وارتكاب مخالفة مشائخ طريقهم من طرف آخر ، فلا أهل الشريعة راضون عن هذا الفعل ولا أهل الطريقة ، فلو لم يكن فيه ارتكاب الحرمة الشرعية لكان مجرد إحداث أمر في الطريقة شنيعا ، فكيف إذا اجتمع معه

ارتكاب الحرمة الشرعية واليقين أن جناب العزيز لا يرضى بهذا الأمر ، ولكن لا يصرح بالمنع أيضا رعاية للأدب معكم ، ولا ينهى الأصحاب عن هذا الاجتماع أيضا . اهـ . في ٢٧٩ .

وقال ابن زروق ﷺ : حفظ العقول واجب كحفظ الأموال والأعراض ، فمن ثم قيل بمنع السماع باتفاق في حق من علم غلبة عقله به ، ولا يجوز قطع الخرق وإن أدخل على المكارمة لإضاعة المال ، ولا يجوز أن يدخل مع القوم من ليس منهم وإن كان عابدا أو زاهدا لا يقول بالسماع ولا يراه ، وكذلك العارف لأن حاله أتمُّ فيؤدّي لاغتيابه الجماعة بالنقص وصورة الهوى واغتيابهم له .

قال الشيخ أبو العباس الحضرمي ﷺ : كان يصحب بعض المشائخ فقيه ، فإذا حضر السماع صرفه ولا يسمع بحضوره مع كونه في أعداد أصحابه وقال : إن السماع فيه طريق ولكن لمن له معرفة . والله أعلم . « قواعد » ٤٩ .

وقال الشيخ علاء الدين ﷺ : إن الصياح من علامة الغفلة لأنه يحصل عند عدم الحضور بالمعنى ، فإن كان السالك حاضرا دائما لا تظهر صيحة منه أصلا ، فإن الحضور والشهود موجبان للفناء والذهول ولا صياح في مقام الفناء ، وحكم صاحب صيحة كحكم حطب رطب ، فإنه إذا ألقي في النار يظهر منه صوت ما دام رطبا .

وقد أحسن من قال في هذا المقام :

الوَجْدُ يُطْرِبُ مَنْ في الوَجْدِ راحَتُه ... وَالوَجْدُ عِنْدَ وُجودِ الحَقِّ مَفْقــــودُ

قَدْ كانَ يُطْرِبُني وَجْدي فَأَذْهَلَنـــي ... عَنْ رُؤْيَةِ الوَجْدِ مَنْ بِالوَجْدِ مَقْصودُ

« رشحة » ١٤٢

وقد ذكرنا هذا في فضل ذكر النسبة العلية فراجعه .

وقـــال العارف أبو العباس أحمد بن زروق ﵁ : إذا وقف أمر على شرطه في صحته أو كماله روعي ذلك الشرط فيه ، وإلا كان العمل فيه خارجا عن حقيقته .

وشرط السماع ثلاث :

أولها مراعاة آلاته التي يقع فيها ومعها وبها وعلى الزمان والمكان والإخوان .

الثاني خلو الوقت عن معارض ضروري أو حاجيّ« ١ » شرعا أو عادة ، إذ ترك الأولى للرخص تفريط« ٢ » بالحق وإخلال بالحقيقة .

الثالث وجود الصدق من الجميع وسلامة الصدر في الحال ، ولا يتحرك متحرك إلا بغلبة ، وإن فهم منه غيرها سلم له الأدنى وأدبه الأعلى وذكّره القرين .

ولا يزال الصوفية بخير ما تنافروا ، فإذا اصطلحوا قل دينهم ، إذ لا يكون صلحهم إلا مع اغضاء عن العيوب ، فإنه لا يخلوا المرأ عن عيب والله تعالى أعلم . « قواعد »٤٨

وقال ﵀ أيضا في ٤٥ : ما أبيح لسبب أوعلى وجه خاص أوعام فلا يكون شائعا في جميع الوجوه حتى يتناول صورة خاصة بخصوصها ليست عين الوجه الخاص بنفسه .

فلا يصح الاستدلال بإباحة الغناء في الولائم ونحوها على إباحة مطلق السماع ، ولا بإباحة إنشاد الشعر على صورة السماع المعلومة لاحتمال اختصاص حكمها .

« ١ » وحاجّه محاجّة فحجبه يحجبه من باب قتل إذا غلبه ، وهو منسوب لحاجة كالضروري منسوب لضرورة .
« ٢ » في الأصل تعريض .

فلذلك قال ابن الفاكهاني رحمه الله تعالى في « شرح الرسالة » : ليس في السماع نص بإباحة ولا منع ، يعني على الوجه الخاص ، وإلا فقد صح في الولائم والأعياد ونحوها من الأفراح المشروعة والاستعانة على الأشغال .

فإذاً المسئلة جارية على حكم الأشياء قبل ورود الشرع فيها والله أعلم .

ثم قال : والأشياء قبل ورود الشرع فيها قيل على التوقف ، فالسماع لا يقدم عليه ، وقيل على الإباحة ، فالسماع مباح ، وقيل على المنع ، فالسماع ممنوع ، وقد اختلف فيه الصوفية بالثلاثة الأقوال كاختلاف الفقهاء .

وقال الشيخ أبو إسحاق الشاطبي ﷺ : ليس من التصوف بالأصل ولا بالعرض ، وإنما أخذ من عمل الفلاسفة انتهى بمعناه .

والتحقيق أنه شبهة تتقى لشبهها بالباطل وهو اللهو ، إلا لضرورة تقتضي الرجوع إليه فقد يباح لذلك .

وقد ذكر المقدسي أن أبا مصعب سأل مالكا ﷺ فقال : لا أدري إلا أن أهل العلم ببلدنا لا ينكرون ذلك ولا يقعدون عنه ولا ينكره إلا ناسك غبي أو جاهل غليظ الطبع .

وقال صالح بن أحمد بن حنبل رحمهما الله : رأيت والدي يسمع من وراء الحائط لسماع كان عند جيراننا .

وقال ابن المسيب ﷺ لقوم يعيبون الشعر : نسكوا نسكا أعجميا .

وقد صح عن مالك ﷺ إنكاره وكراهته ، وأخذ من المدوّنة جوازه .

كل ذلك إن تجرد عن آلة ، وإلا فمتفق على تحريمه غير ما للعنبري وإبراهيم ابن سعد وما فيهما معلوم ، وقد بالغ الطرطوشي ﷺ في الملة وغيره وتحقيقها آئل للمنع والله أعلم . « قواعد » ٤٦ .

وقال أيضا : اعتقاد المرء فيما ليس بقربة قربة بدعة ، وكذا إحداث حكم لم يتقدم ، وكل ذلك ضلال إلا أن يرجع لأصل استنبط منه ، فيرجع حكمه إليه ، والسماع لا دلالة على ندبه عند مبيحه ، وإن وقع فيه تفصيل عند قوم .

فالتحقيق أنه عند مبيحه رخصة تباح للضرورة ، وفي الجملة فيعتبر شرطها ، وإلا فالمنع والله أعلم .

ومن قول حسين منصور الحلاج رضي الله عنه

أَنْتَ بَيْنَ الشَّغافِ والقَلْبُ يَجْري ... مِثْلَ جَرْيِ الدُّموعِ فِي الأَجْفانِ
وَمَحَلُّ الضَّميرِ جَوْفَ فُؤادي ... كَحُلولِ الأَرْواحِ في الأَبْدانِ
لَيْسَ مِنْ ساكِنٍ تَحَرَّكَ إلا ... أَنْتَ حَرَّكْتَهُ خَفِيَّ المَكانِ
يَا هِلالاً بَدى بِأَربَعِ عَشْرٍ ... لِثَمانٍ وَأَرْبَعٍ وَاثْنانِ

« نفحات » ٢٠٦

فصل

في بعض الأسئلة والأجوبة الواقعة بين سادات الطريقة وما تعلق بها من الأسئلة

واعلم أن إحكام وجه الطلب معين على تحصيل المطلوب ، ومن ثم كان حسن السؤال نصف العلم ، إذ جواب السائل على قدرة تهذيب المسائل . وقد قال ابن العريف رحمه الله تعالى : لا بد لكل طالب علم حقيقي من ثلاثة أشياء : أحدها : معرفة الإنصاف ولزومه بالأوصاف ، الثاني تحرير وجه السؤال وتجريده من جهات عموم الإشكال ، الثالث تحقيق الفرق بين الخلاف والاختلاف .

قلت : فما رجع لأصل واحد فاختلاف ، يكون حكم الله في كلٍّ ما أداه إليه اجتهاده ، وما رجع لأصلين يتبين بطلان أحدهما عند تحقيق النظر فخلاف والله أعلم . « قواعد » ١١ .

قال الشيخ عبيد الله أحرار قدس سره : إن ما يصدر من الناس من سوء إن لم يكن في مقابلته حد و تعزير شرعي ينبغي أن لا يتأذى منه ، فإنه صدر عنهم بإقدار الله تعالى إياهم لهذا الفعل وتمكينهم فيه خلقه اهـ .

قال مولانا عبد الغفور قدس سره في توجيه هذا الكلام : إن الأفعال وإن كانت كلها من هذا القبيل سواء توجه إليه حد شرعي أم لا ، لكن المراد في القسم المذكور ينبغي أن ينظر إلى القضاء والقدر لئلا تثور الفتنة و الجدال وفي الصورة الأخرى ينبغي ان ينظر إلى الأحكام الشرعية لتبقى سلسلة أمور العالم على أحسن النظام ، ولئلا تطرق الإهانة إلى شريعة نبينا ﷺ ، فالتأذي في تلك الصورة والإيذاء والفتنة والجدال موجبة لرضاء الحق سبحانه وتعالى ومسرة رسوله ﷺ ، وفي ضمن الجدال والإيذاء ألوف من الفائدة صورة ومعنى ، والإهمال فيها والإمهال ليسا غير زندقة وإلحاد في الشريعة . انتهى .

وقال أيضا ﵀ في حكمة تأييد تعذيب الكفار على الذنب المتناهي متناهيا ، فما السبب في كون العذاب غير متناه على الكفر المتناهي ؟

فقال الإمام الغزالي ﵀ في جوابه : إن علم قدر جزاء الأعمال مختص بالله تعالى ، وإدراك هذا المعنى فوق إدراك العقول الناقصة ، والجزاء المماثل للكفر إنما يكون في النشأة الأبدية ، وليس لغير الحق سبحانه وتعالى اطلاع على حقيقة جزاء الأعمال وسره .

وقال بعض آخر : لما كانت نية الكفار وقصدهم المداومة على الكفر كان جزاءهم أيضا في الآخرة دائما ، فأما الذين لا يقولون بالعذاب الأبدي ولا يقرون به قالوا : إن الكفر جهل عارضي وليس بملائم لمزاج الروح ، بل المناسب لمزاجه وإدراكاته أمور حقة ، وصفة الجهل تكون مرتفعة في الأخير . انتهى .

وقال بعض السادات : وقعت يوما في فكر أن الإيمان الشهودي هل هو من الأحوال الظاهرية أم من الأحوال الباطنية ، فسمعت من وارد أنه بالنسبة إلى العبد من أحوال الباطن ، وبالنسبة إلى الحق من أحوال الظاهر ، فإن العبد يبلغ في هذا الحال حقيقة باطنه ويتجلى له الحق سبحانه باسم الظاهر وصفة الظاهر . انتهى .

فإن قلت : فهل يصح لأحد من الخلق التخلق بالقيومية الذي هو السهر الدائم ليلا ونهارا ؟

فالجواب كما قاله الشيخ في الباب الثامن والتسعين أنه يصح التخلق به كباقي الأسماء الإلهية التي يصح التخلق بها لأحد من الخلق بلا فرق ، وليس ذلك من خصائص الحق كما قال به شيخنا أبو عبد الله بن جنيد ﵀ ، قال : والحق ما قلناه من وقوع التخلق به . انتهى

وقد كتب بعض المشائخ أن الإمام الرباني الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي وأولاده ﵃ كانوا في مقام القيومية ، وأطالوا في ذلك . والله أعلم

فإن قلت : فهل يصح لأحد التخلق باسم الهوية أو الأحدية أو الغني عن العالمين ؟ **فالجواب** كما قال الشيخ محي الدين ﷺ : لا يصح التخلق بذلك لأحد ، لأن هذه الأمور من خصائص الحق سبحانه وتعالى ، فلا يصح أن يتخلق بها مخلوق لا عيانا ولا نظرا عقليا .

وقد قال أيضا في باب الأسرار : اعلم أن التخلق بالأسماء على الإطلاق من أصعب الأخلاق لما فيها من الخلاف والوفاق ، فإياك ياأخي أن يظهر مثل هذا عنك قبل وصولك إلى مشهد من قال (أعوذ بك منك) ، فبمن استعاذ وإلى من لاذ . انتهى

فتأمل في هذه الجواهر ، فإنها لا تجدها مجموعة في كتاب والله تعالى يتولى هداك . ذكره صاحب « اليواقيت » في ١٠١ .

وقال أيضا فيه : **فإن قلت** : فما الفرق بين الوارث المحمدي والوارث لغيره من الأنبياء عليهم السلام ؟

فالجواب : إن الفرق بينهما أن ورثة الأنبياء آياتهم في الآفاق من خرق العوائد وغيرها ، وآية الوارث المحمديّ في قلبه ، فلذلك كان الوارث المحمدي مجهولا في العموم معروفا في الخصوص لا غير ، لأن خرق العادة إنما هو حال وعلم في قلبه ، فهو في كل نَفَس يزداد علما بربه علمَ حال وذوق ، لا يزال كذلك كما مرت الإشارة إليه أول مبحث المعجزات .

وقال في الباب التاسع والثلاثين وأربعمائة : من علامة الوارث المحمدي أن يشهد نفسه خلف كل نبي ، ولو كانوا مائة ألف نبي لرأى نفسه في أماكن على عددهم ، فإن جميع الأنبياء والرسل قد جمعت حقائقهم وشرائعهم في محمد ﷺ ، فمن آمن به وصدقه فكأنه آمن بجميع الأنبياء حقيقة ، ثم إنه إذا تعددت صورته خلف جميع الأنبياء يصير يعلم أنه هو وليس غيره في كل صورة . وأطال في ذلك .

وقال في الباب ٧٣ في الجواب الثامن والخمسين : اعلم أن هذه الدولة المحمدية جامعة لأقدام النبيين والمرسلين ، فأيّ ولي رأى قدما أمامه في حضرة الحق فذلك قدم النبي الذي هو له وارث ، وأما قدم محمد ﷺ فلا يطأ أثره أحد كما لا يكون أحد على قلبه وكما لا يكون أحد وارثا له على الكمال أبدا ، لأنه لو ورثه على الكمال لكان رسولا مثله أو نبيا بشريعة تخصه يأخذها عمن أخذ منه محمد ﷺ ، ولا قائل بذلك . فنعوذ بالله من التلبيس . انتهى « يواقيت » ٩٩

فإن قلت : فما حقيقة الصديقية ؟

فالجواب كما قاله الشيخ في كتاب « لواقح الأنوار » : إن الصديقية عبارة عن إيمان صاحبها بجميع ما أخبر به الرسل ، فتصديقه لذلك هو صديقيته انتهى ٩٩ .

فإن قلت : فما المراد بحديث : « إن لله عبادا ليسوا بأنبياء ، يغبطهم النبيون بمقامهم وقربهم من ربهم » .

فالجواب : المراد بهم أرباب العلوم وأرباب السلوك الذين اهتدوا بهدى أنبيائهم ، ولكن ليس لهم أتباع لعلو مقامهم ، فهم مستريحون يوم القيامة لا يحزنهم الفزع الأكبر ولا يخافون على أنفسهم لما عندهم من الاستقامة ، ولا على غيرهم لأنهم ليس لهم أتباع . ذكره الشيخ في الباب ٧٣

فإن قلت : ما معنى الكبريت الأحمر وأي شيء هو ؟

فالجواب : الكبريت الأحمر هو الإكسير الذي يقلب به المعادن كتقليب النحاس ذهبا إبريزا والرصاص مثلا فضة خالصة وأما عند مشائخ السلسلة فالكبريت الأحمر عبارة عن المرشد الكامل الذي في مقام التكميل لما أنه يقلب الأوصاف المذمومة من المريد إلى الأخلاق الحميدة بنظره وتصرفه .

فإن قلت : ما معنى قريب إلى الله تعالى ، بعيد من الله تعالى ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ؟

فالجواب : إن القرب والبعد إنما هما عبارة عن طاعة العبد إلى الله تعالى ومعصيته ، وذلك أن العبد إذا أخلص قلبه لله تعالى بهمته واجتهاده امتثالا بأمره تعالى واجتنابا عن نواهيه واقتداء بسنة رسوله ﷺ ووقوفا على رعاية آداب المشائخ السادات حتى يصير حضوره شهودا يعبر بالقرب إلى الله تعالى ، وإذا خرج العبد عن الاستقامة واتبع هواه وخالف ربه ورسوله ﷺ يعبر بالبعد ، فافهم والله يتولاك .

وسئل حضرة الخواجه بهاء الدين قدس سره أن بعض المشائخ من الصوفية قال : الصوفي غير مخلوق ، فما تأويل هذا الكلام ؟

فقال : للصوفي في بعض الأوقات صفة وحال لا يكون فيها هو ، فهذا الكلام بالنسبة إلى ذلك الوقت ، وإلا فالصوفي مخلوق .

أشار قدس سره في هذا الجواب إلى حالة كمال الفناء ، فإنه يذهب فيها الوجود الوهمي ويضمحل بالكلية ، ويبقى الوجود الحقيقي المنزه عن نقائص الحدوث ، فالمراد بغير المخلوق هذا الوجود ، لا الوجود الوهمي الذي هو صفة الصوفي ، وهذا معنى لا يتضح بالعبارة ، وإنما المقصود منها الإشارة ، فعليك بمقام الإيمان في هذا الشأن . « بهائية » ٥٧ .

فإن قلت : فما حقيقة علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ؟

فالجواب على ما قال القطب الشعراني قدس سره في « اليواقيت » في ١١٢ : حقيقة علم اليقين أنه هو الذي أعطاه الدليل الصحيح الذي لا يقبل الدخل ولا الشبهة .

وحقيقة عين اليقين هو ما أعطته المشاهدة والكشف .

وحقيقة حق اليقين هو كل ما حصل في القلب من العلم بباطن ذلك الأمر المشهود .

مثال علم اليقين علم العبد بأن لله تعالى بيتا يسمى الكعبة بقرية تسمى مكة ، يحج الناس إليه في كل سنة ويطوفون به ، فإذا وصل العبد إليه وشاهده فهو عين اليقين الذي كان قبل الشهود علم يقين ، لأنه حصل في النفس عند رؤيته ما لم يكن عندها قبل رؤيته ذوقا .

ثم إن الله تعالى لما فتح عين بصيرة هذا العبد حتى شهد وجه إضافة ذلك البيت إلى الله تعالى وخصوصيته على غيره من البيوت ، علم بإعلام الله تعالى تلك الخصوصية وكان علمه حق اليقين ، لكن ذلك ليس هو بنظره واجتهاده ، فإن حق اليقين هو الذي حق استقراره في القلب ، فلم يكن يزول بعد ذلك بدليل آخر ، فما كل علم يقين أو عين يقين يحق له هذا الاستقرار ، وإلا فأين يقين الأنبياء من يقين آحاد الأمة .

يقال : يقن الماء في الحوض ، إذا استقر انتهى ، وقد ذكرنا تفصيلها أيضا في بابها .

وسئل حضرة الخواجه بهاء الدين نقشبند ﵁ أن الجنيد ﷿ قال : اقطع القارين وصل الصوفيين ، فمن القاري ومن الصوفي ؟

فقال حضرة الخواجه : إن القاري هو المشغول بالاسم ، والصوفي هو المشغول بالمسمى .

وسئل حضرة الخواجه ﷿ : ما معنى قول بعضهم (الفقير هو الذي لا يحتاج إلى الله تعالى) ؟

فقال : المراد من هذا نفي الاحتياج للسؤال كما قال السيد إبراهيم ﵇ « حسبي من سؤالي علمه بحالي » .

قال في « الحكم » شرحا لهذا المقام : ربما دلهم الأدب على ترك الطلب اعتمادا على قسمته واشتغالا بذكره عن مسألته ، إنما يذَّكَّر من يجوز منه الإغفال ، وإنما ينبّه من يمكن له الإهمال .

وسئل أيضا حضرة الخواجه ﷽ عن معنى قول بعضهم (إذا تم الفقر فهو الله) .

فقال : هذه إشارة إلى الفناء ومحو الصفات ، وذكر بيتا مضمونه : لما لم تكن ما ذا كان إلا الله تعالى ، وإذا لم تبق وفنيت من بقي فلم يبق إلا الله تعالى .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ في هذا المعنى : لن يصل العبد إلى الله حتى يفنى أفعاله في أفعاله وأوصافه في أوصافه وذاته في ذاته ، فمن فنيت أفعاله وأوصافه وذاته فليس له اسم ولا رسم ولم يبق إلا الله لفناء الوجودات الوهمية وبقاء الوجود الحقيقي « مقامات بهائية » ٥٧ .

فإن قال : ما معنى زوال العين والأثر من الإنسان الكامل ، والحال أن ظاهره دائم على الصفات البشرية ، يأكل ويشرب وينام ويستريح ، قال الله تعالى في شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : ﴿ **وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ** ﴾ ؟

قلت : الفناء والبقاء من صفات الباطن لا تعلق للظاهر بهما بالأصالة ، فإن الظاهر دائم على أحكامه والباطن ينخلع ويتلبس .

فإن قيل : لطائف الباطن متعددة كلها متحقق بالفنآء والبقآء أو بعضها وأيّ بعض هو ؟

قلت : المتحقق بهما إنما هو لطيفة النفس التي هي في الحقيقة حقيقة الإنسان المشار إليها بإشارة قول (أنا) ، فهي الأمارة بالسوء أولا والمطمئنة آخرا ، و القائمة بعداوة الرحمن جل شأنه ابتداء والراضية به والمرضية عنها انتهاء ، فهي شر الأشرار وخير الأخيار ، زاد شره شر إبليس ، وزاد خيره على خير أهل التسبيح والتقديس . « مكتوبات » الرباني في ٧٠ .

وذكر العلامة إسماعيل حقي ﷾ في « روح البيان » أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس به من البدن ، تبقى بعد الموت درّاكة وعليه الجمهور .

فإن قلت : الحياة الروحانية المستتبعة لإدراك اللذة والألم مشتركة في الجميع ، فما وجه تخصيص الشهداء بها .

قلت : لاختصاصهم بالقرب من الله تعالى ومزيد البهجة والكرامة ، ومن لم يبلغ منزلتهم لا تكون حياته معتدا بها ، فكأنه ليس بحي . قال تعالى في حق أهل النار : ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ « روح البيان »جلد ١٧٩/١ .

وسئل العارف الحسيني السيد أحمد المغربي ﷺ عن القدر .

فأجاب بما معناه : أنه لا ينبغي لأحد أن يخوض فيه لأنه لا يعرف إلا بفتح من الله تعالى وعلم لدني ، ثم من فتح الله عليه لا يمكنه أن يعبر عنه أصلا لأنه يمكن للمناقض أن يناقضه ، فالذي لم يعرف من جهة الله تعالى لا ينبغي له أن يخوض فيه ويمتثل قول الله تعالى ﴿**ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ**﴾ وقول رسول الله ﷺ : « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » . فإنه إن بحث عنه من جهة غير الله خيل له أنه من باب قول الشاعر :

أَلْقاه في اليَمِّ مَكْتوفاً وَقالَ لَهُ   إيَّاكَ إيَّاكَ أنْ تَبْتَلَّ بِالماءِ

وقول رسول الله ﷺ « أن تؤمن بالقدر خيره و شره » كافٍ . « عقد »١٤٥

وأما مبنى الطريق **فإذا سئلت** على أي شيء بني الطريق ؟

فالجواب : على ستة أشياء : التوبة والعزلة والزهد والتقوى والقناعة والتسليم .

وإذا سئلت عن أركان الطريق .

فالجواب ستة : الحلم والعلم والصبر والرضاء والإخلاص والأخلاق الحسنة في الصبر على الأمر المقضي .

وإذا سئلت عن أحكام الطريق

فالجواب ستة : المعرفة واليقين والسخاء والصدق والشكر والتفكر في مصنوعاته تعالى .

وإذا سئلت عن واجب الطريق ؟

فالجواب ستة : ذكر رب العالمين وترك الهوى والدنيا واتباع الدين والإحسان إلى المخلوقات وفعل الخيرات .

وإذا قيل لك ابن من أنت ؟

فالجواب : ابن الطريق .

فإن قيل : الطريق ابن من ؟

فقل : ابن محمد المصطفى ﷺ والصديق الأكبر وعلي الرضى رضي الله عنهما .

وإذا قيل : فما الربط والإلزام بمقابلة النكاح ؟

فالجواب : المبايعة ، فتكون البيعة بمنزلة النكاح ليصير ولدا صحيحا لا عاهرا ، فتقرأ عند ذلك البسملة والفاتحة والإخلاص والصلاة على النبي ﷺ ثلاثا ثلاثا بلا انتقاص لتكون مهرا .

والتوكل لغة تفويض الأمر إلى الغير ، واصطلاحا طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية في البداية والنهاية « جامع الأصول » ٩٨ .

وسئل العارف بالله السيد أحمد بن إدريس المغربي قدس سره بم يتميز الخاطر الرحماني من الخاطر الشيطاني ؟

فأجاب بما معناه : إن من قوي إيمانه فلا بد أن يتميز بمجرد وروده ، لأنه ليس للشيطان عليه سلطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ، فبضعفه وعدم سلطانه يتميز ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ ، فإذا استوى الخاطران فالتنازع ثبت هنا .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ ، فيعرض كل واحد منهما على كتاب الله وسنة رسوله ، فما قبلاه منهما فهو الخاطر الرحماني .

مثل أن يخطر أمر يفضي بصاحبه إلى أنه يدبر رزقه ولولا أنه يسعى لرزقه لما رزق ولا أكل ، ويفضي به إلى أنه يدخر المال ويشح به أو إلى أنه يقصد مخلوقا وما يشابه ذلك ، فإنه إذا عرضه على كتاب الله تعالى وجده لا يقبله ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾

ثم إذا خطر خاطر يخوّف صاحبه من أي شيء سوى الله تعالى كائنا ما كان ، فليعلم أنه من الشيطان ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

وربما جآء خاطر إبليس من طريق إنسان في صورة ناصح صديق لك إذا عرف أنه لا يقدر عليك فيأتيك عليك صديقك يشير عليك وينصحك . فاعرضه أيضا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فإن قبلاه فهو رحماني وإن لم فهو شيطاني ، لأنه إذا لم يقبله القرآن ولا السنة فهو النجوى الذي قال تعالى فيه : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ « العقد النفيس » ١٣٢

وسئل العارف بالله السيد أحمد بن إدريس الشريفي الحسيني رضي الله عنه عن قول الله تعالى في الحديث القدسي الذي آخره « ومن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه » ، فإن النبي ﷺ خير الخلق

أجمعين ، والله يذكره إذا ذكره في خير من ملأه ، فما هو الملأ الذي يذكره الله فيه وهو خير من ملأه ﷺ مع أنه خير خلق الله أجمعين ؟

فأجاب بأن الملأ الذي يذكره الله تعالى فيه هو ملأه ﷺ نفسه ، ولكن لم يزل رسول الله ﷺ في الترقي ، فما ذكر الله تعالى إلا وارتقى إلى رتبة أعلى من الأول ، فيذكره الله تعالى في ملأءه ذلك بعد ترقيه ، فيكون ذكر الله تعالى في ملأ خير من الملأ الذي ذكر الله تعالى فيه ، لأنه قد ترقى إلى رتبة أعلى من الرتبة الأولى ، فالملأ واحد ، وباعتبار ترقيه متفاضل ، ولم يزل في ترقّ إلى ما لا نهاية له ، وأصحابه ﷺ ورضي عنهم أجمعين كذلك في ترق بعده ﷺ « منه » ٢٢١ .

وسئل الإمام ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى : ما معنى قول النبي ﷺ « لا تفضلوني على يونس بن متى » عليه السلام مع أنه ﷺ قال : « أنا سيد ولد آدم » ؟

فقال للجماعة الذين سألوه : لا أخبركم حتى تقضوا دين صاحبي هذا ، وكان له صاحب مدين فقضوه عنه ، فقال : المراد من ذلك أن قربي من الله تعالى حين ارتفاعي إلى شجرة المنتهى بل إلى العرش كقرب يونس حين كان في ظلمات ثلاث ، لا تفاضل بيننا في ذلك ، وهذا كما في بعض الأحاديث : « **إن ملكا جاء من فوق السموات السبع ، وملكا جاء من تحت الأرضين السبع ، وملكا من أقصى المغرب ، وملكا من أقصى المشرق ، وكلهم يقول جئت من عند الله تعالى** » . « العقد النفيس » ١٥١

فصل

في الاجتهاد والتقليد

المسألة الأولى في التقليد :

والتقليد قبول القول بأن يعتقد من غير معرفة دليله ، وأما مع معرفة دليله فلا يكون إلا لمجتهد لتوقف معرفة الدليل على معرفة سلامته من المعارض بناء على وجوب البحث عن المعارض ، ومعرفة السلامة عنه متوقفة على استقراء الأدلة كلها ، ولا يقدر على ذلك إلا المجتهد .

ومن لم يوجب البحث عن المعارض واكتفى بمجرد معرفة الدليل أجاز التمسك بالعام قبل البحث عن المخصوص ، فلم يكتف بمعرفته من غير مجتهد ، إذ لا وثوق بمعرفة غيره في الأدلة الظنية .

ويجب التقليد على من لم يبلغ رتبة الاجتهاد المطلق عاميا محضا أو غيره . اهـ

ودليل وجوب تقليد غير المجتهد مجتهداً قوله تعالى : ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ . اهـ

وقيل : لا يجوز للعالم الذي لم يبلغ مرتبة الاجتهاد المطلق التقليد ، لأن له صلاحية أخذ الحكم من الدليل بخلاف العامي المحض . اهـ

وقال القاضي أبو بكر ﷺ : ليس في الشريعة تقليد ، فإن حقيقة التقليد قبول القول من غير حجة ودليل ، فكما أن قول الرسول عليه الصلاة والسلام مقبول لقيام المعجزة الدالة على صدقه ، فكذا قبول أخبار الثقاة الحاذقين المفتين والحكام مقبول بالإجماع ، لقيام الدليل الشرعي على وجوب العمل ، فنزل أقوال المفتين الظنية في وجوب العمل عليها بالإجماع منزلة أخبار الآحاد والأقيسة عند المجتهدين في المصير إليها بالإجماع .

قلت : هو في الحقيقة إرشاد بدليل إجمالي على وجوب العمل بالتقليد يعم جميع مسائله ، ويفيد أن المذموم تقليد لم يقم دليل على اعتباره ، فالمراد بقولهم في تعريف التقليد (من غير معرفة دليله) إنما هو الدليل التفصيلي الخاص بكل مسألة شائعة . اهـ

المسألة الثانية : إنما يقلَّد من عرف أهليته ، فلا يستفتى إلا من عرف علمه وعدالته .

قال في « أصل الروضة » : فإن لم يعرف العلم بحّث عنه بسؤال الناس ، وإن لم يعرف العدالة مع معرفة العلم فقد ذكر الغزالي ﷸ فيه احتمالين ، أحدهما أن الحكم كذلك ، وأشبههما الإكتفاء أي بمعرفة علمه ، لأن الغالب من حال العلماء العدالة ، بخلاف البحث عن العلم فليس الغالب من الناس العلم . اهـ .

ويعتمد قوله (أنا أهل الفتوى) لأن الاستفاضة والشهرة بين العامة لا وثوق لها ، فقد يكون أصله التلبيس ، وأما التواتر فلا يفيد العلم إذا لم يستند إلى محسوس ، والصحيح الاكتفاء بالاستفاضة وهو دون التواتر وفوق خبر الواحد اهـ . وإن أردت البيان التام راجع إلى « رماح حزب الرحيم » ٦٣/١ ، ٩٦ .

وقال الشيخ ابن زروق ﷸ أيضاً في « قواعده » : ما أنكره مذهب فلا يكون أخذه من غيره وإن أبيح أو ندب لمن كان عليه إلا من ضرورة تبيحه بنص من أئمته ، وما لم ينكره المذهب يجوز به من غيره سيما إذا اقتضى احتياطاً أو تحصيل عبادة على مذهب ذلك الغير كاتقاء القمرين الأحداث ومسح الرقبة في الوضوء وإطالة الغرة وترك مسح الأعضاء بالمنديل وكصلاة التسبيح والحاجة والتوبة ونحوها ، وكاتقاء النصف الأخير من شعبان لمن لم يصم أوله واعتكاف جزء من النهار إذ غايته نفي كونه اعتكافا وإلا فهو عبادة ، وكذا إحداث نية نفل بعد الفجر إذ غايته أنه لا يعد صوما عند المالكية ، وقد عده الشافعية صوما .

قال بعض الصوفية : وعلى ذلك ينبغي أن يكون[1] المتجرد فإنه ضيف الله تعالى ، لئلا يضيع جوعه .

وللقرافي ﷿ في « قواعده » وابن العربي ﷿ في « سراجه » ما يشير لما هو أعظم من هذا في باب الورع ، وإليه كان يميل شيخنا القوري ﵀ في عمله ، ونحوه عن ابن عماد ﷿ في « وصية المريد » من « رسائله الصغرى » . والله أعلم .

« ١ » في الأصل : ينبني مذهب .

فصل

في الولايات

قد ذكرنا بيان الولايات في صحيفة ٥١٦ ، والبيان الباقي نذكر هنا إن شاء الله تعالى .

ثم اعلم أنَّ من تشرف بالولاية الكبرى بالعناية الإلهية بفضل الله وسعة رحمته سبحانه وتعالى وتمت الأفنية وحصلت الأبقية وانقطعت البرازخ من الأصول تشرف بولاية الملأ الأعلى .

والمراد من الأفنية مبادي الفناء التام ، والمراد بالأبقية درجات الولاية الصغرى والكبرى ، والبرزخ هو الحائل بين الشيئين .

والمراد هنا الأفنية والأبقية التي هي الحائلة بين السالك وبين الذات الإلهية ، لأن الأفنية والأبقية قبل الفناء التام هي البرازخ التي ما دام السالك فيها محجوبا عن الذات المطلقة ويكون السير فيها سيرا في البرازخ .

والمراد من الأصول الأفنية التي تتوقف عليها الأبقية ، لأن السالك إن لم يتصف بالفناء لم يتصف بالبقاء ، لأن حصول البقاء بعد حصول الفناء .

والمراد من الظلال الأبقية التي هي درجات الولاية الصغرى والكبرى ، لأن جميع درجات الولايتين في الولي ظل نبوة النبي ﷺ انتهى .

ومعنى ولاية الملأ الأعلى هي ولاية الملائكة عليهم السلام .

وإنما سميت الملائكة بالملأ الأعلى لكونهم فوق عالم الحس والشهادة ، وليس لهم مكان ولا أين باعتبار أصل جبلتهم .

والفرق بين ولاية الأنبياء وبين ولاية الملأ الأعلى أن ولاية الأنبياء يحصل بها الترقي في تجليات الذات المقدسة إلى أبد الآبدين دون ولاية الملأ الأعلى ، لأنهم لا يقدرون على تجلي الذات لكونهم من أهل الصفات ، فيكون

سيرهم من وراء حجاب الصفات كما ذكرنا في موضعه ، فلذلك قال جبرائيل عليه السلام في ليلة المعراج : لو تقدمت قدر أنملة لاحترقت ، فحينئذ تكون ولاية الأنبياء أشرف وأعلى من ولايتهم ، ثم بعد تشرف السالك بولاية الملأ الأعلى يتشرف بكمال النبوة . انتهى ما ذكره محمد مراد قدس سره في « تحفته » .

وقـــال الإمام الرباني مجدد الالف الثاني الشيخ أحمد الفروقي السرهندي قدس سره في « مكتوباته » : اعلم أن الولاية عبارة عن الفناء والبقاء . وهي إما عامة وإما خاصة .

ونعني بالعامة مطلق الولاية ، وبالخاصة الولاية المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، الفناء فيها والبقاء أكمل ، ومن شرف بهذه النعمة العظمى فقد لان جلده للطاعة وانشرح صدره للإسلام واطمأنت نفسه ، فرضيت عن مولاها ورضي مولاها عنها ، وسلَّم قلبه لِمُقلّبه وتخلصت روحه كلية إلى مكاشفات حضرة صفات اللاهوت ، وشاهد سره مع ملاحظة الشؤون والاعتبارات .

وفي هذا المقام شرف بالتجليات الذاتية البرقية ، وتحير خفيّه لكمال التنزه والتقدس والكبرياء ، واتصل أخفاه اتصالا بلا كيف وضربٍ من المثال ، هذا . هنيئا لأرباب النعيم نعيمها .

ومما ينبغي أن يعلم أن الولاية الخاصة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام متميزة عن سائر مراتب الولاية في طرف العروج ، فلأن فناء الأخفى وبقاءه مختصان بتلك الولاية الخاصة ، وعروج سائر الولاية إلى الخفي فقط مع تفاوت درجاتها ، يعني أن عروج بعض أرباب الولايات إلى مقام الروح ، وعروج البعض إلى السر ، وعروج البعض الآخر إلى الخفي ، وهو أقصى درجات الولاية العامة .

وأما في طرف النزول فلأن لأجساد المحمدية عليه وعلى آله الصلاة والسلام نصيبا من كمالات درجات تلك الولاية ، لما أنه ﷺ أسري به ليلة

المعراج بالجسد إلى ما شاء الله تعالى وعرض عليه الجنة والنار وأوحي إليه ما أوحي ، وشرف ثمة بالرؤية البصرية ، وهذا القسم من المعراج مخصوص به ﷺ ، والأولياء المتابعون له كمال المتابعة السالكون تحت قدمه لهم أيضا نصيب من هذه المرتبة المخصوصة ، وللأرض من كأس الكرام نصيب .

وغاية ما في الباب وقوع الرؤية في الدنيا مخصوص به عليه الصلاة والسلام ، والحالة التي حصلت للأولياء الذين تحت قدمه ليست برؤية ، والفرق بين الرؤية وتلك الحالة كالفرق بين الأصل والفرع والشخص والظل ، وليس أحدهما عين الآخر ، والله أعلم . انتهى ١٢٧

وقال شيخ شيخنا قُدِّسَ سِرُّهُ : واعلم أن الولاية العليا كاللب ، والولاية الكبرى كالقشر ، بل كل دائرة تحتانية بالنسبة إلى دائرة فوقانية بهذه المناسبة إلا كمالات النبوة ، فإنها بالنسبة إلى الولاية لا تتصور فيها تلك المناسبة ويعملون في هذه الدائرة مراقبة ذات هي قسم الباطن .

ومورد الفيض في هذه الولاية العناصر الثلاثة سوى العنصر الترابي والتهليل اللساني ، وصلاة التطوع مع طول القيام يفيد الترقي في هذا المقام ، ولا يحسن ارتكاب الرخصة الشرعية ، بل العمل بالعزيمة يفيد الترقي فيه .

وسر ذلك أن العمل بالرخصة يجذب الإنسان إلى طرف البشرية ، والعمل بالعزيمة يظهر المناسبة بالملكية ، فكلما زادت المناسبة بالملكية تيسر سرعة الترقي في هذه الولاية .

وأما الأسرار التي تحصل في هذه الولاية فإنها ليست كالتوحيد الوجودي والشهودي حتى يأتي شيء منها بالبيان ، فالأسرار في هذه الولاية أليق بالاستتار وليست بقابلة الكشف والإظهار بوجه من وجوه القال اهـ« جامع الاصول » ٥٩ .

وأما بيان كمالات النبوة هو أنه لما تفضل وترحم الشيخ وتوجه إلى العنصر الترابي للسالك ورد على لطائفه فيض من كمال النبوة التي هي عبارة عن التجلي الذاتي الدائمي .

ومعارف هذا المقام فقدان جميع المعارف ، وتصير هنا نكارة حالات الباطن ، واللالونية واللاكيفية نقود الوقت .

وههنا تظهر قوة في الإيمانيات والعقائد وينقلب الاستدلالي إلى البداهي ، ومعارف هذا المقام شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وههنا يكون في نسبة الباطن سعة بحيث تصير سعة الولايات كلها من الولاية الصغرى والكبرى والعليا لا شيئا محضا وضيقا صرفا في جنب تلك النسبة .

ويوجد في الولايات مناسبة كل منها مع الأخرى صورية أوحقيقية ، وأما هنا فتنفذ تلك المناسبة ، وههنا تحصل حقيقة الوصل العرياني مع وجود الفقداني ونكارة حالات الباطن وحصول اليأس ورؤية القصور بحيث يرى نفسه أقبح من كافر الافرنج .

وأما كل من كان وصل قبل هذا فقد كان داخلا في دائرة الوهم والخيال وسرابا يحسبه ماء ظمآن الوصال ولم يكن هناك بيده شيء غير الحسرة والندامة .

ولما انكشف هذا المقام حين توجه الشيخ تيسر له معاملة شبيهة بالرؤية وإن لم تكن هي الرؤية الموعودة في الآخرة التي آمنا بها ، ولكن المعاملة التي تتيسر هنا كالرؤية بالنسبة إلى ما في الولايات من المشاهدات .

وكما أن الرؤية الأخروية مخصوصة بعالم الخلق ، فكذلك المعاملة هنا نصيب عالم الخلق ، وكما تصير لطائف عالم الأمر هنا لا شيئا محضا ، كذلك لطيفة النفس ولطائف العناصر كلها تصير هنا لا شيئا .

وهذه المعاملة مخصوصة بالعنصر الترابي ، وإن كان للعناصر الأخرى نصيب من هذه الدولة في تبعية هذا العنصر الترابي ، وههنا أحكام الشرائع وأخبار الغيب من وجود الحق وصفاته تعالى ومعاملة القبر والحشر وما فيه والجنة والنار وغير ذلك مما أخبر به المخبر الصادق كلها يصير بداهيا وعينَ

اليقين ، فإن هنا يكون وجود الحق كالمرآة وتكون الأشياء كالصور المرئية في المرآة التي وجود الصور فيها وهمي وخيالي ووجودها واقعي ، لكن في المرآة الصورية تشاهد أولا الصورة ثم المرآة ، وأما ههنا فبخلاف ذلك ، لأن وجود المرآة ههنا مرئي في أول النظر ، ووجود الأشياء بعد تدقيق .

ولهذا يصير وجود الحق سبحانه وتعالى بديهيا ، ووجود الأشياء نظريا يحصل بعد دقة النظر ، وهذه معاملة عجيبة لأنه مع علو هذا المقام وبساطته ولالونيته إذا حصل الانكشاف التام في هذا المقام علم أنه كان مقابلا للنظر وتزايد حيرة .

وأعجب منها أنها لا تفيد أصلا لحصول هذا المقام أذكار الصوفية المعمولة لهم ، وأما التلاوة مع الترتيل وأداء الصلاة بآدابها والأذكار الثابتة في الحديث فكلها يفيد الترقي في هذا المقام ، وكذا الاشتغال بعلم الحديث والاتباع للسنة يقوى وينور في هذا المقام ، وههنا تنكشف حقيقة سر قاب قوسين أو أدنى « جامع الأصول » ٩٠ .

وهذه الأمور ترد مع زيادة أيضا في كمال الرسالة وأولي العزم فتفطن ، وقد ذكرنا إلى جميعها الإشارة والله ولي التوفيق .

وقال الشيخ محمد مراد المنزلوي ونفسي فداه نقلا عن شيخ مشائخنا مولانا شمس الدين حبيب الله ميرزا جانجانان مظهر الشهيد ﷸ : إن إدراك كيفية الحالات الباطنية يرى محظوظا في مرتبة الولايات ، وأما في مرتبة كمالات النبوة فلا شيء يوجد من أوصاف الباطن غير النكارة والجهالة .

وأما فيما فوق كمالات النبوة وإن كانت اللطافة واللالونية لازمة فيه لكن يمكن فيه إدراك كيفيات الأحوال في الجملة هامش « الرشحة » ٦٨ .

وقال الإمام الرباني ﷸ : وللولاية درجات بعضها فوق بعض إذ على قدم كل نبي ولاية خاصة به ، وأقصى درجاتها هي التي على قدم سيدنا ونبينا ﷺ ، إذ التجلي الذاتي الذي لا اعتبار فيه للأسماء والصفات والشؤون والاعتبارات

لا بالإيجاب ولا بالسلب مخصوص بولايته ﷺ وخرق جميع الحجب الوجودية والاعتبارية علما وعينا يتحقق في هذا المقام ، فحينئذ يحصل الوصل عريانا ويتحقق الوجد حقيقة لا حسبانا ، وللكمل من متابعيه عليه الصلاة والسلام نصيب كامل وحظ وافر من هذا المقام العزيز .

فعليكم باتباعه ﷺ إن كنتم متوجهين إلى تحصيل هذه الولاية القصوى وتكميل هذه الدرجة العليا ، وهذا التجلي الذاتي برقي عند أكثر المشائخ رحمهم الله تعالى ، يعني أن خرق الحجب عن حضرة الذات جل سلطانه يكون في زمان يسير كالبرق ، ثم تسدل حجب الأسماء والصفات ويستر سطوات أنوار الذات تعالى ، فيكون الحضور الذاتي لمحة كالبرق والغيبة الذاتية كثيرة جدا .

وعند أكابر المشائخ النقشبندية قدس الله أسرارهم هذا الحضور الذاتي دائمي ، ولا عبرة عندهم للحضور الزائل المقيد بالغيبة ، فيكون كمال هؤلاء الأكابر فوق جميع الكمالات ونسبتهم فوق جميع النسب ، كما وقع في عبارتهم أن نسبتنا فوق جميع النسب وأرادوا بالنسبة الحضور الذاتي الدائمي .

وأعجب من ذلك أن النهاية في طريق هؤلاء الكمل مندرجة في البداية ، واقتداؤهم في ذلك بصحابة رسول الله ﷺ ، فإنهم في أول صحبة النبي ﷺ نالوا ما يتيسر في النهاية ، وذلك باندراج النهاية في البداية ، فكما كانت ولاية محمد ﷺ فوق ولايات جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلوات والتسليمات ، كذلك كانت ولاية هؤلاء الأكابر فوق جميع ولايات الأولياء قدس الله أسرارهم ، كيف وإن ولايتهم منسوبة إلى الصديق الأكبر رضي الله عنه ، نعم ، لأفراد من كمل المشائخ قد حصلت هذه النسبة لكن باقتباس من الصديق الأكبر رضي الله عنه . انتهى « مكتوبات » ٢٩ .

ثـــــم اعلم أيها الولد البار ، أن الولاية الكبرى تشتمل على ثلاثة دوائر ونصف دائرة كما ذكرنا في صحيفة ٣١٥ وفي صحيفة ٥٢٢ .

ففي الدائرة الأولى ينكشف سر الأقربية والتوحيد الشهودي ، والنصف الأسفل من هذه الدائرة يتضمن الأسماء والصفات ، والنصف الأعلى منها

يتضمن الشؤونات الذاتية ويشتمل إليها وعروج أمر اللطائف الخمسة إلى قدر هذه الدائرة ومورد فيضها هي اللطائف الخمسة مع لطيفة النفس .

وتتحقق هنا مراقبة الأقربية التي تظهر من سر قوله ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ وهي أي ملاحظة معناها هو منشأ الفيض ، وبعد تيسر العروج من هذه الدائرة أن السير يكون إلى أصل الدائرة ، ومنه إلى أصل الأصل حتى يصل إلى الأصل الثالث الذي هو نصف الدائرة .

وسير هذه على الترتيب الذي ذكر في مراتب التجليات ، فافهم وفقك الله تعالى لنيل الكمالات ومقام المراقبة مطلقا هو مقام الإحسان ، مقام من يعبد الله كأنه يراه ، وكم مرة ذكرناه فيعلم أن الله تعالى يراه من مازج لحمه ودمه معنى قوله تعالى ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ ، واشتعلت فتيلة سراج قلبه بنار معنى قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ فصارت الخلوة والخلق بالنسبة إليه سواء فلم يشهد بظاهره وباطنه إلا مولاه ولم يتوجه في قضاء حوائجه إلا إلى الله تعالى .

والحـــاصل أن لب طريق القوم أن يعلم السالك أن الحق تعالى مطلع على سرائره وظواهره في كل نفس وحال ، فإن خطرت له خطرة نفسية أو شيطانية قال لنفسه : إن الحق مطلع على هذه الخطرة أيتها النفس ، فأيما أحب إليك إيثار الحق واتباعه فيما أمر ونهى أو اتباع مرادك ؟

فمن ساعدته العناية وأمدّه التوفيق آثر الحق تعالى بقلبه على نفسه وأعرض عن تلك الخطرة حتى جعلها معدومة كأمسه .

فمن رآه الحق تعالى مؤثرا له هذا الإيثار حفظه من طوارق المحن ومضلات الفتن ، ويصير الحق تعالى محبا له كما قال ﷺ في الحديث القدسي : « لا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطيته ولئن استعاذ بي

لأعيذه » فمن كان الحق تعالى سمعه وبصره ولسانه كيف يقع في طوارق المحن أم كيف تضله الفتن .

فاجتهد في تصحيح هذا المعنى واغسل القلب من السوى لتترقى في هذا المعنى فإن من بقيت فيه بقية لسواه لا يصلح أن يكون عبدا لمولاه ، فإذا محوت من قلبك السوى أفناك عنك وأودعك الأسرار وصرت من خواص عباده المقربين الأبرار .

فإذا أردت الدواء النافع والترياق المجرب لدفع سموم حياة هذه البلاقع فعليك بسماع كلام العلماء من القوم ، فإنهم أطباء القلوب ، والطبيب يعطي المريض ما يناسب مزاجه وسنه ووقته ، وكذلك أطباء القلوب يجري على ألسنتهم في كل زمان الدواء النافع لأهل ذلك الزمان ، فلذلك لما سئل بعض العارفين عن الحال إذا لم يظفر السالك بأحد من الأولياء قال : عليك بكلامهم ، فإن من طالع كلامهم ولم يكن رجلا يصير رجلا ، فإن كان رجلا يصير فتى .

قال الشيخ العارف السيد أحمد بن زيني دحلان ﷺ : قال الشيخ الفاضل والفرد الكامل محمد مراد المنزلوي ثم المكي ونفسي فداه قد أطنب كلامه في هذه الطريقة العلية على وفق آراء أكابر القوم ، ولقد صاحبته فرأيته بحرا لا ساحل له ، وقال في تعريبه : فأول مراقبة في الطريقة النقشبندية هي مراقبة الأحدية ، وهي ملاحظة ورود الفيض من الذات الأحد الموصوفة بجميع صفات الكمال المنزهة عن جميع النقائص والزوال على لطيفة القلب بواسطة الشيخ ، وفيها يحصل الحضور مع الله تعالى والغفلة والذهول عما سواه سبحانه وتعالى .

فإن امتد الحضور إلى ساعتين فهو علامة لقطع تمام دائرة الإمكان التي هو أول دوائر تنكشف للسالك حين سلوكه إن كان له كشف عياني .

فكلما قطع شيئا من الدائرة تظهر للسالك بالنورانية والتشعشع على قدره والذي لم يقطع بعدُ يرى مظلما بلا نور كطرف شمس حين الكسوف ، فإن قطع كلها يظهر له تمامها كقرص الشمس .

فعلامة قطع تمامها حصول الحضور على ما قلنا ، وبعضهم جعل رؤية الأنوار علامة لقطع تمامها ، ونصف دائرة الإمكان هذه من مركز الأرض إلى محدب العرش ، ونصفها الباقي فوق العرش حيث لا خلا ولا ملا[1] ، وهو المراد من قولهم اللامكان ، وانكشاف مقامات القرب لأهل الكشف في صورة الدائرة فإنما هو لعدم اتصافها بالجهة ، وإلا فأين الدائرة هناك . انتهى .

وقال الإمام الرباني قدس سره في « مكتوباته » : قد تظهر وقت العروج إلى مراتب نهاية النهاية بعناية الله سبحانه وتعالى وحرمة حبيبه عليه وعلى آله الصلاة والسلام مرتبة كل ذرة من ذلك الموطن أزيد من تمام دائرة الإمكان أضعافا مضاعفة ، فإذا قطع مسافة مقدار ذرة من ذلك الموطن بالسلوك كأنه تيسر قطع زيادة أضعاف دائرة الإمكان ، فكيف إذا طوى شخص مسافة طويلة من تلك المرتبة .

فعلم أنه لا مقدار لدائرة الإمكان بالنسبة إلى مرتبة الوجود ، فما فوقها ياليت لها حكم القطرة بالنسبة إلى بحر المحيط ، فبالضرورة لا يمكن وصول أحد إلى منزل الحبيب بقوة قدمه ولا يقدر رؤيته ببصر نفسه ، لا يحمل عطايا الملك إلا مطاياه . انتهى .

اعلم أرشدك الله سبحانه وتعالى وهداك إلى سواء الطريق أن الحق سبحانه الذي هو منزه عن الكيف والمثال والشبه وما يقع في الخيال كما أنه وراء الآفاق كذلك هو سبحانه وراء الأنفس أيضا ، فلا يكون تسمية السير الأفاقي بالسير بالله ، والسير الأنفسي بالسير في الله معنى ، بل كلا السيرين الآفاقي والأنفسي

« ١ » أي حيث لا مكان ولا حيث ولا جهة .

داخلان في السير إلى الله تعالى ، والسير في الله تعالى هو سير بعيد عن الآفاق والأنفس بمراحل ووراء ورائهما .

والعجب أنهم قرروا السير في الله تعالى في السير الأنفسي وقالوا بعدم نهاية ذلك السير ولم يجوزوا انقطاعه في العمر الأبدي كما مر .

وحيث كانت الأنفس كالآفاق من جملة دائرة الإمكان فعلى هذا التقدير لا يمكن قطع دائرة الإمكان ، فلا جرم يكون الحرمان دائما والخسران سرمدا ، ولا يتحقق الفناء أبدا ولا يتصور البقاء حينئذ ، فكيف الوصل والاتصال وكيف القرب والكمال سبحان الله إذا اكتفى الكبراء من الشراب بالسراب وزعموا إلى الله تعالى في الله تعالى وتصوروا الإمكان وجوبا وعبروا عن المثلي والكيفي باللامثلي واللاكيفي ، كيف نشتكي من الصغار ووضيعي الفطرة أي بلاء وقع بأي اعتبار . انتهى كلام الإمام الرباني ﹰ ١/٦٠ ـ٦٢

وقال أيضا : إن الطريق الذي اخترناه نحن ابتداء سيره من القلب الذي هو من عالم الأمر ، وبعد القلب يقع السير في مراتب الروح التي فوقه ، وبعد الروح تكون هذه المعاملة بالسر الذي فوقها ، وهكذا الحال في الخفي والأخفى .

وبعد طي منازل هذه اللطائف الخمسة وحصول العلوم المتعلقة بكل منها على حدّه وحصول المعارف كذلك ، وبعد تحقق الأحوال والمواجيد المخصوصة بكل واحد من هذه الخمس منفردة منفردة يقع السير في أصول هذه الخمس التي هي في العالم الكبير ، فإن كل ما هو في العالم الصغير أصله في العالم الكبير .

والمراد بالعالم الصغير الإنسان ، وبالعالم الكبير سائر الكائنات ، وشروع السير في أصول هذه الخمس من العرش المجيد الذي هو أصل قلب الإنسان ، وفوقه أصل الروح الإنسانية ، وفوقه أصل السر ، وفوقه أصل الخفي ، وفوقه أصل الأخفى .

فإذا طوى سير هذه الأصول الخمسة من العالم الكبير بالتفصيل وانتهى إلى نقطة أخيرة فقد أتم سير دائرة الإمكان ووضع القدم على أول منزل من منازل الفناء ، فإن وقع الترقي بعد ذلك يكون السير في ظلال الأسماء والصفات الإلهية جل سلطانه ، وهذه الظلال كالبرازخ بين الواجب والامكان وأصول لتلك الأصول الخمسة التي في العالم الكبير ويكون السير في هذه الظلال أيضا على الترتيب المذكور في فروعها ، فإن طوى بفضل الله سبحانه المنازل المتكثرة من هذه الظلال وانتهى إلى نقطتها الأخيرة يكون الشروع في أسماء الواجب وصفاته جل سلطانه ، وتقع تجليات الأسماء والصفات وظهورات الشؤون والاعتبارات ، فعند ذلك يكون قد أتم معاملة اللطائف الخمس الأمرية وأدى حقها .

فإن وقع الترقي بفضل الله سبحانه وتعالى بعد ذلك من هذا المقام تقع المعاملة على اطمئنان النفس وتيسر حصول مقام الرضا الذي هو نهاية مقامات السلوك ، ويحصل في هذا المقام شرح الصدر وتشرف فيه بالإسلام الحقيقي .

والكمالات التي تحصل في هذا الموطن حكم الكمالات المتعلقة بعالم الأمر في جنبها كحكم القطرة في جنب البحر المحيط ، وكل هذه الكمالات المذكورة متعلقة باسم الظاهر والكمالات المتعلقة باسم الباطن هي غيرها ، ولها مناسبة بالاستتار والتبطن ، فإذا حصلت كمالات هذين الاسمين المباركين بتمامها يتيسر للسالك جناحان للطيران ليطير بقوتهما إلى عالم القدس وتحصل له ترقيات خارجة عن القياس ، فافهم والله يعصمك وهو ولي التوفيق . انتهى من « المكتوبات » ١٣٦ .

فصل

في حسن الخلق والعفو والفتوة

قال العارف أحمد الحسيني ﷺ : من أحسن أخلاق الإنسان العفو عمن ظلمه ، فإن الله سبحانه يعامله بالعفو فيما بينه وبينه ، وأيضا فإنه تعالى يلهم المظلوم منه أن يعفو عنه ، ففي الحديث القدسي : « يا عبدي لا تدع على من ظلمك ، فإن شئت آخذته بظلامتك وآخذتك بمن ظلمت ، وإن شئت أخرتكما حتى تسعكما رحمتي » « عقد » ١٤٣ .

وقال أيضا في ٧٢ حين سئل عن قوله تعالى : ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ وفي قراءة ﴿إلا من ظَلم﴾ ، فأجاب أن (إلا) تكون استثنائية وتكون استدراكية ، وفي هذا الموضع يستقيم المعنيان ، فإن كانت استثنائية فالمعنى : أن الجهر بالسوء لا يحبه الله تعالى إلا من ظُلِم فلا بأس ، وذلك حيث ينازع الرجل خصمه ، لولا أنه يجهر بالسوء لما ظهر الحق .

وعلى قراءة ﴿إلا من ظَلَم﴾ بالفتح ، يقدر « إلا من ظلمه » ، وله شواهد من كلام العرب ، ولكن الاستدراك أولى بالمقام ، ويكون المعنى : لا يحب الله الجهر بالسوء ، لكن من ظلم فلا يحب الله الجهر بالسوء منه بل العفو ممن ظلم إلا لمن نور الله تعالى بصيرته .

وهي درجة عظيمة ، فإن من فعل شيئا بالعبيد لأجل مولاهم فحق عليه أن يعامله بما عاملهم . انتهى « العقد » وراجع « سهلي » ٥٤ .

وقال سيدي أبو المواهب ﷺ : وقوع بعضهم في بعض المحرمات ليستتر بها عن أهل الزمان يقاس على من لم يجد ما يسيغ به اللقمة إلا الخمر ، قاله الغزالي ﷺ .

قال : وإذا ساغ ذلك لأجل حياة دنيوية فأولى ما يفوت به حياة أخروية ، لا يقال : ارتكابهم فيه يوقع الناس في سوء الظنون لهم وهو حرام ، لأنا نقول : إن من أخلاقهم العفو والصفح وعدم المؤاخذة ، بل هم رحمة بين أظهر العباد .

وقال الشعراني قدس سره : ولو سامح العبد فحق الله تعالى باق من حيث أنه تعدى حدود الله تعالى ، فالإشكال باق .

قال بعض العارفين : ولا مانع من عفو الله تعالى عن ذلك الظن السيئ حيث كان حصوله نشأ من شبهة أوقعت صاحبه فيه « تقريب الأصول » ٧٨١ .

و ذكر في « العقد النفيس » للقطب العارف السيد أحمد المغربي رضي الله عنه : قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبرائيل عليه الصلاة و السلام عن معنى ذلك ، فقال جبريل عليه السلام : حتى أسأل ربي ، فقال تعالى : « أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك وتحسن إلى من أساء إليك » .

وأما قوله تعالى : ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ فليس المراد إعراض غضب ، بل معناه : لا تؤاخذهم بجهلهم ، لأن الإنسان ربما حفر حفرة في علم الله تعالى أنه لا يقع فيها إلا ذلك الحافر لها لكنه جاهل لذلك ، ولو علم لما حفرها ، فهذه حالة الجاهل ، فأذيتهم لك هي عين أذيتهم لأنفسهم ، لكنهم جهلوا ولو عرفوا لما آذوك ، فأعرض عن جهلهم هذا وتخلق بأخلاقنا فإنّا نعرض عمن جهل علينا ، فعسى أن يتوب منه ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

فائتمر صلى الله عليه وسلم لأمر ربه وأعرض عن جهلهم حتى أنه طلب منهم أن يقتصوا منه حقوقهم إن كان لهم عليه حقوق ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس إنما أنا بشر مثلكم ولعله أن يكون قد قرب مني خفوفٌ[١] مِنْ بين أظهركم فمن كنت

« ١ »خفوف : أي حركة وقرب ارتحال . يريد الانذار بموته صلى الله عليه وسلم .

أصبت من عرضه أو من شعره أو من بَشَره[1] أو من ماله شيئا هذا عرض محمد وشعره وبشره وماله فليقم فليقتص ولا يقولن أحد منكم إني أتخوف من محمد العداوة والشحناء ألا وإنهما ليسا من طبيعتي وليسا من خلقي » .

ثم قال الله تعالى : ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أتبع الله تعالى هذه الآية بالآية التي قبلها وذلك أن للشيطان مجالا عند هذه الخلال ، والاستعاذة من الشيطان هي التلفظ بلفظ « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

ومعنى قول النبيﷺ : « وأعوذ بك منك » أن الله تعالى هو الآخذ بناصية إبليس باسمه المضل ، قال الله تعالى : ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ فلا سلطان له على عباد الله تعالى . انتهى « العقد » ١٩٠ .

ومن كلام الشيخ أبو علي الدقاق قدس سره : ومن الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان ، فالفتى من لا خصم له لكمال أخلاقه الحميدة وبعده عن الذميمة .

وقيل : الفتوة أن تكون خصما لنفسك لأجل ربك ، بأن تمنعها عن الميل إلى الشهوات والكسل والبطالات وتحثها على الاستقامة على الطاعات ، لا للخوف والرجاء بل لكمال المحبة والقيام بالعبودية .

ويقال : الفتى من لا يكون خصما لأحد .

وقال بعضهم : الفتى من كسر الصنم ، قال تعالى : ﴿فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ وقال : ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ وصنم كل إنسان نفسه ، فمن خالف نفسه وهواها فهو فتى على الحقيقة .

وقال الحارث بن أسد المحاسبي قدس سره : الفتوة أن تنصف غيرك ولا تنتصف من غيرك ، بل تعطي الحق الذي عليك ولا تطالب غيرك بحقك لزهدك وكمال عدلك وإنصافك .

« ١ » أي جِلده .

وقال النصرآبادي ﵀ : الفتوة الإعراض عن الكونين أي الدنيا والآخرة والاستنكاف منهما بأن يعمل العبد لله تعالى ، فلا يكون له حظ سوى موافقة مولاه والعمل بما يرضاه .

وسئل الإمام أحمد ﵀ عن الفتوة فقال : ترك ما تهوى لما تخشى عواقبه .

وقال سهل بن عبد الله التستري ﵀ : الفتوة اتباع السنة ، وهو ما كان عليه النبي ﷺ . وقد سئلت عائشة ﵂ عن خلقه ﷺ فقالت قوله تعالى : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾

وقال الجنيد ﵀ : الفتوة كف الأذى عن الناس وبذل الندى ، يعني الجود بالموجود من علم أو مال .

وقيل : الفتوة الوفاء بما عليك لله تعالى ولخلقه وحفظ الحدود بأن لا تتعداها .

وقيل : الفتوة أن تكون أعمالك صالحة ولا ترى نفسك فيها بأن تتبرأ من حولك وقوتك وترى أنها من فضل ربك عليك .

وقيل : الفتوة إظهار النعمة وإسرار المحنة ، لأنه تعالى إذا أنعم على عبد بنعمة أحب أن يظهرها ، فإن إظهارها سبب لشكرها ، وإسرار المحنة دليل على الصبر واحتمال الأذى لأنه بإسرارها يسلم من اطلاع الخلق عليها ، ففي ذلك كمال المروة والفتوة . « تقريب الأصول » ٩٩ .

فـــــــائدة مـــهمـة

قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : اعلم أن أوامر الله تعالى فرائض ونوافل ، فالفرض رأس المال وهو أصل التجارة وبه تحصل النجاة ، والنفل هو الربح وبه الفوز بالدرجات .

قال ﷺ : « يقول الله تبارك وتعالى : ما تقرب المتقربون إلي بمثل أداء ما افترضت عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته

كنت . . . إلى آخر الحديث » ، ولن تصل أيها الطالب إلي القيام بأوامر الله تعالى إلا بمراقبة قلبك وجوارحك في لحظاتك وأنفاسك من حين تصبح إلي حين تمسي .

فاعلم أن الله تعالى مطلع على ضميرك ومشرف على ظاهرك وباطنك ومحيط بجميع لحظاتك وخطراتك في جلوتك وخلوتك وسائر سكناتك وحركاتك ، وأنك في مخالطتك وخلواتك متردد بين يديه ، فلا يسكن في الملك والملكوت ساكن ولا يتحرك متحرك إلا وجبار السموات والأرض مطلع عليه ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ويعلم السر وأخفى .

فتأدب أيها المسكين ظاهرا وباطنا بين يدي الله تعالى تأدّب العبد الذليل المذنب في حضرة الملك الجبار القهار .

فاجتهد أن لا يراك مولاك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك ، ولن تقدر على ذلك إلا بأن توزع أوقاتك وترتب أورادك من صباحك إلى مسائك .

فأصغ لما يلقى إليك من أوامر الله تعالى عليك من حين تستيقظ من منامك إلى رجوعك إلى مضجعك . والسلام على من اتبع الهدى .

[هذا آخر ما وجد بخط المؤلف الشيخ الإمام علم المشائخ الأعلام قطب الديار الداغستانية ومركز دائرة الولاية الأحمدية الأستاذ السيد خالد سيف الله من سلالة آل رسول الله ﷺ ورضي عنه وعن مشائخه وخلفائه وعمن اتبعوهم إلى يوم الدين ، ونفعنا به وبآثاره وتآليفه التي هي كهذا المؤلَّف النفيس « كنز المعارف » التي لا بد منها لكل سالك وعارف ، ولو تفحصنا عن جميع ما أشار إلى نقله من الكتب في هذا المؤلف الفريد والجمع المفيد وأتممناه على مقتضى مقصود المؤلف ﷺ لاحتاج إلى مجلد آخر مثل هذا كما قال لي ابن الأستاذ القحي ﷺ مشافهة وفقه الله تعالى ، ولكن لما عز وجود تلكم المؤلفات التي أشار إليها في ديارنا وتفرق ما كان جمعه المؤلف من تلكم النسخ الشريفة الفريدة اقتصرنا على هذا القدر . ففيه كما لا يخفى كفاية لمن تفكر واعتبر .

فالحمد لله الذي أنعم علينا وهدانا إلى دين الإسلام وشرفنا برسوله محمد عليه أفضل الصلاة والسلام والحمد لله بجميع محامده كلها ما علمت منها وما لم أعلم على جميع نعمه كلها ما علمت منها وما لم أعلم عدد خلقه كلهم ما علمت منهم وما لم أعلم . والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده ويدافع نقمه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، حمدا دائما مع خلوده لا منتهى له دون مشيته ، حمدا لا يريد قائله إلا رضاه يا رب لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

وصل اللهم أكمل صلاة وأتمها وأبلغها على السيد الأكرم والسند الأعظم محمد المصطفى وعلى آله وصحبه أهل الصدق والوفا وسلم كذلك ، كلما ذكرك وذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون ، وانفعنا بمعارف أهل الصدق والصفا وإن كنا على موائد كرمهم من المتطفلين حيث أنهم قوم لا يشقى جليسهم .

والحمد لله رب العالمين جعل الله سبحانه وتعالى كل جهدنا في خدمة القوم خالصا لوجهه الكريم ، وجعل هذا المؤلف نافعا لي ولكل من يطالعه من إخوان الدين ، بالنبي الأمين وآله الأكرمين وخلفائه الميامين ، كثر الله أمثالهم في العالمين . والحمد لله رب العالمين على كل حال وفي كل حين .

ونوصي مؤكدا كل من طالع الكتاب ونظر وانتفع به أن يدعو لهذا الكاتب الفقير الضعيف العاجز الذليل ، غفر الله لنا ولمن استغفر لنا ولجميع أهل الإيمان إنه الكريم المنان] .

فهرسة